

جان جاك روسو

إميل أو التربية

ترجمة
عادل زعيتر

الكتاب: إميل أو التربية
الكاتب: جان جاك روسو
ترجمة: عادل زعيتر
الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم - الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ - ٣٥٨٦٧٥٧٦ - ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣



<http://www.bookapa.com> E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

روسو، جان جاك

إميل أو التربية/ جان جاك روسو، ترجمة: عادل زعيتر

- الجيزة - وكالة الصحافة العربية.

٥٢١ ص، ٢١*١٨ سم.

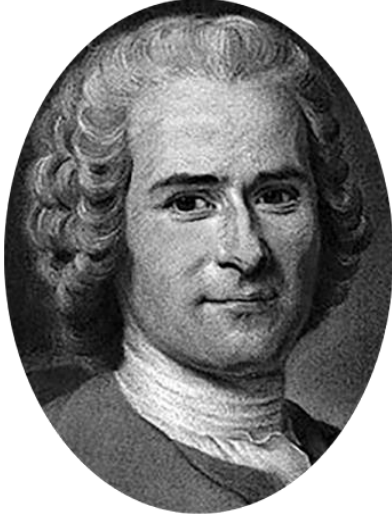
الترقيم الدولي: ٣ - ١٣ - ٦٨٣٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨

أ - العنوان رقم الإيداع: ١٣٨٢٠ / ٢٠٢٠

إميل أو التربية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»





جان جاك روسو

مقدمة المترجم

أقدم ترجمة «إميل أو التريية» لجان جاك رُوسُو.

ذهب ابنُ جنيفَ البائسُ «رُوسُو» إلى باريس سنة ١٧٤١، وكان في التاسعة والعشرين من سنه، وذلك بعد أعوامٍ من الشقاء قضاها متنقلاً بين مُدنٍ وأريافٍ من سويسرة وإيطالية وفرنسة جاداً في كسب عيشه. وفي باريس ينزل بفندق سان كُنتان الحقيق؛ حيث يقع نظره على خادمة الفندق الريفية الساذجة «تريز لوفاسور» التي كان الناس يسخرون بها لبلهتها، ويرقُّ لها «رُوسُو» فيتخذها رفيقةً له عن حُبٍّ وعاطفة، ويغادران الفندق وتدوم حياتهما معاً ستاً وعشرين سنة.

والحقُّ أن تريز كانت كثيرة الغباوة، وكانت لا تُحسن شيئاً من القراءة والكتابة، ومع ذلك كان «رُوسُو» كثير الإعجاب بها، ناظراً إليها بعين الحُبِّ راضياً بجمالها وحسن صوتها، متجاوزاً عن عيوبها وفقرها، مُغضياً عما يفصله عنها من عبقرية ونبوغ، وقد دامت حاله هذه نحوها اثنتي عشرة سنة.

وتغيَّر حُبُّ «تريز» له مع الزمن، وصارت لا تُبالي به ولا تُفكر فيه، وطلبت منه الفراق قبل موته بتسع سنين؛ فقد ولدت له خمسة أولاد، وسلّمهم إلى ملجأ اللقطاء، وذلك من غير أن يترك ما يدلُّ على أصلهم في المستقبل، ويعتذر «رُوسُو» عن ذلك بفقره واضطراره إلى كسب عيشه بكده، وإن كان يهدف في الحقيقة إلى الحياة الحرة الطليقة التي لا تشغلُ باله بؤلد، وفي ذلك من الابتعاد عن الإنسانية والمروءة والشعور بالواجب ما لا يخفى، وقد أراد «رُوسُو» أن يكفّر عن هذه الخطيئة التي لا تُغتفر بوضع كتاب «إميل أو التريية» العظيم الشأن، وقد ذكر رُوسُو في «اعترافاته» أنه صرّح رسمياً بزواجه بـ «تريز» بعد معاشرته إياها ربع قرن، وقد صرفها بذلك عن طلبها الفراق، فظلت رفيقةً له إلى أن مات، وإن لازمها الغمُّ والألم حُرناً على أطفالها أولئك.

ذهب «رُوسُو» إلى باريس كما قلنا، وفي هذه المدينة قضى حياةً عسيرة؛ فقد كان يعيَّش من استساخ القطع الموسيقية فيها مع قبوله في رِداه المجتمع الراقى، ثمَّ يذهب إلى البندقية سكرتيراً لسفير فرنسة، ثمَّ يعود إلى باريس ويرتبط بأواصر الصداقة في ديدرو الذي كان من رجال الشعب أيضاً، فيقضي حياةً شاقّةً مثله في باريس.

وبينا كان ذلك حال رُوسُو في سنة ١٧٤٩، وقد كان ابناً للسابع والثلاثين من عُمره، نشرت أكاديمية ديجون إعلان مسابقة في موضوع: «هل أدَّى تقدُّم العلوم والفنون إلى إفساد الأخلاق أو إلى إصلاحها؟» وكان صديقه ديدرو في سجن فسنن وقتئذٍ بسبب «رسالته عن الغمّي»، فاطَّلع على ذلك الإعلان حين ذهابه إلى زيارته، فعنَّ له وهو في الطريق أن يشترك في

المسابقة، ويكلم ديدرو في الأمر فيشير عليه بالتزام جانب إفساد العلوم والفنون للأخلاق لما في هذا من طرافة وتوجيه نظر، ولما ينطوي التزام جانب إصلاحهما للأخلاق من ابتدال.

ويعمل «روسو» ذهنه ويجمع قواه، ويكتب في الموضوع، ويقيم الدليل على أن العلوم والفنون أفسدت الأخلاق وأوجبت شقاء الإنسان، ويدعي أن الترف والحضارة من نتائج العلوم والفنون، وأنهما علة فساد الأخلاق؛ فقال بالرجوع إلى الحال الطبيعية.

وكتب «روسو» رسالته تلك بقلم حازٍ وعاطفة جارفة، فجاءت مبتكرة في مجتمع بلغ الغاية من المدنية، مخالفة لما عليه الجمهور؛ فنال «روسو» بها الجائزة، ويُعد «روسو» في رسالته تلك كالمحامي الذي يلتزم طرفاً واحداً في المرافعات، فيصعب تصديق جديته في تمثيل دوره؛ ولذلك تتجلى رسالته تلك في كونها مفتاحاً لنشوء «روسو» الذهني، وفي كونها مرحلة مؤدية إلى «العقد الاجتماعي» و«إميل أو التربية».

ويذيع صيت «روسو» بتلك الرسالة بعد خمول ذكر، ويُعجب بها كتّاب ويحمل عليها آخرون، ويوجب «روسو» عن النقد الموجّه إليه بأنه لم يُرد الرجوع بالناس إلى الوراء، وإنما أراد العود إلى الفضائل والابتعاد عن الترف والرذائل وسيادة المساواة بين الأنام.

وفي سنة ١٧٥٣ أعلنت أكاديمية ديجون مسابقة أخرى عنوانها: «ما أصل التفاوت بين الناس، وهل أجازه القانون الطبيعي؟» ويشترك «روسو» في المسابقة، ولكنه لم ينل الجائزة لشدة حملته على الاستبداد، وفي هذه الرسالة يستحسن «روسو» حالاً من الهمجية متوسطة بين الحال الطبيعية والحال الاجتماعية، يحافظ الناس بها على البساطة ومنافع الطبيعة، وتسود فيها المساواة.

وفي سنة ١٧٥٥ نشر روسو رسالة «الاقتصاد السياسي»، فرأى أن الدولة هيئة تهدف إلى سعادة جميع أعضائها، وجعل جميع وجهات نظره في الجباية تابعة لهذا الهدف، وذهب إلى أن الكماليات وحدها هي ما يجب أن يكون تابعا للضرائب، وإلى وجوب فرض ضرائب فادحة على أمور الترف، وإلى عدم وضع ضريبة على الحاجيات كالقمح والملح.

ومن مطالعة كتاب «الاقتصاد السياسي» يرى أن روسو كاذب يبلغ به مرحلة التضج في آرائه السياسية، فكان هذا مُبشراً بكتاب «العقد الاجتماعي» وكتاب «إميل أو التربية» اللذين ظهرا سنة ١٧٦٢.

حمل روسو «في العقد الاجتماعي» على الرّق والتفاوت، وناضل عن حقوق الإنسان، وقال: إن هدف كل نظام اجتماعي وسياسي هو حفظ حقوق كل فرد، وإن الشعب وحده هو

صاحب السيادة، وكان يهدف إلى النظام الجمهوري، فحقق هذا النظام بالثورة الفرنسية بعد ثلاثين سنة حين أتخذ «العقد الاجتماعي» إنجيل هذه الثورة.

ولم يقل «روسو» بحكومات زمنه لمنافاتها للطبيعة، ويقوم مذهبه على كون الإنسان صالحاً بطبيعته، محباً للعدل والنظام، فأفسده المجتمع وجعله بائساً، والمجتمع سيئ لأنه لا يساوي بين الناس والمنافع، والتملك جائز لأنه مقتطع من المملك الشائع الذي يجب أن يكون خاصاً بالإنسانية وحدها، فيجب أن يُقضى على المجتمع إذن، وأن يُرجع إلى الطبيعة، وهناك يتفق الناس بعقد اجتماعي على إقامة مجتمع يرضى به الجميع، فيقيمون بذلك حكومة تمنح الجميع ذات الحقوق، فتقوم سيادة الشعب مقام سيادة المملك، وتُنظم الثروة والتربية والديانة.

وفي كتاب «إميل» ظهر «روسو» الفيلسوف المرثي بجانب «روسو» الفيلسوف الاجتماعي، ويُعد «روسو» بهذا الكتاب مؤسس التربية الحديثة؛ ففيه ألقى دروساً ممتعة في تربية الأطفال، ومذاهب التربية والفضيلة والحياة الزوجية، وقد نال كتاب «إميل» من بُعد الصيت ما أصبح معه مُعَوَّل علماء التربية، وما عُدَّ معه إنجيل التعليم والتربية، حتى إن الفيلسوف الألماني الكبير «كنت» تأثر به كثيراً، و«كنت» حينما أخذ يطلعه أبي مغادرة منزله إلى نزته اليومية قبل الفراغ من قراءته، و«كنت» من تعلم تمسكه بنزته تلك وعدم عدوله عنها إلا لأمر جَلَل.

لقد عانى «روسو» من ألوان الشقاء ما يعاني أتعس الناس، وقد أتاح له بؤسه حياة زاخرة بالتجربة والاختبار، ولكن عبقرياً مثل «روسو» إذا ما جرب واختبر نَفَذَ في الحقائق نفوذاً لا يتيسر لغيره من البشر إلا نادراً، ويكون العبقرى أبلغ تمييزاً إذا ما اقترن تقليبه الأمور بما يتفق له من اطلاع واسع على كُتُب غيره؛ فبذلك يمزج ما جرب بما قرأ مزجاً عجبياً، فيبرز ما تم له على شكل كامل الجدة والإبداع، وهذا ما حدث لـ «روسو».

أبصر «روسو» أن الإنسان يُولد صالحاً خالصاً من المساوى، فلا يحوله عن صلاحه إلا الإنسان الذي يعيش معه والبيئة التي تكتفه، فقام هدفه على إنقاذ الإنسان من بؤرته، وهذا لا يكون إلا بالعمل الذي يحلُّ به معضلات الحياة، فيشعر بالحياة التي يقضيها كاملة، وهذا لا يتم إلا بالتربية.

ففي «إميل أو التربية» أوضح «روسو» كيف يُنشأ الولد تنشئة طبيعية منذ نعومة أظفاره حتى العشرين من سنه، فيصير صالحاً للزواج، وهو قد وقف أجزاء الكتاب الأربعة الأولى على هذا الغرض، كما وقف الجزء الخامس منه على تنشئة الزوجة التي تصلح أن تكون شريكاً له في الحياة فيسعدُ بها وتسعدُ به.

وان ما انطوى عليه كتاب «إميل» من آراءٍ عمليةٍ ونظريةٍ انتهى إليها «روسو» باختباره أثرَ به في عالمِ التربية مثل تأثيره في الثورة الفرنسية، وعالمِ السياسة بكتابه «العقد الاجتماعي»، وفي كتاب «إميل» ثار «روسو» على مناهج التعليم القديمة وأساليب التربية العتيقة، وبشّر بمذهبٍ جديدٍ في التهذيب تبييراً عُذَّ به رائدُ التربية الحديثة وقائدها، فَعَدَا «إميل» مناراً لمن يريد أن يكون مُربياً ومصدراً لا ينضبُ له معينٌ لمن يرغب أن يضربَ بسهمٍ وافرٍ في ميدان التهذيب والتعليم على اختلاف مراحلهما، ابتدائيةً كانت هذه المراحل أو ثانويةً أو عالية، لا فرقَ في ذلك بين شرق الأرض وغربها.

ولا تُقَلِّ إنَّ الكتابَ وُضع منذ نحو قرنين، وهو خاصٌّ بالزَّمن الذي أُلِّفَ فيه؛ ف «روسو» من العباقرة الذين ينفذون بصائرهم حُجُبَ المستقبل، وكتابُ «إميل» أُلِّفَ للأجيال التي تأتي بعد مؤلِّفه، وسيبقى معتمداً لدى جهابذة التعليم والتربية، يُعولون عليه ويهتدون به في طُرُقهم التعليمية ومذاهبهم التهذيبية، وليس من المبالغة أن يُقال إنه خيرُ كتابٍ ظهر حتى الآن في موضوعه، وإن علماء التربية في العصر الحاضر مدينون له في أساليبهم، وإن التربية الحديثة من آثاره.

حقاً، لم يُقَمَّ كتابٌ في التربية مقامَ «إميل» لإمام التربية والاجتماع «روسو»، وقد تُرجم هذا السِّفرُ الخالدُ الجليلُ غيرَ مرَّةٍ إلى معظم اللغات الأوروبية منذ وضعه، وأصل الكتاب صعبُ العبارة كثيرُ الإبهام والغموض في مجموعته، فأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ لإزالة كثيرٍ من تعقيدته في ترجمتي هذه مع التزامي حَرْفِيَةَ النَّقْلِ، كما أرجو أن يقتطف العرب من فوائده التعليمية والتهذيبية التي لا حصر لها مثلما اقتطفَتْ أممُ العالمِ كُلُّها.

عادل زعيتر

نابلس

مقدمة المؤلف

بُدئ بهذه المجموعة من التأمُّلات والملاحظات الخالية من الترتيب، ومن التسق تقريباً، إرضاءً لأمّ صالحةٍ تُعرف أن تفكّر، ولم أُرِد في البداية غيرَ وضع رسالةٍ مؤلّفة من بضع صفحات، ويجتذبي موضوعي على الرّغم مني فتعدو هذه الرّسالة، من غير أن يُحسّن، مؤلّفاً بلغ الضخامة بما يشتمل عليه لا ريب، ولكن بالغ الصّغر بالنسبة إلى المادة التي يتناولها، وقد ترددتُ زمنًا طويلاً في نشره، وقد جعلني أشعر حين العمل فيه غالباً، بأنه لا يكفي أن تُكتب كرايس قليلة لإمكان تأليف كتاب، وأرى بعد جهودٍ غير مُجديةٍ بذلتها في سبيل تقويمه أنّ الواجب يقضي بتقديمه كما هو، مُقدّراً أنّ من المهمّ تحويل الانتباه العام إلى هذه النّاحية، وأنّ أفكاري إذا ما كانت فاسدةً لم أضع وقتي تماماً عند إبرازي ما يوجب أفكاراً صالحة، ولا ينبغي للرّجل الذي يُلقي من عزلته إلى الجمهور أوراقه بلا مادحٍ أو مكافحٍ أن يخشى قبول أغاليطه من غير تمحيصٍ عند زلّله، حتى عند عدم علمه بما يُفكّر فيها أو يُقال عنها.

وسأتكلم قليلاً عن أهمية التّربية الصّالحة، ولن أقف عند إثباتي كون التّربية المعتادة فاسدة؛ فقد قام بهذا ألف رجلٍ قبلي، ولا أرغب مُطلقاً في شحن كتابي بأمرٍ يُعرفها جميعُ النَّاس، وكلُّ ما الأخط هو أنه لم يخرج منذ أمدٍ بعيدٍ غيرُ صراخٍ ضدّ المنهاج القائم، وذلك من غير أن يُعنّ لأحدٍ اقتراح ما هو أصلح، وبنزغ أدبٍ عصرنا وعرفانه إلى الهدم أكثر من البناء بمراحل، ولبتزم جانب اللوم بلهجة أستاذ، ولا بدّ في الاقتراح من اتخاذ سبيلٍ آخر أقلّ مطابقتاً لزهو الفيلسوف، ولا يزال منسباً فنّ تكوين الرّجال الذي هو أوّل جميع المنافع مع كثرة الكتب التي ليس لها غرضٌ غير النّفع العام كما يُقال، وبقي موضوعي تامّ الجِدّة بعد كتاب لوك، وأخشى كثيراً أن يبقى هكذا بعد كتابي أيضاً.

ولا تُعرف الطفولة مُطلقاً، وإذا ما اتّبع فاسدُ الأفكار عنها وقع في الضّلال كما أوغل في السّير، ويستمسك أحكمُ الكُتّاب بما يجب أن يعلمه الرّجال غير ناظرين إلى ما يُمكن الأولاد أن يتعلموه، وهم يبحثون عن الرّجل في الولد دائماً غير مُفكّرين في أمر الولد قبل أن يكون رجلاً، وهذه الدّراسة أكثر ما أعكف عليه، حتى إذا ما كان جميع منهاجي وهمياً زائفاً أمكنت الاستفادة من ملاحظاتي دائماً، أجلّ، قد أكون سيئ البصر كثيراً فيما يجب أن يُصنّع، ولكنني أعتقد أنني أبصرتُ جيّداً ما يجب أن يُتناول من موضوع، وابدءوا إذن بدراسة تلاميذكم أحسن من قبل؛ وذلك لأنكم لا تعرفونهم مُطلقاً لا ريب، وإذا ما قرأتم هذا الكتاب بهذه النظرة حقاً لم تكن مطالعتكم إياه خاليةً من فائدةٍ لكم كما أعتقد.

وإذا نُظِرَ إلى ما يُدعى بالقسم المنهاجي، الذي ليس سوى سيرِ الطَّبِيعَةِ، وَجَدَ أَنَّهُ أَكْثَرُ ما يَتِيهِ به القارئ، ولا مراء في أنني سأهاجم من هذه النَّاحِيَةِ، وقد يكون هذا على حق، وسيُظَنُّ أن رؤى حالمٍ تُطالِعُ أَكْثَرَ من مطالعة رسالة في التَّربِيَةِ، وما يُصنَعُ؟ لم أَكْتُبْ حَوْلَ أَفْكارِ الآخَرِينَ، بل عن أَفْكارِي، ولا أرى كِبِيَةَ الرِّجَالِ مُطْلَقًا، وهذا ما ألام عليه منذ زمنٍ طويل، ولكن هل أستطيع أن أَمْنَحَ نفسي عَيْنَيْنِ أُخْرِيَيْنِ أو أن أنتجِلَ أَفْكارًا أُخْرَى؟ كَلَّا، وإِنَّمَا أُسْتَطِيعُ أَلَّا ألتزم آرائي وألَّا أعتقد أنني أَكْثَرُ حِكْمَةً من جميع النَّاسِ، وإِنَّمَا أُسْتَطِيعُ أن أرتاب من شعوري لا أن أغيِّره، وهذا كُلُّ ما أستطيع فعله، وهذا ما أفعله، وإذا حدث أحيانًا أن اتخذتُ لهجَةً جازمة، فليس هذا لثُغْرَضٍ على القارئ، وإِنَّمَا لأخاطبه كما أفكّر، ولم أعرض في قالب من الشك ما لا أشكُّ فيه من ناحيتي مطلقًا؟ أقول ما يَمُرُّ في ذهني تمامًا.

وإني إذ أعرضُ إحساسي طليقًا، وَقَلَمًا أقصد به إلزامًا، أضيفُ إليه ما لديَّ من أسبابٍ دائمةً، وذلك حتى تُوزَنَ هذه الأسبابُ فيحكم في أمري، ولكنني وإن كنت لا أريد الإصرار على الدفاع عن أَفْكارِي، لا أجدني أقلَّ التزامًا لِعرضها؛ وذلك لأنَّ المبادئ التي أكون بها على رأيٍ مخالفٍ لرأي الآخَرِينَ ليست خَلِيَّةً، وهي من المبادئ التي يجب أن يُعرف ما تنطوي عليه من صحةٍ وفساد، والتي تُوجب سعادةَ الجنس البشري أو شقاءه.

وما فتى النَّاسُ يقولون لي: «اقترح ما يُمكن فعله.» وهذا كما لو كان يُقال لي: «اقترح فعلًا ما يُفعل، أو اقترح، على الأقل، خيرًا يَرُدُّجُ والشَّرُّ القائم.» فمشروعٌ مثل هذا يكون في بعض الموضوعات أعرق في الوهم من مشروعاتي بدرجات؛ وذلك لأنَّ الخير يفسد في هذا الازدواج، ولا يُشقى الشر، وكنتُ أفضلُّ أتباعَ المنهاج القائم في كلِّ شيءٍ على انتحالِ منهاجِ نصفِ صالح، لِمَا يكون به قليلٌ تناقضٍ في الرِّجُلِ، ولِمَا لا يستطيع الرِّجُلُ أن يهدف به إلى غرضين متباينين في وقتٍ واحد. ويا أيها الآباء والأمهات، إنَّ ما يمكنُ فعله هو ما تريدون فعله، أَفَعَلَيْ أن أعتد على إرادتكم؟

وفي كل نوعٍ من المشاريع يُنظر إلى أمرين بعين الاعتبار: يُنظر إلى صلاح المشروع المُطلَقِ أَوَّلًا، وسهولة التنفيذ ثانيًا.

وفي الأمر الأَوَّلِ يكفي لإمكان قبول المشروع، وسهولة فعله في حد ذاته، أن يكون ما فيه من صلاحٍ ضِمنَ طبيعة الشيء، فهنا مثلًا يجب أن تكون التَّربِيَةُ المقترحة مناسبةً للإنسان ملائمةً للقلب البشري.

ويتوقَّف الأمر الثاني على ما في بعض الأحوال من صلاتٍ واقعة، من صلاتٍ عارضةٍ للشيء، من صلاتٍ غيرٍ ضروريةٍ مطلقاً من حيث النتيجة، فيمكن أن تتغير إلى ما لا نهاية له، وهكذا فإن تربيةً ما يُمكن أن يُعمل بها في سويسرة وألاً تُتخذ في فرنسا، وإنَّ تربيةً أخرى يمكن أن تكون صالحةً للبرجوازية، وإنَّ تربيةً غيرها تصلح للأشراف. وتتوقَّف سهولة التنفيذ - تقريباً - على ألفٍ حالٍ يتعدَّر تعيينها بغير تطبيقٍ خاصٍّ للمحتاج على هذا البلد أو ذلك، وعلى هذه الطبقة أو تلك، والواقع أنَّ جميع هذه التطبيقات غير جوهريّة في موضوعي، فلا تدخل ضمن مشروعِي، ويستطيع آخرون أن يُعنوا بها إذا ما أرادوا، وذلك من حيث البلاد أو الدّولة التي يضعها كلُّ واحدٍ منهم نُصبَ عينه، وبكفيني في كل مكان يُولد فيه رجالٌ أن يُصنع منهم ما أفتتح، فإذا صنَع منهم ما أفتتح صنَع أفضلٌ ما يكون لهم ولغيرهم، وإذا لم أفِ بهذا العهدِ كان هذا خطأً مني لا رَبِّب، ولكنني إذا ما وقَّيت به كان من الخطأ أيضاً أن أطلبَ بأكثرٍ من هذا؛ وذلك لأنني لا أعدُّ بغير هذا.

الجزء الأول

كلُّ شيءٍ يصنعه خالقُ البرايا حسن، وكلُّ شيءٍ يفسد بين يدي الإنسان؛ فالإنسانُ يُلزم أرضًا يانماء غلاتٍ أرضٍ أخرى، والإنسان يُلزم شجرةً بحملِ ثمارِ شجرةٍ أخرى، وهو يخلط بين الأقاليم والعناصر والفصول، وهو يبتتر قلبه وفرسه وعبده، وهو يُخرّب كلَّ شيءٍ ويشوّهه، وهو يحب القبح والمُسوخ، وهو لا يريد شيئًا كما صنعتُه الطبيعة، حتى الإنسان، فيجب ترويضه لنفسه كالفرس الرُّكوب، ويجب أن يُكَيّف على نهجه كشجرةٍ في حديقته.

ولولا ذلك لسار كلُّ شيءٍ إلى ما هو أسوأ أيضًا، فلا يريد نوعنا أن يُصوّرَ نصفَ تصوير، والإنسانُ في الحال التي تكون عليها الأمورُ بعدئذ، يبدو أكثر من الجميع شؤها إذا ما ترك وشأنه بين الآخرين؛ فالمُبْتَسراتُ*^١ والسلطَةُ والضرورةُ والقُدوةُ وجميعُ التُّنم الاجتماعية التي نَعْرِقُ فيها نَحْنُقُ الطبيعةَ فيه من غير أن تَضَعُ شيئًا في مكانها، وهي تَعْدُو فيه كالشَّجيرة التي تُنبتُها المصادفةُ في وَسَطِ طريق، فلا يلبث المارُّون أن يَهْلِكُوها بصدمها من كلِّ جهةٍ وحَنُوها نَحُوَ كلِّ ناحية.

فإليك أوجّه حديثي أيتها الأمُّ الحنونُ البصيرة،^٢ التي تَعْرِفُ أن تبعد عن الشارع، وأن تصون الشجيرةَ الناشئة من صَدَمِ الآراءِ البشرية! وتعهدي الغرسَ الحديثَ ورؤيه قبل أن يموت،

★ Préjugés.

^٢ التربية الأولى هي أكثر ما يهم - ولا جدال - في كون هذه التربية الأولى خاصة بالنساء، ولو أراد خالق الطبيعة أن تكون خاصة بالرجال لأنعم عليهم باللين لتغذية الأولاد، وفي كل وقت إذن خاطبوا النساء في رسائلكم عن التربية تفضيلاً؛ وذلك لأنهن فضلاً عن كونهن مُلزمات بالسهر عليهم عن كَثَبِ أكثر من الرجال، وفضلاً عن كونهن أكثر عملاً فيهن، يكثرن للنجاح أكثر من أكثرات الرجال بمراحل ما وجد معظم الأرامل تحت رحمة أولادهن تقريباً، وما جعلهن هؤلاء الأولاد يشعرون شعوراً قوياً في الخير والشر بنتيجة الأسلوب الذي نشأهم عليه، وإذ إن القوانين كثيرة العناية بالأموال قليلة العناية بالأشخاص دائماً، وذلك عن هدف إلى الأمن لا إلى الفضيلة، فإنها لا تمنح الأمهات سلطاناً كافياً، ومع ذلك فإنهن أثبتت حالاً من الآباء وأصعب واجباً، وإن رعايتهن أشد خطراً في حسن انتظام الأسرة، وإنهن أشد تعلقاً بالأولاد على العموم. أجل، توجد أحوال يُعذر فيها الولد نوعاً ما إذا ما قصّر في احترام أبيه، ولكن الولد في أي حال إذا كان من فساد الطبع ما يقصر معه في احترام أمه التي حملته في بطنها وغدته بلبنها وغفلت عن نفسها في سنواتٍ للعناية به؛ وجب الإسراع في خنق هذا الشقي كغولٍ لا يستحق الحياة. وتدل الأمهات أولادهن كما يُقال، وهن يخطئن في هذا لا ريب، ولكنهن أقل خطأ منكم الذين يفسدونهم. وتريد الأم أن يكون ولدها سعيداً منذ الآن، وهي على حق، وهي إذا ما أخطأت في الوسائل وجب تنويرها، وما عند الآباء من طمع ويخل واستبداد وبصيرة زائفة وإهمال وغلظة أشد شؤماً على الأولاد مائة مرة من حنان الأمهات الأعمى، ومع ذلك يجب إيضاح المعنى الذي أطلقه على اسم الأم، وهذا ما أصنعه فيما بعد.

فستكون ثماره مدارَ سعادتك ذات يوم، وأقيمي مُبَكَّرَةً نطاقاً حول روح ابنك. أجل، يمكن آخر أن يرسم الدائرة، ولكنه يجب عليكِ وحدكِ أن تضعي الحاجز.³

وتُكَيِّفُ النباتات بالزراعة، وتُكَيِّفُ النَّاسَ بالتَّربية، وإذا كان الإنسان يُولد طويلاً قوياً فإنه لا فائدة له من قامته وقوته حتى يتعلَّم الانتفاع بهما، وهما يكونان وبالأعلى عليه عند منع الآخرين من الإسراع إلى مساعدته،⁴ وهو إذا ما وُكِّلَ إلى نفسه مات بؤساً قبل أن يَعْرِفَ احتياجاته، ويُرثَى لحال الطفولة، ولا يُصَزَّرُ أن النوع البشري يهلك إذا لم يبدأ الإنسان بأن يكون طفلاً.

نحن نُولدُ ضعفاءً، ونحن محتاجون إلى القوة، ونحن إذ نُولدُ خالين من كلِّ هذا فإننا نحتاج إلى العون، ونحن إذ نُولدُ بُلْهًا فإننا نحتاج إلى الإدراك، وكلُّ ما ليس لدينا عند ولادتنا، وكلُّ ما نحتاج إليه، إذ كان عظيمًا فإننا نناله بالتَّربية.

وتأتينا هذه التَّربية من الطبيعة أو من النَّاسِ أو من الأشياء، ونشوءُ خصائصنا وأعضائنا نشوءًا باطنياً هو تربية الطبيعة، وما نتعلَّمه من أعمال هذا النشوء هو تربية النَّاسِ، وما نكتسبه بتجربتنا الخاصة مما يحيط بنا هو تربية الأشياء.

إذن، صُوِّرَ كلُّ واحدٍ مِنَّا بثلاثة أنواع من المُعلِّمين، والتلميذ الذي يتباين فيه مختلف دروسهم يُعدُّ سعي التهذيب، ولا يكون مطابقاً لنفسه مطلقاً، والتلميذ الذي تقع فيه كلُّها على عين النقاط وتهدف إلى نفس الأغراض يسير وحدَه نحو غايته ويعيش وفق هذا، ويُعدُّ حَسَنَ التهذيب.

والواقع أن تربية الطبيعة، من بين هذه التربيات المختلفة الثلاث، لا تتوقف علينا مطلقاً، وأن تربية الأشياء لا تتوقَّف علينا إلا من بعض النواحي، وأن تربية النَّاسِ وحدَها هي التي نهيمن عليها حقاً، ومع ذلك فإن سيطرتنا عليها ليست سوى افتراض، وإلا فمن ذا الذي يستطيع أن يأمل توجيه أقوال جميع من يحيطون بالولد وأفعالهم توجيهاً تاماً؟

وعندما تُعدُّ التَّربية فنّاً يكون نجاحها إذن متعديراً تقريباً، ما دام التضافر الضروري لنجاحها لا يتوقف على أحد، وكلُّ ما يمكن بذله من جُهدٍ هو أن يُقْتَرَبَ من الهدف بعض الاقتراب، ولكن لا بُدَّ من الحظِّ لبلوغه.

³ لقد وَكَّدَ لي أن مسيو فورمه اعتقدَ أنني أردت الكلام عن والدتي هنا، فذكر هذا في كتاب؛ فهذا استهزاء شديد بي أو بمسيو فورمه.

⁴ بما أنه مشابه لهم ظاهراً، ولكن من غير كلام، ومن غير أفكار يُعبَّر عنها بالكلام، فإنه لا يستطيع إطلاعهم على احتياجاته إلى مساعدتهم، ولا شيء فيه يوحي إليهم باحتياجاته هذا.

وما هذا الهدف؟ هذا هو هدف الطبيعة، وهذا ما يُثبِت، وإلى التَّربية التي لا سلطان لنا عليها يجب أن تُوجَّه التريبتان الأخريان ما دام تضافر التريبات الثلاث أمرًا ضروريًا لكمالها، ولكن قد يكون لكلمة الطبيعة هذه معنًى بالغ الإبهام، فلنعمل على تعيينه هنا.

والطبيعة ليست سوى العادة^٥ كما يُقال لنا، وما معنى هذا؟ ألا يوجد من العادات ما يُؤلفُ كَرهًا فلا يُطفئُ الطبيعةَ مطلقًا؟ ومن هذا عادة النباتات التي تُحمَل على اتجاهٍ أفقي، والنبات إذا أُطلق حافظٌ على الميل الذي أكرهه على اتخاذه، غير أن التُّسَع لم يُغيَّر قطُّ اتجاهه الأول لهذا السبب، والنبات إذا داوم على النمو عاد تمُدُّده عموديًا، وقُلْ مثل هذا عن ميول النَّاس؛ فالإنسان إذا ما بقي على الحال عينه أمكن احتفاظه بميوله الناشئة عن العادة التي هي أقلُّ الأمور طبيعةً عندنا، ولكن الوضع إذا ما تبدَّل انقطعت العادة وعاد الطبيعي. والتَّربية ليست غير عادةٍ في الحقيقة، وأولاً يوجد من النَّاس مَنْ يَنسون تربيتهم ويخسرونها، وآخرون مَنْ يحتفظون بها كما هو الواقع؟ وما مصدر هذا الاختلاف؟ إذا ما وجب قصرُ اسم الطبيعة على العادات الملائمة للطبيعة أمكن اتقاء هذه البلبلة.

ونحن نُولد ذوي إحساس، ولا ننفكُّ بعد ولادتنا نأثر على وجودٍ مختلفةٍ بالأشياء التي تحيط بنا، فإذا ما صرنا شاعرين بإحساساتنا وطنَّت نفوسنا على طلب الأشياء التي تؤدي إليها أو تجنيها، وذلك وفق كونها مستحبةً أو مستكرهةً أولاً، ثم وفق ما نجد من مطابقة أو تباين بيننا وبين هذه الأشياء، وأخيراً وفق الحكم الذي نحمله عن ذلك حول فكرة السعادة أو الكمال التي يوحي العقل بها إلينا، وتتسع هذه الأحوال وتثبت كلاً ما غدونا أكثر إحساساً ومعرفة، ولكنها إذ تُفَسِّرُ بعاداتنا فإنها تُفَسِّدُ بمُبْتَسراتنا زهاء، وهي قيل هذا الفساد تكون ما أسميه الطبيعة فينا.

ويجب ردُّ كل شيء إلى هذه الأحوال الابتدائية إذن، وهذا ممكن لو كانت تربيانا الثلاث مختلفةً فقط، ولكن ما العمل إذا كانت متناقضة، إذا كان الرجل يُربى من أجل الآخرين بدلاً من أجل نفسه؟ فهناك يكون الاتفاق مستحيلاً، وإذ لا بُدُّ من مكافحة الطبيعة أو التُّظْم الاجتماعية فلا بُدُّ من الخيار بين صنْع رجلٍ أو مواطن؛ وذلك لأنه لا يمكن صنع هذا وذاك معاً.

وكلُّ مجتمعٍ جزئيٍّ يميل إلى الانفصال عن المجتمع الكبير إذا كان ضيقاً حسن الاتحاد،

^٥ يؤكِّد لنا مسيو فورمه أن هذا لا يُقال تماماً، ومع ذلك يلوح لي أن هذا قيل في الشطر الآتي الذي أعزم على الجواب عنه، وهو: ليست الطبيعة غير العادة إذا ما صدقتني.

ويعرض مسيو فورمه - الذي لا يريد ازدهاء أمثاله - متواضعاً، قياس دماغه على أنه قياس الإدراك البشري.

وكلُّ موطنٍ قاسٍ على الأجنبي؛ فالأجنبي ليسوا سوى أناس، ولا يُعدُّون شيئاً في نظره،^٦ ولا مفترٍّ من هذا العيب، ولكنه واهٍ، والمهمُّ أن يكون المرء صالحاً نحو مَنْ يعيش معهم، وكان الإسبارطي طامعاً بخيلاً ظالماً في الخارج، ولكن النزاهة والإنصاف والاتفاق كانت سائداً داخل أسواره. واحدروا أولئك المواطنين العالميين الذين يُغربون في كتبهم بحثاً عن الواجبات التي يزدرون القيام بها فيما حولهم، فمثل هؤلاء الفلاسفة يحبُّون التتر ليعفوا من حُبِّ جيرانهم.

ويعيش الإنسان الطبيعيُّ من أجل نفسه، وهو وحدةٌ عددية، وهو كلُّ مطلق، فلا علاقة له بغير نفسه أو شبيهه، وليس الإنسان المدنيُّ غيرَ وحدةٍ كسرية تتوقف على المخرج وتكون قيمتها في علاقتها بالكلِّ؛ أي بالهيئة الاجتماعية. والنظم الاجتماعية الصالحة هي التي تعرف أحسن من سواها إفساد الإنسان وتجريده من كيانه المطلق لتمنحه كياناً نسبياً وذاتيةً ضمنَ الوحدة المشتركة، فيعود كلُّ فردٍ لا يعتقد معه أنه واحد، بل جزءٌ من الوحدة، ويعود معه غير مُحسنٍ في غير المجموع. ولم يكن المواطن في رومة كايوس أو لوسيوس، بل كان رومانياً، حتى إنه كان يُحبُّ الوطن أكثر من نفسه، وكان ريغولوس يدعي أنه قرطاجيٌّ ما صار مالاً سادته، وهو كأجنبي كان يرفضُ تبوءَ مقعده في سنات رومة، فوجب أن يأمره قرطاجيٌّ بذلك، وقد استشاط غيظاً عندما أريد إنقاذ حياته، وقد فاز فعاد ظافراً ليموت شراً موتة، ويلوخ لي أنه لا يوجد شبه كبير بين ريغولوس ومن نعرف من الرجال.

ويُقَدِّم الإسبارطي بیداريت نفسه ليقبل في مجلس الثلاثمائة فيرفض، وينصرف مسروراً كثيراً لوجود ثلاثمائة رجل في إسبارطة أفضل منه، وأفرضه مخلصاً فيما أظهر، ويوجد ما يحيل على اعتقاد الأمر كهذا، فذاك هو المواطن.

وكان لامرأةٍ إسبارطيةٍ خمسة أبناء في الجيش، وكانت تنتظر أبناء عن المعركة، ويغد إيلوتي،^٧ وتساله عنها وهي ترتجف: أبناؤك الخمسة قُبلوا.

— هل سألتك عن هذا أيها العبد الوغد؟

— لقد انتصرنا.

^٦ وهكذا فإن حروب الجمهوريات أقسى من حروب الملكيات، ولكن حرب الملوك إذا كانت معتدلةً فإن سلمهم هائلة؛ فالأفضل أن يكون المرء عدواً لهم من أن يكون من رعاياهم.

^٧ * الإيلوتي: اسم كان يُطلق على العبد في إسبارطة.

وتُهرَع الأُمُّ إلى المعبد لتحمَد الآلهة؛ فهذه هي المواطنة.

ومن يَودُّ أن يحتفظ في النظام المدني بصدارة مشاعر الطبيعة فإنه لا يَعْرِف ما يريد؛ فهو إذ يناقض نفسه دائماً مترجِّحاً بين ميوله وواجباته، فإنه لن يكون رجلاً ولا مواطناً، ولن يكون صالحاً لنفسه ولا للآخرين، وإنما يكون واحداً من رجال أيماننا، وإنما يكون فرنسيّاً، إنكليزيّاً، بُرجوازيّاً، ولن يكون هذا شيئاً.

وعلى من يَودُّ أن يكون شيئاً، على من يَودُّ أن يكون هو إياه، واحداً دائماً، أن يفعل كما يقول، أن يقرّر السبيل الذي يسلكه، أن يتخذ حازماً وأن يتبعه دائماً، وأنتظرُ دلالتني على نادرة الزمان هذا لأعرف هل هو رجلٌ أو مواطن، أو لأعرف ما يصنع ليكون هذا وذاك معاً. وينشأ عن هذه الأغراض المتباينة شكلان للنظام مختلفان، أحدهما عامٌ مشتركٌ والآخر خاصٌ أهلي.

وإذا أردتم أن تعرفوا ما التّربية العامة فاقربوا جمهورية أفلاطون؛ فهي ليست كتاباً في السياسة مطلقاً، خلافاً لمن يحكّمون في الكتب بعنوانها، وهي أجمل رسالةٍ وضعت عن التّربية. وإذا أريد بعثُ أو هامٍ إلى البلد ذُكرَ نظام أفلاطون، ولو لم يصنع ليكُونُ غير تدوين نظامه كتابةً لوجدته أشدَّ وهماً؛ فأفلاطون لم يفعل غير تصفية قلب الإنسان، وقد أفسده ليكُونُ. وعاد النظام العام غير موجود، وعاد لا يُمكن أن يكون موجوداً؛ وذلك لأنه عاد لا يُمكن وجود مواطنين حيث عاد لا يمكن وجود وطن، ويجب محو كلمتي الوطن والمواطن من اللغات الحديثة، وأعرف سبب هذا، ولكني لا أريد قوله؛ فليس هذا من موضوعي مطلقاً. ولا أعدُّ نظاماً عاماً تلك المؤسسات المضحكة التي تُسمّى كليات،^٨ وكذلك لا أعدُّ التّربية الدارجة منه؛ وذلك لأن هذه التّربية إذ تنزع إلى غايتين متباينتين، لا تُدركهما، وهي لا تصلح لغير صنّع رجالٍ مُرائين، مُظهريين دائماً، أنهم يعيشون في سبيل الآخرين مع أنهم لا يفكّرون في غير أنفسهم. والواقع أن هذه البيانات، إذ كانت شائعة بين جميع الناس، لا تخدع أحداً، وهي لا تعدو كونها جهوداً ضائعة.

^٨ يوجد في كثير من المدارس، ولا سيّما جامعة باريس، أساتذةٌ أحبهم وأقدّروهم كثيراً، فاعتقد قدرتهم البالغة على تربية الناشئة لو لم يُحملوا على أتباع العادة القائمة، وأستهض أحدهم لنشر مشروع الإصلاح الذي فكّر فيه، وقد يحاول أخيراً أن يُشفى من الداء بأن يرى أن له دواء.

وينشأ عن هذه المتناقضات ما نشعر به في أنفسنا بلا انقطاع، ونحن إذ نقاد الطبيعة وبالرجال على طرقٍ متباينة، ونحن إذ كُنَّا مُلْزَمِينَ بأن نُورِّعَ بين هذه العوامل المختلفة، فإننا نتبع فيها مُرْكَبًا لا يَسُوقنا إلى إحدى الغايتين أو إلى الأخرى، ونحن إذ كُنَّا مكافحين مذبذبين في جميع مجرى حياتنا، فإننا نختمها من غير أن نستطيع مطابقة أنفسنا، ومن غير أن نكون نافعِين لأنفسنا وللآخرين.

وأخيرًا تبقى التَّربِيَّةُ الأَهْلِيَّةُ أو تربية الطبيعة، ولكن ما يكون أمرُ رجلٍ نُشِئَ لنفسه فقط نحو الآخرين؟ لو أمكنَ جمعُ الغرضين المقترحين في واحد بأن تُزال متناقضات الرجل لأزِيلَ عائقٌ كبيرٌ من سعادته، ويجب للحكم في الرجل أن يُرى كامل التكوين، فنلاحظ ميوله ويُبصر تقدُّمه ويُتبع سيره، والخلاصةُ أن من الواجب معرفة الإنسان الطبيعي، وأعتقد أنه يُسارُ بضع خُطواتٍ في هذه الأبحاث بعد قراءة هذا الكتاب.

وما علينا أن نفعل لتكوين هذا الرجل النادر؟ كثيرًا، لا ريب، أي أن يُحال دون صنع شيء، وإذا ما وجبت معاكسة الريح وجب الرُّوْعُ يُمنَى ويُسرى، ولكن البحر إذا كان هائجًا وأريد البقاء في المكان وجب إلقاء المرساة. واحذرُ أيها الرُّبَّانُ الشَّاب، أن يَمْلَصَ قَلْسُكَ^٩ * أو أن تُجَرَّ مرساتك وأن يزوج مركبك قبل أن تعرف ذلك.

وفي النظام الاجتماعي؛ حيث جميع المواضع مُعَيَّنة، يجب أن يُربى الرجل لموضعه، فإذا خرج من موضعه فردٌ نُشِئَ لهذا الموضع عاد لا يكون صالحًا لشيء. ولا تكون التَّربِيَّةُ نافعةً إلا عند مطابقة الطالع لإلهام الأبوين، وتكون التَّربِيَّةُ ضارَّةً للطالب في جميع الأحوال الأخرى ولو بسبب ما تمنحه من مُبْتَسِرَات. وفي مصر؛ حيث كان الابن مُلْزَمًا بانتحال حال أبيه، كان للتربية غرضٌ ثابتٌ على الأقل. وأمَّا عندنا؛ حيث المراتب وحدها قائمة، وحيث النَّاسُ يُعَيَّرُونَهَا بلا انقطاع، فإنه لا أحدٌ يَعْرِفُ أنه يعمل ضد ابنه بتنشئته على مرتبته.

والنَّاسُ في النظام الطبيعي إذ كانوا كلُّهم متساوين، فإن حال الإنسان هو إلهامهم المشترك؛ فمَنْ تُحَسِّنَ تربيته لا يستطيع أن يصنع سوءًا فيما يُرَدُّ إليه، ولا يهمني كثيرًا أن يميل تلميذي إلى الجيش أو الكنيسة أو الفقه، والطبيعة تدعوه إلى الحياة البشرية قبل إلهام الأبوين، والحياة هي المهنة التي أريد أن أعلمه إياها، وهو إذا ما تخرَّج عليَّ لن يكون كما أضمن قاضيًا ولا جنديًا ولا قسيسًا، بل يكون رجلًا أولًا، وكلُّ ما يجب أن يكونه الرجل يتعلَّمه عند الاقتضاء

^٩ * القلس: جبل للسفينة ضخم.

بسرعة كما يكون عليه، ومن العيب أن يحمله النصب على تغيير موضعه؛ فهو يكون في مكانه دائماً؛ «فقد علمتُ بأمرِك أيها النصب وحملت على اعتقالك، وقد سددت عليك جميع المسالك التي تستطيع أن تزلقَ منها إليَّ.»

وحالُ الإنسان هو ما يقوم عليه بحشنا، وعندِي أن الذي يكون بيننا أحسنَ علمًا باحتمال خير هذه الحياة وشرّها يكون أحسنَ تنشئة؛ ومن ثمَّ تقوم التربية الحقيقية على التمارين أكثر مما على التعاليم، ونبدأ بتعليم أنفسنا بأن نبدأ بالحياة، وتبدأ تربيتنا معنا، ومُرضعنا هي مُعلمتنا الأولى. وكان لكلمة التربية عند القدماء معنىً غيرُ الذي عُدنا لا نُطلقه عليها؛ فهي تعني الغذاء، ويقول فارون: «إن القابلة تتلقَى، والمُرضع تُنشئُ، والمهذبُ يفتقُ الذهن، والأستاذ يعلم.» وهكذا تكون التربية والتهذيب والتعليم ثلاثة أمور مختلفة في موضوعها اختلافَ الحاضنة والمُهذب والأستاذ، غير أن هذا التفريق غير مُبتغى، فلا ينبغي للولد أن يتبع غير دليل واحد.

ويجب إذن تعميم مقاصدنا، وأن يرى الرجل المجرد في تلميذنا، الرجل المُعرض لجميع عوارض الحياة البشرية، وإذا كان النَّاس يُولدون مرتبطين في أرض بلد، وإذا كان عينُ الفصل يدوم في جميع السَّنة، وإذا كان كلُّ واحدٍ يبلغ من تعلُّقه بنصبه ما لا يقدر معه على تغييره مطلقًا، فإن العادة القائمة تكون صالحة من بعض النواحي، وإذا إن الولد الذي يُنشأ على حرفته لا يخرج منها مطلقًا فإنه لا يُمكن أن يكون غرضةً لمحاذير حرفة أخرى، ولكنه إذا ما نُظر إلى تقلُّب الأمور البشرية، وإلى روح هذا العصر المضطربة القلقة التي تقلُّب كل شيء في كل جيل، فهل من الممكن أن يُصوَّر منهاجٌ أخرقٌ من تنشئة ولد لا يخرج به من غرفته مطلقًا، ويجب معه أن يُحاطَ بخدمة دائماً؟ فإذا ما وطئَ هذا الشقيُّ الأرضَ خطوة، أو نزل درجة، هلك، فليس هذا تعليمه احتمال الألم، بل تدريبه على الشعور به.

ولا يُفكِّر الإنسان في غير حفظ ولده، وليس هذا كافيًا، فيجب تعليمه حفظ نفسه رجلاً، واحتمال ضربات القدر، ومجاورة العسر واليسر، والعيش في جليل أيسلاندة وعلى صخرة مالطة المحرقة. ومن العيب أن تتخذوا من الاحتياطات ما لا يموت معه، فلا بُدَّ من موته مع ذلك، وإذا لم يكن موته نتيجة عنايةكم فلأن هذه العناية أخطأت غرضها، والمسألة هي أن يُعلم ما يُحال به دون موته أقلَّ من جعله يحيا، وليست الحياة تنفُّسًا، بل سيرًا، بل استعمالًا لأعضائنا وحواسنا وخصائصنا وجميع أجزاء كياننا استعمالًا نشعر معه بوجودنا. وليس الرجل الذي عاش أكثر من غيره هو الأكثر عدلًا للسنين، بل الذي شعر بالحياة أكثر من سواه، وقد يُدفن الرجل ابناً للمائة مع عدّه ميتًا منذ

ولادته، وكان أصلح له أن يكون قد مات شاباً لو عاش حتى هذا الدور على الأقل.

وتقوم جميع حكمتنا على مُبْتَسِرَاتٍ دَئِيَّةٍ، وليست جميع عاداتنا غير تسخير وُعُسْرٍ وقَسْرٍ، ويُولد الرجل المدني ويحيا ويموت في العبودية، وذلك أنه يُخاط في قِمَاطٍ عندما يُولَد، وأنه يُسَمَّرُ في تابوت إذا مات، وأنه يُقَيَّدُ بِنُظْمِنَا ما حافظ على وجهٍ بشريٍّ.

ويقال إن كثيراً من القوابل يزعمون أنهم يدلُّكهن رءوس الأطفال المولودين حديثاً يمنحتها شكلاً أكثر ملاءمة فيُسَمَّحُ بذلك! ولذا تكون رءوسنا سيئة التصوير على الوجه الذي يُكوِّنها به صانع وجودنا، فيجب تكييفها من قِبَلِ القوابل خارجاً ومن قِبَلِ الفلاسفة داخلاً؛ ولذا يكون الكرايب أسعد حالاً منها.

«لم يكِدِ الولدُ يخرج من بطنِ أمه، ولم يكِدْ يتمتَّع بحريَّةِ الحركة ويُمَدُّ أعضائه، حتى يُعطى قيوداً جديدة؛ فهو يُقَمِّطُ ويُضَجُّ مُثَبَّتِ الرَّأْسِ مُمَدَّدِ السَّاقَيْنِ، مُدَلِّي الدَّرَاعَيْنِ بجانبِ الجسمِ، وهو يُحاطُ بالبياضاتِ والعصائبِ من كلِّ نوعٍ إحاطةً لا تسمَحُ له بتغييرِ وضعه، وهو يكونُ سعيداً إذا لم يُشَدَّ شَدًّا يمنعه من التنفُّسِ، وإذا حَدَثَ من الحذرِ ما يُضَجُّ معه على الجانبِ حتى يُمكنَ السائلُ الذي يجري من فيه أن يسقُطَ من تلقاءِ نفسه! وذلك لأنه لا يكونُ لديه من حريَّةِ إدارةِ الرأسِ ما يسهِّلُ به جريانه.»

ويحتاج المولودُ حديثاً إلى مَدِّ أعضائه وتحريكها إنقاداً لها من الخَدْرِ الذي يستمرُّ زمناً طويلاً عن جمعها ضمنَ لِفَافَةٍ. أجل، إنها تُمدد، ولكنها تُمنع من الحركة، حتى إن الرأس يُقَيَّدُ بِكَمَّةٍ*^{١٠} فيلوح أنه يُخشى ظهوره ذا حياة.

وهكذا فإن اندفاع أجزاء البدن الداخلية التي تميل إلى النموَّ يجدُ عائناً منيعاً للحركات الضرورية، ولا ينفكُّ الولدُ يأتي جهوداً غير مُجدية تستنفد قواه أو تؤخِّر تقدُّمها، وقد كان في السِّلَى*^{١١} أقلَّ ضيقاً وُعُسْرًا وضعطاً مما ضمنَ بياضاته، ولا أرى ماذا ربح من ولادته.

ولا يؤدِّي الجمود والقَسْر اللذان تُمسك أعضاء الولد بهما إلى غير عَوَقِ دَوْرَةِ الدم والأخلاق، ومنع الولد من التقوي والنمو، وإلى غير الإضرار ببنيته. ويكون النَّاسُ في جميع الأمكنة التي لا تُتَّخَذُ فيها هذه الاحتياطات الطائشة مطلقاً، طوالاً أقوياء حسني التناسب، وتكون البلاد التي يُقَمَطُ فيها الأولاد بلا دأ

*^{١٠} الكَمَّة: القَلَنْسُوة المَدْوَرَة.

*^{١١} السِّلَى: جِلْدَة يكون ضمنها الولد في بطن أمه.

يكثر فيها الحدب والعرج والفالج^{١٢} والقفد^{١٣} وجميع أنواع الشوه من الناس، ويأدر إلى تشويه الأجسام بضغطها خشية أن تشوه بالحركات الطليقة، وهي تجعل شلاً ليحال دون خيلها!^{١٤}*

ألا يؤثر القسر البالغ هذه الدرجة من القسوة في مزاجهم، كما يؤثر في بُنيتهم؟ يقوم إحساسهم الأول على شعور بالألم والغم، ولا يجدون غير عوائق في جميع ما يحتاجون إليه من حركات، وهم إذ يكونون أشقى من الجاني الموثق بالقيود، فإنهم يبذلون جهوداً على غير جدوى، فيغضبون ويصرخون، ألا ترون أن أصواتهم الأولى دموع؟ أعتقد هذا جيداً، وذلك أنكم تصدونهم منذ ولادتهم، والقيود هي أولى العطايا التي يتلقونها منكم، والأوجاع هي أول ما يتلون من معاملات، والصوت هو كل ما عندهم من أمرٍ حُر، فكيف لا يستعملونه إعراباً عن توجعهم؟ أجل، إنهم يصرخون من الألم الذي توجهونه فيهم، ولو قُبِدتم مثلهم لكان صراخكم أشد من صراخهم.

وما مصدرُ هذه العادة المخالفة للصواب والمضادة للطبيعة؟ لم تُرد الأمهات إرضاع أولادهن منذ ازدرائهن واجهن الأول، فوجب تفويض أمرهم إلى نساء مرتزقات يجدن أنفسهن أمهات لأولادٍ غرباء غير مرتبطات فيهم بروابط الطبيعة، فلا يحاولن غير دفع التعب عنهن، وتقضي الضرورة بتعهد ولد طليق، ولكن هذا الولد إذا ما كان مُوثقاً جيداً ألقى في زاوية من غير أن يُألى بعوبله، وما أهمية هلاك الرضيع أو بقاءه عليلًا في بقية أيامه ما فقد الدليل على إهمال المُرضع، وما دام الرضيع لا يكسر ساقه أو ذراعه؟ تُحفظ أعضاؤه على حسب بدنه، وتُبرأ المُرضع مهما وقع.

وهل تعرف هؤلاء الأمهات الناعمات، اللاتي تخلصن من أولادهن فِرحاتٍ مُسلماتٍ أنفسهن إلى ملاهي المدينة، ما يُعامل به الولد في قِمَاطه في القرية؟ إذا ما طرأ على المُرضع أقلُّ عملٍ عُلق الولد في مسمارٍ كصُرّة ثياب، وبيننا تقوم المُرضيع بأعمالها من غير استعجال يبقى الطفلُ التّعيس مصلوباً هكذا. وكانت وجوه جميع من وُجدوا في هذا الوضع بنفسجية اللون، وإذا كان الصدرُ المضغوط على هذا الوجه لا يدعُ الدم يسري فإن الدم يصعد في الرأس، ويُعدُّ الولد المتوجع هادئاً جداً ما خلا من القدرة على الصراخ، وأجهل مقدار الساعات التي يستطيع الولد أن يبقى بها في هذه الحال من غير أن يفقد حياته، ولكنني أشكُّ في دوام هذا زمنًا طويلاً، وأرى أن هذا من أعظم منافع القِمَاط.

ويُزعمُ أن الأولاد إذا كانوا طلقاءً أمكن أن يتخذوا أوضاعاً سيئة، وأن ينتحلوا من الحركات

^{١٢} * الفالج: جمع الأفلج، وهو الذي تباعد ما بين قدميه أو يديه.

^{١٣} * القفد: جمع الأقفد، وهو المسترخي العنق.

^{١٤} * الخيل: فساد الأعضاء.

ما يمكن أن يؤدي حسن تكوين أعضائهم؛ فهذا هو برهان فارغ من براهين حكمتنا الفاسدة التي لا تؤيدها أية تجربة كانت، ولا يرى بين جمع الأولاد الذين هم في أمم أرسن منّا، فيرضعون مع حرية جامعة لأعضائهم، واحداً يضُرُّ نفسه أو يخيلها، وهم لا يمكن أن يمنحوا حركاتهم من القوة ما يجعلها خطيرة، وهم إذا ما اتخذوا وضعاً عنيماً أندرهم الألم بضرورة تغييره حالاً.

ولمّا يُعْنُ لنا أن نضع في القمط صغار كلابنا وسنانيرنا، فهل يُرى أنه أصابها سوءٌ من هذا الإهمال؟ أوافق على أن الأولاد أكثر ثقلاً، ولكنهم أشدُّ صغفاً بهذه النسبة، وكيف يخيلون إذا ما كادوا يتحركون؟ إذا ما ألقوا على ظهورهم ماتوا على هذا الوضع، كالسُّلحفاة، عاجزين عن التقلُّب مطلقاً.

وإذ لم يرضَ النساء بانقطاعهن عن إرضاع أولادهن، فإنه ينقطعن عن الرغبة في عمل هذا، والنتيجة أمرٌ طبيعي، وذلك أن الأمومة إذ كانت عبئاً ثقيلاً فإنه يوجد في الحال من الوسائل ما يتخلَّصُ به منها تماماً، ويُراد إتيان عملٍ غير مُجدِّ استثناءً له دائماً، فيحوّل التَّوَقُّان إلى تكبير النوع بما يضُرُّه، فإذا أُضيفت هذه العادة إلى أسباب نقص السكان الأخرى، أنبتنا بمصير أوروبية القريب. ولن يُعتمَّ ما توجهه من العلوم والفنون والفلسفة والطبائع أن يجعل منها بَلَقَعاً، فتعمرُ بالضواري، ولا تكون بهذا قد استبدلتُ سكاناً بسكاناً كثيراً.

وقد لاحظتُ في بعض الأحيان حيلةً صُغريات النساء اللاتي يتظاهرن بالرغبة في إرضاع أولادهن، وذلك أنهن يفعلن ما يُحمَلن به على العدول عن هذا المراد بتدخل الأزواج والأطباء،^{١٥} ولا سيَّما الأمهات، وذلك أن الزوج الذي يكون من الجرأة ما يوافق معه على إرضاع الأم لولدها يَهْلِك، وأن من يودُّ أن يتخلَّى عنها يُعدُّ قاتلاً؛ فعلى الأزواج الفطن أن يُضخُّوا بالحبِّ الأبوي من أجل السلام، ومن حسن الحظِّ أن يوجد في الأرياف نساءً أكثر عفافاً من نساءكم! وأحسن حظاً من ذلك أن يكون الوقت الذي يظفر به هؤلاء غير مُعدِّ لآخرين سواكم.

ولا مراء في واجب النساء، ولكنه يُجادل، عند ازدرائهن لهذا الواجب، في هل يتساوى لدى الأولاد أن يُرضعوا من لبنهن أو من لبنٍ آخر؛ فهذه مسألة يقضي فيها الأطباء وفق رغبة النساء، وأمّا أنا فأرى أنه يجدر بالولد أن يمتصَّ لبنَ مُرضعٍ ذات صحة، لا لبنَ أمِّ فاسدة، إذا كان عليه أن يخشى شراً جديداً من عين الدَّم الذي صوَّر منه.

^{١٥} ما انفك تحالف النساء والأطباء يبدو لي أدعى غرائب باريس إلى الضحك؛ فبالنساء ينال الأطباء شهرتهم، وبالأطباء يركب النساء هواهن، وبهذا يسهل إدراك ما يجب أن يتصف به الطبيب بباريس من براءة ليصير مشهوراً.

ولكن هل يجب أن يُنظر إلى المسألة من الناحية البدنية فقط؟ وهل الولد أقل احتياجاً إلى عناية أم مما إلى ثديها؟ يُمكن نساءً أُخرى وحيواناتٍ أيضاً، أن تعطيه اللبن الذي تبخل به عليه، ولكن لا شيء يقوم مقام عطف الأم، وتُعَدُّ الأم التي أرضعت الولد من ثدي أخرى بدلاً من ثديها أمّا فاسدة؛ فكيف تكون مُرضِعاً صالحة؟ يمكنها أن تكون هكذا، ولكن على مهل، ويجب أن تُغيّر العادة الطبيعية، ويكون لدى الولد السيئ الرعاية من الوقت ما يَهْلِك فيه مائة مرة قبل أن يكون لدى مُرضِعه حناناً الأم.

وينشأ عن هذا الخير نفسه محذورٌ يكفي وحده لأن ينزع من كلِّ امرأة جرأة إرضاع ولدها من قِبَل امرأة أخرى، وذلك هو اقتسام حقوق الأم، وإن شئت فقلْ نقلَ هذه الحقوق، وذلك أن ترى المرأة ولدها يُحبُّ امرأةً أخرى كما يحبُّها وأكثر مما يحبُّها، وذلك أن تشعُر بأن العطفَ الذي يحفظه لأمِّه الخاصة هو لطف، وبأن العطفَ الذي يحمله لأمِّه المنتحلَّة هو واجب، وذلك ألا ألزم بحبِّ ابنٍ حيث وجدتُ عناية أم؟

ويقوم الوجه الذي يُعالج به هذا المحذور على تلقين الأولاد ازدراءً مراضعهم بأن يُعاملن كخدمات حقيقيات، فإذا ما أكملن خدمتهن استخلص الولد، أو سرَّحت المُرْضِع، وتُرَدُّ المُرْضِع من رؤية الرضيع بسوء استقبالها، فإذا مضت بضغ سنين عاد لا يراها وعاد لا يَعْرِفها، وتغرُّ نفسها الأم التي تعتقد أنها تقوم مقامها وتتلافى إهمالها بغلظتها؛ فهي تُعوِّد الرضيع الفاسد إنكار الجميل بدلاً من أن تجعل منه ابناً عطوفاً، وهي تعلم أن يزدي ذات يوم تلك التي ولدته كازدرائه التي أرضعته من لبنها.

وما أكثر ما أُوكِّد هذه النقطة لو كانت أقلَّ تشبيهاً في تكرار موضوعات مفيدة على غير جدوى! يتوقف هذا على أمور أكثر مما يُظن، أوتريدون ردَّ كلِّ واحدٍ إلى واجباته الأولى؟ ابدءوا بالأمهات، فستحارون من التحولات التي تُخديثونها، وكلُّ يأتي من هذا الفساد الأوَّل بالتعاقب، ويفسد جميع النظام الخلقي، وينطفئ الطبيعي في جميع الأفتدة، ويتخذ داخل البيوت شكلاً أقلَّ حياة، ويعود منظر الأسرة الناشئة المؤثِّر غير جامع بين الزوجين، غيرَ فارض رعاية للغرباء، ويقلُّ احترام الأم التي لا يرى أولادها، ولا يكون في الأسر مقررٌ مطلقاً، وتعود العادة غيرَ مقوية لروابط الدم، ويعود الآباء والأمهات والأولاد والإخوة والأخوات غيرَ موجودين، ولا يكاد الجميع يتعاشرون، فكيف يتحاثون؟ ويعود كلُّ واحدٍ لا يفكر في غير نفسه، ومتى عاد البيت لا يكون غير مكانٍ كتيبٍ للعزلة وجب البحث عن المسرة في مكان آخر.

ولكن لتفضّل الأمهات يارضاع أولادهن، وهنالك تصلح الأخلاق من تلقاء نفسها، وتنتبه

مشاعر الطبيعة في القلوب، وتُعمّر الدولة ثانية، وتجمع هذه النقطة الأولى، هذه النقطة الوحيدة، كل شيء. فجاذبية الحياة المنزلية هي أحسن تزيينٍ للعب، ويغدو ضجيج الأولاد الذي يُظنُّ أنه مُزعجٌ أمرًا مستحبًا، وهو يجعل الأب والأم أكثر لزومًا، ويجعل أحدهما أكثر قيمةً لدى الآخر، ويشدُّ الرابطة الزوجية بينهما، ومتى كانت الأسرة حيّة ذات نشاطٍ صارت رعاية المنزل أعزَّ عملٍ تقوم به المرأة وأحلى لهوٍ يتمتع به الزوج، وهكذا ينشأ من تقويم سوء واحدٍ كهذا إصلاحٌ عامٌّ حالًا، فلا تلبث الطبيعة أن تستردَّ جميع حقوقها، ومتى عاد النساء يكنّ أمهاتٍ مرةً لم يُعتم الرجال أن يكونوا آباءً وأزواجًا.

كلامٌ فارغٌ! لا يُردُّ حتى سأمٌ ملاذِّ العالم إلى تلك مطلقًا؛ فقد انقطع النساء عن كونهن أمهات، وعُدن لا يكنّ هكذا، وصرن لا يُردن هذا، ومتى أُرذنه لم يكذن يقدرن عليه، واليوم إذا قامت العادة المعاكسة ناهض كلُّ منهن معارضةً جميع اللاتي يقتربن منها متحالفاتٍ ضدّ مثالٍ لم يُعطه بعضهن ولم يرغب الأخريات في اتّباعه.

ومع ذلك يوجد أحيانًا فتيات ذوات صلاحٍ طبيعي، يجزؤون، من هذه الناحية، على اقتحام ما لهوى جنسهنّ وضوائه من سلطان، فيقمن عن إقدامٍ نقي، بهذا الواجب البالغ الحلاوة الذي تفرضه الطبيعة عليهن، وهل يمكن أن يزيد عددن عن جاذبية المحاسن المقدّرة لمن يقبلن عليها؟ أستند إلى نتائج ناشئة عن أبسط استدلال، وإلى ملاحظاتٍ لم أرَ تكذيبًا لها قط، فأبشّر هؤلاء الأمهات الفاضلات بولعٍ مكينٍ ثابتٍ من قبل أزواجهن، وبعطفٍ بنويٍّ حقيقيٍّ من قبل أولادهن، وبتقديرٍ واحترامٍ من قبل الجمهور، وبنفاسٍ سعيدٍ بلا مكروهٍ ولا سوءٍ عاقبة، وبصحةٍ قويةٍ متينة، ثمّ بنعمةٍ رؤيتهنّ بناتهنّ يقتدين بهنّ ذات يوم، فيوردنهنّ قدوةً لبناتٍ أخريات.

لا ولد، لا أم؛ فالواجباتُ بينهما متبادلة، وإذا ما تمّ القيامُ بها من طرفٍ قيامًا سيئًا أهملها الطرفُ الآخر، ويجب أن يحترم الولد أمّه قبل أن يعرف وجوب هذا، وإذا لم يقو حنان الدم بالعادة وبالعناية خمد في السنين الأولى ومات القلب قبل أن يُولد، وهكذا نخزج عن الطبيعة منذ الخطوات الأولى.

وكذلك يُخرج منها عن طريقٍ معاكس، وذلك عندما تُفْرِط الأم في العناية بدلًا من إهمالها، وذلك عندما تجعل من ولدها معبودًا لها، وذلك عندما تبُلغ من زيادة ضعفه وإنمائه ما تخول معه دون شعوره به، وذلك أنها إذ ترجو إنقاذَه من سنن الطبيعة تُبَعْدُ عنه ما شقَّ من التجارب، غير مُفكّرةٍ في مقدار ما تجمّع من حوادثٍ وأخطارٍ تقع على رأسه في المستقبل في

مقابل معاسِرٍ قليلةٍ تقيه منها لوقتٍ قصيرٍ، وغير مُفكِّرةٍ في مقدار ما تنطوي عليه من حذرٍ جافٍ إطالةً ضعف الطفولة تحت متاعب إنسانٍ نامٍ. وتقول القصة إن تبتيس أرادت جعلَ ابنها غير قابلٍ للجرح، فغطسته في ماء ستيكس، وهذا الرمُزُ رائعٌ واضحٌ، وعكس هذا ما يصنع الأمهات الجافيات اللاتي أتكلم عنهن؛ فهن إذ يغمُرن أولادهن في الترف يُعدِّدنهن للألم، وهن يفتحن مسامُهن لكلِّ ضرر لا يفوتهن أن يذهبوا فريسته عندما يكبرون.

ولاحظوا الطبيعة، وأتبعوا الطريق التي ترسمها لكم، فهي تُمرن الأولاد دائماً، وهي تقوي مزاجهم بمحنٍ من كلِّ نوع، وهي تُعلِّمهم ما الألم وما التعب باكرًا، وتؤدي الأسنان التي تطلع إلى الحُنى فيهم، ويؤدي المَعصُ الحادُّ إلى تشنجات فيهم، ويختنقون بالسعال الطويل، وتؤديهم الديدان، وتفسد الأخلاط دمههم، وتنتج فيه حمائر شتى فتوجب بثورًا خطيرة، ويُعدُّ دورُ الطفولة دورَ المرض والخطر تقريبًا، ويهلك نصفُ الأولاد قبل بلوغهم الثامنة من سنهم، ومتى تمت التجارب اكتسب الولدُ قُوَى، ومتى استطاع الولد أن ينتفع بالحياة كان مبدؤها أكثر ضمانًا.

هذه هي قاعدة الطبيعة، فلم تعاكسونها؟ ألا ترون أنكم بتفكيركم في إصلاحها تقضون على عملها وتحولون دون فعل عنايتها؟ وعندكم أن ما يُصنَع في الخارج مماثلاً لما تصنع في الداخل ينطوي على مضاعفة الخطر، وأن اجتنابها ينطوي على العكس؛ أي على إزاحة الخطر، وتدلُّ التجربة على أن نسبة موت الأولاد الذين يُششون تنشئة رفاةٍ أعظم من نسبة موت غيرهم، ويكون الخطر في استعمال قواهم أقل من مداراتها، على ألا يُجاوز معدل طاقتها، فمرنّوهم إذن على الإصابات التي سيعانونها يومًا ما، وعودوا أجسامهم احتمالَ تقلبات الفصول والجواء والعناصر، والصبر على الجوع والعطش والتعب، واغطسوهم في ماء ستيكس، وبلّغى الجسم ما يُراد من عادةٍ بلا خطرٍ قبل أن يكتسب عادته، ولكن الجسم إذا ما نال صلابته صار كل تغييرٍ فيه أمرًا خطرًا؛ فالولد يُطيق من التحولات أكثر مما يطيق الرجل، وذلك أن ألياف الولد إذ كانت لينّة مرنةً فإنها تكتسب ما تُعطاه من ثني بلا جهد، وأن ألياف الرجل إذ كانت أشدَّ تصلبًا فإنها لا تُغيّر الشني الذي اكتسبته إلا بعنف؛ ولذا يُمكن جعل الولد عُصبيًا من غير أن تُعرض للخطر حياته وصحته، حتى إنه لو وُجدَ مثلُ هذا الخطر وجب ألا يُؤبه له، وبما أن هذه الأخطار ملازمة للحياة البشرية أفلا يوحّد ما هو أفضل من مواجهتها في وقتٍ توجب فيه أقل ما يمكن من ضرر؟

ويصبح الولدُ أكثرَ قيمةً كلما تقدّم في السن، وذلك أنه يُضاف إلى قيمة شخصٍ قيمةُ العناية التي مُنحها، ويُضاف إلى ضياع حياته ما فيه من شعورٍ بالموت؛ ففي المستقبل على

الخصوص إذن يجب أن يُفكَّر عند السَّهر على سلامته، وضدَّ أمراض الشباب ما يجب تسليحه قبل وصوله إليه. فإذا كان ثمن الحياة يزيد على السَّن التي تصبح فيها نافعةً فما أشدَّ الحماقة في وقايته من بعض أمراض الطفولة زيادةً لهذه الأمراض في سنِّ الرشد! وهل هذه هي دروس المُعلِّم؟ فُدر على الإنسان أن يألَم في جميع الأزمنة، حتى إن العناية بسلامته مرتبطةً في الألم، ومن سعادته أنه لا يَعْرِف في طفولته غير الأمراض البدنية، هذه الأمراض التي هي أقلُّ من الأخرى قسوةً وألمًا، والتي يندُر أن تدفعنا إلى ترك الحياة! فالإنسان لا يقتل نفسه نتيجة لآلام النقرس مطلقًا، ولا يوجد غير آلام النفس ما يؤدي إلى اليأس، ونحن نتوجَّع لنصيب الطفولة، ونصينًا هو ما يجب أن نتوجَّع له، فأعظمُ أمراضنا تصدُر عنَّا.

والولد إذا ما وُلِدَ صاح، وتمرُّ طفولته الأولى في البكاء، والولد يُهزَّز أو يلاطف تارةً ليسكن، ويهدد أو يضرب تارةً أخرى ليسكت، ونحن إمَّا أن نفعل ما يروقُه، وإمَّا أن نطالبه بما يروقه، وإمَّا أن نخضع لأهوائه، وإمَّا أن نخضعه لأهوائنا، ولا وَسَط؛ أي إمَّا أن يُلقي أوامر، وإمَّا أن يتلقَّى أوامر. وهكذا فإن أفكاره الأولى أفكارٌ سيطرةٍ أو أفكارٌ عبودية، والولد يأمر قبل أن يَعْرِف الكلام، والولد يُطيع قبل أن يستطيع العمل، والولد يجازي أحيانًا قبل أن يُمكنه معرفة ذنوبه، وإن شئت فقلَّ قبل أن يقدر على اقترافها. وهكذا فإنه يُصَبُّ في قلبه الفتى من الإحساسات باكراً، ما يُعزى إلى الطبيعة فيما بعد، وإنه يتوجَّع من كونه شريراً بعد أن بُدِل جهدٌ في عمله على هذه الحال.

وهكذا يَقْضِي الولدُ ستَّ سنين أو سبع سنين بين أيدي النساء اللاتي هنَّ ضحيةٌ هوانن وهواه، والولد بعد أن يُعلِّم هذا وذاك؛ أي بعد أن تُشحن ذاكرته بكلماتٍ لا يستطيع فهمها، أو بأمرٍ ليست صالحه له قطعاً، والولد بعد أن يُطفأ الطبيعي فيه بشهواتٍ مُحدثة، يُوضَع هذا الموجود المصنوع بين يدي مُعلِّم يُتِمُّ إنماء البذور المصنوعة التي يجدها مُكوَّنةً فيه سابقاً، فيعلِّمه كلَّ شيءٍ خلا معرفة نفسه، خلا الانتفاع بنفسه، خلا عِلْم السلوك ونبيل السعادة. وأخيراً، عندما يُلقَى في العالم هذا الولد العبد والطاغية، والمملوء عِلْمًا والمُجرَّد من الإدراك، والضعيف جسماً وروحاً، دالًّا على عجزه وزهوه وجميع عيوبه، يُوجبُ رثاءً لبؤس النَّاسِ وفسادهم، ونحن على خطأٍ في هذا؛ فذاك رجلٌ أهواننا، ويكون رجلٌ الطبيعة على خلافٍ ذاك.

أوتريدون إذن أن يُحافظ على شكِّله الأصلي؟ حافظوا على هذا الشكل منذ ولادته، فإذا جاء إلى الدنيا فاقبضوا عليه، ولا تتركوه حتى يُصبح رجلاً، ولن تنجحوا بغير هذا مطلقاً. وكما أن المُرضع الحقيقية هي الأم، فإن المُعلِّم الحقيقي هو الأب، وليتفقا في نظامٍ واجباتهما كما في

منهاجهما، وليتضافرا على هذا؛ فهو يكون أفضل تنشئة على يد أبٍ عاقلٍ محدودٍ مما على يد أمهٍ مُعلِّمي العالم؛ وذلك لأن قيام الغيرة مقام التبوغ أحسن من قيام التبوغ مقام الغيرة.

ولكن الأشغال والوظائف والواجبات ... أه! الواجبات! واجب الأب آخر الواجبات لا ريب! لا نعجب من استخفافه بتثنية الولد بعد أن نرى استخفاف زوجته بإرضاع هذا الذي هو ثمرة قرانها. لا توجد صورة أدعى إلى الفتون من صورة الأسرة، ولكن خطأ ناقصاً يشوه جميع الخطوط الأخرى، وإذا كانت الأم من قلة الصحة ما لا تكون معه مرضعاً؛ فإن الأب من كثرة الأعمال ما لا يكون معه مُعلِّماً. ويجد الأولاد البعداء الموزعون في المدارس الداخلية والأديار والكلبات حب المنزل الأبوي في مكان آخر، أو الأخرى أن يقال إنهم يرجعون إلى هذا المنزل حاملين عادة عدم الارتباط في شيء. ولا يكاد الإخوة والأخوات يتعاشرون، ومتى اجتمع هؤلاء كلهم في احتفال أمكن أن يكونوا مهذبين نحو بعضهم بعضاً، متعاملين تعامل الغرباء، ومتى عاد لا يكون بين الأقرباء ألفة، ومتى عاد مجتمع الأسرة لا يُعجم بلطف الحياة؛ نُشد سبب الأخلاق ليقوم مقام ذلك، وأين الرجل الذي يكون من البلاهة ما لا يرى معه سلسلة جميع هذا؟

والأب إذا ما أنسل أولاداً وغداهم لم يأت بهذا غير ثلث عمله، وهو مدينٌ برجالي لنوعه وبرجالي سهلي الألفة للمجتمع وبمواطنين للدولة. ويُعدُّ مُدنياً كل رجلٍ يستطيع تأدية هذا الدن الثلاثي ولا يصنع، وقد يكون أشدُّ ذنباً إذا أذاه نصف تأدية. ومن لم يقدر على القيام بواجبات الأب لم يحق له أن يكون أباً على الإطلاق، ولا يوجد فقر ولا عمل ولا حياة يُعني الأب من إعاشة أولاده وتثنيهم بنفسه. فإيا أيها القراء، يمكنكم أن تُصدقوني، وذلك أنني أنبي كل من يحمل حياً أبويًا فيهمل هذه الواجبات البالغة القداسة بأنه سيبيكي بكاءً مرّاً زمنًا طويلاً لما اقترف من إثم، ولن يجد في هذا ما يُسليه أبداً.

ولكن ما يصنع هذا الرجل الغني، هذا الربُّ للأسرة الشغل المضطر، على زعمه، إلى إهمال أولاده؟

١٦ متى قرئ في بلوتارك أن الرقيب كاتون، الذي حكم في رومة بجاه كبير، قام بتثنية ابنه من المهدي بعناية يترك معها كل شيء ليكون حاضرًا عندما تُهزَّه المرضع - أي الأم - أو تُرفعه، ومتى قرئ في سويتون أن أغسطس، هذا السيد للعالم الذي فتحه وأداره بنفسه، كان يُعلم خفدته الكتابة والسباحة ومبادئ العلوم بنفسه ويجعلهم حوله دائماً، لم يتمالك عن الضحك من هؤلاء البسطاء الصغار من الناس الذين كانوا يتلّهون بمثل هذه الترهات في ذلك الزمن والذين هم من الذكاء المحدود، لا ريب، ما لا يقدرزون معه على القيام بشئون عظماء زماننا الكبيرة.

هو يؤدي أجرًا إلى رجلٍ آخر ليقوم مقامه في هذه العناية الملقاة على عاتقه. فيا أيها الروح المطمأن، أوتعتقد أنك تُنعم على ابنك بآخر بالمال؟ لا تُخادع نفسك مطلقًا؛ فليس مُعلمًا ذاك الذي تعطيه إياه، بل أجبر لا يلبث أن يجعل منه خادمًا مثله.

ويُبرهن كثيرًا حول صفات المُربي الصالح، وأولى الصفات التي أطلبه بها هي التي يُقدِّرها فيه كثيرون غيري، وهي ألا يكون رجلًا يُباع مُطلقًا، ويوجد كثيرٌ من المهنة الشريفة التي لا تُمارس بالمال إلا لنبذوا غير أهل في القيام بها، كمهنة رجل الحرب، ومهنة المُربي.

– ومن يُنسى ولدي إذن؟

– أنت كما قلت لك.

– لا أستطيع هذا.

– لا تستطيع هذا؟ فاجعل لنفسك صديقًا إذن، ولا أرى وسيلةً أخرى.

مُربّ! يا له من روح عالٍ! حقًا أن تكوين الرجل يستلزم وجود أبٍ أو من هو أكثر من رجل؛ فهذا هو الواجب الذي تُفوضونه إلى مرتزقة بسكُون.

وكُلما فُكِّر في ذلك شعرت بمصاعب جديدة، ومما يجب وقوعه أن المُربي قد نُسى من أجل تلميذه، وأن يكون خدَمه قد نُسِنوا من أجل سيدهم، وأن يكون جميع من يدنون منه قد تَلَقُوا من الانطباعات ما يوصلونه إليه، وأن يُنقل من تربية إلى تربية حتى يُرتقى إلى حيث لا أدري، وكيف تُحسنُ تنشئة ولدٍ من قبل من لم يكن قد نُسى تنشئة حسنة؟

وهل يعرّف وجود هذا الرجل النادر؟ أجهلُ هذا، ومن يعرف في أزمنة الانحطاط هذه درجة الفضيلة التي يُمكن أن يبلغها رُوح الإنسان؟ ولكن لتفرض أن هذا النادر قد وُجد، فسرى ما يجب أن يكونه عند النظر إلى ما يجب أن يعمل. وكل ما أعتقد أنني أرى مُقدّمًا هو أن الأب الذي يُحس ما يُكلِّفه المُربي الصالح يميل إلى الاستغناء عنه؛ وذلك أنه يلاقي من المشقة في الحصول عليه ما هو أعظم من أن يكونه بنفسه، أو يريد أن يُصبح صديقًا؟ فليُنسى ابنه ليكونه، وها هو ذا قد أعفَى من البحث عنه في مكانٍ آخر ما دامت الطبيعة قد قامت بنصف العمل.

ووجد رجلًا لا أعرف غير مرتبته كان قد عرّض عليّ أن أربي ابنه، وقد حبانني بشرفٍ كبيرٍ لا ريب، ولكن يجب أن يرضى عن خدري بدلًا من أن يتوجع من رفضي؛ وذلك أنني لو كنتُ قد رَضيتُ بما عرّض فضلتُ في منهجي لكانت التربية ناقصة، وأنني لو وُفِّقْتُ لكان هذا شرًا من

ذاك لما يَقَعُ من إنكارِ ابنه لِلقبهِ وعُزوفِهِ من أن يكونَ أميرًا.

وأجدني كثيرَ الإدراكِ لأهميةِ واجباتِ المُربيِّ، وأجدني كثيرَ الشعورِ بقصوري؛ فلا أقبلُ مثلَ هذا العملِ مهما كان مقامُ الذي يعرضُه عليَّ، حتى إنه لا يكونُ لعاملِ الصداقةِ عندي غيرُ سببٍ جديدٍ للرَّفُض، وأعتقدُ أن أناسًا قليلين سيقومون بمثلِ هذا العَرَضِ عليَّ بعدَ قراءةِ هذا الكتاب، فأرجو ممن يُمكن أن يكونَ من هؤلاء ألاَّ يُحمَلِ نفسه هذا العناءَ على غيرِ جدوى. ومما حدثَ أن قُمتُ بتجربةٍ كافيةٍ في هذه المهنةِ سابقًا؛ وذلك لأستيقنُ أنني غيرُ أهلٍ لها، وأن أحوالي تُعفيني منها حتى عند استعدادي لها، وقد رأيتُ لزَامًا عليَّ أن أقومَ بهذا التصريحِ العامِّ تجاهَ من يبدون أنهم يخلون عليَّ بمقدارٍ من التقديرِ ما يعتقدون معه إخلاصي وعزْمي في مقاصدي.

وإذا كنتُ غيرَ قادرٍ على القيامِ بأنفعِ الأعمالِ فإنني أجزؤُ، على الأقل، على محاولةِ القيامِ بالأسهل؛ وذلك أنني أسيءُ على غرارِ أناسٍ كثيرين غيري، فلا أقبضُ على العملِ، بل على القلمِ، وأني أجدُّ في قولِ ما يجبُ بدلًا من فعله.

وأعلمُ أن المؤلفَ في مشروعاتٍ مماثلةٍ لذلك، يكونُ على رسلِهِ دائمًا في مناهجِ يُعنى من وضعها موضعَ العملِ، فيبرزُ من غيرِ جهدٍ كثيرًا من المبادئِ الرائعةِ التي يتعدَّرُ أتباعها، حتى إن ما يقولُ بإمكانِ العملِ به يبقى مُهملاً عند عدمِ بيانِ وجهِ تطبيقه، وذلك عن نقصٍ في التفصيلِ والأمثلةِ.

وأكونُ إذن قد التزمتُ جانبَ اتخاذِ تلميذٍ خياليٍّ مُفترضًا السنَّ والصحةَ والمعارفَ وجميعِ الأهلياتِ المناسبةِ لتربيتهِ وقيادتهِ منذُ ولادتهِ إلى الحينِ الذي يصبحُ فيه رجلًا لا يحتاجُ إلى دليلٍ غيرِ نفسه. ويبدو لي هذا المنهاجُ نافعًا في منعِ المؤلفِ الذي يحذره من الضلالِ في رؤى؛ وذلك أنه إذا ما ابتعدَ عن التعاملِ المعتادِ لم يكن عليه غيرُ اختبارِ منهجهِ في تلميذه، فلم يلبثُ أن يعلمَ - أو يعلمَ القارئُ نيابتهُ عنه - هل يتتبعُ تقدُّمَ الصبيِّ وسيَّرَ القلبِ البشريِّ سيرًا طبيعيًا.

وهذا ما حاولتُ صنعه في جميعِ المشاكلِ التي تُعرض، وقد اقتصرْتُ على وضعِ المبادئِ التي تُشعرُ بالحقيقة؛ وذلك صونًا للكتابِ من التضخيمِ على غيرِ جدوى. وأما القواعدُ التي يُمكن أن تحتاجُ إلى دليلٍ فقد طَبَّقْتُها على إميلٍ أو على أمثلةٍ أخرى، مُثبِّتًا بالتفصيلِ الواسعِ كيف يُمكن العملُ بما أقرُّ، وهذا هو المشروعُ الذي أريدُ أتباعه على الأقلِّ تاركًا الحكمَ في توفيقِي إلى القارئِ.

ومن ثمَّ ترى أنني تكلمتُ قليلًا عن إميلٍ في البُداءة؛ وذلك لأن مبادئِ الأولى في التَّربية - وإن كانت تختلفُ عمدًا هو مُقرَّر - هي من الوضوحِ ما يصعبُ على كلِّ رجلٍ حصيفٍ أن

يرفض معه موافقته عليها، ولكنني كلما تقدمتُ عاد تلميذي الذي وُجِّهَ إلي غير ما وُجِّهَ إليه تلاميذكم، لا يكون ولدًا عاديًا، فوجب اتخاذُ نظامٍ خاصٍّ به، وهنالك يكثُر ظهورُه على المسرح، حتى إذا كُنَّا حولَ آخرِ الأوقاتِ لم أغفلُ عنه طرفة عين، وذلك إلى أن يغدو غير محتاجٍ إلي في أقلِّ شيءٍ مهما قال في ذلك.

ولا أتكلّمُ هنا عن صفاتِ المرَبِّي الصالح؛ فأنا أفترضُها، وأفترضُ انصافَ نفسي بجميعِ هذه الصفاتِ، ومن مطالعة هذا الكتاب يُرى مقدارُ ما أُحِبُّ به نفسي من سخاء.

وأخالفُ الرأيَ الشائع، فأقولُ إنه يجبُ أن يكون مرَبِّي الولدِ شابًا، وأن يكون من الشبابِ ما يكونُه الرجلُ الحكيمُ أيضًا، وأودُّ لو يكون المرَبِّي ولدًا إذا أمكنَ هذا، فيصبحُ رَفِيقَ تلميذه ومحلَّ ثقته مُقاسمًا لهوّه، ولا تجلُدُ بين الصِّبا والكهولةِ من الأمورِ المشتركةِ الكافيةِ ما يجعلُ بينهما محبةً متينةً حقًا. أجل، إن الأولادَ يُصانعون الشَّيبَ أحيانًا، ولكنهم لا يحبُّونهم مُطلقًا.

ويُطلَبُ أن يكون المرَبِّي قد قامَ بتربية، وهذا كثير؛ فالرجلُ عينُه لا يستطيعُ أن يقومَ بغيرِ تربيةٍ واحدة، فإذا وجب قيامُه بتربيتين لينجحَ فيأَيِّ حقٍّ تُؤتَى الأولى؟

وكلّما كثرتِ التربيةُ عُرفَ أحسنُ ما يُصنَع، ولكنه يُعجزُ عن فعله، ومَن أحسنَ القيامَ بهذا العملِ ذاتِ مرّةٍ فشعَرَ بجميعِ مشاقّه لم يحاولَ قطُّ إلزامَ نفسه به ثانية، وإذا كان قيامُه به سيئًا في المرةِ الأولى ظهرَ هذا مُتسّرًا سيئًا للمرةِ الثانية.

وأسلمُ بأن رقابةَ الولدِ أربعُ سنين تختلفُ كثيرًا عن تسييره خَمَسًا وعشرين سنة، وأنتم تأتون بمُربٍّ لابنكم بعد أن يتمَّ تكوينه، وأمّا أنا فأريدُ أن يكون له مُربٌّ قبلَ أن يُولد، ويُمكنُ صاحبكم أن يُعَيِّرَ تلميذًا في كلِّ خمسِ سنين، وأمّا صاحبي فلن يكونَ له غيرُ واحد، وأنتم تميزون المؤدّبَ من المرَبِّي، فهذه حماقةٌ أخرى! أوتَميزون التلميذَ من الطالب؟ لا يوجدُ غيرُ عِلْمٍ يُعلِّمه الأولاد، وهو عِلْمٌ واجباتِ الإنسان، وهذا العِلْمُ واحدٌ لا ينقسمُ على الرغمِ مما قاله إكزيتوفون عن تربية الفُرس، ومع ذلكِ فإنني أدعو مُعلِّمَ هذا العِلْمِ مُربيًا أكثرَ من أن أدعوه مؤدّبًا ما دام المُهمُّ عنده في التسييرِ أكثرَ مما في التهذيب، وليس عليه أن يُنعمَ بتعاليم، وإنما يجبُ أن يحمِلَ على لُقيانها.

وإذا ما وجبَ اختيارُ المرَبِّي بعنايةٍ فائقةٍ أبيعُ له اختيارَ تلميذه أيضًا، ولا سيّما عند توفُّفِ الأمرِ على تقديمِ نموذج، ولا يُمكنُ هذا الاختيارَ أن يقعَ على عبقريةِ الولدِ أو سجيتهِ ما دام هذا لا يُعرَفُ في غيرِ نهايةِ العمل، وما دمتُ أقبلُه قبلَ ولادته، ومتى أمكنني الاختيارُ لم أتخذُ غيرَ

روح عاديّ كما أفترض تلميذي؛ فلا احتياج إلى غير تنشئة رجالٍ عاميين، وتربيته هؤلاء وحدها هي التي يجب أن تصلح مثالاً لأمثالهم، وأمّا الآخرون فيُشْتَوْنَ على ما فيها من ذلك.

وليس البلدُ خَلِيًّا تجاه ثقافة النَّاسِ، وهم لا يكونون ما يُمكن أن يكونوا في غير الأقاليم المعتدلة، ويكون الضررُ ظاهرًا في الأقاليم المتناهية. وليس الإنسانُ مغروسًا كالشجرة في بلدٍ حتى يقيمَ به دائمًا، ويُلزَمُ الذي يذهبُ من أحدِ الأقاليم ليصلَ إلى الآخرِ بمضاعفةِ الطريقِ التي يسلكُها من يذهبُ من الحدِّ المتوسطِ ليصلَ إلى ذاتِ الحدِّ.

وإذا ما جاء الأَقْصَيِّينَ ساكنُ البلدِ المعتدلِ بالتعاقبِ كانت فائدته واضحةً أيضًا؛ وذلك لأنه وإن كان يتغيَّرُ كلما ذهبَ من الأقصى إلى الأقصى يكون أقلَّ ابتعادًا عن كيانهِ الطبيعيِّ بما لا يزيدُ على النصفِ من ذلك. أجل، إن الفرنسيَّ يعيشُ في غِنِيَّةٍ وفي لا بونية، غيرَ أن الزنجيَّ لا يعيشُ مثله في تُوْرِنِيَا، ولا يعيشُ السَّامُونِيْدِيُّ مثله في بينين. ويظهر أن نظامَ الدِّماغِ أقلُّ كمالًا في الأَقْصَيِّينَ؛ فليس عند الزنوجِ ولا عند اللابونِ إدراكُ الأوروبيين، ولو أردتُ إذن كونَ تلميذي ساكنًا للأرضِ لأخذته إلى منطقةٍ معتدلةٍ كفرنسة، مُفضَّلًا إياها على سواها.

والنَّاسُ في الشمالِ يستهلكون كثيرًا على أرضٍ جديدة، والنَّاسُ في الجنوبِ يستهلكون قليلًا على أرضٍ خصيبة، فنشأ عن هذا فرقٌ جديدٌ يجعلُ أولئك أهلَ جَدِّ، ويجعلُ هؤلاء أهلَ تَأْمَلٍ، ويعرِضُ المجتمعُ علينا في عين المكانِ صورةَ هذه الفروقِ بين الفقراءِ والأغنياءِ؛ فالفقراءُ يسكنون الأرضَ الجديدة، والأغنياءُ يسكنون الأرضَ الخصيبة.

ولا يحتاجُ الفقيرُ إلى تربية؛ فتربيته حاله أمرٌ قَسْرِيٌّ، ولا يقدر على نَيْلِ غيرها. وعلى العكسِ تكونُ التربيةُ التي يتلقاها الغنيُّ من حاله هي أقلُّ ما يُناسبُه شخصًا ومجتمعًا. وهذا إلى أن التربيةَ الطبيعيةَ يجبُ أن تجعلَ الرجلَ صالحًا لجميعِ الأحوالِ البشرية. والواقعُ أن تنشئةَ الفقيرِ ليكونُ غنيًّا أقلُّ صوابًا من تنشئةِ الغنيِّ ليكونَ فقيرًا؛ وذلك لأنه إذا نُظِرَ إلى نسبةِ عددِ الحائِلينَ وُجِدَ أن مَنْ افتقروا أكثرُ ممن اغتنوا. ولُنَحْتَرُ غنيًّا إذن، فبدلكِ نطمئنُ إلى تكويننا رجالًا زيادةً بدلًا من إمكانِ تحوُّلِ فقيرٍ إلى رجلٍ بفعلِ نفسه.

ولذاتِ السببِ لا يغنيك كونُ إميلٍ أصيلًا؛ فسيكون هذا دائمًا ضحيةً مُنتزَعًا من المُبْتَسِرِ.

إميلُ يتيم، وليس من المهمِّ وجودُ أبٍ له أو أم؛ فيما أنه فُوضَ إليَّ أن أقومَ بواجباتهما

فإنني أخلفهما في جميع حقوقهما. أجل، إن عليه أن يُكْرِمَ والديه، ولكن ليس عليه أن يُطِيعَ غيري، وهذا هو شرطي الأول، بل شرطي الوحيد.

ويجب أن أضيفَ إليه ما ليس غيرَ تكملةٍ له، وهو ألا يفترقَ أحدنا عن الآخر إلا باتفاقنا نحن الاثنين، وهذه الفقرةُ الشرطيةُ أمرٌ جوهري، حتى إنني أودُّ أن يبلُغَ التلميذُ والمُرَبِّي من اتحادهما ما يكون معه نصيبُ أيامهما أمرًا مشتركًا بينهما دائمًا. وهما إذا ما أبصرا انفصالهما في الابتعاد، وهما إذا ما أدركا الساعةَ التي يجبُ أن تجعلَ أحدهما غريبًا عن الآخر؛ دلَّ هذا على أن حالهما كان هكذا، وكلُّ منهما يقومُ بمنهاجه الصغيرِ على حدة. وهما حين يُوجَّهانَ ذهنهما إلى الوقت الذي يكونان فيه غيرَ متَّحدَيْن لا يقيان معًا إلا كرها، ولا يُعدُّ التلميذُ مُعلِّمه إلا رمزَ الصِّبا وآفته، ولا يُعدُّ المُعلِّمُ تلميذه إلا عبئًا ثقیلاً يتحرَّقُ شوقًا إلى لقائه عن عاتقه، ويطمخُ بصرُ كلِّ منهما، متَّفقًا، إلى الوقت الذي يتخلَّصُ فيه من الآخر، وبما أنه لا يوجد بينهما حُبٌّ حقيقيٌّ فإنه يكون عند أحدهما قليلُ انتباهٍ ويكون عند الآخر قليلُ انقيادٍ.

لكنهما إذا ما أبصرا أنهما مُلزَمان بقضاءِ أيامهما معًا غنيًا بتحابهما، وصار كلُّ منهما عزيزًا على الآخر، ولا يستحي التلميذُ مطلقًا من أتباعه في صباحه من يكون صديقه إذا ما كبر، ويُعنى المُرَبِّي برعاية من لا بدَّ من اقتطافِ ثمرته، ويُعدُّ كلُّ فضلٍ يحبو به تلميذه أساسًا يضعه نفعًا لأيامٍ مشيبه.

ويفترضُ هذا العقدُ الذي وُضِعَ مُقدِّمًا وِلادةً موفَّقةً وولداً حسنَ التكوين قوياً سليماً، وليس للأبِ خيارٌ مطلقًا، ولا ينبغي أن يأتي تفضيلاً في الأسرة التي أنعم الله بها عليه؛ فجميعُ أولاده أولادٌ له على السواء، وعليه أن يُبديَ نحوهم ذاتَ العنايةِ وذاتَ الحنان. وهم سواءٌ أكانوا مُفْعَدين أم لا، وهم سواءٌ أكانوا ضعفاءً أم أقوياء، يُعدُّ كلُّ واحدٍ منهم وديعةً يسأله المُعطي عنها؛ فالزواجُ عقدٌ مع الطبيعة كما بين الزوجين.

ولكنه يجبُ على كلِّ من يفرضُ على نفسه واجبًا لم تفرضه الطبيعة عليه قطُّ أن يكون قابضًا على وسائلِ القيام به مُقدِّمًا، وإلا كان مسئولًا حتى عن الذي لم يستطع فعله. ومن يتولَّى أمرَ تلميذٍ عليلٍ مُستقامٍ يُحوَّلُ عمله كمرَبٍّ إلى عملٍ مُمرَّضٍ، وهو يُنفقُ في العنايةِ بحياته غيرِ نافعةٍ وقتًا كان يُعدُّه لرفعِ قيمتها، وهو يُعرضُ نفسه لمواجهةٍ أمَّ شديدةٍ الحزنِ تلوُّمُه ذاتَ يومٍ على موتِ ابنٍ مُلزمٍ بحفظه لها زمنًا طويلًا.

ولن أتولَّى أمرَ ولدٍ مُستقامٍ مُمرَّضٍ ولو عاش ثمانين حَوْلًا، ولا أرغبُ مطلقًا في تلميذٍ غيرِ نافعٍ لنفسه وللآخرين دائمًا، في هذا التلميذ الذي يُعنى بنفسه حصرًا، فيسيء جسمه إلى تربية

الرُّوح. وما أصنعُ يا نفاقي عليه عنايتي سُدَى إن لم يكن مضاعفةً خُسْرَ المجتمعِ ونزَعَ رُجُلَيْنِ منه في سبيلِ واحدٍ؟ إذا ما تَوَلَّى أمرَ هذا العليلِ آخرُ مكاني وافقتُ على هذا ورضيتُ عن حَسَنَتِهِ، ولكنني لم أيسَّرْ لهذا؛ فلا أعرفُ مطلقاً أن أعلمَ الحياةَ لِمَن لا يُفكِّرُ في غيرِ منعِ موتِ نفسه.

ويجبُ أن يكونَ الجسمُ من القوَّةِ ما يُطِيعُ معه الروحُ؛ فعلى الخادمِ الصالحِ أن يكونَ عُصْلِيًّا، وأعرفُ أن التَّهَمَ يُحرِّكُ الشهواتِ؛ فهو يَنْهَكُ البدنَ مع الزَّمنِ، وأعرفُ أن التَّقشُّفَ والصومَ يؤديان في الغالبِ إلى ذاتِ النتيجةِ للسببِ المعاكسِ، وكلِّما كان البدنُ ضعيفاً هَيَّأَ، وكلِّما كان قوياً أطاعَ، وتقيمُ جميعُ الشهواتِ الحسيةِ في الأجسامِ المُخْتَنَةِ، وهي تزيد هياجاً عند أقلِّ قضاءٍ لها.

والجسمُ الواهنُ يُضعِفُ الرُّوحَ؛ ومنَ تَمَّ كان سلطانَ الطبِّ الذي هو فنُّ أشدَّ ضرراً على النَّاسِ من جميعِ الأمراضِ التي يزعُمُ أنه يَشْفِيها. وأمَّا أنا فلا أعرفُ أيُّ الأمراضِ يشفيها منها الأطباءُ، ولكنني أعرفُ أنهم يُعطوننا ما هو شديدُ الشؤمِ منها، يُعطوننا النذالةَ والجبنَ وسرعةَ التصديقِ والفرعَ من الموتِ، وهم إذا ما شَفَوْا البدنَ قبلوا الشجاعةَ، وما يهْمُننا أن يُسَيِّروا جُنَّتًا؟ فإلى الرجالِ نحتاجُ، ولا نرى صدورَ رجالٍ عنهم.

والطبُّ مُوضَعَةٌ^{١٧} * بيننا، وهو ما يجبُ أن يكونَ؛ فهو لهُو ذوي البِطالةِ والفراغِ الذين لا يَعْرِفون ما يصنعون بوقتِهم فيقضونه في حفظِ حياتهم، ولو كان هؤلاء من الشقاءِ ما يُولَدون معه خالدين لكانوا أشدَّ النَّاسِ بؤساً لِمَا لا يكونُ للحياةِ التي لا يَخْشون ضياعَها أيُّ ثمنٍ عندهم، ويحتاجُ هؤلاء النَّاسُ إلى أطباءٍ يُهدِّدونهم عن مَلَقٍ، فينعمون عليهم كلَّ يومٍ باللذةِ الوحيدةِ التي يتمتَّعون بها، وهي ألا يموتوا.

ولا أريدُ أن أتبسَّطَ هنا حولَ بطلانِ الطبِّ؛ فلا يقومُ موضوعي على غيرِ النظرِ إليه من الناحيةِ الأدبيةِ، ومع ذلك لا أستطيعُ أن أمنعَ نفسي من كونِ النَّاسِ يأتون حولَ عادتهِ من السُّفُسَطاتِ ما يأتون حَوْلَ البحثِ عن الحقيقةِ، وذلك أنهم يفترضون، دائماً، أن المريضِ إذا ما عُولجَ شَفِي، وأن الحقيقةَ إذا ما نُشِدَتْ وُجِدَتْ، وهم لا يَرَوْنَ وجوبَ المقابلةِ بين نفعِ شفاءٍ يُوقَفُ له الطبُّ وموتِ مائةِ مريضٍ يقتلهم، كما لا يَرَوْنَ وجوبَ المقابلةِ بين نفعِ حقيقةٍ يُهْتَدَى إليها وضررِ الضلالاتِ التي تقعُ في الوقتِ نفسه. أجل، إن العِلْمَ الذي يُتَقَفُّ والطبُّ الذي يشفي

صالحان كثيرًا لا ريب، غير أن العلم الذي يُخادع والطب الذي يقتل شرًا، فعلمونا أن نَميزَ بينهما إذن، وهذه هي عُقدة المسألة. ولو كُنَّا نعرفُ الجهلَ الحقيقيةَ ما خُدعنا بالكاذبِ مطلقًا، ولو كُنَّا نعرفُ الرغبةَ عن الشفاءِ على الرغم من الطبيعة ما قُتلنا على يدِ الطبيبِ مطلقًا. ويُعدُّ هذان الامتناعان أمرين حكيَمين؛ ففيهما عُثمٌ لا مراء، ولا أماري إذن في كونِ الطبِّ نافعًا لبعضِ النَّاسِ، ولكنني أقولُ إنه شؤمٌ على الجنسِ البشري.

وسيقال لي، كما يُفعل دائمًا، إن الذنْبَ ذنْبُ الطبيبِ، ولكن الطبَّ معصومٌ من الزَّلَلِ في حدِّ ذاته. حسنًا، ولكن لِيأتِ الطبُّ بلا طبيبٍ إذن، وذلك أنهما إذا أتيا معًا كان ما يُخشى معه خطأ المتفنن مائة مرة أكثر من الأمل في عَوْنِ الفن.

وليس هذا الفنُّ الكاذبُ الذي وُضِعَ لأمراضِ الرُّوحِ أكثرَ مما لأمراضِ البدنِ؛ أعظمُ فائدةٌ لإحداهما مما للآخرى، وهو أقلُّ شفاءً لأمراضنا من إلقائه خَوْفَها فينا، وهو أقلُّ تأخيرًا للموتِ من إشعارنا به مُقدِّمًا، وهو يُوهِنُ الحياةَ بدلًا من إطالتها، وهو إذا ما أطالها كان هذا ضررًا بالنوعِ ما دام يَنْتَزِعُنا من المجتمعِ بما يفرضه علينا من عنايةٍ، وما دام يَنْتَزِعُنا من واجباتنا بما يُلْقِيه فينا من فَرْعٍ. ومعرفةُ الأخطارِ هي التي تجعلنا نخافها، ومَن يعتقد أنه لا يُجرحُ لم يخشَ شيئًا. وقد نَزَعَ الشاعرُ مِرْيَةَ الشجاعةِ من أشيلٍ بتسليحه ضدَّ الخطرِ؛ فكلُّ واحدٍ يصبحُ أشيلًا إذا ما اتَّفَقَ له هذا التسليح.

وإذا أردتم وجودَ رجالٍ ذوي شجاعةٍ حقيقية فابحثوا عنهم في الأماكنِ التي لا يوجد فيها أطباءٌ مطلقًا، في الأماكنِ التي تُجهل فيها نتائجُ الأمراضِ فلا يُحلَمُ فيها بالموتِ مطلقًا. ومن الطبيعي أن يألم الإنسانُ دائمًا وأن يموتَ هادئًا، والأطباءُ بوصفاتهم والفلاسفةُ بتعاليمهم والكهنةُ بإنذاراتهم هم الذين يُدُلُّون القلبَ ويخيفونه من الموتِ.

ولأعطَ تلميذًا غيرَ محتاجٍ إلى جميعِ هؤلاء النَّاسِ، وإلا رفضته، ولا أريد أن يُفسدَ آخرونَ عملي مُطلقًا، وأريد أن أنشئه وحدي، وإلا لا أتدخلُ في أمره. ويقضي الحكيمُ لوكِ قِسْمًا من حياته في دراسة الطبِّ، فيوصي بشدةٍ ألا يُعالجَ الأولادُ بأدويةٍ مُطلقًا، لا عن حَذَرٍ ولا عن ضَعْفٍ خفيفٍ. وأذهبُ إلى ما هو أبعدُ من هذا فأصرِّحُ - أنا الذي لم يدعُ أطباءَ لنفسه قَطُّ - بأنني لن أدعوَ طبيبًا لإميل، ما لم تكن حياته في خطرٍ واضحٍ؛ وذلك لأنه لا يستطيع أن يصنعَ له حينئذٍ ما هو شرُّ من قتله. وأعرِفُ جيّدًا أن الطبيبَ لن يَغْفُلَ عن الاستفادةِ من هذه المُهلةِ، فإذا مات الولدُ فإنه يكون قد دُعِيَ بعد الأوان، وإذا ما نجا فإنه يُعدُّ منقذًا له، وليُكتَبَ الفوزُ للطبيبِ هكذا، ولكن لتكن دعوته عند الرَّمقِ الأخيرِ على الخصوص.

وكما أن الولد لا يَعْرِفُ أن يشفي نفسه يَعْرِفُ أن يكون مريضاً، ويقوم هذا الفنُّ مقامَ الآخر، ويكتب له النجاح غالباً أكثرَ من ذاك بدرجات، وهذا هو فنُّ الطبيعة، ومتى كان الحيوان مريضاً أَلِمَ هادئاً والنزَمَ جانبَ الصمت. والواقعُ أننا لا نرى كالأإنسانِ حيواناً يَضُنِّي، وما أكثرَ ما قتلَ الجِرْعُ والفرْعُ والهلع - والأدويةُ خاصةً - أناساً كان يُقَيُّ عليهم مرضُهُم فيشفِيهم الرُّمُنُ وحدَه! وسيقال لي إن الحيوانات، إذ كانت تعيش على وجهٍ أشدَّ ملاءمةً للطبيعة، وجبَّ أن تكون أقلَّ عُرضَةً للأمراضِ مِنَّا، والآن هذا هو طرازُ الحياةِ الذي أريدُ أن أحيو به تلميذي حصراً، فلينفعَ به إذن.

وحفظُ الصحةِ وحدَه هو فصلُ الطبِّ المفيد، ثمَّ إن حفظَ الصحةِ فضيلةٌ أكثرَ منه علماً. والاعتدالُ والعملُ هما طبيبا الإنسانِ الحقيقيان؛ فالعملُ يَشْحَدُ شهوته، والاعتدالُ يحولُ دون إساءة استعمالها.

وليس على مَنْ يودُ معرفةَ أي النُّظْمِ أنفعَ للحياةِ والصحةِ غيرُ معرفةِ أي النُّظْمِ تعمل به الشعوب التي تتمتع بأحسنِ صحة، فتكون أشدَّ قوَّةً وأطولَ حياة. وإذا كانت المشاهدات العامة تدلُّ على أن عادةَ الطب لا تمنحُ النَّاسَ صحَّةً أكثرَ ثباتاً وحياةً أعظمَ طولاً؛ كان هذا الفنُّ ضاراً لعدم فائدته، ما دام يُفَقُّ الزمانَ والنَّاسَ والأشياءَ فيما هو حُسْرٌ محض. ويجب ألا يُقتصرَ على طرح الوقت الذي أنفق في حفظِ الحياة، لا في التمتعِ بها؛ فهذا الوقتُ إذا ما أنفقَ في تعذيبِ أنفسنا كان شراً من تبيده، أي كان سلبياً، فيقضي الإنصافُ في الحسابِ بأن يُطرحَ مما بقي لنا. ويُعدُّ الإنسانُ الذي عاشَ عَشْرَ سنين بلا طيبٍ أنه عاش لنفسه ولغيره أكثرَ من الذي عاش ثلاثين سنةً ضحيةً الأطباء. وبما أنني جرَّبتُ كِلا الأمرينِ فإنني أكونُ أحقُّ من سواي في استخراج النتيجة.

هذه هي الأسبابُ التي تجعلني لا أرغبُ في غير تلميذٍ عُصْلِيٍّ سليم، وهذه هي مبادئي التي تهديُّ إلى بقائه هكذا، ولا أقبُ عند إثباتي مطوَّلاً فائدةَ الأعمالِ اليدويةِ والتمريناتِ البدنيةِ تقويةً للبنيةِ والصحة؛ فهذا أمرٌ لا يُجادلُ فيه أحد، وذلك أن أمثلةَ أطولِ الحَيَواتِ تُستخرجُ كُلُّها تقريباً من الرجالِ الذين قاموا بتمارينٍ أكثرَ من غيرهم واحتملوا نصَباً وعملاً^{١٨} أكثرَ من سواهم،

^{١٨} إليك مثلاً اقتبسته من صُخْفِ إنكليزية، فلم يسعني غيرُ إيرادِهِ لتضمنه تأملاتٍ تتصل بموضوعي: «وُلد المُسَمَّى بتريك أونيل سنة ١٦٤٧، فنزَّجَ للمرة السابعة سنة ١٧٦٠، وقد استُخدم في كتيبة الفرسان في السنة السابعة عشرة من عهد شارل الثاني، كما استُخدم في كتابتِ شتَّى حتى سنة ١٧٤٠ حين سُرح، وقد اشترك في جميع معارك الملك وليام والدوك ملبورو، ولم يحدِّثْ أن شرب هذا الرجلُ غيرَ الجعةِ العاديةِ، وتعدَّى بالخضر دائماً، ولم يأكلْ لحمًا في غير بعضِ الولائم التي كان يقيمها لأُسرتِه، ومن عادته أن كان ينامُ ويفيق مع الشمس ما لم

ولن أفضل مُطَوَّلًا ما أتخذ من عناية في هذا الموضوع وحده، فسيرى أنه داخل ضمن عملي، فيكفي البصرُ بروحه حتى يُستغنى عن القيام بإيضاحٍ آخر.

ومع الحياة تبدأ الاحتياجات، ولا بُد للمولود حديثًا من مُرضع، وإذا ما وافقت الأم على القيام بواجبها كان هذا خيرًا، وتُعطى تعليماتها خطأ؛ وذلك لأن لهذه الفائدة ثقلها؛ فهي تُمسك المرء بعيدًا بعض البُعد من تلميذه، بيد أن هنالك ما يحتمل على الاعتقاد بأن مصلحة الولد واحترام من تريد أن تُسلم الأم إليه وديعةً غاليةً جدًّا يجعلها منتبهةً إلى آراء المُعلم، ومن المُحَقَّق أن جميع ما تريد فعله تفعله بأحسن مما يفعله سواها، وإذا كان لا بد لنا من مُرضعٍ غريبةٍ فلنبدأ بحسن اختيارها.

ومن تَعَسِ الأغنياء أن يُحاذعوا في كلِّ شيء، وهل يُعجب من سوء حكمهم في النَّاس؟ إن الثروات هي التي تُفسدُهم، وهم أوَّل من يشعر، عن رجوعٍ عادل، بعيب الآلة التي يُعرفونها، وكل شيء سيئ الصنع عندهم، خلا ما يصنعون بأنفسهم، وهم لا يصنعون شيئًا من ذلك تقريبًا، فإذا وجب البحث عن مُرضعٍ تركوا هذا للمؤلِّد، وما يُسفر عن هذا؟ إن أصلح مُرضعٍ هي أحسن من يُؤدَّى إليها دائمًا؛ ولذا لا أذهب لاستشارة مؤلِّدٍ بحثًا عن مُرضعٍ لإميل، وإنما أعنى باختيارها بنفسِي. أجل، قد لا أبرهن حوَّلها برهنة الجراح، ولكني أسير عن إخلاصٍ فأكون أقلَّ زلًّا بغيرتي مما بطمعه.

وليس هذا الاختيار سرًّا كبيرًا مطلقًا؛ فقواعده معروفة، ولكنني لا أعرف هل من الواجب بدَّل شيء من الانتباه حول عُمر اللَّبن وصفته؛ فاللبن الجديد مائي، ويجب أن يكون مُلِينًا تقريبًا للتخلص من بقية العقي^{١٦} * الكثيف في أمعاء المولود حديثًا، ويتخثر اللبن شيئًا فشيئًا، فيتألف منه غذاء أكثر جمودًا لدى الولد الذي يصبح أقوى على هضمه. وليس من العبث، لا ريب، أن تُغيِّر الطبيعة في الإناث من كلِّ نوع كثافة اللبن وفق عُمر الرضيع.

إذن لا بد للمولود حديثًا من مُرضعٍ وضعت حديثًا، وأعرف أن هذا صعب، ولكنه إذا ما خُرج من النظام الطبيعي اعترضت المصاعب في سبيل كلِّ ما هو حسن الصنع، وصنع السوء هو السبيل الوحيد السهل، وهو أكثر ما يُختار أيضًا.

ويجب أن تكون المُرَضِعُ سالمة قلبًا وبدنًا، ويُمكن عدم اعتدال الميول أن يُفسد اللَّبن

تمنعه واجباته من ذلك، وهو الآن في الثالثة عشرة بعد المائة من سنه، وهو حسن السمع، حسن الصحة، ويمشي بلا عصا، وهو لا يبقى عاطلًا من العمل ساعة على الرغم من سنه، وهو يذهب في جميع أيام الأحد إلى الكنيسة ومعه أولاده وحفدته وحفدة أولاده.»

^{١٦} * العقي: شيء لزوج أسود يخرج من بطن المولود قبل أن يأكل.

كما يُمكنُ عدم اعتدال الأمزجة. وهذا إلى أن الاقتصارَ على الناحية البدنية في ذلك يعني رؤيةَ نصفِ الموضوع فقط، وقد يكون اللَّبَنُ صالحًا والمُرْضِعُ فاسدة؛ فالخُلُقُ الصالحُ أمرٌ جوهريٌّ كالمزاجِ الصالح، وإذا ما أُتخذتِ امرأةٌ فاسدةً فإنني لا أقول إن رضيعها يكتسبُ عيوبها، وإنما أقول إنه يعانيها؛ أو لَيْسَتْ مُلزِمةٌ نحوه، مع لبنيها، بالعناية التي تستلزمُ غيرَ وصرًا ورفقًا ونظافة؟ إذا ما كانت نَهْمَةً مَبْطَانًا لم تَلَبَثْ أن تُفْسِدَ لَبَنَهَا، وإذا ما كانت مُهْمِلَةً أو غَضُوبًا فما يكون تحت رحمتها حالٌ تُعَسِّ مسكينٍ لا يمكنه الدفاعُ عن نفسه أو شكايته أمره؟ لا يَصْلُحُ الخبيثاءُ لصالح.

ويكون اختياري المُرْضِعِ عن عدم وجود مُرْيِيَّةٍ لِلرَّضِيعِ غيرها من الأهمية كوجوب عدم وجود مُعَلِّمٍ له غيرِ مُرْيِيَّه، وكانت هذه عادةً القدماء الذين هم أقلُّ برهنةً وأكثرُ حكمةً منّا؛ فما كانت المراضع، بعد رِضَاعَةِ الأولادِ من جنسهن ليركهن، وهذا هو السببُ في كونِ معظمِ النَّجَّياتِ في رواياتهن التمثيلية من المراضع، ومن المتعذرِ أن يكون الولدُ الذي تتعاقبه أيدٍ مختلفةً حسنَ التنشئة؛ فهو يقوم عند كلِّ تغييرٍ بقياساتٍ خفيةٍ تؤدي في كلِّ حينٍ إلى تقليلِ احترامه لمن يُرَبُّونه، وإلى نقصِ سلطانهم عليه من حيث النتيجة. وإذا ما فُكِّرَ مرةً في وجودِ أناسٍ كبارٍ لا يفوقون الأولادَ عقلاً زال كلُّ ما للسنِّ من سلطانٍ، وحيطت التربية. ولا يجوزُ أن يعرفَ الولدُ مَنْ يَسْمُو أباه وأمه، أو مُرْضِعَهُ ومُرْيِيَّه عند عدم وجودهما، حتى إن هذين الاثنينِ أمرٌ كثير، ولكنه لا مفرَّ من هذا التقسيم، وكلُّ ما يُمكنُ صنعه لتلافيه هو أن يكون الجنسان اللذان يُرَبِّيانه من الاتفاقِ ما يكونان معه واحدًا بالنسبة إليه.

ويجبُ أن تعيش المُرْضِعُ بما هو أيسرُ بعضِ اليُسْرِ؛ فتناول من الأغذية ما هو أكثرُ إقانةً إلى درجةٍ ما، ولكن على ألا يُغيَّرَ طرازُ العيشِ تغييرًا تامًّا؛ وذلك لأن التغييرَ السريعَ الجامعَ أشدُّ خطرًا على الصحةِ دائميًّا ولو كان من الأدنى إلى الأحسن. وما فائدةُ حملها على تغييرِ نظامها المعتادِ ما دام قد تركها، أو جعلها سليمةً صحيحةً البنية؟

وتأكلُ القُرُوبَاتُ قليلَ لحمٍ وكثيرَ خُصْرِ خِلَافًا لنساءِ المدن، ويظهر أن هذا النظامَ النباتيَّ أعظمُ نفعًا من صرِّه لهن ولأولادهن، وهنَّ إذا ما كان لهن رُضْعٌ من البُرْجَازِيَّةِ أُعْطِينَ سلاتقَ مع اللحمِ اعتقادًا بأن المَرَقَ والحَسَاءَ يَجْعَلَانِ أَصْلَحَ كَيْلُوسٍ وَأَغْزَرَ لَبَنٍ فِيهِنَّ، ولا أرى هذا الرأيَ مطلقًا؛ فقد عَلِمْنَا التجاربُ أن الأولادَ الذين يُرْضَعُونَ على هذا الوجهِ يكونون غُرْضَةً لِلْمَغْضِ وَالذُّودِ أَكْثَرَ مِنَ الْآخَرِينَ.

وليس في ذلك ما يُغيِّرُ العجبَ مطلقًا، ما دامت المادةُ الحيوانيةُ تَرْدَجُ دودًا عند التعنُّن،

وهذا ما لا يطرأ على المادة النباتية هكذا. ويُعدُّ اللبنُ مادةً نباتيةً وإن كان يُهيئُ في جسم الحيوان،^{٢٠} ويُدلُّ تحليله على هذا، وذلك أنه يتحوَّل بسهولةٍ إلى حامض، وهو يُسفر كالنباتات عن ملحٍ متعادِلٍ بعيدًا من إبرازه أيُّ أثرٍ من القلوويات الطيارة التي تنشأ عن المواد الحيوانية.

ولبنُ الأنثى من أكالةِ الأعشابِ أحلى من لبنِ أكلةِ اللحومِ وأكثرُ ملاءمةً للصحة، وهو إذ يتألف من مادةٍ مماثلةٍ لخاصتها فإنه يكون أحسنَ محافظةً لطبيعته وأقلَّ عُرضَةً للعفن. وإذا نُظر إلى الكميةِ وُجدَ - كما يعلمُ كلُّ واحدٍ - أن الموادَّ النشويةَ تُنتج دماً أكثرَ مما يُنتج اللحم؛ ولذا وجبَ أن تُنتج لبنًا أكثرَ مما يُنتج. ولا أرى أن الولدَ الذي لا يُفطم عاجلاً، والذي لا يُفطم إلا مع أغذيةٍ نباتية، والذي لا تعيشُ مُرضعُه إلا من النبات، يكون عُرضَةً للدودِ مطلقاً.

ومن الممكن أن تُسفر الأغذية النباتية عن لبنٍ أكثرَ حموضة، ولكنني بعيدٌ كثيراً من عدِّ اللبنِ الحَمْضِيِّ غذاءً غيرَ صحي؛ وذلك أنك تجدُ أمماً بأسرها على أحسنِ حالٍ مع أنها لا تغتذي بغيره، وأن الوعاءَ الماصَّ محضُ خداعٍ كما يلوح. وتُوجدُ أمزجةٌ لا يلائمها اللبنُ مطلقاً، ولا تجدُ ماصاً يجعله أمراً محتملاً، وتوجدُ أخرى تحتمله بلا ماصات. ويُحشى اللبنُ الرائبُ أو الخائر، وهذه حماقة؛ وذلك أن اللبنَ يُرُوب في المَعْدَةِ دائماً، وهكذا فإنه يغدو غذاءً قوياً للأولادِ وصغارِ الحيوان، وهو إذا لم يَرُب مضي من غير أن يُغذِّيهم.^{٢١} ومن العيبِ مدقُّ^{٢٢} اللبنِ على ألفٍ وجِهٍ واستعمالُ ألفٍ ماص؛ فمن يشربُ اللبنَ يَهْضِم الجبن، وهذه قاعدة لا استثناء لها، وتُعدُّ المَعْدَةُ من حُسنِ التكوينِ لِتُخْضِرِ اللبنِ ما تُؤخِّد الرُّؤْيَةَ معه من كَرشِ العِجَل.

ولذلك أرى أنه يكفي إعطاء المراضعِ غذاءهن المعتاد، على أن يكون وافراً وأحسنَ اختياراً بدلاً من تغييره، ولا تكون الخُضْرُ عَسِرَةً الهضمِ عن طبيعةٍ غذائية، بل تعليلها بالتوابل هو الذي يجعلها وخيمة، فأصلحوا قواعِدَ طهائتكم واجتنبوا القلبي، وأبعدوا الزُبْدَةَ والملحَ والألبانَ من النار، ودَعُوا خُضْرَكُم تُطْبَخ بالماء، ولا تُعلِّلوا بالتوابل إلا عند إحضارها إلى المائدةِ ساخنة،

^{٢٠} تأكل النساء خبزاً وخضراً وألباناً، وتأكل إناث الكلاب والهررة من ذلك أيضاً، وكذلك الدُّنْبَات ترعى، وهذه هي العصارَةُ النباتية في لبنها، وبقي علينا أن نبحث في لبن الأنواع التي لا يمكن أن تغدَى بغير اللحم على الإطلاق إذا وُجد منها، وهذا ما أشكُّ فيه.

^{٢١} يجب استخراج العصارَات التي تغدِينا من الأغذية الجامدة وإن كانت مائعة؛ فالرجل العامل الذي لا يعيش إلا من الحَسَاء يَضَى بسرعة، وهو يكون باللبنِ أحسنَ صحة؛ لأن اللبنَ يَخْتَر.

^{٢٢} * مدقُّ اللبن: مزجه بالماء.

وهناك لا تُزَعَج المُرَضِعُ بالخُضَر، وهنالك تُرَوِّدُهَا الخُضَرُ بلبنٍ وافرٍ ومن نوعٍ جيد. ^{٢٣} وإذا ما عُرِفَ أن الطعَامَ النباتيَّ أصلحُ طعامٍ للولد، فكيف يكون الطعَامُ الحيوانيُّ أصلحَ طعامٍ للمُرَضِعِ؟ ينطوي هذا على تناقضٍ.

ويؤثِّرُ الهواءُ في بنيةِ الأولادِ في السنينِ الأولى من حياتهم على الخصوص؛ فالهواءُ في جلدٍ رقيقٍ ناعمٍ يَنفُذُ من جميعِ المسامِ فيؤثِّرُ في هذه الأجسامِ الناشئةَ تأثيرًا قويًا ويتركُ فيها من الآثارِ ما لا يزولُ أبدًا؛ ولذلك فإنني لستُ من القائلين بأن تُؤخَذَ قرويةٌ من قريتها حسبًا لها في غرفةٍ بالمدينةِ وخملاً لها على إرضاعِ الولدِ في منزله، وإنما أَفضِّلُ أن يُرسلَ الولدُ إلى الأريافِ ليستششقَ فيها هواءً صالحًا على تششقه هواءَ المدينةِ الوخيمِ، وهو يقتبسُ حالَ أمه الجديدة، ويسكنُ منزلها الريفي ويتبعه مُربيُّه هنالك، وسيدكرُ القارئُ جيِّدًا أن هذا المُربيُّ ليس رجلًا مأجورًا، بل صديقٌ للأب، وسيقالُ لي ما يُصنعُ إذا كان هذا الصديقُ غيرَ موجودٍ، أو كان هذا الانتقالُ غيرَ سهلٍ، أو إن ما تُشيرُ به غيرُ يسيرٍ؟ لقد قلتُ لكم أن تفعلوا ما تفعلون، فلا ضرورةَ إلى نصيحةٍ في هذا.

ولم يُخلَقِ النَّاسُ ليكْدَسُوا كقرويةِ النملِ في المدنِ، بل ليتشربوا في الأرضِ التي يجبُ عليهم أن يزرعوها، وهم كلُّما احتشدوا فَسَدُوا. وتعدُّ عاهاتُ الجسمِ وآفاتُ الرُّوحِ نتيجةً لازمةً لهذا الازدحامِ البالغِ. والإنسانُ أقلُّ الحيواناتِ قدرةً على العيشِ قِطَاعًا، والنَّاسُ إذا ما تجمَّعوا كالضأنِ هلكوا سريعًا، ونَفْسُ الإنسانِ مُبيدٌ لأمثاله، وهذا صحيحٌ حقيقةً ومجازًا.

والمُدُنُ هُوَّةُ النوعِ البشري، فإذا ما انقضت بضعةُ أجيالٍ هلكت العروقُ أو انحطت، فيجب تجديدُها، والأريافُ هي التي تؤدي إلى هذا التجديد؛ ولذا أُرسلوا أولادكم ليتجددوا بأنفسهم ويستردُّوا بين الحقولِ ما يُفقدُ من قوَّةٍ في الأماكنِ الوبيلةِ الراحرةِ بالسكان. ويُسرِعُ النِّساءُ الحواملُ اللاتي هن في الأريافِ إلى منازلهن في المدنِ حتى يضعن، مع أن العكس هو ما يجب أن يفعله، ولا سيَّما اللاتي يُرِدْنَ إرضاعَ أولادهن، وعليهن أن يأسفن أقلَّ مما يتصورن؛ فالملاذُّ في المُقامِ الأقربِ إلى طبيعةِ النوعِ، والملاذُّ المرتبطةُ في واجباتِ الطبيعة، لم تلبث أن تنزعَ منهن كلَّ ما لا يلائمها من ذوقٍ.

وأوَّلُ ما يُصنعُ في الولدِ بعد أن يُوضَعَ هو أن يُغسَلَ بماءٍ فاترٍ ممزوجٍ بالخمِرِ عادةً. ويلوح

^{٢٣} على من يودُّ أن يناقشَ في فوائدِ النظامِ الفيثاغوري ومضارَّه أن يراجعَ رسائلَ الدكتور كوشي وحضمه الدكتور بيانكي حول هذا الموضوع المهم.

لي أن هذه الخمر الإضافية غير ضرورية؛ فيما أن الطبيعة لا تنتج شيئاً مختمراً فإنه لا يوجد ما يحتمل على الاعتقاد بأن استعمال سائل مصنوع يهيم حياة مخلوقاتنا.

ولعين العلة يكون هذا الاحتياط لتفتير الماء غير ضروري أيضاً. والواقع أن أمماً كثيرة تغسل المواليد حديثاً في الأنهار أو في البحر بلا تكلف، بيد أن أولادنا المنعمين قبل أن يولدوا، عن ترف الآباء والأمهات، يأتون حين ولادتهم بينية فاسدة مُقدّماً؛ فلا ينبغي أن تُعرض في البداية لجميع التجارب التي تعود بها إلى الصحة. ولا يُمكن أن يُردّ الأولاد إلى القوة الابتدائية إلا بالتدريج. وابدءوا إذن باتباع العادة في بدء الأمر، ولا تتعدوا عنها إلا مقداراً فمقداراً. واغسلوا الأولاد غالباً؛ فقدرتهم تدل على ضرورة الغسل، وإذا ما اقتصر على مسحهم خدشوا، ولكنهم كلما اشتدوا نقصتم فتور الماء حتى تتمكنوا في نهاية الأمر من غسلهم بالماء البارد، وبالماء الجامد أيضاً، سواء أفي الصيف أم في الشتاء. ويقضي اجتناب الخطر بأن يقع هذا النقص على مهل وبالتعاقب وعلى وجه غير محسوس، ويُمكن استخدام ميزان الحرارة لقياسه تماماً.

وعادة الاستحمام هذه إذا ما استقرت وجب ألا تُقطع، ويُقتضى أن يُحتفظ بها مدى الحياة، ولا أعدها بجانب النظافة والصحة الحاضرة فقط، بل أعدها أيضاً احترازاً نافعاً لجعل الفضل أكثر مرونة ولجعل هذه الفضل تُواجه مختلف درجات الحرارة والبرودة بلا جهد ولا خطر. وأود للوصول إلى هذا أن يُتعود، مع النشوء والتدريج، الاغتسال في المياه الحارة ضمن جميع الدرجات المحتملة أحياناً، وفي المياه الباردة ضمن جميع الدرجات الممكنة غالباً. وهكذا فإننا بعد أن نتعود احتمال مختلف درجات حرارة الماء الذي هو سائل أشد كثافة، فيمسننا في أكثر ما يُمكن من التَّقاطِ ويعظم إيلافنا له، نعدو غير متأثرين بدرجات الهواء.

وإذا ما خرج الولد من أغشيته وتنفس؛ فلا تسمحو بحضره في أخرى بما هو أوثق؛ فلا كُمة ولا لفائف ولا قُمط، بل حزام متدلية واسعة تدع جميع أعضائه طليقة، فلا تكون من الثقل ما تُعوق معه حركته، ولا من الدَّفء ما تُحول معه دون شعوره بتأثير الهواء.^{٢٤} وضعوه في مهد كبير^{٢٥} محشو مشاقفة* حيث يستطيع أن يهتر بسهولة وبلا خطر. وهو إذا ما أخذ يتقوى

^{٢٤} يغص الأولاد في المدن نتيجة إمساحهم محصورين مسرلين، وعلى من يقومون بأمر تربيتهم أن يعرفوا أن الهواء البارد يقويهم بدلاً من أن يضرهم، وأن الهواء الحار يُضعفهم ويُوقعهم في الخنى ويقتلهم.

^{٢٥} قلت «مهذا» مستعملاً هذه الكلمة الدارجة لعدم وجود غيرها، وذلك مع اعتقادي أنه ليس من الضروري مطلقاً أن يُهدد الأولاد لما تنطوي هذه العادة عليه من إضرارهم غالباً.

فدَعُوهُ يَزْحَفُ فِي الْغُرْفَةِ وَيَبْسُرُ أَعْضَاءَهُ الصَّغِيرَةَ وَيَبْسُطُهَا، وَهِنَالِكَ تَرَوْنَهُ يَسْتَدُّ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَلَوْ قَابَلْتُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَلَدٍ مِنْ لِدَائِهِ مُقَمَّطٍ جَيِّدًا لَعَجَبْتُمْ مِنْ اخْتِلَافِ نَشْوئِهِمَا.^{٢٧}

وَلَا بُدَّ مِنْ تَوَقُّعِ اعْتِرَاضَاتٍ كَبِيرَةٍ مِنْ قَبْلِ الْمَرَضِعِ اللَّائِي يَجِدُنَ الْوَلَدَ الْمَقِيدَ أَقْلَ إِتْعَابًا مِنْ الْوَلَدِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُرْقَبَ بِهَا انْقِطَاعًا، وَذَلِكَ إِلَى أَنْ قَدَارَتِهِ تَكُونُ أَكْثَرَ ظَهْرًا فِي ثَوْبٍ مَكشُوفٍ، فَيَجِبُ أَنْ يُنْظَفَ دَائِمًا. وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْعَادَةَ دَلِيلٌ لَا يُرَدُّ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ عَلَى حَسَبِ أَفْرَادِ جَمِيعِ الطَّبَقَاتِ.

وَلَا تُبْرَهِنُوا مَعَ الْمَرَضِعِ مُطْلَقًا، وَأَمْرُوا، وَرَوَا التَّنْفِيدَ، وَلَا تَدَّخِرُوا وَسْعًا فِي تَبْسِيطِ الْعِنَايَةِ الَّتِي تَفْرَضُونَهَا عَمَلًا، وَلَمْ لَا تَشَاطِرُونَهَا؟ لَا تَرَى فِي الْأَعْدِيَةِ الْمَعْتَادَةِ، حَيْثُ لَا يُنْظَرُ إِلَى غَيْرِ الْبَدَنِ، أَهْمِيَّةً لِلْبَقِيَّةِ مُطْلَقًا إِذَا مَا عَاشَ الْوَلَدُ وَلَمْ يَهْلِكْ قَطُّ. وَأَمَّا هُنَا، حَيْثُ التَّرْيِيَةُ تَبْدَأُ مَعَ الْحَيَاةِ، فَإِنَّ الْوَلَدَ حِينَمَا يُوَلَدُ يَكُونُ تَلْمِيذًا لِلطَّبِيعَةِ لَا لِلْمُرَبِّيِّ، وَلَا يَصْنَعُ الْمُرَبِّيُّ إِذْ يَخْضَعُ لِهَذَا الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ، غَيْرَ الدَّرْسِ وَمَنْعِ مَخَالَفَةِ مَنَاحِيهِ، وَهُوَ يُرْقَبُ الرُّضِيعَ وَيَلْحَظُهُ وَيَتَّبِعُهُ، وَهُوَ يَرْصِدُ مَنَبْهَهَا أَوَّلَ وَمِيضٍ مِنْ إِدْرَاكِهِ الضَّعِيفِ، كَمَا يُرْصِدُ الْمُسْلِمُونَ دَقِيقَةَ ظَهْرِ الْهَلَالِ.

وَتُوَلَّدُ قَادِرِينَ عَلَى التَّعَلُّمِ، وَلَكِنْ غَيْرَ عَارِفِينَ شَيْئًا، غَيْرَ عَالَمِينَ شَيْئًا، وَإِذْ تَكُونُ الرُّوْحُ

^{٢٦} * الْمَشَاقَّةُ: مَا سَقَطَ مِنَ الْكِتَابِ وَنَحْوَهُ بَعْدَ مَشَقِّهِ بِالْمُشَقَّةِ. وَالْمِشَقَّةُ شَيْءٌ كَالْمِشَطِّ لِمَشَقِّ الْكِتَابِ وَنَحْوِهِ حَتَّى يَخْلُصَ خَالِصُهُ وَتَبْقَى مُشَاقَّتُهُ.

^{٢٧} «كَانَ الْقَدَمَاءُ مِنْ أَهْلِ بِيرو يَتَرَكُونَ ذُرْعَانَ الْأَوْلَادِ طَلِيقَةً فِي قِمَاطٍ فَضْفَاضٍ، فَإِذَا مَا أَخْرَجُوهُمْ مِنْهُ وَضَعُوهُمْ طَلْقَاءً طَلْقَاءً فِي حَفْرَةٍ مَجْهُزَةٍ بِنَسَانِجٍ حَيْثُ يُنْزَلُونَهُمْ حَتَّى نِصْفِ الْجِسْمِ. وَهَكَذَا فَإِنَّ ذُرْعَانَ الْأَوْلَادِ تَكُونُ طَلِيقَةً وَيَسْتَطِيعُونَ تَحْرِيكَ رِءُوسِهِمْ وَحَنَاقِهِمْ كَمَا يَرِيدُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْقُطُوا وَيُؤْذُوا أَنْفُسَهُمْ. وَإِذَا مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَتَقَدَّمُوا خَطْوَةً غَرَضَ الشَّيْءِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعِيدٍ كَطَعْمٍ حَمْلًا لَهُمْ عَلَى الْمَشْيِ. وَيَكُونُ صِغَارُ الزَّوْجِ أحيانًا فِي وَضْعٍ أَكْثَرَ مَشَقَّةً لِلرُّضَاعَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَشْتَمَلُونَ عَلَى إِحْدَى وَرَكْبِي الْأُمِّ بِرُكْبِهِمْ وَأَيْدِيَهُمْ، وَهَمَّ يَبْلَعُونَ مِنْ شَدِّهَا مَا يَلْتَصِقُونَ بِهَا مَعَهُ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ بِذُرَاعِيهَا، وَهَمَّ يَمْسِكُونَ الشَّيْءَ بِأَيْدِيهِمْ فَيَمْتَصُونَهُ بِاسْتِمْرَارٍ وَمِنْ غَيْرِ زَعَجٍ وَسَقُوطٍ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَخْتَلِفِ الْحَرَكَاتِ الَّتِي تَأْتِيهَا الْأُمُّ وَهِيَ تَشْتَغَلُ فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ حَسَبَ عَادَتِهَا. وَيَبْدَأُ هُوَ الْأَوْلَادُ بِالْمَشْيِ مِنْذُ الشَّهْرِ الثَّانِي، وَإِنْ شَتَّ فُئِّلَ بِالزَّحْفِ عَلَى الرَّكْبِ وَالْأَيْدِي، وَهَمَّ يَكْتَسِبُونَ بِهَذَا التَّمَرِينَ فِيمَا بَعْدَ سَهُولَةٍ فِي الرُّكُضِ السَّرِيعِ، وَهَمَّ عَلَى هَذَا الْوَضْعِ، كَمَا لَوْ كَانُوا يَغْدُونَ عَلَى أَرْجُلِهِمْ» (التَّارِيخُ الطَّبِيعِيُّ، جُزْءٌ ٤، مِلْزَمَةٌ ١٢، صَفْحَةٌ ١٩٢).

وَكَانَ يُمْكِنُ مَسِيو دُو بُوْفُونِ أَنْ يَضِيفَ إِلَى هَذِهِ الْأَمْثَلَةِ مِثَالًا إِنْكَلَرَةً؛ حَيْثُ عَادَةُ الْقِمَاطِ الْوَحْشِيَّةِ الْمَخَالَفَةُ لِلصَّوَابِ تَزُولُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ. وَانظُرْ أَيْضًا إِلَى «رِحْلَةِ إِلَى سِيَامٍ» لِ«لُوبِيرٍ»، وَإِلَى «رِحْلَةِ إِلَى كِنْدَا» لِ«مَسِيو لَابُو» ... الْخ. وَكَانَ يُمْكِنُنِي أَنْ أَمْلَأَ عَشْرِينَ صَفْحَةً مُسْتَشْهَدًا لَوْ كُنْتُ مُحْتَاجًا إِلَى إِثْبَاتِ ذَلِكَ بِالْوَقَائِعِ.

مقيدهً بأعضاءٍ ناقصةٍ نصفِ مُكوّنةٍ، فإنها لا تكون شاعرةً حتى بوجودها الخاص، وتكون حركاتُ المولودِ حديثاً وصرخاته معلولاتٍ آلياً محضاً خاليةً من المعرفة والإرادة.

ولنفرض أن ولدًا كانت له حين ولادته قامةٌ زجلٍ وقوته، وأنه خرجَ من بطنِ أمّه تامّ العُدّة كما خرج بَلاسُ من دماغِ جُوبيتر، فهذا الرجلُ الولدُ يكون كاملَ البِلاهة، يكون نُصبًا متحرّكًا وتمثالًا جامدًا فاقدَ الحسِّ تقريبًا، فلا يرى شيئًا ولا يسمع شيئًا ولا يَعْرِفُ أحدًا، ولا يستطيع أن يُدير عينيه نحو مَنْ يحتاجُ إلى رؤيته، ولا يُدرك شيئًا خارجَ نفسه، فضلًا عن أنه لا يأتي بشيءٍ إلى عضو الإحساسِ الذي يُشعره به، ولا تكون الألوانُ في عينيه مطلقًا، ولا تكون الأصواتُ في أذنيه مطلقًا، ولا تكون الأجسامُ التي يَمَسُّها على جسمه، حتى إنه لا يعلم أنّ له جسمًا منها، وتكون ملامسُهُ يديه في دماغه، وتجتمع جميعُ إحساساته في نقطةٍ واحدة، ولا يكون موجودًا في غير مركز الحواس، ولا يكون له غيرُ فكرةٍ واحدة، غيرُ فكرة الذات التي يَرُدُّ إليها جميعُ إحساساته، وتكون هذه الفكرةُ أو الشعورُ كلِّ ما لديه أكثرَ من ولدٍ عاديّ.

ولا يَعْرِفُ هذا الرجلُ المكوّنُ دفعةً واحدةً أن يقفَ على رجله أيضًا، ولا بدُّ له من مرورِ زمنٍ طويلٍ حتى يتعلّمَ الوقوفَ معتدلًا، ومن المحتملِ ألاّ يحاول هذا، فَتَرَوُا هذا الجسمَ الكبيرَ القويَّ العُضليّ يبقى حيث هو كالحجر، أو يزحف ويحبو كالجرّو.

وهو يَشعرُ بما في الحاجاتِ من زَعَجٍ من غيرِ أن يَعْرِفَها ومن غيرِ أن يتمثّلَ أيةً وسيلةً لقضائها، ولا يوجد أيُّ اتصالٍ مباشرٍ بين عَضَلِ المَعِدَةِ وَعَضَلِ الدراعين والساقين يَدفعه، حتى عند إحاطته بالأغذية، إلى التقدّمِ خطوةً ليدنو من هذه الأغذية أو لِيَمُدَّ يَدَهُ إليها ليتناولها. وبما أن بدنه كان على أتمِّ نُمُوّه، وبما أن أعضائه كانت على أكملِ نشوئها، فلا يكون فيها من حيث النتيجة ما في الأولادِ من تبرُّمٍ وحركاتٍ دائمة؛ فإنه قد يموت جوعًا قبل أن يتحرّك طلبًا لقوته. ومهما يكن من تأمّلٍ قليلٍ حولِ نظامِ معارفنا وتقدّمها، فإنه لا يمكنُ أن يُنكَرَ أن هذه تقريبًا، هي حالُ الجهلِ والبَلَهِ الطبيعيّةِ في الإنسانِ قَبْلَ أن يتعلّمَ شيئًا من التجربة أو من أمثاله.

وتُعَرَفُ إذن - أو يُمكن أن تُعَرَفُ - النقطةُ الأولى التي ينبثق منها كلُّ واحدٍ مِنّا لِيَبْلُغَ درجةَ الإدراكِ العامّة، ولكنّ مَنْ ذا الذي يَعْرِفُ الحدَّ الآخرَ؟ يتقدّم كلُّ واحدٍ تقريبًا وَفُق ذكائه وذوقه واحتياجاته ومواهبه وغيّره وما يُتاح له من فُرصٍ لممارستها، ولا أعْرِفُ فيلسوفًا بَلَغَ من الجرأة ما يقول معه: هذا هو الحدُّ الذي يمكنُ الإنسانَ أن يَصِلَ إليه فلا يستطيع مجاوزته. ونجهلُ ما تسمح طبيعتنا أن نكونه، ولم يَقسُ أحدٌ مِنّا ما يمكنُ أن يكونَ بين إنسانٍ وآخر من

فَرَق. وأية نفسٍ ضعيفةٍ لم يُعشها الفكرُ الآتي، ولم يخامر زهوها أحياناً، وهو: ما مقدارُ ما صنعتُ؟ وما مقدارُ ما يمكنني أن أصنع؟ ولم يسيّر نظيري إلى ما هو أبعدُ مما أسير؟

وأقول مكرّراً إن تربية الإنسان تبدأ عند ولادته، وإنه يتعلّم قبل أن يتكلّم أو يفهم، وتسبق التجربةُ الدروسَ، ويكتسبُ الإنسانُ كثيراً قبل أن يَعْرِفَ مُرْضِعَهُ. ومما يُلقي الحيرةَ فينا معارفُ أجلفِ النَّاسِ إذا ما تَعَقَّبْنَا تقدُّمَهُ من ساعةٍ ولادته حتى الساعةِ التي انتهى إليها، وإذا ما قَسَمْنَا جميعَ علمِ الإنسانِ إلى قَسَمَيْنِ، فقلنا إن أحدهما مشتركٌ بين جميعِ النَّاسِ وإن الآخرَ خاصٌّ بالعلماءِ؛ وجدنا أن هذا صغيرٌ جدًّا بالنسبة إلى الآخرِ، ولكننا لا نَفكِّرُ في المكتسباتِ العامةِ مطلقاً؛ وذلك لأنها تتّم من غيرِ أن تخَطُرَ ببالٍ، وتقع قبل سنِّ التمييزِ، وذلك إلى أن المعرفةَ لا تُلاحظُ إلا بفروقها، وأن المقاديرَ لا يُفطنُ إليها كما في المعادلاتِ الجبريةِ.

حتى إن الحيواناتِ تكتسبُ كثيراً، وللحيواناتِ حواسٌ، فيجب أن تعرف كيف تستعملها، ولها احتياجاتٌ، فيجب أن تعرف كيف تقضيها، ويجب أن تَعَلِّمَ كيف تأكلُ وتمشي وتطير، ولا تستطيع ذواتُ الأربعِ التي تقفُ على قوائمها منذ ولادتها أن تمشي لهذا السبب، ويُرى عند خُطواتها الأولى أن هذه تجاربٌ يُعوِّزُها الثباتُ، ولا تَعْرِفُ التَّغْرانُ*^{٢٨} التي تَمَلِّصُ من أفضالها أن تطيرَ مطلقاً؛ لأنها لم تَطِرْ قطُّ، ويتعلّم كلُّ ذي حياةٍ وحسٍّ، ولو كانت للنباتاتِ حركةً تقدميةً لوجب أن تكون ذاتٌ حواسٍ، وأن تنالَ معارفَ وإلا لهلكت الأنواعُ من فُورِها.

واحساساتُ الأولادِ الأولى عاطفيةٌ صرفاً؛ فهم لا يدركون غيرَ اللذةِ والألمِ، وهم إذ كانوا لا يستطيعون أن يمشوا أو يمسكوا؛ يحتاجون إلى كبيرِ وقتٍ حتى يتمّ لهم من الإحساسِ التصوريِّ بالتدريج ما يُبدي لهم الأشياءَ خارجَ أنفسهم، ولكن ريثما تنبسط هذه الأشياءُ وتبتعد عن عيونهم وتتخذ أبعاداً وصوراً بالنسبة إليهم، يأخذ رَجْعُ الإحساساتِ العاطفيةِ في إخضاعهم لسلطانِ العادةِ، وتُرى عيونهم تتوجّه إلى النورِ بلا انقطاع، فإذا جاءهم منحرفاً اتجهت نحوهً اتجاهاً غيرَ محسوسٍ؛ ولذا يجب أن يُنتَبَهَ إلى مقابلةِ وجوههم للضياءِ حتى لا يصبحوا حُولاَ أو لا يتعوّدوا النظرَ عن غُرْضٍ، ويجب أيضاً أن يتعوّدوا الظلامَ باكراً، وإلا بكّوا وصاحوا فُورَ وجودهم في الظلماءِ. ويُصبح الغذاءُ والنومُ عند قياسهما بالضبطِ أمرينِ ضروريينِ في فواصلٍ منتظمة، ولا تلبث الرغبةُ أن تأتي من العادةِ لا من الحاجةِ، وإن شئت فقل إن العادةَ تضيف احتياجاً جديداً إلى الحاجةِ الطبيعيةِ؛ فهذا ما يجب تداركه.

*^{٢٨} التَّغْران: جمع التَّغْر، وهي فراخُ العصافير.

والعادة الوحيدة التي يجب أن يُسمح بها للولد هي ألا يألف أبة عادة كانت، وألا يُحمل على ذراع أكثر من الأخرى، وألا يُعوّد مد يد أكثر من الثانية فينتفع بها غالبًا، وألا يريد الأكل والنوم والعمل في الساعات عينها، وألا يُطبق عدم البقاء وحده ليلاً أو نهارًا. وأعدوا من بعيد عهد حريته واستعمال قواه تاركين العادة الطبيعية لبدنه، جاعلين إياه في حال يكون بها سيد نفسه، ويعمل في كل أمر وفق إرادته عندما يُصبح صاحب عزم.

ومتى أخذ الولد يميز بعض الأشياء من بعض؛ كان من المهم أن يُحسن الاختيار، ومن الطبيعي أن تقف نظره جميع الأمور الجديدة، وهو يبلغ من الشعور بضعف نفسه ما يخشى معه جميع ما لا يعرف. وما يكون من عادة رؤية الأمور الجديدة من غير سوء تأثير يُبدد هذا الخوف، ومن نشأ من الأولاد في المنازل النظيفة حيث لا يكابدون العنكبوت مطلقًا؛ يخافون العنكبوت، فيلازمهم هذا الخوف في كبرهم غالبًا، ولم أر قط فلاحًا، رجلاً كان أو امرأة أو ولدًا، يخاف العنكبوت.

ولم لا تبدأ تربية الولد قبل أن يتكلم ويفهم إذن ما دام اختياره الوحيد للأشياء التي تُعرض عليه يجعله هيابًا أو شجاعًا؟ أودّ تعويده رؤية الأشياء الجديدة والحيوانات البشيمة الكريهة الغريبة، ولكن بالتدرج ومن بعيد، حتى يألفها، فيتصرف فيها تصرف الآخرين، وإذا ما أصر في صباه من غير دُعر ضفادع وأفاعي وسراطين فإنه يُبصر في كبره أي حيوان كان من غير نفور، ولا يبقى ما يشمئز منه فيما يرى كل يوم.

ويخاف جميع الأولاد الوجوه المستعارة، وأبدأ بإراءة إميل وجهها مستعارًا مليحًا، ثم يضع بعضهم هذا القناع على وجهه أمامه، فأضحك ويضحك جميع الناس، ويضحك الولد كالآخرين، وأعوّده الوجوه المستعارة الأقل ملاحظة مقدارًا فمقدارًا، ثم أعوّده الوجوه الكريهة في آخر الأمر، وإذا ما راعيت تدرجي وأحسننت ما راعيت فإنه يضحك من القناع الأخير ضحكته من الأول بعيدًا من الدُعر، وإذا ما حدث هذا عدت لا أخشى خوفه من الوجوه المستعارة.

ولمّا ودّع هكتور أندروماك دُعر أستيانكس من الريش الذي كان يتموج فوق خوذة أبيه، فأنكر أباه وارتمى على صدر مُرضعه وهو يبكي، وانتزع من أمه ابتسامته ممزوجة بالدموع، وما كان يجب أن يُصنع لإنقاذه من هذا الفزع؟ أن يُصنع ما فعل هكتور، فتوضع الخوذة على الأرض، ويلاطف الولد، ولا يُوقف عند هذا الحد في وقت أكثر هدوءًا، بل يُقترب من الخوذة ويلاعب الريش، ويحمل الولد على ملامسته، ثم تتناول المُرضع الخوذة وتضعها على رأسها وهي تضحك، لو كانت يد المرأة تجرؤ على مس أسلحة هكتور.

وإذا ما وجب تمرين إميل على صوت سلاح ناريّ أشعلتُ بارودًا في طنبجة، فيسُرُه هذا اللهبُ المفاجئُ العابر، هذا النوع من البرق، وأكثر الأمر عينه بارودًا أكثر من ذلك، وإلى الطنبجة أضيفُ بالتدريج حشوةً صغيرةً بلا وَبَر، ثم أضيف حشوةً أكبر من تلك، وأخيرًا أعوده طلقات البندقية والأسهم النارية والمدافع وأفطع الانفجارات.

وقد لاحظتُ أن من النادر خوف الأولاد من الرعد ما لم يكن قصفه هائلًا مؤذيًا لحاسة السَّمع حقًا. وهم لا يأتيهم هذا الفزع إلا حين يعلمون أن الرعد يجرح أو يقتل أحيانًا، ومتى بدأ العقل يلقي الرعب فيهم، فاجعلوا العادة تُسكن زوعهم، ويُجعل الرجل والولد شجاعين تجاه كل شيء يتدرج بطيء مع الحذر.

وفي بدء الحياة، حين تكون الذاكرة والمخيَّلة مُعطلتين، لا يتنبه الولد إلى غير ما يؤثر في حواسه فعلاً، وبما أن هذه الإحساسات أولى موادّ معارفه، فإنَّ عَرْضها عليه بنظام ملائم يعني إعداد ذاكرته لتقديمها ضمن ذات النظام إلى إدراكه ذات يوم. ولكن بما أنه لا يبالي بغير إحساساته فإنه يكفي أن يُرى بجلاء ما بين هذه الإحساسات والعوامل التي تُحدِثها من ارتباط. وهو يريد لمس كل شيء، وهو يريد استعمال كل شيء، فلا تُقاوموا هذا الاكتراث مطلقًا، لما يُوحى إليه من تخرُّجٍ ضروريٍّ جدًّا. وهكذا يتعلَّم الشعور بحرارة الأجسام وبرودتها وخشونيتها ونعومتها، وثقلها وخففتها، والحكم في حجمها وصورتها وجميع خواصها المحسوسة، وذلك بالنظر واللمس^{٢٩} والسمع، ولا سيَّما قياسه النظر على اللمس، وتقديره بالعين ما يُحسُّه بأصابعه.

وليس بغير الحركة ما نعرف وجود أمور لم تكن إيانا، وليس بغير حركتنا الخاصة ما نكتسب فكرة الاتساع. وبما أن هذه الفكرة لم تكن لدى الولد، فإن الولد يبسط يده بلا تمييز ليمسك الشيء الذي يمسُّه أو الشيء البعيد منه مائة خطوة. ويبدو لكم هذا الجهد الذي يبذله دليلًا على السلطان، أمرًا يُصدِّره إلى الشيء حتى يدنو، أو يُصدِّره إليكم حتى تأتوا به إليه، وليس الأمر هكذا، والأمر هو أن الأشياء التي يبصرها في دماغه في البداية، ثم على عينيه، يراها الآن في طرف ذراعيه، ولا يتصوَّر اتساعًا غير الذي يستطيع أن يصل إليه، واعتوا إذن بأن تجولوا به غالبًا، وأن تتقلوه من موضع إلى آخر، وأن تُشعروه بتغيُّر المكان لكي يتعلَّم الحكم في المسافات، ومتى أخذ يُعرفها

^{٢٩} حاسة السَّم هي آخر ما ينمو من الحواس في الأولاد؛ فالأولاد لا يُحسُّون الروائح الطيبة ولا الروائح الكريهة حتى الثانية أو الثالثة من سنهم كما يُلوح، ويشابه الأولاد من هذه الناحية ما يلاحظ في حيوانات كثيرة من عدم الاكتراث أو عدم الإحساس.

وجب تغيير المنهاج وعدم حمله على غير ما يروىكم لا كما يروقه، وذلك أنه إذا عاد لا يُخدع بالحسّ غير جهده العلة، وهذا التغيير جدير بالاعتبار، ويتطلب إيضاحاً.

إن الإشارات تُعبّر عن اضطراب الحاجات عندما يكون عون الآخرين ضرورياً لقضائها، ومن هنا يحيى صراخ الأولاد، ويكي الأولاد كثيراً، وهذا ما يجب أن يكون. وبما أن جميع إحساساتهم عاطفية فإنها إذا ما كانت مقبولة تمتعوا بها صامتين، وإذا ما كانت شاقّة أبدوها بلغتهم وطلبوا تسليّة. والواقع أنهم عندما يستيقظون لا يستطيعون البقاء في حال من عدم المبالاة تقريباً؛ فهم إمّا أن يناموا أو أن يشعروا.

وجميع لغاتنا أعمال فن، وقد بُحث طويلاً عن وجود لغة طبيعية مشتركة بين جميع الناس، ولا ريب في وجود لغة من هذا الطراز، وهذه هي اللغة التي يتكلم بها الأولاد قبل أن يعرفوا الكلام. أجل، إن هذه اللغة ليست ذات مفاصل، غير أنها ذات نبرات، غير أنها طنانة بيّنة، وما هو واقع من استعمال لغاتنا يحملنا على إهمالها إهمالاً نساها به تماماً، ولندرس الأولاد، ولا نلبث أن نتعلمها بجانبهم ثانية. ويُعدّ المراضع مُعلّمت لنا في هذه اللغة؛ فهنّ يسمعن جميع ما يقول رضعهنّ، وهنّ يُحبّبنهم، وتقع بينهن وبينهم محاورات متساوقة كثيراً، ومهما تكن الكلمات التي ينطقن بها فإنه لا طائل تحت هذه الكلمات قطعاً؛ فليس معنى الكلمة هو الذي يسمعون، بل النبرة التي تلازمها.

والى لغة الصوت تُضاف لغة الإشارة التي لا تُعدّ أقلّ مضاء، وليست هذه الإشارة في أيدي الأولاد الضعيفة، بل على وجوههم. ومن موجبات العجب مقدار ما يبدو على هذه الوجوه غير النامية من تعبير في ذلك الدور؛ فملامحهم تتغير بين ثانية وأخرى بسرعة لا يُمكن تصوّرها؛ ففيها تُبصرون الابتسامة والرغبة والرغبة تظهر وتمرّ كالبرق، وفي كل مرة تظنون أنكم ترون وجهها آخر. ولعمري إنّ عضل وجوههم أكثر تحوّلاً من عضل وجوهنا، وبالمقابلة لا تنطق عيونهم الكابية بشيء تقريباً. وهذا ما يجب أن يكون عليه نوع حركاتهم في سنّ لا يوجد فيها غير احتياجات بدنية ما دام التعبير عن الإحساسات يكون في القُطوب، وما دام التعبير عن المشاعر يكون في النظرات.

وبما أن حال الإنسان الأولى تقوم على العناء والضعف، فإن أصواته الأولى تكون أصوات عويل وبكاء، ويشعر الولد باحتياجاته، ولا يستطيع قضاءها، فيلتمس عوناً سواه بالصراخ. وهو إذا ما جاع أو عطش بكى، وهو إذا ما برد أو صار محروراً بكى، وهو إذا ما احتاج إلى الحركة وأمسك ساكناً بكى، وهو إذا ما أراد النوم وحرك بكى، وهو كلما قلّ وجهه راحته طلب تبديله. وليس لديه غير لغة

واحدة، وذلك أنه ليس عنده غير نوع واحد من انحراف المزاج، وذلك أنه لا يُفَرَّق بين مختلف انفعالات الأعضاء عن عدم كمالها؛ فجميع الأمراض لا تُحدِث فيه غير إحساس واحد بالألم.

وتنشأ أولى صلات الإنسان بجميع ما يحيط به عن تلك الدموع التي يُظنُّ أنها لا تستحقُّ انتباهكم إلا قليلاً؛ فهنا تُطرَق الحلقة الأولى من تلك السلسلة الطويلة التي يتألف منها النظام الاجتماعي.

ويَنبُت بكاء الولد على اضطرابه، يَنبُت على احتياج فيه لا يستطيع قضاءه، ويرقب هذا الاحتياج ويَحْتُ عنه ويوجد ويتلافى. وهو إذا لم يوجد أو إذا لم يُمكن تلافيه، دامت الدموع وزُجج منها، فيدأرى الولد إسكاتها له، ويُهدِّد، ويُرثم له لينام. وهو إذا ما عاند وفرغ الصبر هُدِّد وضربته المراضع الشرسات أحياناً. فإلهذه الدروس الغريبة عند دخوله الحياة!

ولن أنسى ما رأيتُ من ضرب المُرَضِّع لأحد هؤلاء البكائين المزعجين، وكان يسكُّت من فؤره، فأظن أنه أخيف، فأقول في نفسي: «إن هذه نفسٌ ذليلة لا يُنال منها شيءٌ بغير العنف». وكنت مخطئاً في هذا؛ فكان هذا التمسُّ يختنق غيظاً ولا يستطيع أن يتنفَّس، فأراه بنفسجي اللون، وتمضي دقيقة فتخرج منه صيحاتٌ حادة، فتتجلى في نبراته جميعُ علام غيظ ذلك العُمُر وغضبه وبأسه. وقد خشيت أن تفيض رُوحه في أثناء هذا الهيجان، ومتى شككتُ في كون جسِّ العدل والظلم غريزياً في قلب الإنسان كان في ذلك المثل وحده ما يُقنعني. ولا ريب عندي في أن جدوةً من النار إذا ما سقطت مصادفةً على يد ذلك الولد كانت ذاتَ وقعٍ أقلَّ من تلك الضربة الخفيفة التي أنزلت عليه، ولكن مع نيةٍ بيَّنة للإساءة إليه.

ويتطلَّب هذا الميل في الأولاد إلى الحدة والغضب والهياج مداراةً متناهية. ويرى بؤيرهاف أن معظم أمراضهم من فصيلة التشنجات؛ وذلك لأن الرأس إذ كان في الأولاد أضخم مما في البالغين نسبةً، ولأن الجهاز العصبي إذ كان في أولئك أكثر امتداداً مما في هؤلاء؛ فإن النوع العصبي في الأولاد يكون أشدَّ استعداداً للغضب، فاعنوا كثيراً في أن تُفصوا عنهم الخدم الذين يزعمونهم وبهيجونهم ويفرغون صبرهم؛ فهؤلاء أشدُّ خطراً وشوفاً عليهم مائة مرة من مضارِّ الهواء والفصول، ولا يُصبح الأولاد عندهم ولا غضاباً، ويكونون أحسن صحةً ما داموا لا يجدون مقاومةً في غير الأشياء، لا في العزائم مطلقاً. وهذا من جملة الأسباب في أن أولاد الشعب، إذ كانوا أكثر حريةً واستقلالاً، يبدون على العموم أقلَّ سقماً وأقلَّ ضَعْفاً وأشدَّ قوَّةً، من أولئك الذين يزعم أنهم أحسن تربيةً بمعاكستهم دائماً. ولكن ليذكر دائماً وجود فرقٍ بين إطاعتهم ومعاكستهم.

ودموعُ الأولاد الأولى تضرُّعات، ولا تلبث أن تصير أوامر إذا لم يُحترز منها، ويبدأ الأولادُ

بأن يُعاونوا، وينتهون بأن يُخدموا. وهكذا ينشأ عن ضَعْفهم في بدءِ الأمر شعورُ انقيادهم، ثمَّ تنشأ فكرةُ السيطرة والسلطان. ولكن بما أن هذه الفكرة أقلُّ هياجًا باحتياجاتهم مما يخدمنا؛ فإنه يبدأ هنا بالشعورِ بالنتائج الأدبية التي ليس سببها المباشر في الطبيعة. وهكذا يُرى السببُ منذ هذا الدَّورِ الأوَّل في وجوب تمييز المَقْصِدِ الخفي الذي يُملي الحركة أو العويل.

ومتى مَدَّ الولدُ يده بجهدٍ من غير أن يقول شيئًا، اعتقد أنه يبلِّغ الشيءَ لعدم تقديره المسافة، وهو مخطئٌ في ذلك. ولكن الولد إذا ما توجَّع وصرخ مادًّا يده عادَ لا يُعدُّ مخطئًا في أمرِ المسافة، وإنما يأمر الشيءَ بالاقتراب، أو يأمركم بأن تجلبوه إليه، واحملوه في الحالِ الأولى إلى الشيءِ زويدًا زويدًا وبخطى صغيرة، ولا تبدوا في الحالِ الثانية أنكم تسمعون صيحاته؛ فكلمًا صرَّحَ وجب أن يقلَّ استماعكم له. ويجدرُ أن يُعوِّدَ باكراً عدمَ أمرِ النَّاسِ لأنه ليس سيِّدًا لهم، وعدمَ أمرِ الأشياءِ لأنها لا تسمعه مطلقًا. وهكذا يجدرُ أن يُوتى بالولدِ إلى الشيءِ إذا ما رَغِبَ في شيءٍ يراه ويرادُّ إعطاؤه إياه، أكثرَ من أن يُوتى بالشيءِ إلى الولد؛ فهو يستنبط من هذه العادة نتيجةً ملائمةً لسنِّه، ولا توجد وسيلةً أخرى لتلقيه إياها.

وكان رئيسُ الدير سان بيير يدعو الرجالَ أولادًا كبارًا، وبالمقابلة كان يمكن أن يُسمَّى الأولادُ رجالًا صغارًا. ولهذه القضايا حقيقتها كالأحكام، وهي تحتاج إلى إيضاحٍ كالمبادئ. ولكنَّ هُوَ يُرَى عندما دعا الشَّرِيرَ ولدًا قويًّا قال شيئًا متناقضًا على الإطلاق؛ فكلُّ شَرٍّ يأتي من الضَّعْفِ، وليس الولدُ شَرِيرًا إلا لأنه ضعيف، واجعلوا الولدَ قويًّا يصبح صالحًا، وذلك أن الذي يقدر على كلِّ شيءٍ لا يصنع الشرَّ مطلقًا. وإذا نُظِرَ إلى جميعِ صفاتِ الله القادرِ وُجِدَ الصَّلاحُ من صفاته التي يصعبُ تصوُّره بغيرها، وإذا نُظِرَ إلى جميعِ الأممِ التي عرفت المبدأين وُجِدَ أنها تُعدُّ الشرَّ دون الخير، وإلا لأتت بقضيةٍ مُحالَةٍ، وانظروا إلى عقيدة الرسولِ السافويِّ فيما بعد.

والعقلُ وحده هو الذي يُعلِّمنا معرفةَ الخير والشر، ومع أن الشعورَ الذي يجعلنا نحبُّ إنسانًا ونكره الآخرَ مستقلٌّ عن العقل؛ فإنه لا يمكن أن ينموَ بغيره إذن. ونحن نصنعُ الخيرَ والشرَّ قبل سنِّ الرُّشد من غير أن نعرف ذلك، ولا يوجد فضلٌ في أفعالنا مطلقًا، وإن وُجد أحيانًا في شعورنا بأفعالِ الآخرين الذين لهم صلةٌ بنا. ويؤدُّ الولدُ أن يُخلَّ بكلِّ ما يرى؛ فهو يكسر ويحطمُ كلَّ ما يستطيع أن يصل إليه، وهو يُمسك الطائرَ كما يُمسك الحجر، وهو يخنقه من غير أن يَعْرِفَ ما يعمل.

ولمَ هذا؟ أوَّلًا: إن الفلسفة تُسوِّغ ذلك بالعيوب الطبيعية، تُسوِّغه بالزهو وروح السيطرة وحبِّ الذات وسوء الخلق، وقد تُضيف الفلسفة إلى هذا كونَ شعورِ الولدِ بضَعْفِهِ يجعله حريصًا على

إتيانه أعمالَ قوَّةٍ فيُثبِتَ لنفسه قدرته الخاصة. ولكن انظروا إلى هذا الشيخ العاجز المحطَّم الذي رُدَّ إلى ضَعْفِ الطفولةِ ضمن دائرة الحياة البشرية؛ تجدوا أنه لم يبقَ ساكنًا هادئًا فقط، بل يودُّ أن يبقى كلُّ شيءٍ حولَه ساكنًا هادئًا أيضًا؛ فأقلُّ تغييرٍ يُزعجه ويُقلقه، وهو يريد أن تَسودَّ دَعَةٌ عامة. وكيف يُسفرُ عينَ العجزِ المضافِ إلى الأهواءِ عينيها عن نتائج كثيرة الاختلاف في الدَّورين إذا لم يتغيَّر السببُ الأصلي؟ وأين يُمكن أن يُبحَثَ عن اختلاف الأسباب هذا إذا لم يكن في الحال البدنية للاثنتين؟ ينمو المبدأ الفعَّال المشترك بين الاثنتين في أحدهما وينطفئ في الآخر، ويتصوَّر أحدهما ويتلاشى الآخر، ويتَّجه أحدهما إلى الحياة ويتَّجه الآخرُ إلى الموت، وتتجمع الفاعليَّة الخاترة في قلب الشيخ وتكون الفاعليَّة الغزيرة في قلب الولد وتمتدُّ إلى الخارج. وهو يشعر بمقدارٍ من الحياة يكفي لإنعاش جميع مَنْ يحيطون به، ولا طائلَ في أن يفعل أو يُبطل، ويكفي أن يُغيِّرَ حالَ الأمور؛ فكلُّ تغييرٍ عمليٍّ، وإذا ما لاح أكثرَ ميلًا إلى الهدم لم يكن هذا عن شرِّ قَطُّ، بل عن كونِ العملِ المُصوَّر بطيئًا دائمًا، وعن كونِ العملِ الهادم أحسنَ ملائمَةً لنشاطه لأنه أكثرُ سرعة.

وبينا يُنعمُ صانع الطبيعة على الأولاد بهذا المبدأ الفعَّال، يُعنى بأن يكون أقلُّ ضررًا، وذلك بتركه لهم قوَّةً قليلةً لاستعماله، ولكنهم عندما يقدرُّون على عدِّ الناس الذين يحيطون بهم آلاتٍ يُسيِّرونها؛ فإنهم يستخدمونها في تنفيذ رغبتهم والعروض من ضَعْفهم، وهكذا يَعدون مزعجين باغين متجربين أشرارًا جامحين. وينشأ التقدُّم الذي لا يأتي من رُوح السيطرة الطبيعي عن الذي يَمْنَحهم إياه، وذلك أنه لا يتطلَّب طويلاً تجرِبَةً أن يُشعر بمقدار اللذة في العمل بأيدي الآخرين، وفي عدم الحاجة إلى غير تحريك اللسان لتسيير العالم.

وإذا ما كَبُرَ الولدُ اكتسب قوَّةً وأصبح أقلَّ قلقًا واضطرابًا وأكثر استقلالًا، وهكذا يتوازن الرُّوح والبدن. ولا تطالبا الطبيعةُ بأكثرَ من الحركة الضرورية لبقائنا، بيِّد أن الرغبة في القيادة لا تزول مع الحاجة التي نشأت عنها؛ فالسلطان يوقِّظُ حبَّ الذاتِ ويصانعه، والعادة تقوِّيه، وهكذا يَعقُبُ الهوى الحاجة، وهكذا تكون لمُبتسراتِ الرأي جذورها الأولى.

وإذا ما عُرف المبدأ مرةً اتضحت لنا النقطة التي تُترك منها طريقُ الطبيعة، فلنُبصرَ ما يجبُ أن يُصنع للبقاء عندها.

ويُعَدُّ الأولادُ من أن يكونوا ذوي قوَّةٍ بالغة، حتى إنه ليس عندهم من القوَّة ما يكفي لما تطالبهم به الطبيعة؛ ولذا يجب أن يُترك لهم استعمالُ جميع القوى التي تُنعم الطبيعةُ بها عليهم، فلا يَمكِنُهم أن يُسيِّعوا استعمالها، وهذا هو المبدأ الأوَّل.

ويجب أن يُساعدوا، وأن يُتدارك ما يُعوّزهم من المعرفة أو القوة في كلّ احتياجٍ بدني، وهذا هو المبدأ الثاني.

ويجب أن يُقتصرَ في العَوْن الذي يُمدُّون به على النافع الحقيقي، من غير أن يُلبّي داعي الهوى أو الرغبة بلا سبب؛ وذلك لأن الهوى لا يُزعجهم مطلقاً إذا لم يُحدّث؛ فالهوى ليس من الطبيعة، وهذا هو المبدأ الثالث.

ويجب أن تُدرّس لغتهم وإشاراتهم بعناية، وذلك لكي يُفرّق في رغباتهم في سنّ لا يُعرفون أن يخادعوا فيها، بين ما يُصدّر عن الطبيعة مباشرةً وما يُصدّر عن الرأي، وهذا هو المبدأ الرابع. وتقوم رُوح هذه المبادئ على مُنح الأَوْلادِ حريّةً حقيقيّةً كثيرةً وقليلَ سلطان، وأن يُترك لهم كبيرٌ مجالٍ للعمل بأنفسهم وقليلٌ تطلُّبٍ من الآخرين، وهكذا يتعوّدون باكراً أن يُقصرُوا رغباتهم على قواهم، فيقلُّ شعورهم بحرمانهم ما لا يكون ضمن طاقاتهم.

وهذا إذن سببٌ جديدٌ بالغ الأهمية لتترك أجسام الأَوْلادِ وأعضائهم طليقةً تماماً، وذلك على أن يُعدوا من الخطر والسقوط، وأن يُردَّ عن أيديهم كلُّ ما يُمكن أن يؤذيهم.

ولا مرءٍ في أن الولد الطليق البدن والذراعين يكون أقلَّ بكاءً من الولد المشدود ضمن قِماط. ولا يبكي الولد الذي لا يُعرّف غير احتياجات البدن ما لم يتوجّع، وينطوي هذا على فائدةٍ عظيمة؛ وذلك لأنه يُعلّم بذلك متى يحتاج إلى العَوْن تماماً، فلا يتأخّر ثانيةً عن منحه إياه جهْد الاستطاعة. ولكنكم إذا لم تستطيعوا تسكينه فابقوا هادئين غير مدارين إياه تسكيناً له، فلا تشفيه ملاطفتكم عن مَغصه، ومع ذلك فإنه سيذكر ما يجب أن يُصنَع لِصانع، وهو إذا عرّف أن يحملكم على المبالاة به مرةً وُفق ما يريد أصبح سيدكم، وضاع كلُّ شيء.

ويكون الأَوْلادُ أقلَّ بكاءً إذا قلّت معاكستهم في حركاتهم، وهم إذا ما قلَّ القلق من دموعهم قلَّ الألم من حملهم على السكوت، وهم إذا ما قلَّ تهديدهم أو مداراتهم غالباً غدواً أقلَّ جُبناً أو عناداً، وظلُّوا أحسنَ وضعاً في حالهم الطبيعية. وتحدّث الفتوق في الأَوْلادِ ببكائهم أقلَّ مما بالمبادرة إلى تسكينهم، ودليلي على ذلك كونُ الأَوْلادِ المُهمَلين أقلَّ عُرضةً للفتق من غيرهم، ومع ذلك تجدني بعيداً جداً من كلّ رغبةٍ في إهمالهم، وعلى العكس أرى أن يُجابوا إلى رغبتهم قبل أن يُعبّروا عنها، وألاً تُعلّم احتياجاتهم بصراخهم، ولكنني لا أريد أن يُبتعد عن الفطنة في العناية بهم. ولم يكون من الخطأ بكاؤهم ما داموا يرون دموعهم صالحةً لنيل كثيرٍ من الأمور؟

إذا ما عَلِمُوا أَيُّ ثَمَنِ يَكُونُ لِسُكُوتِهِمْ احْتِرَازًا مِنْ تَبْدِيدِهِ، وَهُمْ يَبْلُغُونَ مِنَ الْغُلُوِّ فِي اسْتِغْلَالِهِ مَا لَا يُؤَدِّي ثَمَنُهُ مَعَهُ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ، وَهَنَالِكَ يَجِدُونَ وَيَضُنُّونَ وَيَسْكُتُونَ عَنْ بَكَاءِ بَلَا جَدْوَى.

وَلَيْسَتْ دَمُوعُ الْوَلَدِ غَيْرِ الْمَقِيدِ وَلَا الْمَرِيضِ وَالَّذِي لَا يُعَوِّزُهُ شَيْءٌ، لَيْسَتْ دَمُوعُ هَذَا الْوَلَدِ غَيْرِ دَمُوعِ عَادَةِ وَعِنَادِ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الدَّمُوعُ مِنْ عَمَلِ الطَّبِيعَةِ، بَلْ مِنْ عَمَلِ الْمُرْضِعِ الَّتِي لَا تَطْبِقُ مَا تُوَجِّهُ مِنْ إِزْعَاجٍ فَتَزِيدُهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْطُرُ بِبَالِهَا كَوْنُ الْوَلَدِ إِذَا مَا أُسْكِتَ الْيَوْمَ حَرَضَ عَلَى الْبَكَاءِ غَدًا بِمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ.

وَالْوَسِيلَةُ الْوَحِيدَةُ لِلشِّفَاءِ مِنْ هَذِهِ الْعَادَةِ أَوْ مَنَعِهَا هُوَ أَنْ يُتَغَافَلَ عَنْهَا، وَلَا يَوَدُّ أَحَدٌ، حَتَّى الْأَوْلَادِ، بِذَلِكَ جُهْدٍ عَلَى غَيْرِ جَدْوَى. أَجَلٌ، إِنَّهُمْ يُصِرُّونَ عَلَى مُحَاوَلَاتِهِمْ، وَلَكِنَّمْ إِذَا كُنْتُمْ أَكْثَرَ عِنَادًا مِنْهُمْ فَتَرْتِ هَمَّتْهُمْ وَلَمْ يَعُودُوا إِلَى ذَلِكَ مُطْلَقًا، وَهَكَذَا تُوقَّرُ عَلَيْهِمْ دَمُوعُهُمْ وَيُعَوِّدُونَ عَدَمَ سَكَبِ شَيْءٍ مِنْهَا مَا لَمْ يَحْمِلْهُمْ الْأَلْمُ عَلَى ذَلِكَ.

ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا مَا بَكَؤُا عَنْ هَوَى أَوْ عَنْ عِنَادٍ كَانَتْ الْوَسِيلَةُ الْوَثِيقَةُ لِمَنَعِهِمْ مِنَ الْاسْتِمْرَارِ عَلَى هَذَا أَنْ يُلْهَوْا بِشَيْءٍ مُسْتَحَبٍّ مُؤَثِّرٍ يَنْسَوْنَ بِهِ أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ الْبَكَاءَ، وَيُجِيدُ مَعْظَمُ الْمَرَضِعِ هَذَا الْفَنَّ الَّذِي إِذَا مَا أَحْسِنَ اسْتِعْمَالُهُ كَانَ مَفِيدًا جَدًّا، وَلَكِنْ مِنَ الْمَهْمِ إِلَى الْغَايَةِ أَلَّا يَشْعُرَ الْوَلَدُ بِنَيْتَةِ إِلْهَائِهِ، وَأَنْ يَتَلَهَّى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّهُ يُفَكِّرُ فِيهِ، وَهَذَا مَا يَبْدُو فِيهِ جَمِيعُ الْمَرَضِعِ غَيْرِ مَاهِرَاتِ. وَيُقَطَّمُ جَمِيعُ الْأَوْلَادِ بَاكِرًا، وَيُشَارُ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُقَطَّمُوا فِيهِ بِنَيْتِ الْأَسْنَانِ، وَيَكُونُ هَذَا النَّبْتُ شَاقًّا أَلِيمًا عَلَى الْعُمُومِ، وَهَنَالِكَ يَحْمِلُ الْوَلَدُ إِلَى فَمِهِ، مُتَوَاتِرًا وَبِغَيْرِةِ آلِيَةٍ، جَمِيعٌ مَا يُمَسِكُ لِيَمْتَضِعَهُ، وَيُرَى أَنْ الْعَمَلَ يَسْهُلُ بِإِعْطَائِهِ جَسْمًا صُلْبًا كَأَلْهِيَةِ، وَذَلِكَ كَالْعَاجِ أَوْ سَنِّ الذَّنْبِ. وَأَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا خَطَأٌ؛ فَالْأَجْسَامُ الصُّلْبَةُ إِذَا مَا وُضِعَتْ عَلَى اللَّتَاتِ كَانَ مِنَ الْبَعِيدِ أَنْ تُلْبِثَهَا، وَإِنَّمَا تَجْعَلُهَا جَاسِئَةً وَتُصَلِّبُهَا وَتُعَدُّ تَمَرِّقًا أَشَدَّ مَشَقَّةً وَأَعْظَمَ أَلْمًا، وَلِتَخَذِ الْغَرِيزَةُ مَثَالًا دَائِمًا، فَلَا تُرَى الْجِرَاءُ مِمَارِسَةَ أَسْنَانِهَا النَّابِتَةِ عَلَى الْحَصَى أَوْ عَلَى الْحَدِيدِ أَوْ عَلَى الْعِظَامِ، وَإِنَّمَا تُمَارِسُهَا عَلَى الْخَشَبِ أَوْ الْجِلْدِ أَوْ الرِّثَاثِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَوَادِّ اللَّيِّنَةِ الَّتِي تَنْحِنِي وَالَّتِي تَنْطَعِ عَلَيْهَا السِّنُّ.

وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَكُونَ بُسْطَاءً فِي شَيْءٍ، حَتَّى حَوْلَ الْأَوْلَادِ. وَيَا لِلْأَجْهَزَةِ غَيْرِ النَّافِعَةِ وَالضَّارَّةِ كَالْجَلْجَلِ الْفِضِّيَّةِ وَالذَّهَبِيَّةِ وَالْمَرْجَانِيَّةِ، وَكَالْبَلُّورِ ذِي الْوَجْهِ، وَاللُّعْبِ مِنْ أَيِّ ثَمَنِ أَوْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ! لَا شَيْءٌ مِنْ جَمِيعِ هَذَا؛ فَلَا جَلْجَلَ وَلَا لُعْبَ؛ فَلَهُ فِي أَغْصَانِ الشَّجَرِ الصَّغِيرَةِ مَعَ أَثْمَارِهَا وَأَوْرَاقِهَا، وَلَهُ فِي رَأْسِ الْخَشْحَاشِ الَّذِي يُسْمَعُ فِيهِ طِنِينُ الْحَبِّ، وَلَهُ فِي عِرْقِ السُّوسِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَضِعَهُ وَيَمْتَضِعُهُ؛ أَلْهِيَّةٌ كَمَا فِي تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الْفَاحِرَةِ، وَذَلِكَ مَعَ عَدَمِ اشْتِمَالِهَا عَلَى تَعْوِيدِهِ النَّفَاسِ مِنْذُ وِلَادَتِهِ.

ومن المعترف به كون الحساء غذاءً غير صحيّ كثيرًا، وينشأ عن اللبن المغليّ والدقيق غير المطبوخ ذرّن، ولا يلائمان معدّتنا. ويكون الدقيق في الحساء أقلّ نضجًا مما في الخبز، فضلًا عن عدم اختماره. ويلوخ لي أن الخبز المنقوع في ماءٍ ورُبدة، وقشدة الأرزّ أفضل من ذلك، وإذا كان لا بدّ من صنع حساءٍ كان من الملائم تحميص قليل من الدقيق مُقدّمًا. وفي بلدي يُصنع من الدقيق المُحمّص هكذا حساءً لذيذٌ جدًّا، صحيّ جدًّا، وكذلك مرقّ اللحم والرّبذ غذاءٌ متوسط؛ فلا ينبغي اتخاذهما إلا قليلًا ما أمكن، ومن المهم أن يتعوّد الأولاد المضغّ في البداية، وهذه هي الوسيلة الحقيقية لتسهيل نبت الأسنان؛ فمتى أخذ الأولاد يبلعون سهلت الهضم عُصارة اللعاب الممزوجة بالأغذية.

وسأجعلهم يمضغون الفواكة الجافّة وكسر الخبز إذن، وسأعطيهم، كألّوية، أصابع صغيرة من الخبز الناشف أو بسكوّتًا مشابهًا لخبز بيّمونت، فيسمّى غريسا في هذا البلد، ويتلعون قليلًا من هذا الخبز في آخر الأمر عن كثرة ما يُلان منه في أفواههم. وتنبّث أسنانهم، ويُفطم الولد من غير أن يشعر بذلك. وتوجد للفلاحين معدّ صالحة عادةً فيفطمون بلا ضوضاء.

ويسمع الأولاد الكلام منذ ولادتهم، ولا يُخاطب الأولاد قبل أن يدركوا ما يقال لهم فقط، بل قبل أن يستطيعوا ردّ الأصوات التي يسمعونها، ولا تقوم الأعضاء التي لا تزال خدرة بتقليد الأصوات التي تُملَى عليها إلا بالتدريج، حتى إنه ليس من الثابت أن تفرغ هذه الأصوات آذانهم، كما تفرغ آذاننا بجلاء. ولا ألوم المُرَضِع على إلهاء الولد بأغانٍ ونباتٍ مريحة منوعة، ولكنني أكره أن تُرَجَّح بطائفة من الكلام الفارغ لا يفقه منها غير ما تَضَعه فيها من نغم. وكلّ ما أوّد هو أن تكون المفاصل الأولى التي يُسمّعها نغيسة سهلة واضحة مُكرّرة غالبًا، وأن تكون الكلمات التي تُعبّر عنها دالّة على أشياء محسوسة، يُمكن أن تكون أوّل ما تُعرض على الولد. وتبدأ السهولة المشؤمة في استعمال الكلمات التي لا تُدركها باكرًا أكثر مما نظن. ويسمع الطالب وهو في الصفّ هدّر مُعلّمه كما كان يسمع ثرثرة مُرَضِعِهِ وهو في القمّاط. ويلوخ لي أن من حُسن التربية تركه جاهلًا في كلا الحالين.

ومتى أريد الاكتراث لتكوين لغة الأولاد وكلامهم الأوّل أتت التأملات جملة. ومهما يكن من أمر فإن الأولاد يتعلمون الكلام على نمطٍ واحدٍ دائمًا، وهنا تكون جميع النظريات الفلسفية غير نافعة إلى أبعد حدّ.

وذلك أوّلًا أنّ لهم نحوًا ملائمًا لُغْمَرِهِمْ ذا إعرابٍ وقواعدٍ أعمّ مما في نحونا، وإذا ما أنعم

النظر في ذلك دُهِشَ من دَقِّهم في بعض المشابهات الكثيرة الانتظام مع ما فيها من نقص كبير، والتي لا تكون نايبةً إلا لجفائها أو لأن العادة لا تُقَرُّها. ومنذ قليلٍ سمعتُ ولدًا يتهرهُ أبوه لقوله: **Mon père-irai-je-t-y?** والواقعُ أن هذا الولدَ اتَّبَعَ القياسَ بأوثق مما يتَّبعُ نحوُّونا؛ وذلك أنه يُقال له: **Va-s-y**، فلم لا يقول: **Irai-je-t-y?** وفضلاً عن ذلك فانظروا مبلغَ المهارة التي يتجنَّب بها التقاءَ حرفي العلة في **irai-je-y?** أو **y-irai-je?**، وهل من خطأ الولد أن كُنَّا على غير صوابٍ في نزعنا من الجملة طرفَ **y** القاطع لأننا لم نعرف ما نصنع به؟ إنَّ من الحدِّقة التي لا تُطاقُ ومن العناية الفارغة أن يُصلح في الأولاد جميع الأغلبيط الصغيرة المخالفة للعادة والتي تُصحح مع الزَّمن من تلقاء نفسها. فليكن كلامكم صحيحاً أمامهم دائماً، واجعلوهم لا يُسْرُونَ بأحدٍ سرورهم بكم، ثمَّ ثَقُوا بأن لسانهم يَقُومُ وَفَق لسانكم على وجهٍ غير محسوس، ومن غير أن تقوموا بإصلاح في ذلك نحوهم.

ولكنه يوجد شرٌّ أبلغ من ذاك لا يسهل اجتنابه، وذلك أنه يُعجِّل كثيراً في حمل الأولاد على الكلام، كأنه يُخشى ألا يتعلّموه بأنفسهم، وذلك الاستعجال الطائش يؤدي مباشرة إلى نتيجة مخالفة للمطلوب، وذلك أنهم يتكلّمون بذلك مؤخراً على وجه أشدّ احتلاطاً، وذلك أن العناية المنتهية التي تُبدل حول كلِّ ما يقولون تُعفيهم من الكلام بوضوح، وذلك بما أنهم لا يكادون يفتحون أفواههم فإن كثيراً منهم يحتفظ، مدى حياته، بعب في اللفظ وينطق مختلطاً يجعلهم أعياء تقريباً.

وقد عشتُ كثيراً بين القرويين فلم أسمع قطُّ واحداً من رجالهم أو نسايتهم أو بناتهم أو بييتهم يَلتغ، ومن أين يأتي هذا؟ أفكُوت أعضاء القرويين على غير تكوين أعضاءنا؟ كلاً، وإنما دُرِّبت على وجهٍ آخر. وتوجد أمام نافذتي أرضٌ يجتمع فيها أولادُ المحلِّ ليلعبوا، وأميز ما يقولون تماماً على ما بيني وبينهم من مسافة، فأستخرج منها في الغالب مذكّراتٍ صالحة لهذا الكتاب. وفي كلِّ يومٍ تخذعني أذني حول سنّهم، وذلك أنني أسمع أصوات أولادٍ في العاشر من عُمرهم، وأنظر وأرى قوام أولادٍ وملامح أولادٍ تترجح سنّهم بين الثالثة والرابعة، ولا أقصرُ تجربتي على نفسي، وأستطلع رأي الزائرين لي من أهل المدن في ذلك، فأجدهم على ذات الخطأ.

ويتشأ هذا عن كون أولاد المُدن، المترجحة أعمارهم بين الخامس والسادس، والذين يُنشئون في الغرفة وتحت جناح مُربيّة؛ لا يحتاجون إلى غير الهمة لِيُسمَعوا، فإذا ما حرَّكوا شفاههم وُجدت مشقة في الاستماع إليهم، ويلقنون كلماتٍ يردّونها تردداً سيئاً، فيتنبأ عن الأشخاص الذين يكونون حولهم في كلِّ وقتٍ بما يريدون أن يقولوا، لا بما يقولون.

والأمر غير ذلك في الأرياف؛ فالقروية لا تكون حول ولدها بلا انقطاع، فيضطر هذا الولد أن يتعلم قول ما يُريد واضحاً عاليًا جدًا. ويكون الأولاد في الأرياف متفرقين بعيدين من الأب والأم والأولاد الآخرين، فيدربون أنفسهم على أن يُسمِعوا من مسافة بعيدة وعلى قياس الصوت بالفاصلة التي تفصلهم عما يريدون إسماعهم، وهذا هو الوجه الذي يُعلمون به النطق حقًا، لا أن يُتبعوا ببعض الحروف الصوتية في أذن مُربّية يقطي. ومما يحدث أن ابن القروي إذا ما سُئل أمكن منغ الحياء إياه من الجواب، غير أن ما يقول يقوله واضحًا، وذلك بدلًا من أن تقوم الخادمة مقام المترجم لابن المدينة، ولولا هذا ما أدرك شيء مما يُتمتم بين أسنانه.^{٣٠}

وإذا ما كبر البنون وجب أن يُقَوِّموا هذا النقص في المدارس، وإذا ما كبر البنات وجب أن يقومن في الأديار، والحق أن كلا الفريقين يتكلم على العموم بأوضح من كلام من يُنشئون في بيت الأب، ولكن الذي يمنعهم من اكتساب نطق خالص كناطق القرويين هو ضرورة تعلم أمور كثيرة على ظهر القلب، وتلاوة ما تعلموا عن ظهر القلب؛ وذلك لأنهم إذا ما درسوا تعودوا اللثنية وتهاونوا بالنطق وأساءوا اللفظ، ولأنهم إذا ما تلووا عن ظهر القلب أتوا ما هو أسوأ من ذلك، وهم في ذلك يتلمسون الكلمات بجهد، وهم في ذلك يمتطون المقاطع ويمططونها، وليس من الممكن ألا يُلجج في الكلام أيضًا إذا ما ترججت الذاكرة. وهكذا تُكتسب عيوب النطق وتدوم، وسيرى فيما بعد أن إميل لا يكتسب هذه العيوب، أو أنه لا يكتسبها عن ذات العمل على الأقل. وأسلم بأن الشعب والقرويين ينزلون إلى طرف متناهٍ آخر، وأنهم يتكلمون بما هو أعلى مما يجب دائمًا تقريبًا، وأنهم إذا ما كانوا دقيقين النطق كانت مفصلهم شديدة جافية، وأنهم كثيرو التبرات، وأنهم سيئو الاختيار لألفاظهم... إلخ.

بيد أن هذا التناهي يبدو لي أولًا أقل عيبًا بمراحل من ذلك ما دام قانون الكلام الأول هو الإسماع، وما دام أعظم خطأ يُصنع هو أن يقع الكلام من غير أن يُسمع. ومن يفاخر بعدم وجود نبرات له يعني أنه يفاخر بتجريد الجملة من طلاوتها وطاقتها؛ فالنبرات روح الكلام، وهي تُنعم

^{٣٠} ليس هذا بلا استثناء؛ ففي الغالب أن أقل الأولاد إسماعًا في البداية يصبحون أكثر الأولاد إزعاجًا فيما بعد؛ أي عندما يأخذون في رفع الصوت، ولكن الأمر إذا ما قضى بالدخول في الجزئيات لم أنه من الكلام؛ فعلى كل قارئ حصيف أن يرى أن الزائد والناقص المشتق من سوء استعمال واحد يصححان بمنهجي على السواء، وأجد أنه لا يمكن فصل أحد المبدأين الآتين عن الآخر، وهما: «حُب التناهي غلط، وخير الأمور الوسط»، ومن المبدأ الثاني ينشأ الأول بحكم الضرورة.

على الكلام بالإحساس والصحة، والنبات أقل كذباً من الكلام، وقد يكون هذا سبب خشية الناس إياها كثيراً. وتنشأ عادة التهكم بالناس من غير أن يشعروا عن عادة قولهم كل شيء على وتيرة واحدة، وإذا ما حُرمت النبات عَقْبَتُهَا طُرُزٌ للنطق مضحكة مموهة عابرة كالتى تلاحظ لدى شيان البلاط. وهذا التصنع في الكلام والوضع يجعل وصول الفرنسي كريهاً مُنْقَرًا لدى الأمم الأخرى، وفي هيئته، لا في كلامه، ما يصنع الثبرات، وهذا ما لا يكون وسيلة جذبٍ إليه.

ولا تُعدُّ شيئاً جميع هذه الهنات في الكلام التي يُخشى اكتساب الأولاد لها؛ فمن السهل جداً منع وقوعها أو إصلاحها، ولكن الخطأ الذي يكتسبونه لا يُصْلَحُ أبداً بجعل كلامهم مُهْمًا غامضاً جافلاً، وينقد لهجتهم نقداً مستمراً، وبتنقية جميع ألفاظهم، ولا يُسْمَعُ الرَّجُلُ وهو على رأس فرقة إذا ما تعلم الكلام في رداه الاستقبال فقط، وقُلْ مثلاً هذا عن وضعه تجاه شعبٍ ثائر، فعلموا الأولاد أن يخاطبوا الرجال قبل كل شيء، وهم سيَعْرِفون مخاطبة النساء عند الاقتضاء.

قوموا بتربية أولادكم في الأرياف بكل ما في الريفية من خشونة؛ فهناك يكتسبون صوتاً أكثر ريناً، وهناك لا ينالون مطلقاً لجلجة أولاد المدن المهمة، وكذلك لا ينالون تعبيرات القرية ولا لهجتها، أو إنهم يفقدونها بسهولة عندما يمنعها المُعَلِّم الذي يعيش معهم منذ ولادتهم، والذي يعيش هناك حصراً يوماً بعد يوم، أو يَمْحُو بتقويم لسانه أثر لسان القرويين. وستكلم إميل فرنسيةً أصفى من كل ما أعلم، ولكنه سيتكلمها بأجلى مما لدي، وسيُنطق بها نطقاً أحسن مما عندي.

ولا ينبغي للولد الذي يحاول الكلام أن يسمع غير الكلمات التي يستطيع أن يدركها، ولا أن يقول غير الكلمات التي يستطيع أن يلفظ بها. وما يبدل من جهود في هذا السبيل يحمّله على تكرير عين المقطع كما لو كان يُمرّن نفسه على النطق به نطقاً أكثر جلاء. وهو إذا أخذ يتلجلج فلا تُزعجوا أنفسكم كثيراً في اكتشاف ما يقول. ويُعدُّ الزعم بأن يُسمع دائماً ضرباً من السيطرة التي لا يجوز للولد أن يمارس شيئاً منها. واقتصروا على تدارك ما هو ضروريّ بدقة بالغة، ودعوه يحاول جعلكم تُدركون الباقي، وأقل من ذلك ضرورة الإسراع في مطالبته بأن يتكلم؛ فهو سيَعْرِفُ الكلام من تلقاء نفسه كلما شعر بفائدته.

ومما يلاحظ حقاً كون الذين يبدؤون بالكلام متأخرين لا يتكلمون بوضوح كالآخرين، ولكن تكلمهم متأخرين لا يعني بقاء صوتهم مرتبكا، وعلى العكس تجد أن ولادتهم بصوت مرتبك سبب تأخرهم في الكلام، وإلا فلم يتكلمون متأخرين عن الآخرين؛ أو كانت فرصة الكلام لديهم أقل مما عند غيرهم، أم إنهم يُحَرِّضون عليه أقل مما يُحَرِّض عليه سواهم؛ فالواقع خلاف

ذلك؛ أي إن ما يُوجبه هذا التأخير من همّ فور الشعور به يؤدي إلى مضاعفة الجِدِّ في حَمْلهم على اللجاجة أكثر من حَمَلٍ مَن لفظوا باكراً. ويُمكن هذا التهاؤن الخاطي أن يساعد على جعل كلامهم مختلطاً مع أن غيراً أقل من تلك تجعل لديهم وقتاً يكون فيه كلامهم أكمل من ذلك.

وليس لدى الأولاد الذين يُحرَضون كثيراً على الكلام من الوقت ما يتعلمون فيه حُسن النطق ولا حُسن تصوُّر ما يُحمَلون على قوله، وذلك بدلاً من أن يُتركوا وشأنهم فيُدربوا أنفسهم في البداءة على أسهل المقاطع في النطق. وهم إذ يُضيفون بالتدريج معنى يُدرك من حركاتهم، فإنهم يُعطون كلماتهم قبل أن يتلقوا كلماتكم، وهم بهذه الوسيلة لا يتلقون كلماتكم قبل أن يفهموها، وهم إذ لم يُحْتُوا على استعمالها قط فإنهم يُحسِنون ملاحظة المعنى الذي تُطلقونه عليها، وهم إذا ما استيقنوها انتحلوها.

ولا يقوم أعظم سوء في استعجال الأولاد أن يتكلموا قبل الأوان على خلق مقالهم الأول وكلماتهم الأولى التي يتلفظون بها من المعنى لديهم، بل على وجود معنى آخر لها عندهم غير الذي يكون لها عندنا من غير أن ندرك ذلك؛ فهم إذ يبدون أنهم يجيبونا جواباً بالغ الصحة يخاطبونا من غير أن يُدركونا ومن غير أن نُدرِكهم، وهذه الملتبسات عادة هي مصدر الخيرة التي يُلقينا كلامهم فيها أحياناً، وذلك لما نعوذ إليه من أفكار لم يقصدها به قط. ويظهر لي أن عدم انتباهنا هذا إلى أن معنى الكلمات لدى الأولاد علة أغاليطهم الأولى، وتؤثر هذه الأغاليط، حتى بعد أن يُشفوا منها، في طراز تفكيرهم في بقية حياتهم، وسيكون لدي أكثر من فرصة لإيضاح هذا بالأمثلة.

وضيقوا إذن نطاق مجموعة كلمات الولد ما أمكن، وذلك للضرر الكبير في حيازته كلمات أكثر من الأفكار ولمعرفته قول أشياء أكثر مما يُفكر فيه منها. وعندي أن من الأسباب في كون القرويين أثقَب فكرياً من أهل المدن هو أن مُعجمهم أقل اتساعاً. أجل، إنهم أقل أفكاراً، غير أنهم يُجيدون المقابلة بينها كثيراً.

ويتّم تقدّم الولد في شتى الطُرق دفعةً واحدة تقريباً. ويتعلم الولد الكلام والأكل والمشى في وقت واحد تقريباً، وهذا هو دور حياته الأول حقاً، ولا يكون قبل ذلك أكثر مما كان عليه في بطن أمه لما ليس لديه من شعور وفكر، وهو لا يكاد يكون ذا إحساس، حتى إنه لا يشعر بوجوده الخاص: فهو يعيش، ولا يشعر بحياته.

أوفيد

الجزء الثاني

هنا دور الحياة الثاني، هنا الدور الذي تنتهي عنده الطفولة **enfance**؛ وذلك لأنّ الكلمتين **puer infans** ليستا مترادفتين؛ فالأولى مُدْمَجَّةٌ في الثانية، وهي تعني «الذي لا يستطيع الكلام»، ومن ثمّ يأتي وجودُ **puerum infantem** في فالير مَكْسِيم، ولكنني أداومُ على استعمالِ هذه الكلمةِ وفقَّ اصطلاح لغتنا، وذلك حتى العُمُر الذي يوجد له أسماءٌ أخرى.

ومتي أخذ الأطفال يتكلمون قلَّ بكاؤهم. وهذا التقدُّمُ طبيعي، وتقوم لغةٌ مقامَ لغة، وإذا ما استطاعوا أن يقولوا بالكلام إنهم يألَمون فلم يقولون الكلام مع صُراخٍ إذا لم يكن الألم من الشدَّة ما لا يُقدِّر الكلام معه أن يُعبَّر عنه؟ وإذا ما استمروا على البكاء هنالك كان هذا ذنبٌ من يحيطون بهم، وإذا قال إميلُ مرةً «أتوجَّع»، وجب وجودُ آلامٍ شديدةٍ تحمله على البكاء.

وإذا كان الولدُ سريع الانفعالٍ سريع التأثر، وإذا ما أخذ يصُرخ عن طبيعةٍ وبلا سبب، جعلتُ هذه الصُرخاتٍ غيرٍ مجدبةٍ غير ذاتِ فِعْلٍ مُستنزِفًا للنبوغ من قُوري، ولا أذهبُ إليه ما دام يبكي، وأهرعُ إليه حالاً عندما يسكت. ولا تلبثُ طريقةُ دعوته إياي أن تقومَ على الصمتِ أو إلقاءِ صرخةٍ واحدةٍ على الأكثر. ويُدرك الأولادُ معنى الإشارات بنتائجها الحسية، ولا يوجد لدى الأولاد معنىً آخر، ومن النادر أن يبكي الولدُ إذا كان وحده مهما بلغ من إبلام نفسه، وذلك ما لم يأمل سماعه.

وهو إذا ما سقط، وهو إذا ما ورَّم رأسه، وهو إذا ما أدمى أنفه، وهو إذا ما قَطَعَ أصابعه؛ بقيتُ ساكناً ولو لدقيقةٍ واحدة على الأقلٍ بدلاً من أن أسرع إليه مدعوراً، فأما وقد وقع الأذى فإن الضرورةَ تقضي بأن يُعانيه، ولن ينفع هرعِي لغير زيادةٍ دُعره وانفعاله. وفي الأساس أن الفزع يؤلم أكثر من الضرب عند الجرح، وأوفرُّ له هذا العذاب المُبرِّح على الأقل. ومما لا ريب فيه أنه يحكم في ضرره كما يرى من حُكمي فيه، وذلك أنه إذا رأني أهرعُ إليه جزوعاً فأُسليه وأتوجَّع له؛ أيقن ضياع نفسه، وأنه إذا رأني محافظاً على اعتدالِ دمي استردَّ اعتدالَ دمه من فوره، واعتقد شفاؤه من الصَّرب عندما يُصبح غيرَ شاعرٍ به. وفي هذا الدور يتلقَّى دروسَ الشجاعةِ الأولى؛ فهو إذا ما احتملَ الآلامَ الخفيفةَ بلا وَجَلٍ تعلَّم احتمالَ عظيمها بالتدريج.

ولا أزعجُ نفسي بأن أمنع إميلَ من إيذاء نفسه، ومما يغيظني كثيراً ألا يؤدي نفسه مطلقاً، وأن يكبَّر من غير أن يعرف الألم. والألمُ أوَّلُ شيءٍ يجب أن يتعلَّمه، وهو أعظمُ ما يحتاج إلى معرفته. ويظنُّ أن الأولادَ ليسوا صغاراً ضعافاً إلا لتلقيهم هذه الدروسَ المهمةَ بلا خطر. ولا يكسِرُ الولدُ ساقه بسقوطه، ولا يكسِر ذراعه بأن يضربها بالعصا، وإذا ما قبض الولدُ على سكينٍ

لم يكسب عليها ولم يُمعن في جرح نفسه، ولا أعرف أنه رُئي ولدٌ ترك وشأنه فقتل نفسه أو عطّلها أو أصابها بأذى كبير، ما لم يكن قد عُرض للخطر عن عدم فطنة في أماكن مرتفعة أو حول النار وحده، أو جعلت أسلحة خطيرة في مُتناول يده. وما يُقال عن تلك الأجهزة التي تُجمع حول الولد لتسليحه بجميع الأدوات ضدّ الألم، حتى إذا ما كَبُرَ ظلّ تحت رحمته بلا شجاعة ولا تجرّية، وظنّ أنه هالكٌ عند أوّل وخزّة، وأغمي عليه عند أوّل قَطْرَةٍ يشاهدها من دمه؟

ويؤدّي هوسنا القائم على التلقين والحدلقة إلى تعليم الأولاد دائماً ما يُمكن أن يتعلّموه بأنفسهم أحسن من ذلك، وإلى إغفال ما نستطيع أن نُعلّمهم إياه وحدنا. وهل يُوجد ما هو أسخف من مُجهِد يُبدل في تعليمهم المشي كأنه رُئي ولدٌ لم يُقدّر على المشي عند كِبَرِهِ عن إهمال مُرضعه؟ وعلى العكس ما أكثر الذين رُئي أنهم سيّئو المشي مدى حياتهم لسوء ما علّموا من مشي!

ولن يكون لإميل فلنسيّة واقية ولا دراجة ولا عربة ولا برّيم إسناد، أو إنه إذا أخذ يعرف وضع قدم أمام الأخرى، على الأقل، لم يُمسك في غير الأماكن المرصوفة، وحُمِلَ على مجاوزتها بسرعة،¹ ولُيوت به في كلّ يوم إلى مَرَجٍ بدلاً من أن يُحفظ آسناً في غرفة خانقة. والخير في عدوه ولعبه وسقوطه كلّ يوم مائة مرة هنالك؛ فهو لا يلبث أن يتعلّم النهوض من ذلك، وتُصنح نُغمى الحرية كثيراً من القروح. وسيصاب تلميذي برصوص في الغالب، وسيبقى مسروراً مقابله، وإذا كان تلاميذكم أقلّ رضاً بدؤوا خائبين مقيدين حُزناً دائماً، وأشكُّ في كون الغُثم بجانبهم.

وتقدّم آخر يجعل العويل للأولاد أقلّ ضرورة، وذلك هو تقدّم قوتهم؛ فالأولاد كلّما زادوا قوة نقص التجاؤم إلى الآخرين. ومع القوة ينمو إدراك الولد الذي يضعهم في حالٍ يوجّهونها به. وبهذا الدّور الثاني تبدأ حياة الفرد صَبْطاً، وهنالك يشعُر بنفسه، وتنبّه الذاكرة شعور الذات في جميع أوقات حياته، وهو يصبح واحداً حقاً، وهو يصبح عينه؛ أي أهلاً للسعادة أو الشقاء نتيجة؛ ولذا يحسُن أن يُبدأ بعده موجوداً أدبياً.

ومع أنه يُعيّن تقريباً أطول حدّ للحياة البشرية وما يكون من الاحتمالات للدنوّ من هذا الحد في كلّ جيل؛ فإنه لا شيء يُشكُّ فيه أكثر من مدى حياة كلّ إنسانٍ على انفراد، والذين يبُلغون ذلك الحدّ الأطول قليل. وأعظم أخطار الحياة في بدنها، وكلّما قلّ ما وقع من حياة وجب

¹ لا شيء أدعى إلى السخرية وسوء الضمان من مشينة أولئك الذين أكثر من سوقهم ببريم إسناد في صغرهم، وهذه من الملاحظات التي عُدتّ مبتدلةً لصوابها، والتي هي صائبة من عدة وجوه.

أن يكون الأمل قليلاً فيما بقي منها. ولا يكاد يصل نصف الأولاد الذين يُولدون إلى سنِّ المراهقة، ومن المحتمل ألاَّ يبلغ تلميذكم سنَّ الرّجل.

وما يجب أن يُفكّر فيه إذن حول تلك التّربية القاسية التي تُضخّي بالحاضر في سبيل مستقبل غير مُعيّن، والتي تُثقل الولد بقيود من كلِّ نوع، وتبدأ بجعله شقيّاً حتى يُعدّ في المستقبل البعيد لسعادة مزعومة يُوجد ما يحمل على الاعتقاد بأنه لن يتمتّع بها أبداً؟ وإني حتى عند افتراضي كون هذه التّربية صائبة كيف لا أنظر بعين الغيظ إلى هؤلاء التّساء المساكين الخاضعين لنير لا يُطاق، والمدّين بالأشغال الدائمة، كالمحكوم عليهم بالليمان، مع أنه ليس من الثابت كون هذه العناية الكبيرة نافعة على الإطلاق؟ وتمضي سنُّ المسرّة بين الدموع والعقوبات والتهديدات والعبودية، ويُعدّب التّعس نفعاً له، ولا يُصنّر الموت الذي يُدعى، ومن ذا الذي يُمسكه بين هذا الجهاز الكتيب، ومن يعرف عدد الأولاد الذين يَهلكون ضحيةً لحكمة الأب أو المُعلّم الطائشة؟ والأولاد إذ يكونون من السّعداء يافلاتهم من جورها، يكون نفعهم الوحيد من الشّور التي تُصيبهم بها هو أن يموتوا من غير أن يأسفوا على حياة لم يعرفوا منها سوى الآلام.

ويا أيها الرّجال كونوا إنسانيين، وهذا هو واجبكم الأوّل، كونوا إنسانيين في جميع الأحوال وفي جميع الأعمار وفي كلِّ ما ليس غريباً عن الإنسان. وأية حكمة تكون لديكم خارج الإنسانية؟ أحيوا الطّفولة، واسمّحوا بألعابها، وابتهجوا بمسراتها، وافرحوا بغريزتها المحبوبة. ومن منكم لم يأسف أحياناً على ذلك العُمر حيث يكون الضّحك على الشّفاه وتكون النفس مطمئنة؟ ولم تريدون أن تنزعوا من هؤلاء الأبرياء الصّغار بهجة زمنٍ بالغ القصر يُفلبت منهم، وخيراً بالغ القيمة لا يمكنهم إساءة استعماله؟ ولم تريدون أن تملئوا بالكرب والآلام تلك السّنين الأولى البالغة السرعة والتي لا يمكن أن تعود إليهم كما أنها لن ترجع إليكم؟ أو تعرفون الساعة التي ينتظر الموت فيها أولادكم أيّها الآباء؟ لا تُعدّوا لأنفسكم حشراتٍ بنزعكم منهم ما أنعمت الطبيعة عليهم به من أوقات، واصنعوا ما يتمتّعون معه بلذّة الحياة عندما يُمكنهم أن يشعروا بها، وافعلوا ما لا يموتون معه بلا تذوّق للحياة عندما يدعوهم الربُّ إليه.

وما أكثر ما سيرتفع ضديّ من أصوات! أسمع من بعيدٍ صيحات تلك الحكمة الكاذبة التي تُلقينا خارج أنفسنا دائماً، والتي لا تُعدّ الحاضر شيئاً مذكوراً دائماً، والتي تُشع بلا تَوَانٍ مستقبلاً كلّما سير إلى الأمام، وذلك نقلاً لنا من مكاننا إلى حيث لا نكون أبداً.

وسيكون جوابكم أن هذا دورُ إصلاحِ غرائزِ الإنسانِ السيئةِ، وأن الآلامَ في الطفولة تكون أقلَّ ما يمكن حسًّا، فيجب أن تُزادَ اقتصادًا بها في سنِّ الرُّشد. ولكن من قال لكم إنَّ جميعَ هذا النظامِ تحت تصرُّفكم، وإنَّ صرَّ جميعَ هذه التعليماتِ التي تُثقلون بها رُوحَ الولدِ الضعيفةَ لا يكون أكثرَ من نفعها ذاتَ يوم؟ ومن يُوكِّدُ لكم أنكم تقتصدون شيئًا بأحزانٍ تغمرونه بها، ولم تمنون عليه بشروءٍ أكثرَ مما تحتملُ حاله من غيرِ أن تَعَلِّموا أنَّ هذه الشرورَ الحاضرةَ لا تقيه شرورَ المستقبل؟ وكيف تُثبتون لي أنَّ هذه الميولَ السيئةَ التي تزعمون شفاءه منها لا تأتيه من عنايتكم السخيفةِ أكثرَ من صدورها عن الطبيعة؟ ويا له من احترازٍ مشنومٍ ذلك الذي يجعل الإنسانَ تَعَسًا في الحاضرِ رجاءَ جعله سعيدًا ذاتَ يوم، سواءً أقامَ هذا الرجاءَ على أساسِ صالحِ أم على أساسِ طالح! إذا كان هؤلاء المفكِّرون المخطئون يخلطون بين التَّحلُّلِ والحرية، وبين الولدِ الذي يُجعل سعيدًا والولدِ الذي يُدَلِّل؛ فلنَعَلِّمهم أن يُفرِّقوا بين الأمرين.

ولا نَسَ ما يلائمُ حالنا لكيلا نسيرَ وراء الأوهام. وللإنسانية مكانها في نظامِ الأمور، وللطفولةِ مكانها في نظامِ الحياةِ الإنسانية، فيجب أن يُنظرَ إلى الإنسانِ في الإنسان، وأن يُنظرَ إلى الطفلِ في الطفل؛ فوضعُ كلِّ واحدٍ في محلِّه وتثبيته فيه، وتنظيمُ الأهواءِ البشريةِ وفقَّ كيانِ الإنسان، هو كلُّ ما نستطيعُ فَعَله لسعادته، وأما البقيةُ فتتوقَّفُ على أسبابٍ خارجةٍ عن نطاقِ قُدرتنا.

ولا نَعْرِفُ ما السعادةُ المطلقةُ ولا الشقاءُ المطلق، وكلُّ شيءٍ مختلطٌ في هذه الحياة، ولا يُذاق فيها حسٌّ خالص، ولا يُبقي فيها على حالٍ واحدةٍ في وقتين. وترى عواطفَ نفوسنا وتحولاتَ أبداننا دائمةَ التقلُّب، ويكون الخيرُ والشرُّ مشتركين بيننا، ولكن على مقاديرٍ مختلفة، وأسعدُ النَّاسِ مَنْ يكون أقلَّ توجُّعًا بالآلام، وأشقى النَّاسِ مَنْ يكون أقلَّ شعورًا بالملاذ. ويقوم النَّصيبُ المشتركُ بين الجميعِ على وجودِ آلامٍ أكثرَ من الملاذِّ دائمًا، ولا تكون سعادةُ الإنسانِ في هذه الدنيا إذن غيرَ حالٍ سلبية، فيجب أن تُقاسَ بالمقدارِ الأقلِّ للشرورِ التي يقاسيها.

وكلُّ شعورٍ بالألم لا يمكنُ فَصْلُه عن الرغبةِ في الخلاصِ منه. وكلُّ رغبةٍ تفترضُ حرمانًا، وكلُّ حرمانٍ يُشعرُ به أليم؛ ولذا يقومُ بؤسنا على تفاوتِ رَغباتنا وطاقاتنا. ويُعدُّ كلُّ ذي إحساسٍ تتساوى رغبته وطاقته سعيدًا على الإطلاق.

وعلى أيِّ شيءٍ تقومُ إذن حِكْمَةُ الإنسانِ وسبيلُ السعادةِ الحقيقية؟ لا تقومُ على تقليلِ رغباتنا ضبطًا؛ وذلك لأنها إذا كانت دونَ قُدرتنا ظلَّ قِسْمٌ من طاقاتنا مُعطَّلًا ولم نتمتعَ بجميعِ وجودنا، وكذلك لا تقومُ على توسيعِ مدى طاقاتنا؛ وذلك لأن رغباتنا إذا ما اتَّسع مداها على

أعظم نسبةً أصبحت على أعظم بؤس. وإنما تقوم على تقليل الفرق بين الرغبات والطاقات، وعلى جعل القوة والإرادة متساويتين، وهنالك فقط حين تكون جميع قواه عاملة تبقى النفس مطمئنة، ويجد الإنسان نفسه على حالها الحسن.

وهكذا فإن الطبيعة التي جعلت كل شيء على أحسن ما يكون قد أنشأته أولاً، وهي لم تُعم عليه حالاً بغير الرغائب الضرورية لبقائه، وبغير الطاقات الكافية لقضائها. وأمّا جميع الأخرى فقد وضعها في أساس نفسه احتياطاً حتى ينمو بها عند الحاجة، وليس في غير هذه الحال الابتدائية ما يلتقي توازن القدرة والرغبة، وما لا يكون الإنسان شقيّاً، وحينما تخرج طاقته من حيز القدرة إلى حيز الفعل فإن الخيال الذي هو أكثرها عملاً ينتبه ويتقدّمها، والخيال هو الذي يوسع فينا نطاق الممكنات في الخير أو في الشر، وهو الذي يحرك الرغائب ويغذيها من حيث النتيجة رجاءً قضائها. غير أن الغرض الذي يلوح في البداءة تحت اليد يفرّ بأسرع مما يُمكن تعقبه، وهو إذا ما ظنّ بلوغه تحوّل وظهر بعيداً أماننا، ونحن نعود غير مدركين للبلد الذي طُفنا فيه، فلا نعتد به، ويعظم ما يبقى أماننا لنجوبه ويتسع بلا انقطاع. وهكذا يضنى الإنسان من غير أن يصل إلى الحد، وكلّما ذنونا من اللذة ابتعدت السعادة عنّا.

والإنسان على العكس كلّما بقي قريباً من حاله الطبيعية كان الفرق بين طاقاته ورغباته قليلاً، وقالّ ابتعاده عن السعادة نتيجةً، وهو لا يكون أقلّ شقاءً مطلقاً، إلا إذا ظهر خيالاً من كل شيء؛ وذلك لأن الشقاء لا يقوم على الحرمان من الأشياء، بل في الاحتياجات التي تُشعرُ بها.

وللعالم الحقيقي حدود، ولا حدود للعالم الخيالي. وإذ كُنّا لا نستطيع توسيع إحداهما فإن علينا أن نُضيّق الأخرى؛ وذلك لأنه ينشأ عن الفرق بينهما وحدّه جميع الآلام التي تجعلنا نعساء حقاً. وإذا عدوت القوة والصحة وحسن الحس؛ وجدت جميع محاسن الحياة مسألة رأي. وإذا عدوت آلام الجسم ووخز الضمير؛ وجدت جميع أوجاعنا خيالية. وسيُقَال لي إن هذا المبدأ عامٌّ، وأوافق على هذا، غير أن تطبيقه العملي غير عام، والعمل وحدّه هو ما نبالي به هنا.

وإذا ما قيل إن الإنسان ضعيف، فما يقصد بهذا؟ تدلُّ كلمة الضعيف هذه على نسبة، تدلُّ على نسبة الموجود الذي تُطبّق عليه، ويُعدُّ موجوداً قوياً من تزيّد قوّته على احتياجاته، ولو كان حشرة أو دودة، ويُعدُّ موجوداً ضعيفاً من تزيّد احتياجاته على قوّته ولو كان فيلاً أو أسداً أو فاتحاً أو بطلاً أو إلهاً. وكان المملّك العاصي الذي أنكر طبيعته أضعف من الفاني السعيد الذي يعيش مطمئناً وفق طبيعته. ويكون الإنسان قوياً جداً إذا ما رضي بما هو عليه، ويكون ضعيفاً جداً

إذا ما أراد أن يعلو الإنسانية؛ ولذا لا تظنوا أنكم تزيدون قوّاتكم بزيادة طاقاتكم، وعلى العكس تُقلّلونها إذا ما زاد زهوكم. ولتقيس قُطرَ دائرتنا، ولتبقَ في المركزِ كالحشرة في وَسَطِ نسيجها، وسنكون من الكفاية ما نقضي معه حاجتنا، ولا يكون لدينا من الأسباب ما نتوجّع معه من ضَعْفنا؛ وذلك لأننا لن نَشعرَ به مطلقًا.

ويُوجد لدى جميع الحيوانات من الطاقات ما هو ضروريٌّ لبقائها ضبطًا، والإنسان وحده هو الذي لديه زوائدٌ منها. أليس من الغريب أن يكون هذا الزائدُ سببَ شقائه؟ ذراعُ الإنسان في كل بلدٍ أتمنُّ من ذاته، ولو كان الإنسان من الحكمة ما لا يأبه معه لهذا الزائدِ لحازَ الضروريّ دائمًا لِمَا لا يكون عنده ما هو أكثر. وكان فافورنٌ يقول إن الاحتياجاتِ العظيمةَ تنشأ عن الأموالِ العظيمة، وإن أقومَ وسيلةً ليليل الإنسان ما يريدُ في الغالبِ هو أن يتخلّى عما يكون لديه، ونحوّل سعادتنا إلى شقاءٍ بعملينا في سبيلِ زيادةِ هذه السعادة. وكلُّ إنسانٍ لا يريد غيرَ الحياةِ يحيا سعيدًا، ويكون صالحًا نتيجةً، وذلك: أين يكون نفعه في كونه طالحًا؟

ولو كنّا خالدين لبدونا بائسين جدًا. أجل، إن من الشاقِّ على الإنسان أن يموت لا ريب، ولكن من العذبُ ألا يرجو الحياةَ دائمًا، وأن تَحْتِمَ حياةٌ أصلحُ من التي عليها آلامُ هذه الحياة، ولو غُرِضَ علينا الخلودُ في هذه الدنيا فمن مَنَّا يَرْضَى^٢ بهذا الحاضرِ الكئيبِ؟ وأيُّ سبيلٍ وأملٍ وسلوانٍ يبقى لنا ضدَّ شدائدِ التَّصيبِ ومظالمِ النَّاسِ؟ إن الجاهلَ الذي لا يُبصرُ شيئًا يشعرُ قليلًا بشمِّ الحياةِ ولا يخافُ أن يَفْقدها. وينظرُ المُنورُ إلى الأمورِ بتقديرٍ كبيرٍ، مفضلاً لها على ذلك. ولا يوجد غيرُ نصفِ المعرفةِ والحكمةِ الزائفةِ ما يورثنا أسوأَ الشرورِ عن مدِّ أبصارنا حتى الموتِ، لا إلى ما وراءه. وليست ضرورةُ الموتِ لدى الحكيمِ غيرُ سببٍ لاحتمالِ آلامِ الحياة، ولو لم يَعلم أنه سيفُفقدُها ذاتَ حينٍ لكان حَفْظُها ثَقيلًا كثيرًا عليه.

وتنشأ أمراضنا الأديبة عن المُبتسراتِ عدا الإجماعِ الذي يتوقّف علينا. وأمّا أمراضنا البدنيةُ فستهدم أو تقضي علينا. ويُعدُّ الوقتُ أو الموتُ دواءً لنا، ولكنَّ أَلَمنا يَكْثُرُ بنسبةٍ ما نَعْرِفُ من قِلَّةِ احتمالِه. ونحن نكابُدُ من العذابِ في سبيلِ الشفاءِ من أمراضنا ما هو أكثرُ من احتمالنا لها. وعشُّ كما تقتضيه الطبيعة، وكن صابراً، واطرُدِ الأطباءَ. أجل، إنك لا تجتنب الموت، بئد أنك لن تُجسِّسه غيرَ مرةٍ واحدة، وذلك على حينٍ يَحْمِلونه كلَّ يومٍ إلى خيالكِ المرتبك، وذلك على حينٍ ترى

^٢ لِيَذْكُرَ أَنِّي أَتَكَلَّمُ هُنَا عَنِ الَّذِينَ لَا يَدْرِكُونَ، لَا عَنِ جَمِيعِ النَّاسِ.

مهنتهم الكاذبة تنزعُ منك تمتعك بأيامك بدلاً من إطالتها. وسأسال دائماً عن الخبر الحقيقي الذي ناله الناس من هذه الصنعة. أجل، إن بعض من تشفيهم كانوا يموتون، ولكن الملايين ممن تقتلهم كانوا يبقون أحياء؛ فإياها الإنسان كُن عاقلاً ولا تشترك في هذا الافتراء حيث يوجد كثير من الحظوظ ضدك، وألم ميتاً أو سليماً، ولكن عش حتى ساعتك الأخيرة على الخصوص.

وليس كل شيء غير حماقةٍ ومناقضةٍ في النظم البشرية. ويكثر أكتراثنا للحياة كلما خسرت شيئاً من قيمتها، ويأسف الشيب عليها أكثر من الشبان؛ فهم لا يريدون أن يفقدوا التوابل التي أعدوها للتمتع بها. ومن القسوة بمكان أن يموت الإنسان في الستين من سنه قبل أن يبدأ الحياة. ويُعتقد أن الإنسان ولوعٌ ببقائه، وهذا صحيح، ولكنه لا يرى أن هذا الولع، كما شعر به، جزءٌ عظيم من عمل الناس. ولا يبالي الإنسان ببقائه عن طبيعة إلا إذا كانت وسائله ضمن قدرته؛ فمتى أفلتت منه هذه الوسائل خلاً باله ومات من غير أن يضيّق صدره على غير جدوى. ومن الطبيعة يأتينا أول دستورٍ للتسليم. والوحوش، كالبهائم، يكافحون الموت قليلاً، وهم يصيرون عليه من غير تدمرٍ تقريباً، ويُقضى على هذا الدستور، وينشأ عن العقل دستورٌ آخر، وقل من يعرفون هذا، وليس هذا التسليم المصنوع من الكمال كالأول مطلقاً.

الحدز! الحدز! الذي يحملنا بلا انقطاع إلى ما وراء أنفسنا، والذي يضعنا في الغالب حيث لا نصل مطلقاً، وهذا هو منبع جميع أئوسنا الحقيقي. يا له من هوسٍ يساورُ موجوداً زائلاً كالإنسان ينظر دائماً بعيداً إلى مستقبلٍ يندُرُ مجيئه كثيراً مُهملاً حاضراً لا يشكُّ فيه! يا لَدَاك الهوس الذي يزيدُ شؤماً مع العُمُر بلا انقطاع، فيفضّل الشيب الحاذرون المتبصرون البخلاء دائماً أن يُحرموا الضروري اليوم على أن يُعوزهم الزائد في المائة من سنهم! وهكذا فإننا نتعلق بكل شيء، ننشِب في كل شيء، فيشغل كل واحدٍ منا باله بالأزمة والأمكنة والناس والأشياء بكل ما هو كائن ويكون، ويعود شخصنا لا يكون غير أقل جزء من ذاتنا؛ أي إن كل واحدٍ منا ينسبط على الأرض بأسرها، ويصبح متأثراً بجميع ما هو واقع على هذا السطح الواسع. وهل من العجيب أن تزيد مصائبنا في جميع النقاط حيث يُمكن جرحنا؟ وما أكثر الأمراء الذين يحزنون كثيراً على ضياع بلدٍ لم يروه قط، وما أكثر التجار الذين يكفي أن يُصابوا في الهند ليحملوا على الصراخ بباريس!

وهل الطبيعة هي التي تحمّل الناس إلى ما هو أبعد من أنفسهم على ذلك الوجه؟ وهل الطبيعة هي التي تريد أن تعلم كل واحدٍ مصيره من الآخرين، وأن يكون آخر من يعلمه، وأن يموت سعيداً أو شقيماً من غير أن يعلم شيئاً عن ذلك مطلقاً؟ أرى رجلاً ناضراً مسروراً قوياً حسن

الصحة، ويوحى حضوره بالفرح، وتَدُلُّ عيناه على القناعة والهناء، ويحمل معه صورة السعادة، ويأتيه كتابٌ مع البريد، وينظر الرجلُ السعيدُ إليه، ويجده موجَّهاً إليه، ويفتحه ويقرؤه وتتغير ملامحه حالاً، ويُمْتَقِعُ وَيَسْقُطُ خائراً، ويُفِيقُ، ويبكي، ويَنُوحُ، وين، ويَنْتِفِ شعره، ويملاً الجَوَّ صُراخاً، فيلوح أنه أُصِيبَ بِشَتُّجَاتٍ هائلة. إذن، ما دهاك بهذه الورقة أيتها الأحمق؟ أي عضوٌ يُتر منكَ؟ أية جنابةٌ حُمِلتَ عليها؟ ثم ماذا تغيرَ فيكَ حتى غدوتَ في الحالِ التي أراك عليها؟

لو ضاع الكتاب، أو ألقته في النارِ يدٌ مُحسنة، لكان نصيبُ هذا الفاني، السعيد والشقي معاً، مُعْضِلَةً عجيبةً كما يلوح لي. ستقولون إن شقاه حقيقي. حسناً، ولكنه كان لا يشعُر به، وأين كان إذن؟ كانت سعادته خيالية، وأسلمَ بذلك، وعادت صحته وبهجته وهنائه وقناعته النفسية لا تكون غير أحلام، وعُدنا لا نكون في مكاننا، وعُدنا نكون في غير مكاننا، وما فائدة الخوف من الموت ما دام كلُّ شيءٍ يجعل الحياةً ثمينةً مستقرّاً بنا؟

أيتها الإنسان، شدَّ حياتك في باطنك تغد غير تعس، وابق في المكان الذي عيّنته الطبيعة لك في سلسلة الموجودات لا يقدر شيءٌ على إخراجك منه، ولا تُقاوم سُنَّةَ الضرورة، ولا تستفيد راعباً في هذه المقاومة من القوى التي لم تُعطك الطبيعة إياها مطلقاً تمديداً لحياتك أو إطالةً لها، ولكن في سبيل بقائها كما يروق الطبيعة ويقدر ما يروقها، ولا تمتد حريتك وقدرتك إلا ضمن طاقاتك الطبيعية لا إلى ما وراء ذلك، وليس جميع ما يبقى غير عبودية وهمٍ وخداع، حتى إن السيطرة رُقُّ إذا ما استندت إلى الرأي العام، وذلك لتوقفك على مُبتسراتٍ من تسيطر عليهم بالمبتسرات، ويجب لقيادتهم كما يرؤفك أن تقود نفسك كما يروقهم، وليس عليهم إلا أن يُغيروا طرازَ تفكيرهم حتى تُحمل على تغيير طرازِ سيرِك قسراً. وليس على من يدنون منك إلا أن يعرفوا السيطرة على آراء الشعب الذي تعتقد أنك تسيطر عليه، أو آراء ندمائك الذين يسيطرون عليك، أو آراء أسرتك أو أسرهم، حتى يبلغوا ذلك، ويُسيرك هؤلاء الوزراء والندماء والكهان والجنود والخدام والمجان، حتى العُلَمان. ولو كان عندك مثلُ عقريّة تيمستوكل،³ وذلك كولدٍ بين أجواقك، ومهما تأت من عمَلٍ فإن سلطانك الحقيقي لا يمتد إلى ما هو أبعد من طاقاتك

³ كان تيمستوكل يقول لأصدقائه: «إن هذا الغلام الصغير الذي ترون هو حكم بلاد اليونان؛ وذلك لأنه يسيطر على أمه، ولأن أمه تسيطر عليّ، ولأنني أسيطر على أهل أثينة، ولأن الأثينيين يسيطرون على الأغارقة.» وي! ما أكثر صغار القادة الذين يوجدون في الإمبراطوريات العظيمة غالباً! وذلك إذا ما نزل من الأمير حتى اليد الأولى التي تدير الأمور خفية.

الحقيقية، ومتى وجب أن ترى بعيون غيرك وَجَبَ أن تزيد بعزائمهم، وتقول مباحياً: إن شعوبي رعاياي، وليكن ذلك، ولكن من أنت؟ إنك تابع لوزرائك، ومن هم وزراؤك من ناحيتهم؟ إنهم تابعون لِكَيْتَبَتِهِمْ وخليلاَتِهِمْ، وَخَدَمَةٌ لَخَدَامَتِهِمْ، وَخُدُوا كُلَّ شَيْءٍ، وَاعْتَصَبُوا كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ ابْدَلُوا الْمَالَ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ، وَأَقِيمُوا الْمَدْفَعِيَّاتِ، وَانصِبُوا الْمَشَانِقَ وَالِدَوَالِبِ، وَضَعُوا الْقَوَانِينَ وَالْمَرَامِسِ، وَضَاعَفُوا الْعِيُونَ وَالْجُنُودَ وَالْجَلَادِينَ وَالسَّجُونَ وَالْقِيُودَ، فَمَا نَفَعَكُمْ بِجَمِيعِ هَذَا؟ لَنْ تَكُونُوا بِهَذَا أَحْسَنَ خِدْمَةً وَأَقْلَّ اسْتِرَاقًا وَانْخِدَاعًا وَأَكْثَرَ اسْتِبْدَادًا، وَاسْتَقُولُونَ دَائِمًا: سنريد، وستفعلون دائماً ما يريد الآخرون.

والوحيد الذي يُعْمَلُ إِرَادَتَهُ هُوَ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ لِإِعْمَالِهَا إِلَى وَضْعِ ذِرَاعِي غَيْرِهِ فِي طَرْفِ ذِرَاعِيهِ؛ وَمَنْ تَمَّ يَرَى أَنَّ الْحَرِيَّةَ، لَا السُّلْطَانَ، هِيَ الْخَيْرُ الْأَوَّلُ، وَلَا يَرِيدُ الرَّجُلُ الْحُرَّ حَقًّا غَيْرَ مَا يَسْتَطِيعُ، وَهُوَ يَصْنَعُ مَا يَرُوقُهُ. وَهَذَا هُوَ مَبْدِئِي الْأَسَاسِي، وَلِيُطَبَّقَ عَلَى الطُّفُولَةِ لِيَرَى أَنَّ جَمِيعَ قَوَاعِدِ التَّرْبِيَةِ تَصْدُرُ عَنْهُ.

وَالْمَجْتَمَعُ جَعَلَ الْإِنْسَانَ أَكْثَرَ ضَعْفًا، لَا لِتَزَعِهِ مِنْهُ مَا لَهُ مِنْ حَقٍّ عَلَى قُوَاهِ الْخَاصَّةِ، بَلْ لِجَعْلِهَا غَيْرَ كَافِيَةٍ لَهُ عَلَى الْخُصُوصِ. وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي كَوْنِ رِغَابِهِ تَزِيدَ مَعَ ضَعْفِهِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَوْجَدُ ضَعْفَ الطُّفُولَةِ قِيَاسًا بِسِنَّ الرَّجُلِ. وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ مَوْجُودًا قُوًيًا، وَإِذَا كَانَ الْوَلَدُ مَوْجُودًا ضَعِيفًا، فَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْأَوَّلَ ذُو قُوَّةٍ أَكْثَرَ إِطْلَاقًا مِنَ الثَّانِي، بَلْ لِأَنَّ الْأَوَّلَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْفِيَ نَفْسَهُ طَبِيعَةً، وَلِأَنَّ الْآخَرَ لَا يَسْتَطِيعُ هَذَا؛ وَلِذَا وَجِبَ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ أَكْثَرَ عَزَائِمًا وَأَنْ يَكُونَ الْوَلَدُ أَكْثَرَ أَهْوَاءَ، وَبِهَذِهِ الْكَلِمَةِ أَقْصَدُ جَمِيعَ الرِّغَابِ الَّتِي لَيْسَتْ أَحْتِيَاجَاتٍ حَقِيقِيَّةً، وَالَّتِي لَا يُمَكِّنُ قِضَاؤَهَا إِلَّا بِمُسَاعَدَةِ الْآخَرِينَ.

وَقَدْ ذَكَرْتُ سَبَبَ حَالِ الضَّعْفِ هَذَا، وَتَتَلَفَاهِ الطَّبِيعَةُ بِتَعَلُّقِ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ لِهَذَا التَّعَلُّقِ شَطَطُهُ وَعَيْبُهُ وَمَسَاوِنُهُ. وَيُنْقَلُ الْآبَاءُ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي الْحَالِ الْمَدْنِيَّةِ وَلَدَهُمْ إِلَيْهَا قَبْلَ الْأَوَانِ، وَهَمَّ حِينَ يُعْمُونَ عَلَيْهِ بِأَحْتِيَاجَاتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا لَدَيْهِ لَا يُخَفِّفُونَ ضَعْفَهُ، بَلْ يَزِيدُونَهُ، وَهَمَّ يَزِيدُونَهُ أَيْضًا بِمَطَالِبَتِهِ بِمَا لَا تَطَالِبُهُ الطَّبِيعَةُ بِهِ، وَذَلِكَ بِإِخْضَاعِهِمْ لِعَزَائِمِهِمْ مَا عِنْدَهُ مِنْ قُوَى قَلِيلَةٍ خَادِمَةٍ لِعَزَائِمِهِ، وَذَلِكَ بِتَحْوِيلِهِمْ إِلَى عِبُودِيَّةٍ مَا بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ مِنْ تَابِعِيَّةٍ مُتَقَابِلَةٍ حَيْثُ يُمَسِّكُهُ ضَعْفُهُ وَحَيْثُ يُمَسِّكُهُمَا تَعَلُّقُهُمَا.

وَيَعْرِفُ الرَّجُلُ الْعَاقِلُ أَنْ يَبْقَى فِي مَكَانِهِ، وَلَكِنْ الْوَلَدُ الَّذِي لَا يَعْرِفُ مَكَانَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحَافِظَ عَلَيْهِ، وَلَدَيْهِ أَلْفُ مَنَفَذٍ لِلْخُرُوجِ مِنْهُ، وَيَجِبُ عَلَى مَنْ لَهُمْ سَيَطْرَةٌ عَلَيْهِ أَنْ يُمَسِّكُوهُ فِيهِ،

وليس هذا عملاً سهلاً. ويجب ألا يكون حيواناً أو إنساناً، بل ولدًا، ويجب أن يشعر بضعفه لا أن يُعانيه، ويجب أن يكون تابعًا لا طائعًا، ويجب أن يطلب لا أن يأمر، وهو لا يخضع للآخرين إلا بسبب احتياجاته، ولأنهم أحسن منه اطلاعًا على ما هو نافع له وعلى ما يمكن أن يساعد على بقائه أو يضر. ولا يحق لأحد، حتى للأب، أن يأمر الولد بصنع ما لا ينفعه مطلقًا.

وكانت سعادة الأولاد والرجال تقوم على تمتعهم بحريتهم، وذلك قبل أن تُفسد مُتَسَرَّات الإنسان ونظمه غرائزنا الطبيعية، غير أن الحرية في الأولاد حُدِّدَت بضعفهم. ويُعدُّ سعيدًا كلٌّ من يصنع ما يشاء إذا كفى نفسه بنفسه، وهذا هو وضع الرجل الذي يعيش في الحال الطبيعية. ولا يُعدُّ سعيدًا كلٌّ من يصنع ما يشاء إذا ما زادت احتياجاته على طاقته، وهذا هو وضع الولد الذي يعيش في ذات الحال، حتى إن الأولاد لا يتمتعون في الحال الطبيعية إلا بحرية ناقصة مشابهة للحرية التي يتمتع بها الرجال في الحال المدنية. وبما أن كل واحدٍ مِنَّا يعود غير قادرٍ على الاستغناء عن الآخرين، فإنه يصبح ضعيفًا بئسًا من هذه الناحية، وقد خُلِقنا لكونَ رجالًا فعمستنا القوانين والمجتمعات في الطفولة ثانية. ويُعدُّ الأغنياء والعظماء والملوك كلهم أولادًا أبصروا أننا نبادرُ إلى تخفيف يؤسهم، فاستخرجوا من هذا غرورًا صبيانيًا، وقد كانوا يبدون فخرًا من رعاية لا تبدل لهم لو كانوا رجالًا ناضجين.

وهذه اعتبارات مهمة، وهي تصلح لحل جميع المتناقضات في النظام الاجتماعي. ويوجد للعلاقات نوعان: علاقة الأشياء التي هي من الطبيعة، وعلاقة الناس التي هي من المجتمع. وبما أنه لا يوجد لعلاقة الأشياء أية خلقية فإنها لا تُضُر الحرية مطلقًا، وهي لا تُوجد عيوبًا مطلقًا، وبما أن علاقة الناس مختلطة^٤ فإنها تُوجدتها جميعًا، وهي تُفسد السيد والعبد مقابلةً، وإذا كان يوجد من الوسائل ما يُدأوى به هذا الشر في المجتمع قام ذلك على استبدال القانون بالإنسان، وعلى تجهيز العزائم العامة بقوة حقيقية تعلق عمل كل إرادة خاصة، ولو أمكن قوانين الأمم أن يكون لها ما لقوانين الطبيعة من صلابة لا تستطيع أية قوة بشرية أن تقهرها لصارت علاقة الناس علاقة الأشياء، وجمع في الجمهورية جميع منافع الحال الطبيعية والحال المدنية، وأضيفت إلى الحرية التي تحفظ الإنسان حاليًا من العيوب خلقية ترفعه إلى الفضيلة.

واحتفظوا بالولد تابعًا للأشياء تكونوا قد اتبعتهم نظام الطبيعة في تقدم تربيته، ولا تعرّضوا

^٤ أثبت في كتابي «مبادئ الحقوق السياسية» أنه لا يوجد أي إرادة خاصة يمكن تنظيمها بالنظام الاجتماعي.

عزائمَه غيرِ الصائبةِ بغيرِ الموانعِ الماديةِ أو العقوباتِ الناشئةِ عن الأعمالِ نفسها، والتي يذُكرها في الوقتِ المناسبِ، وذلك مع الاكتفاءِ بمنعه من صنْع الخطأ، ومع عدمِ تحريمِ الخطأِ عليه، والتجربةِ أو عدمِ القدرةِ، وحدّها هي ما يجب أن يقوم مقامَ القانونِ عنده. ولا تُعطوه ما يَرغب فيه لأنه طلبه، بل لاحتياجه إليه. ولا ينبغي أن يُعرفَ ما الطاعةُ عندما يسير، ولا الاستبداذُ عندما يُعمل من أجله. وليشعرَ بحرّيته في أفعاله وفي أفعالكم على السواء، وعوّضوه من القوة التي تُعوّزه، وذلك بالمقدار الذي يحتاج إليه ليكون حُرّاً، لا ليكون جباراً، حتى إذا تناول خدَمكم على استحياءٍ تاقَ إلى الرّمن الذي يستغني فيه عنها، ويكون له شرفُ خدمةِ نفسه بنفسه.

وللطبيعةِ في تقويةِ البدنِ وإنمائه من الوسائلِ ما لا تجوزُ مقاومته. ولا يجوز أن يُكره الولد على البقاء إذا ما أراد الذهاب، ولا على الذهاب إذا ما أراد البقاء. وإذا كانت إرادةُ الأولادِ لم تُفسد بخطأٍ منّا لم يريدوا شيئاً بلا طائل. ويجب أن يقفوا وأن يركضوا وأن يصرخوا متى شاءوا، وجميع حركاتهم من احتياجاتِ بُنيّتهم التي تحاول أن تشتدّ، ولكن يجب أن يُحذّر مما يرغبون فيه من غير أن يقدروا على صنّعه بأنفسهم، ومما يُلزم الآخرون بصنّعه لهم، وهنالك يجب أن يُفرّق بعناية بين الاحتياج الحقيقي الذي هو احتياج طبيعي، واحتياج الهوى الذي يأخذ في الظهور، أو الاحتياج الذي لا ينشأ إلا عن فيض العيش، وهو ما تكلمت عنه.

وكنثُ قد قلتُ ما يجب أن يُصنّع عندما يبكي الولدُ لئالَ هذا أو ذاك، وإنما أضيف إلى ذلك أنه إذا ما استطاع أن يطلبَ بالقول ما يَرغب فيه، فدَعَمَ طلبه بالبكاءِ نيلاً له بسرعةٍ أو تغلباً على رفضٍ؛ ووجب أن يُضنَّ عليه به حتمًا. وإذا كان الاحتياجُ هو الذي حمّله على الكلامِ ووجب أن تعرفوا ذلك وأن تُلبّوا طلبه حالاً، ولكن الإذعان لدموعه في أمرٍ ما يتضمن تحريضاً له على سَكْهها، ينطوي على تعليمه أن يَشكُّ في حُسنِ مَقْصِدكم، ويَحمله على الاعتقاد بأن للإزعاج من التأثيرِ فيكم ما ليس للاستعطاف، وهو لا يلبث أن يكون خبيثاً إذا لم يعتقد صلاحكم، وهو لا يلبث أن يكون عبيداً إذا اعتقد ضَعْفكم؛ فالرأي أن يُمنَح عند أوّل إشارةٍ ما لا يُراد رفضه. ولا تُسرفوا في الرفضِ مطلقاً، ولكن لا تُنفّضوا رفضكم عند وقوعه.

واحترزوا، على الخصوص، من مَنَح الولدِ صيغاً فارغةً في الكياسة، يتخذها عند الحاجةِ ككلامِ سحريٍّ لإخضاعِ مَنْ يحيطون به لإرادته، فينال ما يروقه من قُوّره. ولا يُقصّر في تربية الأغياء القائمة على التصنّع أن يُجعلوا متعاطمين مع تأدّب، وذلك بفرض تعبيراتٍ يستعملونها، فلا يجرؤ أحدٌ على مقاومتهم معها، وليس لأولادهم لهجةً الضارعين ولا أوضاعهم، وهم

متعاضمون عندما يرجون كما يكونون عندما يأمرون، بل يكونون أكثر تعاضماً عند الرجاء مما عند الأمر، كما لو كانوا أكثر يقيناً بأن يُطاعوا. وأوّل ما يُرى أن كلمة «إذا ما طاب لك» تعني «يُطيب لي»، وأن كلمة «أرجوك» تعني «أمرك». ويا لها من كياسة لا تؤدي عندهم إلى غير تغيير معنى الكلمات وإلى عدم القول بغير هيمنة! وأما أنا الذي يخشى أن يكون إميل متكبّراً أكثر من أن يكون غليظاً، فأفضّل أن يقول عند الرجاء: «اصنع هذا» على الأمر بقوله: «أرجوك»؛ فلست أبا لي بالتعبير الذي يستعمله، بل بالمعنى الذي ينطوي عليه.

ويوجد إفراط في الشدّة وإفراط في التساهل، فيجب اجتناب الأمرين على السواء، فإذا ما تركتم الأولاد يتألمون عرّضتم صحتهم وحياتهم للخطر، وجعلتموهم تعساء، وإذا ما بذلتم جهداً كبيراً في وقايتهم من كلّ سوء أعددتهم لأعظم المصائب، وجعلتموهم فُصفاً دقيقاً الإحساس، وأخرجتموهم من حال الرجل التي سيكونون عليها ذات يوم على الرغم منكم. وأنتم إذ لم تُعرّضوهم لبعض مضارّ الطبيعة تكونون سبب المضارّ التي لم تُصيهم بها، وستقولون لي إنني أفعل في مثل حال الآباء الأزدياء الذين لُمّتهم على تضحياتهم بسعادة الأولاد، ناظرين إلى زمن بعيد يُمكن ألا يكون.

كلّاً؛ وذلك أن الحرية التي أخبئ بها تلميذي تُعوّضه من المشاقّ الخفيفة التي أدعّه مُعرّضاً لها، وأرى أولاداً صغاراً يلعبون على الثلج مُزرقّي الوجه مُقرّسين، ولا يكادون يُحرّكون أصابعهم برّداً، وليس عليهم إلا أن يذهبوا ليدفّنوا أنفسهم، فلا يفعلون هذا مطلقاً، وإذا ما أكرهوا على هذا شعروا بأن ضغطهم أشدّ وطناً مائة مرة من شدة البرّد الذي يُحسّون، ومن أيّ شيء تتوجّعون إذن؟ أوأجعل ولدكم تعساً بعدم تعريضه إياه للمضارّ التي يريد معاناتها؟ أصنع الخير له في الوقت الحاضر بتزكّه خراً، وأصنع الخير له في المستقبل بتسليحه ضدّ الشرور التي يجب أن يقاسيها، وهل يتردّد ثانية في الاختيار لو خيّر بين أن يكون تلميذي وتلميذكم؟

أوتظنون وجود إنسان يجد سعادة حقيقية خارج جبلته؟ أولاً ينطوي كلّ سعي في وقاية الإنسان من جميع شرور نوعه على إخراج له من جبلته أيضاً؟ أجل، إن طبيعته تقوم على مكابذته الشرور الصغيرة ليشعر بالخير الكبيرة، ولو صحّ الجسم كثيراً لفسدت الأخلاق، ومن لم يعرف الألم لم يعرف حنان الإنسان ولا حلاوة الرحمة؛ فلا يُحرّك فؤاده شيء، ولا يكون أنيساً، وإنما يكون بين أمثاله غولاً.

أوتعرفون أضمن وسيلة لجعل ولدكم تعساً؟ أن تُعوّده نيل كلّ شيء، وذلك أن رغباته تزيد بلا انقطاع مع سهولة قضائها، ويُلمزكم عدم القدرة بأن ترفضوا على الرغم منكم عاجلاً كان

هذا أو آجلاً، ويُورثه هذا الرفضُ غيرَ المعتادِ لَمَّا أشدَّ من حرمانه ما يريد، والعصا التي تُمسكون هي أوَّلُ ما يريد، ولا يلبث أن يريد ساعتكم، ثمَّ يريد الطَّيرَ الذي يطير، ثمَّ يريد النجمَ الساطع، ثمَّ يريد كلَّ ما يرى، وكيف تُرضونه إذا لم تكونوا إلهاً؟

ومن خصائص الإنسان الطبيعية أن يَعدَّ مالا له كلَّ ما هو داخلٌ ضمِنَ قُدْرته، ومن هذه الناحية يكون مبدأً هوبز صحيحاً إلى حدِّ ما، وذلك أن تُكثروا مع الرغائبِ وسائلَ قضائها حتى يصبح كلُّ واحدٍ سيِّدَ الجميع؛ ولذلك يَظُنُّ الولدُ أنه مالكُ الدنيا لَمَّا ليس عليه غيرُ الإرادة. وهو يَنتَظِرُ إلى جميعِ النَّاسِ كعبيدٍ له، وهو عندما يُضنُّ عليه بشيءٍ عن اضطرارٍ يَعدُّ هذا الرفضَ ضرباً من التَّمُرُّدِ لَمَّا يَعتَقِدُ إمكانَ كلِّ شيءٍ إذا أمر. وهو إذا ما أُذليَّ له بأسبابٍ عن ذلك في دَوْرٍ من العُمُرِ يَعتَجزُ فيه عن التمييز، لم تكن هذه الأسبابُ عنده غيرَ ذرائعٍ؛ فيرى سوءَ القصدِ في كلِّ مكان. وهو إذ كان من طبيعته أن تتأثرَ بحسِّ من الجورِ المزعوم؛ فإنه يَحَقِّدُ على جميعِ العالم، ويشتاقُ غيظاً من كلِّ مُعارضةٍ عن عدمِ شعورٍ بالجميل.

وكيف أتصوَّرُ ولداً يكون سعيداً بعد أن يكون موناغلاً للغيظِ وفريسةً لأشدِّ الأهواءِ فعلاً؟ هو سعيداً هو مستبد، هو أشدُّ العبيدِ نذالَةً وأكثرُ المخلوقاتِ شقاءً. ولقد شاهدتُ أولاداً يُرَبُّونَ على هذا الوجه، ويريدون تدميرَ المنزلِ بصدمَةِ كَيْفِ، وأن يُعطوا اللدِّيك الذي يَرُونُ على بُرجِ الأجراس، وأن تُوقَفَ كتيبةٌ وهي تسيِّرُ لِيَسْمَعُوا الطُّبولَ أطولَ وقتٍ ممكن، وأنهم يَشْقُونُ الهوائِ بصُراخهم غيرَ مُنصِتِينَ لأحدٍ إذا ما أُبطئَ في الإذعانِ لهم. وكلُّ يسعى لاسترضائهم، ولكن على غيرِ جدوى؛ فرغائهم تشتدُّ بسهولة نَيْلِ الشيء. وهم يُصِرُّونَ على المستحيلات، ولا يجدون غيرَ المعارضاتِ والموانعِ والهمومِ والآلامِ في كلِّ مكان. وهم يَقْضُونَ الأيامَ في الصُّراخِ والتوجُّعِ مزمجرين دائماً، عُنْدَاءَ دائماً، غِضاباً دائماً، وهل هم سعداءُ هنالك؟ لا ينشأ عن الضَّعْفِ والهيمنةِ غيرُ الحماقةِ والبؤسِ إذا ما اجتمعوا، وأحدُ الولدَيْنِ المُدَلَّلَيْنِ يَضْرِبُ المائدةَ بالسوط، ويضْرِبُ الآخرَ البحرَ به، ولا بُدَّ لهما من الضربِ بالسوطِ والعصا قَبْلَ أن يعيشا راضيين.

وإذا كانت مبادئُ السيطرةِ والطغيانِ هذه تجعلهم نُعساءً منذ طفولتهم؛ فما يكون الحالُ إذا ما كَبُرُوا وأخذتْ صلاتهم بالآخرين تَطوُلُ وتكثُرُ؟ وهم إذ تَعَوَّدوا رؤيةَ كلِّ شيءٍ يَنْتَظِرُ أمامهم، فما أشدَّ ما يُدهشون عند دخولهم العالم، من مقاومةِ كلِّ شيءٍ لهم، ومن حسَّهم أنهم مسحوقون بأثقالِ هذا العالمِ الذي كانوا يظنون أنهم يُحرِّكونه كما يشاءون!

ولا تأتيهم أوضاعهم العاتيةُ وعُجْبهم الصبيانيُّ بغيرِ الخزي والازدراءِ والتَهكُّمِ، وهم

يشربون الإهانات كالماء، ولا تَلَبَثِ التجاربُ القاسيةُ أن تُعَلِّمَهُم أنهم لا يَعْرِفُونَ حالَهُم ولا قُوَاهِم. وهم إذ لا يَقْدِرُونَ على كُلِّ شيءٍ يظنون أنهم لا يَقْدِرُونَ على شيءٍ، وتَصَدُّهُم عوائقُ كثيرةٌ غيرُ معتادة، ويُدِلُّهُم احتقارُ كثيرٍ، ويُصْبِحُونَ أَحْسَاءَ جبناءً صاغرين، ويسقطون إلى ما هو أقلُّ من مستواهم بنسبةٍ ما كانوا قد عَلَوْهُ.

ولتُعُدَّ إلى القاعدةِ الابتدائية؛ فالطبيعةُ قد خلقتِ الأولادَ لِيَحْتَوُوا، ويُسَاعَدُوا، ولكن هل صَنَعَتْهُم لِيَطَاعُوا وَيُخَافُوا؟ وهل منحتهم وقارًا وجفاءً وصوتًا شديدًا متوعَّدًا حتى يكونوا مرهوبين؟ أَعْرِفُ أن زئيرَ الأسدِ يُرعبُ الحيوانات، وأنها تَرْتَعِدُ عندما تُبصرُ لُبْدَتَهُ، ولكن هل شُوهدَ منظرٌ شائنٌ كريمةٍ مثيِّرٍ للسُّخريَّةِ كمنظرِ جَنَمٍ من الحُكَّامِ، وعلى رأسهم قاضي القضاة، لابسين خُللهم الرسمية، راكعين أمام ولدٍ في القِمَاطِ، خاطبين فيه بَفَحْمِ الكلامِ، فلا يُجيبهم بغيرِ العويلِ واللَّعابِ؟

وإذا نُظِرَ إلى الطفولةِ نَفْسِهَا، فهل يوجد في العالمِ مَنْ هو أضعفُ من الولدِ وأكثرُ منه بؤسًا وأدعى منه إلى رحمةٍ مَنْ يحيطون به، وأحوجُ منه إلى الشَّفَقَةِ والعنايةِ والحماية؟ ألا يلوح أنه لا يُبدي وجهًا بالغَ الوَدَاعَةِ، ومظهرًا بالغَ التأثيرِ، إلا لِيُبالِي بضعفه جميعُ مَنْ يدنون منه ويبادروا إلى مساعدته؟ وأيُّ شيءٍ إذن أكثرُ إيلاَمًا وأعظمُ مخالفةً لنظامِ الأمورِ من أن يُرى ولدٌ متجبرٌ عبيدٌ يأمر جميعَ مَنْ هم حوله منتجلاً بوقاحةٍ لهجةِ السيدِ نحو الذين ليس عليهم غيرُ تَرْكِهِ لِيَهْلِكَ؟

ومَنْ ذا الذي لا يرى من ناحيةٍ أخرى أن صَعَفَ الدَّوْرُ الأوَّلُ يُقَيِّدُ الأولادَ على وجوهٍ كثيرة، وأن من القسوةِ البالغةِ أن يُضافَ إلى هذا القهْرِ قسْرُ أهواننا، وذلك بأن تُنزعَ منهم حريةٌ محدودةٌ جدًّا، فلا يستطيعون أن يُسَيِّتُوا استعمالها إلا قليلاً جدًّا، حريةٌ ضيقةٌ لا يفيدهم ولا يفيدنا، نزعها منهم إلا قليلاً جدًّا؟ وإذا كان لا يوجد شيءٌ يستحقُّ الهزوءَ أكثرَ من ولدٍ متكبرٍ فإنه لا يوجد شيءٌ يستحقُّ الرحمةَ أكثرَ من ولدٍ جَزُوعٍ. وتبدأ العبوديةُ المدنيةُ بسن الرُّشدِ، فلم تُسَبِّقْ بالعبوديةِ الخاصة؟ ولتَدْعُ حينًا من الحياةِ خاليًا من هذا النَّيرِ الذي لم تُفرضه الطبيعةُ علينا، ولتتركْ للطفولةِ ممارسةَ الحريةِ الطبيعيةِ التي تُبعدها بعضُ الرُّمَنِ من العيوبِ الملازمةِ للعبوديةِ، وليأتِ إذن هؤلاء المُعلِّمونَ الأشداءُ وهؤلاء الآباءُ المُعَبِّدونَ لأولادهم مع اعتراضاتهم الطائشةِ ولتعلِّموا منهاجَ الطبيعةِ مرةً قبل أن يُفاجروا بمناهجهم.

وأعود إلى العملِ، وكنتُ قد قُلْتُ إنه لا ينبغي لولدكم أن يتألَّ شيئًا لأنه يطلبه، بل لاحتياجه

إليه،^٥ ولا ينبغي له أن يفعل شيئاً عن طاعة، بل عن ضرورة فقط، وهكذا فإن كلمتي الطاعة والأمر يجب أن تزولا من معجمه، وأكثر من ذلك محو كلمتي الواجب والالتزام منه، ولكن يجب أن يكون فيه مكاناً واسعاً لكلمات القوة والضرورة والعجز والقسر، ولا يمكن أن تكون قبل سن الرشد فكرة عن الموجودات المعنوية والصّلات الاجتماعية. ويجب إذن أن يُجتنَب ما أمكن استعمال الكلمات التي تُعبّر عنها، وذلك خشية أن يُعلّق الولد على هذه الكلمات، في بدء الأمر، أفكاراً فاسدة لا يُعرف أو يُستطاع القضاء عليها مطلقاً. وأوّل فكرٍ فاسدٍ يدخل رأسه هو بذرة الخطأ والعيب، وهذه هي أوّل خطوة يجب أن يُنتبه إليها على الخصوص، واصنعوا ما تقف معه جميع أفكاره عند حدّ الإحساسات ما دام غير متأثرٍ بسوى الأفكار الحسية، واصنعوا ما لا يشعُر معه بغير العالم الحسي فيما حوّلته، وإن لم تفعلوا ذلك فاعلموا أنه لن يستمع إليكم مطلقاً، أو أنه سيجعل من العالم الأدبي الذي تكلمونه عنه، مبادئ وهمية لن تمحوها من حياته.

وكانت البرهنة مع الأولاد أعظم مبدأ لـ «لوك»، وهذا المبدأ أكثر المبادئ حُطوةً في الرّمن الحاضر، ومع ذلك فإن نجاحه لا يصلح سبباً لجعله موضع اعتبارٍ كما يلوح لي؛ وذلك لأنني أرى أنه لا يوجد من هو أحمق من أولئك الأولاد الذين يُرهن معهم كثيراً. والعقل الذي ليس غير مُركّبٍ من بقية خصائص الإنسان هو أصعب ما ينمو من الخصائص وأكثرها بطؤاً في النشوء، ثم يُراد الانتفاع به في إنمائها! وأروع أعمال التربية الصالحة هو تنشئة إنسانٍ عاقل، ثم يُرغم تنشئة الولد بالعقل! هذا بدء من الآخر، هذا عملٌ لآلة العمل، ولو كان الأولاد يُدركون ما العقل ما احتاجوا للتربية، ولكنهم إذا ما حُوطبوا منذ طفولتهم بلغة لا يفهمونها على الإطلاق عودوا الاكتفاء بكلمات، وتحقيق كل ما يُقال لهم، وظنهم أنهم حكماء كمعلميهم وأن يكونوا عُنداء مجادلين؛ فلا يُنال بغير عوامل الطمع ما يُظن أنه يُنال منهم بعوامل عقلية، بغير عوامل الطمع أو الخوف أو الزهو التي يُضطرُّ إلى إضافتها إلى تلك العوامل.

واليك الصيغة التي يُمكن أن تُردّ إليها تقريباً جميع دروس الأخلاق التي تُلقى على الأولاد والتي يُمكن أن تُلقى عليهم:

^٥ يجب أن يشعُر بأن اللذة حاجةً أحياناً كما أن الألم ضرورةٌ غالباً، ولا يوجد إذن غيرُ رغبةٍ واحدةٍ للأولاد لا يجوز أن يُجابوا إليها مطلقاً، وهي أن يطاعوا، ولذا يجب أن يُنتبه على الخصوص إلى السبب الذي يخملهم على الطلب، وذلك في جميع ما يطلبون، وامنحوهم، ما أمكن، جميع ما يُزوقهم حقيقةً، ورفضوا دائماً كل ما يطلبون عن هوى أو عن حبّ للسيطرة.

المُعلِّم: لا يجوزُ فعلُ هذا.

الولد: ولمَ لا يجوزُ فعلُ هذا؟

المُعلِّم: لأنه خطأ.

الولد: خطأ! ما الخطأ؟

المُعلِّم: ما تُمنع منه.

الولد: ما الخطأ فيما أصنع فأُمنع منه؟

المُعلِّم: ستُعاقب على عصيانك.

الولد: سأفعله بما لا يُعرَف عنه شيء.

المُعلِّم: سأرُقُبُّكَ.

الولد: سأتوارى.

المُعلِّم: سنسألك عمَّا كنت تفعل.

الولد: سأكُذِّب.

المُعلِّم: لا ينبغي أن تُكُذِّب.

الولد: لِمَ لا ينبغي أن أكُذِّب؟

المُعلِّم: لأن هذا خطأ... إلخ.

تلك هي الدائرةُ التي لا مفرَّ منها، فإذا ما خرجتم منها عاد الولدُ لا يعي ما تقولون، وأولست هذه دروسًا مفيدةً جدًّا؟ إن من فضولي الكبير أن أعرفَ ما يُمكن أن يُوضَعَ في مكانِ هذه المحاورَة، حتى إن لوكَ نفسه كان يرتبك في هذا لا ريب. وليس من عملِ الولدِ أن يُعرِف الخطأ والصواب، وأن يُدرِكَ سببَ واجباتِ الإنسان.

وتريد الطبيعةُ أن يكون الأولادُ أولادًا قَبْلَ أن يكونوا رجالًا، وإذا أردنا أن نُخلِّ بهذا النظامِ اقتطفنا ثمراتِ بَدْرِيَّةٍ خاليةً من النُضجِ والطَّعمِ فلا نُعْتَمِ أن تفسُد، وبذلك يكون لدينا أساتذةٌ أحداثٌ وأولادٌ شيوخ. وللطفولةِ وجوهٌ بصرٍ وتفكيرٍ وشعورٍ خاصةٌ بها، ولا شيءٌ أقلُّ صوابًا من أن نريد أن نستبدل بها ما عندنا، وأفضَّلُ المطالبةُ بأن يبلغ الولدُ من الطولِ خمسَ أقدام، على أن يكون حصيًّا في العاشرة من سِنِيه، وما نفعُ العقلِ له في هذه السنِّ حقًّا؟ إن العقلَ رادعُ القوة، ولا يحتاج الولدُ إلى هذا الرادع.

وأنتم حين تحاولون إقناع تلاميذكم بواجبِ الطاعة، تضيفون القوَّةَ والتهديد إلى هذا الإقناعِ المزعوم، أو تأتون بما هو شرٌّ من هذا؛ أي بالمداراة والوعود. وهكذا يُجذب الأولادُ بالمصلحة أو يُجبرون بالقوَّة فيتظاهرون بالقناعةِ بفعلِ العقل، وهم يرون جيِّدًا أن الطاعةَ نافعةٌ وأن العصيانَ ضارٌّ بهم فؤر ما تشعرون بهذا أو ذلك. ولكن بما أنكم لا تطلبون منهم شيئًا غير مستكبرٍ لديهم، وبما أن الأمورَ الشاقةَ دائمًا أن تُنفَّذَ إرادةَ الآخرين؛ فإنهم يستترون تنفيذًا لإرادتهم الخاصة، قانعين بأنهم يصنعون خيرًا إذا ما جهلَ عدمُ إطاعتهم، ولكن مع اعترافهم بأنهم يصنعون سوءًا إذا ما كُشف أمرهم، وهذا خوفًا من أعظم شرٍّ. وبما أن عاملَ الواجب فوق عُمرهم، فإنه لا يوجد في العالمِ رجلٌ قادرٌ على جعلهم يشعرون به حقًا، غير أن خوفَ العقابِ وأملَ العفوِ واللجاجِ وصعوبةِ الجوابِ أمورٌ تؤدي إلى انتزاعِ جميعِ الاعترافات التي تُطلبُ منهم، ويُعتقد أنهم يُقنعون عندما يُسامون أو يُرهبون.

وما ينشأ عن ذلك؟ أولًا: إنكم بفرضكم عليهم واجبًا لا يُدركونه تنفرونهم من سيطرتكم، وتصدونهم عن محبتكم، وتعلمونهم أن يكونوا مُداجين مُخادعين كاذبين نيلاً للجوائز أو اجتنابًا للعقوبات. وأخيرًا بتعويدكم إياهم أن يستروا دائمًا عاملاً خفيًا تحت عاملٍ ظاهر، تمنحونهم بأنفسكم وسيلةً مختللتكم بلا انقطاع، وحرمانكم معرفةَ أخلاقهم الحقيقية، ودفع كلامِ فارغٍ إليكم وإلى غيركم في الوقت المناسب، وتقولون إن القوانين وإن كانت تُقيِّد الشعورَ تقوم بعين القسرِ نحو مَنْ بلغوا أشدهم. وأوافق على هذا، ولكن مَنْ هم هؤلاء الرجالُ إن لم يكونوا أولادًا أفسدتهم التربية؟ هذا ما يجب اجتنابه ضبطًا، فاستعملوا القوَّةَ مع الأولادِ، والعقلَ مع الرجالِ، هذا هو النظام الطبيعي، ولا يحتاج الحكيمُ إلى قوانين.

وعاملوا تلميذكم على حَسَبِ سنِّه، وضَعُوهُ في مكانه منذ البُداءة، وأمسيكوا فيه جيِّدًا، فلا يحاول الخروجَ منه، وهنالك يمارس أهمَّ الدروسِ قبل أن يَعْرِفَ ما الحكمة، ولا تُلْقُوا إليه أيَّ أمرٍ في أي شيءٍ على الإطلاق، حتى إنه لا ينبغي أن تدعوه يتمثل وجودَ زعمٍ لكم بأيِّ سلطانٍ عليه، وليعلم فقط أنه ضعيفٌ وأنكم أقوياء، وأن وضعه ووضعكم يوجبان وجوده تحت رحمتكم بحكم الضرورة، وليدرك هذا وليعرفه وليشعر به، وليشعر باكراً بأن التَّيرَ الشديدَ الذي فرضته الطبيعة على الإنسان قائمٌ على رأسه المتكبر، ليشعرَ بنيرِ الضرورةِ الثقيل الذي يجب على كلِّ موجودٍ

متناهٍ أن ينحني تحته، وليُبصر هذه الضرورة في الأشياء، لا في هوى النَّاس،^٦ ولتكن القوة لا السلطة هي الزاجر الذي يُمسكه، ولا تحظروا عليه ما يجب أن يمتنع عنه، بل امنعوه من فعله بلا إيضاح ولا برهان، وما تمنحونه إياه امنحوه عند أول كلمة منه، امنحوه بلا توسلٍ منه ولا رجاءٍ وبلا شروط، امنحوه إياه طيبٍ الخاطر، ولا ترفضوا بلا امتعاض، ولكن ليكن كلُّ رفضٍ منكم لا يُنقض، وألاً يهزُّكم أيُّ إزعاجٍ كان، وليكن قولُ «لا» منكم جدارًا من قُلز،^٧ حتى إذا ما حاول الولدُ أن يقوّضه خمسَ مراتٍ أو ستَّ مراتٍ ارتدَّ ولم يعدَّ إلى مثلِ هذا قَط.

وهكذا تجعلونه صورًا معتدلاً مُسلماً هادئًا، حتى عند عدم نيّله ما أراد؛ وذلك لأن من طبيعة الإنسان أن يحتمل صابرًا ضرورة الأمور، لا سوءَ قصدٍ الآخرين. وتعدُّ الكلمة «عاد لا يُوجدُ منه» جوابًا لم يعانده ولدٌ قَطُّ ما لم يعتقد أنه ينطوي على كذب، ولا وسَطٌ هنا مطلقًا؛ فإما ألا تطلبوا منه شيئًا، وإما أن تحمله على أتمِّ طاعةٍ في أول الأمر. وتقوم أسوأ تربيةٍ على تركه مترجِّحًا بين عزائمكم وعزائمهم، وعلى جدالٍ دائمٍ يقع بينكم وبينه حولَ من يكون منكما سيِّدًا، وأفضلُ مائةٍ مرةٍ أن يخرج من هذا سيِّدًا دائمًا.

ومن الغرابة بمكانٍ أنه لم يُتمنَّل، منذ أخذ النَّاسُ يُفكِّرون في تربيةِ الأولاد، طريقٌ لقيادتهم غيرُ المنافسة والغيرة والحسد والزهو والطمع والجبن الدنيِّ وأخطر الأهواء وأسرعها اختمارًا وأصلحها لإفساد النفس حتى قبل أن يتمَّ نشوءُ البدن. وتُفرض نقيصةٌ في صميمِ فؤادهم عند كلِّ درسٍ باكرٍ يُراد إدخالها إلى رءوسهم. وقد بلغ بعضُ المُعلِّمين من السخافة ما يروُن معه أنهم يأتون بالعجائب يجعلهم الأولادُ أشرارًا ليعلموهم ما الصلاح، ثمَّ يقولون لنا برصانة: «هو ذا الرجل.» أجل، هو ذا الرجلُ الذي صنعتموه.

وقد اختبرتُ جميعَ الوسائلِ عدا واحدة، عدا الوسيلة التي يُمكن أن يكتب لها النجاح، وهي الحريةُ الحسنَةُ التنظيم، ولا يجوز أن تقوموا بتربيةٍ ولدٍ إذا لم تعرفوا أن تسوقوه إلى حيث تريدون بدساتيرِ الممكن والمُحال وحدها؛ فيما أن دائرةَ الممكن والمُحال مجهولةٌ لديه على السواء، فإنها تُوسِّع حوله وتضيِّق كما يُراد، ويُقيِّدُ ويُساقُ ويُمسكُ بقيدِ الضرورة وحدها من غير أن يتدمَّر، ويُجعل مرئياً سلسَ القيادة بقوةِ الأشياءِ من غير أن يُتاح لأي عيبٍ من الفرص ما يثبت

^٦ ليُعلم أن الولدَ يعدُّ من الأهواء كلَّ إرادةٍ مخالفةٍ لإرادته، ولا يُعرف سببًا لها، والواقعُ أن الولدَ لا يدرك سببًا لأي شيءٍ لا يلائم أهواءه.

^٧ * القُلز: النَّحاس الذي لا يعمل فيه الحديد.

معه فيه؛ وذلك لأن الشهوات لا تنتعش ما دامت غير ذات فعل.

ولا تُلقوا أيّ درسٍ شفويٍّ على تلميذكم، ولا يجوزُ أن يتلقَى من الدروسِ غيرَ التجربة، ولا تُفرضوا عليه أيّ نوعٍ من العقوبات؛ وذلك لأنه لا يَعْرِفُ ما فَعَلُ الخطأ، ولا تَحْمِلُوهُ على طلبِ العفو مطلقًا؛ وذلك لأنه لا يَعْرِفُ أن يسيءَ إليكم، وبما أنه خالٍ من كلِّ خُلُقِيَّةٍ في أفعاله فإنه لا يستطيع أن يصنع ما هو سيءٌ خُلُقِيًّا، فيستحقُّ عقابًا أو عتابًا.

وأرى القارئ المدعورَ يحكم في هذا الولدِ بأولادِ زماننا، وهو مخطئٌ في هذا، وذلك أن ما تُمسكون به تلاميذكم من مضايقةٍ دائمةٍ يُحرِّكُ فعاليتهم، وأنه كلما ضَيَّقَ عليهم تحت أعينكم بدؤوا أكثرَ طيشًا حينما يُفلتون، فيجب أن يُعَوِّضوا من الضغطِ الشديدِ الذي تجعلونهم فيه. ويأتي اثنان من طلابِ المدينةِ من التَّلَفِ في بلدٍ أكثرَ مما يأتيه شبابُ قريةٍ بأسرها، واحسبوا حضريًّا صغيرًا وقرويًا صغيرًا في غرفةٍ تجِدوا الأوَّلَ منكسًا منهوكًا قبل أن يتحركَ الثاني من مكانه، ولم هذا إذا لم يكن أحدُ الاثنين يُسرِعُ إلى العبثِ بوقتِ من التحلل، على حين لا يُهرَعُ الآخرُ، المطمئن إلى حرثته دائمًا، إلى ابتدائها مطلقًا؟ ومع ذلك فإن أولادَ القرويين يُدارُونَ ويُناوِءون غالبًا، فلا يزالون بعيدين من الحالِ التي أريدُ أن يُمسكوا فيها.

ولنضعَ قاعدةً ثابتةً قائلًا إن حركاتِ الطبيعةِ الأولى مستقيمةٌ دائمًا، فلا يوجد في القلبِ البشريِّ فسادٌ أصلي، ولا يوجد فيه عيبٌ لا يمكن أن يُقال كيف دخله ومن أين أتاه. ويقوم الهوى الطبيعيُّ الوحيدُ في الإنسان على حبِّ الذات، أو الأثرةِ بأوسعِ معنى. وحبُّ الذاتِ هذا صالحٌ نافعٌ بنفسه وبالنسبةِ إلينا، وبما أنه ليس للولدِ علاقةٌ ضروريةٌ بالآخرين مطلقًا، فإنه يُعدُّ خليًّا طبيعةً من هذه الناحية، وهو لا يُصْبِحُ صالحًا أو طالحًا إلا بتطبيقِ حبِّ الذاتِ وما يُعطاه من صلوات. ومن المهم إذن ألا يصنع الولدُ شيئًا لأنه سمع ورأى، ألا يصنع شيئًا بالنسبةِ إلى الآخرين، ولكن أن يصنع ما تَطَلَّبُ منه الطبيعة، وهنالك لا يصنع غيرَ الخير، وذلك إلى أن يُولدَ العقلُ الذي هو دليلُ حبِّ الذات.

ولا أفصِدُ بذلك أنه لا يصنع سوءًا، وأنه لا يجرح نفسه أبدًا، وأنه لا يكسرُ أثنائًا واقفًا تحت يده، ويمكنه أن يصنع كثيرًا من السوءِ من غيرِ أن يأتي سوءًا؛ وذلك لأن فعلَ الضررِ يتوقَّفُ على نيةِ الأذى، وليس لديه مثلُ هذه النيةِ مطلقًا، وهو إذا ما بدا سيئًا النيةِ ضاع وعَدًا شَريرًا بلا وسيلةٍ تقريبًا.

ومن الأمورِ ما يُعَدُّهُ الطمعُ سيئًا، ولا يُعَدُّهُ العقلُ هكذا، ومن المناسبِ أن يُقضى عن الأولادِ، إذا ما تُركوا أحرارًا تمامًا في ممارسةِ طيشهم، كلُّ ما يجعلُ حرثتهم تُكَلِّفُ غالبًا، فلا يُجعلُ تحت أيديهم شيءٌ ثمينٌ سريعُ العطبِ، وليُكن مسكنهم مُجهَّزًا بأثاثٍ غليظٍ متين، فلا

يكون فيه مَرايا ولا أوَانٍ صَنيئةٌ ولا أدواتٌ من النفاثس. وأمَّا إميلُ الذي أُرِيه في الأرياف فلن تشتمل غرفته على شيءٍ يَميزها من غرفةِ قَرّوي، وما فائدةُ تربيّتها بعنايةٍ ما دام لا ينبغي أن يبقى فيها إلا قليلاً؟ ولكنني منخطئ، فسيُربّتها بنفسه، وسرى كيف يكون هذا عمّا قليل.

ومع ما تَبْدُلون من حَذَر، إذا حَدَثَ أن أخذت الولدُ بعضَ الخلل، كان يَكسِرُ وعاءً نافعاً، فلا تُعاقِبوه عن إهمالٍ منكم ولا تُنْهروه مطلقاً، ولا تُسمِعوه كلمةً تأنيب، ولا تَدعوه يُبصر أنه أورثكم غمّاً، واتَّخذوا من الوضع ما يُشعر بأن الوعاء قد كسِر من تلقاءِ نفسه، ثمَّ اعتقدوا أنكم تصنعون كثيراً إذا ما استطعتم ألا تقولوا شيئاً.

أوأجسُرُ هنا أن أعرضَ أعظمَ قواعدِ التَّربيةِ وأهمّها وأكثرها نفعاً؟ ليس هذا كسباً لوقت، بل ضياعٌ له. ويا أيها القارئون من النَّاس، اغفروا لي بدعي، لا بُدَّ من البدع عند إنعام النَّظر، ومهما تقولوا فإنني أفضلُّ أن أكونَ رَجُلٌ بدعٍ على أن أكونَ رَجُلٌ مُبتسرات. وأشدُّ أدوارِ الحياةِ خطراً هو ما يقعُ بين الولادةِ والثانيةِ عشرةَ من السنِّ؛ ففي هذا الدَّورِ تنبُت الأضاليلُ والعيوبُ من غير أن يكونَ من الأدواتِ في اليدِ ما يقضى معه عليها، ومتى أتتِ الأداةُ كانت الجدورُ من التأصلِ ما لا يُمكن معه استئصالها. أجل، لو قفزَ الأولادُ من الثدي إلى سن الرُّشدِ بغتةً لأمكن أن تكون التَّربيةُ التي يُعطونها ملائمةً لها، غير أن النشوءَ الطبيعي يقضي بمنحهم تربيةً تختلف عن هذه تماماً، ومن الواجب ألا يُزعجَ الذَّهْنُ قبل نُمُوِّ قابليته، وذلك أنه إذا ما كان أعمى لم يستطع أن يرى الشعلةَ التي تقدمونها إليه، ولا أن يتَّبعَ في حقلِ الأفكارِ الواسعِ طريقاً بلغ العقلُ من ضَعْفِ رَسْمِها ما لا تكاد أحسنُ العيون معه أن تُبصرها.

ويجب أن تكون التَّربيةُ الأولى سلبيةً فقط، فلا تقوم على تعليمِ الفضيلةِ والحقيقةِ مطلقاً، بل على وقايةِ القلبِ من العيبِ وروحِ الخطأ، وإذا كنتم قادرين على عدم صنع شيءٍ وعدم توكُّه يصنع شيئاً، وإذا كنتم قادرين على قيادةِ تلميذكم إلى سنِّ الثانيةِ عشرةَ سليماً عُصلياً من غير أن يستطيع التفريقَ بين يده اليمنى ويده اليسرى؛ فإن قوَّةَ الإدراكِ فيه تفتح للعقل، وهو إذ يكون خالياً من المُبتسرات والعادات، فإنه لا يكون فيه ما يقاوم أثرَ رعايتكم، وهو لا يلبث أن يصير بين أيديكم أحكم النَّاس. وأنتم إذ تبدءون بعدم صنع شيءٍ تكونون قد أتيتم بتربيةٍ ذات إعجاز.

وقاوموا العادةَ تُحسنوا صنْعاً دائماً تقريباً. وبما أنه لا يُراد أن يُجعل من الولدِ ولدٌ، بل أستاذٌ، فإن الآباءَ والمُعَلِّمين لم يَرَوْا من العجلةِ قطُّ أن يُعزَّرَ ويُصلَحَ ويُعَنَّفَ ويُدارى ويُهدَّدَ ويُوعَدَ ويُعلَّمُ ويُناظَر. وافعلوا خيراً مما يفعلون، وكونوا على صواب، ولا تُبرهنوا مع تلميذكم على

الإطلاق حتمًا له على استحسان ما لا يروقه على الخصوص؛ وذلك لأن سَوْقَ العقلِ في كلِّ وقتٍ هكذا إلى الأمورِ المستكرهَةِ لا يؤدي إلى غيرِ عدِّ العقلِ مُمبلاً وسقوطِ خطوته باكرًا في نفسٍ لم تَبْلُغْ من الحالِ ما تُدركُ معه أمره. ودَرَبُوا بدَنَه وأَعْضاه وحَواشِيه وقُواه، ولكن دَعُوا ذَهَنَه خَلِيًا لأطولِ مدةٍ ممكنة. واحشُوا جميعَ المشاعرِ السابقةِ للحُكمِ في تقديرها، واحجُرُوا الانطباعاتِ الغريبةَ وقفوها، وحُولُوا دون وقوعِ الضرر. ولا تستعجلوا الخيرَ مطلقًا؛ وذلك لأنه ليس هكذا إلا عند إلقاءِ العقلِ نورًا عليه. وعُدُّوا كلَّ تأجيلٍ فائدة؛ فمن العُثمِ الكبيرِ أن يُتقدَّم إلى الحدِّ من غيرِ أن يُخسرَ شيء. ودَعُوا الوَلُودِيَّةَ تُنصَحَ في الأولادِ، وأخيرًا هل يكون بعضُ الدروسِ نافعًا لهم؟ احتَرِّزُوا من إعطائه اليومِ إذا كان تأخيرُه إلى الغدِ لا يُسْنِفُ عن خطر.

ويوجد اعتبارٌ آخرٌ يؤيِّدُ فائدةَ هذا المنهاجِ، وهو ميلُ الولدِ الخاصِّ الذي يجب أن يُعرَفَ جيّدًا ليعلمَ أيُّ نظامٍ خُلِقَ يلائمُه؛ فلكلِّ نفسٍ جِلَّتُها الخاصة التي يجب أن يُحكَمَ في أمرِ النفسِ وفَقَّها. والمهمُّ في نجاحِ كلِّ عنايةٍ أن تقومَ على هذه الجِلَّةِ دون غيرها. ويا أيها الرجالُ من ذوي البصائرِ، ارقُبُوا الطبيعةَ طويلاً وأنعموا النظرَ في تلميذكم قَبْلَ أن تقولوا كلمةً له، ودَعُوا بذرةَ سجيته تبدو طليقة، ولا تُلجِنوه إلى أيِّ أمرٍ حتى تَرَوْه على حقيقته، أو تظنون أنه يُضَيِّعُ دورَ الحريةِ هذا؟ كلاً سينتفع به على أحسن حال؛ وذلك لأنكم ستتعلمون عدمَ إنفاقِ ثانية إذا كان الوقتُ ثمينًا، وذلك بدلاً من كونكم إذا ما بدأتُم بالعملِ قَبْلَ أن تعرفوا ما يجب أن يُفعلَ قامَ عملُكم على المصادفة، وأمكن أن تُخذعوا، ووجب أن تُعيدوا رسمَ الخطأ، وستكونون أكثرَ ابتعادًا عن الهدفِ كلما زادت سرعتكم في الوصولِ إليه. ولا تفعلوا إذن كالبخيلِ الذي يخسرُ كثيرًا لكيلا يخسرَ شيئًا، وضَحُّوا في الدُّورِ الأوَّلِ بزمنٍ ستستردونه مع الرِّيا في دورِ آتٍ من العُمُر، وذلك كالطبيبِ الحكيمِ الذي لا يُعطي الوَصَفاتِ بطيشٍ عند أوَّلِ نظرة، والذي يدرُسُ مزاجَ المريضِ قبل أن يفرضَ علاجًا؛ أجلُّ إنه يبدأ بمداواته متأخرًا، ولكنه يشفيه، على حين يقتله الطبيبُ المستعجلُ كثيرًا.

ولكن أين نضع هذا الولدَ لتنشئته مثلَ موجودٍ فاقدِ الحسِّ كتمثالِ آلي؟ أُنْمِسِكُه في كُرَّةِ القمرِ أم في جزيرةٍ قَفْرٍ؟ أو نُقْصِيه عن جميعِ البشرِ؟ أفلا يكون له في العالمِ باستمرارٍ مظهرُ أهواءِ الآخرين ومثالهم؟ أفلا يرى أولادًا من لِداتِه مطلقًا؟ أفلا يرى أبويه وجيرانه ومُرضِعَه ومُربِّيته وخادمتَه، حتى مؤدِّبه الذي لن يكون مَلَكًا مع ذلك كله؟

هذا الاعتراضُ قويٌّ متين، ولكن هل قُلْتُ لكم إن التَّربِيَةَ الطبيعيَّةَ عملٌ سهلٌ؟ ويا أيها النَّاسُ! هل أَعَدُّ مذنبًا إذا كنتم قد جعلتم صعبًا كلَّ ما هو صالحٌ؟ أشعُرُ بهذه المصاعبِ،

وأعترف بها، وهي مما لا يُدَلُّ على ما يحتمل، ولكن مما لا مراءٍ فيه دائماً أننا بسعينا في اجتنابها نتجنّبها إلى حدٍّ ما، وأبدي ما يجب أن يُحاول للوصول إلى الهدف، ولا أقول إن من الممكن بلوغه، وإنما أقول إن الذي يدنو منه أكثر من سواه يكون أحسن توفيقاً.

وذكروا أنه يجب على من يحاول تكوين رجل أن يكون قبل ذلك رجلاً، فيظهر مثلاً يُحتذى. وبينما يكون الولد خالياً من المعرفة بعدُ يُوجد من الوقت ما يُعدُّ فيه كلُّ ما يُدنيه من حالٍ لا تقع عيناه فيها على غير الأشياء التي يلائمه أن ينظر إليها. وكونوا محترمين لدى جميع الناس، وابدءوا بأن تكونوا مُحِبِّين إليهم حتى يحاول كلُّ واحد أن يُرضيكم، ولن تكونوا سادة الولد إذا لم تكونوا رقباءً على جميع من يحيطون به، ولن يكفي هذا السلطان إذا لم يُقَمَّ على تقدير الفضيلة. ولا يقوم الأمر على إنفاق ما في الكيس وتوزيع المال ذات اليمين وذات الشمال؛ فلم أرَ قطُّ أن المال حَبَّ إنساناً. ولا ينبغي الظهور بمظهر البخيل الجافي، ولا التوجُّع من بؤس يُمكن تخفيفه. ومن العيب أن تفتحوا خزائنكم إذا لم تفتحوا قلوبكم؛ فستظلُّ قلوب غيركم مقفلة. ويجب أن تُعطوا وقتكم وعنايتكم ومودتكم وأنفسكم؛ وذلك لأنه مهما يكن ما تستطيعون فعله لا يُشعر بأن مالكم هو شخصكم مطلقاً، ويوجد من دلائل النفع وحُسن الالتفات ما يكون له أثرٌ أعظم من ذلك، وما يكون أفيد من جميع العطايا في الحقيقة، وما أكثر التّعساء والمرضى الذين يحتاجون إلى الترويح أكثر مما إلى الصدقات! وما أكثر المضطَّهدين الذين تنفعهم الحماية أكثر من المال! وأصلحوا بين المختصمين، وحولوا دون رفع القضايا، واحملوا الأولاد على الواجب والآباء على الإغضاء، ويسرّوا أمر الأنكحة السعيدة، وامنعوا المظالم، واستغلوا وابدلوا ثقة أبوي تلميذكم نفعاً للضعيف الذي تُمسك عنه العدالة والذي يُرهقه القوي، وصرّحوا عالياً بأنكم حُماة البائسين. وكونوا منصفين راحمين محسنين، ولا تقتصروا على الصدقة، بل اصنعوا المعروف؛ فأعمال الرأفة تُفَرِّج من الهموم أكثر مما يُفَرِّج المال. وأجّبوا الآخرين يُجِبُّوكم، واخديموهم يخدموكم، وكونوا إخوة لهم يكونوا أولاداً لكم.

وهذا أيضاً من الأسباب التي تجعلني أريد تربية إميل في الأرياف بعيداً من سَفَلَةِ الخدم الذين هم أحطُّ الناس بعد مُعلِّمهم، بعيداً من عادات المُدن السُّود التي يجعلها ما تُستترُّ بها من طلاءٍ فاتنةٍ مُعديةٍ للأولاد، وذلك بدلاً من نقائص القرويين الخالية من المُغريات، والموصوفة بالغلظة، فيسهل رفضها أكثر من أن يُعوى بها إذا لم تقض المصلحة بتقليدها.

وفي القرية يكون المُربي كثير السيطرة على الأشياء التي يريد عرّضها على الولد، وفي

القرية يكون لسمّعه وأقواله ومثاله من السلطان ما لا يُمكن أن يكون في المُدُن. وبما أن المُربّي في القرية يكون نافعًا لجميع النَّاس، فإن كل واحد يبادر إلى إرضائه ونيل تقديره، وإلى الظهور للتلميذ كما يودُّ المُعلّم أن يكون عليه في الحقيقة. وإذا لم يُصلح العيب في القرية اجْتَنِب العارُ على الأقل، وهذا هو كل ما نحتاج إليه في موضوعنا.

وانتهوا عن لؤم الآخرين على ذنوبٍ اقترفتموها؛ فالأولاد يُفسدون بسوء يرون أكثر من سوء تُعلّمون. وأنتم إذ تكونون معتنفين دائمًا، خُلقيين دائمًا، متحذلقين دائمًا، من أجل فكرة تُعطونهم إياها معتقدين صلاحها، تعطونهم عشرين فكرة أخرى لا قيمة لها. وأنتم إذ تكونون مفعّمين بما يدور في رؤوسكم، لا تُبصرون ما تؤدون إليه من نتيجة في رؤوسهم. أو تظنون أنه لا يوجد بين سيل الكلام الذي تغمرونهم به بلا انقطاع كلامٌ سيئون فهمه؟ أفترّون أنهم لا يُفَسِّرون إيضاحاتكم المطوّلة على شاكلتهم فلا يجدون فيها من الموادّ ما يجعلون منه جهازًا يدركونه ثمّ يعارضونكم به في الوقت المناسب؟

وأنصتوا لصبيٍّ صغيرٍ فرغَ من درسه منذ قليل، ودعوه يَهْدِر ويسأل ويَهْدِي على هَيْبته، تُدهشوا من الشكل الغريب الذي اتخذته براهينكم في ذهنه؛ فهو يخلط بين كل شيء، وهو يُقلّب كل شيء، وهو يُجزعكم، وهو يُحزنكم أحيانًا باعتراضاتٍ غير منتظرة. وهو يحمِلكم على السكوت أو على إسكاته، وما يمكن أن يكون تفكيره في أمر هذا السكوت من قِبَل رجلٍ يحبُّ الكلام كثيرًا؟ قلّ السلام على التّربية إذا ما نال هذه الفائدة وسعَرَ بها؛ فكل شيء يضع من ذلك الدقيقة؛ فهو يعود غير طالبٍ أن يتعلّم، وإنما يحاول أن يصدِّكم.

ويا أيها المُعلّمون الغُير، كونوا بسطاءً رُصناءً فطناً؛ فلا تُعدّوا في السّير ما لم يكن هذا لمنع سير الآخرين. وسأقول مكرراً دائماً: أفصّوا درساً صالحاً إذا أمكن خشيةً إلقاءِ درسٍ سيء، واخذروا في هذه الدنيا، التي جعلت الطبيعة منها أوّل فردوسٍ للإنسان، أن تمارسوا وظيفة الغاوي، قاصدين منح الولد البريء معرفة الخير والشر. وبما أنكم لا تستطيعون أن تحوّلوا دون تلقي الولد أمثلةً من الخارج فأفصّروا جميع حذركم على طبع هذه الأمثلة في ذهنه على الصورة التي تلائمه.

وتؤدّي الأهواء الصائنة إلى أثرٍ كبيرٍ في الولد الذي يشاهدها؛ وذلك لأنها دلالتٌ محسوسةٌ تقيف نظره وتحمّله على الانتباه إليها. ويبلغ الغضبُ في حُمّياه من الضجيج ما يتعدّر معه ألا يدرك إذا كان تحت البصر، ولا محلّ للسؤال عن كون هذه فرصةً لدى المُعلّم يُلقى بها درساً جميلاً. وي! لا درسٌ جميل، لا شيء، لا كلمة واحدة، دعوا الولد يأتي، ولا يعوز الولد أن

يسألُكم عن دَهَشٍ من المنظر، والجواب بسيط، وهو يُستخرج من ذاتِ الأمور التي تَقِفُ حواسه، هو يرى وجْهًا ملتهبًا، وهو يُستخرج من ذاتِ الأمور التي تَقِفُ حواسه. هو يرى وجْهًا ملتهبًا وعينين مشتعلتين وحركةً متوعّدة، ويسمع صُراخًا، وكلُّ شيء يدلُّ على اضطراب البدن. وقولوا له بوقارٍ ومن غيرِ غموض: «إن هذا الرجل المسكين مريضٌ، إنه يعاني نوبةً حمّى.» ويمكنكم أن تغتنموا هذه الفرصة، فتعطوه بكلماتٍ قليلةٍ فكرةً عن الأمراض ونتائجها؛ وذلك لأن هذا من الطبيعة أيضًا؛ وذلك لأن هذا من قيودِ الضرورة التي يجب أن يشعرَ بخضوعه لها.

وهل من الممكن عند هذه الفكرة التي ليست خاطئةً ألا يساوره باكرًا نفورٌ من الاستسلام للأهواء الشديدة التي سيعُدها أمراضًا؟ ألا ترون أنه يكون لفكرٍ كهذا يُعطى في الوقت المناسب من الأثر البالغ ما يكون لأدعى مواعظ الأخلاق إلى السأم؟ ولكن أبصروا في المستقبل نتائج الفكرة الآتية، وهي: ها أنتم أولاء مآذونون، وذلك عندما تُلزمون، في معالجة ولدٍ عاصٍ كولدٍ مريض، وفي حصره ضمن غرفته، وعلى سريريه عند الاقتضاء، وفي إلزامه بحمّية، وفي تخويفه من نقائصه الناشئة، وفي جعلها كربةً مُرعبة، وذلك من غير أن يُعدَّ عقوبةً ما قد تضطرون إلى اتخاذه من شدة لشفائه من ذلك. وإذا حَدثَ لكم أن خرجتم في ساعةٍ جدّةٍ من برودة ديمكم واعتدالكم الذي يجب عليكم أن تقيموا عليه دراستكم، فلا تحاولوا أن تُخفوا عنه خطاكم، ولكن قولوا له بصراحةٍ ولومٍ مع خفضِ جناح: «لقد آذيتني يا صديقي.»

ثم إن من المهم ألا تُثارَ أمام الولد جميع السذجات التي قد تنشأ فيه عن بساطة الأفكار التي غُدّي بها، ولا أن تُذكر على وجهٍ يمكن معه أن يُدركها، ومن الممكن أن تُفسد فهقهةً واحدةً عمل ستة أشهر، وأن تُحدث من الضرر ما لا يمكن تلافيه مدى الحياة. ولا أستطيع أن أقول مكرّرًا إن من يودّ أن يسودّ الولد أن يكون سيّد نفسه. وأتمثلُ إميل الصغير عند اشتداد شجارٍ بين جارين متقدّمًا نحو أكثرهما هياجًا قائلًا له بتحنن: «أنت مريضٌ يا جار، وأنا حزينٌ من أجلك كثيرًا.» ولا ريب في أن هذا الاحتداد لا يبقى بلا أثرٍ في الحضور، وفي المتنازعين. وإني من غير ضحكٍ ولا تعزيزٍ ولا مدحٍ آتي به طوعًا أو كرهًا قبل أن يستطيع إدراك ذاك الأثر، أو قبل أن يُفكّر فيه على الأقل، وأبادر إلى إلهائه بأمورٍ أخرى تُنسيه ذلك سريعًا.

وليس من مقاصدي أن أدخل باب التفصيل مطلقًا، وإنما أرى أن أُعرض المبادئ العامة، وأن أُورد أمثلةً في الأحوال الصعبة. وأجد أن من المتعذر في سواء المجتمع أن يُؤتى بولدٍ في الثانية عشرة من سنه من غير أن يُعطى فكرةً عن صلاتِ الإنسان بالإنسان، وعن خُلُقِية الأعمال

البشرية. ويكفي أن يُسعى في تلقينه هذه المعارف في آخر وقتٍ ما أمكن؛ فمتى أصبحت لا مفرَّ منها فُصرت على النفع الحاضر لكيلا يعتقد أنه سيد الجميع أو لنلا يؤدي الآخريين بلا تردُّدٍ وعن غير معرفة. أجل، توجد طبائعٌ لينةٌ هادئةٌ يمكن أن يُؤتى بها إلى بعيد، وبلا خطر، في براءتها الأولى، ولكنه يوجد أيضًا من السجايا الصائلة ما ينمو جفاؤها باكرًا، فيجب أن يُجعل منها رجالًا على عَجَل، حتى لا تقضي الضرورة بتقييدها.

وتكون واجباتنا الأولى نحو أنفسنا، وتتجمَّع مشاعرنا الابتدائية في أنفسنا، وتهدف جميع حركاتنا إلى بقائنا ورفاهيتنا في البداءة. وهكذا فإن شعورنا الأوَّل بالعدل لا يأتي مما يجب علينا نحو الآخريين، بل من الواجب نحو أنفسنا، وهذا يناقض أنواع التربيَّة الشائعة التي تُحدِّث الأولاد عن واجباتهم في بدء الأمر، لا عن حقوقهم مطلقًا، فتكلِّمهم بعكس ما يجب؛ أي بما لا يُدركون، وبما لا يُمكن أن يلتفتوا إليه.

إذن، لو قُدِّر لي أن أسير ولدًا كما أفترض لقلت في نفسي: «إن الولد لا يَهْجُم على أحد،^٨ بل يَهْجُم على الأشياء. ولا يلبث الولد أن يتعلَّم بالتجربة احترام مَنْ هو أكبر منه سنًّا وأشدَّ قوة. بيِّد أن الأشياء لا تُدافع عن نفسها بنفسها؛ ولذا يجب أن تقوم الفكرة الأولى التي يُعطها على الملكية أكثر مما على الحرية. وهو لا بُدَّ من أن يكون مالكاً لشيءٍ حتى تكون عنده هذه الفكرة.» ولا فائدة من ذكر ثيابه وأمتعته ولعبه؛ فهو وإن كان يتصرَّف في هذه الأشياء لا يَعْرِف سبب تملكه لها ولا كيف تملكها، ولا طائل في أن يُقال له إنه مَلِكها لأنه أُعْطِيها؛ وذلك لأنه لا بدَّ من العطاء لوقوع التملك. وهذا إذن تملكٌ سابقٌ لتملكه، وهذا هو مبدأ التملك الذي يُراد إيضاحه له، وهذا من غير حسابٍ لكون العطاء عقْدًا، ولكون الولد لا يستطيع أن يَعْرِف ما العقْد أيضًا.^٩ فإيا أيها القراء، أرجو منكم أن تلاحظوا في هذا المثال، وفي مائة مثالٍ آخر، كيف أنه يُعتقد مع ذلك حُسنُ تعليم الأولاد بشحن رءوسهم بكلماتٍ لا معنى لها عندما تكون في متناولهم.

^٨ لا يجوز أن يُسمح للولد بأن يعارض الكبار، ولا من هم مساوون له، كما يعارض من هم دونه، وإذا ما أقدم على ضرب شخصٍ ضربًا جديًّا، ولو كان خادمه ولو كان الجَلاد، فدَعُوا المعتدى عليه يرد الضربات إليه مع الربا، حتى لا يعود إلى مثل ذلك أبدًا. وقد رأيت من المربيَّات الغافلات من يُثرن عناد الولد ويحرضنه على الضرب ويدعنه يضربهن فيضحكن من ضرباته الضعيفة، غير مفكِّراتٍ في كون هذه الضربات هي ضربات قاتلة في نية الهائج الصغير، وفي كون الصغير إذا أراد الضرب في صغره أراد القتل في كبره.

^٩ هذا هو السبب في كون معظم الأولاد يريدون استرداد ما يُعطون، وأنهم يبكون عندما لا يُراد ردُّ ذلك إليهم، وما كان هذا ليحدث لهم لو تمَّثلوا ما العطاء، وهنالك يكونون أشدَّ خدرا حينما يُعطون.

ولذلك يجب الرجوع إلى أصل التملك، وذلك لوجوب صدور الفكرة الأولى عنه. وإذا ما عاش الولد في الأرياف فاز ببعض المعارف عن الأعمال الحقلية، ولا يستلزم هذا غير عيون وفراغ، وهما يتفقان للولد. ونحن في كل دور، ولا سيما دور الطفولة، نريد الإبداع والتقليد والإنتاج وإبداء علامات القوة والنشاط، وهو لا يكاد يرى حرث الحديقة وبذر الخضر ونبتها ونموها مرتين حتى يريد العمل في الحدائق من ناحيته.

ولا أعارض رغبة الولد مطلقاً بالمبادئ المقررة آنفاً، وإنما أؤيدها وأقاسمه ميّله، وأعمل معه، لا من أجل بهجته، بل من أجل بهجتي، وهو يظنُّ هذا على الأقل، وأصبح عامله البستاني، وأخرت الأرض له ريشما يصير ذا ذراعين. وهو يحوز الأرض بزّعه فولاً، ولا ريب في أن هذه الحياة أقدس وأدعى إلى الاحترام من حياة نونس بلبوا لأمریکة باسم ملك إسبانية، وذلك حين نصّب علمه على سواحل بحر الجنوب.

ويؤتى لسقي الفول كل يوم، ويرى نبتته بفرح كثير، وأزيد هذا الفرح بقولي له: «هذا مائلك». وهناك أشرح له معنى «مائلك»، فأشعره بأنه وضع هنالك وقته وعمله وتعبه ثم شخصه، وبأنه يوجد في هذه الأرض شيء من نفسه يمكنه أن يدعي به تجاه جميع العالم، وذلك كاستطاعته أن يسحب ذراعه من يد رجل آخر يريد إمساكها على الرغم منه.

ويصل ذات يوم مسرعاً حاملاً مرشّته، فيا له من منظر! ويا له من ألم! فقد قلع جميع الفول، وقد قلبت جميع الأرض، ولا يكاد الموضوع يُعرف. وي! ما دهي عملي وأثري وثمره عنائتي وعزقي؟ من ذا الذي سلّني مالي؟ من ذا الذي أخذ فولي؟ ويتور هذا الفؤاد الفتّي، ويأتي أول شعور بالظلم لسكب مرارته الشجيرة، وتسيل الدموع كالجدول، ويملأ الولد الحزين بعويله وضراخه الهواء، ويشاطر الولد ألمه وغيظه، ويتلمّس، ويستعلم، ويدقق في الأمر، وأخيراً يُعلم أن البستاني هو الذي أنزل هذه الضربة، فيحضر.

ولكن، ها نحن أولاء بعيدون من الصواب؛ فقد علم البستاني بما يُشككي منه وأخذ يتوجّع بأشدّ مما نتوجّع.

ماذا! أنتم الذين أفسدوا عملي يا سادتي! فقد زرعتم شماماً مالطياً كنت قد أعطيت حبه مثل كز، فرجوت أن أطمعكم منه عندما ينضج، ولكنكم أهلكم شمامي النابت الذي لا أعوض منه زارعين فولكم الهزيل، وقد اقترفتهم خطأ لا يُتلافى نحوي، وقد حرمتهم أنفسكم لذّة الأكل من الشمام الفاخر.

جان جاك: عفواً، يا روبرت البائس، لقد وضعتَ هنالك عملك وتعبك، وأرى جيداً أننا أخطأنا إذ أفسدنا صنّعتك، ولكننا سنأتي ببذرٍ من مالطة، ولن نحرق أرضاً قبل أن نعرف هل وضع أحدٌ يده عليها قبلنا.

روبرت: ويا! حسناً يا سادتي، يمكنكم أن تستريحوا إذن؛ وذلك لأنه عاد لا يوجد من الأرضين ما هو بُور، وأمّا أنا فإنني أحرث الأرض التي أصلحها أبي، وكلّ يعمل عين الشيء من ناحيته، وجميع الأرضين التي ترون مملوكة منذ زمن طويل.

إميل: إذن، يوجد في الغالب يا مسيو روبرت، بذرُ شَمَامٍ مفقود؟

روبرت: عفواً يا أخي، وذلك أنه لا يأتينا من صغار السادة من بلغوا مثل طيشك في الغالب، فلا أحد يمسُّ حديقة جاره، وكلّ يحترم عمل الآخرين حتى يطمئن إلى عمله.

إميل: ولكن لا حديقة لي مطلقاً.

روبرت: وما أهمية ذلك؟ إذا ما أفسدت حديقتي لم أدعك تنزّه فيها مطلقاً؛ وذلك لأنني لا أريد أن أخسر تعبي كما ترى.

جان جاك: ألا يُمكن عرضُ تسويةٍ على روبرت الصالح؟ فليعطني أنا وصديقي الصغير قطعةً من حديقته لزرعها على أن يكون له نصفُ الغلة.

روبرت: أعطيكم إياها بلا شرط، ولكن اذكروا أنني أذهب لقلب فولكم إذا ما لمستما شَمَامِي.

ويُرى، من هذه المحاولة في إدخال المعارف الابتدائية إلى ذهن الأولاد، كيف أن مبدأ التملك يَرُجِع بحكم الطبيعة إلى حقّ المالك الأوّل بالعمل، وهذا واضحٌ صريحٌ بسيط، وهو في متناول الولد دائماً، ولا يوجد من هناك حتى حقّ التملك والمعاوضات غير خُطوة واحدة، فإذا تَمَّت وجب الوقوفُ بلا زيادة.

ومما يُرى أيضاً أن إيضاحاً أدرجه في صفحتين من الكتابة هنا سيكون عمل عام في التطبيق؛ وذلك لأنه لا يمكن أن يُتقدّم في ميدان الأفكار الخُلُقِيّة على مهلٍ بالغ، ولا أن يُسار بخطأ راسخةٍ كثيراً. وبإشباب المُعلّمين فكّروا في هذا المثال كما أرجوكم، واذكروا أن دروسكم في كلّ أمرٍ يجب أن تكون أعمالاً أكثرَ منها أقوالاً؛ وذلك لأن الأولاد ينسون بسهولة ما يقولون وما يُقال لهم، لا الذي يصنعون ولا ما يُصنَع لهم.

ودروسٌ كهذه مما يجب إعطاؤه عاجلاً أو آجلاً كما قلت، وذلك وفق ما تقتضيه طبيعة

التلميذ الهادئة أن المُعْرِيدَة من تعجيلٍ أو تأجيلٍ للحاجة إليها، وطريقُ استعمالها هو من الوضوح ما هو بادٍ لكلّ ذي عَيْنين، ولكن لثأبِ بَمَثَلٍ آخَرَ لكيلا نُهْمَلِ شيئاً مهمّاً في الأمورِ الصعبة.

ويُتَلَفُ ولِدُكُمْ الشُّكُوسُ كلَّ شيءٍ يَمَسُّهُ، فلا تَغْضِبُوا من هذا مطلقاً، وإنما اجعلوا كلَّ ما يستطيع إتلافه في مكانٍ لا تصل يده إليه، وهو يَكْسِرُ الأمتعة التي يستعملها، فلا تُسرِعُوا في إعطائه بدلاً منها مطلقاً، ودَعُوهُ يَشْعُرُ بأذى الحرمان، وهو يَكْسِرُ زجاجِ نوافذِ غرفته، فدَعُوا الرِّيحَ تَلْطِمُهُ ليلَ نهارٍ غيرَ مبالين بِزُكَامِهِ؛ فالآن يُصَابُ بِالزُّكَامِ خَيْرٌ من أن يكونَ مَجْنُوناً. ولا تَشْكُوا من إزعاجه لكم، ولكن دَعُوهُ يكونَ أَوَّلَ مَنْ يَشْعُرُ به، وأخيراً تَحْمِلُونَ على إصلاحِ زجاجِ النوافذِ من غيرِ أن تقولوا شيئاً، وإذا ما عاد إلى الكسرِ فَغَيِّرُوا الأسلوبَ، وقولوا له بحفاةٍ ولكن من غيرِ غضبٍ: «إن النوافذِ لي، وهي قد وُضِعَتْ هنالك بِجُهدٍ مِنِّي، فأريدُ أن أصونها.» ثمَّ احبسوه في مكانٍ مظلمٍ خالٍ من النوافذِ، ويبدأ بالصراخِ والهياجِ عند هذه الطريقة الجديدة، ولا يُصْغِي إليه أحد، ولا يلبث أن يتعب ويُغَيِّرُ لهجته، ويتوجَّعُ ويئن، ويحضرُ خادم، ويرجو العاصي منه أن ينقذه، ويقول الخادمُ له من غيرِ اعتذارٍ عن عدم تلبية طلبه: «لنوافذِي زجاجٌ يجب أن أحافظَ عليه»، وينصرف. وأخيراً بعد أن يَمُكُثُ الولدُ عدة ساعات هنالك؛ أي زمنًا يكفي لِسَامَهُ وانطباع ذلك في ذهنه، يقترح عليه أحدُ النَّاسِ بأن يعرض عليكم عهداً تُعيدون به حرَّيته ولا يعود إلى كسرِ زجاجِ النوافذِ، ولا يطلب ما هو أحسنُ من هذا، ويُرسِلُ مَنْ يرجو منكم أن تأتوا لرؤيته، وتجيئون، وتقدّم إليكم عهدته، وتوافقون عليه من فوركم قائلين له: «هذه فكرةٌ حسنةٌ جدًّا، ولكلانا كَسَبٌ فيها، ولمَّ لَمْ تُبدِها باكراً؟» وتقبّلونه فَرِحِينَ غيرَ مطالبين إياه بتأييدٍ لوعده أو توكيد، وتأتون به إلى غرفته حالاً عادين هذا العهدَ مقدّساً مصوناً كما لو وُكِّدَ بيمين، وتزوّنُ أيّ فكرٍ يُنال بهذه الطريقة عن الوفاء بالعهود وفائدتها؟ أكون مخطئاً إذا وُجِدَ في العالمِ ولدٌ واحد، غيرُ فاسدٍ سابقاً، يستطيع المقاومة فيقدّم على كسرِ زجاجِ نافذةٍ قصداً، وتتبعوا سلسلة جميع هذا، ولم يُبصر الخبيث الصغيرُ أنه ياحدائه خُفْرَةٌ لِرُزَعِ قَوْلِهِ كان يَحْفِرُ خُجَيْرَةً مظلمةً لا يُعْتَمُ علمه أن يَحْبِسَهُ فيها.^{١٠}

^{١٠} وفضلاً عن ذلك فإن هذا الواجب في محافظة الولد على عهوده لا يُرْسَخُ في رُوحِ الولد بفعل فائدته، ولا يلبث الحسُّ الباطني أن ينمو، فيفرضه عليه كقانونٍ للضمير، كمبدأ غريزي لا يُنتظر لنموه غيرُ المعارف التي يُطبّق عليها، ولم يُرسم هذا الخطُّ الأوّلُ بيدِ الناس، بل نُقِشَ في قلوبنا من قِبَلِ صانعِ كلِّ عدل. وأزيلوا قانونَ العهود الابتدائي والالتزام الذي يفرضه تجدوا كلَّ شيءٍ في المجتمع البشري وهمياً باطلاً، ومن لم يحافظ على وعده إلا عن منفعةٍ له فإنه لا يكون مرتبطاً فيه بأكثر مما لو كان لم يُعْطَ وعداً قط، أو إنه يكون في القدرة على نقضه

ونحن الآن في العالم الخُلقي، وها هو ذا الباب مفتوح للعيب، ويُؤد الخداع والكذب مع العهود والواجبات، ويُراد كتماناً ما وجب ألا يُصنع منذ إمكان صنع ما يجب ألا يُصنع، ومتى قضت المصلحة بالوعد أمكن مصلحةً أعظم منها أن تحمِل على نقض الوعد. ولا تكاد المسألة تقوم على نقضه بلا عقاب؛ فالوسيلة طبيعية، وذلك أنه يُكتم أو يُلجأ إلى الكذب، ونحن إذ لم نستطع منع العيب فإننا نكون في وضعٍ من يعاقب العيب كما ترى، وهذه هي أبؤس الحياة البشرية التي تبدأ مع زلاتها.

وقد قلتُ ما فيه الكفاية لإثباتي عدم وجوب فرض العقاب على الأولاد للعقاب، وإنما لينالوه كنتيجة طبيعية لسوء ما يفعلون. وهكذا فإنكم لا ترفعون عقيرتكم في وجه الكذب مطلقاً، ولا تُجازونهم على كذبهم ضبطاً، ولكنكم تصبُّون على رؤوسهم جميع نتائج الكذب عندما يكذبون، كما لو كُنَّا لا نُصدِّق عند قولنا الحق، وكُنَّا نُنتهم بشرٍّ لم نفعله قطُّ على الرغم من دفاعنا، ولكن لِنوضِّح معنى الكذب عند الأولاد.

ويوجد للكذب نوعان: فالنوع الأوَّل يقوم على الوقائع في الماضي، ويقوم النوع الثاني على الحق في المستقبل. ويحدث النوع الأوَّل عند إنكار فعلٍ ما فعل أو توكيد فعلٍ لم يفعل؛ أي أن يحدث على العموم وعن علمٍ خلاف حقيقة الأمور، ويحدث النوع الثاني عندما يُوعَد بما يقصد عدم القيام به؛ أي أن تُبدي على العموم نيَّة مخالفة لما في النفس، ويُمكن نوعي الكذب هذين أن يجتمعا في واحدٍ^{١١} أحياناً، ولكني أنظر إليهما هنا بما ينطويان عليه من اختلاف.

ومن يشعر باحتياجٍ إلى مساعدة الآخرين، ولم ينفك يشعر بعطفهم، لا تكون لديه مصلحة في مخادعتهم، وهو على العكس ذو مصلحة ملموسة في رؤيتهم الأمور كما هي، وذلك خشية أن يُخدعوا فيصيبه ضرر؛ ولذا فإن من الواضح أن الكذب في الوقائع غير طبيعي في الأولاد، وإنما دستور الطاعة هو الذي يؤدي إلى ضرورة الكذب؛ وذلك لأن الطاعة، إذ كانت شاقَّةً يتخلَّص منها خفيةً ما أمكن، ولأن المصلحة الحاضرة في اجتناب العقاب والعتاب تفوق المصلحة البعيدة في قول الحق. ولم يكذبكم ولدكم في التربية الطبيعية الحرة إذن؟ وما لديه ما

كالمقامرين الذين لا يترقبون في الاستفادة من تفوقهم إلا ليرقبوا الدقيقة التي يزيدون فيها كسبهم. وهذا المبدأ من الأهمية بمكان عظيم، وهو يستحق كلَّ تعمُّق؛ وذلك لأن الإنسان يأخذ في مناقضة نفسه هنا.
^{١١} وذلك كحال المُدَّنب المتهم بإحدى القبايح فيدافع عن نفسه بقوله إنه رجل صالح؛ فهو بهذا يكذب في الوقائع وفي الحق.

يكتّم عنكم؟ أنتم لا تلوّمونه مطلقاً، أنتم لا تعاقبونه على شيء، ولا تطالبونه بشيء، فلم لا يقول لكم جميع ما صنّع بسداجة كما يقول لرفيقه الصغير؟ لا يمكن أن يرى في هذا الاعتراف خطراً أكبر مما في عدمه.

والكذب عن حقٍّ أقلُّ قُرْباً إلى الطبيعة ما دام الوعدُ بالعمل أو الامتناعُ عن العمل من الأفعال العهدية الخارجة عن حال الطبيعة والمخالفة للحرية، وذلك فضلاً عن كون عهود الأولاد باطلةً بنفسها نظراً إلى أن بصرهم المحدود لا يُمكن أن يمتدَّ إلى ما وراء الحاضر، فلا يعرفون ما يفعلون إذا ما ألزموا أنفسهم بأمر، ولا يكاد يكذب إذا ما ألزم نفسه، وذلك أنه لا يُفكر في غير التخلُّص من ورطة في الساعة الحاضرة فتساوى عنده جميع الوسائل التي لا يكون لها أثر حاصر. وهو إذا ما وعدَ لزمين قادمٍ لم يعد شيئاً، وما كان خياله الذي لا يزال راقداً ليعرف أن يمدد وجوده إلى زمتين مختلفين مطلقاً. فإذا ما استطاع اجتناب السوط أو نيل قُرصٍ من السُّكر بأن يعدَّ بإلقاء نفسه من النافذة غداً وعدَّ بذلك من فوره، وهذا هو السبب في كون القوانين لم تلتفت إلى عهود الأولاد، وإذا حدت أن طالبهم الآباء والمُعَلِّمون بأن يَفُوا بعهودهم وشَدَدوا كان هذا مقصوراً على ما يجب أن يفعله الولد ولو لم يعد به.

وبما أن الولد لا يعرف ما يفعل حينما يلزم نفسه، فإنه لا يستطيع أن يكذب حينما يلزم نفسه إذن. وليس الأمر هكذا عند عدم وفائه بعهد، وهذا ضربٌ من الكذب سارٍ على ما قبله، وذلك أنه يذكر جيداً أنه قام بهذا العهد، ولكن الذي لا يُبصر هو أهمية الوفاء به، وهو إذ كان لا يستطيع أن يُبصر المستقبل فإنه لا يستطيع أن يُبصر نتائج الأمور، وهو إذا ما أحلَّ بالتزاماته لم يصنع شيئاً مخالفاً لداعي سنّه.

ومن ثمَّ يرى أن كذب الأولاد من عمل المُعَلِّمين، وأن الرغبة في تعليمهم قول الصدق ليست شيئاً آخر غير تعليمهم الكذب. ولا تجدون في غيرتكم أن تُنظّموا أمورهم وتربوهم وتعلّموهم من الوسائل ما يكفي للنجاح، وتريدون أن تكونوا ذوي نفوذٍ طريفٍ في نفوسهم بمبادئ لا أساس لها، وبقواعد خالية من الصواب، وتفضّلون أن يعرفوا دروسهم وأن يكذبوا على أن يبقوا جاهلين وصادقين.

وأما نحن، الذين لا يُلقون على تلاميذهم غير دروسٍ عملية، والذين يُفضّلون كونهم صالحين على أن يكونوا عالمين، فإننا لا نطالبهم بالصدق مطلقاً خشيةً أن يكتموه، ولا نحملهم على الوعد بشيءٍ يحاولون عدم الإيفاء به. وإذا وقع ضررٌ في غيابي لا أعرفُ فاعله احترزتُ من

اتَّهَامِ إِمِيلِ أَوْ مِنْ قَوْلِي لَهُ: «أَنْتِ فَعَلْتِ هَذَا؟»^{١٢} وَذَلِكَ لِأَنِّي مَا أَصْنَعُ بِهَذَا غَيْرَ تَعْلِيمِهِ إِنْكَارَ ذَلِكَ؟ وَإِذَا كَانَ طَبْعُهُ الصَّعْبُ يَحْمِلُنِي عَلَى وَضْعِ عَهْدٍ مَعَهُ فَإِنِّي أَتَّخِذُ مِنَ التَّدَابِيرِ مَا يُوْدِي إِلَى صَدُورِ اقْتِرَاحِ ذَلِكَ عَنْهُ، لَا عَنِّي مُطْلَقًا. وَهُوَ إِذَا مَا أَلَزَمَ نَفْسَهُ كَانَتْ لَدَيْهِ مَصْلَحَةٌ حَاضِرَةٌ مَلْمُوسَةٌ فِي الْقِيَامِ بَعَهْدِهِ، وَهُوَ إِذَا مَا أَخَلَّ بِهِ جَلَبَ هَذَا الْكَذِبِ لَهُ مِنَ الْأَضْرَارِ مَا يُبْصِرُ ظَهْرَهُ مِنْ نِظَامِ الْأُمُورِ نَفْسِهِ، لَا مِنْ انْتِقَامِ مَرْبِيهِ. وَلَكِنِّي إِذْ أَبْتَعِدُ عَنْ ضَرُورَةِ الِاتِّجَاعِ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْوَسَائِلِ الْجَافِيَةِ، أَكَادُ أَطْمَئِنُّ إِلَى أَنْ إِمِيلَ سَيَعْلَمُ مُؤَخَّرًا مَا الْكَذِبُ، وَهُوَ إِذْ يَعْلَمُهُ يَعْتَرِيهِ ذَهَشٌ مِنْ عَدَمِ اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَتَصَوَّرَ وَجُودَ فَائِدَةٍ فِي الْكَذِبِ. وَمِنْ الْوَاضِحِ جِدًّا أَنِّي كَلَّمَا جَعَلْتُ هُنَاكَ مَسْتَقْلَةً عَنْ إِرَادَةِ الْآخَرِينَ وَأَحْكَامِهِمْ قَطَعْتُ عَنْهُ كُلَّ مَنْفَعَةٍ فِي الْكَذِبِ.

وَإِذَا لَمْ تَتَعَجَّلِ التَّعْلِيمَ لَمْ تَتَعَجَّلِ فِي السُّؤَالِ مُطْلَقًا، وَلَمْ نَطَالِبْ بِشَيْءٍ فِي غَيْرِ الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ، وَهَذَا يَتَكُونُ الْوَلَدُ بِمَا لَا يَقْسُدُ مَعَهُ أَبَدًا. وَلَكِنْ الْمُعَلِّمُ إِذَا كَانَ مِنَ الطَّيِّبِ مَا لَا يَعْرِفُ مَعَهُ كَيْفَ يَقُومُ بِعَمَلِهِ فَيَحْمِلُ تَلْمِيذَهُ عَلَى الْوَعْدِ بِهَذَا أَوْ ذَاكَ بِلَا تَمْيِيزٍ وَلَا خِيَارٍ وَلَا قِيَاسٍ، فَإِنَّ الْوَلَدَ الَّذِي يَكُونُ قَدْ أَمَلَتْهُ هَذِهِ الْوَعُودُ وَأَثَقَلَتْهُ يَهْمِلُهَا وَيَنْسَاهَا وَيَزِدُّهَا فِي آخِرِ الْأَمْرِ، وَهُوَ إِذْ يُعْطَاهَا صِغَةً فَارِغَةً فَإِنَّهُ يَتَلَهَّى بِصُنْعِهَا وَنَقْضِهَا، فَإِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ يَكُونَ مُخْلِصًا فِي الْإِيْفَاءِ بِوَعْدِهِ فَكُونُوا فَطْنًا فِي مَطَالِبَتِهِ بِهَا.

وَمَا أَتَيْتُمْ مِنْ تَفْصِيلِ حَوْلِ الْكَذِبِ يُمكنُ أَنْ يُطَبَّقَ مِنْ نَوَاحٍ كَثِيرَةٍ عَلَى جَمِيعِ الْوَاجِبَاتِ الْآخَرَى الَّتِي لَا تُفَرِّضُ عَلَى الْوَالِدِ إِلَّا لَتَكُونَ بَغِيضَةً غَيْرَ عَمَلِيَّةٍ لَدَيْهِمْ، وَهُمْ يُحْمَلُونَ عَلَى حُبِّ جَمِيعِ الْعُيُوبِ لِيُظَهَرَ بِمُظَهَرِ الْوَاعِظِ لَهُمْ بِالْفَضِيلَةِ، وَهُمْ يُعْطَوْنَهَا بِمَنْعِهِمْ مِنْ حَيَازَتِهَا. وَإِذَا أُرِيدَ جَعْلُهُمْ أَتْقِيَاءَ أَتَى بِهِمْ إِلَى الْكَنِيسَةِ لِيُحْمَلُوا عَلَى الدَّنْدَنِ بِالصَّلَوَاتِ، فَيُلْجَأُوا إِلَى ابْتِغَاءِ السَّعَادَةِ فِي عَدَمِ دَعْوَةِ الرَّبِّ. وَهُمْ لِكِي يُوحَى إِلَيْهِمْ بِحُبِّ الْخَيْرِ يُلْزَمُونَ بِإِعْطَاءِ الصَّدَقَةِ كَمَا لَوْ كُنْتُمْ تَزِدُّونَ إِعْطَاءَهُمْ بِأَنْفُسِكُمْ. حَسَنًا! فَالْمُعَلِّمُ لَا الْوَلَدَ، هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْطَى، وَمَهْمَا بَلَغَ الْمُعَلِّمُ مِنْ حُبِّهِ تَلْمِيذَهُ وَحَبَّ أَنْ يِنَازِعَهُ هَذَا الشَّرْفُ؛ أَيُّ يَجِبُ أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى الْحُكْمِ بِأَنْ مَنْ هُوَ فِي سِنِّهِ لَيْسَ أَهْلًا لِذَلِكَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الصَّدَقَةَ عَمَلُ رَجُلٍ يَعْرِفُ قِيمَةَ مَا يُعْطَى وَحَاجَةَ النَّاسِ إِلَيْهَا. وَلَا يُمكنُ الْوَلَدُ الَّذِي لَا يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ هَذَا أَنْ يَكُونَ ذَا مَرْيَّةٍ فِي الْعَطَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُعْطَى عَنْ غَيْرِ خَيْرٍ وَلَا حَسَنَةٍ، وَهُوَ يَكُونُ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ فِي الْعَطَاءِ تَقْرِيْبًا عِنْدَمَا يَعْتَقِدُ، مُسْتَنْدًا إِلَى مِثَالِهِ

^{١٢} لَا شَيْءَ أَبْعَدُ مِنَ الصَّوَابِ كَهَذِهِ الْأَسْئَلَةِ، وَلَا سِيَّما عِنْدَمَا يَكُونُ الْوَلَدُ مُذْنِبًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا اعْتَقَدَ أَنْكُمْ تَعْرِفُونَ مَا صَنَعَ أَبْصَرَ أَنْكُمْ تَنْصِبُونَ لَهُ شَرِّكَا. وَلَا تَخْلُو هَذِهِ الْفِكْرَةَ الَّتِي تَسَاوَرُهُ مِنْ أَنْ تُثَقِّلَهُ ضِدْكُمْ، وَهُوَ إِذَا لَمْ يَعْتَقِدْ ذَلِكَ قَالَ فِي نَفْسِهِ: «لَمْ أَبُوحْ بِذَنْبِي؟» وَهَكَذَا تَكُونُ هَذِهِ الْمَحَاوَلَةُ فِي الْكَذِبِ نَيْجَةً سؤَالِكُمْ الطَّائِشِ.

ومثالكُم، أنه لا يوجد غيرُ الأولادِ مَنْ يُعطي، وأنه لا صدقة بعد أن يَكْبُرُوا.

واعلموا أن الولدَ لا يُحمَلُ على إعطاءِ شيءٍ غير ما يجهل قيمته؛ أي غير قطعِ معدنية يَحْمِلُها في جيبه، فلا تنفعه في غير هذا، ويُفضَّلُ الولدُ إعطاءَ مائة دينارٍ على قطعةٍ من الحلوى، ولكن حرّضوا هذا الموزَّعَ المبدَّرَ على إعطاءِ الأشياءِ العزيرةِ عليه كَلْعَبِه ومُلْبَسِه وغدائه لِنَعْلَمَ من فورنا هل جعلتموه كريماً.

وتوجدُ تجربةٌ أخرى لذلك أيضاً، وهي أن يُبادَرَ إلى إعادةِ ما أعطى الولد، وذلك أن يُعوذَ إعطاءَ كلِّ ما يعلم جيداً أنه يعود إليه، ولم أرَ في الأولادِ قطُّ غيرَ هذين النوعين من الكرم، وهما: أن يُعطُوا ما هو غيرُ صالحٍ لشيءٍ عندهم أو أن يُعطُوا ما يعتقدون أنه يُعاد إليهم. ويقول لوك: «اصنعوا ما يقنعون معه عن تجربةٍ بأن الأكثرَ سخاءً هو الأكبرُ حصَّةً دائماً.» وهذا ينطوي على جعل الولدِ سخياً ظاهراً وبخياً حقيقةً. وإلى ذلك يُضيفُ لوكُ قوله: «وهكذا يألف الأولادُ عادةَ الكرم.» أجل، كرمٌ مُرَبٌّ يقوم على إعطاءِ بيضةٍ نَيْلاً لبقرة، ولكن قُل السلامَ على العادةِ إذا ما قام الأمرُ على عطاءٍ حقيقي، وإذا ما كُفَّ عن الإعادةِ كُفَّ عن العطاءِ حالاً. ويجب أن يُنتَبَه إلى عادةِ الرُّوحِ أكثرَ مما إلى عادةِ الأيدي، وتُشابهه هذه جميعَ الفضائلِ الأخرى التي يتعوذها الأولاد، وفي سبيلِ وَعَظْهم بهذه الفضائلِ المتينةِ يُفتى شبابهم في الغمِّ! فيا لها من تربيةٍ حكيمة.

ويا أيها الأساتذة، دَعُوا الرِّثاءَ، وَكُونُوا فُضلاءَ صالحين، فَتُنقَشَ أمثلتكم في ذاكرةِ تلاميذكم حينما يُمكنها أن تدخل في قلوبهم. وأفضلُّ أن أقوم بأعمالِ البرِّ أمام تلميذي على المبادرة بمطالبته بها، وأن أنزعَ منه حتى وسيلةَ اقتدائه بي فيها كشرَفٍ خاصٍّ بسنِّه، وذلك أن من المهمِّ ألا يتعوذَ عدوَّ واجبات الرجال كواجبات الأولاد فقط. وإذا ما رأني أساعد الفقراءَ وسألني عن ذلك أجبته بعد حين بما يأتي: ^{١٣} «عندما أراد الفقراء، يا صديقي، وجودَ أغنياءٍ وَعَدَّ الأغنياءُ ياطعمُ جميعَ مَنْ ليس لديهم ما يعيشون به سواءً بمالهم أو بعملهم.» ويُرَدُّ التلميذُ بقوله: «إذن، أنت وعدت بهذا.» ويقول المُعلِّمُ: «أجل، لسْتُ صاحبَ المالِ الذي يمرُّ من يدي إلا بشرطٍ متعلقٍ بتملُّكه.»

وبعد أن يعي ولدٌ غيرُ إميل هذا الكلام، وقد رأينا كيف يمكن جعلُ الولدِ في حالٍ يعيه فيه، سيحاول الاقتداءَ بي، وسيسير مثلَ رجلٍ غني، وفي هذه الحال سأمنع وقوعَ هذا مع تباهِ، فأفضلُّ

^{١٣} ليعلم أنني لا أحل مسائله متى يريد، بل متى أريد، وإلا جعلت نفسي خاضعاً لرغباته ووضعت نفسي في أخطرٍ موضعٍ من التبعية يمكن أن يقع فيه مؤدَّبٌ نحو تلميذه.

أن يختلس مَنِّي امتيازي وأن يستتر في العطاء، وهذا جتالٌ من قبلة، وأغضي عن هذا وحده.

وأعرف أن جميع هذه الفضائل عن اقتداءٍ هي فضائلُ قرد، وأن العمل الصالح لا يكون صالحاً خُلُقياً إلا إذا صُنِعَ هكذا، لا لأن الآخرين يصنعونه. وأمّا في السنن التي لا يشعُر القلبُ فيها بشيءٍ بعد؛ فيجب حَمْلُ الأولادِ على تقليدِ الأعمالِ التي يُراد تعويدهم إياها ريثما يستطيعون صُنْعُها عن تمييز الخير وحبّه. والإنسان مقلدٌ، والحيوان مقلدٌ أيضاً، وحب التقليد من عمل الطبيعة الحسنة التنظيم، ولكن ينحطُّ في المجتمع إلى عيب. ويُقلدُ القردُ الرجلَ الذي يخشى، ولا يُقلدُ الحيوانات التي يزدري، وهو يرى حسناً ما يصنعه موجودٌ خيرٌ منه. وعلى العكس يُقلدُ مهرجوناً على أنواعهم كلّ ما هو جميلٌ خطأً له، تحويلاً له إلى مهزأة. وهم يحاولون بشعورهم السافل مساواةً من هم أفضلٌ منهم، أو يسعون أن يُقلدوا من يُعجبون بهم، ويتجلى ذوقهم الفاسد في اختيار النماذج، وهم يُفضّلون أن يُموهوا على الآخرين، أو أن يحولوا على الهُتاف لبوغهم، على أن يكونوا أحسنَ حالاً أو أكثرَ حكمة. وتجدُ أساسَ التقليد بيننا في رغبتنا أن ننتقل إلى خارج أنفسنا، وإذا ما كُتِبَ لي التوفيقُ لم تساور إميلَ هذه الرغبة لا ريب، ويجب إذن أن نمتنع عن الخيرِ الظاهر الذي يُمكن أن تؤدي إليه.

وتقصّوا قواعدَ تربيتكم تجدوها كلّها مخالفةً للصواب، ولا سيّما ما هو خاصٌّ منها بالفضائل والأخلاق. ويقوم درسُ الأخلاق الوحيدُ الذي يلائم الولد، والذي هو أهمُّ ما في أدوار الحياة، على عدم إساءة أحد، حتى إن مبدأ صُنْعِ المعروفِ خطراً فاسداً متناقضاً إذا لم يكن تابعاً لذلك. ومن ذا الذي لا يصنع المعروف؟ جميعُ النَّاسِ يصنعونه، يصنعه الشَّريرُ كغيره، وإنما يجعل إنساناً سعيداً على حسابِ مائة بائس، ومن هنا تأتي مصائبنا كلّها، وجميعُ أرفعِ الفضائلِ سلبية، وهي أصعبُها أيضاً، وذلك لِخُلُوقِها من كل افتخار، ولأنها فوق تلك الرغبة الكثيرة الحلاوة على قلب الإنسان، في جعل إنسانٍ آخر راضياً عنها. وَي! يا للمعروف الذي يصنعه الواحدُ نحو أمثاله، عند وجود هذا الواحد، بعدم إيدائهم! وأيُّ رباطة جأشٍ وأيُّ متانة خُلُقٍ يحتاج إليهما في هذا السبيل! وليس في الحديثِ حول هذا المبدأ، بل في محاولة تطبيقه، ما يُشعُر بمقدار ما يقتضيه النجاحُ به من همّةٍ ومشقة.^{١٤}

^{١٤} يتضمن مبدأ عدم الإضرار بأحدٍ مطلقاً أعظم استقلالٍ ممكنٍ عن المجتمع البشري؛ وذلك لأن نفع الواحد في الحال الاجتماعية يعني ضرراً للآخر بحكم الضرورة، وهذه النسبة هي من جوهر الأمور، ولا شيء يستطيع تبديلها، ولِيُبحث على نور هذا المبدأ في أي الرجلين أصلح من الآخر: الرجل الاجتماعي أم الرجل المعتزل؟

وتلك بعض آراءٍ طفيفةٍ عن الاحتياطات التي أردتُ أن يُمنَح الأولادُ بها من المعارفِ ما لا يُمكن أن يُحبَس عنهم أحياناً من غيرِ أن يُعرَضوا هم أو غيرهم للضرر، وأن يَأْتفوا من العادات، على الخصوص، ما يَصْغُب إصلاحه فيما بعد. ولكنْ لِنَتَقَّ بأن من النادرِ أن تبدو هذه الضرورةُ للأولادِ التي نُشِنوا كما يجب؛ وذلك لأن من المتعذرِ أن يصبحوا أعقَّةً أشراراً كاذبين جشعين إذا لم يُبَدَّر في قلوبهم من النقائص ما يَجْعَلُهُم هكذا. وهكذا فإن ما قُلْتُهُ حَوْلَ هذه النقطةِ يَصْلُحُ للشواذِّ أكثرَ مما للقواعد، غير أن هذه الشواذِّ تكون كثيرةً الوقوع بنسبة ما تَكْثُر الفرصُ لدى الأولادِ للخروج من حالهم وتعوُّدهم نقائصَ الرجال. وتقضي الضرورةُ بأن يكون عند مَنْ يُشِنون بين النَّاسِ من المعارفِ المعجَّلة أكثرَ ممن يُشِنون في العزلة؛ ولذا تُفَضَّل هذه التَّربيةُ الاعترالية ولو لم تَوَدَّ إلى غير مَنَح الأولادِ وقتاً يَنْصَجون فيه.

وللشواذِّ نوعٌ آخرٌ تُخالِف به ذلك النوع، خاصٌّ بمن هم من يُمِن الطبيعة من يعلون مستوى عُمرهم؛ فكما أنه يوجد رجالٌ لا يخرجون من الولودية يُوجد من الرجال من لا يَمُرُّون منهم مطلقاً؛ لأنهم يُولدون رجالاً تقريباً. والحرَجُ في كون هذا الشاذِّ الأخير نادراً جداً، وفي صعوبة معرفته، وذلك أن كلَّ أمٍّ تتصوَّر إمكانَ كون الولدِ نادرةً الزمان فلا يُخامرُها شكٌّ في كون ولدها هكذا، وذلك أن الأمهاتِ يفعلن أكثرَ من ذلك؛ فهن يحسبن من العالَمِ الخارقة للعادة ما يدلُّ على النظام المعتاد، كالنشاط والحدة والطيش والسداجة الملهية؛ أي ما يُعدُّ أحسن دليلٍ على أن الولد ليس سوى ولد. وهل من العجيب أن ينشأ لقاءً موفقاً، مصادفةً عن يَحْمَل على الكلام كثيراً ويُسمَح له بقول كلِّ شيء من غير أن يُضايق باعتبارٍ ولا لياقة؟ هو يكون في عدم إصابته الهدف كالمُنَجَّم الذي يأتي ألفَ أكذوبة من غير أن يُخبر بأمرٍ حقيقيٍّ مرةً واحدة. وكان هنري الرابع يقول إنهم يأتون من الأكاذيبِ الكثيرة ما يقولون الصدقَ معه في نهاية الأمر. وليس على مَنْ يريد أن يَجِد بعضَ الكلماتِ الصالحة إلا أن يقول كثيراً من التُّرَّهات. والله يحفظُ من السوء جميعَ مَنْ يكونون على المُوضَّة،^{١٥} فلا يكون لديهم من المؤهلات ما يُعيدون به غيرُ هذا.

ويقول مؤلِّف مشهورٌ إنه لا يوجد غيرُ الشَّرير مَنْ يكون وحده. وأمَّا أنا فأقول: إنه لا يوجد غيرُ الصالح مَنْ يكون وحده. وإذا كانت هذه القضية أقلَّ صلاحاً للحكم، فإنها أكثرُ حقيقة من الأولى وأعظم صواباً منها. وإذا كان الشَّرير معتزلاً فأيُّ شَريرٍ يأتيه؟ ففي المجتمع ينصب جباله ضرراً بالآخرين، وإذا أُريد قلبُ هذا البرهانِ على رجلٍ الخير فإنني أُجيب على هذا بالنص الخاص بهذا التعليق.

١٥ * A la mode.

ويمكن أسطح الأفكار أن تهبط في دماغ الأولاد، وإن شئت فقل إن أروع الكلمات يمكن أن تخرج من أفواههم، وذلك كوجود أئمن الألماس في أيديهم، وذلك من غير أن يدل هذا على كون الأفكار والألماس مُلكاً لهم؛ فلا مُلك حقيقي لمن هم في هذه السن أيًا كانوا. وليست الأمور التي يُحدِّثنا عنها الولد في نظري هذا الولد مثل ما عندنا، ولا يقرب الولد بها من الأفكار ما تقرن، ولا يكون لهذه الأفكار في رأسه، إذا ما وُجد منها، أي ترتيب ولا ارتباط ولا ثبات ولا رسوخ في جميع ما يفكر. وإذا ما أنعمت النظر في نادرتكم المزعوم وجدتم له في بعض الأحيان نابضاً بالغ النشاط وروحاً لماعاً يخزق السحاب، ويبدو هذا الروح لكم في الغالب متواتراً نادياً كأنه محاط بضباب كثيف؛ فثارة يسبقكم، وتارة يبقى ساكناً، وتقولون ثانية إنه عبقرى، وتقولون بعد ثانية إنه غبي، وتخطون دانماً، وذلك أنه ولد، وذلك أنه فرخ نسر يشقُّ الهواء ليسقط في وكره بعد ثانية.

إذن، عاملوه وفق سنه على الرغم من الظواهر، واحشوا أن تستنفدوا قواه قاصدين تمرينها كثيراً. وإذا ما حسي هذا الدماغ الفتي، وإذا ما أبصرتم أنه أخذ يفور، فدعوه يثور طليقاً، ولكن لا تهيجوه مطلقاً خشية أن يتصاعد كُله. ومتى أخذت الغازات الأولى تتبخَّر فأمسكوا الأخرى واضغطوها، وذلك حتى يتحوَّل الجميع مع السنين إلى حرارة مُعشَّة وقوة حقيقية، وإلا أضعتم وقتكم وقضيتهم على عملكم الخاص. وإنكم بعد أن تسكروا بجميع هذه الغازات الملهبة بلا فطنة لم يبق لكم غير نُفْل بلا حَوْل.

ويتشأ ذوو الطيش من الأولاد رجالاً عاديين، ولا أعرف ملاحظة أعم من هذا ولا أعظم ثبوتاً، ولا شيء أصعب في الولودية من أن يُفرَّق بين الغباوة الحقيقية والغباوة الظاهرة الخادعة التي هي إعلان النفوس القوية. ومما يبدو غريباً أوَّل وهلة أن يكون للحدين المتناهيين علامتهم بالغة المشابهة، وهذا ما يجب أن يكون مع ذلك؛ وذلك أن كلَّ فرقة بين من يكون ذا نبوغ وبين من لا يكون يقوم في دور العُمُر الذي لا يكون للإنسان فيه أيُّ فكرٍ حقيقي، على كون الأخير لا يتقبَّل غير أفكارٍ فاسدة، وعلى كون الأوَّل لا يتقبَّل أيَّ واحدٍ من هذه الأفكار لِمَا لم يجد سواها؛ ولذا فهو يشابه الغبي من حيث كون الغبي غير قادرٍ على شيء، وكونه - أي الأوَّل - لا يلائمه أيُّ شيء، ويتوقف الفارق الوحيد الذي يمكن أن يميز أحدهما من الآخر، على المصادفة التي تستطيع أن تعرِّض على الأخير أفكاراً تكون في متناوله على حين يكون الأوَّل هو إياه في كلِّ مكان. وكان الفتى كاتون يشابه، وهو ولدٌ، بليداً في المنزل، وقد كان صموتاً عنيداً، وهذا هو كلُّ الرأي الذي كان يُحمَلُ عنه، وليس في غير غرفة استقبال سيلاً ما استطاع عمُّه أن يعرف حقيقة أمره، ولو لم

يدخل هذه الغرفة قَطُّ لَعْدٌ شَرِسًا حتى سِنِ الرشد، ولو لم يظهر قِصْرُ قَطُّ لَعْدٌ صَاحِبٌ أوهامٍ دائِمًا كاتونُ هذا. كاتونُ نفسُه، الذي نَقَدَ إلى عبقريته المشؤمة وأبصر جميعَ خططه من بعيد، ويا لكثرة ما يُعَرِّضُ له من خطأ أولئك الذين يَحْكُمون في أمرِ الأولادِ على عَجَل! فهم أولادٌ أَكثَرُ منهم غالبًا. وممن أبصرت في سِنِّ متقدِّمة بعضَ التقدُّمِ رجلٌ شَرَفني بصداقته، عُدَّ في أُسْرته وبين أصدقائه محدودَ الذكاء؛ فهذا الرأسُ الممتازُ كان يَنْصَحُ نَصْحًا صامتًا، ويبدو فيلسوفًا بغتة، ولا ريبَ عندي في أن الأعبابَ ستعطيه مكانًا كريمًا ممتازًا بين أحسنِ مفكِّري عصره وأعمقهم في ما بعد الطبيعة.

واحترموا الوُلُودية، ولا تستعجلوا الحكمَ فيها مطلقًا، خيرًا كان هذا الحكمُ أو شرًّا، ودَعُوا الشواذَّ تدلُّ على نفسها وتثبت نفسها وتؤكد نفسها زمنًا طويلًا قَبْلَ أن تتخذَ لها مناهجَ خاصَّة، ودَعُوا الطبيعةَ تعملَ طويلًا قَبْلَ أن تُعْتَوَّ بالعمَلِ بدلًا منها، وذلك لكيلا تُعاكسوا أعمالها. وأنتم تقولون إنكم تعرفون ثَمَنَ الوقتِ ولا تريدون ضياعَ شيءٍ منه مطلقًا، وأنتم لا ترون أن ضياعه مع سوءِ استعمالِ أكثرِ من ضياعه مع عدمِ صنْعِ شيءٍ، وأن الولدَ السيئَ التعليمِ أقلُّ حكمةً من الولدِ الذي لا يُعلِّمُ شيئًا، ومما يُذعركم أن تروه يَسْتَفِيدُ سِنِيه الأولى في عدمِ عملِ شيءٍ. ماذا! أليس من السعادةِ أن يَثِبَ ويلعبَ ويعدو اليومَ كلُّه؟ لن يكونَ في حياته كثيرَ الأشغالِ بمثلِ هذا المقدارِ، وأفلاطونَ في جمهوريته التي يُعْتَقِدُ أنها بالغةُ الصرامة لا يُربي الأولادَ إلا في الأعياد والألعاب والأغاني والملاهي، ويظهر أنه صنَعَ كلَّ شيءٍ حينما أجاد في تعليمهم البهجة. وقد قال سينيكا عندما تكلم عن الشيبية الرومانية: «إنها قائمةٌ دائِمًا، ولم تُعلِّم من الأمورِ ما تتلقاه وهي قاعدة.» وهل أصبحت أقلَّ قيمةً عندما بلغت سِنَّ الرجولة؟ أو تُتَخَشون إذن هذه البطالة المزعومة؟ وما تقولون عن رجلٍ لا يريد أن ينام ليتمنَّعَ بجميعِ الحياة؟ تقولون: «إن هذا الرجلَ أحق؛ فهو لا يستفيد من الوقت، وهو يحرمُ نفسه قِسْمًا منه، وهو يركُضُ نحو الموتِ بفراره من النوم.» واغْلَمُوا إذن أن الأمرَ هنا هو؛ فالوُلُودية هي نومِ العقلِ.

وسهولةُ التعلُّمِ الظاهرةُ سببُ خسرانِ الأولادِ، ولا تُرى هذه السهولةُ نفسها دليلًا على أنهم لا يتعلَّمون شيئًا، ويشابهه دماغُهم الأملسُ الصقيلُ المرأةَ في انعكاسِ ما يُعَرِّضُ عليه من الأشياءِ، ولكن لا شيءَ يبقى، ولا شيءَ يَنْقُذُ، والولدُ يحفظُ الألفاظَ، والألفاظُ تنعكسُ ويُدرِكها سامعوه، وهو وحده لا يدركها.

ومع أن العقلَ والذاكرةَ خاصَّيتان مختلفتان جوهريًا، فإن إحدى هاتين الخاصَّيتين لا تنمو إلا مع الأخرى في الحقيقة. ولا يتلقَّى الولدُ أفكارًا قَبْلَ سِنِ الرشد، وإنما يتلقَّى صُورًا، ويتجلَّى الفرقُ بين الأمرين في كونِ الصورِ ليست غيرَ ألواحٍ مطلقةٍ للأشياء الحسيَّة، وفي كونِ الأفكارِ مفاهيمٍ

للأشياء تُعَيَّنُ بما بينها من علاقات. وقد تكون الصورة وحدها في الذهن الذي يتمثلها، وأمّا كلُّ فكرٍ فيفترض أفكاراً أخرى، ومتى تصوّرنا أبصرنا فقط، ومتى فكّرنا قابلنا. وإحساساتنا منفصلةٌ مَحْضًا، على حين تُصدّر جميعُ إدراكاتنا أو أفكارنا عن مبدأ فاعلٍ يميّز، وسُنِّيت هذا فيما بعد.

وأقول إذن: بما أن الأولادَ غيرُ قادرين على التمييز، فإنهم لا يتصفون بذاكرةٍ حقيقيةٍ على الإطلاق، وهم يحفظون أصواتًا وصُورًا وإحساسات، ومن النادر أن يحفظوا أفكارًا، وأندُرُ من هذا حِفْظُهُم ما بين الأفكار من ارتباط. وإذا ما اعترض عليّ بأنهم يتعلّمون بعضَ مبادئ الهندسة طُرّاً إقامة الدليلِ ضدي، مع أن الدليلَ يُقام تأييداً لي، وذلك أنه يظهر من البعيدِ جدّاً معرفةَ الأولادِ أن يستدلوا بأنفسهم، حتى إنهم لا يُعرفون استدلالات الآخرين، وذلك أنكم إذا ما تتبّعتم هؤلاء المهندسين الصغارَ في مناجهم أبصرتم من فوركم أنهم لم يحفظوا غيرَ الانطباعِ التام للشكل ولحدود الدليل، ولا يستطيعون الوقوفَ أمامَ أقلِّ اعتراض جديد، وإذا ما قلبتم الشكل لم يستطيعوا فعلَ شيء. وليست ذاكرتهم نفسها أكملَ من خصائصهم الأخرى، وذلك لما يجب دائماً من تعلّمهم في كبرهم ما تعلّموا كلماته من الأشياء في صغرهم.

ومع ذلك تجدني بعيداً من التفكير في كَوْن الأولادِ خالين من أي نوعٍ من الاستدلال،^{١٦} وعلى العكس أراهم يجيدون الاستدلالَ في كلِّ ما يُعرفون وفي كلِّ ما يطابق مصلحتهم الحاضرة والمحموسة. ولكن الوهم يدور حولَ معارفهم بأن يُغزى إليهم ما لا يمكنهم إدراكه، وكذلك يُوهم عندما يُراد جعلهم منتهين إلى اعتباراتٍ لا يدركونها بأي وجهٍ كان، كمصلحة آتيةٍ لهم، وكسعادتهم حينما يغدون رجالاً، وكاحترامٍ ينالونه عندما يصيرون كباراً؛ أيّ أمورٍ لا معنى لها على الإطلاق لدى هؤلاء الخالين من كلِّ بصيرة. والواقع أن جميعَ دراسات هؤلاء المخلوقاتِ التعساء البائسين القسرية تُهدَف إلى أغراضٍ غريبةٍ عن نفوسهم تماماً، ويُمكنكم أن تحكّموا فيما يستطيعون أن يُغيروها من انتباه.

^{١٦} لقد لاحظتُ مائة مرة عند الكتابة أن من المتعذر في سفرٍ مطوّل أن يُطلقَ عينُ المعاني على عينِ الكلمات دائماً، ولا تجد لغةً بالغةً من الغنى ما تجهز معه بالألفاظِ وتعبيراتٍ وجمل ما يمكن أن يعنور أفكارنا من تغيير. أجل، إن طريقة تعريف جميع الألفاظ، وقيام التعريف مقامَ المعرف دائماً، أمرٌ جميل، غير أنه ليس عملياً؛ وذلك لأنه كيف تجتنب الدائرة؟ وقد تكون التعاريفُ سالحةً إذا لم تُستعمل الألفاظُ لوضعها. وتراني قانعاً مع ذلك بأن الوضوح ممكنٌ حتى عند فقر لغتنا، لا بإطلاق عينِ المعاني على عينِ الألفاظ، بل بأن يقع في كلِّ مرة تستعمل فيها كل كلمة تعيين المعنى الذي يُطلق عليها تعييناً كافياً بالقربية التي تطابقها، وأن يتخذ كل دورٍ تُستعمل فيه هذه الكلمة تعريفاً لها. وقد قلتُ تارةً إن الأولاد عاجزون عن الاستدلال، كما عزوتُ إليهم الاستدلالَ بشيءٍ من الدقة تارةً أخرى. ولا أراني مناقضاً لنفسى في أفكاري، ولكني لا أستطيع أن أنكر مناقضتي لنفسى في كلماتي غالباً.

وَيَمِيلُ الْمُعَلِّمُونَ الَّذِي يَعْرضُونَ عَلَيْنَا فِي جِهَازٍ كَبِيرٍ مَا يُلقُونَ عَلَى تَلَامِيذِهِمْ مِنْ مَعَارِفَ إِلَى اسْتِعْمَالِ لُغَةٍ أُخْرَى، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُرَى مِنْ سُلُوكِهِمُ الْخَاصِ أَنَّهُمْ يَفْكَرُونَ مِثْلَمَا أَفْكَرَ، وَذَلِكَ: مَا يُعَلِّمُونَهُمْ فِي نَهَائِيَةِ الْأَمْرِ؟ يَعْلَمُونَهِمْ كَلِمَاتٍ، وَكَلِمَاتٍ أَيْضًا، وَكَلِمَاتٍ دَائِمًا، وَتَرَاهِمَ يَحْتَرِزُونَ بَيْنَ مَخْتَلِفِ الْعُلُومِ الَّتِي يُبَاهُونَ بِتَعْلِيمِهِمْ إِيَّاهَا، مِنْ اخْتِيَارٍ مَا يَكُونُ نَافِعًا لَهُمْ حَقًّا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَكُونُ عِلْمُ الْأَشْيَاءِ، وَهَذَا مَا لَا يُوقَفُونَ فِيهِ، وَإِنَّمَا يُكْتَبُ لَهُمُ التَّوْفِيقُ فِي الْعُلُومِ الَّتِي يَلُوحُ أَنَّهَا تُعْرَفُ إِذَا مَا عُرِفَتْ أَلْفَاظُهَا كَالْأَشْعِرَةِ وَالْجُغْرَافِيَّةِ وَالتَّقْوِيمِ وَاللُّغَاتِ ... إلخ، أَيُّ الدِّرَاسَاتِ الْكَثِيرَةِ الْبَعْدِ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَلَا سِيَّما الْوَلَدِ، فَيَكُونُ مِنَ الْعَجِيبِ أَنْ يَوْجِدَ شَيْءٌ مِنْهَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ نَافِعًا لَهُ فِي حَيَاتِهِ وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً.

وَسُئِدْهُشُونَ مِنْ عَدِّي دَرَسَ اللُّغَاتِ بَيْنَ أَبَاطِيلِ التَّرْبِيَةِ، وَلَكِنْ لِيُذَكِّرَ أَنِّي لَا أَتَكَلَّمُ هُنَا عَنْ غَيْرِ دُرُوسِ الدَّوْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْعُمُرِ، وَمَهْمَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ فَإِنِّي لَا أَعْتَقِدُ وَجُودَ وَلَدٍ اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَعَلَّمَ لُغَتَيْنِ حَقًّا قَبْلَ بُلُوغِهِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ أَوْ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ سِنِيهِ، مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ النُّوَابِغِ.

وَأُوافِقُ عَلَى أَنْ دَرَسَ اللُّغَاتِ إِذَا لَمْ يَكُنْ غَيْرَ دَرَسِ الْكَلِمَاتِ؛ أَيِ دَرَسِ الرَّمُوزِ وَالْأَصْوَاتِ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنْهَا، فَإِنَّ هَذَا الدَّرْسَ يُمْكِنُ أَنْ يَلْتَمِسَ الْأَوْلَادُ، غَيْرَ أَنْ اللُّغَاتِ إِذَا مَا غَيَّرَتِ الرَّمُوزَ عَدَلَّتِ الْأَفْكَارَ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنْهَا أَيْضًا، وَتَتَأَلَّفُ الْأُذْهَانُ مِنَ اللُّغَاتِ، وَتَتَخَذُ الْأَفْكَارُ صِبْغَةَ اللُّهْجَاتِ، وَالْعَقْلُ وَحْدَهُ مَشْتَرِكٌ بَيْنَ الْجَمِيعِ. وَلِلرُّوحِ فِي كُلِّ لُغَةٍ شَكْلُهُ الْخَاصِ، وَيُمْكِنُ هَذَا الْفَرْقُ أَنْ يَكُونَ عِلَّةَ الْأَخْلَاقِ الْقَوْمِيَّةِ أَوْ مَعْلُولِهَا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، وَالَّذِي يَلُوحُ مُؤَيِّدًا لِهَذَا الظَّنِّ هُوَ أَنَّ اللُّغَةَ لَدَى جَمِيعِ أُمَّمِ الْعَالَمِ تَتَّبِعُ تَقَلُّبَاتِ الطَّبَائِعِ وَأَنَّهَا تَبْقَى أَوْ تَتَغَيَّرُ مِثْلَهَا.

وَالاسْتِعْمَالُ يَمْنَحُ الْوَلَدَ أَحَدَ هَذِهِ الْأَشْكَالِ الْمَخْتَلِفَةِ، وَهَذَا الشَّكْلُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَحَافِظُ عَلَيْهِ حَتَّى سِنِ الرُّشْدِ، وَيَجِبُ لِكُلِّ يَكُونُ لَدَيْهِ شَكْلَانِ أَنْ يَعْرِفَ مَقَابِلَةَ مَا بَيْنَ الْأَفْكَارِ، وَكَيْفَ يُقَابِلُ بَيْنَهَا وَهُوَ لَا يَكَادُ يَكُونُ فِي حَالٍ يُدْرِكُهَا فِيهِ؟ وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ شَيْءٍ أَلْفُ إِشَارَةٍ مَخْتَلِفَةٍ عِنْدَهُ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ لِكُلِّ فِكْرٍ سِوَى شَكْلٍ وَاحِدٍ. وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَعَلَّمَ إِذَنْ غَيْرَ لُغَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَتَعَلَّمُ عِدَّةَ لُغَاتٍ كَمَا يُقَالَ لِي، فَأُنْكَرُ ذَلِكَ. وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ النَّادِرِينَ مَنْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ خَمْسَ لُغَاتٍ أَوْ سِتَ لُغَاتٍ، وَقَدْ سَمِعْتُهُمْ يَتَكَلَّمُونَ الْأَلْمَانِيَةَ مَتَعاقِبًا بِالْفَافِ لَاتِنِيَّةٍ وَأَلْفَاظٍ فَرَنْسِيَّةٍ وَأَلْفَاظٍ إِيطَالِيَّةٍ، وَكَانُوا يَسْتَعْمَلُونَ مِنَ الْمَعَاجِمِ فِي الْحَقِيقَةِ مَا يَتَرَجَّحُ بَيْنَ خَمْسَةِ وَسِتَّةٍ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَتَكَلَّمُونَ بِغَيْرِ الْأَلْمَانِيَةِ دَائِمًا. وَالْخُلَاصَةُ أَنَّكُمْ إِذَا مَا أَعْطَيْتُمُ الْأَوْلَادَ مِتْرَادِفَاتٍ كَثِيرَةً كَمَا تَوَدُّونَ غَيَّرْتُمُ الْأَلْفَاظَ لَا اللُّغَةَ، وَهُمْ لَنْ يَعْرِفُوا غَيْرَ وَاحِدَةٍ.

ويُفضَّلُ تمرينهم على اللغات الميتة التي لا يوجد فيها من الحُكْم ما لا يُمكن رُدُّه، وبما أن استعمالَ هذه اللغاتِ المعتادَ قد زال منذ زمن طويل، فإنه يُكتفى باتِّباع ما هو مسطورٌ في الكتب، فيُسمَّى الكلام. وإذا كانت هذه يونانية المُعلِّمين ولا تبيِّنهم فما يُقال عن يونانية الأولاد ولا تبيِّنهم؟ لم يَكادوا يحفظون على ظهر القلب مبادئها التي لا يفقهون منها شيئاً على الإطلاق حتى يُؤخذ في تعليمهم ترجمةً مقالةً فرنسية بكلماتٍ لاتينية، ثمَّ إنهم إذا ما تقدّموا أكثرَ من قَبْلِ حُمَلوا على وصلِّ ما بين جُمَلٍ من شيشرونٍ نثرًا وأبياتٍ من فرجيلٍ نظمًا، وهناك يظنون أنهم يتكلمون اللاتينية، ومن يأتي لمناقضتهم؟

ولا تُعدُّ الرموزُ الممثلةً شيئاً بغيرِ فكرةِ الأشياءِ الممثلة، مهما كانت دراسة ذلك. ومع ذلك فإن الولد يُقصر على هذه الرموزِ دائماً، وذلك من غيرِ أن يُستطاع حَمَله على إدراك أيِّ من الأشياء التي تُمثَّلها، وإذا ما رُئي تعليمُه وصفَ الأرضِ لم يُعلِّم غيرَ معرفة الخرائط، فيُعلِّم أسماءَ المدن والبلاد والأَنْهار التي لا يتصور وجودها على غيرِ الورق حيث يُدَلُّ عليها. وأذكرُ أنني رأيت في مكانٍ ما جغرافياً تبدأ هكذا: «ما العالم؟ العالم كُرَّةٌ من المُقَوَّى.» فهذه هي جغرافياً الأولادُ تماماً. وأفرضُ عدمَ وجودِ ولدٍ واحدٍ في العاشرة من سنيه قادرٍ بعد دراسة سنتين للكرة والفلك، على السيرِ من باريس إلى سان دني مستنذاً إلى القواعدِ التي أُعطِيها، وأفرضُ عدمَ وجودِ ولدٍ يستندُ إلى خريطةٍ حديقةٍ أبيه فيستطيع أن يتتبع العطفات فيها من غيرِ أن يضلَّ؛ فهؤلاء هم الأساتذة الذين يعرفون أن يُسمِّوا مواضع بكين وأصبهان والمكسيك وجميع بلاد الأرض.

وقد يُقال لي إن من المناسبِ شغلَ الأولادِ بدروسٍ لا تحتاج إلى غيرِ عيون، وهذا يُمكن أن يكون لو وُجدَ من الدروس ما لا يحتاج إلى غيرِ عيون، ولكنني لا أعرفُ مثلَ هذه الدروسِ مُطلقاً.

ويُحْمَلون على دُرُسِ التَّاريخِ عن خطأٍ أدعى إلى السخرية أيضاً، ويُظنُّ أن التَّاريخِ يقعُ ضمنَ متناولهم لأنه ليس سوى مجموعةٍ من الوقائع، ولكن ما يُقصَدُ بكلمة الوقائع؟ وهل يُعتَقَدُ أن الصلات التي تُعيِّن الوقائعِ التَّاريخية سهلة الإدراك كثيراً، وأن الأفكارَ عنها تتكوَّن في رُوحِ الأولادِ بلا عناء؟ وهل يُعتَقَدُ أن معرفة الحوادثِ الحقيقية منفصلةٌ عن عللها ومعلولاتها، وأن التَّاريخيَّ يبلغ من قَلَّةٍ تعلُّقه بالخلقيِّ ما يُمكن أن يُعرَف أحدهما معه بغيرِ الآخر؟ وإذا كنتم لا ترون في أعمالِ النَّاسِ غيرَ الحركاتِ الخارجية والمادية الصَّرفة فما تتعلَّمون في التَّاريخ؟ لا شيءَ مطلقاً، ولا تناولون من هذا الدرسِ العاطلِ من كلِّ إمتاعٍ لذَّةٍ أو معرفة، وإذا أردتم تقديرَ هذه الأفعالِ بصلاتها الأدبية فحاولوا جعلَ هذه الصَّلاتِ مفهومةً لدى تلاميذكم، وهناك ترون هل التَّاريخُ ملائمٌ لِسَّهم.

ويا أيها القراء، اذكروا دائماً أن الذي يخاطبكم ليس عالماً ولا فيلسوفاً، بل رجلٌ بسيطٌ صديقٌ للحقيقة، غيرٌ منتسبٍ إلى فريقٍ أو إلى مذهب، معترِلاً يعاشُر النَّاسَ قليلاً، نادرُ الفُرصِ في ابتلاله بمُبتسراتهم، كبيرُ التأملِ فيما يَقِفُ نظره عند مصابحتهم. وتقوم براهيني على المبادئِ أقلَّ مما على الوقائع، وأعتقدُ أنني لا أجدُ طريقاً في تقديمِ الوقائعِ إليكم أفضلَ من أن أوردَ بعضَ الأمثلةِ غالباً عن الملاحظاتِ التي توحى إليَّ براهيني.

كنت قد ذهبتُ إلى الأريافِ لأقضي فيها بضعةَ أيامٍ عند ربةٍ أسرةٍ صالحةٍ كثيرةِ العنايةِ بأولادها وتربيتهم. وبينا كنتُ ذاتَ صباحٍ حاضراً دروسَ أكبرهم سنّاً تناولَ مُعلِّمه، الذي جدَّ في تعليمه التاريخَ القديم، سيرةَ الإسكندر، ووقع على حكاية الطبيبِ فليبِ المعروفةِ التي رُسِّمت في صورةٍ والتي تستحقُّ الغناءَ لا ريب. ويأتي المُعلِّمُ الذي هو رجلٌ فاضلٌ بعدةِ تأملاتٍ عن شجاعةِ الإسكندرِ لم تُرْفَني قط، فاجتنبتُ مناهضتها لكيلا أسيءَ إلى اعتباره في نفسِ تلميذه. فلما كُنَّا حولِ المائدةِ لم يُقصرَ في جعلِ الصبيِّ الصغيرِ يثرثر كثيراً على الطريقةِ الفرنسيةِ، وما كان من حُمياً سنه الطبيعيةِ ومن انتظارِ هُتافٍ مُقرَّرٍ كان يخْفِزه إلى إبداءِ ألفِ سخافةٍ مع صدورِ بعضِ كلماتٍ موفَّقةٍ من خلالِ ذلك في الحينِ بعد الحينِ يُنسي ما سواه. وأخيراً تأتي قصةَ الطبيبِ فليبِ فيذكرها بوضوحِ بالغٍ وطلاوةٍ كثيرة، ويتحدَّثُ فيما قال الولدُ بعد دفعِ ضريبةِ الشاءِ المعتادةِ التي كانت تُطالبُ بها الأُمُّ ويتنظرها الابن، وقد صَبَّتْ الأَكثريَّةُ لومها على تهوُّرِ الإسكندر، وقد جرى بعضُهم المُعلِّمِ في الإعجابِ بحزمه وبسالته، فحملني هذا على إدراكي عدمِ رؤيةِ أحدٍ من الحضورِ موضعَ الجمالِ الحقيقيِّ في هذه القصة. وأمَّا أنا فقد قلتُ لهم إنني أرى أنه إذا وُجدَ في عملِ الإسكندرِ أقلُّ شجاعةٍ وأقلُّ حزمٍ لم يكن هذا غيرَ هُوسٍ. وهنالك وافق الجميعُ على أن هذا كان هوساً. وقد هممتُ بالجوابِ وحميتُ، وكان يوجدُ بجاني امرأةٌ لم تَنبَسْ بكلمة، فمالت إلى أذني وقالت لي همساً: «اسكت يا جان جاك، فهم لن يفهموا أمرُك.» وقد نظرتُ إليها وعَمِلْتُ بنصيحتها وأمسكتُ عن الكلام.

وساورني شكٌّ حولَ كثيرٍ من الدلائلِ التي لم يُدرِكها الأستاذُ الغلامُ من تاريخِ أجدادِ سُرَّده، فأمسكته بعد الغداءِ من يده وطُفْتُ معه في الحديقة، فوجدتُ بعد السؤالِ من غيرِ إزعاجٍ أنه كان يُعجِبُ أكثرَ من كلِّ شخصٍ بشجاعةِ الإسكندرِ التي أثنى عليها إلى الغاية، ولكن أتعلمون أين كان يرى هذه الشجاعة؟ كان يجدها حصراً في الإقدامِ على اجتراعه شراباً سيئ الطعمِ دفعةً واحدة، بلا تردُّدٍ ومن غيرِ أن يُبدي أقلَّ اشمئزاز. وكان الولدُ المسكينُ قد أُعطي منذ خمسةِ عشرَ يوماً دواءً فلم يتناولهُ إلا بمشقةٍ لا حدَّ لها، ولا يزالُ أثرُ طَعْمه الكريه في الفم، وما كان الموتُ والسُّمُّ ليُمراً في

ذهنه إلا كإحساساتٍ كريهة، وما كان ليتمثّل غير السنّا سُمّا آخر، ومع ذلك يجب أن يُعرف أن حزم البطل كان ذا أثرٍ عظيمٍ في فؤاده الفتي، وأنه عزم أن يكون إسكندراً عند وجوب اجتراعه أوّل دواء. واني من غير دخولٍ في إيضاحاتٍ تجاوز متناوله لا ريب أيدّته في مناحيه الحميدة، وُعدت ضاحكاً في نفسي من حكمة الأيوين والمُعَلِّمين الذين يُفكِّرون في تعليم الأولاد التّاريخ.

أجل، إن من السهل أن تُوضع في أفواههم ألفاظٌ كالمملوك والأباطرة والحروب والفتوح والثورات والقوانين، ولكن المسألة إذا ما دارت حول ربط أفكارٍ واضحةٍ بهذه الكلمات بدت هذه الإيضاحاتُ مختلفةً كلّ الاختلافٍ عن حديثنا مع البستانيّ زويرت.

وسيسأل بعضُ القراء المستائين من «اسكّت يا جان جاك»، كما أبصرُ عما أجد أخيراً من روعةِ عملِ الإسكندر. فيا أيها التّعساء! إذا ما وجب قولُ ذلك لكم فكيف تُدركونه؟ ذلك أن الإسكندر كان يؤمن بالفضيلة، ذلك أنه كان يؤمن بعقله، ذلك أنه كان يؤمن بحياته، ذلك أن نفسه الكبيرة صُنعت للإيمان بذلك. وبي! يا لكون هذا الدواء المُجترع مهنة إيمانٍ رائعة! كلاً، لم يصنع إنسانٌ ما هو أرفع من ذلك، إذا ما وُجد إسكندرٌ عصريٌّ فألدّل على أنه قوّمٌ بمثل تلك المآثر.

إذا لم يُوجد علمٌ للكلمات قَطُّ لم يوجد درسٌ للأولادٍ خاصٌّ قَطُّ، وإذا لم تكن لهم أفكارٌ حقيقية لم تكن لهم ذاكرةٌ حقيقية قَطُّ؛ وذلك لأنني لا أدعو هكذا ذاكرةً لا تحفظ غير الإحساسات، وما نفع تسجيل جدولٍ من الرموز التي لا تدلُّ على شيءٍ لديهم؟ ألا تُعلم الرموز بتعلم الأشياء؟ ولم يُحملون مشقّة تعليمهم إياها مرتين على غير جدوى؟ ومع ذلك فيا للمبتسرات الخطرة التي يبدأ بتلقينهم إياها حين يُحملون على عدّهم من العلم كلماتٍ لا معنى لها عندهم! ويقولُ تمييزُ الولدٍ بالكلمة الأولى التي يقنع بها وبالشيء الأول الذي يتعلّمه من الآخرين غير مُطلّعٍ على فائدته بنفسه، ولا بُدّ له من بهرٍ أبصارٍ الأغبياء قبل أن يُعوّض من هذا النقصان.^{١٧}

^{١٧} أمرُ معظم العلماء في ذلك كالأولاد، وينشأ العلمُ الواسعُ عن كثرةٍ في الأفكار أقلّ مما عن كثرةٍ في الصور، وتُحفظ التواريخ والأعلام والأماكن وجميع الأشياء المنفردة في ذاكرة الرموز. ومن النادر أن يُذكر بعضُ هذه الأشياء من غير أن يُرى في الوقت نفسه ظاهرُ الصفحة التي تُقرأ فيها أو باطنها، أو تُبصر الصورة التي رُبت عليها أوّل مرة. وهذا ما كان عليه العلمُ الدارجُ في القرون الأخيرة تقريباً. وأمّا العلمُ في عصرنا فشيءٌ آخر؛ فعاد لا يُدرس ولا يُلاحظ، بل يُحلم به. ونُعطي، برصانة، أحلامَ بعض الليالي السيئة على أنها من الفلسفة. وسيقال لي إنني أعلم أيضاً، وأوافق على هذا، غير أن ما لا يُحتزّ الآخرون من صنعه أقدمه على أنه أحلام، تاركاً للقارئ أن يبحث عن وجودٍ شيءٍ لديهم مفيدٍ لذوي الانتباه أو لا.

كألاً، إذا كانت الطبيعة تُعَمُّ على دماغ الولد بتلك المرونة التي تجعله صالحاً لتقبل جميع أنواع الانطباعات، فليس ذلك لتثقيس عليه أسماء لملوك وتواريخ وألفاظ للأشعره وكثرة جغرافية وجميع تلك الكلمات التي لا معنى لها عند من هو في سنه، والتي لا فائدة فيها لجميع الناس من أي عمر كانوا، فترهق بها ولؤديته الكنيية العقيم، بل لترسم عليه باكراً، وبحروف لا تُمخى جميع الأفكار التي يُمكنه أن يتمثلها والتي هي نافعة له، وجميع الأفكار التي تلام سعادته فيجب أن تُتير له السبيل في جميع واجباته ذات يوم، فيتخذها نبراساً يهتدي به في أثناء حياته هداية مناسبة لكيانه وخصائصه.

ومن غير درس في الكتب لا يظنُّ نوعُ الذاكرة الذي يخوزه الولد مُعطلاً لهذا السبب، فيقف نظره كلُّ ما يرى وكلُّ ما يسمع ويذكره، وهو يُمسك سجالاً في نفسه لأعمال الناس وأقوالهم، ويُعدُّ جميع ما يحيط به كتاباً يُغني فيه ذاكرته بلا انقطاع من غير أن يُفكر في هذا، وذلك ريثما يُمكن قوة التمييز فيه أن تنتفع به. وعلى اختيار هذه الأشياء، وعلى الاعتناء بأن يُعرض عليه دائماً ما يستطيع أن يعرفه، وعلى إخفاء ما يجب أن يجهله؛ يتوقَّف الفنُّ الحقيقي في تعهده هذه الخاصية الأولى. وبهذا يجب أن يُسعى في تكوين مستودع للمعارف فيه نافع لتربيته في أثناء شبابه ونافع لسلكه في جميع الأوقات. والحقيقة أن هذا المنهاج لا يصنع صغاراً نادرين، ولا يوجب التمتع المربيات والمُعلمين، وإنما يُكوِّن رجالاً بصيرين أقوياء سالمين بدناً وإدراكاً من غير أن يكونوا موضع إعجاب صغاراً ومع ظهورهم مدار افتخار كباراً.

ولن يتعلم إميل شيئاً على ظهر القلب، حتى الأمثال، حتى أمثال لأفونتن، مهما بلغت من البساطة والجمال؛ وذلك لأن ألفاظ الأمثال ليست أكثر أمثالاً من كون ألفاظ التاريخ تاريخاً. وكيف يُبلِّغ من العمى ما تُسمي الأمثال معه كتاب أخلاق للأولاد من غير أن يُفكر في كون المثل الخُلقي يُضللهم حين يُسلبهم، وفي كونهم يدعون الحقيقة تفرح حين يُفتنون بالكذب، وفي كون ما يصنع لجعل المعارف مستحبة لديهم يحول دون استفادتهم منها؟ أجل، تستطيع الأمثال أن تُثقف الرجال، ولكن يجب أن تُقال الحقيقة للأولاد عارية، حتى إذا ما سُترت بغطاء لم يصعب عليهم أن يكشفوه.

ويُعلم الأولاد أمثالاً لأفونتن، ولا تجد واحداً منهم يدركها، ولو أدركوها لكان الأمر أسوأ مما هو عليه؛ وذلك لأن مبادئ الأخلاق من كثرة الاختلاط فيها ومن عدم تناسبها مع عُمرهم ما تحمّلهم به على الرذيلة أكثر مما على الفضيلة. وستقولون إن ما تأتي هو من البدع، وليكن بدعاً، ولكن لِنظُر هل ينطوي على حقائق.

أقول إن الولد لا يفهم الأمثال التي يُعلمها مطلقاً؛ وذلك لأنه مهما يُبدل من جهد

لتبسيطها فإن المعارف التي يُراد استخراجها منها تُوجب إدخال أفكارٍ إليه لا يستطيع وعيها، على حين ترى الشكل الشعري الذي يجعلها أيسرَ تدكُّرًا يجعلها أَعَسَرَ تصوُّرًا. وهكذا تُشْرِى المَلاحَظَةُ على حساب الوضوح. وإنَّما من غير أن نورد هذا الحشد من الأمثال التي لا تنطوي على وضوحٍ ولا على فائدةٍ للأولاد، والتي يُعلِّمونها مع الأخرى على غير هدىٍ لاختلاطها بها، نرى أن نقتصرَ على الأمثال التي يلوح أن المؤلف قد وضعها من أجل الأولاد.

لا أعرفُ في جميعِ مجموعةٍ لافونتين غيرَ خمسة أمثال أو ستة أمثال سَطَعَتِ البساطةُ الصيانيةُ منها سطوعًا عظيمًا، وأوردُ من هذه الأمثال الخمسة أو الستة أوَّلَها،^{١٨} وذلك لأنَّ أدبَ هذا المَثَلِ أكثرُ ملاءمةً لكلِّ عُمرٍ، ولأنه أحسنُ ما يُدرِكُ الأولاد، ولأنه ألدُّ ما يتعلَّمون، ثمَّ لأنَّه المَثَلُ الذي وضعه المؤلفُ على رأسِ كتابه عن تفضيل، ونحن إذ نفترض له هدفَ كونه مفهومًا لدى الأولادِ رائتًا مُتَقَفًّا لهم نَعُدُّه أثرَ المؤلفِ الرائعِ حقًّا، فليُسمَحَ لي أن أتتبعه وأفحصه في كلماتٍ قليلةٍ إذن.

الغراب والتعلب

مَثَلٌ

«الأستاذُ الغرابُ على شجرةٍ واقع.»

«الأستاذ!» ما معنى هذه الكلمة بنفسها؟ وما معناها أمام اسمِ عَلَمٍ؟ وما معناها هنا؟

وما الغراب؟

وما «على شجرةٍ واقع»؟ لا يُقال «على شجرةٍ واقع»، بل يُقال «واقعٌ على شجرة»، ومن ثمَّ يجب أن يُحدِّثَ عن التقديم والتأخير في الشَّعر، ويجب أن يُفَرِّقَ بين النثر والنظم.

«يُمسِكُ في منقاره جُبنة.»

أيُّ نوعٍ من الجُبنة؟ أهي جُبنةٌ سويسرية، أم جُبنةٌ بريَّة، أم جُبنةٌ هولندية؟ وإذا كان الولدُ لم يرَ الغرابانَ قَطُّ فما فائدةُ الكلامِ عنها؟ وإذا كان قد رآها فكيف يتصوَّرُ إمساكها جُبِنًا في منقارها؟ لنصنَعُ صورًا عن الطبيعةِ دائِمًا.

«الأستاذُ التعلبُ بالرائحةِ أُغري.»

^{١٨} هذا هو المَثَلُ الثاني، لا الأوَّل، كما لاحظته مسيو فورمه.

أستاذ آخر! ولكن هذا لقبٌ ملائمٌ له، هو أستاذٌ ذرّب في حيلِ مهنته، ويجب أن يُحدّث عن الثعلب، وأن يُفرّق بين الثعلبِ الحقيقيِّ وثعلبِ الأمثالِ الاتفاقي.

«أغري»: هذه كلمةٌ غيرُ مستعملة، فيجب إيضاحها، ويجب أن يُقال إنه عاد لا يُنتفع بها في غير النّظْم، وسيسأل الولدُ عن السبب في أنه يُتكلّم في النّظْم على خلاف ما في الشعر، وما يكون جوابكم؟

«أغري برائحة جُبنة!» لا بُدّ من أن تكون هذه الجُبنة التي يُمسكها غرابٌ واقعٌ على شجرة ذات رائحةٍ قوية حتى يَشَمّها ثعلبٌ في غايَةٍ أو في وجاره! أهكذا تُدرّبون تلميذكم على روح النقد الصحيح الذي يأبى كلّ شيءٍ غير الأدلة الصائبة، والذي يمازُ به بين الصدق والكذب في قصص الآخرين؟

«هو يخاطبه بهذه اللغة تقريبًا.»

«هذه اللغة!» أتتكلّم الثعلبُ إذن؟ أتتكلّم بعين اللغة التي تتكلّم بها الغربان؟ أعمِلْ ذهنك أيّها المُعلّم الأريب، وزن جوابك قبل إلقائه؛ فهو أهمُّ مما تظن.

«عم صباحًا يا سيدي الغراب!»

«سيدي!» هذا لقبٌ يرى الولدُ تحويله إلى هزوء حتى قيل أن يعرف أنه لقبٌ تكريم، وإذا ما قيل «صاحبُ السيادة الغراب» كان للقائلين شئونٌ أخرى قبل إيضاح كلمة «صاحب» هذه.

«يا لحسنك، يا لجمالك كما أرى!»

حشو، تطويلٌ غير مفيد، يرى الولدُ تكرار عين الشيء بألفاظٍ أخرى، فيتعلم الكلام بتوانٍ، وإذا قلتم إن هذا التطويل هو فنُّ المؤلّف، وإنه من مُخيّلة الثعلب الذي يرى فيض الشاء بالكلام، فإن هذا الاعتذار يكون صالحًا تجاهي لا نحو تلميذي.

«ومن غير كذبٍ لو كان تغريدك.»

«من غير كذبٍ!» إذن يكذبُ الناسُ أحيانًا، وما يكون حال الولد إذا ما علم منكم أن الثعلب لا يقول «من غير كذبٍ» إلا لأنه يكذب.

«يلائم ريشك.»

«يلائم!» ما معنى هذه الكلمة؟ علّموا الولد أن يقابل بين صفاتٍ مختلفة كالصوت والريش ليرى مقدار ما يدرك أمركم.

«لكنتَ أبا هَوولِ هذه الغاب.»

«أبو الهول!» ما أبو الهول؟ هكذا نُقَدِّفُ في القرونِ الخاليةِ الكاذبة، نُقَدِّفُ في أساطيرِ الأقدمين.

«أهلُ هذه الغاب!» يا له من كلامٍ مجازي! إن المصانِعَ يسمو بلسانه ويكثر من رُفَعِ شأنه حتى يجعله أعظمَ فِتْنَةٍ، وهل يُدرك الولدُ هذه الدقَّة؟ وهل يعلمُ أو يستطيعُ أن يَعْلَمَ ما الأسلوبُ الرفيعُ وما الأسلوبُ الوضعيُّ؟

«فَطَارَ قلبُ الغرابِ من الفرحِ عندَ هذه الكلمات.»

لا بُدَّ من تجربةٍ أشدَّ الإحساساتِ للشعورِ بهذه التعابيرِ التي تُضربُ بها الأمثال.

«ولكي يُظهِرَ صوتهَ الجميل.»

ولا يرغب عن بالكم وجوبَ معرفةِ الولدِ لما يُقصدُ بصوتِ الغرابِ الجميلِ حتى يُدركَ هذا السطرَ وبقيةَ المثل.

«ويفتحُ منقارهَ الكبيرَ ويدعُ غنيمتهَ تقع.»

وهذا السطرُ يقضي بالعجب، ويوحى انسجامه بصورة، وأبصرُ منقارًا كبيرًا كريبها فاعرًا، وأسمع وقوعَ الجينةِ من بين الغصون، غيرَ أن إدراكَ هذا النوعِ من الجمالِ بعيدٌ من الأولاد.

«ويقبضُ عليها الثعلبُ ويقول: سيدي الصالح.»

وهكذا يتحوَّلُ الصالحُ إلى بلاهةٍ إذن، ولا ريبَ في أنه لا يُضَيِّعُ وقتَ في تعليمِ الأولاد.

«واعلموا أن كلَّ مُصانع.»

مثلٌ عام، لا دخلَ للولدِ فيه.

«يعيشُ على حسابِ مَنْ يستمعُ إليه.»

لا يوجد ولدٌ في العاشرةِ من سنه يُدركُ هذا السطر.

«ويعدلُ هذا الدرسُ جينةً لا ريب.»

ويمكن فَهْمُ هذا، ومعناه حسنٌ جدًّا، ومع ذلك فإن من النادرِ وجودَ أولادٍ يقدرُون على مقابلةِ ما بين الدرسِ والجينة، فلا يُفضِّلون الجينةَ على الدرسِ؛ ولذا يجب أن يُحمَلوا على إدراكِ كونِ هذا الحديثِ لا يعدو حدَّ الهُزوءِ، ويا للدقَّةِ فيه!

«ويعتري الغراب خَجَلٌ ويضطرب.»

حشوٌ آخرٌ في الكلام، غير أن هذا لا مغذرةٌ عليه.

«ويحلف، ولكن بعد الأوان، بأنه لن يُؤخذَ بمثل ذلك.»

«يحلف!» فأَيُّ مُعلِّمٍ يبلغُ من الحماقة ما يشرُحُ معه للولدِ معنى اليمين؟

وتلك تفاصيلٌ كثيرة، ومع ذلك فهي أقلُّ مما يجبُ في تحليل جميع الأفكار التي يشتملُ عليها هذا المَثَلُ، وفي رَدِّها إلى الأفكار البسيطة الابتدائية التي تدخلُ في تركيب كلِّ واحدٍ منها، ولكن من ذا الذي يعتقدُ احتياجه إلى هذا التحليل حتى يجعلَ نفسه مفهوماً لدى الأولاد؟ لا تجدُ واحداً منّا فيلسوفاً بدرجة الكفاية حتى يضعَ نفسه في مكانِ الولد، ولنتنقلُ الآن إلى علمِ الأخلاق.

وأسأل: هل يجبُ أن يُعلِّمَ الأولادُ البالغون من العُمرِ عشرَ سنين وجودَ رجالٍ يُصانعون ويكذبون نفعاً لهم؟ كان يُمكنُ أن يُعلِّموا على الأكثرِ وجودَ ساخرين يهزءون بصغار الأولاد ويتهكمون بزهورهم الباطلِ سرّاً، ولكن الجبنة تُفسدُ الجميع، وهم يُعلِّمون عدمَ تركها تسقط من منقارهم أقلُّ من جعلها تسقط من منقارِ آخر، وهذا مبدئي الثاني، وهو ليس أقلَّ أهميةً من الأوّل.

وتتبعوا الأولادَ وهم يتعلمون أمثالهم تروا أنهم يأتون عكسِ مقاصدِ المؤلِّفِ تقريباً عندما يصبحون قادرين على تطبيقها، وأنهم يميلون إلى حُبِّ غيبِ يستفيدون به من نقائص الآخرين بدلاً من ملاحظة نقيصة يُراد شفاؤهم أو وقايتهم منها. ويضحك الأولادُ من الغراب في المَثَلِ السابق، ولكنهم يعطفون على الثعلبِ جميعاً، وترون ضربَ الرِّيز^{١٩} * لهم مثلاً في القصة التالية، كلاً، وإنما النملة هي ما يختارون، فلا يُحبُّ الاستخزاء مطلقاً، وهم يتخذون الدور الرئيس دائماً، وهذا هو اختيار الأثرة، وهذا اختيارٌ طبيعيٌّ جدّاً، ويا لهذا الدرسِ الفظيعِ للولد كما هو الواقع! إن أشنعَ جميع الجُفأة ولدٌ طمَّاعٌ قاسٍ يَعْرِفُ ما يُطلَبُ منه وما يَرفضُ، وتصنع النملة أكثرَ من هذا؛ فهي تُعلِّمه أن يهزأ عندما يَرفضُ.

وفي جميع الأمثال؛ حيث يكون الأسدُ من أسطع الممثلين كما هي العادة، لم يفت الولدُ أن ينتحل وضعَ الأسد على الإطلاق، فإذا ما كان على رأسِ قِسمَةٍ صرفَ همّة في الاستيلاء على الجميع مقتدياً بمثاله، ولكن الولد يَعدُو بعوضةً عندما تغلبُ الأسدُ لاختلاف الوَضْع؛ فيتعلم أن يقتل بالمنخَس ذات يومٍ من لم يجزؤ على مهاجمتهم بقدم ثابتة.

^{١٩} * الرِّيز: ذُوبية تطير وتقف طويلاً على الشجر، ولها صوتٌ كأنها تقول «زيز»، فسميت به.

ومن مَثَلِ الذئبِ النحيلِ والكلبِ السمينِ يتعلَّمُ درسَ تحلُّلٍ بدلاً من درسٍ في الاعتدالِ يُزعمُ أنه يُلقَى عليه. ولن أنسى أنني شاهدتُ ابنةً صغيرةً تبكي كثيراً لما كان من إحزانها بهذا المَثَلِ الذي أُلقيَ عليها كدرسٍ في الطاعةِ دائماً، ولم يكِدْ يُعرِفُ سببَ بكائها، وقد عُرفَ مؤخرًا، وذلك أن هذه البنتَ المسكينةَ كانت تَضَجِرُ من سلسلتها، وكانت تُشعرُ بأن السلسلةَ تحكُّ جِدها، فتبكي لأنها ليست ذئبة.

وهكذا فإن أدبَ المَثَلِ الأوَّلِ المذكورِ هو للولدِ درسُ خِداعٍ دنيءٍ جدًّا، وإن أدبَ المَثَلِ الثانيِ درسٌ قسوةٌ، وإن أدبَ المَثَلِ الثالثِ درسٌ ظُلْمٌ، وإن أدبَ المَثَلِ الرابعِ درسٌ قَدْحٌ، وإن أدبَ المَثَلِ الخامسِ درسٌ تمردٌ، ولا يلائمُ هذا الدرْسُ الأخيرُ تلاميذكم، كما أنه غيرُ نافعٍ لتلميذِي. وإذا ما ألقيتهم عليهم تعاليمَ متناقضةً فأيةُ ثمرةٍ تنتظرون من رعايتكم؟ ولكن من المحتمل أن يكون جميعُ هذا الأدبِ الذي ينفعني في الاعتراضِ على هذه الأمثالِ يُجهِّزُ بأسبابٍ تُعَدِّلُ تلكَ للمحافظةِ عليها. ويجب أن يوجد في المجتمعِ أدبٌ قولِيٌّ وأدبٌ فعليٌّ، ولا يتشابه الأديانَ مطلقًا، ويكون الأوَّلُ في كتاب الوعظِ الدينيِّ حيث يُترك، ويكون الثاني في أمثالِ لأفونتن للأولاد وفي قِصصهِ للأمهات، ويكفي هذا المؤلفُ للجميع.

ولتُتفقَ يا مسيو لافونت؛ فأما أنا فأعِدُّ بأن أقرأك مختارًا، وأن أُجَبِّكَ، وأن أَرِدَ مواردَ أمثالك؛ وذلك لأنني أرجو ألا أُخدَعَ حَوْلَ موضوعها. وأما تلميذِي، فدعني ألا أتركه يدرسُ أيَّ واحدٍ منها قبلَ إثباتك لي أن من الصالحِ له أن يتعلَّمُ أمورًا لن يفقهَ منها غيرَ الرُّبعِ، وأنه لن يُخدَعَ فيما يُمكن أن يُدرِكَ منها، وأنه لن يُقلِّبَ الوضعَ فيُقَلِّدَ الخبيثَ بدلاً من إصلاحِ عِزَّتِهِ.

واني، إذ أنزِعَ دروسَ الأولادِ على هذا الوجه، أنزِعَ وسائلَ أكبرِ بؤسٍ فيهم، أي الكتب؛ فالمطالعةُ هي آفةُ الوُلُوديةِ، وتكاد تكون الشغلَ الوحيدَ الذي يُمكن أن يوجد لها. ولا يكاد إميلُ يُعرِفُ ما الكتابُ عند بلوغه الثانيةِ عشرة من سنيه، وسيقال لي إن من الواجب أن يكون عارِفًا القراءةَ على الأقل، وأوافق على هذا، وإنما يجب أن يُعرِفَ القراءةَ عندما تكون نافعةً له، وهي لا تكون صالحةً لغيرِ صَجْرِهِ حتى ذلك الحين.

وإذا كان لا ينبغي أن يُطالبَ الأولادُ بشيءٍ عن طاعةٍ؛ فإنه ينبغي عن هذا أنهم لا يقدرُون أن يتعلَّموا شيئًا لا يشعُرُون بفائدتهِ الراهنةِ الحاضرةِ، سواءً للهو أو للخير، وإلا فما الذي يحِملُهُم على تعلُّمِهِ؟ إن فنَّ مخاطبةِ الغائبينِ وسماعهم، وإن فنَّ نقلِ مشاعرنا وعزائنا ورغائبنا إليهم بلا وسيط، وهم بعيدون؛ هو فنٌّ يمكن أن تُجعلَ فائدتهُ محسوسةً في كلِّ عُمُرٍ. وبأيةِ معجزةٍ أصبح هذا الفن، العظيم

الفائدة والكثير الإمتاع، وبالأعلى الولودية؟ ذلك لأنها تُكره على التزامه على الرغم منها، ولأنه يُجعل قيد استعمال لا تفقه منه شيئاً. وليس الولد من الفضول القوي ما يُصلح معه الآلة التي يُعَدَّب بها، ولكن اجعلوا هذه الآلة خادمةً للهواه تروّه يلازمها من فوره وعلى الرغم منكم.

ويقوم ضحيجٌ حول البحث عن أصلح المناهج في تعليم القراءة، وتُختَرع مقاطعٌ وبطاقات، وتُصنَع من غرفة الولد قاعةٌ طباخة، ويريد لوك أن يُعلِّموا القراءة بالتزود. يا لهذا الاختراع الرائع! يا لموضع الرثاء فيه! توجد طريقةً أفضل من جميع ذلك، توجد طريقةً أُغفلت على العموم، وهي الرغبة في التعلُّم، فامنحوا الولد هذه الرغبة، ثمَّ دعوها مقاطعكم ونزِّدكم هنالك، يصلح له كلُّ منهاج.

والمصلحة الحاضرة هي الدافع الكبير، وهي التي تأتي بنا إلى بعيدٍ سالمين. ويتناول إميل من أبيه أو أمه أو أقرابه أو أصدقائه أحياناً بطاقات دعوةٍ إلى غداءٍ أو زهرةٍ أو سفرةٍ على الماء ليشهد احتفالاً عاماً، وتكون هذه البطاقات قصيرةً جليئةً سهلةً حسنة الخط، ولا بُدَّ من وجود واحدٍ لقرائها له، ولا يكون هذا موجوداً في الوقت الذي يُطلب فيه، أو إنه إلا يَرُدُّ إلى الولد معروفاً كان قد حباه به أمس، وهكذا يمضي الوقت وتضيع الفرصة. وأخيراً تُقرأ له البطاقة، ولكن بعد الأوان. وي! يا ليته كان يَعْرِف القراءة! ويتناول بطاقاتٍ أخرى، يا لها من بطاقاتٍ قصيرة! يا لاهتمامه بالموضوع! ويحاول قراءتها، ويجدُ مساعدةً تارةً وإعراضاً تارةً أخرى، ويبدلُ وسعته. وأخيراً، يَفُكُّ نصفَ البطاقة، ويرى أنه مدعوٌّ لتناول قشدةٍ غداً، ولا يَعْرِف أين، ولا مع مَنْ، وبالمجهود الذي يبذل لقراءة البقية! ولا أعتقد احتياج إميل إلى مقاطع، وهل أتكلم الآن عن الكتابة؟ كلاً، أحجل من التلهي بهذه الترهات في رسالةٍ عن التربية.

وأضيف الكلمة الآتية التي تشتمل على مبدأ مهم، وذلك أن يُنال بسرعةٍ فائقةٍ وعن يقينٍ ما لا يُستعجل نيئه، وأجدني واثقاً تقريباً بأن إميل سيَعْرِف القراءة والكتابة تماماً قبل بلوغه العاشرة من سنه؛ وذلك لأن مما لا يهمني كثيراً أن يَعْرِف ذلك قبل الخامس عشر من عُمره، ولكنني أفضل ألا يَعْرِف القراءة على ابتياع هذا العرفان على حساب كلِّ ما يُمكن أن يجعله مفيداً. وما فائدة القراءة له إذا ما كرهها دائماً؟ «يجب أن يُنتبه على الخصوص إلى كون الدروس التي لا يزال راغباً عنها، غيرَ مكروهةٍ لديه، وألا يُبعده منها هذا النفور عند ظهوره، بعد انقضاء الوقت الذي كان فيه أمياً» (كنتليان).

وكَلِّمنا أصررتُ على منهجي غير الفعّال شعرتُ باشتداد الاعتراضات، وإذا لم يتعلم تلميذكم منكم شيئاً تعلّم من الآخرين، وإذا لم تَدْحضوا الخطأ بالحقيقة تعلّم الأكاذيب، وسيتلقى

المُبْتَسِرَات التي تخشون إعطاءه إياها، من جميع مَن يحيطون به، وستدخُل بجميع حواسه، فُتفْسِدُ عقله حتى قبل أن ينمو، أو إن ذهنه، الذي أُخْمِدَ بعدم النشاط، يغرق في المادة؛ فعدم تعوُّد التفكير في الوُلُودِيَّة يَنْزِعُ منها هذه الخاصية في بقية العُمُر.

وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنِّي قَادِرٌ عَلَى الجواب عن هذا بسهولة، ولكن لِمَ الأجابة دائماً؟ فإذا كان منهاجي يَجِبُ عن الاعتراضات بنفسه غُدَّ صالحًا، وإن لم يُجِبْ لم يُساوِ شيئًا، وأواصل.

وإذا ما اتخذتم الخِطَّة التي أخذتُ في رسمها فاتبعتم قواعدَ مخالفةً رأسًا للقواعد القائمة، وإذا لم تَسِيرُوا بعيدًا بذهن تلميذكم، وإذا لم تُضِلُّوه بلا انقطاعٍ في أقاليمٍ أخرى وقرونٍ أخرى عند أقاصي الأرض حتى السموات، وعلمتم على حِفْظِهِ لنفسه دائماً منتبهًا إلى كلِّ ما يَمَسُّه مباشرة؛ وجدتموه قادرًا على الإدراك والتذكُّر، وعلى التعمُّل أيضًا؛ فهذا هو نظام الطبيعة، وكلُّما أصبح الشخص فَعَالًا اكتسب تمييزًا مناسبًا لقواه، وليس بغير القوة التابعة للقوة المحتاج إليها لبقائه ما تنمو فيه خاصية التفكير الصالحة لاستعمال ما يفيض من هذه القوة في شئونٍ أخرى. ومتى أردتم تعهُدَ ذكاء تلميذكم فتعهَّدوا القُوَى التي يجب أن يهيمن عليها هذا الذكاء، ودرَّبوا جسمه بلا انقطاع، واجعلوه عُضَلِيًّا حتى تجعلوه حكيماً عاقلًا، وليعمل وليسع وليغد وليصرخ، وليكن دائم الحركة، وليصبح رجلًا عن قوَّة حتى يكونه عن عقلٍ من فؤده.

حقًا أنكم تُخْبِلُونَهُ بهذا الأسلوبِ إذا ما وُجِّهْتُمُوهُ، فقلتم له دائماً: اذهب، تعال، ابق، افعَلْ هذا، ولا تفعلْ ذلك. وإذا كنتم تديرون برأسكم يديه عاد رأسه لا يكون نافعًا لديه، ولكن اذكروا ما اشترطناه، وهو: أنكم إذا لم تكونوا غير متحذلقين فلا تُجهِّدوا أنفسكم بقراءة كتابي.

ومن الخطأ الذي يُرْتَى له أن يُتصوَّرَ أن تمرينَ البدنِ يَضُرُّ أعمالَ الروح، كأنه لا ينبغي لهذين الأمرين أن يسيرا متفقين، وأنه لا يجوز لأحدهما أن يوجِّه الآخر!

ومن النَّاسِ صنفان تَمَرَّنَ أبدانُهُما دائماً، ولا يُفَكِّران إلا قليلاً، لا ريب، في تعهُدِ أذهانها، وهما: الفلاحون والمتوحشون؛ فأما الأُولون فهم غِلاظٌ أفظاظٌ أغبياء، وأما الآخرون فيُعَرِّفون بحِدَّة الحواسِّ ودقَّة الأذهان، ولا تجدُ على العموم مَن هو أَثقلُ مَن الفلاح ولا مَن هو أدقُّ من الوحشي. ومن أين يأتي هذا الفرق؟ فالأوَّل إذ يفعل ما يُؤمِّر به دائماً، أو يرى ما مَرَن عليه أبوه، أو ما فعله بنفسه منذ صباه، لا يسير إلا عن نمطية، وهو إذ لا يأتي بغير أعمالٍ واحدةٍ في جميع حياته الآلية تقريبًا تقوم العادة والطاعة عنده مقامَ العقل.

وغيرُ هذا حالُ الوحشي؛ فيما أنه غيرُ مرتبطٍ في مكان، ولا يُفرضُ عليه شغل، ولا يُطع أحدًا، وليس له قانونٌ غيرُ إرادته، فإنه مضطرٌّ إلى التعلُّل في أعمالِ حياته، وهو لا يأتي بحركة، ولا يقومُ بخطوةٍ من غير أن يُصير نتائجهما مقدمًا، وهكذا فإنه كلما تمرَّن بدناً تتورَّ روحًا، وينمو بأسه وعقله معًا، ويساعد كلٌّ منهما على نشوء الآخر.

ولنرَ أيها المُعلِّمُ الفاضل، أيُّ تلاميذنا يشابه الوحشيَّ وأيُّهما يشابه الفلاح؛ فأما تلميذكم الخاضعُ في كلِّ شيءٍ لسلطانٍ مُرشِدٍ دائمًا فإنه لا يصنع شيئًا بلا أمر، وهو لا يجزؤُ على الأكل إذا جاع، وعلى الضَّحك إذا فرَّح، وعلى البكاء إذا ترح، وعلى تقديم يدٍ قبل الأخرى، وعلى تحريك رجلٍ إلا كما يُؤمر، وهو لن يجزؤُ على التنفُّس إلا وَفَّقَ قواعدهم. ولمَ تريدون أن تُفكِّر ما دمتم تُفكِّرون في كلِّ أمرٍ بدلًا منه؟ وما حاجته إلى بصيرةٍ ما دام معتمدًا على بصيرتكم؟ وهو، إذ يراكم تقومون بحفظه وراحته، يشعر بأنه في غنى عن القيام بهذه الرعاية، ويستند تمييزه إلى تمييزكم، ويصنع بلا تأمُّلٍ كُلِّ ما لا تهوونه عنه عالمًا بأنه يفعلُه بلا خطر. وما حاجته إلى تعلُّمِ علاماتِ المطر ما عَرَفَ أنكم تنظرون إلى السماء بدلًا منه؟ وما حاجته إلى تنظيم نُزْهته ما دام لا يخشى أن تُضيعوا عليه وقتَ الغداء؟ ويأكل إذا لم تمنعوه من الأكل، فإذا منعتموه منه لم يأكل، وهو لا يسمعُ نصائحَ مَعَدته، ويسمعُ نصائحكم. ومن العيبِ أن تُلينوا بدنَه بعدم الحركة؛ فلن تجعلوه مرناً في إدراكه. وعلى العكس تُزيلون حُطوةَ العقل في نفسه بجعله يستعملُ ما لديه من عقلٍ قليلٍ في أمورٍ تبدو له أكثرُ ما يكون عدمُ فائدة، وهو إذ لا يرى وجهَ صلاحِ العقلِ مطلقًا، يحكم بعدم صلاحِ العقلِ لشيء. ويصدرُ أسوأ ما يُصاب به من سوءِ التعلُّل عن العودِ إلى ذاتِ السوء، ويقع هذا غالبًا من غير أن يخطرُ بباله، ويعود مثلُ هذا الخطرِ الشامل لا يخيفه.

ومع ذلك فإنكم تجدون له ذهناً، هو له ذهنٌ للهدرِ مع النساءِ وَفَّقَ اللهجة التي تكلمتُ عنها، ولكنه إذا ما حاق به خطر، ووجبَ عليه اتخاذُ قرارٍ في أحوالٍ صعبة، وجدتموه أشدَّ غباوةً وبلاهةً مائة مرةٍ من ابنِ أغلظ قروي.

وأما تلميذي، أو تلميذُ الطبيعة على الأصح؛ فهو إذ يتدرَّب باكراً على كفاية نفسه بنفسه ما أمكن، لا يتعوذُ اللتجاءَ إلى الآخرين بلا انقطاع، وأقلُّ من هذا عَرَضُه كبيرَ معرفته عليهم. وهو يميِّزُ ويُصيرُ ويتعقَّلُ بدلاً من ذلك في كلِّ ما هو خاصٌّ به مباشرة. وهو لا يُثرثر، وهو يعمل، وهو لا يَعْرِفُ كلمةً عن كل ما يقع في العالم، وإنما يَعْرِفُ جيِّداً أن يُحسن صنْعَ ما يلائمه. وبما أنه دائمُ الحركة فإنه مُلزمٌ بملاحظةِ أمورٍ كثيرةٍ ومعرفةٍ كثيرٍ من النتائج. وهو ينال تجرِبَةً عظيمةً

مُبَكَّرًا، وهو يتلَقَّى دروسه من الطبيعة لا من النَّاسِ. ويزيدُ ما يتعلَّم صلاحًا بنسبة ما لا يرى في أيِّ مكانٍ كان من عزيمٍ على تعليمه. وهكذا فإنَّ جسمه وروحه يتمرَّنان معًا. وبما أنه يسيرُ وَفَقَ فكره دائمًا، لا وَفَقَ فكرٍ غيره، فإنه يوحدُ بين عمليَّين توحيدًا مستمرًّا. وهو كلُّما صار قويًّا عُصْلِيًّا صار رصينًا بصيرًا. وهذه هي الوسيلة في أن يُحاز ذاتَ يومٍ ما يُعتَقَد أنه مناقضٌ؛ أي ما يجمعه جميعُ العظماء تقريبًا من قوَّة البدن وقوَّة الروح وعقل الحكيم وبأس المصارع.

ويا أيها المُعلِّم الشاب، أوصيك بفنِّ صعب، وهو أن تَحْكَم بلا تعاليم، وأن تصنع كل شيءٍ بعدم صنْع شيءٍ. وأعترف بأن هذا الفن ليس من مقتضيات سنِّك؛ فليس صالحًا لتألُّق مواهبك في البُدءة، ولا لإظهار مقدرتك لدى الآباء، ولكنه وحده مؤدِّ للنجاح، ولن تصل إلى صنْع حكماءٍ مطلقًا ما لم تصنع في بدء الأمر فُجَّارًا. وكانت هذه تربية الإسبارطيين القائمة على البدء بتعليمهم سرقةً غدائهم بدلًا من إصاقهم بالكتب، وهل كان الإسبارطيون غلاظًا عندما يَكْبِرُونَ؟ ومن ذا الذي لا يَعْرِف قوَّتَهم في الجواب على البديهة؟ وهم إذ خُلِقُوا لِيُغْلَبُوا كانوا يسحقون أعداءهم في الحروب على أنواعها، فيخشى الأثينيون المهاذير كلامهم كما يخشون ضرباتهم.

والمُعلِّم في التربيَّات الأعظم رعايَةً يقود ويعتقد أنه يسيطر، والواقع أن الولد هو الذي يهيمن؛ فهو ينتفع بما تطلبون منه لينال منكم ما يروقه، وهو يَعْرِف دائمًا أن يحملكم على إنفاق ساعةٍ دوامٍ مع ثمانية أيامٍ ملاحظة، ولا بُدَّ من معاهدته في كلِّ دقيقة. وتنقلب هذه المعاهدات التي تقترحونها على شاكلتكم فينقلها على شاكلته إلا ما يلائم أهواءه، ولا سيَّما حين تكونون من ضَعْف الرأي ما تضعون معه من الشروط نفعًا له ما يبق بأنَّه يناله سواءً أقام بالشرط الذي فُرِضَ عليه مقابلةً أم لم يَقم. ويقرأ الولدُ في ذهن المُعلِّم عادةً أكثر مما يقرأ المُعلِّم في قلب الولد بمراحل، ويجب أن يكون الأمر هكذا، وذلك أن كلَّ حذقٍ يستعمله الولد المُلقَى حبله على غاربه في سبيل حَفْظ نفسه يستعمله لإيقاد حريته الطبيعية من قيودِ طاغيته، على حين يَجِدُ هذا الطاغية الذي لا مصلحةَ مُلِحَّةً لديه في اكتناه الآخر، أن من الموافق لحسابه، أحيانًا، أن يترك له كسله ورهوه.

واسلُّكوا طريقًا معاكسةً مع تلميذكم، ولُيعتقد أنه السيدُ دائمًا مع أن السيادة لكم في الحقيقة، فلا يوجد انقيادٌ أتمُّ من انقياد الذي يحافظ على الحرية ظاهرًا؛ فعلى هذا الوجه تُقَهَّر الإرادةُ نفسُها. ألا يكون الولدُ المسكينُ الذي لا يَعْرِف شيئًا ولا يستطيع شيئًا ولا يَعْلَم شيئًا؛ تحت رحمتكم؟ ألا تتصرفون بالنسبة إليه في كلِّ ما يحيط به؟ أَلستم السيدَ الذي يُكَيِّفه كما يروقه؟ ألا تكون أعماله وألعابه وأتاعبه أمورًا في يديكم من غير أن يعرف؟ أجل، لا يجوزُ له أن

يفعل غير ما يريد، ولكن لا يجوز له أن يريد غير ما تريدون أن يفعل، ولا يجوز له أن يتقدم خطوة لم تكونوا قد أبصرتموها، ولا يجوز له أن يفتح فاه لقول لا تعرفونه.

وهناك يُمكنه أن يقوم بتمريناتٍ بدنية تتطلبها سنُّه، من غير أن يُجبل ذهنه، وهناك ترويه يقصرُ همُّه على انتفاعه من كلِّ ما يحيط به بما هو أفيدُ لراحته الحاضرة، بدلاً من أن يشخذ حيلته لاجتناب سلطانٍ ثقيل. وهناك يعتربكم الدَّهش من دقَّة وسائله في امتلاك كلِّ ما يستطيع الوصول إليه، وفي التمتع بالأشياء من غير استعانةٍ برأيٍ حقاً.

وإذا ما تركتموه سيدَ رغائبه على ذلك الوجه لم تُثيروا أهواءه مطلقاً، وإذا لم يُصنع غير ما يلائمه لم يصنع من فوره غير ما يجوز أن يصنع. ومع أن جسمه دائم الحركة، ما تعلق الأمر بمصالحة الحاضرة المحسوسة، فإنكم سترون أن ما يستطيع من عقلٍ ينمو بأحسن كثيرًا، وعلى وجهٍ أكثر ملاءمةً له من دروسٍ نظريةٍ صرفة.

وهكذا، إذ لا يراكم تبالغون في مقاومته، إذ لا يرتاب منكم مطلقاً، إذ لا يكون لديه شيءٌ يكتمه عنكم، لا يخادعكم ولا يكذب عليكم مطلقاً، وإنما يبدو كما هو بلا وجل. ويمكنكم أن تدرسوه على مهل، وأن تحيطوه بجميع الدروس التي تريدون إلقاءها عليه، من غير أن يخطرُ بباله تلقي أي واحد منها مطلقاً.

وكذلك لن يرقب مسالككم بعين فضولٍ غير، ولن يتلذذ سرًّا بقيد خطأ لكم، وهذا الأذى الذي نتلافاه عظيمٌ جدًّا، وذلك أن من أوَّل ما يُعنى به الأولادُ هو اكتشاف نواحي الضعف فيمن يهيمنون عليهم كما قلت ذلك، ويحمل هذا الميلُ إلى الخُبث، ولكنه لا ينشأ عنه، وإنما ينشأ عن الحاجة إلى اجتناب سلطانٍ يزعجهم. وبما أن الأولاد مُتقلون بالنَّير الذي يُفرض عليهم فإنهم يحاولون خلعه عنهم، وما يجدون من عيوبٍ في المُعلِّمين يُرَوِّدهم بوسائلٍ صالحةٍ لذلك، ومع ذلك فإن من العادة أن يلاحظ النَّاسُ من خلال نقائصهم وأن يُسرَّ باكتشافها عندهم. ومن الواضح أيضًا أن يُسدَّ هذا المنبع للعيوب في قلب إميل، إذ لم يكن لإميل أيُّ نفعٍ في اكتشاف عيوبٍ لي، فإنه لا يبحث عنها في، كما أنه لا يحاول كشف عيوب الآخرين إلا نادرًا.

وتلوح هذه الأفعال كلها صعبةٌ؛ وذلك لأنها لا تخطر على البال، ولكنها مما لا يجوز أن يكون هكذا في الأساس، ولي الحقُّ بأن أفترض لكم من المعارف الضرورية ما تُراولون معه المهنة التي اخترتم. ويجب أن يُفترض لكم علمٌ بالسَّير الطبيعي للقلب البشري، وأنكم تعرفون درس الإنسان والفرد، وأنكم تعرفون مقدَّمًا ما تخضع له إرادة تلميذكم من جميع الموضوعات التي

تلائم سنه وتضعونها أمام عينيه، وهل من غير الواقع أن تيمم حيازة الإنسان للأدوات ومعرفته استعمالها جيداً على أنه سيد العمل؟

وستعترضون بأهواء الولد، ولستم على صواب في هذا؛ فليس هوى الأولاد من عمل الطبيعة مطلقاً، وإنما هو نتيجة نظام سيء، وذلك أن يكونوا قد أطاعوا أو أمروا، وقد قلتُ مائة مرة إنه كان لا ينبغي أن يقع هذا ولا ذاك؛ ولذا لا يكون لدى تلميذكم من الأهواء غير ما تكونون قد علمتموه، ومن العدل أن تتالوا جزءاً ما اقترفتم، ولكنكم ستقولون: كيف يُعالج ذلك؟ هذا ممكن أيضاً بأصلح سلوك وبصبرٍ كثير.

كان قد عُهد إليّ لبضعة أسابيع في أمرٍ ولدٍ لم يُعوّد تنفيذ رغائبه فقط، بل عُود حمل جميع الناس على تنفيذها أيضاً؛ ومن ثمَّ كان هذا الولد جُموحاً، ويريد منذ اليوم الأول أن يمتحن مجاراتي له؛ فينهض في منتصف الليل، وبينما كنتُ غارقاً في نومي يشبُّ من سريره ويتناول مبدله ويناديني، وأنهض وأشعل الشمعة، ولا يريد أكثر من هذا، ويمضي رُبَّ ساعة وينعس وينضج ثانية فأنعاً باختياره. ويعود إلى ذلك بعد يومين وينال عين النجاح، وذلك من غير أن يبدو عليّ أقل علامة على عدم الصبر، ويُقبّلني عند اضطجاعه ثانية، وأقول له بهدوء: «أحسنّت جدّاً يا صديقي الصغير، ولكن لا تُعد إلى هذا.» وتشير هذه الكلمة فضوله، ويودُّ في الغد أن يرى قليلاً كيف أجرؤ على مخالفته، فلا يفوته أن ينهض في ذات الساعة وأن يناديني، وأسأله عما يريد، ويقول لي إنه لم يستطع أن ينام، وأجيب بكلمة: «يا خساراً!» وأسكت. ويرجو أن أشعل الشمعة، وأسأل: «لأي شيء؟» وأسكت. ويُزعجه هذا الإيجاز، ويتلمس القدّاح في الظلام، ويحاول إخراج النار منه، ولا أستطيع منع نفسي من الضحك عند سماعي ضربه لأصابعه، ويعتقد أخيراً أنه لا يقدر على الرُّند، فيأتي بالقدّاحة إلى سريري، فأقول له إنني لم أطلبها وأقبلُ ظهري، وهنالك يذرع الغرفة طائشاً صارخاً مغنياً صاحباً خابطاً نفسه على المنضدة والكراسي بضرباتٍ غنيّ كثيراً بأن تكون معتدلة، مع صياحٍ شديدٍ آملاً أن يُقلقني، وكان ذلك كلّهُ على غير جدوى. وقد رأيت أنه وإن كان مستعداً للهيّاج والغضب، غيرٌ مُستعدّ لاعتدال الدم.

ومع ذلك فقد عزم على قهر صبري بعناده، وقد بلغ من نجاحه في الاستمرار على ضوضائه ما كدثُ أتميّزُ معه من الغيظ. وقد أبصرتُ أنني أفسدُ كلَّ أمرٍ بانفجارٍ غير مناسب، وأرى سلوك سبيلٍ أخرى، وأنهض من غير أن أنطق بكلمة، وأذهب إلى القدّاحة فلا أجدّها، وأسأله عنها ويعطيني إياها فرحاً لانتصاره عليّ في آخر الأمر. وأقدح بالرُّند وأشعل الشمعة، وأمسك الولد من يده وأسير

به هادئاً إلى غرفة ملاصقة ذات مصاريع محكمة الإغلاق؛ حيث لا يوجد شيء يُكسر، وأتركه فيها بلا نور، ثم أغلق الباب عليه بالمفتاح، وأعود لأنام غير مخاطبٍ إياه بكلمة. ولا تسأل عن شدة ما كان هناك من ضجة في بدء الأمر، وهذا الذي كنت أنتظر ولم أهنئ. ويسكن الضجيج مؤخرًا، وأستمع وأدرك أنه استقام، ويهدأ بالي، وأدخل الغرفة صباحًا، وأجد العاصي الصغير ضاجعًا على متكأ نائمًا نومًا عميقًا كان في أشد الاحتياج إليه بعد ذلك العناء.

ولا يقف الأمر عند ذلك الحد؛ وذلك أن الأمّ تعلم قضاء الولد ثلثي الليل خارج فراشه، ويقضى على العمل حالاً، ويبدو الولد مثل هالك. والولد إذ يرى فرصةً صالحةً للانتقام يزم أنه مريضٌ غير مُبصِرٍ أنه لا يكسب من وراء هذا شيئاً، ويدعى الطبيب. ومن سوء حظ الأم أن كان هذا الطبيب ماجناً أراد أن يتلّهى بذعرها، فعَمِل على زيادته، ومع ذلك فقد قال لي همساً: «دعني أعمل، فأعدك بأن يُشفي الولد بعد قليلٍ من مُرادٍ مَرَضِهِ.» والواقع أن الولد أُوصي بالحماية والتزام الغرفة، وفُوِّض أمره إلى الصيدلي، ومن حسرتي أن رأيتُ هذه الأمّ المسكينَةَ فريسةً خداع جميع من يحيطون بها خلا نفسي، وأن كنتُ موضع حقدِها لأنني لم أحادعها قط.

وتقول لي بعد لوم شديد إن ابنها غلامٌ أمْلُود،^{٢٠} * وإنه الوارث الوحيد لأُسرتها، وإن من الواجب أن يُحافظ عليه بأي ثمنٍ كان، وإنها لا تريد أن يُعاكس. وأوافقها على ذلك، ولكنها تعني بمعاكسته أن يُطاع في كلِّ أمر، وأرى أن أعامِل الأمّ بمثل ما عاملتُ الولد، فأقول لها بفتور: «سيدتي، لا أعرف كيف يُربى الوارث مطلقاً، وأكثر من هذا أنني لا أريد أن أعرف هذا، فيمكنك أن تُرتبي أمورك وفق هذا.» وقد كانوا محتاجين إليّ لأيامٍ آخرٍ أيضاً، فهذا الأبُّ كلَّ شيء، وكتبت الأمّ إلى المُعلِّم ليعجل رجوعه، وأبصر الولد أنه لا يكسب شيئاً من منع نومي ومن انتحاله المرض، فوظنَّ نفسه على النوم وعلى الظهور حسنَ الصحة أيضاً.

ولا يمكن أن يتصوّر مقدار ما كان المُعلِّم التّيس خاضعاً له من أهواء الطاغية الصغير؛ وذلك لأن التّربية كانت تتمُّ على عيني الأم التي لا تُطبق أن يُعصى الوارث في شيء، وكان عليه أن يكون مستعداً ليأخذه معه كلما أراد الخروج، أو أن يتبعه على الأرجح. وفي هذا كان الولد يختار الساعة التي يكون مُعلِّمه مشغولاً فيها، وقد أراد أن يتخذ نحوي ذات السلطان وأن ينتقم نهاراً من الراحة المُلزم بأن يتركها لي ليلاً. وقد رضيتُ بجميع هذا فرحاً وأخذتُ أبدي مخلصاً ما يساورني من حُبور

^{٢٠} * الأمْلُود: اللين الناعم.

بجعله مسرورًا. ولما دار الأمر حول شفائه من هواه بعد هذا انتحلت وجهًا آخر.

وأول ما وجب فعله أن يُوضع في موضع المخطي، ولم يكن هذا صعبًا. وبما أنني كنت أعرف أن الأولاد لا يحملون بغير الحاضر؛ فقد سهّل عليّ أن أوثّر فيه بتصوّري، فأعنى بأن أهبي له في المنزل لهوًا كنت أعرف ملاءمته لذوقه إلى الغاية، فإذا رأيت غارقًا به اقترحت القيام بنزهة قصيرة. ولم يقبل، وأصر، ولا يستمع لي، وعليّ أن أذعن، ويُقيّد علامة الإذعان في نفسه باعتناء.

ويأتي دوري في الغد، ويسأم من شغله كما كنت أنتظر، وعلى العكس أظهر كثير الشغل، وكان هذا كافيًا ليقرّر، ولم يتوان في انتزاعي من عملي لآتي به إلى نزهة بأسرع ما يمكن، فرفضت وأصرّ، وأقول له: «كألاً؛ فقد تعلّمت من تنفيذ رغبتك أن أنفذ رغبتني، ولا أريد الخروج.» ويجيب بشدة: «حسنًا، سأخرج وحدي.» وأقول: «كما تريد.» وأعود إلى عملي.

ويلبس ثيابه، ويضطرب باله قليلاً من إغضائي عنه وعدم أتباعي إياه. فلما استعد للخروج أتى لتحتي، فحيّته. ويحاول أن يخوفني بقصة أسفاره التي سيقوم بها، فيظنّ من يسمعه أنه ذاهب إلى أقاصي الدنيا. وأتمنى له رحلة طيبة من غير أن أحرّك ساكنًا، ويتضاعف ارتباكك، ومع ذلك فقد أظهر الحزم، وقال لخدمته أن يتبعه عندما همّ بالخروج. وكان الخادم قد حُدّر فاعتذر بعدم مساعدة الوقت وبأنه قائمٌ بأموري، فيجب أن يُطعني قبل أن يُطعنه. ويعتري الولد دهشٌ في هذه المرة، وكيف يتصور تركه يخرج وحده، وهو يعتقد أنه أهمُّ النَّاسِ ويرى حرصَ السماء والأرض على سلامته؛ ومع ذلك فقد أخذ يشعر بضعفه، وأدرك أنه يكون وحيدًا بين أناسٍ لا يعرفونه، ويُبصرُ مقدمًا ما ينتظره من أخطار، ولا يزال أزره يشتد بعناده وحده، وينزل من الدرّج على مهل وبلا ميل، ويدخل الشارع أخيرًا ساليًا بعض السُّلوان عن الضّر الذي قد يمسّه بأمله في جعلي مسئولًا.

وذلك ما كنتُ أنتظر، وكلُّ شيء كان مُعدًّا مقدّمًا، وكنتُ مُجهّزًا بموافقة الأب، كأن الأمر ضربٌ من المناظر العامة. ولم يكذب يتقدّم بضع خطوات حتى صار يسمع عن اليمين وعن الشمال أقوالًا مختلفةً حوله، ومن ذلك: «أين يذهب وحده هذا الجار السيد الطريف؟ سيضيع، سأطلب منه أن يجيء عندنا. احذري يا جارة، ألا ترين أنه فاجرٌ صغيرٌ طرد من بيت أبيه لأنه لا يصلح لشيء؟ لا يجوز إيواء الفجرة، وليذهب إلى حيث يشاء. حسنًا، وليحفظه الله! فمما يعيظني أن يُصاب بسوء.» ويتقدّم قليلاً فيلاقي أولادًا طائشين من لداته تقريبًا، فيزعجونهم ويهزءون به. وكلّما تقدّم وجد ما يضايقه، وهو إذ كان وحيدًا بلا حماية رأى نفسه ألعوبة جميع النَّاسِ، وأحسن بكثيرٍ من الحيرة أن عقدة كنفه وزُخرفه الذهبي لا يجلبون إليه احترامًا.

ومع ذلك فقد عهدتُ إلى أحد أصدقائي الذين كان لا يَعْرِفُهُمْ مطلقاً أن يَرْفِئَهُ، فكان يتتبعه خُطوةً خُطوةً من غير أن ينتبه إلى ذلك، وكان يدنو منه عند الاقتضاء. وكان هذا الدور المشابه لدور سبيريغاني في بُرْسُتِيَاك يتطلب رجلاً وافرَ العقل، فقام به الصديقُ خيرَ قيام، وذلك أنه لم يجعل الولدَ أَوْجَلَ جَزوعاً بتلقينه دُعرًا كبيرًا، وإنما أشعره بعدم تبصُّره في عمله الشاق. فلما مضى نصف ساعةٍ أتاني به لِيُنَّا خَزِيًا غيرَ مجترئٍ على رُفَعِ عينيه.

وَتُكْمَلُ بَلِيَّتُهُ في رحلته حين عودته إلى البيت تمامًا؛ فقد نزل أبوه للخروج فلقيه على الدَّرَج، وكان عليه أن يُخَبِّرَ عن المكان الذي أتى منه، وعن سبب عدم وجودي معه.^{٢١} وودَّ الولدُ المسكين لو يكون تحت الأرضِ مائةَ قدم، ولم يَتَلَّه الأَبُ بأن يوجَّه إليه لومًا شديدًا، وإنما قال له بجملاً لم أكن أنتظره: «إذا أردت الخروج وحدك أمكنك فعل ذلك، ولكن بما أنني لا أريد أن أرى عاصيًا في منزلي، كما تصنع، فحذارٍ أن تعود.»

وأما أنا فقد استقبلته غيرَ لائِمٍ ولا ساخر، ولكن مع شيءٍ من الرِّصانة، ولم أشأ أن آتي به للترهة في اليوم نفسه خشيةً أن يدور في خَلده أن كلَّ ما وقع لم يكن غيرَ لَعِب. ومما طاب لي كثيرًا أن رأيتُه في غَدِ ذلك اليوم يَمُرُّ معي، كأنه في موكبٍ نصر، أمام من سَخِرُوا منه أمس حينما كان وحده. وهكذا يمكنكم أن تدركوا أنه عاد لا يتوعدني بالخروج من غير أن يكون معي.

فبهذه الوسائل وما مائلها وُقِّفْتُ في المدة القصيرة التي قضيتها معه أن أجعله يفعل كلَّ ما أريد، وذلك من غير أن أمره بشيء، ومن غير أن أصلِّه عن شيء، ومن غير أن أعظه بشيء، ومن غير أن أخنِّه على شيء، ومن غير أن أضجِّره بدروسٍ لا طائل تحتها. وكذلك كان يبدو راضيًا إذا تكلمت، ولكنه كان يُدَعِّرُ إذا ما التزمْتُ جانبَ الصمت؛ وذلك لأنه كان يعلم أن بعض الأمور ليس صوابًا، وأن الدرس يأتي من ذات الشيء دائمًا، ولكن دعنا نرجع إلى الموضوع. وهذه التمرينات المتصلة، المتروكة لتوجيه الطبيعة وحده، إذ تُقَوِّي الجسم، لا تؤدي إلى عدم خَبَلِ الرُّوحِ فقط، بل على العكس تكوّن فينا أيضًا نوع العقل الوحيد الذي يتقبله الدور الأول من العُمُر، والذي هو الزُّمُّ ما يكون في أيِّ دورٍ من أدوار العُمُر، وهي تُعلِّمنا كيف نُحسِن استعمالَ قُوَّانا كما تُعلِّمنا ما بين أجسامنا والأجسام المحيطة بنا من صلة، وهي تُعلِّمنا استعمالَ

^{٢١} لا خطر في مثل هذه الحال من أن يُطالَب الولدُ بقول الصدق؛ وذلك لأنه يُعرف عجزه عن كتمانته، ولأنه إذا ما جُرؤ على الكذب لم يلبث أن يُدان.

الوسائل الطبيعية الواقعة في مُتناولنا والملائمة لأعضائنا. وهل تُوجد رُعونة كرعونة الولد الذي يُنشأ في العُرفة على عيني أمه دائماً، فيجهل ما الثقل وما المقاومة، ويريد قلع شجرة عظيمة أو رفع صخرة؟ وقد أردت في أوّل مرة خرجت فيها من جنيف أن ألحق حصاناً راكضاً، وقد رميت حجارةً على جبل سالييف البعيد منّي فرسخين، فكنت موضع سُخرية أولاد القرية عادّين إياي من البُله. وفي العام الثامن عشر من العُمر يُعلّم ما العتلة في الفلسفة، ولا يوجد قرويّ صغيرٌ بالغ من العُمر اثنتي عشرة سنة لا يَعْرِف استعمال العتلة أحسن مما يَعْرِف الميكانيكي الأوّل في الأكاديمية، وما يتلقاه التلاميذ بينهم في ساحة المدرسة أفيدُ مائة مرة مما يُقال لهم في حجرة الدرس.

وانظروا إلى سِتّورٍ داخل غرفةٍ للمرة الأولى؛ فهو يزور ويُصير ويشم، ولا يبقى دقيقةً واحدةً مستقرّاً، وهو لا يركن إلى شيءٍ قبل أن يفحص كل شيء، ويعرف كل شيء. وهذا ما يفعل الولد الذي يبدأ بالمشي فيدخل ساحة العالم على هذا الوجه، ويقوم الفرق الوحيد على أنه يُضاف في الملاحظة إلى حاسة البصر المشتركة بين الولد والسِتّور ما حبت الطبيعة به الأوّل من يدين، وما حبت به الثاني من حاسة شمّ نفاذة. وهذا الاستعداد الذي يُحسن تعهده أو يُساء هو الذي يجعل الأولاد ماهرين أو غلاطاً، متناقلين أو نشاطاً، طائشين أو فُطناً.

وبما أن حركات الإنسان الطبيعية الأولى تقوم على قياسه بجميع ما يحيط به وعلى الشعور في كل شيء يُدرِك بجميع الخواص الحساسة التي يُمكن أن تناسبه، فإن درسه الأوّل يكون ضرباً من الفيزياء التجريبية الملائمة لبقائه، فيحوّل عنه بدروسٍ نظرية قبل أن يَعْرِف مكانه في هذا العالم. وبينما يمكن أعضائه الدقيقة المرنة أن تطابق الأجسام التي يجب أن تؤثر فيها، وبينما تكون حواسه سالمة من الأوهام، يكون هذا زمن تمرين الأعضاء والحواس على الوظائف الخاصة بهما، يكون هذا دور تعلمنا معرفة العلاقات المحسوسة بيننا وبين الأشياء. وبما أن كل شيء داخل ضمن الإدراك البشري، يأتيه من الحواس، فإن عقل الإنسان الأوّل هو عقلٌ حسي، وهذا هو العقل الذي يصلح أساساً للعقل الذهني؛ أي إن أساتذتنا الأولين في الفلسفة هي أرجلنا وأيدينا وعيوننا. ولا ينطوي استبدال الكتب بجميع هذا على تعليمنا التعقل، بل يُعلّمنا انتحال عقل الآخرين، بل يُعلّمنا كثرة الاعتقاد وقلة المعرفة.

ويجب لممارسة صنعة أن يُبدأ بإحراز وسائلها، ويجب للقدرة على استعمال هذه الوسائل استعمالاً نافعاً أن تكون من المتانة ما تُقاوم معه الاستعمال، ويجب لتعلّم التفكير أن تُدرّب إذن أعضاؤنا وحواسنا وأطرافنا التي هي وسائل عقلنا، ويجب للانتفاع بأقصى ما يُمكن من هذه الوسائل

أن يكون الجسم الذي يُرُودُ بها عُصَلِيًّا سالمًا. وهكذا، فإن من البعيد أن يتكوّن عقل الإنسان مستقلًا عن الجسم، وحسن تكوين الجسم هو الذي يجعل أعمال الذهن سهلةً صحيحة.

واني، حين أدُلُّ على الوجه الذي يجب أن يُنفَقَ فيه فراغُ الوُلُودِيَّةِ الطويل، أَلجُ باب التفصيل الذي يلوح أنه موضعُ هزوء، وسيقال لي إن الدروس التي تقع تحت سلطان نقدك الخاص، فتقتصر على تعليم ما لا يحتاج إليه أحد، دروسٌ مُضحكة! ولم يُقضى الوقت في تعليم يأتي من نفسه، ولا يُكَلَّفُ تَعَبًا ولا رعاية؟ وأيُّ ولدٍ بالغٍ من العُمُرِ اثني عشر عامًا لا يَعْرِفُ جميع ما تريد تعليمَ تلميذك إياه، فضلًا عما يكون مُعلِّموه قد علّموه إياه؟

أنتم مخطئون يا سادتي؛ فأنا أعلمُ تلميذي صنعةً طويلةً جدًا، شاقّةً جدًا، صنعةً لا يَحُوزُها تلاميذكُم لا ريب، صنعةً كونه جاهلًا؛ وذلك لأنَّ عِلْمَ مَنْ يَعْتَقِدُ أنه يَعْرِفُ ما يَعْرِفُ فقط يَرُدُّ إلى شيء قليل. وأنتم تُلَقِّنون عِلْمًا، حسنًا، وأمّا أنا فأعنى بالوسيلةِ الصالحةِ لاكتسابه. ويُرَوَى أن أهل البندقية أطلّعوا سفيرَ إسبانية على كنوز القديس مُرقص، وكان هذا في احتفالٍ عظيم، فقَصَرَ مجالمته على قوله وهو ينظر إلى ما تحت المناضد: «هنا لا يوجد جذر.» فلا أرى مُعلِّمًا يَعْرِضُ معرفةَ تلميذه من غير أن أحاول قولَ مثل هذا له.

ويعزو جميعٌ من يُعمون النظرَ في طرازِ حياة القدماء إلى التمريناتِ الرياضيةِ تلك القوةَ في الجسم والذهن التي تميّزهم من المعاصرين بأوضح ما يمكن. وبدلُ الوجه الذي يدّعم مُؤنثين به هذا الرأي على أنه كان متأثرًا به كثيرًا، فيعودُ إليه بلا انقطاعٍ وعلى ألفِ طَرزٍ. وهو إذ يتكلم عن تربية الولد، يقول: «يجب لتقوية رُوحه أن تُقَوَّى عضلاته، وهو يُعوِّدُ الألم حين يُعوِّد العمل، ولا بُدَّ من تدريبه على حُشونة الرياضة البدنية حتى يَأْلَفَ عُنفَ الانخلاعِ وشدّةَ المَغصِ وقسوةَ جميع الأمراض.» وعلى ما بين الحكيم لوكٍ والصالحِ رُولانٍ والعالمِ فلوري والمتحدلقِ كروزا من اختلافٍ كبيرٍ في شتى المسائل؛ تجدهم جميعًا متفقين في مسألةِ تمرينِ أبدانِ الأولادِ وحدها. وهذا هو أصوبُ ما في تعاليمهم، وهذا هو أكثرُ الأمورِ إهمالًا، وسيكون هكذا دائمًا، وكنت قد تكلمتُ عن أهميته بدرجّة الكفاية. وبما أنه لا يمكن أن يُبيّنَ حَوْلَ ذلك من الأسبابِ والقواعدِ ما هو أفضلُ مما وَرَدَ في كتاب لوك؛ فإنني أفتحُ بإحالةِ القارئِ إليه بعد أن أبيحَ لنفسي إضافةً بعض الملاحظاتِ إلى ملاحظاته.

ويجب أن تكون الأعضاء في الجسم النامي طليقةً سهلةً الحركة في الثياب، فلا ينبغي أن يُضايقَ شيءٌ حركتها ولا نُموّها، فلا ضيقٌ ولا لاصقٌ بالبدن، ولا رُبُطٌ. ويُعدُّ اللباسُ الفرنسيُّ

المتعب للرجال وغير الصحي لهم ضاراً بالأولاد على الخصوص، وتصرى^{٢٢} * الأخلاط الراكدة التي يوقف دوراتها بشكون يزيد بالحياة المتوانية الحضرية، فتعفن الأخلاط وتُسبب داء الحقر الذي يزيد انتشاره كل يوم بيننا مع أنه مجهول تقريباً لدى القدماء الذين كانوا يتقونه بطراز لبسهم وأسلوب معيشتهم. ولا يتلافى لباس الفرسان هذا المحذور، بل يزيده، وإذا ما أُريد به إنقاذ الأولاد من بعض الرُّبُط ضغطهم بدنًا ضغطاً كلياً. وأفضل ما يُصنع في هذا السبيل هو أن يُتركوا لابسين سترَةً لأطول وقتٍ ممكن، ثم أن يُعطوا ثوباً فضفاضاً من غير أن يُعنى بتجسيم قوامهم؛ لما يؤدي إليه هذا من تشويهِهم على وجهٍ آخر. وتنشأ جميع عيوبهم بدنًا وروحًا عن ذات العلة تقريباً، ويُراد جعلهم رجالاً قبل الأوان.

ويوجد من الألوان ما هو مُشرق وما هو قاتم. ويُفضّل الأولاد الألوان الأولى، وهي ثلاثهم أيضاً، ولا أدري ما السبب في عدم أخذ الملاءمة الطبيعية في هذا بعين الاعتبار. ولكن بما أنهم يُرجحون النسيج الفاخر، فإن هذا يعني استهواء النفائس لأفئدتهم وميلهم إلى جميع مناحي الرّي، ولم يأتهم هذا الذوق من أنفسهم لا ريب. ومن المتعذر بيان مقدار ما لاختيار الثياب وعوامل هذا الاختيار من تأثير في التربية. وليس الأمهات العمي وحدهن من يعدن أولادهن بالزخارف مكافأة لهم، بل يرى أيضاً مُعلّمون من الحمقى يهدّدون تلاميذهم بثوب أكثر خشونةً وأعظم بساطةً عقاباً لهم، وذلك كأن يقولوا لهم: «إذا لم تكونوا أحسن درساً، وإذا لم تكونوا أكثر اعتناءً بثيابكم، فإنكم ستحملون على لبس ثياب كتاب هذا الفلاح الصغير.» ويُعدّل هذا قولهم للتلاميذ: «اعلموا أن الإنسان ليس شيئاً بغير ثيابه، وأن قيمتكم بما تلبسون.» وهل يُعجب من تأثر أولادنا بهذه الدروس الصائبة، ومن كونهم لا يُقدّرون غير الزخرف، ومن كونهم لا يرون المزيّة في غير المظهر؟

وإذا ما وجب أن أزدّ إلى الصواب ولداً بالغاً هذا المقدار من الدلال، صرفتُ همي في جعل أفضر ثيابه أكثر ما يكون إزعاجاً، فتضايقه دائماً، وتضغطه دائماً، وتربكه على ألف وجهٍ دائماً. وصرفتُ همي في هزّمي الحرية والبهجة أمام بهائه، فإذا أراد أن يشترك في ألعاب أولاد آخرين أكثر بساطةً في اللبس كُفوا كلهم عن اللّعب، وتواروا كلهم من فوزهم. وأخيراً أبلغ من إملاهِ أُنّهته وإشباعه من زهوه، وأخيراً أبلغ من جعله عبداً لثوبه الذهبي، ما أجعل من هذا وذاك معه بليةً حياته، فيرى أن أسود سجنٍ مُظلمٍ أقلُّ هولاً من عدّة زينتته؛ فأول ما يتمناه الولد أن

^{٢٢} * صرى الماء: طال مُكثّه وتغيّر.

يطيبَ عيشًا ويكونَ حُرًّا ما دام لم يُجعلَ عبدًا لمُبْتَسِرَاتِنَا. وتُعدُّ الثيابُ الأكثرُ بساطةً والأعظمُ إراحةً والأقلُّ تعبيدًا له؛ أتمنَى ما يكونَ عنده دائمًا.

وتوجد للجسم عادةً ملائمةٌ للتمرينات، وتوجد له عادةً أكثرُ ملاءمةً لعدم الحركة، وبما أن هذه تدعُ للأخلاق سبيلًا سهلًا نمطيًا، فإن من الواجب أن تضمّن البدن من تقلبات الجو. وبما أن الأخرى تجعله ينتقل بلا انقطاع من الحركة إلى الراحة، ومن الحرارة إلى البرودة، فإن من الواجب أن نُعوّده عَيْنَ التقلبات؛ ومن ثمَّ يجب أن يلبس سكان المنازل وأهل المدن ثيابًا دفيئةً في كلِّ وقت حفظًا للبدن ضمن درجة من الحرِّ متساويةً واحدةً تقريبًا في جميع الفصول والساعات. وأمّا الذين يأتون ويذهبون في الريح وتحت الشمس والمطر، وأمّا الذين يسيرون كثيرًا ويقضون معظم أوقاتهم في العراء؛ فيجب أن يلبسوا ثيابًا خفيفةً دائمًا، وذلك ليتعوّدوا جميع تقلبات الجو وجميع درجات الحرِّ دائمًا، من غير أن يُعتنوا، فأصبح هؤلاء وأولئك بالألّا يُغيروا ثيابهم وفقَّ الفصول، وسيكون هذا عادةً إميل الدائمة. ولا أقصد بهذا أن يلبس ثياب الشتاء في الصيف كالحضريين، بل أقصد أن يلبس ثياب الصيف في الشتاء كالعُمال، وكانت هذه عادة السَّير يُوثن مدى حياته، وقد عاش ثمانين سنة.

وقليلُ كسوةٍ للرأس، أو لا كسوةٍ للرأس، في جميع الفصول. وكان قدماء المصريين حاسري الرأس دائمًا، وكان الفرس يَسْتَرُونَ رءوسهم بتيجانٍ ضخمة، واليوم يَسْتَرُ الفرس رءوسهم بعمائم كبيرة يجعل جو البلاد استعمالها ضروريًا كما يرى شارذان. وقد ذكرتُ في كتاب آخر ما أتاه هيرودوتس من تفريق في ميدان القتال بين جماجم الفرس وجماجم المصريين. ولذا، فيما أن من المهم أن تكون عظام الرأس أشدَّ صلابةً وأعظم كثافةً وأقلَّ عطبًا وأندرَ منافذ لتسليح الدماغ ضدَّ الجروح، فضلًا عن الرُّكام والتَّراتل وجميع مؤثرات الهواء، فعوّدوا أولادكم أن يَبْقُوا حاسري الرأس في الصيف والشتاء والنهار والليل دائمًا. وإذا كنتم تؤدّون نظافةً شعْرهم وانتظامه، فتريدون غطاءً له في الليل، فليكن هذا قَلَنْسُوءَ رقيقةً ذات شقوقٍ مشابهةً للشبكة التي يَلْفُ البَشْكُنْسُ بها شعورهم. وأعرِفَ جيّدًا أن معظم الأمهات اللاتي وقفت ملاحظة شارذان أنظارهم أكثرَ مما وقفتها براهيني سيعتقدن أنهن يجدن جوَّ فارس في كل مكان، ولكنني لم أحتر تلميذي الأوروبي لأجعل منه آسيويًا.

وعلى العموم يلبس الأولاد ثيابًا كثيرة، ولا سيمًا في الدَّور الأوَّل من عُمرهم، مع أنه يجب أن يُعوّدوا البردَ أكثرَ من أن يُعوّدوا الحرَّ؛ فالبرد لا يؤذيه مطلقًا إذا ما عُرضوا له باكراً، ولكن بما أن نسيج جلدِهم لَيِّنٌ جدًّا رنخوُّ جدًّا، فيساعد العرق على السَّيلِ بكثرة، فإنه يُسَلِّمُهُم

بالحر المتناهي إلى ضنّي لا مفرّ منه. ولنعلّم أيضًا أنه يَهْلِكُ به في شهر أغسطس أكثر مما في أي شهرٍ آخر، ثمّ إنه يظهر من الثابت عند المقابلة بين شعوب الشمال وشعوب الجنوب أن الإنسان يصير عُصْلِيًّا بشدّة البرد أكثر مما بشدّة الحرّ، ولكن كلّما كَبُرَ الولد واشتدت أليافه عَوْدوه احتمال شعاع الشمس مقدارًا فمقدارًا، وهو إذا ما تدرّج في هذا السبيل جعلتموه يُطبق قِيطَ المِنطقة الحارة بلا خطر.

وبينما يُتَحَفَّنَا لوكُ بمبادئ صائبة ذات فُخُولَةٍ تراه يقع في متناقضاتٍ لا تُنتظر من مفكرٍ مُدَقِّقٍ مثله؛ فهذا الرجل الذي يُوَدُّ اغتسال الأولاد في الماء القارس صيفًا لا يريد أن يشربوا ماءً باردًا، ولا أن يناموا على الأرض في أمكنة رطبية^{٢٣} إذا ما كانوا ذفّين. ولكن بما أنه يُوَدُّ أن يَنفُذَ الماءَ أحمدة الأولاد في جميع الأوقات، فهل يكون نفوذُ الماء إليها أقلّ مقدارًا عندما يكون ذفّيًا؟ أفلا يُمكن أن يُجْعَلَ له من حيث نسبة البدن إلى الرّجّلين عين الاستقراء الذي أتى به من حيث نسبة الرّجّلين إلى اليدين، ومن حيث نسبة البدن إلى الوجه؟ وأقول له: إذا كنت تريد أن يكون كلُّ الإنسان وجهًا، فلم تلومني إذا ما أردت أن يكون كلُّه رِجْلين؟

وهو، لكي يحول دون شُرْب الأولاد عندما يكونون ذفّين، أوصى بأن يأكلوا مقدّمًا كِسرة خبزٍ قبل أن يشربوا؛ فمن الغرابة بمكانٍ إعطاء الولد ما يأكل عندما يكون ظمئًا، وأفضل أن يُعطى ما يشرب عندما يكون جائعًا. ولا أفتع مطلقًا بأن تكون شهواتنا الأولى مختلّة كثيرًا، فلا يمكن قضاؤها من غير أن نُعرِّض أنفسنا للخطر، ولو كان الأمر هكذا لهلك الجنس البشريّ مائة مرة قبل أن يُعرف ما يجب أن يُعمل لبقائه.

وأريد أن يُعطى إميلٌ ما يشرب في كلّ مرة يعطشُ فيها، أريد أن يُعطى ماءً قَرَاخًا من غير إعداد، حتى من غير أن يُفْتَر، ولو كان غارقًا في عرقه، ولو في صميم الشتاء. وكلُّ ما أوصي بمراعاته هو أن يُمازَ نوعُ الماء، فإذا كان ماء نهرٍ فقَدَموه إليه كما هو حالًا؛ أي كما أُخرج من النهر، وإذا كان ماء ينبوع فدَعُوهُ في الهواء بعضَ الوقت قبل أن يشربه، وذلك أن الأنتهار في الفصول الحارة تكون حارّة، وأن هذا ليس حالّ الينابيع التي لم تَمَسَّ الهواء، فيجب الانتظارُ حتى تنال حرارةَ الجو. وعلى العكس يكون ماء الينبوع أقلّ خطرًا في الشتاء من ماء النهر من هذه الناحية. ولكنه ليس من الطبيعي ولا المألوف أن يُعْرَق في الشتاء ولا سيّما في العراء؛ وذلك

^{٢٣} كأن صغار الفلاحين كانوا يختارون الأرضَ الجافّة ليجلسوا عليها أو ليناموا عليها، وكأنه سمع أن رطوبة الأرض قد أضرّتهم، ولو ألقينا السَّمع إلى الأطباء لاعتقدنا أن جميع الهمج من الكسحاح بفعل الرّية.

لأن الهواء البارد إذ يَلطِم الجِلدَ بلا انقطاعٍ يَزُدُّ العَرَقَ إلى الداخلِ ويحول دون انفتاح المسامِّ بما فيه الكفاية حتى يمنحه ممرًا حُرًّا. والواقع أنني لا أَقْصِدُ أن يتدربَ إميلُ شتاءً بجانب النار، بل في سواء الأرياف بين الجليد، ولتترك إميل يشرب متى عَطِشَ ما دام لا يَدْفَأُ بغيرِ كُرَاتٍ ثلجية والرَّمي بها. ولْيُداوِمَ على التدربِ بعد أن يشرب، ولا نخشَ صدورَ أي عارضٍ من هذا، وإذا ما أخذ يَعرَقُ على تمرينٍ ما فَعَطِشْ فليشربْ ماءً باردًا حتى في ذلك الوقت، وإنما اجعلوه يسير إلى بعيدٍ بخَطٍّ قصيرةٍ باحثًا عن الماء؛ ففي قَرِّ كهذا الذي أَفْتَرِضُ يكون قد بردَ عَرَقُهُ حين وصوله إلى مكانِ الشُّربِ بلا خطر، وعليكم أن تتخذوا هذه الاحتياطات من غير أن يشعر بها على الخصوص؛ فعندي أن يمرض أحيانًا أفضلُ من أن ينتبه إلى صحته دائمًا.

ويحتاج الأولادُ إلى نومٍ طويلٍ لِمَا يقومون به من تمرينٍ متناهٍ، ويُعدُّ أحدُ الأمرين مُلَطَّفًا للآخر، ويدلُّ هذا على احتياجهم إليهما. والليلُ هو وقتُ الراحة، وقد عَيَّنَتِ الطبيعة. ومن الملاحظات الثابتة أن يكون النومُ أعظمَ هدوءًا وأكثرَ دَعَةً حين تكون الشمسُ تحت الأفق، وأن الهواءَ اللدنيَّ بأشعتها لا يَضْبُطُ حواسنا في مثل هذا السكون العظيم، وهكذا فإن أنفع العادات للصحة أن يقع النهوضُ والنومُ مع الشمس لا ريب؛ ومن ثمَّ كان احتياج الإنسان والحيوان في أقاليمنا إلى النوم في الشتاء مدةً أطول مما في الصيف على العموم، غير أن الحياة المدنية ليست بسيطةً طبيعيةً سالمةً من التقلبات والعوارض بما فيه الكفاية حتى يُعوِّدَ الإنسان تلك النمطية فتُجَعَلُ ضروريةً له. وما لا شك فيه وجوبُ الخضوعِ لقواعد، ولكن أولى هذه القواعد هي أن يُستطاع نقضها بلا خَطَرٍ عندما تقتضي الضرورةُ بذلك؛ ولذا لا تُتَرَفَّأُ تلميذكم على غير بصيرةٍ بدوام نوم هادئ لا يَقْطَعُ مطلقًا. نعم، أسلموه في البُداءِ إلى قانون الطبيعة دون مراعاةٍ لغيره، ولكن لا تَنَسُوا وجوب كونه فوق هذا القانون بيننا، فيستطيع أن ينام متأخرًا وأن ينهض صباحًا وأن يوقظ بغتة، وأن يقضي الليالي واقفًا من غير أن يُزعج. ولْيُبدَأُ بذلك باكراً، ولْيُسلِّك السبيلَ زُويدًا وعلى درجاتٍ لملاءمة تلك الأحوال التي تُقَوِّضُه إذا ما حُمِلَ على الخضوع لها بعد تمام تكوينه.

ومن المهم أن يُعوِّدَ النومَ على فراشٍ غير مُريحٍ في بدء الأمر، فتكون هذه وسيلةً عدم عدّه أيَّ سريرٍ سيِّئًا. وإذا تحولت الحياة القاسية إلى عادةٍ زادت الإحساسات المستحبة على العموم. وتُعدُّ الحياة الناعمة ما لا حدَّ له من الإحساسات المستكرهة على العموم. ولا يجد من يُنشئون في الترف الكثير نومهم على غير الرِّيش الناعم. ويجد من تعودوا النوم على الألواح

رُقَادِهِمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ فَلَا يَوْجَدُ فِرَاشٌ حَسَنٌ لِمَنْ يَنَامُ عِنْدَمَا يَضْجَعُ.

وَمِنْ شَأْنِ الْفِرَاشِ الْوَثِيرِ، حَيْثُ يُغَاصُ فِي الرِّيشِ وَالزَّرْعَبِ، أَنْ يُذِيبَ الْبَدْنَ وَيَحْلَهُ، وَتَدْفَأُ الْكُلَيْتَانَ اللَّتَانِ يُشْتَمَلُ عَلَيْهِمَا اشْتِمَالًا حَارًّا؛ وَمِنْ نَمِّ تَنْشَأَ الْحِصَاةُ وَغَيْرُهَا مِنَ الْأَمْرَاضِ فِي الْغَالِبِ، كَمَا يَنْشَأُ مِزَاجٌ لَطِيفٌ يُغَذِّيهِمَا جَمِيعًا لَا رَيْبَ.

وَأَحْسَنُ فِرَاشٍ هُوَ مَا يُوجِبُ أَحْسَنَ نَوْمٍ، وَهَذَا مَا أُعِدُّهُ مَعَ إِمِيلَ نَهَارًا، وَلَسْنَا مُحْتَاجِينَ أَنْ يُجَلِّبَ إِلَيْنَا بَعِيدٌ مِنْ فَرَسٍ لَصْنَعِ فِرَاشٍ لَنَا، وَنَحْنُ نَنْقُلُ فِرَاشَنَا حِينَ نَحْرُثُ الْأَرْضَ.

وَأَعْرِفُ، عَنِ تَجْرِبَةٍ، أَنَّ الْوَلَدَ إِذَا كَانَ ذَا صِحَّةٍ جُعِلَ يَنَامُ وَيَسْتَقِظُ كَمَا يُرَادُ تَقْرِيْبًا. وَإِذَا كَانَ الْوَلَدُ ضَاجِعًا وَيُزْعَجُ خَادِمَتُهُ بِثَرْتِهِ فَقَالَتْ لَهُ «نَمْ»؛ كَانَ هَذَا كَمَا لَوْ قَالَتْ لَهُ «شَفِيتِ» عِنْدَمَا يَكُونُ مَرِيضًا. وَأَصْحُ طَرِيقَةٍ لِحَمْلِهِ عَلَى النَّوْمِ هُوَ أَنْ يُسَامَ؛ فَهُوَ لَا يَلِثُ أَنْ يَنَامَ إِذَا مَا كَلِمَتُوهُ بِمَا يُكْرَهُ بِهِ عَلَى السَّكُوتِ، وَتَكُونُ الْمَوَاعِظُ نَافِعَةً فِي بَعْضِ الْأُمُورِ دَائِمًا، وَمِنْ النَّافِعِ أَنْ تَعِظُوهُ مَا مَهَّدْتُمُوهُ، وَلَكِنِّكُمْ إِذَا مَا اسْتَعْمَلْتُمْ هَذَا الْمَنْوَمَ لِيَلَّا فَاحْذَرُوا اسْتِعْمَالَهُ نَهَارًا.

وَأَوْقِظُ إِمِيلَ أحيانًا، وَذَلِكَ عَنِ خَشْيَةِ تَعُودِهِ النَّوْمَ زَمَنًا طَوِيلًا أَقَلَّ مِمَّا عَنِ تَعْوِيدِهِ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى اسْتِيقَاضَهُ فَجَاءَ، وَذَلِكَ إِلَى أَنِّي أَكُونُ قَلِيلَ اسْتِعْدَادٍ لَوْظِيفَتِي إِذَا لَمْ أُسْتَطِعْ حَمْلَهُ عَلَى الْاسْتِيقَاضِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ وَعَلَى النَّهْوِضِ كَمَا أُرِيدُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَقُولَ لَهُ كَلِمَةً وَاحِدَةً.

وَإِذَا لَمْ يَنْمَ نَوْمًا كَافِيًا جَعَلْتُهُ يُبْصِرُ صَبَاحًا مُمِلًا مِنَ الْغَدِ، فَيَعُدُّ كَسْبًا كُلَّ مَا يَتْرَكُهُ لِلنَّوْمِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِذَا مَا نَامَ كَثِيرًا أَطَهَرْتُ لَهُ عِنْدَمَا يَصْحُو لَهْوًا يَرُوقَهُ، وَإِذَا أَرَدْتُ أَنْ يُفِيقَ فِي الْوَقْتِ الْمُعَيَّنِ قُلْتُ لَهُ: «سَأَذْهَبُ فِي السَّاعَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الْغَدِ لِأَصْطَادِ سَمَكًا، وَسَأَتَنَزَّهُ فِي الْمَكَانِ الْفُلَانِي، أَفَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مَعِي؟» وَيُؤَافِقُ، وَيَرْجُو مِنِّي أَنْ أُوقِظَهُ، وَأَعِدُّ أَوْ لَا أَعِدُّ وَفَقَّ الْحَاجَةَ، فَإِذَا مَا أَفَاقَ مَتَأَخَّرًا وَجَدَنِي ذَاهِبًا، وَمِنْ الْبَلِيَّةِ أَلَّا يَقْدِرَ مِنْ فُورِهِ أَنْ يُفِيقَ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ.

ثُمَّ إِذَا حَدَثَ أَنْ وَلَدًا بَلِيدًا مَالَ إِلَى الصَّرَى فِي الْكَسَلِ، وَهَذَا نَادِرٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسَلَّمَ إِلَى هَذَا الْمِيلِ حَيْثُ يَخْمُدُ نَشَاطُهُ تَمَامًا، وَإِنَّمَا يَجِبُ اتِّخَاذُ بَعْضِ الْمَحْرُضَاتِ لِإِقْطَاعِهِ. وَمِمَّا يُدْرِكُ جَيِّدًا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ عَلَى السَّيْرِ بِالْقُوَّةِ، بَلْ أَنْ يُحْرَكَ بِبَعْضِ الْمُغْرِيَاتِ الَّتِي تُحْمِلُهُ عَلَيْهِ، وَإِلَى الْغَايَتَيْنِ يَسُوقُنَا هَذَا الْمُغْرِي الْمَخْتَارُ مِنْ نِظَامِ الطَّبِيعَةِ.

وَلَا أَتَصَوَّرُ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُ، مَعَ شَيْءٍ مِنَ اللَّبَاقَةِ، أَنْ يُلْقَنَ الْأَوْلَادَ الذُّوقَ، حَتَّى الْخَنْقَ، وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ زَهْوٍ وَلَا مَنَافَسَةٍ وَلَا حَسَدٍ، فَيَكْفِي لَذَلِكَ نَشَاطُهُمْ وَرُوحُ الْمَحَاكَاةِ فِيهِمْ، وَلَا سِيَّمَا

مَرَّحُهُم الطَّبِيعِي، هذه الوسيلة التي لا يُشكُّ في القبض عليها، والتي لم تَحْطُرْ بِبَالٍ مُعَلِّمٍ قَطًّا؛ وذلك أنهم في جميع الألعاب التي أُقْبِعُوا بِأَنَّهَا ليست غير ألعاب يَحْتَمِلُونَ بلا تَوَجُّعٍ حتى مع الضَّحِكِ ما كانوا لا يَحْتَمِلُونَهُ من غير أن يسكبوا سِوَالاً من الدموع. ويُعَدُّ الصَّوْمُ الطَّوِيلُ واللَّكْمُ والحرقُ والتَّعَبُ على أنواعه؛ لهو صِغَارِ الهَمَجِ، وهذا دليلٌ على أن للألم نفسه من الفُتُونِ ما يُمكن أن يَنْزِعَ كَرْبَهُ، ولكن لا يستطيع جميعُ المُعَلِّمِينَ طَبِخَ هذا الطعام، كما أن جميع التلاميذ لا يدوقونه من غير انقباض، وهذا يَدْعُ، فإذا لم أحتَرِّزْ تُهْتُ في الشواذ.

ولا يعني احتمالُه كَوْنَ الإنسان عبدًا للألم ولأمراض نوعه وللعوارض ولأخطار الحياة وللموت أخيرًا، وكلُّما عُوِّدَ الإنسان جميع هذه الأفكار شُفِيَّ من الإحساس المُزْعِج الذي يضيف إلى السوء عدمَ الصبرِ على احتمالِه، وكلُّما جُعِلَ الإنسان يألف ما يمكن أن يصيبه من الأوصاب نُزِعَتْ منه زَبَانِي الغرابة كما قال مُونْتَيْن، فيغدو روحه متينًا سالمًا من الجُروح، ويصير جسمُه درعًا تقبه جميع السهام التي يُمكن أن تكون قاتلة، حتى إن دُنُوَ الموتِ إذ لم يكن الموت نفسه فإنه لا يكاد يُشْعُرُ به على أنه هكذا؛ فهو لن يموت، وإنما يكون حيًّا أو ميتًا لا غير، وعنه قال مُونْتَيْن نفسه كما قال عن مَلِكٍ مَرَأَش: «لم يَمُدَّ إنسانٌ حياته بعيدًا في الموت.» ويُعَدُّ الثباتُ والحزمُ كبقية الفضائل مدارَ تخرُّجِ الولد، ولكن الأولاد لا يتعلَّمون هذه الفضائل بتعلُّمِ أسمائِها، وإنما يتعلَّمونها بحملهم على ذواقها من غير أن يَشْعُرُوا.

ولكنني إذ أتكلَّم عن الموت أسأل: ما السبيلُ التي أسلكُ مع تلميذي تجاه خَطَرِ الجُدْرِي؟ أَيْلَقُ به صغيرًا أم ننتظر إصابته به إصَابَةً طَبِيعِيَّةً؟ إن الأمرَ الأوَّلَ أكثرُ ملاءمةً لعادتنا، وذلك أنه يحفظ حياته في وقتٍ تكون فيه عظمة القيمة، وذلك على حساب خطرٍ يحيقُ بحياته عندما تكون أقلَّ قيمة، وذلك إذا ما جاز لنا استعمالَ كلمةِ الخطرِ نحو تلقيحِ أحسنِ صنعه.

وأما الأمرُ الثاني، فأكثرُ ملاءمةً لمبادئنا العامة، وذلك أن يُتْرَكَ للطبيعة اتِّخَاذُ ما تَوَدُّ اتِّخَاذَهُ وحدها، فإذا ما تدخَّلَ الإنسانُ في ذلك تركتِ الطبيعةُ ذلك من فورها. وتَرَى رَجُلَ الطبيعةِ مستعدًّا دائمًا، ولندعه يُلَقِّحُ من قِبَلِ هذا السيدِ الذي يختار الوقتَ المناسبَ أحسنَ مما نختار.

ولا تستنيطوا من ذلك أنني ناقدٌ على التلقيح، وذلك أن الأسبابَ التي أعني بها تلميذي منه سيئةُ الملاءمةِ لتلاميذكم، وتُعِدُّهم تربيَتكم لعدم الإفلات من الجُدْرِي حينما يكونون عُرضَةً لهجومه، فإذا تركتموه يأتي مصادفةً هلكوا به على ما يحتمل. ومما أرى في مختلف البلدان أن مقاومةَ التلقيحِ تزيد بنسبة ما يصبح فيها ضروريًّا، ويسهل إدراكُ هذا، وأكاد أترقُّع عن معالجة

هذه المسألة من أجل إميل، وهو إما أن يُلقَّح وإما ألا يُلقَّح، على حسب الأزمنة والأمكنة والأحوال، وهذا ما لا يُكْتَرَث له بالنسبة إليه تقريباً. وبيان الأمر أنه إذا ما أُتِحِفَ بالجُدري كان هنالك ما يُبَصِّر به مرضه ويُعرَف مقدِّماً، وهذا شيء، ولكنه إذا ما أُصِيب به إصابةً طبيعيةً يكون قد حُفِظَ من الطيب، وهذا هو الأصلح.

وتُفَضَّلُ التَّربِيَةُ الحَاجِبَةُ، التي لا تَمِيلُ إلى غير تَمييزها من الشعب مَنْ يَتَلَقَّونها دائماً، أَعْلَى تعليم على التعليم المعتاد، ولو كان هذا الأخيرُ أَكْثَرَ فائدةً، ومن ذلك أن الفتيان الذين غُني بتربيتهم يتعلَّمون ركوب الخيل لِفَلاءِ هذا كثيراً، ولكنك لا تَجِدُ واحداً منهم يتعلَّمُ السَّباحة تقريباً لعدم تكلفتها شيئاً، ولأن الصانع يستطيع أن يسبح كأَي إنسان كان. ومع ذلك، فإن المسافر يركب الفرس من غير سابق تعليم، ويستقرُّ على ظهرها وينتفع بها لحاجته بما فيه الكفاية. وأما في الماء فإن الإنسان يَغْرَقُ إذا لم يسبح، ولا تكون السَّباحة بلا تعليم. ثُمَّ إن الإنسان لا يُكْرَهُ على ركوب الخيل إذا كان يخشى الهلاك، على حين لا يتق الإنسان باجتناِبِ خطرٍ يُعْرَضُ له غالباً كالغَرَق. وسيكون إميل في الماء كما على الأرض، ولم لا يكون قادراً على العيش في جميع العناصر؟ أَجْعَلُ منه نَسْراً إذا ما استطعتُ تعليمه الطيران في الهواء، وأجعل منه سَمَنْدراً^{٢٤} * إذا استطاع احتمال النار.

ويُخشى أن يَغْرَقَ الولدُ حين تعليمه السَّباحة، ويقع الوزرُ عليكم دائماً، سواءً أَغْرَقَ حين تعليمه السَّباحة أم لعدم تعليمه إياها. والغرورُ وحده هو الذي يجعلنا مغامرين، ولا نكون هكذا إذا لم يَرْنَا أحد، ولن يكون إميل هكذا ولو رآه جميع النَّاس. وبما أن التمرين لا يتوقَّف على الخَطَر، فإنه سيتعلَّم في قناة حديقة أبيه عبورَ الدردنيل، ولكن يجب أن يُتَعَوَّدَ الخَطَرُ أيضاً لكي يُتعلَّم عدم الانزعاج به. وهذا قسمٌ جوهريٌّ من التخرُّج الذي تكلمتُ عنه منذ قليل. وبما أنني أكون متنبهاً، فضلاً عن ذلك، إلى المقابلة بين الخطر وقُوَّاه، مع مشاطرته هذا الخطر، فإنه لا يكون ما أخشى معه غفلي ما دمْتُ أنظِّم أمرَ حَفْظِهِ وَفُقِّ تنظيمي حفظَ نفسي.

والولد أصغرُ من الرجل، وليس عند الولد ما عند الرجل من قُوَّةٍ وعقل، ولكنه يرى ويسمع مثله أو يكاد، وله مثلُ ذوقه حساً، وإن كان هذا الذوقُ أَقَلَّ دِقَّةً، وهو يُفَرِّق بين الروائح مثله وإن لم تكن له ذاتُ اللذة. والحواسُّ هي أولى الخصائص التي تتكوَّنُ فينا وتكْمُلُ؛ ولذا فهي أوَّلُ ما يجب تعهُّده، وهي الوحيدة التي تُنسى، أو التي تكون أكثر ما يُهْمَلُ.

^{٢٤} * السَّمَنْدَرُ أو السَّمِيدِر: دابةٌ تعيش في الماء وعلى اليابسة، وقيل إنها تفرز مادةً تُطفئ النار، ولذلك قالوا: إنَّها لا تحترق.

ولا يعني تدريب الحواس استعمالها فقط، بل يعني أيضاً تعلّم حُسن الحُكْم بها، بل يعني تعلّم الشعور بها؛ فنحن لا نعلّم اللمس ولا الرؤية ولا السماع إلا كما تعلّمنا.

ويوجد من التمرينات ما هو طبيعيّ آليّ صرف، فيصلح لجعل الجسم عُضليّاً من غير تحسينٍ للفكر. أجل، إن السباحة والعدوّ والثوبّ وسوّط الخُذروف وقذف الحجارة أمورٌ حسنةٌ جدّاً، ولكن ألا يوجد لدينا غير الدرعان والسيقان؟ أليس عندنا عيونٌ وآذان؟ وهل هذه الأعضاء غير ذات نفع في استعمال الأولى؟ إذن، لا تقتصروا على تدريب القوى، بل درّبوا جميع الحواس التي توجّهها أيضاً، وانتفعوا بكلّ ما يُمكن من الحواس، ثمّ حقّقوا تأثير كلّ منها بالأخرى، وقيسوا واحسبوا وزنوا وقابلوا، ولا تستعملوا القوّة إلا بعد أن تُقدّروا المقاومة، وليقيم تقديركم للمعلول على سبّقه للوسائل دائماً. وأغرّوا الولد بالألّا يقوم بجهود ناقصة أو زائدة، وإذا ما عوّدتموه أن يُبصر نتيجة جميع حركاته على هذا الوجه فيقوم بالتجربة زلّاته، أفلا يكون من الواضح ظهوره حصيفاً كلّمًا ساراً؟ وإذا ما وجبت إزاحة كتلة فتناول عتلة طويلة أنفق حركة كثيرة، وإذا ما تناولها قصيرة لم تكن لديه قوّة كافية، فيمكن التجربة أن تُعلّمه اختيار القضيبيّ الضروري تماماً، وليست هذه الحكمة فوق مستوى عُمره إذن. وإذا ما وجب حملٌ ثقيلٌ وأراد أن يكون وزناً بمقدار ما يستطيع أن يرفع ولم يحاول أن يشوّل أكثر مما يقدر، أفلا يضطرّ إلى تقدير الثقل بالنظر؟ وإذا أراد أن يقابل بين كتل من ذات المادة مختلفة الحجم أو أن يختار بين كتل من ذات الحجم مختلفة المواد، أفلا يجب أن يمارس المقابلة بين أوزانها المعينة؟ لقد رأيتُ فتى حسن التربيّة لم يُرد أن يعرف، إلا بعد التجربة، كون الدلو المملوءة نُشارةً من خشب البلوط أقلّ ثقلاً من عين الدلو المملوءة ماء.

ولا نسيطر على استعمال جميع حواسنا بالتساوي، ومن هذه الحواس حسّة اللمس التي لا يُعطل عملها في أثناء اليقظة مطلقاً، وهي شاملةٌ لسطح بدننا بأجمعه، وذلك كحارسٍ دائمٍ يُخبرنا بكلّ ما يُمكن أن يؤدّبه. وهذه الحاسة أيضاً هي التي نألّ بها طوعاً أو كرهاً وبأسرع ما يمكن، ما يؤدّي إليه ذلك التمرين المتصل من تجربة، وهذه الحاسة هي من حيث النتيجة أقلّ ما يحتاج إلى تدريبٍ خاص، ومع ذلك فإننا نلاحظ أن للغميان حسّة لمسٍ أصدق مما لدينا وأدق؛ وذلك لأنهم إذ كانوا عاطلين من باصرة مرشدة لهم يضطرون إلى تعلّمهم بحاسة اللمس حصراً آراءً نكسبها بالأخرى أيضاً. ولم لا تتمرّن إذن على المشي في الظلام مثلهم، فنعرف الأجسام التي يمكن أن نبُلغها، ونحكم في الأشياء التي تحيط بنا، ونصنع ليلاً وبلا ضياءٍ جميع ما يصنعون نهاراً وبلا عيون؟ إننا نكون في وضع أفضل مما يكونون ما سطعت الشمس، فإذا ما جنّ

الليلُ ساروا أدلاءً لنا من ناحيتهم؛ فنحن عُميّ نصفَ حياتنا، وذلك مع الفارق القائل إن العُميّ الحقيقيين يَعْرِفون ما يصنعون دائماً، وإننا لا نجرؤ على التقدّم خطوةً في سواء الليل. وستقولون لي: لدينا نور. ماذا! آلاّت دائماً! ومَن يجيب بأنها ستبّيعكم في كلِّ مكانٍ عند الضرورة؟ وأمّا أنا فأفضّل أن تكون لإميل عينان في بنانه^{٢٥} * على أن تكونا له في دُكّان الشّماع.

وإذا كنتم ضِمنَ بناءٍ في وَسَطِ الليل، فصَفَّقوا بيديكم لِتُدركوا من رنينِ المكانِ كونه كبيراً أو صغيراً، وهل أنتم في سوائه أو في زاويةٍ منه. وبما أن الهواء يكون أقلَّ استدارةً وأكثرَ ترديداً على مسافة نصف قدمٍ من الجدار فإنه يبدو ذا أثرٍ من نوعٍ آخرٍ في الوجه، وقفوا في مكان، ودوؤوا بالتعاقب إلى جميع الجهات لتدلّكم ريحٌ خفيفةٌ على وجود باب، وإذا كنتم في سفينةٍ عرفتم من التّمط الذي تَلطمُ الريحُ به وجوهكم هل يُسيّرُكم مجرى النهر بسرعةٍ أو ببطء، وذلك فضلاً عن الجهة التي تسيرون إليها. ولا تتمُّ هذه الملاحظاتُ وما إليها من منات الملاحظات المماثلة الأخرى إلا ليلاً؛ فمهما بُدِل من انتباهٍ حولها نهاراً ساعدتنا الباصرة عليها أو صرفتنا عنها فتقلبتُ منّا، ومع هذا لا توجد هنا يدٌ ولا عصاً أيضاً، وما أكثرَ المعارفَ البصرية التي يُمكن أن تُكتسبَ باللمس من غير أن يلمس شيء!

كثيرُ ألعابٍ في الليل، وهذا الرأي أهمُّ مما يلوح بمراحل، ومن الطبيعي أن يُخيفَ الليلُ الرجالَ وبعضَ الحيوانات.^{٢٦}

وقليلٌ من النَّاسِ مَنْ يُعَفون من هذه الضريبةِ بالعقل والمعارف والذهن والشجاعة. وقد رأيتُ مفكرين وملحدّين وفلاسفةً وجنوداً يكونون في النهار من الشجعان، فإذا ما أرخى الليلُ سدولَهُ ارتجفوا كالنساء عند خفيفِ ورقةٍ شجر، ويُعزى هذا الدُّعر إلى أحاديثِ المراضع، وهذا خطأ، فلذلك سببٌ طبيعي، وما هذا السبب؟ هو الذي يجعل الصُّمَّ حذرين والقومَ خرافيين، هو جهلُ الأشياءِ التي تحيط بنا وجهلُ ما يقع حولنا،^{٢٧} وبما أنني تعودتُ أن أبصرَ الأشياءَ من بعيدٍ،

^{٢٥} * البنان أطراف الأصابع.

^{٢٦} يكون هذا الخوفُ واضحاً عند كسوف الشمس كسوفاً كلياً.

^{٢٧} إليك أيضاً سبباً آخر أوضحه فيلسوفٌ استشهدتُ بكتابه كثيراً، ووردتُ مناهل بصائره الواسعة غالباً: إذا ما قضتُ بعضَ الأحوال الخاصة بعدم تكويننا فكرةً صادقةً عن المسافة، فلم نستطع أن نحكم في الأشياءِ إلا باتساع ما تُصوّره في أعيننا من زاويةٍ أو رسم، تطرّق الخطأُ إلينا حول حجم هذه الأشياء لا محالة؛ فكل واحد يَعْرِف بالتجربة أننا حين السفر ليلاً نُحسب العليقة القريبة شجرةً عظيمةً بعيدة، وأننا نُحسب الشجرة العظيمة البعيدة

وأن أرى تأثيرها مُقدِّمًا، وذلك من غير أن أشاهد شيئًا مما يحيط بي، فكيف لا أفترض أَلَفَ موجود وأَلَفَ حركة تُقدَّر أن تؤذيني، فيتعذر عليّ أن أضمن نفسي تجاهها؟ ومن العبث أن أعلم أنني في أمانٍ حيث أكون، ولستُ أعرف هذا المأمن ما لم أَرَهُ فعلاً. ولديّ إذن سببٌ خوفٍ دائم مما ليس عندي في وضوح النهار. والواقع أنني أعرف أن الجسم الغريب لا يستطيع أن يؤثر في

عليقة قريبة. وكذلك إذا لم تُعرف الأشياء بشكلها، ولم نستطع أن نكوّن فكرة عن المسافة بهذه الوسيلة تطرّق الخطأ إلينا حتمًا، فإذا ما مرت ذبابةٌ مسرعة على بُعد خطواتٍ من أعيننا بدت لنا في هذه الحالة طيرًا على مسافةٍ بعيدة، وإذا وُجد حصانٌ بلا حركةٍ في وَسَطِ حقلٍ، وكان متخذًا من الوضغ ما يشابه وضغ الضأن مثلًا لم يبدُ لنا غير كيشٍ ما دُفنا لا نعرف أنه حصان. ولكننا إذا ما عرفناه ظهر لنا في الحال ضخماً كالحصان، وصحّحنا حكمتنا الأوّل من فورنا.

وفي كلّ مرة تجدنا ليلاً في أماكنٍ مجهولة؛ حيث لا نستطيع أن نحكم في المسافة، وحيث لا نستطيع أن نعرف شكل الأشياء بسبب الظلام، حاق بنا خطرُ الوقوع في الخطأ في كل ثانية حول الأحكام التي تصدرها عن الأشياء التي تبدو لنا. ومن هنا يأتي الهولُ أو ذلك الخوف الباطني الذي يلقيه ظلام الليل في جميع الناس تقريبًا. وعلى هذا تقوم ظاهرة الأشباح والأشكال الضخمة الهائلة التي يروي كثيرٌ من الناس أنهم رأوها، وهم يُجابون على هذا عادةً بأن هذه الأشكال كانت في خيالهم. ومع ذلك فإن من الممكن أن كانت هذه الأشكال في أعينهم، وأن كانوا قد رأوا في الحقيقة ما يقولون إنهم أبصروا؛ وذلك لأن مما يحدث، قطعًا، أنه في كل مرة لا يمكن أن يُحكّم في الشيء إلا بالزاوية التي يكونها الشيء في العين، يضحّم هذا الشيء المجهول ويعظم كلما اقترب منه، فإذا ما بدا في البُداء للناظر الذي لا يستطيع أن يَعْرِف ما يرى، ولا أن يحكم في المسافة التي يراه عليها. وإذا ما ظهر في البُداء - كما أقول - عاليًا بضغ أقدامٍ مع بعده عشرين أو ثلاثين خطوة؛ لاح عاليًا أقدمًا كثيرةً عندما يصير بعيدًا خطواتٍ قليلة، وهذا ما يجب أن يُدهشه ويُخيفه إلى أن يمسه الشيء أو يعرفه؛ وذلك أنه في الثانية التي يَعْرِف فيها الحقيقة يتضاءل من فوره ذلك الشيء الذي كان يبدو له ضخماً، ويعود لا يظهر له منه غير حجمه الحقيقي، ولكنه إذا ما فرّ أو لم يجزؤ أن يدنو، كان من الثابت أنه لا يكون لديه من الأفكار عن ذلك الشيء غير الصورة التي كوّنوها في العين وأبصر بها في الحقيقة شكلاً ضخماً هائلًا حجمًا وهيئة؛ ولذا تقوم مُبتسراتُ الأشباح على الطبيعة. ولا تتوقّف هذه الظواهر على الخيال وحده خلافاً لما يعتقد الفلاسفة. (بوفون، التاريخ الطبيعي، جزء ٦، صفحة ٢٢)

وقد حاولت في المتن أن أثبت أنها وليدة الخيال قسمًا في كل وقت، وأما من حيث السبب الموضّح في النصّ المُقتبس، فإن من الواضح أن عادة السّرّ ليلاً تعلّمنا أن نفرّق بين تلك الظواهر التي تقتبسها الأشياء المنظورة في الظلام من تشابه الأشكال واختلاف المسافات؛ وذلك لأن الهواء إذا كان من النور ما نصر معه رسوم الأشياء، وذلك مع وجود هواءٍ كثيرٍ معترض في البعد الكبير، كانت رؤيتنا لهذه الرسوم أقلّ وضوحًا عند كون الشيء أكثر بُعدًا مِنَّا، وهذا ما يكفي لوقائتنا بقوة العادة من الخطأ الذي يوضّحه بوفون هنا. ومهما تفضّلوا من إيضاح فإن منهاجي مؤثّر دائمًا، وهو الذي تؤيده التجربة تمامًا.

جسمي من غير أن يُخبرَ عن نفسه بصوتٍ ما، وما أكثرَ ما تكون أذني مرهفةً بلا انقطاع! وإذا ما حدث صوتٌ خفيفٌ لا أستطيع إدراك سببه، حفزتني مصلحة بقائي إلى افتراضي في بدء الأمر أكثر ما يُمكن أن يحملي إلى الحذر؛ ومن ثمَّ كل ما يمكن أن يُخيفني.

ولا أجدني مطمئنًا إذا لم أسمع شيئًا على الإطلاق؛ وذلك لأن من الممكن أن أفاجأ في آخر الأمر عند عدم وجود صوت، ويجب أن أفترض الأمور كما كانت سابقًا، وكما يجب أن تكون أيضًا، وأن أرى ما لا أرى. وهكذا فإنني إذ أُعمل خيالي عن اضطرارٍ أعودُ غيرَ سيِّدٍ له من فوري، ولا ينفع ما أكون قد صنعتُ تسكينًا لروعي لغير زيادةٍ دُعوي. وإذا ما سمعتُ صوتًا سمعتُ لوصفًا، وإذا لم أسمع شيئًا رأيتُ أشباحًا، وما يوحي به حبُّ البقاء من حذرٍ لا يُلقى في غير عوامل الخوف. وليس كلُّ ما يُطمئني في غير عقلي، وغير هذا ما تخاطبني به الغريزة التي هي أقوى من العقل. وما فائدة التفكير في عدم وجود شيءٍ يُخشى ما دام لا يوجد ما يُعمل إذ ذاك؟

ويدلُّ سببُ الداءِ الموجود على الدواء، وتقتلُ العادة الخيال في كلِّ شيء. والأشياء الجديدة وحدها هي التي تُوقظه، والذاكرة لا الخيال، هي التي تعمل في ما يرى كلَّ يوم، وهذا هو سببُ المثلِّ القائل: «لا ينشأ الهوى عن العادة»؛ وذلك لأن الأهواء لا تشتعل بغير الخيال؛ ولذا لا ينبغي اتخاذ العقل دليلًا مع مَنْ تريدون شفاءه من هول الظلام، وجئوا به إلى الظلام غالبًا، وثقوا بأن جميع براهين الفلسفة لا تُعدّل هذه العادة، ولا يدور رأسُ المُسقّفون على السطوح مطلقًا، ولا يخاف في الظلام مَنْ يتعوّد أن يكون فيه.

واليك إذن فائدة أخرى من ألعاب الليل مُضافةً إلى الأولى، ولكن إذا أريدَ نجاح هذه الألعاب لم يُوصَ بهجتها كثيرًا. ولا شيءٌ كئيبٌ كالظلام، ولا تحبسوا ولدكم في سجنٍ مظلم، وليضحك حين دخوله في الظلام، وليضحك قبل خروجه منه، وذلك ليتحول فكرة اللهو الذي يترك والذي يجد دون الخيالات الوهمية التي يُمكن أن تساوره.

ويوجد للحياة حدٌّ يرجع الإنسان إلى الوراء إذا ما تخطّاه، وأشعر بأنني جاوزتُ هذا الحد؛ ولذا أستأنف عملاً آخر، وما تنطوي عليه الكهولة التي تُشعرني بنفسها من فراغٍ يرسم لي راجعًا زمن السنّ الأولى العذب. وإني حين أشيب أعودُ ولدًا، وأذكر مختارًا ما صنعتُ ابناً للعاشرة أكثر من ذكري ما صنعتُ ابناً للثلاثين. ويا أيها القراء، اغفروا لي إذن استنباطي الأمثلة من نفسي أحيانًا؛ وذلك لأن حُسنَ وضع هذا الكتاب يقتضي صنعي له طيبَ خاطر.

وقد كنتُ في الأرياف نزيلَ قسٍّ اسمه مسيو لئيرسيه، وكان يرافقني ابنُ خالٍ لي أغنى

مَنِّي؛ فكان يُعامل مثلَ وارثٍ على حين لم أكنُ غيرَ يَتِيمٍ فقيرٍ لُبُعدي من أبي. وكان ابن خالي الأكبر بَرْنارد يُبَيِّرُ العجبَ بِجُبْنِه ولا سِيما في الليل. وقد بلغتُ من الهزوءِ بِجُبْنِه ما أراد معه مسيو لَنْبِرْسِيه الذي ضاق ذُرْعًا بِتَبَجُّحِي أن يخبتر شجاعتي؛ فناولني مِفْتَاحَ الكنيسة في ليلةٍ من ليالي الخريف السُّود، وطلب مِنِّي أن أذهبَ للبحثِ عن الكتابِ المقدَّسِ في المذبحِ حيثُ تركه، وقد أضاف إلى ذلك من الكلام المثير للهِمَّة ما جعل أمرَ تأخُّري متعذِّراً.

وأذهبُ بلا قَنْدِيل، ولو أخذتهُ معي لكان الوضعُ أسوأ مما عليه كما يُحتمل، وكان عليَّ أن أمرَّ من المقبرة، فجاورتها بِحِزْمٍ؛ وذلك لأنه لم يكن ليسانورني هُوَ ليليَّ ما دمْتُ في العراء.

وأفتحُ الباب، وأسمعُ في القُبَّة صدَى مشابهاً لأصوات، فيأخذ في زلزلةٍ حِزْمِي الروماني، وأريد الدخولَ بعد فتح الباب، ولكنني لم أكد أتقدَّم بضِعْ خُطُوات حتى وقفت، وذلك أنني إذ أبصرتُ الظلامَ الدامسَ الذي كان يَسُودُ هذا المكانَ الواسع، استحوذ عليَّ هَوْلٌ وَقَفَ شعري، وأتقهقر وألُودُ بالفرار مرتجفاً تماماً، وأجد في صَحْنِ الكنيسة كُلياً اسمه سلطان، وتُلقي ملامسائه الخفيفة سكينَةً في قلبي، وأخجل من خوفي، وأرجع محاولاً جَلْبَ سلطان معي، ولم يُرِدْ سلطان اتِّباعي. وأجاورُ البابَ فجأةً، وأدخل الكنيسة، ولم أكد أَدْخُلها حتى اعتراني الخوفُ ثانية، وقد بَلَغَ هذا الخوفُ من الشدَّة ما فقدتُ معه صوابي، ومع أن المذبح كان عن يميني، ومع أنني عرفتُ ذلك جيِّداً؛ فقد انفتحتُ من غيرِ وعي وبحثُّ عنه في الشمال وقتاً طويلاً. وقد ارتبكتُ بين المقاعدِ وعُدْتُ لا أعْرِفُ أين أنا. وبما أنني لم أستطع أن أجدَ المَنبِرَ ولا البابَ؛ فقد اضطربتُ اضطراباً لا يُوصف. وأبصرُ البابَ أخيراً، وأهمُّ بالخروج من الكنيسة، وأبتعدُ عنها كما في المرة الأولى، عازماً على عدم دخولها وحدي في غير النهار.

وأعود حتى المنزل، وبينما كنت مستعداً للدخول إذ تَبَيَّنْتُ صوتَ مسيو لَنْبِرْسِيه وهو يَقهقه، وأعدُّ فقهته موجهةً إليَّ مُقدِّماً، ويُرَبِّكُنِي أن أرى نفسي عُرضةً لها، فأتردَّد في فتح الباب، وأسمع الأنسة لَنْبِرْسِيه في تلك الأثناء وهي تقول للخادمة أن تأخذ المصباح عن قلبي نحوِي، ويستعدُّ مسيو لَنْبِرْسِيه للبحث عني على أن يرافقه ابنُ خالي الجسور الذي لن يُقصر في منحه جميعَ فخرِ السَّرِيَّة بعد ذلك. وتزول جميعُ مخاوفي بغتة، ولم يبقَ عندي غيرُ الخوفِ من أن أباعثُ هارباً. وأرْكضُ وأطيرُ إلى الكنيسة، وأصلُّ إلى المَنبِرِ من غيرِ أن أصِلَّ ومن غيرِ أن أتردَّد، وأرتقيه، وأتناول الكتاب المقدس، وأثبُّ منه، وأكون بعد ثلاثِ قَفَرَاتٍ خارجَ الكنيسة التي نسيْتُ حتى إغلاقِ بابها، وأدخل الغرفةَ صَبَّ النَّفْسِ وأطرح الكتاب المقدس على المنضدة دهباً،

ولكن خافقاً فَرَحًا يانجازي ذلك من غير تلك المساعدة المقترحة نحوي.

وسأسال هل أقدم هذا الحادث مثلاً يُحتذى ومثلاً على ما أطلب به من بهجة في هذه الأنواع من التمرينات، كلاً، وإنما أقدمه دليلاً على أنه لا شيء يستطيع أن يُسكّن رَوْعَ خائفٍ من أشباح الليل غير سَماعه في غرفةٍ مجاورةٍ أصحاباً يضحكون ويتسامرون هادئين. وأريد بدلاً من أن يتلَهَى المُعلِّم مع تلميذه وحده أن يُجمَع في الليالي كثيرٌ من الأولاد الطيبى المزاج، وألاً يُرسلوا متفرقين في البُداء، بل يُرسل كثيرٌ منهم مجتمعين، وألاً يجازف بإرسال أيٍّ واحدٍ منهم منفرداً حتى يُطمأن مُقدِّماً بأنه لا يكون خائفاً كثيراً.

ولا أتصور شيئاً أبهج ولا أنفع من مثل هذه الألعابِ ناظرًا إلى قلةٍ ما يحتاج إليه تنظيمها من مهارة، وأقيم في بهوٍ كبيرٍ مثل تيه مؤلفٍ من لوحاتٍ ومثكآتٍ وكراسٍ وحواجز، وأضع في مُنَعرجات هذا التيه العُقدِ وبين ثماني عُلبٍ أو عشر عُلبٍ مُقلَّدةٍ، عُلبةٌ حقيقيةٌ مشابهةٌ لها تقريباً، مملوءةٌ مُلبَّساً، وأُعِين بكلامٍ واضح، ولكن مع الإيجاز، مكان العُلبةِ الصحيحة، وأُعطي أناساً أكثر من الأولادِ انتباهاً^{٢٨} وأقلَّ منهم طيشاً من الدلائل ما يكفي لتمييزها. ثمَّ أجعل صغارَ المتبارين يضربون القرعة، فأرسل الواحدٍ منهم تلو الآخر حتى تُوجد العُلبةُ الحقيقية، وذلك مع زيادة صعوبة العمل بنسبة مهارتهم.

وتصوِّروا هَرَكولاً صغيراً يصل حاملاً عُلبةً بيده فخوراً بسرَّيته، وتوضع العُلبة على المنضدة، وتفتح باحتفالٍ كبير، وهنا أسمع قهقهاتٍ وسُخرياتٍ صادرةً عن العُصبة الفرحة إذ رأت بدلاً من المُلبَّسِ جِغلاًناً وحلزوناً وفَحماً وبلوطاً ولُفتاً وموادَّ مماثلةً أخرى مُرتبةً على أشتيةٍ أو قُطن. وفي مرةٍ أخرى تُعلق على جدارِ غرفةٍ مُكلَّسةٍ حديثاً لعبةً ومنقولاتٍ صغيرةً أخرى، فيطلب من الأولاد أن يحضروها من غير أن يمسوا الجدار. ولا يكادُ الجالب لها يدخل حتى يُرى إخلاله بالشَّرطِ لِمَا يَتِمُّ على سوء تصرُّفه طَرَفُ قُبَّعته المُبييضِ وطَرَفُ حدائه وذيل ثوبه وكُمه. ويُعدُّ هذا كافياً، وأكثر من كافٍ على ما يحتمل، لإدراك روح هذه الألعاب. وإذا كنتم تنتظرون أن أقول لكم كلُّ شيء فلا تقرأوا كتابي مُطلقاً.

وأى تفوق في الليل لا يتفق لمن نُشئ هكذا على الرجال الآخرين؟ فيما أن رجليه تعودتا أن ترسخ في الظلام، وبما أن يديه تمرنتا على لمس جميع الأجسام المجاورة بسهولة؛ فإنها

^{٢٨} يقضي تدريب انتباههم بألاً تقولوا لهم غير أمورٍ يكون من مصلحتهم الواضحة الحاضرة أن يدركوها جيِّداً، وذلك من غير تطويل ولفظ زائد وإبهام وغموض في قولكم.

تَقوده في أحلكِ ظلامٍ بلا مشقة. وبما أن خياله مملوءٌ بألعابِ فتاته الليلية؛ فإن من الصعب أن ينصرفَ إلى أمورٍ مخيفة. وإذا ما اعتقد أنه يسمع فهقهاتٍ كانت هذه فهقهاتِ أصحابه القدماءِ بدلاً من فهقهاتِ الجن. وإذا ما تمثّل مجلساً كان هذا غرفةً مُعلّمة، لا مجتمعَ سَحَرَةٍ في الليل مطلقاً. ولن يكون الليلُ شيئاً كريهاً عندما ذكّره بأفكارٍ سارة، فيُجبهُ بدلاً من أن يخشاه. وهو يستعدُّ في كلّ ساعةٍ عند كلّ حملةٍ عسكرية، سواءً أكان وحده أم مع كنيسته، وهو يدخل معسكر شاول ويجول فيه من غير أن يضلّ، وهو يصل إلى خيمة الملك من غير أن يُوقظ أحداً، وهو يعود منه من غير أن يشعُر به أحد، واقصدوه بلا وِجَلٍ عندما يجب سلبُ حُصنِ ريزوس؛ فمن الصعب أن تجدوا رجلاً مثل أوليس بين من نُشِنوا على وجهٍ آخر.

وقد شاهدتُ أناساً يريدون بالمفاجآت أن يُعُودوا أولادهم ألا يخافوا شيئاً في الليل، وهذا المنهاجُ سيئٌ جدّاً، وهو يؤدي في الحقيقة إلى عكس ما يُبحَثُ عنه، وهو لا ينفع لغير جعلهم أكثرَ جُبناً دائماً، وما كان العقل ولا العادة ليستطيعا تسكينَ الرُّوعِ حول خطرٍ حاضرٍ لا يُعرَفُ مداه ولا نوعه، كما أنهما لا يستطيعان تسكينَ الرُّوعِ حول وِجَلٍ من المفاجآت التي تُبتلى في الغالب، ومع ذلك فكيف يُطمأنُّ إلى وقاية تلميذكم من مثل هذه العوارض؟ وهذا أصلح رأيٍ يمكن أن يُعطاه حول ذلك مُقدِّماً كما يلوح لي، فأقول لإميل: «هنالك تكون في وضعِ المُدافع عن نفسه، وذلك أن المعتدي لا يدعُك تحكّم في هل يريد أن يؤذيك أو يُخيفك. وبما أن له هذا الوضع الملائم فإنك لا تجد ملاذاً حتى في الفرار، فاقبضُ بجُرأةٍ إذن على مَنْ يُاغتكَ ليلاً، إنساناً كان أو حيواناً، واضغطه وقفه بما لديك من قوّة، وإذا ما انتفض للمقاومة فاضربْ بلا هوادة، ولا تتركه يذهب قبّل أن تعرفَ مَنْ هو مهما قال أو فعّل. ومن المحتمل أن تعرف بالاستيضاح عدمَ وجودِ شيء تخشاه، غير أن هذه الطريقة في معاملة المُجانبِ مما يحول دون رجوعهم إلى ذلك بحكم الطبيعة.»

ومع أن حاسة اللمس أكثرُ حواسنا دوامَ تمرين؛ فإن أحكامها تظلُّ مع ذلك أكثرَ نقصاً وأشدَّ غلظةً من أية حاسةٍ أخرى كما قلت؛ وذلك لأننا نُدخل في استعمالها عادةً البصر دائماً، ولأن العينَ إذ تبلغُ الشيءَ بأسرعَ مما تبُلُغه اليد، فإن النفس تستغني عنها في الحكم. وبالمقابلة تجدُ أحكامَ اللمسِ أعظمَ صحّةً لأنها أكثرُ ما يكون اقتصاراً؛ فيما أنها لا تمتدُّ إلى أبعدَ مما تمتدُّ إليه أيدينا فإنها تُقوِّم طيشَ الحواسِّ الأخرى التي تتناول من بعيدٍ أشياء لا تكدر تُحسُّها، وذلك بدلاً من حاسة اللمس التي تشعُر جيّداً بكلِّ ما تُحسُّه. ونحن إذ نُضيفُ قوّة العَضَلِ إلى فعلِ

الأعصاب كما يروقنا، فإننا نوحّد، بإحساسٍ يقع في وقتٍ واحد، بين حكمِ حرارة الجو والأجرام والأشكال وحكمِ الثقل والصلابة. وهكذا فإن حاسة اللمس إذ كانت بين جميع الحواس أحسن ما يُخبرنا بما يُمكنُ الأجسام الغريبة أن تُؤثّر في جسمنا؛ فإن عاداتها أكثر العادات شيوعاً، وهي أسرع ما يمتحننا من المعارف الضرورية لبقائنا.

وإذا كانت حاسة اللمس تقوم مقام حاسة البصر، فلم لا يمكنها كذلك أن تقوم مقام حاسة السمع إلى حدّ ما، ما دامت الأصوات تُثير في الأجسام الطنّانة اهتزازات تُحسّ عند اللمس؟ إذا ما وُضعت يدٌ على كمانٍ جهيرٍ أمكن أن يُماز، من غير استعانة بالعيون وبالأذان ووفق الوجه الذي يهتز به الخشبُ ويرتج، كون الصوت الذي يصدر ثقيلًا أو حادًا، وكونه ناشئاً عن الزّير^{٢٩} * أو عن القرار، وإذا ما مُرّت الحواس على هذه الفروق لم أشك في كوننا نُصبح مع الزّمن من الشعور بحيث نسمع بالأصابع لحنًا كاملاً. والواقع أن من الواضح عند افتراض هذا إمكان مخاطبة الصّمّ بالموسيقا بسهولة؛ وذلك لأن الألحان والأزمان إذ لم تكن أقل تأثراً بالتراكيب المنتظمة من المفاصل والأصوات، فإن من الممكن أن تُتخذ كعناصر للكلام.

ويُوجد من التمرينات ما تكيل به حاسة اللمس، ويجعلها أكثر عياء، وعلى العكس يوجد من التمرينات ما تُشخّذ به ويجعلها أكثر دقّة ولطافة، وتُضيف الأولى كثيرًا من الحركة والقوة إلى انقطاع الأجسام الصّلبة الدائم، فتجعل الجلد قاسيًا جاسيًا، وتنزِع منه الإحساس الطبيعي، وتُغيّر الثانية هذا الإحساس بلنسٍ خفيفٍ كثير، فيكتسب الذهن المنتبه دائمًا إلى الانطباعات المُكرّرة بلا انقطاع، سهولة الحكم في جميع تحولاتها، ويُشعر بهذا الفرق في جميع الآلات الموسيقية، وذلك أن لمس الكمان الجهير والكمان الأجهر، حتى الكمان، لمسًا شديدًا أليماً إذ يجعل الأصابع أكثر مرونة فإنه يُصلّب أطرافها، ويجعلها البيان مرنة حساسة في الوقت نفسه، وبهذا يُفضّل البيان.

ومن المهم أن يخسأ الجلد أمام مؤثرات الهواء فيستطيع مقاومة تقلباته؛ وذلك لأن الجلد يحفظ بقية الجسم. وإذا عدوت هذا وجدنتي لا أريد أن تجسأ اليد بأن يُفرط في تمرينها على ذات الأعمال بلؤم، ولا أن يصير جلدّها عظيمًا تقريبًا ففقْد الحس اللطيف الذي يُعرف به ما تُمر عليه من الأجسام والذي يجعلنا نرتجف في الظلام بمختلف الوجوه أحيانًا وعلى حسب نوع اللمس.

ولم يلزم تلميذي بأن يجعل تحت قدميه جلدًا بقر دانمًا؟ وأي أذى يمكن أن يلحقه إذا ما

^{٢٩} * الزّير: الدقيق من الأوتار.

استعمل جلدَه الخاصَّ نعلًا له؟ ومن الواضح أن رِقَّةَ الجِلْدِ في هذا القسم لا يُمكن أن تكون نافعةً لشيءٍ مطلقًا، ويُمكن أن تكون ضارَّةً كثيرًا غالبًا. ومما حدث في وَسَطِ الشتاء أن استيقظ أهلُ جنيفَ في مدينتهم هذه عند منتصف الليل بفعل العدو، فوجدوا بنادقهم قتل أن يجدوا أحديتهم، ومن يقول إن جنيف كانت لا تصيح قبضة العدو لو كان أهلها لا يَعْرِفون أن يسيروا حُفَاةً؟

ولُنَجِّزَ الإنسانَ دائمًا ضدَّ الحوادثِ المفاجئة، ولِيَرَكُضَ إميلُ حافيًا في كلِّ صباحٍ وفي جميعِ الفصول، وذلك في الغرفةِ وعلى الدَّرَجِ وفي الحديقة، وسَأَقْلُدُه بدلًا من توبيخه، وإنما سأعنى بإبعادِ الزجاج، ثُمَّ لِيَتَعَلَّمَ اتخاذَ جميعِ الخُطواتِ التي تُسهِّلُ نُشوءَ البدن، واتخاذَ وضعٍ سهلٍ متينٍ في جميعِ الأحوال، ولِيَعَلِّمَ الوثوبَ بعيدًا عاليًا، ولِيَعَلِّمَ الصعودَ في الشجرِ وتَسْوُرَ الجُدُرِ، ولِيَجِدَ توازنَه دائمًا، ولِتَكُنْ جميعُ حركاتِه وسكاته منتظمةً وَفَقَ قوانينِ توازنِ الثَّوى المتعادلة، وذلك قبل أن يُوضِحَ عِلْمُ توازنِ الأجسامِ تلكَ القوانينَ له، ويجب أن يَشْعُرَ بأنه في وضعٍ حسنٍ أو سيئٍ من حيث الوجهِ الذي يَضَعُ رِجْلَه به على الأرضِ والحالِ التي يكون بها جسمُه على ساقه. وللوضعِ الوطيدِ رُوْعُهُ دائمًا، وتُعَدُّ امتنُّ الهيئاتِ أظرفها، ولو كنتُ مُعَلِّمَ رقصٍ ما أتيتُ جميعَ قَرْدِيَّاتِ ما رَسَلِ^{٣٠} الملائمةَ للبلدِ الذي جعلها فيه، ولكنني آتي بتلميذي إلى أسفلِ صخرةٍ بدلًا من شَغْلِهِ بقفزاتٍ إلى الأبد؛ فهناك أظهِرُ له الوضعَ الذي يتَّخذ، وكيف يكون حالُ بدنه ورأسه، وأيُّ الحركاتِ يأتي، والنَّمطِ الذي يَضَعُ به رِجْلَه تارةً ويده تارةً أخرى للسَّيرِ سيرا خفيًا في الدُّروبِ الوَعرةِ الصعبةِ المُتعبة، وللوثوبِ من نقطةٍ إلى أخرى صاعدًا ونازلًا، فأجعله يُباري أَيْلًا لا راقصًا في الأوبرا.

وعلى نسبةٍ ما تَجْمَعُ حاسةُ اللمسِ أعمالها حَوْلَ الإنسانِ تُوسِّعُ حاسةُ البصرِ أعمالها بعيدةً منه، وهذا ما يجعل هذه الحاسةَ خادعة، وذلك أن الإنسانَ يشتمل على نصفِ أُفُقِهِ في لمحِّةٍ بصر، وكيف لا يتطرَّقُ الخطأُ حَوْلَ واحدٍ من جَمْعِ هذه الإحساساتِ الحادثةِ في وقتٍ واحد، وحول ما تُثير من آراء؟ وهكذا فإن حاسةَ البصرِ أكثرُ حواسنا خطأً؛ وذلك لأنها أوسعُ الحواسِّ مَدَى؛ وذلك لأنها إذ تَسِيْقُ الحواسِّ الأخرى بمساوِفَ تكون أعمالها عاجلةً جدًّا متسِّعةً

^{٣٠} مُعَلِّمَ رقص مشهور بباريس، كان يُعْرِفُ جماعته جيِّدًا، فيأتي ما هو أرعن بالحيلة، فيعلق على فَنِّهِ من الأهمية ما يحمل معه أكبرَ تقدير له في الأساس، وإن كان يُرى مضجكًا. واليوم لا يزال يُرى في فنِّ آخَرَ ممثلٌ هنليّ جامع بين المهَمِّ والأرعن، فيلاقي من النجاح ما ليس أقلَّ من ذلك، ويكون هذا الأسلوبُ في مأمنٍ بفرنسةٍ دائمًا، ولا حظَّ فيها للنبوغِ الحقيقي الأكثرِ بساطةً والأقلَّ خداعًا مطلقًا، ويُعَدُّ الحياءُ فيها فضيلةً الأغبياء.

جدًا، فلا يمكن أن تقوم بتلك الحواس، وذلك إلى أن الوهم حوّل المنظورات أمرً ضروريًا للوصول إلى معرفة المساحة وقياس ما بين أجزائها، ولولا الظواهر الخادعة ما رأينا شيئًا في البعد، ولولا تسلسل الحجم والضياء ما استطعنا تقدير أية مسافة كانت، وإن شئت فقل إن المسافة لا يكون لها وجودٌ عندنا، ولو بدت لنا إحدى الشجرتين المتساويتين البعيدة منّا مائة خطوة، كبيرةً جليةً كالشجرة الأخرى البعيدة عشرَ خطوات لوضعناها بجانب هذه، ولو كُنّا نُبصر جميع أبعاد الأشياء وفق قياسها الحقيقي ما رأينا أية مسافة كانت، ولَبدنا الجميع على عيوننا.

ولا يوجد للحكم في حجم الأشياء ومسافتها غير قياس واحد؛ أي فتحة الزاوية التي نُحدثها في عيوننا. وبما أن هذه الفتحة معلولٌ بسيطٌ لعلّةٍ مركّبة، فإن ما تُشير من حكمٍ فينا يدعُ كلَّ علّةٍ خاصةٍ غير معينة، أو يغدو خاطئًا بحكم الضرورة؛ وذلك لأنه كيف يُمازُ بالعين المجردة كونُ الزاوية التي يبدو الشيء بها أصغر من الآخر هي إياها لأن هذا الشيء الأوّل معلولٌ أصغر لها، أو لأنه أكثرُ بُعدًا؟

ويجب أن يُتّبع هنا منهاجٌ مباينٌ للسابق إذن، وذلك أن يُجعلُ البصرُ خاصًا لعضو اللّمس بدلًا من تسييط الإحساس وتضعيفه وتحقيقه بإحساسٍ آخرٍ دائمًا؛ ومن ثمّ أن تُرجز صولة الحاسة الأولى باتّناد الحاسة الثانية وانتظامها. وبما أننا لم نُخضع أنفسنا لهذه العادة، فإن قياساتنا بالتقدير تكون مختلفةً جدًّا، وليس لنا بلمحة البصر أيّ دقّة للحكم في الارتفاع والطول والعمق والمسافات، ويبدو الدليل على أن الخطأ بالعادة أشدُّ مما بالحاسة في كون المهندسين والمساحين والمعماريين والبائنين والمصوِّرين على العموم ذوي لمحةٍ أحكم كثيرًا مما لدينا، وفي كونهم يُقدرون قياسات الاتساع ياتقانٍ أعظم مما نقوم به؛ وذلك لأن مهنتهم إذ تمنحهم في ذلك من التجربة ما تُهمل اكتسابه فإنهم يُزيلون الالتباس من الزاوية بالظواهر التي تلازمها والتي تُعيّن في أعينهم ما بين سببي هذه الزاوية من نسبةٍ تعيينًا دقيقًا.

ويُسْهَلُ على الأولاد أن ينالوا دائمًا كلّ ما يَمْنَحُ الجسم حركةً من غير أن يُضايق، ويوجد ألفٌ وسيلةٌ تخفّضهم إلى قياس المسافات ومعرفتها وتقديرها. وها هي ذي شجرة كرزٍ عاليةً جدًّا، فما نَصْنَعُ لاقتطاف الكرز؟ وهل يَصْلُحُ سلّمُ النَّبْرِ^{٣١} لهذا؟ وها هو ذا جدولٌ عريضٌ جدًّا، فكيف يُعبّر؟ وهل يُوضَعُ لوحٌ من الخَوْش على ضِفْتَيْهِ؟ وإذا أردنا أن نصطاد من نوافذنا سَمَكًا في

^{٣١} * النَّبْرِ: بيتُ التاجر الذي تُنصَد فيه الغلال والمتاع.

خنادق القلعة، فكم يجب أن يكون عددُ باعاتِ قَصَبَتِنَا؟ وإذا أردتُ وضعَ أرجوحةٍ بين هاتين الشجرتين، فهل يكفينا جبلٌ طوله اثنتا عشرة قدمًا؟ ويُقال لي إن غرفتنا في المنزل الآخر ستكون خمسًا وعشرين قدمًا مربعة، فهل تظنُّون أنها ثلاثنا، وهل تكون أكبر من هذه؟ ونحن نلتهب جوعًا؛ ففي أيِّ القريتين هاتين ننالُ غداءً بأسرع ما يمكن؟ ... إلخ.

وكان يُرادُ أن يُدرَّبَ على الركضِ ولدٌ مكسألٌ بطيءٌ غيرُ راغبٍ هذا التمرينَ أو ذاك، وإن كان يُعدُّ للجندية، ومما حدث أن أقنع - ولا أدري كيف - بأنه لا يُطلبُ ممن هو من طبقته أن يفعلَ شيئًا ولا أن يعلمَ شيئًا، وبأن شرفه يقوم مقامُ الدُرْعانِ والسِّيقانِ كما يقوم مقامُ جميعِ أنواعِ المزايا، فلا تكاد تكفي حتى حيلةُ شيرونَ لتجعلَ من مثلِ هذا الشريفِ أشيلاً ذا رَجُلٍ خفيفة، وكان الأمرُ يَريدُ صعوبةً بعزْمي على عدمِ أمره بشيء، وقد تنزَّلتُ عن حقوقي في التحريضِ والوعدِ والوعيدِ والمباراةِ وحُبِّ الظهورِ، وكيف أجعله يريدُ العدوَّ من غيرِ أن أقولَ له شيئًا؟ إن العدوَّ بنفسِي وسيلةٌ مضمونةٌ قليلًا وذاتُ محذور. ثمَّ إنه كان من المطلوبِ أن أستخرجَ من ذلك التمرينِ معارفَ له أيضًا، وذلك تعويديًا لأعمالِ الآلةِ وأعمالِ الرأيِ أن تسيرا جنبًا إلى جنبٍ دائمًا، وإليك ما سلكتُ أنا الذي يتكلم في هذا المثال:

كنتُ حينَ أذهبُ للنزهةِ معه في أوقاتِ العصرِ أصعُ في جيبِي أحيانًا قطعتينِ من الحلوى التي يُحبُّ كثيرًا، وكان كلُّ مِنَّا يأكلُ واحدةً منهما حينَ النَّزهةِ،^{٣٢} ثمَّ نعودُ مسرورين. ومما أفضرتُ ذاتَ يومٍ، وجودُ ثلاثِ قطعٍ معي، وكان يمكنه أن يأكلَ ستًّا منها من غيرِ أن يُزعجَ، ويُسرِعَ في أكلِ قطعته ليطلبُ مني الثالثة، وأقولُ له: كلاً، إنني سأكلها، أو نقتسمها بيننا. ولكنني أفضّلُ أن يتنازعا ذانك الغلامان الصغيران فينالها الفائزُ في تسابقهما عدوًا، وأناديهما وأريهما قطعةً الحلوى وأعرضُ عليهما الشرطَ، ولم يطلبًا ما هو خيرٌ من هذا. وتوضَعُ الحلوى على حَجَرٍ كبيرٍ أتخذُ هدفًا، وتُعَيِّنُ المسافةُ ونذهبُ لنجلسَ وتُعطى الإشارةُ، وينطلقُ الغلامان الصغيران، ويقبضُ الفائزُ على الحلوى ويأكلها بلا رحمةٍ على مرأى من الحُضُورِ والمغلوبِ.

وكانت هذه الألهوةُ خيرًا من الحلوى، ولكنها لم تُؤثِّرَ في بدءِ الأمرِ ولم تأتِ بنتيجة. ولم أياس، ولم أستعجل؛ فتعليمُ الأولادِ مهنةً تقضي بإضاعةِ الوقتِ كسبًا منه. ونُداومُ على نُزْهِنا،

^{٣٢} النَّزهةُ الريفيةُ كما يُرى بعد قليل. وأمَّا النَّزهةُ العامةُ في المدنِ فهي تُضرُ الولدَ من الجنسين؛ ففي هذه النَّزهةِ يصيرُ الأولادُ مختالين ومحلَّ نظر. وفي اللكسنبرغ والتويلري، ولا سيَّما الباله رويال، تقتبسُ شبيبة باريس الرائعة ذلك الوضع الماجن الوقح الذي يجعلها موضعَ سخرية وهزوء وازدراء في جميع أوروبا.

وتؤخذ ثلاث قطع من الحلوى غالبًا، وتؤخذ أربع قطع منها أحيانًا، ويكون معنا في الحين بعد الحين قطعة واحدة أو قطعتان للعدائين، وإذا لم تكن الجائزة كبيرة لم يكن من يتنازعوها من ذوي الطمع، وإنما كان الفائز بها محلّ ثناء واحتفال. وكان كل شيء يتم بأبهة، وكنت أجعل المسافة أطول مما هي عليه، وأشرك فيها كثيرًا من المتبارين توسيعًا لنطاق العدو وزيادة في الإمتاع. ولا يكاد المتبارون يبدءون بالسياق حتى يقف المارون لمشاهدتهم، وكان يُشجعهم الهتاف والصراخ والتصفيق. وكنت في بعض الأحيان أرى الصبي يهتز وينهض ويصرخ عندما يكاد أحد المتبارين يبلغ الآخر أو يسبقه؛ فكانت هذه ألعابًا أُنبيءًا بالنسبة إليه.

ومع ذلك فإن المتبارين كانوا يستعملون الخداع أحيانًا؛ فيتحاجزون تبادلًا، أو يُسقط بعضهم بعضًا، أو يدفع الواحد منهم في طريق الآخر خصبًا، فيجهّزني هذا بسبب لفصل بعضهم عن بعض، ولجعلهم ينطلقون من أماكن مختلفة على أبعاد متساوية من الهدف، وسترون علة هذا الخدع عما قليل؛ وذلك لأنني سأعالج هذا الأمر المهم مفصّلًا.

ويسأم السيد الشريف من أن يرى على عين منه دائمًا خلأوى تُحرّك شهوته، فيدور في خلدّه أخيرًا أن حُسن العدو يُمكن أن يكون صالحًا لشيء ما، وهو إذ يرى لنفسه ساقين أيضًا يأخذ في اختبار نفسه سرًا. وأحترز من رؤية شيء، ولكن مع إدراكي أن خطّتي نجحت. ولمّا اعتقد أنه ذو قوّة كافية - وهذا ما أبصرته - تظاهر بإزعاجي في سبيل حيازته قطعة الحلوى الباقية، وأرفض، ويصر، وأخيرًا يقول لي بلهجة الغاضب: «حسنًا! ضَعها على الحجر، وعين الميدان، وسرى.» وأقول له ضاحكًا: «حسنًا! هل يستطيع الشريف أن يركض؟ ستشدد فيك شهوة الطعام من غير أن تنال ما تقضيها به.» ويُنخز بسخريتي فيبذل جهده، وينال الجائزة بسهولة لما كان من جعلني هذا السباق قصيرًا وإقصائي منه أحسن عداء. وليس من الصعب أن يُتصوّر بعد هذه الخطوة الأولى كيف سهّل عليّ أن أستكده،^{٣٣} * ولسرعان ما بلّغ من الوَلع بهذا التمرين ما صار يطمئن معه تقريبًا إلى الفوز على الأولاد الآخرين من غير محاباةٍ مهما كان السباق طويلًا.

وأظفّر بهذا النصر، فينشأ عنه من النتائج ما لم يخطر ببالي، وكان يفوز بالجائزة على نُدرة، فيأكلها وحده دائمًا تقريبًا، وذلك كما كان يصنع منافسوه، ولكنه لمّا تعود النصر أصبح كريمًا، وصار يقاسم المغلوبين إياها، وهذا ما زوّدني بملاحظة أدبية عرفتُ بها مبدأ الكرم الحقيقي.

^{٣٣} * استكده: طلب منه الاشتداد في العمل.

وعلى ما كان من استمراري على تعيين الحدود في مختلف الأماكن؛ حيث يجب أن ينطلق كل واحد معاً، كنتُ أجعل المسافات متفاوتةً من غير أن يشعر، وبهذا كان يلحقُ ضررٌ بينَ بالذي يجب عليه أن يسيرَ أكثرَ من الآخرِ وصولاً إلى الهدفِ نفسه، ولكنني مع تركِ الخيارِ لتلميذي كان هذا التلميذُ لا يَعْرِفُ الانتفاعَ به، وذلك أنه كان يُفضّلُ أجملَ الطُّرُقِ غيرَ مبالٍ بالمسافةِ دائماً، وذلك مع بصري خياره بسهولة، فكنتُ أسيطرُ تقريباً على فوزه بالحلوى أو حُسره لها، كما أريد، وكانت لهذه الشطارةِ فائدةٌ لأكثرَ من غاية. ولكن بما أن مقصدي قام على إدراكه الفرق؛ فقد سَعيتُ أن أجعلَ هذا الفرقَ ظاهرًا لديه، ولكنه وإن كان بليدًا عند الهدوء، كان كثيرَ النشاطِ في ألعابه بالغِ الثَّقةِ بي، فأبدلُ كلَّ عناءٍ لجعله يُدركُ أنني أَعْشُهُ في اللعب، وأخيرًا أبلغُ غايته على الرغم من طيشه، فيلومني على ذلك، وأقول: «من أيّ شيء تشكوك؟ أمنَ أجلِ هبةٍ أريدُ حُسْنَ وضعها وأنا صاحبُ شروطها؟ ومن ذا الذي يُكرهك على العُدو؟ وهل وعدتُك بأن أجعلَ الأشواطَ متساوية؟ ألم يكن لك الخيار؟ التزمَ أقصرَها، فلا شيء يمنعك من ذلك، وكيف لا ترى أنك أنت الذي أحابي، وأن التفاوتَ الذي تتدبَّرُ منه قد جعلَ نفعاً لك لو كنتَ تعرفُ أن تستفيدَ منه؟» والأمر واضح، وقد أدركه، وقد وجب أن يُنظرَ إليه عن كَثَبٍ ليختار. وأوّل ما أريدُ هو أن يَعُدَّ الخُطواتَ، غيرَ أن مقياسَ خُطواتِ الولدِ بطيءٌ قابلٌ للخطأ، ثمّ إنني رأيتُ أن أكثرَ السباقاتِ في اليوم الواحد. وبما أن اللهو أصبح نوعاً من الوَلعِ فقد أَسَفَ الولدُ على إنفاقِ الوقتِ المُعدِّ للعدوِّ في قياسِ الأشواط. والواقعُ أن نشاطَ الولدِ يَأبَى مثلَ هذا البطوء؛ ولذا فقد دُرِّبَ الولدُ على حُسْنِ البصرِ والإصابة في تقديرِ المسافةِ بالنظر، وبذا لم أجدُ كبيرَ مشقةٍ في توسيعِ هذا التمييزِ وتغذيته. وأخيراً كان له ببضعة أشهرٍ في التجاربِ والأغاليطِ المصححة من تقديرِ الأبعادِ بالرؤية ما كنتُ إذا وضعتُ معه بالفكرِ قطعةً من الحلوى على شيءٍ بعيدٍ، أظهرَ في تعيينِ مسافتها بلمحةٍ تعيياً دقيقاً ما يَظْهَرُ بسلسلةِ المساحِ تقريباً.

وبما أن البصر هو أقلُّ ما يمكن فصلُهُ من الحواسِّ عن أحكامِ الذهن، فإنه لا بدُّ من انقضاءِ زمنٍ طويلٍ لتعلُّمِ الرؤية، ولا بدُّ من زمنٍ طويلٍ يُقضى في المقابلةِ بين حاسةِ البصرِ وحاسةِ اللمس؛ تعويذاً لأولى هاتين الحاستين أن تجعلنا ذوي صلةٍ صادقةٍ بالصُّورِ والمسافات. ولولا حاسةُ اللمس، ولولا الحركةُ التدريجية، ما كانت أنفذُ عيونِ العالمِ لتمنحنا أيّ فكرٍ عن الاتساع. ولا يجب أن يكون العالمُ كلُّه غيرَ نقطةٍ عند المَحَار، وما كان العالمُ ليبدو أكبرَ من ذلك، ولو أنبأَتْ هذا المَحَارَ نفسٌ بشريةً بذلك. وليس بغيرِ قوّةِ المشي واللمسِ والعدِّ والقياسِ ما نتعلَّمُ

تقدير أبعاد الأشياء، ولكن إذا ما قيسنا دائماً واعتمدت الحاسة على الآلة لم تُفّر هذه الحاسة بسدادٍ. وكذلك لا يجوز أن ينتقل الولد من القياس إلى التقدير دفعةً واحدة، وإنما يجب في البداية أن يداوم على المقابلة بين الأجزاء عندما لا يستطيع أن يقابل دفعةً واحدة، وذلك بأن يستبدل الكسور التقديرية بالكسور الصحيحة، فيتعود تطبيق القياس بالعين وحدها بدلاً من تطبيقه باليد دائماً. وأوّد مع ذلك أن يُحقّق عملياته الأولى بالقياسات الحقيقية حتى يُصحّح أغاليطه، وأن يتعلّم عند بقاء ظاهرٍ خادع في الحاسة تصحيحه بتمييزٍ أصلح من ذلك، ويوجد من المقاييس الطبيعية ما هو واحدٌ في جميع الأمكنة كقدم الإنسان وطول ذراعيه وقامته. وإذا ما قدر الولد ارتفاع طبقة من البناء أمكنه الانتفاع بمعلمه قياساً، وإذا ما قدر ارتفاع برج جرس أمكنه أن يقيسه بالبيوت، وإذا أراد أن يعرف فراسخ الطريق عدّ ساعات السير، ولكن على أن يصنع جميع هذا بنفسه، لا أن يصنع له شيء منه.

ولا يُمكن تعلّم تمييز اتساع الأجسام وحجمها جيّداً قبل أن يُتعلّم في الوقت نفسه معرفة أشكالها، حتى تقليدتها؛ وذلك لأن هذا التقليد لا يتوقّف من حيث الأساس على غير قوانين المناظر؛ لأنه لا يُمكن تقدير الاتساع بطواهرة من غير أن يُشعر بهذه القوانين بعض الشعور. ويحاول جميع الأولاد الذين هم كثيرو التقليد أن يرسموا، وأريد أن يكبّ إميل على هذا الفن، لا للفنّ نفسه ضبطاً، بل لتقويم باصرته وجعل يده مرنة. وليس من المهم على العموم أن يُمارس هذا أو ذلك، وذلك على أن يكتسب بهذه الممارسة بصيرة الحسّ وحسّن عادة البدن؛ ولذا فإنني أحتزّر كثيراً من تعيين مُعلّم رسم له لا يحمله على غير تقليد مُقلّدات، ولا يجعله يرسم من غير الرسوم، وأقصد بذلك ألا يكون له غير الطبيعة أستاذ، وغير الأشياء نموذج، وأريد أن يكون الأصل نفسه تحت عينيه، لا الورقة التي تعرضه، كما أريد أن يرسم بالقلم الرصاصي بيتاً عن بيتٍ وشجرة عن شجرة ورجلاً عن رجلٍ حتى يتعود ملاحظة الأشياء وظواهرها جيّداً، لا أن يعدّ من التقليد الحقيقي ما هو زائفٌ اتفاقيّ من التقليدات. وسأحوّله أيضاً عن رسم شيءٍ اعتماداً على الذاكرة عند عدم وجود المواد، وذلك إلى حين انطباع صورتها في مُخيّلاته انطباعاً صحيحاً عن ملاحظاتٍ متتابعة، وذلك خشيةً فقدته معرفة النسب وذوق محاسن الطبيعة عن استبداله بحقيقة الأشياء صوراً غريبةً وهميةً.

وأعرف جيّداً أنه سيُسيء الرسم على هذا الوجه زمنًا طويلاً قبل أن يصنع ما تسهّل معرفته، وأنه سيتأخّر في اقتباس رشاقة الخطوط ورسم المصورين الخفيف، ومن المحتمل ألا ينال على الإطلاق ما عند المصوّر من بصرٍ في الأشياء الماثلة وحسن ذوقٍ في الرسم، وهو بالمقابلة

سينال بصراً أكثر إصابةً ويداً أكثر إحكاماً، ومعرفةً لما بين الحيوانات والنباتات والأجسام الطبيعية من نسبٍ حقيقية في الحجم والصورة، وتجربةً سريعةً في أثر المناظر، وهذا ما أردتُ صنعه تمامًا. ولم أهدف إلى معرفته تقليد الأشياء كعلمه بها، فأفضل أن يُرَيَّي نبات الأَقْنَنَة على إجادته رسم أوراق تاج لعمود.

ثم إنني لا أزمع أن لتلميذي وحده لهواً في هذا التمرين وغيره، بل أريد أن أجعله أكثر طيباً له أيضاً، وذلك بأن أقاسمه إياه دائماً، ولا أريد أن يكون له منافسٌ غيري مطلقاً، ولكنني أكون له منافساً بلا مهلٍ ولا خطرٍ، وهذا ما يحمله على الاكتراث لأشغاله من غير أن يُثِير حسداً بيننا. وسأتناول القلم الرصاصي على مثاله، وسأستعمله في بدء الأمر استعمالاً سيئاً كما يصنع، وسأكون مثلاً أبلاً، فلا أجدني غير رديء الرسم، وسأبدأ برسم رجلٍ كما يرسم الخدم على الجدران، فأجعل خطأً لكل ذراع وخطأً لكل ساق، وأجعل أصابع أضخم من الذراع، وسيدرك كل منّا عدم التناسب هذا بعد زمن، وسلاحظ أن للساق ثخنًا، وأن هذا الثخن ليس واحدًا في كل موضع، وأن للذراع طولاً معيناً بالنسبة إلى الجسم ... إلخ. وسأسير في هذا التدرج بجانب تلميذي، أو إنني أسبقه قليلاً حتى يسهل عليه أن يصل إليّ دائماً وأن يتقدمني غالباً. وستكون لدينا أصابع وأرياش، وسنحاول تقليد ألوان الأشياء ومظهرها وصورتها، وسنلون، وسنزين، وسنسيء التصوير، ولكننا لن ننقطع عن ترصد الطبيعة في تصويرنا الرديء، ولن نصنع شيئاً غير واقع تحت عيني هذا الأستاذ.

وكنا في همٍّ من أجل زخارف غرفتنا، وها هي ذي واقعة الآن تحت أيدينا، وسنضع رسومنا ضمن أطر، وسنطيقها بزجاج جميلٍ لكيلا يمسها أحد، فإذا رآها كل واحدٍ منّا باقيةً على الحال التي وضعناها فيها وجد من المصلحة ألا يُهمَل رسومه. وأرتبها حول الغرفة ترتيباً منتظماً، ويدلُّ كل رسمٍ مكرَّرٍ عشرين مرةً أو ثلاثين مرةً، على تقدُّم الواضع في كل نسخةٍ تقدُّماً يترجَّح بين الحين الذي كان البيت فيه مُربَّعاً غير مُهندمٍ والحين الذي كان فيه مقدَّم البناء ومظهره الجاني وظلاله على أصح ما يكون. ولا يفوت هذا التدرج أن يعرض علينا بلا انقطاع ألواحاً ممتعةً لنا جالبةً لأبصار الآخرين، وأن يُحرِّك تنافسنا دائماً، وأضع للأولى من هذه الرسوم ولأغلظها أطراً على جانبٍ من اللمعان والتمويه بالذهب إمعاناً في إظهارها. ولكن التقليد عندما يصبح أكثر دقةً ويكون الرسم حسناً حقاً، فإنني لا أضع له غير إطارٍ بسيطٍ جدًّا؛ فهو يعود غير محتاجٍ إلى زخرفٍ غير زخرفٍ نفسه؛ فمن الخسر أن يشاطر الوشي ما يستحقه الشيء من انتباه. وهكذا يتوق كل واحدٍ منّا إلى فخَر الإطار غير المُدبَّج، ومتى أراد أحدنا ازدراء رسم الآخر حكَّم عليه بإطارٍ مُموَّه

بالذهب، ومن المحتمل أن تذهب هذه الأطر المذهبة مثلاً بيننا ذات يوم، فنقضي العجب من وجود أناسٍ كثيرين يدلُّون على حقيقتهم بوضعهم أنفسهم ضمنَ أطرٍ على هذا الوجه.

وقد قلتُ إن علمَ الهندسة ليس في متناولِ الأولاد، ولكن هذا ذنبنا، ونحن لا نشعر بأن منهاجهم غيرُ منهاجنا مطلقاً، وبأن ما يصحُّ فنَّ برهنةٍ لنا لا ينبغي أن يكون لهم غيرُ فنِّ الرؤية. وأفضلُ لنا أن نتخذ منهاجهم من أن نمنحهم منهاجنا؛ وذلك لأن أسلوبنا في تعليم علم الهندسة هو عملٌ خيالي كما هو عملُ برهنة، فمتى بسطت قضيةً وجب تحيُّل دليلها؛ أي أن تُوجد القضية المعروفة مُقدِّماً فيجب أن تكونَ هذه القضية نتيجةً لها، وأن تُختار هذه النتيجة من بين جميع النتائج التي يُمكن استخراجها من ذات القضية.

وهكذا فإن أدقَّ المُبرهنين يبقى ضيقُ النطاقِ إذا لم يكن مُستتباً. وما ينشأ عن ذلك؟ ينشأ عن ذلك إملاءُ البراهين علينا بدلاً من حملنا على اكتشافها، وكونُ المُعلِّم يُبرهن من أجلنا بدلاً من تعليمنا البرهنة، فلا يُمرن غيرَ ذاكرتنا.

واصنعوا صوراً متقنة، ورتبوا، وضَعُوا بعضها فوقَ بعض، وافحصوا ما بينها من نسب، تجدوا جميعَ علم الهندسة الابتدائية سائراً من ملاحظةٍ إلى أخرى، وذلك من غيرِ سؤالٍ ولا تعريفاتٍ ولا مسائلٍ ولا أيِّ شكلٍ برهانيٍّ آخرٍ غيرِ التنفيذِ البسيط. وأما أنا فلا أزعجُ أنني أعلمُ إميلَ الهندسة مطلقاً، وإميلُ هو الذي يُعلِّمني إياها، وأبحثُ عن النَّسبِ ويجدُها؛ وذلك لأنني أبحثُ عنها على وجهٍ أخفِزُه به إلى اكتشافها. ومن ذلك أنني بدلاً من استخدام بيبكارٍ لرسم دائرة، أرسمها بقلمٍ رصاصيٍّ في طَرْفِ خيطٍ دائريٍّ حول قُطب، وإذا أردتُ بعد ذلك أن أقابلَ بين أنصافِ قُطرِ الدائرة ضحكِ إميلٍ منِّي وأراني أن عينَ الخيطِ المشدودِ دائماً لا يُمكن أن يرسم مسافاتٍ متفاوتة.

وإذا أردتُ قياسَ زاويةٍ ذاتِ ستين درجةً رسمتُ من رأسِ هذه الزاوية دائرةً بكاملها لا قوساً؛ وذلك لأنه لا ينبغي أن يُضمَّن للأولاد شيء، وأجدُ أن جزءَ الدائرة الواقع بين ضلعي الزاوية هو سُدسُ الدائرة، وأرسم من ذاتِ الرأسِ بعد ذلك دائرةً أكبرَ من تلك وأجدُ أن هذه القوسِ الثانية هي سُدسُ دائرتها أيضاً، وأرسم دائرةً ثالثةً مشتركةً المركزِ وأقومُ عليها بذاتِ التجربة، وأداومُ على عينِ الاختبارِ في دوائرٍ جديدةٍ إلى أن يغتاطَ إميلُ من غباوتي فيخبرني بأن كلَّ قوس، صغيرةٍ أو كبيرة، تشتمل عليها ذاتُ الزاوية تكون الجزء السادس من دائرتها... إلخ. وها نحن أولاء نستعمل المنقلة الهندسية عما قليل.

وثرسُم دائرةً لإثباتِ كونِ الزاويتين المتجاورتين مساويتين لزاويتين قائمتين، وأما أنا فأصنع

على العكس ما يلاحظ إميل به هذا في الدائرة أولاً، ثم أقول له: «إذا ما أزلنا الدائرة وتركنا الخطوط المستقيمة، فهل تُبدل الزاويتان حجمهما ... إلخ؟»

وتُهمل الدقة في الأشكال لافتراضها، ويُعنى بالإنبات، وعلى العكس لا نبالي بالإنبات، وسيكون أهم شيء عندنا أن نرسم خطوطاً مستقيمة جداً دقيقة جداً متساوية جداً، وأن نصنع مُرَبَّعاً كاملاً جداً، وأن نُحَطِّطَ دائرةً حسنة الاستدارة، وسندرس الشكل بجميع خصائصه المحسوسة تحقيقاً لدقته، وسيُتيح لنا هذا فرصة اكتشاف خصائص جديدة كل يوم، وسنشتي نصفَي الدائرة من القطر، وسنشتي نصفَي المربع من الزاويتين المتقابلتين، وسنقابل بين الشكلين لنرى أيهما أدق أطرافاً؛ ومن ثم أتقن صنعا، وسنتباحث حول وجود هذه المساواة في التقسيم في المسطحات المتوازية الأضلاع والمربعات المنحرفة ... إلخ، دائماً أو لا، وسنحاول أحياناً أن نُبَصِّرَ نجاح التجربة قبل القيام بها، وسنسعى في اكتشاف الأسباب ... إلخ.

وليس علم الهندسة عند تلميذي غير حُسن استخدام المسطرة والبيكار، ولا ينبغي له أن يخلطَ بينه وبين الرسم حيث لا يستعمل من هاتين الآلتين هذه ولا تلك، فسيقفل على المسطرة والبيكار بالفتح، ولن يؤذن له في استعمالها إلا نادراً ولوقت قصير، وذلك لكيلا يتعود إساءة التصوير، ولكننا نستطيع أن نحمل أشكالنا في نُزُهنا أحياناً لتكلم عمّا صنعناه وعمّا نريد صنعه.

ولن أنسى أنني شاهدت فتى في ثورين عُلم في صباه ما بين الاستدارات والسطوح من نسب، وذلك بأن يترك له كل يوم أن يختار من الأشكال الهندسية ما تساوت استدارته طولاً، وقد استفد هذا النَّهْمُ الصغيرُ فنَّ أرشميدس ليجد الشكل الذي كان يوجد فيه أكثر ما يُؤكل.

ومتى أطار الولد طيارة ورق مَرْن عيَّنه وذراعَه على الإحكام، ومتى ساطَ خذُروفاً زاد قُوَّته باستعمالها، ولكن من غير أن يتعلم شيئاً. وقد سألت في بعض المرات عن السبب في أنه لم يُعْرَضَ على الأولاد من الألعاب القائمة على البراعة كالتي يقوم بها الرجال، كالتنس والبولجانب والبييار والتبُّل والكُرَّة وآلات الطرب، وقد أُجبت بأن بعض هذه الألعاب فوق قُوَّاتهم، وبأن أعضاءهم وحواسهم ليست من النمو ما تقوم معه ببعضها الآخر. وأجد هذه الأسباب واهية؛ فليس للولد قامه الرجل ولكنه يلبس مثل ثوبه. ولا أعني أن يلعب بقضباننا بلياراً بالغاً من الارتفاع ثلاث أقدام، ولا أقصد أن يلعب بالكرة في ملاعبنا، أو أن تُحمَل يده الصغيرة مضرِباً من مضاربنا، وإنما أريد أن يلعب في رذْهية تُضمَّن نوافذها، فلا يستعمل في البداءة غير كرات رَحْوَة، وتكون مضاربُه الأولى من خَشَبٍ ثم من رَقٍّ ثم من وترٍ من الأمعاء مشدودٍ بنسبة تقدُّمه،

وَتَفْضَلُونَ الطَّيَارَةَ الْوَرَقِيَّةَ لِأَنَّهَا أَقْلُ إِتْعَابًا وَلَا تَنْطَوِي عَلَى خَطَرٍ، وَلَسْتُمْ عَلَى حَقِّ فِي هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ؛ فَالطَّيَارَةُ الْوَرَقِيَّةُ مِنَ أَلْعَابِ النِّسَاءِ، وَلَكِنِّكَ لَا تَجِدُ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ لَمْ تَفِرَّ مِنْ كُرَّةٍ مَتَحْرِكَةٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِحُلُودِهِنَّ الْبَيْضِ أَنْ تَخْشَنَ بِالرَّضِ، وَلَا تَنْتَظِرَ وَجُوهَهُنَّ جَرُوحًا. وَأَمَّا نَحْنُ، الَّذِينَ خُلِقُوا لِيَكُونُوا أَقْوِيَاءَ، فَهَلْ نَكُونُ هَكَذَا بِلَا مَشَقَّةٍ؟ وَأَيُّ دِفَاعٍ نَقْدِرُ عَلَيْهِ إِذَا لَمْ نُهَاجِمَ قَطُّ؟ يَقُومُ النَّاسُ دَائِمًا بِالْعَابِ لَا يَنْطَوِي الْخَطَأَ فِيهَا عَلَى خَطَرٍ، وَلَا تُؤْذِي الطَّيَارَةُ الَّتِي تَسْقُطُ أَحَدًا، وَلَكِنْ لَا شَيْءَ يَجْعَلُ الدَّرْعَانَ لِينَةً كَحَفِظِ الرَّأْسِ، وَلَا شَيْءَ يَجْعَلُ الْبَصَرَ صَائِبًا كَصَائِبِ الْعَيُونِ. وَأَلْعَابُ كَالْوُثُوبِ مِنْ طَرَفِ رَذَاهَةٍ إِلَى طَرَفِهَا الْآخِرِ وَكَتَقْدِيرِ نَطَّةِ كُرَّةٍ لَا تَزَالُ فِي الْهَوَاءِ وَإِعَادَتِهَا بِيَدٍ قَوِيَّةٍ وَطَيِّدَةٍ؛ أَقْلُ مَلَاءَمَةٌ لِلرَّجُلِ مِنْ صِلَاحِهَا لِتَكُونِيَنَهُ.

وَيُقَالُ إِنَّ أَلْيَافَ الْوَلَدِ رَخْوَةٌ جَدًّا، وَهِيَ أَقْلُ قُوَّةً مِمَّا لَدَى الرَّجُلِ، وَلَكِنَّهَا أَكْثَرُ مَرُونَةً، وَذِرَاعُ الْوَلَدِ ضَعِيفَةٌ، وَلَكِنَّهَا ذِرَاعٌ فِي آخِرِ الْأَمْرِ، وَيَجِبُ أَنْ يُصَنَعَ بِهَا مَعَ حَفِظِ النَّسْبَةِ كُلُّ مَا يُصَنَعُ بِأَلَّةٍ مِثَالِهَا أُخْرَى، وَلَا يَوْجَدُ لِلْأَوْلَادِ فِي أَيْدِيهِمْ أَيُّ حَذَقٍ كَانَ؛ وَلِذَا فَإِنِّي أُرِيدُ مِنْحَهُمْ إِيَّاهُ، وَلَيْسَ عِنْدَ الرَّجُلِ الْقَلِيلِ التَّدْرِيْبِ أَكْثَرُ مِمَّا عِنْدَهُمْ، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ عَادَةَ أَعْضَائِنَا قَبْلَ اسْتِعْمَالِهَا، وَلَا يَوْجَدُ غَيْرُ تَجْرِبَةٍ طَوِيلَةٍ وَاحِدَةٍ نَتَعَلَّمُ بِهَا الْإِنْتِفَاعَ بِنَفْسِنَا، وَهَذِهِ التَّجْرِبَةُ هِيَ الدَّرْسُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ نُقْبِلَ عَلَيْهِ بِأَكْرًا.

وَكُلُّ مَا يُصَنَعُ مُمْكِنٌ صُنْعُهُ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَكْثَرُ شَيْعًا مِنْ أَنْ يُرَى أَوْلَادٌ مَهْرَةً رَشَقًا حَازِرُونَ فِي أَعْضَائِهِمْ عَيْنَ الرَّشَاقَةِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ فِي الرَّجُلِ. وَنُشَاهِدُ فِي جَمِيعِ الْأَسْوَاقِ تَقْرِيْبًا مِنَ الْأَوْلَادِ مَنْ يَرْتَجِحُونَ وَيَمَشُونَ عَلَى أَيْدِيهِمْ وَيَقْفِرُونَ وَيَرْقُصُونَ عَلَى الْحَيْلِ، وَمَا أَكْثَرَ السَّنِينَ الَّتِي اجْتَذِبَتْ فِيهَا كِتَابُ مِنَ الْأَوْلَادِ بِرَقْصَاتِهَا الرَّمْزِيَّةِ جُمُوعًا مِنْ حُصَّارِ الْكُمَيْدِيَّةِ الْإِيطَالِيَّةِ! وَمَنْ ذَا الَّذِي لَمْ يَسْمَعْ فِي أَلْمَانِيَّةِ وَإِيطَالِيَّةِ حَدِيثًا عَنْ كِتَابَةِ التَّمْثِيلِ بِالْإِشَارَاتِ لِنِيكُولِيْنِي الشَّهِيرِ؟ وَهَلْ لَاحِظَ أَحَدٌ فِي هَوْلَاءِ الْأَوْلَادِ حَرَكَاتٍ أَقْلَ نَشْوَاءً، وَأَوْضَاعًا أَقْلَ ظُرَافَةً، وَأَذَانًا أَقْلَ سَدَادًا، وَرَقْصًا أَقْلَ خَفَّةً، مِمَّا فِي الرَّاقِصِينَ الْكَامِلِي التَّدْرِيْبِ؟ وَلَتُكُنَّ الْأَصَابِعُ ثَخِينَةً قَصِيرَةً قَلِيلَةً الْحَرَكَةِ فِي الْبُدْءِ، وَلَتُكُنَّ الْأَيْدِي سَمِينَةً قَلِيلَةً الْقَدْرَةِ عَلَى الْإِمْسَاكِ، فَهَلْ يَمْنَعُ هَذَا أَوْلَادًا كَثِيرِينَ مِنَ الْكِتَابَةِ أَوْ الرَّسْمِ فِي سَنٍّ لَا يَعْرِفُ آخَرُونَ فِيهَا إِمْسَاكَ الْيَرَّاعِ أَوْ الْقَلَمِ الرَّصَاصِيِّ؟ وَلَا تَزَالُ بَارِيْسُ بِأَسْرَهَا تَذَكُرُ أَمْرَ الْبِنْيَةِ الْإِنْكَلِيْزِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَأْتِي بِالْعَجَائِبِ عَلَى الْبِيَّانِ،^{٣٤} وَقَدْ رَأَيْتُ فِي مَنْزِلِ حَاكِمِ ابْنِ لِهْ بِالْعَا مِنْ الْعُمُرِ ثَمَانِي سِنِينَ كَانُ يُوضَعُ عَلَى الْمَائِدَةِ

^{٣٤} أتى غلام في السابع من عُمره ما هو أدعى إلى العجب بعد ذلك الحين.

فيبدو كالتمثال بين الأطباق، فيعزف على كمانٍ يعدل حجمه تقريباً، ويقضي حتى المتفنون العجب من إيقاعه.

وثبتت هذه الأمثلة ومائة ألف مثالٍ مماثلٍ أن ما يُعزى إلى الأولاد من عدم أهلية مفروضة في تمريناتنا أمرٌ خياليٌّ كما يلوح لي، وأن النجاح إذا لم يكتب لهم في بعضها كان هذا نتيجة عدم تدريبهم على ذلك مطلقاً.

وسيقال لي إنني أقع هنا من حيث البدن فيما أنجني باللائمة عليه من خطأ في تثقيف ذهن الأولاد قبل الأوان، والفرق عظيمٌ جداً؛ وذلك لأن أحد هذين التقدّمين ليس غير ظاهرٍ مع أن الآخر حقيقي، وقد أثبت أنهم غير حائزين للذهن الذي يلوح أنهم حائزوه، مع أنهم يفعلون جميع ما يظهرون أنهم فاعلوه، ثم إن من الواجب أن يدكر دائماً أنه لا يجوز أن يكون جميع هذا غير ما تطالبهم به الطبيعة من تسهيل الحركات وتوجيهها طوعاً، غير فنّ تحويل الهواتيم إلى ما هو أحلى منها، وذلك من غير أن يحولها أي ضغطٍ إلى عمل، وذلك مع السؤال أخيراً: أي شيء لا يتلّهون به، فلم أقدر أن أجعله موضع معرفة لهم؟ حتى إنني عند عدم استطاعتي صنع هذا لا يكون تقدّمهم في المعرفة مهمّاً كثيراً في الزمن الراهن ما داموا يتلّهون بلا ضررٍ وتقصون أوقاتهم مرحين، وذلك بدلاً من أنه إذا ما قضت الضرورة أن يتعلموا هذا أو ذاك عند كل مناسبة كان من المتعذر بلوغ هذا أو ذاك من غير إكراهٍ وكدرٍ وضجرٍ.

وما قلته عن الحاستين اللتين لهما من الاستعمال ما هو أدوم وأتمّ يُمكن أن يتخذ مثلاً للوجه الذي تُمارس به الحواس الأخرى، وتسرّي الباصرة واللامسة على الأجسام الساكنة والأجسام المتحركة على السواء، ولكن بما أنه لا يوجد غير اهتزاز الهواء ما يقدر على التأثير في حاسة السمع؛ فإنه لا يوجد غير الجسم المتحرك ما يحدث ضوضاءً وصوتاً، فإذا كان كل شيء ساكناً لم نسمع شيئاً مطلقاً. وفي الليل؛ حيث لا نتحرك إلا بمقدار ما تروقنا الحركة؛ لا نخشى إذن غير الأجسام التي تتحرك، فمن المهم أن تكون لنا آذان مرهفة، فنستطيع أن نحكم بالإحساس الذي يقرعنا في كون الجسم الذي يُوجبه كبيراً أو صغيراً، بعيداً أو قريباً، وفي كونه اهتزازاً عنيفاً أو ضعيفاً، ويكون الهواء المهتزّ عرضةً لانعكاساتٍ تُردده، وهذه الانعكاسات إذ تحدث أصداء، تُكزّر الإحساس وتجعلنا نسمع الجسم الصّخّاب أو الرنّان في مكانٍ غير المكان الذي يكون فيه، وإذا ما وضعنا الأذن على الأرض في سهلٍ أو وادٍ سمعنا صوت رجالٍ أو خطو خيلٍ أبعد كثيراً مما يكون لو بقينا واقفين.

وكما أننا قابلنا بين الباصرة واللامسة كان من الحسن أن نُقابل بين الباصرة وحاسة السمع،

وَأَنْ نَرَى أَيُّ الْأَثَرَيْنِ يَصِلُ بِأَسْرَعٍ مِنَ الْآخَرِ إِلَى غُضُوهِ إِذَا مَا صَدَّرَا عَنْ ذَاتِ الْجِسْمِ مَعًا، وَمَتَى رَأَيْنَا نَارَ مِدْفَعٍ أَمْكَنَّا اتِّقَاءَ الضَّرْبَةِ، وَلَكِنْ مَتَى سَمِعْنَا صَوْتَهُ عَادَ لَا يَكُونُ مِنَ الْوَقْتِ مَا يُمَكِّنُ ذَلِكَ مَعَهُ، فَالْقَدِيفَةُ تَكُونُ قَدْ وَصَلَتْ. وَمِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُحَكَّمَ فِي الْمَسَافَةِ عِنْدَ وَقُوعِ الرَّعْدِ بِفَتْرَةِ الزَّمَنِ الَّذِي يَنْقُضِي بَيْنَ الْبَرِيقِ وَالْهَزِيمِ، فَاصْنَعُوا مَا يَعْرِفُ الْوَلَدُ بِهِ جَمِيعَ هَذِهِ التَّجَارِبِ، وَلِيَأْتِ مِنَ التَّجَارِبِ مَا يَكُونُ فِي مَتَاوَلِهِ، وَلِيَجِدَ الْآخَرَى بِاسْتِقْرَانِهِ، يَبْدَأُ أَنِّي أَفْضَلُ مِائَةَ مَرَّةٍ جَهْلَهُ لَهَا عَلَى أَنْ تَقُولُوهَا لَهُ.

وَلَدِينَا عَضُوٌّ يَجَاوِبُ حَاسَةَ السَّمْعِ؛ أَيُّ عَضُوِّ الصَّوْتِ، وَلَيْسَ لَدِينَا مِنَ الْأَعْضَاءِ مَا يُجَاوِبُ حَاسَةَ الْبَصَرِ، فَلَا تُرَدِّدُ الْأَلْوَانَ كَمَا تُرَدِّدُ الْأَصْوَاتَ، ثُمَّ إِنْ هَذِهِ وَسِيلَةٌ لِتَعَهَّدَ حَاسَةَ السَّمْعِ بِتَمَرِينِ الْعَضُوِّ الْفَاعِلِ وَالْعَضُوِّ الْمُنْفَعِلِ مِبَادِلَةً.

وَلِلْإِنْسَانِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْأَصْوَاتِ، وَهِيَ: الصَّوْتِ الْمَتَكَلِّمِ أَوْ النَّاطِقِ، وَالصَّوْتِ الْمَعْنِيِّ أَوْ الْمَطْرِبِ، وَالصَّوْتِ الْعَاطِفِيِّ أَوْ الْمَعْبَرِ، وَيَصْلُحُ هَذَا الْأَخِيرُ لِسَانًا لِلْأَهْوَاءِ مُحَرِّكًا لِلشَّدْوِ وَالْكَلامِ. وَلِلْوَلَدِ هَذِهِ الْأَنْوَاعُ الثَّلَاثَةُ مِنَ الصَّوْتِ كَمَا لِلرَّجُلِ، وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ مَزْجَ مَا بَيْنَهَا، وَلِلْوَلَدِ مَا عِنْدَنَا مِنَ الصَّحْكَ وَالصُّرَاخِ وَالتَّوَجُّعِ وَالتَّدَاءِ وَالْأَنِينِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَنْ يَمزُجَ بَيْنَ هَذِهِ الْإِمَالَاتِ وَالصَّوْتَيْنِ الْآخَرَيْنِ. وَلَيْسَتْ الْمَوْسِيقَا الْكَامِلَةُ غَيْرَ الَّتِي تَوَلَّفَ بِأَحْسَنِ مَا يُمَكِّنُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَصْوَاتِ الثَّلَاثَةِ، وَيَعْرِجُ الْأَوْلَادُ عَنْ هَذِهِ الْمَوْسِيقَا، وَلَيْسَ لِغَنَائِهِمْ رُوحٌ مُطْلَقًا، وَكَذَلِكَ فِي الصَّوْتِ الْمَتَكَلِّمِ لَا تَجِدُ لِلْسَانِهِمْ نَبْرَاتٍ. وَهَمَّ يَصْرُخُونَ، وَلَكِنْ لَا يَسْتَبْرُونَ. وَكَمَا أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ فِي كَلَامِهِمْ نَبْرَةً إِلَّا نَادِرًا يَنْدُرُ وَجُودَ قُوَّةٍ فِي صَوْتِهِمْ. وَسَيَكُونُ كَلَامُ تَلْمِيذِنَا أَكْثَرَ تَوْحِيدًا وَأَعْظَمَ بَسَاطَةً أَيْضًا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَهْوَاءَهُ لَا تَمزُجُ لِسَانَهَا بِلِسَانِهِ عَنْ عَدَمِ تَنْبُهُ؛ وَلِذَا لَا تَحْمِلُوهُ عَلَى تَلَاوَةِ أَدْوَارٍ عَنْ ظَهْرِ الْقَلْبِ مِنْ مَأْسَاةٍ أَوْ كُفْمَدِيَّةٍ، وَلَا تَرْغَبُوا فِي تَعْلِيمِهِ الْإِنْشَادَ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَسِّ بَالِغٍ حَتَّى يُنْعِمَ بِصَوْتٍ عَلَى أُمُورٍ لَا يُدْرِكُهَا، وَيَنْبَرَّةَ عَلَى مَشَاعَرَ لَا يُحْسِنُهَا مُطْلَقًا.

وَعَلِّمُوهُ الْكَلَامَ بَسِيطًا وَاضِحًا، وَاللَّفْظَ جَلِيًّا جَيِّدًا، وَالتَّنْقِطَ مُحْكَمًا بَعِيدًا مِنَ التَّكَلُّفِ، وَعَلِّمُوهُ مَعْرِفَةَ الْحَرَكَاتِ النَّحْوِيَّةِ وَوَضْعَ الْكَلِمَاتِ فِي مَوَاضِعِهَا، وَأَنْ يُخْرِجَ مِنَ الْأَصْوَاتِ مَا يَكْفِي لِلْسَمَاعِ دَائِمًا، لَا أَنْ يُخْرِجَ مِنْهَا أَعْلَى مِمَّا يَجِبُ؛ أَيُّ أَنْ يَجْتَنِبَ هَذَا الْعَيْبَ الشَّائِعَ بَيْنَ الْأَوْلَادِ الَّذِينَ نَشَّنُوا فِي الْمَدَارِسِ، فَلَا يَجُوزُ وَجُودُ مَا هُوَ زَائِدٌ فِي أَيِّ شَيْءٍ كَانَ.

وَكَذَلِكَ فِي الْغِنَاءِ اجْعَلُوا صَوْتَهُ مُحْكَمًا سَهْلًا لِيَنَّا ذَا رَيْنِ، فَتَكُونُ أَذُنُهُ مَرْهَفَةً فِي الْوَزْنِ وَالْإِنْسِجَامِ لَا غَيْرِ، وَلَا تَلْتَمِ الْمَوْسِيقَا التَّقْلِيدِيَّةُ وَالتَّمثِيلِيَّةُ سَنَّهُ، حَتَّى إِنْ لَمْ أَرِيدَ أَنْ يُعْنَى بِالْكَلامِ، وَهُوَ إِذَا مَا أَرَادَ أَنْ يُعْنَى حَاوَلْتُ أَنْ أَضَعَّ لَهُ أَغَانِيَّ مَقْصُودَةً مَلَاتِمَةً لِعُمْرِهِ بِسِيطَةً بَسَاطَةً أَفْكَارَهُ.

وتَرَوْنَ أَنِّي قَلِيلُ الْعَجَلَةِ فِي تَعْلِيمِهِ قِرَاءَةَ الْخَطِّ، وَلَيْسَ غَيْرَ ذَلِكَ أَمْرِي فِي تَعْلِيمِهِ قِرَاءَةَ الْمَوْسِيقَا، فَلَنْبُعِدَ مِنْ دِمَاغِهِ كَلِّ انْتِبَاهِ شَاقٍ، وَلَا نَسْتَعَجَلُ تَثْبِيَتِ الْإِشَارَاتِ الْإِصْطِلَاحِيَةِ فِي ذَهْنِهِ. وَأَعْتَرَفْتُ بِأَنَّ لِهَذَا صَعُوبَتَهُ كَمَا يَلُوحُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَعْرِفَةَ الْمَجَسَّدَاتِ إِذَا لَمْ تَبْدُ فِي الْبُدْءِ أَكْثَرَ لِرُومًا لِمَعْرِفَةِ الْغِنَاءِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحُرُوفِ لِمَعْرِفَةِ الْكَلَامِ؛ فَإِنَّهُ يَوْجَدُ - مَعَ ذَلِكَ - ذَلِكَ الْفَرْقُ الْقَائِلُ إِنَّا نُرَدِّدُ أَفْكَارَنَا الْخَاصَّةَ بِالْكَلامِ، وَإِنَّا لَا نُرَدِّدُ غَيْرَ أَفْكَارِ الْآخَرِينَ بِالْغِنَاءِ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ قِرَاءَتِهَا لِتَرْدِيدِهَا. وَلَكِنَّ أَوَّلَ مَا يُقَالُ إِنَّهَا تُسْمَعُ قَبْلَ أَنْ تُقْرَأَ، وَإِنَّ الْغِنَاءَ يُرَدِّدُ فِي الْأُذُنِ بِأَصْدَقِ مِمَّا فِي الْعَيْنِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَكْفِي تَرْدِيدُ الْمَوْسِيقَا لِمَعْرِفَتِهَا جَيِّدًا، بَلْ يَجِبُ تَأْلِيفُهَا، وَيَجِبُ تَعَلُّمُ الْأَمْرَيْنِ مَعًا، وَإِنَّ لَمْ يَحْدُثْ هَذَا لَمْ تُعْرَفِ الْمَوْسِيقَا قَطُّ. وَفِي الْبُدْءِ مَرَّوْنَا مَوْسِيقِيَّكُمْ الصَّغِيرَ عَلَى وَضْعِ عِبَارَاتٍ مُنْتَظِمَةٍ حَسَنَةِ الْإِيقَاعِ، ثُمَّ مَرَّوْنَهُ عَلَى رُبْطٍ مَا بَيْنَهَا بِلَحْنٍ بَسِيطٍ جَدًّا، وَأَخِيرًا مَرَّوْنَهُ عَلَى تَعْيِينِ مَا بَيْنَهَا مِنْ عِلَاقٍ مُخْتَلِفَةٍ بِتَرْقِيمٍ صَحِيحٍ، وَهَذَا يَكُونُ بِحُسْنِ اخْتِيَارِ الْمَحَاطِّ وَالسَّكِّنَاتِ. وَإِيَّاكُمْ وَالْغِنَاءَ الْغَرِيبَ عَلَى الْخُصُوصِ، وَإِيَّاكُمْ وَالشَّجُوبَاتِ وَالْتَعْبِيرَاتِ؛ فَاللَّحْنُ الشَّادِي الْبَسِيطُ دَائِمًا، وَاللَّحْنُ الْمَشْتَقُّ مِنْ أَوْتَارِ النِّعَمِ الْجَوْهَرِيَّةِ دَائِمًا، يَبْلُغُ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى أَدَاتِهِ دَائِمًا مَا يُشْعِرُ بِهِ وَيُصَاحَبُ بِهَا مَشَقَّةٌ، وَذَلِكَ أَنْ تَدْرِيْبَ صَوْتِ الْوَلَدِ وَأُذُنَهُ يَوْجِبَانِ عَدَمَ غِنَائِهِ بِغَيْرِ الْبَيَانِ مُطْلَقًا.

وَيَتَطَلَّبُ تَعْيِينُ الْأَلْحَانِ جَيِّدًا أَنْ تُلْفَظَ وَاضِحَةً حِينَ النُّطْقِ بِهَا؛ وَمِنْ ثَمَّ أَتَتْ عَادَةُ التَّنْغِيمِ بَعْضَ الْمَقَاطِعِ، وَيَتَطَلَّبُ تَمْيِيزُ الدَّرَجَاتِ إِطْلَاقَ أَسْمَاءٍ عَلَى هَذِهِ الدَّرَجَاتِ وَعَلَى حُدُودِهَا الْمُخْتَلِفَةِ الثَّابِتَةِ، وَمِنْ هُنَا جَاءَتْ أَسْمَاءُ الْفَوَاصِلِ كَمَا جَاءَتْ أَيْضًا حُرُوفُ الْأَبْجَدِيَّةِ الَّتِي تُنَمَّزُ بِهَا مَفَاتِيحُ الْبَيَانِ وَمُجَسَّدَاتِ السُّلْمِ، وَيُعَيَّنُ C و A أَلْحَانًا ثَابِتَةً تُرَدِّدُ دَائِمًا بَعِيْنَ الْمَفَاتِيحِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ أَمْرُ La و ut، فَأَمَّا ut فهو على الدوامِ أَسَاسُ السُّلْمِ الْأَكْبَرِ، أَوْ وَسِيطُ السُّلْمِ الْأَصْغَرِ، وَأَمَّا La فهو على الدوامِ أَسَاسُ السُّلْمِ الْأَصْغَرِ أَوْ الْمُجَسَّدَةُ السَّادِسَةُ لِلْسُّلْمِ الْأَكْبَرِ. وَهَكَذَا فَإِنَّ الْحُرُوفَ تَمْيِيزُ الْحُدُودَ الثَّابِتَةَ لِنَسَبِ مَنَاجِنِ الْمَوْسِيقِي، وَإِنَّ الْمَقَاطِعَ تَمْيِيزُ الْحُدُودَ الْمُتَنَاطِرَةَ لِمَا تَشَابَهَ مِنَ النَّسَبِ فِي مُخْتَلَفِ الْأَلْحَانِ، وَتَمْيِيزُ الْحُرُوفُ مَفَاتِيحَ الْبَيَانِ، وَتَمْيِيزُ الْمَقَاطِعُ دَرَجَاتِ السُّلْمِ. وَقَدْ خَلَطَ مَوْسِيقِيُو فَرَنْسَةَ بَيْنَ هَذِهِ الْفُرُوقِ خَلْطًا غَرِيبًا؛ فَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مَعْنَى الْمَقَاطِعِ وَمَعْنَى الْحُرُوفِ، وَهَمَّ إِذْ ضَاعَفُوا إِشَارَاتِ الْمَفَاتِيحِ عَلَى غَيْرِ جَدْوَى، لَمْ يَدْعُوا مِنْ ذَلِكَ قَطُّ مَا يُعَبِّرُ بِهِ عَنِ أَوْتَارِ اللَّحْنِ. وَهَكَذَا فَإِنَّ ut و C عِنْدَهُمْ شَيْءٌ وَاحِدٌ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ هَكَذَا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا، وَإِلَّا فَمَا يَكُونُ اسْتِعْمَالُ C؟ وَكَذَلِكَ فَإِنَّ طَرِيقَتَهُمْ فِي التَّنْغِيمِ كَثِيرَةٌ الصَّعُوبَةُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ لَهَا أَيَّةُ فَائِدَةٍ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تَحْمِلَ لِلذَّهْنِ أَيَّةَ فِكْرَةٍ وَاضِحَةٍ، مَا أَمَكْنَ أَنْ يَدُلَّ

المقطعان **mi** و **ut** على الثالث الأكبر أو الثالث الأصغر أو الثالث الزائد أو الثالث الناقص. ويا له من نصيبٍ عجيبٍ أن يكون هذا البلدُ العالميُّ الذي تُوضَعُ فيه أروغُ كتبِ الموسيقى عَيْنَ البلدِ الذي يبدو أصعبُ ما تُعَلَّمُ فيه ضَبْطًا!

ولنتَّبِعْ مع تلميذنا طريقًا أكثرَ بساطةً وأشدَّ وضوحًا، فلا يكون له غيرُ سُلَمينِ ذواتي نِسَبٍ واحدةٍ بينهما دائمًا، فيُشار إليهما بعينِ المقاطعِ دائمًا. وسواءً أَعْتَى أم عَزَفَ على آلَةٍ كان الرأي أن يَعْرِفَ إقامةَ سُلَمه على كلِّ واحدٍ من الألحانِ الاثني عشر التي يُمكنه الانتفاغُ بها أساسًا. وسواءً أَلَحَنَ على **D** أم على **C** أم على **G**... إلخ، كان الرأي أن تكونَ النهايةُ **La** أو **ut** وَفَقَ السُلَم. وهكذا فإنه يُدركُ مقصدكم دائمًا، وستكون نِسَبُ السُلَمِ الجوهريَّةُ للغناء والعزف كما ينبغي حاضرةً في ذهنه دائمًا، وسيكون إنجازُه أكثرَ وضوحًا وتقدُّمُه أكثرَ سرعة. ولا يوجدُ ما هو أغربُ مما يدَّعوه الفرنسيون بالتنعيمِ الطبيعي، وذلك لقيامه على إقصاء ما ينطوي عليه الشيء من أفكار، واستبدالنا بها أفكارًا غريبةً لا تؤدي إلى غيرِ الإغواء، ولا شيءٍ أقربُ إلى الطبيعة من التنعيم عن تغييرٍ في اللحن عند تغييرِ السُلَم. ولقد تكلمت عن الموسيقى بما يزيدُ على الكفاية، فعلموها كما تشاءون، ولكن على ألا تَعُدُّوا حدَّ الألهوة على الإطلاق.

وها نحن أولاء قد أطلعنا جِدًّا على حالِ الأجسامِ الغريبةِ عن جسمنا وعلى وزنها وشكلها ولونها ومتانتها وجساميتها ومسافتها وحرارتها وسكونها وحركتها، وقد عرفنا أيَّ الأجسامِ يلائمنا أن نندنو منه أو نبتعدَ عنه، وذلك على الوجهِ الذي يجب علينا أن نتخذَ به من الوضعِ لكسرِ مقاومته، أو لإبداننا نحوه من المقاومة ما نقي به أنفسنا من أذاه. ولكن هذا ليس كافيًا؛ فبدننا يَضُنُّ بلا انقطاع، فيحتاج إلى تجديدٍ دائمًا، وعلى ما لدينا من قدرةٍ على تغييرنا موادًّا أخرى في عنصرنا الخاص؛ فإن خيارنا ليس من الأمورِ التي لا يُؤبه لها. وليس كلُّ شيءٍ غذاءٌ عند الإنسان، ولا يوجد بين ما يُمكن أن يكونَ غذاءً من الموادِّ ما يلائمه على السواء، وذلك على حَسَبِ تركيبِ عرقه، وعلى حَسَبِ الإقليمِ الذي يعيش فيه، وعلى حَسَبِ مزاجه الخاص، وعلى حَسَبِ طرازِ حياته الذي يقتضيه حاله.

ولو وجبَ لاختيارِ الأغذية التي تلائمنا أن ننتظرَ تعليمَ التجربةِ إيانا أن نعرفها وأن ننتخبها؛ لهلكنا جائعين أو مسمومين، غير أن اللطيفَ الأعلى الذي جعلَ من لَذَّةِ الموجوداتِ الحساسةِ وسيلةً بقائها قد أنبأنا بما يروقُ حاسةً ذوقنا ما يلائمُ معدتنا، ومن الطبيعي ألا يوجد للإنسانِ طبيبٌ أضمنُ من شهوةِ الطعامِ الخاصةِ فيه، ولا أشكُّ في أن الإنسانَ في حالتهِ الابتدائيةِ كان يجدُّ في ألدِّ الأطعمةِ أكثرَها نفعًا للصحة.

ويوجد ما هو أكثر من ذلك، وذلك أن صانع البرايا لم يقص ما جعل فينا من احتياجات فقط، بل قضى ما جعلناه لأنفسنا أيضاً، وهو - لكي نضع الرغبة بجانب الحاجة - قد جعل طعمونا تتغير وتفسد مع طرر حياتنا، وكلما ابتعدنا عن حال الطبيعة فقدنا طعمونا الطبيعية، وإن شئت فقل إن العادة تجعل لنا طبيعة ثانية نبلغ من إقامتها مقام الأولى ما لا تجد معه أحداً منا يعرف غيرها.

ومن ثم يرى أن أقرب الطعوم إلى الطبيعة هي التي يجب أن تكون أكثرها بساطة؛ وذلك لأنها أسهل ما يتحول، وذلك بدلاً من أن تتخذ شكلاً لا يتغير أبداً بما يكون من شحذها وإثارتها بأهوائنا. والإنسان الذي لم يتكيف ببلد بعد ينتحل عادات أي بلد كان بلا مشقة، ولكن الإنسان الذي هو من بلد لا يعود ابناً لبلد آخر.

ويلوح لي هذا صحيحاً بالنسبة إلى جميع الحواس، وأكثر من هذا أيضاً عند تطبيقه على حاسة الذوق حصراً. واللبن هو غذاؤنا الأول، ولا نعود الطعوم القوية إلا بالتدريج، وتكرهها نفوسنا في البداية، وكانت ولانم الأولين^{٣٥} تقوم على الفواكه والخضر والأعشاب، وأخيراً على بعض اللحوم المشوية بلا تابل ولا ملح. وقطب الهمجى عندما شرب الخمر لأول مرة وزماتها، حتى إنه إذا وجد بيننا من عاش حتى العشرين من عمره من غير أن يذوق السوائل المختمة عاد لا يستطيع تعودها، ونكون كأننا من الزاهدين في الخمر إذا لم تقدم إلينا في صبا. ثم إن طعمونا كلما كانت بسيطة بدت عامة، وتقع أعم كراهياتنا على الأطعمة المركبة، وهل شاهدتم أحداً يكره الماء والخبز؟ هذا هو أثر الطبيعة، وهذا هو نظامنا إذن، ولنحفظ للولد ذوقه الفطري ما أمكن، وليكن غذاؤه عادياً بسيطاً، ولا تعتد حاسة ذوقه غير الطعوم المعللة قليلاً، ولا ندعه يكون ذا ذوق نمطي حصراً.

ولا أبحث هنا في هل هذا الطراز من العيش أصلح للصحة أو لا، فلا أنظر إلى الأمر من هذه الناحية، وإنما يكفي أن أعرف لتفضيله أنه أكثر ما يلائم الطبيعة وأنه أسهل ما يتكيف مع جميع الطرز الأخرى. ويظهر لي أن من غير الصواب ذهاب بعضهم إلى وجوب تعويد الأولاد أطعمة يتناولونها إذا ما كبروا، ولم يكون غذاؤهم هو إياه على حين يختلف طراز عيشهم كثيراً؟ يحتاج الرجل الذي نهكه العمل والهموم والمشاق إلى أطعمة غصارية تحمّل نشاطاً جديداً إلى دماغه، ويحتاج الولد الذي يلهو وينمو جسمه إلى طعام وافر يورثه كثيراً من الكيلوس. ثم إن الرجل النامي يكون قد قرّر مهنته وشغله ومنزله، ومن ذا الذي يستطيع أن يطمئن إلى ما يخبئه

^{٣٥} انظر إلى أركادية بوزانياس، وانظر أيضاً إلى قطعة بلوتارك المنقولة فيما بعد.

القدر للولد؟ ومهما يكن من أمرٍ فلا نُعطيه من الطَّبَّاعِ المعينة ما يكلفه كثيرًا إذا ما أراد تغييره عند الضرورة، ولا نعمل ما يموت معه جوعًا في البلدان الأخرى إذا لم يَجُرَّ وراءه طاهيًا فرنسيًا في كلِّ مكان، أو أن يقول ذاتَ يومٍ إن الإنسان لا يستطيع أن يأكل في غيرِ فرنسا، وهذا مدحٌ مبهجٌ جاء عَرَضًا، وأمَّا أنا فأقول على العكس إنه لا يوجد غيرُ الفرنسيين من لا يَعْرِفون الأكل ما وَجِبَ وجودُ فنٍّ خاصٍّ تُجْعَلُ الأطعمةُ به صالحةً للأكلِ عندهم.

والذائقةُ بين مختلفِ حواسِّها هي أكثرُ ما يُؤثِّرُ فينا على العموم، وذلك أن مما نكثرُ له أكثرَ من سواه هو أن نحكمَ جيّدًا في الموادِّ التي يجب أن تكون جزءًا من جوهرنا أكثرَ من أن تكونه الموادُّ التي لا تعدو حدًّا اكتنافنا. ويوجد ألفُ شيءٍ لا تكثرُ له اللامسةُ والسامعةُ والباصرة، ولكنك لا تجدُ شيئًا لا تأبهُ له الذائقةُ.

ثم إن فعلَ هذه الحاسةِ بدنيّ ماديّ تمامًا، وهي الوحيدة التي لا تخاطبُ الخيالَ بشيءٍ، أو التي هي أقلُّ ما يدخُلُ الخيالَ في إحساساته، وذلك على حين يدمغُ التقليدُ والخيالُ أثرَ الحواسِّ الأخرى بطابعٍ أدبيّ غالبًا، وكذلك تؤثرُ حاسةُ الذوقِ تأثيرًا فاترًا في الأفتدةِ الرقيقةِ الشّهاءةِ والطبائعِ الهاويةِ الحساسةِ حقًّا، مع أن الحواسِّ الأخرى تحرّكها بسهولة على العموم. ومع أنه يلوح وضغُ الذائقةِ دون الحواسِّ الأخرى، ويُجعلُ الميلُ الذي يُسلمنا إليها أدعى إلى الازدراء، فإنني على العكس أصبُلُ إلى النتيجةِ القائلة إن أصلح وسيلةٍ للسيطرة على الأولاد هي أن يُجلبوا بأفواههم، ويُفضّلُ عاملُ الشَّرِّه على عاملِ الرّهوِ خاصّةً، وذلك من حيث كونُ الأوّلِ شهوةً الطعامِ الطبيعيّةِ التابعة للذائقةِ رأسًا، ومن حيث كونُ الثاني من عملِ الرأيِ التابعِ لهوى النَّاسِ ولضروبِ سوءِ الاستعمال. والشَّرُّه هو هَوَى الصِّبَا، ولا يقفُ أمامَ هَوَى آخَر، ويتوارى عند أقلِّ منافسة. وَيُ! صدّقوا قولِي، إنَّ الولدَ لا يُعتمُّ أن ينقطعَ عن التفكيرِ فيما يأكل، ومتى شُغل قلبه كثيرًا عادت ذائقته لا تشغله مطلقًا، ومتى كَبُرَ وَجَدَ أَلْفَ إحساسٍ صائِلٍ يَحُلُّ محلَّ شَرِّهه، فلا يؤدي إلى غيرِ إثارةِ زهوه؛ وذلك لأن هذا الهوى الأخير وحده يتزوّد من الأخرِ حتى يتلغها جميعًا. ومما بحثتُ فيه أحيانًا أمرُ هؤلاء الذين يُعنون بالأطعمةِ النفيسة، فلا يحلمون عندما يستيقظون بغيرِ ما يأكلون في نهارهم، ومنهم من وصفَ وليمةً بأدقِّ ممَّا صنَعَ بُولِبُّب عن إحدى المعارك، وقد وجدتُ أن جميعَ هؤلاء الرجالِ المزعومين لم يكونوا غيرَ أولادٍ في الأربعين من عُمرهم، خالين من النشاطِ عاطلين من الثبات؛ «فلسنا سوى رجالٍ مساكين.» والشَّرُّه هو عيبُ القلوبِ الضعيفة، وتكون رُوحُ الشَّرِّه في ذائقته، وهو لم يُخلَقْ إلا ليأكل، وهو من الغباوةِ والعجزِ ما تكون المائدةُ معه مكانه الوحيد، وما

تكون الأطباق معه محلّ تفكيره الوحيد، ولتَدْعُ له هذا العمل غير آسفين؛ فهذا خيرٌ له ولنا.

ومن ضيقِ الذهن أن يُحشى تأصُّل الشَّرِّه في ولدٍ قادرٍ على القيام بشيءٍ ما؛ ففي الوُلُودية لا يُفكِّرُ في غير ما يُؤكَل، وفي دَوْر الشباب يعود الولد غير مُفكِّر في ذلك، وكلُّ طعامٍ صالحٍ عندنا، ولدينا أمورٌ كثيرةٌ أُخرى نُعنى بها، ولا أريد مع ذلك استعمالَ دافعٍ وضيقٍ على غير رصانة، ولا أن تدعموا بقطعةٍ لذيدةٍ شرفٍ صنَّعٍ عملٍ جميل. ولكن إذا كانت الوُلُودية لِعِبًا ولهُوًا فقط، أو وجب أن تكون هكذا، فإنني لا أرى السبب في عدم وجود جوائزٍ ماديةٍ ومحسوسةٍ للتمرينات البدنية الصَّرفة. وإذا ما أبصرَ ما يُورقِي صغِيرٌ سَلَّةً على رأس شجرةٍ فأسقطها بضربةٍ مِقْلَعٍ؛ أفلا يكون من الإنصاف أن يستفيد من ذلك فيتناول فُطُورًا فاخرًا تعويضًا له من القوة التي يكون قد استعملها نيلاً لها؟^{٣٦} وإذا ما استطاع شابٌ إسبارطيٌّ أن يتسرَّب في مطبخٍ بمهارةٍ متممًا مائة جلدَةٍ فسرق منه جروٌ ثعلبٍ حيًّا، ومضى به في ثوبه محتملاً خُدشه وعضنه وإدماءه، تاركًا إياه يمزقُ أحشاءه خشيةً حيائه من مفاجأة، وذلك من غير أن يزوي ما بين حاجبيه أو أن يرفع صوتًا؛ أفلا يكون من الإنصاف أن يستفيد من فريسته أخيرًا فيأكلها بعد أن أُكِل؟ لا ينبغي أن تكون الوجبة الفاخرة مكافأة، ولكن لِمَ لا تكون نتيجة جهودٍ بُدِلت فورًا بها؟ لا يُعدُّ إميلُ قطعة الحلوى التي وضعتها على الحجر جائزةً عدَّوه جيّدًا، وإنما يَعْرِفُ أن الوسيلة الوحيدة لحيازة هذه القطعة هو أن يَصِلَ إليها قبل غيره.

ولا يُناقض هذا المبادئ التي قدَّمتها منذ هنيهة حوّل بساطة الأُطعمة؛ وذلك لأن مداراة شهوة الطعام في الأولاد لا تعني تهيج حساسيتهم، بل تعني قضاءها فقط، وهذا ما يُنال بأكثر الأشياء شيوعًا بين النَّاس إذا لم يُعمل في ترفيق ذوقهم، وتُعدُّ شهوة طعامهم الدائمة التي تُهيجها ضرورة النمو تنبيلًا ثابتًا يقوم فيهم مقام غيره من تنبيل كثير، وما يكون من فواكة وألبانٍ وقطعٍ من الحلوى أدقَّ من الخبز الاعتيادي قليلًا، ولا سيمًا فنُّ توزيع جميع هذا باعتدال، أمورٌ تُساقُ بها جيوش من الأولاد إلى أقصى العالم من غير أن يمتَحُوا ذوقًا للأُطعمة القوية، ومن غير أن يُجَارَفَ بإضعاف ذائقتهم.

ومن الأدلة على كون ذوق اللحم غير طبيعيٍّ للإنسان عدمُ تكرار الأولاد لهذا الطعام، وإجماعهم على تفضيل الأغذية النباتية كالألبان والحلوى والفواكه... إلخ. وكلُّ الأهمية في عدم إفساد هذا الذوق الفطري، وفي عدم جعل الأولاد من الضواري مطلقًا. وإذا لم يكن هذا من أجل صحتهم فليكن من أجل طابعهم؛ وذلك لأنه مهما يكن من وجهٍ لتفسير الاختبار فإن من الثابت

^{٣٦} ترك المايورقيون هذه العادة منذ قرون كثيرة، وقد كانت سبب شهرة راسق المقلاع بينهم في حينها.

كُونَ كِبَارِ أَكَلَةِ اللّٰحْمِ أَقْسَى مِنْ غَيْرِهِمْ وَأَخْفَى عَلَى الْعَمُومِ. وهذه المشاهدة صادقة في كلِّ زمانٍ ومكان؛ فبريرية الإنكليز أمرٌ معروف،^{٣٧} وعلى العكس يُعدُّ الغور أكثرَ النَّاسِ حِلْمًا،^{٣٨} وجميعُ الهمج قساة، ولا تحمليهم طنائهم على أن يكونوا هكذا مطلقًا، وتأتيهم قسوتهم من أطعمتهم، وهم يذهبون إلى الحرب كما يذهبون إلى الصيد، ويعاملون النَّاسَ كالذَّبيَّة، حتى إن الجزَّارين لا تُقبَلُ شهادتهم في إنكلترة، وكذلك الجرَّاحون.^{٣٩} وتقسو قلوبُ أعظم الأشرار بشرب الدم اقترافًا للقتل. ويَجْعَلُ أوميرسُ من السُّكُّوبِ، الذين هم أكلةُ لحم، أناسًا فُطْعَاء، ويجعل من اللُّوتُفَاجِ^{٤٠} * قومًا لطفاء بلغوا من الأُنس ما ينسى الإنسان، إذا ما عاملهم، بلده معه ليعيش بينهم.

قال بلوتارك: «تسألني عن سبب امتناع فيثاغورس عن أكل لحم الحيوان، ولكنني أعود فأسألك من ناحيتي عن مقدار الشجاعة التي وَجَبَ وجودها عند أوَّل إنسانٍ قَرَّبَ من فيه لحم حيوانٍ مذبوحٍ وكَسَرَ عَظْمَ حيوانٍ يقضي أجله، وأحضرَ أمامه أجسامَ أموات؛ أي جُنُثًا، والتَّهَمَ في مَعِدَّتِهِ أَعْضَاءَ كانت قُبَيْلَ ذلك تَنفَعُو وتَحْوَر وتسير وتنظر، وكيف استطاعتُ يده أن تطعن بسكين قلبٍ موجودٍ حسَّاس؟ وكيف استطاعت عيناه أن تحتَمِلَ منظرَ القتل؟ وكيف استطاع أن يشاهد ذُبْحَ حيوانٍ مسكينٍ أُغْزِلَ وسلِّحَه وتقطيعه؟ وكيف استطاع أن يُطَيِّقَ مَرَأَى لحومٍ مختلجة؟ وكيف لم يبقَ من رائحتها؟ وكيف لم يتقرَّر ولم يشمَّز ولم يأنف عندما أخذ يُقَلِّبُ أدرانَ هذه الجروح ويُزِيلُ الدمَ الأسودَ النَّخائرَ الذي كان يُعْطِيها؟

كانت الجلود المسلوخة ممدودةً على الأرض، وكانت اللحوم تَعُجُّ على السُّفُودِ،^{٤١} * ولم يستطع الرجل أن يأكلها من غير أن يرتعش، ويسمع أُنْبِها في بطنه.

ذلك ما وجب أن يكون قد تخيَّله وأحسَّه في المرة الأولى التي قَهَرَ فيها الطبيعة إعدادًا لهذه الوجبة الفظيعة، في المرة الأولى التي كان له فيها جوعٌ حيوانٍ حي، فأراد أن يغتذي بحيوان

^{٣٧} أعرِف أن الإنكليز يُباهون كثيرًا بإنسانيتهم وحسن مزاج قومهم الذين يدعونهم «الأمة ذات الطبيعة الطيبة»، ومن العيب أن يعلنوا هذا جهدهم؛ فلا أحد غيرهم يكرِّر زعمهم.

^{٣٨} يُعد البانيان الذين يمتنعون عن تناول كل نوع من اللحم بأشد مما عليه الغور حلما مثل هؤلاء تقريبًا، ولكن بما أن أخلاقهم أقل صفاء وديانتهم أقل صوابًا، فإنهم ليسوا مثلهم صلاحًا.

^{٣٩} أشار أحد مترجمي هذا الكتاب من الإنكليز إلى غلطي هنا، وكلاهما صححه؛ فشهادة الجزارين والجراحين مقبولة، غير أن الجزارين لا يُقبَلون كمحلفين أو أعضاء في القضايا الجنائية مع أنه يُسَمَّح للجراحين أن يكونوا هكذا.

^{٤٠} * هم أكلة النبق.

^{٤١} * السُّفُود: حديدة يُشوى عليها اللحم.

لا يزال يرعى، فقال كيف يجب أن تُدبِح الشاة التي كانت تلحسُ يديه، فمن أولئك الذين بدءوا هذه اللواتم الجافية ما يجب أن يُدهش، لا من الذين يتركونها، ثم إنه كان يُمكن أولئك الأوائل أن يُسوِّغوا وحشيتهم بمعادير تُعوِّزُ وحشيتنا، فيجعلنا عدم وجودها برابرةً أكثرَ منهم مائة مرة.

أي أحياء الآلهة من النَّاس! سيقول لنا أولئك الأوائل من الآدميين: قابلوا بين الأزمنة، وانظروا مقدارَ ما أنتم عليه من سعادةٍ ومقدارَ ما كُنَّا عليه من بؤس! لقد كانت الأرض التي تكونت حديثاً والهواء المشحون بالأبخرة غير طائعين لنظام الفصول بعد، وكان مجرى الأنهار المتقلب يُخرَّب ضفافها من كل ناحية، فتغمرُ الغدران والبحيراتُ والمناقع العميقة ثلاثة أرباع وجه الدنيا، وكان الربيع الآخرُ مستوراً بالأدغال والغابات غير المثمرة، وكانت الأرض لا تُنتج أية ثمرات صالحة، ولم تكن لدينا أية آلة للجرأة، وكُنَّا نجهل فنَّ الانتفاع بها، وما كان وقتُ الحصاد ليأتي من لم يبذروا شيئاً قط. وهكذا كان الجوع لا يتركنا مطلقاً، وكان الطُّحلب والقشير طعامنا العادي في الشتاء، وكان بعضُ جذور العُكْرَشِ والخَلنجِ طعامَ مادبِ عندنا، وكان النَّاس إذا ما استطاعوا أن يجدوا زُواناً وجُوراً أو بلوطاً يرقصون طرباً حول سِنديانةٍ أو زانةٍ على صوتِ بعض الأغاني العليظة، داعين الأرض مُرضعهم وأمهم، وهنالك كان مهرجاناتهم الوحيد، وتلك كانت ألعابهم الوحيدة، وأما بقية الحياة البشرية فلم تكن غير ألمٍ وتعبٍ وشقاء.

وأخيراً، عند عدم تقديم الأرض الجرداء العارية شيئاً إلينا، كُنَّا نضطرُّ إلى مخالفة الطبيعة في سبيل بقائنا؛ فنأكل رفقاء شقائنا خشية الهلاك معهم، ولكن من ذا الذي يُكرهُكم على سفك الدماء أيها الرجال القُساة؟ انظروا إلى الأموال التي تدفق حوْلُكم، وإلى مقدار ما تنتج الأرض من ثمرات، وإلى ما تُعطيكُم الحقول والكروم إياه من ثروات، وإلى الحيوانات التي تُقدِّم إليكم ألباناً لتغذيتكم وجزراً لإلباسكم! وما تطلبون منها زيادةً على ذلك؟ وأيُّ سورة غضبٍ تحمِلُكم على اقتراف كثيرٍ من الثقتيل مع أنكم مُشبعون بالأموال طافحون بالأرزاق؟ ولم تكذبون على أممكم الأرضِ متهمين إياها بالعجز عن إطعامكم؟ ولم تُدبِنون تجاه سيرس الواضعة للقوانين المقدَّسة وتجاه باخوس الظريف المُفرِّج عن النَّاس، وذلك كما لو كانت هياتهما الوافرة غير كافية لبقاء الجنس البشري؟ وكيف يَسْمَحُ لكم قلبكم بأن تخلطوا ثمارها الحلوة بعظامٍ على موائدكم، وأن تشربوا مع اللبن دم الحيوان الذي يعطيكُم إياه؟ أجل، إن النمر والأسود التي تُطلقون عليها اسم الضواري تتبع غريزتها كرهاً، فتقتل الحيوانات الأخرى لتعيش، ولكنكم وأنتم أوحش منها مائة مرة تكافحون الغريزة بلا ضرورةٍ انهماكاً في ملاذكم الجافية. وليست الحيوانات التي تأكلون من النوع الذي يأكل الأخرى،

وأنتم لا تأكلون الضواري، بل تقلدونها، وأنتم لا تبدون جوعاً إلا تجاه الحيوانات البرية الوديدة التي لا تؤذي أحداً والتي ترتبط فيكم وتنفعكم، فتفترسونها مكافأةً لها على خدمتها.

أيها القاتلُ خلافاً للطبيعة! إذا ما أصرت على زعمك أن الطبيعة صَنَعَتْكَ لتفترس أمثالك من الموجودات ذات اللحم والعظم، والحساسة الحية مثلك، فاقض إذن على ما توحى به إليك من مقت لتلك الأطعمة الكريهة، واقتل الحيوانات بنفسك؛ أي بيديك كما أقول؛ أي بلا آلاتٍ حديديةٍ ولا سواطير، ومزقها بأظفارك كما تصنع الأسود والدببة، وغص هذه البقرة وقطعها إرباً إرباً، وأنشِب أظفارك في جلدها، وكُل هذا الخمل حياً والنهم لحمه دفيئاً، واشرب زوجه مع دمه. أنت ترتعش! أنت لا تجرؤ أن تُحسَّ لحمًا حياً يرتجف بين أسنانك! أيها الإنسان السيئ! أنت تبدأ بقتل الحيوان ثم تأكله، كأنك تجعله يموت مرتين، ولا يكفي هذا، إنك لا تزال تشمئز من اللحم الميت، ولا تُطيقه أعضاك، فيجب أن يُحوّل بالنار؛ أي أن يُسلق ويُسوى ويُعلل بالتوابل التي يُنكرُ بها، ولا بد لك من جزارين وطهاة وشوَّائين ومن إليهم ممن يزعون منك مقت القتل ويعودونك أجساماً ميتة حتى تُخدع حاسة الذوق بهذا التنكير فلا تُلْفِظ ما هو غريب عنها مطلقاً، متذوّقةً مع اللذة جُنتاً يَشُقُّ على العين حتى منظرها.»

ومع أن هذه القطعة غريبة عن موضوعي، فإنني لم أستطع مقاومة ما ساورني من إغراءٍ بنقلها، وأظن أن القليل من القراء من يُنكرُ عليّ هذا.

ثم مهما يكن من نظام تمنحون الأولاد إياه، ولكن مع تعويدهم الأطعمة الشائعة البسيطة فقط، فدعوهم يأكلونها، ودعوهم يعدون ويلعبون كما يروقهم، ثم تقوا بأنهم لن يأكلوا كثيراً، ولن تكون عندهم تخمٌ قط، ولكن إذا ما أجمعتموهم نصف الوقت فوجدوا وسيلةً يُفلقون بها من رقابتكم عَوْضوا أنفسهم من ذلك بما لديهم من قوة، فيأكلون حتى الطَّفاح، حتى الانفزار، ولا تُجاوز شهوة الطعام حدّها فينا إلا لأننا نريدُ منحها قواعد غير قواعد الطبيعة، وذلك مع دوامنا على الترتيب والتعيين والزيادة والنقصان، فلا نصنع شيئاً إلا والميزان في يدنا، ولكن هذا الميزان تابع لأهوائنا لا لمعدتنا، وأعود إلى أمثلي دائماً، وترى خزائن الفواكه والخبز مفتوحةً عند القرويين، ولا يعرف رجالهم ولا أولادهم ما التَّخَم.

وإذا حدث أن كان الولد أكلواً على الخصوص، وهذا ما يتعدّر وقوعه عند اتِّباع منهاجي على ما اعتقد، فإنه يسهلُ شغلُه بالهَوَات ملائمةٍ لذوقه، فينتهي إلى نهكه بخواءٍ من غير أن يشعُر. وكيف يفوت جميع المُعلِّمين مثل هذه الوسائل الثابتة السهلة جدّاً؟ وروى هيرودتس أن مجاعةً كبيرةً ضربت أطنابها بين اللوديين، فعنّ لهم أن يخترعوا من الألعاب وغيرها من التسلّيات

ما عَوْضُوا أَنفُسَهُمْ بِهِ مِنَ الْجُوعِ، فَقَضُوا أَيَّامًا بِكَامِلِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُفَكِّرُوا فِي الْأَكْلِ.^{٤٢} وَمِنْ الْمَحْتَمَلِ أَنْ قَرَأَ مُعَلِّمُكُمْ الْفَضْلَاءَ هَذَا الْفَصْلَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَوْا مَا يُمَكِّنُ تَطْبِيقَهُ مِنْهُ عَلَى الْأَوْلَادِ، وَقَدْ يَقُولُ لِي بَعْضُهُمْ إِنْ الْوَلَدَ لَا يَتْرُكُ غَدَاءَهُ طَوْعًا فِي سَبِيلِ دَرَسِهِ. فَيَا أَيُّهَا الْمُعَلِّمُونَ، إِنَّكُمْ عَلَى صَوَابٍ، فَلَمْ أَفَكِّرْ فِي هَذِهِ الْأُلْهُوَّةِ.

وَنَسَبَةُ الشَّامَّةِ إِلَى الذَّائِقَةِ كَنَسَبَةِ الْبَاصِرَةِ إِلَى اللَّامِسَةِ، فَهِيَ تَسْبِقُهَا، وَهِيَ تُخْبِرُهَا بِالْوَجْهِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَتَأَثَّرَ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ أَوْ تَلْكَ، وَهِيَ تُرْعِبُهَا فِيهَا أَوْ تُبْعِدُهَا مِنْهَا، وَذَلِكَ وَفْقَ الْإِنْتِطَاعِ الَّذِي يُتَلَقَّى عَنْهَا مَقْدَمًا. وَمِمَّا قِيلَ لِي إِنْ لِلْهَمَجِ شَامَّةٌ تَتَأَثَّرُ عَلَى غَيْرِ مَا تَتَأَثَّرُ بِهِ شَائِئًا، فَيَحْكُمُونَ عَلَى خِلَافِ مَا نَحْكُمُ فِي الرِّوَايَةِ الطَّيِّبَةِ وَالرِّوَايَةِ الْكَرْيِبَةِ. وَأَعْتَقِدُ صَحَّةَ هَذَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ الرِّوَايَةَ فِي نَفْسِهَا أَحَاسِيْسٌ ضَعِيفَةٌ، وَهِيَ تَهْتِكُ الْخَيَالَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَهْتِكُ الْحَاسَةَ، وَهِيَ لَا تَوَثِّرُ بِمَا تَمْنَحُ بِمَقْدَارِ تَأَثِيرِهَا بِمَا تَجْعَلُهُ يُنْتَظَرُ. وَإِذَا مَا سَلَّمَ بِهَذَا وَجِدَ أَنَّ أذْوَاقَ فَرِيقٍ إِذْ تَخْتَلِفُ بِطَرَازِ عَيْشِهِ عَنِ أذْوَاقِ الْفَرِيقِ الْآخَرَ، فَإِنَّهُ وَجِبَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُ أَحْكَامًا فِي الْأَطْعِمَةِ تَخْتَلِفُ عَنِ أَحْكَامِ هَذَا اخْتِلَافًا كَبِيرًا، وَمِنْ ثَمَّ فِي الرِّوَايَةِ الَّتِي تُنْبِئُ بِهَا، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ التَّتَرِّيَّ يَتَلَدَّدُ بِشَمِّ مُعْسَكِرٍ نَتَنِ بِحِصَانٍ مَيْتٍ تَلَدَّدُ الصَّائِدِ عِنْدَنَا بِحَجَلَةٍ نَصْفِ عَفْنَةٍ.

وَكَأَنَّ إِحْسَاسَاتِنَا الْبِطَّالَةَ مُطَيَّبَةً بِأَزْهَارِ حَدِيقَةٍ، فَيَجِبُ أَلَّا يَشْعُرَ بِهَا مَنْ يَمْشُونَ كَثِيرًا حَتَّى يَرِغَبُوا فِي النَّزْهَةِ، وَمَنْ لَا يَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ حَتَّى تَكُونَ لَدَيْهِمْ شَهْوَةٌ السُّكُونِ، وَمَا كَانَ الْجِيَاعُ دَائِمًا لِيَجِدُوا لَذَّةَ بُعْطُورٍ لَا تَبِيْمُ عَلَى مَا يُؤْكَلُ مُطْلَقًا.

وَالشَّامَّةُ هِيَ حَاسَةُ الْخَيَالِ، وَهِيَ إِذْ تَمْنَحُ الْأَعْصَابَ قُوَّةً بِالْغَةِ الشَّدِيدَةِ تَوَثِّرُ فِي الدِّمَاغِ كَثِيرًا لَا رَيْبَ؛ وَلِذَا فَإِنَّهَا تُوقِظُ الْمِزَاجَ لَوْقَتٍ وَتُنْهَكُهُ لَزْمِنِ طَوِيلٍ. وَلِلشَّامَّةِ فِي الْحَبِّ نَتَائِجٌ لَا تُنْكَرُ، وَلَيْسَ الْعَطَرُ النَّاعِمُ فِي غُرْفَةِ الزَّيْنَةِ شَرَكًا ضَعِيفًا بِمَقْدَارِ مَا يُظَنُّ، وَلَا أَعْرِفُ هَلْ يَجِبُ أَنْ يُبَارَكَ أَوْ يُرْتَى لِلرَّجْلِ الْعَاقِلِ وَالْقَلِيلِ الْإِنْفِعَالِ الَّذِي لَا تَجْعَلُهُ رَائِحَةُ الزَّهْرِ عَلَى صَدْرِ خَلِيلَتِهِ يَخْتَلِجُ مُطْلَقًا.

وَلَا يَنْبَغِي لِحَاسَةِ الشَّمِّ أَنْ تَكُونَ إِذْنَ بِالْغَةِ الْفِعْلِ فِي الدَّوْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْعُمْرِ؛ حَيْثُ لَا

^{٤٢} تجد قدماء المؤرخين حافلين بآراء يمكن الانتفاع بها، ولو كان ما يعرضونه من الوقائع غير صحيح، ولكننا لا نعرف اقتباس أي فائدة حقيقية من التاريخ؛ فالنقد الدقيق يستغرق كل شيء، كأن من المهم جدًا أن تكون الوقائع صحيحة حتى يكون من الممكن استخراج درس نافع منها، فعلى العقلاء أن يعدوا التاريخ نسيجًا من الأفاصيل التي نرى الناحية الخلقية منها كثيرة الملاءمة للقلب الإنساني.

تُحْرِكُ الخيَالِ غيرُ أهواءٍ قليلةٍ بَعْدَ، فلا يَتَقَبَّلُ تَهْيِيجًا. وحيث لا يكون هنالك من التجربة الكافية ما يُبَصِّرُ معه بحاسةٍ مقدِّمًا أمرٌ تَعِدُّنا به حاسَّةٌ أخرى. وقد أَيْدَتِ المشاهدةُ هذه النتيجةَ تأييدًا تامًّا. ومن المُحَقِّقِ أن حاسة الشم كليلَةٌ بليدةٌ تقريبًا عند معظم الأولاد، لا عن كون الإحساس غيرَ دقيقٍ في الأولاد كما في الرجال، أو أكثر مما عندهم على ما يُحْتَمَلُ، بل عن كونهم لا يضيفون إليه أيَّ فكرٍ آخر، فلا يَسْهَلُ تأثرهم بحسِّ لِدَّةٍ أو ألم، فيكونون أقلَّ منه افتتانًا أو تأذيًا بذلك، واني مع عدم خروجٍ عن ذاتِ الطريقة، ومن غير رجوعٍ إلى علم التشريح المقارن بين الجنسين، أعتقد سهولةَ معرفةِ السبب في كون النساء أشدَّ تأثرًا بالروائح من الرجال على العموم. ويُقال إن متوحشي كَنَدَةَ يُمَعِنون في جغل شامتهم دقيقةً إلى الغاية منذ دُور الصَّبَا، فيستغنون معه عن استخدام الكلاب في الصيد مع وجود كلابٍ عندهم، قائمين مقام الكلاب في ذلك بأنفسهم. ويُحَيَّلُ إليَّ، كما هو الواقع، أن الأولاد إذا ما نُشِنُوا على شَمِّ غذائهم كما يَشْمُ الكلبُ الطريقةَ أمكن إحكام شامتهم بما يبلُغون معه هذه الدرجة، ولكنني لا أرى في الأساس إمكان الحصول على عادةٍ كثيرة الفائدة من هذه الحاسة ما لم يَكُنْ ذلك لإطلاعهم على صلاحيتها بحاسة الذوق. وقد عُنيَتِ الطبيعةُ بحملنا على معرفة هذه الصلات، فجعلت عملَ هذه الحاسة الأخيرة غير منفصلٍ عن عمل الأخرى، وذلك بجعلها عضويهما متجاورين، ووضعها في الفم اتصالًا مباشرًا بين اللتين، فلا نذوق شيئًا من غير أن نَشْمَهُ. وإنما أريد عدم إفساد هذه الصلات الطبيعية خدعًا للولد، كأن يُحْفَى طعمُ العلاجِ بِطَبِيبٍ طَيِّبٍ، وبيان الأمر هو أن الحاسَّتين من الاختلاف ما لا يُساء معه استعمالهما، وبما أن الحاسة الأشد فعلًا تتلعب عمل الأخرى، فإن العلاج لا يُتناول بأقلِّ من ذلك تَقَرُّزًا، ويمتدُّ هذا التَقَرُّزُ إلى جميع الإحساسات التي تَقْرَعُه في الوقت نفسه، ويستدعي الخيال عند أضعفِ إحساسٍ إحساسًا آخر، ويعود أعذبُ عَطْرِ رائحةٍ كريهةً عنده، وهكذا فإن احتياطاتنا الطائشة تزيد مقدار الإحساسات المستكْرَهة على حساب الإحساسات المستَعْدبة.

ويَقِي عَلِيَّ أن أتكلم في الأبواب الآتية عن تَعَهَّدِ حاسَّةٍ سادسةٍ تُدعى الحاسة العامة؛ لأنها تنشأ عن استعمال الحواسِّ الأخرى استعمالًا منتظمًا أكثر من كونها مشتركةً بين جميع النَّاسِ، فتدلُّنا على طبيعة الأشياء بتزاحم ظهور تلك الحواس، ومن ثمَّ لا يوجد لهذه الحاسة السادسة عضوٌ خاصٌّ مطلقًا، ولا تقيم هذه الحاسة بغير الدماغ، وتُسَمَّى أحاسيسها الباطنية مَحْضًا إدراكاتٍ أو أفكارًا، ويُقاسُ مدى معارفنا بعدد هذه الأفكار، ويصدُرُ سداد الرأي عن صفاتها وجلائها، وما يُدعى العقلُ البشريُّ قائمٌ على فنِّ المقابلة بينها. وهكذا فإن ما أُسَمِّيهِ العقلَ الحَسَّاسَ أو الصَّبَوِيَّ يقوم على

تكوين أفكار بسيطة عن تراحم كثير من الإحساسات، وهكذا فإن ما أسميه العقل الذهني أو البشري يقوم على تكوين أفكار مركبة عن تراحم كثير من الأفكار البسيطة.

واني حين أفترض أن منهاجي هو منهاج الطبيعة، وأني لم أخطئ في تطبيقه، فإننا نكون قد أتينا بتلميذنا من خلال بلد الإحساسات، حتى حدود العقل الصبوي، وتكون الخطوة الأولى التي نجاوز بها هذه الحدود خطوة رجل، ولكن دعنا نلقي نظرة على الميدان الذي طُفنا فيه قبل الدخول في هذا الميدان الجديد، ولكلِّ عُمر، وإن شئت فقل لكل دورٍ في الحياة، كماله الملائم، نضجُه الخاص به، ونسمع حديثاً عن الرجل النامي في الغالب، ولكن لننظر إلى الولد النامي، فسيكون هذا المنظر أكثر جدّة علينا، ولا يكون أقلّ قبولاً على ما يحتمل.

وتعدُّ حياة المخلوقات المتناهية من الهُزال والضيق ما لا تهزُّنا معه مطلقاً عندما لا نرى غير ما هو كائن، والأوهام هي التي تُزيِّن الأشياء الحقيقية. وإذا كان الخيال لا يُضيف فُتُوناً إلى ما يقف نظرننا، فإن اللذة الجديبة التي تتفق لنا تقتصر على العضو، وتُدع الفؤاد فاتراً. أجل، إن الأرض التي تزيِّن بكنوز الخريف تُعرض ثروة تُعجَب بها العين، بيِّد أن هذا الإعجاب غير مؤثِّر مطلقاً، وهو يصنِّد عن التأمل أكثر من صدوره عن الإحساس، وفي الربيع لا يستر الأرياف العارية شيءً يُغدُّ تقريباً، ولا تُقدِّم الغاب من الظلِّ شيئاً، ولا يبدو من الخُصرة غير الثبَّت، ويتأثر القلب بمنظرها؛ فنحن إذ نرى بعث الطبيعة هكذا نشعر بانتعاشنا ويحيط بنا خيال اللذة، وتكون صواحِب الشهوة هؤلاء، وتكون الدموغُ العذبة هذه، على أطراف أجفاننا، ولكن منظر القُطاف مهما كان حياً نشيطاً لطيفاً لا يُسيلُ عبْرَةَ.

ولم هذا الاختلاف؟ وذلك لأن الخيال يُضيف إلى منظر الربيع منظر الفصول التي تعقبه، ويضمُّ إلى هذه البراعم التي تراها العين أزهاراً وثماراً وظلالاً وأسراراً يُمكن أن تستتر تحتها، ويجمَع في نقطة واحدة أزماناً تعاقب، ويُبصر الأشياء كما تكون أكثر مما يريد، ولأنها يتوقف عليه اختيارها، وعلى العكس، لا يُصنِّد في الخريف غير ما يكون، وإذا ما أُريد بلوغُ الربيع وقفنا الشتاء، ويزول الخيال المُجمَّد على الثلج والجليد.

وهذا هو مصدر الفُتون الذي يكون عند تأمل صبي جميلٍ مُفضَّل على كمال سنِّ الرُّشد، ومتى يطيب لنا أن نرى رجلاً؟ ذلك عندما تحمِلنا ذكرى أفعاله على العود إلى حياته وتجديد شبابه في أعيننا من حيث النتيجة، وإذا ما ألزمتنا باعتباره كما هو، أو بافتراض ما سيكون في مشيبه، فإن فكرة الطبيعة المائلة إلى الزوال تقضي على جميع سرورنا، فلا شيء يسرُّ في رؤية

رجلٍ يسير بخطأً كبيرةً نحو قبره، وتَجعل صورة الموت كلَّ شيءٍ قبيحًا.

ولكنني إذا ما تمثَّلتُ ولدًا يترجَّح عُمره بين العاشرة والثانية عشرة، سليماً قوياً حسن التكوين بالنسبة إلى سنِّه، لم يُوحِ إليَّ بفكرةٍ غير سارةٍ نظراً إلى الحاضر أو المستقبل، فأراه قَوَّارًا حارًّا ذا حيوية، أراه بلا همٍّ قاضمٍ وبلا احترازٍ طويلٍ شاق، أراه متفرِّغًا لحاضره، متمتِّعًا بعافيةٍ تامَّةٍ يبدو أنها تريد أن تمتدَّ إلى خارج نطاقه، وأنتَوِّره في عُمرٍ آخرٍ مُدْرَبًا لحواسِّه وذهنه وقواه التي تنمو فيه يومًا بعد يوم، فيقيم في كلِّ ساعةٍ دليلًا عليها، وأنأمُّله ولدًا فيروقتي، وأنصوره رجلاً فيروقتي أكثر من ذلك، وبلوح أن دمه الحامي يُلهب دمي، فأعتقد أنني أحيا حياته وأن نشاطه يُجدِّد شبابي.

وتدقُّ الساعة، ويا له من تحوُّل! تُغيِّرُ عينه من فؤره، ويزول سروره لحينه، وداعًا أيها الفرح، وداعًا يا ألعاب المرح، ويُمسكه رجلٌ شديدٌ غضوبٌ من يده، ويقول له بوقار: «لنذهب أيها السيد.» ويذهب به. وأبصرُ كُتْبًا في الغرفة التي يدخُلانها، كُتْبًا! يا له من أثاثٍ كئيبٍ نظرًا إلى سنِّه! وينقاد الولد المسكين، ويُلقِي نظرةً أسفٍ على كلِّ ما يحيط به، ويسكت، وينصرف، وتنتفخ عيناه دموعًا لا يجروُ على سَكِّها، ويضخُّم قلبه زفراتٍ لا يجروُ على إظهارها.

وأنت الذي ليس لديه مثلُ ذلك ما يَحشى، وأنت الذي ليس لديه دَوْرٌ من الحياة يُعدُّ وقتَ ضيقٍ وسأم، وأنت الذي يستقبل النهارَ بلا جَزَعٍ والليلَ بلا هَلَع، وأنت الذي لا يُعدُّ الساعات إلا بمسرَّاته. تعال، تعال يا تلميذي السعيد الحبيب، لتتعزَّى بحضورك عن ذهاب ذلك التَّعس، تعال. هو يصل، وأشعر عند دُنُوِّه بهزَّةٍ فرحٍ يشاطرنِي إياها، هذا هو صديقه وصاحبه، هذا هو رفيق ألعابه الذي يجتمع إليه. ومما لا مراء فيه أنه حين يراني لا يبقى زمنيًا طويلًا من غير أن يلهو، وليس أحدنا تابعًا للآخر مطلقًا، ولكننا نتفق دائمًا، ولا نكون مع أحدٍ سعداء كما نكون عليه معًا.

ويتمُّ مُحيَّاه وشكله وقوامه على الطمأنينة والرضا، ويَطْفَحُ وجهه صحة، وتُدُلُّ خطاه النابتة على القوَّة، ولا يُوجدُ في سَحْنَتِهِ الرقيقة بلا تَفَهٍ شيءٌ من النَّائِث؛ فالريح والشمس طبعاتها بطابع الرجولة المُكْرَم، وتأخذ عضلاته التي لا تزال مستديرةً في الإشارة إلى أسارير وجهه ناشئ، ويظهرُ على عينيه اللتين لم تُلهبهما نارُ هوىٍ بعدُ صفاؤهما الأصليُّ على الأقل، ما داما لم يُظْلِما بأحزانٍ طويلة، وما دامت لم تُحطِّطْ حَدِيه دموعٌ لا حَدَّ لها. وأبصروا في حركاته السريعة، ولكن مع المضاء، رشاقةً سنِّه، ومثانةً الاستقلال، وتجربةً التمارين الكثيرة. أجل، إنَّ له وجهًا طليقًا وثابتًا، ولكن من غير صفاقةٍ ولا خيلاء، ولا يقَعُ وجهه الذي لم يَلصقْ بالكتب على مَعْدَتِهِ مطلقًا، ولا يحتاج إلى أن يُقال له: «ارفع رأسك.» ولم يَحْمِلْه الخجلُ ولا الوجَلُّ على خفضِ رأسه قَط.

ولتجعل له مكاناً في وَسَطِ المجلس، وأفحصوه أيها السادة، واسألوه بكلّ ارتياح، ولا تخشوا لجاجه ولا هذره ولا أسئلته الطائشة، ولا تخافوا تغلبه عليكم، ولا زعمه أن يشغلكم بنفسه فلا تقدروا على التخلُّص منه.

وكذلك لا تنتظروا منه أحاديثَ حُلوة، ولا أن يخاطبكم بشيءٍ أُمليهِ عليه، ولا تنتظروا منه غير الحقيقة الساذجة البسيطة الخالية من التزييق والتكُلُف والزهو، وسيُحدِّثكم عن سوء ما صنع أو عن سوء يَري أن يصنع، ولكن بصراحةٍ كالتّي تُبدى عن خيرٍ يُصنَع، وذلك من غير أن يرتبك حول ما يكون لقوله من أثرٍ فيكم، فسيأخذ من البساطة في الكلام ما يُدكّر بأوّل عهده.

ونُحِبُّ أن نتوسّم الخَيْرِ في الأولاد، ومما يُثير الأسف دائماً تلك الغباوات التي تصدر لتقلّب - دائماً تقريباً - آمالاً يُرغَب في استنباطها من عبارةٍ موفقة تجري على لسانهم مصادفة، وإذا حدث، ولكن على نُدرّة، أن ألقى تلميذي مثل هذه الآمال، فإنه لا يصُدّر عنه ما يوجب الأسف مُطلقاً؛ وذلك لأنه لا ينطق بكلمةٍ باطلة مُطلقاً، ولا يضمني بثثرةٍ يَعلم أنها لا تُسمع مُطلقاً، وأفكاره محدودة، ولكنها واضحة. وهو إذا لم يَعرف شيئاً من الاستظهار، فإنه يَعرف كثيراً عن تجربة، وهو إذا كان أقلّ اقتداراً من ولدٍ آخَرَ على القراءة في كتبنا، فإنه أحسنُ مطالعةً في كتب الطبيعة، وليس ذهنه في لسانه بل في رأسه، وهو أقلُّ ذاكراً منه حكماً، وهو لا يَعرف أن يتكلم غير لغة واحدة، ولكنه يُدرك ما يقول، وهو إذا لم يكن كالأخرين حُسنَ قولٍ فإنه يفوقهم حُسنَ فعل.

وهو لا يَعرف ما التّمطية^{٤٣}* ولا العرف ولا العادة، وما صنعه أمسٍ لا يُوثرُ فيما يصنَع اليوم^{٤٤}؛ مُطلقاً، وهو لا يتبع صيغةً مُطلقاً، وهو لا يُدعِن لمرجعٍ ولا لمثالٍ مُطلقاً، وهو لا يعمل ولا يقول غير ما يلائمه. وهكذا فلا تنتظروا منه كلاماً أُمليّ عليه ولا أوضاعاً دُرست له، وإنما انتظروا منه دائماً تعبيراً صادقاً عن أفكاره وسلوكاً ناشئاً عن ميوله.

وتجدون له عددًا قليلاً من المبادئ الخُلُقِيّة الخاصة بحاله الحاضرة، ولا تجدون له مبدأ

٤٣ * La routine.

٤٤ تنشأ جاذبية العادة عن كسل الإنسان الطبيعي، ويزيد هذا الكسل بتعاطيه؛ فمن السهل البالغ صنْعُ المصنوع، وذلك بما أن السبيل تكون ممهّدة فإن سلوكها يكون سهلاً جداً، وكذلك فإنّ من الممكن أن يلاحظ كونُ سلطان العادة عظيماً إلى الغاية على الشَّيب والكسالي، وكونه ضعيفاً إلى الغاية على الشَّيبة وذوي النشاط، وهذا النظام غير صالح لسوى أصحاب النفوس الضعيفة، وهو يُضعفها يوماً بعد يوم، والعادة الوحيدة النافعة للأولاد هي الخضوع لضرورة الأمور بلا مشقة، والعادة الوحيدة النافعة للرجال هي الخضوع للعقل بلا مشقة، وكل عادة غير هذه نقيصة.

خاصًّا بحال النَّاسِ، وما فائدة هذه المبادئ للولد ما دام غيرَ عُضْوٍ عامِلٍ في المجتمع؟ إذا ما كلمتموه عن الحرية والتَّمَلُّكِ وعن العهد أيضًا أمكنه أن يَعْرِفَ حتى هذا الحد، وهو يَعْرِفُ السببَ في أن الذي له هو له، والسببَ في أن الذي ليس له هو ليس له، فإذا عدا هذا عاد لا يَعْرِفُ شيئًا، وإذا ما كلمتموه عن الواجب والطاعة لم يَعْرِفَ ما تَقْصِدُونَ أن تقولوا، وإذا ما أمرتموه أن يصنع شيئًا لم يَصْغَ إليكم، ولكنكم إذا قلتم له: «اعمل لي هذا المعروف أُرُدُّه إليك في الوقت المناسب.» بادرَ من فُورِهِ إلى إرضائكم؛ وذلك لأنه لا يَطْلُبُ ما هو أفضلُ من بسطِ سلطانه، ومن حصوله منكم على حقوقٍ يَعْرِفُ أنها لا تُنتهك، حتى إن من المحتمل ألا يأسف على مكانٍ يُحرَز، أو على حسابٍ يقدِّم، أو على مبلغٍ يُطلب، ولكنه إذا ما ساوره هذا الباعثُ الأخير خرج عن دائرة الطبيعة، وأعوذكم إغلاقُ جميع أبواب الغرور مُقَدِّمًا.

ويحتاج من ناحيته إلى مساعدة، وهو يطلبها من أوَّلِ مَنْ يصادف بلا تفریق، هو يطلبها من الملك أو خادمه؛ فجميع النَّاسِ متساوون في نظره. وترون من اللهجة التي يطلب بها أنه يشعر بعدم وجود أحدٍ مدين له بشيء، وهو يَعْرِفُ أنه يطلب فضلًا، وهو يَعْرِفُ أيضًا أن الإنسانية تأمر بأن يُجاب إلى ما يسأل. ويكون كلامه بسيطًا موجزًا، وينمُّ صوته ونظرتَه وحركته على مخلوقٍ تعود القبول والرفض على السواء. وليس هذا ما ينطوي عليه خضوع العبد من صغارٍ وذِلَّة، ولا لهجة السيد المتجبر، وإنما هو اعتمادٌ متواضع على نظيره، وإنما هو حلمٌ كريمٌ مؤثِّرٌ ناشئٌ عن موجودٍ حُرٍّ، ولكنه حَسَّاسٌ خافضٌ جناحٍ يطلب العون من موجودٍ حُرٍّ، ولكنه قويٌّ محسن، وإذا منحتموه ما يطلب لم يشكر لكم، وإنما يشعر بأنه عقْدٌ دينًا، وإذا رفضتم ما يطلب لم يألَم ولم يُلحِف قط؛ فهو يَعْرِفُ أن هذا غيرُ مُجدِّ، وهو لن يقول في نفسه: «لقد رُفِضَ طليبي.» بل يقول: «لم يكن هذا ممكنًا.» والأمر كما قلت: إنه لا ينبغي أن يثارَ على الضرورة المُسلم بها.

ودعوه طليقًا وحدَه، وارقبوه وهو يسير من غير أن تقولوا له شيئًا، ورؤوا ما يصنع وكيف يتأهب لما يصنع، وبما أنه لا يحتاج إلى إقناع نفسه بأنه حُرٌّ فإنه لا يفعل شيئًا عن طيشٍ مطلقًا، وإنما يأتي عملَ سلطانٍ على نفسه، أولاً يعلم أنه سيدٌ نفسه دائمًا؟ وهو نشيطٌ رشيقٌ خفيف، وتجد في حركاته كلَّ ما ينطوي عليه عُمره من حيوية، ولكنك لا ترى له من الحركات ما لا يهدف إلى غاية، ومهما يُرد أن يفعل فإنه لن يحاول فعلًا ما يفوق طاقته؛ وذلك لأنه اختبر قواه وعرف ما هي، وستكون وسائله سالحةً لمقاصده دائمًا. ومن النادر أن يعمل قبل أن يطمئن إلى النجاح، وستكون له عينٌ بصيرةٌ يقظي، ولن يتصدى للآخرين حتى يسألهم بغاوةٍ عن جميع ما يرى، ولكنه يُدققُ فيما يرى بنفسه ويبدل جهدًا ليصل قبل السؤال إلى ما يريد أن يعلم، وهو إذا

ما وقع في ورطة طارئة كان ارتبائه بها أقل من ارتبائه الآخرين، وإذا ما وُجدَ خطرٌ قلَّ دُعره أيضًا. وبما أن خياله يظلُّ مُعطلًا أيضًا، ولم يُصنع شيءٌ لإثارته، فإنه لا يرى غير ما هو واقع ولا يُقدِّر الأخطار إلا بمقدارها مُحافظًا على اعتدال دمه دائمًا، وتبلغ الضرورة من شدة الوطأة عليه ما لا يقاومها معه أيضًا، وهو يحمل نبرها منذ ولادته، وهو يتعوّدها، فيكون مستعدًّا لكلِّ شيءٍ في كل وقت.

وسواءً عليه، أَعْمِل أم تَلْهَى، يتساوى هذان الأمران عنده؛ فالعابه أعماله، لا فرق بينهما لديه، وهو يضع في كلِّ ما يصنع ما يُغري بالمرح كما يضع من الحرية ما يروق مُبدئيًا ميل ذهنه ومدى معارفه. أليس من مناظر هذا العُمُر الساحرة الخُلوة أن يُرى ولدٌ ظريفٌ حادُّ البصرٍ مَرِح النظر، ذو ملامح تدلُّ على الرِّضا والصفاء، وذو وجهٍ طليقٍ باسم، يأتي أكثرَ الأمورِ جِدِّيَّةً وهو يلعب، أو يأتي أكثرَ الألعابِ لغوًا وهو يعمل؟

أوتريدون الآن أن تحكموا فيه بالقياس؟ اجعلوه بين أولادٍ آخرين، ودعوه لنفسه، فلا تلبثوا أن تروا أيُّهم أحسنُ تقويمًا حقًّا وأيُّهم أكثرُ اقتربًا من كمالِ سنِّه. ولا أحدٌ بين أبناء المدينة أمهرُ منه، ولكنه أقوى من كلِّ واحدٍ آخر، وهو إذا ما وُجد بين الفتيان الفلاحين ساوهم قوَّةً وفاقهم مهارة. وهو في جميع الأمور التي تكون في متناول دور الصبا يظهرُ أحسنَ من جميعهم حُكمًا وتعقلًا وبصيرة، وإذا ما دار الأمر حول العمل، والعُدو والوثوب، وزعزعة الأجسام ورفع الأجرام وتقدير المسافات، واختراع الألعاب ونيل الجوائز؛ قيل إن الطبيعة خاضعة لأوامره ما سهَّلَ عليه أن يجعل كلَّ شيءٍ خاضعًا لإرادته؛ فهو قد صُنِع لقيادة أمثاله والسيطرة عليهم، وما اتَّفَقَ له من نبوغٍ واختيارٍ يقوم مقامَ الحقِّ والسيادة. ومهما يكن الرِّداء الذي يرتديه والاسم الذي يحمله فلا أهمية لهما، فسُيكتب له السبق في كل مكان، وسيكون رئيسًا للآخرين حيشما كان، وهم سيشعرون بأنه أفضلُ منهم دائمًا، وهو سيكون السيد من غير أن يريد القيادة، وهم سيطيعون من حيث لا يدرون.

وهو قد بلغ ذروة الكمال من دُور الصبا، وهو قد قضى حياة وُلد، وهو لم يشترِ كماله على حساب سعادته، وعلى العكس قد تسابقت هذه الأمور انقيادًا له. وهو إذ نال كلِّ ما لِسَنِّه من عقلٍ كان سعيدًا حُرًّا بمقدار ما تسمح به بنيته، وإذا ما أتى الموت الحاصد ففُطِعَ به زهرة آمالنا لم نَبِك حياتِه ولا موته معًا قَط، ولم نُلهب آلامنا عن تذكُّرنا آلامًا أورتناه إياها، وإنما نقول: «لقد تمتع بصباه على الأقل، ولم ننزع منه شيئًا أنعمت الطبيعة به عليه.»

وأكبرُ محذورٍ في هذه التَّربية هي كونُها لا تُقدِّر من غير ذوي البصائر، وكونُ الولد الذي يُنشأ

بتلك العناية البالغة لا يبدو في عيون العوامِّ غيرَ خشين. والمُعَلِّمُ يُفَكِّرُ في مصلحةِ الولدِ أَقلَّ مما يُفَكِّرُ مصلحةَ الخاصةِ، وهو يُعْنَى بإثباته أنه لا يُضَيِّعُ وقته، وأنه يستحقُّ الأجرَ الذي يُعطاه، وهو يُرَوِّدُه بمحصولِ سَهْلٍ عَرَضُهُ، ممكنٍ إظهاره متى يُراد. وليس المهمُّ في فائدةِ ما يُعلِّمه إياه، بل في سهولةِ تبيُّنه، وهو يَشْحَنُ ذَاكِرَتَهُ بمائةِ حشوٍ يركمه فيها بلا انتخابٍ ولا تمييزٍ، ومتى وجب امتحانُ الولدِ حُمِلَ على نشرِ بضاعته، وهو إذا ما عَرَضَهَا حازَ قِيولًا، ثُمَّ يَطْوِي رِزْمَتَهُ ويذهب. وأمَّا تلميذي فليس غنيًّا بهذا المقدار، وليست عنده رِزْمَةٌ ينشرها مطلقًا، وليس عنده ما يُعْرَضُ غيرُ نفسه. والواقعُ أن الولدَ كالرَّجُلِ، لا يُعرَفُ في دَقِيقَةٍ واحدةٍ. وأين هم الراصدون الذين يمكنهم إدراكُ خصائصه أوَّلَ وهلةٍ؟ أجل، قد يوجد مثل هؤلاء، غير أنهم قليلون، ولا تكاد تجدُ واحدًا منهم بين كلِّ مائةِ ألفِ أبٍ.

وإذا ما كَثُرَتِ الأسئلةُ تَبَرَّمَ منه جميعُ النَّاسِ، ولا سيَّما الأولادَ، ورفضوها، وذلك أنه لا تكاد تَمْضِي بضَعُ دقائق حتى يكون انتباههم قد كَلَّ، وعادوا لا يُلقون السمعَ إلى ما يسألهم عنه سَنَوُلٌ عنيده، وعادوا لا يُجيبون إلا عن غير تبصُّر. ويُعدُّ هذا الأسلوبُ في امتحانهم حَدَلَقِيًّا غير نافع، وفي الغالب تُعدُّ الكلمةُ العابرةُ أفضلَ من الكلامِ المُطَوَّلِ في الدلالةِ على إحساسهم وإدراكهم، ولكن لِيُحْتَرَزَ من كون الكلمةِ قد أُمليت أو أُلقيت عَرَضًا. ولا يُدَّ للرجل من أن يكون صائبَ الحكم حتى يُحسِنَ تقدير حُكْمِ الولدِ.

وقد سمعتُ المرحومَ اللورد هَيْد يقول إن صديقًا له عاد من إيطاليا بعد غياب ثلاثة أعوام، فأراد فحص ابنه البالغ من العُمُر ما بين التاسع والعاشر، ويذهب ذاتَ مساء هو وابنه ومُعَلِّمه للنزهة في العراء؛ حيث يلهو الطلبة بقيادة طيَّارات. وبيَّنا كان الأبُ مارًا قال لابنه: «أين الطيَّارة التي تُلقني هذا الظل؟» فقال الولد من غير تردُّدٍ ولا رَفْعِ رأسٍ: «على الطريق العام.» ويقول اللورد هَيْد مُعَقَّبًا: «حقًّا أن الطريق العام كان بيننا وبين الشمس.» ويُقبَلُ الأبُ ابنه عند سماع هذه الكلمة، ويُنهى فحصه وينصرف من غير أن يقول شيئًا. فلما كان الغدُ أرسل إلى المُعَلِّمِ شهادةً يُجري عليه بها وظيفةً مدى العُمُر فضلًا عن رواتبه.

يا لذلك الأب من رجل! ويا للولد الذي وُعدَّ به! إن السؤالَ مُلائمٌ لعُمُر الولدِ ضبطًا، والجوابُ بسيطٌ تمامًا. ولكن انظر إلى ما يفترض من بصيرةٍ في قوة التمييز عند الولد! هذا هو الوجه الذي رَدَّ به تلميذُ أرسطو جِمَاحَ ذلك الحصان الشهير الذي لم يستطع أن يُروِّضه فارس.

الجزء الثالث

إن جميع مجرى الحياة حتى المراهقة هو دورٌ ضَعْف، ومع ذلك تُوجد نقطة في أثناء دور العُمر الأَوَّل هذا يجاوز فيها تقدُّم القوى تقدُّم الحاجات، فيصير الحيوان النامي الذي لا يزال ضعيفاً على الإطلاق قوياً نسبة. وبما أن احتياجاته لم تنمُ كُلُّها بعد، فإن قواه الحاضرة تُزبي على الكفاية قضاءً لما لديه، ويكون ضعيفاً إلى الغاية كرجل، ويكون قوياً إلى الغاية كولد.

ومن أين يأتي ضَعْفُ الرجل؟ يأتي من التفاوت بين قوَّته ورغباته. وأهواؤنا هي التي تجعلنا ضعفاء؛ وذلك لأن قضاءها يتطلَّب من القوَى ما هو أكثر مما تُعطي الطبيعة. وإذا ما نقصتم الرغبات بدوتم كأنكم زدتم القوَى. ومن يقدر أكثر مما يرغب تكن عنده قوة احتياطية، ويُعدُّ قوياً جداً لا ريب، وهذا هو دور الوُلُودية الثالث، وهو الذي أتكلّم عنه الآن، وأداوم على تسميته ولودية لعدم وجود كلمة خاصة أُعبرُ بها عنه؛ وذلك لأن هذه السن تدنو من المراهقة من غير أن تصل إلى البلوغ.

وتنمو قوى الولد البالغ من العُمر اثنتي عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة بأسرع مما تنمو به احتياجاته، ولا يزال أقوى الأهواء وأعنفها غير معروف، ولا يزال نموه البدني ناقصاً منتظراً نداء الإرادة كما يلوح، ولا تؤثر فيه تقلبات الهواء والفصول إلا قليلاً، وهو يقاومها بلا عناء، وتقوم حرارته الناشئة مقام الثياب، وتقوم شهوة طعامه مقام تعليل غذائه بالتوابل، وكلُّ ما يمكن أن يُقيت صالحٌ لسنه، وهو إذا ما أدركه الثعاس استلقى على الأرض ونام. وهو يجد حوله كلَّ ما يحتاج إليه، ولا يؤلمه أي احتياجٍ خيالي، ولا عملٌ لرأي الآخرين فيه، ولا تتعد رغباته عن مدى ذراعيه، ولا يستطيع أن يكفي نفسه بنفسه فقط، بل لديه من القوَى ما يمتدُّ إلى ما وراء احتياجه أيضاً، وهذا هو دور حياته الوحيد الذي تزيد قوَّته على احتياجه.

وأشعر بالاعتراض قبل وقوعه، ولن يُقال لي إن للولد من الاحتياجات ما هو أكثر مما أُعطيه، ولكنه سيُنكر ما أعزوه إليه من القوة، ولن يُفكّر في أنني أتكلّم عن تلميذي، لا عن تلك الدُمي المنتقلة التي تطوف بين غرفةٍ وغرفةٍ، والتي تُقلَّبُ صُنْدوقاً وتحمل أثقالاً من المُقوَى. وسيقال لي إن قوة الرجل لا تظهر في غير دور الرجولة، وإن الأرواح الحيوية التي تُعدُّ في أوعية ملائمةٍ وتنتشر في جميع البدن يمكنها وحدها أن تمنح العضلات ثباتاً ونشاطاً وقوةً وناصباً؛ أي ما تنشأ عنه طاقةٌ حقيقية، وهذه هي فلسفة الحُجْرَة. وأمّا أنا فأدعو إلى التجربة، وأرى في أريافكم فتیاناً كباراً يحرثون ويقلّبون الأرض ويمسكون المحراث ويملئون برميلٍ خمر ويسوقون عربة كآبائهم، فيُحسبون رجالاً لو لم يسم صوتهم عليهم، حتى في مدنا ترى أولاداً من العمال

والحدادين والقُيون والبيطرة بالغين مثل قوة المُعلِّمين تقريبًا، فلا يَقْلُون عنهم حدًّا إذا ما دُرِّبوا في الوقت المناسب. وإذا وُجِدَ فرق، وهو ما لا أنكره، فأقول مُكرِّرًا إنه أقلُّ كثيرًا مما بين رغبات الرجل الفائزة ورغبات الولد المحدودة. ثمَّ إن الأمر ليس قاصرًا هنا على القوة البدنية فقط، بل يتناول، خاصة، أيضًا قوة الذهن واستعداد الذهن الذي يُعني عنها أو الذي يوجِّهها.

وهذه الفاصلة التي يَقْدُرُ الفردُ فيها أكثرَ مما يَرغب، وإن لم تكن دَوْرَ قُوَّته الكبرى المطلقة، هي دور قُوَّته الكبرى النسبية، وهي أئمن دورٍ في حياته، وهي الدور الذي لا يأتي غير مرة واحدة، وهي الدور القصير جدًّا، وهي الدور الذي يبدو بالغ القصر عند النظر إلى أهمية استخدامه جيّدًا كما يُرى ذلك فيما بعد.

وما يصنع إذن بهذا الزائد من الخصائص والقوى التي يحوز كثيرًا منها في الوقت الحاضر، والتي تفوته في دورٍ آخرٍ من العُمُر؟ هو سيسعى في استخدامها في أمورٍ يُمكنه الاستفادة منها عند الحاجة؛ أي إنه يُلقِي الزائد من وجوده الحاضر في المستقبل؛ أي إن الولد الضلبي سيُدخِر للرجل الضعيف، ولكنه لن يضع ما يَخزن في صناديقٍ يمكن أن تُسرق منه، ولا في أنبارٍ خارجةٍ عنه، وفي ذراعيه وفي رأسه وفي نفسه ما يضع الذي يَكسِبُ تملكًا له حقًّا. وهذا هو إذن وقت العمل والعرفان والدرس، ولا حظوا أنني لست الذي يقوم بهذا الاختيار متحكّمًا، بل الطبيعة نفسها هي التي تدلُّ عليه.

وللذكاء البشري حدود، ولا يستطيع الإنسان أن يَعْرِفَ كلَّ شيءٍ، حتى إنه لا يستطيع أن يَعْرِفَ تمامًا ما يَعْرِفه الآخرون من شيءٍ قليل، وبما أن ما يناقض القضية الباطلة حقيقة، فإن عدد الحقائق لا ينفد كعدد الأبطال؛ ولذا يوجد اختيارٌ في الأمور التي يجب أن تُعلِّم كما في الزَّمن الصالح لتعلُّمها. ومن المعارف الواقعة في متناولنا ما هو باطل وما هو غير نافع، وما يُفِيدُ في تغذية زهو الحائز لها. وعدد المعارف القليل الذي يساعد على رفاهيتنا حقًّا هو الجدير وحده بتحرِّي الرجل العاقل؛ ومن ثمَّ بتحرِّي الولد الذي يُراد جعله هكذا، ولا يقوم الأمر على معرفة ما هو كائن، بل على معرفة ما هو نافع فقط.

ومن ذاك العدد القليل أيضًا يجب هنا أن تُخرَج الحقائق التي يتطلب فهمها قوة إدراكٍ تامة التكوين، أن تُخرَج الحقائق التي تفترض معرفة صِلات الإنسان، فلا يستطيع الولد اكتسابها، أن تُخرَج الحقائق التي تحمِل الذهن غير المُجرَّب على التفكير الفاسد في موضوعاتٍ أخرى، وإن كانت تلك الحقائق صحيحةً في نفسها.

وها نحن أولاء قد فُصِّرنا على دائرة صغيرة بالنسبة إلى وجود الأشياء، ولكن هذه الدائرة تُؤَلَّف دائرة واسعة بالنسبة إلى ذهن الولد! ويا ظُلُمات الإدراك البشري، أيُّ يدٍ مغامرةٍ كانت من الحُرْاة ما مسَّت معه حِجابِك؟ ويا للهوى التي أرى حُفْرها بعلومنا الباطلة حول هذا الفتى النعس! وارتجف أنت الذي يقوده من هذه الطُرُق الخطرة، والذي يرفع أمام عينيه ستار الطبيعة المقدس، وليكن رأسه ورأسك أوَّل ما تطمئن إليه، واخش أن يُصاب هذا أو ذاك بالدوار أو أن يُصابا معاً على ما يُحتمل، وحَفَّ بِسِحْرِ الباطل الممؤه وفتون أبخرة الرهو، واذكر - واذكر دائماً - أن الجهل لا يؤدي أبداً، وأن الشؤم في الضلال، وأن الإنسان لا يَصِلُ بما لا يَعْرِف بل يَصِلُ بما يعتقد أنه يَعْرِف.

وقد يَصِلُ تقدُّمه في الهندسة دليلاً لكم وقياساً صحيحاً عندكم على نموِّ ذكائه، ولكنه إذا ما استطاع أن يميِّز النافع من غير النافع وَجَبَ اتخاذ كثيرٍ من الحذر والبراعة جَدْباً له إلى الدروس النظرية، وإذا ما أردتم مثلاً أن يبحث عن وَسَطٍ مناسبٍ بين خطين فاصنعوا ما يجب أن يجد معه مريعاً مساوياً لِمَثَلِ ما، وإذا ما طُلِبَ وَسَطان مناسبان وجب أن يُحمَلَ أوَّلًا على الاكتراث لمضاعفة المكعب ... إلخ. ورؤا كيف ندنو بالتدريج من المبادئ الخلقية التي تميِّز الخير من الشر، ولم نعرف حتى الآن غير قانون الضرورة، والآن نُعنى بما هو مفيد، وسنتهي إلى ما هو ملائمٌ حَسَنٌ عما قليل.

وتُحرِّك عَيْنُ الغريزة مختلفَ خصائص الإنسان، ويعقُب نشاطَ البدن الذي يحاول أن ينمو نشاطَ الذهن الذي يحاول أن يتعلَّم. وليس الأولاد في البُداء غير قلقين، ثمَّ يكونون محبين للاطلاع، ويُعدُّ هذا الفُضول الحسنُ التوجيه مُحركُ العُمر الذي بلغناه. ولنفرِّق دائماً بين الميول التي تصدُر عن الطبيعة والميول التي تصدُر عن رأي النَّاس، ويوجد شوقٌ إلى المعرفة ليس له أساسٌ غير الرغبة في الظهور بمظهر التعلُّم، ويوجد شوقٌ آخر إلى المعرفة ينشأ عن حبِّ اطلاعٍ طبيعيٍّ في الإنسان حول كلِّ ما يمكن أن يُهمِّه عن قُرْبٍ أو بُعْد، وما يكون من رغبةٍ غريزية في الرفاه من تعدُّر إشباع هذه الرغبة تماماً، يحفِّزه إلى البحث بلا انقطاع عن وسائلٍ جديدةٍ تُعِين على ذلك. وهذا هو أصل الفُضول الأوَّل، وهذا هو الأصل الطبيعي في قلب الإنسان من أن نشوءه يأتي على نسبةٍ أهوائنا ومعارفنا، ولنتمثَّل فيلسوفاً نُفِي إلى جزيرةٍ قَفْرٍ مع آلاتٍ وكُتُبٍ عالِماً أنه سيقضي فيها بقية حياته وحيداً، فلن يُزعج هذا الفيلسوف نفسه بمعالجة نظام العالم وسنن الجاذبية وحساب التفاضل، ومن المحتمل ألا يفتح كتاباً واحداً مدى حياته، ولكن مع عدم الاستكفاف عن ريادة جزيرته حتى آخر زاوية منها مهما كانت هذه الجزيرة كبيرة، ولنحذف من دروسنا الأولى إذن معارفَ ليس تدوُّفها

طبيعياً لدى الإنسان، ولتقتصر على المعارف التي تحمِلنا الغريزة على البحث عنها.

والأرض هي جزيرة الجنس البشري، والشمس هي أكثر ما يقف نظرتنا، وإذا ما أخذنا نبتعد عن أنفسنا وجب أن يقع انتباهنا على هذه وتلك، وهكذا فإن فلسفة جميع الشعوب الوحشية تقريباً تدور حصراً حول تقسيمات خيالية عن الأرض وحول ألوهية الشمس.

وقد يُقال: يا له من ابتعاد! لقد كُنّا نعالج منذ هنيهة ما يمسنّا، ما يُحيط بنا مباشرة، وها نحن أولاء نجوب الأرض ونقفز إلى أقاصي العالم بغتة! إن هذا الابتعاد نتيجة تقدم قُوانا وميل ذهننا، وإن اكتراثنا لبقائنا في حالة ضعفنا ونقصنا يحصرنا ضمن أنفسنا، وإن رغبتنا في توسيع كياننا في حالة قدرتنا وقوتنا تحمِلنا إلى ما وراء ذلك وتدفعنا إلى الوثوب إلى أبعد ما يمكننا. ولكن بما أن العالم الذهني لا يزال مجهولاً لدينا، فإن فكرنا لا يذهب إلى ما هو أبعد من عيوننا، ولا يمتد إدراكنا إلا ضمن المسافة التي يقيس.

ولنحوّل إحساساتنا إلى أفكار، ولكن لا نقفز بغتة من الأشياء المحسوسة إلى الأشياء الذهنية؛ فبالأولى نصل إلى الثانية، ودع الحواس أدلاء أعمالِ الذهن الأولى دائماً، فلا كتاب غير العالم، ولا تعليم غير الأعمال. والولد الذي يقرأ لا يفكر، وهو لا يفعل غير القراءة، وهو لا يتعلم، بل يحفظ كلمات.

واجعلوا تلميذكم منتبهاً لحادثات الطبيعة، فليسرعان ما تجعلونه مُحباً للاطلاع، ولكن تغذية فضوله لا تقضي بالمبادرة إلى إشباعه مطلقاً، وضعوا الأسئلة ضمن متناوله، ودعوه يحلها. ولا ينبغي أن يعرف شيئاً عن كونكم قد أطلعتموه عليه، بل عن كونه قد أدركه بنفسه. ولا ينبغي أن يتعلم العلم، بل يجب أن يكتشفه، وإذا أقمتهم السلطان مقام العقل في ذهنه عاد لا يتعقل وصار ألعوبة رأي الآخرين.

وتريدون أن يتعلم هذا الولد الجغرافية، وثحضرون له كراتٍ وخرائط، ويا لها من آلات! ولم جميع هذه الرسوم؟ ولم لا تبدعون بإراءته الشيء نفسه حتى يعرف الشيء الذي تحدثونه عنه على الأقل؟

وفي مساءٍ جميلٍ يذهب للنزهة في مكان ملائم حيث يرى غياب الشمس عند الأفق الواسع، وحيث تلاحظ الأشياء التي تجعل مكانَ غيابها سهلاً معرفته، وفي الغد يراذ تنسم الهواء العليل، فيرجع إلى عين المكان قبل طلوع الشمس، ويُبصر من بعيد أنها تُؤذن نفسها بما تلقيه من خطوط نارية سابقة لها، ويزيد الحريق، ويظهر الشرق مضطرباً لهيباً، وعلى نور ذلك ينتظر

الكوكب طويلاً قبل أن يطلع، ويُظنُّ في كل ثانية أنه يُرى ظهوره، ويشاهدُ أخيراً، وذلك بأن نقطة تنطلق كالبرق فتملأ جميع الفضاء من فورها، ويمحي حجاب الظلام ويسقط، ويعرف الإنسان منزله ويَجِدُه مُزْداناً، وقد اكتسبت الخُضْر في الليل قوَّةً جديدة، فلما أضاءها النهار الناشئ أبدتها الأشعة الأولى مستورةً بشبكة لامعة من الندى تعكس على العين نوراً وألواناً، وتجتمع الطيور مواكبٍ وتُحْيِي رَبَّ الحياة متفقة. ولا طير يَسْكُت في ذاك الحين، وعلى ما يكون من ضعف تغريدها يُعدُّ أبطأ وأحلى مما في بقية النهار؛ فهو يَنِمُّ على انتباهٍ من النوم ساكنٍ وإن، ويَحْمِلُ توافقُ جميع هذه الأمور إلى الحواس أثراً من النضارة يلوح نفوذه حتى الروح، وهنالك يتجلى فتونُ نصفِ ساعةٍ لا يستطيع الإنسان مقاومته، وذلك منظرٌ عظيمٌ جداً، رائعٌ جداً، لطيفٌ جداً، فلا يقدر الإنسان أن يشاهده من غير أن يهتز فؤاده.

وفيضُ المُعلِّمِ حماسة، فيريد أن يشاطره الولد إياها، ويعتقد أنه يُحرك الولد بجعله يبتنيه للإحساسات التي حرَّكته بنفسه، ويا لها من حماقة صرفة! إن بهاء منظر الطبيعة هو في قلب الإنسان، ويجب أن يُشعر به ليرى. أجل، إن الولد يُبصر الأشياء، ولكنه لا يستطيع أن يُبصر ما يربط بينها من صلوات، ولكنه لا يستطيع أن يُدرك ما في اتلافها من انسجام لطيف، ولا بدُّ له من تجرئة لم يكتسبها قط، ولا بدُّ له من مشاعرٍ لم يُحسَّها قط؛ وذلك ليشعر بالأثر المُركَّب الذي ينشأ عن جميع هذه الإحساسات معاً. وهو إذا لم يَجِبْ سهوياً جديدةً زمنًا طويلاً، وهو إذا لم تَكُو رجليه رمالاً مُحْرِقة، وهو إذا لم يَضغطه انعكاسُ الصخور التي لفحتها الشمس انعكاساً خانقاً، فكيف يستطيع الهواء العليل في صباح جميل؟ وكيف تُفتن حواسُه بعطر الأزهار وسحر الخُضْر وببخار الندى الرطيب وبالمشية الخفيفة اللطيفة على الأرض المُخضرة؟ وكيف يُوجب فيه تغريد الطيور هوى شهوةٍ إذا كان جاهلاً لحركات الغرام واللذة بعد؟ وبأي هفيفٍ يرى ظهورَ نهارٍ بالغ تلك الروعة إذا لم يستطيع خياله أن يَصوِّر له ما يمكن أن يملأه؟ وأخيراً كيف يرقِّق لجمال منظر الطبيعة إذا كان يجهل اليد التي غيّت بزخرفتها؟

ولا تُوجِّهوا إلى الولد من الكلام ما لا يستطيع أن يفهم، فلا وصف ولا بلاغة ولا مجاز ولا شعر، فليس الآن وقتُ الإحساس والذوق، وداوموا على الوضوح والبساطة، وأن تكونوا فاترين عالمين أن زمن اتخاذ لغةٍ أخرى لا يأتي إلا باكراً.

وهو إذ يُنشأ على روح مبادئنا وعلى استنباط جميع وسائله من نفسه، وهو إذ لا يستعين بالآخرين إلا بعد أن يُدرك عدم كفايته، فإنه يفحص طويلاً كلَّ موضوعٍ جديدٍ يراه ملتزمًا جانب

الصمت، ويكون مفكرًا لا سئولًا، واكتفوا بعرض الأشياء عليه في الوقت المناسب، ثم إذا ما أبصرتكم حُبُّ الاطلاع فيه قائمًا بما فيه الكفاية فضعوا له من الأسئلة المختصرة ما يحلُّه.

وفي هذه الأثناء، وبعد أن تُنعموا النظر معه في الشمس البازغة، وبعد أن تجعلوه يلاحظ الجبال والأشياء المجاورة الأخرى من ذات الجهة، وبعد أن تدعوه يتكلّم حوّل ذلك بلا تعبٍ اسكُتوا لبضع دقائق كرجلٍ سابحٍ في الخيال، ثمّ قولوا له: «إنني أفكرُ في أمر الشمس التي غرّبت أمس مساءً هنالك، والتي طلعت اليوم صباحًا هناك، فكيف يمكن وقوع هذا؟» ولا تضيفوا شيئًا إلى ذلك. وإذا ما وُضِعَ لكم أسئلةٌ فلا تُجيبوه عنها مطلقًا، وإنما كلّموه عن شيءٍ آخر، ودعوه وشأنه واتقن بأنه سيُفكرُ في ذلك.

ويجب لكي يتعوّد الولد الانتباه ولكي تَقِفَ نظره بعضُ الحقائق المحسوسة، أن تُترك له هذه الحقيقة بضعة أيامٍ من القلق قبل اكتشافها. وهو إذا لم يتمثلها على هذا الوجه بما فيه الكفاية كان هنالك من الوسائل ما يجعلها أكثر بروزًا أيضًا، وهذه الوسيلة هي إعادة السؤال، وهو إذا كان لا يَعْرِفُ كيف تأتي الشمس من مغربها إلى مشرقها فإنه يَعْرِفُ كيف تأتي من مشرقها إلى مغربها على الأقل، وعيناها وحدهما تُطلعانه على ذلك، فأوضحوا السؤال الأوّل بالآخر إذن، وهنالك إمّا أن يكون تلميذكم من الغباوة المطلقة، وإمّا أن يكون التشابه من الوضوح البالغ ما يُمكن معه أن يفوته ذلك، وهذا هو درسه الأوّل في علم الفلك.

وبما أننا نسير في كل وقتٍ على مهلٍ من فكرٍ محسوسٍ إلى فكرٍ محسوس، وبما أن إيلافنا أحدَ الفكرين يتطلب زمانًا طويلًا قبل انتقالنا إلى الآخر، وبما أننا لا نُكرِه تلميذنا على الانتباه مطلقًا، فإنه لا بدّ من انقضاء وقتٍ طويلٍ على هذا الدرس الأوّل في معرفة مجرى الشمس وشكل الأرض. ولكن بما أن حركات الأجرام السماوية الظاهرة كلّها تابعةٌ لذات المبدأ، وبما أن الرّصد الأوّل يؤدي إلى جميع الأرصاد الأخرى، فإنه يُحتاجُ إلى أقلّ جُهدٍ، وإن كان يُحتاجُ إلى أكثر وقتٍ للوصول من الدورة اليومية إلى حساب الكسوف والخسوف، وذلك مما للوصول إلى إدراك الليل والنهار إدراكًا حسنًا.

وإذ إن الشمس تدور حول الأرض فإنه يرسم دائرة، ولا بدّ لكل دائرة من مركز، وهذا ما عَلِمناه سابقًا، ولا تُمكنُ رؤية هذا المركز لأنه في وَسَطِ الأرض، ولكنه يُمكن تعيين نقطتين متقابلتين على السطح، ويُعدُّ العود المارُّ من النقاط الثلاث والممتدُّ حتى السماء من الناحيتين محور الأرض ومحور حركة الشمس اليومية، وإذا ما دار الخُذروف المستدير على رأسه مثل السماء الدائرة على محورها، ومثّلَ طرفًا الخُذروف القطبين، ويسرُّ الولد أن يَعْرِفَ أحدهما، وأدُلّه عليه بدَنب الدُّب الأصغر، وهذا من لهُو

الليل، وتؤلّف الكواكب بالتدريج؛ ومن ثمّ ينشأ أول ذوق في معرفة السيارات والبروج.

ولقد رأينا طلوع الشمس في منتصف الصيف، وسنرى طلوعها في عيد الميلاد أو في يوم جميل آخر من أيام الشتاء؛ وذلك لأننا لسنا كسالي كما هو معلوم، ولأننا نحسب اقتحام البرد من الألعاب، وأعنى بالقيام بهذا الرصد الثاني في عين المكان الذي قمنا فيه بالرصد الأول، وإذا ما أبدي شيء من البراعة في إعداد المعاينة لم يفت هذا أو ذاك أن يهتف قائلاً: «وي! وي! يا له من منظرٍ فكّه! عادت الشمس لا تطلع من عين المكان! هنا دلالتنا السابقة، والآن تطلع هنالك... إلخ. إذن، يوجد شرق صيف وشرق شتاء... إلخ.» وبأبيها المعلم الشاب، أنت على الطريق، فيجب أن تكون هذه الأمثلة كافية لتعليم الكرة بوضوح ولاتخاذ الأرض للأرض والشمس للشمس.

وعلى العموم لا تستبدل الرمز بالشيء مطلقاً إلا إذا تعدد عليك إراءته؛ وذلك لأن الرمز يستغرق انتباه الولد ويُنسيه الشيء المُمثّل.

وتبدو لي الكرة الأرميائية* آلة سيئة التركيب رديئة النسب، وما تشتمل عليه من دوائر مختلطة وصور غريبة مرسومة يمتحنها صبغة سحرية تخافها نفوس الأولاد، والأرض فيها صغيرة جداً، والدوائر فيها كبيرة جداً كثيرة جداً، وبعضها كدوائر السمّت مثلاً، لا يُجدي نفعاً تاماً، وكل دائرة فيها أوسع من الأرض، ولها يتحنّ المقوى صلابة توحى بأنها مطارق دائرية موجودة حقاً، فمتى قلتم للولد إنها دوائر خيالية لم يعرف ما يرى، وعاد لا يسمع شيئاً.

ولا نعرف أن نضع أنفسنا في مكان الأولاد مطلقاً، ولا ننفذ أفكارهم ونغيرهم أفكارنا، وفي كل وقت نتبع براهيننا الخاصة بسلاسل من الحقائق، فلا نركم في رؤوسهم سوى ترهات وأضاليل.

ويُجادل حول اختيار التحليل أو التركيب في دراسة العلوم، ولكن لا يُحتاج إلى الاختيار دائماً؛ فمما يحدث أحياناً إمكان التحليل والتركيب في المباحث عينها، وإمكان إرشاد الولد بالمنهاج التعليمي مع اعتقاده أنه لا يصنع غير التحليل. وهنالك إذ يتخذ هذا وذاك فإنه ينتفع ببراهينهما مقابلة، وهو إذ يذهب من النقطتين المتقابلتين معاً، وذلك من غير أن يفكر في سلوكه عين الطريق، فإنه يُدهش من التقائهما، ويكون هذا الدهش مُمتعاً جداً، ومن ذلك أنني أريد تناول الجغرافية من هذين الحدّين، وأن أضيف إلى درس تحولات الكرة الأرضية قياس أجزائها بادئاً من

* *La sphère armillaire*، وهي مجموعة دوائر من معدن أو خشب أو مقوى، تُمثل حركات الأجرام السماوية، وفي مركزها كرة تُمثل الأرض.

المكان الذي يُسكن، فيينا يَدْرُس الولدُ الكُرّة وينتقل إلى السموات على هذا الوجه أعيدوه إلى تقسيم الأرض ودُلّوه إلى موطنه قبل كلِّ شيء.

وستكون نقطتاها الأُوليان في الجغرافية مدينته التي يقيم بها ومنزل أبيه في الريف، ثمّ الأماكن المتوسطة، ثمّ الأنهار المجاورة، ثمّ منظر الشمس وكيفية الاتجاه، وهذه هي نقطة الالتقاء. وليصنع الخريطة بنفسه، ولتكن الخريطة بسيطة جدًّا، وليكن أوّل ما تشتمل عليه موضعان يُضيفُ إليهما مواضعَ أخرى مقدارًا فمقدارًا، وذلك كلّما عرّف مساوقها ومراكزها أو قدرها، وتُدركون أيّ فائدةٍ قد حبوّناه بها مقدمًا بجعلنا بيكارًا في عينيه.

ومع ذلك فإنّ مما لا مراء فيه وجوب إرشاده قليلًا، ولكن قليلًا جدًّا، وذلك غير أن يشعر، فإذا ما أخطأ فدعوه وخطأه، ولا تُصلحوا خطأه مطلقًا، وانتظروا صامتين حتى يراه ويُصلحَه بنفسه، أو انتظروا على الأكثر فرصة ملائمة تاتون فيها من الأعمال ما يشعُر معه بخطئه. وهو إذا لم يُخطئ قطُّ لم تكمل معرفته، وهو فضلًا عن ذلك لا يحتاج إلى معرفة طُغرافية البلد معرفة تامة، بل يحتاج إلى وسيلة الاطلاع عليها، وليس من المهم كثيرًا أن يجمع في رأسه خرائط، وذلك على أن يتمثّل جيّدًا ما تمثّلُه، وعلى أن يكون لديه فكرٌ واضحٌ عن الفنّ النافع في وضعها، وانظروا إلى الفرق بين معرفة تلاميذك وجهل تلميذي! هم يُعرفون الخرائط، وهو يضعها، وهذه زخارف جديدة يُرَيّن بها غرفته.

واذكروا دائمًا عدم قيام روح منهاجي على تعليم الولد أمورًا كثيرة، بل على عدم إدخاله في دماغه غير أفكارٍ صائبةٍ واضحة، وليس من المهم ألا يُعرف شيئًا، ولكن على ألا يخطئ، ولا أضع في رأسه حقائق إلا لصيانتَه من الخطأ الذي يتعلّم وضعه في مكانها، ويأتيه الصواب والتمييز ببطء، وتُسرع المُبتسراتُ إليه جملة، والمُبتسرات هي التي تجب وقايتها منها. ولكنكم إذا نظرتُم إلى العلم نفسه خُضتم بحرًا لا قعر له ولا ساحل، خُضتم بحرًا مملوءًا صخرًا لا عود منه مطلقًا. وإذا ما رأيتُ رجلًا مولعًا بالمعارف يدع نفسه تُغوى بفتونها، فيعدو وراء واحدةٍ بعد الأخرى من غير أن يستطيع الوقوف، اعتقدتُ أنني أرى ولدًا على الشاطئ يجمعُ صدفًا، فيأخذ في حَمَلها، ثمّ يُغري بما لا يزال يرى فيلقي ما حَمَل ثمّ يعود فيأخذُه حتى يُثقلُ بكثرة ما نال فلا يُعرف كيف يختار، فيرمي جميع ما حاز ويرجع فارغًا.

وكان الزّمن طويلًا في الدور الأوّل من العُمُر، فلم نحاول غير إضاعته خشية سوء استعماله، والأمر هناك عكس ذلك، وليس لدينا ما يكفي لصنع ما يكون نافعًا، وفكّرُوا في اقتراب الأهواء، وفي أنها إذا ما قرّعت الباب عاد تلميذكُم لا ينتبه لغيرها. ويكون دورُ الذكاء الهادئ من القصر ما يُمُرُّ معه بسرعة، ويكون من كثرة العادات الضرورية ما يُعدُّ من الحماقة أن

يُرَادُ معه كونه كافيًا لجعل الولد عالمًا. ولا يُغْنِيكم أن تعلموه العلوم، بل أن تمنحوه من الذوق ما يُحِبُّها معه ومن المناهج ما يتعلمها به عندما يصبح هذا الذوق أحسن نشوءًا. ولا ريب في أن هذا مبدأ أساسي لكل تربية صالحة.

وهذا أيضًا وقت تعويده بالتدريج إنعامَ النظر في عين الموضوع، ولكن ليس القسر، بل اللذة أو الرغبة، ما يحبُّ أن يؤدي إلى هذا الانتباه، ويجب أن يُعْنَى كثيرًا بالألَّا يُرهقه الانتباه مطلقًا، وبألَّا يُفْرَطَ فيه حتى السَّام، فارقوا الأمرَ دائمًا إذن، ومهما يَكُنْ من أمرٍ فدَعُوا كلَّ شيءٍ قبل أن يسأم؛ وذلك لأن مقدار ما يتعلم ليس من الأهمية بمقدار عدم جعله يتعلم على الرغم منه.

وإذا سألكم بنفسه فأجيبوه بمقدار ما يجب لتغذية حُبِّ الاطلاع فيه، لا لإشباعه، وإذا ما أبصرتم أنه لا يسأل ليتعلم، بل يَهْدُرُ يارهاقكم بأسئلةٍ سخيّة، فقفوا من فُورِكَم واثقين بأنه عاد لا يكثرث للسؤال عن الشيء، ولكن ليستعبدكم لاستنطاقاته؛ ولذا يجب أن يكون التفاتكم إلى الباعث الذي يَحْمِلُهُ على الكلام أكثر مما إلى الكلمات التي يَنْطِقُ بها، ولا يلبث هذا التحذير الذي كان أقل لزومًا حتى الآن أن يصبح بالغ الأهمية حينما يأخذ الولد في التعلُّق.

وتوجد سلسلة من الحقائق ترتبط جميع العلوم بها في مبادئ شاملة، وتنمو بالتعاقب، وهذه السلسلة هي منهج الفلاسفة، وليس بها ما نُعْنَى به الآن، وإنما يوجد منهاجٌ مختلفٌ آخر يمكنُ كلَّ موضوعٍ خاصٍّ أن يستدعي به موضوعًا آخر، فَيَنْمُ على ما يليه دائمًا، وهَلَمْ جَرًّا. وهذا النظام الذي يُغَدِّي بفضولٍ مستمرٍّ ما يطلب الجميع من انتباه؛ هو النظام الذي يَتَّبِعُهُ مُعْظَمُ النَّاسِ، ولا سيَّما اللازم للأولاد. ونحن إذ نَقْصِدُ أن نضع خرائطنا، يجب أن نرسم دوائرًا لنصف النهار، وما يكون من نقطتي تقاطع بين ظلال الصباح والمساء المتساوية يُعْطِي فلكيًّا في الثالثة عشرة من سنيه دائرة نصف نهارٍ رائعة. بيْدَ أن دوائرَ نصفِ النهارِ هذه تزول، ولا بُدَّ من انقضاءِ وقتٍ حتى تُرْسَمَ، وهي تقضي بالعمل في عين المكانِ دائمًا، وما يُبَدَّلُ من كثيرٍ عنايةً وجهدٍ يُورِثُهُ سأمًا في نهاية الأمر، وقد أبصرنا هذا، فنتلافاه مقدمًا.

وها أنا ذا داخلٌ دائرةَ الجزئيات المُطَوَّلَةِ الدقيقة، وأسمع تذرُّمَ أيها القراء فأقتحمه، ولا أريد أن أساير مَلَلكم مُطلقًا، فأضحِّي بأضع قسمٍ من هذا الكتاب، وتحزَّبوا على إسهابي لتحزُّبي على شكواكم.

ومما لاحظت أنا وتلميذي منذ زمن طويل أن بعض الموادِّ كالعنبر والزجاج والشمع تجتذب التَّيْنَ إذا ما دُلِّكَتْ، وأن موادَّ أخرى لا تجتذبه. ومما وجدناه مصادفةً مادةً لها خاصيةٌ أغرب من تلك، وهي أن تجتذب من مسافةٍ ومن غير ذلك بُرادة الحديد وسقاطاته، وما أكثر

الوقت الذي أثار فيه هذه الخاصية لهونا دون سواه! وأخيراً نجدها ذات صلة بذات الحديد الممغنط من بعض الوجوه، ونذهب إلى السوق ذات يوم،^٢ ونشاهد مشعوذاً يجذب بكسرة خبز بطةً من شمعٍ عائمةً في حوض ماء، ويعترينا دهش، ولا نقول مع ذلك إن هذا ساحر؛ وذلك لأننا لا نعرف ما الساحر، وما انفكت نتأجج ما نجهلُ عللَهُ تَقَفُ نظرنا، وذلك من غير أن نبادر إلى الحكم فيه، ونظلاً فارغى البال مقيمين على جهلنا حتى نجد الفرصة التي نخرج بها منه.

ونعود إلى المنزل، وتكلم حول بطة السوق، ويعرُّ لنا أن نُقلدها، ونتناول إبرةً سالحةً مُمغنطةً جيّداً، ونشتمل عليها بشمع أبيض، ونجعلها على شكل بطة على قدر الإمكان، وذلك على أن تُنفذ الإبرة جسمها، وأن يكون الرأس منها منقاراً، ونضع البطة على الماء، ونُدني من المنقار حلقة مفتاح، ونُبصر بسرورٍ يسهُلُ إدراكه اتِّباع البطة للمفتاح كاتِّباع بطة السوق لكسرة الخبز. وأما ملاحظة الاتجاه الذي تَقَفُ البطة عليه فوق الماء عندما تُترك ساكنة؛ فهو ما نصنعه في مرةٍ أخرى، وأما الآن فلا نريد أن نفعل أكثر من ذلك لانهماكنا في موضوعنا كلياً.

وفي المساء نفسه نعود إلى السوق مع خبزٍ مُعدٍّ في جيوبنا، ويعود المشعوذُ إلى دوره، فيقول له عُويلمي الذي لا يكدُ يملك نفسه، إن تمثيلَ هذا الدور غيرُ صعب، وإنه يستطيع أن يقومَ بمثله، ويُكلّف بذلك، فيُخرج من جيبه حلاً كسرةً خبزٍ مشتملةً على قطعةٍ من الحديد، ويُخفيق فؤاده عند دُنُوّه من المنضدة، وترتجف يده تقريباً عند عرضه كسرة الخبز، وتأتي البطة وتتبعه، ويصرخ الولد وينطُ فَرِحاً، وما كان من تصفيق الحضور وهتافهم أدار رأسه وأطار لُبّه، ومع ذلك يأتي المشعوذُ القانط لتقبيله وتهنئته، ولكي يرجو منه أن يُشرفه بحضوره في الغد مرةً أخرى، مُضيفاً إلى ذلك قوله إنه سيبدلُ جهده في جمعِ أناسٍ أكثر من أولئك ليهتفوا لبراعته، ويشمخُ عُويلمي الطبيعيُّ بأنفه ويريد أن يثرثر، وأمنعه من الكلام حالاً، وأعود به مشمولاً ثناءً.

والولد حتى الغد يَعُدُّ الدقائق بقلبي مُضحك، وهو يدعو كلَّ مَنْ يلاقي، وهو يودُّ لو يكون جميع النوع البشريّ شاهداً مَجْدِه، وهو ينتظر الساعة بعباء، وهو يسبقُها، ويُهرع إلى المُلتقى،

^٢ لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك حينما قرأت نقداً دقيقاً لمسيو فورمه حول هذه القصة الصغيرة؛ فقد قال: «إن هذا المشعوذ الذي يعتز بمنافسة صبي، ويعظم مُعلّمه بوقار؛ هو فردٌ من عالم الإميلين.» فما كان المتناذر مسيو فورمه ليستطيع أن يفترض أن هذا الفصل الصغير مُدبّر، وأن المشعوذ كان عارفاً بالدور الذي يمثله؛ وذلك لأنني لم أقل ذلك قطُّ كما هو الواقع، ولكن ما أكثر ما صرّحت بأنني لم أكتب قطُّ لأناسٍ ينتظرون أن أقول كل شيء!

ويجد القاعة زاخرة، وينفرج غمُّه حين يدخلها، ولا بدَّ من تقدُّم ألعابٍ أُخرى، ويتفوق المشعوذ ويأتي بالعجائب، ولا يرى الولد شيئاً من كلِّ هذا، ويتململ، ويعرق، ولا يكاد يتنفس، ويقضي وقته في مسِّه كِسرة الخبز داخل جيبه بيدٍ مرتعشةٍ جَزَعًا. وأخيرًا يأتي دوره، ويُقدِّمه المُعلِّم إلى الجمهور مُحْتَفِيًا، ويقترِب على استحياء، ويُخرِج كِسرة خبزه. ويا لتقلُّبِ أمورِ البشر من جديد! لقد صارت البطة الطائفة بالأمس نَفُورًا اليوم؛ فهي تولِّي ذَنبها وتفرُّ بدلاً من أن تُقدِّم منقارها، وهي تتجنَّب كِسرة الخبز واليد التي تُعرضها بمثل الجهد الذي أبدته في اتِّباعهما سابقًا، ويحاول ألف مرة على غير جدوى، ويُسخَّر منه تِبَاعًا، ويتوجَّع الولدُ ويقولُ إنه خُدع، وإن بطةً أُخرى استبدلت بالأولى، ويدعو المشعوذ إلى اجتذابها.

ويتناول المشعوذ كِسرة خُبزٍ من غير أن يجيب، ويُقدِّمها إلى البطة، وتتبع البطة كِسرة الخبز من فورها، وتأتي اليد التي تجتذبها، ويتناول الولد ذات الكِسرة فلا ينال نجاحًا كما في المرة الماضية، وهو يرى البطة تهزأ به وتدور حول الحوض، وأخيرًا يتعد مرتبًا تمامًا غير متجرئٍ على مواجهة السخريات.

وهناك يتناول المشعوذ كِسرة الخبز التي كان الولد قد أحضرها ويستخدمها بتوفيقٍ كالذي اتفق لكسرتِه، وذلك أنه يُخرِج الحديدية منها أمام جميع النَّاس، وهذا هُزُوءٌ آخرٌ على حسابنا، ثُمَّ إنه يجتذب البطة كما في السابق بهذه الخِيزَةِ التي أُخليت على ذاك الوجه. وهو يفعل الشيء عينه بكِسرةٍ أُخرى قُطعت أمام النَّاس من قِبَل شخص ثالث، وهو يصنع مثل هذا بقفازه ومن طَرَفٍ إصبعه. وأخيرًا ينأى إلى وَسَطِ الغرفة ويُعلنُ بتبجُّحٍ خاصٍّ بمن هم على شاكلته أن بطنه ليست أقلَّ إطاعةً لصوته منها لحركة يده، ويكلمُها وتُطيع، ويقول لها أن تذهب إلى ناحية اليمين فتذهب، ويقول لها أن تعود فتعود، ويأمرها بأن تدور فتدور، وتتمُّ الحركة بسرعةٍ وفُوقَ الأمر، ويتضاعف الهُتافُ فيكون خزيًا علينا بهذا المقدار، وننسلُّ من غير أن يشعر بنا أحد، ونختلي في غرفتنا من غير أن نُقصَّ خبر نجاحنا على النَّاس كما كُنَّا عازمين عليه.

ويُقرَع بائنا في صباح الغد، وأفتح فأجد أن المشعوذ هو الطارق، ويشكو بتواضعٍ من سلوكنا، وماذا صنع نحونا حتى نريدَ الإساءة إلى سُمعة ألعابه ونحرِّمه عيشه؟ وما يكون من عجيب إذن في صنعة اجتذابِ بطةٍ من شَمْعٍ حتى يُبتاع هذا الشرفَ ضَرًّا بمعاش رجل شريف؟ «صدَّقوني يا سادتي، لو كان عندي نُبوغٌ آخرٌ لأعيش ما باهيت بهذا مطلقًا، وثقوا بأن الرجل الذي قضى حياته في ممارسة هذه الصنعة الحقيرة يَعْرِفُها أكثر مما تعرفون أنتم الذين يُعتَوَّن بها لبضع

ساعات. وإذا كنتُ لم أبدأ لكم في البداية أحسنَ ما عندي من حيل؛ فذلك لأنه لا ينبغي أن يُبادر بطيشٍ إلى عَرْضِ ما يُعرف، واني أعتى دائماً بحفظِ أروعِ الحيل لإظهاره في الوقتِ المناسب، ولا يزال يوجد لديّ من الأدوارِ ما أفتُ به عند حدِّ كلِّ فتى قليلِ الفطنة. وبعدُ أيها السادة، تروني قد أتيتُ مختاراً لأُعلمكم ذلك السرَّ الذي حيركم كثيراً، راجياً ألا تسيئوا استعماله صرّاً بي، وأن تكونوا أكثرَ احترازاً في المستقبل.»

وهناك أطلعنا على جهازه، فرأينا دهشين أنه لا يعدو كونه مغنطيساً قوياً حسنَ الإعداد، كان يُحرّكه ولدٌ مُختفٍ تحت منضدةٍ من غير أن يُشعر به.

ويطوي الرجل آله، وتريد أن نُقدّم إليه هديةً بعد الشكر له والاعتذار إليه، فيرفضها ويقول: «كلا يا سادتي، لا أكون مديناً لكم بشكران حتى أقبل عطاياكم، وسأدعكم مدينين لي على الرغم منكم، وهذا هو انتقامي الوحيد، واعلموا وجود جودٍ في جميع الأحوال، وأجود بجيلي من غير أن ألقى دروساً عنها.»

ويخرج موجّهاً لوماً إليّ من فوره، وذلك بقوله لي: «أعدزُ هذا الولد الطيب الخاطر؛ فهو لم يُذنب إلا عن جهل، وأما أنت يا سيدي فقد كان يجب أن تعرف خطأه، فلم تركته يقترفه؟ وبما أنكما تعيشان معاً، وبما أنك أكبرُ منه سنّاً، فإن الواجب يقضي بأن تُحسّن رعايته وأن تَمَحَصَه النصيح، وتعدّ تجربتكُ دليلاً يجب أن يهتدي به، فإذا ما كَبُرَ ولام نفسه على ذنوبه لأمك، لا ريب، على عدم تحذيره منها أيام صباه.»³

وينصرف، ويتركنا نحن الاثنين خجلين جدّاً، وألوم نفسي على سلوكي سبيل التساهل، وأعدّ الولد بأنني سأضع مصلحته في المرتبة الأولى لمرّةٍ أخرى، فأخبره بأغاليطه قبل أن يقترف منها، وذلك لاقتراب الوقت الذي تتغير فيه صلاتنا، والذي يجب أن تتعبّ شدة المُعلّم فيه مجاملة الصديق، ويجب أن يَفَع هذا التحول بالتدريج، ويجب أن يُصَرَ كلُّ شيء، وأن يقع ما يُصَر من مدى بعيدٍ جدّاً. وفي الغد نعود إلى السوق لنرى الحيلة التي عرفنا سرّها حديثاً، ونقترب من المشعوذ سُقراط حاملين له أعظمَ احترام. ولم نكد نجرؤ على رَفَعِ أعيننا إليه حتى غمَرنا بضروب الإكرام

³ وهل عليّ أن أفرض على القارئ من الغباوة ما لا يشعر معه في هذا التعنيف بخطابٍ يمليه المُعلّم حرقياً للدعوة إلى وجهات نظره؟ وهل يُفترض كوني من الغباوة ما أعطي معه مشعوذاً هذه اللهجة؟ أراني قد أقمت على الأقل دليلاً على صاحب نبوغٍ وضيع يخاطب الناس بما يلائم حالهم. وكذلك انظروا إلى آخر الفقرة التالية، ألم تشتمل على قولٍ لكل شخصٍ آخر غير مسيو فورمه؟

ووضعنا في مكانٍ ممتاز، فكان لنا بهذا جسٌّ خزّيٍّ أيضاً، ويقوم بحيله كالعادة، ولكنه يتلّهى بالبطة ويجاربهها طويلاً ناظرًا إلينا في الغالب بنظرات المُفاجِر، ونعرف كل شيء، ولا ننبس بنت شفة، فلو جرؤ تلميذي على فتح فمه لكان ولدًا يستحقُّ السحق.

تنطوي دقائق هذا المثال كلها على طائلٍ أكثر مما يلوح، وما أكثر ما يشتمل عليه الدرس الواحد من دروس! ويا للعواقب المُهينة التي تجرُّ إليها حركة الزهو الأولى! فيا أيها المُعلّم الشاب، ارقب هذه الحركة الأولى بدقة، وإذا ما استطعت أن تُمهّد بها السبيل لخزيٍّ أو زوال حُطوة،⁴ فاطمننَّ إلى عدم تكرارها لزمّنٍ طويل، ويا للأهب كما تقول! وأوافق على هذا، وذلك كله لتجهيزنا ببوصلةٍ تُغنينا عن دائرة نصف النهار.

وإنّا، بعد أن علمنا أن المغنطيس يؤثر في الأجسام الأخرى، لم يبقَ لدينا ما نبادر إليه غيرُ صنع آلةٍ مشابهةٍ للتي رأينا، وأن نعدَّ منضدةً مُجوّفةً وحوضاً مبسوطاً على مستوى المنضدة مملوءاً ماءً ضحضاحاً، وأن نعدَّ بطةً حسنة الصنع... إلخ. وننجمُ النظر حول الحوض غالباً، فنلاحظ أخيراً أن البطة الساكنة تشبّع عينَ الاتجاه دائماً، ونتبّع هذه التجربة ونفحصُ هذا الاتجاه فنجدُ أنه من الجنوب إلى الشمال. ولا نحتاج إلى ما هو أكثر من هذا؛ فقد وُجدت بوصولنا أو ما يغيّلها، وهكذا نلج نطاق الفزياء.

وتشتمل الأرض على أقاليمٍ كثيرة، وتختلف هذه الأقاليم باختلاف درجات الحرارة، وتختلف الفصول اختلافاً محسوساً كلما اقترب من القطب، وتنقبض جميع الأجسام بالبرد وتنبسط بالحر، وأكثر ما تُقاسُ به هذه النتيجة في الموائع، وأكثر ما تكون محسوسةً في المشروبات الروحية، ومن هنا أتى ميزان الحرارة، والريح تلطمُ الوجه؛ ولذا فإن الهواء جسمٌ سيّال، ويُسعرُ بالهواء وإن لم تُوجد وسيلةٌ لرؤيته، واقلّبوا كأساً في الماء تجدوا أنه لا يملؤها ما لم تتركوا للهواء مخرجاً؛ ولذا يكون الهواء قادراً على المقاومة، واغطسوا الكأسَ أكثر من ذلك في الماء تجدوا الماء يكسب فضاءً من الهواء من غير أن يملأ هذا الفضاء تماماً؛ ولذا يكون الهواء قادراً على الانقباض إلى حدٍّ معيّن، وتنبطُ الكرةُ المملوءة هواءً مضغوطاً بأحسن مما تكون مملوءةً بأية مادةٍ أخرى؛ ولذا يُعدُّ الهواء جسمًا مَطَّاطًا، واستلقوا في الحمام، وارفَعوا ذراعكم أفقيًا خارج الماء

⁴ إذن يكون هذا الخزي وزوال الخطوة من عملي لا من عمل المشعوذ، وبما أن مسيو فورمه يريد أن يستولي على كتابي، وأن يطبعه على شكلٍ لا يغيّر فيه غير نزع اسمي منه ووضع اسمه في مكانه، فليكلف نفسه على الأقل بأن يقرأه، ولا أقول أن يؤلّفه.

تشعروا بأنها مُثَقَلَةٌ بأوزانٍ هائلة؛ ولذا يكون الهواء جسمًا ثقيلًا، ووازنوا بين الهواء والسيّالات الأخرى تستطيعوا قياس ثقّله، ومن هنا أتى ميزانُ الجوّ والمِصصُ والأنبوبُ الهوائي ومُفَرَّغَةُ الهواء. ولو بحثت في قوانين توازن الأجسام وتوازن السوائل؛ لوجدتها قد قامت على تجاربٍ غليظة كهذه، ولا أرغب في دخولِ غرفةِ الفيزياء التجريبية لشيءٍ من جميع ذلك، فلا يروفي جميع جهاز هذه الآلات والأدوات؛ فالجؤ العلمي قاتلٌ للعلم؛ وذلك لأن جميع هذه الآلات تخيف الولد أو لأن صُوَرها تُقاسم ما يجب أن يُبيده من انتباهٍ نحو نتائجها وتسترقُّ هذا الانتباه.

وأريد أن نضع جميع آلتنا بأنفسنا، ولا أريد البدء بصنع الآلة قبل التجربة، ولكنني أريد بعد أن نُصِرَ التجربة مصادفةً مثلاً، أن نخترع الآلة التي تُحَقِّقُ بها، وأفضّل ألا تكون آلتنا متقنةً دقيقة، وأن تكون لدينا أفكارٌ أكثر وضوحًا عما يجب أن تكون عليه هذه الآلات وعمّا يجب أن تؤدي إليه من أعمال، واني كأول درسٍ عن توازن الأجسام والقوى لا أبحث عن الموازين، وإنما أضع عصًا بالعرض على ظهر كُرسيٍّ وأقيس بين قِسمي العصا عند التوازن، وأضيف إلى الأوزان من ناحيةٍ ومن أخرى، فأجعلها متساويةً تارةً ومتفاوتةً تارةً أخرى، وأجذب العصا وأدفعها كما تقضي به الضرورة، فأجد أخيرًا أن التوازن ينشأ عن نسبةٍ متقابلةٍ بين مقدار الأوزان وطول العتَل، وهكذا يصير عُويلمي الفزيويُّ قادرًا على تعديل الموازين قبل أن يراها.

ولا مراء في أن ما يناله الإنسان من معارفٍ حوّل الأشياء عن تعلّم ذاتي يكون أكثر وضوحًا وضمائمًا من المعارف التي يتلقاها من الآخرين، وأضيف إلى هذا ما يكون من عدم تعويد الإنسان عقله أن يخضع لذي سلطانٍ بدناءة، فضلاً عن ظهوره أكثر براعةً في اكتشافه نسبيًا وربطه أفكارًا واختراعه أجهزةً مما يحدث له، عند انتحاله جميع هذه الأمور تلقياً، من انحطاط ذهنه في البلادة، شأن جسم الإنسان الذي يلبس ويُحدى ويُحدّم دائماً من قِبَل أجراءه، ويُخز من قِبَل خَيْله فيفقد قوة أعضائه وعاداتها في آخر الأمر. وكان بوالو يفاخر بأنه علّم راسين نظم الشعر بصعوبة، فبين كثيرٍ من المناهج الرائعة لتعلّم العلوم بأخصر الطرق ترانا محتاجين كثيرًا إلى مَنْ يَمْنَحُنَا منهاجًا نتعلّمها به مع الجُهد.

وأكثر ما يُشعُرُ به من فائدةٍ في هذه الأبحاث البطيئة المُتعبية هو أن يُحفظ الجسم في أثناء الدروس النظرية نشيطًا، والأعضاء مرنة، وأن تُدرب الأيدي بلا انقطاع على ما ينفع الرجل من عملٍ وعادات. وكثرت الآلات التي اخترعت لتكون دليلًا لنا في تجاربنا وتقوم مقام دقّة حواسنا، فتؤدي إلى إهمال تمرينها، ويُعني مقياس المساحة عن تقدير اتساع الروايا، وتعتمد العين

التي كانت تُقدَّر المسافات بدقة، على السلسلة التي تَدْرَعُهَا عَوْضًا منها، ويُعْني القَبَان من الوزن الذي كنت أعْرِفه باليد، وكلِّمَا كانت آلائنا متقنة غَدَّت أَعْضَاؤُنَا غَلِيظَةً خَرْقًا، وكلِّمَا جمعنا آلاَتِ حولنا عُدنَا لا نَجِدُ منها في أنفُسنا شيئًا.

ولكنْ متى بَدَلْنَا في صُنْع هذه الآلات من الحِذْق ما يُعَوِّض منها، ومتى استعملنا في تكوينها من الفُطَانَة ما نستغني معه عنها؛ كان هذا غُنْمًا بلا عُزْم، وكان هذا إضافةً فنَّ إلى الطبيعة، وصرْنَا أَكْثَرَ دِقَّةً من غير أن نصح أقلَّ مهارة، وإذا ما شَعَلْتُ الولدَ في مَصْنَعٍ بدلًا من تَغْرِيبته على الكتب عَمِلَتْ يَدَاهُ نَفْعًا لذهنه، وأضحى فيلسوفًا مع اعتقاده أنه ليس سوى عامل. ثمَّ إنه يُوجد لهذا التمرين من المنافع الأخرى ما أتكلّم عنه فيما بعد، فيرى كيف يُمكن أن يُرْقَى من الرياضات الفلسفية إلى وظائف الرجل الحقيقية.

ومما قلتُ سابقًا إن المعارف النظرية الصَّرْفَة لا تلائم الأولاد مُطلقًا، حتى مَنْ يَدنو من سنِّ المراهقة، ولكن من غير إدخالٍ لهم ضِمْنِ نطاق الفيزياء، اصنع على الخصوص ما يرتبط به بعضُ التجارب في بعض، وذلك بشيءٍ من الاستنباط؛ وذلك ليستطيعوا بهذا التسلسل أن يَصْعَوْها منتظمةً في أذهانهم، وأن يذكروها عند الحاجة؛ فمن الصعوبة بمكان أن تستقر الأعمال، حتى البراهين المنعزلة، بذاكرتهم عند عدم وجود وسيلةٍ تردُّها إليها.

وفي البحث عن سُنن الطبيعة ابدءوا دائمًا بأكثر الحوادث شيوعًا وأشدّها ظهورًا، وعودوا تلميذكم عدمَ عدِّ هذه الحوادث عِدَلًا، بل وقائع، وأتناول حجرًا، وأزعم أنني أضعه في الهواء وأفتح يدي، ويسْقُط الحجر، وأبصرُ إميلَ منتبهًا لما أفعَل، وأقول له: لِمَ سَقُط هذا الحجر؟ وأيُّ ولد يَقْصُر عن فهم هذا السؤال؟ لا أحد، ولا إميلُ أيضًا، وذلك ما لم أكن قد بذلتُ جهدًا كبيرًا في تعليمه عدمَ الجواب عنه. وسيقول الجميع إن الحجر يسْقُط لأنه ثقيل، وما الثقيل؟ هو الذي يسقط، أيسْقُط الحجر لأنه يسْقُط إذن؟ وهنا يتوقَّف فيلسوفي الصغير جدًّا، وهذا هو درُسُه الأوَّل في الفيزياء النظرية، وسواءً أفادته هذا الدرس على هذا الوجه أم لم يُفِده كان هذا الدرس صائبًا دائمًا.

وكلِّمَا تقدَّم الولدُ ذكاءً حَمَلْتُنَا عواملَ مهمةً أخرى على كثير من الحَدَر في اختيار أشاغيله، وهو إذا ما انتهى إلى معرفة نفسه بما فيه الكفاية ليتمثَّل ما يقوم عليه رفاهه استطاع من فوره أن يُدرك من العلائق التي تكون على شيءٍ من الاتساع للحكم فيما يلائمه وما لا يلائمه، وهو يكون حينئذٍ في حالٍ يَشْعُرُ معها بالفرق بين الجِدِّ والهَزَل، فلا يَعدُّ هذا غيرَ إراحةٍ لذلك.

وهناك يُمكن الأُمور ذات النفع الحقيقي أن تدخل ضمن دروسه، وأن تُلزمه بتطبيق لها أثبت مما يُعبره من الألهوات البسيطة. ومن شأن قانون الضرورة الناشئ دائمًا أن يُعلم الإنسان باكراً عملاً ما لا يروقه اجتناباً لسوء يؤديه أكثر من ذلك، وهذه هي عادة الحذر، وعن هذا الحذر الحسن الترتيب أو السبي التنظيم ينشأ كلُّ حكمة بشرية أو بؤس بشري.

وكلُّ إنسانٍ يريد أن يكون سعيداً، ولكنَّ كونَ الإنسان سعيداً يقضي ببدء الإنسان أن يُعرف ما السعادة، وتكون سعادة الرجل الفطريّ بسيطةً بساطة حياته، وهي تقوم على عدم ألمه، وهي تتألف من الصحة والحرية والضرورة، وغيرُ هذا سعادة الإنسان الأدبي، ولكن ليست هذه موضوع البحث هنا، ولا أكرر كثيراً أنه لا يوجد غيرُ الأشياء الحسية ما يُمكن أن يكثر له الأولاد، ولا سيّما من لم يُوقظ زهؤهم، ومن لم يُفسدوا قطُّ بسَمِّ الرأي.

وإذا ما أبصرَ الأولادُ احتياجاتهم قبل أن يُحسُّوها نَمَّ هذا على سابق تقدّم ذكائهم كثيراً، فيأخذون في معرفة قيمة الوقت، وهناك يكون من المهمَّ أن يُعوّدوا استخدامه في الأمور المفيدة، ولكنَّ على أن تكون هذه الفائدة مما يُبصره مَنْ في سنّهم، وأن تكون في متناول مداركهم. ولا ينبغي أن يُعرض عليهم حالاً كلُّ ما يرتبط في النظام الأدبيّ وعادة المجتمع؛ فمن السخافة أن يُطالبوا بملازمة أمورٍ قيل لهم بإبهامٍ إنها تنطوي على خيرٍ لهم من غير أن يعرفوا ما هذا الخير، ووَكَّد لهم أنهم ينتفعون بها إذا ما صاروا كباراً، وذلك من غير أن تكون لهم الآن أية مصلحة في هذه الفائدة المزعومة التي لا يستطيعون فهمها.

ولا تدعوا الولدَ يصنع شيئاً على قولٍ يسمع؛ فلا حسنَ عند الولدِ غيرُ ما يشعر بأنه حسن، وإذا ما دفعتم الولدَ دائماً إلى ما وراء إدراكه حسبتكم أنكم أتيتم عملَ بصيرة، وما الأمر كذلك، وإذا ما جهّزتموه ببعض الآلات الفارغة التي لن يستعملها مطلقاً على ما يحتمل؛ نزعتم منه الإدراك السليم الذي هو أشمل ما لدى الإنسان، وعوّدتموه أن يُقاد من قِبَل غيره دائماً، وألاً يكون غيرَ آلةٍ بيد الآخرين، وأنتم تودّون أن يكون ذلولاً في صغره، وهذا يعني أن يكون ميقاناً* غافلاً في كبره، وأنتم لا تفتشون تقولون له: «إن جميع ما أطلب منك نافع لك، ولكنك لست في حالٍ تُدرّكه فيه، وما يهْمُنِي أن تفعل هذا أو لا تفعله؟ وكلُّ ما تصنع هو في سبيل نفسك وحدها.» وما يصدُرُ عنكم من مثل هذا القول الجميل الذي تُمسكونه به اليوم لتجعلوه حكيمًا

* الميقان: الذي لا يسمع شيئاً إلا أيقن به.

تُعَدُّونَ به نَجَاحَ أقوالٍ يُمَسِّكُه بها ذاتَ يومٍ مفتونٌ أو نَقَّاثٌ أو ثرثارٌ أو مكار، أو مجنونٌ من كلِّ نوعٍ؛ ليوَقَّعه في جبالته أو ليَحْمَله على انتحال حماقته.

ومن المهم أن يَعْرِفَ الرجلُ أمورًا كثيرة لا يُمكنُ الولدُ أن يدرك فائدتها، ولكن هل يجب، وهل يمكن أن يتعلَّم الولدُ كلَّ ما بهمُّ الرجلُ أن يَعْرِفه؟ واسْمَعُوا في تعليمِ الولدِ كلَّ ما هو صالحٌ له تَرَوُا أن هذا يستغرقُ جميعَ وقته، ولمَ تريدون أن يَعكفَ الولدُ على دروسٍ غُمْرٍ قليلٍ الاطمئنانِ إلى بلوغه ضرارًا بدروسٍ ثلاثه اليوم؟ وستقولون: «ولكن أَيْكون من الوقت ما تتعلم فيه ما يَجِبُ أن يُعْرِفَ عندما يَحِلُّ الوقتُ الذي تستعمله فيه؟» وأجْهَلُ هذا، ولكن الذي أَعْرِفُ هو أن من المتعذر تعلُّمه قبل الأوان؛ وذلك لأن التجربة والشعور مُعلِّمانا الحقيقيان، وما كان الرجلُ لِيَعْرِفَ ما يلائم الرجلَ إلا في الأحوال التي يوجَدُ فيها. ويُعْرِفُ الولدُ أنه صُنِعَ ليصير رجلاً، وتُعَدُّ جميعُ الأفكارِ التي يُمكنُ أن تكون لديه حَوْلَ حالِ الرجلِ فُرْصَ تعليمٍ له، غير أنه يجب أن يبقى جاهلاً جهلاً مطلقاً للأفكار التي تدور حول تلك الحال ولا تكون في متناوله، وليس جميع كتابي غير دليلٍ مستمرٍّ على هذا المبدأ في التربية.

ومتي انتهينا إلى إعطاء تلميذنا فكرةً عن كلمة «مفيد» كانت لدينا وسيلةً كبيرةً أخرى للسيطرة عليه؛ وذلك لأن لهذه الكلمة فعلاً عظيماً فيه ما دام لا يوجَدُ لها سوى معنى واحدٍ مناسبٍ لسنِّه، وما دام يُصِرُ فيها بوضوحٍ ما يلائم رفاهية الحاضرة. وأمَّا أولادكم فلا عَمَلٌ لهذه الكلمة فيهم مطلقاً؛ وذلك لأنكم لم تُعِنُوا بإعطائهم فكرةً عنها تكون في متناولهم، ولأنه يُهَيِّدُ إلى آخرين دائماً أن يتداركوا ما يكون مفيداً لهم، فلا يحتاجون إلى التفكير بأنفسهم في ذلك مطلقاً، ولا يَعْرِفون ما الفائدة.

وما فائدة ذلك؟ هذه هي الكلمة المقدسة من الآن فصاعداً، هذه هي الكلمة المحددة بيني وبينه لجميع أفعال حياتنا، وهذا هو السؤال الذي يَتَّبِعُ من ناحيتي اتِّباعاً لا مرءٍ فيه جميع الأسئلة، فيصْلِحُ زاجراً لتلك الأسئلة الكثيرة السخيفة المُهمَّلة التي يُضنِّي بها الأولادُ بلا مُهَلٍ وعلى غير جدوى، جميع مَنْ يحيطون بهم؛ وذلك ليمارسوا نحوهم نوعاً من السلطان أكثر من قصدهم أن يفوزوا بفائدةٍ ما. ولا يَسألُ إلا كما كان يسألُ سُقراطُ ذلك الذي يُعَلِّمُ، كأهمِّ درسٍ يُلْقَى عليه، ألا يرغب في معرفة شيءٍ غير نافع، فلا يَطْرَحُ سؤالاً من غير سبب؛ وذلك لأنه يَعْرِفُ أنه سَيُطَلَّبُ منه أن يُبَيِّنَ سببه قبل أن يَطْفِرَ بجوابٍ عنه.

ورَوُا أَيُّهُ أَلَّةٌ قَوِيَّةٌ أضعُ بين أيديكم لتؤثروا في تلميذكم، وبما أنه لا يَعْرِفُ سببَ أيِّ شيءٍ فإنكم تستطيعون أن تحمِلوه على السكوت متى أردتم. وعلى العكس، ما أعظم ما تَجِدون في معارفكم

وتجربتكم من نفع في إطلاعها على فائدة جميع ما تقدمون إليه! وذلك لأنه من غير أن تُسبوا إلى الخطأ ينطوي وضعكم هذا السؤال له على تعليمه أن يضع لكم عين السؤال بدوره، ويجب عليكم أن تتوقعوا في كل ما تعرضون عليه فيما بعد أن يسير على مثالكم، فلا يفوته أن يقول لكم: «وما فائدة ذلك؟»

وقد يكون هنا أصعب شريك يجتنبه معلم، وذلك أن الولد عند طرح سؤاله إذا لم تحاولوا غير الخروج من المأزق، فقدتم إليه سبباً عنه لا يستطيع أن يذكره؛ يرى أنكم تستندون في دليلكم إلى أفكاركم لا إلى أفكاره، فيعتقد أن ما تقولون له صالح لسننكم لا لسننه، فيعود غير معتمد عليكم، وهنالك كل الخسران. ولكن أين المعلم الذي يتفضل بالوقوف فجأة ويعترف بخطئه أمام تلميذه؟ إن الجميع يتبع قاعدة قائله بعدم الاعتراف حتى بالخطأ الذي يقترف فعلاً، وأما أنا فأخذ قاعدة قائله بالاعتراف حتى بالخطأ الذي لم أصنع، وذلك عندما أعجز عن بسط أسبابي ضمن متناوله. وهكذا، بما أن سلوكي يقوم على الوضوح في نفسه دائماً، فإنه لا يرتاب منه دائماً، وبهذا أحفظ بأعظم اعتماد حين أفترض لنفسني خطأ يكتنمون مثله عند صدوره عنهم فعلاً.

وأول ما يجب أن يخاطر ببالكم ندره عزضكم عليه ما يلزم بتعلمه؛ فهو الذي يجب أن يرغب فيه، وأن يبحث عنه وأن يجده، وعليكم أن تضعوه ضمن متناوله، وأن تؤلدوا فيه هذه الرغبة بلباقة، وأن تجهزوه بوسائل قضائها، ومن ثم يجب أن تكون أسئلتكم قليلة الوقوع، ولكن مع حسن الاختيار. وبما أنه يكون لديه ما يطرح عليكم من الأسئلة أكثر مما تطرحون عليه بدرجات فإنكم تكونون أكثر سترًا دائماً، وفي حال تسألونه معها غالباً: «ما فائدة معرفة ما تسأل عنه؟»

ثم بما أن مما يهم قليلاً أن يعلم هذا أو ذلك، على أن يحسن تمثّل ما يتعلم واستعمال ما يتعلم؛ فإنه يحسن عدم إعطائه إيضاحاً صالحاً عما تقولون له، عندما يعوزكم هذا الإيضاح، ولكن لا تردّدوا في أن تقولوا له: «ليس لدي جواب حسن أعطيك إياه، كنت على خطأ، فدعنا نطرح الموضوع جانباً.» وإذا كان درسكم في غير محلّه بالحقيقة، فلا ضير عليكم أن تتركوه تماماً، وهو إذا لم يكن هكذا لم تلبثوا أن تجدوا مع قليل من العناية فرصة جعل فائدته أمراً محسوساً.

ولا أحبّ الإيضاح بالكلام مطلقاً، فلا يعيره الشبان غير انتباه قليل، وهم لا يحفظونه أبداً، فالأشياء! الأشياء! ولن أكرّر بما فيه الكفاية كوننا نمنح الكلمات قدرة كبيرة، فتربيتنا القائمة على الثثرة لا نصنع غير ثرثرتين.

وبينا أدرس مع تلميذي مجرى الشمس، وكيف تُعيّن الجهات، إذ يقاطعني سائلاً عن فائدة جميع هذا كما أفترض، وبما لروعة ما أريد أن أقول له! وبما لكثرة الأمور التي أغتم فرصة

تعليمه إياها حين أُجيب عن سؤاله، ولا سيَّما عند وجود شهودٍ على جوارنا!^٦ سأحدِّثه عن فائدة الرِّحلات ومنافع التجارة وما يُنتج كلُّ إقليمٍ من محاصيلٍ خاصة، وعن طبائع مختلف الشعوب، وعن استعمال التقويم، وعن حساب تعاقب الفصول للزراعة، وعن فنَّ الملاحة، وعن طريقة السير في البحر واتباع الإنسان طريقه فيه تمامًا من غير أن يَعْرِف أين هو، وسيتناول إيضاحي السياسة والتَّاريخ الطبيعي وعلم الفلك وأخلاق الأمم حتى الحقوق الدولية، وذلك على وجهٍ أُعطي تلميذي به فكرةً كبيرةً عن جميع هذه العلوم ورغبةً عظيمةً في تعلُّمها، ومتى فرغتُ من قول كلِّ شيءٍ حُسِبْتُ متحذلِّقًا لم يفهم أية فكرةٍ منه، ويشتدُّ ميله إلى سؤالي عن فائدة تعيين الجهات، ولكنه لا يجزو على هذا خشيةً غضبي، ويجدُّ أن الأفضل له أن يتظاهر بفهم ما حُمِّلَ على الاستماع له، وهذا هو الوجه الذي تُزاوِل به أروع تربيَّاتنا.

بيد أن إميل الذي نُشِّيَ تنشئةً أكثرَ خشونة، والذي نُلَاقِي عناءً كبيرًا في تعليمه فكرةً صعبة، لا يستمع لشيءٍ من جميع هذا، وهو يهزُّبُ عند أوَّل كلمةٍ لا يفهمها مُتَبَحِّرًا حول الغرفة تاركًا إياي أسهبُ في الكلام وحدي. ولنبحث عن حلٍّ أحسنَ من ذلك، فلا قيمة لجهازي العلمي عنده.

وقد كُنَّا نلاحظ موضع الغابة الواقعة شمالَ مُونمورنسي عندما قاطعني بسؤاله المزعج، وهو: «ما فائدة هذا؟» وأقول له: «الحقُّ معك، ولكن دعنا نُفكِّر في الأمر مليًّا، فإذا ما وجدناه غير صالحٍ لشيءٍ لم نَعُدْ إليه؛ وذلك لأن الألهوَّات المفيدة لا تُعوِّزنا.» ونجد شيئًا آخرَ نفعله مُعْرِضين عن الجغرافية بقية يومنا.

وفي صباح الغد أفتُرِّخ عليه القيامَ بنزهة قبل الفطور، ولا يطلُّب ما هو أحسن من هذا، ويبدو الأولاد مستعدين للعدوِّ دائمًا؛ ولهذا ساقان صالحتان، ونصعد في الغابة، ونجوب المروج، وننبيه، ولا نعرف أين نحن. وعندما أردنا العودَ لم نَسْتَطِعْ أن نجدَ طريقنا. ويمر الوقت ويُقْبِلُ الحرُّ، ونجوع، ونُسرع، ونهيم على وجوهنا عبثًا، ولا نجد في كلِّ مكانٍ غير الغاب والمقالع والسهول، ولا نجدُ مُعلِّمًا نهتدي به، ونزيد حُرًّا وتعبًا وجوعًا، ولا نزيد بسيرنا إلا تيهانًا، وأخيرًا نجلسُ للاستراحة والتشاور، وأفترض أن إميل نُشِّيَ كأبي ولدٍ آخر؛ فلا يُشير مطلقًا، ويبكي ولا يَعْرِفُ أننا عند باب مُونمورنسي التي يحجبها عنَّا دَغَلٌ، غير أن هذا الدَغَلُ غابةٌ في نظره، وولدٌ في مثل قامته يُدْفَن في الدَغَلِ.

^٦ مما لاحظت غالبًا أنه يهدف في الدروس العلمية التي تُلقى على الطلبة إلى استرعاء سماع الحضور من الوجوه أكثر من استرعاء سماع الطلبة. وإني لعلِّي يقين بما قلت آنفًا؛ فقد جربت ذلك بنفسِي.

ونقضي بضع دقائق صامتين، وأقول له مع شيء من القلق: «أي إميلي العزيز، ما نصنع للخروج من هنا؟»

إميلُ (عَرَقَانٌ بَاكِئًا بِكَاءً مُرًّا): لا أعرف شيئًا، فأنا تَعَبْتُ جَانِعٌ عطشان، ولا أستطيع أن أمضي أكثر مما صنعت.

جان جاك: أعتقد أنني في حالٍ أحسنٍ مما أنت عليه؟ أوترى أن البكاء يُعَوِّزني لو كنت أستطيع الفطور بدموعي؟ لا فائدة من البكاء، والمهم أن نهتدي إلى السبيل، ولنظر إلى ساعتك، فما الساعة؟
إميل: حلٌّ وقت الظهر، وأنا جائع.

جان جاك: من سوء الحظ أن الغداء لا يأتي للبحث عني، ونحن في منتصف النهار، وهذه هي الساعة التي لاحظنا فيها أمس موضع الغابة من مُونمورُنسي، لو كُنَّا نستطيع أن نلاحظ موضعَ مُونمورُنسي من الغابة! ...

إميل: أجل، ولكننا كُنَّا نرى الغابة أمس، ومن هنا لا نرى المدينة.

جان جاك: الأمر هكذا لو كُنَّا نستطيع أن نجد موقعها من غير أن نراها! ...

إميل: آه! يا صديقي العزيز!

جان جاك: ألم نقل إن الغابة كانت ...

إميل: في شمال مُونمورُنسي.

جان جاك: ومن ثمَّ يجب أن تكون مُونمورُنسي ...

إميل: في جنوب الغابة.

جان جاك: أعندنا وسيلةٌ نَجِدُ بها الشمال وقت الظهر؟

إميل: نعم، باتجاه الظل.

جان جاك: ولكن الجنوب؟

إميل: ما نصنع؟

جان جاك: إن الجنوب هو المقابل للشمال.

إميل: هذا صحيح، وليس علينا غيرُ البحث عن مقابل الظل، آه! ها هو ذا الجنوب! هذا

هو الجنوب! لا ريب في أن مُونمورُنسي واقعةٌ في هذه الجهة.

جان جاك: قد تكون على حق، فلنسلك هذا الطريق الضيق من بين الغابة.

إميل (مُصَفِّقًا مُخْرِجًا صَوْتًا فَرِحًا): آه! أرى مُونمورنسي! أراها أمامنا، هي ظاهرة، لنذهب للقطور، لنذهب للغداء، لنركض، أجل، إن لعلم الفلك فائدةً في بعض الأحوال.

واعلموا أنه إذا لم يُقَلَّ هذه الجملة الأخيرة، فإنه يُفَكَّرُ فيها ولا حَرَجَ، وذلك بشرط ألا أكون الذي يقولها، وثقوا كما هو الواقع بأنه لن ينسى درسُ هذا النهار مدى حياته، وذلك بدلاً من أن ينساه في الغد لو كنت قد اقتصرت على افتراضه له في غرفته، فيجب الكلام ما أمكنت الأفعال، وألا يُقالَ غيرُ ما يُستطاع من الأعمال.

ولا يتوقَّع القارئ أنني أبلُغ من ازدرائه ما أورد له مثلاً عن كلِّ نوعٍ من الدرس، ولكن مهما تُكُنَّ المسألة فإنني لا أستطيع أن أُحِثَّ المُعلِّمَ على قياس برهانه بقابلية التلميذ؛ وذلك لأنَّ الخطر كما قلت ليس فيما لا يفهم مطلقاً، بل فيما يعتقد أنه يفهمه.

ومما أذكرُ أنني أردتُ منَحَ أحدِ الأولاد مِثْلاً إلى الكيمياء، وذلك بعد أن أطلعته على كثيرٍ من الرواسب المعدنية، فأوضحت له كيف يُصنَعُ المِداد، وقلتُ له إن سواده ينشأ عن حديدٍ مُجزَّأً تجزئةً دقيقةً، منفصلٍ عن الزاج، وراسبٍ بسائلٍ قلويٍّ. وبينما كنت قائماً بإيضاحي العلمي إذ قاطعني الغادر الصغير بسؤالٍ كنت قد علَّمته إياه، وأقع في حيرةٍ كبيرة.

وأفكَّرُ قليلاً، وأقرُّرُ ما أصنع، فأرسل من يأتي بي بخمرٍ من قَبوِّ صاحب المنزل، كما أُخضِرُ خَمراً رخيصةً من الخَمَّار، وأتناول قارورةً صغيرةً من محللول القَلْبِي الثابت، ثُمَّ أضع أمامي قدحين من نَوْعِي الخمر هذين،^٧ وأقول له ما يأتي:

يُعشُّ كثيرٌ من الغلال لإظهاره أحسن من حقيقته، ويخدعُ هذا العِشُّ العين والذوق، ولكنه ضار، ويجعل الشيء المغشوش بظاهره الجميل أسوأ مما كان عليه سابقاً.

وتُعشُّ المشروبات، ولا سيَّما الخمر؛ وذلك لصعوبة اكتشاف العِش، ولأن الخادع يُعطى ربحاً كبيراً.

وتُعشُّ الخمر المُرَّة أو الخضراء بالمُرْداسنج، والمُرْداسنج مُخضَّرٌ من الرصاص، والرصاص إذا رُكِّب مع الحوامض أسفَر عن مِلْحٍ حُلُوٍّ مُعدَّلٍ لحموضة الخمر، ولكنه سامٌّ لمن يتناوله؛ ولذا فإن من المهم أن يُعرَفَ قبل شُرب الخمر المُشْتَبِه فيها، هل هي مُرداسنجية أو لا، وهذا ما أصنع لاكتشاف ذلك.

^٧ ينفع كل جهاز صغير يسبق الإيضاح الذي يُلقي على الولد في جعل الولد منتبهاً.

لا تشتمل الخمرُ على روحٍ ملتهبٍ فقط، كما أبصرتُم من العرقِ الذي يُستخرج منها، بل تشتمل على الحامض أيضاً، كما يُمكنكم أن تعرفوا ذلك من الخلِّ أو الثفلِ الذي يُستخرج منها كذلك. وللحامض علاقةٌ بالموادِّ المعدنيّة، وهو يتحد معها بالانحلال تكويناً لملحٍ مرّكّب كالصدا الذي ليس سوى حديدٍ مُنحلٍّ بالحامض المشتمل عليه الهواء أو الماء، وكالزنجار الذي ليس سوى نحاسٍ منحلٍّ بالخلِّ.

غير أنه يوجد لذات الحامض علائقٌ بالمواد القلوية أكثر مما بالمواد المعدنيّة، وذلك من حيث كون الحامض محمولاً، بتدخّلٍ من الأولى في الأملاح المركّبة التي حدثتكم عنها، على إرخاء المعدن المتحد به ليرتبط في القلبي.

وهنالكَ ترسّب المادة المعدنيّة، التي خرجت من الحامض المُمسك لها منحلة، وتجعلُ المائعَ كثيفاً.

ولذا فإن إحدى تينك الخمرين إذا كانت مُرداسنجية فإن حامضها يُمسك المُرداسنج منحلّاً، فإذا صببت المائع القلوي عليها فإن الحامض يُحمّل على إطلاق المُرداسنج ليُتحد بالقلبي، وبما أن الرصاص يعود غير منحلٍّ فإنه يظهر ثانيةً ويكدر المائع، ثمّ يرسب في أسفل القدح.

وإذا لم يُوجد رصاص،^٨ أو أي معدن آخر في الخمر، فإن القلبي يتحد اتحاداً هادئاً^٩ بالحامض، ويبقيان منحلّين، ولا يُحدثان أيّ رسوبٍ كان.

ثمّ أصبُّ من شرابي القلويّ في القدحين متابعاً، فأما قدح خمري المنزلية فيبقى رائقاً شفافاً، وأما الآخر فيعكر في ثانية، فإذا ما انقضت ساعة ربي الرصاص راسباً رسوباً واضحاً في أسفل القدح.

فتلك هي الخمر الطبيعيّة الصافية التي يصلح شربها كما أقول مُكرراً، وهذه هي الخمر المغشوشة التي تسمُّ، ويكتشف هذا بذات المعارف التي تسألونني عن فائدتها، والذي يعرف جيّداً كيف يُصنع الجبر يُعرف الخمر المغشوشة أيضاً.

^٨ مع أن الخمر التي تُباع مفرّقة من قبيل الخمارين بباريس غير مُردسّنجية؛ فإن من النادر أن تكون خالية من الرصاص؛ وذلك لأن مناضدهم مجهّزة بهذا المعدن، ولأن الخمر التي تفيض من الكيل تخلُّ قسماً من هذا الرصاص حين مرورها عليه واستقرارها به. ومن الغريب أن تسمح الشرطة بهذا التجاوز الواضح للخطر، بيد أن من الواقع كون الموسرين لا يشربون من هذه الخمر فلا يكونون عرضةً لسمّها!
^٩ يكون الحامض النباتي خلّواً جيّداً، وإذا كان هذا حامضاً معدنيّاً، وكان أقلّ تمدداً، فإن الامتزاج لا يقع من غير فوران.

وقد كنتُ مسرورًا بمثالي كثيرًا، ومع ذلك فإنني أرى عدمَ وُفقِهِ لنظر الولد مطلقًا، وكان لا بُدَّ لي من قليلٍ وقتٍ حتى أشعرَ بأنني لم أتَ غيرَ حماقة، واني من غيرِ بحثٍ في أن من المتعذر على ولدٍ في الثانية عشرةً من سِنِيهِ أن يتتبعَ إيضاحي، أرى أن فائدة هذه التجربة لا تدخل نطاق ذهنه؛ وذلك لأنه إذ يذوق الخمرين يجدهما صالحتين، فلا يُعيرُ أيَّ فكرٍ من كلمة العِشِّ التي رأيتُ أنني أوضحتها له جيّدًا، حتى إنه لم يكن للكلمتين الأخرين (الوبيل والسّم) أيُّ معنى عنده؛ فهو قد كان في مثل حال مؤرخ الطبيب فليب، وهذه هي حال جميع الأولاد.

ولا وجود عندنا لما بين المعلولات والعلل من صلاتٍ لا نُصِرُ ارتباطها، كما أنه لا وجودَ عندنا لما ليس لدينا عنه فِكْرٌ من الخير والشر، كما أنه لا وجودَ عندنا لما لا نُحسُّ من الاحتياجات مطلقًا، ومن المُحال أن نكثرُ بهذه الأمور لصنع أمورٍ ترتبطُ فيها. ويُصِرُ ابنُ الخامسة عشرة سعادة الرجل الحكيم، ويُصِرُ ابنُ الثلاثين جلال الفردوس، ولا يُبدلُ غيرَ مجهودٍ قليلٍ لنيهما إذا لم يُتمثَّلْ كُلُّ منهما، وإذا ما وقع تمثُّلُهما لم يُبدلُ غيرَ مجهودٍ قليلٍ أيضًا عند عدم الرغبة فيهما، وعند عدم الشعور بملاءمتيها لنا. أجل، إن من السهل إقناع ولدٍ بأن ما يُرادُ تعليمه إياه نافع، ولكن إقناعه لا يُعدُّ شيئًا إذا لم يُعرفْ كيف يُحمَلُ على اعتقاده؛ فمن العبث أن يجعلنا العقلُ الهادئ نستحسن أو نستهجِن، وليس غير الولع ما يُسيِّرُنَا، وكيف نُولعُ بمنافع لا وجود لها عندنا بَعْدُ؟

ولا تطلعوا الولدَ على شيءٍ لا يستطيع أن يراه، وبيننا تكون البشرية غريبة عنه تقريبًا ولا يمكن رفعه إلى حال الإنسان، أنزلوا الإنسانَ إلى حال الولد من أجله، وبيننا تُفكِّرون فيما يُمكن أن يكون نافعًا له في دورٍ آخرٍ من العُمُر لا تُحدِّثوه عن أمرٍ غير ما يرى الآن فائدته. ثمَّ لا تقابلوا بينه وبين الأولاد الآخرين مقابلةً قياس، ولا تُحدِّثوا منافساتٍ ولا مباريات، ولا مسابقاتٍ عدوٍ أيضًا، وذلك عندما يأخذ في التعقُّل، فأفضلُ مائة مرةً ألا يتعلَّم ما لا يتعلَّم إلا عن حسدٍ وزهو، وإنما أدوّن في كلِّ عامٍ ما يتفق له من تقدُّم، فأقابل بين هذا وما يتمُّ له في العام القادم، وأقول له: «لقد نموت كثيرًا، وهذا هو الخندقُ الذي وثبت عليه والثقلُ الذي حملته، وهذا هو البُعد الذي رميت إليه حصاةً والميدان الذي قطعتَه عدوًا بنفْسٍ واحد... إلخ. ولنرَ الآن ما أنت صانع.» وهكذا فإنني أحرضُه من غير أن أجعله حاسدًا لأحد، وإذا أراد أن يتفوق على أعماله السابقة فليصنِّع، فلا أرى ضررًا في منافسته لنفسه.

وأتمتُّ الكتبَ، والكتبُ لا تُعلِّمُ غيرَ الكلام حول ما لا يُعلِّم، ويُروى أن هرْمِسَ نقش أصول العلم على أعمدةٍ حفظًا لِمَا اكتشفَ من طوفانٍ يقع، فلو طَبَعها في رءوس النَّاس لُنُقِلت جيلًا بعد جيل؛ فالأدمغة الحسنة هي أضمن ما تُنقَش عليه المعارف البشرية.

أفلا توجد وسيلة يُقَرَّب بها بين دروسٍ كثيرةٍ مبعثرةٍ في كتبٍ كثيرةٍ، فتُجمَع في موضعٍ مشتركٍ يسهل أن تُرى فيه، ويكون من الممتع أن تُتَبَّع عنده، ويُمكن اتِّخاذاً مُغرياً حتى في ذلك الدَّور من العُمُر؟ ولو أمكن اكتشافُ حالٍ تبدو فيها جميع احتياجات الإنسان الطبيعية محسوسةً في ذهن الولد، وحيث تتقدَّم وسائل قضاء هذه الاحتياجات متعاقبةً بعين السهولة؛ لوجب أن تُعطى مُخيَّلتُهُ أوَّل تمرينٍ يرسم تلك الحال رسماً حيّاً ساذجاً.

أيها الفيلسوف الهُمام، أرى اشتعال مُخيَّلتك، لا تُزَعج نفسك؛ فتلك حالٌ عُرفت سابقاً، وقد وُصِفَتْ بأحسنٍ كثيراً من وَصْفِكَ إياها بنفسك، وهذا من غير إجحافٍ بك، وذلك مع أعظم حقيقةٍ وأكثرِ بساطةٍ على الأقل. وبما أنه لا بدُّ لنا من الكتب على الإطلاق فإن لدينا من الكتب، كما أرى، ما يُزوِّد بأفضلِ رسالةٍ في التَّربية الطبيعية، وسيكون هذا أوَّل كتاب يقرؤه إميل، وستتألف من هذا الكتاب وحده مكتيبته لزمَنٍ طويل، وسيحتلُّ مكاناً ممتازاً في كل وقت، وسيكون المتن الذي لا تكون أحاديثنا حول العلوم الطبيعية غير شَرَحٍ له، وسيُتَّخذ دليلاً في أثناء تقدُّمنا نحو حُسن الرأي، وستروقنا مطالعته دائماً ما ظلَّ ذوقنا غير فاسد. وما هذا الكتاب العجيب إذن؟ أهو أرسطو؟ أهو بليسي؟ أهو بوفون؟ كلا، وإنما هو روبنسن كروزو.

رُوبنسن كروزو في جزيرته، هو وحيدٌ محرومٌ مساعدةً أمثاله وأدواتٍ جميع الصنائع، وهو مع ذلك يتدارك معاشه ويُديِّر بقاءه، حتى إنه ينال شيئاً من الرفاهية، وهذا أمرٌ نافعٌ في كل دَور من العُمُر، ويوجد ألفُ وسيلةٍ لجعله مقبولاً لدى الأولاد، وإليك كيف نبلُغ الجزيرة القفر التي صلَّحت للقياس في البُداءة. وأوافق على أن تلك الحال ليست حال الرجل الاجتماعي، ومن المحتمل ألا تكون جزيرة إميل، ولكنها عينُ الحال التي يجب أن تُقدَّر جميع الأحوال الأخرى عليها، وتُرى أضمن وسيلةً للترفُّع عن المُبتسرات، وتنظيم الأحكام وَفَّق ما بين الأمور من علاقاتٍ حقيقية، في وضع الإنسان نفسه موضع الرجل المنعزل، وفي حكمه في الأشياء كما يحكم هذا الرجل المنعزل ناظرًا إلى فائدتها الخاصة.

وإذا ما أُزيل كلُّ حشوٍ من هذه القصة وُجِد أنها تبدأ بغرق سفينة روبنسن بالقرب من جزيرة، وأنها تنتهي بوصول السفينة التي حضرت لإخراجه منها، فيكون هذا لهوًا ودرسًا لإميل معاً، وذلك في دَور عُمُر الذي هو موضوعنا هنا. وأريد أن يدور بها رأسه، وألا ينفك يُعنى بقصره ومَعزِه ورزعه، وأن يتعلَّم مفصلاً في الأشياء - لا في الكتب - جميع ما تجبُ معرفته في مثل هذه الحال، وأن يتصور أنه روبنسن بنفسه، وأن يُبصر أنه لايسُّ جلوداً وطرطوراً وحاملٌ سيِّفاً

كبيرًا، وكلُّ ما عند روبنسن من جهازٍ غليظ، وحائزٌ مِظْلَةٌ قريبةً منه، فلا يكاد يحتاج إليها. وأريد أن يشغلَ باله بما يتخذ من التدابير إذا ما أُعوزَه هذا الشيء أو ذاك، وأن يدرُس سلوكك بَطْلَه، وأن يبحث في هل أهمل شيئًا، وفي وجود خيرٍ من ذلك يَعْمَل، وأن يَقَيِّد خطأه، وأن يستفيد منه لكيلا يقع في حالٍ مماثل، فلا يتطرق إليكم شكٌّ في عزمه على إقامة مثل هذه المؤسسة لنفسه؛ فهذا قصرٌ في الهواء لمن هو في عُمره السعيد حيث لا يُعرَف من السعادة غير الحرية والحجيات.

ويا لَلوسيلة التي يُجَهِّز بها هذا الهوسُ رجلًا ماهرًا لم يجدها إلا ليستعملها! يكون الولد الذي يبادر إلى إقامة مستودعٍ في جزيرته أشدَّ حماسةً للتعلم من حماسة المُعلِّم للتعليم؛ فهو يريد أن يَعْرِف كلَّ ما هو مفيد، ولا يريد أن يَعْرِف غير هذا. وأنتم تعودون غير مضطرين إلى إرشاده، ولا يكون عليكم غيرُ إمساكه. ولتُسرع إذن في إسكانه هذه الجزيرة ما قَصَرَ سعادته عليها؛ وذلك لاقتراب اليوم الذي لا يُريد فيه أن يعيش في هذه الجزيرة وحده، وإن كان يريد أن يستمرَّ على العيش فيها، ولأن «الجمعة» التي لا تمسُّه الآن لا تكفيه زمانًا طويلًا.

وتؤدي مزاولة الفنون الطبيعية، التي يكفي رجلٌ واحدٌ للقيام بها، إلى البحث عن الفنون الصناعية التي تحتاج إلى تضافرٍ كثيرٍ من الأيدي. أجل، تُمكن ممارسة الفنون الطبيعية من قِبَل مُتَعَزِلين، تُمكن ممارستها من قِبَل متوحشين، ولكن الفنون الصناعية لا يمكن أن تظهر في غير المجتمع، وهي تجعل المجتمع أمرًا ضروريًا، وكفي الإنسان نفسه ما عَرَف الاحتياج البدني فقط، ويجعل انتحال الفائض توزيع العمل والتقسيم أمرًا ضروريًا؛ وذلك لأن الرجل الذي يعمل وحيدًا إذا كان لا يكسب غير رزقه فإن مائة رجلٍ يعملون متفقين ينالون من الأرزاق ما يعيش منه مئتا رجل؛ ولذا فإنه إذا ما استراح فريقٌ من الآدميين وجب تعاون ذُرْعانٍ مَن يعملون لتلافي بطالة مَن لا يعملون شيئًا.

ويجب أن يقوم أعظم جُهدٍ تَبْدُلون على إبعادكم من ذهن تلميذكم جميع مفاهيم الصلات الاجتماعية التي لا تكون ضمن متناوله، ولكن إذا ما حَمَلكم تسلسل المعارف على إراءته اتِّباع بعض النَّاس لبعض أتباعًا متقابلًا فوجَّهوا جميع انتباهه نحو الصناعة والفنون الميكانيكية التي تجعل بعضهم مفيدًا لبعض، وذلك بدلًا من إراءته ذلك الاتِّباع من الناحية الأدبية. وإذا ما أخذتموه من مصنع إلى مصنع فدَعُوهُ يُجَرِّب كلَّ عملٍ يرى، ولا تدَعُوهُ يتركه من غير أن يَعْرِف تمامًا سبب كلِّ ما يُعْمَل هناك، أو سبب كلِّ ما يسترعي انتباهه؛ ولذا فاعملوا بأنفسكم، وأعطوه المثل في كلِّ موضع، وكونوا تلميذًا في كلِّ مكانٍ لتجعلوا منه أستاذًا، واعلموا أنه ينال في ساعة عملٍ من العلم بأمورٍ أكثر مما ينال من إيضاح يدوم نهارًا بأسره.

ويوجدُ تقديرٌ للفنون على نسبةٍ معكوسةٍ لفائدتها الحقيقية، حتى إن هذا التقديرَ يُقاس بعدم نفعها مباشرة، وهذا ما يجب أن يكون، فأفيدُ الفنون هو أقلُّ الفنون ربحًا؛ وذلك لأن عدد العمال يكون على نسبة احتياج الناس، ولأن العملَ الضروريَّ لجميع الناس يبقى ثمنه في حالٍ يستطيع الفقير أن يؤدِّيه معه قسرًا. وعلى العكس، فإن هؤلاء الأماجد الذين يُدعون متفنين - لا صنًاغًا - يعملون من أجل الأغنياء والبطالين، فيفرضون ثمنًا مُرادياً*^{١٠} لثرتهم. وبما أن أجر هذه الأعمال الفارغة أمرٌ خياليٌّ فإن ثمنها يكون جزءًا من هذا الأجر، فتقدَّر بنسبة نفاستها، ولا يُقدَّرها الغنيُّ من حيث فائدتها، بل من حيث عدم استطاعة الفقير أن يؤدي ثمنها، «فلا أريد أن أحوِّز من المال غير الذي يُمكن الشعب أن يُحسدني عليه.»

وما يكون أمر تلاميذكم إذا ما تركتموهم ينتحلون هذا المُبتسرَ الأحمق، وإذا ما يسرتموه بأنفسكم، وإذا ما رأوكم تَدْخلون مثلًا حانوت صائغ برعاية أكبر مما تَدْخلون به دُكان قفَّال؟ وأي حُكم يساورهم حول أجر الفنون الحقيقيِّ وحول قيمة الأشياء الحقيقية عندما يزون في كلِّ مكان ثمن الوهميِّ مبيأًا للثمن المستخرج من النفع الحقيقي، وأن الشيء كلما زاد تكليفًا قلَّ ما يُساوي؟ ومتى تركتم هذه الأفكار تَدْخل رأسهم فدعوا ما بقي من تربيتهم؛ فهم سيكونون كبقية الناس على الرغم منكم، وتكونون قد خسرتم جهود أربع عشرة سنة.

وإميل، حين يميل إلى تأنيث جزيرته، تكون له طُرزٌ أخرى في النظر، ومن شأن روبنسن أن كان يوجِّه نظره إلى دُكان حدَّادٍ أكثر من توجيهه إلى توافه سعيد؛ فالحداد كان يُلوح له رجلًا بالغ الاحترام، وسعيدٌ كان يلوح له مُمخرفًا حقيرًا.

«خُلِقَ ابني ليعيش في العالم، وهو لن يعيش مع العقلاء، بل مع المجانين؛ ولذا يجب أن يَعْرِفَ جنونهم ما داموا يريدون أن يُقادوا بالجنون. أجل، قد تكون معرفة الأشياء الحقيقية أمرًا حسنًا، بيد أن معرفة الرجال وآرائهم أفضل من ذلك؛ وذلك لأن الإنسان في المجتمع البشريِّ أعظمُ آلةٍ للإنسان؛ فأعقلُ الناس هو خيرٌ من يستعمل هذه الآلة. وما فائدة تلقين الأولاد فكرةً عن نظامٍ خياليٍّ مخالفٍ للنظام الذي يجدونه قائمًا، والذي يجب أن يُرتَّبوا أمورهم على مقتضاه؟ وليكن أوَّل ما تُعطونهم إياه من الدروس أن يكونوا عقلاء، ثم تُلقون عليهم دروسًا يرون بها سبب كون الآخرين من المجانين.»

وهذه هي المبادئ الممؤهة التي يستند إليها حَذُرُ الآباء الزائف في جعل أولادهم عبيداً لما يُعَدُّونهم به من مُبْتَسِرَات، ولُغْبَاً لجمهورٍ مجنونٍ يَرَوْنَ أن يجعلوا منه آله أهوائهم، وما أَكْثَرَ الأشياء التي يجب أن نَعْرِفَهَا قبل أن نَعْرِفَ الإنسان! إن الإنسان هو آخر ما يَدْرُسُ العاقل، وأنتم تقصدون أن تجعلوا منه أَوَّلَ ما يَدْرُسُ الولد! فابعدوا بتعليمه تقدير إحساساتنا قبل أن تُعَلِّمُوهُ إياها، وهل يُعْرِفُ الجنون عندما يُحْطَأُ في عَدَّة عقلاً؟ ويقضي كونُ الإنسان عاقلاً بفِرْزٍ مَنْ ليس عاقلاً، وكيف يَعْرِفُ ولِدُكُمْ الرجال إذا كان لا يَعْرِفُ أن يحكُم في آرائهم ولا أن يَمَيِّزَ خطأهم؟ ومن السُّوء أن يَعْرِفَ ما يُفَكِّرُونَ فيه على حين يُجْهَلُ كونُ ما يُفَكِّرُونَ فيه خطأً أو صواباً؛ ولذا فلتكن الأشياء كما هي أَوَّلَ ما تُعَلِّمُونَ ولِدُكُمْ، ثُمَّ تُعَلِّمُونَهُ الوجهة الذي تبدو به لأعيننا، وهكذا فإنه سَيَعْرِفُ أن يقابل بين الرأي الشعبي والحقيقة، وأن يرتقي فوق العوام؛ وذلك لأن المُبْتَسِرَات لا تُعْرِفُ بعد أن تُعْتَنَقَ، ولا يقود الرجلُ الشعب إذا ما شابها، ولكنكم إذا ما أخذتم في تعليمه الرأي العام قبل تعليمه تقديره فأعلموا أن هذا يَغْدُو رأيه ولن تقدرُوا على إزالته مهما بذلتم من جُهد؛ ومن ثمَّ أرى أن جعل الفتى حصيفاً يستلزم حُسْنَ تكوين أفكاره بدلاً من أن نُملِي عليه أفكارنا.

وأنتم ترون أنني لم أُحَدِّث تلميذي عن الرجال حتى الآن، ولا بُدَّ من أن يكون قد بلغ من الرشاد ما يُصْغِي معه إليّ، ولم تكن صلاته بنوعه من الوضوح بعدُ ما يستطيع معه أن يحكم في الآخرين بنفسه، ولا يَعْرِفُ موجوداً بشرياً غير نفسه، حتى إنه بعيدٌ من أن يَعْرِفَ نفسه، ولكنه إذا كان لا يحمل غير آراءٍ قليلةٍ عن نفسه فإن هذه الآراء القليلة التي يحملُ صانبةً على الأقل، وهو يجهلُ ما مكانُ الآخرين، غير أنه يشعر بمكانه ويلزمه، وقد ربطناه بسلاسل الضرورة بدلاً من القوانين الاجتماعية التي لا يستطيع معرفتها، وهو لا يكاد يكون غير جسم، فلنداوم على معاملته كأنه هكذا.

ويجب أن تُقَدَّر جميعُ أجسام الطبيعة وجميع أعمال النَّاس من حيث صلاتهما المحسوسة بفائدة الإنسان وسلامته ويقائه ورفاهه، وهكذا يجب أن يكون للحديد من القيمة في نظره ما يزيد كثيراً على قيمة الذهب، وأن يكون للزجاج من القيمة ما يزيد كثيراً على قيمة الألماس، وهكذا يجب أن يُكْرَمَ الحَدَّاءُ والبنَّاءُ أكثرَ من إكرامه أمثالُ لَنَبْرُورِ ولُئِيلَانَ وجميعِ صُؤَاغِ أوروبية بدرجات، وأن يُعَدَّ الحلوانيُّ على الخصوص رجلاً بالغ الأهمية، وأن يَفْدِي أَحَقَرَ فطائريِّ في شارع اللُّبْنَارِ بجميع المجمع العلمي، وليس الصَّاعَةُ والنَّقَّاشُونَ والمُذْهَبُونَ والمُطْرَزُونَ في نظره غير كَسَالِي يتلهَّون بألعابٍ لا تنطوي على فائدة، ولا يختلف عن هذا نظره إلى الساعاتي أيضاً؛ فالولد السعيد يتمنَّع بالوقت من غير أن يكون عبداً له، وهو يستفيد منه ولا يَعْرِفُ قيمته، وما يكون من سكون أهواءٍ

يجعل تعاقب الأيام أمرًا متساويًا لديه دائمًا، يقوم مقام الآلة لقياسه عند الضرورة،^{١١} وإذا ما افترضت لإميل ساعة، كما افترض إيكاهه، جعلت منه عاميًا ليكون نافعًا مدرّكًا لي؛ وذلك لأن من الصحيح ألا يصلح ولدٌ يختلف عن الآخرين بذلك المقدار مثالًا لشيء.

ويوجد نظامٌ ليس أقلَّ طبيعة، وهو أكثرُ صوابًا، تُقدّرُ الفنون به وفق العلائق الضرورية التي تربط بينها، جاعلاً أكثرها استقلالاً في المرتبة الأولى، وجاعلاً في المرتبة الأخيرة ما يتبع منها أكبر عددٍ من غيرها، ويشابه السابق هذا النظام الذي يُزوّد باعتبارٍ مهمةٍ حوّل المجتمع العام، وهو يخضع لذات العكس في تقدير الناس، وذلك أن استعمال المواد الأولى يتم في الحرف غير ذات الشرف وغير ذات الرّيح تقريبًا، وأن هذه المواد كلّما تقلّبت عليها الأيدي زاد أجر العمل وصار شريفًا. ولا أبحث في هل من الصواب كون الصناعة تكون عظيمةً وتستحقُّ أجرًا في الفنون الدقيقة التي تمنح آخر شكلٍ لهذه المواد أكثر مما يستحقُّه أوّل عملٍ يُحوّلها إلى استعمال الناس، وإنما أقول في كلّ شيء إن الفن الذي يكون استعماله أكثرَ عمومًا وأعظمَ لزومًا هو، لا ريب، ذلك الفن الذي يستحقُّ أكبر تقدير، وإن الفن الذي هو أقلُّ ما يحتاج إلى الفنون الأخرى يستحقُّ تقديرًا أكبر مما تستحقه الفنون التابعة؛ وذلك لأنه أكثرُ حريةً وأقربُ إلى الاستقلال؛ فهذه هي القواعد الحقيقية في تقدير الفنون والصناعة، وأمّا غيرها فمرادٍ تابعٌ للرأي العام.

والزراعة هي أوّل الفنون وأكثرها اعتبارًا، وأضع الجداذة في المرتبة الثانية، وأضع النجارة في المرتبة الثالثة، وهلمَّ جرًّا، وهذا ما يحكم به الولدُ ضبطًا إذا لم تُغوه المُبتسرات العامية. ويا للتأملات المهمة التي يستخرجها إميل من روبنسن حول ذلك! وفيه يفكر حين يرى الفنون لا تتكامل إلا بانقسامها ويتكثير آلات كل منها كثيرًا لا حدَّ له؛ وسيقول في نفسه: «إن جميع هؤلاء الناس حاذقون بما يُعدّون معه من الحمقى. والناظر إليهم يعتقد أنهم يخافون ألا تنفعهم أذرعهم وأصابعهم في شيء ما داموا يخترعون آلات تُغنيهم عنها، وتراهم مُعبدين لألف فنٍّ حتى يزاولوا فنًا واحدًا، فكأنه يجب أن تكون لكلِّ عاملٍ مدينة. وأمّا أنا ورفيقي فإننا نُنفق ذكاءنا في شطارتنا، فنصنع من الآلات ما نستطيع حملُه في كلّ مكان، وما كان جميع أولئك الذين يُباهون بقرائحهم في باريس ليقدرُوا على شيء في جزيرتنا، وهم يكونون تلاميذ لنا فيها بدورهم.»

ويا أيها القارئ، لا تتفم هنا عند رؤية التمرين البدني وبراعة يدي تلميذنا، ولكن انظر أيُّ

^{١١} يفقد الوقت قياسه لدينا إذا ما أرادت أهواؤنا تنظيم مجراه كما تود، وساعة العاقل في تساوي المزاج وهدهوء النفس، وهو محافظ على وقته دائمًا، وهو يعرفه دائمًا.

توجيه نوجه به ذاك الفضول الصباني، انظر إلى الحسّ وروح الاختراع والبصر بالأمور، انظر أيّ رأس نُكُونُ له، وهو يريد أن يَعْرِفَ كلَّ شيء، وأن يَعْرِفَ سببَ كلِّ شيء، في كلِّ ما يرى وكلِّ ما يَعْمَل، وهو يريد دائماً أن يَرْجِعَ إلى الأولى بين آلةٍ وآلة، وهو لن يقول بافتراض شيء، وهو سيرْفِضُ تعلُّمَ كلِّ ما يتطلب سابقَ معرفةٍ غير حائزٍ لها، وهو إذا ما رأى صنْعَ نابضٍ أراد أن يَعْرِفَ كيف استُخْرِجَ الفولاذُ من المَعْدِن، وهو إذا ما رأى جَمَعَ قِطْعَ صُنْدُوقٍ أراد أن يَعْرِفَ كيف قُطِعَتِ الشجرة، وهو إذا ما عَمِلَ بنفسه في كلِّ آلةٍ يستخدمها لم يَفْتَهُ أن يقول: «إذا كنتُ غير حائزٍ لهذه الآلة فكيف أستطيع صنْعَ مثلها أو كيف أستغني عنها؟»

ومع ذلك فإن من الخطأ الذي يَصُغَبُ اجتنابه فيما يُولَعُ به المُعلِّم من الأشاغل هو أن يُفْتَرِضَ للولد عَيْنُ هذا الذوق دائماً، وكونوا على حَذَرٍ عندما يستحوذ لهُوَ العملِ عليكم، من أن يعتبره سأمً فلا يَجْرُؤُ على إظهاره؛ فالولدُ يجب أن يكون بيت القصيد، ويجب أن تكونوا للولد كَلِيًّا، فتلاحظوه وتَرْقُبُوهُ بلا انقطاع ومن غير أن يَشْعُرَ، ويجب أن تُبصروا جميعَ مشاعره مُقدِّمًا، وأن تتلافوا ما لا ينبغي وجوده عنده، وأخيراً يجب أن تشغلوهُ بما لا يُحسُّ معه أنه نافعٌ للشيء فقط، بل أن يكون من عوامل سروره إدراكه نفع ما يصنَعُ أيضاً.

ويقوم مجتمع الفنون على مبادلة الصنعة، ويقوم مجتمع التجارة على مبادلة السلْع، ويقوم مجتمع البنوك على مبادلة النقود والسّمات، وتتماسك جميعُ هذه الأفكار، وقد اتُّخِذَت جميعُ المفاهيم الابتدائية. وقد طرحنا أسسَ جميع هذا منذ الدَّورِ الأوَّل من العُمُرِ بعَوْنِ من البستاني زُوْبِرَت، والآن لم يبقَ علينا غيرُ تعميم هذه الأفكارِ وبسطها بأمثلة كثيرة، وذلك ليُحْمَلُ الولدُ على إدراك الأعمال التجارية التي تُتَّخَذُ بنفسها وتُجْعَلُ أمراً محسوساً بجزئيات التَّاريخ الطبيعي التي تُعْنَى بما يُنتِجُ كلُّ بلدٍ على الخصوص، وجزئيات الفنون والعلوم التي تُعْنَى بالمِلاحَة، ثمَّ بمشكلة النقل على حسب بُعْدِ الأماكن وعلى حسب موقع الأرضين والبحار والأنهار... إلخ.

ولا يستطيع أيُّ مجتمع أن يُوجَدَ من غير مبادلة، ولا تستطيع أية مبادلة أن تُوجَدَ من غير قياسٍ مشترك، ولا يستطيع أيُّ قياسٍ مشترك أن يُوجَدَ من غير مساواة، وهكذا فإن القانون الأوَّل لكل مجتمع يقوم على مساواةٍ عَهْدِيَّةٍ سواءً بين النَّاسِ أو بين الأشياء.

وتجْعَلُ المساواة العهديَّة بين النَّاسِ - المختلفة عن المساواة الطبيعية - أمرَ الحقِّ الوضعي؛ أي الحكومة والقوانين، أمراً ضرورياً، ويجب أن تكون معارفُ الولد السياسيَّة واضحةً محدودة، فلا ينبغي أن يَعْرِفَ شيئاً عن الحكومة على العموم غير ما يناسب حقَّ التملُّك الذي يُوجَدُ لديه فكرةً عنه.

وقد أدت المساواة العهدية بين الأشياء إلى اختراع النقد؛ وذلك لأن النقد ليس غير حدّ مقابلة بين قيمة الأشياء من مختلف الأنواع. وعلى هذا المعنى يكون النقد رابطة المجتمع الحقيقية، غير أن كلّ شيء يُمكن أن يكون نقدًا، وقديمًا كانت الماشية نقدًا، ولا يزال الصّدَف نقدًا عند كثيرٍ من الأمم، وكان الحديد نقدًا في إسبارطة، وكان الجِلْدُ نقدًا في إسوج، ونحن نتخذ نقدًا من الذهب والفضة.

وبما أن المعادن أسهلّ نقلًا فقد اتُّخِذَتْ وسائطٌ جامعةٌ بين جميع المبادلات، وقد حُوِّلت هذه المعادن إلى نقدٍ توفيرًا للكَيْلِ أو الوزن عند كلِّ مبادلة؛ وذلك لأن سِمَةَ النقد ليست غيرَ شهادةٍ بأن القطعة الموسومة هكذا تشتمل على هذا الوزن أو ذاك، والأَمِيرُ وحده هو صاحب الحقّ في ضربِ النقد ما دام وحده صاحب الحقّ في الادّعاء بكوّن شهادته نافذةً بين جميع الشعب.

ويُدرِكُ أغبى النَّاسِ فائدةَ هذا الاختراع إذا ما أُوضِحَتْ له على هذا الوجه، ومن الصعب أن يقابل مباشرةً بين أشياءٍ مختلفةٍ طبيعةً، كالجُوجِ والقمح مثلاً، ولكنه إذا ما وُجِدَ مقياسٌ مشتركٌ - أي النقد - سهّلَ على الصانع والزارع أن يَزِدَا قيمةَ الأشياءِ التي يريدون مبادلتها إلى هذا المقياس المشترك، فإذا كان مقدار الجُوجِ يَعدّلُ مبلغًا من النقد وكان مقدارُ القمح يَعدّلُ كذلك عينَ المبلغ من النقد، فإن الذي يحدث هو أن التاجر إذ يأخذ هذا القمح في مقابل جُوجِه يكون قد أتى مبادلةً عادلة، وهكذا فإن الأموال المختلفة الأنواع تصيرُ بالنقد صالحةً للقياس مُنكناً أن يُقابَل بينها.

ولا تذهبوا إلى ما هو أبعد من هذا فتُدخِلوا إلى الإيضاح نتائج هذا النظام الأدبية، ويجب في كل أمرٍ أن يُحَسَّنَ عَرَضُ العادات قبل أن يُبْدَى سوءُ الاستعمالات، وإذا كنتم تَرَعَمون أنكم تَشْرَحون للأولاد كيف تُوَدِّي الرموزُ إلى إهمال الأشياء، وكيف نشأ عن النقد جميع أوهام الرأي العام، وكيف يجب أن يكون أغنى البلاد أفقرها في كلِّ شيء، فإنكم تكونون قد عاملتم هؤلاء الأولاد كرجالٍ عقلاء - لا كفلاسفةٍ فقط - وتكونون قد ادّعيتم إسماعهم ما لم يُدرِكه غيرُ قليلٍ من الفلاسفة.

وما أكثرَ الأمورِ الممتعة التي يُمكن أن يُحوَّلَ إليها فضولُ التلميذ على هذا الوجه من غير أن تُتْرَكَ العلائقُ الحقيقية والمادية التي تكون في متناولها، ومن غير أن يُسَمَحَ بتسرُّبِ فكرٍ في ذهنه لا يستطيع إدراكه! ولا يقوم فنُّ المُعلِّم على جعل الولد يستند في مشاهداته إلى دقائق تافهة، بل على تقريبِ ذهنه بلا انقطاعٍ من علائقٍ يجب أن يَعْرِفَهَا ذات يومٍ ليحكّم حكماً صائباً

حول نظام المجتمع المدنيّ الصالح أو الطالح، ويجب أن يكون المُعلِّم قادرًا على التوفيق بين الأحاديث التي يُلهمها بها وجولاتِ الذهن التي حَبَّاه بها، ومسألة مثل هذه لا يُمكن تلميذًا آخر أن يلتفت إليها ستُرْعَجُ إميل ستة أشهر.

ونذهب لتناول الغداء في منزل مُوسر، ونجد استعدادَ عيد، ونجد كثيرًا من النَّاسِ والخَدَمِ، ونجد كثيرًا من الأطباقِ وصُحونِ الأطعمة اللطيفة الفاخرة، وتنطوي غُدَّة النعيم والعيد هذه على أمرٍ مُسكِرٍ لمن لم يتعوَّدها، وأبصِرُ تأثيرَ جميعِ هذا في تلميذي الفتى. وبينما تُقدِّمُ الأطعمة، وبينما تتعاقب الآنية، وبينما يسود المائدة ألفُ حديثٍ صاحب، أدنو من أذن تلميذي وأقول له همسًا: «كم عدد الأيدي التي تناولت ما ترى قبل أن تصلِ إلى هذه المائدة؟» وما أكثرَ الأفكارِ التي أُثيرها في دماغه بهذه الكلمات القليلة! تزول غيوم الهديان حالًا، ويتصوَّر ويتأمل ويتحسَّب ويضطربُ باله، وما هو ذا يتفلسف منزويًا وحده، وما هو ذا يسألني، على حين يَهْدِي الفلاسفة ويَهْدِرُونَ كالأولاد بفعل الخمر أو بفعل الجالساتِ حولهم، وأمتنع عن الجواب، وأصْرِفه إلى وقتٍ آخر، ويفرغ صبره، وينسى الأكل والشرب، ويتحرَّق شوقًا إلى وجوده خارج المائدة ليحدثني براحة. وأيُّ موضوعٍ يُثيرُ فضوله! وأيُّ عبارةٍ تُوجبُ تعليمه! وما يكون رأيه - بعقلٍ صحيحٍ لم يسطع أن يُفسده شيء - في الترف عندما يجدُ أن جميعَ بقاع العالم تعاونت، وأن من المحتمل أن تكون عشرون مليونًا من الأيدي قد عمِلتَ زمنًا طويلًا، وأن حياة الألوفا من النَّاسِ رَهَقَتْ، لتعرض عليه من الثياب الفاخرة ظُهْرًا ما يُودع ضوانه مساء؟

وارقبوا بدقة تلك النتائج الخفية التي يستتبطها في فؤاده من جميع هذه المشاهدات، وإذا ما رقبتموه بأقلِّ مما أفترضُ أمكنَ أن يُحوَّلَ تأملاته إلى معنى آخر، فيُعَدُّ نفسه ذا شأنٍ في العالم حين يرى تضافرَ كثيرٍ من الجهود في إعداد غدائه، وإذا ما أحسستم بهذه البرهنة سهَّلَ عليكم أن تحولوا دون وقوعها، أو أن تمحوها تأثيرها من فوركم على الأقل. وبما أنه لا يَعْرِفُ حتى الآن أن ينتحل الأمور إلا بمُتعتها المادية، فإنه لا يستطيع أن يحكم في ملاءمتها له أو عدم ملاءمتها له إلا بالعلائق المحسوسة، وما يكون من مقابلةٍ بين غداءٍ ريفيٍّ بسيطٍ مُعدِّ بالتمرير ومُعلَّلٍ بالجوع والحرية والسرور، ووليمته الفاخرة جدًّا والبالغة التنظيم يكفي لإشعاره بأن جميعَ جهازِ المادية لم يُنعم عليه بأية فائدة حقيقية كانت، وبأن معدته إذ غادرت مائدة القروي راضيةً رضاهًا عن مائدة الغني، لم تكسب من هذه ولا تلك ما يستطيع أن يدعوه مألًا له في الحقيقة. ولتتملَّ ما يُمكنُ المُعلِّم في مثل هذه الحال أن يقول له: اذكُرْ هذين الطعامين جيِّدًا،

وقرر بنفسك أيهما أمتعك أكثر من الآخر، وأيهما أورتك سرورًا أعظم من الآخر، وأيهما أكلت بشهوة وشربت بلذة وضحكت منه بمرح أشد مما اتفق لك بالآخر، وأيهما دام بلا سأم - ومن غير احتياج إلى أن يتجدد بسُمطٍ أخرى - أطول مما دام الآخر؟ ومع ذلك فانظر إلى الفرق، إن هذا الخبز الأسمر الذي تجده جيّدًا ينشأ عن القمح الذي يحصّده هذا الفلاح، وإن خمّره الغليظة السوداء، ولكن مع إرواء واستمراء، مصنوعة من غلّة كرمه، وإن بياضاته تأتي من قنّبه، وتُغزّل في الشتاء من قبل امرأته وبناته وخدامته، وإن لوازم مائدته لا تُعدُّ بيدٍ غير يد أسرته، وإن أقرب رَحَى وسوقٍ هما حدًا العالم عنده، فما تمّعتك في الحقيقة، إذن، بما تُقدّمه الأرض البعيدة وأيدي الرجال على المائدة الأخرى؟ إذا كان كلُّ ذلك لا يعرض عليك أطيب طعام، فما تكون قد كسبت من هذا اليُسْر؟ وما مقدار ما صنّع منه لك؟ ويُمكن المُعلّم أن يضيف إلى ذلك قوله: لو كنت ربّ المنزل لكان لك أقلُّ نفعٍ في ذلك؛ وذلك لأن ما تبدّل من جهدٍ في عَرْض بهجتك على الآخرين يُنزع منك هذه البهجة؛ فالعناء واقعٌ عليك، واللذّة لهم.

أجل، قد يكون هذا الكلام رائعًا جدًّا، ولكن لا قيمة له عند إميل الذي يجاوز متناوله والذي لا تُملَى عليه تأملاتٍ أيّ كان، وكلموه إذن بما هو أبسط من ذلك، وقولوا له في صباح يوم بعد تينك التجريبتين: «أين تنعدي اليوم؟ أخوّل هذا الجبل الفضي الذي يُغطّي ثلاثة أرباع المائدة، وحول أحواض الزهر الورقي التي تنفع للنقل على المرايا، وبين هؤلاء النسوة ذوات الخلل الكبيرة اللاتي يعاملنك مثل دُمّية متحركة، فيردن أن تقول ما لا تعرف؟ أو في تلك القرية البعيدة من هنا فرسخين، عند أولئك النَّاس الطيّبين الذين يستقبلوننا فرحين ويُقدّمون إلينا قشدة فاخرة؟» ولا ريب في خيار إميل؛ وذلك لأنه ليس مهذّرًا ولا مُعترًا، ولأنه لا يُطبقُ القَسْر، ولأن جميع الأطعمة المُعلّلة الناعمة لا تروقه مطلقًا، ولأنه مستعدٌّ للعدو في الأرياف دائمًا، ولأنه شديد الرغبة في الفواكه الجيدة والخضّر الصالحة والقشدة الحسنة والنَّاس الطيّبين.^{١٢} وبينما نحن سائرون في طريقنا يأتي التأمّل من نفسه «فأرى هذه الجموع من النَّاس الذين يعملون لإعداد هذه

^{١٢} يُعدُّ ما أفضض من أن ميّل تلميذي إلى الأرياف ثمرةً طبيعيةً لتربيته، ثمّ بما أنه خالٍ من ذلك الزهو والهنّام الذي يروق النساء كثيرًا، فإنه أقلُّ من الأولاد الآخرين احتفالًا بالأعياد؛ ومن ثمّ يكون أقلّ رضا عن النساء، وأقلّ دلالةً في مجتمعهن الذي لم يبلغ بعد من العُمُر ما يشعر معه بفتونه. وقد احترزت من تعليمه تقبيل أياديهن وتملقهن، وأن يبدى نحوهن من الأدب أكثر مما يبدى نحو الرجال، وقد اتخذت قاعدة ثابتة قائلة بعدم مطالبته بشيء لا يدخل ضمن نطاق عقله، فلا يوجد لدى الولد سبب صالح يُعامل به أحد الجنسين على خلاف ما يعامل به الآخر.

الولائم الكبيرة تحسّر متاعها أو أنها لا تُفكر في ملاذنا مطلقاً.»

وستكون أمثلي الصالحة لولدٍ واحدٍ سيئةً لألفٍ آخرين، وإذا ما اتَّخذَ روحها عُرفَ جيِّداً كيف تُغيّر عند الحاجة، ويتوقف الخيارُ على درّسٍ قريحةٍ كلِّ واحدٍ، ويتوقف هذا الدرس على الفُرص التي تظهر بها هذه القريحة. ولن يتصوّر أننا نستطيع في السنين الثلاث أو الأربع التي نشغلها هنا أن نمنح الولدَ الموهوب فكرةً عن جميع الفنون والعلوم الطبيعية كافيةً لتعلّمها ذات يوم من تلقاء نفسه، ولكننا إذ نعرض أمامه جميع الموضوعات التي يهّمه أن يعرفها نضعه في حالٍ ينمو بها ميله ونبوغه، ويأتي بها أولى الخطوات نحو الموضوع الذي تحمّله إليه قريحته، ونُدلُّ بها على الطريق التي يجب فتّحها لمساعدة الطبيعة.

ولسلسلة المعارف المحدودة - ولكن الصائبة - هذه فائدةٌ أخرى، وهي أن تبدو له بروابطها وصلاتها، وأن توضع كُلهَا في أماكنها بتقديرٍ منه، وأن يُحال فيه دون المُبتسرات التي يتخذها معظم الناس عُدةً ما يتعهدون من مواهبٍ إقصاءٍ لمن يُغفلونها، ومن يرّ نظامَ الكلِّ جيِّداً يُصير المكان الذي يجب أن يكون للجزء، ومن يرّ الجزء جيِّداً ويعرفه معرفةً أساسيةً يستطع أن يكون رجلاً عالماً، ويكون الأول رجلاً حصيفاً، وأنتم تذكرون أن الحصافة هي ما نقترح اكتسابه أكثر من اكتساب العلم.

ومهما يكن من أمرٍ فإن منهاجي مستقلّ عن أمثلي، وهو قائمٌ على قياس قابليات الإنسان بمختلف أدوار عُمره، وعلى اختيار الأعمال الملائمة لقابلياته. وأعتقد أن من السهل وجود منهاجٍ آخر يُلوح به أنه يُعمل ما هو أحسن، ولكنه إذا ما كان أقلّ صلاحاً للنوع والسّن والجنس، فإنني أشكُّ في أن يتفّق له ذات النجاح.

ونحن حين بدأنا هذا الدور الثاني استفدنا من زيادة قوّانا على احتياجاتنا، حملاً لنا خارج أنفسنا. وقد انطلقنا إلى السموات، وقد قسنا الأرض، وقد اقتطفنا سنن الطبيعة، والخلاصة أننا طُفنا في الجزيرة بأسرها، والآن نعود إلى أنفسنا، وندنو من مسكننا دُنوّاً غير محسوس، ومن السعادة البالغة ألا نجدّه حين ندخله قبضةً عدوّ يُهددنا ويستعدُّ للاستيلاء عليه!

وما يبقى أن نعمله بعد أن أنعمنا النظر في جميع ما يحيط بنا؟ يجب أن نُحوّل إلى ما فيه نفعنا كل ما نستطيع أن نناله، وأن ننتفع بقصولنا زيادةً في راحتنا، وقد ادّخرنا حتى الآن آلاتٍ من كلِّ نوع، وذلك من غير أن نعرف التي نحتاج إليها، ومن المحتمل ألا تكون آلاتنا نافعةً لنا مع نفعها للآخرين. ومن المحتمل أن نحتاج إلى آلات الآخرين بدورنا، وهكذا فإننا نجد فائدتنا من هذه المبادلات. ولكن قيام هذه المبادلات يتوقّف على معرفة احتياجاتنا المتقابلة، فيجب أن

يَعْرِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مَا عِنْدَ الْآخَرِينَ مِنْ أَشْيَاءٍ نَافِعَةٍ لَهُ، وَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَدِّمَ إِلَيْهِمْ مَقَابِلَةً. وَلْتَفَرِّضْ وَجُودَ عَشْرَةِ رِجَالٍ تَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَشْرَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْاِحْتِيَاجَاتِ، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يُكَيِّبَ عَلَى عَشْرَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْأَعْمَالِ قِضَاءً لِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ إِذَا مَا نُظِرَ إِلَى اخْتِلَافِ الْقَابِلِيَّةِ وَالْقَرِيحَةِ وَجَدَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يُحْسِنُ بَعْضَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ، وَأَنَّ الْآخَرَ مِنْهُمْ يُحْسِنُ بَعْضًا آخَرَ مِنْهَا، وَلَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ صَالِحًا لِشَيْءٍ فَصَنَعَ عَيْنَ الْأَشْيَاءِ لَسَاءَتْ خِدْمَتُهُ. وَإِذَا مَا أُلْقَتْ شَرِكَةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ الْعَشْرَةِ فِقَامَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِالْعَمَلِ الَّذِي يُجِيدُهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ نَفْعًا لَهُ وَلِلتَّسْعَةِ الْآخَرِينَ فَإِنَّهُ يَسْتَفِيدُ مِنْ مَوَاهِبِ الْآخَرِينَ كَمَا لَوْ كَانَ وَحْدَهُ حَائِزًا لَهَا كُلِّهَا، وَبِذَلِكَ يُتَّقَنُ عَمَلَهُ بِتَمَرِينٍ مُسْتَمِرٍّ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْعَشْرَةُ الَّذِينَ كَمَّلَ تَجْهِيزَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ذَوِي فَيْضٍ لَآخَرِينَ أَيْضًا، وَهَذَا هُوَ الْمَبْدَأُ الظَّاهِرُ لِجَمِيعِ نَظْمِنَا. وَلَيْسَ مِنْ مَوْضُوعِي أَنْ أَبْحَثَ فِي نَتَائِجِهِ هُنَا؛ فَقَدْ صَنَعْتُ هَذَا فِي كِتَابِ آخِرٍ. ١٣*

وَإِذَا مَا نُظِرَ إِلَى هَذَا الْمَبْدَأِ وَجَدَ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يُرِيدُ عَدَّ نَفْسَهُ مَعْرُوفًا لَا يُمَكِّنُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَانِسًا لِعَدَمِ اسْتِنَادِهِ إِلَى أَحَدٍ، وَلِكِفَايَةِ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، حَتَّى إِنَّهُ يَتَعَدَّرُ عَلَيْهِ الْبَقَاءُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذْ يَجِدُ الْأَرْضَ بِأَجْمَعِهَا مِلْكًا لِي وَلِكِ، وَلَيْسَ لَهُ غَيْرُ بَدَنِهِ، فَمَنْ أَيْنَ يَنَالُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ؟ وَنَحْنُ إِذْ نَخْرُجُ مِنْ حَالِ الطَّبِيعَةِ نُلْزِمُ أَمْثَالَنَا بِالْخُرُوجِ مِنْهَا أَيْضًا، فَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ الْبَقَاءَ فِيهَا عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْآخَرِينَ. وَمِمَّا يُعَدُّ خُرُوجًا مِنْهَا حَقًّا أَنْ يُرَادَ الْبَقَاءُ فِيهَا مَعَ تَعَدُّرِ الْعَيْشِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبَقَاءَ قَانُونُ الطَّبِيعَةِ الْأَوَّلِ.

وَهَكَذَا فَإِنَّ أَفْكَارًا عَنِ الصَّلَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ تَتَكَوَّنُ فِي ذَهْنِ الْوَالِدِ بِالتَّدْرِيجِ، حَتَّى قَبْلَ أَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَكُونَ غَضْوًا عَامِلًا فِي الْمَجْتَمَعِ حَقًّا، وَيَرَى إِمِيلًا أَنْ حَيَاةَ آلَاتِهِ لِاسْتِعْمَالِهِ تَقْضِي بِأَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ مِنْهَا مَا هُوَ صَالِحٌ لِاسْتِعْمَالِ الْآخَرِينَ، فَيَنَالُ بِهِ مِبَادِلَهُ أَشْيَاءَ ضَرُورِيَّةً وَاقِعَةً تَحْتَ تَصَرُّفِهِمْ، وَيَسْهَلُ عَلَيَّ أَنْ أَجْعَلَهُ يَشْعُرُ بِضَرُورَةِ هَذِهِ الْمِبَادِلَاتِ، وَأَنْ يَكُونَ فِي حَالٍ يَنْتَفِعُ مَعَهُ بِهَا. «يَجِبُ أَنْ أَعِيشَ يَا سَيِّدِي.» هَذَا مَا قَالَهُ كَاتِبٌ هَجَاءً بَانِسٌ لِقَسَمِيسٍ لِأَمَّةٍ عَلَى رَجْسٍ هَذِهِ الْحَرْفَةِ. «لَا أَرَى ضَرُورَةَ إِلَيْهَا.» هَذَا مَا أَجَابَ بِهِ ذَاكَ السَّرِيَّ بِرُودَةٍ؛ فَهَذَا الْجَوَابُ الرَّائِعُ مِنْ قِسِّ يُعَدُّ جَافِيًا زَانِفًا إِذَا مَا خَرَجَ مِنْ فَمِ آخَرَ؛ فَمَنْ الْوَاجِبُ أَنْ يَعِيشَ كُلُّ إِنْسَانٍ، وَيَلُوحُ لِي أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ رَدًّا عَلَى هَذَا الْبَرَهَانِ الَّذِي يَعْطِيهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقُوَّةِ الْكَبِيرَةِ أَوْ الصَّغِيرَةِ عَلَى حَسَبِ مَا

١٣ * كتاب «أصل التفاوت بين الناس»، وقد نقلناه إلى العربية (المترجم).

يكون عنده من إنسانية قليلة أو كثيرة، وذلك بالنسبة إلى من يستعمله تجاه نفسه. وبما أن مَقَّت الموتِ أشدُّ ما تلقىه الطبيعة فينا من كراهية؛ فإنه يُسْتَنْجَج من هذا كَوْنُ الطبيعة تُبِيحُ كُلَّ شَيْءٍ لِمَن ليس لديه وسيلةٌ ممكنةٌ أخرى للعَيْشِ، ومن البعيد عن تلك البساطة الابتدائية ما يتعلّمه الإنسان الفاضل من المبادئ حَوْلَ ازديادِ حياته والتضحية بها في سبيلِ واجبه. وبما لسعادة الشعوب التي يُمكن الإنسان أن يكون صالحًا فيها من غيرِ جُهدٍ، وعادلًا من غيرِ فضيلة! وإذا وُجِدَتْ في العالمِ حالٌ بؤسٍ لا يستطيعُ كلُّ واحدٍ أن يعيشَ فيها من غيرِ أن يصنعَ شَرًّا، وحيث يكون المواطنون خبيثين عن ضرورة، فإن الشَّريرَ لا يكون الشخصَ الذي يجب أن يُشْتَقَّ، بل الذي يضطرُّه إلى أن يصير هكذا.

وإميل، حين يَعْرِفُ ما الحياة، يكون أوَّلَ ما أَعْنَى به هو أن أَعْلَمَه حِفْظُهَا، وحتى الآن لم أفرّق قَطُّ بين الأحوال والمراتب والثروات، وكذلك لن أفرّق بينها فيما بَعْدُ مُطْلَقًا، وذلك لأن الإنسان هُوَ هُوَ في جميع الأحوال. وبما أن مَعْدَةَ الغنيِّ ليست أكبرَ من مَعْدَةَ الفقير وليست أصلحَ منها هَضْمًا، وبما أن ذراعِي السيد ليست أطولَ من ذراعِي عبده، وبما أن الكبير ليس أبلغَ طولًا من ابن الشعب، ثمَّ بما أن الاحتياجات الطبيعية هي هي في كلِّ مكان، فإن من الواجب أن تكون وسائلُ قضائِها متساويةً في كلِّ مكان. واجعلوا تربيةَ الإنسان ملائمةً للإنسان، لا لِمَا ليس منه مطلقًا، ألا ترون أنكم بعملِكُم على تكوينه لحالٍ واحدةٍ حصْرًا تجعلونه غيرَ نافعٍ لأيةِ حالٍ أخرى، وأنه إذا ما جُعِلَ وُلُوعًا بالشَّرِّ لم تعملوا على غيرِ جعله تَعَسًا؟ وأيُّ شَيْءٍ أَدْعَى إلى السخرية من أميرٍ إقطاعيٍّ صار مُعْسِرًا فبدا حاملاً في بؤسه مُبْتَسِرَاتٍ مَوْلده؟ وأيُّ شَيْءٍ أَدْعَى إلى الازدياد من غنيٍّ أصبح فقيرًا فصار يذكر ما خُفَّ به الفقر من احتقار، فأخذ يشعُرُ بأنه أضحى آخرَ النَّاسِ؟ تكون لأحدهما حرفةُ اللصِّ العام، وتكون للآخر حِرْفَةُ الخادم المتذلّل بالقول الجميل: «يجب أن أعيش.»

أنتم تركزون إلى نظام المجتمع الحاضر من غير أن يَخْطُرَ ببالكم كَوْنُ هذا النظام غُرْضَةً لثوراتٍ لا مَفَرَّ منها، وكونه يتعدَّرُ عليكم أن تُبْصِرُوا وأن تمنعوا ما يُمكن أن يواجه أبناءكم من فتن، ويصيرُ الكبير صغيرًا والموسر فقيرًا والأمير مأمورًا، وهل ضربات القَدَر من النُدرة ما

تحسبون معه أنكم في أمنٍ منها؟ نحن ندنو من حال البُحْران وعَصْرِ الثورات،^{١٤} ومن ذا الذي يستطيع أن يجيب عما تكونونه وقتئذٍ؟ إن كل ما صنَع النَّاس يستطيع النَّاس أن يهدموه، ولا يوجد من السجايا التي لا تَمُحِي غير ما طبعته الطبيعة، ولا تَصْنَع الطبيعة أمراء ولا أغنياء ولا إقطاعيين كبراء، وما يصنع في أثناء سقوطه إذن ذلك المرزبان الذي نشأتموه للعظمة؟ وما يفعل حين الفقر ذاك العَشَّار الذي لا يقدر أن يعيش بغير الذهب؟ وما يعمل هذا المختال الغبي الذي جُرِّد من كلِّ شيء، فلا يَعْرِف أن ينتفع بنفسه مطلقاً، والذي لا يضع وجوده إلا فيما هو غريبٌ عنه؟ طوبى لمن يَعْرِف أن يَتَزَكَّ حينئذٍ حالاً تتركه، وأن يبقى رجلاً على الرغم من القَدَر! وامتدحوا ما شتمتم أن تمتدحوا ذاك المليك المغلوب الذي يُريد أن يُدْفَنَ مُغاضِباً تحت أنقاض عرشه، وأما أنا فأزدرية؛ لأنني أرى أنه لا يكون إلا من أجل تاجه، وأنه لا يُعدُّ شيئاً إذا لم يكن ملكاً، ولكن الذي يُخسِرُ تاجه ويستغني عنه يُعدُّ إذ ذاك فوقه، وذلك أنه يرتقي إلى مرتبة الرجل التي لا تجدُ غير القليل من الرجال مَنْ يَعْرِفون بُلُوغَهَا، وذلك من مرتبة الملك التي يستطيع نَدَلٌ أو خبيثٌ أو مجنونٌ أن يشغلها كغيره، وهنالك ينتصر على الطالع ويفتحه، ولا يكون مديناً لغير نفسه. وهو إذا لم يَقِّ ما يُري غير نفسه عاد لا يكون غُفلاً، بل صار شيئاً ما. أجل، إنني أفضِّلُ مائة مرة مَلِكٌ سَرْقُوسَةٌ مُعَلِّماً لمدرسة في كورنثس، ومملك مقدونية مُوثَّقاً في رومة، على تاركِنِ التَّعَس الذي لم يَعْرِف غير المُلْك، وعلى وارث الممالك الثلاث الذي صار ألعوبةً لمن يُقدِّم على شتم يؤسه، هائماً على وجهه بين بلاطٍ وبلاط، طالباً عَوْناً في كلِّ مكان، مُلاقياً خِزياً في كلِّ مكان. وذلك عن عدم معرفة في صنَع شيءٍ آخر غير حِرْفَةٍ عادت خارجةً عن قدرته.

ومهما يَكُنْ من أمر الرجل أو المواطن فإنه ليس لديه من المال ما يَضَعُ في المجتمع غير نفسه، وأما أمواله الأخرى فخاصةً بالمجتمع على الرغم منه، وإذا ما كان الرجل غنياً فهو إما ألا يتمتع بغناه وإما أن يتمتع به الجمهورُ أيضاً، وفي الحال الأولى يَسْرِقُ من الآخرين ما يَحْرَمُ نفسه إياه، وفي الحال الثانية لا يُعطيهم شيئاً، وهكذا فإنه يَحْمِلُ الدَّيْنَ الاجتماعيَّ كاملاً ما دام لا يؤدي من غير ماله، ويخدم والدي المجتمع إذ يَكْسِبُ ماله، وليكن كذلك؛ فهو قد دفع دينه لا دينكم، وأنتم مدينون للآخرين أكثر مما لو كنتم قد وُلِدْتُمْ بلا مال ما دُمتُم قد وُلِدْتُمْ مُنْعَمًا عليكم. وليس

^{١٤} أرى من المستحيل دوام المملكات الكبرى في أوروبا لزمَن طويل؛ فقد ازدهرت كلها، ولا بد من أفول كل ما يزدهر، ولدي من الآراء الخاصة ما يدور حول تطبيق هذا المبدأ العام، ولكن ليس هنا مكان بيانها، وهي كلها بادية لكل ذي عينين.

من الإنصاف مطلقاً أن يكون ما صنعه الواحد للمجتمع مؤدياً لذَيْنِ رجلٍ آخر نحو المجتمع؛ وذلك لأن كلَّ واحدٍ إذ كان مدينًا بكامله فإنه لا يستطيع أن يدفع عن غير نفسه، ولا يقدر أبَّ أن يترك لابنه حقاً غير نافعٍ لأمناله، والواقع أنكم تقولون إنه يصنع هذا مع ذلك بنقله إليه ثرواته التي هي دليل العمل وقيمتها، ومن يأكل في البطالة ما لم يكن قد اكتسبه بنفسه يُعدُّ سارقاً له، ولا يختلف ذو الدخل الذي تدفعه إليه الدولة بلا مقابلٍ عن قاطع الطريق الذي يعيش على حساب أبناء السبيل. وأمَّا الرجل المنعزل، إذ كان خارج المجتمع وغير مدينٍ لأحدٍ بشيء، فإنه يحقُّ له أن يعيش كما يروقه، ولكنَّ الرجل في المجتمع؛ حيث يعيش على حساب الآخرين بحكم الضرورة، فإنه مدينٌ لهؤلاء بالعمل في مقابل حفظهم له، ولا يوجد استثناءً لهذا؛ فالعمل إذن واجبٌ لأزْمِ للإنسان الاجتماعي، ويُحسب الغنيُّ أو الفقيرُ والقويُّ أو الضعيفُ - أي كلُّ بطالٍ - سارقاً.

والحقُّ أن عمل اليد بين جميع الأشاغيل التي يُمكن أن تُزوَّد بمعاش الإنسان، هو أكثرُ ما يُدنيه من حال الطبيعة، وأن حال الصانع بين جميع الأحوال هي أكثرُ ما يكون استقلالاً عن النصيب والنَّاس، ولا يخضع الصانع لغير عمله، وهو حرٌّ، وهو حرٌّ بمقدار ما يكون الأتكار عبداً؛ وذلك لأن هذا تابعٌ لحقله الذي تقع غلته تحت تصرُّف غيره، ويُمكن العدوُّ أو الأمير أو الجار القويُّ أو إحدى القضايا أن يسلبه هذا الحقل، ويُمكن بهذا الحقل أن يُظلم بألف أسلوب، ولكنه إذا ما أريد ظلم الصانع في أيِّ محلٍّ لم تلبث أمتعته أن تُخرم وينصرف من قوره، ومع ذلك فإن الرِّاعة أولى حِرَف الإنسان، وهي أفضلُ ما يُزاوَل، وأنفع ما يُمارس؛ ومن ثمَّ تُعدُّ أشرفَ ما يتعاطى، ولا أقول لأميل: «تعلم الزراعة». فهو يعرفها، وهو درَّب بجميع الأعمال الريفية، وبهذه الأعمال قد بدأ، وإليها يرجع بلا انقطاع. ولذا أقول له: «اخْرُت تراث أبيك، ولكنك إذا ما أضعت هذا التراث، أو لم يكن عندك تراثٌ قط، فما تصنع؟ تعلم حرفة.»

حرفة لابني! ابني صانع! أو تفكر في هذا أيها السيد؟ تفكيري في هذا خيرٌ من تفكيرك يا سيدي، أنت التي تُريد ألا تجعل منه رجلاً لا يقدر أن يكون غير لوردٍ أو مركيزٍ أو أمير، أو أقلَّ من شيءٍ ذات يومٍ على ما يُحتمل. وأمَّا أنا، فأريد أن أمنحه مرتبةً لا يُمكن أن يخسرها، أريد أن أمنحه مرتبةً تُشرفه في جميع الأزمان، أريد أن أرفعه إلى حال الإنسان، وعلى ما يُمكن أن تقولي سيكون له في تلك المرتبة مساوون أقلُّ ممن يكونون له منك.

والحرفُ يقتل الروحَ يُحيي، ولأنَّ تُتعلم حرفةً لمعرفة حرفة أقلَّ أهميةً من التغلُّب على المُبتسرات التي تدرِّبها، ولن تُلزموا بالعمل لتعيشوا. وي! يا للحيف، يا للحيف عليكم! ولكن لا

ضَيْرٌ، لا تعملوا عن ضرورة، واعملوا من أجل المجد، واهبطوا إلى حال الصانع لتكونوا فوق حالكم، وابدءوا بأن تكونوا مستقلين عن الثراء والأشياء لتقهروهما، وابدءوا بالسيطرة على الرأي العام حتى تُسيطرُوا به.

وذكروا أنني لا أطلبكم بنبوغٍ مطلقاً، وإنما أطلبكم بحرفة، بحرفة حقيقية، بفنٍّ ميكانيٍّ مَخْضٍ؛ حيث تعمل الأيدي أكثر من عمل الرأس، وحيث لا يُنال الثراء، بل يُمكن الاستغناء عنه. وقد رأيتُ في بيوت، يُستبعد جداً أن تُلمَّ بها الفاقة، آباءٌ يبلغون من الحذرِ ما يُضيفون معه إلى عنايتهم بتعليم أولادهم عنايةً بتزويدهم بمعارفٍ يستطيعون الانتفاعَ بها للعيش عند النوائب. ويعتقد هؤلاء الآباء الناظرون إلى العواقب أنهم يعملون كثيراً، وهم لا يعملون شيئاً؛ وذلك لأن الوسائل التي يرون أنهم يُجهِّزون بها أولادهم تتوقف على عينِ الثراء الذي يريدون جعلهم يعلونه، فإذا لم يوجد صاحب هذه المواهب الجميلة في أحوالٍ ملائمةٍ للانتفاع بها هَلَكَ بؤساً كأنه لم يُحزَّ واحدةً منها.

وإذا ما قام الأمرُ على الحِيلِ والدسائسِ تساوى استعمالها للبقاء في سَعَةِ واستعمالها حين اليأسِ لِيَعُودَ إلى الحالِ الأولى، وإذا كنتم تتعهدون الفنونَ التي يتوقَّفُ نجاحها على شهرة المتفتنِّ، وإذا كنتم تجعلون أنفسكم صالحين لخدمِ لا تُنال بغير المحاباة، فما نفع جميع هذا عندما تَقْرُ نفسُكم من العالمِ حقاً وتزدرون الوسائلَ التي لا يُمكن النجاحُ فيه بغيرها؟ لقد درستم السياسةَ ومصالحَ الأمراء، وهذا حَسَنٌ، ولكن ما تصنعون بهذه المعارفِ إذا كنتم لا تستطيعون الوصولَ إلى الوزراءِ ونساءِ البلاطِ ورؤساءِ الدواوين، وإذا كنتم لا تَعْرِفون سِرَّ الوقوعِ موقعَ الرضا عندهم، وإذا كان الجميع لا يجدون المُخادعَ فيكم، فمن يلائمهم؟ وكونوا بنائين أو مصورين، ولكن لا بُدَّ من التعريفِ بنبوغكم، أو تظنُّون أنكم تعرضون أتركُم في الرُدْهة من غيرِ سابقِ تمهيدٍ؟ وبي! ليست هذه وسيلةُ الشروعِ في الموضوعِ! يجب أن تكونوا من الأكاديمية، حتى إنه يجب أن تكونوا محلَّ رعايةٍ لتنالوا في زاويةٍ من الجدارِ مكاناً قاتماً. دَعُوا المِسْطَرَّةَ والمِنقاشَ جانباً، واركبوا عربة، واقرَعوا باباً بعد بابٍ تنالوا شهرةً. واعلموا إذن أن لجميعِ هذه الأبوابِ المشهورة حُجَّاباً وحُرَّاساً لا يسمعون بغيرِ الإشارةِ، وتقع آذانهم في أيديهم، وإذا ما أردتم تدريسَ ما تعلَّمتم وأن تُصَبِّحوا أساتذةَ جغرافيةٍ أو رياضياتٍ أو لغاتٍ أو موسيقا أو تصويرٍ؛ وَجَبَ أن تجدوا طُلاباً، ومن ثمَّ مادحين، ورؤا أن من المهم أن تكونوا مخادعين أكثرَ من أن تكونوا ماهرين، فإذا كنتم لا تعرفون مهنةً غيرَ ما عندكم لم تُعدُّوا غيرِ جاهلين.

وانظروا إذن مقدارَ ما عليه جميعُ هذه الوسائلِ الرائعة من قلةِ متانة، ومقدارِ لزومِ الوسائلِ

الأخرى لكم لتستفوا بتلك، ثم ما تُصيحون بهذا الهبوط الواني؟ تُذلكم النوازل من غير أن تُهدبكم، وأنتم إذ تُعدون ألعوبة الرأي العام أكثر مما في أي زمن، فكيف ترتفعون فوق المُبتسرات التي هي حُكم مصيركم؟ وكيف تُزدرون الدلة والنقائص التي تحتاجون إليها لتعيشوا؟ كنتم تابعين للثروات، والآن تتبعون الأثرياء، وأنتم لم تصنعوا غير زيادة عيوبيتكم سوءًا وإرهاقها بيؤسكم، وما أنتم أولاء تُبدون فقراء من غير أن تكونوا أحرارًا، وهذه هي أسوأ حال يُمكن أن يقع فيها إنسان.

ولكنكم إذا ما استعنتم بأيديكم وبما تعرفون من استعمالها عند الحاجة، بدلًا من أن تلجئوا لتعيشوا إلى تلك المعارف العالية التي جعلت لتغذية الروح لا البدن؛ زالت جميع المصاعب، وأصبحت جميع الحيل غير مجدية، وصارت الوسيلة حاضرة دائمًا وقت استعمالها، وعادت الاستقامة والفضيلة لا تكونان عائقين للحياة، وعُدتم لا تحتاجون إلى النذالة والكذب أمام الكبراء، ولا إلى المرونة والتدلل أمام الخبيثاء، ولا إلى المجاملة الخسيسة تجاه جميع الناس من مُقترضين وسارقين ومن إليهم ممن تتخذون نحوهم ذات الوضع عندما لا تملكون شيئًا، ولا يمسكم رأي الآخرين مطلقًا، ولا يكون عليكم أن تتزلفوا إلى أحد، ولا أن تتملقوا لبليد، ولا أن تستميلوا حاجبًا، ولا أن ترشوا بغيًا أو تأتوا بتجيلها أمرًا إدا. وما أكثر الأوغاد الذين يديرون الشئون العظيمة! ولا أهمية لذلك ما دام هذا لا يمنعكم في حياتكم القاتمة أن تكونوا صالحين حائزين لِحُبركم، وتدخلون أوّل دكان للحرفة التي تعلمتم، وتقولون: «أحتاج إلى عمل أيها المُعلم». ويقول: «هناك مكانك أيها الرفيق، فاعمل». وتكسبون غداءكم قبل وقت الغداء، وإذا كنتم من ذوي النشاط والقناعة فإنكم تكونون حائزين، قبل مرور ثمانية أيام، لما تعيشون به ثمانية أيام، وستحيون حياة حرةً صحيحةً صحيحةً جديدةً مستقيمة، وليس من ضياع الوقت أن يقع الكسب على هذا الوجه.

وأريد أن يتعلم إميل حرفة، وستقولون: «لتكن حرفة شريفة على الأقل». وما معنى هذه الكلمة؟ أليست كل حرفة نافعة للجمهور شريفة؟ ولا أريد قطعًا أن يكون مُطررًا ولا مذهبًا ولا صقلاً كالسيد الذي حكى عنه لوك، ولا أريد أن يكون موسيقياً أو ممثلًا أو مؤلفًا،^{١٥} وإذا عدت هذه المهن وما مثلها فليتخذ المهنة التي يريد، فلا أريد أن أضايقه في خياره. وأفضل أن يكون حداءً على أن يكون شاعرًا، وأفضل أن يُلط الشوارع على أن يرسم أزهارًا على الصيني. ولكن ستقولون: «إن التباله والجواسيس والجلادين أناس نافعون». فأقول: لا يتوقف نفعهم على غير

^{١٥} سيقال لي إنك مؤلف، فأعترف بأنني مؤلف لسوء حظي، وليست ذنوبي، التي كُفرت عنها بما فيه الكفاية كما أرى؛ سببًا لوجود مثلها لدى الآخرين، ولا أكتب للاعتذار عن خطيئاتي، بل لأحول دون تقليد القراء إياها.

الحكومة، ولكن دعنا نمضي؛ فقد أخطأت، فلا يكفي اختيارُ حرفةٍ مفيدة، بل يجب أيضًا ألا تُنبئ فيمن يزاولونها صفاتٍ روحيةً كريهةً منافيةً للإنسانية. وهكذا فإننا إذ نعود إلى الكلمة الأولى، نتخذ حرفة شريفة، ولكن لندكر دائمًا أنه لا شرف بلا نفع مطلقًا.

وظهر في هذا العصر مؤلفٌ مشهور^{١٦} مُلئت كتبه بأعظم الخطط مع أبصارٍ صغيرة؛ فهذا المؤلف قطع على نفسه عهدًا بالألا تكون له زوجةٌ خاصة، شأن جميع قساوسة طائفته، ولكنه إذ وُجد أكثر من سواه تردّدًا حول الزنا فإنه ذهب - كما يُقال - إلى اتخاذ خادمتٍ جميلاتٍ ليتلافى معهن، جُهدَه، ما أتاه من إهانةٍ لنوعه بعهد الطائش. وقد كان يُعدُّ من واجب المواطن أن يَمَنح الوطن مواطنين آخرين، وأن من الضرائب التي تؤدَّى إليه في هذا المضمار زيادةً طبقة الصُنّاع، فإذا ما ترعرع هؤلاء الأولاد حملهم جميعًا على تعلُّم صنعةٍ تلائم ميلهم، مستثنياً المهن البطالة النافهة الخاضعة للمُوضة،^{١٧}* كمهنة صنُّع الشعور المستعارة التي ليست ضروريةً مطلقًا، والتي يُمكن أن تكون غير مفيدة يومًا بعد يوم ما دامت الطبيعة جادة في الإناعام علينا بِشعر.

وهذه هي الروح التي يجب أن تكون دليلًا لنا في اختيار مهنة إميل، وإن شئت فقل إن على إميل لا علينا أن يقوم بهذا الخيار؛ وذلك لأن المبادئ التي أُشيع منها أوجبت ادّخاره في نفسه ازدياءً طبيعيًا للأشياء غير المفيدة، ولأنه لا يرضى بإنفاق وقته في الأعمال التي لا قيمة لها، ولا يعرف للأشياء قيمةً غير ما لفائدتها الحقيقية، فلا يُدُّ له من حرفةٍ يُمكن أن تنفع رُوبنسن في جزيرته.

وإذا ما عرَضنا أمام الولد مُنتجات الطبيعة والفن، وأثَرنا فضوله، وتبَعنا ما يسوقه إليه، كانت لنا بهذا فائدةً دراسةً أذواقه ومشاربه وميوله، وتبيّن أول برّيق من ذهنه عند وجود شيءٍ مُقرّر من ذلك فيه، ويقوم الخطأ الشائع الذي يجب أن تُصانوا منه على عزوكم إلى توقُّد القريحة فِعَل الحين، وعلى عدكم من الميل الواضح نحو هذا الفن أو ذاك روحَ التقليد المشتركة بين الإنسان والقرد، والتي تحمل كلاً منهما آليًا على الرغبة في صنُّع كلِّ ما يرى صنُّعه من غير أن يُعرف كثيرًا وجهُ الفائدة فيه. والعالم زاحرٌ بالصنُّع، ولا سيّما المتفننون، الذين ليس لديهم استعدادٌ فطريٌّ للفن الذي يزاولون، والذي دُفعوا إليه منذ صباهم، فُبِتَّ فيه عن عواملٍ أخرى أو غرَّب به عن غيرِه ظاهرةً كان من الممكن أن تخفِّزهم إلى فنٍّ آخرٍ أيضًا لو كانوا قد رأوا مزاوله هذا الفن حالًا. وهذا يسمُّعُ طبَّالًا فيظنُّ نفسه قائدًا، وذاك يرى بناءً فيريد أن يكون مهندسًا معماريًا، وكلُّ يُساق

^{١٦} رئيس دير القديس بطرس.

^{١٧} * La mode.

إلى الحرفة التي يشاهد القيام بها إذا ما اعتقدتها مُعتبرة.

ومما حدث أن عرفتُ خادماً رأى مُعلِّمه وهو يرسم ويصوّر، فأقنع نفسه بأن يكون مُصوِّراً ورسّاماً، وتناولَ القلم الرصاصي منذ الدقيقة التي اتخذ فيها هذا القرار، ولم يترك هذا القلم إلا ليتناولَ ريشةَ الرسم والتصوير التي لم يتركها مدى حياته، وأخذ يرسم كلَّ ما يقع نظره عليه غير مستعينٍ بدروسٍ ولا قواعد. وقضى ثلاث سنين بكاملها لاصقاً بخرايبشه التي لم يكن ليحركه عنها شيءٌ غير خِدْمته، وما كان ليُرَدُّه عن ذلك ما تمَّ له من تقدُّمٍ قليلٍ ناشئٍ عن استعداده العادي. وقد رأيتُه يقضي أشهرَ صيفٍ شديدٍ الحرِّ في غرفةٍ انتظارٍ صغيرةٍ مواجهةٍ للجنوب، في هذه الغرفة التي يختنق الإنسانُ إذا مرَّ منها، في هذه الغرفة التي يجلس فيها، وإن شئت فقلُّ يُسَمَّرُ فيها، على كرسيٍّ أمام كرة، فيرسم هذه الكرة ويرسمها ثانية، ويعود إلى رسمها ويستأنفها بلا انقطاعٍ ويعنادٍ لا يُدْفَعُ إلى أن رَضِيَ عن استدارتها، ويحبوه مُعلِّمه بعطفه، ويُرشِّدُه متفئناً، حتى بلغ درجةً يخلعُ معها ثوبَ الخدمة ويعيش من ريشته، ويقوم الثبات مقام النبوغ إلى حدِّ ما، وقد انتهى إلى هذا الحد، ولن يجاوزه مطلقاً، ويستحقُّ جَلْدَ هذا الخادم الشريف وطموحه الشنآن، وهو سيكون دائماً محل تقدير من أجل مثابرتة وإخلاصه وأخلاقه، ولكنه لن يصنع غير صوِّرٍ من الدرجة الثالثة، ومن ذا الذي لم يُحدِّع بغيرته فيعدُّه ذا نبوغٍ حقيقي؟ يوجد فرقٌ بين الإعجاب بعملٍ والأهلية له، ولا بدَّ من مشاهداتٍ أدقَّ مما يُتصوَّر لتيقن النبوغ الحقيقي والدوق الحقيقي في الولد الذي يُبدي رغباته أكثر من أهليته، والذي يُفصلُ في أمره بالأولى عن عدم معرفة بدرس الأخرى. وأتمنى وجودَ رجلٍ مُفضالٍ يضعُ لنا رسالةً عن فنِّ رقابة الأولاد، وعلى ما لمعرفة هذا الفنِّ من أهميةٍ عظيمةٍ ترى الآباء والمُعلِّمين لا يزالون جاهلين مبادئَه.

ولكننا هنا نُعلِّقُ أهميةً كبيرةً على اختيار الحُرْفَةِ على ما يحتمل، وبما أن الأمر يدور حول العمل اليدوي، فإن هذا الاختيار ليس ذا بال بالنسبة إلى إميل. وإميلٌ قد أتمَّ إلى الآن أكثرَ من نصفِ تخرُّجه بالتمرينات التي شغلناه بها حتى اليوم الحاضر، وما تريدون أن يصنع؟ هو مستعدٌّ لكلِّ شيء، وهو يَعْرِفُ استعمالَ المعزقة والمجرفة، وهو يَعْرِفُ استخدامَ المِخْرَطَةِ والمِطْرَقَةِ والمِنْجَرِ والمِبرِدِ، وهو مُلِمٌّ بآلات جميع الحِرَفِ، وعاد لا يلتفت إلى غير حيازة آلات تكون من السرعة والسهولة ما تعدل معه في العَجَلَةِ أحسنَ العمال الذين يستخدمونها، وهو من هذه الناحية ذو مَزِيَّةٍ يفوق بها الجميع؛ أي إنه ذو رشاقةٍ في البدن ومرونةٍ في الأعضاء يتَّخِذُ بهما جميع الأوضاع بلا مشقةٍ ويطيل بها جميع الحركات بلا جُهد. ثم إن له أعضاءً صالحةً حسنةً التدريب،

وهو عارفٌ بجميع الجهاز الفني، ولا تُعوّزُه العادة ليستطيع العمل مثل مُعلّم، والعادة لا تُنال إلا مع الوقت. وأيّ الحِرَفِ بقِي علينا أن نختار فتمنح من الوقت ما يكون معه نشيطاً فيها؟ وليس حَوَلٌ غير هذا ما يَدُورُ الأمر.

وامنحُوا الرجلَ حرفةً ملائمةً لجنسه، وامنحوا الشابَّ حرفةً ملائمةً لسنّه؛ فكلُّ مهنةٍ حَضْرِيَّةٍ دَارِيَّةٍ تُخَنِّثُ البدنَ وتؤنِّثُ الجسمَ لا تروقه ولا تناسبه، وما كان الشابُّ لبيغِي أن يكون خِيَّاطًا من تلقاء نفسه، ولا بدَّ من الفنِّ لِئَحْمَلَ إلى حرفةِ النساءِ هذه، ذاك الجنسُ الذي لم يُخلَقْ لها،^{١٨} وما كان السيفُ والإبرةُ لِيُسْتَعْمَلَا بأيِّدٍ واحدة، ولو كنتُ وليًّا للأمر ما سمحت بالخياطة وحرفِ الإبرةِ لغيرِ النساءِ، والعُرْجان الذين هم في حُكْمِ النساءِ. وإذا ما افترضَ الخَصِيَّانُ أَناسًا لا غُنيَّةَ عنهم وحدثَ الشرقيين من الحماقة ما يصنعون منهم عَمْدًا، ولم لا يكتفون بمن صنعت الطبيعة، وبتلك الجموع من الآدميين الضعفاء الذين كَسرت الطبيعة قلوبهم؟ فتوجد منهم بقيةٌ للحاجة، وقد حكمت الطبيعة بالحياة الحضريّة على كلِّ رجلٍ ضعيفٍ رقيقٍ جبانٍ. وقد خُلِقَ هذا الرجلُ ليعيش مع النساءِ أو على طرازهنَّ، ودَعُوهُ يزاول إحدى حِرَفِهِن إذا أراد. وإذا كانت هنالك ضرورةٌ إلى خِصيانٍ حقيقيين فليُرَدَّ إلى حالِ هؤلاء أولئك الرجال الذين يجلبون العارَ إلى جنسهم باتخاذهم حِرَفًا لا تناسبه، ألا إن خِيَارَ هؤلاء يؤذَنُ بخطأ الطبيعة، فإذا ما أصلحتهم هذا الخطأ على وجهٍ ما، لم تصنعوا غيرَ الخير.

وأحرِّم على تلميذي الحِرَفِ غيرِ الصحية، لا الحِرَفِ الشاقة، ولا الحِرَفِ الخَطِرَةَ أيضًا؛ فهذه الحِرَفُ تُمرِّنُ القوةَ والشجاعةَ معًا، وهي صالحةٌ للرجال وحدهم، وليس للنساءِ دَعْوَى بها مطلقًا، وكيف لا يخجلون من تطاولهم على حِرَفٍ خاصةٍ بهن؟

«قليلٌ عددٌ من يُحاربُ من النساءِ، وقليلٌ من النساءِ من يأكلُ خبزَ الأبطال، وأنتنَّ تغزِلن الصوف، فمتى تمَّ عملُكنَّ أتيتنَّ به في السَّلال.»

وفي إيطاليا لا تُرى النساءُ في الحوانيت مطلقًا، ولا يمكن أن يُتصوَّرَ ما هو أَدْعَى إلى الغمِّ من منظرِ الشوارعِ في هذا البلدِ لدى من تعوَّدوا شوارعَ فرنسا وإنكلترا، وإني إذ أرى تُجَارَ أزياءَ يبيعون من السيداتِ أوشحةً وشبكاتٍ وقِيطانًا، وحُصَلِ ريشٍ أو صوفٍ للقبَّعات، أجدُ هذه

^{١٨} كان لا يوجد خياطون بين القدماء؛ فقد كانت ثياب الرجال تُصنَعُ في البيوت من قِبَلِ النساءِ.

الزيّناتِ الناعمةِ مثيرةً للضحكِ في الأيدي الغليظة التي خُلقت للنفخ في الكبيرِ أو للطَّرْقِ*^{١٩}
السِّنْدانِ،*^{٢٠} فأقول في نفسي: «يجب على النساء في هذا البلد أن يقابلن السوء بالسوء، فيُقيمنَ
ذكاكينَ للصقلِ وصنْعِ الأسلحة.» والآن! ليصنَعِ كلُّ واحدٍ أسلحةً جنسه ويبيعها، فلا بُدَّ من
استعمال هذه الأسلحة لمعرفةها.

ويا أيها الشاب، اطبِعْ يَدَ الرجلِ على أعمالك، وتعلَّم استعمالَ الفأسِ والمِنْشارِ بذرَاعِ
قوية، وتعلَّم نحتَ الرافدة*^{٢١} بزوايا قائمة، وتعلَّم تَسْمُ أَعْلَى البناءِ، ووضِعِ القِمَّةَ، وتشيبتها بالقوائمِ
والدعائمِ، ثُمَّ نادِ أَخْتَكِ لتَأْتِي وتساعدك في عملك، وذلك كما كانت تطلب منك العمل في
عَزْرَها المُشْتَبِكِ.

وأشعرُ بأنني أسهبت في بيان ذلك لدى معاصري اللُطفاءِ، ولكنني أدخُ نفسي تُساق بقوةِ
النتائجِ أحياناً. وإذا ما اعتري رجلاً ما خَجَلٌ من العملِ علانيةً مُجَهَّزاً بِمِنْحَتِ وَمُنْطَقاً بِوِزْرِهٍ من
جِلْدٍ لم أَرِ فيه غيرَ عبدٍ للرأيِ العامِّ مُعدِّ للحياءِ من عملِ الخيرِ عند الضحكِ من ذوي الصلاحِ.
ومع ذلك دعنا نُدعِنَ لِمُتَسَرِّ الآباءِ في كلِّ ما لا يُمكن أن يَصُرَّ رأيُ الأولادِ، وليس من الضروري
أن تُراوِلَ جميعُ المِهَنِ النافعةِ تكريمًا لها كلَّها، وإنما يكفي ألا يُقدَّرَ الإنسانُ واحدةً منها على أنها
دون مستواه. وإذا كان لنا حقُّ الخيارِ بلا إكراه، فلمَ لا نختارُ من المِهَنِ التي هي من مرتبةٍ واحدةٍ
ما ينطوي على بهجةٍ وملازمةٍ وبدلٌ عليه المَيْلُ؟ إن الأعمالَ المَعْدِنِيَّةَ مفيدة، وهي أكثرُ الأعمالِ
فائدة، ومع ذلك فإنني لا أجعلُ من ابنكم بَيْطارًا ولا قَفَّالًا ولا حَدَّادًا، ما لم يكن لدي سببٍ
خاصٍّ يحملني على ذلك؛ وذلك لأنني لا أُحِبُّ أن أرى له في معملِ الحديدِ وجهَ جِبَّارٍ، وكذلك
لن أجعل منه بِنَاءً ولا حَدَّاءً. أجل، يجب القيامُ بجميعِ الحِرَفِ، ولكنه يجب على مَنْ يستطيع
الخيارَ أن ينظرَ إلى النظافةِ. ولا ينطوي هذا على معنى المِتَسَرِّ الطَّبْقِي، وحواسُنَا هي دليلنا في
هذا الأمرِ. ثُمَّ إنني لا أُحِبُّ المِهَنَ السخيفةَ التي يكونُ العمالُ فيها خالينَ من الصناعةِ ومعدودين
آلِينَ، فلا يُحرِّكونَ أيديهم في غيرِ ذاتِ العملِ، كالحَاكَةِ وصانعي الجواربِ ونَشَّاري الحجارةِ، وما
فائدة استخدام رجالٍ أذكِياءَ في هذه الحِرَفِ؟ لا يعدو الأمرُ حدَّ آلةٍ تنتهي إلى آلةِ.

وإني بعد إنعام النظر في جميعِ الحِرَفِ أُحِبُّ التِّجَارَةَ أكثرَ من سواها، وهي ملائمةٌ لذوقِ

*^{١٩} الكبير: زَقٌّ يَنْفُخُ فيه الحداد.

*^{٢٠} السِّنْدان: من آلات الحدادين، وهو ما يُطرق عليه، والكلمة من الدخيل.

*^{٢١} الرافدة: خشبة السقف التي فوق الجسر، والعامَّة تسميها الوصلة.

تلميذي، ولا غرو؛ فهي نظيفة مفيدة، وهي تُراوَل في المنزل، وهي تستكُد البدن، وهي تستلزم في العمل مهارةً وبراعة، ولا يخرج الهَيْفُ والذوقُ من شكل مصنوعاتها الذي تُعَيِّنُه الفائدة.

وإذا ما حَدثَ اتِّفَاقًا أن تَحَوَّلَ تلميذُكم بحزْمٍ نحو العلوم النظرية، فإنني لا ألومكم على منحه مهنةً ملائمةً لميوله، وذلك كأن يتعلَّم مثلًا صُنْعَ آلاتٍ رياضيةٍ ونظاراتٍ ومِرَاقِبٍ ... إلخ.

وأريدُ أن أتعلَّم مع إميل حرفته وقتَ تعلُّمه إياها؛ وذلك لاعتقادي أنه لا يجيد تعلُّمَ غير ما نتعلَّم معًا؛ ولذا فإن كالانا يأخذ في التخرُّج ولا نقصد أن نُعامَلْ مثلَ سيديْن، ولكن مثل تلميذَيْن حقيقيَيْن جادَيْن. ولمَ لا نكون هكذا فعلاً؟ لقد كان القيصر بطرس نجارًا في مصنع السفن وطبًا في كتابته، أو تظنون أن هذا الأمير لا يعدلُكم مؤلِّدًا أو مهنة؟ تُدرِكُون أنني لا أقول هذا لإميل، بل لكم أيًّا كنتم.

ومن دواعي الأسف أننا لا نستطيع قضاء جميع وقتنا في المصنع؛ فلسنا تلميذَيْن من العمال، بل تلميذَان من الرجال، ويكون التخرُّجُ في هذه الحرفة الأخيرة أشقَّ مما في الأخرى وأطول، وكيف نصنع إذن؟ أنتخذُ مُعلِّمَ منجرٍ ساعةً في اليوم كما يُتَّخَذُ مُعلِّمُ الرقص؟ كلا، لا نكون تلميذَيْن، بل طالبَيْن، وذلك أننا نطمح ببصرنا أن نكون نجارَيْن أكثر من أن نتعلَّم النجارة؛ ولذلك أرى أن نذهب في كلِّ أسبوعٍ مرَّةً أو مرتين على الأقل لقضاء نهارنا بكامله عند المُعلِّم، فننهض حين نهوضه ونعمل قبل أن يعمل ونأكل على مائدته ونشتغل تحت إمرته، حتى إذا ما كان لنا شرف العشاء مع أسرته عُدنا - عندما نريد - إلى فراشنا الخشن، وهذا هو الوجه الذي تُتعلَّمُ به جِرْفٌ كثيرةٌ معًا، وهذا هو السبيل الذي يُمارَس به عملُ اليد من غير إهمال التخرُّج الآخر.

ولنتدرَّجُ بالبساطة عند عمل الخير، ودَعْنَا لا نُبدي زَهْوًا حيث نكافح الزهو، ومَن يَزُهْهُ بفوزه على المُتيسِّرات يتضمَّن زهوه هذا خضوعًا لها، ويُروى أن من عادة آل عثمان القديمة إلزام السلطان بالعمل بيديه، وكلُّ يَعْلَم أن آثار اليد السلطانية لا يُمكن أن تكون من غير الروائع؛ ولذا فهو يورِّع هذه الروائع بأبهةٍ بين أكابر الدولة، ويُدْفَع ثمنها وفَّق مقام الصانع. وما أرى من شرِّ في هذا لا يقوم على هذا الجور المزعوم؛ وذلك لأنه على العكس خير؛ وذلك لأن الأمير إذ يُكره الأكاِبَر على مقاسمته أسلاب الشعب يكون أقلَّ اضطرابًا إلى سلب الشعب مباشرة؛ فهذا تخفيفٌ للاستبداد، ولولاه ما استطاع هذا الحكمُ الفظيع أن يدوم.

والشرُّ الحقيقيُّ في مثل هذه العادة يقوم على إعطاء ذلك الرجل المسكين فكرةً عن مزيتته، وهو، كالملك ميداس، يرى تحويلَ كلِّ ما يَمَسُّ إلى ذهب، ولكنه لا يُبصر أيُّ الآذان يُنبت. ويُريد أن نحفظ لإميل أذنيه القصيرتين، فنصون يديه من تلك الأهلية الغبية، فلا يعود عليه

عمله بغير ثَمَنِ المصنوع لا يَثْمَنُ الصانع، ولا نُطِيقُ أن يُحَكِّمَ فيما يصنع من غير أن يُقَابَلَ بينه وبين ما يصنع أصلحُ المُعَلِّمِينَ، ولْيُقَوِّمَ عملُهُ بالعمل نفسه، لا بكونه صادرًا عنه، وقولوا عما هو مصنوعٌ جيِّدًا: «هذا مصنوعٌ جيِّدًا». ولكن لا تضيفوا إلى هذا قولكم: «من صنع هذا؟» وإذا قال من تلقاء نفسه مفاخرًا مُعْجَبًا بذاته: «إني أنا الذي صنعه». فقولوا له بفتور: «هو حَسَنُ الصنع، ولا يهمني أن تكون أنت قد صنعته أو غيرك.»

ويا أيتها الأُمُّ الصالحة، احذري ما يُعَدُّ لك من الأكاذيب على الخصوص، وإذا كان ابنك يعلمُ أشياء كثيرةً فكوني في ريبٍ من كلِّ ما يعلم، وإذا كان من التَّعَسِّ ما يُشْتَأُ معه بباريسَ وكان غنيًّا هللك، وستكون لديه جميعُ قرائحِ المتفتنين الماهرين ما وُجد فيها، وهو يعود غيرَ حائرٍ شيئًا منها عند ابتعاده عنهم، والغنيُّ في باريسَ يعرفُ كلَّ شيء، ولا يُوجد جاهلٌ غيرُ الفقير، وهذه العاصمةُ زاخرةٌ بالهُوَاةِ، ولا سِماهاوايات اللاني يَفْتَمِنُ بأشغالهن كما يَخْتَرِعُ مسيو غُيُومُ ألوانه. وأعرِفُ لهذا استثناءاتٍ ثلاثةً مُكْرَمَةً بين الرجال، وقد تَزِيدُ على هذا، ولكنني لا أعرِفُ أيَّ استثناءٍ بين النساء، وأشكُّ في وجود شيءٍ من هذا، وعلى العموم يُكْتَسَبُ اسمٌ في الفنون كما في الحِلَّةِ فيَعِدُو الواحدُ متفتنًا أو حَكَمًا بين المتفتنين كما يَعدُو دكتورًا في الحقوق وقاضيًا.

ولذا فإنه إذا ثَبَّتَ ذات مرةً أن من الجميل معرفةُ حِرْفَةٍ، فإن أولادكم لم يلبثوا أن يَعْرِفُوهَا من غير أن يتعلَّموها، فيَظْهَرُوا مثلَ مستشاري زُورِيخ، ولا شيءٍ من هذا العُرْفِ والظاهر لإميل الذي يحظى بالحقيقة دائمةً، ولا تقولوا ما يعرف، ولكن دَعُوهُ يتعلَّم صامتًا، ودَعُوهُ يصنع روائعَ دائمةً على ألا يُدعى مُعلِّمًا، ولا تَدَعُوهُ يَظْهَرُ بِلَقْبِهِ، بل بفعله عاملاً.

وإذا كنتُ قد صنعتُ حتى الآن ما أفقَهُ به، فإن من الواجب أن يُدْرِكَ كيف أُلقي، بعادةٍ تمرينِ البدنِ وَعَمَلِ الأيدي، ذَوْقِ التأملِ والتفكيرِ في تلميذِي إلقاءً غيرَ محسوس، وذلك لأوازنَ بين كَسَلِهِ الناشئِ عن عدمِ اكتراثِهِ لآراءِ الرجال، وسكونِ أهوائِهِ، فيجب أن يَعْمَلَ مثلَ فلاح، وأن يفكِّرَ مثلَ فيلسوفٍ لكيلا يكون مُتَوَانِيًا تَوَانِي الهَمْجِي، ويقومُ بِسُرِّ التَّربِيَةِ الأعظمِ على جعلِ تمريناتِ البدنِ وتمريناتِ الذهنِ خادمةً دائمةً مثلَ تَرَاحٍ من أحدهما نحو الآخر.

ولكن حَذَارِ أن تُعَجِّلُوا المعارفَ التي تقتضي ذهنًا أكثرَ نَضْجًا، ولا يبقى إميلُ عاملاً زمانًا طويلًا من غير أن يَشْعُرَ من تلقاء نفسه بتفاوتِ الأحوالِ الذي لم يلاحظه في البُدْءِ، وهو يُريدُ أن يَدْرُسَنِي بدوري مستندًا إلى المبادئ التي أعطيتها إياها والتي هي في متناولِهِ. وهو إذ يتلقَى كلَّ شيءٍ مِنِّي وحدي، وهو إذ يرى نفسه قريبًا جدًّا من حالِ الفقراء، يريدُ أن يَعْرِفَ سببَ بُعْدِي منها

كثيراً، وقد يطرح عليّ مثل الأسئلة الخطرة الآتية بغتةً، وهي: «أنت غني، وقد قلت لي هذا، وهذا الذي أرى، والغنيّ مدينٌ بعمله للمجتمع أيضاً ما دام رجلاً، ولكن ما تصنعُ في سبيل المجتمع إذن؟» وما يقول عن هذا مُعلِّمٌ فاضلٌ؟ أجهل ذلك، وقد يكون من الغباوة ما يُحدّث معه الولدُ عن الجهود التي يبذلها من أجله. وأمّا أنا، فإن المصنّع ينتشلي من المعضلة، فأقول: «هذا سؤالٌ جميلٌ يا إميل العزيز، وأعدك بالجواب عن نفسي إذا ما استطعتَ الجواب عن نفسك بما أنت راضٍ عنه، وربما يقع ذلك سأعني بأن أعطيك وأعطي الفقراء ما يفيض مني، وبأن أصنع مائدةً أو مقعداً في كلِّ أسبوعٍ لكيلا أكون غير نافعٍ تماماً.»

وها نحن أولاء نعود إلى أنفسنا، وها هو ذا ولدكم أو شاك ألاً يكون ولدًا داخلًا نفسَه، وها هو ذا يشعُر أكثر مما في أي وقتٍ بالضرورة التي تربطه بالأشياء، وقد مرَّنا ذهنه وتمييزه بعد أن بدأنا بتميرين بدنه وحواسه. وأخيرًا جمعنا بين عادة أعضائه ومداركه جاعلين منه موجودًا عاملاً ومفكرًا، وعاد لا يبقى علينا لإكمال الإنسان غير تكوين موجودٍ مُحبِّ حَسَّاسٍ؛ أي إتمام العقل بالإحساس، ولكن دعنا قبل الدخول في نظام الأمور الجديد هذا، نُلقِ نظرةً على النظام الذي نخرُج منه لنرى على أتم ما يُمكن ما بلغناه من حدٍّ.

ولم يكن لدى تلميذنا غير إحساساتٍ في بدء الأمر، فصارت لديه أفكار، ولم يك قادرًا على غير الإحساس، فصار الآن يحكم؛ وذلك لأنه ينشأ عن المقابلة بين كثيرٍ من الإحساسات المتعاقبة، أو التي تقع معًا، وما يدور حولها من رأيٍ، ضربٌ من الإحساس المختلط أو المركَّب الذي أُسميه فكرًا.

والوجه الذي تُكوِّن به الأفكار هو الذي يُنعم على الذهن البشري بطابع، والذهن الذي لا يُكوِّن أفكاره إلا وفقَّ العلائق الحقيقية هو ذهنٌ متين، والذهن الذي يكفي بالعلائق الظاهرة هو ذهنٌ سطحي، والذهن الذي يرى العلائق كما هي هو ذهنٌ سديد، والذهن الذي يسيء تقدير العلائق هو ذهنٌ فاسد، والذهن الذي يختلق علائق خيالية لا تُتمُّ إلى الحقيقة ولا إلى الظاهر بصله هو ذهنٌ أحمق، والذهن الذي لا يقوم بالمقايسة مطلقًا هو ذهنٌ غبي، وما يكون من استعدادٍ كبيرٍ أو صغيرٍ للمقابلة بين الأفكار ولاكتشاف العلائق هو الذي يجعل الذهن كبيرًا أو صغيرًا في النَّاسِ... إلخ.

وليست الأفكار البسيطة سوى إحساساتٍ مقابلٍ بينها، ويوجد في الإحساسات البسيطة وفي الإحساسات المركَّبة من الأحكام ما أُسميه أفكارًا بسيطة، والحكم في الإحساس منفعلٌ مَحْضًا، وهو يُؤكِّد أنه يُشعُر بما يُشعُر به، والحكم في الإدراك أو الفكر فاعل، وهو يُوفِّقُ ويقابل

وَيُعَيَّنُ ما بين العلائق التي لا يُحدِّدها الحس، وهذا هو كلُّ الفرق، ولكنه فرقٌ كبير، ولا نتخذنا الطبيعة مطلقاً، ونحن الذين يُخادعون أنفسهم دائماً.

ومما رأيتُ تقديمَ جَبِيَّةٍ مُجَمَّدةٍ إلى ولدٍ في الثامنة من سنه، ويحملُ الملعقة إلى فمه من غير أن يَعْرِفَ ما هذا، ويصرخ قائلاً: «آه! إن هذا يُحرقني!» ويبتلى بإحساسٍ شديد، وحرُّ النار هو أشدُّ ما يَعْرِفُ، ويظنُّ ذاك من هذا، ومع ذلك فإنه ينخدع؛ فالبردُ الشديد يقْرُصُه، ولكنه لا يُحرقُه، وليس هذان الإحساسان متشابهَيْن، ما دام الذين يُتَلَوْنَ بهما لا يَخْلِطُونَ بينهما مطلقاً، وليس الإحساس إذن هو الذي يَخدعه بل الحُكْمُ الذي يَحْمِلُ عنه.

ومثلاً هذا حالُ الذي يرى لأوَّلَ مرَّةٍ مرآةً أو آلةً بصرية، أو الذي يدخل قبواً عميقاً في وَسَطِ الشتاء أو الصيف، أو الذي يغمس يده الحارة جداً أو الباردة جداً في الماء الفاتر، أو الذي يَدُخِرُ كُرَّةً صغيرةً بين إصبعين معقوفتين، وإذا ما اكتفى بالقول عما يَشْعُرُ به أو يُحْسِنُه فإن حُكْمَه إذ يكون منفعلاً صِرفاً كان من المتعذَّر أن يُخدع، ولكنه إذا ما حَكَمَ في الأشياء على حَسَبِ الظاهر كان حُكْمُه فاعلاً، فيقيس ويقيم بالاستقراء علائق لا يَشْعُرُ بها، وهنالك يُخدع أو يُمكن أن يُخدع، ولا بدُّ له من التجربة حتى يُصَحِّح الخطأ أو يَحْوِلَ دون وقوعه.

وأروا تلميذكم في الليل سُحْباً تَمُرُّ بينه وبين القمر، تَرَوُه يعتقد أن القمر هو الذي يَمُرُّ إلى جهةٍ معاكسة، وأن السُحْبَ واقفة، ويقوم اعتقاده هذا على استقراءٍ خاطفٍ لما يرى عادةً من حركة الأشياء الصغيرة وسكون الأشياء الكبيرة، ولما تبدو السُحْبُ له أعظم من القمر الذي لا يستطيع تقدير بُعده. وهو إذا ما كان في مركبٍ يَشُقُّ الماء ونظر إلى الساحل من بُعدٍ قليلٍ وقع في الخطأ المعاكس، واعتقد أن الأرض تجري، وذلك بما أنه لا يُحسُّ حركته، فإنه يَعُدُّ المركبَ والبحرَ أو النهرَ وجميعَ أفعه كلاً غيرَ متحرك، ولا يلوح له الشاطئ الذي يُبصرُ جزئيه غيرَ جزءٍ من ذلك.

وإذا ما رأى الولدُ للمرة الأولى عصاً مغموراً نصفها في الماء أبصرَ عصاً مكسورة، والحسُّ صحيح، وهو لا ينفكُّ يكون صحيحاً، ولو لم نَعْرِفِ السبب، وإذا ما سألتموه إذن عما يرى قال: «عصاً مكسورة.» وهو يقول الصحيح، وذلك ليقينه بأن لديه إحساساً عن عصاً مكسورة، ولكنه إذا ما ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك مخدوعاً في حكمه، فوَكَّدَ أنه يرى عصاً مكسورة، ثُمَّ وَكَّدَ أن ما يرى هو عصاً مكسورةً بالحقيقة، فإن قوله هذا يكون حينئذٍ فاسداً. ولم هذا؟ ذلك لأنه يصيرُ إذ ذاك فاعلاً، ولأنه عاد لا يَحْكُمُ عن ملاحظةٍ بل عن استقراء، وذلك بتوكيده ما لا يُحس؛ أي إن الحكم الذي يتلقاه بحسٍّ يُؤَيِّدُ بحسٍّ آخر.

وبما أن أحكامنا مصدرُ كلِّ خطأ فبنا فإن من الواضح أننا إذا لم نكن محتاجين إلى الحكم لم يكن فينا احتياجٌ إلى التعلُّم، ولم نفع قطُّ في حالٍ نُخدع فيها، وبدونا بجهالتنا أكثرَ سعادةً مما نستطيع أن نكونه بمعرفتنا. ومَن ذا الذي يُنكرُ أن العلماء يعلمون ألفَ شيءٍ صحيحٍ لا يَعْرِفه الجاهلون مطلقاً؟ وهل العلماء أقربُ إلى الحقيقة لهذا السبب؟ وعلى العكس تماماً يبتعد العلماء عنها كلما تقدّموا؛ وذلك لأن زهوَ الحكم إذ يتقدّم أكثرَ من تقدّم المعارف عندهم لا تأتي كلُّ حقيقة يتعلمونها إلا مع مائة حُكْمٍ فاسد، وكأني يَعْلَمُ أن الجمعيات العلمية في أوروبا ليست سوى مدارسَ عامةٍ للأكاذيب، ولا رُبَّ في أن مَجْمَع العلوم ينطوي على خطأ أكثرَ مما ينطوي عليه قوم الهُورون^{٢٢} بأسرهم.

وبما أن الرجال كلما عَرَفوا خُدعوا، فإن الجهل هو الوسيلة الوحيدة لاجتناب الخطأ، وإذا لم تَحْكُموا مُطلقاً لم تتخدعوا مطلقاً، وهذا هو درسُ الطبيعة كما هو درسُ العقل. وإذا عدوتَ ما للأشياء معاً من علائقٍ مباشرةٍ قليلةٍ جداً محسوسةٍ جداً لم يُساورنا غيرُ عدمِ أكراتٍ عميقٍ نحو البقية بحكم الطبيعة، وما كان الهمجيُّ لِيُدِير رِجله حتى يشاهدَ أروعَ الآلات وجميعَ عجائب الكهريا، وكلمة «ما يهْمُني؟» هي أكثرُ ما يألَفُ الجاهلُ وأكثرُ ما يلائم الحكيم.

يَبْدُ أن من المؤسف أن عادت هذه الكلمة لا تُواتينا؛ فكلُّ شيءٍ يهْمُننا ما اتبَعنا كلَّ شيءٍ، ويمتدُّ فُضُولنا مع احتياجنا بحكم الضرورة، وهذا هو السبب في عزوي كبيرٍ فُضُولٍ إلى الفيلسوفِ وعدمِ عزوي أيِّ فُضُولٍ إلى الهمجي، وذلك أن هذا لا يحتاج إلى أحد، وأن ذلك يحتاج إلى جميعِ النَّاس، ولا سيَّما المعجبون.

وسَيُقَال لي إنني أخرج عن الطبيعة، ولا أعتقد ذلك؛ فالطبيعة تختار وسائلها وتُنظِّمها وفق الحاجة، لا وفق الرأي. والواقع أن الاحتياجات تختلف باختلاف حال النَّاس، وأنه يوجد اختلافٌ كبيرٌ بين الإنسان الطبيعي الذي يعيش في حال الطبيعة والإنسان الطبيعي الذي يعيش في حال المجتمع. وليس إميلٌ همجياً يَقْصَى إلى الصحارى، بل همجيٌّ جُعِلَ لِيقيم بالمدن، ويجب أن يَعْرِف كيف يَجِدُ في المدن ما يحتاج إليه وأن ينتفع بسكانها، وأن يعيش معهم على الأقل وإن لم يكن مثلهم.

ولا بدُّ له من الحكم على الرغم منه ما كان في سواءٍ كثيرٍ من العلائق الجديدة، فلنَعْلَمه كيف يُحسِن الحكم إذن.

^{٢٢} * أهل أمريكا الشمالية الأصليون.

وأحسن أسلوب لتعلم حُسن الحُكم هو ما يُفضي إلى تبسيط تجاربنا أكثر من سواه، والذي يغنيا حتى عن هذه التجارب من غير وقوع في الخطأ؛ ومن ثمَّ نقول إنه يجب بعد تحقيق ما بين الحواس من علائق في زمنٍ طويل، أن يُتعلَّم أيضًا تحقيق علائق كلِّ حاسةٍ بنفسها، ومن غير احتياجٍ إلى الاستعانة بحاسةٍ أخرى. وهنالك يغدو كلُّ إحساسٍ فكرًا لدينا، ويكون هذا الفكر مطابقًا للحقيقة دائمًا، وهذا هو نوعُ المعرفة الذي حاولت جمعه في هذا الدُّور الثالث من حياة الإنسان.

ويتطلب هذا الأسلوبُ في السَّير صبرًا وحذرًا لا تجدهما في غير قليل من المُعلِّمين، ولا يتعلم التلميذ الحُكمَ بغيرهما مطلقًا، ومن ذلك أن التلميذ إذا ما خُدع بظاهر العصا المكسورة بادرتم لإطلاعه على خطئه إلى سَحَبِ العصا خارج الماء، فثريلون ضلاله على ما يحتمل، ولكن ما تُعلِّمونه؟ لا شيءَ غير ما يتعلَّمه بنفسه من فوزه. وي! ليس هذا ما يجب أن يُصنَّع! وأقلُّ من هذا اعتبارًا أن تُعلِّموه حقيقةً بدلًا من أن تُطلِّعوه على ما يجب أن يتخذَ لاكتشافِ الحقيقةِ دائمًا، ولا ينبغي أن يُزال ضلاله حالًا لحُسن تعليمه، ولأَتَّخِذَ نفسي مع إميل مثلًا.

وأوَّل ما في الأمر هو أن الولد الذي يُربَّى على الطريقة المعتادة لا يُعوِّزه أن يكون إيجابيًا جوابه عن ثاني السؤالين المُفترَضين، فيقول لا ريب: «إن هذه عصا مكسورة.» وأشكُّ كثيرًا في أن يأتي إميلُ عينِ الجواب، وإميلُ لا يبادر إلى الحُكم مطلقًا لما لا يُبصر من ضرورة كونه عالمًا أو ظهوره بمظهر العالم أبدًا، وإميل لا يحكم في غير الجلي، وإميل كثيرُ البُعد من أن يرى ذلك جليًا في تلك الدقيقة، وهو العارف بمقدار ما تكون غُرُضُهُ له من وهمٍ أحكامنا وفقَّ الظواهر، إذا كان هذا في حقل المناظر.

ثمَّ بما أنه يَعْرِف عن تجربة أن أكثر أسئلتي تَفَهًا ينطوي دائمًا، على أمرٍ لا يُبصره في البداية، فإنه لم يتعوَّد قَطُّ أن يأتي جوابًا طائشًا، وهو على العكس يَحْدَر منه وينتبه إليه ويفحصه بعناية فائقة قبل أن يجيب عنه، وما كان ليأتي جوابًا لا يَرْضَى عنه بنفسه، وهو الذي لا يَرْضَى إلا بصعوبة، ثمَّ إن كلانا لا يفتخر بمعرفة حقيقة الأمور، بل باجتناِب الخطأ، وترانا نحجَل من إبدائنا سببًا غير صالح أكثر من خجلنا عند عدم اكتشافنا هذا السبب على الإطلاق. وكلمة «لا أعرف» ثلاثُنا كثيرًا، ونحن نَبُغ من تكرارها كثيرًا ما لا نجد معه أنها تُكَلِّف أيًّا منَّا شيئًا، ولكن سواءً أفلت ذاك الطيشُ منه أم اجتنبه بكلمة «لا أعرف» الملائمة لنا كان جوابي واحدًا، وهو: «لننظر، لندرُس.»

وهذه العصا المغمورُ نصفها في الماء مُثبتة عموديًا، وما أكثر ما يجب أن تأتي من أفعال لنعرف هل هي مكسورة قبل أن نَسحبها من الماء أو قبل أن نَمسَّها!

(١) إن أوّل ما نصنع هو أننا ندورُ حولِ العصا ونرى القسمَ المكسورَ يدورُ مثلنا، وعيننا هي التي تُغيّرهُ إذن، وما كانت النظراتُ لتُحرّكَ الأجسام.

(٢) ثمّ ننظرُ عمودياً فوق طرفِ العصا الواقعِ خارجِ الماء، وهناك تعود العصا غيرَ مُعوّجة، ويُخفي طرفُ العصا القريبُ من عيننا طرفها الآخرَ بإحكام،^{٢٣} فهل قوّمتُ عيننا العصا؟

(٣) ونحرّكُ سطحَ الماء، ونرى العصا تنثني في قطعٍ كثيرة، وتتحرّكُ مُعوّجةً وتتبعُ تموجاتِ الماء، وهل تكفي الحركةُ التي نُوجِبها في هذا الماءِ لكسرِ العصا وإلانتها وصهرها على ذلك الوجه؟

(٤) ونُسيلُ الماءَ ونرى العصا تستقيم مقداراً فمقداراً، وذلك كلّما نَقَصَ الماء، أو لَيْسَ هذا يُوفي على الغاية لتتويرِ الواقعِ وكشفِ الانكسار؟ وليس من الصحيحِ إذن أن النظرَ يَحْدَعنا ما دُمننا نحتاجُ إليه وحدَه في إصلاحِ الخطأ الذي نَعْرُوه إليه.

وإذا ما افترضنا الولدَ من الغباوة ما لا يشعُرُ معه بنتيجة هذه التجارب، فإنه يجب أن تُستدعى اللامسةُ لمساعدة الباصرة هناك، ودَعُوا العصا على حالها بدلاً من سَحِجها خارجِ الماء، واجعلوا الولدَ يُمِرُّ يده عليها بين طرفيها؛ فهو لن يُحسَّ زاوية، وليست العصا مكسورةً إذن.

وستقولون لي إنه لا يوجد هنا أحكامٌ فقط، بل برهنةٌ شكلية، وهذا حق، ولكن ألا ترون أن الذهن إذا ما بَلَغَ مرحلةَ الأفكار لم يَلْبِثْ كلُّ حُكْمٍ أن يكون برهنة؟ إن الشعور بكلِّ إحساسٍ هو قضية، هو حُكْمٌ؛ ولذا فإنه إذا ما قُوبِلَ بين إحساسٍ وآخر فإنه يُبرهنُ حالاً؛ ففَنُّ الحُكْمِ وفنُّ البرهنة هما هما تماماً.

ولن يتعلّمَ إميلُ علمَ انكسارِ النورِ مطلقاً، أو إنني أريد أن يتعلمه حول هذه العصا، وهو لن يُشرّح الحشرات مطلقاً، وهو لن يَعُدَّ أكلافَ الشمس مطلقاً، وهو لن يَعْرِفَ ما المُجْهِرُ ولا المِرْقَبُ، وسيستخرُ تلاميذكم العلماءَ من جهله، وهم ليسوا على غيرِ حقٍّ في هذا؛ وذلك لأنني أريد أن يخترع الآلات قبل أن يستخدمها، وأنتم في شكٍّ من كون هذا يتمُّ سريعاً.

ذلك هو روحُ منهاجي في هذا القسم، وإذا ما أدار الولدُ كُرَّةً صغيرةً بين إصبعين معقوفتين واعتقد أنه يشعُرُ بكَرتين، لم أسمح له بأن ينظرَ إلى ذلك قبل أن يقنع بأنه لا يوجد غيرُ كُرَّةٍ هنالك.

^{٢٣} وحدث العكس بعد ذلك، وذلك بتجربةٍ أكثرَ صحة؛ فالانكسار يعمل دائرياً، وتبدو العصا أضخمَ بالطرفِ الذي في الماء مما بالطرفِ الآخر، غيرَ أن هذا لا يُغيّرُ شيئاً من قوّة الدليل، وليست النتيجة أقلَّ صواباً.

وأرى أن هذا الإيضاح يكفي لإظهار ما اتفق لذهن الولد من تقدم إظهاراً جلياً، وللدلالة على الطريق التي سلكت وصولاً إلى ذلك التقدم، ولكن من المحتمل أن تكونوا قد دُجرت من مقدار الأشياء التي عرّضتها عليه، وأنتم تخشون أن أُرهِقَ ذهنه بهذه المعارف الزاخرة. والعكس هو الواقع؛ فإنا أعلمه أن يجهلها أكثر من أن يَعْرِفَهَا، وأنا أدلُّه على طريق العلم السهلة حقاً، ولكن مع طول بالغٍ وبُطءٍ في السير، وأنا أحمله على الخطوات الأولى حتى يَعْرِفَ الدخول، ولكن لا أسمح له بالذهاب بعيداً على الإطلاق.

وهو إذ يُلزم بالتعلم لنفسه، يستعمل عقله لا عقل الآخرين؛ وذلك لأنه لا ينبغي إعطاء السلطان شيئاً لكيلا يُعطى العُرف شيئاً، وبأتينا مُعظم الأضاليل من الآخرين أكثر من صدوره عن أنفسنا، ويجب أن ينشأ عن هذا التمرين المستمر قوة في الذهن مشابهة لما يُعطاه البدن بالعمل والتعب، وتكون الفائدة الأخرى في التقدم على نسبة القوى، فلا يحمل الذهن والبدن غير ما يَقْدِرَان على حمله، ومتى حاز الإدراك أموراً قبل خزنها في الذاكرة فإن ما يأخذ منها فيما بعد يكون ماله، وذلك بدلاً من أن يُعرض لأخذ ما ليس له من الذاكرة يراهاها على غير علم منه.

وما لدى إميلٍ من معارفٍ قليلٍ، غير أن ما عنده من المعارف هو ماله حقاً، ولا يَعْرِف شيئاً نصف معرفة، وبين الأمور القليلة التي يَعْرِف، وَيَعْرِفُ جيّداً ويُعدُّ أكثر ما يَعْرِفُ أهميةً، هو وجود أمورٍ كثيرةٍ يجهلها، ويمكنه أن يَعْرِفَهَا ذات يوم، ووجود أمورٍ أكثر من هذه يَعْرِفَهَا أناس آخرون، ولن يَعْرِفَهَا مدى حياته، ووجود أمورٍ أخرى غير محصورة العدد لن يَعْرِفَهَا أحد. وهو حائزٌ لذهنٍ شامل، لا بالمعارف، بل بالقدرة على اكتسابها، حائزٌ لذهنٍ عريضٍ لامعٍ مستعدٌ لكل شيء، قابلٌ للتعلم إذا لم يكن متعلماً كما قال مونتيني. وكفيني أن يكون عارفاً بـ «ما الفائدة؟» حَوْلَ كُلِّ ما يصنع، وبـ «لماذا؟» حَوْلَ كُلِّ ما يعتقد، وذلك كما أقولُ ثانيةً، أن غرضي ليس منحه علماً، بل تعليمه اكتسابه عند الحاجة، بل تقدير قيمته الحقيقية تماماً، بل جعله يحب الحقيقة أكثر من كل شيء. أجل، إن التقدم بهذا المنهاج يكون قليلاً، ولكنه لا يُؤتى من الخطوات ما هو غير مفيد، ولا نكون مُكرهين على الرجوع إلى الوراء.

وليس لدى إميلٍ غير معارفٍ طبيعيةٍ وفزيويةٍ صرفة، وهو لا يَعْرِفُ حتى اسم التاريخ، ولا علم الأخلاق وما بعد الطبيعة، وهو يَعْرِفُ علائق الإنسان الجوهرية بالأشياء، ولكنه لا يَعْرِفُ أية علاقةٍ خُلُقِيَّةٍ بين إنسان وإنسان. وهو قليل المعرفة بتعميم الأفكار وقليل إتيان بالمجردات، وهو يرى صفات مشتركة بين بعض الأجسام من غير أن يُبرهن حول هذه الصفات بنفسها، وهو يَعْرِفُ الاتساع المُجرّد

مستعينًا بالأشكال الهندسية، وهو يَعْرِفُ الكمية المجردة مستعينًا بالرموز الجبرية، وهذه الأشكال والرموز هي أركان هذه المجردات التي تتركز إليها حواسه، وهو لا يحاول معرفة الأشياء بطبيعتها مطلقًا، ولكنه يحاولها بالعلاق التي تهتمه فقط، وهو لا يُقدِّر ما هو غريب عنه بغير علاقته معه. ولكن هذا التقدير صحيحٌ مُحكم، ولا دخلٌ للهوى والمُبْتَسِر فيه، وهو أكثر ما يُقدِّر الأشياء الأعظم فائدةً له، وهو إذ لا يعدل عن هذا الطريق في التقدير فإنه لا يلتفت إلى المُبْتَسِر مطلقًا.

وإميلٌ مُجدِّ قنوعٌ صبورٌ رصينٌ مملوءٌ شجاعة، وما كان خياله غير المشتعل قطعًا، ليجسم له الأخطار مطلقًا، وهو يتأثرُ بأمراضٍ قليلةٍ عارفاً كيف يصيرُ عليها بثبات؛ وذلك لأنه لم يتعلم قطُّ أن يناهض القدر، وهو لا يَعْرِفُ جيّدًا ما الموت أيضًا. ولكن بما أنه تعودُ معاناةً سنّةٍ الضرورة بلا مقاومة فإنه يموت عند وجوب الموت بلا أنينٍ ولا انتفاض. وهذا كلُّ ما تسمع به الطبيعة في تلك الساعة الكريهة لدى الجميع، وتعدُّ الحياة الحرة وقلّة الاكتراث لأمر البشر أفضلَ طريقةً لتعلم الموت.

والخلاصة أن إميل له من الفضيلة كلُّ ما يتعلق بشخصه، وهو لكي يحوز الفضائل الاجتماعية أيضًا، لا يُعوزُه غيرُ معرفة العلاقات التي تقتضيها، ولا يُعوزُه غيرُ المعارف التي ترى ذهنه مستعدًا كلَّ الاستعداد لتقبّلها.

وهو ينظر إلى نفسه غير ملتفتٍ إلى الآخرين، وهو يجد من الحسن ألا يفكر الآخرون فيه مطلقًا، وهو لا يطلب شيئًا من أحد، ولا يرى أنه مدينٌ بشيءٍ لأحد، وهو وحيدٌ في المجتمع البشري، ولا يعتمد على غير نفسه، ويحقُّ له أن يعتمد على نفسه أكثر من سواه؛ وذلك لأنه كلُّ ما يُمكن الإنسان أن يكونه في مثل سنه، وهو خالٍ من الأضاليل، أو إنه ليس لديه من هذه غير ما لا مفرَّ منه، وهو خالٍ من العيوب، أو إنه ليس لديه من هذه غير ما لا يستطيع إنسان أن يتقيّه، وهو ذو جسمٍ سليمٍ وأعضاءٍ رشيقةٍ وذهنٍ صحيحٍ خالٍ من المُبْتَسِرات وقلبٍ طليقٍ خالٍ من الأهواء. ولم يكِدِ العجب الذي هو أوّل الأهواء وأقربها إلى الجبلّة، يُساوِرُ فؤاده بعد، وهو من غير أن يقلق راحة أحد، قد عاش راضيًا سعيدًا حُرًّا بمقدار ما تأذن فيه الطبيعة، أو تجدون الولد الذي بلَغَ الخامسة عشرة من سنه على هذا الوضع قد أضع سنه السابقة؟

الجزء الرابع

يا للسرعة التي نمرُّ بها فوق الأرض! وقد انقضى الربع الأوَّل من الحياة قبل أن يُعرَف كيف يُستفادُ منها، وينقضي الربع الأخير أيضًا بعد أن ينقطع الاستمتاع بها، وأوَّل ما في الأمر هو أننا لا نعرف أن نعيش مطلقًا، ولسرعان ما نعود غير قادرين على ذلك. ونحن نقضي ثلاثة أرباع الوقت الباقية لنا في النوم والعمل والألم والقسر والمتاعب من كلِّ نوع. والحياة قصيرة، وهي ليست قصيرةً بالوقت القليل الذي تدوم فيه، بل لما لا يكاد يوجد لنا فيه من بُره نتمتع بها، ومن العبث أن يُذهَبَ إلى بُعد ما بين ساعة الموت وساعة الميلاد؛ فالحياة تكون بالغة القصر إذا لم يُحسن قضاء هذه الفاصلة.

ونقول إننا نُولَدُ مرتين، الأولى لنكون، والأخرى لنحيا، والأولى للنوع والأخرى للجنس. ولا ريب في أن الذين يُعَدُّون المرأة إنسانًا ناقصًا ليسوا على صواب، ولكن لهم أن ينظروا إلى المماثلة الخارجية. ولا يوجد في الأولاد من الجنسين حتى سنَّ البلوغ من الظاهر ما يميِّز بعضهم من بعض، فلهم عين المحيَّا وعين الوجه وعين اللون وعين الصوت، وكلُّ شيءٍ فيهم متساوٍ. والبنات من الأولاد، والصبَّيان من الأولاد، ويكفي ذات الاسم لأناسٍ متشابهين بهذا المقدار، ويحافظ الذكور الذين وُقِفَ نموُّهم الجنسيُّ على هذه المشابهة ما داموا أحياء؛ فهم يكونون أولادًا جسامًا دائمًا، ولا يظهر الإناث اللاتي لا يفقدن هذه المشابهة مطلقًا شيئًا آخر من عدة وجوه.

يَبْدُ أن الإنسان على العموم لم يُخلَق ليبقى في الوُلُودية دائمًا؛ فهو يخرج منها في الوقت الذي عَيَّنته الطبيعة، ولدور البحران هذا تأثيرٌ طويلٌ على قصره.

ويشابه هذا الانقلابُ العاصفُ هديرَ البحر، الذي يسبقُ الزويدة من بعيد، فينبئُ عن نفسه بهمهمة الأهواء الناشئة، ويُخبرُ الاضطراب الأصمُّ بدنوَّ الخطر، وما يكون من تغييرٍ في المزاج ومن كثرة الاحتداد، ومن هياج دائمٍ في النفس يجعلُ الولدَ غيرَ قابلٍ للانقياد تقريبًا، وهو يصبح من الصُّمِّ تجاه الصوت الذي يجعله طائغًا، وهو يكون أسدًا مُصابًا بالحمى، وهو يُنكر مُرشده، ويعود راغبًا عن أن يُقاد.

وتُضافُ تغييراتٌ محسوسةٌ في الوجه إلى علائمِ خُلُقِيَّةٍ في مزاجٍ يفسدُ، وتنمو سيماه، وتوسم بطابع، ويسمرُّ القُطُنُ الخُلُو القليلُ الذي ينبُت في أسفل خديهِ ويصلُّب، ويتغير صوتُه، أو يفقد رونقه، ولا يكون ولدًا ولا رجلًا، ولا يُمكن أن يتكلم مثلَ أحدهما، وتجد عيناه، ويجد عضوا الروح هذان اللذان لم يقولا شيئًا حتى الآن لغةً وتعبيرًا، وتلهبهما نارٌ ناشئة، وتبقى لنظراتهما التي تصيرُ

أكثر التماعاً فُدسيَّة السداجة، ولكن مع عدم المحافظة على بلاديتهما الأولى، وكان قد شعر بأنه يُمكنهما أن يقولوا الشيء الكثير، وهو يبدأ بمعرفة غصَّهما والاحمرارِ خَجَلًا. وهو يُصيحُ حساسًا قبل أن يُعرف ما يُحس، وهو يكون مضطرب البال من غير أن يعلم السبب. ويُمكن أن يحدث هذا رويدًا رويدًا تاركًا لكم وقتًا أيضًا، ولكن إذا تحوَّل هيجانه إلى عدم صبرٍ بالغ، وإذا انقلب حُميَّاه إلى صَوْلَة، وإذا ما غَضِب ولان بين دقيقةٍ ودقيقة، وإذا ما سَكَب دموعًا بلا داع، وإذا ما ارتفع نبضه والتهدت عينه بالقرب من أشياء تُصيح عاملَ خطرٍ له، وإذا ما أخذ يرتعش من وضع امرأة يدها على يده، وإذا ما اضطرب أو ارتعب بالقرب منها، فيا أوليس، يا أوليس الحكيم، احترز؛ فقد فُتحت المنافذ التي أغلقتها بجهدٍ كبير، وقد ثارت الرياح، ولا تنزك السُّكَّان^١ دقيقة، وإلا هلك كلُّ شيء.

وهنا الولادة الثانية التي تكلمتُ عنها، وهنا يُولَّد الإنسان للحياة حقًّا، وهنا لا يكون غريبًا عنه أيُّ أمرٍ بشري، ولم تكن جهودنا حتى الآن غير ألعابٍ ولد، وهي لا تكتسب أهميةً حقيقيةً إلا الآن، وهذا الدور الذي تنتهي فيه التريبات العادية هو عينُ الدُّور الذي يجب أن تَبْدَأ فيه تربيتنا، ولكن دعنا، لحسنِ عَرْض هذا البرنامج الجديد، أن نعود فنتناول مما تقدَّم حالَّ الأمور الخاصة بذلك.

وأهواؤنا هي الوسائل الرئيسة لبقائنا؛ ولذا فإن من المحاولات الفارغة المضحكة أن يُراد القضاء عليها، وذاك تقييدٌ للطبيعة، وذاك إصلاحٌ لعمل الرِّب، ولو قال الرِّبُ للإنسان أن يقضي على الأهواء التي منحه إياها، فإنه يكون مُريدًا لذلك وغير مُريدٍ له؛ أي مناقضًا لنفسه، ولم يحدث أن أصدرَ هذا الأمرَ المخالفَ للصواب، ولم يكن مثلُ هذا مكتوبًا على قلب الإنسان، وما يُريدُ الرِّبُ أن يصنعه الإنسان لا يبلغه إياه بواسطة إنسانٍ آخر، بل يقول له بنفسه، وذلك أنه يكتبه في صميم فؤاده.

والحقُّ أنني أجد الذي يريد منع حدوث الأهواء يكون مجنونًا تقريبًا، كالذي يريد محوها، ولا ريب في أن الذين يعتقدون أن برنامجي كان هكذا حتى الآن يُعدُّون مسيئين لفهمي.

ولكن هل من حُسن البرهان أن يُستنتج من الأمر القائل بأن من طبيعة الإنسان أن يكون ذا أهواءٍ كَوْنُ جميع ما نُحسُّ في أنفسنا وما نرى في غيرنا من الأهواء طبيعيًا؟ أجل، إن مصدرها طبيعي، غير أنها ضُحِّمت بألفِ جدولٍ غريب، وهذا نهْرٌ عظيمٌ يزيد بلا انقطاع، فلا تكاد تُوجدُ فيه بضغُ قَطراتٍ من المياه الأولى، وتُعدُّ أهواؤنا الطبيعية محدودةً جدًّا، وهي وسائل لحريتنا،

١ * السُّكَّان من السفينة الدفة.

وهي تهدف إلى بقائنا، وأما جميع الأهواء الأخرى التي تَقْهَرنا وتُهْلِكنا فتأتينا من مصادر أخرى، ولا تمنحنا الطبيعة إياها، بل نحوزها إضراراً بها.

وحبُّ النفس هو مَنَعُ أهواننا وأصلُ جميع الأهواء الأخرى ومبدؤها، وهو الوحيد الذي يُؤلِّد مع الإنسان ولا يتزكّه ما دام حيّاً، وهو الهوى الفطريُّ الغريزيُّ السابقُ لكل ما سواه والذي تُعَدُّ جميع الأهواء الأخرى من جهةٍ تغييراً له، وتُعَدُّ جميع الأهواء الأخرى طبيعيةً من هذه الناحية، إذا ما أُريدَ ذلك. بَيِّدَ أنه يُوجد لمعظم هذه التغييرات عِلَلٌ خارجيةٌ ما كانت هذه الأهواء لتحدُث مطلقاً لولاها، وهذه التغييرات عينها ضارّةٌ بنا بعيدةٌ من أن تكون نافعةً لنا، وهي تُغَيِّرُ أوَّلَ موضوعٍ وتسير على خلاف مبدئها، وهنالك يكون الإنسان خارج الطبيعة، ويُناقضُ نفسه.

وَحُبُّ النفس حَسَنٌ دائماً، ويلتزم النظامُ دائماً، وبما أن كلَّ واحدٍ مُكَلَّفٌ بحفظ نفسه فإنه مجهوداته الأولى وأهمّها يجب أن تهْدِفَ إلى هذا الحُفْظ بلا انقطاع، وكيف تَسْهَرُ على هذا الحفظ هكذا إذا لم يَكُنْ لها أعظم فائدةٍ في ذلك؟

ولذا يجب أن نُحِبَّ أنفسنا في سبيل بقائنا، ويجب أن نُحِبَّ أنفسنا أكثر من أي شيءٍ آخر، ونُحِبُّ ما يحفظنا كنتيجةٍ مباشرةٍ لعين الإحساس. وكلُّ ولدٍ يتعلَّقُ بِمُرْضِعِهِ، ولا بدَّ من أن يكون رومولوس قد أحبَّ الذئبة التي أرضعته. وأوَّلُ ما يُرى كون هذا التعلُّق آلياً صرفاً، وكلُّ ما يُيسِّرُ راحة الفرد يجتذبه، وكلُّ ما يضُرُّه يدفعه، وليس ذلك غيرَ غريزةٍ عمياء، والذي يحوِّلُ هذه الغريزة إلى شعورٍ والتعلُّقَ إلى حُبِّ والكرهية إلى حقد، هو القصد الذي يُبدى في إلحاق الضرر بنا أو جلبِ النفعِ إلينا، ولا نُؤلِّعُ بالموجودات الخالية من الحِسِّ فلا تَتَّبِعُ غير ما تُوجِّهُ به، بل نُؤلِّعُ بمن يُنتظر منهم خيرٌ أو شرٌّ صادرٌ عن استعدادهم الباطني، صادرٌ عن إرادتهم، ومن نرى سيرهم سيرا حُرّاً معاكساً لنا أو موافقاً لنا يوحون إلينا بمشاعرٍ مشابهةٍ لتلك التي يُظهرون لنا، ونبحثُ عن الذي ينفعنا، ونحبُّ الذي يُريدُ أن ينفعنا، ونجتنب الذي يؤذينا، ونحقد على الذي يريد أن يؤذينا.

وأوَّلُ شعورٍ في الولد هو حُبُّه لنفسه، والشعور الثاني في الولد، ويُشتقُّ من الأوَّل، هو حُبُّه مَنْ يُدُنُّونه منهم؛ وذلك لأنَّ الولد في حال الضَّعف التي يكون عليها، لا يَعْرِفُ أحداً غير ما يتلقاه من عونٍ وعناية، وليس أوَّلُ ما يُساوره من تعلُّقٍ بِمُرْضِعِهِ أو مُربيته غير عادة، وهو يبحث عنهما لاحتياجه إليهما، ولأنه يكون سعيداً بوجودهما عنده، ويُعَدُّ هذا عرفاناً أكثر من أن يكون عطفاً، ولا بدَّ له من وقتٍ طويلٍ حتى يُدرك أنهما تريدان أن تكونا نافعيتين له، فضلاً عن كونهما نافعيتين له، وهنالك يبدأ حُبُّه لهما.

ومن الطبيعي إذن ميل الولد إلى حُسن الالتفات؛ وذلك لأنه يرى أن كلَّ من يدنو منه يميل إلى مساعدته، ولأنه يقتبس من هذه المشاهدة عادةً شعورٍ ملائمٍ لنوعه، ولكنه كلما وسَّع نطاقَ صلاته وحاجاته وتابعياته الفاعلة والمنفصلة، أفاق حسُّ علاقته بالآخرين، وأسفر عن حسِّ الواجبات والتفضيلات، وهنالك يُصبحُ الولدُ مُتجبرًا مغيَّرًا خادعًا منتقمًا، وهو إذا ما حُمِلَ على الطاعة، وهو إذ لا يرى فائدةً ما يُؤمر به، فإنه يعزو هذا إلى الهوى وإلى قصد تعذيبه، ويتمرد، وهو إذا ما أُذِنَ له فإنه يعدُّ كل مقاومة له عصيًّا وميلاً إلى صدِّه، فيخبط الكرسيَّ أو المائدة لعدم إطاعته. وإذا ما قُضيت احتياجاتنا الحقيقية قنع حُبُّ النفس الذي لا يتعلَّقُ بغيرنا. ولكن الأناية التي تقوم على قياس الإنسان بسواه لا تقنع أبدًا، وهي لا يمكن أن تكون هكذا؛ وذلك لأن هذا الإحساس إذ يُفضِّلنا على الآخرين، يتطلب أن يُفضِّلنا الآخرون على أنفسهم، وهذا متعذَّر، وذاك هو الوجه الذي تُولَّدُ به الأهواء العذبة الودود من حُبِّ النفس، وذاك هو الوجه الذي تُولَّدُ به الأهواء الترفقة الحقود من الأناية، وهكذا فإن الذي يجعل الإنسان صالحًا جوهرًا هو أن يكون قليل الاحتياجات قليل القياس بينه وبين الآخرين، وإن الذي يجعله شرييرًا جوهرًا هو أن يكون كثير الاحتياجات كثير الارتباط في رأي الآخرين. وعلى هذا المبدأ يسهُل أن يُرى كيف يُمكنُ أن تُوجَّه جميع أهواء الأولاد والرجال إلى الخير أو الشر، ومن الصحيح أن يصعُبَ عيشهم صالحين دائمًا لعدم استطاعتهم أن يعيشوا وحدهم دائمًا، وتزيد هذه الصعوبة نفسُها بعلاقاتهم ختمًا، وبهذا على الخصوص تجعل أخطار المجتمع لنا الجذِّق والانتباه أكثر لزومًا ليمَنع في قلب الإنسان ما ينشأ عن احتياجاته الجديدة من فساد.

ودراسة الإنسان الموافقة هي دراسة علاقته، ويجب أن يدرُس نفسه بعلاقته مع الأشياء ما عرَفَ نفسه بكيانه البدني، وهذا عملٌ صباه، وهو إذا ما أخذ يشعُر بكيانه الأدبيَّ وَجِبَ أن يدرُس نفسه بعلاقته مع النَّاس، وهذا هو عملُ حياته بكاملها، بدءًا بالنقطة التي انتهينا إليها هكذا.

والإنسان يعود غيرٍ وحيدٍ حالما يحتاج إلى صاحبه، وتولَّدُ جميع علاقاته بنوعه وجميع عواطفٍ نفسه مع تلك، ولسرعان ما يُثيرُ هواه الأوَّل أهواءه الأخرى.

وميلُ الغريزة غير مُعيَّن، وأحد الجنسين مُجتذِبٌ بالآخر، وهذه هي حركة الطبيعة، ويكون الاختيار والتفضيلات والعطفُ الشخصيُّ أعمالَ معارفٍ ومُبْتَسراتٍ وعادة، ولا بدُّ لنا من الوقت والمعارف حتى نكون قادرين على الحُبِّ، فلا يُحبُّ إلا بعد الحُكْم، ولا يُفضِّلُ إلا بعد القياس، وتكون هذه الأحكام من غير أن يُشعُر بها، ولكنها ليست أقلَّ من ذاك حقيقة، ومهما يُحدِّث عن

الحبّ الحقيقيّ فإنه يُبجّل من قِبَل الرجال دائماً؛ وذلك لأنه وإن كان يُضلُّنا بفُوراته، وإن كان لا ينزع من القلب الذي يُحسُّه ما فيه من عيوب ممقوتة، فضلاً عن إحدائه عيوباً من هذه فيه، يفترض، مع ذلك، من الصفات ما هو جديرٌ بالاحترام دائماً، يفترض من هذه الصفات الكريمة ما لا يُشعرُ به من غيره، وعن العقل يصدُرُ هذا الخيار الذي يُعارضُ به العقل، وقد قيل إن الحبّ أعمى؛ وذلك لأنَّ له عيوباً أفضلَ من عيوننا؛ فهو يرى من العلاقات ما لا نستطيع الشعور به. وتكون كلُّ امرأةٍ حسناء على السواء عند من ليست لديه فكرةٌ عن المزيّة والجمال، فشعدُ أوّل آتيةٍ أكثرهن لطافةً دائماً، وعلى بُعد ما يصدُرُ الحبُّ عن الطبيعة يكون ناظماً ميولها وراذعاً لها، وإذا عدوت المحبوب لم يعد أحدُ الجنسين عند الآخر شيئاً مذكوراً.

وما يُمنحُ من تفضيلٍ يُراد نيلُه، فيجب أن يكون الحبُّ متبادلاً، ويجب أن يجعل الإنسان نفسه محبوباً لِحُبِّ، ويجب أن يجعل الإنسان نفسه محبوباً أكثرَ من سواه، أكثر من كل إنسانٍ آخر، حتى يُفضّل على غيره، وذلك في نظر المحبوب على الأقل؛ ومن ثمَّ كانت نظرات الإنسان الأولى نحو أمثاله، ومن ثمَّ كانت المقارنات الأولى معهم؛ ومن ثمَّ كانت المباراة والمنافسات والحسد، ومن شأن القلب المملوء شعوراً قيّماً أن يوَدَّ الاندفاق، وعن حاجة الصاحبة تنشأ حاجة الصاحب حالاً، ومن يُدق حلاوة كونه محبوباً يوَدُّ لو يكون محبوباً لدى جميع النَّاس، وما كان الجميع ليُرِيدَ تفضيلات إذا لم يوجد كثيرٌ ممن هم غيرُ راضين، ومع الحبِّ والصدقة تظهر الاختلافات والعداوة والحقد، وأرى رأي النَّاس يقيم لنفسه عرشاً ثابتاً من بين هذه الأهواء المختلفة، وأن النَّاس البُلّه المُعبدِين لسلطانه لا يقيمون كيانهم الخاصَّ إلا عن أحكام الآخرين.

وانشروا هذه الأفكار تُبصروا المصدرَ الذي يأتي أنانيتنا بشكلٍ نعتقد أنه طبيعيٌّ لها، وكيف أن حُبَّ النفس يصير، بعد أن يعدل عن كونه شعوراً مطلقاً، كبرياءً في النفوس الكبيرة وغروراً في النفوس الصغيرة، وكيف أنه يغتذي في هذين الفريقين على حساب القريب، وبما أنه لا يوجد لهذا النوع من الأهواء أصلٌ في قلوب الأولاد مطلقاً فإنه لا ينشأ من تلقاء نفسه، وإنما نحن وحدنا نحمله إليها، وما كانت لتتأصل إلا بخطأ مِنَّا، ولكن الأمر يعود غير هذا في قلب الشابِّ حيث تنبت على الرغم مِنَّا ومهما صنعنا؛ ولذا يكون وقتُ تغيير المنهاج قد حلَّ.

ولنبداً ببضعة تأملات مهمة حول الوضع الحرج الذي هو موضوعُ بحثٍ هنا، وليس الانتقال من دور الصبِّ إلى دور البلوغ من تحديد الطبيعة له ما لا يختلف في الأفراد باختلاف الأمزجة والأقاليم، وكلُّ يعلم ما يُشاهد من فروقٍ حوّل هذه النقطة بين البلاد الحارة والبلاد الباردة، وكلُّ يرى

أن الأمزجة الحامية تكمل بأسرع من الأمزجة الأخرى، ولكن من الممكن أن يُصلَّ في العليل، فيُعزى إلى البدني في الغالب ما يجب أن يُعزى إلى الأدبي، ويُعدُّ هذا من أكثر الأضاليل التي تلازم فلسفة عصرنا شيوعاً، ويأتي تعليم الطبيعة متأخراً بطيئاً، وتأتي دروس النَّاس قبل الأوان دائماً تقريباً، والحواسُّ في الحال الأولى تُنبئ الخيال، والخيال في الحال الثانية يُنبئ الحواس، فيمنحها نشاطاً بَكوراً لا يُعوِّزُه أن يُهيِّج الأفراد ويُضعفهم في البُداء، ثمَّ النوع مع مر الأيام، وتدلُّ المشاهدة الأكثر عمومًا والأعظم ثبوتًا من تأثير الإقليم على أن البلوغ وقدرة الجنس أسرع عند الأمم المتعلمة المتمدنة مما عند الأمم الجاهلة المتبريرة.^٢ ويوجد لدى الأولاد فُطانةٌ عجيبةٌ يميزون بها سبب العادات من خلال رداء الحشمة الذي يستترون به، ويُعدُّ اللسان المُصقَّى الذي يُملى عليهم، ودروسُ العفاف التي تُلقى عليهم، وستائرُ الزهد الذي يُتظاهرُ بوضعه أمام عيونهم، مهاميرَ لفضولهم بذلك المقدار، وإذا نُظِرَ إلى الوجه الذي يُتخذُ وُجد من الجلي أن ما يُتظاهرُ بإخفائه عنهم لا يكون لغير تعليمهم إياه، وهو أكثر ما يفيدهم من الدروس بين جميع ما يُلقى عليهم.

واستشيروا التجربة تُدرِكوا مقدار ما يؤدي إليه هذا المنهاجُ المخالفُ للصواب من تعجيل لعمل الطبيعة وتقويضٍ للمزاج، وهذا هو إحدى العلل الرئيسية التي تُفسدُ النَّسل في المدن، وبما أن الشُّبانَ يَصنِّونَ باكراً فإنهم يبقون صِغاراً ضعافاً سيئى التكوين، فيهرمون بدلاً من أن ينموا، شأن الدالية التي تُحمَل على الإثمار ربيعاً فتذوي وتموت قبل الخريف.

ولا بدَّ من العيش بين الشعوب البسيطة الغليظة ليُعرف مدى العُمر الذي يمكن الجهل السعيد أن يطيل إليه طهرُ الأولاد، ومن المناظر المؤثرة المسلية أن يُرى الجنسان المُوكلان إلى

^٢ قال مسيو بوفون: «يصل الأولاد الذين تعودوا أغذيةً وافرةً عصاريةً إلى تلك الحال بأسرع ما يمكن في المدن ولدى الموسرين. وأمَّا الأولاد في الريف ولدى الفقراء فإنهم يبلغونها متأخرين عن قلة طعامٍ وسوء تغذية، فلا بدَّ من مرور عامين أو ثلاثة أعوامٍ زيادةً على ذلك حتى ينتهوا إلى تلك الحال» (التاريخ الطبيعي، جزء ٤، صفحة ٢٣٨). وأقبل بالمشاهدة، لا بالإيضاح، ما دام بين البلوغ في البلاد التي يتغذى القروي فيها كثيراً ويأكل كثيراً، كما في الفاله، وفي بعض المناطق الجبلية بإيطالية أيضاً كالفريول مثلاً، يتأخَّر في الجنسين على السواء أكثر من تأخُّره في صميم المدن؛ حيث يُراد إرواء الزهر فيقتز في الطعام إلى الغاية غالباً، وحيث يعمل معظم الناس بالمثل القائل: «ثوبٌ من مخمل ووطن خاوي». ومن العجيب أن يُشاهد في هذه الجبال فيناتٍ كباثٍ أقوياء ذوو أصواتٍ حادةٍ وأذقانٍ بلا لحي، وفتياتٍ كبيراتٍ نامياتٍ كثيراً بلا خِص، فيبدو لي أن المصدرَ الوحيدَ لهذا الفرق هو أن خيال هؤلاء الناس البسطاء في طبائعهم يكون هادئاً ساكناً لزمٍ طويل، فيتأخَّر في إثارة دهمهم، ويجعل مزاجهم أقلَّ نضجاً قبل الأوان.

سلامة أفنديتهما يُطيلان في زهرة العُمر والجمال ألعاب الصبَا الساذجة، وأن يُبديا حتى بألفتهما نقاءً لهوهِما، وأخيرًا، إذا ما تزوجَ هذا الشباب اللطيف وتبادل الزوجان بواكير ذاتهما، زاد كلُّ منهما عزًّا لدى الآخر، وتعدو كثرةُ الأولاد الأصحاء الأقوياء عربون قرانٍ لا يُفسده شيء، وثمرة حكمةٍ بينهما الأولى.

وإذا كانت السنُّ التي يكتسب الإنسان فيها شعورًا بجنسه تختلف بفعل التربية اختلافًا بفعل الطبيعة، فإنه ينشأ عن هذا إمكانُ تعجيلِ هذه السنِّ وتأخيرها على حسب الطريقة التي يُنشأ بها الأولاد، وإذا كان البدن يَكسب أو يخسرُ صلابةً كلما عُجِّلَ هذا التقدم أو عُوق، فإن الذي يُستنتج من ذلك أيضًا هو أنه كلما سعيَ في تعويقه نال الفتى بأسًا وقوة، ولا أزال أتكلم عن النتائج البدنية، وسيرى عما قليل أنها لا تقتصر على ذلك.

وأستخرجُ من تلك التأمُّلات حلَّ المسألة الآتية التي أثرت كثيرًا، وهي: هل يلائم تنوير الأولاد باكراً حول موضوعات فضولهم، أو هل الأفضل أن يُخادعوا بتمويهات ذات حشمة؟ أرى ألا يُؤتى هذا ولا ذلك، وذلك أولاً، أن هذا الفضول لا يأتيهم من غير أن يُفسح له في المجال؛ ولذا يجب أن يُصنع ما لا يكون لهم معه هذا المجال. ثانياً: إن ما نحن غيرُ ملزمين بحلِّه من الأسئلة لا يستلزم مخادعةً من يطرُحها، والأفضل أن يُقابل بالسكوت من أن يُجاب عنها بالكذب عليه، وهو لن يُدهش من هذه السنَّة إذا ما غنيَ بإحضاره لها في الأمور التي يُؤبِّه لها، وأخيراً إذا ما التزم جانبُ الجواب فليكن هذا بأقصى البساطة وبلا غموضٍ ولا ارتباكٍ ولا ابتسام؛ فالخطرُ أقلُّ كثيراً في إرواء فضول الولد مما في تحريكه.

ولتكن أجوبتكم دائماً رصينةً قصيرةً حازمة، ومن غير أن يشوئها تردُّدٌ مطلقاً. وليس من الضروري أن أضيف إلى ذلك وجوب كونها صادقة، فلا يُمكن تعليمُ الأولاد خطرَ الكذب على النَّاس من غير أن يُشعرَ من قِبَل النَّاس بخطرٍ أعظم من ذلك في الكذب على الأولاد. ومن نتائج الأكذوبة المؤكدة التي يأتيها المُعلِّم نحو التلميذ أن يُقضى على ثمرات التربية إلى الأبد.

وقد يكون الجهلُ المطلقُ حوَّل بعض الموضوعات أفضلَ ما يلائم الأولاد، ولكن ليعلموا باكراً ما يستحيل كتمه عنهم دائماً. ومما يجبُ ألا يستيقظ فضولهم بأيِّ وجهٍ كان أو أن يُقضى قِبَل السنِّ التي يكون خطراً فيها. ويتوقف سلوككم نحو تلميذكم كثيراً على وضعه الخاصِّ وعلى المجتمعات التي تحيط به، وعلى الأحوال التي يُبصرُ إمكانُ وجوده فيها... إلخ. والمهم هنا ألا يُترك شيءٌ للمصادفة، وإذا لم تظمنوا إلى جعله يجهلُ الفرقَ بين الجنسين حتى السادسة عشرة من سنه فاعنوا بأن يتعلَّمه قبل العاشر من عُمره.

ولا أحبُّ أن يُتَّخَذَ مع الأولاد لساناً مُمَحَّصٌ كثيراً، ولا أن تُستعملَ موارباتٌ طويلةٌ يُبصرونها لكيلاً تُطَلَّقَ على الأشياءِ أسماؤها الحقيقية، فلأخلاق الصالحة في هذه الموادِّ بساطةٌ بالغةٌ دائماً، ولكن الخيالات الملوثة بالمنكر تجعل الأذن مُرهفة، فنلزمنا بتمحيص تعابيرنا بلا انقطاع، ولا حاصل للألفاظ الغليظة؛ فالأفكار الداعرة هي ما يجب أن يُقصى.

ومع أن الحياءَ طبعيٌّ في النوعِ البشري، فإنه ليس طبعيًّا في الأولاد، وذلك أن الحياءَ لا يُؤلِّدُ إلا مقروناً بمعرفة السوء، وكيف يكون لدى الأولاد الذين ليست لديهم هذه المعرفة أو لا ينبغي أن يحوزوها، ذاك الحسنُ الذي ليس غيرَ نتيجةٍ لها؟ ينطوي إعطاؤهم دروساً في الحياءِ والحشمة على تعليمهم وجودَ أمورٍ شائنةٍ فاحشة، ينطوي على تلقينهم رغبةً خفيةً في معرفة هذه الأمور، وسيُعرفون هذا عاجلاً أو آجلاً، ومن شأن الشرارة الأولى التي تَمَسُّ الخيالَ أن تُعَجِّلَ اشتعال الحواسِّ لا ريب، واحمرارُ الوجه دليلُ الذُّنب، ولا تستحي البراءة الحقيقية من شيء.

وليس عند الأولاد ما عند الرجال من توفات، ولكن بما أنهم مثلهم عُرضةٌ للدنس الضارِّ بالحواس، فإنهم يستطيعون بفعل هذا القسْرِ أن يتلقَّوا عينَ الدروس في اللياقة، وأنجسوا روح الطبيعة التي تضع في ذات المكان أعضاء اللذات الخفية وأعضاء الحاجات الكريهة، فتوحي إلينا بعين العنايات في مختلف أدوار الغُمر، توحي عن هذه الفكرة تارةً وعن تلك تارةً أخرى، توحي إلى الرجل عن حياءٍ وإلى الولد عن نظافة.

ولا أجد غيرَ وسيلةٍ واحدةٍ لحفظ طُهر الأولاد، وهي أن يحترمهم ويُحبِّهم جميعَ مَنْ يحيطون بهم، وإن لم يكن هذا نُقْضَ عاجلاً أو آجلاً كلُّ جُهدٍ يُبدلُ إمساكاً لهم، فلهم في الابتسام والنظرة والحركة الخاطفة قولٌ حول كلِّ ما يُحاوَلُ إخفاؤه عنهم، وكفي لتعلمهم إياه أن يُرى أنه يُراد إخفاؤه عنهم. وبما أن ما يستعمله المهذبون من جُمَلٍ وتعابيرٍ فيما بينهم يفترض ما ينبغي وجوده بين الأولاد من معارف، فإنه لا يكون له محلٌّ معهم، ولكن بساطتهم إذا ما أُكْرِمَتْ حقاً سهَّلَ علينا أن نجد في مخاطبتهم من الجُمَلِ ما يلائمهم. وتجد سداجةً في اللغة التي تلائم العفافَ وتروقه، وهذه هي اللهجة الحقيقية التي تصدُّ الولدَ عن الفضولِ الخطر، والولدُ إذا ما كُلمَ عن كلِّ شيءٍ ببساطةٍ لم يُترك له ما يتصوَّر معه بقاء شيءٍ لم يُحدِّث عنه، وإذا ما أُضيفت إلى الألفاظ الغليظة أفكارٌ غيرُ مستحبةٍ ملائمةٍ لهم أطفئت شعلة خيالهم الأولى، وهو لا يُمنع من النطق بهذه الكلمات ومن حيازة هذه الأفكار، ولكنه يُلَقِّنُ من حيث لا يدري كراهةً تذكُّرها، وما أكثر الارتباك الذي يوقرُّ على أولئك الذين يتكلمون عن فؤادٍ دائماً فيقولون الصدقَ ويُعربون عنه كأنهم شاعرون به!

«وكيف يُصنع الأولاد؟» هذا سؤالٌ مُحيرٌ يعرضُ للأولادِ طبيعة، وعلى الجوابِ عنه بطيشٍ أو برصانةٍ يتوقفُ أحياناً أمرٌ صحَّتهم وأمرٌ خُلُقهم مدى حياتهم، وأقصرُ طريقٍ تتصوَّره الأمُّ للخلاصِ منه من غيرِ أن تُخادعَ ابنها هو أن تفرِّضَ السكوتَ عليه، ويكون هذا حسناً إذا ما عُوِّد ذلك في المسائلِ التي لا أهميةَ لها، ولم يَرِ سرّاً في هذه اللهجةِ الجديدة، ولكن من النادرِ أن تقفَ الأمُّ هناك، فستقول له: «هذا سرٌّ بين المتزوجين، ولا يجوزُ للأولادِ أن يكونوا ذوي فضولٍ بهذا المقدارِ مطلقاً». أجل، إن هذه وسيلةٌ حسنةٌ لخلاصِ الأمِّ من الورطة، ولكن لتعلمِ الأمُّ أن الولدَ إذ يُنخزَ بهذا الرِّجْرِ لا يهدأُ له بالٌ قبل أن يَعْرِفَ سرَّ المتزوجين، فلا يلبثُ أن يَعْرِفه.

وليُسمِّح لي بأن أذكرَ جواباً مخالفاً تماماً لما سمعتُ عن ذاتِ السؤال، فكان له أثرٌ كبيرٌ في نفسي ما صدرَ عن امرأةٍ ذاتِ اتضاعٍ في الكلامِ والأوضاع، ولكن مع معرفتها عند الضرورة أن تنظرَ إلى خيرِ ابنها وإلى الفضيلة، فتدوسُ كلَّ خوفٍ زائفٍ من اللوم، وكلَّ كلامٍ فارغٍ يصدرُ عن الماجنين، ولما يمضي زمنٌ طويلٌ على وقتِ رمي الولدِ في البولِ حجراً كان قد خدشَ إحليله، ولكن العارضُ زال ونُسي. ويسألُ الولدُ الطائشُ أمه: «كيف يُصنع الأولادُ يا أمّاه؟» وتجبُ الأمُّ بلا تردُّدٍ: «أي ولدي! إن النساءَ يَبْلُنُهُنَّ بمشقةٍ قد تُودي بحياتهنَّ أحياناً». ودَعُوا المجانين يضحكون والأغبياءَ يغتاطون، ولكن دَعُوا الحكماءَ يبحثون ليروا هل يجدون جواباً أكثرَ صواباً من هذا وأعظمَ إيصالاً إلى غاياته.

وفي البُداءةِ تُحوَّلُ فكرةُ الاحتياجِ الطبيعيِ المعروفةِ لدى الولدِ فكرةَ الغموضِ فيه، وتُعطِّي أفكارَ الألمِ والموتِ اللاحقةَ تلكَ الفكرةَ بسترٍ من الغمِّ يُضعفُ الخيالَ ويُردِّعُ الفضولَ، وكلُّ شيءٍ يصرفُ الذهنَ إلى نتائجِ الولادة لا إلى عللها، وتكون آفاتِ الطبيعةِ البشريةِ والأمورِ الكريهةِ وأشكالِ الألمِ هي ما يُلقِي هذا الجوابَ نوراً عليه إذا كان ما يُوحى به من اشمئزازٍ يسمحُ للولدِ بأن يسألَ عنها، وبأيةِ وسيلةٍ تكون لهم الرغائبُ فرصةَ الظهورِ بالأحاديثِ التي تُوجِّهُ هكذا؟ وتزوُّن مع ذلك كَوْنُ الحقيقةِ لم تُحرِّفْ قط، وأنه لم يُحتجِ قطُّ إلى مخادعةِ التلميذِ بدلاً من تعليمه.

وأولادكم يقرءون، وهم ينالون بالقراءة معارفَ ما كان ليكسيوها بلا قراءةٍ مُطلقاً، وهم إذا ما درَسوا اشتعل خيالهم وأرهِفَ في صَمَمَتِ الغرفةِ، وهم إذا ما عاشوا بين النَّاسِ سَمِعُوا رطانةً غريبةً ورأوا أمثلةً تقفُ أبصارهم، وذلك أنه بُلِّغَ من إقناعهم بأنهم من الرجال ما يبحثون معه حالاً، في كلِّ شيءٍ يفعلهُ الرجالُ أمامهم، كيف يُمكنُ هذا أن يلائمهم، وذلك أنه يجبُ أن تُصلحَ أعمالَ الآخرين نموذجاً لهم حينما تُصلحَ أحكامَ الآخرين لهم قانوناً، ومن الخدم الذين يُجعلون تابعين لهم؛ ومن ثمَّ

يُعون بأن يروقوهم، مَنْ يَرْدَلِفون إليهم على حساب الأخلاق الحسنة، ومن المُربيات الضواحك مَنْ يُحدِّثُهم وهم في الرابعة من سنّهم، بأمورٍ لا يجرؤ أشدُّ النساءِ مُجُونًا أن يُحدِّثنَ بها مَنْ هم في الخامس عشر من عُمرهم، ولسرعان ما ينسين ما قُلنّه، ولكنهم لا ينسون ما سَمِعوا، وتُعَدُّ الأحاديثُ الداعرةُ فاجرَ الأخلاق، والخدام الخبيث يجعل الولد فاسقًا، ويضمن سرُّ أحدهما سرَّ الآخر.

والولد الذي يُنشأ وفق سنّه وحيد، وهو لا يَعْرِف غير روابط العادة، فيُحبُّ أخته كما يحبُّ ساعتها، ويحبُّ صديقه كما يحبُّ كلبه، وهو لا يشعر بجنس ولا نوع، ويكون الرجل والمرأة غريبين عنه على السواء، وهما لا يُقَصِّان عليه شيئًا مما يصنعان ولا مما يقولان، وهو لا يرى ذلك ولا يسمعه، وهو لا ينتبه إليه مطلقًا، وهو لا يبالي بكلامهما ولا بأمثلتهما، فجميع هذا لم يُصنَع من أجله قط، وليس ما يُمنحه بهذا المنهاج خطأً مصنوعًا، بل جهل الطبيعة، ويأتي الوقت الذي تُعنى فيه عين الطبيعة بتنوير تلميذها، وهنالك فقط تجعله في حالٍ يستفيد معها بلا خَطَرٍ من الدروس التي تُلقِيها عليه، والمبدأ هو ألا يكون تفصيلُ القواعد من موضوعي، وتنفَع الوسائل التي أُقترح نظرًا إلى الموضوعات الأخرى مثالًا لهذا أيضًا.

وإذا أردتم أن يكون النظام والقانون سائدين للأهواء الناشئة، فأطيلوا دَوْرَ نُموّها، وذلك ليكون لديها من الوقت ما تتسق معه كلُّما بَرَزَتْ إلى الوجود، وهنالك لا يكون الإنسان هو الذي يُنظِّمها، بل الطبيعة نفسها. ولا يكون ما تُعْتنون به غيرَ تَرْكِها تُنظِّم عملها، وإذا ما كان تلميذكم وحيدًا لم يجب عليكم أن تفعلوا شيئًا، ولكنَّ كلَّ ما يُحيطُ به يُلهِبُ خياله، ويجرُّه سيلُ المُبتَسرات، ولا بُدَّ من دفعه إلى الجهة المعاكسة إمساكًا له، ويجب أن يُقَيِّدَ الشعور الخيال، وأن يُسَكِّتَ العقلُ رأيَ النَّاسِ، والحسَّاسيةُ مصدرُ جميعِ الأهواء، والخيالُ يُعَيِّنُ مَيْلها، وكلُّ مخلوقٍ شاعرٍ بصِلاته يَجِبُ أن يرتبك عند اختلال هذه الصلات وعند تصوُّره، أو ظنّه أنه يتصوَّرُ ما هو أكثرُ ملاءمةً لطبيعته، وأضاليلُ الخيال هي التي تُحوِّلُ إلى معايِبِ أهواءِ جميعِ المخلوقات المحدودة، حتى الملائكة إذا ما كانوا ذوي أهواء؛ وذلك لأن من الواجب أن يَعْرِفوا طبيعة جميع الموجودات ليعْرِفوا أيُّ الصلات أكثرُ ملاءمةً لهم.

وإليك إذن خلاصة الحكمة البشرية من حيث استعمال الأهواء:

(١) الشعور بصلات الإنسان الحقيقية في النوع وفي الفرد.

(٢) تنظيم جميع عواطف النفس وفق هذه الصلات.

ولكن هل الإنسان مسيطرٌ على تنظيم عواطفه وَفَقَّ هذه الصلات أو تلك؟ لا ريب إذا كان سيد تنظيم خياله حول هذا الموضوع أو ذلك، أو حول منحه هذه العادة أو تلك، ثُمَّ إننا نكون هنا أقلَّ أكرثاً لما يستطيع الإنسان أن يفعل في نفسه مما نقدر على فعله في تلميذنا باختيار الأحوال التي نجعله فيها، ويعني عرضُ الوسائل الخاصة بالبقاء ضمن نظام الطبيعة بياناً كافياً للوجه الذي يُمكنُ الخروج به منه.

ولا يُوجدُ أدبٌ لأفعاله ما بقيت حساسيته مقصورةً على شخصه، ومتى أخذت تمتدُّ إلى خارج نفسه فازت في البُداءة بالمشاعر وبمبادئ الخير والشرِّ التي تجعله حقاً إنساناً وجزءاً متمماً لنوعه، فعلى هذه النقطة الأولى يجبُ تثبيتُ ملاحظتنا في بدءِ الأمر.

وهذه الملاحظات صعبةٌ من حيث إن إتيانها يتطلَّبُ طرح الأمثلة التي تكون تحت عيوننا، والبحث عن الأمثلة التي يتمُّ نموُّها المتعاقب وَفَقَّ نظام الطبيعة.

وما كان الولدُ المُهدَّبُ المؤدَّبُ المتمدن، الذي لا ينتظر غيرَ القدرة على استعمال ما تلقاه من معارفٍ بكُور، ليُخدعَ مطلقاً حول الوقت الذي تأتي فيه هذه القدرة بغتة. ومن البعيد أن ينتظر هذا الولد ذلك الوقت؛ فهو يجعله، وهو يُثير دمه قبل الأوان، وهو يَعْرِفُ ما يجبُ أن يكون موضوع رغائبه، حتى قبل أن يُحسَّها بزمنٍ طويل. وليست الطبيعة هي التي تُحرِّكها، وإنما هو الذي يُكرِّهها، وهي إذ تجعله رجلاً لم يبقَ لديها ما تُعلِّمه إياه، وهو قد كان بالفكر رجلاً قبل أن يكونه فعلاً بزمنٍ طويل.

ويكون سيرُ الطبيعة الحقيقيُّ أعظم تدرُّجاً وأشدَّ بطؤاً، ويشتعَل الدم مقداراً فمقداراً، وتنضج النفوس، ويتكون المزاج، ويُعنى العامل العاقل الذي يُدير المصنع باتقان جميع آلاته قبل استعمالها، ويتقدم المُنَى الأولى همَّ طويل، وتُخادعُ بجهلٍ طويل، ويُرغَب من غير أن يُعرف فيم يُرغَب، ويفور الدم ويثور، ويحاول فيضٌ من الحياة أن يمتدَّ إلى الخارج، وتستحِرُّ العين وتجوِّب المخلوقات الأخرى، ونبدأ بالاكتراث لمن يحيطون بنا، ونأخذ في الشعور وبأننا لم نُخلَقْ لنعيش وحدنا، وهكذا فإن الفؤاد يفتتح للعواطف الإنسانية ويُصبح أهلاً للحب.

والصدقة - لا الحُبُّ - هي الشعور الأوَّل في الشابِّ الذي يُعنى بتنشئته، وأوَّل عملٍ لخياله الناشئ هو تعليمه وجود أمثالي له، والنوع يُؤثِّرُ فيه قبل الجنس، وإليك إذن فائدةٌ أخرى للطَّهر المُطال، وذلك أن يُستفاد من الحساسية الناشئة لثلقى في قلب المراهق بذور الإنسانية الأولى، وهذه الفائدة هي أعظم ما يكون؛ وذلك لأن ذاك هو زمنُ حياته الوحيد الذي يُمكن أن يُكتَبَ النجاح الحقيقيُّ فيه لتلك الجهود.

وقد رأيت دائماً أنَّ الشُّبَّانَ الفاسدين باكراً والمنهمكين في الدعارة والنساء، كانوا قُساةً جافين، وكان هياج المِزاج يجعلهم فاقدى الصبر محبين للانتقام غَضاباً، وكان خيالهم المملوء شيئاً واحداً يرفض كلَّ شيء ما خلا هذا الشيء، وكانوا لا يَعْرِفون رَأْفَةً ولا رحمة، وكانوا مستعدين للتضحية بالأب والأم وبجميع النَّاسِ في سبيلِ أقلِّ ملاذِّهم. وعلى العكس، ترى الشَّابَّ النَّاشئ في بساطةٍ سعيدةٍ محمولاً بحركات الطبيعة الأولى نحو رقيق الأواء وودودها، ويتحرَّك فؤاده الحنون عند كروب أمثاله، ويهتُّ سروراً عند استقبال رفيقه، وتعرف ذراعاه أن تجدا عناقاً رقيقاً، وتعرف عيناه أن تدرفا دموعَ حنان، وهو يعلم أن يأسف على إساءته الآخرين بخجله من كَدْرِ أوجهه، وإذا كانت حرارة الدم التي تشتعل تجعله نشيطاً نَرَقاً غضوباً، فإنه يُبصرُ بعد حين تجلِّي رقة قلبه الطبيعية في حماسة توبته، وهو يبكي ويئنُّ عن جَرَحِ أوجهه، وهو يودُّ لو يفتدي بدمه ما سكب من دم، ويهدأ فائزُه ويتَّضح تجرُّبه أمامَ شعوره بخطئه، وإذا ما أُسيء إليه، وكان في سورة حدِّته، سكن عنه الغضب باعتذارٍ أو بكلمة، وهو يعفو عن سيئات الآخرين بسلامة القلب التي يُصلح بها سيئاته، وليست المراهقة سِنَّ الانتقام ولا سِنَّ الحقد، بل سِنَّ الرحمة والشفقة والكرم. أجل، إنني أدَّعي، ولا أخاف أن تُكذِّبني التجربة، بأنَّ الولد الحسن المنبت والذي يحافظ على طهره حتى العشرين من عُمره يكون في هذا السنَّ أكرم النَّاسِ وأصلحهم، وأشدهم حُباً إليهم وأقربهم مودةً إلى قلوبهم، ولم تُحدِّثوا بمثل هذا قط، وهذا الذي أعتقد جيِّداً، وهذا ما غَفَلَ عن معرفته فلاسفتكم الذين نُشِّتوا على ما في المدارس من فساد.

وضعف الإنسان هو الذي يجعله أنيساً، وأبؤسنا المشتركة هي التي تحمل أفئدتنا إلى الإنسانية، ولو لم نكن أناساً ما كُنَّا مدينين للإنسانية بشيء، وكلُّ عطفٍ دليلٌ على نقصاننا، ولو لم يكن كلُّ واحدٍ مِنَّا محتاجاً إلى الآخرين بشيء ما عرَّ له أن يتَّحد بهم، وهكذا، فإن سعادتنا الواهنة تنشأ عن نقصنا، ويكون الموجود السعيد حقاً موجوداً معتزلاً، والله وحده هو الذي ينعم بسعادةٍ مطلقة، ولكن مَنْ ذا الذي يخطر بباله معنى هذا؟ وإذا ما استطاع الموجود النَّاقص أن يكفي نفسه بنفسه، فبِمَ يتمتَّع على ما نرى؟ هو يكون وحيداً، هو يكون بائساً، ومما لا أتصوره قدرةً الذي لا يحتاج إلى شيء على حُبِّ شيء ما، ولا أتصور قدرةً مَنْ لا يُحِبُّ شيئاً أن يكون سعيداً.

ومن ثمَّ يكون ارتباطنا في أمثالنا بحسِّ ملاذِّهم أقلُّ مما بحسِّ أحزانهم؛ وذلك لأننا نكون هنالك أحسن تمييزاً لوحدة طبيعتنا ولضمانات حُبِّهم لنا، وإذا كانت احتياجاتنا المشتركة تُوحِّد بيننا عن مصلحة، فإن أبؤسنا المشتركة تُوحِّد بيننا عن محبة، وذلك أن منظر الرجل السعيد يوحي

بالحسد أكثر مما بالحُب، وأنه يُتَّهَمُ طوعاً بسلبه حقاً ليس له بجعله نفسه سعيداً حَصْرًا، وذلك إلى أن أنانيَّتينا تتأدَّى إذ تُشعُرنا بأن ذلك الرجل غير محتاجٍ إلينا قطعاً، ولكن من ذا الذي لا يتوجَّع للتعس الذي يرى ألمه؟ ومن ذا الذي لا يريد إنقاذه من ويلاته ولو بالتمني؟ فالخيال يضعنا في مكان البائس أكثر من وضعه إيانا في مكان الرجل السعيد، فنشعر بأن إحدى هاتين الحالين تمسُّنا عن كُتْبٍ أكثر من الأخرى، وتنطوي الشفقة على حلاوة، وذلك أننا إذ نجعل أنفسنا في مكان الذي يألم نشعر مع ذلك بلدَّة عدم الألم مثله، والحسد أليم، وذلك أن منظر الرجل السعيد إذ يبعد من جعله الحاسد في مكانه يورثُ أسف عدم كونه إياه، ويظهرُ أن أحدهما يُعفينا من الآلام التي يقاسيها، وأن الآخر ينزع منَّا النعم التي يتمتع بها.

وإذا ما أردتم إذن أن تُثيروا في فؤاد الفتى أولى حركات الحس الناشئة وتغدُّوها، وأن تُحوِّلوا سجيته نحو الخير والصلاح، فلا تبدروا فيه الكبرياء والزهو والحسد بصورةٍ خادعةٍ عن سعادة النَّاس، ولا تعرِّضوا على عينيه في البداءة أبهة البلاطات وبذخ القصور وجذب المجالي، ولا تطلبوا له النزهة في الأندية ولا في المجالس البرَّاقة، ولا تُرُوه ظاهرَ المجتمع الكبير إلا بعد أن تجعلوه في حالٍ يستطيع معها أن يُقدِّره بنفسه، ولا يؤدي إطلاعه على العالم قبل أن يَعْرِفَ الرجال إلى تكوينه، بل إلى إفساده، ولا ينطوي على تعليمه، بل على إغوائه.

ومن الطبيعيّ ألا يكون النَّاس ملوكًا ولا كبراء ولا بطانين ولا أغنياء، فالجميع يُولدون غُرَّةً فقراء، والجميع عُرضَةٌ لأبؤس الحياة، وللكروب والآلام والحاجات والأوجاع من كلِّ نوع، وأخيرًا يُقضى على الجميع بالموت، وهذا هو الحقُّ عن الإنسان، وهذا الذي لا ينجو منه إنسان، ومن طبيعة الإنسان ابدءوا إذن بدراسة ما لا ينفصل، وهذا هو أفضل ما تتألف الإنسانية منه.

والمراهقُ في السادسة عشرة من سنيه يَعْرِفُ ما الألم؛ وذلك لأنَّه أَلِمَ بنفسه، ولكنه لا يَكادُ يَعْرِفُ أنَّ الخلائق الآخرين يألمون أيضًا، وليست الرؤية بلا حسٍّ معرفة، والولدُ - كما قلتُ مائة مرة - إذ لا يتصوَّر ما يُحسُّه الآخرون لا يَعْرِفُ غيرَ كُروب نفسه، ولكن إذا ما أشعل أولُ نموِّ في حواسِّه نارَ الخيال بدأ يُحسُّ نفسه في أمثاله، ويضطرب من أوصابهم ويألم من آلامهم، وهنالك يجبُ أن تحمِل صورةَ الإنسانية المكروبة إلى قلبه أوَّل ما يُحسُّ من حنان.

وإذا كان من غير السهل أن تلاحظوا تلك الحال في أولادكم، فمن تلومون على ذلك؟ أنتم تُعلِّمونهم هزَّ الإحساسِ باكراً، وأنتم تُعلِّمونهم لغتهم حالاً، وأنتم إذ تُكلِّمونهم بدات اللهجة دائماً تجدونهم يُحوِّلون دروسكم ضدكم، فلا يتركون لكم أية وسيلةٍ تميزون بها وقت انقطاعهم عن

الكذب من شعورهم بما يقولون، ولكن لينظرُ إلى إميل في السنّ التي سُقته إليها حيث لا يشعر ولا يكذب؛ فهو لا يقول لأحد: «أحبك جيداً» قبل أن يعرف ما الحب، وهو لا يعرف أي هيئة يجب أن يتخذ حين دخوله غرفة أبيه أو أمه أو معلّمه المريض، وهو لا يُطلع على فن إظهار حزن لا يكون عنده، وهو لا يُظهر بكاءً لموت أحد؛ وذلك لأنه لا يعرف ما الموت، وترى ذات عدم الإحساس الذي في فؤاده بادياً في أوضاعه، وهو إذ لا يكثرث لشيء خارج نفسه كبقية الأولاد، فإنه لا يلتفت إلى أحد، ويقوم كل ما يميزه على رغبته عن الظهور مبالياً بأحد، وعلى كونه دون الآخرين خداعاً.

وبما أن إميل قليل التفكير حول المخلوقات الحساسة، فإنه لا يدري ما الألم ولا الموت إلا متأخراً، ويأخذ العويل والصراخ في تحريك أحشائه، ويؤدّي منظر الدم المسفوك إلى تحويل عينيه، وثورته تشنجات الحيوان المُشرف على الموت ألماً نفسياً، ما أقول، قبل أن يعرف مصدر هذه الحركات الجديدة، ولو بقي غيباً جافياً ما عرضت له، ولو كان متعلماً لعرف أصلها؛ فهو قد أكثر من المقابلة بين الأفكار ما يُحسُّ معها، ولكن ليس بما فيه الكفاية حتى يعرف ما يُحس.

وهكذا تولّد الشفقة، يولّد هذا الشعور النسبي الذي يمسُّ القلب البشري وفق نظام الطبيعة، ويجب ليصير الولد حساساً رءوفاً أن يعرف وجود أناس مماثلين له يألمون كما يألم ويحسُّون ما يُحسُّ من الآلام، ووجود آخرين يجب أن تكون له فكرة عنهم كأناس يستطيع الشعور بهم أيضاً، والواقع كيف ندع أنفسنا تتحرك بالشفقة إذا لم تنتقل خارج أنفسنا، ونتحد بالحيوان الذي يألم تاركين وجودنا يتناول وجوده؟ فنحن لا نألم إلا بحكمنا أنه يألم، ونحن نألم ضمّنه، لا في أنفسنا، وهكذا لا يصير أحد حساساً إلا عند تحرك خياله وأخذه في الانتقال خارج نفسه.

وما علينا أن نصنع إذن لتحريك تلك الحاسية الناشئة وتغذيتها وتوجيهها أو اتّباعها في ميولها الطبيعية إذا لم يكن تقديمنا إلى الفتى أموراً يُمكن أن تؤثر في قوة فؤاده التوسّعية، فتمدّده وتبسّطه على موجوداتٍ أخرى وتجعله خارج نفسه، وإذا لم يكن إبعادنا منه بعناية أموراً تُضيقه وتجمعه في مركز واحد، وتشدُّ نابض الذات البشرية، وإن شئت فقل: إثارتنا فيه الصلاح والإنسانية والرحمة، وحبّ الخير، وجميع الأهواء الجذابة الحلوة التي تروق النَّاس بحكم الطبيعة، والتي تحوّل دون ظهور الحسد والطمع والحقد وجميع الأهواء الكريهة الجافية؛ أي هذه الأهواء التي تجعل الحساسة سلبيةً فضلاً عن كونها لاغية، وتورث من يُتلى بها كزياً؟

وأرى أنه يُمكنني تلخيص جميع التأمّلات السابقة في مبدئين أو ثلاثة مبادئ صريحة واضحة يسهل إدراكها.

المبدأ الأول

ليس من مقتضى القلب البشري أن نضع أنفسنا في مكان من هم أسعد منّا، وإنما تقضي الطبيعة البشرية بأن نجعل أنفسنا في محل من يستدعون رحمتنا.

وإذا ما وُجدت استثناءات لهذا المبدأ كانت في الظاهر أكثر مما في الحقيقة، ومن ذلك أننا إذا ما وضعنا أنفسنا في مكان الغني أو العظيم الذي نلزمه لم نتحلّ غير جزء من نعيمه، ولو كنّا صادقين في ملازمته، وهو يُحبُّ في مصائبه أحياناً، ولكنه إذا ما أيسرَ لم يكن له في أثناء يسره صديقٌ حقيقيٌّ غير من لم تعرّه الظواهرُ ومن يرثي له أكثر من أن يحسده على الرغم من يسره.

ومما يؤثر في النفس ما يكتنف بعض الأحوال من سعادة، كالحياة الريفية والرعاية مثلاً، ولا يُسمّم الحسدُ مطلقاً فتون مشاهدة هؤلاء الناس السعداء الصالحين الذين يلتفت إليهم حقاً، ولم هذا؟ ذلك لأن الإنسان يشعر بقدرته على الهبوط إلى هذه الحال من الهدوء وسلامة الطوية، وعلى التمتع بعين السعادة، وذاك بلائاً لا يمنح غير أفكارٍ مُستحبة ما دامت إرادة التمتع بها تكفي للقدرة عليه، ومما تطيب به النفس دائماً أن ترى مواردها وأن تُنعم النظر في مالها الخاص، حتى عند عدم الرغبة في الانتفاع به.

ومن ثمّ ترى أن حمل الفتى على الإنسانية يستلزم إطلاعها عليها من النواحي الكنيية، وجعله يخشاها مع البعد من جعله يُعجب بنصيب الآخرين الباهر، وهكذا فإن من النتائج الواضحة وجوب شقه طريقاً إلى السعادة غير مُقتنف آثاراً أحدٍ.

المبدأ الثاني

لا نألم في الآخرين لغير البلى التي لا نعتقد إعفانا منها؛ «وذلك لأنني بلوث الشقاء الذي أعرف وروده بمساعدة التعساء.»

ولا أعرف ما يعدل هذا القول روعة وعمقاً وتأثيراً.

ولم يكون الملوكُ خالين من الرحمة نحو رعاياهم؟ ذلك لأنهم لا يتوقعون أن يكونوا من الناس، ولم يكون الأغنياء بالغي القسوة تجاه الفقراء؟ ذلك لأنهم لا يخشون أن يُصبحوا من الفقراء، ولم يكون الأشرافُ كثيري الازدراء للعوام؟ ذلك لأن الشريف لن يكون عامياً، ولم يكون الثركُ أكثر مناً رفقا وقرى على العموم؟ ذلك لأن عظمة الأفراد وثروتهم في حكومتهم المُرادية

تمامًا؛ إذ تكونان زائلتين مذبتين دائمًا، فإنهم لا يُعدُّون الخفضَ والبؤسَ غريبين عنهم^٣ مطلقًا، فيمكن كل واحدٍ أن يُصبح في الغد ممن يتصدَّق عليهم اليوم، فهذا التأمل المُكرَّر كثيرًا في القصة الشرقية يُنعم عليهم برقةٍ لا توجد في أدبنا الجاف.

ولذا لا تُعوِّدوا تلميذكم أن ينظر من أعلى مجده إلى كُروب العساء وأعمال البائسين، ولا تأملوا تعليمه أن يتوجَّع لهم إذا ما عدَّهم غرباء عنه، واجعلوه يُدرك أن مصيره قد يكون مثل مصير هؤلاء المكروبين، وأن جميع بلاياهم تحته، فيمكن ألفَ حادثةٍ مفاجئةٍ محتومةٍ أن تجعله يغطس فيها بين حينٍ وحين، وعلموه عدم الاعتمادِ على النَّسبِ وعلى الصحة والنَّسبِ، وأطبعوه على تقلُّبات الطالع، وابتحوا له عن أمثلة كثيرة الوقوعِ دائمةً حول النَّاسِ من أصلٍ أرفعٍ من أصله سقطوا في حالٍ تحت حال أولئك المنكودي الحظ، وليس من موضوعنا الآن أن نُبين كون ذلك نتيجة خطأ اقترفوه أو لا، وإنما نقول: هل يَعْرِفُ ما الخطأ؟ ولا تجوروا على نظام معارفه مطلقًا، ولا تُثيروه بغير بصائر تكون في متناوله؛ فهو لا يحتاج أن يكون بالغ العلم حتى يشعر بأن فطنة الإنسان بكاملها لا تستطيع أن تحييه بأنه سيكون حيًّا أو ميتًا في ساعة واحدة، وأن آلام الكلى الحادة لا تجعله يصرِّف بأسنانه قبل الليل مطلقًا، وأنه سيكون غنيًّا أو فقيرًا قبل مرور شهر واحد، وأن من المحتمل ألا يُجدِّف تحت السُّوط، وقبل مرور عام، في سُفن الجزائر، ومن أخصَّ ما يكون ألا تقولوا له جميع هذا بمثل بُرودة كتابه الديني، وليُصِر، وليُجسَّ مصائب الإنسان، وهزُّوا خياله، وألقوا الرُّعب في هذا الخيال من الأخطار التي تُحيط بكلِّ إنسانٍ على الدوام، ولير جميع هذه المهاموي حوله، ولتصِفوها له حتى يبادر إلى التعلُّق بكم خشيةً السقوط فيها، وستقولون إننا نجعله وجلاً جبانًا، وسنرى فيما بعد، ولكن لنبدأ الآن بجعله إنسانيًا، وهذا هو الذي يهْمُنَّا.

المبدأ الثالث

لا يُقاس ما نُحسُّ من شفقةٍ حول بلاء الآخرين بمقدار هذا البلاء، بل بالشعور الذي نُعيره ممن يألمون به.

لا يُتوجَّع لتعسِّ إلا بمقدار ما نرى من احتياجه إلى التوجُّع له، وما يكون من إحساسٍ بدنيٍّ بآلامنا أضيِّقُ حدًّا مما يلوح، ولكنها تُحمِلنا بالتوجُّع لها حقًّا بالذاكرة التي تجعلنا نُحسُّ

^٣ يظهر أن هذا يتغيَّر قليلاً في الوقت الحاضر؛ فالذي يلوح أن الأحوال تصبح أكثر ثباتًا، وأن الناس يصيرون أكثر قسوة.

دوامها، وبالخيال الذي يُمدُّ مداها إلى المستقبل، وهذا كما أرى من الأسباب التي تجعلنا أشدَّ قسوةً تجاه آلام الحيوان مما تجاه آلام الإنسان، وإن كان من شأن الحساسية المشتركة أن تجعلنا متحدين بالحيوان جوهراً، وما كان لِيَتَوَجَّعَ لحصانٍ حُودِيٍّ في إصْطَبْلِهِ مطلقاً؛ وذلك لأنه لا يُفْتَرَضُ أنه يُفَكَّرُ وهو يأكل علفه في الصُّرَبَاتِ التي تَلْقَاهَا وفيما ينتظره من تعب، وكذلك ما كان لِيَتَوَجَّعَ لضانٍ يُرى وهو يرعى، وإن كان يُعرَفُ أنه سيُذبح عما قليل؛ وذلك لأنه لا يُحَكَّمُ في أنه لا يُصِرُّ مصيره، وإذا ما توسَّعنا في الأمر وجدنا ذات القسوة تجاه نصيب الآدميين؛ فالأغنياء يتعزَّون عما يُورثون الفقراء من ألمٍ بافتراسهم هؤلاء الفقراء أغبياء لا يشعرون بذلك، وعلى العموم أحكمُّ بالقيمة التي يَصْغُ كلُّ واحدٍ في مقابل سعادة أمثاله بالحال التي يلوح أنه يتمثلها عنهم، ومن الطبيعي أن تُعدَّ رخيصةً سعادةً مَنْ يُزْدَرُونَ، ولا تَعْبَوا إذن من حديث السياسيين عن الشعب بازدراءٍ كبير، ومن كون مُعْظَمِ الفلاسفة يُظهِرُ الإنسانَ خبيثاً جداً.

والشعبُ هو الذي يؤلَّفُ النوعَ البشري، ومَنْ ليسوا من الشعب هم من القلة ما لا يستحقون معه أن يُحصَوْا، والإنسانُ هو هو في جميع المنازل، وإذا كان الأمر هكذا، فإن أكثر الطبقات أناساً هي أكثر ما يستحقُّ الاعتبار، وتزول جميع الفروق أمام المفكِّر؛ فهو يرى عين الأهواء وعين المشاعر في الجِلْفِ والرجل المشهور، وهو لا يميِّزُ فيهما غير لغتهما؛ أي غير تكلفٍ خفيفٍ في لهجتهما، وإذا ما وُجِدَ اختلافٌ جوهريٌّ يُفَرِّقُ بينهما كان هذا على حساب أكثرهما رناءً، أجل، إن الشعب يبدو كما هو، وهو ليس محبوباً، ولكن لا بُدَّ لمن هم على المُوضَّعة من التنكُّر، فلو بدَّوا كما هم لاستقبحوا.

ويقول حكماؤنا بوجودِ عينِ المقدارِ من السَّعادةِ والكَرْبِ في جميع الطبقات، وهذا المبدأ هو من الشؤم بمقدار ما يتعدَّ إيجابته؛ وذلك لأنَّ الجميع إذا كانوا متساوين سعادةً فما احتياجي إلى إزعاج نفسي من أجل أيِّ كان؟ وليبقَ كلُّ كما هو عليه، وليعامَلِ العبدُ بسوء، وليألم الغليل، وليهلك الصُّعْلُوك، ولا يوجد ما يَكْسِبون من تغيير حالهم، وهم يَعُدُّون آلامَ الغني، ويُنْتَبِتون بطلانَ ملاذِّه الفارغة، فيا للسفسطة الغليظة! إن آلامَ الغني لا تأتيه من حاله، ولكن من نفسه التي يُسيء استعمالها، وهو إذا كان أكثرَ تَعَسُّاً من الفقير فليس له أن يتوجَّع ما دامت جميع آلامه من صنَّع نفسه، وما دام أمرُ سعادته يتوقَّفُ عليه، غير أن ألمَ البائس يأتيه من الأشياء، يأتيه من قسوة النصيب الشديد الوطأة عليه، ولا تُوجَدُ عادةً قدرةً أن تنزع منه حسَّ التعبِ البدنيِّ والصنِّي والجوع، وما كانت سلامة القلب ولا الحكمة لتَنفَعُ في نجاته من بلايا

حاله، وما رُبُّهُ إِيكَيْتِ من عِلْمِهِ مُقَدِّمًا بأن مولاه سَيَكْسِرُ سَاقَهُ؟ كان يساورُهُ أَلَمٌ إدراكِ الأمرِ قَبْلَ وقوعه فضلًا عن أَلَمِهِ، ومتى صار الشعبُ من الرِّصَانَةِ بمقدار ما نفترض له من البِلاهةِ فما يستطيع أن يَكُونَ على خلاف ما هو عليه؟ وما يستطيع أن يَصْنَعَ غير ما يَصْنَعُ؟ ادْرُسُوا أبناءَ هذه الطبقة تَجِدُوا، مع اختلافٍ في الكلام، أنها ذاتُ ذهنٍ مِثْلِ ذَهْنِكُمْ وأنها أَكْثَرُ منكم حُسْنُ دُوقٍ، وأكْرَمُوا نوعكم إِذْنِ، وقَدَرُوا أنه مؤلَّفٌ من مجموعة شعوبٍ جوهراً، وأنه إذا ما نُزِعَ منها جميعُ الملوكِ والفلاسفةِ فإنهم لا يكادون يَبْدُونَ، وإن الأمور لا تسير إلى أسوأ مما هي عليه، والخلاصةُ هي أن تَعَلَّمُوا تلميذكم حُبَّ جميعِ النَّاسِ، حتى الذين يزدرونهم، وتصرفوا تصرفاً لا يكون معه مكانٌ له في أية طبقةٍ كانت، ولكن مع وجوده فيها جميعاً، وتكلموا أمامه برِقَّةٍ عن الجنس البشري؛ فالإنسانُ لا يَشِينُ الإنسانَ مطلقاً.

فبهذه الطريق وما ماثلها من الطرق، المخالفة التي شُتِّتْ، يُستحسنُ أن يُنْفَذَ في فؤاد المراهق لإثارة أولى حركات الطبيعة فيه، وإنمائه ومَدَّهُ إلى نظائره، وإلى هذا أضيف قولي إن من المهمَّ أن يُخلَطَ بهذه الحركات أقلُّ ما يُمكن من المصالح الشخصية، ولا سِيَّما الرُّهُو والمنافسة وتلك المشاعر التي تَحْمِلُنَا على قياس أنفسنا بالآخرين؛ وذلك لأن هذه المقاييسات لا تتَّمُ من غير حقدٍ ما على الذين ينازعوننا الأفضلية، ولو من حيث تقديرنا الخاص، وهنالك لا بُدَّ من التعامي أو التثُمُّر، والخبثِ أو البَلْه، فلنَجْتَهِدْ في اجتناب هذا التناوب، وسيقال لي إنَّ هذه الأهواءُ البالغة الخطر ستؤلِّدُ عاجلاً أو آجلاً، ولا أنكر هذا؛ فلكلِّ شيءٍ زمانه ومكانه، وإنَّما أقول إنَّه لا ينبغي أن تُساعدَ على الظهور.

وهذا هو روح المنهاج الذي يجب فَرَضُهُ، ولا فائدة من الأمثلة والتفاصيل هنا؛ وذلك لأنه يَبْدَأُ هنا ما لا يُحصَى من تقسيم الأخلاق، فلا يطابقُ المَثَلُ الذي أُورِدَ غير واحدٍ من مائة ألفٍ على ما يُحتمل، وفي تلك السَّنِّ أيضاً تَبْدَأُ في المُعَلِّمِ الماهرِ وظيفَةُ الرقيبِ الفيلسوفِ الذي يَعْرِفُ قَنَّ سَبْرِ القلوبِ بالعمل في تكوينها. وتبينا لا يُفَكِّرُ الفتى في التنكُّر الذي لم يُدْرِكْهُ بَعْدُ يُرَى في ملامحه وعينيه وحركته ما تَلَقَّى من انطباعٍ عن كلِّ موضوعٍ يُعْرَضُ عليه؛ أي إنه يُفَرِّقُ على وجهه جميع حركات روحه، فإذا ما رُصِدَتْ هذه الحركات انتهت إلى البصر بها ثُمَّ إلى توجيهها.

ومما يلاحظُ على العموم كَوْنُ الدم والجروحِ والصُّراخِ والأنينِ وجهازِ الأعمالِ المؤلمةِ وكلِّ ما يَحْمَلُ إلى الحواسِّ موادَّ المَحَنِّ أموراً سريعةً التأثيرِ في جميعِ النَّاسِ إجمالاً، وبما أنَّ فكرةَ الهدمِ أَكْثَرُ تركيباً، فإنَّها دون ذلك تأثيراً، ومن ذلك أن صورة الموتِ تُؤثِّرُ تأثيراً متأخراً وأكثرَ

ضعفًا؛ وذلك لأنه لا أحد يَعْرِفُ ما الموتُ عن تجربة، فلا بُدَّ من رؤية الجُثثِ حتى يُشعرَ بشدائد المُحتَضرين، ولكن هذه الصورة إذا ما تكوّنت في ذهننا مرّةً لم يُوجد ما هو أفضح من هذا المنظر في أعيننا، وذلك بسبب فكرة الهدمِ الشاملِ التي تثيرها بواسطة الحواس، أو لأن الإنسان يعلم أن هذه الساعة تأتي جميع النَّاس حتمًا فيكونُ بالغِ التأثرِ من حالٍ يَعْتَقِدُ عجزه عن الإفلات منها.

أجل، إنَّ لهذه الانطباعات المختلفة تحوُّلاتها ودرجاتها التي تتوقَّف على طَبَعِ كلِّ فردٍ وعلى سابق عاداته، غيرَ أنَّها عامَّةٌ ولا يُستثنى منها أحدٌ تمامًا، ومنها ما يأتي متأخرًا ويكون أقلَّ عمومًا فيلثم النفوس الحساسة، وتكون تلك الانطباعات نتيجة كُروبٍ أدبيةٍ وآلامٍ باطنيةٍ وأحزانٍ وذبولٍ وعمِّ، ومن النَّاس مَنْ لم يُحرِّكوا بغير الصُّراخ والبكاء، وما كان الأنيبُ الطويلُ الأصمُّ الصادرُ عن فؤادٍ مُنقبضٍ ضيقًا لينزعَ منهم تأوُّها، وما كان منظرُ موعوكٍ ووجهِ شاحبٍ مُرصَّصٍ وعينٍ مُنطفئةٍ عاجزةٍ عن البكاء لئيبكهم؛ فالآلام النفس ليست شيئًا بالنسبة إليهم، وهم يَرْتُونها، ولا تُشعرُ نفسُهم بشيءٍ منها، ولا تنتظروا منهم غيرَ صلابةٍ لا تنشي غيرَ قسوةٍ وغلظةٍ. ومن الممكن أن يكونوا أعقَاءَ منصفين، لا رُحماء كرماء شفيقين، وأقول إنَّ من الممكن أن يكونوا منصفين إذا كان الإنسان قادرًا أن يكون منصفًا من غير أن يكون راحمًا.

ولكن لا تبادروا إلى الحكم في الفتيان وُفقَ هذه القاعدة، ولا سيَّما الذين نُشئوا كما ينبغي أن يكونوا؛ فليس لديهم أية فكرة عن الآلام الأدبية التي لم يُحمَلوا على اختبارها مطلقًا؛ ولأنَّهم كما أقول مُكْرَّرًا لا يستطيعون أن يتوجَّعوا لغير ما يَعْرِفون من آلام، ولأن هذه اللاحساسية الظاهرة التي لا تأتي من غير الجهل لا تلبثُ أن تتحوَّل إلى رِقَّةٍ عندما يأخذون في الشعور بوجود أَلَمٍ في الحياة البشرية لا يَعْرِفونه. وأمَّا إميل، فإذا كان ذا بساطةٍ وسلامةٍ ذوقٍ في صباه، فإنني أعتقد أنه سيكون ذا مُهجةٍ وحساسيةٍ في شبابه، فصدقُ الأحاسيس يتعلَّق بسداد الأفكار كثيرًا، ولكن لِمَ نَدْكُرُه هنا؟ يوجد أكثرُ من قارئ سيلومني لا ريب على نسيان أحكامي الأولى والسعادة الدائمة التي وعدتُ تلميذي بها، تُعساء، مُحتَضرون، مناظرُ أَلَمٍ وبؤسٍ! أيُّ سعادة! يا لَتَمْتَعِ فؤادٍ فتِيٍّ أصبح على باب الحياة! إن مُعلِّمه الحزين الذي أعدَّ له تربيةً بالغةً الحلاوة لم يُوجده لغير الأَلَم، وإليك ما يُقال: وما يهْمُنِي؟ لقد وعدت بأن أجعله سعيدًا، لا أن أجعله سعيدًا ظاهرًا، وهل من ذنبي أن تُخدعوا بالظاهر دائنًا فتعُدُّوه حقيقة؟

ولنتأوَّل فتِيَّينَ أتَمَّا تربيتَهُما الأولى، ودخلا العالم من بايِن متقابلين على خطِّ مستقيم، فصعد أحدهما فوق الألبيا بغمته وظهر في أسطح مجتمع، ويؤتى به إلى البلاط لدى العظماء

والأغبياء والحسان، وأفترضه عيِّد في كل مكان، ولا أفحص فعل هذا القبول في عقله، وإنما أقدر مقاومته له، وتطير الملاذ أمامه، وتلهيه كل يوم أمور جديدة، وينهمك فيها جميعاً برغبة تُغويكم، وأنتم ترونه منتبهاً مبادراً ذا فضول، ويقف نظركم دَهْشُهُ الأَوَّل، وتَعُدُّونه راضياً، وإذا ما نظرتم إلى حاله النفسية اعتقدتم أنه يتمتع، وأما أنا فأعتقد أنه يتوجع.

وما الشيء الأَوَّل الذي يرى حينما يفتح عينيه؟ يرى كل نوع من المُتَمَع التي كان لا يعرف، والتي لا يكون معظمها في متناوله غير هُنَيْهَة، فلا يلوح أنها تظهر له إلا لِتورثه حسرةً على أنه حُرْمِها، وإذا ما طاف في قَصْرِ وجدتم مع اضطراب فضوله أنه يسأل في نفسه عن السبب في كون منزله الأبوي من غير هذا الطراز، وتُبيِّكم جميع أسئلته بأنه يقابل بين نفسه وبين رب هذا المنزل، فيكون كل ما يجد من إذلال له بهذه المقارنة مُرهِّفاً لزهو باثارتته، وإذا ما لَقِيَ فتى أحسن لباساً منه أبصرته يُهمُّهم سراً ضدَّ بُخل والديه، وإذا كان أحسن من فتى آخر بَرَّةً أَلَم من مشاهدته هذا الآخر يَحُجُّبه بنسبه أو بذهنه، ورأى أن ثوبه المُدْهَبُ أُخْزِي بتوبٍ بسيطٍ من الجوخ، وإذا ما تألق وحده في مجلسٍ فوقف على طَرْفٍ إصبع القدم حتى يكون أحسن ظهوراً، فمن ذا الذي لا يستعدُّ سراً لخفض ما عليه الفتى المختال من عُجْبٍ فارغ؟ يتحدُّ الجميع من فوزهم كما لو كانوا على اتفاق، ولا يلبث ما يلقي رجلٌ رصينٌ من نظراتٍ غَم، وما يُنطق به رجلٌ لا ذغ من كلمات هُزوء، أن يصل إليه، ولو لم يزدده غير رجلٍ واحدٍ لَسَمَّ هذا الازدراء هُتافات الآخرين حالاً.

ولتُعْطِه كل شيء، ولتغمِّره بكل لهو، ولتُنْفِض عليه بكل فضل، وليكن حسن التكوين فياض الذهن خفيف الروح، ليصير إذن موضع بحث النساء، ولكنه إذا ما غدا محل طلبهن قبل أن يُحِبَّهن جعلنه مجنوناً أكثر منه عاشقاً؛ أي إنه يكون حسن الطالع من غير أن يتمتع به، وبما أن مُناه تكون مسبوقة دائماً ولا يكون لديها من الوقت ما تُؤلِّد معه، فإنه لا يشعر في سواء الملاذ بغير غم الضيق؛ أي إن الجنس الذي خُلِق لسعادة جنسه يورثه سأمًا، حتى إنه يروي غليله قبل أن يَعْرِفه، وهو إذا ما داوم على رؤيته كان هذا عن زهو، فإذا حان الوقت الذي يتعلَّق به عن ذوقٍ حقيقيٍّ لم يكن وحده الشاب الناضر المحبوب، ولم يجد في خليلاته عجائب الوفاء دائماً.

ولا أقول شيئاً عن المناكدات والخيانات والسُّخْمت والتَّؤبات وما إلى هذه من الأمور التي يتعدَّر فضلها عن مثل هذه الحياة، وأَعْرِف أن اختبار العالم يوجب نفوراً منه، ولا أتكلَّم عن غير الغموم التي تتصل بالوهم الأَوَّل.

يا للتضادِّ في أمرٍ من حُصِر حتى الآن في سواء أسرته وأصدقائه، فأبصر نفسه هدفاً وحيداً

لكل رعاية منهم، فدخل بغتة في نظام من الأمور لا يُكترت له فيه إلا قليلاً، فوجد نفسه غارقاً ضمن نطاق غريب بعد أن ظلّ مركز نطاقه زمناً طويلاً! ويا للمهانات والمخازي التي يجب أن يقاسيها قبل أن يخسر بين أناس من الغرباء ما رَضَعَ بين أهليه من مُبتسراتٍ حول اعتباره! كان الجميع يخضع له وليداً فيهِرَع إليه، فلما أصبح فتى وجب أن يخضع لجميع النَّاس، أو إنه إذا ما بقي له شيءٌ قليلٌ من سابق مظاهره فما أفسى الدروس التي يُرَدُّ بها إلى نفسه! وما كان من عادة نَيْله بسهولة ما يبتغي جعله كثير الرغبات، فأدى إلى شعوره بحرمانٍ دائم، ويبغي كل شيءٍ غريبه، ويُريد نَيْلَ كلِّ ما يحوزه الآخرون؛ أي إنه يطمع في كل شيء، ويحسد كل واحد، ويريد أن يسيطر في كلِّ مكان، ويقضمه الزهو، وتلهب قلبه الفتى حرارة الشهوات الجامحة، وتولد الغيرة والحقد مع هذه الشهوات، وتنطلق جميع الأهواء الملتهممة معاً، فيحمل اضطرابها بين ضوضاء العالم، وهو يأتي بها في كل مساء، وهو يرجع إلى منزله غير راضٍ عن نفسه وعن الآخرين، وهو ينام مملوءاً بالفِ خِطَّة فارغة، مُكدرًا بالفِ هوى، ويصوّر له زهوهُ حتى في رؤاه من المُتَع الوهمية ما ترعجه الرغبة فيه، من تلك المُتَع ما لن يحوزه مدى حياته، فهذا هو ذا تلميذكم، ولنعد إلى تلميذي.

إذا كان أوّل منظرٍ يقفُ نظره أمراً مُعْماً، فإن أوّل عودٍ إلى نفسه يكون شعورَ لذة، وهو إذ يرى مقداراً ما هو ناج منه من سوءٍ فإنه يشعر بأنه أكثرُ سعادةً مما كان يظن. وهو يقاسم أمثاله آلامهم، غير أن هذه المقاسمة اختياريةٌ مستعذبة، وهو يتمتع بما يساوره من رحمةٍ حول ويلاتهم ومن السعادة التي تُعفيه منها. وهو يشعر في هذه الحال بقوةٍ تُطيلنا إلى ما وراء أنفسنا وتجعلنا نحملُ إلى غير مكاننا ما يفيض من أثرٍ يُسرنا، أجل، لا بد من معرفة كَرْب الآخرين حتى يتوجع له، ولكن ليس من الضروري أن يُشعر به. أجل، إننا متى تمّ ألمنا، أو خَشِينا أن نألم، توجعنا لمن يألمون، ولكن الإنسان عند ألمه لا يتوجع لغير نفسه. والواقع أن الجميع إذا كان خاضعاً لأبؤس الحياة، ولم يحبُّ الآخرين أحدٌ بغير الحسّاسية التي لا حاجة له بها، فإنه يتبع ذلك وجوب كون الرحمة شعوراً كثير الغدوبة ما دامت الرحمة تشهد لنا، وعدُّ الإنسان القاسي على العكس تعبساً دائماً ما دامت حال قلبه لا تدعُ له أية حسّاسية فيأضه يستطيع أن يُعيرها من آلام الآخرين.

ونحن كثيرو الحكم في أمر السعادة وفُق الطواهر، ونحن نفترض السعادة حيث أقلُّ ما تكون، ونحن نبحث عنها حيث لا تكون، وليس السرور غير دليلٍ عليها كثير الإبهام، وليس الإنسان المرخ في الغالب غير مكروبٍ يحاول التمويه عن الآخرين وتعليل نفسه، وليس الضاحكون المتوددون المُشْرِقون كثيراً في خَلْقَةٍ غير جزانٍ كثيري التأنيب في منازلهم تقريباً،

ويَحْمِلُ خَدْمُهُمْ مشقة الترويح عن مجتمعاتهم، ولا يكون الرضا الحقيقي سرورا ولا بطرا، ونحن إذ نغيب بهذا الإحساس البالغ العذوبة حين ندوقه نُفَكِّرُ فيه ونتلذذ به ونخاف أن يزول، والإنسان السعيد حقا لا يتكلم أبدا ولا يضحك مطلقا، وإنما يشدُّ السعادة حول فؤاده، وتستر الألعاب الصخابة والبشاشة الطياشة كلَّ سأمٍ ونفور، بيد أن السوءاء صاحبة الشهوة، وتوافق الرقة والدموغ أحلى المتع، ويوجب الفرح البالغ دمعًا أكثر مما يوجب صراخًا.

وإذا كانت كثرة الألهوات وأنواعها تساعدان على السعادة كما تبدوان في البداءة، وإذا كانت نمطية الحياة الممهدة تبدو مملّة في البداءة، فإنه عند حُسن النظر في ذلك يرى - على العكس - أن أحلى عادات النفس تقوم على اعتدال النعيم الذي يدغ قليل مجال الرغبة والنفور، ويؤدي همُّ الرغائب إلى الفضول والتقلب، ويؤدي فراغ المتع الصخابة إلى السأم، ولا يسأم الإنسان من حاله مطلقًا إذا لم يعرف ما هو أمتع منها. وإذا نظرت إلى جميع الناس وجدت الهمج أقلهم فضولًا وأقلهم سأمًا، وكلُّ شيءٍ عندهم سواء، وهم لا يتمتعون بالأشياء بل بأنفسهم، وهم لا يقضون حياتهم في عملٍ أي شيءٍ كان، وهم لا يسأمون مطلقًا.

ويكون رجلُ الدنيا ضامن قناعه تمامًا، وهو إذ لم يكد يكون إياه، يُعدُّ غريبًا عن نفسه دائمًا، وهو يكون غير مرتاح إذا ما ألزم بالعود إلى حاله، وما يكونه لا يُعدُّ شيئًا، وما يبدو أنه هو يُعدُّ كل شيءٍ عنده.

ولا أستطيع أن أمتنع عن أن أرسم على وجه الفتى الذي تكلمت عنه آنفًا ما أقول مُجونًا أو دماثة أو تكلفًا يأنف منه البسطاء ويستردلونوه، وعلى وجه فتاي سيما ممتعة بسيطة دالة على الرضا وعلى صفاء النفس الحقيقي، موحية بالتقدير والاطمئنان، غير مرتبة كما يلوح سوى تدفق الصداقة لمنحها من يدنون منه، ومما يُعتقد كونُ السیما ليست غير نمو بسيط لملامح رسمتها الطبيعة، وأما أنا فأرى أنك إذا عدوت هذا النموَّ وجدت ملامح الوجه تتكون تكوُّنًا غير محسوس وتتخذ سيماها بمؤثرٍ اعتياديٍّ مستمرٍّ صادرٍ عن بعض عواطف النفس، وتنطبع هذه العواطف على الوجه، ولا شيء أصح من هذا. وهي إذا ما تحوّلت إلى عادةٍ وجب أن تترك انطباعات دائمة؛ ومن ثمَّ ترى كيف أتصور أن السیما تنمُّ على السجّية، وأنه يُمكن أحيانًا أن يُحكّم بإحداهما في الأخرى، وذلك من غير بحثٍ عن تفسيراتٍ حافلةٍ بالأسرارٍ تفترض معارفَ لسنا حائزين لها.

وليس لدى الولد سوى عاطفتين بارزتين، وهما الفرح والألم؛ فهو يضحك وهو يبكي، وليست المراحل المتوسطة شيئًا يُذكر لديه، وهو لا ينفكُّ ينتقل من إحدى هاتين الحركتين إلى

الأخرى، ويحول تناوب هاتين الحركتين الدائم دون وجود أي انطباع ثابت على وجهه ودون اكتسابه سيما. بيد أنه في السن التي يكون فيها أكثر إحساساً، فيظهر أشد عطفاً وأدوم شعوراً، تترك الانطباعات الأعظم عمقاً آثاراً يكون من الصعب البالغ محوها، وينشأ عن حال النفس المعتادة نظام من الملامح يمتنع زواله مع الزمن، ومع ذلك فليس من النادر أن يرى أناس يُغيرون سيماهم في مختلف أدوار العمر؛ فقد شاهدت أناساً كثيرين في هذه الحال، وقد وجدت في كل حين أن من استطعت أن أرقبهم وأتبعهم جيداً كانوا يُغيرون أهواءهم المعتادة أيضاً، ويلوح لي أن هذا الرصد الوحيد المؤيد تأييداً تاماً قاطع، وأن له مكاناً في رسالة عن التربية حيث يحسن أن يتعلم الحكم في حركات النفس بالعلامات الخارجية.

ولا أدري هل يكون فناء أقل جدارة بالحب لعدم تعلمه تقليد الأوضاع الاصطلاحية وإظهاره من المشاعر ما ليس لديه؛ فليس هذا موضوع بحث هنا، وإنما أعرف أنه سيكون أكثر وداً، ويصعب عليّ أن أعتقد أن الذي لا يحب سوى نفسه يكون من القدرة على التنكر ما يروق معه غيره بمقدار ما يروق الإنسان الذي يستخلص من تعلقه بالآخرين شعوراً بالسعادة جديداً، ولكنني أعتقد من حيث هذا الشعور نفسه أنني قلت بما فيه الكفاية ما أُرشدُ معه القارئ الرشيد حول هذه النقطة دالاً على أنني لم أناقض نفسي.

وأعود إلى منهاجي، وأقول إذن: إذا ما اقترب دور الخطر فقدّموا إلى الفتیان مناظر تمسكهم، لا مناظر تُحرّكهم، وغالطوا خيالهم الناشئ بأمرٍ بعيدة من إلهاب حواسهم زاجرة لنشاطها، وأبعدوهم من المدن العظيمة حيث يُعجّل تبرّج النساء وعدم احتشامهن دروس الطبيعة ويسبقانها، وحيث يعرض كل شيء على عيونهم ما لا ينبغي أن يعرفوه من الملائد إلا حين يقدرّون على اختيارها، وأثوا بهم إلى مساكنهم الأولى حيث تدع بساطة الأرياف أهواء سنهم تنمو نمواً أقلّ سرعة، أو إذا كان ميلهم إلى الصنائع لا يزال يربطهم بالمصر فحولوا بهذا الميل فيهم دون بطالة خطيرة، واعنوا باختيار مجتمعاتهم وأشاعيلهم وملاذهم، ولا تُطبعوهم على غير النساوير المؤثرة مع الاعتدال، فتحرّكهم من غير إغواء وتغدي حاسيتهم من غير إثارة لحواسهم. وكذلك اعلموا أنه يوجد في كل مكان من الفسق ما يخشى، وأنه يوجد من الأهواء المتطرفة ما يُوجب في كل وقت من السوء ما لا يُجتنب، ولا يُراد أن يجعل من تلميذكم مُمرّض أو راهب محبة، ولا أن تُغم عيناه بمناظر موجبة للآلام والأوجاع، ولا أن يُطاف به بين عليل وعليل وبين مشفى ومشفى، وبين محالّ الإعدام والسجون، وإنما يُراد إثارة خنانه، لا إفساؤه بمنظر الأُبوس البشرية؛ فالإنسان إذا ما واجه

عين المناظر زمنًا طويلاً عاد لا يشعر بانطباعاتها؛ فالعادة تُعوِّد الإنسان كلَّ شيء، وما يُرى كثيراً يُعوِّد بعيداً من الخيال، والخيال وحده هو الذي يجعلنا نشعر بمصائب الآخرين، وهكذا فإن القساوسة والأطباء يصيرون فاقدَي الرحمة بما يتفق لهم من مشاهدة الموت والألم، ويُعرف تلميذكم إذن مصيرَ الإنسان وأبؤس أمثاله، ولكن دَعوه لا يشاهد ذلك غالباً، وما يُطلَع عليه من شيء يُحسِّن اختياره، وذلك في يومٍ ملائم، يورثه رَقَّةً وتأملًا لشهرٍ واحد، ولا يتوقَّف رأيه حول أمرٍ ما على ما يَرى، بل على ما يكون له من ردِّ فعلٍ فيه، وما يتلقاه من انطباعٍ مستمرٍّ عن شيءٍ ما يأتيه من ذات الشيء أقلَّ مما يأتيه من وجهة النظر التي تحمله على تذكره، وهكذا فإنكم إذ تُرتَّبون الأمثلة والدروس والصور تُكلِّون مهمازَ الحواس وتخادعون الطبيعة باتباع توجيهاتها الخاصة.

وكَلِّمنا نال معارفَ اختاروا من الأفكار ما يلائمها، وكلِّمنا اشتعلت شهواتنا اختاروا من التصاوير ما هو صالح لردِّعها، وقد قصَّ عليَّ محاربٌ قديمٌ امتاز بأخلاقه وشجاعته أن أباه، وكان رجلاً حصيفاً مع الوَرع البالغ، أبصرَ مزاجه الناشئ يُسَلِّمُه إلى النساء، فلم يدخر وسعاً في زجره، ولكنه على ما أبدى من ضروب العناية شعرَ أخيراً بأنه كاد يُفْلِتُ منه، فعنَّ له أن يأتي به إلى مشفىٍ للإفرنجي، ويُدخِله من غير سابق إنذارٍ قاعةً مشتملةً على جمعٍ من أولئك التعساء الذين كانوا يُكفِّرون بمداواة هائلةٍ عن الفسق الذي عرَّضهم لذلك، ويمرض الشاب عند هذا المنظر الفظيع الذي يُغصُّ جميع الحواس، وهنالك يقول له أبوه صائلاً: «أذهب أيها الداعر واتبع ميلك الساقط الذي يسوقك، وستكون عما قليلٍ سعيداً جداً إذا ما قُبلت في هذه القاعة حيث تكون ضحيةً أشدَّ الآلام فضحاً، فتحمِلُ أباك على الشكر لله عند موتك.»

وكان لهذه الكلمات القليلة، مع النظر الفعَّال الذي وقف نظر الشاب، أثرٌ لم يزُل قط. وبما أن مهنته كانت تُلزمه بأن يقضي شبابه في الحاميات؛ فقد فضَّل أن يقاسي جميع سخريات رفقائه على تقليد فجورهم، وقد قال لي: «كنت رجلاً، وكان لي ضعفي، ولكنني وقد بلغت سني الحاضرة، لم أقدر على رؤيةٍ بعِيٍّ قطُّ من غير نفور.» فيا أيها المُعلِّم، كن قليل الكلام، ولكن اختر الأمكنة والأزمنة والأشخاص، ثُمَّ ألقِ دروسك بالأمثلة، واطمنن إلى أثرها.

وليس الوجه الذي يُقضى به دَوْرُ الصِّبَا أمراً كبيراً، وليس السوء الذي ينساب فيه بلا دواءٍ مطلقاً، وقد يأتي الخيرُ الذي يُصنَعُ فيه متأخراً، وليس الأمر هكذا في الدَّورِ الأوَّل من العُمُر حيث تبدأ حياة الإنسان حقاً، ولا يدوم هذا الدَّور بما يكفي للقيام بما يجب أن يُصنَع فيه، ويستلزم خطره انتباهاً مستمراً؛ ولذا فإنني أصرُّ على فن إطلته، ومن أروع مبادئ الثقافة الصالحة

أن يُوجَل كلُّ شيءٍ ما أمكن. ودَعُوا التقدُّم يسير وطيِّدًا، وحُولُوا دونَ غُدُو المراهق رجلاً حين لا يبقى له شيءٌ يفعل ليُكونه. وبينما ينمو البدن تنشأ الأرواح المعدَّة لمنح الدم نشاطاً والألياف قوَّةً وتنضج، وإذا ما حوِّلتموها إلى مجرىٍ آخر، وسمحتم للقوَّة المعدَّة لكمال شخصٍ بأن تنفع في صنْع شخصٍ آخر، بقي كلاهما في حالٍ ضعف، وظلَّ عملُ الطبيعةِ ناقصاً، وتناثرت أعمالُ الذهنِ بدورها من هذا التغيير، ولا يكون للذهنِ الواهنِ وهنَ البدنِ غيرَ وظائفٍ ضعيفةٍ واهية، ولا تصنعُ الأعضاء الغليظة الغصبيَّة شجاعةً ولا نُبوغاً، وأدرك أنَّ قوَّة الرُوح لا تُلازم قوَّة البدنِ عندما تكونُ أعضاء الاتصالِ بين العنصرين سيئة النظام، ولكن مهما تستطع أن تكون حسنة النظام، فإنها تكون ضعيفة التأثير دائماً إذا لم يكن لها من الأصل سوى دمٍ مُستنزفٍ فقير خالٍ من ذلك الجوهر الذي يُعَم بالقوَّة والحركة على جميع نوابض الآلة. ومما يُشاهد على العموم وجود قوَّة ذهنٍ في الرجال الذين صانوا سنواتهم الأولى من فجورٍ باكرٍ أكثر مما في الرجال الذين بدأ فجورهم حين قدرتهم على تعاطيه، ولا جرمَ أنَّ هذا من الأسباب في كون الشعوب ذات الأخلاق تفوق الشعوب الخالية من الأخلاق عادة، وذلك من حيث سلامة الذوق والبسالة، وتلمع هذه الشعوب الأخيرة فقط ببعض الصفات الرقيقة التي تُسمِّيها صحافةً ولقائنةً وكياسة، بيدَ أنَّ وظائف العقل والحكمة الكبيرة الكريمة التي تميِّز الإنسان وتُمجِّده بصالح الأعمال وبالفضائل وبالجهود النافعة حقاً لا تُوجد في غير الشعوب الأولى مُطلقاً.

ويألمُ المُعلِّمون من كون حرارة ذلك الدُّور من العُمُر تجعلُ الشباب غيرَ قابلٍ الانقياد، وهذا ما أراه، ولكنَّ أليس هذا ذنبهم؟ أويجهلون أنهم إذا ما تركوا هذه الحرارة تأخذُ مجراها بالحواسِّ عادَ من المتعدِّر تحوُّلها إلى مجرىٍ آخر؟ أو تُزيِّل مواعِظ المتحدلق الطويلة الباردة من ذهن تلميذه صورة الملائكة التي تمثَّلها؟ أو تُبعِد من فؤاده الأهواء التي تُعدِّبه؟ أو تُطْفئ نارَ مزاجٍ يَعْرِف التلميذُ عادته؟ أو لا يثورُ على الموانع التي تعترضُ في سبيل ما يتصوَّره من سعادةٍ وحيدة؟ وما يرى في القانون الشديد الذي يُؤمرُ به من غير أن يُستطاع حَمَله على سماعه سوى هوى رجلٍ يحاول تعذيبه، وحقق هذا الرجل؟ وهل من الغريب أن يتمرّد عليه وأن يَمُقته بدوره؟

وأنتصوُّر جيِّدًا أن الإنسان إذا كان سهلاً أمكن أن يكون أكثر احتمالاً، وأن يحافظ على نفوذ ظاهر، ولكنني لا أرى فائدة نفوذٍ لا يحافظ عليه مُعلِّمٌ نحو تلميذه إلا بالهَابِ المعايير التي كان عليه أن يزجرها، شأن السانس الذي يُريدُ تهدئة حصانٍ جامعٍ فيوثبه في هُوَّة.

ومن البعيد أن تكون حرارة المراهق عائق تربية، وبهذه الحرارة تتم وتكُمُل، وهي تمكِّنكم

من قلب الفتى عندما يعود لا يكون دونكم قوة، وتُعدُّ عواطفه الأولى أعنةً توجِّهون بها جميع حركاته؛ أي إنه كان طليقًا فأراه قد استرَّق، ولم يكن تابعًا لغير نفسه واحتياجاته ما بقي غير مُحِبِّ لأحد، وهو يَتَّبِعُ عواطفه عندما يحب، وهكذا تتكوَّن الصلات الأولى التي تربطه بنوعه. وهو إذا ما وجَّهتهم حساسيته الناشئة نحو هذا الصوب فلا تظنُّوا أنها ستسع جميع النَّاس في البُداء، وأن كلمة الجنس البشري تنطوي على معنى لديه، كلاً، وإنما أمثاله هم أوَّلُ مَنْ تقتصر عليهم هذه الحساسِية، ولن يكون أمثاله مجهولين؛ فهم الذين له معهم اتصالات والذين جعلتهم العادة عزيزين لديه، أو لا غُنيَّة له عنهم، والذين يرى من الواضح أن لهم معه وجوه تفكيرٍ وشعورٍ مشتركة، والذين يراهم مُعرِّضين لمثل آلامه ويشعرون بمثل الملائد التي يذوق، والذين يمنحه ما بينه وبينهم من تماثلٍ في الطبيعة بالغ الجلاء أعظم استعدادٍ لحبِّ نفسه كما هي غاية القول، ولن ينتهي إلى تعميم مبادئه الفردية في قالب مبدأ الإنسانية المجرَّد، وإلى وصل عواطفه الخاصة بالعواطف التي يُمكن أن توحد بينه وبين نوعه إلا بعد أن يتعهد ميله بالرعاية على ألف وجه، وبعد أن يقوم بكثير من التأمُّلات حول مشاعره الخاصة وحول المشاعر التي يُصيرها في الآخرين.

ومتى أصبح قادراً على العطف صار عارفاً بعطف الآخرين،^٤ منتبهاً بهذا إلى علامات هذا العطف، وهل ترون أيُّ سلطانٍ جديدٍ يكون لكم عليه؟ ما أكثر القيود التي وضعتموها حول فؤاده قبل أن يشعر بهذا! وما أكثر ما يُحسُّ عندما ينظر إلى نفسه فيُصير ما صنعتموه له ويقابل بين نفسه والفتيان الآخرين البالغين مثل عُمره، ويقابل بينكم وبين غيركم من المُعلِّمين! وأقول: «عندما ينظر»، ولكن احترزوا من أن تقولوا له ذلك، فإذا ما قلمتموه له عاد لا يراه، وإذا ما طالبتموه بالطاعة في مقابل ما جوتتموه به من رعاية اعتقد مخادعتكم له؛ أي إنه يقول في نفسه: بما أنكم أظهرتم رعايته بلا مقابل قصدتم تحميله ديناً وربطه بعقدٍ لم يوافق عليه قط، ومن العبث أن تضيفوا إلى ذلك قولكم إن ما تطالبونه به هو من أجله، وأخيراً تطالبون، تطالبون وَفَّقَ ما صنعتم بلا اعترافٍ منه، وإذا ما أخذ تَعَسَّ درهمًا مع تظاهرٍ بإعطائه إياه، ثم وجد نفسه مُقَيِّداً في سجل الجندية على الرغم منه، صرختم قائلين بخوَر هذا، أولستم أكثر خوَرًا في مطالبة تلميذكم بمقابل رعايةٍ لم يرضَ بها قط؟

^٤ قد يكون العطف بلا عوض، وليست الصداقة هكذا، وذلك أن الصداقة مبادلة، عقد كالعقود الأخرى، وإن كانت أقدس العقود. وليس لكلمة الصداقة غير رابطة نفسها، ويكون كلُّ إنسانٍ غير صديقٍ لصديقه مُداجياً لا ريب؛ وذلك لأن الإنسان ينال الصداقة بإعطائها أو بإظهار إعطائها.

ويكون الكنودُ أكثرَ نُدورًا إذا كانت محاسن الربا أقلَّ ظهورًا، وُحُبٌ من يصنع لنا معروفًا، ويا له من شعورٍ طبيعيٍّ! وليس الكنود موجودًا في قلب الإنسان، بل المصلحة الشخصية، ويوجد من ناكري الجميل المديين من هم أقلُّ من فاعلي الخير النفعيين، وإذا ما بعتم هباتكم مني ساومتُ حول الثمن، ولكنكم إذا ما تظاهرتُم بالإعطاء حتى تبيعوا مني بالثمن الذي تضعون فيما بعدُ كنتم مخادعين؛ فالعطاء بلا عَوْضٍ هو الذي يجعلها غيرَ قابلةٍ للثمن، ولا يتلقى القلب قوانينَ من غيرِ نفسه، وهو يُطلق من حيث يُراد تقييده، وهو يُقيد من حيث يُترك طليقًا.

وإذا ما ألقى الصيادُ طعمًا في الماء جاء السمك وبقي حوله بلا خدرٍ، ولكنه إذا ما تناول الصنارة المستترة تحت الطعم شعر بسحب القصبَة وحاول الفرار، فهل الصياد محسن؟ وهل السمك كُود؟ وهل يرى إنسانٌ نسي من قبل المحسن إليه ينسى هذا المحسن؟ هو على العكس يتكلم عنه طيب الخاطر دائمًا، وهو لا يفكر فيه من غير تحنن، وهو إذا ما وجدَ فرصةً يُطلعه فيها بخدمةٍ غير منتظرة، على أنه ذاكراً ما يصنع له، فما أشد ما يُرضي به شُكرانه من ارتياحٍ باطني! وما أعظم ما يُلاقي من فرحٍ عذبٍ بما يوجب لنفسه من ثناء! ويا للسرور الذي يساوره إذ يقول له: «الآن جاء دوري!» فهذا هو صوت الطبيعة حقًا، وما كان الإحسان الحقيقي ليصنع كنودًا مطلقًا.

وإذا كان الشُكران شعورًا طبيعيًا وكنتم لا تقضون على فعله بخطأ منكم فبقوا بأن تلميذكم، إذ يأخذ في إدراك قيمة ما بذلتُم من جهودٍ في سبيله، يكون متأثرًا بها، وذلك بشرط ألا تكونوا قد وضعتُم ثمنًا لجهودكم بأنفسكم، وأن يكون لهذه الجهود في فؤاده من النفوذ ما لا يستطيع أحد أن يقضي عليه، ولكن احترزوا قبل الاطمئنان جيّدًا إلى هذا الخير، أن تنزعوه من حسابكم بإبداء شأنكم لديه، وينطوي افتخاركم بخدمكم على جعلها أمرًا لا يُطبقه، وينطوي نسيانها على تذكيره بها، ولا يُدرُ بحثٌ حول ما هو مدينٌ لكم به، بل حول ما هو مدينٌ به نحو نفسه، وذلك حتى يجلّ وقت معاملته مثل رجل، ولكن اتزكوا له جميع حريته جعلًا له طائعًا، واختفوا حملاً له على البحث عنكم، ونشئوا رُوحه على الشعور النبيل القائل بعرفان الجميل مُحَدِّثين إياه عن مصلحته فقط، ولم أُرِدْ قطُّ أن يُحدِّث عن كُون الذي يُصنع هو لمصلحته قَبْلُ أن يكون في وَضْعٍ يُدرِك ذلك معه، وما كان ليرى في هذا الكلام غيرَ خضوعكم، وما كان ليُعِدُّكم فيه غيرَ خادمٍ له. ولكن بما أنه أخذ الآن يشعر بحقيقة الحب فإنه يشعر أيضًا بالرابطة الحلوة التي يُمكن أن تصل الإنسان بمن يحب، وعاد لا يرى في الغيرة التي تشغلُّكم به بلا انقطاع تَعَلُّقَ عبد، بل عاطفةً صديق، والواقع أنه لا يوجد ما هو أكثرُ وزنًا على القلب البشري من صوت الصداقة المُعترف بها جيّدًا؛ وذلك لأنه يُعرف أنها لا تكلمنا إلا

في سبيل مصلحتنا، وقد يُعتدُّ أن الصديقَ مخطئاً، ولكننا لا نذهبُ إلى أنه يُخادِعنا، وقد تُقاوَم نصائحه أحياناً، ولكن من غير أن تُردى مطلقاً.

وأخيراً نلج داخل النظام الخُلقي؟ وقد سبَق أن اتخذنا خُطوة الإنسانِ الثانية، وإذا لم يكنْ مكانَ ذلك هنا فإنني أحاول أن أُبين كيف أن حركاتِ القلبِ الأولى تُثير أصواتَ الشعورِ الأولى، وكيف أنه ينشأ عن مشاعر الحب والحقْد مبادئ الخير والشرِ الأولى، وسأبين أن العدل والصلاح ليسا لفظين مجردين وموجودين خُلقيين صرفين ناشئين عن الإدراك فقط، بل هما عاطفتان حقيقتان للنفس الثنارة بالعقل، فليسا سوى تقدُّم منظمٍ لعواطفنا الابتدائية، كما أُبين أنه لا يُمكن بالعقل المستقلَّ عن الشعور وَضْع أيِّ قانونٍ طبيعيِّ كان، وأن كلَّ حقٍّ طبيعيِّ ليس سوى وهمٍ إذا لم يتمَّ على احتياجٍ طبيعيِّ للقلب البشري،^٥ ولكنني لا أرى أن أضع هنا رسالةً في ما بعد الطبيعة وفي الأخلاق، ولا مباحث من أيِّ نوعٍ كان، فيكفي أن أدلَّ على نظامٍ مشاعرنا ومعارفنا وتقدُّمها نظراً إلى نشوتنا، ومن المُحتمل أن يُفصَّل آخرون ما لم أفعل غير الدلالة عليه هنا.

وبما أن إميل لم ينظر غير نفسه حتى الآن، فإن أوَّل نظرةٍ يُلقِيها على أمثاله تحبِّله على مقابلة نفسه بهم، ويقوم أوَّل شعورٍ تُثيره فيه هذه المقابلة على الرغبة في المكان الأوَّل، وهذه هي النقطة التي يتحوَّل فيها حُبُّ النفس إلى أنانية، وهذه هي النقطة التي تبدأ منها جميعُ الأهواء بالصدور عن الأنانية. ولكنَّ الحُكم في هل الأهواء التي ستسيطر على طبعه تكون إنسانيةً لينةً أو قاسيةً مؤذية، وهل تكون أهواءً رافيةً ورحمةً أو أهواءً حسدةً وطمع، يستلزم معرفة المكان الذي يحسُّ نفسه فيه بين الناس، ومعرفة أنواع الموانع التي يعتدُّ إمكانَ تغلبه عليها، بلوغاً للمكان الذي يُريد أن يشغله.

^٥ لا تجد للمبدأ القائل بأن تُعامل الناس كما تريد أن يعاملوك به أساساً حقيقياً غير الإحساس والشعور، وإلا فأين السبب الصريح في المعاملة من حيث أنا كما لو كنت غيري، ولا سيَّما حينما أطمئن خلقياً إلى عدم وجودي في عين الحال؟ ومن ذا الذي يجيبني عن سُؤالي القائل إنني إذا ما اتبعت هذا المبدأ بإخلاص فمن يضمن أتباع الآخرين له نحوي بعين الإخلاص؟ إن الخبيث يستفيد من صلاح المنصف وعدم إنصاف نفسه، ومما يسؤُه أن يكون جميع الناس صالحين خلا نفسه، وليست هذه الصفة رابحةً للصالحين مهما قيل عنها، ولكن إذا ما وُحِدَتْ نفسٌ توسعية بيني وبين نظيري فشعرت بأنني فيه، كان هذا لكيلا يألم حتى لا أتألم، وأكثرث له حُباً بنفسي، وترى سبب المبدأ في ذات الطبيعة التي توحى إليَّ برغبة في ههنا حيث أشعر بوجودي؛ ومن ثمَّ تعلم أنه ليس من الصحيح كون مبادئ القانون الطبيعي قائمةً على العقل وحده؛ فهذه المبادئ أساسٌ أكثرُ متانةً وأعظمُ ثباتاً، ويُعدُّ حب الناس المشتق من حب النفس مبدأ العدل الإنساني، وتجد خلاصة كل أخلاق في الإنجيل نتيجة هذا القانون.

والآن يجب إطلاعُه على ما بين النَّاس من فروقٍ توجيهاً له في هذا البحث بعد أن أُطلع على النَّاس من حيث العوارض المشتركة بين النوع، وهنا يأتي قياس التفاوت الطبيعي والمدني وصورة النظام الاجتماعي.

ويجب أن يُدرَس المجتمع في النَّاس، وأن يُدرَس النَّاس في المجتمع، ومن يود معالجة كلِّ من السياسة والأخلاق على حدة لا يفقه شيئاً من كلِّ منهما، والإنسان إذا ما اقتصر في البداء على الصلات الابتدائية أبصر كيف يجب أن يتأثر النَّاس بها، وأيُّ الأهواء يجب أن ينشأ عنها؛ أي يرى أنَّ هذه الصلات تتسع وتضيق مقابلةً وفقَّ تقدُّم الأهواء، وتكون قوة الدُّرُعان أقلَّ من اعتدال القلوب جفلاً للناس مستقَّلين أحراراً، ومن يرغب في أشياء قليلة يكن تابعاً لأناسٍ قليلين. ولكن بما أننا نخلط دائماً بين ميولنا الفارغة واحتياجاتنا البدنية، فإن الذين صنعوا من هذه الأخيرة أسسَ المجتمع البشري عدُّوا المعلولاتِ عللاً دائماً، وحاكوا في جميع براهينهم ضاللاً حَصراً.

وتوجد في حال الطبيعة مساواةً فعليةً حقيقيةً لا تُفنى؛ وذلك لأن من المحال في هذه الحال أن يكون الفرقُ الوحيد بين إنسانٍ وإنسانٍ من العِظَم ما يجعل أحدهما تابعاً للآخر، وتوجد في الحال المدنية مساواةً في الحقوق وهميةً فارغة؛ وذلك لأن الوسائل المُعدَّة لحفظها توجب تقويضها؛ ولأنَّ القوة العامة المضافة إلى الأقوى لاضطهاد الضعيف تقضي على نوع التوازن الذي كانت الطبيعة قد وضعت بينهما.^٦ وينشأ عن هذا التناقض الأوَّل جميع المتناقضات التي تُشاهد في النظام المدني بين الظاهر والحقيقة، وفي كل وقتٍ يُضحى بالجمهور في سبيل عددٍ قليل، وبالمصلحة العامة في سبيل المصلحة الخاصة، وفي كل وقتٍ تصلح كلمات العدل والنظام المُموَّهة وسائلٌ للقهر وسلاحاً للجور؛ ومن ثمَّ لا تكون الطبقات الممتازة التي تزعم أنها مفيدة للطبقات الأخرى نافعةً لغير نفسها على حساب الطبقات الأخرى؛ ومن ثمَّ يجب أن يُحكم في أمر الاعتبار الذي يستحقونه وفقَّ العدل والعقل، وبقي علينا أن نرى هل المقامُ الذي انتحلوه أكثر ملامةً لسعادة من يشغلونه ليعرف أيُّ حكمٍ يجب على كلِّ واحدٍ منَّا أن يحمله حول نصيبه الخاص. والآن إليك البحث الذي يهمُّنا، ولكنَّ حُسْنَ القيام به يستلزم البدء بمعرفة الفؤاد البشري.

وإذا ما دار الأمرُ حول إطلاع الفتيان على الإنسان ضمن قناعه لم يكن هنالك احتياجٌ إلى إطلاعهم عليه؛ فهم يرونه كثيراً في كل وقت. ولكن بما أن القناع ليس عين الإنسان، ولا

^٦ تقوم الروح العامة للقوانين في جميع البلدان على تأييد القوي ضد الضعيف دائماً، وعلى تأييد المالك ضد غير المالك شيئاً، ولا مفرَّ من هذا الضرر الذي لا استثناء له.

ينبغي أن يُعَوِّه طلاؤه، فإن النَّاس إذا ما وُصِفوا لهم وجب أن يُوصَفوا كما هم، وذلك لا لِيُغَضُوا، بل لِيُثَرِّى لهم ولتلا ثَرَادَ مشابهتِهم، وعندى أن هذا أصوب ما يُمكن أن يكون لدى الإنسان من رأي حول نوعه.

وعلى هذا فإن من المهم هنا سلوك سبيل مخالفة للسبيل التي اتبناها حتى الآن، وأن يُعَلِّم الفتى بتجربة الآخرين أكثر مما بتجربته، وإذا كان النَّاس يخادعون فإنه يضعُّ عليهم، ولكنه، وهو مُكْرَم من قبلهم، إذا ما رآهم يتخادعون توجَّع لهم. قال فيثاغورس: «إن منظر العالم يشابه منظر الألعاب الأثينية؛ فبعض النَّاس يتعاملون ولا يفكِّرون في غير الرِّيح، وبعض آخر منهم يخاطرون بأنفسهم سعيًا وراء المجد، وآخرون منهم يكتفون بمشاهدة الألعاب، وليس هؤلاء أسوأ الجميع.»

وأودُّ لو يُختار للفتى من المجتمعات ما يحمِّله على التفكير في أمرٍ من يعيشون معه، وأن يُبلِّغ من تعليمه حُسن معرفة العالم ما يُفكِّر معه سوءًا في جميع ما يُصنَع فيه، وليُعلِّم أن الإنسان صالحٌ طبيعةً وليشغُر بذلك، وليُحكِّم في جاره بنفسه، ولكن ليُصِرَّ كيف أن المجتمع يُفسد النَّاس ويُضِلُّهم، وليُجد في مُبتَسراتهم مصدرَ جميع عيوبهم، وليُحمِّل على احترام كلِّ فرد، ولكن ليُزِدِر الجمهور، وليَر أنَّ جميع النَّاس يلبسون عين القناع تقريبًا، ولكن ليُعلِّم أنه يوجد من الوجوه ما هو أجمل من القناع الذي يسترُّها.

ويجب أن يُعترف بأن لهذا المنهاج نقائصه وبأنه ليس سهلًا عند التطبيق؛ وذلك لأن الفتى إذا كان يصير راصدًا باكراً، وإذا كنتم تدرِّبونه على ترقُّب أفعال الآخرين عن كُتب، فإنكم تجعلونه مُغتَابًا حاجيًا جازمًا سريع الحكم، وهو يجد لذة ممقوتة في تحري العوامل السيئة وفي عدم رؤيته ما هو حسنٌ حتى في الشيء الحسن، وهو على الأقل يُعوِّد نفسه منظر العيب ورؤية الأشرار بلا نفور كما يُعوِّد الإنسان نفسه رؤية النساء بلا رافة، ولسرعان ما يصلح الفساد العام أن يكون درسًا له أقل من أن يكون معذرة، فيقول في نفسه إذا كان الإنسان هكذا فلا يجب أن يكون خلافًا لما عليه الإنسان.

ولكن إذا أردتم تعليمه عن مبدأ وإطلاعه، مع طبيعة القلب البشري، على تطبيق العلل الخارجية التي تُحوِّل ميوئنا إلى عيوب، وذلك بنقله بعتة هكذا، من الأشياء الحسية إلى الأشياء الذهنية، فإنكم تكونون قد استعملتم ما بعد طبيعة لا يستطيع إدراكه، فتقعون ثانية في محذور اجتناب حتى الآن، وهو إعطاؤه دروسًا تُشابه الدروس، وأن تُقام في ذهنه تجربة المُعلِّم ونفوذُه مقام تجربته الخاصة وتقدُّم عقله.

واني لكي أزيل هذين العائنين دفعةً واحدة، وأصع القلب البشري في متناوله من غير مجازفةٍ بإفساد قلبه، أريد أن أطلعَه على النَّاس من بعيد، وذلك في أزمنةٍ أخرى وأمكنةٍ أخرى، وذلك على وجهٍ يستطيع معه أن ينظر إلى المنظر من غير أن يقدر على الاشتراك فيه، وهذا هو وقتُ التَّاريخ، وبالتَّاريخ سيقراً في الأفئدة من غير دروسٍ في الفلسفة، وبالتَّاريخ سيرها ناظرًا بسيطاً خاليًا من الغرض والهوى، وذلك مثلَ قاضٍ، لا مثلَ شريكٍ لها، ولا مثلَ مُتَّهمٍ إياها.

وتقضي معرفة الرجال بأن يُروا وهم يَعْمَلون، والرجالُ في العالم يُسْمَعون وهم يتكلمون، وفي العالم يُظهِرون أقوالهم ويخفون أفعالهم، وأمَّا في التَّاريخ فيُكشَفُ الغطاءُ ويحكمُ فيهم بالأعمال، حتى إن أقوالهم تُعِينُ على تقديرهم؛ وذلك لأنَّه يُرى بالمقابلة بين ما يقولون وما يفعلون مَنْ هم وما يريدون أن يبدوا به معًا؛ أي إنهم كلُّما تنكروا عُرفوا.

ومن المؤسف أن تكون لهذا البحثِ محاذيرُه من كلِّ نوع، ومن الصعبِ انتحالُ وجهةِ نظرٍ واحدةٍ يُمكنُ الإنسان أن يحكمَ بها في أمثاله بإنصاف، ومن أعظمِ عُيوبِ التَّاريخ أن يَصوِّرَ الرجالَ بنواحيهم السيئةِ أكثرَ مما بنواحيهم الحسنة. وبما أن التَّاريخ لا يكون ممتنعًا إلا بالثورات والمصائب، ولا يُحدِّثُ شيئًا عن الأمة ما نمت وازدهرت في سكونٍ حكوميَّةٍ سَلْمِيَّةٍ، فإنه لا يبدأ بالكلام عنها إلا عند عدم قدرتها على كفاية نفسها بنفسها فتتدخلُ في شؤون جاراتها أو تدع هذه الجارات تتدخلُ في شؤونها، وهكذا فإن التَّاريخ لا يُشهرُها إلا بعد أن تأخذ في الأفول. وهكذا فإن جميع تواريخنا تبدأ حيث يجب أن تنتهي، ولدينا تاريخٌ بالغُ الدقة عن الأمم التي تنقرض، والذي يُعوزنا هو تاريخٌ عن الأمم التي تتكاثر. وهذه الأمم هي من السَّعادة والحكمة ما لا يُفصِّصُ التَّاريخُ معه عنها شيئًا. والواقع أننا نرى حتى في أيامنا كونَ الحكومات التي تُسَّاس أحسنَ من سواها هي أقل ما يُحدِّثُ عنه التَّاريخ، ونحن لا نعرف غيرَ الشرِّ إذن، وأمَّا الخير فلا يكاد يُذكر، ولا يوجد غيرُ الأشرار من يشتهرون، ويُنسى الصالحون أو يُسخَرُ منهم؛ ومن ثمَّ ترى كيف يتجنَّى التَّاريخ كما تتجنَّى الفلسفة على النوع البشري بلا انقطاع.

وفضلاً عن ذلك فإن من البعيد جدًّا أن تكون الوقائعُ الموصوفة في التَّاريخ صورةً صادقةً عن الوقائع كما حدثت؛ أي إنها تُغيَّرُ شكلها في رأس المؤرِّخ، وتُصبُّ في قالبِ مصالحه وتكتسب لونَ مُبتسراته. ومن ذا الذي يُعرف أن يضع القارئ وضْعًا تامًّا في مكان المسرح حتى يرى كيف وقعت الواقعة؟ إن الجهالة والمحاباة تُنكران كلَّ شيء، وما أكثر أوجه الخلاف التي يمكن أن تكتنف الحادث التَّاريخي، حتى من غير تحريف له، بتوسيع أو تضيقٍ للأحوال التي

تُناط به! إذا ما وضعتم عينَ الشيء في نواحٍ مختلفة، لم يَكُدْ هذا الشيء يُرى إياه، ومع ذلك فإنه لم يتغيَّر شيءٌ غيرَ عينِ الناظر، وهل مما يُشرفُ الحقيقة أن تَرَوْوا لي واقعةً حقيقيةً بأن تُبدوها لي خلافاً لما حدثت؟ وما أكثرَ ما قرَّرتُ شجرةً زهاء، أو صحرةً عن اليمين أو الشمال، أو سافياً أثارتها الرياح، مصيرَ معركةٍ من غير أن يشعُر أحدٌ بذلك! وهل يمنع هذا المؤرِّخ من أن يقول لكم سببَ الانكسار أو الانتصار مطمئناً كما لو كان في كلِّ مكان؟ والحقُّ ما أهميَّةُ الوقائع عندي إذا ما ظلَّ السببُ مجهولاً لدي؟ وأيُّ عِبَرٍ أستطيع أن أستخرج من حادثٍ أجهلُ علته الحقيقية؟ أجل، إن المؤرِّخ يُعطيني سبباً واحداً، غيرَ أنه يلقِّفه، وليس النقد الذي تقوم حوله ضجَّةٌ كبيرةٌ سوى فنِّ للافتراض، سوى اختيارٍ أكثرَ الأكاذيبِ مشابهةً للحقيقة.

ألم تقرأوا قَطُّ كليوباترةً وكسندِر أو كُتُباً أخرى من هذا الطراز؟ إن المؤلِّف يختار حادثهً معروفةً، ثمَّ يوفِّق بينها وبين وجهات نظره ويزخرفها بتفاصيلٍ من اختراعه ورجالاتٍ لم يوجودوا قَطُّ وصورٍ خيالية، ويُرَكِّم أوهاماً فوق أوهامٍ حتى يجعل قراءته لذيدة، ولا أرى غيرَ فَرْقٍ قليلٍ بين هذه الروايات وتواريخكم، ما لم يكن الكاتب الروائي أكثرَ اعتماداً على خياله الخاص مع تعبيد المؤرِّخ نفسه لخيال الآخرين. وإلى هذا أضيف، إذا ما أريد، كونَ الكاتب الروائي يتخذ موضوعاً خُلِقياً صالحاً أو طالحاً لا يكتثر له المؤرِّخ مطلقاً.

وسيقال لي إن أمانةَ التَّاريخ أقلُّ إغراءً من صدقِ الطابع والأخلاق، وإن من المهم قليلاً كونَ الحوادث مرويةً بأمانةٍ بشرط أن يُصوِّر القلبُ البشريُّ تصويراً حسناً؛ وذلك لأنه يُضاف إلى ذلك بعد كل شيء: ما أُرِينا إلى الوقائع التي حدثت منذ ألفي سنة؟ أجل، تجد صواباً في عرض الصور وفق الطبيعة، ولكن إذا لم يكن نموذجٌ مُعظمها في غير خيال المؤرِّخ، أفلا يعني هذا وقوعاً في المحذور الذي أريدُ الإفلات منه، ورداً إلى حُكْم الكُتَّاب ما يُراد نَزْعُه من حُكْم المُعلِّم؟ إذا كان لا ينبغي لتلميذي أن يرى غير تصاوير يُملئها الهوى، فإنني أفضلُ أن تُرَسِّم بيدي على رسمها بيدٍ أخرى؛ وذلك لأنها تكون أحسن ملاءمةً له على الأقل.

وأسوأ المؤرِّخين من أجل الفتى هم الذين يُصدِّرون أحكاماً، الوقائع! الوقائع! دَعُوهُ يَحْكُم بنفسه، هكذا يتعلَّم معرفةَ الرجال، إذا كان حُكْمُ المؤلِّف يُرشده بلا انقطاع فإنه لا يرى بغير عين رجلٍ آخر، وإذا ما أعوزتُه هذه العين عاد لا يرى شيئاً.

وأدع التَّاريخ الحديث جانباً، لا لأنه لا طابع له ولأن رجالنا يتماثلون جميعاً، بل لأن مؤرخينا

الذين لا يهتمهم غير اللّمع حصراً لا يفكرون في غير وضع صُورٍ مُلَوّنةٍ جدّاً، فلا تُمثّل شيئاً غالباً،^٧ وكان القدماء أقلّ وضعاً للصور على العموم؛ فكانوا في أحكامهم أقلّ اعتماداً على الذهن وأكثر استناداً إلى الشعور. وكذلك لا بُدّ من القيام بخيارٍ كبيرٍ يُؤتى بينهم، ولا يجوز أن يُتخذ منهم في البداية من هم أكثرُ حصافة، بل من هم أعظمُ بساطة، ولا أودُّ أن أجعل في يد الفتى بُويّب ولا سألسنت، ويُعدُّ تاسيتُ كتابَ الشَّيب، ولم يُصنع الفتیان ليفقهوه؛ أي إنَّ من الواجب في الأعمال البشرية أن تُعلمَ رؤيةُ رسومِ القلبِ البشريِ الأولى قبل أن يُراد سبَرُ غُوره، وإن من الواجب أن تُحسنَ معرفةُ القراءة في الوقائع قبل القراءة في الأمثال؛ فلا تلتزم الفلسفة في شكلِ الأمثالِ غيرِ التجريّة، ولا ينبغي للشباب أن يقوم بتعميم، ويجب أن يقوم تعليمه وفقّ قواعدٍ خاصة.

وعندي أن تُوسيدَ مثالَ المؤرخين الصادق؛ فهو يروي الوقائع من غير أن يحكم فيها برأيه، ولكنه لا يُهملُ أيّاً من الأحوال الصالحة التي نحكمُ بها في ذلك، وهو يضعُ كلّ ما يُقْصُ أمامَ عيني القارئ، وهو يتوارى بعيداً من أن يقوم بين الحوادثِ والقراء، فلا نعتقد أننا نقرأ، بل نعتقد أننا نرى. ومن المؤسف أنه يتكلم عن الحرب دائماً، ولا نرى في أخباره غيرَ أقلّ أمور الدنيا تنقيهاً، أي المعارك، وتكاد تكون ذات الحكمة وذات النقيصة تقريباً في «تفهقر الآلاف العشرة» و«تفاسير قيصر». وقد يكون هيرودوتس - الخالي من الصور والأمثال ولكن مع الانسجام والبساطة وكثرة الجزئيات التي هي أكثر ما يُمتنع ويُرُوق - أصلح المؤرخين لو لم تتحوّل هذه الجزئيات في الغالب إلى سداجةٍ صيبانيةٍ خليقةٍ بأن تُفسد ذوقَ الشباب أكثر من تكوينه، وذلك أننا نحتاج إلى قوة تمييزٍ لمطالعته، ولا أقول شيئاً عن تيطس ليفيوس الذي سيأتي دوره، والذي هو سياسيٌّ من فُرسان البيان، فلا يلائم هذا الدور من العُمُر.

والتاريخ ناقصٌ على العموم، وذلك من حيث كونه لا يُسجّلُ غيرَ الوقائع المحسوسة البارزة التي يُمكن تعيينها بالأسماء والأزمنة والمُدَد، ولكنَّ عللَ هذه الوقائع البطيئة التدريجية التي لا يُمكن تعيينها مثل ذلك تبقى غير معلومة دائماً، وفي الغالب يوجد في المعركة التي تُكسب أو تُخسر سببَ ثورةٍ كانت، حتى قبل هذه المعركة، قد أصبحت أمراً لا مفرّ منه، ولا تصنع الحرب مطلقاً غيرَ إظهار حوادثٍ كانت قد عُيّنَت بعللٍ أدبيةٍ لا يُعرفها المؤرخون إلا نادراً.

وقد حوّل الروخ الفلسفيُّ إلى هذه الناحية تأملاتٍ كثيرٍ من كُتّاب هذا العصر، ولكني

^٧ انظر إلى دافيدا وغويشيارديني وسترادا وسوليس ومكيافيلي، وإلى دوتو في بعض الأحيان، وفترو وحده تقريباً هو الذي كان يُعرف الوصف من غير أن يضع صوراً.

أشكُّ في كون الحقيقة تكسب من عملهم؛ فيما أن صولة المناهج استحوذت عليهم جميعاً فإنه لا أحد يحاول أن يرى الأمور كما هي، بل كما تُطابقُ منهاجه.

والى جميع هذه التأملات أضيفوا كون التاريخ يرى الأعمال أكثر من الرجال؛ وذلك لأن التاريخ لا يمسك هؤلاء في غير بعض الأوقات المختارة ضمن ثياب أبهتهم، والتاريخ لا يعرض غير الرجل العام الذي رتب نفسه ليرى، وهو لا يتعقبه مطلقاً في بيته ولا في حجرته ولا في أسرته ولا بين أصدقائه، وهو لا يصوره إلا حين يُمثّل، ولباسه لا شخصه هو الذي يُصوّر.

وأفضلُ مطالعة السيرة الخاصة للبدء بدراسة القلب البشري؛ وذلك لأن من العيب أن يخفي الرجل نفسه؛ فالمؤرخ يتعقبه في كل مكان، وهو لا يترك له ساعة استراحة، ولا زاوية يُفلبت فيها من عينه الناقبة، وهو كلما ظن أنه أحسن اختفاءً كان الآخر أحسن اطلاعاً عليه. قال مونتسكين: «كلما تلهى كاتبو السيرة بالمقاصد أكثر مما بالوقائع، وبما يصدر عن الباطن أكثر مما عن الظاهر، كانوا مفضّلين لديّ؛ ولذا فإن بلوتارك رجلي من كل وجه.»

حقاً أن عبقرية الرجال المجتمعين أو عبقرية الأمم كثيرة الاختلاف عن عبقرية الرجل وهو منفرد، وأن من نقص المعرفة بالفؤاد البشري عدم درسه بين الجمهور أيضاً، بيد أنه لا يقل عن هذا صحة وجوب البدء بدراسة الرجل للحكم في الرجال، وأن من يعرف ميول كل فرد معرفة تامة يُبصر جميع آثارها التي تُمازج كيان الأمة.

وهنا أيضاً يجب أن يرجع إلى القدمات للأسباب التي قلّتها سابقاً، ثم إن جميع الجزئيات المألوفة الوضعية إذ كانت مُعدة من الأسلوب الحديث مع كونها صحيحة بارزة، بدا الرجل من تجميل مؤلفينا لهم في سيرهم الخاصة مثل تجميلهم في ميدان العالم، وعاد الحياء الذي ليس أقل صرامة في المؤلفات مما في الأعمال، لا يسمع بالقول علناً أكثر مما يسمع بصنعه جهراً. وبما أنه لا يمكن إظهار الرجال غير ممثلين دائماً، فإنهم لا يعرفون في كتبنا أكثر مما في مسارحنا. وصار من الممكن أن تُكتب حياة الملوك مائة مرة، وعاد لا يكون عندنا مثل سويتونيوس.^٨

ويبرع بلوتارك في هذه الجزئيات التي عُدنا لا نجرؤ على الدخول فيها، وله كياسة منقطعة النظر في تصوير أعظم الرجال في أدق الأمور، وهو من حسن التوفيق في اختيار رسومه ما تكفي

^٨ أقدم أحد مؤرخينا دوكلو، الذي قلّد تاسيت في الرسوم الكبرى، على تقليد سويتونيوس، وعلى استنساخ كومين أحياناً في الرسوم الصغرى، ومع أن هذا أوجب زيادة قيمة كتابه فقد أدى إلى نقده بيننا.

معه في الغالب كلمة أو ابتساماً أو حركة لإبراز بطله، ومن ذلك أن أنيبال سَكَنَ رَوْعَ جيشه الخائف وجعله يزحف ضاحكاً إلى المعركة التي سلَّمت إليه إيطالية، ومن ذلك أن أجزيلاس، الراكب حصاناً على عصا، حَبَّبَ إِلَيَّ قَاهِرَ الملك الأكبر، ومن ذلك أن قيصر يجوب قرية فقيرة ويكلم أصدقاءه، فَيَنُفِّمُ من حيث لا يدري، على الماكر الذي يقول إنه لا يريد غير مساواة بُونِي، ومن ذلك أن الإسكندر بلع علاجاً ولم يَنَسِ بكلمة، فكانت هذه أجمل ساعة في حياته، ومن ذلك أن أرسيد كتب اسمه على صدفٍ مُسَوَّغاً لقبه بهذا. ومن ذلك أن فيلوبيمين ألقى رداءه جانباً وقطع حطباً في مطبخ مُضَيِّفه. فهذا هو فنُّ التصوير، وما كانت السَّيِّما لتبدو بالملاحم الكبيرة، وما كانت السَّجِيَّة لتتجلى في الأعمال العظيمة، وإنما الترهات هي التي تكشف عن الطَّبع، وتكون الأمور العامة عاديةً كثيراً أو مُعدَّةً كثيراً، وعند هذه وحدها تقريباً يَسْمَحُ وقار العصر لمؤلفينا بأن يقفوا.

ولا جدال في أن مسيو دوتورين من أعظم رجال القرن الأخير، وقد جُرِّى على جعل حياته ممتعةً بالجزئيات التي عَرَفَت النَّاسَ به وحبَّته إليهم، ولكن ما أكثر ما قُضِيَ بحذف كثير منها كان يجعله معروفاً لدينا ومُحِبِّباً إلينا زيادةً على ما اتَّفَقَ له! ولا أوردُ غيرَ واحدةٍ أقتبسها من مصدرٍ موثوقٍ به، ولم يكُ بلوتارك ليُهمَلها، ولكن مع عدم تسجيل رَمْسِي لها حتى عند معرفته إياها:

في يومٍ من الصيف شديد الحر، كان فيكونت دوتورين عند نافذة غرفة الانتظار لابساً سُرَّةً بيضاءً وقلنسوة، ويظهر أحد خَدَمِه بغتة، ويُخَدِّع باللباس، ويظنه أجيئاً في المطبخ معروفاً لديه، ويدنو من خلفه على مَهْلٍ، ويضربه ضربةً شديدةً على أليته، ويلتفت الرجل المضروب إلى ورائه من فوره، ويرى الخادم وهو يرتعش وجه سيده، ويركع والهأ، ويقول: «مولاي، لقد اعتقدت وجودَ جورج». ويقول تورين وهو يَحْكُ مؤخَّرَه: «لا يجوز الضرب بهذه الشدة، ولو كان جورج هو المضروب». وهذا إذن هو الذي لا تجزءون على قوله أيها المساكين! وكونوا إلى الأبد إذن بلا فِطْرَةٍ ولا عواطف، وسقُّوا قلوبكم بالحديد وقسُّوها به داخل حياكم المُرْدَرِي، واجعلوا أنفسكم محتقرين بفعل الوقار. وأما أنت أيها الفتى الصالح، الذي يقرأ هذه القصة، والذي يشعر شعورَ حنانٍ بكلِّ ما تدلُّ عليه من حِلْمٍ حتى في الحركة الأولى، فاقراً أيضاً صَعَارَاتِ هذا الرجل العظيم حين البحث عن أصله واسمه، واذكر أن تورين هذا هو الذي تظاهر في كلِّ مكانٍ بأنه يفسخ في المجال لابن عمه حتى يرى جيِّداً أن هذا الولد كان رئيس بيت مالك، وقابلاً بين هذه المتناقضات وأحبَّ الطبيعة وازدر المُبتَسِرَ واعرف الرجل.

وقليل من النَّاسِ مَنْ يَتَمَثَّلُونَ ما قد يكون لهذه القراءات الموجهة على هذا الوجه في الفتى

الخالى الذهن، وبما أننا نكون مُثقلين بكتب صيانا متعودين القراءة من غير تفكير، فإن ما نقرأ يكون من قلة وفقه لنظرنا ما نعدُّ معه ما يفعلون أمرًا طبيعيًا عن سابقِ حَمَلنا في أنفسنا مُبتسراتٍ وأهواء تماثلُ تاريخ الرجال وسيرهم؛ ولأننا خارج الطبيعة فنحكّم في الآخرين بأنفسنا، ولكن لتصورِ فئى نُشئى وفق مبادئى، ولنتمكّل إميل الذي لم يكن لجهود ثمانى عشرة سنة متواصلة من الغاية غير المحافظة فيه على تمييز سليمٍ وقلبٍ صحيح، ولنتخيّله بعد رفع الستار وهو يُلقى نظره على مسرح العالم للمرة الأولى، أو لنتنوّره وراء المسرح ناظرًا إلى الممثلين وهم يتناولون ثيابهم ويلبسونها، عادًا الحبال والبكرات التي تخدم عيون الحضور؛ فهو لا يلبث أن تعقّب دهشته الأولى أحاسيس حياءٍ وازدراءٍ نحو نوعه، ويشتاق غيظًا من مشاهدته جميع الجنس البشرى هكذا أحقق بالغًا من الهوان ما يقوم معه بهذه الألعاب الصببانية، ويحزن من رؤيته افتراس بعض إخوانه لبعض في سبيل أحلامٍ وتحولهم إلى ضوارٍ لعدم معرفتهم الاكتفاء بأن يكونوا آدميين.

والحقُّ أنه إذا ما نُظر إلى قابليات التلميذ كان ذلك التمرين له درس فلسفة عملية أفضل لا ريب، وأرعى للسمع من جميع الدروس النظرية الفارغة التي تُفسد ذهن الفتى في مدرستا، وذلك مهما قلَّ ما يأتي المعلم من فطنة واختيارٍ في مطالعته، ومهما قلَّ ما يُسلكه سبيل التأمل الذي يجب استخراجها منها. ويتتبع سببها خطأ بيروس الخيالية فيسأله عن الخير الحقيقي الذي يُنال من فتح العالم، من هذا الفتح الذي لا يستطيع أن يتمتع به الآن من غير كروب كثيرة، ولا ترى في ذلك غير كلمةٍ سالحة عابرة. وأما إميل فيسرى فيها تأملًا بالغ الحكمة كان أول من أتاه، فلا يزول من ذهنه أبدًا؛ وذلك لأن هذا التأمل لا يجد في ذهنه أيّ مُبتسرٍ معاكسٍ يمكن أن يعوق انطباعه، وهو إذا ما وجد بعد قراءة سيرة هذا الأحمق أن جميع خطئه العظيمة أدت إلى قتله بيد امرأة، فإنه بدلًا من الإعجاب بهذه البطولة المزعومة، ما يرى في جميع مفاخر هذا الرُبان العظيم، وفي جميع دسائس هذا السياسي العظيم، غير خطواتٍ سار بها بحثًا عن تلك الآجزة المشؤمة التي ختمت حياته وقضت على خطئه بموتٍ شائنٍ؟

ولم يقتل جميع الفاتحين، ولم يُصب جميع الغاصبين بالحبوط في مشاريعهم، ويبدو كثيرٌ منهم سعادة في الأذهان المُشترية من الآراء العامية. بيد أن الذي لا يقف عند الظواهر، فلا يحكم في سعادة الناس إلا وفق حال أفئدتهم، يرى بؤسهم في فوزهم، ويرى رغائبهم وغوائلهم القاضمة تتسع وتزيد مع طالعهم، ويرى انقطاع نفوسهم وهم يتقدمون من غير أن يبلغوا حدّهم مطلقًا، ويراهم مشابهيين للمسافرين الأغرار الذين يوغلون في جبال الألب فيتصورون أنهم

يجاوزونها عند كلِّ جبل، فإذا ما بلغوا الذروة وجدوا مع القنوط أعلى الجبال أمامهم.

وبعد أن أخضع أغسطس مواطنيه وقضى على منافسيه، سيطر مدة أربعين عاماً على أعظم إمبراطورية عُرفت، ولكن هل حال هذا السلطان الواسع دون نطحه الجدران وملئه قصره العظيم صُراخاً طالباً من فاروس أن يُعيد إليه كتابته المُباداة؟ وهو بعد أن قهر جميع أعدائه ماذا كان نفع انتصاراته له، على حين كانت جميع المتاعب من كلِّ نوع تظهر حوله بلا انقطاع، وعلى حين كان أعزُّ أصدقائه ياتَمرون به ليقتلوه، فيبكي لما يُلاقى المقربون إليه من خزي أو قتل؟

أراد هذا النَّعس أن يسيطر على العالم، وهو لم يستطع أن يهيمن على منزله! وما الذي نشأ عن هذا الإهمال؟ لقد أبصر هلاك ابن أخته وابنه بالتبني وصهره في مِيعَة الشباب، وقد رأى اضطرار حفيده إلى أكل حشوة فراشه إطالةً لحياته النَّعسة بضع ساعات، وقد غمرته ابنته وحفيدته بفضائحهما، فماتت إحداهما بؤساً وجوعاً في جزيرة قفرٍ وهلكت الأخرى في السجن بيد نبال، وأخيراً تحمَّله زوجته الخاصة، وهو بقية أسرته المنكودة الحظ على عدم تركه غير غول ليرثه، فذاك هو مصير هذا السيّد للعالم الذي مُجَّد كثيراً بسبب عزّه وسعادته، وهل أعتقد أن واحداً ممن يُعجبون به يودُّ نيلهما بهذا النَّعس؟

وقد اتخذتُ الطموح مثلاً، غير أنَّ لِعَب جميع الأهواء البشرية يعرض مثل هذه الدروس على من يُريد درسَ التَّاريخ حتى يَعرف نفسه ويكون حكيماً على حساب الأموات، ويدنو الوقت الذي ستكون سيرة أنطونيوس فيه لدى الشاب مثل سيرة أغسطس. ولن يَعرف إميل أين هو في الأمور الغريبة التي تَقِفُ نظره في دروسه الجديدة، ولكنه سيَعرف أن يُعيد مُقدِّماً وهَمَّ الأهواء قبل أن تُولد، وهو إذ يرى أنها أعمت الرجال في جميع الأزمان فإنه سيكون على علمٍ بالوجه الذي يمكن أن تُغميه فيه بدوره إذا ما انقاد إليها.^٩ وأعرف أن هذه الدروس غير ملائمة له، وأن من المحتمل أن تكون عند الحاجة متأخرةً ناقصة، ولكن اذكروا أنني لم أُرِد استخراجها من هذا البحث؛ فقد قصدتُ أمراً آخر حين البدء بها، ولا ريب في أن سوء القيام بهذا الأمر يكون خطأً من المُعلِّم.

واذكروا أن الأناية إذا نمت لم تلبث الذات النسيئة أن تتحرك بلا انقطاع، فلا يلاحظ الفنى الآخرين من غير أن يعود إلى نفسه ويقابل بينها وبينهم؛ ولذا فإن من المهم أن تُعرف المرتبة التي

^٩ المُتيسر هو الذي يغير صولة الأهواء في قلوبنا دائماً، ولا يُولع مطلقاً من لا يرى غير ما هو كائن ولا يقدر غير ما يَعرف، ويؤدي خطأ أحكامنا إلى حرارة رغائبنا.

يضع نفسه فيها بين أمثاله بعد أن يدرسهم، وأرى بالأسلوب الذي يُحمَل الشبانُ به على مطالعة التاريخ، أنهم يتحوّلون إلى جميع من يُبصرون من السّرة، فيُسعى في أن يُجعل منهم شيشرون أحياناً وتراجانُ مرةً والإسكندرُ تارة، فيدبُّ اليأس في أفئدتهم إذا ما عادوا إلى نفوسهم حين يرى كلُّ واحدٍ منهم أنه هو فقط؛ ولهذا المنهاج بعضُ الفوائد التي لا أنكرها. ولكن إميل إذا ما حدث ذات مرة أن قام بهذه المقارنات، فأراد أن يكون غير نفسه، ولو كان الآخرُ سقراط أو كاتونَ عدّدثني قد حِطُّت في عملي، ومن يأخذ في جعل نفسه غريبةً عنه لم يُعتم أن ينسى نفسه تماماً.

وليس الفلاسفةُ أحسنَ من يُعرفُ الرجال؛ فالفلاسفةُ لا يعرفونهم إلا من خلال مُبَسَّرات الفلسفة، ولا أعرفُ أحدًا كالفلاسفةِ ذا مُبَسَّر، وللهمجي رأيي فينا أصحُّ من رأي الفيلسوف. والفيلسوف يشعر بعيوبه ويغناظ من عيوبنا، ويقول في نفسه: «كلنا خبيث». وينظر الهمجي إلينا من غير أن يهتز، ويقول: «أنتم من المجانين.» وحُقُّ له أن يقول هذا؛ وذلك لأنّه لا أحد يعمل السيئة للسيئة، وتلميذي هو هذا الهمجي، وذلك مع الفارق القائل إن إميل إذا كان أكثر تأملاً ومقابلاً بين الأفكار واطّاعاً على أغاليطنا عن كُتب، يظهر أكثر احتراماً نحو نفسه، ولا يحكم بغير ما يعلم.

وأهواؤنا هي التي تُفِرُّنا على أهواء الآخرين، ومصالحنا هي التي تحمِلنا على مَقْت الأشرار، وهؤلاء إذا لم يفعلوا بنا سوءاً حمَلنا لهم عطفاً أكثر من حمَلنا لهم حَقْداً، وما يفعل الأشرار بنا من سوء يجعلنا ننسى ما يفعلون من سوء نحو أنفسهم، ويسهل علينا أن نصفح عن سيئاتهم إذا ما استطعنا أن نعرف مقدارَ تعذيب فؤادهم لهم من أجلها، ونشعر بالذنب ولا نرى العقاب. والمنافع ظاهرةٌ والعقوبة خافية، ومن يعتقد أنه يتمتع بثمره عيوبه لا يكون بها أقلّ عذاباً منه عند عدم نجاحه فيها، والموضوع تغَيَّر، والهمُّ هو هو، ومن العيب أن يُظهروا نصيبهم، وأن يُخفوا فؤادهم؛ فسلكهم يدُلُّ عليه على الرغم منهم، ولكن لا ينبغي أن يكون لنا مثلُ فؤادهم للاطلاع عليه.

وما نقياس من أهواءِ يُغويننا، وما يصدمنا من مصالح يُثيرنا، ومن التناقض الذي يأتيها منها أن ندّم في الآخرين ما كُنّا نودُّ تقليده، والكراهة والوهم من الأمور التي لا مفرَّ منها عند الزمانا بأن نعاني من قِبَل الآخر سوءاً نعمله لو كُنّا في مكانه.

وما يجب أن يُصنع لحسن البصر في الرجال؟ كبيرُ مصلحةٍ في معرفتهم، وعظيمُ إنصافٍ للحكم فيهم، وقلبٌ على شيءٍ من الإحساس لتمثّل جميع أهواء النَّاس، وعلى شيءٍ من السكون لعدم ابتلائها، وإذا وُجدت في الحياة ساعةٌ ملائمةٌ لهذا الدرس كانت تلك التي اخترتها لإميل. والرجال كانوا غُرباء عنه قبل الآن، ثم يصير من أمثالهم، ولمّا ينل الرأي الذي يُبصرُ فعله سلطاناً

عليه، ولم يَهْزُ فؤاده قَطُّ ما يُحسُّ أثره من أهواء، وهو إنسان، ويكثر لإخوانه، وهو عادل، ويحكم في أقرانه، والواقع أنه إذا ما حكم فيهم جيِّداً لم يُرد أن يكون في مكانٍ أيٍّ واحدٍ منهم مطلقاً، وذلك بما أنه غاية جميع ما يُلَاقُونَ من كُروبٍ تقوم على ما ليس عنده من مُبتسرات؛ فإن هذه الغاية تلوح له في الهواء، ويكون كلُّ ما يرغب فيه إميل في متناوله. ومن يَتَّبِعُ إذا ما كفى نفسه بنفسه وكان خالياً من المُبتسرات؟ وهو ذو ذراعين وصحة^{١٠} واعتدالٍ واحتياجاتٍ قليلةٍ يوجد عنده ما يقضيها به، وهو إذ نُشِيَ تنشئة خِرَّةً مطلقاً عُدَّت العبودية أشدَّ ما يتصوَّر من آفات، وهو يرثي لهؤلاء المساكين الذين هم عبيدٌ لجميع من يطعونهم، وهو يرثي لهؤلاء الحكماء الزائفين المقيدين بصيتهم الزائف، وهو يرثي لهؤلاء الأغنياء الذين هم ضحايا أبهتهم، وهو يرثي لشهاوى التفاخر الذين يُسلمون حياتهم كلَّها إلى السُّمِّ حتى يظهروا ذوي ملاذ، وهو يرثي لعدوه الذي آذاه لما يرى من بؤسه في خُبثه، فيقول في نفسه: «إن هذا الرجل جعل مصيره تابعاً لمصيري لانتحاله ضرورة الإضرار بي.»

وإذا ما تقدَّمنا خطوةً أصبنا الهدف، والأناية آله مفيدة، ولكنها خطيرة؛ فهي ترح اليد التي تستعملها، ومن النادر أن تفعل خيراً بلا شرٍّ. وإميل إذ ينظر إلى مرتبته في النوع البشري، ويرى حَسَنَ موضعه منها، يُعوَى بتمجيد عقله عن عمل عقلكم، فيعزو إلى مزيتته أمر سعادته، ويقول في نفسه: «إنني حكيم، والناس مجانين.» وهو إذ يرثي للناس يزدريهم، وهو إذ يُهنئ نفسه يزيد تقديره لنفسه، وهو إذ يشعر بأنه أكثر منهم سعادةً يعتقد أنه أكثر من أهل لها، وهذا أكثر ما يُخشى من خطأ؛ وذلك لأنه أصعب ما يُمكن أن يُزال، وهو إذا ما بقي في هذه الحال كان قليل الانتفاع من جميع جهودنا، فإذا ما وجب الاختيار فلا أدري هل أفضَّلُ وهم المُبتسرات على وهم الخيلاء.

ولا يتطرق الوهم إلى أعظم الرجال حول تفوقهم؛ فهم يرونه ويُحسُّونه، ولكنهم لا يقلُّون عن هذا تواضعاً، وهم كلُّما حازوا عرفوا كلَّ ما يُعوِّزهم، وهم أقلُّ غروراً بارتقائهم فوقنا من هوانهم بما يُحسُّون من ضَعْفهم، وهم يبلُّون من حيث الأموال التي يملكونها حصراً درجةً من الصواب ما لا يُعزُّون معه بعبطيَّة لم يصنعوها. أجل، قد يزهو رجلٌ الخير بفضيلته لأنها له، ولكن ممَّ يزهو رجلٌ الدَّهن؟ وماذا صنع راسين لكيلا يكون براؤون؟ وماذا صنع بوالو لكيلا يكون كوتان؟

والأمر هنا شيء آخر أيضاً، ولنبقِ ضمَّن المستوى العام دائماً، ولم أفترض في تلميذي نوعاً

^{١٠} أعتقد إمكان إقدامي على عدِّ الصحة وحسن البنية من المنافع التي اكتسبها بربيتي، وإن شئت فقل من هبات الطبيعة التي حفظتها له تربيتي.

عاليًا ولا تمييزًا واهبًا، وإنما اختَرْتُهُ من ذوي الأذهان العادية لأثبت ما يُمكن أن يكون للتربية من فعلٍ في الإنسان، وتكون الشَّوَادُ كلها خارج القواعد، وإذا ما فضَّلَ إميل، نتيجةً لجهودي، طرازَ حياته وبصره وشعوره على طرازِ الآخرين حُقَّ له ذلك، ولكنه إذا ما ظنَّ نفسه لهذا السبب من جِلَّةٍ أرفعٍ من جِلَّتْهم ومن أصلٍ أيمَنَ من أصلهم عُذُّ مُخطئًا؛ أي ضالًّا، فوجبت إزالةُ ضلاله، وإن شئت فقل تلافِي خطئه، وذلك خشيةً أن يُمَرَّ من الوقت ما يكون إصلاح ذلك معه بعد الأوان.

وإذا عدوتَ الزهو لم تجدْ جُنُونًا يتعدَّرُ شفاءَ رجلٍ غيرِ مجنونٍ منه، وأمَّا الزهو فلا يَقُومُه غيرُ التجربة لو وُجِدَ له علاجٌ حقًّا، والزهو يُمكن أن يُحال دون استفحاله عند ظهوره على الأقل؛ ولذا فلا تُهلِكوا أنفسكم بإقامة البراهين الجميلة حتى تُثبتوا للمراهق أنه إنسانٌ كالأخرين، وأنه عُرضةٌ لعين الضعف، ودَعُوهُ يُحسُّه، أو إنه لن يَعْرِفه مطلقًا. وهنا أيضًا حالٌ استثنائيةٌ لقواعدي الخاصة، وهذه هي حالُ عَرَضِ تلميذي طوعًا لجميع الحوادث التي يُمكن أن تُثبتَ له أنه ليس أكثرَ حكمةً مِنَّا، ويُمكن أن تُكرَّرَ عِرَافَةُ المشعوذِ على ألفِ وجه، وأتركُ المُصانعين يستفيدون منه. وإذا حدثَ أن ساقه بعضُ المتهورين إلى بعضِ الهُوسات تركَّته يُقابل الخطر، وإذا ما صاوله بعضُ المُخادعين في اللعب تركَّته يُعَشُّ^{١١} من قِبَلهم؛ أي تركَّتهم يُدَارُونه ويُداورونه ويتفَنُونه ويسلُبونه، وإذا ما أخذوا يستهزئون به بعد استنزافه شكرتُ لهم أمامه ما تفضلوا بإلقائه عليه من دروس. والأشراكُ الوحيدةُ التي أقيها منها بعناية هي أشراكُ بنات الهوى، والمجاملات الوحيدة التي أحاييه بها هي أن أقاسمه جميعَ أخطاره التي تركَّته يُعَرِّضُ لها وجميعَ المخازي التي تركَّته يتلقاها، وسأحتمل كلَّ شيءٍ صامتًا، ومن غيرِ تذمُّرٍ وتأنيب، ومن غير أن أقول له كلمةٌ عن ذلك، وثقوا بأن هذا السلوكُ الحكيمُ إذا ما حصلَ بإخلاصٍ فإن ما يرى من احتمالي في سبيله يكون له من الأثرِ البالغِ في فؤاده أكثرُ مما يُعاني بنفسه.

^{١١} وفضلًا عن ذلك، فإن تلميذنا يُغوى بهذا الشَّرْكِ قليلًا، وهو الذي يحيط به كثيرٌ من اللهو، وهو الذي لم يسأم في حياته، وهو الذي لا يكاد يُعْرِفُ استعمالَ النقود، وبما أن المصلحة والزهو هما العاملان اللذان يُقاد بهما الأولاد فإن هذَّينِ العاملينِ نافعان لبنات الهوى وللغششة في التغلُّبِ عليهم فيما بعد. وإذا ما أترتم طمعهم بالجوائز والمكافآت، وإذا ما رأيتم أنه يهتف لهم في العاشرة من سنهم بالمدرسة من أجلِ عملٍ عام؛ أبصرتم كيف يُغزون في العشرين من عُمرهم بالتخلي عن كَيْسهم في دار قمار أو دار دعارة. ويمكنكم أن تراهنوا دائمًا على أن أكثرَ الأولاد جِدًّا في غرفةِ درَّسه سيصبح أكبرَ مقامٍ وداعر. والواقع أنه لا يكون للوسائل التي لا تُستعمل في الصبا مطلقًا ذاتُ المحذور في الشباب، ولكن لا يغيب عن البال أن المبدأ الثابت الذي أتخذه هنا هو إظهار أسوأ ما في الأمر، ومنع العيب هو أوَّل ما أحاول، ثُمَّ أفترضه لمعالجته.

ولا أستطيع أن أمنع نفسي من التشبيه هنا إلى المقام الزائف للمُعَلِّمِينَ، الذين يرون انتحالَ الحكمة، فيعاملون تلاميذهم مثل الأولاد دائماً، فيمتازون منهم دائماً في كلِّ ما يحملونهم على صنعه، وهكذا ابتعدوا عن خفضِ إقدامهم الناشئ، ولا تدخروا وسعاً في رفعِ نفوسهم، واجعلوهم مساوين لكم حتى يصبحوا هكذا، وإذا لم يستطيعوا الارتقاء إليكم أيضاً فاهبطوا إليهم بلا خجلٍ ولا وسواس، واذكروا أن سعادتكم عادت لا تكون فيكم، بل في تلميذكم، وشاطروه أوزاره إصلاحاً لها، واحتملوا خزيه محوياً له، واقتدوا بالروماني الباسل الذي رأى هزيمة جيشه ولم يقدر على جمع شمله، فأخذ يهرب على رأس جنوده قائلاً صارخاً: «إنهم لا يفرّون، بل يتبعون قائدهم.» وهل أصيب بعارٍ من هذا؟ كلاً، بل زاد مجده إذ ضحى به على هذا الوجه. ألا إن قوة الواجب وجمال الفضيلة يجذبان أصواتنا ويزيلان مُبتسراتنا السخيفة على الرغم منّا، فإذا ما صُفِعَتْ حين قيامي بواجباتي نحو إميل فإنني أفاخر بهذا في كلِّ مكانٍ بعيداً من الانتقام النفسي، ومما أشكُّ فيه وجود رجلٍ في العالم يبلغ من اللؤم^{١٢} ما لا يزيد معه احتراماً لي من أجل ما تقدّم.

ولا يعني هذا أن يفترض التلميذ في مُعلِّمه معارفٍ محدودةً مثل معارفه، ولا سهولةً إغواءٍ مثله، وهذا الرأي صالحٌ لولدٍ لا يعرف أن يرى شيئاً، ولا أن يقيس شيئاً، فيجعل جميع العالم في متناوله، ولا يضع ثقته في غير من يعرفون وضع أنفسهم في مستواه حقاً. بيد أن فتى في مثل سن إميل متصفاً بمثل صوابه لا يبلغ من السخف ما يقترف معه هذا الخطأ، ولا يكون من المرغوب فيه ظهوره هكذا، ويجب أن يكون اعتمادُه على مُعلِّمه من غير هذا النوع؛ وذلك أن من الواجب قيام هذا الاعتماد على سلطان العقل وعلى فضل المعارف، وعلى ما يكون للفتى من فوائد في العلم بها، فيشعرُ بنفسه لنفسه، وقد أقنعتُه التجربة الطويلة بأنه محبوبٌ من قبل رانده، وبأن هذا المرشد رجلٌ حكيمٌ بصيرٌ راغبٌ في سعادته، عارفٌ بما يمكن أن يأتيه بها، ويجب أن يعرف أن مصلحته الخاصة تقضي بأن من الملائم له أن يستمع إلى نصائحه. والواقع أن المُعلِّم إذا ما سمحَ لنفسه بأن تُخدع مثل التلميذ يكون قد أضرَّ حقه في مطالبته بالاحترام وفي إلقاءِ دروسٍ عليه، وأقلُّ من هذا وجوبُ افتراض التلميذ ترك المُعلِّم إياه يقف في الأشرار قصداً ونصبةً حائلاً لبساطته عمداً. وما يجب أن يُصنع إذن لا جتناب هذين المحذورين معاً؟ إن أفضل ما في الأمر وأقرب إلى الطبيعة أن يكون مثله بسيطاً صادقاً، وأن يُحذره من الأخطار التي يُعرض لها، وأن يدلّه عليها بوضوحٍ وعلى وجهٍ محسوس، ولكن من غير مبالغة ولا هوى ولا حذقة، ومن غير أن تُعطوه آراءكم على شكل أوامر،

^{١٢} أخطأت في ظني؛ فقد وجدت واحداً، وهو مسيو فورمه.

وذلك إلى الحين الذي تصبح فيه هكذا، وإلى الحين الذي تغدو فيه لهجة الأمر هذه ضروريةً حتمًا. وإذا ما التزم جانب العناد بعد هذا، كما يقع غالبًا، فلا تقولوا له شيئًا، ودعوه يكون طليقًا، واتبعوه، وقلدوه، وليكن هذا بسلامة قلبٍ وحسن طوية، وانهمكوا وتلهؤا مثله ما أمكن هذا، فإذا ما صارت النتائج حرجةً جدًا كنتم على استعدادٍ لوقفها، ومع ذلك فإن الفتى إذا كان شاهدًا على حذركم ولطفكم، فما أكثر ما يقفُ نظره أحدُ الأمرين وما يتأثر بالآخر! وتعدُّ أوزاره كلها روابطٌ يجهزكم بها لردعه عند الضرورة. وأكثر ما تتجلى به مهارة المعلم هنا كما هو الواقع، هو أن يأتي بالفرص، وأن يسوق النصائح على وجه يعرف به مقدمًا متى يدعُ الفتى ومتى يعيد، وذلك ليحاط في كلِّ مكانٍ بدروسٍ من التجربة، وذلك من غير أن يعرض للخطر كثيرًا.

وحذروه من سيئاته قبل أن يقع فيها، وهو إذا ما سقطَ فيها فلا تلوموه مطلقًا، وذلك لما يؤدي إليه هذا من إلهاب أنانيته وإثارتها، وما كان الدرس الذي يُتبر ليعيد، ولا أعرف ما هو أكثر سخافةً من هذه الكلمة: «كنتُ قد قلتُ لك هذا.» وأحسن وسيلةً تتخذ لتذكيره بما قيل له أن يُظاهر بنسيانته. وعلى العكس، إذا ما أبصرتموه حرجًا من عدم إطاعته لكم، فأزبلوا هذا الخزي بالقول الطيب، وهو يتعلّق بكم لا ريبَ عندما يرى نسيانكم أنفسكم في سبيله، وأنكم تُسلونَه بدلًا من أن تسحقوه، ولكنكم إذا ما أضفتهم إلى غمّه تأنيبًا وعتابًا حقد عليكم وانتحل لنفسه دستور عدم الإصغاء إليكم، كأنه يريد أن يثبت لكم أنه لا يفكر مثلكم في أهمية آرائكم.

وقد يكون الوجه الذي تأتون به تسليتكم إياه درسًا نافعا له بمقدار عدم حذره منه، ومتى قلتم له مثلاً، إن ألقا من الناس يقترفون عين الخطيئات لم يكن هذا ما ينتظر، وتصلحونه بظهوركم متوجعين له؛ وذلك لأن هذا عند من يعتقد أنه أعلى من الآخرين اعتذارٌ مخزٍ بأن يتأسى على مثالهم، ولأن هذا يعني تمثلاً ليكون أكثر ما يمكن أن يدعيه هو أنهم ليسوا أفضل منه.

وزمن السيئات هو زمن الأمثال، وإذا ما أنب المذنب تحت قناع غريب أدب من غير أن يهان، وهنالك يدرك أن المثل ليس كذبًا، وذلك من حيث الحقيقة التي يطبقها على نفسه. ولا يدرك الولد الذي لم يحدق قط بمدح شيئًا من المثل الذي بحث فيه آنفاً، بيد أن الطائش الذي خدع بمصانع يتصور تصوّرًا عجيبيًا كؤن الغراب ليس غير غبي، وهكذا فإنه يستنبط مثلًا من حادث، وما ينسى من تجربة حالًا يُنقش بالمثل في ذهنه. ولا يوجد من المعارف الأدبية ما لا يمكن اكتسابه بتجربة الآخرين أو بتجربة نفسه. وإذا ما كانت هذه التجربة خطيرة استبطلت عبرتها من القصة بدلًا من إتيانها فعلاً، ومتى كان الاختيار غير ذي بال كان من الحسن أن يعرض له

الفتى، ثم يُصاغ في قالبِ أمثال، وبواسطة الحكاية، ما عَرَف من أحوالٍ خاصة.

ومع ذلك فلا أقيّد بسط هذه الأمثال، ولا التعبير عنها أيضاً؛ فلا شيء فارغ ولا سبى الفهم كالناحية الخلقية التي يُحتم بها مُعظم الأمثال، وذلك كما لو كانت الناحية الخلقية غير مبسوطة في المثل، أو كان من غير الواجب بسطها فيه، وذلك على وجه يكون به محسوساً لدى القارئ! ولم إذن تُضاف هذه الناحية الخلقية إلى خاتمة المثل، فنترع من القارئ لذة اكتشافه لها بنفسه؟ يقوم فنّ التعلّم على جعل التلميذ راغباً في التعلّم، والواقع أنه لا ينبغي لرغبته في التعلّم أن يبقى ذهنه من السلبية في كل ما تقولون له ما لا يصنع معه شيئاً غير الإصغاء إليكم، ومما يجب هو أن تزك أنانية المُعلّم دائماً باباً لتلميذه فيستطيع أن يقول: أدرك، أبصر، أتقدّم، أتعلّم. ومن الأمور التي تجعل ممثل الكميديّة الإيطاليّة مُملاً هو ما يُعنى به من إيضاحه للحضور ما كان يُسمع كثيراً، ولا أريد أن يكون المُعلّم كذلك الممثل مطلقاً، وأقل من ذلك رغبتي أن يكون المؤلّف مثله، ومما يجب أن يكون ما نقول مفهوماً دائماً. ولكن لا ينبغي أن يُقال كل شيء دائماً؛ فالذي يقول كل شيء لا يقول غير أشياء قليلة؛ وذلك لأنه لا يُنصت له في آخر الأمر. وما معنى هذه الأبيات الأربعة التي أضافها لأفوتنن إلى مثل الضفدعة المُنتفخة؟ أيحسني ألا يفهم؟ أو يحتاج هذا المصوّر العظيم إلى كتابة الأسماء تحت الأشياء التي يُصوّرها؟ ويعد من تعميم ناحيته الخلقية بذلك، وهو يخصّصها، وهو يقصّرُها من بعض الوجوه على الأمثلة الواردة، وهو يحول دون تطبيقها على أمثلة أخرى. وأود قبل وضع أمثال هذا المؤلف المنقطع النظر بين يدي الفتى أن يُحدف منها جميع تلك النتائج التي احتمل مشقة إيضاحه بها ما قاله بجلاءٍ وعلى وجه مستحسن، وإذا تلميذكم لا يفهم المثل إلا بالإيضاح فنفقوا بأنه لن يفهمه حتى على هذا الوجه.

ومن المهم أيضاً أن تُمنح هذه الأمثال نظاماً أكثر تعلّماً وأعظم مطابقةً لتقدّم مشاعر الفتى المراهق ومعارفه، وهل يُتصوّر شيء أقل صواباً من أتباع الترتيب العددي في الكتاب أتباعاً تاماً مع عدم نظرٍ إلى الاحتياج أو المناسبة؟ فالغراب أولاً، ثم الرّيز،^{١٣} ثم الضفدعة، ثم البعلان ... إلخ.

وأرى هذين البغليين على قلبي؛ وذلك لأنني أذكر أنني رأيتُ ولدًا ربيّ للمالية ودوّخ بالوظيفة التي يشغلها، وقد حُمِل على قراءة هذا المثل وتعلّمه وتكراره مئات المرات من غير أن يجد أقلّ اعتراضٍ على المهنة التي أُعد لها. ولم أر قطُّ أولاداً يُطبّقون ما يتعلمون من أمثالٍ تطبيقاً وثيقاً فقط،

^{١٣} يجب أن يُطبّق هنا تصحيح مسيو فورمه أيضاً؛ فالرّيز أولاً ثم الغراب ... إلخ.

بل لم أرَ قطُّ أناسًا يُبالون بحَمَلهم على هذا التطبيقِ أيضًا. والتعليمُ الخُلقيُّ ذريعةُ هذا الدرس، ولكنَّ عَرَضَ الأُمِّ والوليدِ الحقيقيَّ لا يقوم على غيرِ شغْلِ جماعةٍ به حين تلاوته أمثاله عن ظهر القلب، وهذا إلى أنه ينسأها كلُّها في كِبَره عندما يعودُ الأمرُ غيرَ قائمٍ على استظهارها، بل على الاستفادة منها، وهذا إلى أن التثَقُّفَ بالأمثالِ لا يَخُصُّ غيرَ الرجال، وها هو ذا وقتُ بدءِ إميل.

وكذلك بما أنني لا أريد أن أقولَ كلَّ شيء، فإنني أدلُّ من بعيدٍ على الطُّرق التي تُبعُدُ من الطُّريقِ الصالحة؛ وذلك لِئَلَمَّ اجتنابُها، وأعتقد أنه إذا ما أتبعَ الطريقُ الذي عُيِّنَ ابتغى تلميذُكم معرفةَ الرجالِ ومعرفةَ نفسه بأرخصِ ما يُمكن من ثَمَن، وأنكم تُمكنونه من تأمُّلِ صُرُوفِ الدهرِ من غيرِ أن يحسُدَ المفضَّلين عنده على نصيبهم، راضيًا عن نفسه غيرَ ظانًّا أنه أكثرُ حكمَةً من الآخرين، وقد بدأتُم أيضًا بجعله مُمثَّلًا جعلاً له واحدًا من الخُصُور، ويَجِبُ الإكمال؛ وذلك لأن الأشياءَ تُرى من أسفلِ المسرحِ كما تَبَدو. وأمَّا من المسرحِ فُتِرى كما هي، ولا بُدَّ من الجلوسِ على بُعْدٍ للاشتغالِ عليها جميعًا، ولا بدَّ من الدنوِّ لرؤيةِ الجزئيات. ولكنَّ بآيةِ حُجَّةٍ يتدخَّلُ الفنى في أمورِ الدنيا؟ وما حقُّه في الاطلاعِ على هذه الأسرارِ المُدلِّهَةِ؟ إن من مكابِدِ اللذَّةِ ما يُحدِّدُ مصالحَ سنِّه، وكذلك فإنه لا يتصرَّفُ في غيرِ نفسه، وهذا كأنه لا يتصرَّفُ في شيء، والإنسانِ أرخصُ السلع، وبين حقوقنا المهمةِ في التملُّكِ تجدُّ الحقَّ في الشخصِ أقلَّها جميعًا.

وعندما أرى الفِتيانَ في سنِّ النشاطِ البالغِ يُقَصِّرون على دروسٍ نظريةٍ صرفة، وأنهم يُقدِّفون في العالمِ وفي الأمورِ دفعةً واحدةً ومن غيرِ أقلِّ تجرِبَةٍ، أجدُّ في هذا صدمًا للعقلِ والطبيعةِ معًا، وأعودُ لا أدَّهش من قِلَّةِ مَنْ يَعْرِفون ما يصنعون، وبآيةِ ذهنيةٍ غريبةٍ نُعلِّمُ أشياءَ كثيرةً غيرَ نافعة، مع عدمِ عدِّ فنِّ العملِ شيئًا مذكورًا؟ يُزَعَمُ أننا نُعدُّ للمجتمعِ، ونُعلِّمُ كما لو كان على كلِّ واحدٍ مِنَّا أن يقضيَ حياته في التفكيرِ وحده داخلِ حُجيرته، أو أن يعالجَ موضوعاتٍ باطلَّةً مع أخلياء. وأنتم تعتقدون أنكم تُعلِّمون أولادكم أمرَ الحياة، وذلك بتلقينهم شيئًا عن التواءِ العَضَلِ في البدنِ وصيغًا في الكلامِ لا معنى لها، وأنا أيضًا علِّمتُ إميلَ أمرَ الحياة؛ وذلك لأنني علِّمته الحياةَ مع نفسه، وأن يكسِبَ عيشه فضلًا عن ذلك، ولكن هذا لا يكفي؛ فلا بدَّ للحياةِ في العالمِ من معرفةٍ معاملةِ النَّاسِ، ولا بدَّ من معرفةِ الوسائلِ التي يُؤثِّرُ بها فيهم، ولا بدَّ من تقديرِ الفعلِ وردِّ الفعلِ للمصلحةِ الخاصةِ ضمنَ المجتمعِ المدني، ومن البَصْرِ في الحوادثِ بَصْرًا صائبًا، فيندُرُ خُدْعُه في مشروعاته، متَّخذًا في كلِّ وقتٍ أفضلَ وسائلِ النجاحِ على الأقل. ولا تسمَحُ القوانينُ للفِتيانِ بالقيامِ بمصالحهم الخاصةِ والتصرُّفِ في أموالهم الخاصة، ولكن ما نفعُ

هذه الاحتياطات لهم إذا لم يستطيعوا حتى السنّ المقررة اكتساب أية تجربة كانت؟ وما كانوا ليربحوا شيئاً من الانتظار، وهم يكونون في الخامسة والعشرين من سنّهم من الجدّة كما لو كانوا في الخامس عشر من عُمرهم. أجل، يجب أن يُمنع الفتى الذي يُعميه جهله أو تخدعه أهواؤه من الإضرار بنفسه، ولكنه يُسمح للإنسان في كل سنّ أن يكون محسناً، ولكنه يُمكن في كل سنّ أن يُحافظ على التعساء الذين لا يحتاجون إلى غير سنّد، وذلك تحت إشراف رجلٍ حكيم.

ويتمسك المراضع والأمهات بالأولاد لما يبذلن لهم من رعاية، وتحمّل ممارسة الفضائل الاجتماعية حبّ الإنسانية إلى صميم الأفتدة، ويصيح الإنسان صالحاً بفعل الخير، ولا أعرف معروفاً أضمن من هذا مطلقاً، واشغلوا تلمذكم بالأعمال الصالحة التي هي في متناولها، ولتكن مصلحة المعوزين مصلحة دائمة، ولا يقتصر على مساعدتهم من ماله، بل ليشملهم برعايته، وليخدمهم، وليحمهم، وليقف شخصه ووقته عليهم، وليجعل من نفسه وكيلهم؛ فهو لن يقوم في حياته بعمل أنبل من هذا، وما أكثر المظلومين الذين لم يُسمع لهم قطّ فيفوزوا بالعدل عندما يطلبه لهم بناتٍ عظيم تودّي إليه مزاولة الفضيلة، وعندما يقتحم أبواب الكبراء والأغنياء، وعندما يُلغ موطئ العرش عند الضرورة، إسماعاً لصوت المكروبين المؤصدة ذونهم جميع المقابلات بسبب يؤسهم، والذين يستحوذ عليهم خوف العقاب على مصائبهم التي ائتلوا بها، فلا يجزؤون حتى على التوجع منها!

ولكن هل نجعل من إميل فارساً دواراً، أو بطلاً للمظلومين نصيراً، أو خيالاً مغواراً؟ وهل يتدخل في الشئون العامة، ويجعل من نفسه الحكيم المدافع عن القوانين لدى الكبراء والحكام والأمير، ويجعل من نفسه المستدعي لدى القضاة والمحامي في المحاكم؟ لا أعرف شيئاً من جميع هذا، ولا تُغيّر كلمتا المُجون والاستهزاء شيئاً من طبيعة الأمور، وسيصنع كل ما يعرف أنه نافع صالح، ولن يصنع ما هو أكثر من هذا، وهو يعلم أنه لا نافع ولا صالح له غير ما يلائم سنّه. وهو يعلم أن واجبه الأول يكون تجاه نفسه، وأن على الفتيان أن يحذروا أنفسهن، وأن يكونوا متحفظين في سلوكهن، مُحترمين لمن هم أسنّ منهم، حافظين للسانهم، مُمسكين عن القول بلا سبب، متواضعين في الأمور الخلية، ولكن مع إقدام في صنع الخير وجرأة في قول الحق. وهذا ما كان عليه أولئك الرومان الأماجد، الذين كانوا قبل أن يُقبلوا في المناصب يقضون شبابهم في تعقب المجرمين والدفاع عن الأبرياء من غير أن تكون لهم مصلحة سوى التفقه حين خدمة العدل والمحافظة على حسن الأخلاق.

ولا يُحِبُّ إميلُ الضوضاءَ ولا الشجارَ بين النَّاسِ،^{١٤} حتى بين الحيوان، وهو لم يُحَرِّضْ كلبين على العراكِ قَطُّ، وهو لم يحمل كلبًا على تعقُّبِ سِتَّورِ قَطُّ. وهذه النفسُ المسالمةُ هي نتيجة تربيته التي لم تُثِرْ أنانيته ولا زهوًا فيه، فحوَّلته عن طلب ملامدَه في قهر الآخرين وبؤسهم، وبؤلمه منظرُ الألم، وهذا شعورٌ طبيعي، والذي يجعل الفتى يقسو ويتلذذُ بمنظرٍ تعذيبٍ كلَّ ذي حسٍّ هو عدُّه نفسه معصومًا من ذات الألام بحكمته أو بأفضليته عن ترديد زهوٍ، ومن يُكُنِّ وراء متناول الزَّهو لا يُمكن أن يقع في العيب الذي ينشأ عن الزهو؛ ولذا فإن إميلَ يحب السلام، ويسرُّه خيالُ السعادة، وهو إذا ما استطاع المساعدة على إحداثها كانت هذه وسيلةً إضافيةً لمشاطرة النَّاسِ إياها، ولم أفترض أنه حين رؤيته التعمساء لا يكون لديه غيرُ تلك الرحمة الجديبة الجافية التي تكفي بالرتاء لكروبٍ تستطيع أن تشفي منها، ومن شأنِ خيره الفعَّال أن يَمُنَّحه من فوره معارفَ ما كان لينالها مطلقًا بقلبٍ أشدَّ قسوةً، أو إنه ينالها مؤخرًا، وهو إذا ما رأى خلافًا بين رفقائه حاول أن يُوفِّقَ بينهم، وهو إذا ما رأى خُرْبَاءَ بحث عن سببِ كُرْبِهِم، وهو إذا ما رأى رجلين متباغضين أراد أن يَعْرِفَ علَّةَ بغضائهم، وهو إذا ما رأى مظلومًا يئن من مظالمِ ذي سلطانٍ وذي ثراءٍ بحث عن وسائلٍ لرفعِ هذه المظالم، وما يساوره من أكراتٍ لجميع البائسين يجعله يُعنى بالوسائل التي يختم بها بؤسهم، وما نصنع للانتفاع بهذه القابليات على وجهٍ بلائم سنَّه؟ أن ننظم جهوده ومعارفه، وأن نستخدم غيرته لزيادتها.

^{١٤} ولكن ما يكون سلوكه إذا ما شاجره آخر؟ أجب عن هذا بقولي إنه لن يكون عرضةً لشجارٍ ما دام في وضعٍ لا يعرض معه لشجار، ولكن يُعقَّب على هذا بأن يُسأل: من ذا الذي يكون في مأمنٍ من صفةٍ أو إهانةٍ تصدُر عن فظٍّ أو سَكِّيرٍ أو وعدٍ يبدأ بفضح صاحبه حتى يتلذذ بقتله؟ هذا شيء آخر؛ فلا يجوز أن يكون شرفُ المواطنين ولا حياتهم تحت رحمة فظٍّ أو سَكِّيرٍ أو وعدٍ، ولا يستطيع أحدٌ أن يحفظ نفسه من مثل هذا الحادث كما أنه لا يستطيع أن يحفظها من آجرة، وتُعَدُّ الصفة أو الإهانة التي تنزل وتحتل من النتائج المدنية التي لا تستطيع أية حكمة أن تمنع وقوعها، ولا تستطيع أية محكمة أن تنتقم للمعتدى عليه. ونقص القوانين يجعله في هذا مستقلًا إذن؛ فهناك يكون وحده حاكمًا وقاضيًا بينه وبين المعتدي، ويكون وحده مفسرًا ومدبرًا للقانون الطبيعي، ويكون من الواجب عليه إقامة العدل، ويمكنه أن يقيمه وحده، ولا يوجد في الأرض حكومة تبلغ من السخافة ما تجازيه على إقامته لنفسه في مثل هذه الحال. ولا أقول إنه يجب عليه أن يُقاتل؛ فهذه حماقة، وإنما أقول إنه مُلزم بإقامة العدل لنفسه، وإنه وحده مؤرَّع له في ذلك. ولو كنت ملكًا لأعرضت عن المراسيم الكثيرة الفارغة حول المبارزات ولأجبت بأنه لا يكون هنالك صفة ولا إهانة في مملكتي مطلقًا، وذلك بوسيلةٍ بالغة البساطة لا تتدخل المحاكم فيها أبدًا. ومهما يكن من أمرٍ فإن إميلَ في مثل هذه الحال يَعْرِف ما يجب عليه من عدلٍ لنفسه، كما يَعْرِف العبرة التي يأتي بها نفعًا لسلامة ذوي الشرف، ولا يتوقَّف على أثبت الرجال أن يحول دون الإهانة، وإنما يتوقَّف عليه أن يحول دون التفاخر طويلًا بما كان من إهائته.

ولا أَنْعَبُ من قولي مُكْرَرًا: اجْعَلُوا جميعَ دروسِ الفتيانِ عمليةً أكثرَ منها كلاميةً، ولا ينبغي أن يتعلَّم الأَوْلَادُ شيئًا من الكتبِ يُمكنُ أن يتعلَّموه من التجربة، ويا لسخافةِ خطةٍ في تمرينهم على الكلامِ مع عدمِ وجودِ موضوعٍ يتكلَّمون عنه، وفي اعتقادِ جعلهم يشعرون، وهم على مقاعدِ المدرسة، بقوةِ لسانِ الأهواءِ وجميعِ قوةِ فنِّ الإقناع، وذلك من غيرِ وجودِ مصلحةٍ في إقناعِ أحد! ألا إن جميعِ قواعدِ البيانِ لا تبدو غيرَ هذَرٍ لِمَنْ لا يَعْرِفُ استخدامها نفعًا له، وما أربُّ التلميذِ في معرفته كيف شَجَّعَ أنبيالُ جنوده على مجاوزةِ جبالِ الألب؟ تقوا بأنه يكون أكثرَ انتباهًا إلى قواعدكم لو قلمت له، بدلًا من هذه الخطبِ الفخمة، ما يجب أن يصنعَ لِحَمَلِ مديره على منحه عُطلةً.

ولو أردتُ أن أُلقيَ البيانَ على فئتي نَمَتِ جميعُ أهوائه لَعرضتُ عليه بلا انقطاعِ أمورًا صالحةً لمداراةِ أهوائه، ولدرستُ معه ما يجب أن يتخذَ من لسانِ نحوِ الآخرين حَمَلًا لهم على استحسانِ رغائبه، بيِّدُ أن إميلَ ليس في وضعٍ ملائمٍ لفنِّ البيانِ بهذا المقدار؛ فهو إذ قَصَرَ تقريبًا على المادِيِّ الضروريِّ فإنه أقلُّ احتياجًا إلى الآخرين من احتياجِ الآخرين إليه، وهو إذ ليس لديه ما يسألهم عنه لنفسه فإنَّ ما يُريدُ إقناعهم به لا يَمَسُّه عن كَثَبٍ فيهِزَّهُ إلى الغاية؛ ومن ثمَّ يرى أنه يجب أن يكون على العموم ذا لسانٍ بسيطٍ قليلِ المَجاز؛ وذلك لأنه يتكلَّم في أمرٍ مقصودٍ عادةً، وليكونَ مفهومًا فقط، وهو قليلُ الحِكمِ والأمثال؛ وذلك لأنه لم يتعلَّم تعميمَ أفكاره، وهو قليلُ الصور؛ وذلك لأنَّ من النادرِ أن يكون هاويًا.

ومع ذلك، فليس ذلك لأنه فاترُ المزاجِ باردٌ تمامًا؛ فلم تكن سِنَّهُ ولا أدوافُهُ ولا أخلاقُهُ لتَسْمَحَ بذلك، وهو في دَوْرٍ مراهقتهِ الناريِّ تَحْمِلُ الأرواحَ المُنعِشةُ، المحترسةُ المقطرَّةُ المكررةُ في دمه، إلى قلبه الفتِيَّ حرارةً تَلْمَعُ في نظراته، وتُحَسُّ في كلامه وتُصِرُّ في أعماله، وقد اكتسبَ منطقتَهُ نبرَةً، وصَوْلَةً أحيانًا، وما يُلْهِمُهُ من شعورٍ نبيلٍ يَمْنَعُهُ القوَّةَ والرَّفعةَ، وبما أنه أُشْرِبَ حُبَّ الإنسانيةِ الرقيقِ فإنه يُفْضِي حين يتكلَّم بخواطرِ قلبه، ولا أعْرِفُ كيف هذا، ولكن يوجد في صدقِ طويِّته من الفُتُونِ ما هو أعظمُ مما يوجد في بلاغةِ الآخرين المصنوعة، وإن شئت فقل إنه وحده هو البليغُ حقًا ما كان عليه أن يُظْهِرَ ما يشعُرُ به لينقله إلى مَنْ يستمعون له.

وكَلِّمًا فكَرْتُ في ذلك وجدتُ حين أضغُ حُبَّ الخيرِ موضعَ العملِ على ذلك الوجه، وحين استنيطُ من توفيقنا الحسنِ أو السيِّئِ تأمُّلاتٍ حولِ أسبابه، معارفَ نافعةً قليلةً لا يُمكنُ تعهُّدها في رُوحِ الفتِي، وأن هذا الفتِي يكتسبُ زيادةً على ذلك، ومع ما يُمكن اكتسابه في المدارس من معرفةٍ صحيحة، علمًا أكثرَ أهميةً أيضًا، وهو تطبيقُ هذا المُكتسَبِ على أغراضِ الحياة، وإذا ما بَلَغَ ذاك

المقدار من الاكتراث لامثاله لم يكن من الممكن ألا يتعلم باكرًا وزن أعمالهم وأذواقهم وملاذهم وتقديرها، وألا يجعل على العموم، لمن يمكن أن يساعد سعادة الناس أو يضربها قيمة أقوم مما يجعل لمن لا يُبالون بأحدٍ فلا يصنعون للآخرين شيئًا مطلقًا، ويرى الذين لا يُعنون بغير أمورهم الخاصة كثيري الوَلع بالحكم في الأشياء حكمًا سديدًا، وذلك أنهم إذ يَعُدُّون كلَّ شيءٍ مؤثِّرًا فيهم وحدهم، ويُظَمُّون مبادئ الخير والشرِّ وَفَقَ مصلحتهم الوحيدة، يملنون نفوسهم بألف مُبتَسِرٍ مُشيرٍ للسخرية، وأنهم يرون من فؤرهم انقلاب جميع العالم في كلِّ ما يُصيب أقلَّ منفعةٍ لهم.

ولتجعل الأثرة شاملةً للآخرين، ولنحوّلها إلى فضيلة، والفضيلة هي ما لا يوجد فؤادٌ لا يكون جذرها فيه، وكلّما قلَّ ارتباطُ غرضِ جهودنا فينا مباشرةً قلَّ الخوفُ من وهم المصلحة الخاصة، وكلّما غمّمت هذه المصلحة صارت منصفة، وليس حُبُّ الجنس البشري شيئًا غير حُبِّ العدل فينا، وإذا ما أردنا أن يُحبَّ إميلُ الحقيقةِ إذن وإذا ما أردنا أن يَعْرِفَها، فلنُتمسك بهيئًا من نفسه دائمًا، وكلّما وقفَ جهوده على سعادة الآخرين كانت هذه الجهودُ نيرةً حكيمة، وَقَلَّ خَدْعُهُ في الخير والشرِّ، ولكن لا نسمح له بأن يأتي أيّ تفضيلٍ أعمى قائمٍ حصراً على المحاباة وسبقي الميل المخالف للعدل، ولم يؤدي فردًا خدمةً لآخر؟ إن مما يهّمه قليلاً أمرٌ من يَقَعُ عليه أعظم سعادةٍ في القسمة بشرط أن يساعد على أعظم سعادةٍ للجميع؛ فهناك مصلحة العاقل الأولى بعد مصلحته الخاصة؛ وذلك لأن كلَّ واحدٍ جزءٌ من نوعه، لا جزءٌ من فردٍ آخر.

ويجبُ للحول دون تدنّي الرحمة إلى ضعف، أن تُعمَمَ إذن، فنُشرَ بين جميع الجنس البشري، وهناك لا يُسترسَلُ فيها إلا بمقدار اتّفاقها مع العدل؛ وذلك لأن العدل بين جميع الفضائل هو أكثرها مساعدةً على النفع العام. ويقضي العقلُ وحبنا لأنفسنا أن تكون رحمتنا لنوعنا أكثر مما لجارنا؛ فمن القسوة الكبيرة على الناس أن يُرحم الأشرار.

ولكنّ مما يجبُ تذكُّره هو أن جميع هذه الوسائل التي أقدِف بها تلميذي خارج نفسه هكذا ذات صلة مباشرة به في كلِّ وقتٍ مع ذلك ما نشأت عنها لذة باطنية فضلاً عن كوني أعمل لتعليمه الخاص؛ إذ أجعله محسنًا نفعًا للآخرين.

والوسائل هي أوّل ما قدّمْتُ، والآن أرى نتيجتها، ويا للمناظر الكبرى التي أرى انتظامها في رأسه شيئًا فشيئًا! ويا للمشاعر الرفيعة التي تُطفئ في فؤاده أصل الأهواء الحقيرة! ويا لصفاء التمييز وسداد العقل اللذين أبصرُ تكوينهما فيه بفعل الميول المُهدّبة والتجربة التي تجمع آمال النفس العظيمة ضمن حدّ الممكنات الضيق، والتي تجعل الرجل الذي يعلو الآخرين يعرف أن

يَهِيْطُ إِلَى مَسْتَوَاهُمْ لِعَجْزِهِمْ عَنِ الِارْتِقَاءِ إِلَى مَسْتَوَاهُ! إِنْ مَبَادِيَّ العَدْلِ الحَقِيْقِيَّةِ وَنَمَاذِجِ الحَمَالِ الحَقِيْقِيَّةِ وَجَمِيْعِ صَلَاتِ النَّاسِ الأَدْبِيَّةِ وَجَمِيْعِ آرَاءِ النَّاسِ فِي النِّظَامِ تُنْقَشُ صِيْمَنَ إِدْرَاكِهٖ، فَيَرَى مَكَانَ كُلِّ شَيْءٍ وَالسَّبَبَ الَّذِي يُبْعِدُهُ مِنْهُ، وَيَرَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوَجِّبَ الخَيْرَ وَمَا يَمْنَعُهُ، وَهُوَ مِنْ غَيْرِ شَعُوْرٍ بِالأَهْوَاءِ البَشْرِيَّةِ يَعْرِفُ مَا يُسْفِرُ عَنْهَا مِنْ أَوْهَامٍ وَعَمَلٍ.

وَأَتَقَدَّمُ مَسُوْقًا بِقُوَّةِ الأُمُوْر، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُفْرِضَ نَفْسِي مُتَحَكِّمًا فِي أَحْكَامِ القُرَّاءِ، والقُرَّاءِ مَا انْفَكُّوا يَرَوْنِي فِي بِلْدِ الأَوْهَامِ مِنْذُ زَمَنِ طَوِيْلِ. وَأَمَّا أَنَا، فَمَا فَتَشْتُ أَرَاهِمُ فِي بِلْدِ المُتَبَسِّرَاتِ، وَمَا فَتَشْتُ بِابْتِعَادِي عَنِ الآرَاءِ العَامِيَّةِ كَثِيْرًا، أَرَاهِمُ مَائِلِيْنَ فِي ذَهْنِي وَأَدْرُسُهُمْ، وَأَفَكِّرُ فِيهِمْ، لَا لِأَتَّبِعَهُمْ وَلَا لِأَتَجَسَّسَهُمْ، بَلْ لِأَزْنَهُمْ بِمِيزَانِ البِرْهَانِ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَحْمِلُنِي البِرْهَانُ عَلَى الِابْتِعَادِ عَنِ هَذِهِ الآرَاءِ العَامِيَّةِ أَعْلَمُ عَنِ تَجْرِيْبَةِ أَنْ قُرَّائِي لَا يُقَلِّدُونَنِي، وَأَعْرِفُ أَنَّهُمْ إِذْ يُصِرُّوْنَ عَلَى عَدَمِ تَصَوُّرِهِمْ مُمَكِّنًا غَيْرَ مَا يَرَوْنَ، يَعُدُّوْنَ الفَتَى الَّذِي أُصَوِّرُهُ مَوْجُوْدًا خِيَالِيًّا وَهَمِيًّا لِاخْتِلَافِهِ عَنِّي يَقَابِلُوْنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَهُمْ يَتَسَوَّنُونَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَخْتَلِفَ عَنْهُمْ مَا دَامَ قَدْ نُشِيَ عَلَى غَيْرِ مَا نُشِنَا، وَتَأَثَّرَ بِمَشَاعِرٍ مَغَايِرَةٍ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ، وَتَعَلَّمَ عَلَى خِلَافِ مَا تَعَلَّمُوا، فَتَكُوْنُ مَشَابِهَتُهُ لَهُمْ أَدْعَى إِلَى الخَيْرَةِ مِنْ ظَهُوْرِهِ كَمَا أَفْتَرَضُهُ، وَهُوَ لَيْسَ إِنْسَانُ الإِنْسَانِ، بَلْ إِنْسَانُ الطَّبِيْعَةِ، وَلَا مِرَاءَ فِي وَجُوْبِ كُوْنِهِ غَرِيْبًا فِي أَعْيُنِهِمْ كَثِيْرًا.

وَإِنِّي حِيْنَ بَدَأْتُ هَذَا الكِتَابَ لَمْ أَفْتَرَضْ شَيْئًا لَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أَلْحَظَهُ أَنَا وَالأَخْرُوْنَ، وَأَعْنِي بِذَلِكَ وَلا دَةَ الإِنْسَانِ الَّتِي هِيَ نَقْطَةُ انْطِلَاقٍ نَسِيْرٌ مِنْهَا جَمِيْعًا عَلَى السَّوَاءِ، وَلَكِنَّا كَلَّمْنَا تَقَدُّمَنَا ابْتِعَادَ بَعْضُنَا عَنْ بَعْضٍ لِمَرَاعَاتِي الطَّبِيْعَةَ وَالإِفْسَادِ كَمِ إِيَاهَا، وَكَانَ تَلْمِيْذِي وَهُوَ فِي السَّادِسَةِ مِنْ سِنِيهِ يَخْتَلِفُ عَنِ تَلَامِيْذِكُمْ قَلِيْلًا، لِمَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْكُمْ مِنَ الوَقْتِ مَا تُشَوِّهُوْنَهُمْ مَعَهُ، وَالآنَ عَادَ لَا يُوْجِدُ شَيْئًا يَتَشَابَهُوْنَ بِهِ، وَمِمَّا يَجِبُ هُوَ أَنْ تُبَدِيْهَ سُنُّ الرِّجُوْلَةِ الَّتِي يَدْنُو مِنْهَا عَلَى شَكْلِ مُطْلَقٍ الِاخْتِلَافِ عَنْهُمْ مَا لَمْ أَكُنْ قَدْ أَضَعْتُ جَمِيْعَ جِهُوْدِي. أَجَلٌ، قَدْ تَكُوْنُ كَمِيَّةُ المُكْتَسَبِ مَسَاوِيَةً لَدَى الطَّرْفِيْنَ، بَيِّنٌ أَنْ الأُمُوْرَ المُكْتَسَبَةَ لَا تَتَشَابَهُ مَطْلَقًا، وَمِنْ دَوَاعِي خَيْرَتِكُمْ أَنْ تَجِدُوْا لَدَى وَاحِدٍ مِنَ المَشَاعِرِ العَالِيَةِ مَا لَا يُوْجَدُ لَدَى الأَخْرِيْنَ أَقْلٌ أَصْلٌ لَهُ، وَلَكِنْ اذْكُرُوا أَيضًا أَنْ هُوْلَاءِ صَارُوا فَلَاسْفَةً وَلا هُوْتِيْنَ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ إِمْبَالٌ مَا الفَلَسْفَةُ، وَقَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ قَوْلًا حَتَّى عَنِ الرَّبِّ.

وَإِذَا أَتَيْتُمْ وَقَلْتُمْ لِي: «لَا يُوْجَدُ أَحَدٌ مِمَّنْ تَفْتَرِضُ، وَلَمْ يُصْنَعْ الفِتْيَانُ عَلَى هَذَا الوَجْهِ مَطْلَقًا، وَعِنْدَهُمْ هَذَا الهَوَى أَوْ ذَاكَ، وَهُمْ يَفْعَلُوْنَ هَذَا أَوْ ذَاكَ.» كَانَ هَذَا كَيْفَ إِكْرَامِكُمْ إِمْكَانَ وَجُوْدِ شَجَرَةٍ كَثْمَثِي كَبِيْرَةٍ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَرَى غَيْرَ أَشْجَارٍ كَثْمَثِي قَصِيْرَةٍ فِي حَدَائِقِنَا.

وأرجو من هؤلاء القضاة المُسرعين في اللوم أن يذكروا أن ما يقولون هناك مما أعرف كما يعرفون، وأن من الراجح أن فكَّرتُ فيه ملياً، وأنه يحقُّ لي وليس لي غرضٌ في فرضه أن يُنفقوا من الوقت على الأقل ما يبحثون فيه عمّا أُحدِّع منه، وليبحثوا جيِّداً في كيان الإنسان، وليتبعوا مراحل نشوء القلب الأولى في هذا الحال أو ذلك، ليروا مقداراً ما يُمكن الفرد أن يختلف عن الآخر بقوة التربية، ثمَّ ليقابلوا بين منهجي في التربية والنتائج التي أعزوها إليه، وليقولوا وجه الخطأ في بياني؛ فهناك لا يكون لديّ ما أُجيب عنه.

والذي يجعلني أكثر توكيداً لذلك وأهلاً للمعذرة عن ذلك، كما أعتقد، هو أنني أقلُّ ما يُمكن التفاتاً إلى البرهان، وأني لا أعمد على غير المشاهدة، وذلك بدلاً من استنادي إلى أيِّ مذهب، ولا أُقيم أفكارٍ على ما تخيلتُ مُطلقاً، بل على ما رأيتُ. أجل، إنني لم أحصُر تجاربي ضمن أسوار مدينة، كما أنني لم أقصُرُها على طبقةٍ واحدةٍ من النَّاس، بيِّد أنني بعد أن قابلتُ بين كثيرٍ من الطبقات والشعوب التي أمكنني أن أراها في حياةٍ قُضيت في ملاحظتها، حذفْتُ كأمرٍ مصنوعٍ ما هو من شعبٍ لا من آخر، وما هو من طبقةٍ لا من أخرى، ولم أعدُّ على أنه خاصٌّ بالإنسان خصوصاً لا ريب فيه، غير ما هو مشتركٌ بين الجميع في أيِّ دورٍ من العُمر كانوا، ومن أية طبقة كانوا، وإلى أية أمة انتسبوا.

والواقع أنكم إذا كنتم وفقَّ هذا المنهج تتعقبون منذ دُور الصِّبا فتي لم يكتسب شكلاً خاصاً مطلقاً، فيكون أقل ما يُمكن اتِّباعاً لسلطان الآخرين وآرائهم، فهل ترون أنه يكون أكثرَ مشابهةً لتلميذي أو لتلاميذكم؟ فهذه هي المسألة التي يلوح لي وجوب حلِّها ليُعرف هل أنا على ضلال.

ولا يسهُل على الإنسان أن يبدأ بالتفكير، ولكنه إذا ما أخذ يفكر لم ينقطع عن التفكير مطلقاً، ومن يفكر يفكر دائماً، وعندما تُمرن قوَّة الإدراك على التأمل ذات مرة تعود غير قادرة على البقاء ساكنة، ويمكن أن يُعتقد أنني أفعل كثيراً أو قليلاً، وأنه ليس من طبيعة الإنسان أن يفتح سريعاً، وأني بعد أن أعطيت من التسهيل ما ليس لديه، أمسكه لطويل زمنٍ مقيِّداً ضمن دائرة من الأفكار يجب أن يجاوزها.

ولكن اذكروا أولاً أنني حين أريدُ تكوينَ إنسانٍ الطبيعة لا أودُّ أن أجعل منه لهذا السبب وحشياً وأن أقصيه إلى وَسَطِ الغاب، وإنما يكفيه وهو محصورٌ داخل عاصفة المجتمع ألا تسوقه أهواء النَّاس ولا آراؤهم، وأن يرى بعينه ويشعر بقلبه، وألا يسيطر عليه سلطانٌ خارج سلطان عقله الخاص. ومن الواضح في هذا الوضع أن كثرة الأمور التي تقف نظره، ووفرة المشاعر التي تؤثر فيه، ومختلف الوسائل التي تُقضى بها حاجاته الحقيقية؛ أشياء يجب أن تُعطيه من الأفكار الكثيرة ما ليس لديه، أو ما يكتسبه زويداً رويداً، وقد عُجِّل تقدُّم الذهن الطبيعي، ولكنه لم يُقلَّب. والإنسان

الذي يجب أن يبقى غيباً في الغاب، يجب أن يغدو عاقلاً رصيناً في المُدُن إذا ما كان ناظرًا بسيطاً فيها، ولا شيء أصلح لِجَعْلِ الإنسانِ حكيماً من الحماقات التي يراها من غير أن يشترك فيها، حتى إن الذي يشترك فيها يتعلم أيضاً بشرط ألا يُخدع بها، وألاً يَحْمِلَ إليها خطأً من يأتونها.

وإذكروا أيضاً أننا إذ نُقَصِّرُ بأهليتنا على الأمور المحسوسة، لا نكاد نجد سبيلاً إلى المبادئ الفلسفية المجردة وإلى الأفكار الذهنية الصرفة، ويجب لبلوغها أن نتخلص من الجسم الذي ترتبط فيه ارتباطاً وثيقاً، أو أن نتقدم بالتدريج وعلى مهلٍ من شيء إلى آخر، أو أن نجاوز الفاصلة بسرعة وبوثية واحدة تقريباً وبخطوة هائلة لا تُستطاع في ذور الصبا، بخطوة تقتضي القيام بعدة درجات تُصنع حتى للرجال قسداً. والفكر المجرد الأول هو أولى هذه الدرجات، ولكنه يَشُقُّ عليّ كثيراً أن أرى كيف يعرُّ للبال صنعها.

وإن الموجود غير المفهوم، والمحيط بكل شيء، وواهب الحركة للعالم، وصانع نظام الكائنات؛ لا تُدرکه الأبصار، ولا تلمسه الأيدي، ولا تناله حواسنا؛ فالصنع بادٍ، ولكن الصانع خافٍ، ثم إن معرفة وجوده ليست من الأمور الصغيرة، ومتى بلغنا هذا ومتى سألنا: من هو؟ أين هو؟ اضطرب ذهننا وتاه، وعُدنا لا نعرفُ فيم نفكر.

ويريدُ لوك أن يُبدأ بدراسة الأرواح، وأن يُنتقل بعد ذلك إلى دراسة الأجسام، وهذا هو منهج الخرافات والمبْتَسرات والضلال، وليس هذا منهج العقل مطلقاً، ولا منهج الطبيعة المتقنة التنظيم أيضاً، وهذا هو إغماض العيون لتعلم الرؤية، ولا بد من دراسة الأجسام زمناً طويلاً حتى يمكن تكوين فكرٍ صحيحٍ عن الأرواح ويُتصوّر أنها موجودة، ولا يصلح النظام المعاكس لغير قيام الدهرية.

وبما أن حواسنا هي أولى معارفنا، فإن الموجودات المادية المحسوسة وحدها هي التي تكون لدينا فكرة مباشرة عنها، وليس لكلمة «روح» أي معنى لمن لم يفلسف. وليس الروح غير جسمٍ لدى العوام والأولاد، أولاً يتصورون أرواحاً تصيح وتتكلم وتحدث ضحيجاً؛ والواقع أنه سيعترف لي بأن هناك أرواحاً لها ذراعان وألسنة تُشابه الأبدان كثيراً؛ ولذا ترى جميع أمم العالم، ومنها اليهود، قد جعلت لها آلهة ذوي أجسام، وترانا أيضاً من المُشَبَّهة بكلمات الروح والفالوث والأقانيم، وأعترف بأننا نعلم أن نقول إن الله في كل مكان، ولكننا نعتقد أن الهواء في كل مكان أيضاً؛ أي في جَوِّنا على الأقل. ولا تعني كلمة «روح» في أصلها غير «نَسمة» و«ريح»، وإذا ما عوَّدتم الناس على قول كلماتٍ من غير أن يدركوها سهل عليكم بعد ذلك أن تجعلوهم يقولون كل ما تريدون.

ويَحْمِلُنَا جسُّ تأثيرنا في الأجسام الأخرى على اعتقادنا في البداءة أنها حين تُؤثِّرُ فينا

يكون تأثيرها مشابهًا للوجه الذي نؤثرُ به فيها، وهكذا فإن الإنسان بدأ بإحياء جميع الموجودات التي كان يُحسُّ تأثيرها، والإنسان إذ شعر بأنه أقلُّ قوةً من مُعظم هذه الموجودات، عن عدم علمٍ بحدود قدرتها، افترض أنه لا نهاية لهذه القدرة، فجعل منها آلهةً حالما جعل منها أجسامًا، والناس في الأجيال الأولى إذ خافوا كلَّ شيءٍ لم يروا موتًا في الطبيعة، ولم تكن فكرة المادة أقلَّ بطوةً في تكوُّنها باطنًا من فكرة الروح ما دامت هذه الفكرة تجريديًا بنفسه. وهكذا فإنهم ملئوا الكونَ بآلهةٍ ذوي إحساس، فكان لكلِّ من النجوم والرياح والجبال والأنهار والشجر والمدن، حتى البيوت، روحه وإلهه وحياته. وكانت أصنامُ لا بان ومعبودات المتوحشين وأوثان الزنوج وجميع أعمال الطبيعة والناس أولَ آلهةٍ للأنام، وكان تعدُّد الآلهة أولَ دين لهم، وكانت الوثنية عبادتهم الأولى، وهم لم يستطيعوا الاعترافَ بإلهٍ واحدٍ إلا بعد أن عمَّموا أفكارهم مقدارًا فمقدارًا، فأصبحوا في حالٍ يرتقون به إلى العلة الأولى ويجمعون معه نظامَ الموجودات الشامل تحت فكرة واحدة، ويُطلقون معنىً على كلمة «الجوهر» التي هي أعظمُ المجردات في الأساس؛ ولذا فإن كلَّ ولدٍ يؤمن بالله وثنيًّا يحكم الضرورة، أو إنه مُشبهٌ على الأقل. وإذا حدث أن أبصر الخيالُ الربَّ ذات مرة كان من النادرِ تمثُّله بقوة الإدراك، وهذا هو الخطأ الذي يؤدي إليه مذهب لوك.

فأما وقد انتهيتُ، ولا أدري كيف، إلى فكرة الجوهر المجردة، يُرى للتسليم بالجوهر الفرد أنه يجب أن تُفترض له خاصياتٌ متناقضةٌ متناقضةٌ تبادلًا كالتصوُّر والحجم القابل أحدهما للانقسام واللذين ينفي الآخرُ منهما كلَّ قابليَّةٍ للانقسام، ثمَّ إن مما يُدرك كَوْنُ التصوُّر - وإن شئت فقلَّ الإحساس - خاصيَّةٌ أصليَّةٌ غيرَ قابلةٍ للانفصال عن الجوهر المُتعلِّقة به، وقلَّ مثلَ هذا عن الحجم بالنسبة إلى الجوهر؛ ومن ثمَّ يُستنتج كَوْنُ الموجودات التي تفقد إحدى هذه الخاصيات تفقد الجوهرَ الذي تتعلَّق به، وكون الموت ليس سوى تفرُّق الجواهر، وكون الموجودات التي تتَّحد فيها هاتان الخاصيتان مؤلَّفةً من جوهرين تتعلَّق بهما هاتان الخاصيتان.

والآن اذكروا، كما هو الواقع، أيُّ بُعدٍ لا يزال باقيا بين مبدأ الجوهرين ومبدأ الطبيعة الإلهية، وبين المبدأ غيرِ المُدرك عن عمَلِ روحنا في بدنا ومبدأ عمَلِ الرِّبِّ في جميع المخلوقات، وكيف تتمثَّل مبادئ الخلق والزوال والوجود في كلِّ مكانٍ والأزلية والقدرة المطلقة ومبدأ الصفات الإلهية، كيف تتمثَّل هذه المبادئ التي ينفرد أناسٌ قليلون إلى الغاية برؤيتها بالغة الإبهام والغموض كما هي، والتي لا غموض فيها لدى العوامِّ لعدم إدراكهم شيئًا منها، كيف تتمثَّل بجميع ما فيها من قوة؛ أي بجميع ما فيها من غموضٍ، لفتيانٍ لا يزالون يُشغَلون بأعمال الحواسِّ

الأولى، ولا يتصوّرون غير ما يلمسون؟ ومن العبث أن تكون هُوى اللانهايي كلها مفتوحة حَوْلنا، ولا يُعرَفُ الولدُ أن يخافها مطلقاً، ولا تستطيع عيناه الضعيفتان أن تسيرا غورها، وكلُّ شيءٍ لا نهائي عند الأولاد، ولا يُعرَفُ الأولادُ أن يضعوا حدوداً لشيء، لا لأنهم يجعلون القياس طويلاً جداً، بل لأن إدراكهم قصيرٌ حتى إنني لاحظتُ وضعهم اللانهايي دون الأبعاد التي يَعْرِفُونَ. وهم يُقدِّرون المسافة الواسعة بأرجلهم أكثر مما بأعينهم، ولا تمتد المسافة عندهم إلى أبعد مما يُمكنهم أن يروا، بل لا تمتد إلى أبعد مما يُمكنهم أن يسيروا. وإذا ما حَدَّثُوا عن قدرة الربِّ قدَّروه بالغاً مثل قدرة أبيهم تقريباً. وبما أن معرفتهم في كلِّ أمرٍ تكون عندهم مقياساً للممكّنات، فإنهم يحكمون فيما يُقال لهم دائماً بأنه أقلُّ مما يَعْرِفُونَ؛ فهذه هي الأحكام الطبيعية التي تصدُر عن ذهن جهولٍ ضعيف. وقد خشيتُ أجكس أن يُقاس بأشيل، وقد دعا جوبيتر للقتال عن معرفةٍ بأشيل وعدم معرفةٍ بجوبيتر، وقد كان أحد قروبي سويسرة يظنُّ أنه أغنى النَّاس، فلما أُوضح له شأن الملك سأل مختالاً: «هل يستطيع الملك أن يملك مائة بقرة في الجبل؟»

وأبصرُ كثرةَ القراء الذين يحارون من تنبُّعي الدورِ الأوَّل من عُمر تلميذي من غير أن أُحدِّثه عن الدين، وقد كان ابناً للخامسة عشرة من سنه لا يَعْرِفُ هل له روح، ومن المحتمل أنه إذا ما بلغ الثامنة عشرة من سنه لم يحلَّ من الوقت ما يتعلَّم معه هذا؛ وذلك لأنه إذا ما تعلَّمه بأسرع ممَّا يجبُ تعرَّضَ لخطرٍ عدم تعلُّمه مطلقاً.

ولو كان عليّ أن أصوِّر الغباوة المُغمَّة لصورْتُ متحدليقاً يُعلِّم الأولاد كتابَ الدين، ولو أردتُ أن أجعل الولد مجنوناً لحملته على إيضاح ما يقول عند قراءته كتاب دينه، وسيعترض عليّ بأن يُقال إن أكثرَ العقائد النصرانية إذ كانت أسراراً فإن انتظار الدُّور الذي تصير فيه نفسُ الإنسان قادرةً على إدراكها، يعني انتظار تحوُّل الولد إلى رجل؛ أي انتظار عُددِ الرجل غير موجود. وأوَّل ما أُجيب به عن هذا وجود أسرارٍ يتعدَّر على الرجل أن يتمثلها فضلاً عن اعتقادها، ولا أرى ما يكسب من تعليم الأولاد إياها غير تدريسهم الكذب باكراً، وأقول زيادةً على ذلك، إن الإقرار بالأسرار يقضي بإدراك كونها لا تُدرَك على الأقل، ولا يقدر الأولاد حتى على ذلك الإدراك؛ ففي السن التي يكون كلُّ شيءٍ سرّاً فيها لا تُوجد أسرارٌ حصراً.

«يجب أن نؤمن بالله إذا أردنا النجاة»؛ فهذه العقيدة التي أُسيء إدراكها هي أصلُ عدم التسامح السَّفَّاح، وهي سببُ جميع تلك التعاليم الباطلة التي تُصيب العقل البشري بضربة قاضية عن تعويده القناعة بالكلمات، ولا وراء في أنه يجب عدم إضاعة ساعةٍ لاستحقاق النجاة الأبدية، بيد أنه

يكفي تكرار بعض الألفاظ لتبليها، ولا أرى ما يمنع من إعمار السماء بالترازير والغزبان كما بالأولاد. ويفترض واجب الإيمان إمكان الإيمان، ويُخطئ الفيلسوف الذي لا يؤمن؛ وذلك لسوء استعماله العقل الذي تعهده، ولأنه في حال يدرك بها الحقائق التي يبنيها، ولكن ما يعتقد الولد الذي يدين بالنصرانية؟ يعتقد ما يدرك، وهو من قلة إدراك ما يُحمَل على قوله ما إذا قُلتم له العكس سَلَم به طوعاً أيضاً، ويُعدُّ إيمان الأولاد وكثير من الرجال أمراً جغرافياً، وهل يُكافنون على ولادتهم في رومة أكثر مما في مكة؟ يُقال لأحدهم إن مُحَمَّدًا رسول الله، فيقول إن محمداً رسول الله، ويُقال لآخر إن مُحَمَّدًا ماكرٌ، فيقول إن مُحَمَّدًا ماكرٌ، وكان كلُّ واحدٍ يؤكِّد ما يؤكِّد الآخر لو غيّر مكانه. وهل يُمكن أن يُسار عن مقصدين متشابهين إلى الغاية، فيرسَل أحدهما إلى الجنة والآخر إلى النار؟ وإذا قال الولد: أومن بالله، فليس الله هو الذي يؤمن به، بل يؤمن ببطرس أو يعقوب الذي يقول له إنه يُوجد شيء يُسمَّى الرب، وهو يؤمن به على طريقة أوربيدس القائل:

أي جوبيتر الذي لا أعرف منه غير اسمه!^{١٥}

ونذهب إلى أن كلَّ ولدٍ يموت قبل سنِّ العقل لا يُحرَم السعادة الأبدية، ويعتقد الكاثوليك عين الشيء عن كلِّ ولدٍ عمَّد وإن لم يسمع حديثاً عن الله، وتوجد إذن أحوال تُمكن النجاة بها من غير إيمان بالله، وتكون هذه الأحوال في الولودية وفي الجنون حينما يعجز الروح البشري عن الأفعال اللازمة لمعرفة الله، ويقوم الخلاف الذي أراه هنا بيني وبينكم على زعمكم أن الأولاد حائزون هذه القابلية في السادسة من سنينهم وعلى كوني لا أمنتهم إياها حتى في الخامسة عشر من عُمرهم. وسواء أكنت مخطئاً أم صائباً ليس الأمر هنا مادة إيمان، بل ملاحظة بسيطة حول التاريخ الطبيعي.

ويُضح من عين المبدأ أن الإنسان إذا ما بلغ المشيب من غير إيمان بالله لا يُحرَم لهذا السبب مخصر الربِّ في الحياة الآخرة إذا لم يكن عمّاه اختيارياً. وأقول إنه ليس اختيارياً دائماً، وتوافقون، من حيث المجانين، على أن مرضاً يحرمهم خصائصهم الروحانية، لا خاصية الإنسان ولا الحق في نعم خالقهم نتيجة، ولم لا نوافق على مثل ذلك إذن في أمر أولئك الذين فُرزوا من كلِّ مجتمع منذ صباهم فقضوا حياةً بالغة الهمجية، وحرموا من المعارف ما لا يُكتسب إلا بمعاشرة الناس؟^{١٦} وذلك لأن من المُحال الثابت قدرة مثل هذا الهمجي على الارتقاء بتأملاته إلى معرفة الإله الحق، ويُخبرنا العقل بأن

^{١٥} بلوتارك: «رسالة في الحب»، ترجمة أميو. وذلك هو الذي تبدأ به مأساة مينالبيوس، غير أن صيحات أهل أثينة أكرهت أوربيدس على تغيير ذلك البدء.

^{١٦} انظر إلى القسم الأول من رسالة «أصل النفاوت» حول الحال الطبيعية للروح البشرية وحول بطء تقدّمها.

الإنسان لا يُجَارَى إلا بسيئاته المقصودة، وأن جهلاً حائلاً كذاك لا يُمكن عُدّه جنائياً منه؛ ومن ثمّ يستبيط أن كُلّ إنسانٍ يُحسبُ مؤمناً أمامَ العدلِ الأبدي إذا كان لديه من البصائر ما هو ضروري، وأنه لا يوجد من الكفّار من يُجَارُونَ غيرَ الذين أقفلت قلوبهم دون الحق.

ولتحتريز من أن ننبئ بالحقيقة من ليسوا قادرين على إدراكها، وذلك لما ينطوي عليه هذا من إقامة الخطأ مقامها، وأجددُ ألا تُحازَ أيةُ فكرةٍ عن الألوهية من أن تُحازَ عنها أفكارٌ حقيرةٌ وهميةٌ صارةٌ غيرُ لاثقةٍ بها، ولأنّ تُنكرَ أقلُّ سوءاً من أن تُهان. قال بلوتاركُ الصالح: «أفضّلُ كثيراً أن يُعتقدَ عدمُ ظهورِ بلوتارك في العالم على أن يُقال إن بلوتارك ظالمٌ حاسدٌ مغيار، وأن يكون طالِباً أكثرَ من أن يكون فعّالاً إذا ما كان جيّاراً.»

وأعظمُ سوءٍ في الصُّورِ المشوّهة عن الألوهية التي تُنقشُ في ذهنِ الأولادِ هو أنها تبقى فيه هكذا مدى حياتهم، فيعودون لا يتصوّرون إذا ما صاروا رجالاً إلهاً آخرَ غيرِ إلهِ الأولاد. وما رأيتُ في سويسرة ربةً أسرةً سالحةً تقيّةً بلغت من اعتقادها هذا المبدأ ما لم تُرد معه قطُّ أن تُعلّمَ ابنها اللدين في الدُّورِ الأوّل من العُمُر، وذلك خشيةً أن يقنع بهذا التعليم الغليظ فلا يلتفت إلى ما هو أحسنُ منه إذا ما بلغ سنّ الرشد، وكان هذا الولدُ لا يسمع حديثاً عن الربِّ إلا مع جَمعِ الحواسِّ والإجلال، وكان إذا ما أراد الكلامَ عنه بنفسه يفرض السكوتَ عليه كموضوعٍ رفيعٍ بالغِ العظَمِ بالنسبةِ إليه، وكان هذا التحفُّظُ يُثيرُ فضوله. وكانت أثرته تتطلّع إلى وقتِ الاطلاع على هذا السرِّ الذي يُخفي عنه بكثيرٍ من العناية، وكان كلما قلَّ تحدّثه عن الربِّ، وقلَّ سماحه لنفسه بالحديث عن الربِّ؛ كثرَ اكرامه له؛ فهذا الولدُ كان يرى الربِّ في كلِّ مكان، وكان أكثرُ ما أخافه من أمرِ هذا السرِّ الذي يُلوح به على غيرِ رصانةٍ أن يُلهبَ خيالَ الفتى كثيراً فيقلب رأسه ويُجعل منه متعصبٌ بدلاً من أن يُجعل منه مؤمن.

ولكن لا تخفُ شيئاً من هذا على إميل الذي لا يلتفتُ إلى كلِّ ما هو فوق مُتناوله، فيستمع مع عدمِ اكرامٍ عميقٍ إلى ما لا يُدرِك من الأمور، وما أكثرَ الأمورَ التي تعودُ إميلُ أن يقول عنها بلا تفریق: «إن هذا لا يعنيني!» فمتى أخذ يُبالي بهذه المسائلِ الكبيرة لم يصدُرُ هذا عن اقتراحٍ يسمعه، وإنما ينشأ عن توجيهِ معارفه، التي تقدّمت تقدُّماً طبيعياً، مباحثه إلى هذه الناحية.

وقد رأينا أيُّ الطُرقِ التي تدنو بها الروحُ البشرية المتثقفة من تلك الأسرار، وأسلم طوعاً بأنها لا تنتهي إليها، بخكم الطبيعة، في صميم المجتمع نفسه كما في سنِّ أكثر تقدُّماً، ولكن بما أنه يُوجد في المجتمع من الأسبابِ ما لا يُجتنب فيعجلُ به تقدُّم الأهواء، فإنه إذا لم يُعجل تقدُّم المعارف التي تنفع في تنظيم هذه الأهواء، خرّج من نظام الطبيعة حقاً واختلّ التوازن، وإذا لم

يُسَيَّرُ على تعديلٍ تقدُّمٍ كثيرٍ السرعةِ وَحَبَّ أن يُقَادَ بذات السرعةِ أولئك الذين يجب أن يلائموه، وذلك لكيلا يُقَلَّبَ النظام، ولكيلا ينفصل عنه مَنْ يجب أن يلازمه، ولئلا يكونَ الإنسان، الذي هو كلُّ في جميع أوقات حياته، عند هذه المرحلة ببعض أهلياته، وعند تلك المرحلة بأهلياته الأخرى.

ويا لَلْعَقِبة التي أرى قيامها هنا! هذه العقبة التي تعظم كلما كانت في الأشياءِ أقلَّ منها في جُبنِ مَنْ لا يَجْرُءون على اقتحامها، ولنبداً بالإقدام على عَرْضها على الأقل. ويجب أن يُشَأَّ الولدُ على دينِ أبيه، ويُرَهَّنُ للولد دائماً برهنَةً حسنةً على أن هذا الدين وحده مهما كان هو الدين الحق، وأن جميع الأديان الأخرى ليست غير باطلٍ وهذيان. وتتوقَّفُ قوَّةُ البراهين من هذه الناحية توقُّفاً مطلقاً على البلد الذي تُعْرَضُ فيه، وليذهب التركي الذي يجد النصرانية في الآستانة غايَةً في السخافة إلى باريس ليرى كيف يُنظَرُ إلى الإسلام فيها! ففي موضوع الدين على الخصوص يُكتب النصر للمُبْتَسِرِ، وأمَّا نحن الذين يريدون خَلْعَ نيرِه عَنَّا في كلِّ شيء، وأمَّا نحن الذين لا يريدون مَنَحَ السلطان شيئاً، وأمَّا نحن الذين لا يودُّون تعليمَ إميل شيئاً لا يستطيع أن يتعلَّمه بنفسه في كلِّ بلد، فعلى أيِّ دينٍ نُربِّيهِ؟ وإلى أيِّ مذهبٍ نَضُمُّ ابنَ الطبيعة هذا؟ إن الجواب بسيطٌ إلى الغاية كما يلوح لي، وهو أننا لن نَضُمَّه إلى هذا أو إلى ذلك، وإنما نضعه في حالٍ يختار فيها الدين الذي يسوقه إليه حُسنُ إعمال عقله.

«أسيرُ من بين النيران التي يَسْتُرُّها رماذٌ خادع.»

لا صَيِّرْ! قامت الغيرةُ وحُسنُ النيةِ عندي مقامَ الحَدَرِ حتى الآن، وأرجو ألا تتركني هذه الضماناتُ عند الضرورةِ مطلقاً، ولا تخافوا، أيُّها القراء، صدورَ احترازاتٍ مِنِّي غيرَ لاثقةٍ بصديق الحقيقة؛ فلن أنسى شعاري، ولكنني أسمح لنفسني كثيراً بأن أحذر من أحكامي، وأقول لكم ما يُفكِّرُ فيه رجلاً أفضلُ مِنِّي بدلاً من أن أقول لكم ما أفكِّرُ فيه بنفسي، وأضمن صدقَ الوقائع التي أرويها لكم؛ فهي قد حصلتُ للمؤلف الذي أنقلها منه، ولكم أن تروا هل يُمكن استنباطُ تأملاتٍ مفيدةٍ منها حولَ الموضوعِ الحاضر، ولا أقترح عليكم اتخاذَ رأيي أو رأيِ رجلٍ آخرٍ قاعدة، وها أنا ذا أعرضُها عليكم للبحث فيها: ١٧*

منذ ثلاثين سنةً وُجد شابٌّ في مدينةٍ إيطالية، وُجد فيها شابٌّ نُفي من وطنه، فكان في أشدِّ درجات الفاقة، وكان قد وُلِدَ كُفْنِيًّا، ولكنه وقد وُجدَ لاجئاً إلى بلدٍ أجنبيٍّ بلا معاشٍ نتيجةً

١٧ * يقصد المؤلف نفسه فيها، والكلمة له؛ فهو يقصُّ فيها خبرَ إقامته بتورينو سنة ١٧٢٨، ومَنْ يرغب في تفصيل ذلك فليراجع الباب الثاني من «الاعترافات» للمؤلف. (المترجم)

طُش، غيَّرَ دينه نَيْلاً للعيش. وكان يُوجَد في هذه المدينة مأوى للمهتدين حديثاً، فُقيل فيه، ويُعلَّم الجدلَ فيُلَقَّن شُبُهاتٍ لم تكن عنده، ويُعلَّم سوءاً كان يجهله، وذلك أنه يسمع عقائد جديدة، ويرى طبائع أكثرَ جدَّةً أيضاً، ويراهما، ويكاد يذهبُ ضحيَّتها، ويُريد الفرار، ويُقفل عليه، ويشكو، ويُعاقب على شكواه، ويقع تحت رحمة طُعاته، ويُعامل معاملة المجرمين لأنه لم يُرد الإذعان للإجرام. ولْيَتصوَّر حالة فؤاده أولئك الذين يَعْرِفون مبلغَ ما يُثير بلاءَ العنف الأول وبلاءَ الجور الأول في قلب فتى غير مُجرَّب. وتذرف عيناه دموعَ الغيظ، ويتحنقه الحنق، ويضرع إلى السماء والناس، ويأتمن العالم، فلا يُنصت له أحد، ولا يرى غيرَ خديمِ أذنياء خاضعين للفضوح الذي يُهينه، أو شركاء في ذات الذنب يستخزون من مقاومته، فيحرضونه على تقليدهم. وقد كاد يضلُّ لو لم يأتِ الملجأُ إكليريكيَّ صالحٍ لبعض الشئون، فيجد وسيلةً لاستشارته سراً. وكان هذا القسيس فقيراً، وكان محتاجاً إلى جميع الناس، ولكن المضطهد كان أشدَّ احتياجاً إليه، فلم يتردد في مساعدته على الفرار مجازفاً بانتحالٍ عدوَّ خطيرٍ لنفسه.

وينجو الشابُّ من المُنكر ليعود إلى الفقر، فيكافح مصيره على غير جدوى، وذلك مع اعتقاده ذات حينٍ أنه يفوز عليه، وتُنسى همومه وحاميه عند أولٍ وميضٍ من حُسن الطالع. ولم يلبث أن عُوقِبَ على هذا الكُنود؛ فقد زالت جميعُ آماله، وذلك أنه وإن كان له عوْنٌ بشبابه كانت أفكاره الروائية تُفسد كلَّ شيء، وذلك بما أنه ليس لديه من الاستعداد والحدق ما يكفي لشقِّ طريق سهل. وبما أنه لا يَعْرِف أن يكون معتدلاً ولا حبيثاً، فإنه ادَّعى أموراً كثيرةً لم ينل منها شيئاً، وذلك أنه إذ وقع في ضيقه الأول خالياً من العيش خالياً من المأوى، وكاد يموت جوعاً؛ فقد دَكَرَ المُحسين إليه.

ويعود إليه، ويجده، ويُحسِنُ قبوله، ويُذَكِّرُ منظره الإكليريكي بعملٍ صالحٍ كان قد صنعه. وذكرى مثل هذه تُسرُّ النفس دائماً. ومن الطبيعي أن كان هذا الرجل إنسانياً رءوفاً؛ فكان يُحسُّ آلامَ الآخرين بآلامه، ولم يقسُ قلبه بيسرٍ قط. والخلاصة أن دروسَ الحكمة والفضيلة المنوَّرة كانتا قد تَبَسَّتا صلاحه الطبيعي. ويستقبل الشابُّ، ويبحث له عن مأوى، ويوصي به، ويقاسمه حاجيَّه الذي لا يكاد يكفي الاثنين، ويفعل أكثرَ من هذا، وذلك أنه يُتَقَفُّه ويُسَلِّيهِ ويُعلِّمه فنّاً صعباً، يُعلِّمه فنَّ احتمالِ البؤس بصبر، فإيا أصحابِ المُبْتَسرات، أنتظرون وجودَ جميعِ هذا من قسيسٍ في إيطاليا؟

وكان هذا الإكليريكيُّ الصالح قسّاً فقيراً من سافوا، وكان قد أساء إلى أسقفه عن نَزَقِ شباب، فجاوز الجبالَ بحثاً عن مَورِدٍ كان يُعوِّزُه في بلده، ولم يكن خالياً من ذكاءٍ ولا ثقافة، وهو لِمَا كان من

مُحِيَاهِ الْمَوْجِبِ لِلتَّلَفَاتِ، وَجَدَ مِنَ الْخُمَاءِ مَنْ جَعَلُوهُ عِنْدَ وَزِيرٍ لِنَيْشِيِّ ابْنِهِ. وَتُفَضَّلُ الْفَقْرَ عَلَى الْخُسُوعِ، وَلَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَكُونُ سَلُوكُهُ لَدَى الْكِبْرَاءِ، فَلَا يَبْقَى طَوِيلًا عِنْدَ ذَاكَ، وَهُوَ إِذْ يَتْرَكُهُ لَا يَفْقِدُ مَكَانَتَهُ مَطْلَقًا، وَهُوَ إِذْ يَعِيشُ عَيْشَ حَكِيمٍ يُحِبُّ نَفْسَهُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَيَغْتَبِطُ بِمَا لَاقَى مِنْ عَفْوِ أَسْقْفِيهِ، فَيُنَالُ مِنْهُ أَرْشِيَّةً صَغِيرَةً فِي الْجِبَالِ لِقَضَاءِ بَقِيَةِ أَيَامِهِ فِيهَا، وَكَانَ هَذَا آخِرَ حَدِّ لَطْمُوهِ.

وَيَنْجَذِبُ إِلَى الشَّابِّ اللَّاجِئِ، وَيَسْأَلُهُ بِاهْتِمَامٍ، وَيُبَصِّرُ أَنْ سَوْءَ الطَّالِعِ أَذْبَلَ قَلْبَهُ، وَأَنْ الْاِزْدِرَاءَ وَالْخُزْيَ ثَلَمًا بِأَسِهِ، وَأَنْ زَهْوَهُ تَحْوَلُ إِلَى حُزْنٍ مُرٍّ، فَلَا يَدُلُّهُ بِبَغْيِ النَّاسِ وَقِسْوَتِهِمْ عَلَى غَيْرِ عَيْبِ طَبِيعَةِ النَّاسِ وَوَهْمِ الْفَضِيلَةِ. وَكَانَ قَدْ رَأَى أَنَّ الدِّينَ لَا يَصْلِحُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ قِنَاعٍ لِلْمَنْفَعَةِ، وَأَنَّ الْعِبَادَةَ الْمَقْدَّسَةَ لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ سِوَى سِتَارٍ لِلرِّبَاءِ، وَكَانَ قَدْ رَأَى بِدِقَائِقِ الْجِدْلِ الْفَارِغِ أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ جُعِلَتَا فِي مَقَابِلِ التَّلَاعِبِ بِالْأَلْفَاظِ، وَكَانَ قَدْ رَأَى أَنَّ فِكْرَةَ الْأُلُوهِيَةِ الْعَالِيَةِ الْفِطْرِيَّةِ شَوَّهَتْ بِخَيَالَاتِ النَّاسِ الْجَامِعَةِ، وَهُوَ إِذْ وَجَدَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ يَسْتَلْزِمُ عَدُولًا عَنِ الْعَقْلِ الَّذِي أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، نَظَرَ بَعِينَ الْاِمْتِهَانِ إِلَى أَوْهَامِنَا الْمَضْحَكَةِ وَالِى الْأَمْرِ الَّذِي نُطَبِّقُهَا عَلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ شَيْئًا عَنِ أَصْلِ الْأَشْيَاءِ وَلَا تَصَوُّرًا لَهُ، غَاصَ فِي غِبَاوَتِهِ مَعَ اِزْدِرَائٍ عَمِيقٍ لِجَمِيعِ مَنْ يَطْنُونَ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ عَنْهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْرِفُ.

وَيُوَدِّي نَسِيَانُ الدِّينِ إِلَى نَسِيَانِ وَاجِبَاتِ الْإِنْسَانِ، وَكَانَ هَذَا التَّقْدِمُ نِصْفَ بَعِيدٍ مِنْ فَوَادِ هَذَا الْمَلْحَدِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ سِوَى الْمُنْتَبِتِ. وَلَكِنْ بِمَا أَنَّ الْإِلْحَادَ وَالْبُؤْسَ كَانَا يَخْتَفِقَانِ الْفِطْرَةَ بِالتَّنْدْرِيجِ، فَإِنَّهُمَا كَانَا يَسُوقَانِهِ إِلَى الْبَوَارِ عَلَى عَجَلٍ، وَلَا يُعْدَدَانِ لَهُ غَيْرَ طِبَاعٍ وَغَدٍ وَأَخْلَاقٍ زَنْدِيقِ.

وَلَمْ يَكْمُلِ الشَّرُّ الْحَائِقُ تَقْرِيبًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَكَانَ يَوْجَدُ لَدَى الْفَتَى مَعَارِفًا، وَلَمْ تُهْمَلِ تَرْبِيَتُهُ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْعُمُرِ السَّعِيدِ حَيْثُ يَأْخُذُ الدَّمُ الْفَائِرَ فِي تَدْفِئَةِ الرُّوحِ مِنْ غَيْرِ تَعْبِيدِهَا لَصَوَلَاتِ الْحَوَاسِ، وَلَمْ تَزَلْ نَفْسُهُ مَحَافِظَةً عَلَى نَابِضِهَا، وَكَانَ الْحَيَاءُ الطَّبِيعِيُّ وَالْخُلُقُ الْهَيُوبُ يَقُومَانِ مَقَامَ الصَّبْرِ، فَيَطِيلَانِ لَهُ ذَلِكَ الدَّوْرَ الَّذِي تُمَسِكُونَ فِيهِ تَلْمِيذَكُمْ بِجَهْدٍ كَثِيرٍ، وَمَا كَانَ مِنْ مِثَالٍ بَغِيضٍ عَنِ الْفَسَادِ الْبَهْمِيِّ وَالْمُنْكَرِ بِلَا فُتُونٍ أَوْضَعَفَ خِيَالَهُ بَدَلًا مِنْ إِنْعَاشِهِ، وَقَدْ قَامَ النُّفُورُ مَقَامَ الْفَضِيلَةِ فِي حَفْظِ طَهْرِهِ لِمَنْ طَوِيلَ، وَمَا كَانَ طَهْرُهُ لِيُدْعَى لَغَيْرِ أَعْدَابِ إِغْوَاءِ.

وَأَبْصَرَ الْقَسُّ الْخَطَرَ وَالْوَسَائِلَ، وَمَا كَانَتْ الْمَصَاعِبُ لِتُخَمِدَ نَشَاطَهُ وَيُرْضِيَهُ عَمَلُهُ، وَيَعَزِّمُ عَلَى إِنْجَازِهِ، وَأَنْ يُعِيدَ إِلَى الْفَضِيلَةِ تِلْكَ الضَّحِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ قَدْ اِنْتَشَلَهَا مِنَ الرَّذِيلَةِ، وَيَأْخُذُ فِي تَنْفِيذِ خَطَّتِهِ مَتَحَفِّظًا، وَتُثِيرُ رُوعَهُ الْحَافِزِ شَجَاعَتَهُ، وَتُوحِي إِلَيْهِ بِالْوَسَائِلِ الَّتِي تَنَاسَبُ غَيْرَتَهُ. وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ حَاصِلٍ فَإِنَّهُ كَانَ واثقًا بَعْدَ إِضَاعَتِهِ وَقْتَهُ، وَيُكْتَبُ النِّجَاحَ دَائِمًا لِمَنْ لَمْ يُرِدْ غَيْرَ فِعْلِ الْخَيْرِ.

ويبدأ بكسب ثقة المهندي حديثاً بعدم سؤاله أجرًا على أياديه مطلقًا، وبعدم ظهوره مزعجًا له مطلقًا، وبعدم قيامه بمواعظ نحوّه مطلقًا، وبجعله نفسه في مستواه دائمًا، وبتصاغره حتى يساويه. وكان هذا، كما يلوح لي، منظرًا على شيء من التأثير لما يرى به رجلٌ رصينٌ رقيقًا لمحتال، ولما ترى به الفضيلة مُنصتةً لصوت الإباحة حتى تنتصر عليها لا ريب. وبينما كان الطائش يكشف له عن سرائره الرُغن ويفتح له قلبه، كان القسُ يستمع له ويُلقي السكينة إلى فؤاده، وكان يكثرُ لكلِّ شيءٍ من غير استحسان للسوء، ولم يكن ليصدُر عنه لومٌ مخالفٌ للرّصانة صدًا لهذره وحصرًا لصدّره، وما وجد من لذة في الاستماع إليه زاده رغبةً في قول كل شيء، وهكذا قام باعترافه العامّ ظانًا أنه لم يُثم بأيّ اعترافٍ كان.

ويرى القسيس من الواضح بعد أن درسَ مشاعره وأخلاقه ومن غير جهلٍ لسنته أنه نسي كلَّ ما كان من المُهمّ أن يعرفه، وأن العارَ الذي ألقاه فيه الطالع كان يَحْتَقُ فيه كلُّ شعورٍ حقيقيٍّ بالخير والشر، ويوجد من الانحطاط درجةً تنزع الحياة من الروح، ولا يستطيع صوتُ الباطن أن يُسمع لدى من لا يُفكر في غير الغداء، ويُريد أن يصون الفتى المَكروب من هذا الموت الأدبي الذي كان قريبًا منه كثيرًا، فيبدأ بإيقاظ حبه لنفسه وتقديره لذاته، ويريه مستقبلًا أكثر سعادةً بحسن استعمال مواهبه، ويحيي في فؤاده همّةً كريمةً بما يُفصّل عليه من أعمال الآخرين الرائعة. وهو إذ يجعله مُعجّبًا بصانعيها يحمله على الرغبة في صنْع ما يماثلها، وهو لكي يَفصله عن حياة البطالة والتشرّد فصلاً غير محسوس يحمله على الاقتطاف من كتبٍ مختارة، وهو إذ يتظاهر باحتياجه إلى هذه المقتطفات يُغدي فيه شعورَ معرفة الجميل الكريم، وهو يثقّفه بهذه الكتب ثقافةً غير مباشرة، وهو يخفّزه إلى تكوين رأيٍ حسنٍ عن نفسه لكيلا يظنّ عدم صلاحه لأيّ خيرٍ كان، ولكيلا يكون حقيرًا في نظره الخاص.

ومن الترهات حادثةٌ تحمّل على الحكم في براعة هذا الرجل المحسن الذي رفع بها فؤاد تلميذه فوق كلِّ لومٍ رفعاً غير محسوس، وذلك من غير أن يظهر مفكرًا في أمرٍ تعليمه. وكان هذا الإكليليكي من الصلاح الذائع والتمييز البالغ ما يُفصّل معه كثيرٌ من الناس أن يجعلوا صدقاتهم بين يديه على جعلها بين أيدي خوارنة المدن الأغنياء. ومما حدث ذات يوم أن أُعطيَ نقودًا ليوزّعها بين الفقراء، وقد كان الفتى من الدناءة ما طلب معه حصّةً منها بصفته فقيرًا، ويقول القس: «كلّا، نحن رهبانٌ، وأنت منسوبٌ إليّ، فلا يجوز لي أن أمسّ هذه الوديعة نفعًا لي.» ثمّ أعطاه من ماله الخاص مقدارًا ما طلب، فدروسٌ من هذا النوع ينذرُ أن تضيع في قلب الفتيان الذين لم يفسدوا تمامًا.

ويُتبعني أن أتكلّم كشخصٍ ثالث، والجُهد غيرُ ضروري؛ وذلك لأنك تشعر أيها المواطن العزيز بأن هذا اللاجئ التّعبس هو أنا، وأُظنني من الابتعاد عن فُسوق شبابي ما أجرؤ معه على الاعتراف به، وأن اليد التي انتشلتني منه تستحقُّ تكريمًا على إحسانها، وإن كان على حساب بعض العُدّار.

وكان أكثرُ ما يَقفُ نظري هو أن أرى في حياة مُعلّمي الفاضل فضيلةً بلا رِثاء، ورأفةً بلا ضَعف، وكلامًا صادقًا بسيطًا دائمًا، وسلوكًا ملائمًا لهذا الكلام دائمًا، ولم أره قطُّ يلفت إلى أن الذين يساعدهم يقيمون الصلاة، أو أنهم يعترفون غالبًا، أو أنهم يصومون في الأيام المقرّرة فلا يتناولون لحمًا، كما أنه لا يفرض عليهم شروطًا مماثلةً يُمكن أن تموتوا غيرها جوعًا قبل أن تَرجوا أيَّ عُونٍ من المتقين. وأبتعد عن عَرَضِي أمامه غيرَ مهتدٍ حديث، وأتشجّع بهذه المشاهدات، ولا أكنم عنه شيئًا من أوجه تفكيري، ولا يؤذيه هذا. ومما أقول في نفسي أحيانًا إنه يتغاضى عن عدم اكتراثي للذين الذي اعتنقتُ لما يرى من عدم اكتراثي أيضًا للذين الذي نشأتُ عليه؛ فهو يَعْرِفُ أن استخفاي غيرُ موجّهٍ إلى نِخْلَةٍ معينة، ولكن ما يكون تفكيري حينما كنتُ أسمعُه في بعض الأحيان يَستحسن عقائدَ مخالفةً لعقائد الكنيسة الكاثوليكية، ويُبدِي قليلَ تقديرٍ لجميع طقوسها؟ كنتُ أذهب إلى أنه بروتستانتِيّ متنكّرٌ لو رأيتُه أقلَّ إخلاصًا لهذه العادات التي كان يبدو قليلَ التقدير لها، ولكنني كنتُ أعلم أنه يقوم بهذه الواجبات الدينية في السر والعلانية قِيامًا دقيقًا؛ فلا أدري كيف أحكّم في هذه المتناقضات. ولكن إذا عدوت الخطأ الذي أدّى إلى زوال حُطوته سابقًا، والذي لم يُصلح كلّه، وجدتُ حياته مثالية، وأن أخلاقه لا غُبارَ عليها، وأنه صادقٌ منصفٌ في كلامه، وأعيش معه على أعظم ما يمكن من صفاء، وأتعلّم أن أحترمه كلَّ يومٍ أكثرَ من قبل، ويستولي هذا اللطف على فؤادي تمامًا فأنتظر مباليا كلَّ المبالاة وقت اطلّاعي على المبدأ الذي يُقيمُ عليه تناسقَ حياةٍ كثيرة الغرابة كحياته.

ولم يَحِلَّ هذا الوقت سريعًا؛ فهو قبل أن يكشف لتلميذه أسرارَ قلبه بذل جُهدَه في إنبات بذور العقل واللطف التي ألقاها في روحه. وكان أصعب ما يُمكن إزالته من نفسي هو نفوري من النَّاس مع الاختيال، هو غلظتي نحو الأغنياء والسعداء، كأنَّ غناهم على حسابي، وكان سعادتهم المزعومة قد اغتصبت من سعادتِي، وما يساور الشباب من زهوٍ أرعنٍ يقاوم الهوانَ لم يُوجب غيرَ زيادةٍ مِلي إلى الحَقِّ. وبما أن حُبَّ الذات الذي كان مُرشدي يحاولُ إيقافه فيّ يَحْمِلُنِي على الخِيلاء، فإنه كان يجعل النَّاسَ أشدَّ لؤمًا في نظري ولا يُسْفِرُ عن غير إضافة الازدراء إلى الحقد عليهم.

ولا يكافح هذا الزهو كفاحاً مباشراً، وإنما يمتنع من تحوُّله إلى قسوة قلب، ولا يترنح مئياً تقديري لنفسي، وإنما يجعله أقلَّ استخفافاً بقربي. وهو إذ يُعيدُ الظاهر الفارغ دائماً، وهو إذ يدُلُّني على ما ينطوي عليه الظاهر من شرورٍ حقيقية، يُعلِّمني الرثاءَ لخطيئات أمتالي والرِّقة لأبؤسهم والتوجُّع لهم أكثر من حسدهم. وهو إذ يهتزُّ رافقاً بالضعف البشري عن شعور عميق بضعفه الشخصي، يرى في كلِّ مكانٍ ضحايا عيوبهم الخاصة وعيوب الآخرين، ويرى أنين الفقراء تحت نير الأغنياء، وأنين الأغنياء تحت نير المُبتسرات، ويقول: «صدَّقوا قولي، إن الأوهام تزيد شرورنا بدلاً من إخفائها، وذلك بجعلها قيمةً لما ليس له قيمة، ويجعلنا نُحسُّ ألفَ حرمانٍ ما كنَّا لنشعر به لولاها، وتقوم راحة النفس على ازدراء كلِّ ما يُمكن أن يُزعجها. ويُعدُّ أحرصُ النَّاسِ على الحياة أقلُّهم قدرةً على التمتع بها، ويُعدُّ أطمعُ النَّاسِ في السعادة أكثرهم بؤساً دائماً.»

وأصْرُخُ بمرارةٍ قاتلاً: «وي! يا لها من صورٍ كئيبة! إذا ما وَجَبَ رفضُ كلِّ شيءٍ، فما فائدة ولادتنا إذن؟ وإذا ما وَجَبَ ازدراءُ السعادةِ نفسها، فمن ذا الذي يكون سعيداً؟» وعن هذا يجيب القسُّ ذات يومٍ بلهجةٍ وقفَّت نظري: «هو أنا.» «أنت سعيد! أنت سعيدٌ مهما قلَّ عَوْنُ الطالع ذلك، ومهما بلغت من الفقر والنفي والاضطهاد! وماذا فعلتَ لتكون سعيداً؟» وعن هذا يجيب القسُّ: «أي بُني، سأقول لك هذا طَوْعاً.»

وهنالك أخبرني أنه يودُّ أن يُدلي باعترافاته بعد أن تلقَّى اعترافاتي، ويقول لي معانقاً: «سأصُبُّ في صدرك جميع مشاعر فؤادي، وستراني كما أبدو لنفسي على الأقل إن لم يكن كما أنا عليه، ومتى تلقيتَ اعترافي الديني بكامله، ومتى عرفتَ حال نفسي جيِّداً، علمت السبب في عدِّ نفسي سعيداً. وإذا ما فكَّرت في الأمر مثلي علمت كيف تكون سعيداً أيضاً، بيِّد أن هذه الاعترافات ليست مسألةً دقيقة، فلا بدَّ من وقتٍ كافٍ لأشرح لك جميع ما أفكَّر فيه حول مصير الإنسان، وحول قيمة الحياة الحقيقية، ولنعيِّن وقتاً ملائماً ومكاناً مناسباً للقيام بهذا الحديث بهدوء.»

وأبدي مبادرتي إلى سماعه، ولم يُؤخَّل اللقاء إلى أبعَد من صباح الغد، وكُنَّا في فصل الصيف، ونهض وقت الفجر، ويأتي بي خارج المدينة، إلى تلٍّ عالٍ يمرُّ تحته نهرُ البُو الذي كان يُرى مجراه من بين ضفافه الخصبية المُبلَّلة به، وكانت سلسلة جبال الألب الواسعة تتوجُّ المنظر، وكانت أشعة الشمس الطالعة تمسُّ السهول، وترسم على الحقول ظلالاً طويلةً للأشجار والرُّبى والبيوت، وتُعني بألف عارضٍ من الضياء أروع ما يُمكن أن تقع عليه عينُ إنسانٍ من الصور. ولا عَجَب إذا قيل إن الطبيعة كانت تُعْرِض على أعيننا جميع جلالها تزويداً بنصِّ حديثنا؛ فهنالك،

بعد إمتاع النظر بتلك الأشياء مع صمتٍ حينًا من الزَّمن، حدَّثني رجلُ السلام بما يأتي:

عقيدةُ القسيسِ السافواني

«أيُّ بُني، لا تنتظر منِّي كلامًا علميًّا ولا براهينَ بعيدةَ الغور، فلستُ فيلسوفًا كبيرًا، ولست أبا لي أن أكونه إلا قليلًا، ولكنَّ عندي ذوقًا سليمًا أحيانًا، وأحبُّ الحقيقةَ دائمًا، ولا أودُّ أن أبرهنَ معك ولا أن أحاولَ إقناعك، ويكفيني أن أعرض عليك ما أفكرُ فيه ببساطةٍ فؤادي، وشاورُ قلبك في أثناء حديثي، وهذا كلُّ ما أطلبُ منك، وإذا ما خُدعتَ كان هذا عن حُسن نيةٍ، وحسبي بهذا ألاَّ يُعدَّ خطئي جنابةً، وإذا ما خُدعتُ أيضًا لم ينطوِ هذا على سوءٍ كبيرٍ، وإذا ما أحسنتُ التفكيرَ كان العقلُ مشتركًا بيننا، وكانت لدينا ذاتُ المصلحة في الإصغاء إليه، ولم لا تفكرَ كما أفكرُ؟

لقد وُلدتُ فقيرًا وقرويًا، وقد أُعدِّدتُ بنصيبي لزراعة الأرض، وورثتُ من الأجداد مع ذلك أن أتعلَّم كسبَ عيشي من القسوسة، ويوجد من الوسائل ما أدْرُسُها به، ولا ريب في أننا لم نُفكرَ أنا وأبوأي أن نطلبَ من هذا ما كان صالحًا ولا حقًّا ولا نافعًا، ولكننا فُكرنا فيما يجب أن يُعلَّم لأكون قسًّا، وأتعلَّم ما أريدُ منِّي أن أتعلَّم، وأقول ما أريدُ منِّي أن أقول، وألزم نفسي بما أريدُ منِّي، وأنصَبُ قسًّا. بيِّدُ أنني لم ألبثُ أن شعرتُ بأنني حين ألزمتُ نفسي بالألا أكون رجلًا، وُعدتُ بأكثر مما لا أستطيع إنجازَه.

ويقال لنا إن الشعور وليدُ المُبتسرات، ومع ذلك فإنني أعلم عن تجرِبَةٍ أن الشعور يَعدُّ في اتِّباع نظام الطبيعة على الرغم من جميع قوانين النَّاس. ومن العبث أن نمنع من هذا أو ذاك، ويكون لومُ الندم ضعيفًا دائمًا حول ما تبيحُ لنا الطبيعة الحسنَةَ التنظيم، وأكثر من هذا ضعفُ ذلك اللوم حول ما تأمر به الطبيعة. ويا أيها الفتى الصالح، لم تخاطبِ الطبيعة حواسك بشيءٍ بعد، فعش طويلاً في هذه الحال من السعادة حيث يكون صوتُها صوتَ الطُّهر، وأذكرُ أنَّ سبقتُ لتعليمها يعني إهانتها إهانةً أشدَّ من مكافحتها، ولا بُدَّ من البدء بتعلُّم المقاومة لمعرفة الوقت الذي يُمكن أن يُدعُن فيه بلا إجرام.

وما فتئتُ منذ شبابي أحترم الزواج كأوَّل نظامٍ للطبيعة وأكثرِ نُظمها قُدسًا، وإذا أنزغ منِّي حقَّ الإذعانِ لسلطانهِ فإنني أعزم على عدم انتهاكه مطلقًا؛ وذلك لأنني على ما كان من ثقافتِي ودراستي ومن قضائي حياةً نمطيَّةً بسيطةً، حافظتُ في ذهني على صفاء صوِّي^{١٨} الفطرة كاملاً؛ أي إن أمثال النَّاس لم تُسودها قط، وإن فقري كان يقصيني عن المعريَّات التي تُملئها سفسطة الفسوق.

^{١٨} الصوِّي: جمع صوة، وهي الحجر الذي يكون دليلاً في الطريق

وهذا العزمُ أوجبَ دماري، وذلك أن احترامي لفراس الآخريْن أدَّى إلى كشفِ خطيئاتي، وكان لا بد من التكفير عن زلّتي، وأوقفُ وأحجزُ وأطرّد، وأكون ضحيةً وساوسي أكثر من أن أكون ضحية دعارتي. وكان لديّ ما أدركُ معه من التعزير الذي لازم زوال حُطوتِي أنه يجبُ في الغالب زيادةُ الخطيئة للإفلات من العقوبة.

وقليلٌ من التجارب المماثلة يَسوقُ الذهنَ الذي يتأملُ إلى مدى بعيد، وأبصرُ بمشاهداتٍ كنييةٍ تداعي ما عندي من أفكارٍ عن العدل والصلاح وجميع واجبات الإنسان، فأخسرَ كلَّ يوم بعضَ ما تلقيتُ من آراء. وبما أن ما بقي لديّ منها عادَ غيرَ كافٍ لأصنع منه مجموعةً من الأفكار قادرةً على الوقوف وحدها؛ فقد أحسست بالتدريج اسودادَ وضوح المبادئ في ذهني، ثمّ قُصرتُ على مرحلةٍ عُدتُ لا أدري معها ما التفكير، فانتهيْتُ إلى النقطة التي انتهيتُ إليها، وذلك مع الفرق القائل إن إلحادي الذي هو ثمرةُ تقدُّم في السن قد تكوّن بمشقةٍ عظيمة فيصعب القضاء عليه.

وكنت في حالٍ من الشكِّ والارتياب ما يطلبه ديكارتُ للبحث عن الحقيقة، وما كانت هذه الحال لندوم؛ فهي تورث الهمَّ وتوجب العناء، وما كان لغير حُبِّ العيب وكسل النفس ما يدعنا فيها، ولم يكن لديّ قلبٌ بلغ من الفساد ما يُسرُّ معه بذلك الوضع، ولا شيء أحسنَ حفظاً لعادة التأمل من رضا الإنسان عن نفسه أكثر مما عن نصيبه.

وقد فكّرتُ إذن في مصير النَّاس الكئيب المتموِّج فوق بحر آراء البشر بلا سُكَّان ولا بؤصلة، هؤلاء النَّاس المُوكِّلين إلى أهوائهم العاصفة، وذلك بلا دليلٍ غير رِبانٍ غرٍّ لا يعرف طريقه، ولا يدري من أين يأتي ولا إلى أين يذهب، وأقول في نفسي: «أحبُّ الفضيلة، وأنشدُها، ولا أجدها، ولأطلع عليها حتى أستمسك بها. ولم تَسْتِر وجهها عن قلبٍ جادٍّ صنِع ليعبدها؟»

واني، وإن بلوثُ أشدَّ الآلام في الغالب، لم أقضِ حياةً دائمةً الكرب كما قضيتُ في أوقات القلق والاضطراب تلك؛ حيث كنت ضالًّا بين شكِّ وشكِّ بلا انقطاع؛ فلم أفرَّ من تأملاتي الطويلة بغير الارتياب والإبهام والمتناقضات حول سبب وجودي وحول قاعدة واجباتي.

وكيف يُمكنُ الإنسان أن يكون مُرتابًا عن مذهبٍ وحسن نية؟ لا أستطيع إدراك هذا. وإمّا أن يكون الفلاسفة موجودين، وإمّا أن يكونوا أشقى النَّاس. وإن الشكَّ في الأشياء التي يُهْمُّنا أن نعرفها هو أمرٌ بالغ الشدة في نفس الإنسان، وهو لا يُمكنُ احتمالُه زمنًا طويلًا؛ فالذهنُ يُقرَّرُ إحدى الطُّرق من تلقاء نفسه وعلى الرغم من ذاته، وهو يُفضِّلُ أن يُخلَع على عدم الإيمان بشيء.

والذي كان يُضاعفُ ارتباكي هو أنني إذ وُلِدْتُ في كنيسةٍ تُقرَّرُ كل شيءٍ ولا تُبِحُ أيَّ شك، كنتُ عند رفضِ نُقْطَةٍ أُحْمَلُ على رفضِ بقيةِ النقاطِ، وأنَّ تعلُّمَ التسليمِ بكثيرٍ من الأحكامِ غيرِ المعقولةِ كان يَصِلُني أيضًا عن الأحكامِ التي لم تكن هكذا، وكان إذا ما قيل لي أن أعتقد كلَّ شيءٍ عُذْتُ غيرَ عارفٍ أين أقف.

وشاورتُ الفلاسفةَ، وتَصَفَّحْتُ كُتُبَهُم ودرستُ مختلفَ آرائِهِم، فوجدتهم كلَّهم شَمَّخًا جازمين عقديين حتى في ارتباكِهِم المزعومِ، ووجدتهم لا يجهلون شيئًا، ولا يُشَبِّهون شيئًا، ويَسْخَرُ بعضهم من بعضٍ، ووجدتهم ينتصرون إذا ما هاجموا، ووجدتهم بلا حَوْلٍ إذا ما دافعوا، وإذا وزنتم براهينهم لم تجدوا عندهم منها غير ما هو صالحٌ للهدمِ، وإذا عددتهم الطرقَ أبصرتم اقتصار كلِّ واحدٍ على طريقه. وهم لا يتفقون على غيرِ الجدلِ، ولم يكن استماعي لهم وسيلةً خروجي من ارتباكي.

وخيَّلَ إليَّ أن نقصِ الذهنِ البشريِّ هو السببُ الأوَّلُ لهذا الاختلافِ العجيبِ في المشاعرِ، وأن العُجْبَ هو سببه الثاني، وليس لدينا قياسُ هذه الآلةِ العظيمةِ مطلقًا، ولا نستطيعُ حسابَ نِسْبِها، ولا نعرفُ سُنَنِها الأولى ولا عِلَّتْها الغائيةِ. ونحن نجهلُ أنفسنا، فلا نعرفُ طبيعتنا ولا أصلنا الفاعلِ، ونحن لا نكاد نعرفُ هل الإنسانُ مخلوقٌ بسيطٌ أو مركبٌ؛ وذلك لأن أسرارًا خفيةً مُعَلَّقةً تحيط بنا من كلِّ جانبٍ، وهي فوق المنطقَةِ الحساسةِ. وترانا نعتقد أن لدينا من الذكاءِ ما نُنْفِذُها به مع أنه ليس لدينا غيرُ الخيالِ، وكلُّ يَشَقُّ من خلال هذا العالمِ الخياليِ طريقًا لنفسه يظنُّها صالحةً، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يَعْرِفَ هل تُوصِلُه طريقه إلى الغايةِ، ومع ذلك فإننا نريدُ نفوذها ومعرفتها جميعًا. والأمرُ الوحيدُ الذي لا نعرفه مطلقًا هو جهلنا حدًّا ما يُمكنُ أن يُعرف. ونُفَضِّلُ أن نركنَ إلى المصادفةِ، وأن نعتقد ما ليس موجودًا على الاعترافِ بأن كلِّ واحدٍ مِنَّا لا يستطيعُ أن يرى ما هو ذاك. وإذ كُنَّا جزءًا صغيرًا من مجموعٍ كبيرٍ نَعْرُبُ عنَّا حدودُه ويَدْعُه صانعه لجدالنا الأحمقِ، فإننا من البُطْل ما نريدُ معه أن نُقرَّرَ أمرَ هذا المجموعِ في حدِّ ذاته وأن نُقرَّرَ ما نحن بالنسبةِ إليه.

ومتى صار الفلاسفةُ في حالٍ يكتشفون الحقيقةَ معها، فمن ذا الذي يُعنى بأمرها منهم؟ يَعْرِفُ كلُّ واحدٍ منهم أن مذهبه ليس أحسنَ أساسًا من المذاهبِ الأخرى، ولكنه يؤيده لأنه خاصٌّ به، ولا تجد واحدًا منهم انتهى إلى معرفةِ الحقيقةِ والكذبِ، فلا يُفَضِّلُ الكذبَ الذي وَجَدَ على الحقيقةِ التي اكتشفها آخر. وأين الفيلسوفُ الذي لا يُخادعُ الجنسَ البشريَّ مختارًا في سبيل مجده؟ وأين الفيلسوفُ الذي لا يهدفُ في قرارةِ قلبه إلى شيءٍ آخر غيرِ الامتيازِ من سواه؟ وما يبغي أكثرَ من أن يعلو العوالمَ وأن يُطفئَ نورَ منافسيه؟ والمهم هو أن يفكِّرَ على غيرِ تفكيرِ الآخرين، فيكون ملحدًا عند المؤمنين ومؤمنًا عند الملحدين.

والثمرة الأولى التي اقتطفتها من هذه التأمّلات هي أنني تعلّمتُ قَصْرَ مباحثي على ما كان يُهمُّني مباشرة، وأن أتدرّع بجهل عميق فيما عدا ذلك، وألا أبالي حتى مع الشك بغير الأمور التي كان يجب أن أعرفها.

ومما أدركتُ أيضًا بُعْدَ الفلاسفة من إنقاضي من شكوكي غير المجدية، وأنهم لم يصنعوا غير زيادة الرّيب التي تُزعجني من غير أن يخلّوا واحدةً منها؛ ولذا فقد اتخذت دليلاً آخرَ وقلت في نفسي: «دعني أستبر بنور الباطن؛ فهو أقلُّ تضليلاً لي منهم، أو إن خطئي يكون خاصاً بي على الأقل، فأكون أقلُّ فساداً باتّباع أوهامي الخاصة مما بانقيادي لأكاذيبهم.»

وأعرضُ في ذهني مُختلفَ الآراء التي سيرتني منذ ولادتي مناوبة، فأرى هنالك أنها وإن لم يوجد بينها واحدٌ بلَغَ من الوضوح ما يوجب القناعة حالاً، كانت متفاوتة احتمالاً، فيُعيرها قبولي إياها، أو رفضي إياها باطنياً، أوزاناً مختلفة. وأستند إلى هذه الملاحظة الأولى، فأقابل بين جميع هذه الأفكار المختلفة في سكّون المُتَسَرّات، فأجد أن أوّلها وأكثرها شيوعاً كان أبسطها وأقربها إلى الصواب، وأنه كان لا يُعوزها لجمع جميع الأصوات غير كونها آخرَ ما يُعرض. وتمثّلوا جميع فلاسفتكم القدماء والمعاصرين، وقد استنفدوا في البُداء مذاهبهم الغربية في القوة والحظ والقدر والوجوب والذرات والعالم الحي والمادة الحية والمادية من كلِّ نوع، ثمّ تمثّلوا كالأرك المشهور وهو يُبَيِّنُ العالم مُعلّناً في نهاية الأمر واجب الوجود وواهب الأشياء؛ فأبى إعجاب أشمل، وبأيّ هتافٍ إجماعي، لا يُقبل هذا المذهب الجديد البالغ العظمة والسمو والكثير الصلاح لرفع الروح ومنح الفضيلة قاعدةً والبالغ التأثير والإشراق والبساطة، والأقلُّ عَرَضاً، كما يلوح لي، لأمرٍ لا تُدرِكها النفس البشرية التي تجدها محالّة في كلِّ مذهبٍ آخر، وأقول في نفسي: «إن الاعتراضات المُعضلة شائعة بين الجميع؛ وذلك لأن رُوح الإنسان من الضيق ما لا يستطيع معه أن يخلّها؛ ولذا فإن هذه المعضلات ليست براهين ضدّ أيّ مذهبٍ دون غيره. ولكن يا للفرق بين البراهين المباشرة التي قامت عليها المذاهب! ألا يجب تفضيل ذاك الذي يوضّح وحده كلَّ شيء عندما لا يكون له مثلُ مُعضلات الأخرى؟»

ولذا، فإني إذ أحملُ حبَّ الحقيقة في نفسي كفلسفةٍ وحيدة، وإذ أحمل قاعدةً واضحةً بسيطةً تُغنيني كمنهاجٍ وحيدٍ عن الدقة الفارغة في البراهين، فإني أعود مستعيناً بهذه القاعدة إلى درس المعارف التي تهمني، عازماً على عدّي واضحاً كلِّ ما لا أستطيع أن أمنع عنه موافقتي من المعارف، وعلى عدّي حقيقياً جميع المعارف التي يلوح لي أنها ذاتُ ارتباطٍ لازمٍ في تلك المعارف،

وذلك مع تركي جميع المعارف الأخرى ضمن نطاق من الارتياب لا أرفضها ولا أقبلها معه، وذلك من غير أن أزعج نفسي بإلقاء نورٍ عليها إذا كانت لا تؤدي إلى شيء نافع في ميدان العمل.

ولكن من أنا؟ وما حقي في الحكم في الأمور؟ وما الذي يُعيّن أحكامي؟ إذا كانت نتيجةً حتميةً لما أتلقى من انطباعاتٍ كان من العبث قيامي بمثل هذه التحقيقات؛ فهي لا تتم مطلقاً، أو إنها تتم بنفسها ومن غير أن أتدخل في توجيهها. ولذا، فإن أول ما يجب أن أفعل هو أن أرجع إلى نفسي لمعرفة الآلة التي أريد اتخاذها، والمدى الذي يُمكنني أن أعتد عليه في استعمالها.

وأنا موجود، ولديّ حواسٌ أتأثرُ بها، وهذه هي الحقيقة الأولى التي تقفُ نظري، فألزم بقبولها، وهل لديّ شعورٌ خاصٌ بوجودي فلا أشعر به إلا بإحساساتي؟ هذا هو شكّي الأول الذي يتعدّرُ عليّ حلّه في الوقت الحاضر، وذلك بما أنني أتأثرُ دائماً بالإحساسات مباشرةً أو بفعل الذاكرة، فكيف أستطيع أن أعرف كون شعوري بنفسي أمراً خارجاً عن هذه الإحساسات، وأن من الممكن كون هذا الشعور مستقلاً عن هذه الإحساسات؟

وفيّ تحدّث إحساساتي ما دامت تُشعُرني بوجودي، بيّد أن سببها غريبٌ عني ما دامت تؤثرُ فيّ، سواءً أكان لديّ أيّ سببٍ لوجودها أم لا. ولما لا يتوقّف عليّ أمرٌ وجودها أو أمرٌ إبطالها؟ ولذا فإنني أرى بوضوح أن إحساسي الذي فيّ وسببه أو موضوعه الخارج عني ليساً أمراً واحداً.

وهكذا تُوجد موجوداتٌ أخرى فضلاً عن كوني موجوداً؛ أي توجد موضوعات إحساساتي، حتى إن هذه الموضوعات إذا لم تكن غير أفكارٍ فإن من الصحيح دائماً كون هذه الأفكار ليست أنا.

والواقع أن كلّ ما أحسّه خارج نفسي ويؤثرُ في حواسي أسميه مادة، كما أسمي أجساماً جميع أجزاء المادة التي أتصوّرُها مجتمعةً في موجوداتٍ فردية، وهكذا فإن جميع مجادلات الخياليين والماديين لا معنى لها في نظري؛ أي إن تفريقهم بين ظاهر الأجسام وحقيقتها أمرٌ وهمي.

ومن ثمّ تراني قانعاً بوجود العالم قناعتي بوجودي، ثمّ أتأمل في موضوعات إحساساتي. وبما أنني أجد في نفسي قابليةً المقابلة بينها، فإني أحسُّ أنّصافي بقوة فاعلةٍ لم أعرف حيازتي لها سابقاً.

والشعور هو الإحساس، والقياس هو الحكم، وليس الإحساس والحكم أمراً واحداً. وبالإحساس تظهرُ الموضوعات لي منفصلةً منفردةً كما هي في الطبيعة، وبالقياس أحركها وأقلبها وأضع بعضها فوق بعض لأحكم في اختلافها وتشابهها، وفي جميع علائقها على العموم. وعندني أن صفة الوجود الفاعل أو العاقل المميزة هي القدرة على منح كلمة «هو موجودٌ» معنىً. وأبحث

عبئاً في الموجود الحسي الصَّرف عن هذه القدرة العاقلة التي تَنْضِدُ ثُمَّ تَحْكُمُ، فلا أستطيع أن أراها في طبيعته، وَيَشْعُرُ هذا الموجود المنفعل بكلِّ موضوعٍ على انفراد، أو إنه يَشْعُرُ بالموضوع المجموع المؤلف من الاثنين. ولكن بما أنه ليس لديه من القوة ما يَتَّبِي به أحدهما على الآخر، فإنه لن يقابل بينهما مطلقاً، ولن يحكم فيهما مطلقاً.

ولا تعني رؤية الشئيين معاً رؤيةً علائقيهما، ولا الحكم في اختلافاتهما. وليس الشعور بأشياء كثيرة خارج بعضها عن بعض تعداداً لها؛ فمن الممكن أن تكون لدي في ذات الدقيقة فكرة عن عصاً كبيرة وعصاً صغيرة من غير أن يقابل بينهما ومن غير أن يحكم في كون إحداها أصغر من الأخرى، كما أن من الممكن أن أرى جميع يدي جملةً من غير عدِّ لأصابعي.^{١٩} فهذه الأفكار القياسية: «أعظم، أصغر»، وهذه الأفكار العدديّة: «واحد، اثنان ... إلخ»، ليست إحساساتٍ حقاً، وإن كان ذهني لا يُولِّدُها إلا بمناسبة إحساساتي.

ويقال لنا إن الموجود الحساس يَمَيِّزُ بعضَ هذه الإحساسات من بعضٍ بما بين هذه الإحساسات نفسها من فروق، ويحتاج هذا إلى إيضاح. ومتى كانت الإحساسات مختلفةً ما زَ الموجود الحساس بعضها من بعض بما بينها من فروق، ومتى كانت متشابهةً ما زَ لشعوره بأن بعضها خارجُ بعض، وإلا فكيف يُمازُ شئان متساويان بإحساسٍ حدث في آنٍ واحد؟ لا بدُّ له من أن يخلط بين هذين الشئيين بحكم الضرورة واتخاذهما كأمرٍ واحد، ولا سِماً وفق مذهبٍ يُرَعَم فيه أن الإحساسات التصويرية للمسافة ليست مساوفاً مطلقاً.

ومتى شعَرَ بإحساسين يقابل بينهما، فإن انطباعهما يقع، وإن كلَّ شيءٍ يُحَس، وإنهما يُحَسَّان، بيّد أنه لا يشعر بعلاقتيهما لهذا السبب. وإذا لم يكن الحكم في هذه العلاقة غير إحساس، وإذا كان يأتي من الشيء حصراً، لم تخدعني أحكامي قط؛ وذلك لأنه ليس من الكذب أن أحس ما أحس.

ولم أخدع إذن حول علاقة تينك العَصَوَيْن إذا لم تكونا متوازيتين على الخصوص؟ ولم أقول مثلاً إن العصا الصغيرة تعدلُ ثلثَ الكبيرة مع أنها لا تعدلُ غير رُبْعِها؟ ولم لا تكون الصورة التي هي إحساسٌ مطابقةً لمثالها الذي هو موضوعها؟ ذلك لأنني فاعلٌ حينما أحكم؛ وذلك لأن

^{١٩} تُحدِّثنا رحلات مسيو دولا كوندامين عن شعبٍ لا يَعْرِفُ تعداداً يزيد على ثلاثة، ومع ذلك فإن الناس الذين يتألف هذا الشعب منهم ذوو أيادٍ، فيرون أصابعهم من غير أن يستطيعوا العد حتى الخمسة.

فعل القياس مُختل؛ وذلك لأن إدراكي الذي يحكم في العلاقات يخلط أغاليطه بحقيقة الإحساسات التي لا تُظهِر غير الأشياء.

والى هذا أضيفوا فكرةً تَقِفُ نظركم إذا ما تأملتموها كما أُوكِّد، وذلك أننا إذا ما كنَّا منفعلين محصًّا في استعمال حواسِّنا لم يَكُنَ بينها أيُّ اتصال، وتعدَّر علينا أن نعرف أن الجسمَ الذي نَمَسُّ والشيءَ الذي نرى هُما هُما، وذلك أننا إمَّا ألا نُحسُّ شيئًا خارج أنفسنا مطلقًا، وإمَّا أن يكون لدينا خمسة عناصرٍ محسوسةٍ ليس لدينا أية وسيلةٍ لإدراك ذاتيتها.

ويُطلقُ هذا الاسمُ أو ذاك على قدرةٍ رُوحِي التي تُقَرِّب وتُقَابِل بين إحساساتي، ولتُدعَّ انتباهًا أو تَبصُّرًا أو تأمُّلاً أو كما يُراد، فإن من الصحيح دائمًا أن تكون فيَّ لا في الأشياء، وأن أكون وحدي الذي يُحدِّثها وإن كنتُ لا أُحدِّثها إلا حينما أتلقَّى انطباعًا من الأشياء، ومع أيِّ لستُ مسيطرًا على إحساسي أو عدمه، فإنني مُطلقٌ في فحص ما أُحسُّ على قدر الإمكان.

إذن، لستُ موجودًا حِسِّيًا ومنفعلًا فقط، بل موجودٌ فاعلٌ عاقل، ومهما يكن من قول الفلسفة فإنني أجزؤ على ادِّعاء شرف التفكير، فأعرف أن الحقيقة في الأشياء لا في رُوحِي الذي يحكم فيها، وأنتي كلُّما قَلَّ ما أضغُ مما عندي في الأحكام التي أُحمِلُ عنها زادت ثقتي باقتراي من الحقيقة، وهكذا فإن قاعدتي في الانقياد للشعور أكثر مما إلى العقل تأيدت بالعقل نفسه.

وإذ إنني واثقٌ بنفسِي كما أقول، فإنني أبدأ بالنظر إلى خارج نفسي، وأعدُّني مع شيءٍ من الارتعاش مطروحًا ضائعًا في هذا الكون الواسع، غارقًا في بحر الموجودات، غير عارفٍ شيئًا عما هي عليه، سواءً فيما بينها أو بالنسبة إليَّ، وأدرُسُها وأرقُبُها، والأمرُ الأوَّل الذي يَعرِض لي للمقارنة بينها هو نَفْسِي.

وكلُّ ما أُحسُّ بالحواسِّ هو مادة، وأستببط خواصَّ المادة الجوهرية كلَّها من الصفات المحسوسة التي تجعلني أشعُرُ بها والتي لا يُمكن أن تنفصل عنها، وأرى المادة متحركةً تارةً ساكنةً^{٢٠} تارةً أخرى؛ ومن ثمَّ أستنتج أن السكون والحركة ليسا أمرين جوهريَّين لها. ولكن بما أن الحركة فعلٌ فإنها معلولةٌ علَّةٍ ليس السكون غيرَ عدمٍ لها؛ ولذا فإنه إذا لم يؤثِّر شيءٌ في المادة فإنها لا تتحرك

^{٢٠} وإن شئت فقل إن هذا السكون أمرٌ نسبي، ولكن بما أننا نشاهد شيئًا ما في الحركة فإننا نتمثَّل بوضوحٍ أحدَ الحدِّين المتناهيَّين، وهو السكون، ونحن نبلغ من تمثُّله ما نميل معه إلى عدِّ السكون أمرًا مطلقًا مع أنه نسبي، والواقع أن من غير الصحيح كون الحركة من جوهر المادة إذا ما أمكن تصوُّرها ساكنة.

مطلقًا؛ ولذا فإن السكون والحركة إذ يتساويان لدى المادة يُعدُّ السكون حالَّ المادة الطبيعي.

وأبصرُ في الأجسام نوعين للحركة، وهما: الحركة الاكتسابية والحركة التلقائية أو الاختيارية، وفي الأولى يكون السبب المحرِّك خارجَ الجسم المتحرك، وفي الثانية يكون السبب المحرِّك ذاتيًا، ولا أستنتج من ذلك كونَ حركة الساعة مثلًا أمرًا تلقائيًا؛ وذلك لأنه إذا لم يوجد شيءٌ غريبٌ عن النابض مؤثِّرٌ فيه فإنه لا يميلُ إلى الاعتدال ولا يجتذب السلسلة مطلقًا، ولذاتِ السبب لا أوافقُ كذلك على كون حركة السوائل تلقائية، كما أنني لا أعزو حركة تلقائيةً إلى النار التي توجب سائليتها.^{٢١}

وتسألونني عن كون حركات الحيوان تلقائية، وأجيبكم بأنني لا أعرف عن ذلك شيئًا، ولكن القياس يؤيده، وتسألونني أيضًا كيف أعرف إذن وجود حركات تلقائية، وأجيبكم بأنني أعرفها لأنني أشعرُ بها، وأريد تحريك ذراعي وأحرِّكها من غير أن يكون لهذه الحركة سببٌ مباشرٌ غيرُ إرادتي، ومن العيب أن تُراد البرهنة تقويضًا لهذا الشعور فيّ؛ فهو أقوى من كلِّ دليل، وذاك يَعْدِلُ أن يُثبتَ لي كوني غيرَ موجودٍ.

وإذا كان لا يُوجدُ أيُّ تلقائيةٍ في أفعال النَّاس، ولا في أيِّ شيءٍ يحدث على الأرض، فإن من أصعب الأمور أن تُتصوَّر العلة الأولى لكلِّ حركة. وأمَّا أنا فإنني أشعرُ بأنني بلغتُ من اعتقادِ كَوْنِ الحال الطبيعيَّة للمادة في سكون، ومن أنه لا يُوجدُ فيها أية قوةٍ للحركة بنفسها، ما أحكُمُ معه من فُوري حين أرى حركة الجسم، بأن هذا الجسم حيٌّ أو إن هذه الحركة قد اتصلت إليه، وبأبي ذهني كلِّ موافقةٍ على مبدأ المادة غيرِ العضوية المتحركة من تلقاء نفسها، أو التي تأتي عملاً ما.

ومع ذلك، فإن هذا العالمَ المرئيَّ مادة، ولكنه متفرِّقٌ مميَّتٌ^{٢٢} لا يُوجدُ في مجموعته ما في أجزاء الجسم الحيِّ من اتِّحادٍ ونظامٍ وشعورٍ مشتركٍ ما دام من الثابت أننا، نحن الأجزاء، لا نُحسُّ في المجموع قطعًا، وهذا العالمُ نفسه في حركة، وهو في حركاته المنتظمة النَّمطية الخاضعة لسُننٍ ثابتة، خالٍ من تلك الحرية التي تَبْدُو في حركات الإنسان والحيوان الغريزية. وليس العالمُ إذن حيوانًا عظيمًا يتحرك من تلقاء نفسه، ويوجد لحركاته إذن عِلَّةٌ غريبةٌ عنه لا أدركها، غير أن لديَّ من القناعة

^{٢١} يُعدُّ الكيماويون عنصرَ الالتهاب - أي عنصر النار - أمرًا متفرِّقًا ساكنًا راقدًا في المركبات التي هو جزء منها، وذلك إلى أن تطلقه وتجمعه وتحركه عِللٌ غريبةٌ فتحوله إلى نار.

^{٢٢} بذلتُ جميعَ جهودي لأتمثل ذرة حية، فكان هذا على غير جدوى، ويظهر لي أن فكرة المادة الشاعرة بلا حواسٍ أمرٌ مُناقض لا يُدرِك، ولا بدُّ من البدء بإدراك هذه الفكرة لقبولها أو رفضها، فأعترف بأنني لم أنل هذه السعادة.

الباطنية ما يجعلني أشعرُ بهذه العلة شعورًا لا أرى معه دوران الشمس من غير أن أتصوّر قوةً تدفعُها، أو من غير أن أعتقد شعوري بيدٍ تُدير الأرض إذا كانت تدور.

وإذا ما وجب القولُ بالسُّنن العامة التي لا أدركُ علاقاتها الجوهرية بالمادة مطلقًا، فما يكون مدى تقدُّمي؟ بما أن هذه السُّنن ليست موجوداتٍ حقيقيةً ولا عناصر، فإنه يكون لها إذن أساسٌ آخرٌ مجهولٌ لديّ، وقد جعلتنا التجريبية نعرف سننَ الحركة، وهذه السُّنن تُعيّن المعلولات من غير أن تُطالعَ على العلل، وهي لا تكفي لإيضاح نظام العالم ولا لتفسير سير الكون مطلقًا. وقد أغلق ديكارت السماء والأرض بالنرد، ولكنه لم يستطع أن يمنح هذا النرد أوّل حركة، كما أنه لم يُعِمل قوّته الدافعة عن المركز إلا بدورةٍ محورية. وقد وجد نيوتن قانون الجاذبية، ولكن الجاذبية وحدها لم تلبث أن حوّلت العالم إلى كتلةٍ جامدة، وإلى هذا القانون يجب أن تُضاف قوّة دافعةٌ لوصف إهليلجيات الأجرام السماوية. ولُيحدّثنا ديكارت عن القانون الطبيعي الذي يُديرُ دوراته، وليدُلنا نيوتن على اليد التي ألقت السيارات على مُماسٍ مداراتها.

وليسَت أولى عِلل الحركة في المادة مطلقًا، والمادة تتلقّى الحركة وتنقلها، ولكنها لا تُحدّثها، وكلّما لاحظتُ فِعْلَ قُوَى الطبيعة وردّ فعلها، وبعضها يؤثّر في بعضٍ وجدت أنه لا بُدَّ بالارتقاء من معلولاتٍ إلى معلولات، من الانتهاء إلى إرادةٍ على أنها العِلّة الأولى؛ وذلك لأن افتراض سلسلَةٍ لا نهاية لها من العلل يعني عدم وجودٍ للعلة الأولى، والخلاصة أن كلّ حركةٍ لم تُصدّر عن أخرى لا يُمكن أن تأتي من غير فعلٍ تلقائيٍ اختياري، ولا تسير الأجسام غير الحية بلا حركة، ولا يوجد فِعْلٌ بلا إرادة، وهذا هو مبديّ الأوّل؛ ولذا فإنني أعتقد أن الإرادة تُحرّك الكون وتُحيي الطبيعة، وهذه هي عقيدتي الأولى أو مادة اعتقادي الأولى.

وكيف تُسْفِرُ إرادةً عن عملٍ فيزيويٍّ أو جسمي؟ لا أعلم ذلك، وإنما أشعر في نفسي بأنها تُحدّثه، وأريد أن أفعل شيئًا فأفعله، وأريد أن أحرّك بدني فيتحرّك، وأمّا أن يتحرّك جسمٌ جامدٌ ساكنٌ من تلقاء نفسه، وأن يُحدّث حركة، فأمرٌ لا يُدرِك ولا مثيل له. وأعرِف الإرادة بأفعالها لا بطبيعتها، وأعرِف هذه الإرادة عِلَّةً مُحرّكة، وأمّا أن تُتصوّر المادة مولدةً للحركة، فيعني أن تُتصوّر بجلاءٍ معلولًا بلا علة، ويعني هذا ألا تُتصوّر شيئًا على الإطلاق.

وليس أكثرُ إمكانًا لديّ أن أتصوّر كيف تُحرّك إرادتي جسمي من أن أتصوّر كيف تؤثرُ إحساساتي في نفسي، حتى إنني لا أعرِف السبب في كون أحد هذين السّريّن أهلاً للإيضاح أكثر من الآخر. وأمّا أنا فتبدو لي وسيلةً اتحاد العنصرين أمرًا لا يُدرِك مطلقًا، سواءً عليّ أكنت فاعلاً أم

منفعلاً. ومن الغرابة بمكان أن يُمضى من تعذر الإدراك هذا ليُخلط بين العنصرين كأنَّ أفعالاً من طبيعة مختلفة ذلك الاختلاف تكون أصلح للإيضاح ضمنَ موضوع واحدٍ مما ضمنَ موضوعين.

أجل، إن العقيدة التي أقرُّها غامضة، غير أنها تُلقى معنى في نهاية الأمر، وهي لا تنطوي على شيء يآبه العقل وتآبه الملاحظة. وهل يُقال عن المادية ذاك المقدار؟ أليس من الواضح أن الحركة إذا كانت أمراً جوهرياً للمادة تعذر انفصالها عنها، وكانت على ذات الدرجة فيها دائماً، وكانت بذات المقدار في كلِّ قسمٍ من المادة دائماً، وكانت غير قابلة للانتقال، فلا تقبل الزيادة والنقصان، حتى إنه لا يُمكن تصوُّر المادة في سكون؟ وإذا ما قيل لي إن الحركة ليست أمراً جوهرياً للمادة، بل ضرورية، فإنه يُراد خدعي بالفاظٍ سهلٍ دحضها إذا كانت أكثر معنى نوعاً ما؛ وذلك لأن حركة المادة إما أن تأتيها من المادة نفسها، وحينئذ تكون أمراً جوهرياً لها، وإما أن تأتيها من علّة خارجية، وحينئذ لا تكون ضرورية للمادة إلا بدوام تأثير العلة المحركة فيها، وبذلك نعود إلى المُعضلة الأولى.

وتعدُّ الأفكار العامة المجردة مصدرَ أعظم خطأ في النَّاس، وما كانت رطانة ما بعد الطبيعة لتكشف أية حقيقة كانت، وقد ملأت هذه العُجْمَةُ الفلسفة بالسخافات التي يُخجلُ منها عند تجريبها من ألفاظها الفخمة، وقُل لي يا صديقي إنك إذا ما حَدَّثت عن قوة عمياء منتشرة في جميع الطبيعة، فهل يُحمل إلى ذهنك فكرٌ حقيقي؟ أجل، يُعتقَد أنه يُقال شيءٌ بكلمات «القوة العامة، والحركة الواجبة»، ولكنه لا يُقال شيءٌ مطلقاً. وليست فكرة الحركة غير فكرة الانتقال من مكانٍ إلى آخر، ولا تُوجد حركة بلا اتجاهٍ مطلقاً؛ وذلك لأن الموجود الفردي لا يستطيع الحركة نحو جميع الجهات دفعةً واحدة، وإلى أية جهة تتحرك المادة حتماً؟ وهل جميع المادة في الجسم ذو حركةٍ نمطيّةٍ أو تكون لكلِّ ذرةٍ حركتها الخاصة؟ تذهب الفكرة الأولى إلى وجوب تكوين الكون بأسره كتلةً متينةً لا تتجزأ، وتذهب الفكرة الثانية إلى وجوب عدم تكوين الكون غير سائلٍ مُفَرَّقٍ فاقدِ الرِّباط، فلا يُمكن أن تتحد بذلك ذرتان مطلقاً، وما يكون اتجاه هذه الحركة المشتركة بين جميع المادة؟ أتكون على خطٍّ مستقيمٍ أم إلى الأعلى أم إلى الأسفل أم إلى اليمين أم إلى الشمال؟ وإذا كان لكلِّ ذرةٍ في المادة اتجاهها الخاص، فما تكون عللُ جميع هذه الاتجاهات وجميع هذه الاختلافات؟ وإذا كانت كلُّ ذرةٍ في المادة لا تصنع غير دورانها حول مركزها الخاص، فإنه لا شيء يترك مكانه ولا تُوجد حركةً متحوّلةً مطلقاً، حتى إنه في هذه الحالة يجب أن تتجه هذه الحركة الدَّورِيَّة نحو جهةٍ ما، ويعني منحُ المادة حركةً بالتجريد قولُ كلماتٍ لا معنى لها، ويعني منحها حركةً

مُعَيَّنَةٌ افترضَ عِلَّةً مُعَيَّنَةً لَهَا، وَكَلَّمَا كَثُرَتِ الْقُوَى الْخَاصَّةُ كَانَ لَدَيَّ مِنَ الْعِلَلِ الْجَدِيدَةِ مَا أَوْضَحَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَجِدَ فَاعِلًا مُشْتَرِكًا مُوجِّهًا لَهَا، وَأَجِدُنِي بَعِيدًا مِنْ إِمْكَانِ تَصَوُّرِي أَيِّ نِظَامٍ ضَمِنَ تَرَاحِمَ الْعِنَاصِرِ الْعَرَضِيِّ، فَلَا أُسْتَطِيعُ حَتَّى تَصَوَّرَ اعْتِرَاكَهَا، وَيَبْدُو لِي اخْتِلَافُ عِنَاصِرِ الْكَوْنِ أَمْرًا لَا يُدْرِكُ أَكْثَرَ مِنْ تَعَدُّرِ إِدْرَاكِ انْسِجَامِهِ، وَأُدْرِكُ أَنْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَلَّا يُدْرِكَ ذَهْنُ الْإِنْسَانِ جِهَازَ الْعَالَمِ، وَلَكِنْ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا أَخَذَ فِي إِبْضَاحِهِ وَجِبَ أَنْ يَقُولَ أَمْورًا يَفْهَمُهَا النَّاسُ.

وَإِذَا كَانَتِ الْمَادَةُ الْمُتَحَرِّكَةُ تَدُلُّنِي عَلَى إِرَادَةٍ فَإِنَّ الْمَادَةَ الْمُتَحَرِّكَةَ تَدُلُّنِي عَلَى عَقْلِ وَفَقَّ بَعْضُ النُّوَامِيسِ، وَهَذِهِ هِيَ الْمَادَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ عَقِيدَتِي، وَيَكُونُ الْعَمَلُ وَالْمَقَارَنَةُ وَالِاخْتِيَارُ أَفْعَالٌ كَانَتْ فَاعِلٌ عَاقِلٌ. وَهَذَا الْكَائِنُ مَوْجُودٌ إِذَنْ، وَأَيْنَ تَرُونَهُ مَوْجُودًا؟ وَهَذَا مَا تَقُولُونَ لِي، إِنَّهُ لَيْسَ فِي السَّمَوَاتِ الَّتِي تَدُورُ وَالنَّجْمِ الَّذِي يَبِينُنَا فَقَطْ، وَلَيْسَ فِي أَنْفُسِنَا فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا فِي الشَّاةِ الَّتِي تَرَعَى وَالطَّائِرِ الَّذِي يَطِيرُ وَالْحَجَرِ الَّذِي يَسْقُطُ وَالْوَرَقَةِ الَّتِي تَذُرُّهَا الرِّيحُ.

وَأَقْضِي فِي نِظَامِ الْعَالَمِ وَإِنْ كُنْتُ أَجْهَلُ غَايَتِهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَكْفِينِي لِلْحَكْمِ فِي هَذَا النِّظَامِ أَنْ أَقَابِلَ بَيْنَ الْأَقْسَامِ، وَأَنْ أَدْرُسَ سِبَاقَهَا وَعِلَاقَتَهَا، وَأَنْ أَلَا حَظَّ تَوَافُقَهَا. وَأَجْهَلُ سَبَبِ وَجُودِ الْعَالَمِ، وَلَكِنِّي لَا أَنْفَكُ أَرَى كَيْفَ تَحَوَّلَ، وَلَا يُعْوِّزُنِي أَنْ أَبْصِرَ ذَاكَ التَّوَافُقِ الْوَثِيقِ الَّذِي تَتَعَاوَنُ بِهِ الْمَوْجُودَاتُ الْمَوْئَلُفُ مِنْهَا تَعَاوَنًا مُتَقَابِلًا، وَأَرَانِي مِثْلَ الرَّجُلِ الَّذِي يَرَى سَاعَةً مَفْتُوحَةً لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، وَلَا يَفْتَأُ يُعْجَبُ بِصُنْعِهَا وَإِنْ كَانَ لَمْ يَعْرِفْ اسْتِعْمَالَ الْآلَةِ وَلَمْ يَرَ وَجْهَهَا قَطْ، وَيَقُولُ إِنِّي لَا أَعْلَمُ مَا نَفْعُ جَمِيعِهَا، وَإِنَّمَا أَرَى أَنْ كُلَّ جِزءٍ مِنْهَا قَدْ صُنِعَ مِنْ أَجْلِ الْأَجْزَاءِ الْأُخْرَى. وَأَعْجَبُ بِالصَّانِعِ فِي تَفَاصِيلِ صُنْعِهِ، وَأَجِدُنِي مَوْقِفًا بِأَنْ جَمِيعَ هَذِهِ الدَّوَالِبِ لَا تَسِيرُ مُتَفَقِّةً عَلَى هَذَا الْوَجْهِ إِلَّا مِنْ أَجْلِ غَايَةٍ مُشْتَرَكَةٍ يَتَعَدَّرُ عَلَيَّ إِدْرَاكُهَا.

وَلِنَقَابِلَ بَيْنَ الْغَايَاتِ الْخَاصَّةِ وَالْوَسَائِلِ وَالْعِلَاقِ الْمُنْتَظَمَةِ لِكُلِّ نَوْعٍ، وَلِنَسْتَمِعَ إِلَى الشُّعُورِ الْبَاطِنِيِّ، فَأَيُّ ذَهْنٍ صَحِيحٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفُضَ شَهَادَتَهُ؟ وَأَيُّ عَيُونٍ غَيْرِ مُتَأَثِّرَةٍ بِالْمُبْتَسِرَاتِ لَا يُبْهِئُهَا نِظَامُ الْكَوْنِ الْمَحْسُوسِ بِعَقْلِ عَالٍ؟ وَأَيُّ سَفْسَطَاتٍ يَجِبُ أَنْ تُرَكَّمَ لِإِنْكَارِ انْسِجَامِ الْمَوْجُودَاتِ وَتَعَاوَنِ كُلِّ جِزءٍ عَلَى حِفْظِ الْأَجْزَاءِ الْأُخْرَى؟ وَحَدَّثُونِي مَا شِئْتُمْ عَنِ التَّرَكِيبَاتِ وَالْمَصَادِفَاتِ، فَمَا نَفَعَكُمْ مِنْ حَمَلِي عَلَى السُّكُونِ إِذَا كُنْتُمْ غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى إِقْنَاعِي؟ وَكَيْفَ تَنْزِعُونَ مِنِّي شَعُورًا غَيْرَ إِرَادِيٍّ يُكَدِّبُكُمْ عَلَى الرِّغْمِ مِنِّي دَائِمًا؟ وَإِذَا كَانَتِ الْأَجْسَامُ الْمُضْئِيَّةُ قَدْ تَرَكَّيْتُ عَرَضًا عَلَى أَلْفِ وَجْهِ قَبْلَ اتِّخَاذِهَا أَشْكَالًا ثَابِتَةً، فَتَكُونُ فِي الْبُدْءِ مَعْدًا بِلَا أَفْوَاهٍ وَأَرْجُلٍ بِلَا رِءُوسٍ وَأَيْدٍ بِلَا دُرْعَانٍ وَأَعْضَاءٍ نَاقِصَةٍ مُنَوَّعَةٍ، وَانْقَرَضَتْ عَنْ عَدَمِ قَدْرَةٍ عَلَى الْبَقَاءِ، فَلِمَ عَادَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ

التجارب الناقصة لا يقفُ نظرنا؟ ولمَ فَرَضَت الطبيعةُ في نهاية الأمر سُنَنًا لم تخضع لها في البداية؟ ولا ينبغي أن أذهسَ مطلقًا من أمرٍ يقع إذا كان ممكنًا، ومن التعويض بمقدار التجارب من صعوبة الحادث، وأوافق على هذا، ومع ذلك فإنه إذا ما قيل لي إن حروف المطبوعة المطروحة اتِّفَاقًا أسفرت عن الإِنْبِيدِ كاملةً الترتيب، فإنني لا أتنازل أن أقوم بخطوةٍ لتحقيق الكذبة. وسيقال لي: إنك تنسى كثيرًا من التجارب. ولكن ما مقدار التجارب التي يجب أن أفترض لجعل التركيب أمرًا محتملاً؟ وأما أنا الذي لا يرى غيرَ تجربةٍ واحدةٍ فلدي ما أراهنُ بما لا حدَّ له تجاه واحدٍ على أن حاصلها ليس نتيجة المصادفة مطلقًا، وإلى هذا أضيفوا أن التركيبات والاتفاقات لا تؤدي إلى غير مُنتجاتٍ من طبيعة العناصر المركبة، وأن التَّعْضِيَةَ والحياة لا تُصنِّدان عن تجربة ذرات، وأن الكيمياء إذ يُعدُّ المُركَّبَاتِ يفعلُ ما لا يُشعرُ بها معه، ولا يفكرُ فيها معه، داخلَ مَدْوَبَةٍ. ٢٣

وقد قرأتُ نيوفيتي حائرًا مُعَبَّرًا تقريبًا، وكيف استطاع هذا الرجل أن يعزم على وضع كتابٍ عن عجائب الطبيعة الدالة على حكمة صانعيها؟ ويكون كتابه ضخماً ضخامة العالم قبل أن يستنفد موضوعه. وعند ما أردنا الدخولَ في التفاصيل فالتنا أعظمُ العجائب؛ أي انسجام الكُلِّ وتوافقهِ. ويُعدُّ تناسلُ الأجسام الحية العضوية وحدَه هُوَّةَ الدهن البشري، ويُدلُّ السَّدُّ المنيع الذي وضعته الطبيعة بين مختلف الأنواع لكيلا تختلطَ على نياتها بأوضح برهان. ولم تكن الطبيعة بإقامة النظام، بل اتخذت من التدابير الثابتة ما لا يستطيع شيء أن يكذِّره.

ولا يوجد في الكون موجودٌ لا يُمكنُ أن يُعدَّ من بعض الوجوه مركزًا مشتركًا بين جميع الموجودات الأخرى، فتنظم كلُّها حَوْلَه، وتكون كلُّها غاياتٍ ووسائلٍ مُبادِلَةً، ويضطرب الدهنُ ويبيهُ في هذه العلاقات التي لا تُحصى والتي لا تضطرب واحدةً منها، ولا تتيه في الجمع. ويا للافتراضات المُحالَة لاستنتاج جميع هذا الانسجام من الجهاز الأعمى للمادة المتحركة عَرَضًا! ومن العبث أن يسترَّ أولئك المنكرون لوحدة المقصد، التي تتجلَّى في علاقات جميع أجزاء هذا المجموع الكبير، بلبائهم في التجريدات والتنسيقات والمبادئ العامة والتعبير الرمزية. ومهما

٢٣ وهل يُعْتَدُّ عند عدم البرهان كون هذيان الإنسان يبلغ هذه النقطة؟ وقد زعم أماتوس لوزيتانوس أنه رأى قرمًا طوله بوصة محبوسًا في زجاجةٍ مصنوعًا من قِبَل بوليوس كاميلوس صُنْعًا كيميائيًا، مثل بروميثوس. ويعلم باراسلس طريقة صُنْع هؤلاء الأقزام، ويدَّعي أن الزعانف والتنايب والغيلان والحوريات من أعمال الكيمياء. والواقع أنني لا أرى بقاء شيءٍ كثيرٍ بعد الآن لإثبات إمكان هذه الأمور، ما لم يقع ادِّعاء بأن المادة العضوية تقاوم حرَّ النار، وبأن من الممكن أن تبقى ذراتها حية في فرنٍ حام.

يكن ما يصنعون، فإنه يتعدّر عليّ أن أتصوّر نظامًا للموجودات بالغًا ذلك المقدار من الترتيب الثابت من غير أن أتصوّر عقلاً ناظمًا له، ولا أقدر أن أعتقد أن المادة المنفصلة الميتة استطاعت أن تُنتج موجوداتٍ حيّةً شاعرة، وأن قدرًا أعمى استطاع أن يُنتج موجوداتٍ عاقلةً، وأن الذي لا يُفكّر مطلقًا استطاع أن يُنتج موجوداتٍ تُفكّر.

ولذا فإنني أعتقد أن العالم تسيطر عليه إرادةٌ قادرةٌ حكيمة، وأبصرُ هذا، وإن شئت فقلّ إنني أحسُّ هذا، وبهمني أن أعرف هذا. ولكن هل هذا العالمُ أزلّيٌّ أو مخلوقٌ؟ وهل يُوجدُ للأشياء أصلٌ واحدٌ؟ وهل يُوجدُ لها أصلان أو أكثرٌ؟ وما طبيعتها؟ لا أعرف ذلك، وما اهتمامي بذلك؟ كلّمًا صارت هذه المعارفُ مُمتعةً لديّ لم أقصّر في اكتسابها، وأعدّل، حتى أنال ذلك، عن الأسئلة اللاغية التي يُمكن أن تُقضى مضاجعي، والتي لا فائدة منها في سيرِّي، والتي هي أعلى من عقلي.

واذكروا دائمًا أنني لا أعلمُ حسّي مطلقًا، بل أعرضه، وسواءً أكانت المادةُ أزيّةً أم مخلوقة، وسواءً أكان أصلها منفعلًا أم لا، يُعدُّ من الثابت دائمًا كَوْنُ الكلِّ واحدًا، وأنه يُنبئ بعقلي فريد؛ وذلك لأنني لا أرى شيئًا ليس منتظمًا في ذات النظام، ولا يساعد على ذات الغاية؛ أي بقاء الكل في النظام القائم. واللهُ أسَمي هذا الموجودُ المُريدُ القادر، هذا الموجودُ الفعّالُ بنفسه، هذا الموجودُ مهما كان الذي يُسيرُ الكونَ ويُدبّرُ جميعَ الأمور، وأضُمُّ إلى هذا الاسم مبادئ العقل والقدرة والإرادة مضافةً إلى مبدأ اللطف الذي هو نتيجةٌ لازمةٌ لها، ولكنني لسْتُ أحسنَ معرفةً من ذلك للموجود الذي أسنّدها إليه؛ فهو خافٍ عن حواسِّي وإدراكي، وكلّمًا فكّرتُ فيه زدتُ ارتباكًا، وأعرفُ كلَّ المعرفة أنه موجود، وأنه موجودٌ بذاته، وأعرفُ أن وجودي تابعٌ لوجوده، وأن هذه هي أيضًا حالُ جميعِ الأشياءِ المعروفةِ عندي على الإطلاق، وأرى الله في أفعاله في كل مكان، وأشعرُ به في نفسي، وأبصرُهُ حَوَلي، ولكنني عندما أريد أن أنظرُ إليه بذاته، وعندما أريد أن أجدَ مكانه، وأعرفُ مَنْ هو وما كُنْه يُفْلِتُ مِنِّي، وتعودُ نفسي المضطربةُ لا ترى شيئًا.

وأراني فاعنًا بعجزِي، فلا أبرهنُ حَوْلَ كُنْه الله، ما لم أحملُ على ذلك بشعورِ يساورني عن علاقته بي، وجميعُ هذه البراهين مجازفةٌ دائمًا، وما كان للعاقل أن يُكِبَّ عليها إلا مرتجعًا عالمًا أنه لم يُخلَقْ ليتعمّق فيها؛ وذلك لأن أكثرَ ما ينطوي على جَنَفٍ في الإله أن يُساء التفكيكُ فيه، لا ألا يُفكّر فيه مطلقًا.

واني أعود إلى نفسي بعد اكتشافي من صفاته ما أتصوّرُ معه وجوده، فأبحث عن المرتبة التي أشغلها في نظام الأمور الذي يسيطر عليه، فأستطيع أن أفحصه. ولا جرمُ أنني أجد نفسي

في المرتبة الأولى بنوعي؛ وذلك لأنني بإرادتي وبوسائل تنفيذها التي في متناولي حائز قوة أعملُ بها في جميع الأجسام التي تحيط بي، انتفاعاً بفعالها أو دفعاً لأثرها كما يروقي، أعظم مما عند أيها من حيث تأثيرها في عن باعثٍ فزيويٍّ فقط على الرغم مني؛ وذلك لأنني بذكائي أكون الوحيد الذي يملك رقابةً على الكلِّ. وأيُّ موجودٍ غير الإنسان يستطيع في هذه الدنيا أن يرقب غيره وأن يقيس حركاته مع نتائجها وأن يحسبها وأن يدركها قبل وقوعها؛ ومن ثمَّ أن يضيف إحساسَ الوجودِ العامِّ إلى إحساس وجوده الفردي؟ وأيُّ شيءٍ أدعى إلى السُّخرية من التفكير في أن كلَّ شيءٍ قد صنَّع من أجلي إذا كنتُ الوحيد الذي يعرفُ أن يزدَّ كلَّ شيءٍ إليه؟

ومن الصحيح إذن أن يكون الإنسانُ مَلِكُ الأرض التي يسكنها؛ وذلك لأنه لا يُروِّض جميعَ الحيوانات فقط، ولأنه لا يتصرَّف في العناصر ببراعته فقط، بل لأنه الوحيد الذي يعرف في الأرض أن يتصرف فيها، والذي يختصُّ متأملاً، حتى بالكواكب التي لا يستطيع أن يدنو منها، ولأنَّه على حيوانٍ في الأرض قادرٍ على استعمال النار عارفٍ أن يُعجَب بالشمس، ماذا! أستطيع أن ألاحظ الموجودات مع علاقتها وأن أعرفها، وأستطيع أن أشعر بالنظام والجمال والفضيلة، وأستطيع أن أنعم النظر في العالم، وأن أرتقي إلى اليد التي تُديره، وأستطيع أن أُحبَّ الخير وأصنعه، ثمَّ أشبه نفسي بالبهائم! ويا أيُّها النفس الحقيرة، إن فلسفتك الكنيية هي التي تجعلك مشابهةً للبهائم، أو إن من الأجدر أن يقال إنك تُريدان أن تهوني عبثاً؛ فذكاؤك يكذب مبادئك وقلبك المنعم يكذب مذهبك، حتى إن سوء استعمال أهليتك يُثبت فضلك على الرغم منك.

وأما أنا الذي ليس لديه مذهبٌ يؤيده، وأما أنا، أي الرجل البسيط الذي لا ينساق مع أيِّ روحٍ حزبيٍّ، والذي لا ينبغي أن يتشرف برئاسة مذهب، والذي هو راضٍ عن المكان الذي وضعه فيه الله؛ فإني لا أرى شيئاً بعد الله أفضل من نوعي. ولو كان لي حقُّ اختيار مكاني في نظام الموجودات فما أختار أكثر من أن أكون إنساناً؟

وهذا التأملُ أقلُّ نفعاً لي من مسَّه لي؛ وذلك لأن هذه الحال ليست من خيارٍ مطلقاً، وهي لم تكن مدينةً لمزِيَّةٍ موجودٍ لم يُوجد بعد، وهل أستطيع أن أرى نفسي ممتازةً على هذا الوجه من غير أن أهني نفسي بشغل هذا المقام الكريم، ومن غير أن أحمَد اليد التي وضعتني فيه؟ وبنشأ عن رُجعي بصريِّ إليَّ شعورُ شكرانٍ في فؤادي وإحساسٍ خمدٍ في قلبي لصانع نوعي، ويستوجب هذا الإحساسُ والشعورُ تقديمَ ولائي الأولِّ إلى الرَّبِّ المَنَّان، وأعيدُ القديرَ العليَّ، وألينُ ثناءً على إحسانه، ولا أحتاجُ إلى مَنْ يُعلِّمني هذه العبادة؛ فقد أمَّلتها الطبيعةُ نفسها عليَّ، وأوليس من النتائج

الطبيعية لحبّ الذات أن يُبجّل ذاك الذي يُحيرنا، وأن يُحبّ ذاك الذي يريد الخير لنا؟

ولكنني إذا ما أردت فيما بعد أن أعرف مكاني الفردي في نوعي، فنظرت إلى مختلف المراتب وإلى الرجال الذين يشغلونها فما أكون؟ يا له من منظر! أين النظام الذي كنت قد شاهدته؟ لا تعرض صورة الطبيعة عليّ غير الانسجام والنسب، ولا تعرض صورة الجنس البشري عليّ غير الاضطراب والارتباك! ويسود الاتفاق بين العناصر، ويكون الناس في بلبلة والتباس! والبهائم سعيدة، ومليكتها وحده هو الشقي! أيتها الحكمة، أين القوانين؟ أيتها العناية الربّانية، أهكذا تسيطر على العالم؟ أيها الربّ الكريم، أين قدرتك؟ أرى الشرّ على الأرض.

أوتعتقد يا صديقي العزيز أن هذه التأملات الكنيية، وهذه المتناقضات الظاهرة تؤلّف في نفسي أسمى المبادئ عن النفس، هذه المبادئ التي لم تُسفر عنها مباحثي قطّ حتى الآن؟ بينا أنعم النظر في طبيعة الإنسان أراني مكتشفًا لمبدأين مختلفين، يُرتقى بأحدهما إلى البحث عن الحقائق الأزلية، وإلى حبّ العدل والخلق القويم، وإلى مناطق عالم الفكر التي يؤدي تأملها إلى سعادة الحكيم، ويُرّده الآخر إلى نفسه نُزولًا، ويُخصّغه لسلطان الحواسّ وللأهواء التي هي وسائل لها، ويعارض بها كلّ ما يوحي إليه بالميل الأوّل. وإني إذ أشعر بأني مجذوبٌ مُحارَبٌ بهاتين الحركتين المتناقضتين، أقول في نفسي: كلاً، إن الإنسان ليس واحدًا مطلقًا. فأريد ولا أريد، وأشعرُ بأني عبدٌ وحرٌّ معًا، وأرى الخير وأحبه وأصنع الشرّ، وأكون فاعلاً عندما أصغي إلى العقل، وأكون منفعلًا عندما تسوقني أهوائي، ويكون شعوري بأني كنت أستطيع المقاومة أسوأ عمّ يلازمي حين أغلب.

واستمع إليّ، أيها الفتى مطمئنًا، فسأندرع بحسن النية دائمًا، وإذا كان الضمير من عملي المُبتسرات كنتُ على خطأ لا ريب، ولم تُوجد أخلاق قائمة على البرهان مطلقًا، ولكن إذا كان فوّاق الجميع مميلاً طبيعيًا لدى الإنسان، وإذا كان جسّ العدل مع ذلك غريزيًا في فؤاد الإنسان، فدع الذين يجعلون من الإنسان موجودًا بسيطًا يُزيلون هذه المتناقضات، وهنالك أعود غير عارِفٍ بغير عنصرٍ واحدٍ.

وستلاحظون أنني بكلمة «عنصر» أقصد على العموم موجودًا متّصفًا ببعض الصفات الابتدائية مُجرّدة من كلّ تبديلٍ خاص، أو تحويلٍ ثانوي، وإذا كانت جميع الصفات الابتدائية المعروفة لدينا تستطيع أن تتجمّع في عين الموجود إذن وجب عدم القول بغير عنصرٍ واحد، ولكن إذا وُجد من الصفات ما يتنافى مبادلةً وُجد من العناصر المختلفة بذاك المقدار ما يُمكن أن ينشأ عن مثل ذلك التنافي، وستنعمون النظر في ذلك. وأمّا أنا، فمهما قال لوك، لا أحتاج في

معرفتي المادة إلى غير كونها اتساعاً وقابليةً للانقسام حتى أطمئن إلى عدم قدرتها على التفكير، فإذا ما جاء فيلسوفٌ ليقول إن الأشجار تشعر وإن الصخر تُفكر^{٢٤} كان من العبث رنكهُ إياي ببراهينه الدقيقة، وذلك أنني لا يُمكنني أن أرى فيه غيرَ سَفَسَطِي سَيئِ النية يُفَضَّلُ أن يمنح الحجارة شعوراً على منح الإنسان روحاً.

ولنفترض أن أحد الصمِّ يُنكِرُ وجودَ الأصوات لأنها لم تَفَرَّعْ أذنه قَط، وأضع تحت عينيه آلة ذات وتر، وأجعلها تَرنُّ مع الإيقاع بفعلِ آلةٍ أخرى خافية عنه، ويرى الأصمُّ اهتزازَ الوتر، وأقول له: «إن الصوت هو الذي يفعلُ هذا.» ويقول محيياً: «كلاً، إن الوتر نفسه هو علة اهتزازهِ، وإن الاهتزاز على هذا الوجه صفةٌ مشتركة في جميع الأجسام.» وأزُدُّ عليه بقولي: «أرني هذا الاهتزاز في الأجسام الأخرى، أو علته في هذا الوتر على الأقل.» ويقول الأصمُّ مُعقِّباً: «لا أقدرُ على هذا، ولكن بما أنني لا أتصور كيف يهتزُّ هذا الوتر، فلم أوضِّحْ بأصواتكم التي لا يوجد لدي أيُّ فكرة عنها؟ إن هذا إيضاحٌ لأمْرٍ غامضٍ بعلّةٍ أشدَّ غموضاً، وعليكم أن تجعلوا لي أصواتكم محسوسة، أو إنني أقول إنها غيرُ موجودة.»

وكلّما أنعمتُ النظر في الفكر وفي طبيعة روح الإنسان وجدتُ أن برهان الماديين يشابه

^{٢٤} يلوح لي أن الفلسفة الحديثة تبعد عن القول بأن الصخر تفكر، وأنها - على العكس - قد اكتشفت عدم تفكير الناس مطلقاً، وعادت هذه الفلسفة لا تعترف بغير موجودات حساسة في الطبيعة، ويقوم كل فرق تجده بين الإنسان والحجر على كون الإنسان موجوداً حساساً ذا أحاسيس، وكون الحجر موجوداً حساساً خالياً من الأحاسيس. ولكن إذا صح أن كلّ مادةٍ تحس، فأين أدرك الوحدة الحسية أو الذات الفردية؟ أهي في كلِّ ذرةٍ من المادة أم في الأجسام المؤلّفة من ذرّات؟ وهل أضح هذه الوحدة في السوائل والجوامد وفي المركبات والعناصر؟ ولا يوجد غيرُ أفرادٍ في الطبيعة كما يُقال! ولكن من هم هؤلاء الأفراد؟ وهل هذا الحجر فرد أو مجموعة أفراد؟ وهل هو موجود حساس واحد أو إنه يشتمل على موجوداتٍ حساسة بمقدار حب الرمل؟ وإذا كانت كل ذرةٍ أوّلية موجوداً حساساً، فكيف أتصوّر هذا الاتصال الوثيق الذي تشعر به كل ذرة ضمن الأخرى، وذلك بحيث تختلط الدرّتان في واحدة؟ أجل، قد تكون الجاذبية ناموساً للطبيعة نجعل سرّه، ولكننا ندرك على الأقل أن الجاذبية، إذ تؤثرُ وفق الكتل، لا تنطوي على ما يناقض الاتساع وقابلية الانقسام. وهل تصورون الإحساس على هذا الوجه؟ إن الأجزاء الحساسة اتساعات، ولكن الموجود الحساس واحد غير قابل للانقسام، وهو لا يتجزأ، وهو كلٌّ أو هو عدم؛ ولذا فإن الموجود الحساس ليس جسمًا، ولا أعرف كيف يدركه ماديوّن، ولكنه يلوح لي أن ذات المصاعب التي حملتهم على نبذ الفكر يجب أن تحملهم على طرح الإحساس أيضًا، ولا أرى بعد قيامهم بالخطوة الأولى سبباً لعدم قيامهم بالخطوة الثانية أيضًا. وما يكلفهم هذا؟ وكيف يجزءون على توكيد إحساسهم ما داموا يرون أنهم لا يفكرون؟

برهان ذلك الأسم، والحقُّ أنهم صمُّ تجاه الصوت الباطنيّ الذي يناديهم بنغمةٍ يصعبُ إنكارها، ولا تُفكّرُ الآلة مطلقاً، ولا توجد حركةٌ ولا صورةٌ تُحدثُ تأملاً، وفي نفسك شيءٌ يحاول أن يَكْبِرَ الروابط التي تضغطُها، وليس الفضاء مقياسك، وليس العالم من الاتساع ما يناسبك، فلمشاعرك ورجائبك وهلعك وكبرياتك أيضاً مبدأً آخر غير هذا الجسم الضيق الذي تشعرُ بأنك مقيدٌ فيه.

ولا ترى موجوداً مادياً فاعلاً بنفسه، وأمّا أنا ففاعل، ومن العيب أن تجادلوني في هذا؛ فأنا أحسُّه، وهذا الإحساس الذي يخاطبني أقوى من العقل الذي يجادل فيه، ولديّ جسمٌ تؤثرُ فيه الأجسام الأخرى، وهو يؤثرُ فيها، ولا ريبُ في هذا العمل المتبادل، غير أن إرادتي مستقلةٌ عن حواسي، وأوافق أو أقاوم، وأغلبُ أو أغلب، وأشعرُ بنفسي تماماً عندما أفعل ما أريدُ أن أفعل، أو عندما لا أذعن لغير أهوائي، ولديّ قدرةٌ على الإرادة تماماً، لا قدرةٌ على التنفيذ، ومتى أسلمتُ نفسي إلى المُغريات سرتُ وفُقّ دافعُ الأمور الخارجية، ومتى لُمْتُ نفسي على هذا الضّعف لم أستمع لغير إرادتي؛ فأنا عبدٌ بمعايبي وحرٌّ بمَنَادمي. ولا يزول إحساسُ حرّيتي فيّ إلا بفسادي، وعند منعي صوتَ روعي من الارتفاع ضدَّ سلطان البدن.

ولا أعرفُ الإرادةَ إلا بإحساس إرادتي، ولست أحسنُ معرفةً بالإدراك من ذاك، وعندما أسأل عن العلة التي تُجبرُ إرادتي أسأل بدوري عن العلة التي تجبرُ حكمي؛ وذلك لأن من الواضح كونُ هاتين العلتين ليستا سوى علةٍ واحدة، وإذا ما فهمَ جيّداً أن الإنسان فاعلٌ في أحكامه وأن إدراكه ليس سوى القدرة على المقارنة والحكم، رُئي أن زهوه ليس غيرَ قدرةٍ مماثلةٍ أو مشتقةٍ من تلك، وهو يختار بين الخير والشر وفقَّ حكمه في الصدق والكذب. وما العلة التي تُجبرُ إرادته إذن؟ هي حُكمه. وما العلة التي تُجبرُ حكمه؟ هي صفته العاقلة، هي قدرته على الحكم. وتقع العلة التي تُجبرُ فيه، فإذا عدوتُ هذا عدتُ لا أدرك شيئاً.

ولا ريبُ في أنني لست مختاراً في عدم إرادتي خيري الخاص، وفي أنني لست مختاراً في إرادة شرّي، بيدَ أن اختياري يقوم على الأمر القائل إنني لا أستطيع إرادةً غيرَ ما يلائمني، أو الذي أقدرُ أن يلائمني، وذلك من غير أن يوجدَ شيءٌ غريبٌ عني يُجبرُني. وهل يُستنتجُ من ذلك كوني لستُ سيدَ نفسي لأنني لستُ سيّداً في كوني غيرَ ما أنا عليه؟

ومبدأً كلّ فعلٍ هو في إرادةٍ موجودٍ مختار، ولا يُمكن الذهابُ إلى ما هو أبعدُ من هذا، وليست كلمةُ الاختيار هي التي لا تعني شيئاً، بل كلمةُ الضرورة، ويعني افتراضُ فعلٍ ما؛ أي افتراضُ معلولٍ ما لا يُشتقُّ من أصلٍ فاعل، وقوعاً ضمنَ دورٍ مُتسلسل، والأمر هو إمّا ألا يوجدُ دافعٌ أوّلٌ مطلقاً، وإمّا ألا

يكون لكلِّ دافعٍ أوَّلُ أيُّه عِلَّةٌ سابقة، فلا إرادةً حقيقيةً بلا اختيار؛ ولذا فإنَّ الإنسانَ مختارٌ في أفعاله، والإنسانَ هكذا يكون حياً بعنصرٍ غيرِ مادي، وهذه هي مادة إيماني الثالثة، ويسهَّلُ عليكم أن تستنبطوا من هذه الثلاثِ الأولى جميعَ الأخرى من غير أن أستمِرَّ على عدِّها.

وإذا كان الإنسانُ فاعلاً مختاراً، فإنه يَعْمَلُ من تلقاء نفسه، ولا يَدْخُلُ جميعُ ما يصنع ضِمْنَ النظامِ الذي رَبَّتْهُ العنايةُ الإلهية، ولا يُمكن أن يُنسَبَ إليها؛ فهي لا تريد الشرَّ الذي يفعله الإنسانُ بإساءته استعمالَ الاختيارِ الذي تُعْطيه إياه، ولكنها لا تمنعه من فعله، وذلك إمَّا لأنَّ صدورَ هذا الشرِّ عن موجودٍ بالغِ الضعفِ أمرٌ لا يؤبه له في نظرها، وإمَّا لأنها لا تستطيع أن تمنعه من غير أن تُعَوِّقَ اختياره، فتأتي شرًّا أعظمَ من ذاك بحطِّ طبيعته، وهي قد جعلته حُرًّا لكيلا يَصْنَعَ الشرَّ، بل ليصنَعَ الخيرَ عن خيار، وهي قد وضعتَه في حالٍ يَفْعَلُ فيها هذا الخيارَ باستعماله كثيرًا من الخصائص التي أنعمت بها عليه، ولكنها بلغت من تحديد قُوَاه ما لا يُكَدِّرُ النظامَ العامَّ معه سوءُ استعمال الحرية التي تَدْعُها له، وما يأتيه الإنسانُ من شرِّ فيقع عليه من غير أن يُغيِّرَ شيئًا من نظام العالم، ومن غير أن يَحُولَ دون بقاء النوع البشريِّ على الرغم منه. وينطوي كلُّ تدمرٍ من أن الله لا يَحُولُ دون فعل الشرِّ على تدمرٍ من أنه خَلَقَ ذلك النوعَ من طبيعةٍ رائعة، ومن أنه وَسَمَ أفعاله بأدبٍ يُشْرِفُها، ومن أنه جعل له حقًّا في الفضيلة. ويتجلَّى أرفعُ إمتاعٍ في رضا النفس، ونحن لكي نستحق هذا الرِّضَا جُعِلنا على الأرضِ وجُمِّلنا بالاختيار، وأغويْنَا بالأهواءِ ورُدِّعنا بالضمير. وماذا كانت القدرة الصمدانية تصنع أكثرَ من ذلك نفعًا لنا؟ أما كانت تجعلُ تناقضًا في طبيعتنا فتمنحَ مَنْ هو عاجزٌ عن صنْعِ الشرِّ جائزةً على صنْعِ الخير؟ ماذا! هل كان من الواجب قَصْرُ الإنسانِ على الغريزةِ وجعله من البهائمِ منعًا له من أن يكون شَريرًا؟ كلاً، رَبَّ نفسي، لن ألوْمَكَ مطلقًا على أنك خلقتَه على مثالك لِيُمْكِنَني أن أكون حُرًّا صالحًا سعيدًا مثلك.

وسوءُ استعمال مواهبنا هو الذي يَجْعَلنا نُعساءَ أشرارًا، وتصدُرُ عنَّا كُروبنا وهمومنا وآلامنا. ولا جدالَ في أن الشرَّ الخُلُقِيَّ من عملنا، وفي أن مَرَضنا البدني لا يكون شيئًا لولا عيوبنا التي تجعلنا عُرضَةً له، ألم تجعلنا الطبيعةُ شاعرين باحتياجاتنا حِرْصًا على بقائنا؟ أليس أَلَمُ الجسمِ دليلًا على اختلال الآلة وتنبئها إلى تلافيه؟ والموتُ، ألا يُسَمِّمُ الأشرارَ حياتهم وحياتنا؟ ومَنْ ذا الذي يريد أن يعيش مُخلدًا؟ إن الموت علاجٌ للشرور التي توجِبونها على أنفسكم؛ فالطبيعة لم تُرِدْ أن تألَموا دائمًا، وما أقلُّ الآلام التي يكونُ الإنسانُ الحيُّ عُرضَةً لها في البساطة الابتدائية! وهو يعيش بلا أمراضٍ تقريبًا كما يعيش بلا أهواء، وهو لا يُبْصِرُ الموت ولا يشعُرُ به، وهو إذا ما

أَحْسَهُ رَغْبَتَهُ فِيهِ أَبُوسُهُ؛ وَلِذَا عَادَ لَا يَكُونُ شَرًّا عِنْدَهُ، وَإِذَا مَا كُنَّا رَاضِينَ بِالْحَالِ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا لَمْ نَرِثْ طَالِعَنَا مَطْلَقًا، وَلَكِنَّا نَجْلِبُ لِأَنْفُسِنَا أَلْفَ شَرٍّ حَقِيقِيٍّ فِي سَبِيلِ الْبَحْثِ عَنِ سَعَادَةِ خَيَالِيَّةٍ. وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ اِحْتِمَالَ قَلِيلِ أَلَمٍ وَجِبَ أَنْ يَتَوَقَّعَ كَثِيرَ وَجَعٍ، وَمَنْ يُفْسِدُ بُنْيَانَهُ بِحَيَاةٍ دَاعِرَةٍ يُرَدُّ إِصْلَاحُهَا بِعِلَاجَاتٍ، فَيُضَافُ إِلَى الْمَرَضِ الَّذِي يُحَسُّ مَرَضٌ يُخْشَى، وَمَا يَقَعُ مِنْ حَذَرِ الْمَوْتِ يَجْعَلُهُ كَرِيهًا وَيُعَجِّلُهُ، وَكَلَّمَا أُرِيدَ الْفِرَارُ مِنْهُ شَعَرَ بِهِ، وَيُصَابُ الْإِنْسَانُ بِالْمَوْتِ عَنِ خَوْفِهِ إِيَّاهُ مَدَى حَيَاتِهِ، وَذَلِكَ بِمَا يَتَّبِعُ بِهِ صِدِّ الطَّبِيعَةِ عَنِ شُرُورِ صَنَعِهَا لِنَفْسِهِ بِإِسَاءَتِهِ إِلَى الطَّبِيعَةِ.

فِيهَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، لَا تَبْحَثْ عَنِ فَاعِلِ الشَّرِّ أَكْثَرَ مِمَّا بَحِثْتَ؛ فَأَنْتَ ذَاكَ الْفَاعِلُ، وَلَا يَوْجَدُ شَرٌّ آخَرَ غَيْرَ الَّذِي تَصْنَعُ أَوْ الَّذِي مِنْهُ تَتَوَجَّعُ، وَمَنْ نَفْسُكَ يَأْتِيكَ هَذَا وَذَلِكَ، وَلَا يُمَكِّنُ الشَّرَّ الْعَالَمَ أَنْ يَكُونَ فِي غَيْرِ عَدَمِ النِّظَامِ، وَأَرَى فِي نِظَامِ الْعَالَمِ انْتِظَامًا لَا يَنَاقِضُ نَفْسَهُ مَطْلَقًا، وَلَا يَكُونُ الشَّرُّ الْخَاصُّ فِي غَيْرِ شُعُورِ الْمَوْجُودِ الَّذِي يَأْلَمُ، وَلَمْ يَتَلَقَّ الْإِنْسَانُ هَذَا الشُّعُورَ مِنَ الطَّبِيعَةِ، بَلِ الْإِنْسَانُ هُوَ الَّذِي صَنَعَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَيْسَ لِلْأَلَمِ غَيْرُ سُلْطَانٍ قَلِيلٍ عَلَى قَلِيلِ التَّأْمَلِ، فَلَا تَكُونُ لَدَيْهِ ذِكْرَى وَلَا حَذَرٌ، وَانزِعُوا تَقَدُّمَنَا الْمَشْتُومَ، وَأَزِيلُوا خَطَأَنَا وَعَيْبَاتَنَا، وَامْحُوا عَمَلِ الْإِنْسَانِ، يَغْدُ كُلُّ أَمْرٍ خَيْرًا.

وَلَا جَوْرَ حَيْثُ كُلُّ أَمْرٍ خَيْرٍ، وَلَا انْفِصَالَ لِلْعَدْلِ عَنِ الْجُودِ، وَالْوَاقِعُ أَنْ الِجُودَ نَتِيجَةُ ضَرُورِيَّةٍ لِقُدْرَةِ لَا حَدَّ لَهَا وَلِحُبِّ النَّفْسِ الْجَوْهَرِيِّ لِكُلِّ مَوْجُودٍ ذِي إِحْسَاسٍ، وَمَنْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَسْتُطِيعُ وُجُودَهُ لِهَذَا السَّبَبِ عَلَى وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَالِإِنْتِاجِ وَالْبِقَاءِ مِنْ عَمَلِ الْقُدْرَةِ الدَّائِمِ، وَلَا يَدُورُ الْأَمْرُ حَوْلَ مَا هُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ مُطْلَقًا، وَلَيْسَ الْإِلَهُ إِلَهُ الْأَمْوَاتِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَادِمًا شَرِيرًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسِيءَ نَفْسَهُ، وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَرِيدَ غَيْرَ الْخَيْرِ،^{٢٥} وَلِذَا فَإِنَّ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يَكُونَ الْكَائِنُ الَّذِي هُوَ كَامِلُ الْجُودِ لِأَنَّهُ كَامِلُ الْقُدْرَةِ، كَامِلُ الْعَدْلِ أَيْضًا، وَإِلَّا فَإِنَّهُ يَنَاقِضُ نَفْسَهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ حُبَّ النِّظَامِ الَّذِي يُوْجِبُهُ يُدْعَى جُودًا، وَلِأَنَّ حُبَّ النِّظَامِ الَّذِي يَحَافِظُ عَلَيْهِ يُدْعَى عَدْلًا.

وَيُقَالُ لَا يَنْبَغِي لِلرَّبِّ أَنْ يَكُونَ مَدِينًا لِمَخْلُوقَاتِهِ بِشَيْءٍ، وَأُظُنُّ أَنَّهُ مَدِينٌ لَهُمْ بِكُلِّ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ حِينَمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالْوُجُودِ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ وَعَدَهُمْ بِالْخَيْرِ إِذْ مَنَحَهُمْ فِكْرَةً وَأَشْعَرَهُمْ بِالِاحْتِيَاجِ إِلَيْهِ، وَكَلَّمَا خَلُوتُ إِلَى نَفْسِي فَكَّرْتُ وَقَدَّرْتُ وَقَرَأْتُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْمَكْتُوبَةَ فِي رُوحِي، وَهِيَ: «كُنْ عَادِلًا تَكُنْ سَعِيدًا.» وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْأَمْرَ يَبْدُو غَيْرَ ذَلِكَ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى حَالِ الْأَشْيَاءِ

^{٢٥} كَانَ الْقَدَمَاءُ عَلَى صَوَابٍ كَبِيرٍ عِنْدَمَا كَانُوا يَسْمُونُ الرَّبَّ الْأَعْلَى «الْعَلِيِّ الْأَعْلَى»، وَلَكِنَّهُمْ يَكُونُونَ عَلَى صَوَابٍ أَدَقِّ مِنْ ذَلِكَ لَوْ قَالُوا «الْأَعْلَى الْعَلِي»، مَا دَامَ جُودُهُ يَأْتِي مِنْ قُدْرَتِهِ، وَهُوَ جَوَادٌ لِأَنَّهُ عَظِيمٌ.

في الوقت الحاضر؛ فالشَّير يزدهر والصالح يظلُّ مظلومًا، وكذلك انظروا أيُّ غيظٍ يشتعل فينا عند خيبة هذا الانتظار! وينور الضمير ويتدبَّر من بارئه، ويدعوه مرتجعًا قائلًا: «لقد خدعتني.»

«خَدَعْتُكَ أَيُّهَا المتهوِّر! مَنْ قال لك هذا؟ هل مُحِي رُوْحُكَ؟ هل انقطع وجُودُكَ؟ أيُّ بُرُوتُوس! أيُّ بُني! لا تُدَنِّسْ حياتِكَ الكريمةَ بإنهائها مطلقًا، ولا تَدَعُ أَمَلَكَ ومجدَكَ مع بدنِكَ لحقولِ فليبي، ولمَ تقول «ليست الفضيلةُ شيئًا»، عندما كِدَتَ تتمتعُ بجائزةِ فضيلتِكَ؟ ترى أنك تموت! كلاً، إنك تحيا، وهنالك أكونُ قد قُمتُ بما وعدتُك به.»

ويقال عند النظرِ إلى تدبُّرِ فاقدي الصبر من النَّاسِ إن الربَّ مَدِينٌ لهم بالجائزة قبل استحقاقها، وإنه ملزَّمٌ بدفع بدل الفضيلة سلفًا. وي! لنكن صالحين أولًا، ثُمَّ نكون سعداء، ولا نطالب بالجائزة قبل الفوز، ولا بالأجرة قبل العمل. قال بلوتارك: «لا يتمُّ في الملعب تنويج الفائزين في ألعابنا المقدسة، بل يتمُّ بعد أن يقوموا بمباراتهم.»

وإذا كانت الروحُ غيرَ ماديةٍ أمكن أن تبقى حيةً بعد البدن، وهي إذا ما بقيت حيةً بعده سوَّغت العناية الربانية، ولو لم يكن لديَّ دليلٌ آخرُ على لا ماديَّة الروح غير فوز الشَّير واضطهاد الصالح في هذا العالم لكفى هذا وحده لمنعي من الشكِّ في ذلك. وتنافَر كثيرُ الأذى كهذا في انسجام العالم يدفعني إلى محاولة حلِّه، فأقول في نفسي: «لا ينتهي كلُّ شيءٍ مع الحياة عندنا؛ فكلُّ يَجِدُ مكانه بالموت.» والحقُّ أنني أُحمَلُ نفسي غَوْلَ السؤال عن مكان الإنسان بعد زوال كلِّ ما كان لديه من أمرٍ محسوس، وعاد هذا السؤال لا ينطوي على صعوبةٍ لديَّ ما اعترفتُ بعنصرين. ومن البساطة البالغة ألا أدرك شيئًا بغير حواسِّي في أثناء حياتي البدنية فيفوتني ما لا يخصُّ لها مطلقًا؛ فمتى زال اتحاد البدن والروح أدركتُ إمكان انحلال أحدهما وبقاء الآخر. ولمَ يؤدي زوال أحدهما إلى زوال الآخر؟ وعلى العكس، كانا في حالٍ شدِّدٍ باتحادهما لاختلاف طبيعتهما؛ فمتى زال هذا الاتحاد عادا كلاهما إلى حالهما الطبيعية؛ أي إن العنصرَ الفاعل الحيَّ يسترُدُّ جميعَ القوة التي كان يستعملها في تحريك العنصر المنفعل الميت. وا حسرتاه! إنني أُحسُّ كثيرًا بمعايبي كون الإنسان لا يعيش غير نصف عيشٍ في أثناء حياته، وأن حياة الروح لا تبدأ إلا بموت البدن.

ولكن ما هذه الحياة؟ وهل الروحُ خالدٌ بطبيعته؟ لا يتصور إدراكي المحدود شيئًا غير محدود، ويفوتني كلُّ ما يُدعى لا حدَّ له، وما أستطيع أن أنكر وأؤكد؟ وأيُّ برهانٍ يمكنني أن أقيم حوْل ما لا أقدر أن أدرك؟ أعتقد أن الرُّوح تبقى حيةً بعد البدن لحفظ النظام، ومن يعرفُ أن هذا يكفي لخلودها أبدًا؟ ومهما يكن من أمرٍ فإنني أدرك كيف يبلى البدن ويقنى بفرق الأجزاء،

ولكنني لا أستطيع أن أدرك مثل هذا الفناء للموجود المفكر، واني إذ لا أتصور كيف يُمكن أن يموت أفترض أنه لا يموت، وبما أن هذا الافتراض يفرّج غمّي ولا ينطوي على شيءٍ مخالفٍ للصواب، فلم أحشى أن أسلمَ به؟

وأشعرُ بروحي، وأعرفه بالشعور وبالفكر، وأعلم أنه موجود من غير أن أعلم ما جوهره، ولا أقدر أن أبرهن حؤول أفكارٍ ليست لديّ. والذي أعرف جيّدًا كونُ ذاتي لا تمتدُّ بغير الذاكرة، وأني لكي أكون إِيّاي في الحقيقة يجب أن أذكر أنني كُنْتُ. والواقع أنني لا أستطيع أن أذكر بعد مماتي ما كنت في أثناء حياتي ما لم أذكر ما كنتُ أحس؛ ومن ثمّ ما كنتُ أعمل، ولا رُبَّ عندي مُطلقًا في كَوْن هذا الذّكر يكون ذات يومٍ مدار سعادة الأبرار وعذاب الأشرار. وتجدُّ في هذه الدنيا ألف هَوَى حارٍّ يستغرق الشعور الباطني، ويخادع وخرّ الضمير، وما تجلّبه ممارسة الفضائل من هَوَانٍ وَقَفْدِ حُطُوةٍ يَحُول دون الشعور بفتونها كاملة. ولكن متى نجونا من الأوهام التي يوجبهها الجسم والحواسُ فينا، فتمتّعنا بتأمّل الكائن الأعلى وبالحقائق الخالدة الذي هو أصلها، ومتى قرّع جمال النظام جميع قُوَى رُوحنا فشغلنا فقط بالمقابلة بين ما صنعنا وما كان يجب أن نصنع، استردّ صوت الضمير قُوَّتَه وسلطانه هنالك، وميّزت اللدّة الخالصة عن رضا النفس والندامة الأليمة عن تدنٍّ، بمشاعرٍ لا تنضب، ما أعدّه كلُّ واحدٍ لنفسه من مصير. ولا تسألني يا صديقي العزيز مُطلقًا عن وجود منافعٍ أخرى للسعادة والآلام؛ فهذا أمرٌ أجهلُه، وإنما أجدُّ في المنافع التي أتخيّلُ ما يكفي لتسليتي في هذه الحياة، ولأرجو حياةً أخرى. ولا أقول مُطلقًا إن الصالحين سيكافئون، فما الخير الآخر الذي يُمكن أن ينتظره موجودٌ مُجيدٌ إن لم يكن وجوده وفق طبيعته؟ بيّد أنني أقول إنهم سيكونون سعداء؛ وذلك لأن بارئهم، الذي هو فاعلُ كلِّ عدل، إذ خلّقهم ذوي إحساس، لم يصنعهم للألم؛ وذلك لأنهم إذ لم يسيئوا استعمال اختيارهم في الأرض لم يخونوا مصيرهم بذنبيهم؛ أي إنهم ألموا في هذه الحياة، فيعوضون في حياةٍ أخرى إذن. وهذا الشعور أقلُّ استنادًا إلى استحقاق الإنسان مما إلى مبدأ الصلاح الذي يلوح لي أنه تعدُّ انفصاله عن الكُنْه الإلهي. ولا أصنع غير افتراض سنّ النظام الملاحظة، والله قائمٌ بذاته.^{٢٦}

وكذلك لا تسألوني عن كون الأشرار خالدين في العذاب أبدًا؛ فأنا أجهلُ هذا أيضًا، وليس لديّ من الفضول الفارغ ما أوضّح به هذه المسائل غير المُجدية، وما أرني في مصير

^{٢٦} ليس لنا يا رب، ليس لنا، لكن لاسمك أعط مجدًا من أجل رحمتك، من أجل أمانتك (المزمور المائة والخامس عشر).

الأشرار؟ إنني قليل الاكتراث لما يصيرون إليه، ومع ذلك فإنه يصعب عليّ أن أعتقد أنهم محكومٌ عليهم بعذابٍ لا نهاية له. فإذا كان العدلُ الأعلى ينتقم، فإنه ينتقم في هذه الحياة. وأنتم أيها الأقسام، مع ضلالتكم، وكلاء له، وهو يستعمل الشرورَ التي تأتون للعقابِ على الجرائم التي اجتذبتها، وذلك أن الأهواءَ المنتقمة تجازي على مُنكراتكم في أفندتكم الشَّرْهة التي أكلها الحسدُ والبخل والطمع، وفي صميم يُسركم الزائف. وهل من حاجةٍ إلى البحث عن النار في الحياة الأخرى؟ فالنارُ هنا في قلب الأشرار.

ويجب أن تنقطع أهواؤنا وجرائمنا حيث تنتهي احتياجاتنا الزائلة و رغباتنا غير الصائبة، وأيُّ فسوقٍ تكون النفوس النقية مستعدةً له؟ وهي إذ ليست محتاجةً إلى شيءٍ فليَمَ تكون شريفة؟ وهي إذ تكون في منجى من حواسنا الغليظة فإن سعادتها تكون في تأمل الموجودات، ولا تستطيع أن تريد غير الخير. وهل يكون خبيثاً إلى الأبد من ينقطع عن الشرِّ؟ كلاً، وهذا ما أميل إلى اعتقاده، وإن لم أكلّف نفسي عناء اتخاذ قرارٍ في هذا. فيا أيها الرب الرحيم الكريم، إنني أعبدُ قضاءك مهما كان، وإذا كنت تجازي الأشرار جزاءً أبدياً، فإنني ألغي عقلي الضعيف أمام عدلك؟ ولكن إذا كان ندمٌ هؤلاء التُّعساء ينطفئ مع الزَّمن، وإذا كانت آلامهم تنتهي، وإذا كان السلام عينه ينتظرنا كلنا على السواء ذات يوم، فلك مني الشفاء من أجل هذا. أوليس الشَّريرُ أحس لي؟ وما أكثر ما أغريتُ بمشابهته! وليزُلَّ سوءه الملازمُ له بخلاصه من شقائه، وليكن سعيداً منلي، فلا تؤدي سعادته إلى غير زيادة سعادتي، وذلك مع استبعاد إثارة غيرتي بذلك.

وهكذا، فإنني إذ أنظرُ إلى الله في أعماله، وإذ أبحث عنه بصفاته التي يهمني أن أعرفها، أنتهي إلى توسيعي وزيادتي بالتدريج فكري الناقصة المحدودة في البداية، عن هذا الكائن العظيم، ولكن إذا كانت هذه الفكرة قد تحوّلت إلى ما هو أنبلٌ وأكبر، فإنها كذلك أقلُّ تناسباً مع العقل البشري. وكلما دنوتُ بالروح من النور الأزلي بهرتني سناؤه وحيرني، فأضطرُّ إلى ترك جميع المفاهيم الدنيوية التي كانت تساعدني على تصوّره، فيعود الربُّ غير جسمي وغير حسّي، ويعود العقل الأعلى الذي يهيمن على العالم لا يكون عين العالم، وأرفعُ ذهني وأتعبه لإدراك كُنْهه على غير جدوى. ومتى فكّرتُ في أنه هو الذي يُنعم بالحياة والفاعلية على العنصر الحيّ الفعال المسيطر على الأجسام الحية، ومتى سمعتُ قولاً عن كون نفسي روحانيةً وعن كون الربِّ روحاً، ساورني غيظٌ من تدنّي الكُنْه الإلهي كما لو كان الربُّ وروحي من طبيعة واحدة، وكما لو كان الربُّ وحدَه ليس المُطلق الفاعل الشاعر العاقل المُريد بذاته حقاً، فنقتبس منه العقل والشعور والفاعلية والإرادة والاختيار

والكيان! ونحن لسنا مُخَيَّرين إلا لأنه أراد أن نكون هكذا، ويُعَدُّ كُنْهَ خافيًا على أرواحنا خفاءً أرواحنا على أجسامنا. ولا أعرف شيئًا عن خلقه المادة والأجسام والأرواح والعالم، وتربُّكُنِي فكرة الخلق وتجاوز مُتناولي، وأعتقدُها بمقدار ما أستطيع تمثُّلُها، ولكني أعرف أنه صَوَّر الكونَ وكلَّ موجود، وأنه صنع كلَّ شيءٍ ونظَّم كلَّ شيءٍ، والله أبدِيٌّ لا رَيْب. ولكن هل يستطيع ذهني أن يستوعب فكرة الأبدية؟ ولم أَفْنِعْ نفسي بكلماتٍ لا معنى لها؟ وكلُّ ما أتصوِّرُ هو أنه كان قبل الأشياء، وأنه يكون ما بَقِيَّت، وأن يكون بعدها، أي إذا ما انتهى أمرها ذات يوم. وليس من الغموض وتعلُّر الإدراك أن يُعَمِّم الموجود الذي لا أدرك بالحياة على الموجودات الأخرى، ولكنَّ تَحَوُّلَ كلِّ من الوجود والعدم إلى الآخر بنفسهما ينطوي على تناقضٍ جلي، وهو مُحالٌ واضح.

والله عاقل، ولكنَّ كيف يكونه؟ والإنسانُ عاقلٌ عندما يُبرهن، ولا يحتاج العقل الأعلى إلى البرهنة، ولا توجد له مُقدِّماتٌ ولا نتائج، حتى إنه لا يُوجَدُ له قضية، وهو عيانيٌّ محضًا، وهو يرى على السواء ما هو كائنٌ وما يُمكن أن يكون. وليست جميع الحقائق عنده سوى فكرة واحدة، كما أن جميع الأمكنة عنده ليست سوى نقطة واحدة، وكما أن جميع الأزمنة عنده ليست سوى هُنَيْهَةٍ واحدة، وتعملُ قدرة الإنسان بالوسائل، وتعملُ قدرة الله بذاتها، والله يَقْدِرُ لأنه يُريد، وإرادته قدرته. والله جَوَاد، ولا شيء أوضَح من هذا، غير أن جود الإنسان قائمٌ على حُبِّ أمثاله، وجود الله قائمٌ على حُبِّ النظام؛ وذلك لأنه يُمسِكُ بالنظام ما هو موجود، فيربطُ كلَّ جزءٍ بالكل. والله عادل، وأعتقد هذا، وهذا نتيجة جوده، وظلم الناس من عملهم، لا من عمله، وليس ما يدلُّ به الفلاسفة من فسادٍ أدبيٍّ ضدَّ العناية الربانية غير دليل على ذلك العدل في نظري، بيِّد أن عدل الإنسان يقوم على إعطاء كلِّ ذي حقِّ حَقَّهُ، وأن عدل الله يقوم على مطالبة كلِّ واحدٍ بأن يُقدِّم حسابًا عما أعطاه إياه.

وإذا كنتُ قد وُفِّقْتُ لاكتشافي بالتعاقب هذه الصفات التي ليس لديَّ أية فكرة مطلقة عنها، فذاك باعتمادي على نتائج ضرورية، وذاك عن حُسْنِ استعمال عقلي. غير أنني أُوَيْدُ وجودها من غير أن أدركها، وليس هذا تأييدًا من حيث الأساس، ومن العبث أن أقول إن الله هو هكذا، أي إنني شاعرٌ به مختبرٌ له، وما كنت لأتمثَّل ما هو أفضل من هذا في إمكان كَوْنِ الربِّ هكذا.

وحاصلُ القول أنني كلما سَعَيْتُ في تأمُّل كُنْهه الذي لا حدَّ له قلَّ إدراكي له، ولكنه موجود، وهذا يكفيني، وكلُّما قلَّ إدراكي له كثُرَت عبادتي له، وأخشعُ وأقول له: «أي ربِّ كلِّ موجود، أنا موجودٌ لأنك موجود، ويعني تأمُّلك دائمًا ارتقائي إلى منبهي، ويكُونُ أفضلُّ استعمالٍ لعقلي في تذلُّله كليًا أمامك، وهذا هو سَلْبُ قلبي وفُتُونُ ضعفي، وهذا شعوري بأنني مشمولٌ بعظمتك.»

واني بعد أن استتبعتُ الحقائقَ الرئيسةَ التي يُهْمُنِي معرفتها، وذلك من انطباع الأشياء المحسوسة ومن الشعورِ الباطني الذي يَحْمِلُنِي على الحُكْمِ في العللِ وَفَقْ براهيني الطبيعية، بقي عليّ أن أبحثَ عن أيِّ المبادئ التي يجبُ أن أستخرجَ منها سلوكي، وعن أيِّ القواعد التي يجبُ أن ألزِمَ بها نفسي قيامًا بمُقْتَضَى مصيري في الأرضِ وَفَقْ مَقْصِدِ الذي جعلني فيها. أجل، إنني باتباعي منهاجي دائمًا لا أستنبطُ هذه القواعدَ من مبادئ الفلسفة العليا مطلقًا، وإنما أجدها مسطورةً في صميمِ فؤادي من قِبَلِ الطبيعة بحروفٍ لا تُمَحَى. وليس عليّ أن أشاورَ غيرَ نفسي حوّلَ ما أريد أن أصنع، وكلُّ ما أشعرُ بأنه خيرٌ هو خير، وكلُّ ما أشعرُ بأنه شرٌّ هو شر، والضميرُ أفضلُ حلالٍ للمشاكل، ولا يُصارُ إلى دقائق البرهانِ إلا عند مساومته. وواجبُ الإنسان نحوَ نفسه هو أوّلُ الواجبات، ومع ذلك فما أكثرَ ما يقول لنا صوتُ الباطنِ إننا نَصنع الشرَّ بصنعنا خيرنا على حسابِ الآخرين! ونحن نعتقدُ أننا نَتَّبِعُ دافعَ الطبيعة ونحن نقاومه، ونحن إذ نستمعُ إلى ما تخاطبُ الطبيعة به حواسنا نَرَدِّي ما تخاطبُ به قلوبنا؛ فالموجودُ الفاعلُ يُطِيع، والموجودُ المنفعلُ يَصْطَبِع. والضميرُ صوتُ الروح، والأهواءُ صوتُ البدن. وهل من العجيبِ أن يتناقضَ هذان اللسانان في الغالب؟ وهنالك أيُّ اللسانين يجبُ أن يُصَتَّ له؟ والعقلُ يخادعنا في الغالب، ولنا كلُّ الحقِّ في رفضه، ولكن الضمير لا يخدعُ مطلقًا، وهو دليلُ الإنسان الصادق، وهو بالنسبة إلى النفسِ كنسبة الغريزة إلى البدن،^{٢٧} وَمَنْ يَتَّبِعْهُ يُطِيعِ الطبيعة ولا يَخْشَى أَنْ يَضِلَّ أبدًا. وهذه النقطة مهمة، واني إذ أتبع

^{٢٧} لا تقول الفلسفة الحديثة التي لا تقبل غير ما تفسّر، بالخاصية الغامضة المسماة «غريزة»، والتي تسوق الحيوانات نحو الغرض من غير معرفةٍ مكتسبة. وليست الغريزة عند «كوندياك» الذي هو من أحكم فلاسفتنا غير عادة خاصة في التأمل، ولكن مع اكتسابها بالتأمل، ويجب أن يُستنتج من الوجه الذي يُوَضِّحُ به هذا التقدّمُ كونُ الأولادِ أكثرَ من الرجالِ تأملًا، وهذا قولٌ غريب، وهو من الغرابة ما لا يستحق معه أن يُفحص، ولا أدخل هنا في هذا الجدل، وإنما أسأل عن الاسم الذي يجب أن أطلقه على ما يديه كلي من نشاطٍ في مقاتلة المَنَاجِدِ* التي لا يأكلها مطلقًا، وعلى ما يديه من صبرِ ساعاتٍ بكاملها كامنًا لها، وعلى ما يديه من براعةٍ في إمساكها وقذفها خارج أرضها عند بروزها، وفي قتلها بعد ذلك لتركها هنالك من غير أن يدرّبه أحدٌ على هذا الصيد، ومن غير أن يعلم من أحد وجودَ مناجدٍ في ذاك المكان. وأسأل أيضًا – وسؤالي هذا أكثر أهمية – عن السبب في استلقاء هذا الكلب على الأرضِ مثني الأرجلِ مَنَحْدًا وضع ضارع مؤثّرٍ فيّ، مَنَحْدًا هذا الوضع الذي كان يبقَى عليه لو ضربته وهو في هذه الحال من غير أن يستجلب عظمي، ماذا! كلبِي الصغير الذي وُلِدَ منذ وقتٍ قصيرٍ يكتسب مبادئ خُلُقِيَّة! وهل كان يَعْرِفُ ما الرحمة والكرم؟ وما البصائر المكتسبة التي كان يرجو أن يسكنني بها تاركًا نفسه تحت تصرّفِي على هذا الوجه؟ إن جميع كلاب العالم يأتون ذات الشيء في ذات الحال دائمًا، ولا أقول شيئًا عمّا يمكن كلِّ واحد أن يحقق لنفسه. وليتفضل الفلاسفة الذين يرفضون الغريزة بازدراءٍ أن يوضِّحو لنا هذا الأمر

المنعم عليّ وأبصرُ أنني أنقطع عنه، أقول: دعوني أقف قلباً لإيضاحها.

ويقوم كلُّ أدبٍ في أفعالنا على الحكم الذي نحمله عنها، وإذا كان من الصحيح أن الخير خيرٌ وجب أن يكون هكذا في صميم قلوبنا كما في أفعالنا، وتكون جائزة العدل الأولى في شعورنا بأننا نقيمه، وإذا كان الصلاح الخُلقي مطابقاً للطبيعة فإن الإنسان لا يكون سليمَ الروح والجسم إلا بصلاحه، وإذا لم يكن الأمر هكذا وكان الإنسان شريراً طبيعياً فإنه لا يستطيع أن ينقطع عن هذا الوضع من غير أن يفسد، ولا يكون الصلاح فيه سوى عيبٍ ضد الطبيعة، وإذا ما صنَع الإنسان لإيذاء أمثاله كان كالدُّب الذي يذبح فريسته، وبدا الإنسانُ البشريُّ حيواناً فاسداً كالدُّب الرحيم، والفضيلةُ وحدها هي التي تدعُ فينا وخرّاً للضمير.

ولتعدُّ إلى أنفسنا يا صديقي الشاب! ولنطرحُ كلَّ مصلحةٍ شخصيةٍ جانباً، ولنبحثُ عن المدى الذي تخمّلنا إليه ميولنا، وأيُّ منظرٍ يفتننا أكثرَ من غيره، أمنظرُ آلام الآخريين أم منظرُ سعادتهم؟ وأيُّ الأمرين أحلى لنا أن نصنعهُ فيتزكُّ فينا أثرًا أكثرَ لطافةً بعدَ فعله، أعمَلُ الخير أم عملُ الشر؟ وما الذي يعينكم في مسارحكم؟ أتجدون لذّةً بالجرائم؟ أتسكبون دموعاً من أجل فاعليها المأخوذين بها؟ هم يقولون لا يوجدُ في جميع ذلك ما نكتسبُ له خارج مسرحنا. وعلى العكس، نجدُ بحلاوة الصداقة والإنسانية سلواناً في آلامنا، حتى إننا نكون في ملاذنا وحيدين بانسين كثيراً إذا لم نجدُ مَنْ يقاسمنا إياها. وإذا لم يوجد شيءٌ من الأخلاق في قلب الإنسان، فمن أين يأتيه إذن هذا التهلُّل من أجل أعمال البطولة وهذا الجدُّلُ حُبًّا لذوي النفوس الكبيرة؟ وما علاقة هذه الحماسة للفضيلة بمصلحتنا الخاصة؟ ولم أفضّلُ أن أكون كاثون الذي يُمرِّق أحشائه على أن أكون قيصرَ الظافر؟ إذا ما نزعتم من قلوبنا حُبَّ الجمال أزلتم كلَّ فتونٍ في الحياة، وإن الذي خنق ساقطُ الأهواء في نفسه هذه المشاعر اللطيفة، وإن الذي حصّرَ أفكاره في شخصه فصار لا يُجِبُّ غير نفسه، عاد لا يكون صاحبَ حميةٍ وعاد فؤاده الجامد لا يخفقُ سروراً، وعاد لا يُخضِلُ عينيه حناناً خُلُوً، وعاد لا يتمتع بشيء، وعاد التّعسُّ لا يُحسُّ ولا يعيش؛ فهو قد مات.

ولكنَّ مهما يكن عددُ الأشرار في الأرض، فإن من القليل أن تجدَ أناساً من ذوي النفوس الجيفيّة التي أصبحت لا تشعُرُ خارجَ مصلحتها بكلِّ ما هو عادلٌ صالح. ولا يروقنا الجورُ إلا

بالإحساسات والمعارف التي يفترضون اكتسابها لها، وليوضّحوا لنا ذلك على وجهٍ يقنع به كلُّ ذي عقل، وهناك لا يبقى لي ما أقول، وهناك لا أتكلم عن العريضة مطلقاً.

* المناجذ: جمع خُلد من غير لفظها، والخُلد نوعٌ من القواضم يعيش تحت الأرض، وهو ليس له عيان ولا أذنان.

بمقدار ما يفيدنا، فإذا عدوت هذا وجدتنا نريد حماية البريء، وإذا ما رُئي في شارعٍ أو طريقٍ قسوةً وظلمٌ لم تلبث أن تتورَّ حركةً غضبٍ وسخطٍ في صميم القلب حالًا، فتحملنا على التزام جانب الدفاع عن المظلوم. غير أن واجبًا أقوى من ذلك يُمكننا، وتنزِعُ القوانين منَّا حقَّ حماية البراءة، وعلى العكس إذا حدث أن وقف نظرنا عملُ رحمةٍ أو كرم، فما أكثر ما يوحي إلينا من إعجاب ومحبة! ومَن ذا الذي لا يقول في نفسه: «يا ليتني صنعت مثل هذا»؟ ولا ريب في أن مما نبالي به قليلًا كَوْنُ هذا الرجل أو ذلك شَرِيرًا أو عادلاً منذ ألفي سنة، ومع ذلك فإن ذات الغرض يساورنا في التاريخ القديم كما لو كان جميعُ هذا قد حَدَثَ في أيامنا. وما عمل جرائم كاتيلينا في؟ أأخشى أن أكون ضحيته؟ ولم أحمل له إذن ذات المقت كما لو كان معاصِرًا لي؟ ونحن لا نُبغض الأشرار لأنهم يؤذوننا فقط، بل لأنهم أشرار، ولا نريد أن نكون سعداء فقط، بل نريد سعادة الآخرين، وإذا كانت هذه السعادة لا تُكَلِّفُ سعادتنا شيئًا زادتها. والخلاصة أن الإنسان يرقُّ للتعساء على الرغم منه، وهو يألم إذا رآهم يألمون، وما كان أكثرُ النَّاسِ فسادًا ليفقدوا هذا العطف تمامًا، وهذا ما يجعلهم يناقضون أنفسهم. ويكسو اللصُّ الذي يسلبُ السابِلةَ الفقيرَ العاري، ويساعد أشدَّ النَّاسِ سفكًا للدماء مَن يرى سقوطهم إغماء.

ويُحدِّث عن صوتِ الندم الذي يجازي سرًّا عن الجرائم الخفية، والذي يُظهرها غالبًا. وا حَسْرَتاه! مَن مِنَّا لا يسمعُ هذا الصوت المزعج؟ نحن نتكلم عن تجربة، ونريدُ خنقَ هذا الشعور الجائر الذي يُورثنا ألمًا كبيرًا، ولنُطع الطبيعة، وسنعلم بأيِّ رفيقٍ تهيمن، وأيِّ فتونٍ ينطوي عليه الضميرُ الصالحُ جواربًا عن صوتها بعد أن يستمع إليه. والشَّريرُ يخاف الطبيعة ويفرُّ منها، وهو يُسرُّ إذا ما رمى بنفسه خارج نفسه، وهو يُديرُ حوله عيونًا هلوعًا، وهو يبحث عن شيءٍ يُلْهِيه، ولولا الأهاجِيُّ اللاذعة والسخرية المؤذية لكان مكروبًا دائمًا. وتقوم لذته الوحيدة على ضحك الساخر. وعلى العكس، يكون صفاء الصالح باطنيًا، ولا يكون ضحكُه عن خُبث، بل عن حُبور، وهو يحملُ منبع هذا الحُبور في نفسه، وهو يكون مسرورًا وحيدًا أو بين جمعٍ على السواء، وهو لا يقتبس رضاه ممن يَدُنون منه، وهو يُشركهم فيه.

وألقوا عيونكم على جميع أمم العالم، وتصفَّحوا جميع التواريخ، وتجدون بين كثيرٍ من الأديان الجافية، وبين هذا الاختلافِ الغريبِ في الطباع والأخلاق، عَيْنَ الأفكارِ عن العدل والصلاح في كلِّ مكان، وعَيْنَ المبادئِ عن الخير والشر في كلِّ مكان. أجل، أوجدت الوثنية القديمة آلهةً قباحًا لو وُجدوا في هذه الدنيا لغوبوا مثل المجرمين، وقد كانوا لا يعرضون عن

السعادة العليا منظرًا غير فواحش تُقترَف وغير أهواءٍ تَقَعُ موقعَ الرِّضا، بيَد أن المُنكر المُسلِّح بسلطانٍ مُقدَّسٍ كان ينزل من مقامه الأبدي على غير جدوى؛ فقد كانت الغريزة الخُلُقِيَّة تطرُده من قلوب الآدميين، وبينما كانت الشعائر تُقامُ لدعوات جوييتر كان يُعجَبُ بعفاف إكزيثوقراطس، وكان العفيف لوكريسُ يعبد فينوس، وكان الرومانيُّ الجريءُ يُقدِّم القرابين إلى الخوف، وكان يصرِّعُ إلى الإله الذي يترَّ أباه، ويموت بيد أبيه من غير تبرُّم، وكان أعظمُ الرجال يخدِّمون أحقر الآلهة، وكان صوت الطبيعة المقدَّس الذي هو أقوى من صوت الآلهة يُحترَم في الأرض، فيلوح أنه يقصي الجريمة إلى السماء مع المجرمين.

ولذا يُوجدُ في أعماق النفوس مبدأً غريزيًّا عن العدل والفضيلة نستندُ إليه على الرغم من مبادئنا الخاصة في الحُكم في أفعالنا وأفعال الآخرين على أنها صالحة أو طالحة، وهذا المبدأ هو الذي أُطلق عليه اسم الضمير.

غير أنني أسمع من كلِّ جانب ارتفاعَ صُراخ الحكماء المزعومين، وهم يرفعون عقيرتهم قائلين بالإجماع: أغاليطُ الصِّبا، مُتَسرَّات التَّربية! لا يوجد في الروح البشريِّ شيءٌ غيرُ الذي يدخُلُ فيه بفعل التجربة، نحن لا نحكم في شيء إلا عن أفكارٍ مكتسبة، وهم يذهبون إلى ما هو أبعد من هذا، فيجرون على إنكار ذلك الاتفاق الواضح العام بين جميع الأمم. وهم يعاكسون ما أجمع عليه النَّاس من حُكمٍ منسجمٍ ساطع، فيبحثون في الظلام عن بعض الأمثلة المهمة التي لا يَعْرِفها غيرهم، وذلك كأن جميع ميول الطبيعة قد زالت بفساد إحدى الأمم، وكأن النوع يعود شيئًا غير مذكور عند وجود أناسٍ سيِّئ الأُخلاق. ولكن ما فائدة المرتاب مُؤننين من عذابٍ فرضه على نفسه للعثور في زاويةٍ من العالم على عادةٍ مخالفة لمبادئ العدل؟ وما فائدته من منحه أكثر السباح محلاً للطَّعن من الثقة ما يحبسُه عن أبعد الكُتَّاب صبيًّا؟ وهل من شأن بعض العادات الغريبة المشكوك فيها والقائمة على بعض العوامل المحلية التي نجهلها أن تهدم الاستقراء العام المستنبط من تسابق جميع الأمم المختلفة في كلِّ شيءٍ عدا ذلك الأمر؟ فيا مُؤننين! يا مؤننين الذي يبيِّح بالصدق والحق، كُن مخلصًا أمينًا إذا أمكن الفيلسوف أن يكون هكذا، وحدَّثني عن وجود بلدٍ في العالم يكون من الجنابة فيه أن يُنجزَ الإنسان وعَدَه وأن يكون رحيماً محسنًا كريماً، وعن وجود بلدٍ يُدرك في رجل الخير ويُكرم فيهِ الغادر.

ويقال إن كلَّ واحدٍ لا يساعد على الخير العام إلا في سبيل مصلحته، ولكن من أين يأتي، إذن، كَوْنُ الصالح يساعد على ذلك ضرًّا بنفسه؟ وهل يذهب الإنسان إلى الموت في سبيل

مصلحته؟ أجل، لا أحد يسيّر في أمرٍ إلا من أجلٍ خيرٍ نفسه، ولكن إذا وُجدَ خيرٌ خُلقيّ يجب أن يُحسب له حسابٌ فإنه لن يُفسّر بالمصلحة الخاصة غير أعمال الأشرار، حتى إنه يُعتقَد أنه لا يحاول الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك مطلقاً، وتكون فلسفة ممقوتة تلك التي تصيّق بالأعمال الصالحة ذرْعاً، والتي لا يُنخلصُ فيها من ورطةٍ إلا بأن تُلقَق لتلك الأعمال نِيَّاتٌ ساقطةٌ وأسبابٌ من الفضيلة عاطلة، والتي يُلزَم فيها ياهانة سُقراط وسبِّ ريجولوس. ولو قُيِّصَ لمثل هذه المذاهب أن تنبُت بيننا ما انفكَّ صوتُ الطبيعة وصوت العقل يرتفعان ضدها، وما تَرَكا لأحدٍ من أنصارها اعتذاراً بصدور ذلك عن حسن نية.

وليس من مقاصدي أن أدخل هنا في مجادلاتٍ خاصّةٍ بما بعد الطبيعة تُجاوز متناولي ومتناولكم، ولا تؤدي إلى شيءٍ من حيث الأساس، وكنت قد قلت لكم إنني لا أريد أن أتفلسف معكم، وإنما أريد أن أساعدكم على مشاورة قلبكم، فإذا ما أثبت جميع الفلاسفة أنني مخطئ، وإذا ما شعرتم أنني على حق، لم أرِد أكثر من هذا.

ولا يتطلب ذلك أكثر من أن تُفرّقوا بين أفكارنا المكتسبة ومشاعرنا الطبيعية؛ وذلك لأننا نشعُر قبل أن نَعْرِف، وكما أننا لا نتعلّم إرادة خيرنا والفرار من شرِّنا، وإنما ننال هذه الإرادة من الطبيعة، يكون حُجُنًا للصالح ومقنناً للطالح من الأمور الطبيعية كحُجُننا لأنفسنا. وليست أعمال الضمير أحكاماً، بل مشاعر، ومع إتيان جميع أفكارنا من الخارج تجد المشاعر التي تَرِنُها في باطننا، وبهذه المشاعر وحدّها نعرف الموافقة أو عدم الموافقة التي بيننا وبين ما يجب احترامه أو اجتنابه من الأشياء.

والوجود عندنا هو الإحساس، ولا مرآة في أن حساسيتنا أقدم من عقلنا، وأن لدينا أحاسيس قبل أن تكون لدينا أفكار،^{٢٨} ومهما تكن علّة وجودنا فإنها دَبَّرت أمر بقائنا بمنحها إيانا أحاسيس ملائمة لطبيعتنا. ولا يستطيع أحد أن يُنكِر أن هذه غريزية على الأقل. وإذا نُظِرَ إلى هذه الأحاسيس من حيث الفرد وُجِدَ أنها عبارة عن حُبِّ النفس والخوف من الألم ومقّت الموت والرغبة في الرفاهة، ولكن إذا كان الإنسان اجتماعياً بطبيعته، ولا ريب في هذا، أو إنه خُلِق ليصير هكذا على الأقل، فإنه لا يمكن أن يكون هكذا بغير مشاعر غريزية أخرى مناسبة لنوعه؛ وذلك

^{٢٨} تكون الأفكار أحاسيس، وتكون الأحاسيس أفكاراً من بعض الوجوه، ويناسب الاسمان كلّ إدراك يشغلنا بموضوعه وبنا نحن الذين يتأثرون به، ولا يوجد غير أمر هذا التأثير ما يعين الاسم الذي يلائمه، وإذا كان الموضوع أوّل ما نُبالى به، فلا نفكر في أنفسنا بغير التأمل، كان هذا فكراً، وعلى العكس، إذا كان الانطباع الذي يتم بثير انبائها الأوّل، فلا نفكر بغير التأمل في الموضوع الذي يوجهه، كان هذا إحساساً.

لأنه عند عدم النظر إلى غير احتياجه الجثمانية يرى أن هذا الاحتياج يوجب تفرُّق النَّاسِ بدلاً من التقريب بينهم. والواقع أن الدافع الوجداني ينشأ عن النظام الخُلقيّ المؤلَّف من علاقة الإنسان بنفسه وبأمثاله، ولا تعني معرفة الخير حُبّه؛ أي إن هذه المعرفة ليست غريزيةً في الإنسان، ولكن ضميره يحمله على حُبّه عندما يُعرِّفه عقله إياه، وهذا الإحساس هو الغريزي.

ولذا فلا أعتقد يا صديقي أن من المتعذّر أن يُوضَح بنتائج طبيعتنا مبدأ الضمير المباشر مستقلاً عن العقل ذاته، حتى إن هذا لو كان متعذراً لظَهَرَ غير ضروري، وذلك أن أولئك الذين يُنكرون هذا المبدأ المُسلم به والمُعترف به من قِبَل الجنس البشري لا يُثبتون عدم وجوده مطلقاً، وإنما يكتفون بالتوكيد. ونحن إذا ما وكدنا وجوده كُنّا على أساسٍ أحسن من أساسهم؛ وذلك لما لدينا، زيادةً على التوكيد، من شهادة الباطن وصوت الضمير الذي يشهدُ نفسه. وإذا كان وميضُ الحُكمِ الأوَّلِ يَبْهَرُنَا وَيَخْلِطُ بَيْنَ الْأُمُورِ فِي نَظَرِنَا فِي الْبُدْءِ، فلننتظر انفتاح عيوننا ثانيةً واشتدادها، وهنالك لا نلبثُ أن نرى تلك الأمورَ نفسَها على نورِ العقل، وكما أطلعتنا عليها الطبيعةُ في بدءِ الأمر. وإن شئتَ فدعنا نكونُ أكثرَ بساطةً وأقلَّ بطلاً، ودعنا نقتصرُ على المشاعرِ الأولى التي نَجِدُهَا فِي أَنْفُسِنَا مَا دَامَ الْبَحْثُ يَرُدُّنَا إِلَيْهَا دَائِمًا عِنْدَمَا لَا يُضَلُّنَا مُطْلَقًا.

أيها الضمير، أيها الضمير، أيها الغريزة الرئانية والصوت الخالد السماوي، أيها الدليل الوطيد لموجود جاهلٍ محدود، ولكن مع العقل والاختيار، أي قاضي الخير والشر المعصوم من الضلال والذي يجعل الإنسان على مثال الرب، أنت الذي تقوم عليه روعه طبيعته وأدب أفعاله، لولا أنت ما شعرتُ بشيءٍ في نفسي يرْفَعُنِي فَوْقَ الْبَهَائِمِ، لولا أنت ما شعرتُ بغير امتيازٍ كئيبٍ في الضلال بين خطأ وخطأً مستعيباً يادراكٍ لا قاعدةً له، ويعقلُ لا مبدأً له.

حمداً لله، ها نحن أولاء قد نَجَوْنَا مِنْ جِهَازِ الْفَلَسَفَةِ الْمَخِيفِ، فنستطيع أن نكون رجالاً من غير أن نكون علماء، وها نحن أولاء قد أُعْفِينَا مِنْ قَضَاءِ حَيَاتِنَا فِي دَرَاةِ الْأَخْلَاقِ، فتملكُ بأقلِّ ثمنٍ دليلاً أكثرَ وثاقَةً في هذا التَّيِّهِ الْوَاسِعِ لِآرَاءِ الْإِنْسَانِ، ولكن لا يكفي أن يكون هذا الدليل موجوداً، فيجب أن يُعْرَفَ وَأَنْ يُتَّبَعَ، وإذا كان يخاطب جميع القلوب، فليَمَ لا يُوجَدُ غَيْرَ أَنْاسٍ قَلِيلِينَ يستمعون له. والآن، إن لسان الطبيعة هو الذي يخاطبنا به، وكلُّ شيءٍ يَسُوقُنَا إِلَى نِسْيَانِهِ. وَالضَّمِيرُ وَجَلٌّ يُحِبُّ الْانزواءَ والهدوءَ، ويُفْرِزُهُ الضَّجِيجَ وَالنَّاسَ، وَتَعَدُّ الْمُبْتَسِرَاتِ الَّتِي جُعِلَ صَادِرًا عَنْهَا أَشَدُّ أَعْدَائِهِ، وَيَقْرُءُ أَمَامَهَا أَوْ يَسْكُتُ، وَيَخْتَقُ صَوْتَهَا الصَّاحِبِ صَوْتَهُ، وَيَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يُسْمَعَ، وَيَجْرُؤُ التَّعَصُّبَ عَلَى تَقْلِيدِ صَوْتِهِ وَيُمْلِي الْإِجْرَامَ بِاسْمِهِ، وَتَخْمُدُ هَمَّتَهُ عَنْ سَوْءِ مَعَامَلَةٍ، وَيَعُوذُ غَيْرَ مَخَاطَبٍ

لنا، ويعودُ غيرَ مجيبٍ لنا، وهو بعدَ كثيرٍ ازدياءٍ له يصعبُ ذكرُه صعوبةً سابقٍ إبعاده.

وما أكثرَ ما تَعَبْتُ في أثناءِ مباحثي من الفتور الذي كنتُ أُحِسُّ في نفسي! وما أكثرَ ما صبَّ الكزْبُ والسَّامُ سُمومَهُما في تأملاتي، فيجعلانها أمرًا لا يُطاقُ عندي! كان قلبي الجديبُ لا يَمْنَحُ حُبَّ الحقيقةِ غيرَ غَيْرَةِ ذاويةٍ فاترة، فأقولُ في نفسي: لِمَ أُعَذِّبُ نفسي في البحثِ عما هو غيرُ موجودٍ؟ ليس الخَيْرُ الخُلُقِيُّ سوى وهم، ولا يوجَدُ شيءٌ حَسَنٌ سوى ملاذِّ الحواسِّ. وَي! ما أصعبُ استردادَ ذوقِ ملاذِّ الروحِ إذا ما فُقِدَ مرَّةً! وأيُّ شيءٍ أصعبُ من تناولِ الإنسانِ له عندَ عدمِ حياته إياه سابقًا! إذا وُجِدَ إنسانٌ بَلَغَ من الشقاءِ ما لا يَدُكُّ معه أنه صنع في جميعِ حياته ما تجعله ذكراه راضياً عن نفسه مسروراً بسابقِ عيشه، فإن هذا الإنسانِ يكونُ عاجزاً عن معرفةِ نفسه مُطلقاً، وهو إذ يُعَوِّزُهُ كلُّ شعورٍ بما يلائمُ طبيعته من صلاح، يَظَلُّ شَرِيرًا قَسْرًا ويبقى شقيًّا إلى الأبد، ولكنَّ أتعقدون أنه يوجَدُ في العالمِ بأسره إنسانٌ واحدٌ بَلَغَ من الفسادِ ما لا يُسَلِّمُ معه فؤاده إلى إغواءِ فعلِ الخيرِ؟ إن هذا الإغواءُ هو من شدةِ الطلاوةِ وموافقةِ الطبيعةِ ما يتعذَّرُ معه أن يقاومه دائماً، ويكفي ما يوجبه هذا الإغواءُ من لَذَّةٍ مرَّةً لاستدعائه بلا انقطاع. ومن المؤسفِّ أن يكونَ قضاؤه شاقًّا في البُداءِ، ويوجَدُ أَلْفُ سببٍ لامتناعِ الإنسانِ عن اتِّباعِ مِثْلِ فؤاده؛ فالحدَرُ الزائفُ يَحْصُرُ هذا القلبَ ضمن حدودِ الذاتيةِ الإنسانيةِ، ولا بُدَّ من بَدَلِ أَلْفِ جُهْدٍ في الشجاعةِ حتى يُجرأَ على مجاوزتها، وما يَجِدُ الإنسانُ من لَذَّةٍ في صُنْعِ الخيرِ هو جائزَةٌ ما صَنَعَ من خير، ولا ينالُ الإنسانُ هذه الجائزَةَ إلا بعدَ استحقاقه لها. ولا شيءٌ أحلى من الفضيلةِ، ولكنه يجبُ أن تُجَرَّبَ لُتُعرفَ هكذا. وإذا ما أُريدَ اعتناقها بَدَتِ على أَلْفِ شَكْلِ مُخيفٍ في البُداءِ، كالإلهِ بَرُوتِهِ الذي وَرَدَ ذكرُه في الأساطيرِ، وهي لا تبدو على شكلها الحقيقيِّ في نهايةِ الأمرِ إلا لمن لم يَعبُوا عن انتحالها مُطلقاً.

وإذ كافحتني، بلا انقطاع، مشاعري الطبيعيةُ التي تكلمتُ في سبيلِ المصلحةِ العامةِ، وعقلي الذي رَدَّ كلَّ شيءٍ إليَّ، تَرَجَّحْتُ في جميعِ حياتي بين هذا التناوبِ الدائمِ، صانعاً للشَّرِّ ومُحِبِّاً للخيرِ، ومُضادًّا نفسي لو لم تُنرِ فؤادي بصائرَ جديدة، ولم تُوطِّدِ الحقيقةَ، التي نَبَّهتُ آرائي، سِرِّي وجعلتني مسالماً لنفسي، ومن العيبِ أن أريدتُ إقامةَ الفضيلةِ بالعقلِ وحده، وأيُّ أساسٍ متينٍ يُمكنُ أن تُعطَى؟ ويقولون إن الفضيلةَ هي حُبُّ النظامِ. ولكنَّ أَيْمَكُنْ إِدُنْ، أيجِبُ إِدُنْ أن يَتَمَّ الفُورُ لهذا الحُبِّ على حُبِّ رفاهتي؟ دَعُهُم يُعطونني سببًا واضحًا كافيًا لهذا التفضيلِ. ولو نظرتَ إلى الأساسِ لوجدتَ أن مبدأهم المزعومَ تلاعبٌ بالكلامِ؛ وذلكَ لأنني أقولُ كذلكَ إن الإثمَ حُبُّ للنظامِ بمعنَى آخَرَ، ويوجَدُ نظامٌ خُلُقِيٌّ حيثُ يوجدُ عقلٌ وإحساسٌ، والفرقُ في أن

الصالح ينتظم بالنسبة إلى الكل، وفي أن الشَّيرِ يَنْظِمُ الكُلَّ بالنسبة إلى نفسه، ويجعل الشَّيرُ من نفسه مركزاً لكلِّ شيء، وقيسُ ذلك شعاعه ويبقى ضمن الدائرة، وهنالك ينتظم بالنسبة إلى المركز العام الذي هو الرُّب، وبالنسبة إلى جميع الدوائر ذوات المركز الواحد التي هي مخلوقات الرب. ولو كان الرب غير موجود لم يوجد غير الشَّيرِ من يعقل، ولم يكن الصالح غير مجنون.

أي بُني، قد تُحسُّ ذات يوم أيُّ حملٍ أُزِيح، وذلك أنك بعد أن تستوعب بطل الآراء البشرية وتُدوق مرارة الهواء، تجدُّ قريباً منك كثيراً، في نهاية الأمر، طريق الحكمة، وثواب الأعمال في هذه الحياة، ومنع السعادة التي يَسْتَم منها! وذلك أن جميع واجبات القانون الطبيعي التي مُجِّت من قلبي بظلم النَّاسِ تُرْسَمُ ثانيةً هناك باسم العدل الأزلي الذي يفرضها عليّ والذي يراني أقوم بها، وعُدْتُ لا أشعرُ في نفسي بغير كوني صنَّع الموجود العظيم وأداته، هذا الموجود العظيم الذي يريد الخير ويفعله، والذي يصنعه لي بتضافر عزائمي وعزائمه وبحسن استعمال اختياري، وأرضى بالنظام الذي يُقيم، مطمئناً إلى أنني أتمتع بهذا النظام ذات يوم مُلاقياً فيه سعادتِي. وأيُّ سعادةٍ أحلى من شعور الإنسان بأنه قد انتظم ضمن نظام يكون فيه كلُّ شيءٍ حسناً؟ وأحتمل الألم صابراً إذ يُواثيني ذاكراً أنه عابرٌ آتٍ من جسمٍ غير جسيمي، وإذا صنعتُ عملاً صالحاً لا شاهدٍ عليه عَلِمْتُ أنه قد رُئي، وأني أُسجِّلُ سيرتي في هذه الحياة من أجل الحياة الأخرى، وإذا ما عانيتُ ظلماً قلتُ في نفسي: إن الكائن العادل المهيمن على كلِّ شيءٍ سيُعْزِنِي، وإن من شأن احتياجات جسيمي وأبوس حياتي أن يجعلَ فكرة الموت عندي أكثر احتمالاً، وبذلك تكون القيود التي تُقطع قليلةً عندما يجب ترك كلِّ شيءٍ.

ولم يخضع رُوحِي لحواشي ويَقْبُدُ بهذا الجسم الذي يُعبِّدُه ويضايقه؟ لا أعرف من ذلك شيئاً، وهل دخلتُ ضمن أوامر الرُّب؟ ولكنني أستطيع من غير تَهَوُّرٍ أن آتي بافتراضاتٍ متواضعة، وأقولُ في نفسي: إذا كان روح الإنسان قد بقيَ طليقاً نقيّاً، فأية مزيةٍ تُكون له في حُبِّ النظام الذي يراه قائماً، وفي اتِّباع هذا النظام الذي لا تكون له أية مصلحةٍ في الإخلال به؟ أجل، إنه يكون سعيداً، ولكنَّ سعادتَه يُعْزِرُها أعلى الدرجات، وهو مجدُّ الفضيلة وحسن الشهادة بنفسه، وهو لا يكون إلا كالملائكة. ولا مرأه في أن الإنسان الصالح يزيدُ عليهم، وإذ يتحد الروح في الجسم الفاني يروابطُ ليست أقلَّ قوةً من كونها غير مُدركة، فإن العناية بحفظ هذا الجسم تحمِلُ الروح على ردِّ كلِّ شيءٍ إليه، وعلى منحهِ مصلحةً مخالفةً للنظام العام، فيستطيع أن يرى ويُحِب، وهنالك يتحول حُسنُ استعمال اختياره إلى استحقاقٍ وأجر، ويُعدُّ نفسه لسعادةٍ ثابتةٍ بمكافحته أهواءه الدنيوية وبقائه ضمن إرادته الأولى.

وإذا كانت جميع ميولنا الأولى شرعيةً حتى في حال الخفض حيث نحن في هذه الحياة، وإذا كانت جميع عيوبنا تأتي من أنفسنا، فلم نشكو من سيطرتها علينا؟ ولم نلوم خالق الأشياء على الشرور التي تصنع، وعلى الأعداء الذين نسلح ضد أنفسنا؟ آه! دعنا لا نفسد الإنسان مطلقاً؛ فهو سيكون صالحاً بلا عناءٍ دائماً، وهو سيكون سعيداً بلا ندمٍ دائماً، ويكون المجرمون الذين يدعون أنهم اضطروا إلى الجريمة أشراراً كاذبين. وكيف لا يرون مطلقاً أن الضعف الذي يشكون منه هو من عملهم الخاص، وأن فسادهم الأول يأتيهم من إرادتهم، وأنهم إذ أرادوا الإذعان لميولهم فاسترسلوا معها أذعنوا لها على الرغم منهم في آخر الأمر وجعلوها أمراً لا يقاوم؟ أجل، عاد لا يتوقف عليهم ألا يكونوا أشراراً ضعفاء، بيد أنه توقف عليهم سابقاً ألا يصبحوا هكذا. وئ! ما أسهل بقاءنا قابضين على عنان أنفسنا وأهوائنا، حتى في أثناء هذه الحياة، لو كنا حين عدم اكتسابنا لعاداتنا بعدد، وحين أخذ أنفسنا في التفتح قد عرفنا أن نشغلها بأمرٍ يجب أن نعرفها تقديراً لما لا نعرف، ولو كنا قد أردنا بإخلاص أن نبر أنفسنا، لا لنلتم في نظر الآخرين، بل لنكون حكماء صالحين وفق طبيعتنا، ولنكون سعداء بممارسة واجباتنا! وتبدو لنا هذه الدراسة شاقة مملّة؛ وذلك لأننا لم نفكر فيها إلا بعد أن فسدنا بالعبث وأسلمنا أنفسنا إلى أهوائنا، ونحن نقرُّ أحكامنا وتقديرنا قبل أن نعرف الخير والشر، ثم نردُّ كل شيء إلى هذا القياس الفاسد فلا نُعطي شيئاً قيمته الصحيحة.

ويأتي دوز من العُمر يكون القلب فيه طليقاً بعدد، ولكن مع نشاطٍ وقَلْبٍ وطمعٍ في سعادةٍ لا يعرفها، فينشدها، ولكن مع تقلبٍ ذي فضول. وتخدعه الحواس، ويستقرُّ أخيراً عند منظرها الفارغ فيعتقد أنه وجدها حيث لا توجد مطلقاً. وقد لازمتني هذه الأوهام زمناً طويلاً، ومن دواعي الأسف أن عرفتُها مؤخراً، ولم أقدر على تبديدها تماماً، وهي ستبقى ما بقي هذا البدن الفاني الذي يُخديتها. وقد صار من العبث على الأقل إغواؤها لي؛ فهي لا تُغرُّني، وأعرف ما تسعى إليه، وأزدرىها حين أتبعها، وأرى فيه عائقاً لسعادتي بدلاً من أن أجد فيها هدفاً لها، وأتوق إلى الوقت الذي أتخلص فيه من قيود البدن، فأكون «أنا» بلا تناقضٍ وغير منقسمٍ إلى قسمين، ومن غير احتياجٍ إلى غير نفسي لأكون سعيداً، وإني إذ أنتظر ذلك أجِدني سعيداً حتى في هذه الحياة لقلة التفاتي إلى شروها، ولأنني أعدها غريبةً عن وجودي، ولأنه يتوقف علي كل خيرٍ يمكنني استخلاصه منها.

وَأَتَمَرُّنْ عَلَى أَعْلَى التَأْمَلَاتِ رَفْعاً لِنَفْسِي مُقَدِّمًا إِلَى هَذِهِ الْحَالِ مِنَ السَّعَادَةِ، مِنَ الْقُوَّةِ وَالْحَرِيَّةِ، مَا أَمَكْنُ، وَأَتَأَمَّلُ فِي نِظَامِ الْكَوْنِ، لَا لِتَفْسِيرِهِ بِمَنَاهَجِ فَارَعَةَ، بَلْ لِلْإِعْجَابِ بِهِ دَائِمًا، وَلِالْعِبَادَةِ

الصانع الحكيم الذي يُشعرُ بنفسه فيه، وأخطابه، وأنعم النظر بما أُوتيتُ من قوّة في جوهره الرّبّاني، وألينُ بِنِعْمِهِ، وأحمده وأشكر له ما أعطى. ولكنني لا أدعوه، وما أسأله؟ أأطلبُ منه أن يُغيّر مجرى الأمور من أجلي، أي أن يصنّع معجزاتٍ نفعًا لي؟ وإذ يَقْضِي الواجبُ بأن أحبَّ عدا ذلك جميعَ النظام القائم بحكمته والثابت بقدرته، فهل أريدُ أن يَحْتَلَّ هذا النظام من أجلي؟ كلا؛ فهذا الدعاء الجريءُ يستحقُّ أن يُعاقبَ عليه أكثرَ من أن يُستجاب. وكذلك لا ألتمس منه قدرَةً على فعل الخير، ولم أطلب منه ما أعطاني؟ ألم يُنعم عليّ بشعورٍ أحبُّ به الخير، ويعقلُ أعرفه به وبخيارٍ اختاره معه؟ إنني إذا ما فعلتُ الشّرَّ لم أكنُ معذورًا مطلقًا؛ فأنا أفعله لأنني أريده؛ وذلك لأن طلبي منه تغييرَ إرادتي يعني طلبي منه ما يطلُبُ مني، وذلك يعني أن يقوم بعلمي وأن أنال أجره، ويعني عدمَ رضاي عن حالي عدمَ إرادتي أن أبقى إنسانًا، أي أن أريدَ أمرًا آخرَ غيرَ ما هو قائم، أي أن أريدَ الاضطراب والشّر؛ أيّ مصدرَ العدل والحق. أيها الربُّ الرحيم الكريم، أتوكّلُ عليك، وأقول إن أقصى ما أرجو هو أن يتيمَّ ما تريد، فإذا ما أضفْتُ إرادتي إلى هذا أكونُ قد فعلتُ ما فعلتُ، وأرضى بِجُودِكَ، وأعتقد أنني أتمتعُ سلفًا بالسعادة العليا التي هي ثواب ذلك.

والشيء الوحيد الذي ألتسمه منه، عند عدم اعتمادي على نفسي عن حق، أو الشيء الوحيد الذي أنتظر من عدله على الأصح، هو أن يَقُومَ خِطِي إذا ما زلّلت، وإذا ما كان هذا الضلال خَطَرًا عليّ. ويقضي حسنُ النية بالألا أعتقدني معصومًا من الخطأ، وقد تكون آرائي التي تلوح لي أكثرَ ما يكون صدقًا كاذبًا بهذا المقدار، وإلا فأني إنسانٍ لا يتمسك بآرائه؛ وما عددُ النَّاس الذين يتفقون على كلِّ شيء؟ وقد يأتيني الوهم الذي يخدعني من نفسي، والله وحده هو القادر على شفائي منه. أجل، لقد صنعتُ كلَّ ما أستطيع صنعه لأصِلَ إلى الحق، غير أن مصدره بالغُ الارتفاع عني، ومتى أعوزتني القوَى في الإمعان بُعْدًا، فما ذنبي؟ إن على الحق أن يدنو مني.»

•••

لقد تكلمتُ القسُّ الصالحُ بحماسة، وقد كان هانجًا، وقد كنتُ مثله هانجًا، وكان يُخيلُ إليّ أنني أسمع الرّبّانيَّ أوزفوسَ وهو يُرْتَلُّ الأناشيد الأولى ويُعلمُ النَّاسَ عبادة الآلهة، ومع ذلك فقد كنتُ أبصرُ عددًا كبيرًا من الاعتراضات يُوجَّهُ إليه، ولم أبدأ واحدًا منها؛ وذلك لأنها كانت أقربَ إلى التشويش منها إلى الجِد، ولأنني كنتُ أميلُ إلى الاقتناع. وكان كلُّما تقدّم في الكلام وفق ضميره لاح ضميري مُثبِتًا إِيَّايَ على ما يكون قد قال لي.

وأقول له: «إن ما عرَضْتُم عليّ من مشاعرٍ يلوح لي أكثرُ جدّةً بما تعترفون أنكم تجهلون

مما بما تقولون إنكم تعتقدون، وفي ذلك أرى، تقريباً، اعتقاداً بوحداية الله أو الدِّين الطبيعي، أي الدين الذي يَظْهَرُ أن النصارى يخلطون بينه وبين الإلحاد أو الكُفْر الذي هو مذهبٌ مباينٌ لذلك رأساً، ولكنني في الحال الحاضر من إيماني أميلُ إلى الصعود أكثرَ مما إلى الهبوط اعتقاداً لأرائكم، وأجدُ من الصعب أن أبقى حيث أنتم ضبطاً ما لم أكن مثلكم حكمة، وأريد أن أشاور نفسي حتى يكونَ لي ذاك الإخلاصُ على الأقل، والشعور الباطنيُّ هو الذي يجب أن يَفُودَني إلى مثالكم، وقد علمتموني بأنفسكم أن تذكُّره ليس عملٌ ساعةٍ بعد أن فُرض السُّكوت عليه زمنًا طويلاً. وأمضي بكلامكم في فؤادي، ولا بدَّ لي من تأمله. وإذا ما كنتُ مثلما أنتم عليه قناعةً بعد أن أشاور نفسي جيِّداً كنتم آخرَ رسولٍ لي، وصِرت مهتدياً بكم حتى الموت، ومع ذلك فداوموا على تعليمي، فلمَ تقولوا لي غيرَ نصف ما يجب أن أعرف، فحدِّثوا عن الوحي والكتب المقدسة، وعن تلك العقائد الغامضة التي تُهتُّ فيها منذ صباي من غير أن أستطيع إدراكها أو اعتقادها، ومن غير أن أعتقها أو أن أنبذها.»

ويقول معانقاً إيَّاي: «أجل يا بني، سأقول لك كلَّ ما أفكِّرُ فيه، ولا أريد أن أفتح لك نصف قلبي مطلقاً، ولكن ما تُبدي لي من رغبةٍ كان ضرورياً ليُدْفَعني إلى عدم اتخاذ أيِّ تحفُّظٍ نحوك. ولم أقل لك حتى الآن شيئاً لم أعتقد إمكانَ فائدته لك ولم أكن قانعاً به قليلاً، وما بقيَ عليَّ أن أقومَ به من بحثٍ مُختلفٍ جدًّا، ولا أبصِرُ فيه غيرَ الارتباك والغموض والالتباس، ولا أحملُ إليه غيرَ الشكِّ والارتياب، ولا أقدمُ عليه إلا مرتجعاً، وأقول لك ربي أكثرَ من أن أقول لك آرائي، ولو كانت آراؤك أكثرَ ثباتاً لترددتُ في عرض آرائي عليك. ولكنك في الحال التي أنت عليها لك كَسْبٌ في التفكير مثلي،^{٢٩} ثُمَّ لا تمنحُ كلامي غيرَ سلطان البرهان؛ فأنا أجهل كوني على خطأ، ومن الصعب عند الجدال ألا تُتَّخَذَ لهجةٌ جازمةٌ أحياناً، ولكن اذكُرْ أن جميع توكيداتي هنا ليست غيرَ أسبابٍ داعيةٍ إلى الشك، وابتحث عن الحقيقة بنفسك، وأمَّا أنا فلا أعدك بغير حُسن النية.

أنتم لا ترون في بياني غيرَ الدِّين الطبيعي، ومن الغريب جدًّا أن يُحتاج إلى غيره، وبأية وسيلةٍ أعرفُ هذه الحاجة؟ وبأيِّ شيءٍ أعدُّ مُدنياً إذا ما عَبَدْتُ الرَّبَّ على حَسَبِ البصائر التي يُنعمُ بها على نفسي ووفقُ المشاعر التي يوحى بها إلى قلبي؟ وأيُّ صفاءٍ خُلقي، وأيُّ اعتقادٍ نافع، يُمكنني استنباطه من مذهبٍ وضعي، فلا أستطيع أن أستنبطه من حُسن استعمال مواهي؟ أروني ما يُمكن إضافته في سبيل مَجْدِ الرب، وفي سبيل خير المجتمع، وفي سبيل مصلحتي الخاصة،

^{٢٩} أعتقد أن هذا هو الذي يستطيع القسيس أن يخاطب به الجمهور في الوقت الحاضر.

إلى واجبات الناموس الطبيعي، وأيُّ فضيلةٍ يمكنكم أن تُنبِتوا من دينٍ جديدٍ لا تكون نتيجةً لديني؛ فأعظمُ الأفكارِ عن الرَّبِّ تنشأ عن العقل وحده. وانظروا إلى منظر الطبيعة، وأنصتوا لصوت الباطن، أَفَلَمْ يَقُلِ اللهُ كُلَّ شَيْءٍ لَأَعِينَنَا وَلضَمِيرِنَا وَحُكْمِنَا؟ وما يقول لنا النَّاسُ زيادةً على ذلك؟ لا يَصْنَعُ وَحْيِهِمْ غَيْرَ تَنْزِيلِ مَقَامِ الرَّبِّ بِإِسْبَاحِ أَهْوَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ، وأرى أن العقائد الخاصة تُعَقَّدُ مِبَادِيَّ الكائن الأعلى بدلاً من إلقاء نُورٍ عليها، وأرى العقائد الخاصة تَحُطُّهَا بدلاً من أن تَرْفَعَهَا، وأنها تُضَيِّفُ متناقضاتٍ مُحَالَّةً إلى الأسرار الخفية التي لا يُمكن تصوُّرها، وأنها تجعل الإنسانَ مُختالاً مُتَعَصِّباً قَاسِيًا، وأنها تَحْمِلُ الحديداً والنارَ إلى الأرض بدلاً من إقرار السلام فيها. وأسأل نفسي عن فائدة جميع هذا من غير أن أعرف كيف أُجيب، ولا أرى في ذلك غير جرائم النَّاسِ وبؤس الجنس البشري.

ويقال لي إنه لا بدَّ من الوحي لتعليم النَّاسِ كيف يعبدون الله كما يُريد، ويُساقُ كدليلٍ على ذلك اختلافُ ما أقامه النَّاسُ من عباداتٍ غريبةٍ متنوعة، ولم يُرَ أن هذا التنوع ناشئٌ عن هوى الوحي؛ فالشعوب منذ عَنَ لها أن تجعل الرَّبَّ يتكلم جعله كلُّ واحدٍ منها يتكلم وفق ذوقه، وحمله على قول ما يُريد، ولو استمع إلى ما قال الرَّبُّ لقلب الإنسان ما وُجِدَ غير دينٍ واحدٍ على الأرض. ووجِبَ وجودُ عبادةٍ واحدة، وأريد هذا، ولكن هل كان هذا الأمر من الأهمية البالغة، إذن، ما اقتضى معه جميعُ جهازِ القدرة الإلهية لإقامته؟ ولا نخلط بين الدِّينِ وطقوسه مُطلقاً؛ فالعبادة التي يطلبها الرب هي عبادة القلب، وتكون هذه على نَمَطٍ واحدٍ دائماً عند إخلاصها، ومن الزهو الأخبَل أن يُصوِّرَ أن الله يُبالي كثيراً بشكل حُلَّةِ القسيس وبنظام الكلمات التي يَنْطِقُ بها وبالحرركات التي يأتيها عند المحراب وجميع زكَّاته. آه! انتصب يا صديقي، تَبَقَّ قريباً من الأرض دائماً، والله يُريد أن يُعَبِّدَ بالروح والصدق، وهذا الواجب ملائمٌ لجميع الأديان وجميع البلدان ولكلِّ إنسان. وأمَّا العبادة الخارجية، فإذا ما وجب أن تكون على نَمَطٍ واحدٍ لحسن النظام كان هذا عملَ شَرْطَةٍ محضاً، ولا يستلزم هذا وحياً مُطلقاً.

ولا أبدأ بجميع هذه الأفكار، وبما أنني مسوقٌ بمُتَسَّرَاتِ التَّربية وبالأنانية الخطرة التي تَهْدِفُ دائماً إلى حمل الإنسان فوق نطاقه، وبما أنني لا أستطيع رفع مداركي الضعيفة إلى الموجود الأعظم، فإنني أحاول خفضه إلى حيث أنا، وأُقَرِّبُ بين العلائق البعيدة إلى الغاية التي وَصَّعَهَا بين طبيعته وطبيعتي، وأريدُ صِلاَتِ أكثر مباشرةً ومعلوماتٍ أكثر خصوصية. وبما أنه لا يُرضيني أن أجعل الرَّبَّ مشابهاً للإنسان حتى أكون ممتازاً بين أمثالي، فإنني أريدُ معارفَ خارقةً للعادة، وأريدُ عبادةً

خاصة، أريد إليها يخاطبني بما لم يخاطب به الآخرين، أو بما لم يدركه الآخرون كما أدرك.

واني إذ أعدُّ النقطة التي انتهيت إليها نقطةً مشتركةً ينطلق منها جميع المؤمنين وصولاً إلى شكلٍ من الدِّين أكثرَ نوراً، لا أجدُ في عقائد الدِّين الطبيعيِّ غيرَ عناصرٍ جميع الأديان، وأنظر إلى هذا الاختلاف بين النَّحلِّ السائدة للأرض والتي تتَّهَمُ كلُّ واحدةٍ ما سواها بالكذب والضلال، فأسأل: «أيتها على الحق؟» ويُجيبُ كلُّ واحدٍ عن هذا بقوله: «نخلتني». ويقول كلُّ واحدٍ: «أفكرُ أنا وجميع أتباعي تفكيراً صادقاً، وأمَّا الآخرون فكلُّهم على ضلال». وأسأل: «كيف تعرفون أن نخلتكم هي التي على الحق؟» وأجابُ عن هذا بكلمة: «ذلك لأن الله قال هذا». ٣٠ وأسأل: «ومن يقول لكم إن الله قال هذا؟» ويُقال لي: «هو قسيسنا الذي يَعْرِفُ ذلك جيِّداً، وهو يقول لنا أن نؤمن هكذا فنؤمن، وهو يقول مُؤكِّداً إن جميع الذين يقولون غير هذا يكذبون، فلا نستمع إليهم.»

ماذا! وهل أظنُّ أن الحقيقة ليست واحدة؟ وهل يكون ما أراه حقيقةً باطلاً عندكم؟ وإذا كان منهاج الذي يتَّبع الطريقَ الصالح ومنهاج الذي يضلُّ واحداً، فأني مَرِيَّةٌ أو أيُّ خطأ يكون بجانب الواحد أكثرَ مما بجانب الآخر؟ إن خيارهما نتيجة المصادفة، وينطوي عَزْوُها إليهما على جُور، وهو يعني مجازاتهما أو مكافأتهما لولادتهما في هذا البلد أو ذاك، وتُعَدُّ الجزأةُ على القول بأن الرَّبَّ يَحْكُمُ فينا هكذا طَعْنًا في عدله.

وجميع الأديان إما أن تكون سالحةً مقبولةً لدى الله، وإما أن يكون الله قد أمر النَّاسَ باتباع واحدٍ منها فيجازي مَنْ يُنكِرُه، باتباع واحدٍ منها مَنْحَه علائم ثابتةً واضحةً ليمارَ بها ويُعرَفَ على أنه الحقُّ وحده، علائمٌ متماثلةٌ في كلِّ زمانٍ ومكان، واضحةٌ لدى كلِّ إنسان، كبيراً كان هذا الإنسانُ أو صغيراً، عالماً أو جاهلاً، أوروبياً أو هندياً أو أفريقيّاً أو همجياً. فإذا ما وُجد على الأرض دينٌ لا يكون غير العذابِ الأبدي خارج نطاقه، وإذا لم يُوجد في بقعةٍ ما من العالم غيرُ إنسانٍ واحدٍ لم

٣٠ قال قسيسٌ صالح حكيم: «جميعُ الناس يقولون إنهم يحافظون عليه ويؤمنون به (وجميع الناس يستعملون عين الرطانة) على أنه من الله لا من الناس ولا من أي مخلوق كان. ولكنني أقول الحقَّ، والحق أقول بلا مصانعة ولا مواربة، إنه لا شيء من هذا؛ فالأديان تُعرف بأيدٍ ووسائلٍ بشرية، ودليل ذلك أوَّلًا طريقة تلقيها في العالم من قِبَل الأفراد سابقاً ولاحقاً، وذلك أنها وليدة الشعب والبلد والمكان، وذلك أننا نُختن ونُعَمِّد فنكون يهوداً ومسلمين ونصارى قبل أن نعرف أننا آدميون، وذلك أن الدِّين ليس أمراً يقع تحت خيارنا وانتخابنا، وذلك لما يُرى من سوء توافق الحياة والطباع مع الدِّين، وذلك لما يُشاهد من مخالفة الإنسان لأحكام دينه عند أخف البواعث البشرية» (شارون، الحكمة، باب، فصل ٥، صفحة ٢٥٧، طبعة بوردو، سنة ١٦٠١).

ومن الواضح أن عقيدة لاهوتي كوندون لا تختلف كثيراً عن عقيدة القسيس السافواني.

يؤمن ببرهان هذا الدين عن حُسن نية، كان إله هذا الدين أظلم الطغاة وأشدّهم قسوة.

أَوْبَحِّثُ عن الحقيقة بإخلاص؟ دَعْنَا لا نمنح حقَّ النَّسب ولسطان الآباء والقسيسين شيئاً، ولكن لِنُدْعُ إلى امتحان الضمير والعقل جميع ما علّمونا إياه منذ صِبا، ومن العبث قولهم بصوتٍ عالٍ: «أفَهَرُ عقلك»؛ فهذا مبلغُ ما يستطيع أن يقوله مخادع، ولا بُدَّ من وجود أسبابٍ لديّ حتى أفهَرَ عقلي.

ويقتصر جميع علم اللاهوت الذي يُمكنني اكتسابه من تلقاء نفسي، بملاحظة الكون وبخُسن استعمال مواهبِي، على ما أوضحته لكم سابقاً، ولا بُدَّ من اللجوء إلى وسائل خارقةٍ للعادة لمعرفة ما هو أكثرُ من ذلك، ولا تقوم هذه الوسائل على سلطان النَّاس، وذلك بما أنه لا إنسان يكون من غير نوعي، فإن كلَّ شيءٍ يَعْرِفه الإنسان طبيعةً أستطيع أن أعرفه أيضاً، ويُمكنُ إنساناً آخر أن يُخدع كما أُخدع، ومتى اعتقدت ما يقول لم يَكُنْ هذا لأنه قاله، بل لأنه أتبعته. وليست شهادة النَّاس من حيث الأساس إذن غير شهادة عقلي ذاتة، وهي لا تزيد شيئاً على الوسائل الطبيعية التي أنعم الله بها عليّ لأعرف الحقيقة.

ويا رسولَ الحقيقة، ما عليكم أن تقولوا لي إذن غير ما لا أكون قاضيهِ؟ قد قال الله بذاته: استمعوا لوجيه، ذاك أمرٌ آخر، وقد قال الله! تلك كلمةٌ عظيمةٌ حقاً، ومَنْ كَلَّمَ الله؟ لقد كَلَّمَ النَّاسَ، ولمْ لمْ أسمع من ذلك شيئاً؟ لقدَّ عَهَدَ إلى أناسٍ آخرين في تبليغ كلامه إليكم، وأدرك! يقول أناسٌ لي ما قال الله، وأفضّلُ أن أسمع الله ذاته، وهذا لا يَكُلِّفه كثيراً، وسأكون في مأمن من الإغواء، وهو يحفظكم منه بإعلان بعنة مُرسليه. وكيف يكون هذا؟ بالمعجزات، وأين هذه المعجزات؟ في الكتب، ومَنْ وضع هذه الكتب؟ النَّاسَ، ومَنْ رأى هذه المعجزات؟ النَّاسُ الذين شهدوها، ماذا! شهاداتٌ بشريةٌ دائماً، أناسٌ يَقْضُونَ عليّ ما رواه أناسٌ آخرون! وما أكثرُ مَنْ هم بيني وبين الرب! دعنا ننظر مع ذلك، دعنا نَفْحص ونقابل ونحقّق. آه! إذا ما تَفَضَّلَ الربُّ بإعفائي من جميع هذا العمل، أفلا أعْبُدُه بكلِّ فؤادي؟

وانظُرْ يا صديقي، أيُّ جدالٍ هائلٍ شَعِلَتْ به الآن، وأيُّ معرفةٍ واسعةٍ أحتاج إليها لأرجع إلى أبعد القرون القديمة، فأبحث في النبوءات والوحي والوقائع وجميع آثار الدِّين المعروضة في جميع بلاد العالم، وأزنها، وأقابل بينها تعييناً للأزمنة والأمكنة والفاعلين والعوامل! وما أعظم ما يُعوِّزني من إصابة نقدٍ لأميز المستندات الصحيحة من المستندات المُزوّرة، ولأقابل بين الاعتراضات والجوابات والترجمات والأصول، وللحكم في عدالة الشهود وخُسن بصيرتهم وفي

معارفهم، ولأَعْرِفَ هل حُذِفَ شيءٌ وأُضِيفَ وَحُرِّفَ وَبُدِّلَ وَزُوِّرَ، ولأُزِيلَ ما يَبْقَى من المتناقضات، ولأُحْكَمَ فيما يجب أن يُعَارَ من أهميةٍ حول سكوت الخصوم عن الوقائع الواردة ضِدَّهم، وللحُكْمِ في هل هذه البراهينُ كانت معروفةً عندهم، وهل أقاموا لها من الوزن ما يَتَنَازَلون معه إلى الجواب عنها، وهل كانت الكُتُبُ من الشيوخ ما تتصلُّ معه كُتُبنا بها، وهل نحن من حُسن النية ما نَدْعُ كُتُبهم معه تَسِيرُ بيننا وما ننزكُ معه أقوى اعتراضاتهم باقيةً كما وضَعوها؟

ومتى قِيلَتْ جميعُ هذه الوثائق على أنها تَقْبَلُ الجدلَ وجب الانتقالُ إلى أدلةٍ بَعَثَ واضعُها، فوجبت معرفة نواميس الخطوط والاحتمالات للحُكْمِ في أية نبوءةٍ يُمكن قيامُها بلا معجزة، ووجبت معرفةً روح اللغات الأصلية لتمييز ما هو نبوءةٌ في هذه اللغات، وما هو غيرُ شكلٍ خطابي، ووجبت معرفةً أي الأشياء في نظام الطبيعة وأيُّ الأمور الأخرى ليس فيها، فُحِدَّتْ عن الحدِّ الذي يستطيع رجلٌ ماهرٌ أن يَسْحَرَ به عيونَ البُسطاءِ ويُلقِي الحِيرةَ في نفوسِ المثقِّفينَ، ووَجِبَ أن يُبْحَثَ عن نوعِ المعجزةِ وعما يَلزَمُ وجودُه فيها من صدقٍ لا يُتَعَتَّقَدُ فقط، بل لِإِعَاقِبِ على الشكِّ فيها، ووَجِبَ أن يُقَابَلَ بين أدلةِ المعجزاتِ الصادقةِ والمعجزاتِ الكاذبةِ، فيُعْتَرَّ على قواعد ثابتةٍ للتفريقِ بينها. ثُمَّ لِمَ يختارُ الربُّ لإثباتِ كلامه وسائلَ تحتاج احتياجًا كبيرًا إلى إثبات، كما لو كان يلاعب سرعة التصديق في النَّاسِ مجتنبًا عَمْدًا وسائلَ إقناعهم الحقيقية؟

ولنفترضُ أن الجلالة الإلهية تفضَّلت فتنازلت بما فيه الكفاية لتجعل أحدَ النَّاسِ واسطةً عزائمها المقدَّسة، فهل من العقل والعدل أن يُطالَبَ جميعُ الجنس البشري بتلبية نداء هذا الواعظ من غير أن يُجْعَلَ معروفًا هكذا؟ وهل من الإنصافِ ألا يُعْطَى من أوراق الاعتماد غيرِ إشاراتٍ خاصةٍ تتمُّ أمام قليلٍ من ذوي النفوس الغامضة، على حين لا تُعرَفُ بقيَّةُ النَّاسِ من ذلك غيرَ ما تُعَلِّمُ سَمَاعًا؟ وإذا ما عُذُّ من الحقائق في جميعِ بلاد العالم جميعُ العجائب التي يقول العوامُّ والبسطاءُ إنهم رأوها كانت كلُّ نحلةٍ سالحةٍ، ووُجِدَ من العجائب ما يزيد على الحادثات الطبيعية، وكانت أعظمُ المعجزاتِ في الأمكنة التي يُوجَدُ فيها متعصبون مضطهدون من غير أن تُوجَدَ فيها معجزاتٌ مُطلقًا. ونظام الطبيعة الثابت هو أحسنُ ما يَدُلُّ على اليدِ الحكيمة التي تديره، فإذا ما وُجِدَ شواذٌ كثيرةٌ لهذا كِدْتُ لا أُعْرِفُ فيما أَفكَّرُ. وأمَّا أنا فقد بلغتُ من شدة الإيمان بالله ما لا أؤمن معه بمعجزاتٍ كثيرةٍ غيرِ حَرِيَّةٍ به.

وليأتِ رجلٌ وليقل لنا بهذه اللهجة: أيها النَّاسُ! أُخْبِرْكُمْ بمشيئة الرب الأعلى، وأعْرِفُوا في ندائي نداء الذي أرسلني؛ فأنا أَمُرُ الشمسَ بتغيير مجراها، والنجومَ باتخاذ نظامٍ آخر لها،

والجبال بأن تُسوّى، والأمواج بأن ترتفع، والأرض بأن تُغيّر منظرها، ومن ذا الذي لا يعرف سيد الطبيعة بهذه المعجزات من قوره؟ والطبيعة لا تطيع المُخادعين مطلقاً، وتقع معجزات هؤلاء في المفارق والبراري والحجرات حيث تروج بضاعتهم لدى عددٍ قليلٍ من الحُضور المستعدين لاعتقاد كلّ شيء. ومن ذا الذي يجرؤ على بيانه لي مقدارَ شهود العيان الذين لا بدّ منهم لجعل المعجزة أمراً جديراً بأن يؤمن به؟ وإذا كانت معجزاتكم التي صُنعت لإثبات مذهبكم محتاجةً إلى إثبات، فما يكون نفعها؟ لا فرّق بين الإتيان بها وعدمه فائدةً.

وأخيراً، تبقى ضرورةُ القيام بأهمّ تمحيصٍ في ذاك المذهب، وذلك بما أن الذين يقولون إن الربّ يأتي بمعجزاتٍ في هذه الدنيا يرغمون أن الشيطان يُقلِّدها أحياناً، فإننا لا نكون قد تقدّمنا أكثر مما في السابق بأحسنٍ ما شوهد من المعجزات. وذلك بما أن سخرة فرعون قد أقدموا أمام موسى نفسه على إتيان عين الآيات التي أتتها بأمرٍ صريحٍ من الربّ، فلم لا يدعون بعين القدرة في غيابه مع ذات العنوان؟ وهكذا يجبُ إذن إثبات المعجزة بالمذهب بعد أن أُثبت المذهب بالمعجزة،^{٣١} وذلك خشيةً عدّ عمل الشيطان من عمل الربّ، فما قولكم عن هذا الافتراض فيما يُطلب برهانه وإثباته؟

ولو كان هذا المذهب صادراً عن الربّ لوجب أن يحتمل طابع الألوهية المقدّس، وذلك أنه لا يكفي أن يُوضح لنا مُختلط الأفكار التي يرسمها البرهان في ذهننا، بل يجب أيضاً أن يعرض هذا المذهب علينا عبادةً وأدباً ومبادئ ملائمةً للصفات التي تتّملُّ بها وحدها كُنّه الربّ،

^{٣١} هذا أمر صريح في ألف مكانٍ من الكتاب المقدّس، ومن ذلك قولُ الفصل الثالث عشر من سفر تثنية الاشتراع، إنه إذا أخبر نبيٌّ عن آلهةٍ غريبةٍ فأيدّ كلامه بمعجزات، وحدث ما أنبأ به، وجب قتلُ هذا النبي من غير نظيرٍ إلى ما وقع. فما حدث إذن من قتل الوثنيين للرسل الذين أخبروهم بإلهٍ غريبٍ مؤيدٍ رسالتهم بنبوءات ومعجزات، لا أرى أنه كان يمكن أن يُعترض عليهم من أجله اعتراضاً متيناً بما لا يمكن أن يوجهوه إلينا حالاً. وما الذي يُصنَع في مثل هذه الحال؟ يُصنَع أمرٌ واحد، وهو أن يُرجع إلى البرهان مع ترك المعجزات حيث هي، والأفضل ألا يُلجأ إليها، وهذا من أبسط قواعد الذوق السليم الذي لا يعنى بغير البيانات التي هي على شيءٍ من الدقة البالغة، دقائق في النصرانية! ولكن يسوع المسيح كان مُخطئاً إذن حين وعد البسطاء بملكوت السموات، ولكنه كان مُخطئاً إذن حين بدأ أروع كلامه بتبشير فقراء الذهن، لو اقتضى وجود ذهنٍ غزير لفهم مذهبهِ وتعليم الإيمان به، ولو أنبتم لي أن الخضوع من واجباتي لصار كل شيءٍ حسناً، ولكن إثبات هذا لي يتطلب وضع أنفسكم على مستوى، واجعلوا براهينكم مطابقةً لقابلية فقير في الذهن، وإلا عدت لا أعرف فيكم تلميذاً حقيقياً لمُعلّمكم، وعاد ما تخبروني به لا يكون مذهبهِ.

وإذا كان لا يُعلِّمنا إذن غير أمورٍ مستحيلةٍ مُخالفةٍ للصواب، وإذا كان لا يُوحى إلينا بغير مشاعر الكراهية لأمثالنا وبغير دُعرٍ لأنفسنا، وإذا كان لا يُصوِّر لنا غير ربِّ غضوبٍ مغيِّبٍ مثيرٍ مُغرضٍ مُبغضٍ للبشر، ربِّ للحرب والمعارك متأهبٍ للتخريب والتدمير، مُحدِّثٍ دائماً عن العذاب والنكال، مُباهٍ بمعاقبة الأبرياء أيضاً، فإن فوادي لا ينجذب إلى هذا الإله الهائل محترراً من ترك الدِّين الطبيعي اعتناقاً لذلك المذهب؛ وذلك لأنه لا بُدَّ من الاختيار عن ضرورةٍ كما ترون. وأقول لأتباعه ليس إلَهُكم إلَهنا، وليس الذي يبدأ باختيار شعبٍ واحدٍ فقط، طارداً بقية الجنس البشري من حمايته أباً عامماً للناس، وليس الذي يُعَدُّ مُعظَمَ مخلوقاته للعذاب الأبديّ ذاك الإله الرحيم الكريم الذي دلَّنِي عليه عقلي.

والعقلُ من حيث العقائد يقول لي إنه يجب أن تكون واضحةً ساطعةً تقفُ الأبصارُ بجلائها، وإذا كان الدِّينُ الطبيعيُّ ناقصاً فذاك للغموض الذي يتركه في الحقائق الكُبرى التي يُعلِّمنا إياها، فعلى الوحي أن يُعلِّمنا هذه الحقائق على وجهٍ يُدركها به ذهنُ الإنسان، وأن يضعها في متناوله، وأن يجعله في حالٍ يتمتُّها معه حتى يؤمنَ بها، ويتأيدَ الإيمانَ بالفهم ويشد، ولا وراءَ في أن أحسنَ الأديانَ أوضحها، وأمَّا الدِّينُ الذي يَشْحَنُ ما يعطني به من العبادةِ بالأسرارِ والمتناقضاتِ فإنه يُعلِّمُنِي الحدَرَ منه لهذا السبب، وليس الإلهُ الذي أعبدُ إلهَ الظلام، وهو لم يُنعمَ عليَّ بإدراكٍ ليمنعني من الانتفاعِ بهذا الإدراك، وينطوي كلُّ قولٍ لي بأن أقهرَ عقلي على إهانةِ صانعِهِ، ولا يَجُورَ وليُّ الحقِّ على عقلي، بل يُنيِّرُهُ.

وقد طَرَحْنَا كلَّ سلطانٍ بشريٍّ جانباً، وما كان لِيُمكننِي أن أرى بغير هذا السلطان كيف يستطيع الإنسان أن يُقنعَ إنساناً آخرَ بوعظه بمذهبٍ مخالفٍ للصواب، ولتَدْعُ هذينَ الإنسانينِ يتخاصمان ساعةً من نهار، ولنبحثُ عما يمكن أن يقولوا في عُنفِ اللهجة المعتادة لديهما:

المُلهِمُ: يُعلِّمنا العقلُ أن الكلَّ أعظمُ من جُزئِهِ، وأمَّا أنا فأخبرُك باسمِ الربِّ أن الجزءَ أعظمُ من الكلِّ.

المُبرهن: ومَن أنت حتى تجرؤَ على القول لي إن الربَّ يناقضُ نفسه؟ وأيُّكما أفضلُ أن أُصدِّقَ: هو الذي يُعلِّمُنِي بطريقِ العقلِ كَوْنَ الحقائقِ أزلِّيَّةً، أو أنت الذي يُخبرُنِي مستحيلاً باسمه؟

المُلهِمُ: صدَّقني؛ وذلك لأن تعليمي أكثرُ إيجابيّةً، وسأثبت لك بما لا يترك للشكِّ مجالاً أنه هو الذي أرسلني.

المُبرهن: كيف؟ أنت ستثبت لي أن الرب أرسلك لتشهد ضده؟ ومن أي جنس ستكون
براهينك لإقناعي أن الرب يخاطبني بقمك أكثر مما بالإدراك الذي أنعم به علي؟
المُلهم: الإدراك الذي أنعم به عليك! يا لك من إنسانٍ صغيرٍ مغرور! كأنك أولٌ مُلحدٍ
يَصلُ بعقله الذي أفسدته الخطيئة!

المُبرهن: أيها القديس، وكذلك أنت لا تكون أولٌ خادعٍ يتخذ انتفاخه دليلاً على رسالته.
المُلهم: ماذا! حتى الفلاسفة ينطقون بالإهانات!

المُبرهن: أحياناً، عندما يجعل القديسون من أنفسهم قُدوة.

المُلهم: وئ! أنا يحق لي أن أقول ذلك؛ فأنا أتكلم باسم الرب.

المُبرهن: الأفضل أن تُبررَ حُججك قبل أن تستعمل امتيازاتك.

المُلهم: إن حُججي صحيحة، وتشهد الأرض والسموات لي، فأنتع براهيني كما أطلب منك.

المُبرهن: براهينك! أنت لا تُفكر فيها، ألا يعني تعليمي أن عقلي يُخادعني رفضاً لكل ما
يقول لي من أجلك؟ وعلى كلٍّ من يُريد ردَّ العقل أن يقنع من غير أن ينتفع به، وذلك لنفترض
أنك أقنعني بالبرهنة، فكيف أعرف أن عقلي الفاسد بالخطيئة هو الذي يجعلني أوافق على ما
تقول لي؟ ثم أيُّ دليلٍ وأني برهانٍ يمكنك استعماله يكون أوضح من الأمر البدهي الذي يجب
عليه أن ينقُضه؟ وكذلك إن مما يُمكنُ تصديقه أن يكون القياس المنطقي الحسن أكثر كذباً من
كون الجزء أعظم من الكل.

المُلهم: يا للفرق! إن براهيني بلا جواب، وهي من نظامٍ خارق للطبيعة.

المُبرهن: خارق للطبيعة! ما معنى هذه الكلمة؟ لا أدركه.

المُلهم: تغييرات في نظام الطبيعة، نبوءات، معجزات، عجائب من كل نوع.

المُبرهن: معجزات! عجائب! لم أر قط شيئاً من جميع هذا.

المُلهم: لقد رآه آخرون نيابةً عنك، جموعٌ من الشهود، شهادة أقوام.

المُبرهن: هل شهادة الأقوام من النظام الخارق للطبيعة؟

المُلهم: كلاً، وإنما تكون أمراً لا مراء فيه عندما تكون مُجمَعاً عليها.

المُبرهن: لا شيء يكون أمراً لا جدالاً فيه أكثر من مبادئ العقل، ولا يُمكنُ قبولُ شيءٍ

مُحالٍ بناءً على شهادة آدميين. ثُمَّ لَنَرِ أدلَّتْكَ الخارقة للطبيعة؛ وذلك لأن شهادة الجنس البشري ليست من هذه الأدلة.

المُلهَم: أيها القلبُ القاسي، لا تخاطبك النعمة مطلقًا.

المُبْرَهِن: ليس هذا ذنبي؛ وذلك لأنك ترى أنه لا بُدَّ من سابق نَيْلٍ للنعمة حتى يُعرَفَ طَلِبُهَا؛ ولذا فابدأ بمخاطبتي بدلًا منها.

المُلهَم: آه! هذا ما أصنع، وأنت لا تستمع إليّ، ولكن ما تقول عن النبوءات؟

المُبْرَهِن: إنَّ أوَّلَ ما أقولُ هو أنني لم أسمع عن النبوءات أكثر مما أبصرتُ عن المعجزات، ثُمَّ أقولُ إنه لا نبيَّ يستطيع أن يكون حجةً عليّ.

المُلهَم: أيّ عونَ الشيطان! لم لا تكون النبوءات حجةً عليك؟

المُبْرَهِن: ذلك لأن اتفاق تلك الحجة لها يستلزم ثلاثة أمورٍ يستحيل توافُقها، وهي أن أكون شاهد النبوءة، وأن أكون شاهد الحادثة، وأن يُثبِتَ لي أن هذه الحادثة لا تُطابق النبوءة عَرَضًا، وذلك أن النبوءة حتى عند كونها أكثر دقةً ووضوحًا وجلالةً من بدّهيات الهندسة، لا يجعل هذا الوضوح تمام النبوءة القائمة على المصادفة أمرًا مستحيلًا؛ فلا يُثبِتُ هذا التمام لدى وقوعه شيئًا لمن تنبأ به حصرًا.

ورؤا إذن إلى أيّ شيءٍ تنتهي براهينكم الخارقة للطبيعة المزعومة ومعجزاتكم ونبوءاتكم، إنها تنتهي إلى اعتقاد الجميع هذا استنادًا إلى إيمان الآخرين، وإخضاع سلطان الرب إذ يخاطب عقلي لسلطان النَّاس. وإذا أمكن الحقائق الأزلية التي يتمثلها ذهني أن تُعاني عَنَتًا عاد لا يكون لديّ أيّ نوعٍ من اليقين، حتى إنني مع البُعدِ من الاطمئنان إلى أنكم تخاطبونني من ناحية الرب، لا أكون مطمئنًا إلى وجوده.

وهذه مشاكل كثيرةٌ يا بُني، وليس هذا كلُّ شيءٍ، ويوجد بين كثيرٍ من مختلف الأديان، التي تنهادر وتتهادم مبادلًا، دينٌ واحدٌ طيَّبٌ عند وجود مثل هذا الدين، ولا يكفي لمعرفة هذا الدين أن يُدرَسَ دينٌ واحد، بل أن تُدرَسَ جميعُ الأديان، ولا يجوز العقابُ بلا سماعٍ في أيّ موضوعٍ كان،^{٣٢} فيجب أن يُقابَلَ بين الاعتراضات والبيّنات، ويَجِبُ أن يُعرَفَ ما يعترض به كلُّ

^{٣٢} ذكر بلوتارك، فيما ذكر من الأقوال العربية، أن الرواقيين كانوا يذهبون في الحكم المتناقض، إلى أن من غير المفيد سماع الفريقين، وذلك أنهم كانوا يقولون إن الفريق الأوَّلَ إمَّا أن يكون قد أثبت قوله، وإمَّا ألا يكون قد

واحدٍ على الآخرين، ويجب أن يُعرف الجواب، وكلّما ظهر لنا ثبوتٌ رأيٍ وَجِبَ أن نبحث عما يستند إليه كثيرٌ من النَّاسِ لكيلا يَرَوْه كما هو، وَيَجِبُ أن يكون الإنسان بسيطاً ليعتقد كفايةً سَماع علماء فريقه حتى يَكُونَ على بَيِّنَةٍ من براهين الفريق الآخر. وأين هم علماء اللاهوت الذين يُباهون بخلوص النية؟ وأين هم علماء اللاهوت الذين لا يبدؤون بإضعاف براهين خصومهم رفضاً لها؟ وكلُّ يَسْطَعُ في فريقه، ولكنّ الذي يزهو بين فريقه ببراهينه يُعَدُّ بالَعِ العباوة بهذه البراهين بين رجال الفريق الآخر. وإذا أردتم أن تستقصوا في الكتب فما أكثر ما يَجِبُ اكتسابه من علمٍ! وما أكثر ما يجب تعلّمه من لغات! وما أكثر ما يَجِبُ أن يُطالَع من مكتبات! وما أوسع ما يجب القيام به من قراءة! ومنّ يكون دليلاً لي في الاختيار؟ إن من الصعب أن يوجد في بلدٍ أحسن كتب الفريق المعاكس، وأصعب من ذلك وجود كتب جميع الأفرقاء، وهي إذا ما وُجِدَت رُدَّت من قُورِها. ويُعَدُّ الغائب مخطئاً دائماً، وتمحو البراهين السيئة التي تُقال مع التوكيد حَسَنَ البراهين مَحْوًواً سهلاً مقروناً بالاحتقار، وهذا إلى أنه لا شيء أكثر تضليلاً من الكتب في الغاب، فلا تُعَبِّر هذه الكتب عن آراء مؤلّفيها إلا نادراً. وإذا أردتم أن تحكّموا في المذهب الكاثوليكيّ مستندين إلى كتاب بُوسويه وجدتم أنفسكم على خطأ بعد أن تعيشوا بيننا، وقد رأيتم أن المذهب الذي يُجَاب به البروتستان ليس المذهب الذي يُلَقَى على عامّة النَّاسِ، وأن كتاب بُوسويه لا يشابه دروس الوعظ مطلقاً، ولا ينبغي أن يُدرّس الدِّين في كتب أتباعه لحسن الحُكم فيه، وإنما يجب أن يُعرَف عند هؤلاء الأتباع حيث يختلف عن ذاك كثيراً، ولكلّ تقاليدَه وشعوره وعاداته ومُتَسَرّاته التي يتألّف منها اعتقاده، فيجب أن تُضاف إلى ذلك للحكم في ذلك.

وما أكثر الأمم الكبرى التي لا تطعُ كُتُباً مطلقاً ولا تقرأ كُتُبنا! وكيف تحكّم في آرائنا؟ وكيف نحكّم في آرائها؟ ونحن نضحك منها، وهي تزدرينا. وإذا كان سيّاحنا يسخرون منها، فإنها لا تحتاج لردّ السخرية إلى غير السياحة بيننا. وأيُّ بلادٍ لا يوجد فيها أناسٌ عقلاء مخلصون صالحون مُحِبُّون للحقيقة، فلا يحاولون معرفة الحقيقة ليجهروا بها؟ ومع ذلك فإن كلّ واحدٍ يراها في دينه ويجد أديان الأمم الأخرى مخالفةً للصواب؛ ولذا فإن هذه الأديان الأجنبية ليست من البُطلان بمقدار ظهورها لنا، أو إن ما نجد في أدياننا من برهانٍ لا يُثبِت شيئاً.

أثبتته، فإذا ما أثبتته كان كلُّ شيءٍ قد قيل ووجب الحكم على الخصم، وإذا لم يثبتته كان على غير حق ووجب ردّ دعواه. وأحد أن منهاج جميع الذين يقبلون وحياً دون سواه يُشابه كثيراً منهاج هؤلاء الرواقيين؛ فمتى زعم كلُّ خصم أن الحق بجانبه وحده وجب سماع جميع الخصوم لتمييز صاحب الحق منهم، وإلا وقع الظلم.

ولدينا ثلاثة أديانٍ مهمة في أوروبا؛ فأحدها يقول بوحىٍ واحد، والثاني يقول بوحيتين، والثالث يقول بثلاثة، وكلٌّ منها يزدري الآخرَين ويلعنُهُما ويتهمُهُما بالعمى والقسوة والعدا والكذب. وأيُّ إنسانٍ منصفٍ يجرؤ على الحكم بينها إذا لم يَزِن في أوَّل الأمر أدلَّتها ويسمَع براهينها؟ والدِّين الذي لا يقول بغير وحىٍ واحدٍ هو أقدمُها، ويلوح أنه أكثرُها رُسوخًا، والدِّين الذي يقول بثلاثة هو أحدثُها، ويلوح أنه أكثرُها منطقيًا، وقد يكون الدِّين الذي يقول بوحيتين ويرفض الثالث أحسنها، ولكنه يُعارض بجميع المُبتسرات، فيبدو خُلُوه من المنطق لكلِّ ذي عيين.

والكتب المقدسة في التنازِل الثلاثة مسطورةٌ بلغاتٍ لا تعرِّفها الأمم التي تتبَّعها؛ فعاد اليهود لا يفهمون العبرية، ولا يفهمُ النصارى العبرية ولا اليونانية، ولا يفهم الترك والفرس العربية مطلقًا، حتى إن العرب المعاصرين أنفسهم لا يتكلمون بلغة محمدٍ مطلقًا! أوليس من الغباوة أن يُعلِّم النَّاس ويُخاطبوا دائمًا بلغةٍ لا يفقهونها مطلقًا؟ سيُقال إن هذه الكتب تُترجم، فيا له من جواب! فمن الذي يُوَكِّد لي أن هذه الكتب تُرجمت بإخلاص، وأن من الممكن أن تُترجم ترجمةً صحيحة؟ وإذا كان الرَّبُّ قد تنازل إلى مخاطبة النَّاس، فلم يحتاج إلى تُرجمان؟

وما كنت لأتصوّر مطلقًا كَوْن ما يلزم كلُّ إنسانٍ بمعرفته محجورًا في كُتب، وكون الذي لا يصل إلى هذه الكتب، ولا ينتهي إلى أناسٍ يفهمونها، يُعاقب على جهلٍ غير اختياري، كتب دائمًا. يا له من هوس! يُعدُّ الأوروبيون الكتب أمرًا ضروريًا لأن أوروبا مملوءة بالكتب، وذلك من غير تفكيرٍ في أن ثلاثة أرباع العالم لم ترَ كُتبًا قط. ألم تُكتب الكتب كلها من قِبَل آدميين؟ وكيف يحتاج الإنسان إلى كُتبٍ إذن حتى يُعرف واجباته؟ وما الوسائل التي كان يُعرف بها هذه الواجبات قَبْل وَضْع هذه الكتب؟ إمَّا أن يكون قد تعلَّم واجباته من تلقاء نفسه، وإمَّا أن يكون قد أعفَى من تعلُّمها.

ويُحدث الكاثوليك عندنا ضجةً كبيرةً حَوْل سلطان الكنيسة، ولكن ما يكسبون من هذا إذا احتاجوا إلى جهازٍ عظيمٍ من البراهين لإقامة هذا السلطان احتياج النَّحل الأخرى لإقامة مذهبها رأسًا؟ تحكُّم الكنيسة بأن لها حقَّ الحكم، وهل أثبت هذا السلطان جيّدًا؟ اخْرُجوا من هذا تدخُّلوا جميع مجادلاتنا.

أوتعرفون كثيرًا من النصارى كابدوا مشقة البحث بعناية فيما أوردَ اليهود من براهين ضدهم؟ إذا حدث أن بعضهم اطَّلَع على شيءٍ من ذلك كان ذلك في كتب النصارى، فيا لصالح الأسلوب في تعلُّم براهين الخصم! ولكن كيف العمل؟ إذا حدث أن أقدم بعضهم على نشرِ كُتبٍ

تَسْتَحْسِن اليهودية بيننا جَهْرًا عاقبنا المؤلفَ والطابعَ والكُتَيْبِيَّ^{٣٣} على ذلك؛ فهذه الضابطة ملائمةٌ وطيدةٌ لحيازة الحقِّ دائمًا، ومما تَقَرُّ به العينُ أن يُرْفَضَ مَنْ لا يَجْرَءون على الكلام.

وليس أحسنَ من ذلك مُطلقًا حالُ الذين أُتِيحتَ لهم من بيننا فرصةٌ محادثة اليهود؛ فهؤلاء التعساء يَشْعُرُونَ بأنهم تابعون لسلطاننا، وما يُمارَسُ نحوهم من طغيانٍ يجعلهم خائفين، وهم يَعْرِفُونَ مُبْلَغَ عدمِ أكثرِ البرِّ النصرانيِّ للظلم والقسوة، وما يُقَدِّمون على قوله من غير أن يُعَرِّضُوا أنفسهم لِثَهْمَةِ التجديف؟ وما نحن عليه من الطمع يوحى إلينا بالغيرة، وما هم عليه من الثراء يجعلهم مذنبين. ويبدو أكثرهم علمًا وثقافةً أكثرهم تحقُّطًا. وأنتم تُحوِّلون بعض البائسين عن دينهم، وأنتم تدفعون إليهم من المال ما يفترون في مقابله عن ملَّتْهم، وأنتم تُحمِلون على الكلام بعضَ الساقطين الأذنياء الذين يُذعنون نفاقًا لكم، وأنتم تفوزون على جهالتهم ونذالتهم، وذلك على حين يتبسَّم علماءهم صامتين من بلاهتكم. ولكنَّ أنظنون أن من السهل أن تُصيِّبوا منهم نَيْلًا في الأماكن التي يشعرون فيها بأنهم في أمان؟ ومن الحلِّيِّ في السوريون أن نبوءات المسيح ترجع إلى يسوع، ومن الحلِّيِّ عند ربَّائِي أمستردام أن هذه النبوءات لا ترجع إليه مطلقًا، ولا أظنني استمعت إلى براهين اليهود الذين لا تُوجَدُ لهم دولةٌ حرَّةٌ ولا مدارسٌ وجامعاتٌ يستطيعون أن يتكلموا فيها ويناقشوا بلا خَطَرٍ، وهنالك فقط يُمكننا أن نعرف ما لديهم أن يقولوا.

ويُدلي التُّركُ بأدلتهم في الآستانة، ولكن من غير أن نجرؤ على الإدلاء بما لدينا؛ فهناك دورنا في التمسكُن. وإذا كان الترك يطالبوننا بأن نحترم مُحَمَّدًا الذي لا نُؤمن به مطلقًا، كما نطالب اليهود بأن يحترموا يَسُوعَ المسيحَ الذي لا يُؤمنون به أيضًا، فهل يُعدُّون مُخطئين؟ وهل الحقُّ بجانبنا، وإلى أيِّ مبدأٍ عادلٍ نستند في حلِّ هذه المسألة؟

وليس ثلثًا الجنس البشريَّ يهودًا ولا مسلمين ولا نصارى، وما أكثرَ ملايينَ الآدميين الذين لم يَسْمَعُوا باسم موسى وعيسى ومحمد! وهم يُنكرون ذلك، ومما يُقرَّرُ كونُ مُبشِّرينا يذهبون إلى كلِّ مكان، وهذا ما يُقالُ حاليًا، ولكن هل يذهبون إلى أواسط أفريقيا التي لا تزالُ مجهولة، والتي لم يَزُدْها أيُّ أوروبيٍّ حتى الآن؟ وهل يذهبون إلى أواسط بلاد التتر مُتَّبِعِينَ على ظهور الخيل قبائلَ لا

^{٣٣} إليك حادثة من ألف حادثة لا تحتاج إلى تفسير، وذلك أن علماء اللاهوت من الكاثوليك فضوا في القرن السادس عشر بإحراق جميع كُتب اليهود بلا تفریق. فلما اسْتُشير العالم المشهور روكلين في هذا الأمر جلب إلى نفسه أهوالًا كادت تؤدي إلى هلاكه؛ إذ رأى إمكانَ الاحتفاظ من هذه الكتب بما ليس ضد النصرانية، وبما يعالج المسائل التي لا تهتم الدِّين.

يدنو منها أجنبيًّا مطلقًا، قبائل لا تكاد تُعرَف كاهنَها الأكبر، فضلًا عن سماعها باسم البابا؟ وهل يذهبون إلى قارات أمريكا الواسعة المشتتة على أقوامٍ بكاملهم لا يزالون يجهلون وجود أممٍ من العالم الآخر قد وطئت عالمهم؟ وهل يذهبون إلى بلاد اليابان التي أسفرت دسائسهم عن طردهم منها إلى الأبد، والتي لم يُعرَف أسلافهم فيها من قبيل أجيالٍ تنشأ إلا حاكمةً مكابدةً أتوا حاملين غيرَ ذات رِئاء للاستيلاء على الإمبراطورية برفق؟ وهل يذهبون إلى دوائر الحريم لدى أمراء آسية لتبشير ألاف العبيد المساكين بالإنجيل؟ وما صنع نساء ذلك القسَم من العالم حتى لا يستطيع أيُّ مُبشِّرٍ أن يعظهن بالإيمان؟ أو يذهبن جميعًا إلى جهنم لما كان من عزلهن؟

وإذا ما ثَبَتَ تليغُ الإنجيل في جميع العالم، فما يكون كَسْبُ ذلك؟ إن مما يحدث عشيةً وصول أوَّل مُبشِّرٍ إلى بلدٍ موت إنسانٍ فيه لم يتمكّن من سماعه لا ريب، فقولوا لي ما نفع لهذا الإنسان الآن؟ إذا لم يوجد في جميع العالم غير إنسانٍ واحدٍ لم يُبشِّر يسوع المسيح كانت قوة الاعتراض من حيث هذا الإنسان وحده كقوة الاعتراض من حيث ربع الجنس البشري.

وإذا ما سمَّعَ المبشِّرون بالإنجيل أنفسهم للأمم البعيدة، فما يقولون لهم من قول يُمكن قبوله كما يجب استنادًا إلى كلامٍ منهم لا يتطلَّب أدقَّ تحقيق؟ وأنتم تُنبئوني بإلهٍ وُلد ومات منذ ألفي سنةٍ في الطرف الآخر من العالم، في مدينةٍ صغيرةٍ ما لا أعرفها، وأنتم تقولون لي إنه سيحكم بالهلاك الأبدي على كلِّ من لا يؤمن بهذا السرِّ الخفي؛ فهذه أمورٌ غريبةٌ لا يُبادر إلى اعتقادها استنادًا إلى رواية رجلٍ لا أعرفه مطلقًا! ولم أحدث إلهكم، على ذلك البعد مَّيَّ، أمورًا أراد إلزامي بأن أكون عارفًا بها؟ وهل من الإجماع أن أجهل ما يقع في الناحية المقابلة من الكرة الأرضية؟ وهل أستطيع أن أتنبأ بوجود شعبٍ عبريٍّ وبمدينةٍ تُدعى أورشليم في النصف الآخر من الكرة الأرضية؟ يعدل هذا إجباري على معرفة ما يقع في القمر! تقولون إنكم أتون لتعليمي إياه، ولكن لم تأتوا لتعليم أبي إياه؟ أو لم تحكُمون بالهلاك الأبدي على هذا الشيخ الصالح لعدم معرفته شيئًا عن ذلك مطلقًا؟ وهل يجب أن يُعاقب عقابًا أبدئيًّا من أجل كسلكم مع أنه كان بالغ الصلاح كثير الإحسان، فلا يبحث عن غير الحقيقة؟ تذرَّعوا بحسن النية، ثمَّ ضَعُوا نفسكم في مكاني، ورؤا: هل أنا ملزمٌ، استنادًا إلى شهادتكم وحدها، بأن أعتقد جميع ما تقولون لي من أمورٍ لا تُصدَّق، وبأن أوفق بين كثيرٍ من المظالم وبين الربِّ العادل الذي تُخبرونني به؟ تفضَّلوا بتركي أذهب لأرى ذلك البلد البعيد الذي يقع فيه كثيرٌ من العجائب لا عهد لهذا البلد بها، ولأعلم السبب في كون أهل أورشليم عاملوا الرب مثل قُطَاعِ الطرق، وأنتم تقولون لي إنهم لم يعترفوا بأنه

إله، وما أصنع إذن أنا الذي لم يسمع حديثًا عنه بغير واسطتكم؟ وأنتم تقولون لي إنهم عُوقبوا، ومُرِّقوا كُلَّ مَمْرَقٍ، واضطَّهَدوا، وعَبَّدوا، فلا يستطيع أحدٌ منهم أن يدنو من تلك المدينة. أجل، إنهم استحقُّوا جميعَ هذا، ولكن ما يقول أهلها اليومَ عن قتل إله أسلافهم المتجسِّد؟ إنهم يُنكرونها، إنهم لا يعترفون بالربِّ ربًّا، إنهم ليسوا إذن خيرًا من أبناء السكان الأصليين.

ماذا! في تلك المدينة نفسها؛ حيث مات الرب، لم يعترف القدماء ولا المعاصرون بهذا الرب قَط، ثُمَّ تريدون أن أعترف به أنا الذي وُلِدَ بعده بألفي عامٍ وعلى بُعد ألفي فرسخٍ من هناك! ألا ترون أنه يجب عليّ قبل تصديق هذا الكتاب الذي تُسمُّونه مُقدَّسًا، والذي لا أفقه منه شيئًا، أن أعْرِفَ من غيركم متى وُضِعَ، ومن وُضِعَ، وكيف حُفِظَ، وكيف انتهى إليكم، وما يقولون عنه في البلاد التي ترفضه، وما أسباب رفضهم إياه، وإن كانوا يَعْرِفُونَ مثلما تَعْرِفُونَ جميعَ الذي ثلَّثْتَنِي إياه؟ أنتم تشعرون جيِّدًا بأن الضرورة تقضي بأن أذهب إلى أوروبا وآسية وفلسطين لفحص كلِّ شيءٍ بنفسِي؛ فمن الحماسة أن أستمع إليكم قبل ذلك الحين.

ولا يبدو لي هذا المقال معقولًا فقط، وإنما أذهبُ إلى أن كلَّ إنسانٍ عاقلٍ مُكَلَّفٌ في مثل هذه الحال بأن يتكلم هكذا، وبأن يقضي المُبَشِّرَ الذي يريد قبل تمحيص الأدلة، تعليمه وتعميده، وأذهبُ كما هو الواقع إلى أنه لا يُوجَدُ وحيٌّ لا يُوجَّهُ إليه من الاعتراضات الشديدة نفسها كما يُوجَّهُ إلى النصرانية؛ ومن ثمَّ يُرى أنه إذا كان لا يُوجَدُ غيرُ دينٍ حقيقيٍّ واحد، وأن كلَّ إنسانٍ مُلزَمٌ باتباعه خَلاصًا من الهلاك الأبدي، فإنه يجب عليه أن يقضي حياته في دراسة جميع تلك الأديان والتعمُّق فيها والمقابلة بينها، وفي جُوب البلاد التي قامت فيها. ولا أحدٌ مُعَفَى من واجبِ الإنسانِ الأوَّل، ولا يحقُّ لأحدٍ أن يعتمد على حُكْمِ الآخرين، ويجب على الصانع الذي لا يعيش من غير عمله، والحارث الذي لا يَعْرِفُ القراءة، والفتاة الغيداء الهَيُوب، والعليل الذي لا يكاد يقدر على مغادرة فراشه؛ يجب على هؤلاء جميعًا، يجب على هؤلاء بلا استثناء أن يدرُسوا ويُفَكِّروا ويجادلوا ويسافروا ويطوفوا في العالم، فيعودوا لا يوجد من الأمم ما هو مستقرٌّ ثابت، ولا تُصبح الأرضُ غيرَ مستورة بالحجيجِ الذاهبين بنفقاتٍ عظيمةٍ والمحتملين متاعبَ طويلةً للتحقيق والمقابلة والبحث فيما يجِدُونَ من مختلف الأديان. وهناك قُل على المِهَن والفنون والعلوم الإنسانية وجميع الأشاغيل المدنية العَفَاء، وهناك لا يُمكن أن يكون من الدراسات غيرُ دراسة الدِّين، وهناك يصعب جدًّا على الذي يتمتَّع بأحسنِ صحة، ويكون خيرَ مَنْ يستعمل وقته وأفضلَ مَنْ يستخدم عقله ويُعمَّرُ أكثرَ من غيره، أن يَعْرِفَ أين هو في مشيبه، فيكون من دواعي الحيرة أن يَعْلَمَ قَبْلَ موته أيُّ الأديان كان يجب أن يعيش عليه.

وهل تريدون أن تُلطفوا هذا المنهاج فتوجبوا قليلَ سلطانٍ للناس؟ وهنالك تَرُدُّون إليه كلَّ شيءٍ. وإذا كان ابن النصراني يصنعَ خيراً حين يتبعُ دينَ أبيه بلا درسٍ عميقٍ خالٍ من الغرض، فلم يصنعَ ابن التركي سوءاً حين يتبعُ دينَ أبيه أيضاً؟ أتحدى جميع المتعصبين بأن يجيبوا عن هذا بشيءٍ يرضى عنه الرجل العاقل.

وتنقلُ وطأةَ هذه البراهين، فيفضّلُ بعضُ النَّاسِ جعلَ الربِّ جائزاً يجازي الأبرياء من أجل ذنبٍ اقترفه أبوهم على الارتداد عن عقيدتهم الجافية، ويخرُجُ آخرون من الورطة بأن يُرسلوا بمعروفٍ ملكاً يُعلِّمُ من عاشوا حسني الأخلاق مع جهلٍ مُطيقٍ. فيا لروعةِ إبداعِ هذا الملك! إنهم لم يكتفوا بتبعيدنا لآلاتهم، فجعلوا الربَّ نفسه يستعملها عن وُجوبٍ.

وانظُر، يا بني، أيُّ مُحالٍ يؤدِّي إليه الزُّهُوُّ والتعصُّبُ حينما يُريدُ كلُّ واحدٍ أن يكون النَّاسُ على رأيه، وحينما يظنُّ أنه ذو حقٍّ على بقية الجنس البشريِّ حصراً، وأتخذ ربَّ السلام الذي أعبدُ وأبشركم به شاهداً على إخلاصي في جميع مباحثي، ولكنني إذ أراها كانت - وتكون دائماً - بلا توفيق، ولكنني إذ أراني أغرقُ في بحرٍ محيطٍ لا حدَّ له، فإنني أرجع القهقري وأحصُرُ إيماني ضمنَ مبادئِ الابتدائية. ولم أستطع قطُّ أن أعتقد أن الربَّ أمرني أن أكونَ حائزاً مثلَ ذلك العلم، جاعلاً جهنمَ جزاءً مخالفتي؛ ولذا فقد أغلقتُ جميعَ الكتب، ولم يبقَ منها غيرُ واحدٍ مُفَتِّحٍ لجميعِ العيون، وهو كتابُ الطبيعة؛ ففي هذا الكتاب العظيم الرفيع أتعلَّمُ عبادةَ صانعهِ الإلهي والقيامَ بشعائره، ولا يُعذرُ أحدٌ على عدمِ القراءة فيه؛ وذلك لأنه يخاطب النَّاسَ بلغةٍ تفهمُها جميعُ الأذهان. وإذا ما وُلِدْتُ في جزيرةٍ قفر، وإذا لم يقع نظري قطُّ على إنسانٍ آخرٍ غيري، وإذا لم أعلم قطُّ ما حدثَ قديماً في زاويةٍ ما من العالم، وإذا ما أعملتُ عقلي، وإذا ما تعهدتُه، وإذا ما أحسنتُ استعمالَ المواهب المباشرة التي أنعمَ الربُّ بها عليّ، تعلَّمتُ من تلقاءِ نفسي أن أعرفه، وأن أُحبه، وأن أحبَّ أعماله، وأن أريدَ الخيرَ الذي يريد، وأن أقومَ بجميعِ واجباتي في الأرضِ نيلاً لرضاه، وما يُمكن جميعَ عِلْمِ النَّاسِ أن يُعلِّمني أكثرَ من ذلك؟

وأما من ناحيةِ الوحي، فإذا ما كنتُ أحسنَ برهنةً وأصلحَ معرفةً، فمن المحتمل أن أشعرَ بحقيقته، وينفعه لمن كُتبتَ لهم سعادةٌ قبوله. ولكنني إذا ما أبصرتُ أدلَّةً ملائمةً له لا أستطيعُ مكافحتها، فإنني أرى ضدَّه أيضاً اعتراضاتٍ لا أستطيعُ حلَّها، وتوجدُ براهينُ متينةٌ موافقةٌ ومخالفةٌ لا أعرفُ إلى أيِّها أنحاز، فلا أعتزُّ به ولا أرفضه. ولكنَّ الذي أرفضُ هو الإلزام بقوله؛ وذلك لأن هذا الإلزام المزعوم منافٍ لعدلِ الرب، بعيدٌ من رفعِ موانعِ النجاة، مُكثِّرٌ لها، جاعلٌ إياها

منبعةً لدى معظم الجنس البشري، وإذا عدوت هذا وحدتني مرتابًا ارتياب توقيير عند هذه النقطة، وليس لدي من الخيلاء ما أظنني معه معصومًا من الخطأ، وقد أمكن أناسًا آخرين أن يُقرروا ما يظهر لي أنه غير مُقرّر؛ فأنا أبرهن من أجل نفسي، لا من أجلهم، ولا ألوئهم، ولا أفلدُهم، وقد يكون حُكمهم أفضل من حُكمي، ولكن لا يَقَعُ الذنب عليّ في عدم موافقة حكمي لحُكمهم.

وأعترف لكم أيضًا بأنني أعجبُ بجلال الكُتب المقدّسة، وبأن قداسة الإنجيل تخاطبُ فؤادي. وانظروا إلى كتب الفلاسفة مع جميع فخامتها تروا مقدارَ تصاغرها بجانب ذلك. أوليس من الممكن أن يكون أحدُ الكتب رفيًا بسيطًا معًا، وأن يكون من وضعِ النَّاسِ؟ أوليس من الممكن أن يكون ذلك الذي يشتمل على قصّته هذا الكتاب بشرًا؟ وهل تلك اللهجة لهجة مُتحمّسٍ أو متعصبٍ طمُوح؟ يا للرفق والنقاء في أخلاقه! ويا للطلاوة المؤثّرة في تعاليمه! ويا للسُموّ في أمثاله! ويا للحكمة البالغة في أقواله! ويا لثبات الخنّان والرقّة والسداد في أجوبته! ويا لسلطانه على أهوائه! وأين الرجل، وأين الحكيم، الذي يَعْرِفُ أن يسيرَ ويألمَ ويموت من غير ضَعْفٍ ولا افتخار؟ عندما وَصَفَ أفلاطونُ رَجُلَهُ الصالح الخياليّ الذي غُمِرَ بكلِّ ما في الجناية من عارٍ، والذي هو أهلٌ لكل جائزة عن الفضيلة، وَصَفَ يسوعَ وصفًا دقيقًا، وقد بلغ وجه الشبه بينهما ما شَعَرَ به جميع آباء الكنيسة، وما يتعدّر على الإنسان أن يُخدع معه. وأيُّ مُبتَسِرٍ، وأيُّ عَمِيٍّ، لا يكون حتمًا في الإقدام على المقارنة بين ابنِ سُفْرُونسكا وابنِ مريم؟ ويا لبعُد ما بينهما! لقد سَهَّلَ على سُقراط أن يحافظ على جلاله حتى النهاية، فمات بلا ألمٍ ولا عارٍ. ولو لم يُشرف هذا الموتُ الهينَ حياته لساورت النفوسَ ظنونٌ بأن سقرط ليس غيرَ سُفوسطائيٍّ مع ما كان عليه من عقل. ويُروى أنه واضع علم الأخلاق، وعلم الأخلاق ما طبّقه آخرون قبله؛ فهو لم يصنع غيرَ قول ما كانوا قد فعلوا، وهو لم يصنع غيرَ صَوْغِ أمثلتهم في دروس. وقد كان أريستيد عادلاً قبل أن يُحدّث سقرط عن العدل، وقد مات لثونيداس في سبيل بلده قبل أن يجعل سُقراط من حُبِّ الوطن واجبًا. وقد كانت إسبارطة قانعةً قبل أن يُشّي سقرط على القناعة، وقد كانت بلاد اليونان زاخرةً بذوي الفضل قبل أن يُعرّف سقرط الفضيلة. ولكن أين تلقى يسوع عند ذويه تلك الأخلاق النقية العالية التي ألقى وحده دروسها ومثّلها؟^{٣٤} وتُسمِعُ أرفع الحكمة نفسها في سواءِ التعصّب الصائل وتُمجّدُ بساطة أقرب الفضائل إلى البطولة أحقر النَّاسِ كلِّهم. ويُعدُّ موت سقرط

^{٣٤} انظر - في الموعظة التي ألقاها في الجبل - إلى المقابلة التي وضعها بنفسه بين أدبه وأدب موسى (إنجيل متى، فصل ٥، فقرة ٢١ وما بعدها).

وهو يتفلسف هادئاً بين أصدقائه ألطفَ ما يُمكن أن يُرغَب فيه، ويُعدُّ موثُ يسوعَ وهو يقضي أجله في الآلام بين الإهانة والسخرية واللعنة من قِبَل جميع الشعبِ أفضَحَ ما يُمكن أن يُحشى. وتناول سقراطُ كأسَ السُّمِّ شاكراً لمن قدَّمها إليه وهو يبكي، ودعا يسوعَ لجأديه الضواري بين نكالِ هائلٍ. أجل، إذا كان مَحياً سقراطُ ومماتهُ جديريْن بحكيم، فإنَّ حياةَ يسوعَ وموتهَ خليقان ياله، وهل نقول إنَّ قصةَ الإنجيلِ مِن صُنْعِ الخيالِ؟ أيُّ صديقي، لا يقع الاختلاقُ هكذا، وقد كانت أعمالُ سقراطِ التي لا يَشْكُ فيها أحدٌ أقلَّ من أعمالِ يسوعَ المسيحِ مشاهدةً من قِبَلِ النَّاسِ، وفي الأساسِ يعني هذا تأخيراً للمشكلة من غيرِ هَدْمِ لها، ويكون اتفاقُ أناسٍ كثيرٍ على اختلافِ ذلك الكتابِ أكثرَ عدمِ تصوُّرٍ مِن أن يُزوَّدَ موضوعه رجلٌ واحد، وما كان مؤلفو اليهود ليقدروا على إيجاد مثل تلك اللهجة ولا ذلك الأدب. ويتصف الإنجيلُ بصفاتٍ بالغةٍ من الحقيقةِ ووقفِ النظرِ وتعدُّرِ التقليدِ ما يكون معه مُختلِّفه أدعى إلى العجب من بطله، ومع ذلك فإن هذا الإنجيلُ نفسه مملوءٌ بأمورٍ لا تُصدَّق، بأمورٍ يرفضها العقلُ فيستحيل على كلِّ ذي عقلٍ أن يتصوَّرها وأن يقبلها. وما يُعمَلُ بين جميع هذه المتناقضات؟ أن يكون الإنسانُ دائماً معتدلاً مُحترماً يا بني، فيحترم صامتاً ما لا يستطيع رفضه ولا فهمه، وأن يتواضع أمام الموجود الأعظم الذي يَعْرِفُ الحقيقةَ وحده.

وذلك هو الشكُّ غير الاختياري الذي بقيتُ عنده، بيِّد أن هذا الشكُّ لم يكن شاقاً عليّ قط، وذلك لعدم امتداده إلى نقاط العمل الجوهرية، ولأنني قضيتُ في أمر المبادئ حَوْلَ جميع واجباتي. وأعبُدُ الله ببساطة قلبي، ولا أحاول معرفة غير ما يُهمُّ سلوكي. وأمَّا العقائد التي لا تؤثرُ في الأعمال ولا في الأخلاق، والتي تُقلِّقُ بال كثيرٍ من النَّاسِ، فلا أبالي بها مطلقاً، وأعدُّ جميع الأديان الخاصة نظماً نافعاً تأمر في كلِّ بلدٍ بطرازٍ نمطيٍّ واحدٍ في تمجيد الربِّ بعبادةٍ عامة. ويُمكن أن تكون لها أسبابها في الإقليم أو الحكومة أو عبقرية القوم أو في عاملٍ محليٍّ آخر يجعل أحدها أولى من الآخر على حسب الأزمنة والأمكنة، وأعتقد أنها كلها صالحة إذا ما عُبدَ الله بها عبادةً لائقة. وعبادة القلب هي العبادة الجوهرية، وما كان الله ليرفضَ طاعةً مهماً كان الشكلُ الذي تُقدَّم به إذا ما كانت خالصة. وإذا ما دُعيت إلى تعبُّد الكنيسة وفقَّ الدِّين الذي أعلن، فإنني أتمُّ فيها ما أمرتُ به من عنايةٍ بكلِّ ما يُمكن من إتقان، ويؤنِّيني ضميري إذا ما قَصَّرتُ في أيِّ شيءٍ من ذلك قصداً. وقد نلت، كما تعلم، بحظوةٍ لُدُنْ مسيو دوميلاريد، وبعد منع كَنسِيَّ طويل، إجازةً باسترداد وظائفني مساعدةً لي على العيش، وقديماً كنت أقوم بالقدَّاسِ

برشاقة يُنتفعُ بها مع الوقت في الأمور المهمة إذا ما كُرِّرت غالبًا، وما فتئت منذ مبادئ الجديدة أقومُ به مع أعظم تكريم. وقد أُشيعتُ من جلال الكائن الأعلى ومن وجوده، ومن نقصُ الذهن البشري الذي هو قليل الإدراك لما يتعلّق بصانعه. واني إذ أراني حاملًا له أدعية النَّاس على شكلٍ مُقرَّر، أتبعُ جميعَ الطقوس بعناية، وأرتلُ بانتباه، وأسعى في عدم إهمالٍ أقلِّ كلمةٍ ولا إغفالٍ أيٍّ من الشعائر، ومتى حان وقتُ التقديس جمعتُ حواسِّي لأقوم به وُفقَ جميعِ مراسيم الكنيسة وعظمة التقديس، فأسعى في إلغاء عقلي أمام العقل الأعلى، وأقول في نفسي: مَنْ أنت حتى تقيسَ القدرةَ التي لا حدَّ لها؟ وأنطقُ مع الاحترام بكلمات السرِّ المُقدَّس، وأعيرُ عملها كلَّ ما يُمكن منهُ من اعتماد. ومهما يكن من أمر هذا السرِّ الذي لا يُدرِك، فإنني لا أخشى أن أجازي يوم الحساب على أنني امتننته في فؤادي.

وقد شُرِّفتُ بالكهنوت، وإن كان ذلك في المرتبة الأخيرة، فلا أفعل شيئًا ولا أقول شيئًا يُمكن أن يجعلني غير أهلٍ للقيام بواجباته العالية، وسأعظُ النَّاسَ بالفضيلة دائمًا، وسأحرِّضهم على فعل الخير دائمًا، وسأجعل نفسي قُدوةً لهم في ذلك ما استطعت، وليس من شأنِي أن أجعل الدِّين محبوبًا لديهم، وليس من شأنِي أن أُثبِّتَ إيمانهم في العقائد النافعة حقًّا، والتي يلزم كلُّ إنسانٍ باعتبارها. ولكنَّ معاذَ الله أن أعظهم بعقيدة التعصُّب الجافية، ولكنَّ معاذَ الله أن أحملهم على ازدراء جارهم، وأن أقول للآخرين: سيُحكم عليكم بالهلاك الأبدِي، ولا نجاهَ خارج الكنيسة.^{٣٥} ولو كنتُ في مرتبةٍ أكثر امتيازًا لأمكن هذا التحفُّظُ أن يجذبَ إليَّ أمورًا، ولكنني من صِغَر الشَّانِ ما لا يُوجد معه ما أحشاه كثيرًا، ولا يمكن أن أسقطَ إلى أسفلٍ ممَّا أنا عليه مطلقًا، ومهما يحدِّثُ فإنني لن أُجَدِّفَ على العدل الإلهي، ولن أفترِّيَ على الروح المُقدَّس.

وقد رغبتُ زمنًا طويلًا في أن أنالَ شرفَ نصِّي خوريًا، ولا أزال راغبًا في ذلك، ولكنني عُدتُ لا أملُ ذلك. ولا أجد، يا صديقي العزيز، ما هو أجملُ من منصبِ الخوري؛ فالخوريُّ الصالح هو وكيلُ الجِلم كما أن الحاكم الصالح وكيلُ العدل، وليس لدى الخوريِّ من شرِّ يصنِّع، وإذا كان لا

^{٣٥} لا يدخل واجبُ محبةِ الإنسان لدين بلده وأتباعه لهذا الدِّين نطاقَ العقائد المخالفة لحسن الأخلاق كعدم التسامح مثلاً، وهذه العقيدة الكريهة هي التي تسلِّح بعضَ الناس ضدَّ بعضٍ وتجعلهم كلُّهم أعداءً للجنس البشري، وكلُّ تفريق بين التسامح المدني والتسامح اللاهوتي صياني باطل؛ فلا يمكن فصلُ أحد هذين التسامحين عن الآخر، ولا يمكن قبولُ أحدهما دون الآخر، حتى إن الملائكة لا يمكن أن يعيشوا مسالمين لأناسٍ يُعدُّونهم أعداءً للرب.

يستطيع أن يصنع الخير بنفسه دائماً فإن التماسه له يكون في محله، وهو يفوز به غالباً متى عرف أن يحترم. آه! لو كنت في جبالنا صاحباً لخورتيّة أخدم رجالها الصالحين لكنت سعيداً إذن؛ وذلك لأنني أكون كما يلوح لي سبب سعادة ساكنيها. أجل، إنني لا أجعلهم أغنياء، ولكنني أشاطرهم فقرهم، وأنزع منهم العيب والازدراء اللذين هما أشد وطأً من العوز، وأحب إليهم الاتفاق والمساواة اللذين يطردان البؤس غالباً، ويجعلانه أمراً محتملاً دائماً، ومتى رأوا أنني لا أكون أحسن حالاً منهما في شيء، وأنني أعيش قنوعاً مع ذلك، تعلموا أن يتعزوا عن نصيهم وأن يعيشوا قنوعاً مثلي، وأكون في تعاليمي أقل ارتباطاً في روح الكنيسة مما في روح الإنجيل حيث العقيدة بسيطة والأدب رفيع، وحيث تقل الطقوس الدينية وتكثر أعمال التقوى، وأبذل جهدي في القيام بما يجب أن يعمل قبل أن أعلمهم إياه، وذلك ليروا جيداً أنني أفكر في جميع ما أقول لهم. ولو وجد في جواربي أو في خورتيّة بروتستان ما ميزتهم من ساكنيها مطلقاً، وذلك في كل ما يتعلق بالبر النصراني، وأحبهم كذلك على التحاب وعلى غد أنفسهم إخوة، وعلى احترام جميع الأديان وعلى عيش كل واحد منهم مطمئناً في دينه. وأرى أن ترغيب الواحد في ترك الدين الذي ولد فيه ينطوي على ترغيبه في الإساءة؛ ومن ثم في إساءة نفسه. ولنحافظ على النظام العام منتظرين بصائر أعظم مما اتفق، ولنحترم القوانين في كل بلد، ولا نكدر صفوة العبادة التي تأمر بها، ولا نحمل المواطنين على العصيان مطلقاً؛ وذلك لأننا لا نعلم علم اليقين هل من الخير لهم أن يتركوا آراءهم متحولين إلى غيرها، كما أننا نعرف أن من المحقق وجود شر في التمرد على القوانين.

والآن يا صديقي الشاب قد سردت لك مجاهراً عقيدتي كما يقرؤها الرب في قلبي، وأنت أول من صنعت له ذلك، وقد تكون الوحيد الذي أصنع له ذلك. ومما لا يجوز مطلقاً، ما بقي اعتقاد حسن بيننا، أن يعكر ذوو النفوس الهادئة، وأن يكدر إيمان البسطاء بمشاكل لا يستطيعون حلها، فتتلقى بالهم من غير أن تبيهم، ولكن إذا ما ارتج كل شيء مرةً وجب حفظ الساق على حساب الأغصان، ولا غزو؛ فإن الضمائر المضطربة القليلة الخادمة تقريباً في الحال التي وجدت عليها ضميرك تحتاج إلى تقوية وإيقاظ، ويجب لإعادة قيامها على أساس الحقائق الخالدة أن يتم خلغ الأركان المذبذبة التي لا تزال ترى الاستمسك بها.

وأنت في الدور الخطر من العمر حيث تفتح الروح لليقين، وحيث يأخذ القلب شكله وطابعه، وحيث يقتر لمدى الحياة سلوك سبيل الخير أو سبيل الشر، ثم يتصلب العنصر وتعود السمات الجديدة لا تؤثر أبداً. في أيها الفتى، تلق في نفسك المرنة بعد طابع الحقيقة، ولو كنت أكثر ثقة

بنفسي لاتخذت معك طُورًا اعتقاديًا حازمًا، ولكني رجلٌ غافلٌ عُرضةٌ للخطأ. وما أستطيع أن أصنع؟ لقد فحشْتُ لك قلبي بلا تحفُّظ، وحدَّثْتُك عمَّا أراه صحيحًا كما هو، وأعربتُ لك عن شكوكي كشكوك، وأعربتُ لك عن آرائي كأراء، وبيَّنتُ لك أسبابَ شكِّي واعتقادي، والآن عليك أن تحكم؛ فقد استمهلتني، وكان هذا احترازًا حكيمًا جعلني أفكّر فيك وأبدأ بوضع ضميرك في حالٍ يُريدُ معها أن يُنور، وكن مخلصًا نحو نفسك، وانتحل من آرائي ما يُقنعُك واطرح البقية. ولم تبلُغ من الفساد بالغيب بعدُ ما تقعُ معه في خطرٍ سوء الاختيار، وأقترح أن نتحدث في ذلك بيننا، ولكن إذا ما وقَّع الجدُل حبي الوطيس ومازج الزهو والعناد ذلك، وعاد حُسْنُ النية لا يكون. ولا تُجادل، يا صديقي، مُطلقًا؛ وذلك لأن الإنسان لا يُنير نفسه ولا غيره بالجدال، وأمّا أنا فلم أعزم إلا بعد تفكير سنين كثيرة، وأقفُ هناك مستريح الضمير هادئ البال. ولو أردتُ أن أستأنف البحث في مشاعري ما انتهيتُ إلى حُبِّ للحقيقة أكثرَ صفاء، ويكون ذهني الذي غدا أقلَّ نشاطًا دون الحال الذي يعرفُها فيه، وأبقى كما أنا عليه، وذلك خشية أن يؤدي ذوق التأمل، إذ يصيرُ هوى عاطلاً، إلى فتوري في ممارسة واجباتي، وخشية الوقوع ثانية في شكِّي الأوّل من غير أن أجد قدرةً على الخروج منه، وقد مضى أكثرُ من نصف حياتي، وعاد لا يكون لديّ غيرُ ما يجبُ من وقتٍ للانتفاع ببقية حياتي، ولأمحو خطيئاتي بفضائلي، وإذا ما خُدعتُ كان هذا على الرغم مني. ومن يقرأ ما في صميم فتوايدي يعلم جيدًا أنني لا أحبُّ عمّاي، والحياة الصالحة هي الوسيلة الوحيدة التي بقيت لي للخروج من العمى عند العجز عن الخلاص منه بصائري الخاصة. وإذا كان الرّبُّ قادرًا على إخراج أولاد إبراهيم حتى من الحجارة حقًا لكلّ إنسانٍ أن يرجو إنارته عندما يجعل نفسه أهلاً لها.

وإذا ما ساقنتك تأملاتي إلى التفكير كما أفكّر، وإذا كنت تشاطرنني مشاعري، وإذا كان كلُّ منّا يجهز بذات العقيدة، فإليك نصيحتي: لا تعرّض حياتك بعدُ لمنازع البؤس واليأس، ولا تقضها بعدُ في العار تحت رحمة الغرباء، وامتنع عن أكل خبز الصدقة الحقيق، وارجع إلى وطنك، وغد إلى دين آباتك، وأتبعه بقلبٍ مُخلص، ولا ترتد عنه أبدًا؛ فهو بسيطٌ جدًّا، وهو مُقدَّسٌ جدًّا، ولا أرى بين أديان الأرض ما هو أنقى منه أدبًا، ولا ما هو لدى العقل أكثرُ منه قبولًا، وأمّا نفقات السفر فلا تُفكّر فيها، فستدبر. وكذلك لا تخشَ حياة زائفًا من عودٍ مُرّ، فيجب أن يُحجّل من اقترافِ ذنّب، لا من إصلاحه، وأنت لا تزال في دورٍ من العمر يُعفّر فيه كلُّ شيء، ولكن مع العقاب على كلِّ ما يُرتكبُ فيه. وإذا ما أردت أن تُنصت لضميرك زال ألفٌ من الموانع الباطلة عند صوته، وستشعر في دور الشك الذي نحن فيه بأن من الافتراض الذي لا يُعتفّر أن يُجهز

بدينٍ آخرٍ غيرِ الذي يُؤلّد المرء فيه، وبأن من البهتان ألا يُمارس المرء باخلاصٍ دينًا يُجهرُ به، وهو إذا ما كانت له معذرةٌ كبيرةٌ أمام محكمة القاضي العلي، أفلا يعفو هذا القاضي عن سيئةٍ وُلد معها الإنسانُ أكثرَ من عفوه عن سيئةٍ جرؤَ على اختيارها؟

واجعلْ نفسك، يا بني، في حالٍ تبتغي فيها دائماً وجودَ ربٍّ واحد، فلا تشكَّ فيه أبداً، ثمَّ مهما يكن من قرارٍ يُمكنك أن تتخذَ أدُّكُرُ أن واجبات الدِّين الحقيقية مستقلةٌ عن تعاليم النَّاس، وأن القلب الصادق هو هيكلُ الربِّ الحقيقي، وأن محبةَ الله تفضيلاً على كلِّ شيء، ومحبةَ القريب كمحبة النفس، هما خلاصةُ الشريعة في كلِّ بلدٍ ونحلة، وأنه لا يوجد دينٌ يُعفي من الواجبات الأدبية. وأنه لا يوجد غيرُ هذه الواجبات، وما هو جوهرِيٌّ حقاً، وأن العبادة الباطنية هي أولى هذه الواجبات، وأنه لا فضيلة حقيقيةٌ بلا إيمان.

واجتنب أولئك الذين يتدَّرعون بإيضاح الطبيعة، فيبدؤون في قلوب النَّاس مذاهبَ مُكدَّرة، يبدؤون مذاهبَ يُعدُّ شكُّها الظاهرُ إيجابياً اعتقادياً أكثرَ من لهجة خصومهم الجازمة، وهم إذ يتمسكون بذريعةٍ قائمةٍ على الغطرسةِ قائلةٍ إنهم وحدهم ذوو بصائرٍ وحقٍّ وحُسن نية، فإنهم يُخضعوننا لأحكامهم القاطعة بصلَف، ويزعمون أنهم يمنحوننا، كمبادئٍ حقيقيةٍ عن الأشياء، نُظماً لا تُفهمُ أقاموها في خيالهم، ومع ذلك فإنهم إذ يقبلون جميعَ ما يحترم النَّاسُ رأساً على عقبٍ ويُقوّضونه ويدوسونه، فإنهم يُنزعون من المَكْرُوبين آخرَ سلوانٍ عن يؤسهم، ومن الأقوياء والأغنياء زاجرَ أهوائهم الوحيد، ويستأصلون من القلوب ندمها على الإجمام وأملها في الفضيلة، ثمَّ يفاخرون بأنهم محسنون للجنس البشري، وهم يقولون إن الحقيقة غيرُ ضارَّةٍ بالنَّاس مطلقاً، وأعتقد هذا كما يعتقدون، وأرى أن هذا دليلٌ كبيرٌ على أن الحقيقة ليست ما يُعلمون.^{٣٦}

^{٣٦} يبلغ الفريقان من التناول بكثيرٍ من السفسطات ما يصعب معه كثيراً معالجة جميع ما يذهبان إليه، وهيئات أن يُقَيّد بعض ذلك كلِّما ظهر، وما أكثرَ ما اعتاده الفريق المتفلسف أن يقابل بين قوم من الفلاسفة الصالحين كما يفترض وقوم من النصارى الطالحين، كأنَّ صنْع قوم من الفلاسفة الصادقين أسهلُّ من صنْع قوم من النصارى الصادقين! ولا أدري هل يسهل عليك أن تجد بين الأفراد أحدَ الرجلين أكثرَ مما يسهل عليك أن تجد الرجل الآخر، وإنما أعرفُ جيِّداً أنه يجب، عندما تكون الأقوامُ موضوعَ بحث، افتراضُ وجودِ مَنْ يستعملُ استعمالَ الفلسفة بلا دين، كما يسيء أهلونا استعمالَ الدِّين بلا فلسفة، وهذا ينطوي على تغييرٍ كبيرٍ في حال السؤال. وقد أجاد بيل في إثباته أن التعصب أشدُّ ضرراً من الإلحاد بمراحل، وهذا أمرٌ لا جدالَ فيه، وإنما الذي لم يفضّل بقوله، مع أنه ليس أقلَّ حقيقة، هو أن التعصب، وإن كان سقاً للدماغ طاعياً، هو عظيمٌ قويٌّ مع ذلك، هو يرفع قلب الإنسان ويحمله على ازدياد الموت، هو محرِّكٌ عجيبٌ له، هو يجب حُسنُ توجيهه لاستخراج

أعلى الفضائل منه، وذلك بدلاً مما ينشبه الإلحاد، والروح الفلسفي المبرهن على العموم في الحياة، فُيْحَتْ النفوسَ ويخطُّها، ويجمع جميع الأهواء ضمن ندالة المصلحة الخاصة، وفي دناءة الأنانية البشرية، وهكذا فإنه يقوِّض، مع قليل ضوضاء، دعائم كلِّ مجتمع، وذلك لأن ما بين المصالح الخاصة من اشتراك هو من الضالة ما لا يوازن المصالح المقابلة.

وإذا كان الإلحاد لا يؤدي إلى سفك دماء الناس، فذلك عن عدم اكتراثٍ للخير أكثر مما عن حبِّ للسلام، كما لو كان الحكيم المزعوم غير مُبالٍ بما يقع على أن يبقى مستريحاً في غرفته. أجل، إن مبادئه لا تقتل الناس، ولكنها تحوّل دون ولادتهم بتقويضها الأخلاق التي تُوجب تناسلهم، ويفصلهم عن نوعهم، ويردُّ جميع عواطفهم إلى أثره خفية شؤم على الأهلين كشؤمها على الفضيلة، ويشابه عدم الاكتراث الفلسفي هدوء الدولة في عهد الاستبداد، وهو سكون الموت، وهو أكثر تخريباً من الحرب نفسها.

وهكذا فإن التعصّب، وإن كان أكثر شؤماً بنتائجه المباشرة مما يُدعى اليوم بالروح الفلسفية، أقلُّ شؤماً بنتائجه البعيدة، ثم إن من السهل عرض مبادئ رائعة في الكتب، ولكن المسألة تدور حول حسن ملاءمتها للمذهب، وحول صدورها عنه حتمًا، وهذا الذي لم يظهر واضحًا حتى الآن. وبقي علينا أن نعرف هل الفلسفة، وهي في يسرها وعلى عرشها، مهيمنة على زهو الإنسان وغرضه وطمعه وأهوائه الحقيرة، وهل تطبّق تلك الإنسانية البالغة العذوبة التي تُباهي بها والقلم في اليد.

ولا تستطيع الفلسفة مبدأ أن تصنع أيَّ خيرٍ لا يصنع الدُّين ما هو أروع منه، ويصنع الدُّين من الخير ما هو أكثر مما تستطيع الفلسفة صنعه.

والأمر غير ذلك عملاً، ولكن لا بدّ من التمييز، ولا أحد يتبع دينه في كل أمر عندما يكون له دين واحد، وهذا صحيح، وليس لمعظم الناس دينًا مطلقًا، ولا يتبعون ما لديهم مطلقًا، وهذا صحيح أيضًا، ولكن يوجد لبعض الناس دين، ويتبعونه بعض الأتباع على الأقل. ومما لا ريب فيه وجود بواعثٍ للدُّين تمنع من فعل الشر غالبًا، وتظفر منهم بفضائل وأعمالٍ حميدة ما كانت لتحدث لولا هي.

ولينكز راهبٌ إحدى الودائع، فما يعقب ذلك غيرُ عدِّ الذي أودعه إياها من المجانين؟ وإذا كان بسكال هو الذي أنكرها عدُّ هذا دليلًا على أن بسكال من المداجين. ولكن الراهب! ... وهل الذين يتاجرون بالدُّين عندهم دينٌ إذن؟ إن جميع الجرائم التي تقع بين الإكليروس كما تقع عند غيرهم لا تُثبت كون الدُّين غير نافعٍ مطلقًا، وإنما تُثبت كون الذين هم أصحاب دين قليلين.

ولا مراء في أن حكوماتنا الحديثة مدينةٌ للنصرانية بسلطانها المتين وقلة ثوراتها، وقد جعلتها النصرانية أقلَّ سفكًا للدماء، ووثقت هذا فعلاً عند المقابلة بينها وبين الحكومات القديمة؛ فالدين، إذ أحسنت معرفته، أقصى التعصّب ومنح الأخلاق النصرانية حُلماً كبيرًا. وليس هذا التحوّل وليد الآداب، وذلك كما تدل عليه قسوة الأثنييين والمصريين وأباطرة الرومان والصينيين، ويا لأعمال الرحمة التي هي من فعل الإنجيل! وما أكثر ما يؤدي إليه الإنجيل من إصلاح وتصحيح واعترافٍ بين الكاثوليك! وما أكثر ما يؤدي إليه اقتراب أوقات تناول القربان من مصالحتهم وإعطاء صدقات! وما أكثر ما جعلت سنة الأبرار لدى العبريين فريق الغاصبين أقلَّ طمعًا! وما أكثر ما حالت دونه من يؤس! إن الإخاء الشرعي يوحّد بين جميع القوم فلا يوجد عندهم متسول، وكذلك لا يوجد

ويا أيها الفتى الصالح، كُن مخلصاً صادقاً خالياً من الخيلاء، واعرف كيف تكون غافلاً؛ أي لا تُخادع نفسك ولا الآخرين. وإذا كانت مواهبك من الثقافة ما تخاطب معه الناس، فلا تكلمهم إلا وفق ضميرك ومن غير التفاتٍ إلى هتافهم لك. ويؤدي سوء استعمال المعرفة إلى عدم الاعتقاد، ويزدري كلُّ عالمٍ رأي العوام، ويُريد كلُّ عالمٍ أن يكون ذا رأيٍ خاص، وتسوقُ الفلسفةُ المتعاطمة إلى التعصب. واجتنب هذه الحدود النهائية، والزم طريق الحقيقة دائماً، أو ما يبدو لك هكذا ضمن بساطة قلبك، وذلك من غير أن تتحوّل عن ذلك عن زهوٍ أو ضعفٍ مُطلقاً، واجهز بالإيمان بالله أمام الفلاسفة، واجهز بوعظ المتعصبين بالإنسانية. ومن المحتمل أن تبتقى وحدك، ولكنك ستحمّل في نفسك شاهداً يُغنيك عن شهود الناس، وليس من المهم أن يجبوك أو يكرهوك، وأن يقرءوا ما تكتب أو يزُدرؤه. وقُل الحقّ وافعل الخير؛ فالذي يُهمُّ الإنسان هو أن

متسولون بين التُرك حيث لا يُحصى ما عندهم من الأوقاف الخيرية، وهم مضاييف عن مبدأ ديني؛ حتى نحو أعداء دينهم.

وروى شاردان: «أن المسلمين يقولون إن جميع الأجسام بعد الحساب الذي يعقب البعث العام تمر على جسرٍ يُسمّى الصراط قائم على النار الأبدية، على جسرٍ يمكن تسميته كما يقولون بالحساب الثالث والأخير وبالحساب الحقيقي النهائي؛ وذلك لأن عليه يُفصل الأختيار من الأشرار ... إلخ.»

ويقول شاردان مواصلاً: «والفرس مفتونون بهذا الجسر كثيراً؛ فمتى لحقت بالواحد منهم إهانة لا يستطيع غسلها بأية وسيلة كانت وفي أي وقت كان، وجد آخر عزاءٍ له بقوله: «حسناً! والحي القيوم، إنك ستدفع لي ثمن ذلك مضاعفاً يوم الحساب، ولن تمرّ على الصراط قبل أن ترضيني مقدماً، وسأتلق في طرف ثوبك وسأطرح نفسي على ساقيك.» وقد شاهدتُ وجهاءً كثيرين من كل مهنة يخشون أن يُصرخ بهم حين مرورهم فوق هذا الجسر الهائل على هذا الوجه، فيلتمسون العفو ممن يتوجعون منهم. وقد لاقيت مثل هذا بنفسي مائة مرة، وذلك أن أناساً من ذوي المكانة كانوا إذا ما حملوني مع الإزعاج على القيام بأعمالٍ لا أريدها اقتربوا مني بعد مرور وقتٍ يكفي لزوال ألمي وقالوا لي: «دع هذا الأمر يكون شرعياً حقاً.» حتى إن بعضهم قدّم إليّ هدايا وقام نحوي بخدم؛ وذلك لأعفو عنه معلناً أن عفوي هذا وقع عن رضا، وما يكون سبب هذا غير الاعتقاد بأن جسر جهنم لا يُجاوز قبل أن يُدفع أقصى تعويض إلى المظلوم؟» (جزء ٧، صفحة ٥٠).

وهل أعتقد أن مبدأ هذا الجسر الذي يمحو كثيراً من الآثام لا يمنع وقوعها؟ وإذا ما نُزع من الفرس هذا المبدأ ياقاعهم أنه لا يوجد صراط ولا ما يمثله حيث يُنتقم للمظلومين من ظالمهم بعد الموت، أفلا يكون من الواضح زوال مخاوف هؤلاء الظالمين بذلك مع خلاص لهم من كل جهدٍ في تطيب خواطر أولئك النساء؟ ولذا فإن من الضلال أن يقال إن هذا المبدأ ضارٌّ، ولو لم يكن صحيحاً. أجل، إن قوانينك الخلقية رائعة جداً أيها الفيلسوف، ولكن تفضّل فدُلّي على مؤيدٍ لها، وكُفّ [لحظة عن الهديان، وأخبرني بماذا استبدل الجسر (الناشر)].

يقوم بواجباته في العالم. والإنسان إذا ما نسى نفسه عمل في سبيل نفسه، والمصلحة الخاصة
تُخَدَعنا يا بُني، وأملُ الصالح وحده هو الذي لا يَخْدَع مُطْلَقًا.»

• • •

لقد نقلت تلك الوثيقة لا كقاعدةٍ عن المشاعر التي يَجِبُ اتِّبَاعُها في موضوع الدِّين، بل
كمثالٍ عن الموضوع الذي يُمكن البرهنةُ حوله مع تلميذي، لكيلا أبتعد عن المنهاج الذي
حاولتُ إقامته، ولا تستطيع بصائرُ العقل أن تأتي بنا ضمن نظام الطبيعة إلى ما هو أبعد من الدِّين
الطبيعيِّ ما دام لم يُدْعَن بشيءٍ لسلطان النَّاس ولا لمُبْتَسِرَاتِ البلد الذي يُؤكِّد فيه، وهذا ما
أقتصرُ عليه مع إميل. وإذا ما وجب اعتناؤه دِينًا آخَرَ عُذْتُ غيرَ ذي حَقِّ في أن أكون دليلًا له
في ذلك، فعليه وحده أن يختاره.

ونَعْمَل متفقين مع الطبيعة، وبِنَا نُكَوِّن الطبيعةُ الرجلَ الطبيعيَّ نحاولُ تكوينَ الإنسانِ
الأدبي، بَدَد أن تقدُّمنا ليس واحدًا، وذلك أن الجسم أصبح عُضْلِيًّا قويًّا على حين لا يزال الروحُ
واهنا ضعيفًا، ومهما يستطع الفنُّ البشريُّ أن يصنِّع، فإن المزاج يسبقُ العقلَ دائمًا، وقد بدَّنا
جميعَ جهودنا حتى الآن في ضبط أحدهما وتنشيط الآخر وصولًا إلى جعل الإنسان واحدًا ما
أمكن. ونحن حين أنمينا الجِليَّ ضَبَطْنَا حَسَّاسِيَّتَهُ الناشئة ونظَّمْنَاها بتعهُّدنا العقل، وكانت أمورُ
العقل تُعدِّل انطباعَ أمورِ الإحساس، ونظَّمْنَاها بتعهُّدنا العقل، وكانت أمورُ العقل تُعدِّل انطباعَ أمورِ
الإحساس، ونحن إذ رجَّعنا إلى أصل الأشياء أنقذناه من سلطان الحواس؛ فكان من السَّهْلِ أن
يُرْفَع من دراسة الطبيعة إلى البحث عن صانعها.

ويا للسُّبُل الجديدة التي تكون لنا على تلميذنا، ويا للوسائل الحديثة التي نُخاطِبُ بها
فؤاده، عندما ننهي إلى هنالك! وهنالك فقط يَجِدُ مصلحته الحقيقية في صلاحه وفي عمل الخير
بعيدًا من أنظار النَّاس ومن غير أن تُكْرِهَهُ عليه القوانين، وفي كونه بارًّا بين الله ونفسه، وفي قيامه
بواجبه حتى على حساب حياته، وفي حملته الفضيلة في قلبه. ليس فقط عن حُبِّ النظام الذي
يُفضِّلُ عليه كلُّ واحدٍ حُبَّ نفسه دائمًا، بل عن حُبِّ صانع وجوده، عن هذا الحُبِّ الذي يختلط
بحبِّ النفس ذاك، وذلك للتمتُّع أخيرًا بالسعادة الدائمة التي تعده بها راحة الضمير والتأمل في
ذلك الموجود الأعلى، وذلك في الحياة الأخرى، بعد أن يكون قد استنفد هذه الحياة تمامًا. وإذا
عدوت ذاك عُذْتُ لا أرى غيرَ الجور والرِّثاء والكذب بين النَّاس، وتُعَلِّمُ المصلحة الخاصة التي
تُفَوِّزُ عند المزاومة على كلِّ ما سواها بحُكْمِ الضرورة، كلِّ واحدٍ منهم أن يُلْبِسَ الرذيلةَ قناعَ

الفضيلة، ولِيَصْنَعَ مَنْ سِوَايَ مِنَ النَّاسِ مَا فِيهِ خَيْرِي عَلَى حِسَابِ مَنْفَعَتِهِمْ، وَلِيَسَلِّمْ زِمَامُ كُلِّ أَمْرٍ إِلَيَّ وَحْدِي، وَلِيَهْلِكُ جَمِيعُ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ أَلْمَا وَبُؤْسًا عِنْدَ الْاِقْتِضَاءِ حِفْظًا لِي مِنَ الْأَلَمِ وَالْجُوعِ سَاعَةً؛ فَهَذَا هُوَ اللِّسَانُ الْبَاطِنِيُّ عِنْدَ كُلِّ مُلْجِدٍ يَأْتِي بِالْبِرَاهِينِ. أَجَلٌ، إِنِّي سَاعِدُ مِنَ الْكَادِبِينَ أَوْ الْمَجَانِينَ مَا دُمْتُ حَيًّا كُلُّ مَنْ يَقُولُ فِي قَلْبِهِ «لَا يُوْجَدُ إِلَهٌ مُطْلَقًا»، عَلَى حِينِ يَجْهَرُ بِغَيْرِ هَذَا.

ويا أيها القارئ، عبتُ أحاول؛ فمما أشعر به جيّدًا أننا - أنا وأنت - لن نرى إميلَ متّصِفًا بذات الخصائص؛ فأنت تتمثّلُ إميلَ ممثّلًا لفتيانك دائمًا، أنت تتمثّله على الدوام طائشًا أشرًا قَلُوبًا تائهاً بين حفلةٍ وأخرى، وبين لهُوٍ وآخِرٍ، عاجزًا عن الاستقرار على حالٍ مطلقًا. وستضحك إذ تراني أجعلُ متأملًا فيلسوفًا ولاهوتيًّا حقيقيًّا من شابٍّ أجمُجٍ نرقي غُضُوبٍ هائجٍ في أشدِّ أدوار الحياة غليانًا. وستقولون إن هذا الحالمَ يتّبعُ وهمه دائمًا، وإنه إذ يعطينا تلميذًا على شاكلته لا يُبَسِّئُهُ فقط، بل يخلقه ويُخرجه من دماغه، وإنه إذ يعتقد اتّباعه الطبيعة دائمًا، يتعد عنها في كلِّ دقيقة. وأمّا أنا، فإني إذ أقابل بين تلميذي وتلاميذكم، لا أكاد أجِدُ ما يمكن أن يكون مشتركًا بينهما، وإذ نُشئُ تلميذي على خلاف ما نُشئوا فإن من المعجزة أن يشابههما في بعض الأمور. وبما أنه قضى صباه في مثل الحرية التي يتخذونها في شبابهم، فإنه يبدأ في شبابه باتخاذ القاعدة التي حُمِلُوا على الخضوع لها وهم أولاد، وتُصبح هذه القاعدةُ بلائهم، ويُعدُّونها موضعَ مُقْتٍ لهم، ولا يَرُونَ فيها غيرَ طغيانٍ للسادة مديدٍ، ويظنُّون أنهم لا يخرجون من دَور الصبا إلا بالقاء كلِّ نيرٍ عنهم،^{٣٧} وهنالك يُعَوِّضون أنفسهم من الضغط الطويل الذي أمسكوا فيه، وذلك كالسجين الذي يَنجُو من القيود فيمُدُّ أعضائه ويُحرِّكها ويشبهها.

وعلى العكس، يفتخر إميلُ بأن يصير رجلًا، وبأن يُخضع نفسه لبير العقل الناشئ، وقد عاد بدُّهُ الذي تَكُونُ لا يحتاج إلى عين الحركات؛ فأخذ يقيفُ من تلقاء نفسه على حين يحاول رُوْحُهُ نصفُ النامي أن يَنْهَضَ بدوره. وهكذا ليست سنُّ العقل لدى أناسٍ غير سنِّ الإباحة، وهي تكون سنُّ التعقّل لدى الآخر.

وهل تريدون أن تعرّفوا أيُّ الفريقين أقربُ إلى نظام الطبيعة؟ انظروا إلى الفروق بين أولئك الذين هم بعيدون منها بعض البعد، ولا حظوا الفتيانَ عند القرويين، وروًا هل هم بطزون كفتيانكم.

^{٣٧} لا تجد أحدًا ينظر إلى دَور الصبا بازدراءٍ كبيرٍ كالذين يخرجون منه، كما أنك لا تجد بلدًا تُحفظ فيه المراتبُ مع كثيرٍ من التكلّف أشدَّ مما في البلاد التي لا يكون التفاوت فيها عظيمًا، والتي يخشى كلُّ واحدٍ فيها دائمًا أن يُخلطَ بمن هم أدنى منه.

قال مسيو لوبو: «يُزى الهمح دائمى النشاط فى دُور الصبا، مباشرين بلا انقطاع ألعابًا مختلفة تُحرك أبدانهم، ولكنهم لا يكادون يبلُغون سنَّ المراهقة حتى يَعدُوا هادئين حالمين. ثمَّ يعودون لا يتعاطون غيرَ الألعاب الجديَّة أو القمار.»^{٣٨} وبما أن إميل قد نُشئ بكلِّ ما عند فييان الفلاحين وفييان الهمح من حرية، فإنه يجب أن يُعَيَّر وَيَقَفَ مثلهم إذا ما كبر، وكلُّ الفرق فى أنه بدلًا من أن يسير من أجل اللعب ومن أجل الغذاء حصرًا، تعلَّم التفكير فى أعماله وفى أعبائه. وأما وقد انتهى إلى هذا الحد من هذا الطريق إذن وَجَدَ نفسه مستعدًّا كلَّ الاستعداد لما أُدْخِلَه إليه، وما أُعْرِضَ عليه من موضوعات تأمُّلٍ يُثِرُ فضولَه، وذلك لروعة هذه الموضوعات بنفسها، ولكاملِ جدَّتِها بالنسبة إليه، ولأنه فى حالٍ يستطيع أن يدركها معه. وأما تلاميذك فهم على العكس؛ إذ كانوا مُؤلَّين مُثقلين بدروسكم التافهة ويعلمون أخلاقكم المطوَّلة، ويتعاليمكم النصرانية الدائمة، فكيف لا يأبُونَ أن يُعيروا ذهنهم الذى جُعِلَ كنييًّا من المبادئ الثقيلة التى ما انفكُّوا يُرْهقون بها ومن التأمُّلات حَوْلَ صانع وجودهم الذى جُعِلَ منه عدوُّ ملاذهم؟ ولمَّ يُوحِ إليهم جميعُ هذا غيرَ النفور والكراهية والسأم، وقد صدَّهم القسُّرُ عنه، ولمَّ يُكرِّسون أنفسهم له فى وقتٍ يأخذون فى الاختيار لها؟ لا بُدَّ من جديدٍ لهم حتى يُمكنَ الوقوفُ عندهم موقعَ الرضا، وعاد لا ينبغي أن يُكرَّرَ لهم ما يُقال للأولاد. والأمر هكذا نحو تلميذى الذى إذا ما صار رجلًا كلَّمته مثل رجل، ولم أقلَّ له غيرَ أشياء جديدة، نحو تلميذى الذى يجب أن يجدها ملائمةً لذوقه عن كونها تورث الآخريين مَلالًا.

ومن ثمَّ ترى كيف أكسبته وقتًا مضاعفًا بتأخيري تقدُّم الطبيعة نفعًا للعقل، ولكن هل أخرَّت هذا التقدُّم بالحقيقة؟ كلاً، وإنما خلَّت فقط دون تعجيل الخيال للطبيعة، ووازنت بدروسٍ من طرازٍ آخرٍ دروسًا مُعجَّلةً يتلقاها الفتيان فى أماكنٍ أخرى. وبينما يَجْرُهُ سبيلُ مناهجنا القائمة يُجذَّب إلى الجهة المقابلة بمناهجٍ أخرى، فىعني هذا إمساكه فى موضعه، لا إخراجَه منه.

ثمَّ تَحِينُ ساعةُ الطبيعة الحقيقية، ويجب أن تَحِين، وبما أنه لا بُدَّ من موت الإنسان وجب أن يتناسل ليبقى النوعُ وليُحفظ نظامُ العالم. ومتى شعرتُم بحلول ساعة الخطرِ بالعلامتِ التى تكلمتُ عنها فاتركوا أسلوبكم القديم إلى الأبد من فُوركم؛ فهو لا يزال مُريدًا لكم، وهو يعود غيرَ تلميذٍ لكم، وهو يكون صديقًا لكم، وهو يكون رجلًا، فعاملوه هكذا بعد الآن.

ماذا! أتخلَّى عن سلطاني عندما أغدو أشدَّ ما أكونُ احتياجًا إليه؟ وهل يجب أن أُلقيَ حبلَ

^{٣٨} مغامرات مسيو لوبو، المحامى لدى البرلمان، جزء ٢، صفحة ٧٠.

المراهق على غاربه حينما يصير أقل ما يستطيع سيرا وأكثر ما يكون إتيانا لأعظم الانحرافات؟ وهل أتزل عن حقوقي عندما يصبح أكثر ما يكون اضطرارا إلى ممارستي لها؟ حقوقكم! من يقول لكم أن تتزلوا عنها؟ تبدأ الآن في سبيله فقط، ولم تنالوا منها شيئا بغير القوة والحيلة حتى الآن، وقد كان السلطان وقانون الواجب مجهولين لديه؛ فكان لا بد من إخافته أو مخادعته حملا له على إطاعتكم، ولكنكم ترون مقدار القيود التي أحطتم بها فواده. ويخاطبه العقل والصدقة وعرفان الجميل وألف من العواطف بلهجة لا يستطيع أن ينكرها، ولم يجعله العيب أصم تجاه صوتها. ولا يزال يتأثر بأهواء الطبيعة فقط، ويسلمه إليكم حُب النفس الذي هو أولها جميعا، وتسلمه العادة إليكم أيضا. وإذا ما نزع منكم بقورة ساعة فإن الندم يعيده إليكم حالا، والشعور الذي يربطه بكم هو الدائم وحده. وأما المشاعر الأخرى فتمضي وتمحي مبادلة، ولا تدعوه يقسند مطلقا، فسيكون طيعا دائما، وهو لا يأخذ في التمرد إلا بعد أن يكون الفساد قد دب فيه.

وأعترف بأنكم إذا ما جبهتم رغائبه الناشئة فكنتم من الغباوة ما تغدون معه من الجرائم ما يتنحس فيه من الاحتياجات الجديدة، لم يصح إليكم زمنا طويلا، ولكنكم إذا ما تركتم منها جدي عذت غير مسئول عن النتائج نحوكم. واذكروا دائما أنكم وكلاء الطبيعة، ولن تكونوا عذوا لها مطلقا.

ولكن أي قرار يتخذ؟ لا يتنظر من الخيار هنا غير استحسان ميوله أو مكافحتها، غير كونكم طاغيته أو ملاطفين له، ولكل من الأمرين من النتائج البالغة الخطر ما لا بد معه من التردد بينهما كثيرا عند الاختيار.

وأول وسيلة تخطر على البال لحل هذه المشكلة هو أن يزوج سريعا، ولا جدال في أن هذه الطريقة أضمن الطرق وأقربها إلى الطبيعة، ومع ذلك فإنني أشك في كونها أحسن الطرق وأكثرها فائدة، وسأبين براهيني فيما بعد، وريثما أصنع هذا أوافق على زواج الفتيان في سن البلوغ، غير أن هذه السن تأتي قبل الأوان، ونحن الذين يعجلونها، فيجب إطلتها حتى سن الرشد.

ولو وجب ألا يستمع لغير الميول وألا يتبع غير العلام لفضي الأمر سريعا، ولكن يوجد بين حقوق الطبيعة وقوانيننا الاجتماعية من التناقض الكثير ما لا بد معه من الالتواء والتردد بلا انقطاع للتوفيق بينهما، ولا بد من استعمال كثير من الحذق لمنع الإنسان الاجتماعي من أن يكون مصنوعا.

وأستند إلى الأسباب المعروضة آنفا، فأقدر أن من الممكن بالوسائل التي أعطيت وبما ماثلها، تمديد الدور الذي تُجهل فيه ميول الحواس ويحفظ فيه نفاؤها حتى العشرين من العمر على الأقل، وهذا هو من الصحة ما يبقى معه الفتى الجرمانى مفضوحا إذا ما أضع طهره قبل

هذه السن، ومن الصواب عزو المؤلفين قوة البنية لدى الجرمان وكثرة أولادهم إلى عفاف هؤلاء القوم في دُور شبابهم.

حتى إن من الممكن إطالة ذاك الدور كثيرًا، ولا شيء كان أكثر شيوعًا من هذا في فرنسة نفسها منذ قرونٍ قليلة. ومن بين كثيرٍ من الأمثلة المعروفة نذكر مثال أبي مُونتين الذي لم يكن قويًا حسن البنية أكثر منه مُتَحَسِّبًا صادقًا، فأقسم أن يتزوَّج طاهرًا في الخامسة والثلاثين من سنيه بعد خدمةٍ طويلةٍ في حروبٍ إيطالية، ومما يُرى فيما كتب الابنُ أيُّ قوةٍ ومَرَحٍ حافظ عليهما الأب بعد مجاوزته الستين من عُمره. ولا جَرَمَ أن الرأي المعاكس يتوقَّف على طِباعنا ومُبتسراتنا أكثر مما على عِرْفان النوع على العموم.

ولذا فإن من الممكن أن أطرح جانبًا مثالًا شابنا؛ فهو لا يُثبِت شيئًا تجاه من لم يُنشأ مثله، وإنني بعد النظر إلى أن الطبيعة لم تَصْعَحْ حدًّا يتعدَّر تقديمه أو تأخيره، أعتقد أنني أستطيع من غير مجاوزةٍ لاموسها أن أفترض بقاء إميل حتى ذلك الحين ضِمْنَ طُهره الابتدائي نتيجةً لما بذلت من عناية، وإنني أبصِرُ قُرْبَ نهايةِ هذا الدور السعيد، وهو إذ يُحاطُ بأخطارٍ مُطَرِّدَةٍ زيادةً، يَتَفَلَّتْ مِنِّي عند أوَّلِ فرصةٍ على الرغم من جهودي، ولن يتأخر وقوعُ هذه الفرصة، وهو سيَتَّبِعُ غريزة الحواس العمياء، ويوجد رَهانٌ أَلْفٍ في مقابل واحدٍ على ضِيعه. وقد أنعمتُ النظر كثيرًا في طِباع النَّاسِ لكيلا أرى نفوذ هذا الدور الأوَّل الذي لا يُقَهَّر في بقية حياته، وهو إذا ما كتمتُ وأظهرتُ أنني لا أرى شيئًا تغلَّب عليّ ضِعفي، وهو إذا ما اعتقد أنه يخادعني استخفَّ بي وصرتُ شريكًا في ضِيعه، وإذا ما حاولتُ رَدَّهُ كان هذا بعد الأوان، وعاد لا يُصغي إليّ، وصار يُعدُّني مُرْعَجًا مَمْقُوتًا ثَقِيلًا، فلا يتأخر عن التخلُّص مِنِّي؛ ولذا عاد لا يكون لديَّ غيرُ سبيلٍ معقولٍ أسلكه، وهو أن أجعله مسئولًا عن أعماله نحو نفسه، وأن أحفظه من مباحثات الخطأ على الأقل، وأن أدلِّه بلا مُواربةٍ على المخاطر التي تحيط به، وقد وقفته بجهله حتى الآن، والآن يجب أن أقفه بالمعارف.

وهذه المعارف الجديدة مهمة، ومن الملائم تناولُ الأمور من الأعلى، وهذه هي ساعةُ تقديم حساباتي إليه، فأدُلُّه على استعمال وقته ووقتي، وأبيِّنُ له مَنْ هو وَمَنْ أنا، وما فعل وما أفعل، وما كلُّ مِنَّا مَدِينٌ به للآخر، وجميعُ صِلاته الأدبية، وجميع ما عَقَد من الالتزامات، وجميع ما عَقَد معه، ومقدار ما اتَّفَق لمواهبه من التقدُّم، وما الطريقُ التي بقيَ عليه أن يسلكها، وما سيجد فيها من المصاعب، وما الوسائلُ التي يفتحم بها هذه المصاعب، وما يُمكنني أن أساعده عليه بَعْدُ، وما يُمكنه أن يُعيِّنَ عليه نفسه بنفسه بعد الآن، وما عليه من خطر، وما يحيط به من

مخاطرَ جديدة، وجميعَ العواملِ المتينة التي يجب أن تحمِلَه على ملاحظة نفسه بدقة قبل أن يُصغي إلى رغائبه الناشئة.

واذكروا أنه لا بُدَّ لقيادة المراهق من اتخاذكم جميعَ ما صنعتم لقيادة الولد، ولا تتردّدوا مطلقًا في تعليمه هذه الأسرارَ الخطيرة التي كتمتموها عنه بعناية كبيرة زمنًا طويلًا، ومن المهمّ ألا يعلمها من آخرَ ولا من نفسه، بل منكم وحدكم، ويجب أن يعرف عدوّه خشيةً المباغطة ما دام مُلزمًا بالنضال فيما بعد.

وما كان الفتيانُ الذين يُوجدون عارفين بهذه الأمور، من غير أن يُعلمَ كيف عرّفوها، ليصبحوا ذلك بلا عقاب. وبما أن هذا العرفانَ الطائش لا يُمكن أن يكون ذا عَرْضٍ صالح، فإنه يُدّس، على الأقل، خيالَ مَنْ يتلقون ويُعدّهم لردائل مَنْ يلقونه. وليس هذا كلّ ما في الأمر؛ فمن الخدم مَنْ ينسابون في ذهن الولد هكذا وينالون ثقته، ويُدّون له مُربيّه رجلاً كئيبًا ثقيلًا، ويكون انتقاضه من الموضوعات المفضّلة في أحاديثهم السريّة، فإذا ما صار التلميذُ في هذا الوضع استطاع أن ينزوي لِمَا يعودُ غيرَ قادرٍ على صنْع ما هو صالح.

ولكن لِمَ يختارُ الولدُ أنجيّةً خاصّين؟ ذلك دائمًا بسبب طغيان مَنْ يقومون برقابته. ولم يتوارى منهم إذا لم يكن مُضطرًّا إلى الاختفاء؟ ولم يتوجّع إذا لم يُوجد ما يتوجّع منه؟ إن من الطبيعي أن يكون هؤلاء الرُقباء أوّل الأنجيّة، ويرى من الهمة التي يقول لهم بها ما يُفكّر فيه اعتقاده أنه يبقى نصف مُفكّرٍ فيه حتى يقوله لهم. واعلموا أن الولد إذا لم يُخشَ من ناحيتكم وعظًا ولا تعزيرًا قال لكم كلّ شيءٍ دائمًا، وأنه لا أحد يجزؤ على قول شيءٍ له يُخفيه عنكم؛ وذلك لأنه يُعلم جيّدًا أنه سيقول لكم كلّ شيءٍ.

والذي يجعلني أكثرَ اعتمادًا على منهاجي هو أنني لا أرى، باتّباعي مناحيه بما يمكنني من الدقة، وضْعًا في حياة تلميذي لا يدع لي صورةً مستحبةً عنه، حتى إنني لا أزال أجده على بساطته الأولى في حُمياه وهيجانه حين تسوقه صولات المزاج، وحين يتمرّد على اليد التي تقفه، فينتفض ويأخذ في التملّص منّي. وليس فؤاده النقيّ نقاءً بدنه أعلم بالتستّر مما بالمنكر، ولم يجعله التعزيرُ ولا الازدراء نذلاً قطُّ، ولم يُعلمه الخوفَ الدنيّ أن يتنكّر مُطلقًا، وهو يتصف بكلّ ما في الطُّهر من رصانة، وهو ساذجٌ بلا وسواس، وهو لم يعرف بعدُ فائدة الخداع، ولا يقع ميلٌ في نفسه من غير أن ينمّ عليه لسانه وعيناه، وأعرف ما يشعُر به من أحاسيسٍ بأسرع مما يعرف غالبًا.

وليس عندي ما أخاف ما داومَ على فُتح قلبه لي طليقًا، وعلى قوله لي ما يُحسُّ مسرورًا.

وليس الخطرُ بَعْدُ قَرِيبًا، ولكنه إذا ما أصبحَ أَكْثَرَ وَجَلًّا وَتَحَفُّظًا فأبصرْتُ في محادثاته ارتباكَ الحياءِ الأوَّلِ دَلٌّ هذا على نموِّ في الغريزة وعلى أخذِ مبدأ السَّوءِ يُضَافُ إليها، فعاد لا يكون لديَّ وقتٌ أَقْرَبُ فيه، فإذا لم أبادرُ إلى تعليمه تَعَلَّم من قَوْره على الرغم منِّي.

وسيرى أَكْثَرَ من قارئ، حتى عند انتحال أفكارى، أن المسألة هنا لا تعدو حَدَّ محادثةٍ تَنَعَّ مصادفةً مع الفتى، وأن الأمرَ كُلَّهُ يُسَوَّى بهذا. آه! لا يُهَيِّمُنْ على قلبِ الإنسان هكذا! ما يُقال لا يَدُلُّ على شيء إذا لم يُهَيِّأ وقتٌ قَوْلُه، ولا يُدَّ من حَزْثِ الأرض قبل البَدْرِ، وينمو بَدْرُ الفضيلة بصعوبة، ولا يُدَّ من أَهْبَاتِ طويلة حتى يُجْعَلَ له جَذْر. ومن الأمور التي تجعلُ المواعظَ أَكْثَرَ ما يكون عدمُ فائدةٍ هو أنها تُعْرَضُ على جميع النَّاسِ بلا تمييز ومن غير تفریقٍ ولا اختيار. وكيف يُرى أن الوعظَ عَيْتَهُ يلائم كثيرًا من المستمعين الكثيرون الاختلافَ استعدادًا وذهنًا ومزاجًا وسنًا وجنسًا وشأنًا ورأيًا؟ ومن المحتمل ألا يُوجَدَ اثنان يُناسِبُهُما ما يُقال للجميع، وتكون جميعُ عواطفنا من قلةِ النباتِ ما لا يُحتملُ معه وجودُ ساعتين في حياة كلِّ إنسانٍ يَتَّفِقُ فيهما لعينِ الكلام عَيْنُ التأثير فيه. ورؤا هل يكون الوقت الذي تلتهبُ فيه الحواس، فتخْبُلُ العقلُ وتُناكُذُ الإرادة، هو الوقت الذي يُصغى فيه إلى دروسِ الحكمة الرصينة؛ ولذا فلا تخاطبوا الفتيانَ بالعقل حتى في سنِّ العقل، ما لم تكونوا قد هيأتموهم لإدراكه في أوَّلِ الأمر. وتَجِدُ مُعْظَمَ الخُطْبِ قد ذهبَ أدراجَ الرياحِ عن خَطِّ الأساتيدِ أَكْثَرَ مما عن خطأ التلاميذ. أجل، يقول المتحدلق والمُعَلِّم عَيْنُ الأمور تقريبًا، غير أن الأوَّل يقولها في كلِّ وقت، وأن الثاني لا يقولها إلا عند اطمئنانه إلى تأثيرها.

وإميلُ كالسائر في النومِ النَّائِه في رُقاده، فيمشي وهو وَسَنَانُ على أطرافِ هُوَّةٍ يَسْقُطُ فيها إذا ما أوقِظَ بغتة. وهكذا فإن إميلَ وهو في رُقادِ الجهلِ يتفلَّتُ من الأخطار التي لا يراها مطلقًا، فإذا ما نَبَّهَتْهُ برجفةٍ هَلَك، فلنُحاول أن نُبعِدَهُ من الهُوَّةِ أوَّلًا، ثُمَّ ننبِّههُ لِنُطْلِعَهُ عليها من بعيد.

وتُعَدُّ المطالعةُ والعزلةُ والحياةُ الحضريَّةُ الناعمةُ ومخالطةُ النساءِ والعِلْمَانِ سُبُلًا خَطِرَةً على مَنْ يكون في مثلِ عُمره، فتجعله قريبًا من الهلاكِ دائِمًا. وإنِّي أُحوِّلُ حواسَّهُ بأمرٍ حسيَّةٍ أُخرى، وإنِّي أرسُمُ مَجْرَى آخِرَ لهواجسه، فأحوِّلُها عن المجرى الذي أخذتْ تَسْلُكُه، وإنِّي أُمَرِّنُ بَدَنَه على أشغالٍ شاقة، فأَقْفُ نشاطَ الخيالِ الذي يسوقه، ومتى اشتغلتِ الذُّرْعَانِ استراحَ الخيال، ومتى تَعَبَ البدنُ لم يشتغل القلبُ قَط، ويكون أَسْرَعُ احترازٍ وأسهلُ تحفُّظٍ في نزعه من الخطرِ المحلي، وآتي به في البُداءة خارجَ المدنِ بعيدًا من الأمور التي تستطيع أن تُغْوِيَه، بيْدَ أن هذا لا يكفي؛ ففي أيةِ بادية، وفي أيِّ ملحاً مهجورٍ سيتخلَّص من الصور التي تتعقَّبُه؟ ولا أعدُّ قد أقصيتُ

الأشياء الخطرة إذا لم أفصِّ ذكراها أبطأ، وإذا لم أجد وسيلةً لفصله عن كلِّ شيء، وإذا لم ألهه عن نفسه، كان من الجدير أن يُترك حيث كان.

ويُعرف إميلُ صناعةً، ولكن هذه الصناعة ليست وسيلتنا هنا، وهو يحبُّ الزراعة ويُدرِكها، ولكن الزراعة لا تكفيننا، وتصير الأشاغيلُ التي يعرف نمطيّة، وهو إذ يعاطاها يُعدُّ غيرَ فاعلٍ شيئاً، وهو يُفكِّرُ في أمرٍ آخر، ويتحرَّك الرأسُ والدِّراعان على انفراد، ولا بدُّ له من أشغولةٍ جديدةٍ تُوجبُ التفاتَه بجَدَّتْها، أشغولةٌ تستكِّدُه وتزوِّفُه، وتشغله وتحرِّكه، أشغولةٌ يُولِّغُ بها وينقطعُ إليها بكُلِّيته. والواقعُ أن الصيدَ هو الأشغولةُ التي يلوخُ لي أنها جامعةٌ لجميعِ هذه الشروط، وإذا كان الصيدُ مُتعةً سليمةً ملائمةً للإنسان، فإن الآنَ هو ذورُ الالتجاءِ إليه. وعند إميلِ كلِّ ما يلزم للنجاح في الصيد؛ فهو عُصْلِيٌّ ماهرٌ صابرٌ لا يتعب، ولا شكَّ في أنه سيرغب في هذه الرياضة، وهو سيضع فيها جميعَ حرارةِ عُمره، وهو سيُضيقُ فيها لزمينٍ ما على الأقل، ما ينشأ عن الترف من ميولِ حَظرة، وذلك أن الصيدَ يُخشِنُ القلبَ والبدنَ ويُعوِّدُ الإنسانَ منظرَ الدم والقسوة. وقد جُعِلَ من دياناً عدوُّ الحب، والرمزُ صحيحٌ جدًّا؛ فحدُرُ الحبِّ لا ينشأ عن غيرِ الراحةِ الحُلوة، والرياضةِ العنيفةِ تُخمِدُ الأحاسيسَ الناعمة، وفي الغابِ والحقولِ يكونُ العاشقُ والصائدُ من اختلافِ التأثرِ ما يحملان معه صوراً بالغةَ الاختلافِ عن عَيْنِ الأشياءِ، وذلك أن الظلالَ الوارفةَ والغاباتِ الظليلةَ والمسكنَ اللينةَ لدى الأولِ ليست لدى الآخرِ غيرَ مرتعٍ للوحوشِ وغيرِ حصونٍ ومَحاطٍ للعجلِ، فلا يسمَعُ أحدهما فيها غيرَ حفيفِ الأشجارِ وتغريدِ الهَزَّارِ وصُداحِ الأَطيارِ، ولا يتمثَّلُ الآخرُ فيها غيرَ الأبواقِ ونباحِ الكلابِ، ولا يتصورُ أحدهما فيها غيرَ غَلَّتِيٍّ وحواريَّاتٍ، ولا يتخيَّلُ الآخرُ فيها غيرَ رُؤَاضٍ وحيِلٍ وأسرابِ كلابٍ. وطُوفوا في الأريافِ مع هذين الصنِّفَيْنِ من النَّاسِ، لم تلبثوا أن تُعرِّفوا من اختلافِ اللهجةِ أنه لا يوجد للأرضِ منظرٌ مماثلٌ عندهما، وأن أوجهَ الرأيِ فيهما مختلفةٌ اختلافَهما في اختيارِ ملاذِّهما.

وأدرِكُ كيفَ تتحدُّ هذه الأذواقِ، وأدرِكُ كيفَ يُوجدُ من الوقتِ لها جميعاً في آخرِ الأمرِ. بيدَ أن أهواءَ الشبابِ لا تنقسم على ذاك الوجه، فإذا منحتم الشبابَ أشغولةً يُحِبُّها لم يلبث أن يُنسى ما سواها، ويأتي تنوعُ الرغائبِ من تنوعِ المعارفِ، وأولى الرغائبِ التي تُعرف هي ما يُبحثُ عنه وحدَه زمنًا طويلاً. ولا أريد أن ينقضي جميعُ فتانِ إميلِ في قتلِ الحيوانِ، حتى إنني لا أدعي تسويةَ هذا الهوى جُملةً، وإنما يكفيني أن يكون نافعاً بما فيه الكفاية لتأجيلِ هوى أشدَّ خطراً كيما أسمعُ إذا ما تكلمتُ عنه بهدوءٍ وكيما يكونُ لديَّ من الوقتِ ما أصفه فيه من غير أن أثيره.

وتقع في حياة الإنسان أدوارٌ لا تُنسى أبدًا، ومنها دَوْرُ التعليم الذي أتكلّم عنه، والذي لا بدّ من تأثيره في بقية حياته. ولنحاول أن ننقشه في ذاكرته إذن، فلا يُمحي منها مطلقًا. ومن أغاليط عصرنا استعمالُ العقلِ عاريًا تمامًا، كما لو كان النَّاسُ ذهنا خالصًا. وإذا ما أُهملت لغةُ الإشارات التي تخاطب الخيالَ فُقدَ أمضى الألسنة، ويكون تأثيرُ الكلام ضعيفًا دائمًا، ويُخاطب الفؤادَ بالعيون أفضلَ مما بالأذان. ونحن إذ منحنا العقلَ كلَّ شيء، رجعنا جميعَ تعاليمنا إلى أقوال، ولم نشتغل عليها بالأفعال. وليس العقلُ وحده فعّالًا، وهو يزدعج أحيانًا، وهو يُحرّك نادرًا، وهو لم يأتِ بعظيمٍ مطلقًا. ومن هوسِ النفوسِ الصغيرة أن يُلجأ إلى العقلِ دائمًا، وللنفوسِ القوية لسانٌ آخرُ، وبهذا اللسان يقع الإقناع، وبه يُسيّر الإنسان.

وألحظُ في القرون الحديثة أن بعضَ النَّاسِ عاد لا يكون ذا سلطانٍ على بعضٍ بغيرِ القوةِ والمصلحة، على حين كان القدماء يؤثرون بالإقناع القلبي وعواطف النفس أكثرَ من ذلك؛ وذلك لأنهم كانوا لا يُهمِلون لغةَ الإشارات. وكانت جميعُ العهود تتمُّ بمراسيمٍ صوّنا لها من النقص، وكان الآلهة حُكّامَ الجنس البشريِّ قبل قيام القوة، وكان النَّاسُ يَضَعُونَ أمامَ الآلهة معاهداتهم ومحالفاتهم وَيَقْضُونَ بعقودهم، وكان وجهُ الأرض كتابًا تُحفظ فيه الوثائق، وكانت الصَّحْرُ والأشجارُ وأكوامُ الحجارة المُثَبِّتة بهذه العهود والمحترمة لدى البرابرة أوراقًا لهذا الكتاب المفتوح أمام جميعِ العيون بلا انقطاع. أجل، كانت بئرُ الحلفِ وبئرُ الحيِّ الناظرِ وبلوطَةُ مَمْرَا القديمة والكومَةُ الشاهدةُ آثارًا غليظة، ولكنها جليلةٌ عن قَداسة العقود، فما كان ليحرّزُ أحدٌ على انتهاكِ حرمةِ هذه الآثارِ بيدِ مُدَنِّسَةٍ، وكان عهدُ النَّاسِ أوثقَ بضمّانِ هؤلاء الشهود الصامتين مما بكلِّ صرامةِ القوانين في الوقت الحاضر.

وكان النَّاسُ في الحكومة يُرهبون بجهازِ السلطان الملكي، وكانت أشعرةُ الشَّرَفِ والعرشِ والصَّوْلُجانُ والحُلَّةُ الأرجوانيةُ والتاجُ والعصابةُ أشياءً مقدَّسة، وكانت الإشاراتُ المُكْرَمَةُ وما توحى به من احترامٍ تَجَلِبُ إجلالًا لمن يَزَيِّنُ بها؛ فكان إذا ما قال أُطيع بلا جُنْدٍ ولا وعيد، والآن يُتَظَاهَرُ بإبطالِ هذه الرموزِ،^{٣٩} فما ينشأ عن هذا الازدراء؟ وليزُلْ جلالُ الملوك من جميعِ القلوب،

^{٣٩} حافظُ الإكليروس الروماني عليها بمهارة فائقة، وحذا حذوهم بعضُ الجمهوريات كجمهورية البندقية، وهكذا فإن حكومة البندقية لا تزال تتمتع بكل محبة وعبادة من قِبَل الشعب نتيجةً لجهازِ جلالها القديم. وعلى الرغم من سقوط الدولة، فلا تجد بعد البابا المُزَيَّن بتاجه، ملكًا ولا عاهلًا، ولا أحدًا من رجال الدنيا يحترم، على ما يُحتمل، كما يُحترم رئيس جمهورية البندقية العاقل من القوة والسلطان، ولكن مع جعله مقدَّسًا بأنّهته ومزَيَّنًا بعقيدة امرأة

وَلْيُعَدِّ الملوِكُ لا يُطاعُونَ بغير قوة الجنود، وَلْيَقْمِ احترامُ الرعايا على الخوف من العقاب؛ فهناك لا يكون على الملوِك أن يُزعجوا أنفسهم بلئس تاجهم ولا بحمل سمات مقامهم، وإنما يحتاجون إلى مائة ألف ذراعٍ دائمة الاستعداد لتنفيذ أوامرهم. ومهما يكن من احتمال ظهور هذا أكثر روعةً في أعينهم، فإن من السهل أن يُبصر أنهم لا يريحون من هذه الصفقة مع الزمن.

ومن العجائب ما اتفق للقدماء بالبلاغة، ولم تُقَمِّ هذه البلاغة على حُسن الكلام المُحكَم النظام فقط، بل كانت تؤثر تأثيرًا بالغًا بالتزام الخطيب جانب الإيجاز، وما كان لِيُعَبَّر بالكلمات عن أعظم ما يُمكن تأثيرًا، بل بالإشارات، وكان لا يُنطقُ به، بل يُدَلُّ عليه، وما يُعْرَض على العيون من شيء يُهزُّ الخيال، ويُحرِّك الفضول، ويجعلُ الذهنَ منتظرًا لما يُقال. وفي الغالب يكون هذا الشيء قد قال كل شيء، ألم يكن ترازبول وتازكن بقطعهما رعوس الخشخاش، والإسكندر بوضعه طابعه على قم نديمه، وذيوجانس بسيره أمام زنون، قد تكلموا بأفصح من الخطب الطويلة؟ وأي إسهاب في الكلام كان يُمكن أن يُعرب عن تلك الأفكار بمثل ذلك الأداء؟ وبينما كان دارًا يُحارب في سينية مع جيشه تلقى من ملك السيت طائرًا وضفدعًا وفأرًا وخمسة نبال، ويُسلم السفير الهدية ويعود من غير أن ينطق بكلمة. ولو أتى هذا الرجل بذلك في أيامنا لعدَّ مجنونًا. وتُفهم هذه الخطبة الهائلة، ويرجع دارًا إلى بلده بأقصى ما يُمكن من السرعة. ولو وضعتم في مكان هذه الرموز كتابًا لوجدتم أن هذا الكتاب كلما زاد وعيدًا قلَّ تخويفًا، وما كان لِيُعدَّ غير حذلقه يقابلها دارًا بالصحك.

ويا لاعتناء الرومان بلغة الرموز! ثياب مختلفة على حسب العمر، ووفق المقامات، حُللٌ وسُترٌ وأرديةٌ للأشراف، وحواشٍ وأهداب، وكراسٍ وضبَّاطٌ وحُزَمٌ وفنوس، وأكاليلٌ من ذهبٍ وأعشابٍ وأوراق، واستقبالٌ غزاةٍ ومواكبٌ نصرٍ. وكان كلُّ شيءٍ عندهم يَمُّ على أبهةٍ وجاهٍ ومظهر، فيؤثر في قلوب المواطنين. ومما كان يُهمُّ الدولة أن يجتمع الشعب في هذا المكان أكثر مما في ذلك، وأن يُشاهد الكايتول أو لا، وأن يتجه نحو السنتات أو لا، وأن يتشاور في هذا اليوم أو ذاك تفضيلًا. وكان المُتَّهَمون، والمُرَشَّحون أيضًا، يُعَيرون ثيابهم. وكان المجاهدون لا يفاخرون بمآثرهم، وإنما كانوا يُظهِرون جروحهم، وأتصوَّر أن أحدَ خطبائنا وهو يريد تحريك الشعب عند موت قيصر قد استنفد جميعَ مظانِّ الفنِّ العامَّة ليصِفَ جُروحَه ودَمَه وجُنتَه وصَفًا مؤثِّرًا، وأتصوَّر أنطونوس وهو لا يقول شيئًا من هذا مع فصاحته مكنتيًا بعرض الجثمان، فيا للبلاغة!

تحت إكليله الدوكي، ويُثير الاحتفالُ بمركب البندقية المعروف بالبوسانتور صحك كلِّ مجنون، مع أنه يجعل البندقيَّ يسفك دمه حفظًا لحكومته المستبدة.

غير أن هذا الاستطراد يُخرجني من نطاق موضوعي على وجهٍ غير محسوس كما يصنع آخرون كثيرون، واستطرداتي هي من الكثرة ما لا تُطاق معه بلا أناةٍ وصبرٍ؛ ولذا فإنني أعود إلى الصّدّد.

ولا تُبْزهنوا مع الشباب برهنةً جافةً، وألْبسوا البرهانَ بدناً إذا ما أردتم جعله محسوساً، ودعّوا لسانَ الذهنِ يُمُرُّ على القلبِ حتى يُفْهَم. وأقول مُكرِّراً إن البراهينَ الفاترةَ يُمكن أن تُعَيّن آراءنا، لا أفعالنا، وأن تُحْمِلنا على التفكير، لا على العمل؛ فالبرهان يكون حول ما يجب أن يُفكّر فيه، لا حول ما يجب أن يُعمَل، وإذا ما صحَّ هذا من حيث جميعِ النَّاس، فإن من الأجدب أن يصحَّ هذا من حيث الفتيان الذين لا يزالون مُشتملين بحواسِّهم، فلا يُفكّرون إلا إذا تخيلوا.

وأحترزُ جيّداً إذن حتى بعد الإعدادات التي تكلمتُ عنها، من الذهاب إلى غرفةٍ إميلٍ بغتةً كيما ألقى عليه قولاً طويلاً عن الموضوع الذي أريد أن أعلمه إياه، وأبدأ بإثارة خياله، واختارُ الزمانَ والمكانَ وأكثرَ الأمورِ ملاءمةً لما أريدُ من تأثير. ولذا فإنني أدعو جميعَ الطبيعةِ لتكون شاهدةً على محاوراتنا، وأشهدُ الكائن الأزلّي والصانعَ للطبيعة على صحةِ أقوالي، وأجعله حَكَمًا بيني وبين إميل، وأعيّن المكانَ الذي نحن فيه، كما أعيّن الصخرَ والغابَ والجبالَ التي تحيط بنا، لتكون آثاراً تذكاريةً لعهودي وعهوده، وأضعُ في عينيّ ولهجتي وحركتي ما أريد إلقاءه فيه من الحماسة والهيمّة. وهناك أكلّمه ويُصغي إليّ، وألِينُ وبهتت، وكلّما تأثرتُ بقُدسِ واجباتي جعلتُ واجباته أكثرَ جلالاً، وأنعشُ قوةَ البرهانِ بالصور والأشكال. ولن أكونُ مُسهياً مطوّلاً في المبادئ الباردة مطلقاً، ولكن غزيراً في المشاعر الزاخرة، وسيكون عقلي رزيناً حكيماً، ولكن مع عدم قول قلمي بما فيه الكفاية مطلقاً. وهناك، حين أطلّعه على كلّ ما صنعتُ من أجله، أطلّعه عليه كأنه صنّع في سبيلي، وسيُصيرُ في عطفِي الرقيق سببَ كلّ رعايةٍ من قبلي. ويا للمفاجأة، ويا للهزّة التي أورتُه إياها بتغيير اللهجة بغتةً! وذلك بدلاً من تضييق روحه بمحادثته عن مصلحته دائماً، ومصلحتي هي التي أكلّمه عنها فيما بعد، فأزيدُ فيه تأثيراً، فألهبُ فؤاده الفتيّ بجميع ما أنبئه من مشاعرِ الألفة والكرم ومعرفة الجميل التي يحلو تعهّدها، وأضُمُّه إلى صدري ساكباً عليه دموع الحنان قاتلاً له: «أنت مالي وولدي وصنّعي، ومن سعادتك أنتظر سعادتي، فإذا ما خابت بك آمالي كنتُ سالباً لعشرين عاماً من عُمرِي، وسبب شقائي في أيامٍ مشيبي.» فعلى هذا الوجه يُحمَل الفتى على الإصغاء، فتُنقَش في سوداء فؤاده ذكرى ما يُقال له.

وقد حاولتُ حتى الآن إعطاءً أمثلةً عن الأسلوب الذي يجب أن يتخذه المُعلّم لتعليم تلميذه في الأحوال الصعبة، وقد حاولتُ أن آتي بكثيرٍ منها في الدّور الحاضر، ولكنني أعدل

عنها بعد كثيرٍ من التجاربِ قانِعًا بأن اللغة الفرنسية هي من التَّفاسَةِ البالغة ما لا تُطِيقُ معه في كتابٍ مطلقًا سداجةَ الدروس الأولى حول بعض الموضوعات.

ويقال إن اللغة الفرنسية أظهُرُ اللغات، وأنا أعتقد أنها أكثرُ اللغات بذاءة؛ وذلك لأن طُهر اللغة كما يلوح لي لا يقوم على اجتناب التعابير القبيحة بعناية، بل على عدم وجودها فيها. والواقعُ أن اجتنابها يستلزم تفكيرًا فيها، ولا يوجدُ كالفرنسية لغةً يصعبُ الكلام فيها بصفاءٍ من كلِّ وجه. وبما أن القارئ يكون دائمًا أكثرَ حذقًا في كشف المعاني البذيئة من المؤلف في إقصائها، فإنه يغمُ من كلِّ شيءٍ ويجفُلُ منه. وكيف يتجنَّب ما يُمُرُّ من آذانٍ قَدِرَةٍ بذاءتها؟ وعلى العكس، ترى للشعب ذي الطَّباعِ الحسنة كلماتٍ خاصَّةً لكلِّ شيءٍ، وتكون هذه الكلمات نزيهةً دائمًا لاستعمالها بنزاهةٍ دائمًا. ويتعدَّرُ أن تتصوَّرَ لغةً أكثرَ حشمةً من لغةِ التوراة لِقولِ كلِّ شيءٍ فيها بسداجة، يكفي أن تُترجمَ عِنُ الأشياءِ إلى الفرنسية لجعلها فاقدة الحشمة. وما يجبُ أن أقوله لإميل لا ينطوي على غير ما هو صالحٌ ظاهرٌ يقرعُ سمعه، ولكنَّ ظهوره هكذا عند المطالعة يقتضي حيازةَ قلبٍ نقيٍّ مثل قلبه.

حتى إنني أرى أنه يُوجد من التأمُّلات حَوْلَ نقاءِ الكلام الحقيقيةِ وحول رِقَّةِ المُنكرِ الزائفة ما يُمكن أن يكون له مكانٌ نافعٌ في المحادثات الخُلُقِيَّة التي يَسُوق إليها هذا الموضوع؛ وذلك لأنه حين يتعلَّم لغة الصلاح يجب أن يتعلَّم لغة الحشمة أيضًا، كما أنه يجبُ أن يعلم السبِّ في كون هاتين اللغتين مختلفتين كثيرًا. ومهما يكن من أمرٍ فإنني أذهب إلى أنه بدلًا من التعاليم الفارغة التي تُقرعُ بها آذانُ الشباب قبل الأوان، والتي يَسْحَرُ الشبابُ منها عندما يبلغ سنَّ الانتفاعِ بها، وإلى أنه إذا ما انتظرت الساعة التي يُستمع فيها وأعدت هذه الساعة، وإلى أنه إذا ما أُطلع على سُننِ الطبيعة بكلِّ ما فيها من حقيقة، وإلى أنه إذا ما دُلَّ على مُؤيِّد هذه السُننِ نفسها في الأضرار المادية والأدبية التي تُصيبُ المذنبين نتيجةً لمخالفتها، وإلى أنه إذا ما حُدث عن سرِّ النسل الذي يتعدَّرُ إدراكه فضُمَّت إلى فكرة الميل الذي أنعم به صانع الطبيعة على ذلك الفعل فكرةً الارتباطِ الحاجِبِ لما سواه والذي يجعل ذلك الفعل لذيذًا جدًّا، وفكرة واجبات الوفاء والحياء التي تحيط به والتي تُضاعِفُ فُتونه بإتمامه غرَضَه، وإلى أنه إذا ما وُصِف له الزواج على أنه أقدس العقود وأكثرها حُرمةً فضلًا عن كونه أحلى المعاشرات، فقيلت له بقوة جميع الأسباب التي تجعلُ هذه العُقُدة الكثيرة الفُتُس محترمةً عند جميع النَّاس والتي تغمُرُ بالمقمت واللعنة كلَّ مَنْ يجرؤ على تدنيس قَداستها، وإلى أنه إذا ما رُسِمَت له لُوحَةٌ بارزةٌ صادقةٌ عن قبائح

الفسوق وعن خياله الأرعن وعن الميل غير المحسوس المؤدّي إلى جميع الدّعارات بالدّعْرِ الأوّل والذي يوجب خُسرانَ من يتعاطاها في نهاية الأمر، وإلى أنه إذا ما أُطلع بوضوح - كما أقول - على أن الصحة والقوة والشجاعة والفضائل، حتى الحُب، وجميع منافع الإنسان الحقيقية، أمورٌ تتوقّف على الرغبة في الطُّهر، أذهب إلى أنه يُجعلُ له إذ ذاك ذلك الطُّهر العزيرُ المنشود، وأنه يظهرُ ذا ذهنٍ منقادٍ لما يُعطاه من الوسائل حِفْظًا لذلك الطُّهر، وذلك أنه كلُّما حُفِظَ احترَم، وهو لا يُردى إلا بعد ضياعه.

ومن غير الصحيح مطلقًا أن يكون الميل إلى الشر أمرًا لا يُقهر، وأن الإنسان لا يكون قادرًا على قهره قبل أن يتعود الوقوع فيه، ويقول أورليوس فيكتور إن رجالًا كثيرًا أفقدهم الحُبُ رشدهم، فاشترّوا بحياتهم ليلًا من ليالي كليوباترة مختارين، وأن هذه التضحية ليست من المُحال على تَمَلِ الهوى، ولكن لفترض أن أكثرَ النَّاسِ هياجًا وأقلهم سيطرةً على شهواته يَرى جهازَ العقاب موقنًا بأنه سيَهلك به مع التَّكال بعد رُبع ساعة؛ فهذا الرجل يصيرُ أرفعَ من كلِّ إغواءٍ منذ هذه الدقيقة، حتى إنه لا يلاقي غيرَ قليلٍ في مقاومته، وذلك أن ما يلازم ذلك الإغواء من خيالٍ كرهه يصرفه عنه من فوره، وذلك أنه يعتبري ذاك الإغواء الذي يُخمدُ دائمًا كالألِّ فلا يعاوده، وهذا هو فتورُ إرادتنا الوحيد الذي يُوجبُ جميعَ ضَعْفِنَا، ونحن من القوة دائمًا ما نصنع معه ما يُرادُ بقوّة «فلا شيء يصعب على الإرادة القوية». آه! لو كُنَّا نزدري المنكر بمقدار ما نُحِبُّ الحياة، ونحن نمتنع عن اقتراف ذنبٍ لذيذٍ امتناعنا عن تناول سُمِّ قاتلٍ في طبقٍ لذيذٍ.

وكيف لا يُرى أن جميعَ الدروس التي تُلقَى على الفتى إذا كانت غيرَ ناجحة، فذلك لعدم ملاءمتها لسنّه، فيكونُ من المهمّ في كلِّ دورٍ من أدوار العُمُر أن يُكسى العقلُ أشكالًا تجعله محبوبًا، فخطابوه باتّزانٍ عند الاقتضاء. ولكن ليكن ما تقولون له من الجاذبية في كلِّ وقتٍ ما يحمله على الإنصات لكم، ولا تكافحوا ميوله بحفاء، ولا تخنثوا خياله، وكونوا أدلاءً لهذا الخيالِ خشيةً أن يلدَ غيلاً. وحدّثوه عن الحُبِّ والنساء والملاذِّ، واصنعوا ما يجدُ معه في حديثكم فتورًا يُدارى به قلبه الفتي، ولا تدخروا وسعًا حتى تُصبحوا نجياً له، وليس بغيرِ هذا ما تغدون سيّدًا له حقًا، وهنالك لا تخشوا بعدُ أن تورثه أحاديثكم سأمًا؛ فهو سيحملكُم على الكلام أكثرَ مما تريدون.

ولا أشكُّ ثانيةً في أنني إذا عرفتُ اتخاذَ جميعِ التحفُّظاتِ الضرورية حول هذه المبادئ، وخاطبتُ إميلَ بكلامٍ ملائمٍ لما يُفترضُ انتهاؤه إليه بتقدّم السنين، فإنه يأتي من تلقاء نفسه إلى النقطة التي أوّدُ سوقه إليها، فيضع نفسه تحت ظلي بهمةٍ ويكلّمني بكلِّ ما عليه عُمره من حرارةٍ

متأثراً بالأخطار التي يرى نفسه مُحاطاً بها، قائلاً: «أي صديقي وظهيري ومعلمي، استرِدَّ السلطان الذي تريد أن تتخلَّى عنه في الحين الذي يكون أكثر ما يُهمُّني بقاؤه لك، وأنت لم تحزّه حتى الآن بغير ضَعْفِي، وستحوِّزُه الآن بإرادتي، وسيكون لديّ أقدس ما يُمكن، واحفظني من جميع الأعداء الذين يحيطون بي، ولا سيِّما الذين أحملُ معي فيخونوني، واسهِّرْ على مَنْ صنعت حتى يبقى جديراً بك، وأريد إطاعة قوانينك، وأريد هذا دائماً، وهذه إرادتي الثابتة، وإذا ما عصيتك كان هذا على الرغم منِّي، واجعلني طليقاً بوقاييتي من أهوائي التي تغصِّبني، وحُلْ دون كوني عبداً لها، والرِّمِّي بأن أكون سيِّد نفسي بعصيانِي أهوائي، لا عقلي.»

وإذا ما جلبتم تلميذكم إلى هذه النقطة (ويقع الدُّنْب عليكم إذا لم يأت إليها)، فاحترزوا من الإسراع في مؤاخذته على الكلمة، وذلك خشيةً أن يظَهَرَ سلطانتكم له جافياً جدًّا فيرى من حقِّه أن يتخلَّص منه متَّهماً إياكم بأنكم أخذتموه على حين غفلة، وذلك هو الوقت الذي يكون فيه التحفُّظ والوقار في محلِّهما، وسيكون هذا الوضع أكثر ما يُمكن تأثيراً فيه إذا ما اتخذتموه نحوه أوَّل مرة.

ولذا فستقولون له: «أنت تُلزم نفسك أيها الفتى إلزاماً خفيفاً بتعهُّداتٍ شاقَّة، ولا بدَّ من معرفتها قبل أن يكون لك حقُّ صَوِّغها، وأنت لا تعرف بأية صَوْلَةٍ تُسوق الأهواء أمثالكَ إلى هُوَّة المُنكرات تحت جواذب اللذة، وأعرِف جيِّداً أنك لست صاحبِ نفسٍ دنيئة، وأنك لن تنقُص عهدك، ولكن ما أكثر ما يُمكن أن يكون من نَدَمك على إعطائك إياه! وما أكثر ما ستلعنُ صديقك الذي يَجِدُ أنه مضطَّرُّ إلى كسرِ قلبك حِفْظاً لك من الآثام التي تهْدِّدك! وستكون مثلُ أوليس الذي حَرَّكه غِناءُ سيرِن فصاح بمُجدِّفي قاربه لفلَك قيوده، فريدُ كَسْرِ الأغلال التي تُضايقك عن إغواء جاذبية الملائدِّ لك. وستزعجني بعويلك، وستلومني على استبدادك حينما أكون أكثر ما يُمكن أكثراناً لك مع الرِّقة، وسأجلب مقتك إلى نفسي مع عدم تفكيرِي في غير سعادتك. ويا إميل، لن أطيع مطلقاً ألم كوني مكروهاً لديك، حتى إن سعادتك غاليةً كثيراً بهذا الثَّمَن. أوَّلَا ترى أيها الفتى العزيز أنك إذا ما أكرهت نفسك على إطاعتي أكرهتني على قيادتك، وعلى نسيان نفسي وُقفاً لها عليك، وعلى عدم الإنصات لِتَوْجِعِكَ وتَذمُّرِكَ، وعلى مكافحة ميولك وميولي بلا انقطاع؟ وأنت تفرِّض عليَّ نيراً أقسى من نيرك، فلننزِ قُوانا قبل حَمَلِهما، وحُدِّ فرصةً للتفكير وأعطني مثلها، واعلم أن أبطأ ما يُوعَدُّ هو أصدق ما يُنجِز.»

واعلموا أيضاً أنكم كلِّما جعلتم العهدَ صعباً سهَّلَ تنفيذه، والمهمُّ في أن يشعُرَ الفتى بأنه يعدُّ كثيراً وبأنكم أكثر منه وعدًّا، ومتى حلَّ الوقتُ وأمضى العقدُ فغيِّروا اللهجةَ وضَعُوا من الحِلْمِ

في سلطانكم ما يَعْدِلُ الشَّدَّةَ التي أعلنتم، وقولوا له: «أي صديقي العزيز، تُعَوِّزُكَ التجرِبة، ولكنني صنعتُ ما لا يُعَوِّزُكَ العقلُ معه، وأنت في حالٍ تُبَصِّرُ بها سلوكي من كلِّ وَجِه؛ ولذا فليس عليك غيرُ الانتظارِ هادئٍ البال. وابدأ بالطاعة دائماً، ثُمَّ اطلب حساباً عن أوامري، وسأكون مستعداً لتقديره إليك عندما تكون مستعداً للإصغاء إليّ، ولن أخشى اتخاذك حكماً بيني وبينك. وأنت تعدُّ بأن تكون طائعاً، وأنا أعدُّ بالألأ أستعمل هذه الطاعة إلا لأجعلك أسعد النَّاس، واتَّخِذِ النَّصِيبَ الذي تمتعت به حتى الآن ضامناً لوعدي، ودلّني على واحدٍ من لذاتك قضي حياةٍ حُلُوَّةٍ مثل حياتك، ولا أعدُّك بخيرٍ من هذا.»

وسِكُونُ أَوَّلِ ما أُعْتِنِي به بعد إقامة سلطاني هو أن أُعِدَّ ضرورةً استعمالِي له، ولن أدخِرَ وُسْعاً بأن أكون محلّاً ثقته بالتدريج، وبأن أكون نَجِيّ فؤاده وحكمَ ملاذّه مقداراً فمقداراً، وسأنتجّب مكافحة ميولِ سنّه مستطلعاً إياها كيما أُسَيِّطِرُ عليها، وسأنظر إلى الأمور من حيث وَجْهاتُ نظره حتى أوجَّهها، ولن أبحث له عن سعادةٍ بعيدةٍ على حسابِ الحاضر، ولا أريدُ أن يكون سعيداً لَمَرَّةٍ واحدةٍ مُطلقاً، بل ليكون سعيداً دائماً إذا كان هذا ممكناً.

ومن يودُّ توجيهَ الشبابِ بحكمةٍ حَفِظاً له من أشراكِ الأهواءِ يَحْمِلُه على مقتِ الغرام، ويجعل لمن في سنّه جُرْماً من التفكيرِ فيه، كما لو كان الغرام قد صُنِعَ للشَّيْب. وما كانت جميعُ هذه الدروس الخادعة التي يُكذِّبُها القلبُ لِثِقَنٍ مُطلقاً. وفي السَّرِّ يَضْحَكُ الشابُّ المُسَيَّرُ بغريزةٍ أكثرَ صدقاً من المبادئ الكئيبة التي يتظاهر بقبولها، ولا ينتظرُ غيرَ الساعة التي يَبْدُأُ فيها. وكلُّ هذا مخالفتٌ للطبيعة، وأبْلَغُ عَيْنِ الهدفِ على وَجْهِ أكثرَ ضمناً إذا ما سَلَكَتُ سبيلاً معاكساً. ولن أخشى مُطلقاً أن أداري فيه ما هو مُولَعٌ به من إحساسٍ حُلُو، وسأصوِّره له مثلَ سعادةٍ للحياةِ ساميةٍ؛ وذلك لأنه هكذا بالحقيقة، وإني إذُ أصوِّره له أريدُ أن ينهمك فيه، وإني إذُ أشعرُه بما يُضيفُ اتحادَ القلوب من فتونٍ إلى جواذبِ الهوى، أوحى إليه بالنفور من الفُجور، فأجعلُه حكيماً إذُ أجعلُه عاشقاً.

ويا لَمَّا يجبُ أن يكون من ضيقِ الذهنِ حتى لا يُبَصِّرَ في الميولِ الناشئة للفتى غيرُ عوائقٍ لدروس العقل! وأمّا أنا، فأرى فيها وسيلةً صحيحةً لجعله منقاداً لهذه الدروس عينها. ولا يُسَيِّطِرُ على الأهواءِ بغيرِ الأهواءِ، ويجبُ أن يُكافِحَ استبدادُ الأهواءِ بسلطانِ الأهواءِ، ويجبُ أن تُسْتَخْرَجَ الأدواتُ الصالحةُ لتنظيمِ الطبيعة من الطبيعة نفسها.

ولم يُصنَعِ إميلُ لِيَبْقَى وحيداً دائماً، وهو عُضُوٌّ في المجتمع، فيجبُ أن يقومَ بواجباته، وهو قد صُنِعَ ليعيش مع النَّاسِ، فيجبُ أن يَعْرِفَهُم، وهو يَعْرِفُ الإنسانَ على العموم، فبقي عليه

أن يَعْرِفَ الأفراد، وهو يَعْرِفُ ما يُصْنَعُ في العالم، فيبقى عليه أن يرى كيف يعيش النَّاسُ فيه. وقد أنى وقتُ إطلاعه على وجه هذا المسرح العظيم الذي عَرَفَ جميعَ أعبائه الخفيفة، وقد عاد لا يَحْمِلُ إليه ما يَصْدُرُ عن الفتى الطائش من إعجابٍ سخيف، بل يَحْمِلُ إليه إدراكُ ذهنٍ مستقيمٍ صائبٍ. ولا رَيْبَ في إمكانِ مخادعةِ أهوائه له. ومتى كانت هذه الأهواءُ لا تَخْدَعُ مَنْ يَنقَادون لها؟! ولكنه لا يُخْدَعُ مطلقاً بأهواء الآخرين على الأقل، وهو إذا ما أبصرهم أبصرهم بعين الحكيم، وذلك من غير أن يُجَرَّ بأمثلتهم، ومن غير أن يُغْوَى بمُبْتَسراتهم.

وكما أنه يُوجَدُ عُمرٌ صالحٌ لدراسة العلوم يوجد عُمرٌ صالحٌ لإدراكِ عُرْفِ العالم، ومن يتعلَّم هذا العُرْفَ في فتاته الباكر يتبعه مدى حياته بلا خيارٍ ولا تأمُّل، ومن غير أن يَعْرِفَ جيِّداً ما يفعل مطلقاً، وإن كان مع الجدارة، ولكن الذي يتعلَّمه ويرى أسبابه يتبعه بتمييزٍ أكثر من ذاك؛ ومن ثمَّ يتبعه بسدادٍ وكياسةٍ أكثر من ذاك. وأعطوني ولداً في الثانية عشرة من سنه غير عارفٍ شيئاً، فإذا ما بلغ الخامسة عشر من عُمره وَجَبَ عليَّ أن أُعيدَه إليكم عالمًا يمثل ما عليه الولد الذي علَّمتموه منذ الدُّور الأوَّل من العُمُر، وذلك مع الفارق القائل إن معرفة ولديكم لا تكون في غير ذاكرته ومعرفة ولدي تكون في تمييزه. وكذلك أَدْخُلُوا إلى العالمِ فتى ابناً للعشرين من عُمره، فإذا ما أَحْسَنَ تسييره كان في عامٍ واحدٍ أكثرَ أنسًا وأعظمَ تهذيبًا مع الحصافة من ذاك الذي عُذِّيَ بذلك منذ صباه؛ وذلك لأن الأوَّل إذ يكون قادرًا على الشعور بأسبابِ جميعِ الأساليب الخاصة بالعُمُر والحال والجنس، أي بالأمور التي تتألف منها تلك العادة، فإنه يستطيع أن يَرُدَّ هذه الأمورَ إلى مبادئ، وأن يجعلها شاملةً لأحوالٍ غير منتظرة، وذلك على خلاف الآخر الذي ليس عنده غير رُتينه^{٤٠*} حول كلِّ قاعدةٍ فيرتبك فورَ خروجه منه.

وَيْشَأُ جميعُ الأوانسِ من الفرنسيات في الأديار حتى يُرَوِّجن، وهل يُرى أنهن يَجِدُن إذ ذاك مشقَّةً في اتخاذ تلك الأوضاع التي يُبَصِّرُنَهَا بالغة الجِدَّة؟ وهل يُتَّهَمُ نساءُ باريسَ بعدم اللباقة وبالتردُّد ويجهل ما اصطَلَحَ عليه العالمُ لأنهنَّ لم يتعلَّمنه منذ صباهن؟ يأتي هذا المُبْتَسِر من رجال العالم الذين لا يَعْرِفون شيئاً أهمَّ من ذلك العلمِ التافه، فيُخَيَّلُ إليهم زوراً أن من غير الممكن تحصيله بسرعة.

والحقُّ أنه لا يجوز الانتظارُ طويلاً، ومن يَقْضِ جميعَ شبابه بعيداً من العالم الأكبر يَحْمِلُ إليه في بقية حياته تردُّداً واقتساراً وقصداً بلا داعٍ دائماً وأوضاعاً ثقيلةً خُرْقاً، فيعود غير قادرٍ على

٤٠ * La routine.

التخلُّص منها بعادة العيش في ذلك العالم، ولا يَنال غيرَ مَظَهَرٍ جديدٍ من السخرية بما يبذل من جُهْدٍ للخلاص منها. ولكلِّ نوعٍ من التعليم زمانه الخاصُّ الذي يجب أن يُعرَف وأخطاره التي يجب أن تُجْتَنَّب، وتتجمَّع الأخطارُ في هذا الدَّور من العُمُر على الخصوص، ولكنني لا أعرِّض لها تلميذي من غير احتياطٍ لوقايته منها.

ومتى أصاب منهاحي عَيْنَ الهدف من جميع الوجوه، ومتى دَفَعَ محذورًا فَمَنَعَ من وقوع محذورٍ آخر، حكمتُ بأنه صالح، وبأنني على الحق، وهذا ما يَظْهَرُ أنني أبصِرُهُ في الطريقة التي يوحى إليَّ بها هنا. وإذا أردت أن أكون صارمًا جافيًا مع تلميذي، أضعتُ ثقته، وتوارى عني من فوره، وإذا أردتُ أن أكون ياسرًا سهلًا أو متغاضيًا، فما يكون نفعه من وجوده تحت حراستي؟ لا أكون صانعًا غير إجازة فحوره وترويح ضميره على حساب ضميري. وإذا ما أدخلته إلى العالم عازمًا على تعليمه فقط، فإنه يتعلَّمُ أكثر مما أريد، وإذا ما أبعدته عن العالم حتى النهاية، فما يكون قد تعلَّم منِّي؟ كلُّ شيءٍ على ما يُحتمل، وذلك خلا لألزمٍ فنَّ للإنسان والمواطن؛ أي معرفة السلوك مع أمثاله. وإذا ما وَسَمْتُ هذه العنايةات بفائدة بعيدة كثيرًا كانت هذه الفائدة هباءً منثورًا؛ فالحاضر هو ما يلتفت إليه. وإذا ما اقتصرْتُ على تزويده بالألهُوات، فما الخير الذي أكون قد صنعتُ له؟ إنه يَحْتَنُ ولا يتعلَّمُ مُطلقًا.

لا شيءٍ من كلِّ ذلك، وطريقتي تتلافى جميع ذلك، وأقول للفتى: يحتاج فؤادك إلى رقيقة، فدعنا نذهب للبحث عن التي تلائمك، ومن المحتمل ألا تجدها بسهولة؛ فالمرزبة الحقة نادرة دائمًا، ولكننا لا نستعجل ولا نخيب أبدًا. ولا مرء في وجود واحدة من هذا الطراز، وأنا سنجدها في آخر الأمر، أو نجد واحدة قريبة منها كثيرًا على الأقل. فبهذا العزم المُدالي له أدخله إلى العالم، وما احتياجي إلى قول أكثر من هذا؟ ألا ترون أنني قمتُ بكلِّ شيء؟

ويمكنكم حين أصِفُ له الخليفة التي أعدها له أن تتصوِّروا هل أستطيع إسماع نفسي، وهل أستطيع جعل الصفات التي يجب أن يُحبَّ مقبولةً لديه عزيزةً عليه، وهل أستطيع أن أهَيَّ جميع مشاعره لما يجب أن يبحث عنه أو يفِرَّ منه، وأعدُّ أخرق النَّاس إذا لم أجعله مولعًا مُقدِّمًا من غير أن يَعْرِف مَنْ هي، وليس من المهم أن يكون الشخص الذي أصِفُ له خيالًا؛ فيكفي أن يَنقَرَهُ ممن يُمكن أن يُعوِّيه، ويكفي أن يُلاقِي في كلِّ مكانٍ مقارناتٍ تجعله يُفضِّلُ خياله على الأشخاص الحقيقيين الذين يَقِفون نظره. وما الغرام الحقيقي إن لم يكن خيالًا وميَّنًا ووَهْمًا؟ تُحِبُّ الصورة التي تُتَخَيَّلُ أكثرَ جدًّا من الشخص الذي تُطَبِّقُ عليه. وإذا ما نُظِرَ إلى الشخص الذي

يُحِبُّ كما هو عليه عاد لا يكون في الدنيا حُب، وإذا ما كُفَّ عن الحُبِّ بقيَ الشخصُ الذي يُحِبُّ هو عينه كما كان سابقاً، ولكنه عاد لا يَرى كما كان يرى. والواقعُ أنني إذ أُزَوِّدُ بالشخصِ الخياليِّ أكون مسيطراً على المقارنات مانعاً بسهولةٍ من الوهمِ حَوْلَ الأشخاصِ الحقيقيين.

ولا أريدُ للوصول إلى هذا أن يُخادَعِ الفتى بأن يُصوِّرَ له نموذَجَ من الكمال لا يُمكن أن يوجد، ولكنني أبلغُ من اختيارِ معايِبِ خليلته ما يلائمه وما يروقه فيَنفَعُ في إصلاحِ معايبه، وكذلك لا أريدُ أن يُكذَّبَ عليه مُوكِّداً زوراً كَوْنِ الشخصِ الذي يُصوِّرُ له موجوداً. ولكن الصورة إذا ما طابث له لم يَلْبَثْ أن يتمي لها أصلاً، ويسهلُ قَطْعُ المسافة بين التمي والافتراض، وهذا من عَمَلِ بعض الأوصاف اللبقة التي تُسبغُ على هذا الشخصِ الخياليِّ مَسْحَةً كبيرةً من الحقيقة تحت صفاتٍ أكثرَ وضوحاً، وأبعدُ فأذهبُ إلى حدِّ تسميته، فأقول ضاحكاً: دَعْنَا نَدْعُ خليلتك القادمة صُوفِيَّةً، وصوفيَّةُ اسمٌ ميمون، ولو كانت التي ستختارُ غيرَ حاملة لهذا الاسم لكانت جديرةً بحمله على الأقل؛ ولذا يُمكننا أن نُكرِّمها به سلفاً. ولو كُنَّا بعد جميع هذه التفاصيل قد تفلننا بأعذارٍ ومن غيرِ تصديقٍ ولا إنكارٍ لنحولتُ ربيبه إلى يقين، ولأعتقد أنه يُنسجُ له سرٌّ حَوْلَ الزوجة التي تُعدُّ له وأنه سيرها متى أتى له ذلك، وهو إذا ما انتهى إلى هذه النتيجة ذات مرة وأحسن اختيارُ الأوصاف التي يجب إطلاعُه عليها سهلٌ كلُّ ما بقي، فأمكنَ عَرْضُه على العالم بلا خطِّ تقريباً، وإنما صُوِّتوه من حسِّيَّاته ليطمئن قلبه.

ولكن، سواءً عليه أشخصَ النموذج الذي استطعتُ أن أُحِبَّه إليه أم لم يُشخصه، لا يقلُّ رِبْطُ هذا النموذج إياه عند إتقانِ صنعه بكلِّ من يُشابهه، ولا يقلُّ إبعاده إياه من كلِّ من لا يُشابهه، كما لو كان شخصاً حقيقياً. ويا للخير في وقاية قلبه من الأخطار التي يُعرضُ لها شخصه، وفي زَجْرِ حسِّيَّاته بخياله، وفي نزعهِ على الخصوص من هؤلاء الواهبات للتربية اللاتي يُقدِّمنها عالية الثمن، واللاتي لا يُعلِّمن الفتى أدباً إلا بِخَلْعِهِنَّ منه كلَّ عِدَارٍ! ويا لحياءِ صُوفِيَّةِ البالغ! فبأيِّ عَيْنٍ تَنْظُرُ إلى ما يُقدِّمن؟ ويا لبساطةِ صُوفِيَّةِ الكثيرة! فكيف تُحِبُّ ظواهرهن؟ إنهن بعيداتٌ من أفكاره وترصدياته، فلا يَكُنَّ حَطَرَاتٍ عليه مُطلقاً.

ويَتَّبِعُ جميعَ مَنْ يتكلمون عن حكومة الأولاد عَيْنَ المُبْتَسراتِ وعَيْنِ المبادئ، وذلك عن سوءِ رقابة، وعن سوءِ تأمُّلٍ أيضاً، وبالرأي يبدأ ضلالُ الشباب، لا بالمزاج ولا بالحسِّيَّات. ولو بحثتُ هنا عن الفتيان الذين يُنشئون في الكليات وعن الفتيات اللاتي يُنشئن في الأديار، لأظهرتُ صحةً ذلك حتى من ناحيتهم؛ وذلك لأن الدروسَ الأولى التي يتلقاها أولئك وهؤلاء،

وهي الدروسُ الوحيدة التي تُثَمِّر، هي دروسُ المُنكرِ والقُدوةِ - لا الطبيعة - هي التي تُفسدُهم، ولكن لنتركُ لتلاميذ الكليات والأديار أخلاقهم الفاسدة لتعُدِّر إصلاحهم دائماً، فلا أتكلّم عن غير التربية المنزلية. وتناولوا فتى نُشئُ تنشئةً حسنةً في بيتِ أبيه بالملحقات. وابتحنوا في أمره حين وصوله إلى باريس أو دَعُوهُ يَدْخُلُ المجتمع، تجدوه مُفكِّراً في أمورٍ صالحةٍ كثيرة، صاحباً لعزمٍ سليمٍ وعقلٍ مستقيم، وتزوّه مزدرباً للمنكر كارهاً للفجور، وتُصِرُوا في عينيه دليلَ الطُّهر عند ذكرِ أية مُومس، وأرى أنه لا يُوجدُ فتى يُمكنُ أن يَعزِمَ على الدخول بمفرده منازلَ هؤلاء الشقيّات الكئيبة، ولو كان عالماً بعاداتها شاعراً بالحاجة إليها.

ثمَّ ارجِعُوا البصرَ إلى الفتى عينه بعد ستة أشهر لتروا أنكم عُدُّتم غيرَ عارفين إياه، وذلك أن ما يكون من أحاديثه الجريئة ومبادئه العصرية وأوضاعه الطليقة يَحْمِلُ على عَدِّه إنساناً آخر، وذلك لولا أن فكاهاته حَوَّلَ بساطته الأولى وما يعتربه من خجلٍ حين تذكيره بها تَدُلُّ على أنه هُوَ هُو، وعلى أنه يَسْتَحِي من نفسه. وَي! ما أكثرَ ما تَحَوَّلَ في وقتٍ قليل! ومن أين يأتي هذا التغيير الكبير المفاجئ؟ يأتي من نشوء المزاج، أو ما كان يَتَّفِقُ لمزاجه ذات التقدّم في المنزل الأبوي؟ لا ريبَ أنه ما كان لِيَتَّخِذَ ذات الصَّبغة ولا ذات المبادئ، أملاًد الحواسِّ الأولى؟ إنه إذا ما أُخِذَ على العكس في تعاطي ذلك اتَّصِفَ بالجَزَع والهَلَع، واجتنبَ التُّور والوضوء. وتكون الشهوات الأولى حافلةً بالأسرار دائماً، وتُتَبَّلها الحياءُ ويستزها، ولا تَصْنَعُ الخليفة الأولى ماجناً، بل تصنع خجولاً. ويستغرقُ هذا الوضع التامَّ الجِدَّةَ جميعَ الفتى، فيجَمَعُ حواسه ليتمتع به، فيرتجف دائماً خشيةً أن يُضَيِّعه، ولو كان صَحَابًا ما كان شَهْوَانِيًّا ولا ناعماً، ولا يُعَدُّ متمتعاً ما دام مُتَبَجِّحًا.

وللتفكير وجوهٌ أخرى نشأت هذه الفروق عنها وحدها، ولا يزال فؤاده كما هو، ولكن آراءه تغيّرت، وتفسدُ أحاسيسه بأبطأ من فسادِ آرائه، وهي تفسدُ بهذه الآراء في آخر الأمر، وهنالك فَقَطُ يكون فاسداً حقاً، وهو لا يكادُ يَدْخُلُ المجتمع حتى يتلقَى فيه تربيةً ثانيةً مُباينةً للأولى، فيتعلّم بها ازدياءً ما كان يُقَدِّر، ويُقَدِّرُ ما كان يزدري، أي إنه يُعَدُّ دروسَ والديه ومعلِّميه رطانةً حَذَلقة، ويُعَدُّ ما يعطونه به من واجباتٍ علماً صيبانياً في الأخلاق لا معدّل له عن الاستهانة به بعد أن صار كبيراً. وهو يعتقد اضطراره إلى تغيير سلوكه عن شرف، فيغدو جريئاً مع النساء بلا رغبةٍ ومزهُوًّا عن حياءٍ سيئ، وهو يهزأ بصالح الطبائع قبل أن يذوق فاسدها، وهو يفاخر بالدعْر من غير أن يكون داعراً. ولن أنسى اعترافَ ضابطٍ شابٍّ في الحرس السويسري، كان يتبرّم كثيراً من لهو رفقائه الصاحب، فلا يجرؤ على رفض الاشتراك فيه خشيةً استهزائهم به، وقد قال: «انني

أتمرن على هذا كما أتمرن على تعاطي التبغ مع ما يساورني من نفور، ويأتي الذوق بالعادة، فلا يجب أن يبقى الإنسان صبيًا دائمًا.»

وهكذا، فإنه يجب صون الفتى الداخل في المجتمع من الزهو أكثر من الشهوة؛ فالفتى يدعن لميول الآخرين أكثر من إذعانه لميول نفسه، ويصنع حُب النفس فُجَارًا أكثر مما يصنع الغرام.

وأسأل بعد بيان ذلك: هل يوجد في العالم بأجمعه إنسان كتلميذي، مُسلِّح تجاه كل ما يُمكن أن يُهاجم أخلاقه ومشاعره ومبادئه، قادر على مقاومة السيل؟ وذلك تجاه أي إغواء لا يكون مدافعًا؟ فإذا كانت ميوله تسوقه إلى الجنس الآخر لم يجد فيه من يبحث عنها، ويُمسكهُ فؤاده المهموم، وإذا كانت حواسه تُحرِّكه وتُخذت قلبه، فأين يجد ما يقضي به وطرها؟ يقصيه مقته للزنى والفجور عن المومسات والمتزوجات على السواء، ويبدأ فسق الشباب مع أي من هذين الفريقين دائمًا. أجل، قد تكون الفتاة الصالحة للزواج مغناجًا، ولكنها لا تكون خالعة العذار، وهي لا تذهب إلى لقاء رأسها على فتى يُمكن أن يتزوجها إذا ما اعتقد حسن سلوكها، ثم إنها تجد من يقوم براقبتها، وكذلك إميل لن يُؤكل إلى نفسه تمامًا، وسيجدان في الخوف والحياء على الأقل رقيبين ملازمين للميول الأولى، فلا ينتقلان إلى آخر الدلال بغتة، ولا يكون لديهما من الوقت ما يتيانه بالتدريج من غير عقبات، ولا بد لسلكه غير هذا السبيل من أن يكون قد تلقى درسًا مع رفقائه فتعلم منهم أن يسخر من زجر نفسه وأن يصير ماجنًا على غرارهم. ولكن أي إنسان في العالم يكون أقل من إميل تقليدًا؟ وأي إنسان يكون أقل تأثرًا بالسخرية من هذا الذي ليست لديه مُبتسرات، ولا يستطيع أن يخضع لمُبتسرات الآخرين؟ لقد عملتُ عشرين عامًا في تسليحه ضد المستهزين، وهم يحتاجون إلى أكثر من يوم واحد حتى يُغرَّ بهم؛ وذلك لأنه يرى المهزأة في برهان الأغبياء، ولأنه لا شيء يجعل الإنسان غير متأثر بالسخرية سوى وجوده فوق المُبتسر، وهو يحتاج إلى براهين بدلًا من الفكاهات. ولا أخشى أن ينزع الفتيان المجانين مني ما وقف عند ذلك الحد؛ فالضمير والحقيقة هما ما أبصر بجاني، وإذا ما وجب تدخُّل المُبتسر في الأمر كان تعلق عشرين عامًا شيئًا يُذكر أيضًا؛ فلن يوجد من يقنعه بأني أورثته سأمًا بدروس فارغة. ومن شأن صوت الصديق المخلص الصادق أن يمحو في القلب المستقيم الحساس كل أثر لأصوات عشرين من الغاوين. وبما أن الأمر يدور حصرًا حول إطلاعه على مخادعتهم له، وعلى أنهم حين يتظاهرون بمعاملته مثل رجل يعاملونه مثل ولدٍ بالحقيقة، فإنني أتظاهر بالبساطة ولكن مع الاتزان والوضوح في براهيني، وذلك كيما يشعر بأني أنا الذي يعامله مثل رجل، فأقول له: «تري أن مصلحتك الوحيدة التي هي مصلحتي هي التي تُملي

عليّ كليبي، ولا يُمكنني أن أصنع غير ذلك، ولكن لِمَ يُريدُ هؤلاء الفتيان إقناعك؟ ذلك لأنهم يريدون إغواءك، وهم لا يحبُّونك مُطلقًا، وهم لا يُبالون بك مُطلقًا، ويقوم داعيهم الوحيد على غيظهم الخفي من كونك أفضل منهم، فيودُّون لو يُنزلونك إلى مستواهم الحقيق، وهم لا يلومونك على خضوعك للرقابة إلا ليسيروا عليك بأنفسهم. وهل يُمكنك أن تعتقد وجود كسبٍ لك في ذلك التحوُّل؟ وهل بلِّغوا من سُمِّ الدراية ما بلغت إذن؟ وهل ولَّع يوم واحدٍ أقوى من ولَّعي؟ لا بُدَّ لهم من القدرة على إعطاء وزنٍ لسلطانهم حتى يُقام وَزَنٌ لسُخريتهم، وأية تجربةٍ اتفقت لهم رفعةً لمبادئهم فوق مبادئنا؟ هم لم يصنِّعوا غير تقليد طائشين آخرين، فتراهم يُريدون أن يُقلِّدوا بدورهم، وهم يريدون أن يجعلوا أنفسهم فوق مُبتسرات آبائهم، فتراهم يُخضعون أنفسهم لمبتسرات رفاقهم. ولا أُبصرُ ما يكسبون من هذا مُطلقًا، ولكني أُبصرُ أنهم يخسرون به فائدتين عظيمتين لا ريب، وهما: فائدة العطف الأبوي الذي يكون ما يصدر عنه من نواحي لِيَنَّا صادقًا، وفائدة التجربة التي تَحْمِلُ على الحكم في الأمور بما هو معروف؛ وذلك لأن الآباء كانوا أولادًا، ولم يكن الأولاد آباء.

ولكن أتظنُّ أنهم مخلصون في مبادئهم الخُمق على الأقل؟ ولا هذا أيضًا يا إميل العزيز؛ فهُم يَخْدعون أنفسهم ليخدعوك، وهم ليسوا على اتفاقٍ مع أنفسهم، ويكذبهم فؤادهم دائمًا، ويناقضهم لسانهم غالبًا، ومنهم هذا الذي يُحوَّل إلى سُخريةٍ كلِّ ما هو صالحٌ مع اليأس من تفكير زوجته مثله، ومنهم ذلك الذي يبلِّغ من عدم الاكتراث للأخلاق ما يجعله شاملًا لزوجته القادمة، أو إنه يبلِّغ من الانغماس في العار ما لا يكثرث معه لسلوك زوجته. ولكن تقدِّم إلى الأمام، وحدِّثه عن أمه، وانظر هل يوافق أن يُعامل ابنًا لزانيةٍ وامرأةٍ سيئة السلوك، فيحمل اسمًا زائفًا لأسرةٍ ويسرق تراثٍ وارثٍ شرعي؟ أي هل يُطبق أن يُعامل مثل نَعْلٍ؟ ومن منهم يُريد أن يرُدَّ على ابنته عارًا غَمَرَ به بنت رجلٍ آخر؟ ولم يوجد واحدٌ منهم لم يعتد حتى على حياتك إذا ما انتحلت معه في ميدان العمل جميع المبادئ التي يبذل وُسْعَه في منحك إياها. وهكذا فإنهم يُبدون تناقضهم، فيعلم أن كلَّ واحدٍ منهم يقول ما لا يعتقد، وهذه براهينٌ يا إميل العزيز، ففكِّر في براهينهم إذا كان عندهم برهان، ثمَّ قارن بينها وبين براهيني، ولو أردتُ أن أستعين بالازدراء والهزوء كما يستعينون لرأيهم يُسلمون أنفسهم إلى السخرية كما أُسلمُ أو أكثر، ولكنني لا أخشى الاستقصاء الجدي؛ ففوز المستهزئين قصيرُ الأجل، وتبقى الحقيقة، ويزول صِحَّكُهم المخالفُ للصواب.»

ولا تتصوِّرون كيف يُمكن إميل البالغ من السنِّ عشرَ سنين أن يكون طائعًا، وبما للاختلاف في تفكيرنا! ولا أدرك كيف أمكنه أن يكون طائعًا ابنًا للعاشرة من سنيه، وأيُّ سلطانٍ يكون لي

عليه في ذاك العُمُر؟ لقد بذلتُ جهودَ خمسِ عشرةَ سنةً لوقاية هذا السلطان، ولم أنشئه في ذلك الحين، بل كنت أَعِدُّهُ لِيُنشَأُ، والآن بلغ من التنشئة ما يكفي ليكون طائعا، وهو يَعْرِفُ صوتَ الصداقة، وهو يَعْرِفُ أن يُدْعِنَ للعقل. أجل، إنني أترك له مظهر الاستقلال حقًا، ولكنه لم يكن تابعًا لسلطاني أكثر مما في الوقت الحاضر؛ وذلك لأنه أراد أن يكون هكذا. وقد بقيتُ مسيطرًا على شخصه ما عجزتُ عن السيطرة على إرادته، فلا أتركه دقيقةً واحدة، والآن أكُله إلى نفسه أحيانًا؛ وذلك لأنني أهيمُ عليه دائمًا، وإذا ما تركته عائقته وقلت له بلهجة الواثق: «أدفعك إلى صديقي لتكون وديعةً عنده، وأسلمك إلى قلبه الكريم، وهو الذي سيُجيبني عنك.»

ولا يتمُّ في ساعةٍ واحدةٍ إفسادُ المشاعرِ السليمة التي لم يَطْرَأَ عليها أيُّ فسادٍ سابقًا، وزوال المبادئ المشتقة مباشرةً من أنوار العقل الأولى. وإذا حدثَ تغييرٌ في أثناء غيابي، لم يكن على شيءٍ من الطول مُطلقًا، وهو لا يُمكن أن يُكتم عني بما فيه الكفاية حتى لا أدرك الخَطَرَ قِبلَ الشرِّ، ولا يكون لديَّ من الوقت ما أعالجه فيه. وكما أن الفساد لا يتمُّ دفعةً واحدة، فإن تعلُّمَ المخادعة لا يتمُّ دفعةً واحدة. وإذا ما وُجدَ إنسانٌ غيرُ حاذقٍ في هذه الصناعة كان هذا الإنسانُ إميلَ الذي لم تُتَحَ له فرصةٌ واحدةٌ في حياته لمزاوتها.

وأعتقدني بهذه الجهود وما ماثلها قد بَلَغَتْ من ضمانه تجاه الأمور الخطرة والمبادئ المبتدلة ما أفضَّلُ أن أراه معه في وَسَطِ أكثرِ مجتمعاتِ باريسِ فسادًا، على أن أشاهده وحده في غرفته أو في روضةٍ مُوكَّلاً إلى همِّ عُمُرِهِ. ومهما يكن من أمرٍ فإن الشابَّ نفسه هو أخطرُ جميعِ الأعداء الذين يُمكن أن يهاجموه، وهو الوحيدُ الذي لا يُمكن إقصاؤه، ومع ذلك فإن هذا العدوُّ لا يكون خطرًا إلا بخطأ يَصْدُرُ عنَّا؛ وذلك لأن الحواسَّ تستيقظ بالخيالِ وحده كما قلتُ ذلك ألفَ مرة، وليست حاجتها حاجةً بدنيَّةً بحصرِ المعنى، وليس من الصحيح أن يكون هذا احتياجًا حقيقيًا. ولو لم يقف الموضوع الداعر نظرنا، ولو لم يدخل الفكرُ الفاجرُ ذهننا، لم يُشعر هذا الاحتياج المزعوم بنفسه فينا على ما يُحتمل، ولبقينا أظهارًا خالين من التزغات والجهود والمزينة. ولا يُعرف أيُّ فُورانٍ أصمَّ يُثيره بعضُ الأوضاع وبعضُ المناظر في دم الشباب من غير أن يَعْرِفَ بنفسه تمييزَ علَّةِ هذا الهمِّ الأوَّل الذي لا يسهلُ تسكينه، والذي لا يلبثُ أن يُبعثَ. وأما أنا، فكلُّما تأملت هذه الأزمةَ المهمَّة، وأنعمت النظرَ في عللها القريبة والبعيدة، فَنَبَّهْتُ بأنَّ المُعتزِلَ الذي رَبِّيَ في بَرِّيَّةٍ بلا كُتُبٍ ولا تعليمٍ ولا نِسْوَةٍ يَموت فيها بتولاً مهما يَكُن العُمُر الذي يبلغه.

ولكنَّ ليس هنا موضوعٌ بحثٍ عن وحشيٍّ من هذا الطراز، وليس من الممكن، ولا من

الملائم أيضاً أن يُنشأ دائماً ضمن هذه الجهالة الشافية، وشراً من هذا على الحكمة أن يكون نصف عارف، وتنبعنا في العزلة ذكرى الأمور التي وقفت نظرننا والأفكار التي اكتسبناها، وهي تُعمرها على الرغم منّا بصور أكثر إغواءً من الأشياء نفسها، وهي تجعل العزلة شؤماً على الذي يحملها إليها بمقدار فائدتها للذي بقي وحيداً فيها دائماً.

ولذا فارقوا الشاب بدقة، وهو يستطيع أن يقى نفسه من البقية، ولكن يتوقف عليكم أن تقوه من نفسه، ولا تتركوه وحده ليلاً ولا نهاراً، وناموا في غرفته على الأقل، ولا تدعوه يدخل الفراش إلا تعباً ناعساً، فلا يخرج منه إلى حين يفيق، واحذروا الغريزة عندما تعودون غير مقتصرين عليها، وهي تكون سالحة ما سارت وحدها، وهي تكون محلّ ارتياب ما اتصلت بمؤسّسات الناس، ولا يجوز أن يقضى عليها، بل يجب تنظيمها، وقد يكون تنظيمها أصعب من إزالتها، ومن الخطر البالغ أن تُعلم الغريزة تلميذكم مخادعة حواسه، وأن تُعوض من فرص قضاء هذه الحواس، فإذا ما عرف تلميذكم هذا العوض ضاع، وذلك أنه يكون هائج الجسم نائر الفؤاد منذ ذلك الحين دائماً، وأنه يحمل حتى القبر نتائج هذه العادة الكبيبة، هذه العادة التي تُعدّ أشأم ما يمكن أن يُعبّد لها شاب. ولا ريب في أن الأفضل... وإذا ما صارت صولات المزاج الأوجج أمراً لا يُفهر، يا إميل العزيز، فإني أرثي لك، ولكنني لا أتردد ثانية، ولا أتساهل مُطلقاً في أمر التملص من عرض الطبيعة. وإذا ما وجب أن يُخضعك طاغية، فإني أسلمك إلى هذا الذي أستطيع إنقاذك منه؛ أي مهما يكن من أمرٍ فإني أنزعك من النساء بأسهل من أن أنزعك من نفسك.

وينمو البدن حتى العشرين من السن، ويحتاج البدن إلى جميع جوهره، ويكون العفاف من نظام الطبيعة حتى ذلك الحين، ولا يُنقض هذا النظام على إلا حساب بُنيانه، فإذا حلّ العشرون من العمر أصبح العفاف واجباً خُلقيّاً، وغداً مهماً لتعلم ضبط النفس وبقاء الإنسان سيد شهواته. بيد أن اللواجبات الخُلقية تحوّلاتها واستثناءاتها وقواعدها، وإذا ما اقتضى الضعف البشري تناوباً، وصار هذا التناوب أمراً لا مفرّ منه، وجب اختيار أخفّ الضررين. ومهما يكن من أمر، فإن اقتراح وِرّ أهون من إيلاف مُنكر.

واذكروا أنني عُدتّ لا أتكلّم عن تلميذي هنا، بل عن تلميذكم، وتُخضعكم أهواؤه التي تركتموها تنور، فاخضعوا لها، إذن، جهراً ومن غير أن تُخفوا عنه فوزه. وإذا ما استطعتم أن تُروه إياه على حقيقته ظهر به أقلّ زهواً منه خجلاً، وظهر لكم من الحق ما تُرشدونه به في أثناء ضلاله خنلاً له على اجتناب المصائب. ومن المهمّ ألا يصنع الطالب شيئاً لا يعرفه المعلم ولا يريد،

ولو كان ذلك الشيء شراً، وأفضل مائة مرة أن يوافق المُعلِّم على ذَنْبٍ مُموَّهاً على نفسه من أن يخادعهُ تلميذه وأن يُقترِفَ الذَّنْبَ من غير أن يَعْرِفَ عنه شيئاً. ومن يظُنُّ وجوبَ الإغضاء عن أمرٍ لا يَلْبِثُ أن يَرى اضطراره إلى الإغماض عن جميع الأمور، ويؤدي أوَّلُ سوء استعمالٍ يُعْضُ البصرُ عنه إلى سوء استعمالٍ آخرَ، ولا تنتهي هذه السلسلة إلى غير انهيارِ كلِّ نظامٍ وازدراء كلِّ قانون.

ويُوجدُ خطأً آخرُ كنت قد ناهضته، ولكن مع عدم صدوره عن النفوس الصغيرة مُطلقاً، وهو أن يُظَهَرَ بمظهرٍ وقارِ الحاكم دائماً، وأن يُرادَ الدخولُ في ذهنِ التلميذ مثل رجلٍ كامل؛ فهذا المنهاج مخالفٌ للصواب، وكيف لا يَرَوْنَ أنهم يُقَوِّضون سلطانهم من حيث يَودُّون توطيده، وأنه لا بُدَّ لهم من وُضْعِ أنفسهم في مكانٍ من يُخاطَبون لِيَحْمِلُوا على سماعِ جميع ما يقولون، وأنه لا بُدَّ للواحد من أن يكون إنساناً حتى يَعْرِفَ مخاطبةَ القلبِ الإنساني؟ لا يؤثرُ جميعُ هؤلاء الفُضلاء ولا يُقْنِعون، ويُقال دائماً: «يَسْهَلُ عليهم أن يناهضوا ما لا يشْعرون به من الأهواء.» فأطَّلِعوا تلميذكم على ضَعْفِكُم إذا ما أردتم شفاؤه من ضَعْفِهِ، وليصِرْ فيكم عَيْنُ الكفاحِ الذي يُحس، وليتعلَّم أن يَهْتَرِ نفسه على غرارِكُم، ولا تَدْعُوهُ يقول كما يقول الآخرون: «يُرِيدُ هؤلاء الشَّيْبُ الذين يعيظُهم أنهم عادوا لا يكونون شبيئاً، أن يُعاملَ الشبايبُ كما لو كانوا شبيئاً، فيجعلون من أهواننا جُزْماً لانطفاءِ أهوائهم.»

ويروي مونتين أنه سأل سنيور لانجه ذات يومٍ عن عدد ما سَكِرَ بسبب خدمة الملك في أثناء مفاوضاته الألمانية، وأسألُ مُعلِّمَ أحد الشباب بطوعي عن عدد المرات التي دخل فيها أحد المواخير خادمةً لتلميذه؟ أنا مخطئ، فإذا لم تنزعِ المرَّةَ الأولى من الداعر مَيْلَ العَوْدِ إليه، وإذا لم يَرْجعِ منه تائباً خَجلاً، وإذا لم يسكُبِ على صدرِكُم سيولاً من الدموع، فدَعُوهُ من فوره؛ فهو ليس سوى عُول، أو إنكم لستم من غير الأغبياء، فلن تكونوا نافعين له في شيءٍ مطلقاً، ولكن لتتركِ هذه الطرائق المتناهية الكنيبة الخَطِرةَ والتي لا تُمُتُّ إلى تربيتنا بصلية.

ويا للاحتياطات التي تُتَّخَذُ تجاه شابٍّ أصيلٍ قَبْلَ تعريضه لأوضاعِ العصرِ الشائنة! إن هذه الاحتياطات شاقَّةٌ، ولكنها ضرورية، والإهمالُ هو الذي يُضيعُ جميعَ الناشئة من هذه الناحية، وَيُنْحَطُّ النَّاسُ بِفُجُورِ الدَّورِ الأوَّلِ من العُمُرِ فيتحوَّلون إلى الحال التي يُرَوْنَ عليها اليوم. وهم إذ يبدون أدنياءً نُدلاءً حتى في معابيحهم، فإنهم لا يكونون من غير أصحاب النفوس الحقيرة، وذلك لفسادهم باكراً عن وَهْنٍ في أبدانهم، فلا يكاد يَبْقَى لهم من الحياة ما يكفي للتحركِ، وتَبْمُ أفكارهم الدقيقة على أذهانٍ يُعوِّزُها الجواهر، وهم لا يَقْدرون على الشعور بأمرٍ جليلٍ أو نبيلٍ. ولا يوجدُ عندهم

نشاطٌ ولا بساطة. وبما أنهم نُذلاءٌ في كلِّ شيءٍ، وبما أنهم أشرارٌ مع الدناءة، فإنهم ليسوا غير مُبْطِلين خُبَاء مُرائين، حتى إنه ليس لديهم من الشجاعة ما يكونون معه فُجَارًا ظاهرين، وهؤلاء هم الأذلاء الذين يُسْفِرُ عنهم دَعْرُ الشباب، وإذا ما وُجِدَ بينهم واحدٌ يَعْرِفُ أن يكون معتدلاً وقوراً قادراً أن يَحْفَظَ بينهم فؤاده ودمه وأخلاقه، وذلك من عَدْوَى القُدْوَةِ، سَحَقَ جميع هؤلاء الحشرات ابناً للثلاثين من عُمره، وصار سيدهم بِجَهْدِ أَقَلِّ من الذي يبذل لِيُظَلَّ سيّد نفسه.

ومهما يكن من قِلة ما عند إميل من نَسَبٍ ونَسَبٍ، فإنه يصيرُ ذاك الإنسان الذي يُريدُ أن يكونه، غير أنه يَتَلَمَّعُ من ازدرائه لهم ما لا يتنازل معه أن يستعبدَهم. والآن لننظرُ إليه بينهم وهو يدخُلُ المجتمع، لا لتكون له الصدارةُ فيه، بل ليعْرِفَهُ وليجدَ فيه رَفيقَةً تناسبه.

وستكون بُدائه بسيطة، وبلا تصنعُ مهما كانت الطبقة التي وُلِدَ فيها والمجتمع الذي أَدخَلَ إليه. ومعادَ الله أن يكون من الشقاء ما يَلْمَعُ معه في ذاك المجتمع! فليست الصفات التي تُوَثِّرُ عند أوّل نظرة صفاته، وهو لم يَحْزَمها ولا يُريدُ حيازتها، وهو قليلُ الالتفات إلى رأي الآخرين في تقدير مُبَسَّراتهم، ولا يكثرُ لتقدير النَّاسِ إياه، أو لعدم تقديرهم له قيل أن يَعْرِفُوهُ. وليس الوجه الذي يظهر به مَتَضَعًا ولا فارغًا، بل طبيعيٌّ وحقيقي، وهو لا يَعْرِفُ الانقباض ولا التَنَكُّرَ، ويكون في وَسَطِ الحلقةِ مثله وحيدًا وبلا شاهد. وهل يكون بهذا فظًا مُزْدَرِيًا غيرَ مُبالٍ بأحد؟ والعكس هو الواقع، فإذا كان لا يَأبُه وحده للآخرين، فلمَ لا يَأبُه لهم ما دام عائشًا بينهم؟ إنه لا يُفَضِّلُهُم على نفسه في أوضاعه؛ لأنه لا يَفَضِّلُهُم على نفسه في فؤاده، بيّد أنه لا يُريهم عدمَ اكتراثٍ يُعَدُّ بعيدًا من الشعور به. وهو إذا كان خاليًا من صيغِ المعاملة، فإن له عنايةً بالإنسانية، وهو لا يُحِبُّ أن يرى إنسانًا يألم، وهو لا يُقدِّم مكانه إلى آخر عن رياء، وإنما يَتَرَكُه له بطَوْعِه عن لطف، وذلك إذا ما رآه مُهْمَلًا وَقَدَّرَ أن هذا الإهمال يُذَلُّه؛ وذلك لأنه يجد غضاضةً في بقائه واقفًا طَوْعًا أَقَلِّ مما يَجِدُ في مشاهدته آخرَ يَبْقَى واقفًا كَرَاهًا.

ومع أن إميل لا يَعْتَبِرُ النَّاسَ على العموم، فإنه لا يُظَهِّرُ لهم ازدراءً مطلقًا؛ وذلك لأنه يَتَوَجَّعُ لهم ويحترُّ عليهم. وبما أنه لا يستطيع أن يَمَنِّحَهُم ذوقَ الخيرِ الحقيقي، فإنه يَدَعُ لهم خيرَ الرأي الذي يُرضيهم، وذلك خشيةً أن يجعلَهُم أَكثَرَ شقاءً من قَبْلِ بنزعه هذا الخيرِ منهم؛ ولذا فهو ليس مجدالًا ولا معارضًا، وليس ملاطفًا ولا مضانعًا، وهو يُبدي رأيه من غير أن يناهض رأيَ أحد؛ وذلك لأنه يُحِبُّ الحريةَ فوقَ كلِّ شيءٍ، ولأن الصراحةَ من أروع ما تنطوي عليه الحرية من حقوق.

وهو قليلُ الكلام؛ وذلك لأنه لا يَشغَلُ باله بأن يُكثِرَ له، وهو لا يُحدِّثُ عن غير الأمور

النافعة لهذا السبب، وإلا فأَيُّ شيءٍ يَحْمِلُهُ على الكلام؟ إن إميلَ من الاطِّلاع الكثير ما لا يكون معه تَرْتَارًا، ويصدرُ الهُدْرُ الكبيرُ بحكم الضرورة عن زعمِ الذهن الذي سأتكلم عنه فيما بعد، أو عن القيمة التي تُعطاها التُّرَهَات، فنكون من السخافة ما نَظُنُّ معه أن الآخرين يعتبرونها مثل اعتبارنا لها. ولا يُكثِرُ من الكلام مُطلقًا ذاك الذي يكون عنده من المعرفة ما يكفي لإعطاء كلِّ شيءٍ قيمته الحقيقية؛ وذلك لأنه يُقدِر أن يُقدِّر ما يُنتَبِه به إليه، وما يُمكن أن يُوجَد في كلامه من نَفْع. وعلى العموم تَرى الذين يَعْرِفون قليلًا يتكلمون كثيرًا، وتَرى الذين يَعْرِفون كثيرًا يتكلمون قليلًا. أجل، إن من الأمور البسيطة أن يَجِدَ الجاهلُ جميع ما يَعْرِف أمرًا مهمًّا، فيقوله لجميع النَّاس، غير أن الرجلَ المثقَّف لا يَعْرِض ما يَعْرِف بسهولة؛ فليديه أمورٌ كثيرة يُحدِّث عنها، ثم يرى أمورًا أكثر من تلك تُقال بعد ذلك، فيلتزم جانب الصمت.

ولا يَصْدُمُ إميلُ أوضاعَ الآخرين، وهو يلائمها طَوَعًا بما فيه الكفاية، لا ليُظَهَرَ عارفًا بالعادات، ولا ليُظَهَرَ مُهَدَّبًا، بل خشيةً أن يُمَارَ، ولئلا يكون محلَّ نظر، ولا شيءَ يُريحه أكثر من عدم الانتباه إليه.

وهو، وإن كان يجهلُ أوضاعَ المجتمع جهلاً مُطلقًا عند دخوله إليه، لا يكون وَجلاً هَلْوَعًا لهذا السبب، وهو إذا كان يتوارى فليس هذا عن ارتباكٍ مُطلقًا، بل لأنه يجب ألا يرى الإنسان حتى يرى جيِّدًا؛ وذلك لأن ما يُفَكِّرُ في أمره لا يُقلِّقه مُطلقًا، ولأنه لا يعتربه أدنى فَرَعٍ من الهُزوء. وهو، إذ يهدأ دائمًا ويكون معتدلاً، لا يُرْعَج بالخجل. وهو، سواءً أُنظِرَ إليه أم لم يُنظَر، يصنع ما يصنع مع ما يمكنه من إتقان، وبما أن عليه أن يلاحظ الآخرين دائمًا، فإنه يُدرك أوضاعهم بسهولةٍ تتعدَّد على عبيد رأي الآخرين؛ ولذا يُمكن أن يُقال إنه ينتحل عُرفَ المجتمع عن عدم اكتراثٍ له.

ومع ذلك، فلا تَخَدَعُوا أنفسكم حَوْلَ وَضْعِهِ، ولا تُقابِلُوا بين هذا الوضع ووضع مُتَنظَرِفيكم؛ فهو رصينٌ غيرُ مُختال، وهو طليقُ الأطوارِ غيرُ مُزْدِرٍ، ولا يَخُصُّ طَوْرَ البَطَرِ غير العبيد، وليس في الاستقلال شيءٌ من التصنُّع. ولم أرَ قطُّ إنسانًا ذا غُلُوٍّ في النفس يُدبِّيه في طَوْرِهِ، وأكثر ما يكون هذا التصنُّعُ خاصًّا بأصحاب النفوس الحَقيرةِ المختالة التي لا تستطيع أن تَعْرِىَ بغير ذلك. ومما قرأتُ في كتابٍ أن أجنبيًّا دَخَلَ على مَرسِلِ الشَّهيرِ في بهوه، فسأله هذا عن بلده، فأجابته الأجنبيُّ عن سؤاله بقوله: «إنني إنكليزي.» فقال له الراقصُ: «أنت إنكليزي!» أنت من تلك الجزيرة التي يكون للمواطنين فيها نصيبٌ في الإدارة العامة، ويُعدُّون جزءًا من

السلطان ذي السيادة^{٤١} كلاً يا سيدي، إن هذا الجبين المُطَرِّقَ وهذا النظرَ الوَجِلَ وهذه المشيئة الحائرة، أمورٌ لا تدلُّني على غيرِ عبدٍ مُلقَّبٍ بناخبٍ.»

ولا أعلمُ هل هذا الحكمُ يدلُّ على معرفةٍ واسعةٍ بالصلة الحقيقية بين خُلُقِ الإنسان وظاهره، وأمّا أنا فلم يكن لي شرفٌ مُعلِّمٍ في الرقص، فتراني أرى العكس، فأقول: «إن هذا الإنكليزيّ ليس نديماً، ولم أسمع قطُّ أن الندماء ذوو جباهٍ مُطَرِّقَةٍ ومشيئةٍ حائرة، ومما لا ينبغي عند الراقص ألا يكون الرجلُ الخَجِلُ في مجلس العموم.» ولا مرأء في أن مسيو مرسيل ذلك يَحَسَّبُ مواطنيه ككثيرٍ من الرومان.

ومن يُحِبُّ يُرَدُّ أن يُحِبُّ، وإميلُ يُحِبُّ النَّاسَ، فيريدُ أن يقعَ عندهم موقعَ الرِّضا إِذْنَ، وأكثرُ من هذا كؤُوه يُريدُ أن يروقَ النساءَ، وما عليه من عُمرٍ وخُلُقٍ وقصدٍ يتضافر على تغذية هذه الرغبة فيه، وقد قلتُ أخلاقه لِمَا لها من أثرٍ بالغٍ. وعُبادُ النساءِ الحقيقيون هم الذين عندهم خُلُقٌ. أجل، ليس لديهم ما عند الآخرين من رطانةٍ ساحرةٍ في المغازلة، غير أنه يوجدُ عندهم من المبادرة ما هو أكثرُ صدقاً وأعظمُ عطفًا، لصدوره عن القلب، ويُمكنني أن أُميرَ بجانبِ فتاةٍ رجلاً ذا أخلاقٍ وضبطٍ نفسٍ بين مائة ألف فاجر، واخكُموا فيما يُمكنُ أن يكونه إميلُ صاحبًا لِمِزاجٍ تامٍّ الجِدَّةِ مع كثيرٍ من الأسبابِ للمقاومة! وأظنُّ أنه سيكون بجانبهن خَجِلًا مرتبًا أحيانًا، ولكن هذا الارتباك لا يورثهنَّ غيظًا، ولا يجدُ أقلهنَّ غُنَجًا من ذلك غيرِ وسيلةٍ للتمتُّعِ بذلك مع زيادته غالبًا. ثمَّ إن مبادرته تتخذ من الأشكال ما يختلف مع الأحوال، فيكون أكثرَ تواضعًا وأعظمَ احترامًا للنساء وأشدَّ نشاطًا وليًا تجاه البنات الصالحات للزواج. ولا يغيبُ غرضُ تحرياته عن نظره، ويكون أكبرُ نصيبٍ من انتباهه مُوجَّهًا دائمًا إلى التي تُدكُّه بذلك.

ولا أحدٌ يكون أكثرَ انتباهًا إلى جميع الاعتبارات القائمة على نظام الطبيعة، وعلى حُسنِ نظام المجتمع أيضًا، غير أن الأولى تُفضَّلُ على الأخرى دائمًا، وهو سيكون أكثرَ احترامًا لمن هو أسنُّ منه مما لحاكمٍ من لِدَاتِهِ. وبما أنه يكون عادةً من أصغرِ مَنْ في المجتمعات التي يُوجدُ فيها إِذْنَ، فإنه يكون من أكثرهم تواضعًا دائمًا، لا عن زَهْوِ الظهور هكذا، بل عن شعورٍ طبيعيٍّ قائمٍ

^{٤١} كأنه لا يوجد مواطنون أعضاء للمدينة لم يكونوا هكذا جزءًا من السلطان ذي السيادة! ولكن الفرنسيين، الذين رأوا من المناسب اغتصاب اسم المواطنين المكرم المعدود من حقوق المدن الغولية، أفسدوا مبداه إفسادًا جرَّده من كلِّ معنى، ومما حدث أن رجلاً كتب إليَّ تُرْهَاتٍ كثيرة ضد «إلويز الجديدة»، فزخرف إمضاءه بلقب «مواطن من بنيف»، ظانًا أنه يقوم نحوي بدعابة رائعة.

على العقل. ولن يكون عنده مُطلقًا ما لدى الشابِّ المختالِ من سلوكٍ ماجنٍ، من سلوكٍ هذا الشابِّ الذي يَنزِعُ إلى تسليَةِ العُشراءِ فيكَلِّمُ بصوتٍ أعلى من صوتِ الحكماءِ ويقطَعُ كلامَ الشيوخِ، وهو لن يسمح من ناحيته مُطلقًا بمثلِ جوابِ السيدِ الشائبِ إلى لويسِ الخامسِ عشرِ الذي سأله عن أيِّ العصرينِ يُفضِّلُ: عصرِه أو العصرِ الحاضرِ، والجوابُ هو: «لقد قضيتُ شبابي يا مولاي في احترامِ الشَّيبِ، فيجب أن أقضي مشيبي في احترامِ الأولادِ.»

وبما أنه ذو نفسٍ لَيِّنَةٍ حسَّاسةٍ، ولكن مع عدمِ إقامةِ وزنٍ للرأي العامِ، وإن كان يَودُّ أن يروقَ الآخرينِ، فإنه قليلُ المبالاةِ بأن يُعدَّ من ذوي الاعتبارِ، ومن ثمَّ يَكونُ أكثرَ ودًّا منه تأدُّبًا، ولا تبدو عليه ملامحُ الانتفاخِ مُطلقًا، ويتأثَّرُ بالملاحظةِ أكثرَ مما بألفِ ثناءٍ، وهو لن يُهملَ أطوارهَ ولا أوضاعه لهذا السببِ، حتى إنه سُمِّكُنهُ أن يقومَ بشيءٍ من التحرِّيِ في أمرِ زُخرفه، لا ليظهرَ رَجُلَ ذوقٍ، بل ليجعلَ وجهه مقبولًا، وهو لن يَلزِمَ الإطارَ المُذهَّبَ مُطلقًا، وما كانت سِمَةُ الثَّراءِ لتلوثَ زِينته أبداً.

وترى أن جميعَ هذا لا يتطلَّبُ منِّي عَرَضًا للتعاليمِ؛ فهو ليس سوى نتيجةٍ لتربيته، ويُنسَجُ لنا سرٌّ كبيرٌ عن عادةِ المجتمعِ، كأنَّ هذه العادةَ في دَورِ العُمُرِ الذي تُتَّخَذُ فيه لا تُتَّخَذُ بحكم الطبيعةِ، وكأنه لا يجب أن يُبحثَ في القلبِ الصالحِ عن قوانينها الأولى! ويقومُ التهذيبُ الحقيقيُّ على إظهارِ لُطْفٍ للناسِ، وهو يُشعِرُ بنفسه بلا تَعَبٍ عند وجوده، ويُضطرُّ مَنْ يخلو من اللطفِ إلى تَكَلُّفٍ في المظاهرِ.

«وأسوأ نتيجةٍ للتهذيبِ المصنوعِ هو تعليمُ مَنْ ما يُقلِّده من فضائلِ، وإذا ما أوحى إلينا التَّربيةُ بالإنسانيةِ والإحسانِ نَكونُ ذوي تهذيبِ، أو إننا نعودُ غيرَ محتاجين إلى التهذيبِ.

وإذا لم يكن عندنا من التهذيبِ ما نَبِمُ عليه الألفاظِ، فإنه يكون عندنا تهذيبٌ يَبِمُ على الإنسانِ الصالحِ وعلى المواطنِ، فلا نحتاج إلى العوْدِ بالرتِّاءِ.

ويكفي أن يكون الإنسانُ صالحًا ليروقَ، بدلًا من أن يكون متصنِّعًا، ويكفي أن يكون الإنسانُ متسامحًا لمداراةِ صَعبِ الآخرينِ بدلًا من أن يكون منافقًا.

ولن يكونَ مَنْ تُتَّخَذُ نحوهم مثلُ هذه الطُّرُقِ متكبرين ولا فاسدين، وإنما يكونون شاكرين، ويظهرون أحسنَ حالًا.»

ويلوخُ لي أن تربيةً ما إذا كانت تُسْفِرُ عن تهذيبٍ من هذا النوعِ الذي يتطلبه مسيو دوكلو بدت هذه التَّربيةُ تلك التي وَصَعَتْ رَسْمَهَا حتى الآن.

ومع ذلك فإنني أوافق على أن إميل لن يكون مطلقاً كبقية الناس بهذه المبادئ المختلفة جداً، وأدعو الله أن يحفظه من أن يكون هكذا، ولكنه لن يكون فيما يختلف به عن الآخرين مُكدرًا، ولا للهزوء مستحقًا، وسيكون الاختلاف محسوسًا من غير أن يكون شاقًا، وإن شئت فقل إن إميل سيكون أجنبيًا محبوبًا، وأول ما يحدث أن تُعْفَر له غرابته بأن يقال: «إنه سيتخرج»، ثم يحدث فيما بعد ما تُتَعَوَّد معه أوضاعه، فيُصَفَح عنه أيضًا حين يُرى أنه لم يُعَيَّرها، فيقال: «إنه تكوّن هكذا.»

أجل، إنه لن يُحتفل به مثل رجل محبوب، ولكنه سيُحَبُّ من غير أن يُعرَف السبب. أجل، إنه لن يمدح أحد ذهنه، ولكنه سيُتَّخَذُ حَكَمًا بين رجال الذهن عن طَوْع واختيار، وسيكون واضح الذهن محدوده، وسيكون صادق الشعور سليم الحُكْم. وبما أنه لا يسعى وراء جديد الأفكار مطلقًا، فإنه لا يُمكن أن يعتزّ بذهنه، وقد أشعرته بأن جميع الأفكار الشافية النافعة للناس حقًا هي أوّل ما عُرف، وبأنه يتألف منها وحدها روابط المجتمع الحقيقية في كلّ زمن، وبأنه لا يبقى على ذوي الذهن الطامح سوى الامتياز بالأفكار المؤذية المشثومة على الجنس البشري، وما كان هذا الطراز في إثارة العجب ليؤثّر فيه مُطلقًا، وهو يُعرَف أين يجد سعادة حياته، ويمّ يمكن أن يساعد على سعادة الآخرين، ولا يمتدُّ نطاق معارفه إلى أبعد مما هو نافع، وتكون طريقه ضيقةً جيّدة الحدود. وهو إذ لم يحاول أن يُخَرِّج منها فإنه يظلُّ مختلطًا بمن يتبعونها، وهو لا يريد أن يضلّ ولا أن يلمع، وإميل إنسانٌ مستقيم العقل، ولا يودُّ أن يكون شيئًا آخر، ومن العبث أن يُراد إيدأوه بهذا اللقب؛ فهو سيعتزُّ به دائمًا.

ومع أن رغبته في الرّوْفان لا تدعُه يكون على الإطلاق أكثرَ عدمِ اكترابٍ لرأي الآخرين، فإنه لا يعتزُّ من هذا الرأي غير ما يتصل بشخصه مباشرة، وذلك من غير أن يُبالي بكلّ تقديرٍ مُرادٍ ليس له قانونٌ سوى المُوضحة*^{٤٢} أو المُبتسرات. أجل، إنه سيكون لديه زهو العزم على إتقان كلِّ ما يصنع، حتى إرادة فعله بأحسن مما يفعل الآخر، فيودُّ أن يكون الأخفّ في العدو، والأقوى في المصارعة، والأمهَر في الشغل، والأبرع في الألعاب اليدوية، ولكنه قليل البحث عن الفوائد غير الواضحة بنفسها والتي تحتاج إلى تقريرٍ بحُكْم الآخرين، ككونه أذكى من الآخر وأطلق منه لسانًا وأكثرَ علمًا... إلخ. وأقلُّ من ذلك أيضًا بحثه عن الفوائد التي لا تتعلّق بشخصه مطلقًا، كأن يُعدُّ عالي النَّسَب وافز الثراء كبيرَ الاعتماد عظيمَ الاعتبار ممّوها بالبهرج.

وبما أنه يُحِبُّ النَّاسَ لأنهم أمثاله فإنه سيُحِبُّ أكثرهم مشابهةً له على الخصوص، وذلك لما يَجِدُ بذلك من حُسْنِ الخُلُقِ؛ فإن مما يَسُرُّه أن يَقَعَ موقعَ الرِّضَا، وهو لن يقولَ في نفسه ضبطاً: أُسِّرُ لأنني أُسْتَحْسَن، بل أُسِّرُ لِمَا يكون من استحسانِ حُسْنِ ما صنعت، وأُسِّرُ لأن الذين يُكْرِمُونِي أهلٌ للإكرام، ومن الجميل أن يُنالَ تقديرهم ما كان حُكْمُهُم سليماً.

وبما أنه يَدْرُسُ النَّاسَ بسلوكهم في المجتمع، وبما أنه درسَ النَّاسَ سابقاً بأهوائهم في التاريخ، فإنه سَيُتَّخَذُ له من الفرص في الغالب ما يتأمل معه فيما يُداري الفؤادَ البشري أو يصدِّمُه، وها هو ذا يتفلسفُ حول مبادئ الذوق، وهذا هو الدرس الذي يلائمه في هذا الدُّور.

وكَلَّمَا أَوْعَلْنَا في البحثِ عن تعاريفِ الذوق ضلَلْنَا؛ فليس الذوقُ غيرَ قدرةٍ على الحكم فيما يَرُوق، وما لا يَرُوق، أكبرَ عددٍ ممكن، واخْرُجُوا من هناك تَعَوَّدُوا غيرَ عارفين ما الذوق، ولا يُسْتَخْرَجُ من ذاك وجودُ رجالٍ ذَوُقٍ أكثرَ من الآخرين؛ وذلك لأن الأكترية، وإن كانت تَحْكُمُ حُكْمًا صحيحًا في كلِّ أمر، لا يوجد غيرُ قليلٍ من النَّاسِ مَنْ يَحْكُمُونَ مِثْلَهَا في الجميع. ومع أنَّ تسابقَ أعمِّ الأذواقِ يُسْفِرُ عن الذوقِ الصالح، فإن رجالَ الذوقِ قليلون، وذلك كقِلةِ وجودِ أشخاصٍ جميلين، وإن كان اجتماعُ أكثرِ الملامحِ شيوَعًا يُسْفِرُ عن الجمال.

ومما تجب ملاحظته أننا لا نُعالِجُ هنا ما نُحِبُّ لأنه نافعٌ لنا، ولا ما نُكْرَهُ لأنه يضرُّنا؛ فالذوق لا يتناول غيرَ أمورٍ خَلِيَّةٍ أو ذاتِ غَرَضٍ في اللهو على الأكثر، لا أمورًا تتعلَّقُ باحتياجاتنا، أي إن الذوق ليس ضروريًا للحكم في هذه؛ فالتشهيُّ يكفي، وهذا ما يجعل أحكامَ الذوقِ الصَّرْفَةَ بالغةَ الصعوبة، مراديةً جدًّا كما يلوح؛ وذلك لأنك إذا عَدَوْتَ الغريزة التي تُعَيِّنُ الذوقَ عُدْتَ لا ترى أسبابَ هذه الأحكام، وكذلك يجب أن يُفَرَّقَ بين قوانينه في الأمور الأدبية وقوانينه في الأمور المادية؛ ففي هذه يَظْهَرُ أن إيضاحَ مبادئ الذوق مُتَعَدِّدٌ على الإطلاق، غيرَ أن من المهمَّ أن يُلَاحَظَ وجودُ عنصرٍ أدبيٍّ في كلِّ ما ينطوي على تقليد،^{٤٣} وهكذا يُفسَّرُ الجمالُ الذي يكون مادياً ظاهراً ولا يكون كذلك حقيقة، وإلى هذا أُضيفُ وجودَ قواعدٍ محليةٍ للذوق تَجْعَلُهُ في ألفِ أمرٍ تابعاً للأقاليم والطبائع والحكومة وأمور النظام، ووجودَ قواعدٍ أخرى تتعلَّقُ بالعُمُرَ والجنس والسجية، فهذا المعنى لا ينبغي أن يُجادَلَ حولَ الأذواق.

والذوقُ أمرٌ طبيعيٌّ لدى جميعِ النَّاسِ، ولكنه ليس على مقياسٍ واحدٍ عند كلِّ واحدٍ منهم،

^{٤٣} أثبتَّ هذا في «رسالة حول أصل اللغات» التي تجدها في مجموعة مؤلفاتي.

وهو لا ينمو في الجميع على درجة واحدة، وهو في الجميع عُرضةٌ للفسادِ بعللٍ مختلفة، ويتوقَّف قياسُ ما يُمكنُ أن يكونَ من الذوقِ على درجةِ الإحساسِ الذي يُتقبَّل، ويتوقَّفُ تعهُّدهُ وشكله على المجتمعات التي تتمُّ الحياةُ فيها؛ وذلك أوَّلاً: لا بُدَّ من العيش في مجتمعاتٍ كثيرةٍ للقيامِ بكثيرٍ من المقارنات. ثانياً: لا بُدَّ من وجودِ مجتمعاتٍ لهوٍ وفراغٍ كثيرة؛ وذلك لأن القاعدةَ في مجتمعات الأعمال هي المصلحةُ لا اللذة. ثالثاً: لا بُدَّ من وجودِ مجتمعاتٍ لا يكونُ التفاوتُ فيها كبيراً جدًّا، ويكونُ استبدادُ الرأي العامِّ فيها معتدلاً، وتسودُ الشهوةُ فيها أكثرَ من الرهو، وإلا خنقت المُوضئةُ الذوق، وصار يُبحَثُ عما يميِّزُ لا عما يروق.

وفي هذه الحال الأخيرة عاد لا يُعدُّ من الصحيحِ كَوْنُ الذوقِ الحَسَنِ ذوقَ أكبرِ عدد، ولمَ هذا؟ ذلك لأنَّ العَرَضَ يَتغيَّر، وهناك يعودُ الجمهورُ غيرَ ذي رأيٍ خاصٍّ به، وهناك يعودُ الجمهورُ غيرَ تابعٍ لغيرِ حُكْمٍ من يرى أنهم أعظمُ بصيرةً منه، فيستحسن ما يستحسنون، لا ما هو حَسَن، واجعلوا في كلِّ وقتٍ لكلِّ واحدٍ إحساسه الخاص، فيصيرُ أكثرُ ما يروق في ذاته أكثرَ جَمْعاً للأصوات دائماً.

والناس في أشغالهم لا يصنعون ما هو جميلٌ بغيرِ التقليد، وفي الطبيعة تكون جميع نماذجِ الذوقِ الصحيحة، وكلِّما ابتعدنا عن المُعلِّمِ بَدَّتْ ألوأخنا مُشوَّهة، وهناك نستنبطُ نماذجنا من الأشياء التي نُحب، فيعودُ جمالُ الخيالِ الذي هو عُرضةٌ للهوى والنفوذ، لا يكون غيرَ ما يروق الذين يقودوننا. والمتفنون والكبراء والأغنياء هم الذين يقودوننا، وصالح هؤلاء أو زهؤهم هو الذي يقودهم، ويبغي هؤلاء عَرَضَ غناهم ويبغي الآخرون أن يستفيدوا منه، فيبحثون عن وسائلٍ جديدةٍ للإنفاق، وبهذا يُقيم الترفُّ الأكبرُ سلطانه ويُحبَّب ما هو صعبٌ غالٍ، وهناك يبعُدُ الجمالُ المزعومُ من تقليد الطبيعة، وهو لا يكون على ما هو عليه إلا بمخالفتها؛ ومن ثمَّ ترى كيف أن الترف والذوق الفاسد أمران لا يُمكنُ فصلُ أحدهما عن الآخر، ويكون الذوق فاسداً حيث يكون مُسرِّفاً.

ويتعاشرُ الجنسين على الخصوص يكتسب الذوقُ شكله، سواءً أكان هذا الذوق حسناً أم سيئاً. والواقع أن تعهُّد الذوقِ نتيجةٌ ضروريةٌ لغرض هذا المجتمع، ولكن إذا فترت سهولةُ التمتعِ حُبُّ الرِّوْقانِ فسَدَ الذوقُ لا محالة، وهذا كما يلوح لي من أكثر الأسباب المحسوسة في كَوْنِ الذوقِ الحَسَنِ ينشأ عن حُسْنِ الطَّبَاع.

واستشيروا ذوقَ النساء في الأمور المادية التي تنشأ عن حكم الحواس، واستشيروا ذوقَ الرجال في الأمور الأدبية التي تتعلَّقُ بقوة الإدراك؛ فمتى صار النساءُ كما يجبُ أن يكنَّ عليه

فَأَخْرَجَ بِمَا يَقَعُ تَحْتَ اِخْتِصَاصِهِنَّ، وَكَانَ حُكْمُهُنَّ حَسَنًا دَائِمًا، وَلَكِنَّهُنَّ عُدْنَ لَا يَعْرِفْنَ شَيْئًا مِنْ اِخْتِصَاصِهِنَّ فِي الْآدَابِ وَأَخَذْنَ يَحْكُمْنَ فِي الْكُتُبِ وَيَضَعْنَ مِنْهَا بِمَا أُوتِيْنَ مِنْ قُوَّةٍ، وَيَكُونُ الْمُؤَلَّفُونَ الَّذِينَ يَسْتَشِيرُونَ الْعَالِمَاتِ حَوْلَ مُؤَلَّفَاتِهِنَّ عَلَى ثِقَةٍ بِسُوءِ مَا يُشَارُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَيَكُونُ الظُّرْفَاءُ الَّذِينَ يَسْتَشِيرُونَهُنَّ حَوْلَ زِينَتِهِنَّ لَا يَسِينُ ثِيَابًا تُثِيرُ السَّخْرِيَّةَ دَائِمًا، وَسُتَاحَ لِي عَمَّا قَلِيلٍ فِرْصَةَ الْحَدِيثِ عَنِ مَوَاهِبِ هَذَا الْجِنْسِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَعَنِ وَجْهِ تَعَهُّدِهَا، وَعَنِ الْأُمُورِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُنْصَتَ فِيهَا لِأَحْكَامِهِنَّ.

وتلك هي الاعتبارات الأولى التي أضمتها كمبادئ حين برهننتي مع إميل حول مسألة ليست مما لا يبالي به في الحال التي هو فيها، وفي الاستقصاء الذي يشغل به. وتجاه من تكون مسألة لا يبالي بها؟ لا تكون معرفة ما يمكن أن يكون مقبولاً أو مكروهاً عند الناس أمراً ضرورياً لدى من هو محتاج إليهم، بل لدى من يريد أن يكون نافعا لهم أيضاً، حتى إن من المهم أن يروقهم حتى يخدمهم، وليس من اللغو فن الكتابة إذا ما استعمل لحمل الناس على السماع للحقيقة.

وإذا ما وجب علي أن أتعهد ذوق تلميذي، فأختار بين البلاد التي يؤلّد فيها هذا التعهد بعد، والبلاد التي فسدت فيها، فإنني أتبع نظام الرجوع إلى الوراثة، وأبدأ بطوافه من هذه الأخيرة، وأنتهي بالأولى، وأستند في هذا الاختيار إلى أن الذوق يفسد برفقة متناهية، تجعل بعض الأمور من الحساسة ما لا يدركه الغلاظ من الناس، وتسوق هذه الرقة إلى روح الجدل؛ وذلك لأن الأمور كلما رقت كثرت، فتجعل هذه الرقة قوة الجسد أكثر لطافة وأقل تناسفاً، وهنالك يتكوّن من الأذواق ما هو بعدد الرؤوس، ويتسع نطاق الجدل حول الأفضلية والفلسفة والمعارف، وهكذا يُعلم التفكير، ولا يمكن أن يقوم بالملاحظات الدقيقة غير أناس كثيري الاختلاط بالمجتمع لوقف هذه الملاحظات نظرنا بعد غيرها، ولأن من كان تعوّد لهم للمجتمعات الكثيرة العدد قليلاً يستنفدون انتباههم هنالك حول أعظم الرسوم. ومن المحتمل أنك لا تجد في الدنيا مكاناً متمديناً يكون الذوق العام فيه أكثر فساداً مما بباريس، ومع ذلك فإن الذوق الحسن يُتعهد في هذه العاصمة، ولا يظهر في أوروبية غير كتب مُقدّرة قليلة لا يكون مؤلفوها قد تحرّجوا في باريس. ومن يزور أن يكتفوا بمطالعة الكتب التي تُوضَع فيها يُخدعوا؛ فحديث المؤلفين يُتعلم أكثر مما في كتبهم، وليس المؤلفون أنفسهم أكثر من يُتعلم منهم. وروح المجتمعات هو الذي يُبني الرأس المفكّر ويحمّل البصر إلى أبعاد ما يمكن أن يمتد، وإذا كان لديكم شيء من توقّد الذهن فاقضوا سنة بباريس؛ حيث لا تلبثون أن تكونوا كل ما يمكنكم أن تكونوا، أو لا تكونون شيئاً مطلقاً.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُتَعَلَّمَ التَّفَكِيرُ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي يَسُودُهَا الذُّوقُ الْفَاسِدُ، وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُفَكَّرَ
مِثْلَ تَفَكِيرِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ هَذَا الذُّوقُ الْفَاسِدُ. وَمِنَ الصَّعُوبَةِ أَلَّا يَحْدُثَ هَذَا بَعْدَ الْبَقَاءِ مَعَهُمْ
زَمَانًا طَوِيلًا، وَيَجِبُ أَنْ تُكْمَلَ آلَةُ الْحُكْمِ بِجَهْدِهِمْ، وَذَلِكَ بِاجْتِنَابِ اسْتِعْمَالِهَا مِثْلَهُمْ. وَأَحْتَرِزُ مِنْ
صَفَلِ حُكْمٍ إِمِيلٍ حَتَّى دَرَجَةِ تَشْوِيهِهِ، وَمَتَى كَانَ لَدَيْهِ مِنَ الْحَسَنِ الرَّقِيقِ مَا يُحَسُّ بِهِ مَخْتَلِفَ أَذْوَاقِ
النَّاسِ، وَيُقَارِنُ بَيْنَهَا، فَإِنِّي آتِي بِهِ لِيُوطِّدَ ذَوْقَهُ حَوْلَ الْأُمُورِ الْبَسِيطَةِ.

وَأُبْعِدُ فِي السَّبْرِ فَأَحْفَظُ لَهُ ذَوْقًا سَلِيمًا خَالِصًا، وَأَعْتَمُّ فِرْصَةً هَرَجِ الطَّيْشِ فَأَنْفَحُهُ بِأَحَادِيثِ
نَافِعَةٍ مَوْجَّهًا لَهَا دَائِمًا حَوْلَ أُمُورٍ تَرْوِقُهُ، جَاعِلًا لَهَا مَعَ الْجَهْدِ مَدَارَ تَسْلِيَةٍ لَهُ بِمَقْدَارِ مَا هِيَ مَمْتَعَةٌ،
وَهَذَا دَوْرُ الْمَطَالَعَةِ وَالْكَتَبِ الْمَقْبُولَةِ، وَهَذَا دَوْرُ تَعْلِيمِهِ تَحْلِيلِ الْكَلِمِ وَجَعْلِهِ شَاعِرًا بِكُلِّ مَا فِي
الْبِلَاغَةِ وَالْإِلْقَاءِ مِنْ جَمَالٍ. وَلَيْسَ مِنَ الْمَهْمِ تَعَلُّمُ اللُّغَاتِ لِدَاتِهَا، وَلَيْسَتْ مِزَاجُهَا مِنَ الْأَهْمِيَّةِ
بِالْمَقْدَارِ الَّذِي يُظَنُّ. بَيِّدَ أَنْ دَرَاةَ اللُّغَاتِ تُوْدِي إِلَى دَرَاةِ النُّحُوِّ الْعَامِ، وَيَجِبُ تَعَلُّمُ اللَّاتِيئِيَّةِ
لِحُسْنِ مَعْرِفَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَيَجِبُ تَعَلُّمُ هَذِهِ وَتِلْكَ وَالْمَقَابِلَةَ بَيْنَهُمَا لِإِدْرَاكِ قَوَاعِدِ فَنِّ الْكَلَامِ.

وَيُوجَدُ، فَضْلًا عَنِ ذَلِكَ، بَسَاطَةٌ فِي الذُّوقِ تَذْهَبُ إِلَى الْقَلْبِ، وَلَا تُوْجَدُ فِي غَيْرِ كِتَابِ
الْقَدَمَاءِ، وَسَيَجِدُهَا إِمِيلٌ فِي الْبِلَاغَةِ وَالشَّعْرِ وَكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَدَابِ زَاخِرَةً بِأُمُورٍ زَاهِدَةً فِي الْحُكْمِ
كَمَا فِي التَّارِيخِ. وَعَلَى الْعَكْسِ، يَقُولُ مُؤَلَّفُونَا قَلِيلًا وَيَنْطِقُونَ كَثِيرًا، وَلَيْسَ إِعْطَاؤُنَا حُكْمَهُمْ بِلا
انْقِطَاعٍ مِثْلَ قَانُونٍ وَسِيَلَةٍ تَكْوِينِ حُكْمِنَا، وَيُشْعِرُ الْفَرْقَ بَيْنَ ذَوْقَيْنِ بِنَفْسِهِ فِي جَمِيعِ الْآثَارِ، حَتَّى
عَلَى الْقُبُورِ، وَتَرَى آثَارَنَا مُسْتَوْرَةً بِالْمَدَائِحِ، وَلَا يُقْرَأُ عَلَيَّ آثَارُ الْقَدَمَاءِ سِوَى الْأَفْعَالِ.

«فَفَ أَيُّهَا الْمَسَافِرُ، فَبَطَّلَ هُوَ الَّذِي تَدُوسُ.»

وَإِذَا مَا وَجَدْتُ الْقَبْرِئِيَّةَ عَلَى أَثَرٍ قَدِيمٍ ظَنَنْتُ أَنَّهَا حَدِيثَةٌ أَوَّلٌ وَهَلَةٌ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ
أَكْثَرَ شِيوعًا مِنَ الْأَبْطَالِ بَيْنَنَا. غَيْرَ أَنَّ الْأَبْطَالَ نَادِرُونَ عِنْدَ الْقَدَمَاءِ؛ فَالْقَدَمَاءُ كَانُوا يَقُولُونَ مَا صَنَعَ
الرَّجُلُ لِيَكُونَ بَطْلًا بَدَلًا مِنْ أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُ كَانَ بَطْلًا. وَقَابَلُوا بَيْنَ قَبْرِئِيَّةِ هَذَا الْبَطْلِ وَقَبْرِئِيَّةِ الْمُخْتَنَّتِ
سَرْدَانَابَالِ الْقَائِلَةَ:

«أَقَمْتُ طَرْسُوسَ وَأَنْكِيَالَةَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَالْآنَ أَنَا مَيِّتٌ.»

فَأَيُّ الْقَبْرِئِيَّتَيْنِ أَكْثَرَ قَوْلًا عَلَى رَأْيِكُمْ؟ لَيْسَ أَسْلُوبُنَا الرُّحَامِيُّ مَعَ بَهْرَجِهِ صَالِحًا لِعَبْرِ نَفْخِ
أَقْرَامِ، وَكَانَ الْقَدَمَاءُ يُظْهِرُونَ الرِّجَالَ كَمَا هُمْ، فَيُرَى أَنَّهُمْ رِجَالٌ حَقًّا، وَقَدْ بَجَلَّ إِكْزِينُفُونُ ذَكَرَى
بَعْضَ الْمَجَاهِدِينَ الَّذِينَ قُتِلُوا غَدْرًا فِي أَثْنَاءِ ارْتِدَادِ الْآلَافِ الْعَشْرَةِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ قُتِلُوا مُبْرَتِينَ مِنْ

العيب في الحرب والمؤدّة.» وهذا كلُّ ما قال، لكن رَوْا في هذا الشاء الموجز البسيط مقدارَ ما كان في المؤلّف من قلبٍ عامر، والوَيْلُ لمن لم يجد هذا فاتنًا!

ووجدت الكلمات الآتية منقوشة على رُحامٍ في الترمُوبيل، وهي:

«أذهب أيها المار، وأحيز إسبارطة بأننا قُتلنا هنا طائعين لقوانينها المقدّسة.»

ومن الواضح أن هذا ليس من تأليف أكاديمية الخطوط.

وأكون مُحطِنًا إذا كان تلميذي، الذي لا يقيم غيرَ قليل وزن للكلام، لا يُعيرُ انتباهه الأوّل من هذه الفروق فلا توتّر في اختيار قراءاته، وهو سينساق مع فصاحة ديموستين الرجولية، فيقول: «هذا خطيب.» ولكنه إذا ما قرأ شيشيرون قال: «هذا مُحامٍ.»

وعلى العموم سيتذوّق إميل كُتب القدماء أكثرَ من تذوّقه كُتبنا، وبما أن القدماء هم الأوّلون فإنهم أقرب إلى الطبيعة، وإن عقيريتهم أكثرُ بروزًا. ومهما يكن من قول لاموت ورئيس الدبير تراسون لا ترى تقدّمًا حقيقيًا في عقل النوع البشري؛ وذلك لأن ما يُكسب من ناحية يُحسّر من ناحية أخرى، ولأن جميع الأذهان تنطلق من ذات النقطة دائمًا، ولأن الوقت الذي يُستعمل لمعرفة ما فُكّر فيه الآخرون، إذ يضيغ على تعلّم التفكير الذاتي، فإنها تُنال معارف كثيرة وقلّة نشاط في الذهن، وتُشابه أذهاننا ذُرْعاننا التي تُدرّب على صنْع كلِّ شيء بالآلات، والتي لا تصنّع كلَّ شيء بنفسها. وكان فوننتيل يقول إن هذا النزاع بين القدماء والمعاصرين يُردُّ إلى معرفتنا هل الأشجار في الماضي كانت أكبرَ منها في الوقت الحاضر، فلو كانت الزّراعة قد تغيّرت ما عدّ هذا السؤال من الوقاحة.

واني، بعد أن سرّث ياميل إلى منابع الآداب الصافية، أطلعه أيضًا على مجاري الأحواض في المُصنّفين المعاصرين، وذلك من جرائد وترجماتٍ ومعاجم، فيُلقي نظرةً على جميع هذا، ثمّ يتزكّه لكيلا يعود إليه مطلقًا، وأسمعه ثرثرة الأكاديميات تسليّة له، وأدله على أن كلَّ واحدٍ ممن تتألّف منهم أفضلٌ بمفرده منه عُصّوا في الهيئة، وهنالك يستتبط بنفسه نتيجةً فائدةً جميع هذه المؤسسات الجميلة.

وآتي به إلى المسارح لدراسة الذوق، لا الأخلاق؛ وذلك لأن الذوق هنالك يتجلّى لمن يعرفون أن يتأملوا، وأقول له: دغّ تعاليم الأخلاق جانبًا، فلا ينبغي تعلّمها هنا، ولم يُصنّع المسرح للحقيقة، بل صنّع لمدارة النَّاس وتسليتهم، ولا تجد مدرسةً يُتعلّم فيها جيّدًا فنُّ رَوْقان النَّاس

واستهواء القلب البشري كما يُتعلَّم هنالك. وتؤدي دراسة التمثيل إلى دراسة الشعر، ولكلٍّ من الدراستين عينُ العَرَضِ تمامًا. وإذا كان لديه بصيصٌ من الذوق في الشعر، فأبى لذو سِيكِبُ على لغات الشعراء: اليونانية واللاتينية والإيطالية! وستكون له هذه الدراسات أَلْهُوَاتٍ بلا قَسْر، ولا تكون أقلَّ نَفْعًا من هذا، وستكون لذيدةً له في سِنِّ وأحوالٍ يُعنى الفؤادُ البشريُّ فيهما، مع كثيرٍ فُتُون، بجميع أنواع الجمال التي أُبدعت للتأثير فيه، وتمثلوا إميلَ من ناحية، وتمثلوا طائشًا من المدرسة وهو يقرأ الإنييدَ أو تيبولَ أو وليمة أفلاطون، فيا لَلْفَرْقِ! وما أكثرَ ما يُهزُّ به فؤادُ إميلَ بما لا يُؤثِّرُ به في الآخر! ويا أيها الفتى العزيز! قِفْ، اقطعْ قراءتك، أراك هانجًا كثيرًا، أريدُ أن تروكَ لغةَ الغرام لا أن تُضِلَّكَ، وكن إنسانًا حساسًا، ولكنْ كُنْ إنسانًا حكيمًا، فإذا لم تكن غيرَ واحدٍ من الاثنين كُنْتَ عَدَمًا. ومع ذلك فإن من المهمَّ قليلًا أن يتوقَّفَ أو لا يتوقَّفَ في اللغات الميئة وفي الآداب والشعر، ولا ضيِّرَ عليه إذا كان لا يَعْرِفُ من ذلك شيئًا، فلا تقوم تربيته على مثل هذه اللطائف مطلقًا.

ويقوم عَرَضِي الرئيس، إذ أعلَّمُه أن يُحسَّ الجمالَ ويُحبه، على تركيز عواطفه وأذواقه، وعلى عدم فسادِ شهواته الطبيعية، وعلى عدم بحثه في ثرائه ذات يوم عن وسائلِ سعادته التي يجب أن يَجِدَها أكثرَ قُرْبًا إليه. وقد قلتُ في مكانٍ آخرَ إن الذوق لم يكن غيرَ فنِّ الخبير في الأمور الصغيرة، وهذا صحيحٌ جدًّا، ولكن بما أن لذة العيش تتوقَّف على نسيج من الأمور الصغيرة، فإن مثل هذه الجهود لا تكون شيئًا صغيرًا، ونحن بها نتعلَّم القيام بما يكون في متناولنا من صالح، وذلك ضمن ما يُمكن أن يكون لها في نظرنا من حقيقةٍ كُليَّة، وهنا لا أقصدُ صالحاتِ الخُلُقِ التي تتعلَّق بحسُنِ تَصَرُّفِ النفس، وإنما أقصدُ فقط ما هو من الحِسِّيَّة والشهوة الحقيقية بمعزِلٍ عن المُبتَسرات والرأي العام.

وليؤدِّن لي، لحسنِ تفصيل رأيي، أن أدعَ لوقتٍ قصيرٍ إميلَ الذي عادَ قلبُه النقيُّ السليم لا يصلحُ قاعدةً لأحد، وأن أبحث في نفسي عن مثالٍ أكثرَ بُرُورًا وأقربَ إلى طبائع القارئ. ويوجد من المهن ما يُلَوِّحُ بتدليله للطبيعة وتغييره للرجال الذين يقومون بها، ويصيرُ الجبان شجاعًا بدخوله في كتيبة نَبْرَة، وليس في الجيش وحده ما تُكتسبُ العصبية، وليس في الخير وحده ما يُشعَّرُ بنتائجها دائمًا، وقد أبصرتُ مذعورًا مائة مرةً أنني لو كنتُ من الشقاءِ اليومَ ما أقومُ معه بمثل تلك الخدمة في بعض البلدان، لَعَدُوْتُ في الغد، تقريبًا، حَتْمًا طاغيةً سارقًا لبيت المال، هادمًا للشعب صارًا بالأمير، عدوًّا محترفًا للإنسانية والإنصاف ولأنواع الفضيلة.

وكذلك لو كنتُ غنيًّا لفلعتُ كلَّ ما يجب لأصيرَه؛ ولذا فإنني أكون عاتبًا نَدْلًا، حساسًا سريع الانفعال في سبيل نفسي، فاقد الرحمة قاسي القلب تجاه جميع النَّاس، رقيقًا مزدريًّا لبؤس الأراذل؛ وذلك لأنني لا أجدُ اسمًا غيرَ هذا أُطلِّقه على المُعسرين لإنساء كوني من طبقتهم فيما مضى، وأخيرًا سأجعل من ثرائي وسيلةً لملاذي التي سأعنى بها حصراً، سائرًا حتى ذلك على غرارِ غيري.

ولكنني أعتقد اختلافي عنهم كلَّ الاختلاف في أمرٍ واحد، وذلك أنني سأكون حسيًّا شهوانيًّا أكثرَ من أن أكون غطريسا مغرورًا، وأني سأكون منهمكًا في ترف العيش أكثرَ مما في ترف الفخر، حتى إنني سأستحي بعضَ الحياء من عرضِ ثرائي كثيرًا، متمثلًا دائمًا أنني أُنصر الحسودَ إذ أسخقه ببذخي، يقول لجيرانه همسًا: «هذا حيثُ يخشى كثيرًا ألا يُعرف هكذا.»

وسأبحث بين هذا الإسرافِ في الأطياب التي تغمُرُ الأرض، عن أكثرِ ما يكون مقبولًا عندي وأفضل ما أستطيع تملكه؛ ولذا سيكون شراءُ الفراغ والحرية أولَ ما ينفَعني به ثرائي، وإليهما أضيفُ الصحةَ إذا كان لها ثمن، ولكن بما أنها لا تُشترى بغير الاعتدال، وبما أنه لا توجدُ لذة حقيقيَّة في الحياة غيرُ الصحة، فإنني أكون معتدلًا في الحسيَّة.

وسأبقى بجانب الطبيعة دائمًا ما أمكن، وذلك مصانعةً للحواسِّ التي نلتها منها، واثقًا بأنها كلُّما وضعتُ نصيبًا منها في متعبي وحدثُ نصيبًا من الحقيقة في هذه المتع، وسأخذ الطبيعة نموذجًا دائمًا عند اختيار الأمور القائمة على التقليد، وسأفضلُ الطبيعة في شهواتي وسأستشير الطبيعة في أذواقي دائمًا، وسأريد من الأطعمة دائمًا أحسن ما تُعدُّ وأقلَّ ما يُمُرُّ من الأيدي وصولًا إلى موائدنا، وسأحولُ دون مخادعاتِ الغش، وسأذهب لملاقة اللذة، ولن يغتني رئيسُ الخدم من نهمي الطائش الغليظ، ولن يبيعي مطلقًا سُمًّا بثقله ذهبًا على أنه سمك، ولن تكون مائدتي مستورةً مطلقًا بأجهزة من الأقدار والجيف آتية من بعيد، وسأنفقُ مشقَّتي قضاءً لحسيتي، ما دامت هذه المشقة، إذ ذاك، لذة بنفسها تزيدُ على ما ينتظر، وإذا أردتُ أكلَ طعامٍ يُؤتى به من أقصى الدنيا ذهبًا، مِثْلَ أيسسُوس، للبحث عنه هنالك مفضلاً هذا على جلبه من هنالك؛ وذلك لأنه يُعوِّزُ أفخرَ الأطعمة من التعليل دائمًا ما لا يُجلب معها، وما لا يستطيع أيُّ طاهٍ أن يمنحها إياه؛ فهوَّ الإقليم هو الذي أنتجها.

ولذات السبب لن أُقلِّد أولئك الذين لا يكونون في حالٍ حسنٍ إلا حيثُ لا يكونون مطلقًا، فيجعلون بعضَ الفصول مناقضًا لبعض دائمًا، ويجعلون الأقاليم مناقضةً للفصول، والذين يَبحثون عن الشتاء في الصيف وعن الصيف في الشتاء، فيذهبون إلى إيطاليا طلبًا للبرد، وإلى الشمال طلبًا

للحر، غير مُفكِّرين في أنهم حين يَرَوْنَ الفرار من شِدَّةِ الفصول يَجِدُونَ هذه الشِدَّةَ في الأماكنِ التي لم يُعَلِّمَ اتِّقَاؤها فيها قَط، وسأبقى حيث أنا، أو إنني أسلُكُ السبيلَ العاكس، أي إنني أرغب في استخلاصي من الفصلِ كُلِّ ما فيه من لذة، ومن الإقليمِ كُلِّ ما فيه من خصائص، وسيكون لديّ من تنوعِ الملائدِ والعادات ما لا يتشابهه مُطلقًا، مع وجوده في الطبيعة دائميًا، فأذهبُ لقضاء الصيفِ في نابل، ولقضاء الشتاء في بَطْرُسْبُرْغ، فأستنشِقُ تارةً نسيماً لطيفاً وأنا نصُفُّ مُضطَّجِعٍ في مغاراتِ تارنْتِ الرطبية، وأتمتع تارةً بنورِ قصرٍ من جَمَدٍ وأنا صَيِّقُ النَّفسِ تَعَبٌ من ألطافِ المَرَقَصِ.

وأريدُ في أدواتِ مائدتي وزينةِ منزلي أن أُقلِّدَ تنوعَ الفصولِ بزخارفِ بالغةِ البساطة، فأستخلصُ من كُلِّ فصلٍ جميعَ مُتَعِهِ غيرَ سابقٍ لِمُتَعِ الفصلِ الذي يَتَّبِعُهُ. وهكذا تُوجَدُ مشقةً، لا ذوقً، في إقلاقِ نظامِ الطبيعة، وفي انتزاعِ منتجاتٍ غيرِ إراديةٍ تُعَمُّ بها كُرْهًا ضَمِنَ لعنتها، فلا تستطيع هذه المنتجاتُ تغذيةَ المَعِدَةِ ولا مِصانعةَ الخَلْقِ عن عدمِ وجودِ خاصيةٍ لها ولا طعم، ولا شيءٍ أَنفِهِ من البواكير، وليس بغيرِ نفقاتٍ كبيرةٍ ما يستطيع الغنيُّ الفلانيُّ بباريسٍ مع أفرانِهِ ومُدْفَاته، أن يُحضِرَ إلى مائدته في جميعِ السَّنَةِ خُضْرًا سيئَةً وفواكهَ رديئة. وإذا كنتُ حائرًا كَرَّرًا أيامَ الجليدِ وشمًا عَنِيْرًا في وَسَطِ الشتاء، فبأيةِ لذةٍ أذوَقُهُما عندما يكون حلقِي غيرَ محتاجٍ إلى تطريةٍ ولا إلى ترطيبٍ؟ وهل تطيبُ لي الكستناءُ الثقيلةُ أيامَ الحرِّ الشديدِ؟ وهل أَفضَلُها خارجةً من الموقِدِ على الكَشْمِشِ والنوتِ الفِرَنْجِيِ والفواكهِ المُبَرَّدَةِ تُقدِّمُ إليّ فوقِ الأرضِ من غيرِ جُهدٍ كبيرٍ؟ ينطوي سَتْرُ الإنسانِ لِمَوْقِدِهِ في شهرِ ينايرِ نباتاتٍ متصنَّعةٍ وأزهارٍ مُصَفَّرَةٍ خاليةٍ من الرائحةِ على عَطَلٍ من زينةِ الربيعِ أكثرَ مما تنطوي على تزيينٍ للشتاءِ؛ أيّ إنه ينطوي على حِرمانِ الإنسانِ لذةَ الذهابِ إلى الغابِ للبحثِ عن البنفسجِ الأولى وتَرصُدِ البُرْعَمِ الأوَّلِ، والهتافِ في نشوةٍ من البهجةِ بالكلمة: «أيها النَّاسُ، إنكم لم تُتْرَكُوا، فلا تزالِ الطبيعةُ حيَّةً.»

وسيكون عندي قليلٌ من الأجراءِ لأُخَدَمَ جيِّدًا، وهذا ما كان قد قيل، وهذا ما يصلحُ قوله أيضًا. وينالُ ابنُ الطبقةِ الوسطى من أجيره الوحيدِ خدمةً حقيقيةً أكثرَ مما ينالُ الدُّوكُ بعشرةٍ من السادةِ يحيطون به، ومما فَكَّرْتُ فيه مائةُ مرةٍ أنني، حين وجودي حَوْلَ المائدةِ والقَدَحِ بجاني، أشربُ عندما أريدُ بدلًا من وجودي حَوْلَ مائدةٍ كبيرة، فيرتفعُ عشرون صوتًا لإحضارِ الشرابِ قبل أن أستطيعَ إطفاءَ عطشي؛ فكلُّ ما يُصنَعُ من أجلِ الآخرين يُصنَعُ سيئًا كما يُتَّخَذُ. ولذا فلا أُرسلُ أحدًا إلى الباعةِ، بل أذهبُ بنفسِي، وذلك خشيةً أن يتفقَ خَدَمِي مع الباعةِ قبل أن يتفقوا معي، وذلك لأطمئنُ أيضًا إلى الاختيارِ وأدفعَ أقلَّ ما يُمكن من الثَّمَنِ. وأذهبُ للقيامِ برياضةٍ لذيذةٍ

ولأشاهد بعض المشاهد ما يَقَعُ خارج منزلي، وهذا يُسَلِّي، وهذا يُهْدِّبُ أحياناً. وأخيراً أذهب للنزهة، وهذا شيءٌ يُذكر دائماً. ويبدأ السَّأم بالحياة الحضرية كثيراً، ومتى كثرت النزهة قلَّ المَلل. ويُعَدُّ البَوَابُ والخدم من أسوأ التراجمة، فلا أريد مُطلقاً أن يكون هؤلاء النَّاسُ بيني وبين بقية النَّاسِ دائماً، كما أنني لا أريدُ أن أسيرَ دائماً مع فرقة عَرَبِيَّةٍ كما لو كنتُ أحافُ أن يُقتَرَبَ مِنِّي. وتكون خيلٌ من ينتفعُ بساقيه مستعدةً دائماً، فإذا ما تَعَبْتُ أو مَرِضْتُ عَرَفَ هذا قِبَلِ غيره، وهو لا يخشى أن يُضطرَّ إلى التزام منزله متعللاً بهذه الذريعة إذا ما أراد حوذُبه أن يتنزه، وما كان ألفُ عاتقٍ في الطريق ليستفد صبره، فلا يبقى في مكانه حينما يريد أن يُعَدَّ في السَّير. وأخيراً، إذا كان لا يُوجدُ من ينفعنا جيداً كما ننفَعُ أنفسنا، وَجِبَ علينا ألا نتلقَى من الآخرين خدماً غيرَ ما لا نستطيع إنجازه بأنفسنا، ولو كُنَّا أقوى من الإسكندر وأغنى من قارون.

ولا أوْدُ أن أكون صاحبَ قصرٍ للإقامة؛ وذلك لأنني لن أسكنَ غيرَ غرفةٍ واحدةٍ من هذا القصر، وكلُّ غرفةٍ مشتركةٌ ليست لأحدٍ. وتكون غرفةٌ كلِّ واحدٍ من خَدَمِي غريبةً عني كغرفةٍ جاري. ومع أن الشرقيين كثيرو الشهوة، فإنهم بسيطو السَّكن والأثاث، وهم يُعدُّون الحياةَ سَفْراً ومنزلهم فندقاً. ومن القليل أن يتناول هذا السببُ أغنياءنا الذين يقصدون العيشَ مُخلدين، ولكن سيكون لديَّ سببٌ آخرٌ يؤدي إلى عين النتيجة، فيلوخ لي أن إقامتي بمكانٍ واحدٍ مع تلك الأبهة يعني إقصائي عن جميع الأماكن الأخرى، وَحَسْبِي في قصري هكذا، والعالمُ قصرٌ جميلٌ بما فيه الكفاية. أوليس كلُّ شيءٍ للغنيِّ إذا ما أراد التمتع؟ وشعارُ الغنيِّ هو: «وطنك حيث تكون بخير». وآلهة البيت عنده هي الأمكنة التي يَقْدِرُ المالُ فيها على كل شيء، ويكون بلدُه كلِّ مكانٍ يُمكن انتقالُ خزينته إليه، شأنُ فليب الذي كان يُعَدُّ من أملاكه كلِّ حصنٍ يُمكن أن يدخله بغلٌ مُحملاً مالا. ولم ذهابُ الإنسان إذن ليُخصرَ نفسه ضمن جدرانٍ وأبوابٍ فلا يخرج منها أبداً؟ وإذا ما طردني وباءٌ أو حربٌ أو تمرُّدٌ من مكانٍ ذهبْتُ إلى آخرٍ ووجدتُ وصولَ فندقي إليه قبلي. ولم أَعْنَى إقامة منزلٍ لنفسي وقد أُقيمت لي منازلٌ في جميع العالم؟ ولم أعدُّ لنفسي، وأنا الذي يستعجل الحياةَ كثيراً، مُتَعِّاً من بعيد، مع أنه يُمكنني أن أجدها حيث أنا اليوم، وما كان الإنسان يستطيع أن يجعلَ لنفسه مصيراً مقبولاً إذا ما عارضَ نفسه بلا انقطاع، وهكذا كان أيبذليس يُلوم الأغرِيحَتِيِّينَ على تكديسهم الملاذِّ كأنه لم يبقَ لهم غيرُ يومٍ يعيشون فيه وعلى البناء كأنهم لا يموتون أبداً.

ثمَّ ما فائدتي من منزلٍ بالغ الاتساع ما قلَّ عندي من يَعْمُرُه وما كان أقلَّ من ذلك ما يملؤه؟ سيكون أثاثي بسيطاً بساطةً أذواقي، ولن يكون عندي رواقٌ لعرض الصور ولا مكتبة، ولا

سَيِّمًا عند ولعي بالمطالعة ومعرفتي بالألواح، لِعلمي هنالك أن مجموعات كهذه لا تكون كاملةً مطلقًا، ولأن نقص ما يُعوزها يورث غمًا أكثر من عدم حيازتها، وبهذا يُسفرُ اليُسْرُ عن عُسر. ولا تجدُ صانعَ مجموعاتٍ لم يشعُرْ بهذا، وإذا كنتَ خبيرًا، فلا ينبغي لك أن تُصعِّجَ مجموعةً مُطلقًا، ولا ينبغي لك أن تُطليحَ الآخرين على مكتبك إذا كنتَ تُعرفُ الانتفاعَ به لنفسك.

وليس القمارُ أُلهُوَّةَ الرجلِ الغنيِّ مُطلقًا، والقمارُ وسيلةُ البَطَالِ، وتمنحني ملاذِّي من الأعمال ما لا تترك لي معه وقتًا أسيءُ شغله بذاك المقدار، وإذا كنتُ معتزلاً فقيرًا لم أَلعبُ قطُّ ما لم يكن هذا لعبَ الشُّطرنجِ، وهذا يوفي على الغاية، وإذا كنتُ غنيًّا كان لِعبي أقلُّ من ذلك أيضًا، وكان لِعبي صغيرًا جدًّا، وذلك لئلا أرى أحدًا مُستاءً مُطلقًا، ولكيلا أكونَ ساحطًا. وبما أن فائدةَ اللعبِ يُعوزها الباعثُ في اليُسْرِ فإنها لا تتحوَّلُ إلى غيظٍ مُطلقًا في غيرِ نفسٍ سيئةٍ الوضع. وما يستطيع الرجل الغنيُّ أن ينالَ من فوائدِ في اللُّعبِ يكون محسوسًا لديه دائمًا أقلُّ مما في الخسارة. وبما أن من شأنِ شكلِ الألعابِ المعتدلة، التي يُتمتَعُ بفائدتها مع الرِّمَنِ، أن تُوجِبَ حُسْرًا أكثرَ من أن تُورثَ كسبًا على العموم، فإن من غيرِ الممكنِ عند حُسنِ الانتباه أن يُولَعَ كثيرًا بأُلهُوَّةٍ تقع جميعُ أخطارها عليه. ويمكن الذي يُعَدِّي زهوَه بمفضلاتِ الطالع أن يبحث عنها في أكثرِ الأمورِ تأثيرًا، ولا تتبين هذه المفضلات في أصغرِ الألعابِ أقلُّ مما في أكبرها. ولا يتناول ذوقُ القمارِ، الذي هو ثمرةُ البخلِ والمَلَلِ، غيرَ النفوسِ الفارغةِ والقلوبِ الخالية، ويلوح لي أنني أكونُ من الشعورِ والمعارفِ الكافية ما أستغني به عن مثلِ هذه التكملة. ومن النادر أن يُسَرَّ المفكِّرونَ بالقمارِ الذي يُعطلُّ عادةَ التفكيرِ، أو يحوِّلها إلى تدابيرٍ جدية، وكذلك فإن إحدى المنافع التي نشأت عن تدوُّقِ العلوم، وربما كانت المنفعة الوحيدة، هي أن تُضَعِفَ بعض الضعفِ ذلك الولعِ الدَّيْسِ. والناسُ يُفضِّلونَ كشفَ فائدةِ اللُّعبِ على تعاطيه، وسأكافحه بين اللاعبين، وسيكون سروري بأن أسخَّرَ منهم إذ أراهم يخسرونَ أعظمَ مما بكسبِ أموالهم منهم.

وسأكونُ على نَمَطٍ واحدٍ في حياتي الخاصة وفي معاشرتي للناس، وسأريدُ أن يَصعِّجَ نصيبي يُسْرًا في كلِّ مكان، وألا يُشعِرَ بتفاوتٍ مُطلقًا. ويُعدُّ بريقُ الزينةِ الخادعُ تقيلاً من ألفِ ناحية، وأودُّ للاحتفاظِ بين الناسِ بكلِّ ما يمكن من الحرية، أن أكون من المظهرِ ما أبدو به في مكاني عند جميعِ الطبقات، فلا أمارُ في أية واحدةٍ منها، فأستطيعُ أن أختلطَ من غيرِ تَصنُّعٍ أو تعيُّرٍ في شخصي بالجمهورِ في الحانةِ أو بالطبقةِ العليا في الباليةِ رويَّال؛ ومن ثمَّ أجعلُ في متناولي دائمًا ملاذَّ جميعِ الطبقاتِ لِمَا أكونُ أكثرَ سيطرةً على سلوكي. ويُقال إنه يوجد من النساءِ من يُوصِدُنَ

أبوابهن دون أكمام القمصان المطرزة، فلا يستقبلن أحداً من غير مُحَرَّمات؛ ولذا فإنني أذهب لقضاء يومي في مكانٍ آخَرَ، ولكن إذا كان هؤلاء النسوة من الفتيات الغواني أمكنني أن ألبس في بعض الأحيان من المُحَرَّمات ما أقضي معه هنالك ليلةً على الأكثر.

وستقومُ العلاقةُ الوحيدةُ في مصاحباتي على تبادلِ العواطف وتوافقِ الأخلاق، وسألزُمها مثلَ رجلٍ لا مثلَ غني، ولن أُطيقَ تسميم فتونها بالمنفعة مطلقاً. وإذا كان يُسري قد ترك لي شيئاً من الإنسانية، فإنني أوسّع مدى خُدْمي وإحساني إلى بعيد، ولكنني أريد أن يكون حولي مُجتمَعٌ لا بلاط، وأصدقاء لا مُحْتَمون. ولن أكون حامياً لضيوفي مطلقاً، بل قارئاً، وستتركُ الاستقلالُ والمساواةُ لِصِلاتي كلِّ سلامة نيةٍ وحسنِ التفات، وستكون المسرةُ والصدقةُ وحدهما قانوناً حيث لا يكون للواجب ولا للمنفعة مكان.

ولا يُشترى الصديقُ ولا الخليفة. أجل، إن من السهل حيازة نساءٍ بالمال، بيد أن المال وسيلةٌ عديم كَوْن الواحدٍ عاشقاً لأية واحدةٍ منهن. ومع أن بيع الغرام أمرٌ مُستبعدٌ فإن المالَ يقتله لا محالة، ومن يدفع مالا لا يُحبُّ لزمٍ طويلٍ بسبب دفعه ولو كان أحرى النَّاس بالحب، وذلك أنه لا يلبث أن يدفع من أجل آخَرَ، وإن شئت فقل إنه سيُدفع إلى هذا الآخر من ماله، فتكون المرأة الطامعة الخائنة الخبيثة في هذه العلاقة المضاعفة التي نُسجت من المنفعة والدعارة والخالية من الحُبِّ والشرف واللذة الحقيقية، تكون هذه المرأة التي تُعامل من قِبَل النذل المدفوع إليه مالاً كما تُعامل الغيبي الدافع إليها مالا بريئة الذمة نحو الاثنين على هذا الوجه. ومن أحلى الأمور أن يكون الإنسان ندي الكفِّ تجاه من يحبُّ إذا لم يؤدِّ هذا إلى مساومة، ولا أعرف غير وسيلةٍ واحدةٍ يروي الرجلُ بها هذا الميلَ مع خليلته من غير أن يُسمم الحُب، وهي أن يُعطيها كلَّ شيء، ثم أن تقوم بأمرٍ عيشه، وقد بقي أن يُعرف أين تكون المرأة التي يخلو اتخاذ هذه الطريقة معها من هوس.

ومن قال: «إن لايسن ملكي من غير أن أكون مُلْكاً لها.» كان قوله هذا خالياً من المعنى؛ فليست الحيازة غير المتبادلة شيئاً مذكوراً، وذلك فضلاً عن كونها حيازة جنس لا حيازة فرد. ولكن إذا كان أدبُ الحُبِّ غير موجود، فلم يُثارُ ضجيجٌ حول الباقي؟ لا شيء أسهل من أن يوجد، ويكون البغالُ أقرب إلى السعادة من صاحب الملايين من هذه الناحية.

وي! لو أمكن التوسُّع في متناقضات الفسوق بما يكفي لوجد عند بلوغه غرضه كثير البعد من حسابه! ولم هذا الجشع الوحشي في إفساد الطُّهر، وفي جعل ضحية من الشباب الذي تجب وقاينته، وفي هذه الخطوة الأولى التي تجر، لا محالة، إلى هوة من البؤس لا يُخرج منها إلا

بالموت؟ غلظةً وغرورٌ وغبابةٌ وغواية، ولا شيء أكثر من هذا، حتى إن هذه اللذة ليست من الطبيعة، وإنما هي من الرأي الدارج، من هذا الرأي الذي هو أسفل ما يكون لقيامه على ازدراء النفس. ومن يشعر بأنه آخر الناس يخش مقارنته بغيره، ويرغب أن يكون الأول ليكون أقل مقتًا عند الآخرين. ورؤا هل يكون أكثر الناس طمعًا في هذا المشهي الخيالي من الشبان اللطفاء الذين هم أهل لأن يقفوا موقع الرضا، فيعذروا كثيرًا إذا ما بدوا مستعصين؟ كلاً، فلا يخشى الذي يكون وسيماً صاحباً لمريّة وعواطف، اختيار خليلته إلا قليلاً؛ فهو يقول لها مطمئناً: «لست أبالي أن تعرفي الملاء؛ ففؤادي يخبرني عنك بأنك لم تعرفيها قط.»

ولكن إليك شيخاً أسطورياً من شيخ الغاب، نهكه الفجور وخلا من الثنون والملاطفة والاعتبار ومن أنواع الحياء، وصار عياً غير جدير بأن يروق أية امرأة تُعاشر أهل الحب، فيرى هذا الشيخ أن يعوض من هذا بفتاة طاهرة، فيجعل المبادرة تسبق التجربة، ويحرك حواسها للمرة الأولى، ويقوم آخر أمل له على نيل الخطوة بالطرفة. أجل، إن هذا ينطوي على الباعث الخفي لذلك الهوى، ولكنه مخطئ؛ فما يأتي من رجس ليس أقل صدوراً عن الطبيعة من الميل التي يُريد تهييجها، وهو مخطئ أيضاً في أمله؛ فالطبيعة عينها تُعنى بادعاء حقوقها، وذلك أن كل فتاة تبغ نفسها هي غير بكر من زمن، وذلك أنها إذ تكون قد وهبت نفسها عن خيار تكون قد أتت ما يخشى من مقارنته؛ ولذا فإنه يشتري لذة خيالية، يشتري لذة ليست أقل إثارة للمقت.

وأما أنا، فتوجد نقطة لا أتعير عندها مطلقاً مهما بلغت من الغنى، وإذا لم يبق عندي خُلُق ولا فضيلة بقي عندي شيء من الذوق والشعور والرقة على الأقل، وهذا يقيني من زلل إنفاق ثروتي على الأوهام واستفاد كيسي وحياتي حملاً لأولاد على الاستهزاء بي وعلى خياني. ولو كنت فتي لبحث عن ملاذ الشباب. وإني، إذ أطلبها بكل ما تنطوي عليه من شهوة، لا أبحث عنها كرجل غني، ولو بقيت كما أنا عليه الآن لكان الأمر شيئاً آخر؛ أي لاقتصر على ملاذ سني بحكمة، فأتخذ الأذواق التي أستطيع أن أتمتع بها وأحسب التي عادت لا تُورثني غير الغم، ولن أعرض لحياتي الرمادية لازدراء الفتيات مطلقاً، ولن أطيع مطلقاً أن أرى ملاطفتي المستكربة التي تخلع منهن القلب، وأن أعد لهن على حسابي أدعى الأحاديث إلى الهُزء، وأن أتمثلهن وهن يصفن ملاذ القرد الأشمط، كأنهن ينتقمن لأنفسهن من اصطبارهن عليه. وإذا ما حوّلت عاداتي التي أسىء كفاؤها سابق ميولي إلى احتياجات، قضيت هذه الاحتياجات على ما يُحتمل، ولكن مع خجل من نفسي. وأميز الهوى من الاحتياج، وأتوافق ما أمكنني، وأقتصر على ما اتفق لي،

فأعودُ غيرَ مبالٍ بضَعفي، ولا أريدُ أن يكون لي غيرُ شاهدٍ واحدٍ على ذلك خاصة. وللحياة البشرية ملاءمةً أخرى إذا ما أُعوزتْها تلك، وإذا ما سَعينا عيبًا وراء ما يَفِرُّ منها، حُرْمنا ما بقي لنا منها، فلنُغَيِّرَ أذواقنا مع السنين، ولا نحاول تبديل سنِّ بسنِّ أكثرَ من محاولتنا وَضَعَ فصلٍ مُوضَعِ الفصول الأخرى. وهكذا يجب أن نكونَ على ما نحن عليه في جميع الأوقات، وألاً نكافح الطبيعة؛ فمثلُ هذه الجهود تُبلي الحياة، وتُحوّل دون انتفاعنا بها.

ولا يسأمُ الجمهورُ مطلقًا؛ فحياته فاعلة، وألْهُوَاتُه نادرة، وإن لم تكن منوَّعة، وما يقضي من أيامٍ تعبٍ كثيرةٍ يذيقه بضعة أيامٍ عيدٍ مع النعيم، وما يكون من تناوبٍ بين الأشغال الطويلة والعُطَل القصيرة يقوم مقام التعليل في ملاءمة طبقته. ويُعدُّ السَّامُ من أعظم المصائب التي يُصاب بها الأغنياء، ويُضنيهم السَّامُ في سواءٍ كثيرٍ من الألهوآت التي تُنظَّمُ بنفقاتٍ باهظة، ويُضنيهم السَّامُ بين كثيرٍ من النَّاس الذين يتسابقون إلى الوقوع عندهم موقع الرِّضا، فيقتلهم وهم يقضون حياتهم في الفرار منه وفي الإصابة به. وهم يُرَهَقون بأثقاله التي لا تُطاق، ويُفترَسُ النساء اللاتي عُدنَّ لا يَعْرِفن أكثرًا ولا لهوًا، باسم الأبحرة السوداوية على الخصوص، ويتحوّل السَّامُ لدى النساء إلى مَرَضٍ هائلٍ ينزع عقولهنَّ ثمَّ حياتهنَّ أحيانًا. وأمَّا أنا، فلا أعرفُ مصيرًا أقطع من مصير الحسنة بباريس، مصير هذه الحسنة التي يُولِّغُ بها فتىً لطيفٌ فيغدو هذا الفتى مثلَ امرأةٍ في البطالة، ويتعد عن رجولته تمامًا فيحتمل عن زهوٍ بأن يكون ذا نصيبٍ حسنٍ أسوأ ما يُمُرُّ على مخلوقٍ من عبوسٍ أكلح الأيام.

وتشتمل اللياقاتُ والمُوضات، وما يُشتقُّ من الترفِ وحسن الوضع من عادات، على مجرى الحياة في أعيسٍ ما يكون من أطراد، وتُعدُّ اللذة التي يُرادُ عرضُها على أعين الآخرين ضائعةً لدى جميع النَّاس؛ فنحن لا نتمتّع بها، ولا نجعل الآخرين يتمتّعون بها.^{٤٤} ويكون السُّخْرَةُ،^{٤٥} *الذي يخافه الرأي العام في كلِّ أمر، بجانب الرأي العام دائمًا ليجوزَ عليه ويجازيه. ولا يكون الإنسان سُخْرَةً بغير أشكالٍ مُعيّنة. ومن يَعْرِفُ تنويع أوضاعه وملاءمته يُمخُّ اليوم تأثير

^{٤٤} انتحلت اثنتان من السيدات العصريّات دستورًا لهما بالأ تذهبا إلى الفراش قبل الساعة الخامسة صباحًا للدلالة على أنهما التهما كثيرًا، ويقضي خدْمُهُما أشد أوقات الشتاء في الشارع انتظارًا لهما ملاقين كلَّ شدة لاتقاء الجمود. ومما حدث ذات ليلة، وإن شئت فقل ذات صباح، أن وقع دخول المنزل الذي قضتا فيه لهوًا كبيرًا، فتركتا الساعات تمر من غير حساب، فوجدتا وحدهما نائمتين على مقعدين ذوي مساند.

^{٤٥} *السُّخْرَةُ: مَنْ يُسخر به.

الغد. أجل، إنه يُستردُّل في نفوس النَّاس، ولكنه يتمتَّع؛ وذلك لأنه وَقَفَّ على كل ساعة وكل أمر، وذلك هو طُوري الثابت، وفي كل وضعٍ لا أبالي بأي وضعٍ آخر كان، وسألتخذ كلَّ يومٍ على حِدَةٍ مستقِلاً عن الأمس والغد. وبما أنني أكون من الشعب ومع الشعب، فإنني أكون ريفياً في الحقول، فإذا ما تكلمتُ عن الزراعة لم يهزأ الفلاح بي، ولن أذهب لبناء مدينة لي في الأرياف ولوضع قصرٍ كالتَّويلري أمام منزلي في الإقليم، وسيكونُ لي على مُنحدرٍ تلٍّ لطيفٍ ظليلٍ منزلٌ حقليٌّ صغيرٌ أبيضٌ مع مصاريحٍ خُضِرٍ. ومع أن العَمَاء^{٤٦} * يكونُ أحسنَ ما يُمكن في كلِّ فصلٍ، فإنني أُفضِّلُ تفضيلاً بهيئاً أن يكون الغطاءُ من القَرَميد، لا من الأَرْدواز الكتيب؛ وذلك لِمَا للقَرَميد الذي تُغطِّي به منازلُ بلدي من منظرٍ أظهِرَ وأبهَرَ من العَمَاء، ولِمَا يذكُرني القَرَميد بشيءٍ من دُور شبابي السعيد. وستكون لي ساحةٌ كَفِناءٍ للدَّواجن، وسيكون لي إصطبلٌ كُمَراحٍ للبقر، نيلاً للألبان التي أُحِبُّ كثيراً، وسأكون صاحباً لمَبْقلة، وصاحباً لحديقةٍ مشابهةٍ للتي سأتكلم عنها فيما بعد، وستكون الفواكه تحت تصرُّفِ المنتزهين، فلا تُعدُّ ولا تُقْتَطَفُ من قِبَلِ بستانِي. وما يشوب كَرَمِي من صنٍّ لا يَعرِضُ على العيون مُطلقاً صُفوفَ أشجارِ الفواكه الرائعة المُسندَّة إلى الحيطان، والتي لا يكادُ يجرؤُ أحدٌ على مسَّها. والواقع أن هذا التبذير الضئيل يكون غالياً قليلاً، وذلك لاختياري ماوأي في إقليمٍ بعيدٍ يُرى فيه قليلٌ مالٍ وكثيرٌ غلالٍ ويسوده الوُفْرُ والفقر.

وهنالك أجمُعٌ حولي عُصبةٌ مختارةٌ أكثرَ منها وافرة، أجمُعٌ عُصبةٌ مؤلَّفةٌ من أصدقاءٍ محبينٍ للسرِّية عارفين بها، ومن نساءٍ يَسْتَطِيعن مغادرةَ مقاعدهن ذاتِ المساند، وتعاطيَ الألعاب الريفية، وتناولِ الصَّنارةِ والدَّبقيِّ ومِشْطِ جامعي القُشَّاشِ وسلَّةِ قاطفي العنب أحياناً بدلاً من المَكوكِ وورق اللُّعب. وهنالك تُنسى مظاهرُ المدن كُلِّها، فنصيرُ قرويين في القرية، ونجد أنفسنا مُوكِّلين إلى طائفةٍ من مختلف الأُلُهوَاتِ التي لا تَحْبُونَا في كلِّ مساءٍ بغيرِ هَمٍّ الاختيار للغد، ويجعلُ لنا التمرينُ والحياةَ الفعَّالةَ مَعِدَّةً جديدةً وأذواقاً جديدة، وتكون جميعُ وِجَاتِنَا ولائمٍ حيث يروقُ الوُفْرُ أكثرَ من اللطافة، ويكون الجدُّلُ والأشغال الريفية والألعاب المرحَّة طُهارةَ العالَمِ الأوَّلين، وتكون الأَطعمة الفاخرة مشيرةً للسخرية عند مَنْ يَكُدُون منذ طلوع الشمس، ولا يكون لطعامنا نظامٌ أكثرَ من أن تكون له نفاسة، وستكون غرفةُ طعامنا في كلِّ مكان، فتكون في الحديقة أو في السفينة أو تحت شجرة، كما تكون أحياناً في مكانٍ بعيدٍ بالقرب من ينبوعٍ وعلى الكأ الأَخضر الرطيب، وتحت باقات الحَوْر وشجر البُندق، ويَحْمِلُ مُوكِّبٌ طويلٌ من المدعوِّين

^{٤٦} * العَمَاء: ما فوق سقوف البيت من التراب وغيره.

المَرَحِينِ أَهْبَةَ الْوَلِيمَةِ مَعَ الْغِنَاءِ، وَيَتَّخِذُ الْعُشْبَ مَائِدَةً وَمَقْعَدًا، وَتُسْتَعْمَلُ أَطْرَافُ الْحَوْضِ مَقْصَعًا، وَيَتَدَلَّى نَقْلُنَا مِنَ الشَّجَرِ، وَتُقَدَّمُ الْأَطْعَمَةُ بِلَا نِظَامٍ وَتُعْنِي شَهْوَةَ الطَّعَامِ عَنِ الْمَجَامِلَاتِ، وَيُفْضَلُ كُلُّ وَاحِدٍ نَفْسَهُ عَلَى غَيْرِهِ جَهْرًا فَيَجِدُ مِنَ الْحَسَنِ أَنْ يَسِيرَ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى غِرَارِهِ، فَيُفْضَلُ نَفْسَهُ عَلَيْهِ بِدَوْرِهِ. فَعَنْ هَذِهِ الْأُلْفَةِ الْقَلْبِيَّةِ الْمَعْتَدِلَةِ يَنْشَأُ بِلَا غِلْظَةٍ وَلَا رِنَاءٍ وَلَا قَسْرٍ اخْتِلَافٌ ضَاحِكٌ أَكْثَرُ فُتُونًا مِنَ الْمَجَامِلَةِ مَائِدَةً مَرَّةً وَأَصْلَحُ مِنْهَا لِتَأْلِيفِ مَا بَيْنَ الْقُلُوبِ. وَلَا تَرَى هُنَاكَ خَادِمًا مَزْعِجًا يَرْقُبُ كَلَامَنَا، وَيَنْتَقِدُ أَوْضَاعَنَا مُخَافَتًا، وَيَعُدُّ لَقَمَنَا بِعَيْنٍ تَنَمُّ عَلَى الشَّرِّهِ، وَيَتَلَهَّى بِحَمَلِنَا عَلَى انْتِظَارِ الشَّرَابِ، وَيَتَذَمَّرُ مِنْ طَوْلِ الْغَدَاءِ. وَسَنَكُونُ خَدَمَ أَنْفُسِنَا لِنَكُونَ سَادَةَ أَنْفُسِنَا، وَسَيُخْدَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ قَبْلِ الْجَمِيعِ، وَيَمْضِي الْوَقْتُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعَدَّ، وَتَكُونُ الْوَلِيمَةُ رَاحَةً، وَتَدُومُ مَا دَامَ حَرُّ النَّهَارِ، وَإِذَا مَا مَرَّ قَرِيبًا مِنَّا فَلَاحُ مَا عَانَدًا إِلَى الْعَمَلِ حَامِلًا آلَاتِهِ عَلَى كَيْفِهِ سَرَّيْتُ عَنْ فَوَادِهِ بِكَلَامٍ طَيِّبٍ وَيَقْدَحُ أَوْ قَدَحِينَ مِنَ الْخَمْرِ الْفَاحِرَةِ؛ أَيُّ بِأَشْيَاءَ تَجْعَلُهُ يَصِيرُ عَلَى بؤْسِهِ مَسْرُورًا. وَسَتَكُونُ لِي مَسْرَةً أَيْضًا بِأَنْ أَحْسَنَ اهْتِزَازَ فَوَادِي وَأَنْ أَقُولَ فِي نَفْسِي سِرًّا: «وَأَنَا رَجُلٌ أَيْضًا.»

وَإِذَا حَدَثَ أَنْ أَوْجِبَ احْتِفَالٌ حَقْلِيَّ اجْتِمَاعَ أَهْلِ النَّاحِيَةِ، كُنْتُ مَعَ عُصْبَتِي فِي الْمُقَدَّمَةِ، وَإِذَا مَا احْتَفَلَتْ بِزَوَاجَاتٍ فِي جَوَارِنَا، يُبَارِكُهَا الرَّبُّ أَكْثَرَ مِمَّا يُبَارِكُ زَوَاجَاتِ الْمَدِينِ، عُرِفَ أَنِّي أَحَبُّ الْفَرَحِ وَدُعَيْتُ، فَأَحْمِلُ إِلَى هَوْلَاءِ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ بَعْضَ الْهَدَايَا الْبَسِيطَةِ مِثْلَهُمْ، وَالَّتِي تَسَاعِدُ عَلَى الْفَرَحِ، فَأَجِدُ فِي مِقَابِلِهَا مِنَ الْمَحَاسِنِ مَا لَا يُقَدَّرُ بِثَمَنِ. أَجِدُ مِنَ الْمَحَاسِنِ الَّتِي تَقَلُّ مَعْرِفَةُ أَمْثَالِي لَهَا؛ أَيُّ أَجْدُ الصَّرَاحَةَ وَالسَّرُورَ الْحَقِيقِيَّ، وَأَتَنَاوَلُ عَشَائِي فِي طَرْفِ مَائِدَتِهِمُ الطَّوِيلَةِ مَسْرُورًا، وَأَشْتَرِكُ فِي تَرْيِدِ إِحْدَى الْأَغَانِي الرَّيْفِيَّةِ، وَأَرْقُصُ فِي نَبْهِمِ^{٤٧} * أَطِيبَ خَاطِرًا مِمَّا أَصْنَعُ لَوْ كُنْتُ فِي مَرْقَصِ الْأَبْرَا.

وَسَيُقَالُ لِي: «إِنْ كُلَّ شَيْءٍ يَسِيرٌ سَيْرًا حَسَنًا حَتَّى الْآنَ، وَلَكِنْ مَا أَمْرُ الصَّيْدِ؟ وَهَلْ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَعَاطَاهُ فِي الْأَرْيَافِ؟» وَأَسْمَعُ، وَقَدْ كُنْتُ لَا أَرِيدُ غَيْرَ مَزْرَعَةٍ، وَقَدْ كُنْتُ مَخْطُئًا، وَأَفْتَرِضُ نَفْسِي غَنِيًّا، وَلَا بُدَّ لِي إِذَنْ مِنْ مَلَادٍ حَصْرًا، مِنْ مَلَادٍ مُدْمِرَةٍ، وَهَذَا أَمْرٌ آخِرُ تَمَامًا، وَلَا بُدَّ لِي مِنْ أَرْضِينَ وَمِنْ غَابَاتٍ وَمِنْ حَرَسٍ وَإِجَارَاتٍ وَمِنْ حَقُوقِ إِقْطَاعِيَّةٍ، وَمِنْ لُبَانٍ وَمَاءٍ مُقَدَّسٍ.

حَسَنٌ جِدًّا، وَلَكِنْ سَيَكُونُ لِهَذِهِ الْأَرْضِ مَجَاوِرُونَ حَرِيصُونَ عَلَى حَقُوقِهِمْ رَاغِبُونَ فِي اغْتِنَابِ حَقُوقِ الْآخَرِينَ، وَسَيَتَشَاجِرُ خُفْرَاؤُنَا، وَرَبْمَا السَّادَةَ، وَإِلَيْكَ مَنَازِعَاتٍ وَمَخَاصِمَاتٍ

^{٤٧} * النَّبِيُّ: بَيْتُ التَّاجِرِ الَّذِي تُنْضَدُ فِيهِ الْغَلَالُ وَالْمَتَاعُ

وأحقادًا، وقضايا على الأقل، وليس هذا مستحبًا كثيرًا، وليس مما يسرُّ المستأجرين مني أن يروا أراني كادحة في برهم، وأن يروا خنازيري جادة في فولهم. وبما أن كل واحد لا يجرؤ على قتل عدوه الذي يقضي على عمله، فإنه يريد طرده من حقله؛ فهم بعد أن يقضوا النهار في زراعة أرضهم لا بد لهم من قضاء الليل في حراستها، وستكون عندهم كلاب حراسة وطبول وأبواق وأجراس، وهم بهذا الضجيج يزعجونني في نومي، وأفكر في بؤس هؤلاء الفقراء على الرغم مني، ولا أستطيع أن أمنع نفسي من لومها على ذلك، ولو شرفقت بأن أكون أميرًا ما أثار ذلك في مطلقًا. وأما أنا الحديث النعمة، الحديث الغنى، فلا أزال أحمل قلبًا عاميًا نوعًا ما.

وليس هذا كل ما في الأمر؛ فكثرة الصيد تُغري الصائدين، وسيكون لدي عمًا قريب صائدون في أرضي الآخرين بلا إذن للعقاب، وسأحتاج إلى سجون وسجانين وقواسبين ومحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، ويلوح لي جميع هذا قاسيًا، وسيأتي نساء هؤلاء التعساء لحصار بابي وإزعاجي بصراخهن، فيجب أن يُطرذن أو أن يُهنن، وسيأتي المساكين الذين لا يصطادون في أرض الآخرين بدون إذن، والذين تزود طريدي حصادهم، للشكوى من ناحيتهم، فيجازي بعضهم لقتلهم الطريدة، ويفتقر الآخرون لأنهم ترفقوا بها، وبإله من تناوب كتيب! ولن أرى من كل ناحية غير أمور بؤس، ولن أسمع سوى الحسرات، ويظهر لي أن هذا يُكدر كثيرًا لذة ذبح جماعات الحجل والأرانب تحت الأرجل، تقريبًا، بلا انزعاج.

وإذا أردتم أن تكون الملائد خالية من الألم فلا تحتكروها، وكلما تركتموها شائعة بين الناس ذقتموها خالصة دائمًا. ولا أصنع مطلقًا إذن كل ما قلت، ولكنني، من غير تغيير للأذواق، أتبع ما أفترضه منها أقل نفقة، وسأقيم منزلي في بلد يكون الصيد فيه مباحًا لجميع الناس، وحيث أستطيع أن أتلهي بلا عائق. أجل، ستكون الطرائد أكثر ندرة، ولكنه سيكون هنالك أعظم جذق في البحث عنها، وأكبر لذة في نيلها. وأذكر دقائق قلب والدي عند طيران أول حجل، ومقدار ما ساوره من فرح حين وجد الأرنب الذي طلبه في نهاره كله. نعم، إنني أصرح بأنه عاد وحده مساءً مع كلبه حاملاً بندقيته وقذائفه وجرايه وصيده الصغير منهوكًا تعبًا وممزقًا بالعوَسج، وراضيًا عن يومه أكثر من جميع صياديكم المعتادين الذين لا يفعلون، وهم راكبون خيلاً أصيلةً ومُتبعون بعشرين بندقيةً مُعدَّة، غير تناول البندقية بعد البندقية مُطلقين القذائف، فيقتلون ما حولهم بلا فن ولا فخر، وبلا ممارسة تقريبًا؛ ولذا فلا تكون اللذة أقل حدودًا. ويزول المحذور عند عدم وجود أرض تُحرس وعدم وجود صائد في أرض غيره يُجازى، وعدم وجود بانس يُؤذى، وهذا سبب قوي

في التفضيل، ومهما تفعلوا فإنكم لا تستطيعون أن تؤذوا إلى الأبد أناساً من غير أن تُعانوا اضطراباً، وما يُصَبُّ من لعنات الشعب يجعلُ الطريدةَ مُرَّةً عاجلاً أو آجلاً.

وقُلن، فضلاً عما تقدّم، إن احتكارَ اللذات يقتل اللذات، وتقوم الألهُوات الحقيقية على مشاطرة الشعب إياها، ومَنْ يُرِدُ حيازةً لذاتٍ لنفسه وحدها يُعَدُّ غيرَ حائزٍ لها، وإذا كانت الجُدُرُ التي أُقيمُ حَوْلَ حديقتي تجعلُ لي من هذه الحديقة حيساً كئيباً، فإنني لا أكون قد صنعتُ غيرَ نَزْعِي من نفسي لذةَ التَّزْهِةِ بنفقاتٍ كبيرة؛ ولذا تراني مضطراً إلى البحث عنها في مكانٍ بعيد، ويفسدُ شيطانُ التملكِ كلَّ ما يَمْسُهُ. ويريد الغني أن يكون سيِّداً في كلِّ مكان، وهو لا يجد نفسه على خيرٍ إلا حيث لا يكون سيِّداً، وهو يُضْطَرُّ إلى الفرار من نفسه دائماً؛ ولذا فإنني أصنعُ في غنابي ما أصنعُ في فقري، والآن إذ أكونُ أكثرَ غنىً بمالٍ الآخرين مما بمالي، فإنني أقبضُ على كلِّ ما يلائمني في جوارِي، ولا يُوجدُ غازٍ أكثرَ مَنِّي عَزْماً، حتى إنني أعتصبُ من الأمراء أنفسهم، فأستولي على جميع الأرضين المكشوفة التي تروقي بلا تفريق، وأطلقُ أسماءً عليها، وأجعلُ من إحداها حديقتي وأجعلُ من الأخرى شُرْفِي، وأكونُ صاحباً لهذه وتلك، فأتنزّه هناك بلا عقاب، وأعود إلى هناك غالباً حفظاً لتصرفي، وأنتفع بالأرض ما أردتُ بقوة السير فيها، ولن أُفْنِعَ نفسي بأن صاحبِ الاسمي للأرض التي أنتجها ينتفع بالمال الذي يناله منها أكثرَ من انتفاعي بها. وليس من المهمَّ أن أعاظُ بخنادقٍ وسياجاتٍ، فسأخذُ حديقتي على كنفِي، وأضعُها في مكانٍ آخر؛ فليست الأمكنة قليلةً في الجوار، وسيمضي وقتٌ طويلٌ على سلمي لجيراني قبل أن يُعوزني الملجأ.

وهذه محاولةٌ للدوقِ الصحيحِ في اختيارِ العُطلِ المستحبة، وهذه هي روح المَرَحِ، وكلُّ ما عداها وهمٌّ وخيالٌ وزهْوٌ حماقة، ومَنْ يبتعدُ عن هذه القواعدِ يأكلُ ذهبه على دُمْنَةٍ مهما كان غناه، ولا يَعْرِفُ قيمةَ الحياةِ مطلقاً.

ومما يُرَدُّ به عليّ، لا ريب، كونُ هذه الألهُوات في متناولِ جميعِ النَّاسِ، وأنه ليس من الضروريِّ أن يكون الإنسانُ غنياً ليتمتع بها، وهذا ما أردتُ الوصولَ إليه ضيقاً؛ فالإنسانُ يفوزُ باللذة إذا ما أرادَ حيازتها. وسبقُ الرأيِ وحده هو الذي يجعلُ كلَّ شيءٍ صعباً، وهو الذي يطرُدُ السعادةَ أمامنا. وكونُ الإنسانِ سعيداً أسهلُّ مائةِ مرةٍ من ظهوره هكذا، وذلك أنه لا حاجةَ لرجلِ الذوقِ واللذةِ حقاً بالغنى، فيكفيه أن يكون حُرّاً سيِّداً لنفسه، ومَنْ يتمتّع بالصحةِ ولا يُعوزُه الحاجيُّ يُعَدُّ على شيءٍ من الغنى إذا ما نزعَ من قلبه زادَ سبقِ الرأيِ، وهذا هو كَفَافُ هُوراس الميمون. فيا أصحابِ صنديقِ المالِ، ابحتوا عن توظيفِ آخرٍ لثروتكم إذن؛ فالشراءُ لا يصلحُ لشيءٍ في حقلِ اللذة. ولن يَعْرِفُ

إميلُ جميعَ هذا أحسنَ مما أعرفُ، ولكن بما أنه ذو قلبٍ أكثرَ صفاءً وسلامةً فإنه يكون أحسنَ شعورًا بذاك، ولا تؤدي جميعُ ملاحظاته في العالم إلى غير توكيد ذلك.

وبينما نقضي وقتنا هكذا نبحثُ عن صُوفيةٍ دائمةً، وذلك من غير أن نجدَها مُطلقًا. ومن المهمَّ كَوْنُها لم تُوجد بسرعة، وقد طلبناها في مكانٍ كُنْتُ واثقًا بأنها لم تكن فيه.^{٤٨}

وأخيرًا يُلحُ الوقت، وقد حلَّ وقتُ البحثِ عنها بجدِّ، وذلك خشيةً أن يتَّحدَ إميلُ امرأةً أخرى بدلًا منها فلا يَعرفَ خطأه إلا بعد الأوان. فوداعًا إذن يا باريسُ، هذه المدينة المشهورة، هذه المدينة ذات الضوضاء والدخان والوحل؛ حيث عاد النساء لا يؤمننَّ بالشرف وبالرجل الصالح. وداعًا يا باريس؛ فنحن نبحثُ عن الحُبِّ والسعادة والعفاف، ولن نكون بعيدين منك بما فيه الكفاية مُطلقًا.

^{٤٨} ومن يجد المرأة الفاضلة؟ هي بعيدة، فإذا ما أتت من أقصى الدنيا كانت موضع تقدير.

الجزء الخامس

ها نحن أولاء قد وصلنا إلى الفصل الأخير من الفناء، ولكننا لم نبلغ الخاتمة بعد.

وليس من الحسّن أن يكون الرجلٌ وحيداً، وإميلُ رجل، وكُنّا قد وعدناه برفيقة، فيجب إعطاؤه إياها، وهذه الرفيقة هي صوفية، وأين مأواها؟ وأين نجلدها؟ يجب أن تُعرف لتُوجد، ولنعرف مَنْ هي أوّلاً، ثمّ نكون أحسنَ حكماً في الأماكن التي تَسْكُن. ولا يكون عملنا قد انتهى بالعتور عليها، وقد قال لوك: «بما أن فتانا الماجد أوشك أن يتزوج، فقد أُنِي وقتُ تركه بجانب خليلته.» في هذه الكلمات يتمُّ كتابه. وأمّا أنا الذي لم يكن لي شرفُ تنشئة ماجد، فإني أحتزُّ من أتباع لوك في ذلك.

صُوفِيَّةٌ أَوْ الْمَرَأَةُ

يجب أن تكون صُوفِيَّةٌ امرأةٌ كما أن إميلَ رجل، أي يجب أن تكون حائزةً جميع ما يلائم بنية نوعها وجنسها للقيام بدورها في النظام المادي والأدبي، ولنبداً إذن بفحص ما بين جنسنا وجنسها من تشابه واختلاف.

وإذا عَدَوْتَ كُلَّ ما لا يتعلّق بالجنس وجَدْتَ المرأةَ رجلاً، فلها عينُ الأعضاء وعين الاحتياجات وعين الخصائص؛ فالآلةُ أُلْفَت على ذات الطراز، وقطعها هي هي، وعملُ إحداها هو عمل الأخرى، وتشابه الهيئة، ومهما يكن الوجه الذي تنظرُ به إليها فإنها لا تختلف فيما بينها إلا بمقدار.

وترى للمرأة والرجل في كلِّ ما يتعلّق بالجنس علاقاتٍ في كلِّ مكانٍ واختلافاتٍ في كلِّ مكان، وتنشأ صعوبةُ المقابلةِ بينهما عن تعييننا في بنية كلِّ منهما ما هو خاصٌّ بالجنس وما هو غير خاصٍّ به. ويدلُّ علمُ التشریح المقارن، حتى المشاهدةُ وحدها تدلُّ، على وجودِ فروقٍ عامةٍ بينهما تظهرُ غيرَ خاصةٍ بالجنس مطلقاً، وهي خاصةٌ به مع ذلك، ولكن بصلاتٍ لا تدخل ضمن نطاق انتباهنا. ونحن لا نعرف المدى الذي يمكن أن تمتدَّ إليه هذه الصلات، والأمرُ الوحيد الذي نعلمه علمَ اليقين هو أن كلِّ ما هو مشتركٌ بينهما هو من النوع، وأن كلِّ ما هو مختلفٌ بينهما هو من الجنس. ونرى بعد النظر إلى وجهةِ النظر المزدوجة هذه أنه يوجد بينهما من المطابقات والاختلافات ما يكون من عجائب الطبيعة معه أن تستطيع صنع موجودين بالغي التشابه بتكوينهما مختلفين بهذا المقدار.

ولا بُدُّ من تأثير هذه العلاقات والاختلافات في الأخلاق، وهذه النتيجة واضحةٌ موافقةٌ

للتجربة، وهي تدلُّ على بُطْلِ المجادلاتِ حَوْلَ تفضيلِ أحدِ الجنسينِ أو المساواةِ بينهما، وذلك كما لو كان كلٌّ من الجنسينِ يسيرُ نحو غاياتِ الطبيعةِ وَفَقَ مصيره الخاص، فلا يكون أكثرَ كمالاً في هذا إلا إذا كان أكثرَ مشابهةً للآخر! وهما يتساويان فيما هو مشتركٌ بينهما، وهما لا يُقارَنَ بينهما فيما يختلفان فيه، ولا ينبغي للمرأةِ الكاملةِ والرجلِ الكاملِ أن يتشابهَا روحًا أكثرَ من أن يتشابهَا وجهًا، ولا يَقْبَلُ الكمالُ زيادةً ولا نقصانًا في ذلك.

وكلٌّ من الجنسينِ يساعِدُ، باقترانهما، على الغرضِ المشتركِ متساويًا، ولكن ليس على طرازٍ واحد. وينشأ عن هذا التنوعِ أوَّلُ اختلافٍ يُمكنُ تعيينه في العلائقِ الأدبيةِ بين الجنسينِ، فيجب أن يكون أحدهما فاعلاً قوياً وأن يكون الآخرُ منفِعاً ضعيفاً، ويجب أن يُريدَ أحدهما ويُقدِرَ بحكمِ الضرورةِ، ويكفي أن يُقاوِمَ الآخرَ قلباً.

ويُسْفِرُ تقريرُ هذا المبدأ عن كونِ المرأةِ خُلِقَتْ لِتروَقَ الرجل، وإذا ما وجب أن يروُقَهَا الرجلُ بدوره فذاك عن ضرورةٍ أقلَّ مباشرةً؛ فَمَزِيَّةُ الرجلِ في قدرته، وهو يروُقُ لأنه قويٌّ فقط. أجل، ليس هنا قانونُ الحُبِّ، وأوافق على هذا، وإنما هذا قانونُ الطبيعةِ السابقُ للحُبِّ نفسه.

وإذا كانت المرأةُ قد خُلِقَتْ لتقعَ موقعَ الرِّضا وتخصِّعَ، فإنه يجب عليها أن تصيرَ مقبولةً عند الرجلِ بدلاً من إغضابه؛ فقوةُ المرأةِ في فتونها، وبهذا الفُتُونِ يجب أن تحمله على أن يجد قُوَّتَهُ وأن يستعملها، وأضمنُ فنٌّ في إنعاشِ هذه القوةِ هو جعلها ضروريةً بالمقاومة، وهنالك تقترن الأنايئةُ بالرغبةِ ويفوز أحدهما بالنصر الذي يُنبئه الآخرُ إياه؛ ومن ثمَّ يُولَدُ الهجومُ والدفاعُ وجُرأةُ أحدِ الجنسينِ وحشمةُ الآخرِ، ثمَّ الحياءُ والخجلُ اللذان تُسلِّحُ الطبيعةُ بهما الضعيفَ لإخضاعِ القويِّ.

ومن يستطيعُ أن يتصوَّرَ أن الطبيعةَ فَرَضَتْ ذاتِ السُّلْفِ لهذا الجنسِ وذاك الجنسِ، وأن الأوَّلَ الذي يَشعرُ بالرغبةِ يجب أن يكون أوَّلَ مَنْ يُبديها أيضاً؟ ويا للفسادِ الغريبِ في الحكم! وبما أن للمشروعِ نتائجَ بالغةَ الاختلافِ لدى الجنسينِ، فهل من الطبيعي أن يكون عندهما عينُ الجُرأةِ في الإقدامِ عليه؟ وكيف لا يرى بمثلِ ذلك التفاوتِ العظيمِ في الحِصَّةِ المشتركةِ، كونُ الاحتياطيِ إذا كان لا يَفْرِضُ على أحدهما ما تَفْرِضُ الطبيعةُ على الآخرِ من الاعتدالِ، فإنه لا يلبث أن ينشأ عن هذا في الحالِ فسادُ الاثنينِ، فيَهْلِكُ النوعُ البشريُّ بالوسائلِ التي قامت لحفظه؟ وإذا وُجِدَ، مع السهولةِ التي يُثيرُ النساءُ بها حواسَّ الرجالِ ويوقظن في قلوبهم بقايا مِزاجِ خامدٍ تقريباً، إقليمٌ تَعَسُّ في الأرضِ، تُدخِلُ الفلسفةُ إليه تلك العادة، ولا سِماً في البلادِ الحارة؛ حيث يُولَدُ إناثٌ أكثرَ من الذكورِ وَيَجْرُنُ عليهم، فإنهم يذهبون ضحايا لهنَّ في آخرِ الأمرِ، ويرون

أنفسهم مقودين إلى الموت من غير أن يقدرُوا على رَدِّه مطلقًا.

وإذا لم يُوجد عند إناث الحيوان عَيْنُ الحياء، فما ينشأ عن ذلك؟ وهل يكون عندها كما عند النساء من الرغائب التي لا حدَّ لها، فيكون هذا الحياء زاجرًا لها؟ لا تأتيها الرغبة إلا مع الحاجة، فإذا ما قُضيت هذه الحاجة انتهت الرغبة، وعادت لا تُرَدُّ الذكْر عن تكْلُف،^١ بل عن جد، بل تُصنع عكس ما كانت تصنع بنتُ أغسطس، فتعود لا تتقبَّل مسافرين بعد أن يكون للمركب شحنته، وتكون أوقاتُ أطفائها قصيرة، فلا تلبث أن تنقضي؛ فالغريزة تُسوقها والغريزة تُقْفها، وأين تكون تكملةُ هذه الغريزة السلبية في النساء إذا ما نزعتم الحياءَ منهن؟ يعني انتظارُ عدم أكثرهنَّ للرجال بعدُ انتظارَ عدم صلاحهنَّ لشيءٍ بعد.

وقد أراد الكائن الأعلى أن يُكرِّم النوعَ البشريَّ بإنعامه على الإنسان بميول لا حدَّ لها، كما أنه أنعم عليه في الوقت نفسه بقانونٍ ناظمٍ لها، حتى يكون طليقًا مُسيطرًا على نفسه؛ فهو إذ يُسَلِّمُه إلى أهواءٍ متطرِّفة يضيف العقلَ إلى هذه الأهواء حتى يهيمن عليها، وهو إذ يُسَلِّمُ المرأةَ إلى رغائب لا حدَّ لها يضيف الحياءَ إلى هذه الرغائب حتى يَزِدَّعها. وهو، زيادةً على ذلك، يضيف أيضًا مكافأةً حاضرةً إلى حُسن استعمال القابليات، أي يضيف الذوق الذي يُنال من صالح الأمور عند اتخاذها قاعدةً للأعمال، وهذا يساوي غريزةَ الحيوانات كما يُلوح لي.

وسواءً أقاسمت الأنتى الرجلَ شهواته أم لا، وسواءً أرغبت في قضائها أم لم ترغب، تدفعه وتدافع عن نفسها دائمًا، ولكن ليس بذات القوة دائمًا، ولا بذات الفوز نتيجة. ويجب لفوز المهاجم أن يأذن المهاجم فيه، أو أن يشير به، وما أكثر الوسائل اللَّبِقة التي يُتَدَرَّع بها للحملِ الصائل على استعمال قُوته! وما كان أكثرُ جميع الأفعال حريَّةً وحلاوةً ليقبَل عُنفًا حقيقيًا مطلقًا؛ فالطبيعة والعقل يَأْبِيان ذلك، وذلك من حيث إن الطبيعة زَوَّدت الأضعف بما يحتاج إليه من القوة للمقاومة إذا ما أرادها، ومن حيث إن العقل يقضي بكون العنف الحقيقي أفضَحَ جميع الأفعال، فضلًا عن أنه مخالِفٌ لمقصدِه، وذلك لكون الرجل يَشْهَر هكذا حربًا على رفيقته ويُجيز لها الدفاع عن نفسها وحرِّيَّتِها حتى على حساب حياة المعتدي، ولكون المرأة وحدها حَكَمًا في الحال التي تكون عليها، فلا يكون للولد أبٌ مطلقًا إذا ما استطاع كلُّ رجلٍ اغتصابَ حقوقه، وبكونه تابعًا للأضعف حقيقة. وليس هذا عن انتحالٍ لعادة الغزل التافهة، ولا عن كرم الحامي

^١ كنتُ قد لاحظت أن ممانعات التصنُّع والدَّلَال أمرٌ شائع بين جميع الإناث تقريبًا، حتى بين الحيوان، حتى حين كونهن أكثر استعدادًا لتسليم أنفسهن، وبدلُ إنكار هذا على عدم ملاحظة أسلوبهن.

الزاهي، ولكن عن قانون الطبيعة الثابت الذي يمنح المرأة سهولةً في تحريك الشهوات أكثر من منحها الرجل سهولةً قضائها، فتجعل هذا، مع ما عنده من ذلك، تابعاً لرغبتها، وتكرهه بدوره على طلب رضاها نيلاً لموافقتها على تركه يكون الأقوى. وهناك يكون أحلى ما عند الرجل في فوزه شكُّه في كون الضعف هو الذي يُدْعَى للقوة أو في كَوْن الإرادة هي التي تخضع. ويقوم مكرُّ المرأة العاديُّ على ترك هذا الشكِّ ماثلاً بينه وبينها، ويلائم ذهن النساء في هذا بُنيتهن ملائمةً تامّةً، فيقيمن مجدهن على ضَعْفِهِنَّ بعياداتٍ من الخجل منه، وذلك أن عضلاتهن المرنّة تكون بلا مقاومة، وذلك أنهن يُبدين عجزهن عن رفع أخفِّ الأثقال فيستحين من أن يكنَّ قويات. ولم هذا؟ لا يكون هذا من أجل ظهورهن ناعمات، بل عن احترازٍ أكثر مهارة، وذلك أنهن يُرَوِّدْنَ أنفسهن بالمعاذير من بعيدٍ وبحقِّ كونهن ضعيفاتٍ عند الضرورة.

وما اكتسبناه بمعايينا من تجاربٍ غيَّرَ قديم الأفكارِ بيننا كثيراً حول هذه النقطة، وعاد لا يُحدِّث مطلقاً عن الاغتصابات منذ قلَّت ضرورتها، ومُدَّ عاد الرجال لا يؤمنون بها مطلقاً،^٢ وذلك بدلاً من شُيوعها البالغ في العالمين اليوناني واليهودي القديمين، ومن كون هذه الآراء نفسها ضمن بساطة الطبيعة، فاستطاعت تجربةُ الفجور وحدها أن تستأصلها. وإذا كان يُذكر في أيامنا قليلاً من أعمال العصب لم ينشأ هذا، لا ريب، عن كون الرجال أكثر اعتدالاً، بل نشأ عن كونهم أقلَّ سرعةً تصديق، وعن كون مثل ذلك العويل، الذي أقع الشعوب البسيطة فيما مضى، لا يثير غير ضحك المستهزئين في أيامنا، فصار التزام جانب الصمت أكثر فائدة. ويوجد في سفر تنبية الاشتراع حُكْمٌ قائلٌ بمعاينة الفتاة المغصوبة مع غاويها إذا ما اقترفت الخطيئة في المدينة، فإذا اجترح الذنب في البرية أو في الأماكن البعيدة عُوقِبَ الرجل وحده، وذلك لقول الشريعة: «إن الفتاة تكون قد صرّخت في البرية فلم تجد من يسمعها»؛ فهذا التفسير الكثير التساهل كان يُعلم الفتيات ألا يدعن أنفسهن يُباغتنَ في الأماكن المطروقة.

وتأثير هذه الاختلافات في الآراء حول الطباع أمرٌ محسوس، ويُعدُّ الغزل الحديث نتيجةً لها، وإذ كان الرجال يجدون أتباع ملاذهم لإرادة الجنس اللطيف بأكثر مما لم يتصوروا، فقد قهروا هذه الإرادة بملاطفاتٍ عوّضهم هذا الجنس منها خير تعويض.

ورؤا كيف أن البدني يسوقنا إلى الأدبي سوقاً غير محسوس، وكيف أنه ينشأ عن اقتران

^٢ من الممكن أن يوجد تفاوتٌ عظيم في السن والقوة ما يقع معه غضب حقيقي، ولكن بما أنني أعالج هنا حال الجنسين النسبي وفق نظام الطبيعة، فإني أنظر إليهما من حيث العلاقة المشتركة التي يتألف منها ذلك الحال.

الجنسين الغليظ أحلى قوانين الحُبِّ بالتدريج، ولا يقوم سلطان النساء على إرادة الرجال مطلقاً، بل لأن الطبيعة أرادته هكذا، وكان هذا السلطان للنساء قبل ظهورهن حائزاً له، وهزكول نفسه هو الذي اعتقد اغتصابه لبنات تسيبوس الخمسين، فاضطرَّ إلى العزل بالقرب من أنفال. ولم يكن شمشون الجبارُ بالغ القوة أمامَ ذليلة؛ فهذا السلطانُ خاصٌّ بالنساء، ولا يمكن نزعُه منهن حتى عندما يُسِنَّ استعماله، ولو أمكن فقُدَّهنَّ له لكان هذا الفقدانُ قد وقع منذ زمنٍ طويل.

ولا يوجد أيُّ تماثلٍ بين الرجل والمرأة من حيث الجنس، وليس الذكرُ ذكراً إلا في بعض الأحوال، والمرأة امرأةٌ مدى حياتها، أو مدى فتاتها على الأقل، وكلُّ شيءٍ يُذكرُها بحسبها بلا انقطاع، ولا بُدُّ لها من بنيةٍ تلائم وظائفها حتى تُحسِّن القيامَ بهذه الوظائف، ولا بُدُّ لها من المداراة في أثناء حملها، ولا بُدُّ لها من السكون في نفاسها، ولا بُدُّ لها من حياةٍ منزليةٍ ناعمةٍ لإرضاع أولادها، ولا بُدُّ لها لتربية أولادها من الصبر والرفق وما لا يُحيدُه شيءٌ من العبرة والعطف. وهي تصلح أن تكون أداةً وصلٍ بينهم وبين أبيهم، وهي وحدها تُحبُّهم إليه، وهي وحدها تُوحى إليه من الثقة ما يدعُوهم معه أولادَه. ويا لاحتياجه إلى اللطف والعناية حتى يَشُدَّ جميعَ الأسرةِ برابطةِ الاتحاد! وأخيراً لا ينبغي أن يُعدَّ جميعُ هذا من الفضائل، بل من الميول التي لولاها لانطفأ النوعُ البشريُّ من فوره.

وما يُلزمُ به الجنسان من واجباتٍ ليس واحداً، ولا يُمكن أن يكون واحداً، بالنسبة إلى كلِّ واحدٍ منهما، وإذا ما أَلَمَّت المرأةُ من التفاوتِ غيرِ العادل الذي يجعلُه الرجلُ في ذلك كانت مخطئة؛ فليس هذا التفاوتُ نظاماً بشرياً مطلقاً، أو إن هذا التفاوتِ ليس على الأقلِّ من عملِ المُبتسرِّ مطلقاً، بل من عملِ العقل، وذلك أن الطبيعة جعلت من الجنس الذي حملته الأولادَ وديعةً مسئولاً لدى الجنس الآخر. ولا مراء في أنه لا يجوز لشخصٍ أن ينقضَ عهده، فيُعدُّ كلُّ زوجٍ خائنٍ يحرمُ امرأته ثَمَنَ واجباتِ جنسها الصارمةِ ظالماً غليظاً. ولكن المرأة الخائنة تصنع ما هو أعظم؛ فهي تُحلُّ الأسرةَ وتقطعُ جميعَ الروابط الطبيعية، وهي حين تُعطي الرجلَ أولاداً ليسوا له تكون قد خانتهم وخانتهم، وذلك بإضافتها الغدرَ إلى عدم الوفاء. ومن العسيرِ عليّ أن أرى أيُّ اختلالٍ وذنبٍ لا يلزمُ ذلك، فإذا وُجدَ في العالمِ حالٌ هائلٌ كان هذا حالَ أبٍ تعيسٍ لا يتق بالمرأة، فلا يجروُ على السيرِ مع أحلى مشاعرِ فؤاده، حالَ أبٍ يشكُّ حين يَقْبَلُ ولده في تقبيله ولدَ غيره، في تقبيلِ زُهْنِ شَيْنِه الذي هو سالبُ تراثِ أولاده الحقيقيين. وما تكون الأسرةُ حينئذٍ إذا لم تكن جمعيةً من الأعداءِ الحَقِيقِين الذين تُسلِّحُ امرأةٌ مذنبَةٌ بعضهم ضدَّ بعضٍ مع حملهم على الظهورِ بمظهرِ المتحايين؟

وليس من المهمّ إذن أن تكون المرأةً وفيّةً فقط، بل يجب أن يُقضى بأنها هكذا من قِبَل زوجها وأقربائها وجميع النَّاس. ومن المهم أن تكون مُحترمةً متبصرةً، وأن تُقدّم إلى أعين الآخرين كما تُقدّم إلى ضميرها الخاص شهادةً على فضيلتها. وأخيرًا، إذا كان من المهمّ أن يُحبّ الأب أولاده، فإن من المهم أن يُقدّر أمهم. وهذه هي الأسباب التي تَصعّ الظاهر في عداد واجبات النساء، ولا تجعل الشرف والصيت أقلّ لزومًا من العفاف، ومن هذه المبادئ يُشتقّ، مع الفرق الخُلقيّ بين الجنسين، عاملٌ واجبٌ ولياقةٍ يفرضُ على النساء خاصّةً أدقّ انتباهٍ في سلوكهنّ وأوضاعهنّ ورزاقتهن. ويُعدّ الادّعاء الغامض بأن الجنسين متساويان وبأن واجباتهما واحدةٌ تبيهاً في الكلام الفارغ، ولا ينطوي هذا الكلام على شيءٍ ما دام لا يُجيب عن ذلك.

أليس من وجوه البرهنة المتينة أن تُقدّم استثناءاتٍ جواً عن سننٍ عامةٍ ثابتةٍ الأساس؟ تقولون لا يَصعّ النساءُ أولادًا دائمًا! كلاً، وإنما يقوم عملهنّ الخاصُّ على وضع ذلك. ماذا! تَعلمون وجودَ نحو مائة مدينةٍ كبيرةٍ في العالم يقضي النساءُ فيها حياةً تحلّل، فلا يَصعن غير أولادٍ قليلين، فتزعمون أن حال النساء يقضي بوضع أولادٍ قليلين! وما تُصيحُ مُدُنكم إذا كانت الأرياف البعيدة التي يقضي النساءُ فيها حياةً أكثرَ بساطةً وعفافيًا لا تُعوّض من عُقم السيدات؟ وما أكثرُ الأقاليم التي تُعدّ فيها هذه المرأة أو تلك قليلة النسل إذا لم تَصعّ غير أربعة أولادٍ أو خمسة أولادٍ^٣ وأخيرًا، ما أهميّة وضع هذه المرأة أو تلك قليل أولاد؟ وهل حال المرأة أقلّ من كونها أمًا؟ أو ليس على الطبيعة والطبائع أن تُعالج هذه الحال بسننٍ عامة؟

وإذا ما وُجد بين أدوارِ الحبل ما يُفترض من الفواصل الطويلة، فهل تُغيّر المرأة طرازَ الحياة هكذا بغتةً ومناوياً بلا مجازفةٍ ولا خطرٍ؟ وهل تكون اليومَ مُرضعاً وغدًا محاربةً؟ وهل تُغيّر مزاجها وأذواقها كما تُغيّر الحرباء ألوانها؟ وهل تنتقل فجأةً من ظلّ منزلها وواجباتها البيئية إلى تقلباتِ الهواء وأعمالِ الحرب ومتاعبها وأخطارها؟ وهل تكون هلوغاً تارةً وباسلةً تارةً أخرى؟ وهل تكون لطيفةً أحياناً وعُصبيّةً أحياناً أخرى؟ وإذا كان يَشقُّ على مَنْ يُنشئون في باريس احتمال حياة الجنديّة، فهل يحتملها النساء اللاتي لم يواجهن الشمس ولا يكدنن يسيرون بعد

^٣ ولولا ذلك لباد النَّوع بحُكم الضرورة، ويقضى بقاء النَّوع بأن يُعوّض من كل شيء، فتضع كلُّ امرأةٍ أربعة أولاد تقريباً؛ وذلك لأن نحو نصف الأولاد يموتون قبل أن يمكن وضع آخرين، فلا بدّ من بقاء اثنين من الأولاد لتمثيل الأب والأم، فانظروا هل تزودكم المدن بأولئك الأهلين.

^٤ ثم إن وجَل النساءِ غريزةً طبيعيةً تجاه ما يلاقين من خطرٍ مضاعفٍ في أثناء حبلهن.

خمسين عام تَرَف؟ وهل يَتَّخِذُن هذه المهنة في عُمرٍ يتركها الرجالُ فيه؟

وأوافق على وجودِ بلادٍ تلدُ النساءَ فيها بلا عناءٍ تقريبًا، ويُرضعن أولادهن فيها بلا جهدٍ تقريبًا، ولكنَّ الرجالَ في هذه البلادِ نفسِها يمشون نصفَ عُراةٍ في كلِّ وقت، ويصرعون الضواري، ويَحْمِلون قاريًا كأنه جراب، ويقومون بضروب الصيد على مسافةِ سبعمائة فرسخٍ أو ثمانمائة فرسخ، وينامون في العراء، ويحتملون ما لا يُمكن تصديقه من المتاعب، ويقضون عدَّةَ أيامٍ من غير أن يأكلوا. وإذا ما صار النساءُ عُصَلِيَّاتٍ صارَ الرجالُ أكثرَ منهم بأسًا، وإذا ما أصبح الرجالُ مُتَرْفِين أصبحَ النساءُ أعظمَ منهم تَرْفًا، وإذا ما تغيَّرَ الفريقان على السواء بقيَ الفرقُ كما هو.

وأفلاطونُ في جمهوريته يمنحُ النساءَ ما يمنحُ الرجالَ من تمارينِ رياضية، وأعتقد هذا جيّدًا، وبما أنه نَزَعَ الأسرَ الخاصةَ من حكومته، وبما أنه عاد لا يَعْرِفُ ما يصنعُ بالنساء، فقد رأى أنه مضطرٌّ إلى جعلهن رجالًا. وقد نَظَمَ هذا الداهيةُ الأغرُّ كلَّ شيء، وأبصرَ كلَّ شيء، وقد استعدَّ لاعتراضٍ لم يفكرَ أحدٌ في توجيهه إليه على ما يحتمل، ولكنه أساء حلَّ الاعتراض الذي يُوَجِّهه إليه. ولا أتكلّم مُطلقًا عن شركةِ الزوجاتِ المزعومة التي يُثبِتُ ما وُجِّهَ إليها من تأنيبٍ مُكْرِرٍ أن الذين أتَوْه لم يقرءوا كتابه قط، وإنما أتكلّم عن ذلك العبثِ المدنيِّ الذي يخلطُ في كل مكان بين الجنسين في ذات الخدم والأعمال، والذي لا يمكن أن يُعوّزه توليدُ ما لا يُطاق من سوء الاستعمال، وإنما أتكلّم عن هدمِ أحلى مشاعرِ الطبيعة التي يُضخِّي بها في سبيلِ شعورٍ مصنوعٍ لا يُمكن أن يدومَ بدونها، وذلك كما لو كان من غيرِ الواجبِ وجودُ سبيلٍ طبيعيٍّ لتكوينِ روابطٍ عهدٍ! وذلك كما لو كان القلبُ لا يرتبطُ في الوطنِ الأكبرِ بالوطنِ الأصغرِ؛ أي الأسرة! وذلك كما لو كان الابنُ الصالحُ والزوجُ الصالحُ والأبُّ الصالحُ لا يُكوّنون المواطنَ الصالح!

وإذا ثبتَ مرَّةً أنه ليس للرجلِ والمرأةِ عينُ الأخلاقِ والمزاج، وأنه لا ينبغي أن يكون لهما عينُ الأخلاقِ والمزاج، تبع ذلك كونه لا يجوز أن تكون لهما عينُ التربية. وإذا ما اتَّبعنا مناحي الطبيعة وجب أن يسيرا متعاونين، ولكن ليس من الواجب عليهما أن يقوما بذات الأمور. أجل، إن غايةَ الأعمالِ مشتركة، ولكنَّ الأعمالَ مختلفة؛ ومن ثمَّ تختلف الميولُ التي توجِّهها، وإني بعد أن سعيْتُ في تكوينِ الرجلِ الطبيعيِّ وجب أن نرى أيضًا كيف يَجِبُ أن تُكوَّنَ المرأةُ التي تناسب هذا الرجل.

وإذا أردتم أن تكونوا حَسَنِي التوجيهِ دائمًا، فاتَّبِعُوا مناحي الطبيعةِ دائمًا. ويجب احترامُ

كلّ ما يميّز الجنس على أنه من صنّع الطبيعة، وأنتم تقولون، بلا انقطاع، إنه يوجد للنساء من هذه النقائص أو تلك ما ليس عندنا، فزهوكم يخذعكم؛ فما تجدون من هذه النقائص يُعدّ مزايًا لهن، وكلّ شيءٍ يسيّر سيرًا أقلّ صلاحًا إذا عطلن من تلك النقائص، وحولوا دون انحطاط تلك النقائص، ولكن احتزروا من القضاء عليها.

ولا يكفّ النساء من ناحيتهن عن الصراخ قائلات: إننا نشئهن ليكن مغرورات غنجات، وإننا نلهيهن دائمًا بصيبيانياتٍ حتى يسهل علينا أن نقى سادةً لهن، وهن يلمننا على نقائص نلومهن عليها. فيا للحماسة! فمتى صار الرجال يتدخلون في تربية البنات؟ وما الذي يمنع الأمهات من تنشئتهن كما يروفنهن؟ ليست لهن كلياتٍ مطلقًا، فيا للبلاء العظيم! وي! لو سمح الربُّ بالألّا يكون للصبيان شيءٌ من ذلك لنشئوا على ما هو أصلح وأقرب إلى الصواب. وهل تُكره بناتكم على قضاء أوقاتهن في توافه الأمور؟ وهل يُحملن مكرهاتٍ على قضاء نصف حياتهن في أمور زينتهن سيرًا على غراركم؟ ومن يمنعكم من تعليمهن أو من حملهن على التعلّم كما تشاءون؟ وهل يقع الذنب علينا إذا ما طين لنا عن حُسن فيهن، وإذا ما أغويننا بغناجهن، وإذا كان الفنُّ الذي يتعلّمه منكم يجتذبنا ويفتننا، وإذا كنّا نُحبُّ أن نراهن راعيات الهندام، وإذا كنّا ندعهن يشحذن على مهلٍ ما يُخضعنا له من السلاح؟ وي! اذهبوا إلى تنشئتهن كالرجال، والرجال يوافقون على ذلك طيبي الخاطر، وهنّ كلّما أردن مشابهة الرجال قلّت سيطرتهن عليهم، وهنالك يصير الرجال سادةً حقًا.

أجل، إن جميع خصائص الجنسين المشتركة ليست مقسومةً بينهما على السواء، ولكنها إذا ما نُظر إليها في مجموعها وُجد أن كلّ واحدٍ من الجنسين يعناض من الآخر. والمرأة أكثر قيمةً كإمرأةٍ وأقلّ قيمةً كرجل، وهي تُفضّل حيث تُرّوج حقوقها، وهي تبقى دوننا حيث تريد اغتصاب حقوقنا، ولا يمكن ردُّ هذه الحقيقة العامة بغير استثناءات؛ أي بغير أسلوبٍ في البرهنة ثابتٍ يأتي به ذوو الأنس من أنصار الجنس اللطيف.

ولذا فإن من الواضح أنّ تعهد صفات الرجل في المرأة وإهمال ما هو خاصٌّ بهن ينطوي على الإضرار بهن، ويبلغ ذوات المكر من رؤية ذلك جيّدًا ما لا يُخدعن معه بذلك، وهنّ حين يُجاهدن في اغتصاب منافعنا لا يتركن منافعهن، ولكن بما أنهن لا يستطعن تغيير أمر هذه وتلك جيّدًا لتباينهما؛ فإنه ينشأ عن ذلك بقاؤهن دون مستواهن من غير ارتقاءٍ إلى مستوانا، وحُسرأنهن نصف قيمتهن، وأتبعي نصيحتي، أيتها الأمُّ العاقلة، فلا تجعلي من ابنتك رجلًا صالحًا لما ينطوي

عليه هذا من تكذيب للطبيعة، واصنعي منها امرأةً سالحة، وثقي بأن هذا أفضل لنا ولها.

وهل يُستدلُّ من ذلك وجوبُ تنشئتها جاهلةً لكلِّ شيءٍ، مقصورةً على الواجبات المنزلية وحدها؟ وهل يصنعُ الرجلُ خادمته من رقيقته؟ وهل يحرمُ نفسه نحوها من أعظمِ فُتُونٍ في المجتمع؟ وهل يمنعها من الشعور بشيءٍ ومن معرفة أيِّ شيءٍ إمعاناً في استعبادها؟ وهل يجعلُ منها تمثالاً مُتحرِّكاً؟ كلاً، لا ريب؛ فليس هذا ما تقول الطبيعة التي منحت النساءَ روحاً كثيرةً الرِّقَّةَ بالغةً اللطافة، والطبيعة على العكس تريد أن يُفكَّرْنَ وَيُحْكَمْنَ وَيُحَيَّنَّ وَيَعْرِفْنَ ويتعهَّدنَ ذهنهن كما يتعهَّدن صورتهن، وهذه هي الأسلحة التي أنعمت الطبيعة بها عليهن لتقوم مقام القوة التي تُعزِّزُهُنَّ وتوجيه فُوتنا، ويجب عليهن أن يتعلَّمنَ أموراً كثيرة، على أن تكون معرفة هذه الأمور ملائمةً لهن.

وسواءً عليَّ أنظرْتُ إلى غرض الجنس الخاصِّ أم لاحظتُ ميوله أم عدتُ واجباته، وجدتُ كلَّ شيءٍ يتضافر تضافراً متساوياً على دلّالي إلى شكل التَّربية التي تلائمه. إن كلاً من المرأة والرجل خُلِقَ في سبيل الآخر، غير أن اتِّباع أحدهما للآخر ليس متساوياً؛ فالرجال تابعون للنساء برغائهم، والنساء تابعات للرجال برغائهن واحتياجاتهن. ونحن نعيش بدونهنَّ أكثر من عيشهنَّ بدوننا، وذلك أنه يجب، لحيازتهنَّ الحاجيَّ ولوجودهن في حالهن، أن نُعطيهن إياه، وأن نريدهن إعطاءهن إياه، وأن نُقدِّر استحقاقهن له، وهن تابعات لمشاعرنا، ولما نجعل من ثمنٍ لمزيتهن، ولما يكون عندنا من فكرٍ عن فتونهن وفضائلهن، حتى إن من مقتضيات قانون الطبيعة أن يكون النساء تحت رحمة أحكام الرجال من أجل أنفسهن ومن أجل أولادهن، فلا يكفي أن يكنَّ أهلاً للتقدير، بل يجب أن يكنَّ مُقدِّرات، ولا يكفي أن يكنَّ جميلات، بل يجب أن يرُقن، ولا يكفي أن يكنَّ حكيماً، بل يجب أن يُعرفن هكذا. وليست سعادتهن في سلوكهن، ولكن في سُمعتهن، وليس من الممكن استطاعة التي توافق على عدّها شائنة أن تكون شريفةً مطلقاً. ولا يتوقَّف أمرُ الرجل الذي يعملُ سالحاً على غير نفسه، ويستطيع الرجل أن يقتحم الحكم العام، ولكن المرأة إذا ما عمِلت سالحاً لا تكون قد قامت بغير نصف عملها؛ فما يدور حولها من فكرٍ لا يكون عندها أقلُّ أهميةً مما هي عليه حقيقة؛ ومن ثمَّ يرى أن نظام تربيتها يجب أن يكون من هذه الناحية مخالفاً لنظام تربيتنا، أي إنَّ رأي النَّاسِ قَبْرٌ للفضيلة بين الرجال، ويكون عرشه بين النساء.

وتتوقَّف بنيةُ الأولاد على حُسْنِ بنيةِ الأمهات في بدء الأمر، ويتوقَّف أوَّلُ تربية للرجال على

عناية النساء، وتوقف على النساء كذلك طباعهم وأهواؤهم وأذواقهم ورغائبهم، وسعادتهم أيضاً. وهكذا، فإنَّ كلَّ تربية للنساء يجب أن تُرسم نظراً إلى الرجال، وتقوم واجبات النساء في جميع الأوقات على وقوعهنَّ موقع الرضا لديهم، وعلى فائدتهنَّ لهم، وعلى تحبيب أنفسهنَّ لهم، وعلى تمجيدهنَّ من قبلهم، وعلى تنشئتهنَّ لهم فتياناً، وعنايتهنَّ بهم كباراً، وعلى نصيحتهم وتسليتهم وجعل الحياة مقبولةً خلوةً عندهم، وهذا ما يجب تعليمهنَّ إياه منذ صباهنَّ، ويُبتعد عن الغاية ما ابتعد عن هذا المبدأ؛ فلا يكون لجميع التعاليم التي تُلقى عليهنَّ نفعٌ لسعادتهنَّ وسعادتنا.

ولكنَّ كلَّ امرأة، وإن كانت تريد أن تروقَ الرجال، وكان لزاماً عليها أن تريد ذلك، يُوجد فرقٌ كبيرٌ بين روقانها رجلَ الفضل والأنس حقاً، وإرادتها أن تروقَ صغارَ اللطفاء الذين يشنون جنسهم والجنس الذي يُقلدونه. وما كانت الطبيعة ولا العقلُ ليستطيعا حملَ المرأة على أن تُحبَّ في الرجال من يشابهها، وكذلك لا ينبغي للمرأة أن تتحلَّ أوضاع الرجال فتحاول حملهم على حبها.

ولذا فإنَّ النساء إذا ما تركنَّ احتشامَ جنسهنَّ ووقاره واتخذنَّ أوضاع هؤلاء الطائشين، ابتعدن عن اتباع ما يُسرُّن له وعدلنَّ عنه، وحزمن أنفسهنَّ ما يرين أنهن اغتصبتهنَّ من حقوق، وهن يُقلن: «لو كُنَّا غير هذا ما وقعنا موقع الرضا عند الرجال مُطلقاً.» وهن يكذبن؛ فلا بُدَّ من جنون المرأة حتى تُحبَّ المجانين، وتدُلُّ الرغبة في اجتذاب أولئك النَّاس على ذوق التي توطنَّ نفسها على ذلك، وإذا وُجدَ من الرجال من هم غير طائشين مطلقاً بادرت إلى جعلهم طائشين، ويكون طيشهم من صنْعها أكثر من أن يكون طيشها من صنْعهم. وإذا كانت المرأة تحبُّ الرجال الصادقين وتريد أن تروقهم اتَّخذت من الوسائل ما يلائم غرضها. وتكونُ المرأة ذات دلالٍ عن وضع، ولكنَّ الدلال يتغيَّر شكلاً وموضوعاً وفق مقاصدها، فلننظِّم هذه المقاصد وفق أغراض الطبيعة، وهنالك تنالُ المرأة ما يلائمها من التربية.

وصغريات البنات يُحببن الزينة منذ ولادتهن تقريباً، وهنَّ لا يرضين أن يكنَّ حساناً، وإنما يُردن أن يُرين هكذا. ويُرى من خلال ملامحهنَّ أنَّ هذا الالتفات يشغل بالهنَّ منذ البداية، وهنَّ لا يكذبن يكنَّ في حالٍ يُدركن بها ما يقال لهن حتى يُسيطر عليهن بما يُفكِّر فيه حوْلهن. وإذا كنتم من الخفَّة ما تعرضون معه ذات الباعث على الصبيان لم تجدوا له ذات السلطان عليهم، وهم إذا ما كانوا ذوي استقلالٍ وكان لهم لُعبهم قلَّت مبالاؤهم إلى الغاية بما يُمكن أن يُفكِّر في أمرهم، وليس بغير فعل الوقت والجهد ما يُجعلون خاضعين لحكم عين القانون.

ومهما تكن الجهة التي يأتي منها هذا الدرْسُ الأوَّلُ إلى البنات، فإنه يُعَدُّ صالحًا جدًّا. وبما أن البدنَ يسبقُ الذهنَ ولادةً، فإن تمرين البدن هو أوَّلُ ما يَجِبُ أن يكون، وهذا النظام مشتركٌ بين الجنسين، غير أن غرضَ هذا التمرين مختلف؛ فهو يَكُونُ نُموَّ القُوَى في جنس، وهو يكون نُموَّ المحاسِنِ في الجنس الآخر. ولا يَعْنِي هذا أن تكون هذه الصفاتُ أو تلك في هذا الجنس أو ذاك حصراً، وإنما تكون على نسبةٍ معكوسة. ولا بُدَّ من وجودِ قُوَّةٍ كافيةٍ في النساء حتى يأتين جميع ما يأتين بلطافة، ولا بُدَّ من مهارةٍ في الرجال حتى يأتوا جميع ما يأتون بسهولة.

ويبدأ تختُّت الرجال بإفراط النساء في التختُّت، ولا ينبغي للنساء أن يَكُنَّ قُوَّياتٍ كالرجال، بل من أجل الرجال، وذلك لكي يَكُونَ مَنْ يَضَعُ من الرجال أقوياءً أيضاً، وبهذا تكون الأدبار؛ حيث يتناول الطالبات الداخليات طعاماً غليظاً، ولكن مع كثير نُزْهِ ومسابقاتٍ وألعابٍ في الهواء الطلق وفي الحدائق، أفضل من المنزل الأبوي حيث تتناول البناتُ غذاءً ناعماً، وتُدَارِي أو تُعزِّزُ دائماً، وحيث تجلس على مرأى من أمِّها في غرفةٍ محكمة الإغلاق، فلا تجرؤ على النهوض والمشي ولا على الكلام والهمس، ولا تتمتع بساعةٍ من الحرية، فلا تلعب ولا تَتَبُّ ولا ترْكُض ولا تصرُخ، وتلزم نَزَقَ سنِّها الطبيعي، فإما رخاءً حَظِرَ وإمَّا جَفَاءً طائش، ولا شيء وفق العقل، وهذا هو الوجه الذي يُفَوِّضُ به بدنُ الشباب وقلْبُهُ.

وكانت بنات إسبارة يتدرين كالفتيان على الألعاب العسكرية، لا ليذهبن إلى الحرب، بل ليحملن ذات يوم أولاداً قادرين على احتمال مشاقِّها. وليس هذا هو الذي أستحسن؛ فلا يقضي منحُ الدولة جنوداً أن تحملَ الأمهات بنادقَ ويَتَعَمَّنَ بتمرينٍ على الطريقة الروسية، وإنما أجدُ أن التَّربية اليونانية كانت على العموم كثيرة البراعة من هذه الناحية؛ فكانت الفتياتُ يَظْهَرْنَ عِلْماً في الغالب، ولكن مع تجمُّع فيما بينهن وعدم اختلاطٍ بالفتيان، وما كنت ترى عيِّداً تقريباً ولا قُرْباناً ولا احتفالاً، لا تُرى فيه أفواجٌ من بناتٍ وجوه المواطنين، وهن مُتوجَّحاتٌ بالزهور مُرتلاتٌ للأناشيد مؤلِّفاتٌ أجواقاً للرقص حاملاتٌ سِلالاً وآنيَّةً وتَقْدِماتٍ وعارِضاتٍ على حواسِّ الأغارقة الفاسدة منظرًا ساحراً صالحاً لموازنة ما للرياضة البدنية النابية من أثرٍ سيِّئ. ومهما يكن من عملٍ لهذه العادة في قلوب الرجال، فقد كانت نافعةً دائماً في منح الجنسِ بنيةً حسنةً في شبابه بتمريناتٍ مستحيَّةٍ معتدلةٍ صحية، وفي شحد ذوقه وتكوينه برغبةٍ مستمرة في الوقوع موقع الرِّضا، وذلك من غير مجازفةٍ بالأخلاق.

وكان هؤلاء الفتياتُ إذا ما تزوجن عُدنَّ لا يُرَيْنَ بين النَّاسِ، وصرن مقصوراتٍ في بيوتهن،

قاصراتٍ جميعَ جهودهن على تدبير منازلهن والعناية بأسرهن، وهذا هو طرازُ الحياة الذي تأمر الطبيعة والعقل به الجنس. ثم إن هؤلاء الأمهات كنَّ يَضَعْنَ أصحَّ رجالِ العالمِ وأقواهم وأحسنهم تقويماً. وعلى ما كان يتمتع به بعضُ الجُزُر من سُمعةٍ سيئة، فإن من الثابت أن جميعَ الأمم، ومنها الرومانُ أيضاً، لم تشمل ما اشتملت عليه بلادُ اليونان في الزَّمن القديم من النساءِ الجامعات بين الحكمة والأنس، وبين الأخلاق والجَمال.

ومما يُعرَف أن اتساع الثياب الذي لا يُضايق الجسمَ مُطلقاً كان يساعد كثيراً على تركه لبدن الجنسين تلك النسب الرائعة في تماثلهما، فلا تزال تصلح أن تكون نموذجاً في الفن بعد أن انقطعت الطبيعة المُشوَّهة عن تقديمه بيننا. ولم يكن لأولئك عهدٌ بشيءٍ من جميع هذه العوائق القوطية وهذه الكثرة في الرُّبُط التي تضغط أعضاءنا من كلِّ ناحية. وكان نساؤهم يجهلن استعمال هذه القوالب الحوتية التي يُكرِّ نساؤنا بها قاماتهن أكثر من الدلالة عليها. ولا أستطيع أن أتصوّر أن هذا السوء في الاستعمال، الذي أمعن فيه يانكلترة إلى حدٍّ لا يُتصوّر، لا يؤدي إلى انحطاط النوع في آخر الأمر، فأذهب إلى أن الفتون الذي يُهدَف إليه بهذا ييمُّ على ذوقٍ فاسد؛ فليس من المستحسن أن تُرى المرأة مقطوعةً إلى قسمين كالزُّنُور، لما ينطوي عليه هذا من إيذاء النظر وإيلام الخيال؛ فلدقة القَدِّ نِسْبُها وقياسُها ككلِّ شيءٍ آخر، فإذا وقعت مجاوزة ذلك ظهر العيب، حتى إن هذا العيب يقفُ النظر في الغري، فلم يكن جَمالاً تحت الثياب!

ولا أجرؤ على اعتصار الأسباب التي يُصِرُّ النساء بها على الأذراع هكذا، فيظهر صدرٌ هابطٌ ويطنُّ ضخماً... إلخ. وأوافق على أن هذا يُستكره في التي تكون في العشرين من سنيها، ولكن هذا يعود غير مؤدٍ للنظر فيمن تكون في الثلاثين. وبما أنه يجب في كلِّ وقتٍ أن نكون على الرغم منّا في حال نروق معه الطبيعة، وألا تُخدع عين الرجل في ذلك مُطلقاً؛ فإن هذه العيوب تكون أقلَّ إغاظَةً في كلِّ سنٍّ من انتحال تصنُّعات ابنة صغيرة انتحالاً أخرق في الأربعين من العُمُر.

ويُعدُّ من الذوق الفاسد كلُّ ما يضايق الطبيعة ويضعفها، ويصدق هذا في أزيان البدن كما يصدق في أزيان الذهن. ويجب أن تأتي الحياة والصحة والعقل والراحة في المرتبة الأولى، ولا تكون المَلاحة بلا راحة مُطلقاً، وليست الرقة ذُبُولاً، فلا يقضي الروقان بأن يكون الإنسان عليلاً. أجل، تُثار الرافة عند التألم، غير أن اللذة والرغبة تُشُدُّان صحة ناضرة.

ولالأولاد من الجنسين أُلهُواتٌ مشتركة كثيرة، وهذا الذي يجب أن يكون، أولاً يكون لهم

عينُ اللهو إذا ما كبروا؟ وكذلك يوجد لهم من الأذواق الخاصة ما يميّز بعضهم من بعض؛ فالبنون يَبْشُدُونَ الحركةَ والصوضاءَ والطبولَ والدُّوَامَ والمركباتِ الصغيرةَ، والبناتُ يفضّلنَ على ذلك ما يُمتنعُ النَّظَرُ وينفَعُ للزينة، كالمرايا والخلي والشُّرْط، ولا سِمْما اللَّعْب، واللُّعبة هي الأُلْهُوةُ الخاصةُ بهذا الجنس، وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً على ميلها إلى ما قُدِّرَتْ له، وفي الحِلْيَةِ تتجلى طبيعَةُ فنِّ الروقان، وهذا كلُّ ما يستطيعُ الأولادُ تَعَهَّدَهُ من هذا الفن.

وتَرَوْنَ ابنةً صغيرةً تقضي نهارها حَوْلَ لُعْبَتِها، فلا تنفكُ تُغَيِّرُ ثيابها، فثُلَيْسها وتعريها مائة مرة، ولا تفتأ تقوم بترتباتٍ جديدة من الزُّخرفِ حَسَنَةِ المطابقة أو سِئَةِ الموافقة، من غيرِ ما ضرر. أجل، يُعَوِّزُ الأصابعَ مهارة، ولَمَّا يُكَوِّنُ الذوق، ولكن مع تجلّي الميل. ويمضي الوقتُ وهي منهمكةٌ بذاك العمل الدائم من غير أن تشعرَ بمروره، وتمرُّ الساعات من غير أن تشعرَ بمضيها، حتى إنها تنسى وَجَبَاتِها؛ فهي أكثرُ شوقاً إلى الزينة مما إلى الطعام. ولكنكم ستقولون إنها تُزَيِّنُ لُعْبَتِها لا شخصها، ولا ريب في أنها ترى لُعْبَتِها ولا ترى نفسها، وهي لا تستطيعُ صنعَ شيءٍ لنفسها، وهي لم تتكوّن، وهي ليست ذاتَ قريحةٍ أو قوة، وهي ليست شيئاً بعد، وهي منصرفةٌ إلى لُعْبَتِها دائماً، واضعةٌ جميعَ ذلالها فيها، ولن تبقى هكذا؛ فهي تنتظرُ الزَّمنَ الذي تكون فيه لُعْبَتِها بنفسها.

وذاك، إذن، أوَّلُ مَبْلٍ مُقَرَّرٍ جيِّداً، فما عليكم غيرُ تَتَبُعِ هذا الميل وتنظيمه. ولا مراءً في أن البنتِ الصغيرةُ تَوُدُّ من صميمِ فؤادها أن تزخرفَ لُعْبَتِها وأن تُقَوِّمَ عُقْدَ كُمِّها ومُنْدِيلَ عُنُقِها وتعاريحِ ثوبها وتخاريمِ رداها، وهي تُجْعَلُ في جميعِ هذا من اتِّباعِ ذوقِ الآخرين اتِّباعاً وثيقاً ما يكون من الخيرِ معه أن تعتمد فيه على جَدِّها. وهكذا يأتي الباعثُ للدروسِ الأولى التي تُلقَى عليها، وليست هذه جهوداً تُكَلِّفُ بها، بل أُلْطافٌ تُحِبِّي بها. والواقع أن جميعَ البناتِ الصغارِ يتعلَّمْنَ القراءةَ والكتابةَ على مضضٍ تقريباً، ولكن استعمالَ الإبرة هو ما يتعلمنه عن رضاً دائماً، وهن يتصوِّرنَ مقدِّماً أن يَكُنَّ كبيراتٍ فيروْنَ مع اللذة إمكانَ انتفاعهن بهذه الأهلياتِ للتَّجَمُّلِ ذاتِ يوم.

ويسهّلُ اتِّباعُ هذه الطريقِ الأولى المفتوحة؛ فالخياطة والنطريز والتخريم أمورٌ تأتي من نفسها، وليس وشي القُرْشِ وثيقُ القُرْب من رضاهن. والنَّجَادَةُ كثيرةُ البُعدِ منهن؛ فالأثاثُ أمرٌ غيرُ تابعٍ للشخص، وإنما يتعلّقُ بآراءٍ أخرى. ويُعدُّ وشي القُرْشِ أُلْهُوةُ النساءِ، ولا يساور البناتِ الصغيراتِ كبيرُ رغبةٍ فيه مطلقاً.

ويمتدُّ هذا التقدُّم الاختياريُّ بسهولةٍ حتى الرِّسم؛ وذلك لأن هذا الفنَّ ليس غريبًا عن فنِّ اللُّبس الأنيق، ولكنني لا أريد شغْلَهُنَّ بالمناظر، وأقلُّ من هذا شغلي لهن بالهيئة، وتكفيهنَّ أوراقُ الشجرِ والفواكهُ ووشيُّ القرشِ وكلُّ ما يمكن أن يكون نافعًا لمنح الأزيان نطاقًا جميلًا، ولجعلِ البنتِ قاضيةً في أمرِ التطريزِ عندما لا تجد نموذجًا يُعجبُها. وإذا كان يُهمُّ الرجالَ على العموم أن يَقتصروا دراساتهم على معارفٍ نافعةٍ لهم، فإن هذا يُهمُّ النساءَ أكثرَ مما يُهمُّهم؛ وذلك لأن حياة النساءِ، وإن كانت أقلَّ مشقَّةً، وكانت، أو وجبَ أن تكون، أكثرَ مثابرةً على القيام بواجباتهن وأكثرَ تقطُّعًا بمختلف الواجبات، لا تَسمح لهن بأن يتجرَّدنَ - عن خيارٍ - لأيِّ من أعمالِ النبوغ الأخرى ضرًّا بواجباتهن.

ومهما يكن من قول الساخرين، فإن صوابَ كيلا الجنسين واحد، وتكون البنات أطوعَ من الصِّبيان على العموم، ويجب مع ذلك أن يُتَّخذَ نحوهن سلطانًا أكثرَ مما يُتَّخذُ نحو الصِّبيان كما أُبينُ ذلك عما قليل، ولكن لا يُستتبط من هذا وحبُّ مطالبتهن بشيءٍ لا يستطعن رؤيةً فائدته. ويقوم فنُّ الأمهات على إراءتهن ذلك في كلِّ ما يأمرنهن به، وتتجلَّى سهولتهُ هذا في كون الذكاء لدى البنات أبكرَ نضجًا مما عند الصِّبيان. ولا تُبعدُ هذه القاعدة من جنسهن، كما أنها لا تُبعدُ من جنسنا فقط جميع الدراسات الفارغة التي لا تؤدي إلى شيءٍ صالح، والتي لا تجعل أكثرَ قبولًا، حتى لدى الآخرين، ما وضعه هؤلاء الآخرون، بل تُبعدُ أيضًا جميع الدروس التي لا تناسب فائدتها السنَّ، والتي لا يُمكن الولدُ أن يُبصرَ نفعها في غيرِ عُمرٍ متقدم. وإذا كنتُ لا أريدُ ضغطَ الغلامِ كيما يتعلَّم القراءة؛ فإن من الأولى ألا أريدُ حملَ الفتياتِ على القراءة قبل جعلهن يشغرن بفائدتها جيِّدًا. ويرى من الأسلوب الذي يُطلِّعن به عادةً على هذه الفائدة أننا ننبِّع فكرنا الخاصَّ أكثرَ من اتِّباع فكرهن، ومع ذلك فما أرب البنت أن تُعرِّف القراءة والكتابة باكرًا؟ وهل يكون لها على عَجَلٍ منزلٌ تُدبِّرُ شئونه؟ لا يوجد غيرُ قليلٍ من هؤلاء من لا يُكثرن إساءة استعمال هذه المعرفة المشثومة، وجميع هؤلاء من كثرة الفضول ما لا يتعلمن معه ذلك من غير إكراههن عليه، وذلك عندما يكون لديهن فراغٌ وفرصةٌ لذلك. وقد يجبُ تعلُّمهن الحساب قبل كلِّ شيء؛ وذلك لأنك لا ترى كالحساب شيئًا يكون ذا نفعٍ ظاهرٍ في كلِّ حين، ويتطلب طويلاً ممارسة، ويدعُ مجالًا كبيرًا للخطأ، وإذا كانت البنتُ الصغيرةُ لا تنال كرزَ عُصرونيتهما* إلا بعمليةٍ حسابيةٍ أجبتمكم بأنها لا تلبث أن تتعلَّم الحساب.

.Le goûter * °

وقد عرفتُ فتاةً تعلّمت الكتابة قبل أن تتعلّم القراءة، وقد بدأت هذه الفتاة تعلّم الكتابة بالإبرة قبل تعلّمها الكتابة بالقلم، وهي لم تُردّ من جميع الكتابة أن ترسّم غير حرف O، وكانت ترسّم حرف O بلا انقطاع على أشكالٍ متداخلةٍ كبيرةٍ وصغيرةٍ، ومن كلّ طولٍ ومع تنكيسٍ. ومن المؤسف أن رأيتُ نفسها في المرآة ذات يومٍ وهي مشغولةٌ بهذا التمرين المفيد، فوجدت أنها تكون بهذا الوضع المضغوط سينة الظرافة، كما لو كانت مبيّرفاً أخرى، فألقت القلم جانباً وعادت لا تريد رسم حرف O، وكان أخوها لا يحبُّ الكتابة أكثر مما تحب، ولكن الذي كان يعيظه هو الضيق، لا المنظر الذي يكتسبه بالضيق، ويتخذ تدبيراً آخر لردّها إلى الكتابة، فيما أن البنت الصغيرة كانت رقيقةً غريزةً لم تقبل قط أن تلبس أحواتها ثيابها، فكان يعلم على هذه الثياب، فصار يُرعب عن وضع علامةٍ عليها، فوجب أن تعلم البنت عليها بنفسها، وأما بقية الأمر، فيمكن تصوّره.

وسوّغوا ما تفرضون على صغار البنات من جهود، ولكن افرضوا هذه الجهود عليهن دائماً؛ فالفراغ والعقوق كلاهما أخطر ما يكون من النقائص على البنات، وهما أقل ما يُشقى منه إذا ما تعوّدنهما، ويقضي الواجب على البنات بأن يكنّ حذراتٍ مجتهدات، وليس هذا كلّ ما في الأمر، فيجب أن يضايقن باكراً. وإذا كان هذا البلاء ملازماً لهن فهو غير منفصل عن جنسهن، وهن لا يتخلصن منه إلا ليكابدن ما هو أشد منه بدرجات، وهن يقضين أعمارهن مستعبداً لأدوم ضيقٍ وأشدّ عسر، أي ضيق اللياقة، ويجب أن يُعوّدن الاقتسار في البداءة لكيلا يكلفهن شيئاً مطلقاً، كما يجب أن يُعوّدن قمع جميع أهوائهن كيما يُخضعن لعزائم الآخرين، وإذا أردن العمل دائماً وجب حملهن على عدم عمل شيءٍ أحياناً. ويُعدّ الإسراف والطيش والتقلب نقائص توكّد بسهولة من ميولهن الفاسدة الأولى، والتي تُتبع دائماً. وعلموهن قهر أنفسهن على الخصوص منعاً لهذه المساوئ. وتقوم حياة المرأة الصالحة في مراكزنا الحُمق على جهادٍ مستمرٍّ ضد نفسها، ومن الإنصاف أن يقاسم هذا الجنس ألم الشرور التي أورثنا إياها.

وحولوا دون سأم البنات في أثناء أشاغيلهن، ودون شغفهن في الهوائهن، وذلك كما يقع دائماً في التريبات العامية؛ حيث يُوضع جميع السأم في ناحيةٍ ويُوضع كلّ لهن في ناحيةٍ أخرى كما قال فيليون. وإذا ما اتبعت القواعد السابقة فإنه لا يكون للأول من هذين المحذورين مكانٌ إلا عند عدم وقوع من يحيط بالبنات موقع الرضا لدى هؤلاء البنات. فالبنت الصغيرة التي تُحب أمها أو صديقتها تعمل نهارها كلّها بجانبها من غير سأم، والهدر وحده هو الذي يُعوضها من

جميع ضيقها، ولكن إذا كانت لا تُطبق من تُسيطر عليها فإنها تجزع من كل ما تقع عليه عيها، ومن الصعب جداً أن يحسن ذات يوم وضع البنات اللاتي لا تُسرهن صحبة أمهاتهن أكثر مما تُسرهن صحبة أي شخص آخر في العالم. ولكن يجب للحكم في مشاعرهن الحقيقية أن يُدرسن، لا أن يُعتمد على ما يُقلن؛ وذلك لأنهن مصانعاتٌ مُداحيات، يَعرفن التنكر باكراً، وكذلك لا ينبغي أن يُؤمرن بمحبة أمهاتهن؛ فالحب لا يصدر عن واجبٍ مطلقاً. ولا ينعف القسرُ هنا، ويَحمل الولع والرعاية والعادة على حُبّ البنت لأُمها إذا لم تفعل الأُم ما يجلب إليها حقدَ البنت، حتى إن الضيق الذي تُمسك الأُم به ابنتها، والذي تُحسن إدارته، يزيد ذلك الولع بدلاً من إضعافه؛ وذلك لأن الخضوعَ إذ كان أمراً طبيعياً لدى النساء فإن البنات يشعرون بأنهن خُلفن للطاعة.

وهنّ - لذات السبب القائل بأن لديهن، أو يجب أن يكون لديهن، قليل حرية - يَعملن بأقصى ما يُترك لهن منها، وهن إذ كن متناهيات في كل شيء يتجرذن لألعابهن بحمياً أشد من حمياً الصبيان، وهذا هو المحذور الثاني الذي تكلمتُ عنه. ويجب أن تكون الحمياً مشوبةً بالاعتدال؛ وذلك لأنها علة كثير من المعايب الخاصة بالنساء، ومنها هوى الولع الذي تنتقل به المرأة اليوم إلى هذا أو ذاك الغرض الذي لا تُبصره غداً، وكذلك تقلب الميول هو من الشؤم عليهن كإفراطهن، ويأتيهن هذا وذاك من ذات المصدر. ولا تنزعوا منهن الجدل والضحك والصحب والألعاب المرحية، ولكن خولوا دون شبعهن من أحدها طلباً لآخر، ولا تدعوهن في حياتهن دقيقةً بلا رادع، وعودوهن قطع ألعابهن والعود إلى أشغالهن بلا تدنر، وهنا تكفي العادة وحدها؛ فالعادة لا تفعل غير مساعدة الطبيعة.

وينشأ عن هذا القسر المعتاد انقياد يحتاج إليه النساء مدى حياتهن ما فتن يخضعن لرجل أو لأحكام الرجال، فلا يُسمح لهن أن يكنن فوق هذه الأحكام. واللطف أول صفات المرأة وأهمها. والمرأة، إذ خُلقت لإطاعة مخلوق كالرجل ناقص أيضاً، مُفعم بالمعايب غالباً، مملوء بالشوائب دائماً، وجب أن تتعلم باكراً أن تصير حتى على الجور، وأن تحتمل خطأ الزوج من غير أن تشتكي. وليس عليها أن تكون لطيفة من أجله، بل من أجل نفسها. ولا تؤدي شراسة النساء وعنادهن إلى غير زيادة آلام النساء وسوء معاملتهن من قبل الأزواج. والأزواج يشعرون بأنه لا ينبغي لهن أن يغلبنهم بهذه الأسلحة. ولم يصنعهن الرب ضعفاتٍ قطُّ ليكن متجبرات، ولم يُعِم الرب عليهن قطُّ بصوتٍ بالغ العذوبة لينطقن بالشتم، ولم يجعل الرب لهن تلك الملامح الدقيقة ليشوهنها بالغضب. وهن إذا ما

سَخَطْنَ نَسِينَ أَنْفُسَهُنَّ. أَجَلٌ، إِنْ الْحَقُّ بِجَانِبِهِنَّ فِي شِكَاوَهُنَّ غَالِبًا، وَلَكِنَّهُنَّ يَكُنَّ مَخْطُوبَاتٍ إِذَا مَا وَيَخُنُّ؛ فَكُلُّ مُلَزَمٍ بِالمَحَافِظَةِ عَلَى لَهْجَةِ جِنْسِهِ، فَإِذَا كَانَ الزَّوْجُ كَثِيرَ الرِّقَّةِ أَمَكَّنَهُ جَعْلُ المَرَأَةِ قَلِيلَةَ الحَيَاءِ، وَلَكِنَّ لَطْفَ المَرَأَةِ يَزِدُّهُ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ عَاجِلًا أَوْ آجَلًا مَا لَمْ يَكُنْ غَوْلًا.

وَلْيَكُنَّ البِنَاتُ طَائِعَاتٍ دَائِمًا، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الأَمَهَاتُ مُتَصَلِّبَاتٍ دَائِمًا، وَلَا يَجُوزُ جَعْلُ البِنْتِ تَعَسَةً جَعْلًا لَهَا طَائِعَةً، وَلَا يَجُوزُ خَبْلُهَا جَعْلًا لَهَا مُحْتَشِمَةً. وَعَلَى العَكْسِ، لَا يَغِيظُنِي أَنْ يُسَمَّحَ لَهَا فِي الحَيِّينَ بَعْدَ الحَيِّينَ بِاسْتِعْمَالِ شَيْءٍ مِنَ الشُّطَارَةِ، لَا لِاجْتِنَابِ الجِزَاءِ عَلَى عَصِيانِهَا، بَلْ لِإِعْفَائِهَا مِنَ الطَّاعَةِ. وَلَا يَقْصَدُ جَعْلُ خُضُوعِهَا شَأْفًا، فَيَكْفِي حَمْلُهَا عَلَى الشُّعُورِ بِهِ. وَتَعَدُّ الحَيْلَةَ مِنَ مَوَاهِبِ الجِنْسِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَبِمَا أَنِّي قَانِعٌ بِأَنَّ جَمِيعَ المِيُولِ صَالِحَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ بِذَاتِهَا، فَإِنِّي أَرَى تَعَهَّدَ الحَيْلَةَ كَالْمِيُولِ الأُخْرَى، وَالمُهْمُّ فِي مَنَعِ سَوْءِ اسْتِعْمَالِهَا.

وَأُحْتَكِمُ فِي صَحَّةِ هَذِهِ المَلاحِظَةِ إِلَى كُلِّ نَاطِرٍ حَسَنِ النِّيَّةِ، وَلَا أُرِيدُ أَنْ يُفَحِّصَ النِّسَاءُ أَنْفُسَهُنَّ حَوْلَ ذَلِكَ مُطْلَقًا، فَيُمْكِنُ نَظْمُنَا المِزْعَجَةَ أَنْ تَحْمِلَهُنَّ عَلَى شَحْدِ أذْهَانَهُنَّ، وَإِنَّمَا أُرِيدُ فَحْصَ البِنَاتِ، وَإِنَّمَا أُرِيدُ فَحْصَ صِغَارِ البِنَاتِ اللَّاتِي وَوُلْدِنَ حَدِيثًا كَمَا أَوْدُ أَنْ أَقُولَ، فَيَقَابِلُ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ صِغَارِ البِنِينَ الَّذِينَ هُمُ مِنَ لِدَاتِهِنَّ، فَإِذَا لَمْ يَبْدُ هُوَلاءُ ثِقَلَاءِ طَائِشِينَ أُغْيَاءِ بِجَانِبِهِنَّ كُنْتُ مَخْطُوبًا لَا مِرَاءَ. وَلْيُسَمَّحْ لِي بِإِيرَادِ مِثَالٍ وَاحِدٍ عَنِ السِّدَاجَةِ الصَّبْيَانِيَّةِ.

إِنَّ مِنَ الشَّائِعِ كَثِيرًا مَنَعُ الأَوْلَادِ مِنَ طَلَبِ شَيْءٍ حَوْلَ المَائِدَةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُعْتَقَدُ مُطْلَقًا مَا هُوَ أَحْسَنُ لِلنَّجَاحِ فِي تَرْبِيَتِهِمْ مِنَ إِرْهَاقِ هَذِهِ التَّرْبِيَّةِ بِأَحْكَامٍ غَيْرِ مُجْدِيَّةِ، وَذَلِكَ كَمَا لَوْ كَانَتِ القِطْعَةُ مِنَ هَذَا أَوْ ذَاكَ قَدْ مُنِحَتْ أَوْ رُفِضَتْ^٦ حَالًا مِنْ غَيْرِ أَنْ تُؤَدِيَ بِهَا انْقِطَاعَ إِلَى مَوْتِ الوَلَدِ المُسْكِنِ بِطَمَعِ شَحْدِ الأَمَلِ. وَكُلُّ يَعْلَمُ شُطَارَةَ الصَّبِيِّ الخَاضِعِ لِهَذَا النِّظَامِ، وَالَّذِي يُنْسَى حَوْلَ المَائِدَةِ، فَيَعْرِفُ لَهُ أَنْ يَطْلُبَ مِلْحًا ... إلخ. وَلَا أَقُولُ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُمْكِنِ تَوْبِيخُهُ عِنْدَ طَلَبِهِ مِلْحًا مُبَاشِرَةً، وَعِنْدَ طَلَبِهِ لَحْمًا تَعْرِيفًا؛ فَقَدْ كَانَ الإِهْمَالُ مِنَ القَسْوَةِ مَا لَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَعْتَقِدَ مَعَهُ عِقَابَهُ عِنْدَمَا خَالَفَ النِّظَامَ جَهْرًا وَقَالَ بِهَا مُوَارِيَةً إِنَّهُ جَانِعٌ، وَلَكِنْ إِلَيْكَ مَا وَقَعَ أَمَامِي مِنَ أَمْرِ ابْنَةٍ فِي السَّادِسَةِ مِنْ سِنِّيهَا كَانَتْ فِي وَضْعٍ أَصْعَبَ مِنْ ذَلِكَ بِدَرَجَاتٍ، وَذَلِكَ أَنَّهَا، فَضْلًا عَنِ كَوْنِهَا خَطِرًا عَلَيْهَا خَطِرًا شَدِيدًا أَنْ تَطْلُبَ شَيْئًا مُبَاشِرَةً أَوْ تَعْرِيفًا، لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَحِقَّ العَفْوَ عَنِ عَصِيانِهَا مَا دَامَتْ قَدْ أَكَلَتْ مِنَ الأَطْبَاقِ عِدَا وَاحِدًا نُسِيَّ إِعْطَاؤِهَا شَيْئًا مِنْهُ مَعَ شِدَّةِ رَغْبَتِهَا فِيهِ.

^٦ يَصِيرُ الوَلَدُ مُزْعَجًا إِذَا وَجَدَ نَفْعَهُ فِي أَنْ يَكُونَ هَكَذَا، وَلَكِنَّهُ لَنْ يَطْلُبَ الشَّيْءَ عَيْنَهُ مَرَّتَيْنِ إِذَا لَمْ يُنْقَضِ الجَوَابُ الأَوَّلُ عَلَى الإِطْلَاقِ.

والواقع أنها أرادت تلافِي ذلك الإغفالِ من غير أن تُتَّهم بعصيان، فألقت نظرةً على جميع الأطباق مشيرةً إليها بإصبعها قائلةً بصوتٍ عالٍ: «لقد أكلت من هذا، وقد أكلت من ذاك.» بيّدت أنها تحطَّت الطَّبَق الذي لم تأكل منه من غير أن تقول كلمة، ولكن على وجهٍ يثير انتباه بعضهم فيسألها: «ألم تأكلي من هذا؟» فتجيب هذه التَّهْمَة الصغيرة مُطْرِقةً قائلةً بلطفٍ: «وَيْ! كلاً.» ولا أضيف شيئاً، وقابلوا بين هذا التدبير الذي هو حيلة بنتٍ، وذلك التدبير الذي هو حيلة صبي.

وما هو كائنٌ حسن، ولا يوجد قانونٌ عامٌ سيئ، وتعدُّ هذه الشطارة الخاصة التي حُجِي بها الجنس النسوي تعويضاً عادلاً من القوة التي تُغَوِّزُه، ولولا هذا ما كانت المرأة رفيقةً الرجل، ولولا هذا لكانت أمةً له. والمرأة بهذه الأفضلية في الموهبة تطلُّ مساويةً له وتسيطر عليه بإطاعتها إياه، وكلُّ شيءٍ مضادٌّ للمرأة، ولها ما يعاكسها في نقائصها وفي حوائجها وضعفها، ولا يوجد ما يقول لها غيرُ جذِّقها وجمالها، أو ليس من الصواب أن تتعهد هذا وذاك؟ بيّدت أن الجمال ليس عامًّا، وهو يزول بألفٍ عارض، وهو يتلاشى مع السنين، والعادة تقضي على تأثيره، واللِّقانة وحدها هي وسيلةُ الجنس النسوي الحقيقية، لا تلك اللقانة الحمقاء التي تُعارُ قيمةً كبيرةً في العالم من غير أن يكون لها أقلُّ نفعٍ في جعل الحياة سعيدة، بل اللقانة الملائمة لحالها، واللباقة في الانتفاع بحالنا والتغلب على منافعنا الخاصة. ولا يُعرف مقدارُ ما لنا من فائدةٍ في حذِّق النساء هذا، ولا مقدارُ ما يُضيفُ من فتونٍ إلى مجتمع الجنسين، ولا مقدارُ نفعه في فُهر نَزَق الأولاد، ولا مقدارُ ما يَرْدَع من أزواجٍ غلاظ، ولا مقدارُ ما يحفظُ من راحةٍ في المنزل الذي يسوده الشقاق لولا ذلك. وأُعرف أن النساء الماكرات الخبيثات يُسنن استعمال ذلك، ولكن ما الشيء الذي لا يُساء استعماله بالعب؟ فلا نقض مطلقاً على وسائل السعادة لأن الخبيثاء يستعملونها للأذى أحياناً.

ويمكن الإشرافُ بالخلي، ولكن لا يُراقُ بغير الشخص، ولسنا أزياننا مطلقاً، وفي الغالب تُعطلُّ أزياننا بقوة ما تُبتَغى. وفي الغالب تكون الأزيان التي تُوجِبُ ملاحظةً من تحمُّلها أقلُّ ما يُلاحظ، وتكون تربية الفتيات عندنا على عكس ذلك تماماً؛ فهنَّ يُوعَدُن بأزيانٍ مكافأة، وتُحبَّبُ إليهن الخليُّ المشودة، ويُقال للواحدةٍ منهن عندما تَرَبُّنُ كثيراً: «يا لها من جميلة!» مع أن العكس هو ما يجب أن يُقال لهن، فيسمعن أنه لا يُقصد بكثرة الزينة غيرُ سترِ النقائص، وأن فوزَ الجمال الحقيقي هو بإشراقه بنفسه. ويُعدُّ حُبُّ المُوضات من فساد الذوق؛ فالوجوه لا تتغير بها، وبما أن الوجه يبقى كما هو، فإن ما يُلائمه مرةً يُلائمه دائماً.

ومتى أبصرتُ الفتاةَ تَمِيسُ في حَلِيَّتِها صرفتُ هَمِّي إلى وجهها الذي نُكِّرُ على هذا النحو، وإلى ما يُمكنُ النَّاسَ أن يُفَكِّروا في أمرها، فأقول: «إن جميع هذه الزخارف تُزيِّنها كثيراً، فيا للخسارة! أو تظنون إمكانَ اصطبارها على ما هو أبسط؟ وهل هي من الجمال ما يُمكنها أن تستغنيَ معه عن هذا أو ذاك؟» ومن المحتمل أن تكون إذ ذاك أوَّلَ مَنْ يَرجو نزع هذه الزينة عنها، فيُحكِّمُ في أمرها وهي في هذه الحال، ويُرى هل يُوجدُ محلٌّ للإعجاب بها، ولن أُنثيَ عليها مُطلقاً ما لم تكن بسيطةً الملابس إلى أبعد حد، وهي إذا لم تُعدَّ الحليَّةَ غيرَ مُتِمَّةٍ لألطفِ الشخصِ وغيرِ اعترافٍ ضمنيٍّ باحتياجها إلى مساعدةٍ لتروقَ لم تَزُهْ بِرَيْنِها قَطُّ واعتراها صَغارٌ منه، وهي إذا ما ازيَّنتُ بأكثرَ من المألوفِ وسمعتُ مَنْ يقول: «يا لها من جميلة!» احمرَّ وجهُها غيظاً.

ومع ذلك، فإنه يوجد من الهينات ما يحتاج إلى حليَّة، ولكنه لا يوجد منها ما يحتاج إلى حليٍّ ثمينةٍ مطلقاً؛ فالحليُّ المؤدية إلى الإفلاس هي من خِيلاءِ الطبقة، لا من مقتضيات الشخص، وهي منوطَةٌ بالمُتَسَرِّ حصرًا. أجل، إن الدِّلالَ الحقيقيَّ مرغوبٌ فيه أحياناً، ولكنه ليس مُختاراً مطلقاً. وقد كان جُونُونُ أبهى من فينوسَ لباساً، وقد قال أَيْيلُ لمصوِّرٍ رديءٍ كان قد صوَّرَ هيلانةَ زاخرةً بالجواهر: «إنك لم تقدر أن تجعلها جميلة، فجعلتها غنية.» ومما لاحظتُ أيضاً أن أفخمَ الحليِّ يَمُّ على نساءٍ شوهُ في الغالب، فلا يُعرَفُ غُرورٌ آخرقُ من ذلك. وأعطوا فتاةً ذاتَ ذوق، وذاتَ ازدراءٍ للموضوعة، أوشحةً وشُفوقاً ومُوصلياً وأزهاراً بلا ألماسٍ وبلا باقاتٍ من حريرٍ ومُخرَماتٍ،^٧ تزوَّها صانعةً لزينةٍ تجعلها أكثرَ فُتُوناً مائةَ مرةٍ مما يجعلها جميعُ نساتجٍ لأدوشابِ المتألِّفة.

وبما أن الحَسَنَ حَسَنٌ دائماً، وبما أنه يجب أن يكونَ أحسنَ ما يُمكنُ دائماً، فإن النساءَ اللاتي يَعْرِفنَ مَنْ هُنَّ بالأزْيَانِ يَحْتَرِنَ ما حَسَنٌ ويتمسكُنَ به، ولا يُعَيِّرُنَ شيئاً منه في كلِّ يوم، وهنَّ يَكُنُّنَّ أقلَّ اشتغالاً به من اللاتي لا يَعْرِفنَ أَيْنَ يَتَّبِعُنَ، وتقتضي الرغبةُ الحقيقيةَ في الحليِّ قليلَ تَبَرُّجٍ. ومن النادر أن يتبرَّجَ الأوانسُ تَبَرُّجاً بهياً؛ فهن يقطننَ نهارهن بالشُّغْلِ والدروس، ومع ذلك فإنك إذا عدوتَ الحُمرةَ وجدتهن كالسيداتِ عنايةً باللباسِ وأحسنَ منهن ذوقاً فيه غالباً. وليس سوءُ استعمالِ الزينةِ كما يُفَكِّرُ فيه؛ فهو ينشأ عن السَّامِ أكثرَ مما عن الزهو، ولا تجهلُ المرأةُ التي تقضي سِتَّ ساعاتٍ في زينتِها أنها تفرُّغُ منها بحالٍ أحسنَ من حالِ التي تقضي فيها نصفَ ساعةٍ فقط، ولكنْ هذا ينطوي على تَحُلُّصٍ من الوقتِ الطويلِ القاتلِ؛ فالأوَّلَى للإنسان أن يتلهَّى من أن

^٧ يزري النساءُ، اللاتي يكن من بياض الجلد ما يستغنين معه عن المُخرَماتِ، بغيرهن إذا لم يلبسهن، ويكاد يكون النساءُ الشوهُ وحدهن مَنْ يأتين بالموضات التي يخضع لها الحسان عن غباوة.

يَتَبَرَّمُ بِكُلِّ شَيْءٍ. وما يُصْنَعُ بالحياة فيما بين الظهر والساعة التاسعة لولا الزينة؟ وإذا ما جمعتُ نساءً حوَّلها تَلَهَّتْ بِإِفْرَاقِ صِبْرهن، وهذا شيءٌ يُذَكِّر، وهي بهذا تجتنب مواجهة زوجها الذي لا تراه في غير ذلك الوقت، وهذا أكبر من ذلك كثيرًا. ثُمَّ يَأْتِي التِّجَارُ وِبِاعَةِ التُّحْفِ وَصِغَارِ السَّادَةِ وَصِغَارِ الْمُؤَلِّفِينَ، وَالْأَشْعَارُ وَالْأَغَانِي وَالرِّسَالِ، وَلَوْلَا التَّبَرُّجُ مَا جُمِعَ جَمِيعُ هَؤُلَاءِ مُطْلَقًا. وتقوم فائدة هذا الوحيدة الحقيقية على كونه ذريعة للمباهاة بأكثر مما بالادِّثَار، ومن المحتمل ألا تكون هذه الفائدة كبيرة كما يُظن، ولا يكسب النساء من ذلك بمقدار ما يُقَلَّن، وأنعموا بتربية المرأة على النساء بلا وسواس، واجعلوا منهن مُجَنَّبَاتٍ لجنسهن ذوات حياءٍ عارفاتٍ بالسهر على تدبير منازلهن والعناية ببيوتهن؛ فبهذا يتوارى التَّبَرُّجُ الأكبر من تلقاء نفسه، ولا يلبسُن عن غير أفضل ذوق.

وأوَّلُ شَيْءٍ يراه الفتيات إذا ما كَبُرْنَ هو أن جميع هذه الملاحظات الخارجية لا تكون كافيةً لهن ما لم يكنَّ حائزاتٍ لطائفَ ذاتية. أجل، لا يُمكن انتحالُ الجمال مطلقًا، ولا يستطعن نيلُ الدَّلَالِ عاجلاً، غيرَ أنهنَّ قادراتٌ أن يُحاوِلْنَ منذ البداية منحَ حركاتهن حالًا مقبولًا، ومنحَ أصواتهن نبرةً مُداريةً، وإنشاءهن طُورًا لأنفسهن، وسيرهن مع خفَّة، واتخاذهن أوضاعًا لطيفة، واختيارهن نافعًا لهن في كلِّ مكان، ويمتدُّ الصوتُ ويتقوى ويكون ذا رنين، وتممو الدُّرْعَانِ، ويثبتُ الخطو، ويصيرُ وجودُ فِئ يوجِّهُ الأنظارَ إلى الشخص مهما كان زيُّ الرِّداء الذي يُرتدى، وهنالك يعود الأمرُ غيرَ متوقِّفٍ على الإبرة والصناعة؛ فقد أخذت تبدو مواهبٌ جديدةٌ كان قد شُعرَ بفائدتها.

وأعرِفُ أن المُعلِّمين الأشداء يريدون ألا يُعلِّمَ الفتياتُ غناءً ولا رقصًا، ولا فَنًّا من الفنون اللطيفة، ويلوح لي هذا مُضْحِكًا، وَمَنْ يَوَدُّون أن يتعلَّمها إذن؟ أيتعلمها البنون؟ وَمَنْ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ النِّسَاءِ يَنَالُ هَذِهِ الْمَوَاهِبَ تَفْضِيلًا؟ يُجيبون عن هذا بقولهم: لا أحدٌ من هؤلاء ولا من أولئك؛ فالأغاني الدنيوية من الجرائم، والرقص من صنْعِ الشيطان، ولا يجوز أن تتلَهَّى البنت بغير عملها وصلاتها، وهذه هي الألهوات الغريبة لولدٍ في العاشرة من سِنِّه! وأما أنا فأحشى كثيرًا ألا يقضي هؤلاء القديسات الصغيرات، اللاتي حُمِلْنَ على قضاء صباهن في الصلاة إلى الرَّبِّ، شبابهن في أمرٍ آخَرَ، وألا يعوّضن أنفسهن أزواجًا من الوقت الذي أضغته بنات، وأرى من الواجب أن يُراعى ما يناسب السنَّ كما يُراعى ما يناسب الجنس، وأنه لا ينبغي أن تقضي البنت حياةً كحياة جدِّتها، وأنه يجب أن تكون نشيطةً مازحةً لعوبًا، فثُغني وترقص ما راقها الغناء والرقص، وتدوق جميع

ملاذً جنسها الطاهرة، فلسرعان ما يحينُ زمنُ الرزاة واتخاذ وضع يكون أكثر رصانة.

ولكن هل ضرورة هذا التحول حقيقية بذاتها؟ أليس من الممكن ألا تكون ثمرة مُبتسراتنا؟ لقد أقصي عن الزواج كل ما يجعله مستحباً لدى الرجال نظراً إلى تعييد النساء الصالحات لكيب الواجبات، وهل يجب أن يُعجب من كون الصمت القاتم الذي يسود منازلهم يطردهم منها، أو من كونهم يُفتنون قليلاً بانتحال حال مستكربة كثيراً؟ إن النصرانية بمجاوزتها الحد في جميع الواجبات تجعل هذه الواجبات فارغة غير عملية، وإن النصرانية بحظرها الغناء والرقص وجميع ألهُوات العالم على النساء تجعل النساء عابساتٍ معزّراتٍ لا يُطقن في بيوتهن. ولا تجد ديناً يُجعل الزواج فيه خاضعاً لواجباتٍ شديدة جداً كهذا الدين، ولا تجد ديناً يُستخف فيه بمثل هذا العقد المقدس كما يُستخف به في هذا الدين. وقد صنع ما يمنع النساء من أن يكنّ أنيساتٍ بمقدار ما صنع لجعل الأزواج أخلياء غير مكترئين، ولا ينبغي أن يقع هذا، وهذا ما أدركه جيداً، ولكنني أقول إنه لا بُد من وقوع هذا ما دام النصارى من الناس نتيجةً، وإنما أريد أن تتعهد الإنكليزية بعناية فائقة ما يطيب من المواهب لتروق الزوج الذي سيكون لها كما تتعهد الألبانية من أجل دائرة الحريم في أصبهان. ويقال إن الأزواج لا يُبالون بجميع هذه المواهب، وهذا ما أذهب إليه حقاً، وذلك أن هذه المواهب بعيدة من الوقوع عندهم موقع الرضا، فلا تنفع أن تكون غير طعم لاجتذاب شبان خالعي العذار إلى منازلهم التي يشيئونها. ولكن أترون أن المرأة اللطيفة الحكيمة المُزينة بمثل هذه المواهب، والواقفة لهذه المواهب على تسليّة زوجها، لا تزيد في سعادة حياته، وأنها لا تمنعه إذا ما خرج من مكتبه منهوك الرأس من البحث عن التسليّة خارج منزله؟ ألم ير أحد أسراً سعيدةً مجتمعاً على هذا الوجه، فيعرف كل واحد أن يساعده من قبله على الألهوات المشتركة؟ وليقل هل الثقة والدالة الملازمتان لذلك، وهل نقاوة الملاذ وعدوبتها اللتان تُدافان هنالك أمور لا تُغني عما يلازم الملاذ العامة من صحح بالغ؟

وقد أمعن في ردّ المواهب المستحبة إلى فنون، وقد أمعن في تعميمها، وقد جعل كل شيء مبادئ وقواعد، وقد أورث الشباب سأمًا شديدًا في كل ما لا ينبغي أن يكون له غير لهو وألعابٍ مَرحة. ولا أتصور أمرًا أدعى إلى السخرية من مشاهدة مُعلمٍ للرقص أو الغناء شائبٍ يقابل عابساتاً شاباً لا يطلب غير الضحك ويتخذ لتعليمه علمه الطائش لهجةً أكثر خذلقةً وأعظم تحكماً مما يتخذ لو كان يُعلمهم أصول دينه. وهل فن الغناء مثلاً تابع للموسيقا المسطورة؟ أولاً يمكن جعل الصوت ليلاً مستقيماً، وتعلم الغناء بالذوق، حتى بالمصاحبة، من غير أن تُعرف

نوتة^٨ * واحدة؟ وهل يُلائم نوعُ الغناء الواحد جميعَ الأصوات؟ وهل يناسبُ عينُ المنهاج جميعَ النفوس؟ ولن أحمل على القول بأن عينَ الأوضاع وعينَ الخطوات وعينَ الحركات وعينَ الإشارات وعينَ الرقصات التي تُوافق صغيرةً سمرَاءَ نشيطةً جَدَابَةً توافُقُ شقراءَ طويلةً حسناء ذاتَ عينين ذابلتين؛ ولذا فإذا ما رأيتُ مُعلِّمًا يُلقِي على الاثنتين ذاتَ الدروس تمامًا قلتُ: «إن هذا الرجل يتبعُ رأيته، ولكنه لا يفقه شيئًا من فنه.»

وُسْأَل: هل يجب أن يكون للبنات مُعلِّمون أو مُعلِّمات؟ لا أدري، وإنما أريد ألا يحتجن إلى هؤلاء أو أولئك، وإنما أريد أن يتعلَّمن بحرية ما يَمَلْنَ كثيرًا إلى تعلُّمه، وإنما أريد ألا يرى طوائفٌ كثيرٌ من المهرجين المتبرجين في مُدننا طوائفًا غيرَ منقطع، ويصعبُ عليَّ أن أعتقد أن صرَّ معاشرَةَ هؤلاء النَّاس على الفتيات لا يكون أعظمَ من نفعِ دروسهم لهنَّ، وأن رطانتهم ولهجتهم ومظاهرهم لا تمنحُ طالباتهم أوَّلَ ذوقٍ للتُّرَّهات المهمة لديهم كثيرًا، فلا يلبثن أن يسرنَّ على مثالهم جاعلاتٍ منها شغْلَهُنَّ الوحيد.

وفي الفنون التي لا تهدف إلى غيرِ اللهو يصلحُ كلُّ أن يكون مُعلِّمًا لهن، ومن ذلك أبوهن وأمهن وأختهن وصديقاتهن ومرآتهن، ولا سيمًا ذوقهن الخاص. ولا يجوز مطلقًا أن يُعرض إلقاءُ دروسٍ عليهن؛ فالواجب يقضي بأن يكُنَّ اللاتي يطلبن ذلك، ولا يجوز مطلقًا أن يُؤتى عملٌ يُعدُّ مكافأةً؛ ففي هذه الأنواع من الدروس على الخصوص يكون النجاح الأوَّل في إرادة النجاح، ومع ذلك فإنه إذا كان لا بدُّ من الدروس المنتظمة فإني لا أقرُّ مطلقًا أيَّ الجنسين يجب أن يُعطيها، ولا أدري هل يجوزُ أن يأخذَ مُعلِّمٌ للرقص طالبةً فتاةً من يدها الناعمة البيضاء، وأن يحملها على تشميرِ ثُورتها^٩ * ورفعِ عينيها وبسطِ ذراعيها وإبرازِ صدرها المُختلج، وإنما أعلمُ أنه لا يوجد في العالم من يستطيع إغوائي بأن أكون ذاك المُعلِّم.

ويتكوَّن الذوقُ بالحدِّق والمناقب، وبالذوق يتفتقُ الذهنُ تفتُّقًا غيرَ محسوس لمبادئ الجمال من كلِّ نوع، ثمَّ لمبادئ الأخلاق التي ترجعُ إليها، وقد يكون هذا من الأسباب في كون حسِّ اللطف والحياء ينسابُ إلى البنات بأبكر مما إلى البنين؛ وذلك لأنَّ الذهاب إلى أن هذا الحسُّ الباكر من عملِ المربيات ينطوي على جهلٍ بأسلوب دروسهن ويسيرُ الذهن البشري. وتحتلُّ موهبةُ الكلام مكانَ الصدارة في فن الرُّوقان، وبهذه الموهبة وحدها يُمكن أن يُضافَ فتونٌ

.La note *^٨

.La jupe *^٩

جديدً إلى مَنْ تُكَلِّمُ العادَةَ حواسِهِمْ. ولا يُنْعِشُ الذهنُ البدنَ فقط، بل يُجَدِّدُه من بعض الوجوه، وهو يُحْيِي المَحْيَا وَيُحَوِّلُه، وهو بالكلام الذي يوحي به يجعل الانتباه المستكدر سَنَدًا لعين المصلحة حَوْلَ عينِ الغاية لِمَنْ طویل. ولجميع هذه الأسباب، على ما أعتقد، ينال البنات بسرعة شيئًا من الهذر المستعذب ويضعن نبراتٍ في أحاديثهن، حتى قيل أن يشعرن بها وقيل أن يلهو الناس بالاستماع لها بعد قليل، حتى قيل أن يستطعن إدراكها، والناس يرقين الساعة الأولى لهذا الإدراك نفوذًا إلى أوّل شعورٍ على هذا الوجه.

ولسانُ النساءِ لَيِّنٌ؛ فهن أبكرُ نُطْقًا من الرجالِ وأسهلُ كلامًا وألطفُ قولًا، وهنَّ يُتَهَمُنَ أيضًا بأنهنَّ أكثرُ منهم حديثًا، وهذا ما يجب أن يكون، وسأحوّل هذا اللومَ إلى ثناءٍ أيضًا، وذلك أن للفم والعين عندهنَّ نفسَ الفعلِ وذاتِ السببِ. والرجل يقول ما يَعْلَمُ، والمرأة تقول ما يروق، والرجل يحتاج إلى معرفة ليتكلم، والمرأة تحتاج إلى ذوق لتكلم، والرجل يجب أن تكون لديه أمورٌ مفيدةٌ كغرضِ رئيس، والمرأة يجب أن تكون لديها أمورٌ لطيفةٌ كغرضِ رئيس، ولا يجب أن يكون بين كلامهما من أوجه الشبه غير الصدق.

ولذا لا يجبُ أن يُلَجِّمَ هَذَرُ البناتِ، كما يُلَجِّمُ هَذَرُ البنين، بهذا السؤالِ الشديد، وهو: «ما فائدةُ هذا؟» بهذا السؤالِ الآخر الذي لا يسهلُ الجوابَ عنه، وهو: «ما الأثرُ الذي سيؤدي إليه هذا؟» وفي ذاك الدّورِ الأوّل من العُمُر، حين يعجزن عن تمييز الخير من الشر، لا يَكُن قاضياتِ أحد؛ فيجب أن يُلزِمُنَ أنفسهنَّ بدستورٍ قاضٍ بالألّا يَقْلُنَ غيرَ ما يكون مُستحبًّا عند مَنْ يخاطِبُنَّ، والذي يجعلُ استعمالَ هذه القاعدة أكثرَ صعوبةً هو بقاؤها تابعةً للأولى دائماً؛ أي عدم الكذبِ مطلقًا.

وهناك أجدُ مصاعبَ كثيرةً أخرى أيضًا، غير أنها خاصةٌ بدورٍ من العُمُر أكثرَ تقدّمًا، وأمّا الآن فلا يقتضي كَوْنُ الفتياتِ صادقاتٍ غيرِ كونهن هكذا بلا غِلْظَةٍ. وبما أن هذه الغلظة غير ملائمةٍ لهن عن طبيعة، فإن من السهل أن تُعلِّمَهُنَّ التَّريُّبَةَ اجتنابًا. وألاحظ في معاشرتنا الناس على العموم أن أدبَ الرجالِ يكون مُسعفًا وأدبَ النساءِ يكون مُلاطفًا، وليس هذا الفرقُ وضعيًا، بل طبيعي؛ فالرجل يَلوُحُ أنه أكثرُ محاولةً ليخدمكم، والمرأة تَلوُحُ أنها أكثرُ محاولةً لتروقكم؛ ومن ثمَّ يكون أدبُ النساءِ أقلَّ رُبوفاً من أدبنا مهما قيل عن أخلاقهن، وذلك أن ذاك الأدب لا يوجبُ غيرَ توسيعِ غريزتهن الأولى. ولكن متى تظاهر الرجلُ بأنه يُفضِّلُ مصلحتي على مصلحته الخاصة لم يخامرني شكٌّ في أنه أتى أكذوبةً مهما حاول تمويهها؛ ولذا فإن كَوْنُ النساءِ ذواتِ أدبٍ لا

يُكَلِّفُهُنَّ شَيْئًا، كما أنه لا يَكَلِّفُ البِنَاتِ شَيْئًا من حيث النتيجة، تَعَلَّمُهُنَّ أَنْ يَصِرْنَ ذَوَاتِ أَدَبٍ. ويأتي الدرس الأول من الطبيعة، ولا يصنع الفنُّ غيرَ اتِّباعِها وغيرَ تعيين الشكل الذي يبدو به الأَدَبُ وَفَقَ عاداتنا. وأمَّا أدبُ النساءِ فيما بينهن فأمرٌ آخرٌ تمامًا؛ فهنَّ يبلُغْنَ من جعلهنَّ له ظاهرًا من القَهْرِ وفاترًا من الالتفاتِ ما لا يُعَيِّنُ معه إخفاءَ ضيقهنَّ إذا تضايقتن مبادلةً، وهنَّ يُلحَنُ من الإخلاصِ حتى في كذبهنَّ ما لا يحاولنَّ معه تنكيره، ومع ذلك فإنَّ الفتياتِ يأتين من الصداقاتِ أحيانًا ما ينطوي على أبلغِ صدق، ويقوم المَرخُ في سِتْنِهِنَّ مقامَ حُسْنِ الوضعِ، وهنَّ إذ كنَّ راضياتٍ عن أنفسهنَّ فإنهنَّ يكنَّ راضياتٍ عن جميع النَّاسِ. ومن الثابت أيضًا أنهنَّ يتلائمنَّ عن طيبةٍ ويتعانقن بأعظمِ لطفٍ أمامَ الرجالِ مختلاتٍ بشحنهنَّ الحِرصَ بلا عِقَابِ، وذلك بصورة الأُلطافِ التي يَعْرِفُنَّ إثارةَ غَيْرَتِهِمْ نَحْوَهَا.

وإذا كان من غير الجائز أن يُسَمَّحَ للبنين بأن يُوردوا أسئلةً مخالفةً للرصانة، فإن من الأجدر أن تُحظَرَ على الفتيات اللاتي يكون لفضولهن عند قضائه وسوء إقصائه نتيجةً أخرى، وذلك نظرًا إلى بَصَرِهِنَّ الناقبِ في تبيين ما يُكْتَمُ عنهن من أسرار، وحَدِّقْنَهُنَّ في كشف هذه الأسرار. ولكنني من غيرِ إباحةٍ لأَسْأَلُنَهُنَّ أريد أن يُكْثَرَ من وضع أسئلةٍ لهنَّ، فيُعَيَّنَ بِحَمَلِهِنَّ على الكلام، وَيُتَرَنَّنَ تَدْرِيبًا لهنَّ على الكلامِ بسهولة، وجعلًا لهنَّ سرِّياتٍ في الجوابِ وحلًّا لعقدة ذهنهنَّ ولسانهنَّ، ولكن بشرط السلامة. وتُسَفِّرُ هذه الأحاديث المحوَّلة إلى مَرَجٍ دائمًا، ولكن مع مداراةٍ بمهارةٍ وحُسْنِ توجيهه عن لهو فاتنٍ في تلك السَّنِّ، فيمكن أن تحمِلَ في أفئدة هؤلاء الفتيات البريئة أولَّ ما يتلقَّينَ في حياتهنَّ من دروسٍ في الأخلاق وأنفع ما يُمكن من هذه الدروس، وذلك بتعليمهنَّ، عن جَذْبٍ من اللذة والزهو، أي الصفاتِ يَمْنَحُ الرجالُ تقديريهم بالحقيقة، وأيُّ الأمورِ يقوم عليها مَجْدُ المرأةِ الصالحة وسعادتها.

ومما يُدْرِكُ جيِّدًا أن الذكورَ من الأولاد إذا كانوا عاجزين عن تكوينِ فكرةٍ حقيقيةٍ حول الدِّينِ؛ فمن الأحرى أن تكون عينُ الفكرة فوق متناول البنات، ولذاتِ العلة أريد أن أُسْرِعَ في مخاطبة هؤلاء عن الدِّينِ؛ وذلك لأنه إذا ما رُئِيَ انتظارُ بلوغهنَّ الحال التي يناقِشَنَّ فيها نقاشًا أصوليًا حول هذه المسائل العميقة وَقَعَ خَطَرُ عدمِ مكالمتهنَّ بعد ذلك في أمرِ الدينِ مُطلقًا. ويُعدُّ عَقْلُ النساءِ عقلاً عمليًا، يَجِدُنَّ به مع المهارةِ وسائلَ الوصولِ إلى الغرضِ المطلوبِ، ولكن مع عدمِ انتهائهنَّ به إلى كشفِ هذا الغرضِ. وتُعدُّ صِلَةُ الجنسين الاجتماعية أمرًا عجيبيًا، وينشأ عن هذه الشراكة شخصٌ معنويٌّ تكون المرأة عينه ويكون الرجل ذراعَه، ولكن المرأة، باتِّباعِ كلِّ من

الجنسين للآخر، تتعلم من الرجل ما يجب أن ترى، كما يتعلم الرجل من المرأة ما يجب أن يعمل. وإذا كانت المرأة تستطيع - كما يستطيع الرجل - أن تطالع على المبادئ، وإذا كان الرجل يستطيع - كما تستطيع - أن ينفذ في الجزئيات، فإنهما يعيشان في شقاق دائم، ولا تستطيع شركتهما أن تبقى، ولكن كلاً منهما يهدف إلى الغرض المشترك بفعل ما يكون بينهما من انسجام، ولا يعرف أي منهما يكون أكثر تقديمًا من الآخر؛ فكل منهما يتبع دافع الآخر، وكل منهما يطيع، وكلاهما سيّد.

وبما أن المرأة خاضعة في سلوكها للرأي العام فإنها خاضعة في معتقدها للسلطان، ويجب أن تكون كل بنت على دين أمها، ويجب أن تكون كل امرأة على دين زوجها، وإذا كان هذا الدين على خطأ فإن الطاعة التي تخضع بها الأم والأسرة لأمر الطبيعة تمحو ذنب الخطأ لدى الرب، وإذا يعجز البنات عن القضاء في أمر أنفسهن، فإنه يجب عليهن أن يتلقين حكم الآباء والأزواج كما يتلقين حكم الكنيسة.

وبما أن النساء لا يستطعن أن يستيطعن أنفسهن قاعدة إيمانهن، فإنهن لا يستطعن أن يمتحنه حدود اليقين والعقل، ولكن بما أنهن يدعن أنفسهن تساق بألف دافع أجنبي، فإنهن يكنن من ناحية الحق هذه أو تلك على الدوام. وبما أنهن متطرفات دائمًا، فإنهن يكنن فاسقات أو قيات، ولا يُرَبّن جامعات بين الحكمة والوزع مطلقًا، ولا يكون منبع السوء في طبع جنسهن المفرط فقط، بل أيضًا في سلطان طبعنا السيئ التنظيم أيضًا، ومن شأن فسق الطباع أن يُزدرى الدين، ومن شأن رُعب التوبة أن يكون الدين طاعيًا، وهكذا ترى كيف يكون الإفراط والتفريط فيه.

وبما أن على السلطان أن يعين دين النساء، فإن المهم هو في عرض ما يُعتقد عليهن بجلاء أكثر مما في شرح ما يعتقدن؛ وذلك لأن ما تُحصى به الأفكار الغامضة من إيمان هو أول مصدرٍ للتعصب، ولأن الإيمان الذي يُطلب من أجل أمورٍ مستحيلة يؤدي إلى الجنون أو الكفر، ولا أدري أي الأمرين أكثر ما تؤدي إليه كتب أصول الدين عندنا: الإلحاد أو التعصب، وإنما أعرف أنها تُسفر عن هذا أو ذاك بحكم الضرورة.

وأول ما يجب عليكم في تعليم الفتيات الدين ألا تجعلوا منه موضع غمٍ وضيق مطلقًا، وألا تجعلوا منه شغلًا ولا واجبًا مطلقًا؛ ومن ثم لا تُعلموهن على ظهر القلب شيئًا خاصًا به، حتى الصلوات، واكتفوا بالقيام بصلواتكم أمامهن قيامًا منتظمًا، وذلك من غير إكراههن على حضورها، واجعلوا صلواتكم قصيرة كما علم يسوع المسيح، وقوموا بها مع ما يناسبها من جنح الحواس

والإجلال، واذكروا أننا عندما نسأل الكائن الأعلى أن يلتفت إلى ما نقول يجدر أن نُنعِم النظر فيما نقصد أن نقول.

ومعرفة الفتيات لديهن من فُوهرن أقل أهمية من معرفته جيِّداً، ومن محبته على الخصوص، وإذا ما جعلتم الدِّين عبئاً عليهن، وإذا ما وصفتم الربَّ بأنه ساخِطٌ عليهن، وإذا ما فرضتم ألفَ واجبٍ شاقٍّ باسمه عليهن من غير أن يَرَيْنَ قيامكم بهذه الواجبات على الإطلاق، فما يُمكن أن يكون تفكيرهنَّ غير معرفتهن أن كتاب أصوله والصلاة للربِّ من واجبات صغريات البنات مع رجانهن أن يكتبن حتى يُعقبن مثلكم من جميع هذا العناء؛ فالقدوة! القدوة! وبغير القدوة لا يُكتب نجاحٌ لشيءٍ لدى الأولاد.

ومتى شرحتم لهنَّ قواعد الدين فاجعلوا هذا في شكلٍ تعليمٍ مباشر، لا على شكلٍ أسئلةٍ وأجوبةٍ. وليس من الواجب عليهن مطلقاً أن يقومَ جوابهن على غير ما يُفكرن فيه، لا على ما أملي عليهن. وجميعُ أجوبة كتاب قواعد الدين على طريقٍ معاكس؛ فالطالب فيها هو الذي يُعلِّم المُعلِّم، حتى إن هذه الأجوبة أكاذيبُ في فم الأولاد ما دام يوضحون ما لا يَعْقِلون مطلقاً، وما داموا يُؤكِّدون ما يَعجزون عن اعتقاد، وبين أذكي الرجال ذُلوني على مَنْ لا يكذبون حين تلاوة كتاب دينهم.

وأوَّلُ سؤالٍ أرى في كتاب ديننا هو: «مَنْ خَلَقَكُمْ وجَعَلَكُمْ في العالَم؟» فعن هذا السؤال تُجيب البناتُ بلا تردُّدٍ بقولها: «إنه الرب»، مع اعتقادها أنه أمُّها، والشيء الوحيد الذي ترى هنالك هو أنها أتت عن سؤالٍ لا تُدرِكه مطلقاً بجوابٍ لا تُدرِكه مطلقاً.

وأوَّلاً لو يَعْرِفُ رجلٌ سَبَرَ ذهنِ الأولاد، فيصعَّ لهم كتاباً عن أصول الدين؛ فقد يكون هذا الكتاب أنفعَ ما كُتِبَ على الإطلاق، وعندني أنه لا يَقِلُّ عن هذا ما يحبو هذا الكتاب مؤلفه من فُخر، ومما لا مراء فيه أن هذا الكتاب إذا ما ظَهَرَ صالحاً لم يشابه كُتُبنا الدينية مطلقاً.

وكتابٌ في الدِّين كهذا لن يكون صالحاً إلا إذا أسفرَ عن إتيان الولد عندما يُسأل أجوبةً من تلقاء نفسه، ومن غير سابقِ تَعَلُّم، وهذا مع العلم بأن الولد يكون أحياناً في وضعٍ يسألُ معه عن أشياء بدوره، وإني لكي أحملَ على إدراك ما أريد أن أقول أضطرُّ إلى صَرْبٍ من النماذج وأشعر بما يُعوِّزني لرسم هذا النموذج، ومع ذلك فإنني سأحاول إعطاء فكرةٍ طفيفةٍ عن ذلك. ولذا فإنني أتمثل، لتناول السؤال الأوَّل من كتابنا الديني، بدءً ذلك كما يأتي تقريباً:

المُرِّيَّة: أتذكرين الرَّمَنَ الذي كانت أمُّك ابنةً فيه؟

الصغيرة: كلاً يا مُرِّيَّة.

المُرِّيَّة: ولمَ كلاً، مع أنك ذاتُ ذاكرةٍ جيدة؟

الصغيرة: ذلك لأنني لم أكن في الدنيا.

المُرِّيَّة: إذن، لم تكوني حيَّةً دائماً؟

الصغيرة: كلاً.

المُرِّيَّة: أتعيشين إلى الأبد؟

الصغيرة: نعم.

المُرِّيَّة: هل أنت بُنْيَّةٌ أو شائبة؟

الصغيرة: أنا بُنْيَّة.

المُرِّيَّة: وهل جدُّتك بُنْيَّةٌ أو شائبة؟

الصغيرة: شائبة.

المُرِّيَّة: وهل كانت بُنْيَّة؟

الصغيرة: أجل.

المُرِّيَّة: ولمَ عادت لا تكونُ بُنْيَّة؟

الصغيرة: ذلك لأنها شابَّت.

المُرِّيَّة: وهل تشيِّبين مثلها؟

الصغيرة: لا أعلم.^{١٠}

المُرِّيَّة: وأين ثيابُك في العام الماضي؟

الصغيرة: لقد فُتِّقت.

المُرِّيَّة: ولمَ فُتِّقت؟

^{١٠} إذا ما وُضِعَتْ في كلِّ محل كلمة «لا أعلم» كان جوابُ الصغيرة على وجهٍ آخر، فيجب الاحتراز من جوابها وجعلها توضِّحه بعناية.

الصغيرة: ذلك لأنها ضاقت عليّ كثيرًا.
المُرِّيَّة: ولم ضاقت عليك؟
الصغيرة: لأنني كبرت.
المُرِّيَّة: وهل تكبرين أكثر مما أنتِ عليه؟
الصغيرة: وِي! نعم.
المُرِّيَّة: وما يصير كُبريات البنات؟
الصغيرة: يصرن نساء.
المُرِّيَّة: وما يصير النساء؟
الصغيرة: يصرن أمهات.
المُرِّيَّة: وما يصير الأمهات؟
الصغيرة: يصرن شابات.
المُرِّيَّة: ستصيرين شابةً إذن؟
الصغيرة: متى صرتُ أمًا.
المُرِّيَّة: وما يصير الشابات؟
الصغيرة: لا أعلم.
المُرِّيَّة: وماذا صار جدُّك؟
الصغيرة: مات. ١١
المُرِّيَّة: ولم مات؟
المُرِّيَّة: لأنه كان شائبًا.

١١ ستقول الصغيرة هذا لأنها سمعته، ولكنه يجب أن يحقّق هل تُوجد لديها فكرةٌ صحيحة عن الموت؛ وذلك لأن هذه الفكرة ليست من البساطة ومن تناول الأولاد بالمقدار الذي يُظن، ومن الممكن أن يرى في قصيدة أبيل الصغيرة مثالً عن الوجه الذي يعلمون به أمره، ويوحى هذا الأثر الفاتن ببساطةٍ حلوةٍ يُغذى بها في محادثة الأولاد.

المُرِّيَّة: وما يصير الشائبات إِذْن؟

الصغيرة: يَمُنُّن.

المُرِّيَّة: وَأَنْتِ مَتَى صِرْتِ شَائِبَةً ...

الصغيرة (مقاطعةً): وَيْ! لَا أُرِيدُ أَنْ أَمُوتَ يَا مُرِّيَّتِي.

المُرِّيَّة: أَيُّ ابْنَتِي، لَا يَرِيدُ أَحَدٌ أَنْ يَمُوتَ، وَجَمِيعُ النَّاسِ يَمُوتُونَ.

الصغيرة: كَيْفَ! وَهَلْ تَمُوتُ وَالِدَتِي أَيْضًا؟!

المُرِّيَّة: كَجَمِيعِ النَّاسِ؛ فَالنِّسَاءُ يَشِينُ كَالرِّجَالِ، وَيُؤَدِّي المَشِيبَ إِلَى المَوْتِ.

الصغيرة: وَمَا يُفَعَّلُ لِتَأْخِيرِ دَوْرِ المَشِيبِ؟

المُرِّيَّة: الحَيَاةُ بِحِكْمَةٍ فِي دَوْرِ الصَّبَا؟

الصغيرة: سَأَكُونُ حَكِيمَةً يَا مُرِّيَّتِي.

المُرِّيَّة: هَنِيئًا لَكَ، وَلَكِنْ أَعْتَقِدِينَ أَنَّكَ تَعِيشِينَ إِلَى الأَبَدِ؟

الصغيرة: مَتَى شَبْتُ كَثِيرًا، مَتَى شَبْتُ كَثِيرًا ...

المُرِّيَّة: حَسَنًا.

الصغيرة: وَالخَلَاصَةُ أَنَّكَ تَقُولِينَ إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ المَوْتِ عِنْدَ المَشِيبِ.

المُرِّيَّة: سَتَمُوتِينَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْن؟

الصغيرة: يَا حَسْرَتِي! أَجَلٌ.

المُرِّيَّة: وَمَنْ عَاشَ قَبْلَكَ؟

الصغيرة: أَبِي وَأُمِّي.

المُرِّيَّة: وَمَنْ كَانَ يَعْيشُ قَبْلَهُمَا؟

الصغيرة: أَبُوهُمَا وَأُمَّهُمَا.

المُرِّيَّة: وَمَنْ يَعْيشُ بَعْدَكَ؟

الصغيرة: أَوْلَادِي.

المُرِّيَّة: وَمَنْ يَعْيشُ بَعْدَهُمْ؟

الصغيرة: أولادهم ... إلخ.

وإذا ما سَلِكْتَ هذه السبيلَ دَلَّ الاستقراء الواضح على أن للجنس البشري بُدَاءَةً ونهايةً كما لجميع الأشياء، أي أبٌ وأمٌّ لم يكن لهم أبٌ ولا أم، وأولادٌ لن يكون لهم أولادٌ مُطلقًا.^{١٢} وليس بغير سلسلةٍ طويلةٍ من مثل هذه الأسئلة ما يُهيأُ معه السؤال الأول من كتاب الدِّين بما فيه الكفاية، ولكن ما أوسع الوثوب من هنالك حتى الجواب الثاني الذي يُعرِّف به الكُنْهُ الإلهيُّ كما أقصدُ أن أقول! ومتى تُملأ هذه الفاصلة؟ والرَّبُّ رُوحٌ! وما الروح؟ وهل أُرَكَّبُ الولدَ هذا المركب من إبهام ما بعد الطبيعة الذي يلاقي الرجال كثيرًا من المشقة للخروج منه؟ ولا تطالُبُ البنْتُ الصغيرة بحلِّ هذه المسائل، ومن الكثير أن تَضَعَهَا، وهي إذا ما وضعتها أجبْتُ عنها ببساطة: «أنت تسألين عن الرب، فليس من السهل قولُ هذا؛ فلا يمكن أن يُسَمَعَ الربُّ ولا أن يُرى ولا أن يلمَس، وهو لا يُعرَف بغير أعماله، وانتظري معرفة ما صنَع حتى تعرفي مَنْ هو.»

وإذا كانت جميع عقائدنا من ذات الحقيقة، فإن جميعها ليس من ذات الأهمية، وليس مما يُبالي به جلالُ الربِّ أن نعرفه في كلِّ أمر، ولكن مما يُهمُّ المجتمع البشريُّ وكلُّ عُضْوٍ من أعضائه أن يُعرَف كلُّ إنسان ما تفرِّضه عليه سنَّةُ الربِّ من الواجبات نحو نفسه وجاره، وأن يقوم بهذه الواجبات. وهذا ما يجب أن يُعلِّمه كلُّ مِنَّا للآخر دائمًا، وهذا ما يُلْزَمُ الآباءُ والأمهاتُ بتعليمه لأولادهم. وسواء أكان كُنْهُ الأب والابن واحدًا أم متشابهًا، وسواء أصدرت الروح عن أحد الاثنين اللذين هما أمٌّ عن الاثنين معًا، لا أرى أن تقرير هذه المسائل الجوهرية ظاهرًا أهمُّ للنوع البشريِّ من معرفة أيِّ من أيام القمر يجب أن يُحتَقَل فيه بعيد الفِصْح، ومن وجوب أو عدم وجوب التسييح والصوم والانقطاع عن أكل اللحم والدَّهْن، واستعمال اللاتينية أو الفرنسية في الكنيسة، وتزيين الجدران بالصور، وإقامة القُدَّاس وسماعه وعدم الاختصاص بامرأةٍ مُطلقًا. ولْيُفَكَّر كلُّ واحدٍ في ذلك كما يروقه، وأجهلُّ ما يمكن أن يكون للآخرين من مصلحةٍ في ذلك. وأمَّا أنا، فلا أبالي بذلك مطلقًا، وإنما الذي أبالي به أنا وجميع أمثالي هو أن يُعرَف كلُّ واحدٍ وجودَ حاكمٍ في مصير النَّاس، فنُعَدُّ كلُّنا أولادًا له، فيأمرنا بأن نكون أبرارًا وبأن نتحابَّ، وبأن نكون رحماء محسنين، وبأن نوفي بعهودنا نحو جميع العالم، حتى نحو أعدائنا وأعدائه، وأن نعرف أن سعادة هذه الحياة الظاهرة ليست شيئًا يُدْكَر، وأنه يوجد بعدها حياةٌ أخرى يكافئ هذا

^{١٢} لا يمكن تطبيقُ فكرة الخلود على الأجيال البشرية تطبيقًا موافقًا للعقل؛ فكل سلسلة عديدة يقع رُدها إلى فعلٍ تكون مناقضة لهذه الفكرة.

الكائن الأعلى فيها الأبرارَ وَيَدِينُ الأشرار. فهذه العقائد وما ماثلها هي التي يُهْمُ تعليمُها للشبيبة وإقناع جميع المواطنين بها، ولا ريب في استحقاق من يناهضها للعقاب، لِمَا يكون بهذا مُخَالًا بالنظام عدوًّا للمجتمع. ومَن يُجاوِز هذه العقائد ويُردُّ إخضاعنا لآرائه الخاصة يَصِلُ إلى ذات النقطة عن طريق معاكسة، وهو يُعكِّز السلام من حيث إقامته النظامَ على نَمَطه، وهو ينتصِبُ تُرْجَمَانًا للألوهية عن زهوٍ مُغامِر، وهو باسمها يُطالب النَّاسَ بِضُرُوبِ الطاعة والإجلال، وهو يجعلُ من نفسه إلها ما استطاع إلى هذا سبيلًا. وهذا الآدميُّ هو مَن يجبُ أن يُجازَى كمدنِّسٍ للفُدُسيات إذا لم يُعاقَب كمتعصِّب.

ولذا فأنبذوا جميع تلك العقائد الحافلة بالأسرار، والتي نَعُدُّها ألفاظًا بلا أفكار، انبذوا جميع هذه المذاهب الغريبة التي تقوم دراستها الباطلة مقامَ الفضائل لدى من يزاولونها والتي تنفع لجعلهم مجانين أكثر من جعلهم صالحين. وأمسكوا أولادكم دائمًا ضمنَ دائرة وثيقة من العقائد التي تتصل بالأخلاق، وأقنعوهم بأنه لا شيء تنفع معرفته أكثر مما يُعلمنا صنْع الخير. ولا تجعلوا من بناتكم، مُطلقًا، لاهوتياتٍ ولا مُبرهنات، ولا تعلموهنَّ من أمور السماء شيئًا غير ما ينفع للحكمة الإنسانية، وعودوهنَّ الشعورَ بأنهنَّ تحت عيني الربِّ دائمًا، وجعل الله شاهدًا على أفعالهن وأفكارهن وفضائلهن وملاذهن، وعمل الخير بلا فخرٍ لأن الله يحبُّ هذا، واحتمال الأذى بلا تذمُّرٍ لأن الله سيَعُوْضُهُنَّ من هذا. ثمَّ أن يَكُنَّ في جميع أيام حياتهن ما تَقَرُّ به أعينهن حين المُثول بين يديه؛ فهذا هو الدِّين الصحيح، وهذا هو الدِّين الوحيد الذي لا مكانَ فيه لسوء الاستعمال والإلحاد والتعصُّب، ودَعُوا بعضَهم يُشِّرون بدينٍ أسْمى منه ما شاءوا، وأمَّا أنا فلا أَعترف بدينٍ غير هذا مُطلقًا.

ومع ذلك يَحْسُنُ أن يلاحظَ أنه، حتى العُمُر الذي يستتير فيه العقل، والذي يحمل الشعورُ الناشئُ فيه ضميرَ الإنسان على الكلام، يكون ما هو خيرٌ أو شرٌّ لدى الفتياتِ هو ما يُقرَّرُ مَن يحيطُ بهن من النَّاس أنه هكذا، فما يُؤمِرُن به هو خير، وما يُنهيَن عنه هو شر، ولا يُطالبين بمعرفة ما هو أكثرُ من هذا؛ ومِنَ ثَمَّ يُرى ما يكون من أهمية تكون عندهن أعظم مما عند الصِّبيان في اختيار الأشخاص الذين يجوز أن يعاشروهن وأن يمارسوا سلطانًا عليهن، ثمَّ يأتي الوقت الذي يبدأ فيه بالحكم في الأمور بأنفسهن، وهنالك يَحِلُّ الرَّمَن الذي يُغيَّرُ فيه منهاجُ تربيتهن.

ومن المحتمل أن أَفْضُتُ في الكلام عن ذلك حتى الآن، وإلأم نَرُدُّ النساء إذا لم نجعل لهنَّ دستورًا غيرَ المُبتَسراتِ العامة؟ ولا نُخْفِضُ إلى هذه النقطة ذلك الجنس الذي يحكم فينا،

والذي يُشرفنا إذا لم نُذله. ويُوجد لجميع النوع البشري قاعدةً أقدم من الرأي العام، ويجب أن تُردَّ جميع المناحي الأخرى إلى هذا الموجه الذي لا ينشئ، ويُعدُّ هذا الموجهُ حكماً حتى في المُبتسّر، ولا يكون لتقدير النَّاس سلطاناً علينا إلا بمقدارٍ ما يوافق هذا التقديرُ ذاك الموجهُ.

والشعورُ الباطنيُّ هو تلك القاعدة، ولا أُكرِّزُ مطلقاً ما قيلَ عنه فيما تقدّم، ويكفيني أن ألاحظ أن هاتين القاعدتين إذا لم تساعدا على تربية النساء كانت هذه التربية ناقصة؛ فما كان الشعور بغير الرأي العام ليُنعم عليهن مُطلقاً بلطفة الروح التي تُجملُ جميلَ الطباع بإجلال النَّاس، وما كان الرأي العام بغير الشعور لِيُسفر عن غير نساءٍ فاسداتٍ خبيثاتٍ يضعن الظاهر موضع الفضيلة.

ولذا فإن من المهمَّ عندهن تعهُد موهبةٍ تصلحُ حكماً بين الدليلين، فلا تدعُ الشعورَ يضلُّ مطلقاً مُقومةً أضاليلَ المُبتسرات، وهذه الموهبة هي العقل، ولكن ما أكثر المسائل التي تُثيرها هذه الكلمة! وهل يستطيع النساء أن يأتين ببرهانٍ متين؟ وهل من المهمَّ أن يتعهَّدنه؟ وهل يتعهَّدنه بتوفيق؟ وهل هذا التعهُد نافعٌ للوظائف المفروضة عليهن؟ وهل هو موافقٌ للبساطة التي تلائمهن؟

ومن شأن مختلف الأساليب التي تواجه بها هذه المسائل وتُحلُّ أن يُدبَّ إلى الحدِّين المتناهيين المتناقضين، فيقتصر بعضهم المرأة على الخيط والغزل في منزلها مع خادمتها؛ فلا يجعلونها منها بهذا غير خادمة السيد الأولى، ولا يرضى الآخرون بضممان حقوقها فيجعلونها تغتصب حقوقنا، وإلا فما يكون تركها فوقنا في الصفات الخاصة بجنسها، وجعلها مساوية لنا في جميع الصفات الأخرى، غير نقل الصدارة التي تُنعم الطبيعة بها على الزوج إلى المرأة؟

وليس العقل الذي يسوق الرجل إلى معرفة واجباته كثير التعقيد، ويكون العقل الذي يسوق المرأة إلى معرفة واجباتها أكثر بساطةً أيضاً، ويكون الانقياد والإخلاص المُلزِمُ بهما نحو زوجها، ويكون اللطف والرعاية المُلزِمُ بهما نحو أولادها، نتائج تبلغ من ملاءمة الطبيعة ومن التأثر بحالها ما لا تستطيع معه بلا سوء نيّة أن ترفض موافقتها على الشعور الباطني الذي يُوجِّهها، ولا أن تُنكر الواجب ضمن ميلها الذي لم يفسد بعد.

ولا أجدل من غير تمييز اقتصار المرأة على أشغال جنسها فقط، وأن تُترك ضمن جهل عميق بغير هذه الأشغال، ولكن هذا يتطلب طباعاً عامةً كثيرة البساطة كثيرة السلامة أو طراز حياةٍ كثير الاعتزال، وتكون هذه المرأة في المدن الكبيرة وبين الرجال الفاسدين سهلة الإغواء،

ويكون طُهرُها تابعاً للأحوال في الغالب، ولا بُدَّ لها من ابتلاءٍ في عصر الفلسفة الحاضر، فيجب أن تعرف مُقدِّماً ما يُمكن أن يُقال لها وما يُمكن أن يدور في خلدِها حوّل ما يُقال لها.

وهي إذ كانت خاضعةً لحُكم الرجال فضلاً عن ذلك، وجب أن تستحقَّ تقديرهم، ولا سيَّما تقديرُ زوجها، ومن الواجب ألا تقتصرَ على تحبيب نفسها إلى زوجها، بل يجب أن تجعله يستحسن سلوكها، ويجب أن تُسوِّغَ أمامَ النَّاسِ ما أتت من اختيار، وأن تحمِلَ على إكرام الزوج بالإكرام الذي تُحِبُّ به المرأة. ولكن كيف تقوم بجميع هذا إذا كانت تجهل نُظْمنا، وإذا كانت لا تعرف شيئاً عن عاداتنا وآدابنا، وإذا كانت لا تعرف مصدر أحكامنا البشرية ولا تعرف الأهواء التي تقضي بها؟ وبما أنها تابعةٌ لضميرها وآراء الآخرين معاً، فإن من الواجب أن تتعلَّم كيف تقارن بين هاتين القاعدتين وأن تُوفِّقَ بينهما، وألا تُرجِّحَ الأولى إلا عند اختلافهما. وهي تصيرُ قاضيةً قضاتها، فتُقرُّ متى يجب أن تُدعَى لهم ومتى يجب رفضهم، وهي تَرْتَبُهم قَبْلَ رفضهم أو قبولهم، وهي تتعلَّم بلوغَ منبعضهم وتحذيرهم وجعلهم ملائمين، وهي تُعنى بالألَّا تجلب اللومَ إلى نفسها إذا ما سَمَحَ لها واجبها باجتنابه، ولا شيء من جميع هذا يُمكن أن يتمَّ جيِّداً من غير تثقيف ذهنها وعقلها.

وأعودُ إلى المبدأ دائماً؛ فهو يُروِّدُنِي بحلِّ جميع مشاكلي، وأدرُس ما هو كائن وأبحث عن علته، ثمَّ أجدُ أن ما هو كائنٌ هو حَسَنٌ، وأدخُل البيوتَ المفتوحة التي يقوم رَبُّها ورَبَّتُها معاً بحُسن استقبال النَّاسِ، وقد نال كلٌّ منهما عينَ الثَّرية، ويتصف كلٌّ منهما بأدبٍ متساوٍ، وكلٌّ منهما مُجهِّزٌ بذوقٍ وذهنٍ على السواء، ويساور كلاً منهما عينُ الرغبة في حُسن استقبال النَّاسِ وفي تشييع كلِّ منهم راضياً عنهما. ولا يألُ الزوجُ جُهداً في النفاثة إلى كلِّ واحدٍ ذاهباً آيَّاً طائفاً، محتملاً ألفَ عناء، قاصداً أن يكونَ انتباهاً خالصاً. وتظل الزوجة في مكانها، وتلتفتُ حولها حلقةٌ صغيرة، فيلوح أنها تحجُب عنها بقية المجلس، ومع ذلك فإنه لا يغيب عنها شيء، ولا يخرج أحدٌ لم تكن قد حادثته، وهي لم تُهمل شيئاً يمكن أن يُمتنع كلٌّ واحد، وهي لم تُثقل لأحدٍ شيئاً غير مُستحبٍّ لديه. ولم يُغفل أصغرُ من في المجلس أكثرَ من إغفال الأول فيه، وقد أعدت المائدة، وقد جلس كلٌّ واحدٍ في مكانه، وذلك أن الزوج المطَّلع على المتوافقين من الحضور وَضَعَهُم وَفَّقَ ما يَعْرِف، وأن المرأة التي لم تعرف شيئاً من ذلك لم تُخادعْ بذلك؛ فهي كانت قد قرأت في العيون والأطوار جميع الموافقات، فوجدت كلَّ واحدٍ جالساً كما كان يود. ولا أقول مطلقاً إنه لم يُنسَ أحدٌ من قِبَل الخَدَم، وكان يُمكن ربَّ المنزل ألا ينسى أحداً حين طوافه حوّل الجميع، ولكن المرأة تُبصر ما يُنظر إليه برغبةٍ فتقدِّم إليكم منه، وبينما تُحدِّث المرأة جازها

تلاحظ آخر المائدة، فتميز من لا يأكل مطلقاً لأنه غير جائع من الذي لا يجرو على تناول شيء أو طلب شيء عن خرق أو حياء، وإذا ما تركت المائدة اعتقد كل واحد أنها لم تفكر في غيره، ورأى الجميع أنه لم يكن عندها من الوقت ما طعمت فيه قطعة واحدة مع أنها أكلت أكثر من كل واحد في الحقيقة.

ومتى انصرف الضيوف حدثت عما وقع، ويروي الزوج ما قيل له وما قالوا وما تم بينه وبين من حادثهم، وإذا لم تكن المرأة أصدق حديثاً في ذلك دائماً فإنها بالمقابلة قد أبصرت ما قيل همساً في الطرف من البهو، فتعرف ما فكر فيه هذا أو ذاك كما تعرف معنى هذا القول أو مغزى تلك الإشارة، ولم تكذب تقع حركة ذات دلالة لم تكن مستعدة لتفسيرها وفق الحقيقة تقريباً.

ومن شأن مرونة الذهن التي تجعل المرأة العصرية بارعة في فن القرى أن تجعل المغناج بارعة في فن إلهاء كثير من العشاق، حتى إن الغناج يقتضي بصيرة أدق مما يقتضيه الأدب؛ وذلك لأن المرأة المهذبة تكون على شيء من حسن الصنع دائماً إذا ما كانت ذات أدب واحد نحو جميع الناس، وأما المغناج فإنها لا تلبث أن تحسر سلطانها بمثل هذه النمطية الخرقاء، فيفضض جميع عشاقها من حولها عن قصدتها إرضاءهم على السواء، وفي المجتمع لا تتك الأوضاع التي تتخذ نحو جميع الناس قولاً لقائل، وفي المجتمع لا يُنظر إلى التفضيلات عن كتب بشرط حسن المعاملة، ولكن المحاباة في الحُب تُعد إهانة إذا لم تكن خصراً، ويُفضل الرجل الحساس مائة مرة أن يؤذى وحده على أن يلاطف مع الآخرين جميعاً، ويكون شر ما يُصاب به هو ألا يماز مطلقاً؛ ولذا فإن من الواجب على المرأة الراقبة في الاحتفاظ بكثير من العشاق أن تقنع كل واحد منهم بأنها تفضلها، وأن يقع إقناعها هذا على أعين الآخرين، فيقنع كل واحد من هؤلاء بأنه المُفضل.

وإذا أردتم أن تزوا رجلاً حائراً فضعوه بين امرأتين تكون بينه وبين كل منهما علاقات سرية، ثم لاحظوا أي وجه بليد يكون له هنالك، وضعوا في مثل ذات الحال امرأة بين رجلين لتزوا أن العبرة لا تكون أكثر ندرَةً لا ريب، وذلك أنكم تقضون العجب من البراعة التي تخادع بها الاثنين وتجعل كلاً منهما يضحك من الآخر، والواقع أن هذه المرأة إذا كانت تُظهر لهما ذات الثقة، وتحيوهما بذات الرُففى، فكيف يُخدعان بها طرفة عين؟ وإذا كانت تعاملهما معاملةً متساوية، أفلا تدل على وجود نفس الحقوق لهما عليها؟ وئ! إنها أكثر حذراً من هذا! إنها بعيدة من معاملتهما على وجه واحد، إنها تتظاهر بجعل تفاوت بينهما، إنها تبلغ من الحذق ما يعتقد معه الذي تُداريه أن مداراته ناشئة عن حنوّ منها، وما يعتقد معه الذي تُسيء إليه أن إساءتها هذه

واقعةً على الرغم منها، وهكذا فإن كل واحدٍ راضٍ بنصيبه معتقداً أنها تشغل بالها به مع أنها لا تفكر في غير نفسها بالحقيقة.

والدلال، من حيث الرغبة العامة في الرّوقان، يُوحى بوسائلٍ مماثلة، والأهواء لا تُوجب غير الاستنكاف إذا لم تُدار بحكمة، وهي إذا ما وُزعت ببراعةٍ أسفرت عن سلاسلٍ وثيقةٍ من العبيد.

«المرأة تتخذ جميع الحيل حتى تنال بأشراكها عاشقاً جديداً، وهي لا تحافظ على ذات الوجه نحو الجميع ولا في كل حين، ولكنها تُغيّر وضعها ومنظرها على حسب الأوقات.»
وما سنأخذ هذا الفن إذا لم يُقَم على ملاحظاتٍ دقيقةٍ دائمةٍ تُبصرُ بها في كل ثانية ما يدور في خلد الرجال وتعدّها عند كل حركةٍ خفيةٍ تُدركها لحمل ما يجب من قوةٍ لعوق هذه الحركة أو تعجيلها؟ وهل يُعلم هذا الفن إذن؟ كلاً، وإنما يُولد مع النساء، وجميع النساء حائزات له، ولم يحزه الرجال بهذا المقدار قط، وهذا من خصائص الجنس النسوي البارزة؛ فحضور الذهن والبصر النافذ والملاحظات الدقيقة أمورٌ تُعدُّ علم النساء، ويقوم بُوع النساء على البراعة في الانتفاع بهذا العلم.

وهذا ما هو كائن، وقد رأينا السبب في كينونة هذا، ويُقال لنا إن النساء زائفات، وهن يصرن زائفات، والشطارة لا الزيوف هي موهبتهن الخاصة، وليس النساء زائفات في مَبُول جنسهن الحقيقية، ولو كدّبن، ولم تستشيرن فَم النساء، وهو الذي ليس له أن يتكلم؟ وإنما استشيروا عيونهن وسخّتهن وتنفسهن وهلّعن ومقاومتهن الناعمة، وهذا هو اللسان الذي أنعمت به الطبيعة عليهن ليجيبكم. أجل، إن الفم يقول: «كلاً»، وهذا هو الذي يجب أن يقول، ولكنّ النبرة التي تُضيفها إلى هذه الكلمة ليست على وتيرةٍ واحدةٍ دائماً، وهذه النبرة هي التي لا تُعرف الكذب مطلقاً. أو ليس لدى المرأة عينٌ احتياجات الرجل، وذلك من غير أن يكون لها عينٌ الحق في إبدائها؟ يكون نصيبها جائراً جداً لو كانت عاطلة، حتى في الرغائب المُحلّلة، من لسانٍ يَعْدُل الذي لا تجرؤ على استعماله، وهل يجب أن يجعلها حياؤها شقية؟ أولاً تحتاج إلى فنّ تُطلع به على مَبُولها من غير أن تكشفها؟ وباحتياجها إلى براعةٍ تُخفي بها ما تتلظى شوقاً إلى الموافقة عليه! وما أكثر ما يُهمها أن تُعرف مسّ فؤاد الرجل من غير أن تُظهر أنها تفكر فيه! وبالكلام الذي تنطوي عليه تُفاحه غلاته وفرارها الأخرق! وما كان عليها أن تُضيف إلى ذلك؟ وهل تذهب لتقول للراعي الذي يتعقبها بين الصّفايف إنها لم تهزّب إلا لاجتذابه؟ ولو قالت هذا لكذبت؛ وذلك لأنها تعود هنالك غير مجتذبة له. وكلما كانت المرأة محتشمةً وجب أن تكون حاذقةً حتى

مع زوجها، نعم إنني أذهب إلى أنها إذا وضعت الدلال ضمن حدوده كانت صادقة خجلى، فنجعل من هذا ناموس في الحياء.

وقد أجاد أحد خصومي في ادعائه أن الفضيلة واحدة، فلا تجزأ لقبول قسم ونبذ القسم الآخر. وهي إذا ما أحييت أحييت كاملة، ويمنع القلب إذا ما أمكن، ويحبس الفم دائماً دون المشاعر التي لا ينبغي أن تكون مطلقاً. وليست الحقيقة الأدبية ما هو كائن، بل ما هو حسن، ولا ينبغي أن يكون ما هو سيئ مطلقاً، كما لا ينبغي أن يعترف به، ولا سيما إذا كان هذا الاعتراف يجعل له من الأثر الذي لا يكون لولا وقوعه. وإذا ما أغريت بالسرقة فأغريت آخر أن يكون شريكى باعترافى له بذلك، أفلا ينطوي تصريحى له بإغرائى على إذعان لذك الإغراء؟ ولم تقولون إن الحياء يجعل النساء زائفات؟ وهل يكون اللاتي يفقدنه أكثر من غيرهن أصدق من هؤلاء؟ كلاً، وإنما يكن أكثر زيوفاً منهن ألف مرة، ولا يبلغ هذا الحد من فساد الأخلاق بغير المعايير التي تحفظ كلها والتي لا تسود بغير الدسائس والكذب.^{١٣} وعلى العكس يكون اللاتي لا يزلن ذوات حياء، واللاتي لا يفاخرن بخطيئاتهن مطلقاً، واللواتي يعرفن كنم رغائبهن حتى عن الذين يوحون بها إليهن، ومن لا ينزع منهن الاعتراف إلا بأعظم عناء؛ أكثر النساء صدقاً وإخلاصاً وثباتاً في جميع عهودهن، وأكثر من يمكن أن يركن إلى عهودهن على العموم.

ولا أعرف غير الأنسة ذولنكلو من أمكن إيرادها استثناءً معروفاً لهذه الملاحظات، ومع ذلك فقد عُدت الأنسة ذولنكلو نادرة زمانها، ويروى أنها حافظت على فضائل جنسنا عن ازدراء لفضائل جنسها، فبثني على إخلاصها واستقامتها وضماني عشرتها ووفائها في الصداقة، ثم أتمت صورة مجدها بأن تحوّلت إلى رجل، حبداً، ولكنني ما كنت لأريد أن يكون هذا الرجل صديقاً لي أكثر من أن يكون خليلاً لي على ما يتمتع به من شهرة واسعة.

وليس جميع هذا خارجاً عن الموضوع كما يلوح، وأبصر أين تميل مبادئ الفلسفة الحديثة بتحويلها حياء الجنس النسوي وزيوفه المزعوم إلى سُخرية، وأبصر أن أثبت أثر لهذه

^{١٣} أعرف أن النساء اللاتي التزمّن سلوكاً معيناً علانية يزعمن أن جهزهن هذا أثبت لسانهن، وهن يحلفن أنهن حائزات لجميع الفضائل عدا واحدة، ولكنني أعرف جيداً أيضاً أنهن لن يُقنعن بهذا غير الأغبياء. وإذا زال أعظم زاجر لجنسهن، فما الذي يبقى رادعاً لهن؟ وما الشرف الذي يُقام له وزن عندهن بعد أن تنزلن عن شرفهن الخاص؟ لم يبق عندهن أي سبب لضبط النفس بعد أن خضعن لأهوائهن؛ «فالمرأة إذا ما فقدت حياءها لم يبق عندها شيء تمنعه.» وهل عرف أي مؤلف قلب الإنسان في الجنس أحسن مما عرف هذا المؤلف؟

الفلسفة هو أن يُنزع من نساء عصرنا ما بقي لهن من شرفٍ قليلٍ.

وأعتقد، بعد النظر إلى هذه الاعتبارات، إمكانَ تعيين نوع الثقافة الملائم لذهن النساء، وما يُمكن أن تُوجَّه إليه تأملاتهن من موضوعاتٍ منذ فئاتهن.

ومعرفة واجباتِ جنسهنَّ أسهلُّ من إنجازها كما قُلْتُ فيما تقدَّم، وأوَّلُ شيءٍ يجب أن يتعلَّمته هو حُبُّهن لهذه الواجبات نظرًا إلى فوائدها، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لجعلها سهلة. ولكلِّ حالٍ ولكلِّ سنٍّ واجباتها، ونحن لا نلبث أن نعرف واجباتنا إذا ما أحببناها، فأكرموا حالكن كامرأة، ومهما يكن المكان الذي يَضَعُكن فيه الربُّ فإنكن تكنن نساءً خيرٍ دائماً، والمهمُّ أن تكنن كما صنعتكن الطبيعة، وليس النساء غير كثيرات الاستعداد ليكنن كما يريد الرجال.

وليس من نابضِ النساءِ بحثهن عن الحقائقِ المجرَّدة والنظرية، وعن المبادئ والأوليات في العلوم، وعن كلِّ ما يميل إلى تعميم الأفكار، وإنما يجب أن تُردَّ دراساتهم إلى العمل؛ فعليهنَّ أن يُقْمَنَ بتطبيق ما وجدته الرجل من مبادئ، وهنَّ يأتين بالملاحظات التي تسوقُ الرجل إلى إقامة المبادئ. ويجب أن تهدف جميعُ تأملات النساء في كلِّ ما لا يتعلَّق بواجباتهن المباشرة إلى دراسة الرجال والمعارف اللطيفة التي ليس لها موضوعٌ غير الذوق؛ وذلك لأن آثارَ العبقرية تُجاوِزُ متناولهن، ولأنه ليس لديهن من الإصابة والانتباه ما يُوقِّفن معه في العلوم الصحيحة. وأمَّا من حيث المعارفُ الفُزْيوية، فالجنسُ هو أكثرُ فعاليةً وإقداماً وبصراً بالأمر، والذي هو أكثرُ قوةً وممارسةً لهذه القوة، هو الذي يحكم في العلاقات بين الموجودات الحساسة وسُنن الطبيعة. والمرأة، وهي الضعيفة التي لا ترى شيئاً في الخارج، تُقدِّرُ الدوافع التي تستطيع أن تتصرفَ فيها تلافياً لضعفها، وهذه العوامل هي أهواء الرجل، ويُعدُّ جهازها أقوى من جهازنا، ويَهْزُ الفؤادَ البشريَّ ما يشتمل عليه من عتَلٍ جهازها الذي هو أقوى من جهازنا، ويجب أن يكون لديها من الفن ما يجعلنا نريد معه كلِّ ما لا يستطيع جنسها أن يصنع بنفسه مع كونه ضرورياً له مستحباً عنده؛ ولذا يجب أن تُدرِّسَ ذهنَ الرجل درساً أساسياً لا ذهنَ الرجل على العموم مُجرِّداً؛ أي أن تُدرِّسَ ذهنَ الرجال الذين يحيطون بها؛ أي ذهنَ الرجال الذين أُخضِعَتْ لهم سواءً أبقانون أم بالرأي العام، ومما يجب أن تُعرف كيف تُنفذ مشاعرهم من خلال أقوالهم وأفعالهم ونظراتهم وحركاتهم، ومما يجب أن تحبُّوهم بأقوالها وأفعالها ونظراتها وحركاتها ما يَرُوقها من المشاعر من غير أن تظهرَ قاصدةً ذلك. أجل، إن الرجال يتفلسفون حول القلب البشري خيراً مما تصنع، ولكنها خيرٌ منهم قراءةً في القلب البشري. ومن ثمَّ يلزمُ النساء أن

يَجِدْنَ الأدبَ التَّجْرِبِيَّ، وَيَلْزِمُنَا أَنْ نَرُدَّهُ إِلَى نِظَامٍ؛ فَالنِّسَاءُ أَكْثَرُ أَرْبَابًا، وَالرِّجَالُ أَكْثَرُ عِبْقَرِيَّةٍ، وَالْمَرْأَةُ تَلَاخِظُ وَالرِّجُلُ يَتَعَقَّلُ، وَيَنْشَأُ عَنِ هَذَا التَّعَاوُنِ أَسْطَعُ مَا يَكُونُ مِنْ نُورٍ وَأَكْمَلُ مَا يَكُونُ مِنْ عِلْمٍ يُمَكِّنُ الذَّهْنَ الْبَشْرِيَّ أَنْ يَكْتَسِبَ بِنَفْسِهِ؛ أَيُ اثْبِتُ مَعْرِفَةً يِنَالُهَا الْإِنْسَانُ عَنِ نَفْسِهِ وَعَنْ غَيْرِهِ، وَتَكُونُ فِي مِتْنَاوَلِ نَوْعِنَا؛ وَمَنْ تَمَّ تَرَى كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْفَنُّ أَنْ يَمِيلَ بِلَا انْقِطَاعٍ إِلَى إِكْمَالِ الْآلَةِ الَّتِي مَنَحَتْهَا الطَّبِيعَةُ.

وَالْعَالَمُ كِتَابُ النِّسَاءِ، وَيَقَعُ الذَّنْبُ عَلَيْهِنَّ إِذَا مَا أَسَأَنَ قِرَاءَتَهُ، أَوْ إِذَا أَعْمَاهُنَّ بَعْضُ الْأَهْوَاءِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ أُمَّ الْأُسْرَةِ الْحَقِيقِيَّةَ بَعِيدَةٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ امْرَأَةً دُنْيَا، فَلَا تَكُونُ فِي مَنْزِلِهَا أَقْلًا اعْتِزَالًا مِنَ الرَّاهِبَةِ فِي دَيْرِهَا؛ وَلِذَا يَجِبُ أَنْ يُصْنَعَ لِلْفَتَيَاتِ اللَّاتِي يَصْلُحْنَ لِلزَّوْجِ كَمَا يُصْنَعُ، أَوْ كَمَا يَجِبُ أَنْ يُصْنَعَ، لِلْأَيِّ يُوضَعْنَ فِي الْأَدْبَارِ؛ أَيُ أَنْ يُطْلَعْنَ عَلَى الْمَلَادِّ الَّتِي يَهْجُرْنَ قَبْلَ تَرْكِبِنَّ هُنَالِكَ يَعْذِلْنَ عَنْهَا، وَذَلِكَ خَشِيَّةٌ أَنْ تُؤَدِيَ صُورَةَ هَذِهِ الْمَلَادِّ الزَّائِفَةَ الَّتِي يَجْهَلِنَهَا إِلَى إِغْوَاءِ قُلُوبِهِنَّ وَتَكْدِيرِ صَفْوِ عُرْلِيَّتِهِنَّ ذَاتَ يَوْمٍ. وَفِي فِرْنَسَةِ يَعِيشُ الْبِنَاتُ فِي الْأَدْبَارِ وَيَتَمَتَّعُ النِّسَاءُ بِالدُّنْيَا، وَالْعَكْسُ هُوَ مَا كَانَ عِنْدَ الْقَدَمَاءِ؛ فَقَدْ كَانَ لَدَى الْبِنَاتِ، كَمَا قَلْتُ، أَلْعَابُ كَثِيرَةٌ وَأَعْيَادٌ عَامَّةٌ. وَقَدْ كَانَ النِّسَاءُ يَعِشْنَ مَعْتَرَلَاتٍ، وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْعَادَةُ أَقْرَبَ إِلَى الصَّوَابِ وَأَكْثَرَ حِفْظًا لِلْأَخْلَاقِ، وَيُحَاجُّ لِلبِنَاتِ الصَّالِحَاتِ لِلزَّوْجِ صَرْبٌ مِنَ الدَّلَالِ، وَيُعَدُّ لَهُوَهُنَّ شَغْلَهُنَّ الْأَكْبَرَ، وَلِلنِّسَاءِ أَشْغَالٌ أُخْرَى فِي بِيوتِهِنَّ؛ فَقَدْ عُذِنَ لَا يَحْتَسِنُ عَنِ أَزْوَاجِ، وَلَكِنَّهِنَّ لَا يَنْتَفِعْنَ بِهَذَا الْإِصْلَاحِ، وَمِنَ الْمُؤَسَفِ أَنَّهُنَّ لَا يُعَيَّنُ صَرْبَ الْغِنَاءِ. وَيَا أَيُّهَا الْأُمَهَاتُ، اجْعَلْنَ مِنْ بِنَاتِكُنَّ رَفِيقَاتٍ لَكُنَّ عَلَى الْأَقْلِ، وَامْنَحُوهُنَّ حَسَنًا صَادِقًا وَرَوْحًا صَالِحًا، ثُمَّ لَا تَكْتُمُوا عَنْهِنَّ شَيْئًا يُمَكِّنُ أَنْ تَقَعَ عَلَيْهِ عَيْنٌ طَاهِرَةٌ، وَيُمَكِّنُ أَنْ يُعْرَضَ عَلَى الْعِيُونَ السَّلِيمَةَ بِلَا خَطَرٍ كُلُّ مَا يَفْتِنُ الشَّيْبِيَّةَ الْغَافِلَةَ عِنْدَ النَّظَرِ السَّيِّئِ إِلَيْهِ مِنْ مِرَاقَصٍ وَوَلَانِمٍ وَأَلْعَابِ، وَمَسَارِحٍ أَيْضًا؛ فَهِنَّ كَلَّمَا شَاهَدْنَ هَذِهِ اللَّطَائِفَ الصَّاحِبَةَ زَهْدَنَ فِيهَا.

وَأَسْمَعُ الضَّجِيجَ الَّذِي يَرْتَفِعُ ضَدِي، وَأَيُّهُ بِنْتٌ تَقَاوَمَ هَذَا الْمِثَالِ الْخَطِرُ؟ لَمْ يَكْدُنْ يَرِينُ الْعَالَمَ حَتَّى تَدْوَرَ رِءُوسُهُنَّ جَمِيعًا، فَلَا تَرِيدُ أَيُّهُ وَاحِدَةً مِنْهِنَّ تَرْكُهُ. أَجَلُّ، يُمْكِنُ هَذَا، وَلَكِنْ هَلْ أَعْدَدْتُمُوهُنَّ لِمَشَاهِدَتِهِ مِنْ غَيْرِ اهْتِرَازٍ قَبْلَ عَرْضِ هَذِهِ الصُّورَةِ الْخَادِعَةِ عَلَيْهِنَّ؟ وَهَلْ أُنْبَأْتُمُوهُنَّ جَيِّدًا بِمَا يُعْرَضُ مِنْ مَوْضُوعَاتٍ؟ وَهَلْ أَحْسَنْتُمْ تَصْوِيرَهَا لَهُنَّ كَمَا هِيَ؟ وَهَلْ سَلَحْتُمُوهُنَّ ضِدَّ أَوْهَامِ الْغُرُورِ؟ وَهَلْ حَمَلْتُمُ إِلَى قُلُوبِهِنَّ الْفَتِيَّةَ مِنْ ذَوْقِ الْمَلَادِّ الْحَقِيقِيَّةِ مَا لَا يُوجَدُ فِي هَذَا الْهَزْجِ وَالْمَرْجِ مَطْلَقًا؟ وَمَاذَا اتَّخَذْتُمُ مِنَ الْإِحْتِيَاطَاتِ وَالتَّدَابِيرِ لَوْقَاتِهِنَّ مِنَ الذَّوْقِ الْفَاسِدِ الَّذِي يُضِلُّهُنَّ؟

لقد غدّيتهم أذهانهنّ بالمبتسرات العامة بدلاً من إقامة العوائق دونها، وقد حملتموهن مقدّمًا على حبّ جميع ما يجدن من لهو طائش، وأنتم تجعلونهن يُحِبِّين هذا اللهو أيضًا بملازمتكم إياه، ومن الفتيات من إذا دخلن العالم لم يجدن مُرَبِّياتٍ لهن غير أمهاتهن اللاتي يَكُنَّ أكثر حماقةً منهن في الغالب، واللّائي لا يستطعن إراءتهن الأمور على غير ما يَرَيْن. وبما أن مثال الأمّ أقوى من العقل نفسه، فإنه يُسوِّغ هذه الأمور في عيون بناتها، ولا غرو؛ فسلطان الأمّ في نظر البنت مغدّرة لا تُرد، وعندما أردت إدخال الأمّ بنتها إلى العالم افترضت إراءته لها كما هو.

ويبدأ الشرُّ قبل الأوان أيضًا؛ فالأديارُ مدارسُ حقيقةً للغُناج، لا ذاك الغُناج الحلال الذي تكلمتُ عنه، بل الغُناج الذي يُسْفِر عن جميع انحرافات النساء، ويؤدي إلى أكثر الشابات هوسًا. ومتى خرج فتيات النساء من هنالك للدخول في المجتمعات الصاخبة كان أوّل ما يشعُرن به كونهن في منزلهن، وذلك أنهن تُشئن ليعشن به. وهل يُعجب من ملائمتها لهن؟ ولا أتقدّم، مطلقًا، بما كنت قد قلت، وذلك خشية انتحال مُبتسر على أنه مشاهدة، ولكن الذي يلوح لي أنه يوجد في البلدان البروتستانتية على العموم أسرٌ أكثر عطفًا وزوجاتٍ أكثر جدارةً وأمّهاتٍ أكثر حنانًا مما في البلدان الكاثوليكية، وإذا كان الأمر هكذا لم يُشكَّ في كون هذا صادرًا قسّمًا عن تربية الأديار.

وتقضي محبة الحياة المنزلية الهادئة بأن تكون معروفةً وبأن تُدّاق حلاوتها منذ الطفولة، وليس في غير المنزل الأبويّ ما نتدوّق منزلنا الخاص، وما كانت المرأة التي لم تُنشئها أمّها قطُّ تُحبُّ تنشئة أولادها مطلقًا. ومن دواعي الأسف أنه عاد لا يوجد في المدن الكبيرة تربيةً خاصةً، وذلك أن المجتمع فيها بالغٌ من الشُّمول والاختلاط ما لا يبقى معه مكانٌ للعزلة، حتى إن الإنسان فيها يشعُر في منزله بأنه بين النَّاس، وعاد لا يوجد ما يُعدُّ أسرةً بفعل العيش مع جميع النَّاس. ولا يكاد الإنسان يَعْرِف والديه، أي إنه ينظرُ إليهما كما يُنظرُ إلى الغرباء، وتزول بساطة الطباع المنزلية مع الدّالة الخلوّة التي تُوجِب فتوتها، وهكذا يُرَضع مع اللبن ذوقٌ ملاذّ العصر، وما يُرى أنه يسود العصر من مبادئ.

ويُلزم البنات بحصْر ظاهرٍ ليجدن من البُله من يتزوَّجونهن استنادًا إلى وضعهن، ولكن ادُرسوا أمر هؤلاء الفتيات ساعةً من الرّمن تروا أنهن يُخفين تحت ظاهرٍ من الحصر إخفاءً رديئًا ما يلبّتهن من هوى، ومما كان يُقرأ في عيونهن رغبةً حارةً في تقليد أمهاتهن. وليس الزوج هو ما يَشْتَهيه، بل تحلُّل الزواج. وما الحاجةُ إلى الزواج مع وجود كثيرٍ من السُّبل للاستغناء عنه؟ ولكنه

يُحتاج إلى زوجٍ لَسْتَرِ هذه السُّبُل؛^{١٤} فالحياءُ في وجوههن، والخلاعةُ في صميم قلوبهن. ويُعدُّ هذا الحياءُ المصنوعُ دليلاً عليها، وهنَّ لا يتظاهرنَ به إلا للخلاص منه سريعاً، وأطلُبُ عفوكنَّ يا نساءَ باريس وُلندن، فلا يخلو مكانٌ من مُعجزات، وأمَّا أنا فلا أعرفُ منها شيئاً مطلقاً، وإذا ما وُجدت بينكن واحدةٌ ذاتُ نفسٍ نقيّةٍ حقاً، فإنني لا أفقهُ شيئاً من طرائقكن.

وتُسَلِّمُ جميعُ هذه التربيّاتِ المُنوّعة، على السواء، فتياتِ البناتِ إلى تذوّقِ ملاذِّ المجتمعِ وإلى الأهواءِ التي لا تلبثُ أن تنشأَ عن هذا الذوقِ. ويبدأُ الفسادُ مع الحياة في المدنِ الكبيرة، ويبدأُ مع العقلِ في المدنِ الصغيرة، ومن فتياتِ الأقاليمِ مَنْ يتعلَّمَنَ ازدراءً ما تنطوي عليه طباعُهن من بساطةِ مباركة، فيبادرنَ إلى قصدِ باريسَ ليقاسمنَ فتياتنا فسادهن. وبما أن المعاييرَ المُزوَّقةَ باسمِ المتناقبِ الرائعةِ هدفُ رحلتهمُ الوحيدِ، وبما أنه يعترِبهن عند وصولهن خَجَلٌ من ابتعادهن عن تحلُّلِ نساءِ العاصمةِ النبيلِ، فإنهن لا يلبثنَ أن يصرنَ جديراتٍ بهذه العاصمةِ أيضاً. وأين يبدأُ السوءُ على رأيكم؟ أيبدأُ في الأمكنةِ التي يُرسمُ فيها أم في الأماكنِ التي يُنجزُ فيها؟

ولا أريدُ أن تأتي الأُمُّ الرصينةُ بابتها من الإقليمِ إلى باريسَ لتُطلِعَها على تلكِ المناظرِ البالغةِ الفسادِ لغيرها، وإنما أقولُ إن هذا إذا وَقَعَ فإن هذه البنتُ إمَّا أن تكونَ سيئةَ التشبُّه، وإمَّا أن تكونَ تلكِ المناظرُ قليلةَ الخطرِ عليها، وإذا ما وُجدَ ذوقٌ للأمرِ الصالحةِ وشعورٌ بها وحبٌّ لها، لم تكن تلكِ المناظرُ من القدرةِ على الجذبِ بمقدارِ ما تؤثرُ فيمن يدعونَ أنفسهم يُعتنونَ بها. ومما يُلاحظُ في باريسَ أن أولئكِ الفتياتِ الرُغْنَ اللاتي يُبادرنَ إلى انتحالِ طابعِ هذه المدينة، ويسرنَ مع موصتها لسته أشهر، يَشْحَرْنَ بقيّةَ حياتهن، ولكن من ذا الذي يُلاحظُ أن أولئكِ اللاتي ينفرنَ من ذلكِ الضحيجِ فيتحوّلنَ عنه إلى إقليمهن راضياتٌ عن نصيبهن بعد مقابلته بالذي يعارُ منه الأخرىات؟ وما أكثرَ مَنْ رأيتُ من فتياتِ النساءِ اللاتي أتى بهنَّ إلى العاصمةِ أزواجٌ قاصدون الاستقرارِ بها مع عزمٍ، فيحوّلنهم عن ذلكِ بأنفسهن وتُعَادِرُ بعزمٍ أكثرَ من الذي قُصِدَتْ به مع القولِ العاطفيِ عشيّةَ الرحيلِ: «وَي! لنُعُدَّ إلى كوخنا حيث نقضي حياةً أسعدَ من التي تُقضى في القصورِ هنا!» ولا أعلمُ عددَ مَنْ بقيَ من الصالحاتِ اللاتي لم يركعن أمامَ الصنمِ قَط، فيزدرين عبادتهِ المخالفةً للصوابِ. ولا يوجدُ صاحباتٌ غيرَ الخُمُقِ، وأمَّا النساءُ العاقلاتُ فلا تسمعُ لهن صوتاً مُطلقاً.

^{١٤} كان سبيل الإنسان في شبابه أحدَ الأمورِ الأربعة التي لم يستطع الحكيم أن يدركها، وأمَّا الأمرُ الخامس فهو وقاحة المرأة الزانية، «كذلك طريق المرأة الفاسقة تأكل وتمسح فاها وتقول ما عملت إثمًا» (سفر الأمثال ٣٠: ٢٠).

وإذا ما حافظ كثيرٌ على حُكْمٍ في الأمورِ راسخٍ على الرغم من الفساد العام والمُبْتَسِرَاتِ الشاملة وتربية البنات السيئة، فما يحدث إذا ما عُذِّيَ ذاك الحُكْمَ بمعارفٍ مناسبة، وإن شئت فقل إذا لم يُفسدَ بمعارفٍ داعرة؟ وذلك لأن كلَّ شيءٍ يقوم على حُفْظِ المشاعر الطبيعية أو تجديدها. ولا يقضي هذا بأن يُسأمَ الفتياتُ مطلقاً بمواعظكم الطويلة، ولا أن تبيعوا منهن أخلاقياتكم الجافية؛ فالأخلاقيات تنطوي على موتٍ لكلِّ تربيةٍ سالحةٍ لدى الجنسين، ولا تكون الدروس الكتيبة سالحةً لغير إثارة الحقد على من يُلقونها وعلى كلِّ ما يقولونه. ولا يُقصد عند مخاطبة الفتيات تخويفهن من واجباتهن، وتثقيلِ النَّيرِ الذي فرضته الطبيعة عليهن، وكونوا عند عرضِ هذه الواجبات عليهن مدققين هيَّين، ولا تدعوهن يرين أنفسهن محزوناتٍ عند قيامهن بها، فلا كَدَرَ ولا عُبُوسَ مطلقاً، وكلُّ ما يجب أن يدخل في القلب يجب أن يخرج منه. ويجب أن يكون كتابهن الخُلُقِيُّ مختصراً واضحاً مثل كتابهن الديني، ولكن لا ينبغي أن يكون وزيئاً، وأطلعوهن في الواجبات غينها على مصدرٍ لهوهن وأساس حقوقهن، وهل من الشاقُّ أن يُحبَّ الإنسان حتى يُحبَّ، وأن يظهر أنيساً ليكون سعيداً، وأن يصير جليلاً ليطاع، وأن يُكرم نفسه ليكرم. وبإلروعة هذه الحقوق! وبإلكونها أهلاً للاحترام! وبإلكونها عزيزةً على قلب الرجل إذا ما عرَفَت المرأة أن تتفع بها! ويجب ألا تُنتظرَ السَّنون ولا المشيبُ للتمتع بها؛ فسلطانُ المرأة يبدأ مع فضائلها، ولا تكاد جواذُبها تنمو حتى تُسودَ بدمائتها جاعلةً تواضعها باهرًا. وأيُّ رجلٍ فظٌّ غليظٍ لا يُلبِنُ خِيالَهُ، ولا يتَّخذ من الأوضاع أدعاها إلى الانتباه بجانب فتاةٍ في السادسة عشرة من سنيها محبوبةٍ حكيمةٍ صَمُوتٍ قليلةٍ الكلام ذاتِ احتشامٍ في أوضاعها وصلاحٍ في أحاديثها، فلا يُنسيها حُسْنُها جنسها وفتاءها، فتقفُ بحيائها النظرَ وتجلب إلى نفسها ما تحمِلُ إلى جميع النَّاسِ من إكرام.

ومع أن تلك الدلائل خارجية، فإنها ليست خاليةً من المعنى مُطلقاً، وهي ليست قائمةً على جذب الحواسِّ وحدها مُطلقاً، وهي تنشأ عن هذا الشعور الباطني الذي يساوينا جميعاً، والقائل إن النساء قاضيات طبيعيات في مقدرة الرجال. ومن ذا الذي يريد أن يكون مُزْدَرَى من قِبَلِ النساء؟ لا أحد في العالم، حتى الذي عاد راغباً عن حُبِّه لهن. وهل تعتقدون أنني لا أكثرُ لأحكامهن مع أنني أخاطبهن بحقائق قاسيةٍ جدًّا؟ كلاً؛ فأصواتهن أعرُّ عليَّ من أصواتكم أيها القراء الذين هم أكثرُ منهن نسويَّةً، فإذا كنتُ أزدري أخلاقهن فإنني لا أزال أريد إكرامَ عدلهن، وإذا كنتُ مُلزمًا لهن بإكرامي فلا أبالي بكُرهن لي إلا قليلاً.

وما أعظم الأمور التي تُصنَع بهذا النابض إذا ما عُرف استعماله! وويل للعصر الذي يفقد النساء فيه نفوذهن، فلا يكون لأحكامهن عملٌ في الرجال! وهذه هي آخرُ درجةٍ من الانحطاط، وقد أكرمتِ النساءُ جميعَ الشعوبِ التي كانت على شيءٍ من الأخلاق، وانظروا إلى إسبارطة، وانظروا إلى الجرمان، وانظروا إلى رومة، إلى رومة التي كانت مقرَّ المجد والفضيلة، لتروا ما كان لهن عند هذه الأمم من مقام. وفي رومة كان النساءُ يُشَدَّن بمفاخرِ أكابرِ القواد، وكن يبيكين آباءَ الوطن جهراً، وكانت نذورهن أو جداداتهن الموقوفة عليهم أعظم ما في الجمهورية من حُكمٍ احتفالي، وكانت جميعُ الثورات الكبيرة تصدُر عن النساء، ومن ذلك أن نالت رومة الحرية بفضل امرأة، وأن نال العوازمُ القنصلية بفضل امرأة، وأن انتهى استبداد الحكام العشرة بفضل امرأة، وأن أنقذت النساءُ رومة المحاصرة من يدٍ طليل. ويا أيها الفرنسيون من ذوي الشهامة، ماذا كنتم تقولون عندما ترون مرورَ هذا الموكبِ المشير للضحك كثيراً في أعينكم الساخرة؟ كنتم تقابلونه بصرخات الهزوء. ويا لاختلافنا في النظر إلى عين الأشياء! ومن المحتمل أن يكون الحقُّ بجانبكم، وألقوا هذا الموكب من حسانِ الفرنسيات تجدوني لا أعرف ما هو أكثرُ حشمةً منه، ولكنكم إذا ما ألقتموه من رومانياتٍ كانت لكم كلكم عيونُ الفولسك وقلوبُ كوربولان.

وأقول أكثر من ذلك، وأذهب إلى أن الفضيلة ليست أقل ملاءمةً للحب من حقوق الطبيعة الأخرى، وأن سلطان الخليلات ليس أقل ربحاً بها من ربح سلطان الزوجات والأمهات، ولا يوجد حُبٌ حقيقي بلا هيام، ولا يوجد هيام بلا موضوع كمال، حقيقياً كان هذا الموضوع أو وهمياً، ولكن مع وجوده في الخيال دائماً. ولم يُلتهن حوّل عُشاقٍ لا يُبالون بهذا الكمال ولا يرون فيمن يُحِبُّون غير موضوعٍ لذةٍ للحواس؟ كلاً، لا تضنَّطرم النفس ولا تستسلم على هذا الوجه إلى هياجٍ سيِّ يوجب هذيانَ العاشقين وفنون هواهم، ولا شيء غير وهم في الغرام كما أعترف، ولكنَّ الحقيقي هو ما يُعشُّنا بمشاعر حوّل الجمال الصحيح فيحملكنا على حُبِّه. وليس هذا الجمال في الشيء الذي يُحبُّ مطلقاً، وإنما هو من عمل تصورنا. ويا! وما الأمر؟ وهل نحن أقلُّ تضحيةً بجميع هذه المشاعر المنحطة في سبيل ذلك النموذج الخيالي؟ وهل قلبنا أقلُّ تقبلاً للفضائل التي تُعزى إلى من يُحبُّ؟ وهل نحن بذلك أقلُّ انفصالاً عن الذاتية البشرية؟ وأين هو العاشقُ الحقيقي الذي لا يستعدُّ للتضحية بنفسه في سبيل خليلته؟ وأين هو الهوى الشهواني الغليظ في الرجل الذي يطلب الموت؟ وإذا كُنَّا نستهنئ بأمرء البلاط القدماء؛ فالأنهم يعرفون الحُب، ولأننا لا نعرف غير الفجور، وعندما أخذت هذه المبادئ الروائية تصير مهزئ كان هذا التحوّل وليد سبب الأخلاق أكثر من أن يكون من عمل العقل.

ومهما يَكُن العصر، فإن العلاقات الطبيعية لا تتغير مُطلقًا، ويبقى ما ينشأ عنها من خيرٍ أو شرٍّ كما هو، ولا تُغيَّر المُبتَسرات منها غير الظاهرٍ مستترَةً تحت اسمِ فارغٍ للعقل. ومن أعظم الأمور وأجملها دائمًا أن يسيطر الإنسان على نفسه ولو خُصوعًا لآراءٍ وهمية، وسُخاطبٍ بواعثُ الشرفِ دائمًا قلبَ كلِّ امرأةٍ حول ما تطلُبُ من حُكمٍ في سعادة الحياة ضمّن حالها، ويجب أن يكون الطُّهُرُ على الخصوص فضيلةً لذيذةً تتجَمَّلُ بها المرأة الحسنة التي تكون على شيءٍ من سمو النفس، وبينما ترى جميع الأرض عند قدميها تفوز بنفسها بكلِّ شيء، وهي تقيم في قلبها الخاص عرشًا يأتي الجميع لتكريمه، وما يكون من مشاعرٍ ناعمةٍ أو غيِّري، ولكن مع توقيرٍ للجنسين، وما يكون من تقديرٍ عامٍّ وخاص، يُسلِّفها معاركٍ لأويقاتٍ ضريبةً. أجل، إن الحرمان أمرٌ عابر، غير أن ثمنه دائم، وأيُّ مُتعةٍ تتفقُ للنفس الكريمة التي يُضاف زهو الفضيلة إلى جمالها! واجعلوا منها بطلنةً روايةً لذوق من اللذات ما هو أطيّب مما نالت لآيسس وكليوباترة، وعندما يعود جمالها غير موجود يبقى لها مجدها ونُعماها، وهي تعرف أن تتمتع بالماضي وحدها.

وكلّما كانت الواجبات شاقّةً عظيمةً وجب أن تكون الأسباب التي تقوم عليها واضحةً قوية، ويوجد من الكلام الورع ما يدور حول أكثر الموضوعات جدية، فيقرغ آذان الشيبية من غير أن يؤدي إلى إقناع، ومن هذا الكلام غير المتناسب مع أفكارها، والذي لا يُقيم له في السرّ وزنًا، تُولّد سهولتها انقيادها لميولها، وذلك عن عدم وجود أسبابٍ لمقاومتها ناشئةً عن الأمور نفسها. أجل، إن البنت التي نُشئت تنشئةً حكيمةً تقيّةً تكون مُجهّزةً بأسلحةٍ لمقاومة الشهوات، بيد أن البنت التي يُغدّي قلبها حصرًا - وإن شئت فقلّ أذنها - برطانة التقوى، تذهب لا محالة فريسةً أوّل غاوٍ يتصدى لها. ولا تزدي الفناة الحسنة بدنّها، ولا تأسف صادقةً على الذنوب الكبيرة التي حَمَلها جمالها على اقترافها، ولا تبكي أمام الربِّ مُخلصةً عن كونها موضع اشتها، ولا تستطيع أن تقنع في نفسها بأن أحلى جسّ قلبي هو من صنّع الشيطان، وأعطوها أسبابًا أخرى في الداخل ومن أجل نفسها، وذلك لعدم تأثير تلك. وأسوأ من ذلك أيضًا أن يُوضَع تناقضٌ في أفكارها كما يُصنَع غالبًا، وأن يُجعل محلّ إجلالٍ مثل هيكَل يسوع المسيح، بدنّها الذي ازدي كثيرًا بعد أن أُذِلّ يارذاله. وتكون الأفكارُ البالغة السُموم والوضيعة جدًا ناقصةً على السواء، ولا يُمكنها أن تتشارك، ولا بدّ من عقلٍ يكون في متناول الجنس السُّويّ وسنّه. ولا يكون لاعتبارات الواجب قوةً ما لم تُضَف إليها بواعثُ تحمّلنا على القيام به.

«فالتى لا تقترِف ذنبًا إلا لأنها مُبعت منه تُعدُّ ساقطةً في الذنب.»

ولا يُظنُّ أن أوفيدَ هو الذي يُصدرُ حُكْمًا بالغًا هذه الشدة.

ولذا فإذا أردتم أن توخّوا بحبِّ حُسنِ الأخلاقِ إلى الفتياتِ فلا تقولوا لهن: «كنَّ حَسَنَاتِ السلوكِ»، وإنما اجعلوا من مصلحتهن الكبيرة أن يكنَّ حَسَنَاتِ السلوكِ، واجعلوهن يَشعرن بقيمة حُسنِ السلوكِ، وحينئذٍ تُحبِّبونه إليهن. ولا يكفي أن يُطلعن على هذه المصلحة في المستقبل، وإنما أظهروها لهن في الساعة الحاضرة، وذلك في صلواتِ عُمرهنَّ وفي أخلاقِ عُشاقهن، ووصفوا لهن رجلَ الخيرِ ورجلَ الفضلِ، وعلموهن أن يَغْرِفنه ويُحِبِّبنه، وأن يُحِبِّبنه من أجل أنفسهن، وأثبّتا لهن أن هذا الرجلَ وحده يمكنه أن يجعلهن سعيدات، صديقاتٍ كُنَّ أو زوجاتٍ أو خليلات، واجلبوا الفضيلةَ بالعقل، واجعلوهن يَشعرن بأن سلطانَ جنسهن وجميع ما ينطوي عليه من منافع، أمورٌ لا تتوقَّف على حُسنِ سلوكِ هذا الجنس وأخلاقه فقط، بل تتوقَّف على حُسنِ سلوكِ الرجالِ وأخلاقهم أيضًا، وبأنه ليس لهن غيرُ سبيلٍ قليلٍ على النفوسِ الحقيرةِ الساقطة، وبأن العاشقَ لا يستطيع أن يقومَ بخدمةِ خليلته إلا إذا كان يستطيع أن يقومَ بخدمةِ الفضيلة. وهنالك ثِقوا بأنكم إذا ما قمتم بوصفِ أخلاقِ زماننا أوحيتم إليهن بنفورٍ صادقٍ منها، وإذا ما أريتموهن من هم على الموضةِ جعلتموهن يزدريتهن، ولم تؤدّوا إلى غير ابتعادهن عن مبادئهم وكُرهِ لإحساساتهم واحتقارٍ لمعازلاتهم، وبذرتهم فيهن طموحًا أكثرَ نبأً؛ أي طموحَ السيطرة على النفوسِ الكبيرة القوية؛ أي طموحَ نساءِ إسبارطة الذي كان قائمًا على قيادة الرجال. ومن عملِ المرأةِ الخالعةِ العذارِ المتهتكةِ الأراجةِ التي لا تقدِرُ أن تجتذبَ عُشاقها إلا بالعتاج، ولا تحتفظ بهم إلا باللطاف، أن تحمِلهم على الطاعة كما يحتمل الأجراء على الأمورِ الخسيسية المعتادة، وأمّا في الأمورِ المهمةِ الرصينةِ فلا سلطانَ لها عليهم. ولكنَّ المرأةَ الصالحةَ اللطيفةَ العاقلة، ولكنَّ المرأةَ التي تُلزمُ ذوبها باحترامها، ولكنَّ المرأةَ الرّزانَ وذاتَ الحياءِ؛ أي المرأةَ التي تدعّم الحُبَّ بالإكرام، تُرْسِلهم بإشارةٍ منها إلى أقاصي الدنيا وإلى الحربِ وإلى المجدِ وإلى الموتِ حيث تُريد؛^{١٥} فهذا السلطان رائع، وهو يستحقُّ أن يُشترى.

^{١٥} روى برانتوم أن فتاةً في عهد فرنسوا الأوّل كان لها عاشقٌ ثرثار، ففرضتُ عليه صممًا مطلقًا لا حدَّ له، فلزمه بإخلاصٍ مدةً عامين كاملين، فظنَّ أنه أبكمٌ عن مرض، وفي ذلك الحين كان الغرامُ يتم في جوٍّ من الكتمان، فلم يَغْرِف أحدٌ أن تلك الفتاة خليلته، ومما حدث في أحد المجالس ذات يوم أن تبجّحت بأنها تشفيه من فوره، فلم تقل له غيرَ كلمة «تكلم». ألا يوجد شيءٌ بطلّي عظيم في ذلك الحب؟ وماذا كانت فلسفة فيشاغورس تصنع أكثر

وهذه هي الروح التي نُشئت عليها صوفية، وذلك بعناية أكثر مما بمشقة، وباتباع ذوقها أكثر مما بخصره، والآن لنقل كلمة حول شخصها وفق ما وصفتها به لإميل وفق ما يتمثل إميل بنفسه الزوجة التي يُمكن أن تجعله سعيداً.

ولا أكثر كثيراً تركي النادرين جانباً؛ فليس إميل منهم، وكذلك صوفية ليست منهم، وإميل رجل، وصوفية امرأة، وعلى هذا يقوم فخزهما، وفي زماننا الذي يختلط فيه الجنسان يُعد من المعجزات تقريباً أن يلزم الواحد جنسه.

وصوفية حسنة المولد ذات موهبة طبيعية، ولها قلب حساس جداً، وهذه الحساسية المتناهية تُعَم عليها أحياناً بنشاط في الخيال يصعب تعديله، ولها ذهن ناقب أكثر منه صائباً، ولها مزاج لين مع تقلب، ولها وجهة معتاد ولكنه مُستحب، ولها سيما تنم على روح ولا تكذب، وهي يُمكن أن تُقابل بلا اكتراث، ولكنها لا تُترك بلا اهتزاز. ويوجد من هُن ذوات صفات تُعوزها، ويوجد من هُن ذوات صفات كصفاتها على أوسع مقياس، ولكنك لا تجد واحدة منهن ذات صفات أحسن توافقاً مع صفاتها في تأليف طبع سعيد، حتى إنها تستطيع الانتفاع من عيوبها، فلو كانت أكثر كمالاً لظهرت أقل وقوعاً موقع الرضا.

وليست صوفية جميلة، ولكن الرجال ينسون الحسان بجانبها، ولا يرضى الحسان عن أنفسهن إذا ما كنن بالقرب منها، وهي لا تكاد تكون مليحة عند أول نظرة، ولكنها تزدان كلما نُظر إليها، وهي تريح حيث يخسر غيرها، وهي لا تخسر ما تريح. أجل، يمكن أن تكون إحدى النساء أجمل منها عيناً، وأحسن منها فماً، وأروع منها وجهاً، ولكنك لا ترى من هي أفضل منها قامة، وألطف منها لونا، وأبيض منها يداً، وأصغر منها رجلاً، وأعذب منها نظرة، وأفعل منها محياً، وهي تقف النظر من غير أن تبهر، وهي تفتن من غير أن يُعرف السبب.

وثحب صوفية الزينة، وهي تعرف أن تزين، ولا تعرف أمها لنفسها ماشطة غيرها، ولديها ذوق كبير في حُسن اللباس، ولكنها تكره الثياب الفاخرة، وأنت تبصر في ثوبها بساطة مع الأناقة دائماً، وهي لا ترغب في الساطع، بل ترغب في اللاتق، وهي تجهل أي الألوان يكون على المؤوضة، ولكنها تعرف الألوان التي تلائمها بما يُثير العجب. ولا تجد فتاة تلوح لابسة مع قليل

من هذا مع ما هي عليه من فخامة؟ أما كان الخيال يذهب إلى رب يُعَم على إنسانٍ بعضو الكلام؟ وأية امرأة تستطيع اليوم أن تعتمد على مثل هذا الصمت يوماً واحداً مهما دفعت من ثمن تقدير عليه؟!

تصنع ومزينة مع كثير تكلف، ولا تستعمل قطعة مصادفة، ومع ذلك لا تُبصر في أي من ذلك
تعملاً، وتكون زينتها كثيرة البساطة ظاهراً كثيرة الظرافة حقيقة، وهي لا تعرض محاسنها مطلقاً،
وهي تخفيها، ولكنها إذ تخفيها تعرف أن تحمّل على تصوّرها، ويُقال عندما تُرى: «هذه فتاة
متواضعة عاقلة.» ولكنكم إذا ما بقيتم بجانبها جالت عيونكم وأفندتكم في جميع شخصها من
غير أن تستطيعوا فصلهما عنها، فيقال إن هذه الزينة البسيطة بهذا المقدار لم تُوضع في محلها
إلا لسنّعه منه قطعة بعد الأخرى بالخيال.

ولصوفية مواهب طبيعية، وهي تشعر بها، ولم تهملها، ولكن بما أنه لم يُتَح لها بذل كثير
حذقي في تنقيف هذه المواهب فقد اكتفت بتمرين صوتها الجميل على الغناء مع الإحكام
والذوق، وتمرين رجليها الخفيفتين على المشي برشاقة وسهولة ولطافة، كما مرّنت نفسها على
المجاملة في جميع الأوضاع بلا عُسر ولا جفاء. ثم إنه لم يكن لها مُعلّم للغناء غير أبيها، ولم
تكن لها مُعلّمة للرقص غير أمها، وقد تلقت من أرغبي جار لها دروس مسابرة في العزف على
البيان، فأكّبت عليها وحدها زمناً طويلاً، وكان أول ما فكرت فيه إظهار يدها بتفوق على تلك
المفتاح السود، ثم وجدت أن صوت البيان الحاد الجاف يجعل رنين الصوت أكثر حلاوة، ثم
صارت بالتدريج عارفة بالإيقاع، وأخيراً أخذت بعد أن كبرت تشعر بفنون الأداء وتُحب الموسيقى
لنفسها، ولكن هذا ذوق أكثر من أن يكون نبوغاً، وهي لا تعرف أن تقرأ لحنًا على النوتة مطلقاً.

وأحسن ما تعرف صوفية وما علّمتها بأعظم عناية هو أشغال جنسها، حتى التي لا تحظر
ببالكم مطلقاً، كتفصيل ثيابها وخياطها، ولا يوجد شغل بالإبرة لا تعرفه ولا تأتيه بلذّة، غير أن
التخريم هو الشغل الذي تُفضّله على سواه؛ وذلك لأنه لا يوجد كالتخريم شغل يمنح وضعاً أعظم
لطافة وتزاوله الأصابع بظرافة وخفّة. وكذلك تعاطت جميع أمور المنزل مُفصّلاً، وهي تعرف
الطهو وخدمة السفرة، وهي تعرف أثمان المواد الغذائية وخواصّها، وهي تعلم قيّد الحسابات
جيداً، وهي تصلح أن تكون رئيسة خدّم لأمتها، وهي إذ كوّنت لتكون أم أسرة ذات يوم، وهي إذ
تتعلم إدارة منزل أبيها، تتعلم إدارة منزلها، وهي تستطيع أن تقوم بوظائف الخدّم ففعل هذا طوعاً،
وما كنتم لتعرفوا أن تحسنوا الأمر بشيء لا يُمكنكم أن تُنفذوه بأنفسكم، وهذا هو السبب في
شغل أمها إياها على هذا الوجه. وما كانت صوفية لتبعد في الموضوع بهذا المقدار؛ فواجبها
الأول هو واجب البنات، وهذا الواجب وحده هو الذي ترى أن تقوم به في الوقت الحاضر، وكلُّ
ما تنظر إليه هو أن تخدم أمها، وأن تُخفّف عنها بعض أعمالها. ومع ذلك، فإن من الواقع أنها لا

تقوم بجميع هذه الأعمال بلذّة متساوية، ومن ذلك مثلاً أنها لا تحبُّ الطهوب مع أنها نهمّة، وذلك لما تنطوي عليه جزئياته من عوامل نفورها؛ فما كانت لتجد فيه نظافة كافية. وهي فوق ذلك ذات لطافة متناهية، فلما أفرطت في هذه اللطافة تحوّلت إلى إحدى نقائصها، وهي تُفضّل أن تأكل النارَ جميع الغداء على تلوّث كُمّها، وهي لم ترغب قطُّ في تفقّد الحديدية لذات السبب؛ فالترابُّ يُلوح لها أنه قدر، وهي إذا ما رأت الرّزْل حُيّل إليها أنها تشمُّ رائحته.

وهذه النقيصة نتيجة دروسِ أمّها، وعندها أن النظافة من أوّل واجبات المرأة، هذا الواجب الخاص اللّازم المفروض من قبل الطبيعة، ولا يوجد في العالم شيءٌ أدعى إلى الاشمئزاز من امرأةٍ قدر، ولا يكون الزوج الذي يشمُّ منها مخطئاً مطلقاً. والأم قد أكثرت من وعظِ ابنتها بهذا الواجب منذ طفولتها، وهي قد استلزمت كثيرَ نظافةٍ لنفسها وثيابها وغرفتها وشغلها وزينتها، فتحوّلت هذه العناية إلى عادةٍ وصارت تستوعب قِسماً كبيراً من وقتها مع السيطرة على القسم الآخر؛ فلا يأتي إتقان ما هي مُكلّفةٌ بصنعه في غير المرتبة الثانية من جهودها، وأمّا المرتبة الأولى فهي وقفٌ على صنّعه نظيفاً.

ومع ذلك، فإن جميع هذا لم ينحطّ إلى تصنُّع فارغ، ولا إلى نعيم؛ فلا محلّ هناك لدقائق الثرف، وما كان ليُدخل منزلها غيرُ الماء الرُّلال، وما كانت لتعرفَ عطراً غيرَ شذا الأزهار، وما كان زوجها ليشمَّ ما هو أحلى من نكّتها،^{١٦} ثمَّ إن ما تُعيّره المظهر من عناية لا يُسيها أنها مدينةٌ بحياتها وزمانها لعوامل أكثر نُبلاً؛ فهي تجهل أو تردري هذا الإفراط في نظافة البدن التي تُدسُّ الرُّوح؛ فصوفيّة أكثر من نظيفة، هي طاهرة.

وقلت إن صوفيّة نهمّة، ومن الطبيعي أن كانت نهمّة، بيّد أنها صارت قنوعاً عن عادة، والآن هي قنوعٌ عن فضيلة، ولا يُوجد من البنات، كما يوجد من البنين، من يمكن أن يُسيطرَ عليهن بالنهم إلى حدٍّ ما، وليس هذا الميل بلا عواقب في الجنس النّسوي مطلقاً؛ فمن الخطر الكبير أن يُترك وشأنه. وكانت صوفيّة الصغيرة في طفولتها إذا ما دخلت غرفةً أمّها وحدها لا ترجع منها فارغةً دائماً؛ فهي لم تكن أمينةً عند كل امتحانٍ حول أقراص السُّكر والملبّسات، وقد فاجأتها أمّها وعزّرتها وعاقبتها وصومتها، وأخيراً وفّقت أمّها لإقناعها بأن الملبّس يُفسد الأسنان، وبأن النّهم يُضخّم القوام. وهكذا أصلحت صوفيّة نفسها، فلما كبرت انحلت من الأذواق ما

^{١٦} * التّكّهة: راحة الفم.

حَوْلَهَا عن تلك الجسِّيَّة الوضيعة. والقلب إذا ما انتعش عند النساء كما عند الرجال عادَ النَّهْمَ لا يكون نقيصةً مسيطرة. وقد حافظت صُوفِيَّةٌ على الذوق الخاصِّ بجنسها؛ فهي تُحِبُّ الألبان والحلاوى، وهي تُحِبُّ المَعْجونات والمأدومات، ولكن مع ميلٍ قليلٍ إلى اللحم. وهي لم تُدَقِّ قَطُّ حَمْرًا ولا مُسَكَّرًا مُقَطَّرًا، وهي، فضلًا عن ذلك، معتدلةٌ كلَّ الاعتدال في طعامها. ولا غَرْو؛ فجنسُها أقلُّ كَدْحًا من جنسنا؛ ولذا فهو أقلُّ من هذا احتياجًا إلى تجديد النشاط، وهي في كلِّ شيءٍ تُحِبُّ ما هو طيبٌ وتَعْرِفُ أن تذوقه، وهي تَعْرِفُ أيضًا أن تكتفي بما هو غيرٌ جيد، وذلك من غير أن يصعب عليها هذا الحرمان.

وصوفيَّةٌ مقبولةُ الذَّهْنِ من غير تألُّقٍ، وصوفيَّةٌ قويةُ الذَّهْنِ من غير عُثْقٍ، وصوفيَّةٌ ذاتُ ذهنٍ لا يُحَدِّثُ عنه مُطَلَقًا لِمَا لا تَبْدُو أكبرَ مما هي عليه أو أصغر، ولها من الذهن ما تُرَوِّقُ به مَنْ يَكَلِّمونها دائمًا وإن لم يكن من التجميل ما يطابق الفكرَ الذي يساورنا حوْلَ تهذيبِ ذهنِ النساءِ؛ وذلك لأنَّ ذهنها لم يُكَوَّنْ بالقراءة قَطُّ، بل كُوِّنَ بأحاديثِ أبيها وأُمَّها وبتأملاتها الخاصة، وما تم لها من ملاحظاتٍ فيمن رأت من أناسٍ قليلين. ومن الطبيعي أن ظهرت صُوفِيَّةٌ ذاتَ مَرَحٍ، حتى إنها كانت لَعُوبًا في طفولتها، غير أن أُمَّها غُنِيَتْ بِزَجْرِ مناحيها الطائشة بالتدريج، وذلك خشيةً أن يقع سريعًا من التغيير المفاجئ ما تَطَّلَعُ به على الوقت الذي تكون فيه مُبْتِغَاةً؛ ولذا فقد صارت متواضعةً متحفظةً حتى قبل أن تبلغ ذلك، والآن حَلَّ ذلك الوقتُ فصار أسهلَّ عليها أن تحافظ على الوضع الذي اتخذته من انتحاله مع عدم بيان السبب في هذا التحوُّل. ومن الأمور المستحبة أن تُرى في بعض الأحيان عاكفة، ببقية من العادة، على نشاط الطفولة، ثُمَّ أن تعود إلى نفسها بعتة فتبدو صامتةً مُطْرِقَةً مُحَمَّرَةً، ولا عجب؛ فلا بُدَّ في الدَّور الفاصل بين العُمُرَيْنِ من تَسْرُبِ شيءٍ منهما فيه.

وصوفيَّةٌ من فَرْطِ الإحساسِ ما لا تحافظ معه على اعتدالٍ كاملٍ في المزاج، ولكنها من فَرْطِ اللطف ما لا يكون هذا الإحساسُ معه كثيرَ الإزعاج للآخرين. وهي لا تُؤَلِّمُ غيرَ نفسها بذلك، وإذا ما وُجِّهَتْ إليها كلمةٌ لاذعةٌ لم تُظْهِرِ استياءها، ولكنَّ قَلْبَها ينتفخ، فتحاول أن تُفْلِتَ لتذهب وتبكي. وإذا ما ناداها أبوها أو أُمُّها بكلمةٍ واحدةٍ وهي تبكي أتت من فورها لآعبةً ضاحكةً مُكفِّفةً دموعها بلباقةٍ محاولةً كَتَمَ زَفْرَاتِها.

ثُمَّ إنها غيرُ خاليةٍ من التَّروء، فإذا ما نُحِزَّتْ مِرْاجًا تَمَرَّدتْ وَنَسِيَتْ نفسها، ولكن إذا ما تَرَكَتْ لها وقتًا تَعُودُ فيه إلى نفسها عُدَّتْ لها فضيلةً تقريبيًا بالوجه الذي تمحو فيه خطأها، وإذا ما

عُوقِبَتْ بَدَتْ طَائِعَةً خَاضِعَةً، وَظَهَرَ أَنَّ حَيَاءَهَا يَصُدُّرُ عَنْ ذُنُوبِهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَنْ عِقَابِهَا، وَإِذَا لَمْ تُثَقِّلْ لَهَا كَلِمَةً لَمْ يُعَوِّزْهَا أَنْ تَمَحَّوَهُ بِنَفْسِهَا، وَلَكِنْ بِإِخْلَاصٍ كَبِيرٍ وَلَطْفٍ كَثِيرٍ يَتَعَدَّرُ مَعَهُمَا أَنْ يَتْرُكَ ذَلِكَ أَثْرًا لِلضَّغِينَةِ، وَهِيَ تُقْبَلُ الْأَرْضَ أَمَامَ أَحَقَرِ خَادِمٍ، وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُوجِبَ هَذَا الْإِتِّصَاعُ أَقْلًا أَلَمَ فِيهَا، وَهِيَ إِذَا مَا عَفِيَ عَنْهَا نَمَّ فَرَحُهَا وَاغْتِبَاطُهَا عَلَى مِقْدَارِ الْجَمَلِ الَّذِي أُزِيحَ عَنْ فُؤَادِهَا. وَالخِلاصَةُ أَنَّهَا تَحْتَمِلُ خَطَأَ الْآخَرِينَ صَابِرَةً، وَأَنَّهَا تُصَلِّحُ خَطَأَهَا مَسْرُورَةً، وَهَذَا هُوَ طَبْعُ جَنَسِهَا الْجَمِيلِ قَبْلَ أَنْ تُفْسِدَهُ، وَقَدْ صُنِعَتِ الْمَرْأَةُ لِتُدْعِنَ لِلرَّجُلِ، وَلِتَحْتَمِلَ حَتَّى جَوْرِهِ، وَلَنْ تُحَوَّلُوا فِتْيَاتِكُمْ إِلَى النَّقْطَةِ عَيْنِهَا؛ فَالشَّعُورُ الْبَاطِنِيُّ يَرْتَفِعُ وَيُنَوِّرُ ضِدَّ الْجَوْرِ، وَلَمْ تَصْنَعْنَهُنَّ الطَّبِيعَةُ لِلتَّسَامُحِ فِيهِ.

«فَذَاكَ هُوَ الْغَضَبُ الْمَشْتَوُّمُ النَّاشِئُ عَنِ ابْنِ بَيْلِهِ الشَّرْسِ.»

وَلِصُوفِيَّةِ دِينٍ، وَلَكِنَّهُ دِينٌ مَعْقُولٌ بَسِيطٌ مَعَ عَقَائِدَ قَلِيلَةٍ وَعِبَادَاتٍ أَقْلًا مِنْهَا، أَوْ إِنَّهَا لَا تَعْرِفُ مِنَ الشَّعَائِرِ الْجَوْهَرِيَّةِ غَيْرَ الْأَدْبِيِّ؛ فَهِيَ تَقْفُ جَمِيعَ حَيَاتِهَا عَلَى عِبَادَةِ الرَّبِّ بِصُنْعِ الْخَيْرِ. وَقَدْ عَوَّدَهَا أَبَوَاهَا أَنْ تُبْدِيَ خُضُوعَ احْتِرَامٍ فِي جَمِيعِ الْمَعَارِفِ الَّتِي حَيَّوَاهَا بِهَا حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ؛ إِذْ يَقُولَانِ لَهَا: «يَا بُيَّتِي، إِنْ هَذِهِ الْمَعَارِفُ لَا تَنَاسِبُ سِتِّكَ، وَسَيُعَلِّمُكَ زَوْجُكَ إِيَّاهَا فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ.» ثُمَّ إِنَّهُمَا بَدَلَا مِنْ الْإِسْهَابِ فِي الْكَلَامِ عَنِ التَّقْوَى يَكْتَفِيَانِ بِوَعظِهَا عَلَى مِثَالِهَا، وَهَذَا الْمِثَالُ مَنْقُوشٌ عَلَى فُؤَادِهَا.

وَتُحِبُّ صُوفِيَّةُ الْفَضِيلَةَ، وَصَارَ هَذَا الْحُبُّ هَوَاهَا الْمُهَيْمِنَ، وَهِيَ تُحِبُّ الْفَضِيلَةَ لِأَنَّهُ لَا يَوْجَدُ مَا هُوَ جَمِيلٌ كَالْفَضِيلَةِ، وَهِيَ تَحِبُّ الْفَضِيلَةَ لِأَنَّهَا تَوْدِي إِلَى مَجْدِ الْمَرْأَةِ، وَلِأَنَّ الْمَرْأَةَ الْفَاضِلَةَ تَبْدُو لَهَا كَالْمَلَايِكَةِ تَقْرِيْبًا، وَهِيَ تَحِبُّ الْفَضِيلَةَ لِأَنَّهَا الطَّرِيقُ الْوَحِيدَ لِلسَّعَادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَهِيَ تَحِبُّ الْفَضِيلَةَ لِأَنَّهَا لَا تَرَى غَيْرَ الْبُؤْسِ وَالْإِهْمَالِ وَالشَّقَاءِ وَالْعَارِ وَالخِزْيِ فِي حَيَاةِ الْمَرْأَةِ غَيْرِ الْمُسْتَقِيمَةِ. ثُمَّ إِنَّهَا تَحِبُّ الْفَضِيلَةَ لِأَنَّ الْفَضِيلَةَ عَزِيزَةٌ عَلَى أَبِيهَا الْجَلِيلِ وَأُمِّهَا الْحَنُونِ الْوَقُورِ، وَلَا يَكْتَفِي هَذَا الْوَالِدَانِ بِأَنْ يَكُونَا سَعِيدَيْنِ بِفَضِيلَتِهِمَا الْخَاصَّةِ، بَلْ يَرِيدَانِ أَنْ يَسْعِدَا بِفَضِيلَتِهَا أَيْضًا، وَهِيَ تُبْصِرُ سَعَادَتَهَا الْأُولَى فِي رَجَائِهَا أَنْ تَجْعَلَهُمَا سَعِيدَيْنِ، وَتُوْحِي جَمِيعَ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ إِلَيْهَا بِحِمَاسَةٍ تَرْتَفِعُ بِهَا رُوحًا وَتُعَبِّدُ بِهَا جَمِيعَ مِيُولِهَا الصَّغِيرَةِ لِهَوَى نَبِيلٍ جَدًّا. وَتَسْتَكُونُ صُوفِيَّةً طَاهِرَةً صَالِحَةً حَتَّى النَّفْسِ الْأَخِيرِ مِنْ حَيَاتِهَا، وَقَدْ أَقْسَمَتْ عَلَى هَذَا فِي صَمِيمِ فُؤَادِهَا، وَهِيَ قَدْ أَقْسَمَتْ عَلَى ذَلِكَ فِي وَقْتِ كَانَتْ تُدْرِكُ فِيهِ كُلَّ مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ الرَّبُّ مِنْ قِيَمَةٍ، وَهِيَ قَدْ أَقْسَمَتْ عَلَى ذَلِكَ فِي وَقْتِ كَانَتْ تَحْنُتُ فِيهِ لَوْ كَانَتْ حَوَاسُّهَا قَدْ كُونَتْ لِتَسِيْطِرَ عَلَيْهَا.

وَلَمْ تَسْنَعِدْ صُوفِيَّةً بِأَنْ تَكُونَ فَاتِنَةً فَرَنْسِيَّةً، فَاتِرَةً عَنِ مِزَاجِ، مَغْنَاجًا عَنْ زَهْوٍ، رَاغِبَةً أَنْ

تُشْرِقُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَرُوقَ، بَاحْتِنَاءٍ عَنِ اللّهُوِّ لَا عَنِ السَّرُورِ، وَتُضْنِيهَا ضَرُورَةُ الحَبِّ الوَاحِدَةِ، وَتَشْغَلُهَا وَتُفْلِقُ بِأَلْهَا فِي الأَعْيَادِ، وَقَدْ فَقَدَتِ مَرَحَهَا السَّابِقَ، وَعَادَتِ الأَلْعَابُ المَرِحَةَ لَا تَلَامُهَا. وَهِيَ تَبْحَثُ عَنِ العُرْزَةِ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَخْشَاهَا، وَفِي العُرْزَةِ تَفَكَّرُ فَيَمُنُّ بِحَبِّ أَنْ يَجْعَلَهَا حُلُوةً، وَيُرْعِجُهَا جَمِيعَ الأَخْيَاءِ، وَتَحْتَاجُ إِلَى عَاشِقٍ لَا إِلَى بَطَانَةٍ، وَتُفَضِّلُ أَنْ تَرُوقَ رَجُلًا كَرِيمًا وَاحِدًا، وَأَنْ تَقَعَ مَوْجِعَ الرِّضَا عِنْدَهُ دَائِمًا، عَلَى أَنْ تَنَالَ اسْتِحْسَانَ مَجْتَمَعٍ يَدُومُ يَوْمًا ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى سَخْرِيَةٍ فِي الغَدِ.

وَيَتَكَوَّنُ الخُكْمُ فِي النِّسَاءِ بِأَسْرَعٍ مِمَّا فِي الرِّجَالِ، وَبِمَا أَنَّ النِّسَاءَ يَكُونُ فِي وَضْعِ المُدَافِعِ مِنْذُ طِفْلُوتهنَّ تَقْرِيبًا، وَبِمَا أَنَّهُنَّ يَكُونُ مُثَقَّلَاتٍ بِوَدِيعَةٍ يَصْعَبُ حِفْظُهَا، فَإِنَّ الخَيْرَ وَالشَّرَّ يَكُونَانِ مَعْرُوفَيْنِ عِنْدَهُنَّ بِأَسْرَعٍ مِمَّا عِنْدَ الرِّجَالِ بِخُكْمِ الضَّرُورَةِ، وَكَذَلِكَ صُوفِيَّةٌ، النَّاصِحَةُ بِأَكْرَمٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ نَتِيجَةٌ لِمِرْاجِهَا، ذَاتُ حُكْمٍ أَسْرَعٍ تَكُونُ مِمَّا عِنْدَ البِنَاتِ اللَاتِيَّاتِ هُنَّ فِي مِثْلِ عُمْرِهَا، وَلَا شَيْءَ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ فِي هَذَا؛ فَالْبَلُوغُ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ لَا يَكُونُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

وَتَعْرِفُ صُوفِيَّةٌ وَاجِبَاتِ الجِنْسَيْنِ وَحَقُوقَهُمَا، وَتَعْرِفُ نِقَاصَ الرِّجَالِ وَمَعَايِبَ النِّسَاءِ، وَتَعْرِفُ أَيْضًا مَا تَبَايَنَ مِنَ الفَضَائِلِ وَالصِّفَاتِ، وَقَدْ طَبَعَتْهُمَا جَمِيعًا فِي صَمِيمِ قَلْبِهَا، وَلَا يُمْكِنُ تَكْوِينُ فِكْرٍ عَنِ المَرْأَةِ الصَّالِحَةِ أَرْفَعُ مِنَ الَّذِي تَمَثَّلَتْهُ عَنْهَا، وَمَا كَانَتْ هَذِهِ الفِكْرَةُ لِشَرْعِهَا مُطْلَقًا، وَلَكِنَّهَا تُفَكَّرُ بِارْتِيَاحٍ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي الرِّجَالِ الصَّالِحِ، فِي الرِّجَالِ الفَاضِلِ، فَتُحَسِّنُ أَنَّهَا كُونَتْ لِهَذَا الرِّجَالِ الَّذِي تَلِيقُ بِهِ، فَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُعِيدَ إِلَيْهِ السَّعَادَةَ الَّتِي تَنَالُهَا مِنْهُ، وَهِيَ تَشْعُرُ بِأَنَّهَا سَتَعْرِفُهُ جَيِّدًا؛ فَالْأَمْرُ يَتَوَقَّفُ عَلَى لُقْبَانِهَا إِيَّاهُ.

وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنَّ يَكُونُ النِّسَاءُ قَاضِيَاتٍ فِي مَرِيَّةِ الرِّجَالِ كَمَا يَكُونُ الرِّجَالُ قُضَاةً فِي مَرِيَّةِ النِّسَاءِ، وَتُعَدُّ هَذِهِ مِنْ حَقُوقِهِمَا المَتَبَادَلَةِ، وَلَا يَجْهَلُ هَذَا أَيُّ مِنَ القَرِيْبَيْنِ، وَتَعْرِفُ صُوفِيَّةٌ هَذِهِ الحَقُوقَ وَتُمَارِسُهَا، وَلَكِنْ مَعَ مَا يَلَاثِمُ فِتْنَاهَا وَتَجْرِبَتِهَا وَوَضْعِهَا مِنَ التَّوَاضُعِ، وَهِيَ لَا تَحْكُمُ فِي غَيْرِ الأُمُورِ الَّتِي تَكُونُ فِي مِتَابَلِهَا، وَهِيَ لَا تَحْكُمُ فِيهَا إِلَّا عِنْدَمَا يَنْتَفِعُ هَذَا فِي تَنْوِيرِ بَعْضِ المَبَادِئِ المِفِيدَةِ، وَهِيَ لَا تَتَكَلَّمُ عَنِ الغَائِبِينَ إِلَّا بِحَدَرٍ كَبِيرٍ، وَلَا سَيِّمًا النِّسَاءِ إِذَا مَا كُنَّ غَائِبَاتٍ، وَهِيَ تَرَى أَنَّ الَّذِي يَجْعَلُهُنَّ مَغْتَابَاتٍ هَاجِيَاتٍ هُوَ الحَدِيثُ عَنِ جِنْسِهِنَّ، فَإِذَا مَا اقْتَصَرْنَ عَلَى الكَلَامِ عَنِ جِنْسِنَا لَمْ يَكُنْ غَيْرَ مَنصَفَاتٍ؛ وَلِذَا فَإِنَّ صُوفِيَّةً تَقْتَصِرُ عَلَى هَذَا، وَأَمَّا النِّسَاءُ فَإِنَّهَا لَا تَتَكَلَّمُ عَنْهُنَّ مُطْلَقًا إِلَّا لِتَقُولَ عَنْهُنَّ مَا تَعْرِفُ مِنْ خَيْرٍ، وَهَذَا إِكْرَامٌ يَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَقُومَ بِهِ نَحْوَ جِنْسِهَا عَلَى مَا تَعْتَقِدُ، وَأَمَّا اللَاتِيَّاتُ لَا تَعْرِفُ خَيْرًا تَقُولُهُ عَنْهُنَّ فَلَا تُحَدِّثُ عَنْهُنَّ بِشَيْءٍ، وَهَذَا يَكْفِي.

وصوفية قليلة المعرفة بالناس، ولكنها ذات مُروءة وانتباه، وتُظهر لطفًا في كلِّ ما تصنع، وما فُطرت عليه من طبعٍ مباركٍ أنفع لها من كثيرٍ شطارة، وهي ذاتُ أدبٍ خاصٍّ بها غيرٍ تابعٍ للصيغ، وغيرٍ مُسخَّرٍ للموضات؛ فلا يتغيَّر بتغيُّرها، وغيرٍ صانعٍ شيئًا عن عادة، بل صادرٌ عن رغبةٍ صادقةٍ في الوقوع موقع الرضا، فيروق فعلاً، وهي لا تُعرف المجاملات المبتذلة مُطلقاً، ولا تبتكر من المجاملات ما ينطوي على كبير تكلف، وهي لا تقول إنها مدينةٌ لفضل، أو ذاك يُشرفها كثيراً، أو لا يُتعب ذلك نفسه... إلخ. وأقلُّ من هذا أيضاً أن يخطر ببالها انتحال جُمَلٍ لنفسها، وهي تُجيب عن انتباهٍ أو أدبٍ معتادٍ بحنو الرأس أو بكلمة «شكراً» البسيطة، وذلك مع العلم بأن نطقها بهذه الكلمة يُجزئ عن غيرها. وإذا ما أُسدي إليها بخدمةٍ دعت قلبها يتكلم، وليس كلامُ الفؤاد ضرباً من المجاملات، وهي لم تُطق مُطلقاً أن تُعبدها العادات الفرنسية لئير المظهر، كأن تُمدَّ يدها عند مرورها بين غرفةٍ وأخرى إلى ذراعٍ شيخٍ في الستين من عُمره مساعداً له، وإذا ما عرَّض مُعطرٌ عليها القيام بهذه الخدمة النابية تركت الذراع المتكرمة على السُّلم وطارت إلى الغرفة بوثيين قائلةً إنها ليست عرَّجاء. والواقع أنها، وإن لم تكن طويلة، لم ترغب في الأعباب العالية قط؛ فهي من صِغَر الرَجُلَيْن ما تستغني معه عنها.

ولا تلتزم جانب الصمت، وتقوم بالاحترام نحو السيدات فقط، بل تفعل ذلك نحو الرجال المتزوجين أيضاً، أو نحو من يكبرونها في السن كثيراً، وهي لا تُقبل مُطلقاً مكاناً فوقهم إلا عن طاعة، ثم لا تلبث أن تتخذ مقعداً لها تحتهم عندما يُمكنها ذلك؛ فهي تعلم أن حقوق السن فوق حقوق الجنس، وذلك لما يُفترض من ملازمة الحكمة للمشيبي، والحكمة هي ما يجب أن يُكرم قبل كلِّ شيء.

والأمر غير ذلك تجاه الشباب؛ فهي تستلزم وضعاً مختلفاً عن ذاك نَيْلاً لاحترامهم، وهي تناله من غير أن تُغيَّر ما يناسبها من تواضع، وإذا ما كانوا متواضعين متحفظين، أمكنها أن تتخذ نحوهم ما يقتضيه الفتاء من دالةٍ مستحبة، وقامت أحاديثهم البرينة على المزاح، ولكن مع الاحتشام، وإذا ما التزموا جانب الجِدِّ ودَّت أن يكونوا نافعين، وإذا ما أسفوا لم تلبث أن تُسكتهم؛ وذلك لأن أحص ما تدر به هو رطانة المعازلة المهينة كثيراً لجنسها، وهي تعلم جيداً أن الرجل الذي تبحث عنه خالٍ من هذه الرطانة، فلا تحتل عن اختيارٍ أن يصدر عن آخر ما لا يناسب الرجل المطبوعة أخلاقه في صميم فؤادها، وما عندها من رأيٍ عالٍ عن حقوق جنسها، وما يُسفر عن صفاء مشاعرها من زهوٍ في النفس وما تُحسُّه من فضيلةٍ في نفسها فيجعلها محترمةً

في نظرها الخاص؛ أمورٌ تحمّلها على الإصغاء مع الغيظ إلى الأحاديثِ التافهة الحلاوة التي يُزعم أنها تُسليها، أجل، إنها لا تتلقّاها بغيظٍ ظاهر، ولكن بهتافٍ ساخرٍ يُفجّم، أو بفتورٍ غيرٍ منتظر. ولو برزَ لها رجلٌ جميلٌ مثلُ فيبوسَ فأظَهَرَ لها ظرافته، وأبدى لها من الملاحاة ما مدَحَ معه جمالها وألطفها نِيلاً لشرف الوقوع عندها موقعَ الرضا، لوجدَ فيها فتاةً تُسكِّته بقولها المؤدّب له: «أخشى كثيراً يا سيدي أن أكون عارفةً بهذه الأمورِ أكثرَ مما تُعرف، فإذا لم يكن لدينا ما هو أمتع من هذا للكلام، فإنني أظنُّ أننا نستطيع أن نضعَ حدًّا لهذا الحديث.» وليس إرفاقُ هذه الكلماتِ باحترامٍ كبيرٍ ثمَّ الابتعادُ عنه عشرين خُطوةً غيرَ عملٍ ثانية، وأسألوا فاتني النساءِ لديكم هل من السهل أن يُداومَ على الهدرِ مع نفسٍ غيرِ هيّنةٍ كذلك.

ومع ذلك، فإن ذلك لا يعني أنها لا تُحبُّ أن تُمدَحَ مُطلقاً، وإنما تريد الإخلاص في المدح، فيمكنها أن تعتقد أن المادح مؤمنٌ بما يقول لها من خيرٍ في الحقيقة، وقد يلاطفُ الولاءُ القائمُ على التقديرِ فؤادها الأبيّ، ولكنَّ كلَّ غزلٍ خادعٍ يُقابلُ بالرفضِ دائماً؛ فلم تُكوّنْ صُوفيةً لِيُمارِسَ مواهبَ حقيرةً كمواهبِ البهلوان.

وما كانت صُوفيةً لِيُعاملَ من قِبَلِ والديها كما يُعاملُ الأولاد بعد ذلك التضحج في الحكمِ وذاك التكوينِ الخليق من كلِّ ناحيةٍ بفتاةٍ في العشرين من عُمرها مع أنها في الخامسة عشرة من سنيها، وهما لا يكادان يُصران فيها أوّلَ همومِ الشباب حتى يُبادرا إلى تلافياها فيخاطباها بكلامٍ لِيَن رصين، والكلامُ اللينُ الرصينُ مما يلائم سنّها وطبّعها، وإذا كان طبعها كما أتصوّرُ فلم لا يخاطبها أبوها كما يأتي تقريباً:

«أيّ صوفية، لقد كبرتِ كما نرى، وستصبحين امرأةً عما قليل، ونريد أن تكوني سعيدة، ونريدُ هذا من أجل أنفسنا؛ وذلك لأن سعادتنا تتوقّف على سعادتك، وتقوم سعادة البنات الصالحة على صنع سعادة الرجل الصالح؛ ولذا فلا بُدَّ من التفكير في تزويجك، ويجب أن يُفكّر في ذلك باكراً؛ فعلى الزواج يتوقّف مصيرُ الحياة، وليس لدينا وقتٌ كبيرٌ للتفكير في أمره.

ولا شيءٌ أصعبُ من اختيار الزوج الصالح، إن لم تكن الصعوبة في اختيار الزوجة الصالحة على ما يُحتمل. أيّ صوفية، ستكونين هذه المرأة النادرة، وستكونين تاج حياتنا وسعادة أيامنا الآفلة، ولكن مهما تكن المزيّة التي تتصفين بها فإنه لا يُعوّزُ الأرضَ رجالٌ يكونون أعظمَ مزيّةً منك، ولا يُوجدُ في الأرضِ رجلٌ لا يُشرفه أن يفوزَ بك، وفي الأرضِ رجالٌ تفوزين بشرفٍ منهم أكثرُ مما يفوزون، ويدورُ الأمرُ حولَ لُقياكِ رجلٍ يلائمك، وأن يُعرفَ، وأن يُعرفَ بك.

ويتوقَّف أعظمُ سعادةٍ في الزواجِ على كثيرٍ من الموافقات التي يُعدُّ من الحماقة أن يُرادَ جمعُها كُلُّها، وأوَّل ما يَجِبُ هو أن يُضَمَّنَ أهمُّها، فإذا ما وُجِدَت الأخرى بينها كان هذا خيرًا، وإذا لم تُوجد استغني عنها. أجل، إن السعادة الكاملة غيرُ موجودة في العالم، ولكن أعظم المصائب، وهي التي يُمكنُ اجتنابُها دائمًا، أن يكون الإنسان شقيًّا بخطأ منه.

ومن الموافقات ما هو طبيعي، ومنها ما هو وضعي، ومنها ما هو تابعٌ للرأي العامِّ وحدَه، فأما النوعان الأخيران فالأبوان قاضيان فيهما، وأما النوع الأوَّل فالأولادُ قضاةٌ فيه، ويُستندُ إلى الموافقات الوضعية وإلى الموافقات التابعة للرأي العامِّ خصرًا في الزوجات التي تتمُّ بسلطان الآباء. والأحوال والأموال لا الأشخاص هي التي تُروِّجُ هنا، غير أن جميعَ هذا يُمكن أن يتغيَّر، والأشخاصُ وحدهم هم الذين يبقون دائمًا، والأشخاصُ يكونون حيث هم في كلِّ مكان، وليس بغير الصلَّات الشخصية ما يُمكنُ أن يكون الزواجُ سعيدًا أو سيِّئًا، وذلك على الرغم من الشراء.

وكانت أمُّك حسيبة، وكنْتُ غنيًّا، وهذان العاملان وحدهما هما اللذان حَمَلَا وَالِدِي كُلَّ مِنَّا على جنح ما بيننا، وقد أضعتُ أموالِي، وقد أضاعت اسمَها، وما فائدتها اليوم من كَوْنِها قد وُلِدَت أنسَةٌ بعد أن نُسيَت من قِبَل أُسرتها؟ لقد أسلانا اتحادنا عن كلِّ شيءٍ في جميع مصائبنا، وكان من توافُق أذواقنا أن اخترنا هذه العزلة، فنعيش فيها سعداء مع الفقر، وكلُّ مِنَّا كلُّ شيءٍ في نظر الآخر، وصوفيَّة هي كنزنا المشترك بيننا، ونشكرُ الله إنعامه علينا بها ونزَعَه مِنَّا كلِّ شيءٍ غيرِها. وانظري يا بنيتي إلى أين ساقتنا العناية الرَبَّانية؛ فقد زالت الموافقات التي جعلتنا نتزوج، ولسنا سعيدين بغير الموافقات التي لم يُؤبِه لها.

ويجب على الزوجين أن يختار كلٌّ منهما الآخر، ويجب أن يكون مِيلُهما المتبادلُ أوَّلَ رابطةٍ بينهما، ويجب أن تكون عيونُهما وقلوبُهما أدلاءهما الأولى، وذلك بما أن واجبهما الأوَّل بعد أن يتزوجا هو أن يتحابَّا، وبما أن الحُبَّ أو عدم الحُبِّ أمرٌ لا يتوقَّف علينا مُطلقًا، فإن هذا يستلزم واجبًا آخر بحكم الضرورة، وهو أن يُبدأ بالتحابِّ قِبَل الاقتران، وهذا هو حقُّ الطبيعة الذي لا يستطيع شيء أن يُنقِضه، وقد غني الذين ضايقوا هذا الحقَّ - بكثيرٍ من القوانين المدنية - بالنظام الظاهر أكثر مما بسعادة الزواج وطباع المواطنين؛ ومن ثمَّ ترين يا صوفية أننا لا نعطُك بأدبٍ صَغْب، وهذا الأدب لا يهدفُ إلى غير جعلِ أمرك بيدك، تاركين لك أمرَ اختيار زوجك بنفسك.

وإنَّا بعد أن حدَّثناك عن الأسباب في تركنا لك كلَّ الحرية، يُعدُّ من الصواب أن نُحدِّثك

أيضاً عما لديك من أسباب في استعمال هذه الحرية بحكمة. فإيا بُنيي، أنت صالحة رشيدة، وعندك إنصافٌ وتقوى، ولديك من المواهب ما يناسب النساء الصالحات، ولست خاليةً من الألفاظ، ولكنك فقيرة، وأنت حائرةٌ لأكثر المحاسن أهلاً للتقدير، ويُعوزك أكثر ما يُقدَّر منها، ولا تبغي إذن غير ما تقدِّرين على نيِّله، ونظمي طموحك وفق رأي الرجال، لا على حسب أحكامك وأحكامنا، وإذا ما دار الأمر حول تساوي المزايا فإنني لا أدري علام يجب أن أجعل آمالك قاصرة، ولكن حذار أن ترفعيها إلى ما فوق نصيبك مطلقاً، ولا تنسي أنه من المرتبة الدنيا، ومع أن الرجل الخليق بك لا يُعَدُّ هذا التفاوت عائقاً، فإنه لا يجوز لك أن تصنعي إذ ذاك ما لا يصنع، فعلى صوفية أن تسيّر على غرار أمها، وأن تدخل أسرةً تُفاجئ بها، وأنت لم تَرَيِ يُسرنا قط، وأنت قد وُلِدت في دُور عُسرنا فقط، وأنت قد جعلت فقرنا خلواً لدينا، وأنت تقاسميننا إياه بلا عناء، وثقي بي يا صوفية، ولا تطلبي أموالاً نحمد الله على أنه أنقذنا منها؛ فنحن لم ندقْ طعم السعادة إلا بعد أن خسرنا الشراء.

أنت من كثرة اللطف ما تروقين معه كل إنسان، وليس يؤسك من الحال ما ينقيضُ معه صدرُ الرجل الصالح منك. وستخطئين، وقد تقع خطبتك من قِبَل أناسٍ لا نرغب فيهم، وهم إذا ما أظهروا أنفسهم على حقيقتهم أمكنك أن تقدريهم بقيمتهم، فما كان مظهرهم ليخدعك زمناً طويلاً، ولكن مهما يكن من صلاح حكمك ومن حُسن معرفتك بالمرئىة، فإن التجربة تُعوزك ولا تعرفين مدى قدرة الرجال على التَّنكر، ومن ذلك أن الماكر الماهر يستطيع أن يدرُس أدواقك لإغوائك وأن يُظهر أمامك ما ليس فيه من الفضائل مُطلقاً، فيكون سبب ضياعك يا صوفية قبل أن تعرفي، ولا تعرفين خطأك إلا للبقاء. وأشدُّ الأشرار خطراً، وهو الذي لا يستطيع العقل اتقائه، هو شَرُّ الحواس، وإذا كنت من الشقاء ما تقعين فيه لم تُبصري غير الأحلام والأوهام، فسُسخِرْ عينك، وسيختلُ حكمك، وسيفسدُ عزمك، حتى إن خطأك سيكون عزيزاً عليك. وعندما يُتاح لك بعد ذلك أن تربه لا يُروِّقك أن تتزكبه. فإيا بُنيي، أسلمك إلى عقل صوفية، ولا أسلمك إلى ميل قلبها مطلقاً، وابقِ قاضيةً نفسك ما دُمَّت رابطة الجأش، فإذا ما أحببت فأعدي إلى أمك أمر العناية بك.

وأقترحُ عليك وضع اتفاقٍ يبين لك تقديرنا ويُعيد النظام الطبيعي بيننا، ومن مقتضى العادة أن يختار الأبوان زوج البنت وألاً يستشيرها إلا شكلاً، وسنصنع غير هذا بيننا؛ فستختارين وسنستشار، فمارسي حَقك في ذلك يا صوفية بحريةً وحكمة، فيجب أن يكون اختيار الزوج

الذي يلائمك من حَقِّكَ لا من حَقِّنا، ولكن من حَقِّنا أن نحكِّم في كونك قد خُدِعتِ في الموافقات، وفي كونك تأتين أمرًا غير ما تريدن من غير أن تعرفي ذلك، ولا يدخل الأصل والمال والمقام والرأي العام في بواعثنا مطلقًا، واتخذي لك رجلًا صالحًا يروقك شخصه وتلائمك أخلاقه، وليكن بعد ذلك من شاء، فسنرضى به صهرًا لنا، وسيكون ذا رزقٍ كافٍ دائمًا إذا ما كان ذا ذراعين وأخلاق، وكان مُجيبًا لأسرته، وسيكون ذا مقامٍ مرموقٍ دائمًا إذا ما شرفه بالفضيلة، وما يُهْمُنَّا إذا ما لامنا جميع العالم؟ فنحن لا ننشد موافقة النَّاسِ، ونحن نكتفي بسعادتك.»

ويا أيها القراء، إنني أجهل أيُّ أثرٍ يكون لمثل هذا الكلام في البنات اللاتي يُنشأن على طريقتكم، وأما صوفية فيمكنها ألا تُحجب عنه بالأقوال، فما تتصل به من حياءٍ ورقيةٍ يمنعها من التعبير عما في نفسها بسهولة، ولكنني مطمئنٌ إلى أنه سيقى منقوشًا في قلبها ما دامت حيَّة. وإذا كان من الممكن أن يُعتمد على حُكمٍ بشريٍّ فهو الحُكْمُ الذي تكون به أهلاً لتقدير أوبوها.

ولنأتِ بأسوأ احتمالٍ فنفترض لها مزاجًا أجوجًا يجعل الانتظار الطويل شاقًا عليها، فأقول إن حُكمها ومعارفها وذوقها ولطفها، ولا سيَّما مشاعرُها التي غُدِّيَ بها فؤادها في صباها، أمورٌ تُعارضُ فُوران حواسها بتقلٍ يكفيها لقهر هذه الحواس أو مقاومتها زمنًا طويلًا على الأقل، وهي تُفضل أن تموت شهيدةً حالها على أن تُخزن أوبوها بتزُّوج رجلٍ خالٍ من الفضل وتعريض نفسها لشقاءٍ زواجٍ غيرٍ مُوفِّقٍ، حتى إن الحرية التي فازت بها لم تُوجبَ غيرَ غُلُوٍّ جديدٍ في النفس وغيرَ جعلها أصعبَ مراسًا في اختيار مولاه، وهي على ما فيها من مزاجٍ الإيطاليَّة وحساسية الإنكليزية، حائزةٌ لزهو الإسبانية التي إذا ما بحثت حتى عن عاشقٍ لم يسَّهلَ عليها أن تجدَ من تُقدِّرُ أنه كُفءٌ لها.

وليس كلُّ واحدٍ قادرًا أن يدرك أيُّ نابضٍ يُمكن حُبُّ الأمورِ الصالحة أن يُورث النفس إياه، وأيُّ قوةٍ يمكن الواحد أن يجدها في نفسه إذا ما أراد أن يكون فاضلاً بإخلاص. ومن النَّاسِ من تبدو لهم كلُّ عظمةٍ وهَمًّا، ومن لا يَعرفون بعقلهم السافل المنحط ما يُمكن أن يكون حتى لجنون الفضيلة من تأثيرٍ في أهواء البشر، ولا يجوز أن يُخاطب هؤلاء النَّاسِ بغير الأمثلة، ويقع اللومُ عليهم إذا ما أصرُّوا على إنكارها. وإذا قلتُ لهم إن صُوفيةً ليست إنسانًا خياليًّا، وإن اسمها وحده هو من اختراعي، وإن تربيتها وطباعها وأخلاقها وهيئتها أيضًا قد وُجدت حَقًّا، وإن ذكرها لا تزال تُسيل عبرات كلِّ أسرةٍ صالحة، لم يُصدِّقوا شيئًا من هذا لا ريب، لكن لِمَ لا أجازفُ فأتمِّ بلا التواء قصةً فناةً كثيرة الشبه بصوفية، فيمكن أن تكون هذه القصةُ قصَّتها من غير أن يحارَ

منها أحد؟ وليس من المهم أن يُعتقد أن القصة واقعية أو لا، وليقل - إذا أريد - إنِّي أقصُّ أوهامًا، فلا يُهمُّ هذا، وإنما الذي يُهمُّ هو أن أشرح منهاجي فأبْلَغَ غاياتي دائمًا.

إن الفتاة التي حَمَلْتُ صوفيةً مزاجها حائرةٌ لجميع الموافقات التي يُمكن أن تجعلها أهلاً لهذا الاسم فأتركه لها، وإن أباه وأُمُّها رأيا، بعد الحديث الذي رويته آنفًا، أن طالبي الزواج لا يأتون لعرض أنفسهم في الكوخ الذي يقيم به، فأرسلها إلى المصْر لتقضي فيه شتاءً عند خالةٍ لها أطلعها سراً على سبب الرحلة؛ وذلك لأن صوفيةً المختالة كانت تحمل في قرارة قلبها من الزهو الكريم ما تُعرف معه أن تضبط نفسها، ولأنها مهما يكن من احتياجها إلى زوج تُفضِّل الموت على الذهاب للبحث عنه.

وقد عَمِلْتُ خالتيها بوجهاتٍ نظرٍ أبويها؛ فقدَّمتها في البيوت، وأتت بها إلى المجتمعات، وأحضرتها إلى الولائم والأعياد، وعَرَفْتُها بالناس، وإن شئت فقل عَرَفْتُ بها الناس، وذلك مع كون صوفيةً قليلةً المبالاة بهذه القَرَفَات، ومع ذلك فقد لُوْحِظَ أن صوفيةً لم تجتنب من يَبْدُونَ متواضعين ذوي احتشامٍ من وُسَمَاءِ الشُّبَّان، حتى إن احترازها ينطوي على فنٍّ في اجتذابهم مشابهٍ للدلال، ولكنها ارتدَّت عنهم بعد أن حادثتهم مرتين أو ثلاث مرات، وذلك أنها لم تلبث أن اتخذت وضعًا أكثر تواضعًا، وأدبًا أكثر دفءًا بدلًا من ظاهر السلطان الذي يتقبَّل المجاملات كما يلوح، وذلك أنها كانت دائمة الانتباه إلى نفسها، فعادت لا تدعُ لهم فرصة تقديم أية خدمة لها، وهذا يعني أنها لم تُردُّ أن تكون خليلةً لهم.

وما كانت القلوب الحساسة لشحب الملاهي الصاخبة ولا السعادة الباطلة الماحلة عند أناسٍ لا يُحسُّون شيئًا، معتقدين أن تمتع الإنسان بحياته قائمٌ على خُمارها. وبما أن صوفيةً لم تجد ضالتها مطلقًا، وبما أنها ينست من لُقيانها؛ فقد سئمت من المِصْر، وقد كانت تُحبُّ أبويها حُبَّ خنان، فلم تجد ما يُعوِّضها منهما، ولم يظهر لها شيءٌ تساهما به، فعادت لتلحق بهما قبل الوقت المعين لرجوعها بزمنٍ طويلٍ.

وهي لم تكذِّ تَعُوذُ إلى واجباتها في منزل والديها حتى رُئِيَ أنها غيَّرت مزاجها مع المحافظة على سلوكها، وذلك أنها بدت ذات ذهولٍ ومَلَلٍ وغمٍّ ووهْم، فتتوارى لتبكي. وقد طُرِّقَ في البداية أنها تحبُّ وأنها خجلى من ذلك، فكَلَّمَاها في ذلك فردَّته عنها محتجَّةً بأنها لم ترَ رجلًا أمكنه أن يَمَسَّ فؤادها، وصوفيةً لا تكذبُ مطلقًا.

ومع ذلك، فإن الدُّبول كان يزيد بلا انقطاع، وأخذت صحتُها تفسُد، فعزمت أمُّها التي

ساورها الهمُّ من هذا التحوُّل على معرفة العلة، فخلت إليها، واتخذت نحوها لهجةً مؤثِّرة، وأظهرت لها من الألفاظ التي لا تُرَدُّ ما لا يصدُر عن غير عاطفة الأم، قالت لها أمُّها: «بنيّتي، لقد حملتُك في بطني، ولا أفنأ أحملك في فؤادي، فأفضي بأسرار قلبك إلى ضمير أمك، وما هذه الأسرار التي لا تقدّر الأمُّ أن تعرفها، ومن ذا الذي يتوجّع لكروبك، ومن ذا الذي يقاسمك إياها، ومن ذا الذي يريد أن يكشفها عنك، إن لم يكن والدك ووالدتك؟ آه! يا بنيّتي، أتودّين أن أموت بسبب الملك من غير أن أعرفه؟»

لم تكتم البنتُ همومها عن أمها، ولم تطلب ما هو أحسنُّ من أن تكون أمها مُفِرَّجةً لغمّتها محلاً لأسرارها، غير أن الحياء كان يَمنعها من الكلام، وما هي عليه من حشمةٍ كان لا يجدُ لساناً لوصف حالٍ غير خليقٍ بها كالهيجان الذي يُلبّل حواسها على الرغم من جميع جهودها، وأخيراً اتخذت أمها من حياتها نفسه دليلاً، فانتزعت منها هذه الاعترافات الفاضحة، ولم تُحزنها أمها بتعزيرٍ جائر، بل أسلّتها وتوجّعت لها، وبكت عليها، وهي من الحكمة البالغة ما لا تجعل لها معه جريمةً من سوء فسأ عليها بسبب عفاها وحده. ولكن لِمَ احتمأها، بلا ضرورة، سوءاً سهلاً دواؤه شرعياً علاجُه؟ ولم لا تسعين بحريةٍ كانت قد مُنحتُها؟ ولم لا تقبل زوجاً؟ ولم لا تختار بعلاً؟ ألا تعلم أن مصيرها يتوقّف عليها وحدها، وأنه مهما يكن من اختيارها يُوافق عليه ما دام هذا الاختيار لا يقع على غير صالح؟ لقد أرسلت إلى المِصر، ولم تُرد البقاء فيه مطلقاً، وقد قدّم إليها كثيرٌ من طالبي الزواج فرفضتهم جميعاً. وما تنتظر إذن؟ وما تريد؟ يا له من تناقضٍ غامض!

وكان الجواب بسيطاً؛ فلم يدُر الأمرُ على غير إغائنة للشباب، ولا يلبث الاختيارُ أن يقع، ولكن لا يسهُل اختيارُ سيّدٍ لمدى الحياة. وبما أنه لا يُمكن فصلُّ أحد الاختيارين عن الآخر، فإنه لا بُدَّ من الانتظار، ولا بُدَّ من ضياع الشباب في الغالب قبل نُقيان الرجل الذي يُراد قضاء الحياة معه. وكان هذا حال صوفيةٍ التي كانت محتاجةً إلى عاشقٍ على أن يكون زوجاً لها، ومن الصَّعب أن تجد قلباً كما تريد، سواءً أكان قلب زوج أم قلب عاشق، ولم يُقَم ما بينها وبين أولئك الشبان النضراء من موافقةٍ على غير السنن، وأما الموافقات الأخرى فتُعوزهم دائماً، وما كانوا عليه من ذهنٍ سطحي، ومن خيلاء ورطانة، ومن طباعٍ بلا نظام، ومن تقليدٍ طائش، كان يورثها نفوراً منهم، وكانت تبحث عن رجلٍ فلا تجد غير قردة، وكانت تبحث عن روحٍ فلا تجد منه شيئاً.

قالت لأُمها: «يا لشقائي! إنني محتاجةٌ إلى الحب، ولا أرى أحداً يروفيّني، ويرفض فؤادي كلَّ من يُخاطب حواسي، ولا أجد واحداً لا يُثيرُ رغائبي، ولا أبصر واحداً لا يزدعُ ميولي، ولا

يُكْتَبُ بقاءً لذوقٍ بلا احترام. آه! ليس هنالك من هو أهلٌ لابنتك صوفية! إن مثالها الفاتن منقوشٌ في صميم فؤادها، وهي لا تستطيع حُبَّ غيره، وهي لا تستطيع أن تجعل سعيداً سواه، وهي لا تستطيع أن تكون سعيدةً مع غيره، وهي تُفَضِّلُ أن تَضُنِّي وتناضل بلا انقطاع، وأن تموت شقيةً حُرَّةً، على أن تكون يائسةً بجانب رجلٍ لا تُحِبُّه فتجعله شقياً أيضاً، وأفضلُ لها أن تهلك من أن تبقى لِنِئَامٍ.»

ووقفت هذه الغراباُتُ نظراً الأمِّ فوجدتها من الشذوذ البالغ ما لم يُخامرها معه شكٌّ في وجود سرٍّ في الأمر، ولم تكن صوفيةً متصنعةً ولا مثيرةً للسخرية. وكيف أمكنَ هذه الرقة المتناهية أن توافقها، وهي التي لم تتعلم منذ طفولتها غيرَ الاكتفاءِ بأناسٍ كان عليها أن تعيشَ معهم وأن تقومَ نحوهم بمقتضى الفضيلة؟ إن هذا المثالُ للرجل المحبوب الذي فُتِنَتْ به كثيراً، والذي تُرَدِّدُ اسمه في جميع أحاديثها غالباً، قد جعل أمَّها تظنُّ أن لهذا الهوى أساساً آخرَ لا تزال جاهلةً له، وأن صوفيةً لم تَقُلْ كلَّ شيءٍ، ولم تحاول هذه الشقية المثقلة بكربها الخفي غيرَ الكلام بثقةٍ تامة. وتُلِحُّ أمُّها، وتتردَّد، ثم تُدْعِن، وتخرُج من غير أن تقول كلمة، وتعود بعد هنيهةٍ حاملةً كتاباً بيدها، وتقول: «اشفقي على ابنتك الشقية، فلا دواءَ لكربها، ولا يُمكن أن تكفَّ عن البكاء، وأنت تريدان معرفة العلة، حسناً، ها هي ذي.» قالت هذه الكلمة وطرحَت الكتابَ على المنضدة، وتناول الأمُّ الكتابَ وفتحه، فإذا هو: «مغامرات تِلْمَاك»، ولم تُدرِك شيئاً من هذا اللغز في البداية، وتدور أسئلةٌ مبهمَةٌ وأجوبةٌ غامضة، فترى الأمُّ في آخر الأمر، مع دهشٍ يمكن تصوُّره، أن ابنتها منافسةٌ لأوكاريس.

وكانت صوفيةً تُحِبُّ تِلْمَاك، وكانت تحبُّ بهوى لم يستطع شيءٌ أن يشفيها منه، ولما علم أبوها وأمُّها هيامها صححكا منه، ورأيا أن يردِّداها عنه بالعقل، وقد كانا على خطأ في ذلك؛ فلم يكن العقلُ كلُّه بجانبهما؛ فقد كان لصوفيةٍ عقلها أيضاً، وكانت تعرف أن تنتفع به، وما أكثر ما حملتُهما على السكوتِ بتوجيهها إليهما براهينهما الخاصة، وبإثباتها لهما أنهما أساسُ العلةِ لِمَا كان من عدمِ إعدادهما إياها لرجلٍ من رجال عصرها، وأن الضرورةَ كانت تقضي بأن تعتنق أوجهَ تفكيرٍ زوجها أو أن تمنحه أوجهَ تفكيرها، وأنهما جعلتا الوسيلةَ الأولى أمراً متعديراً عليها بالأسلوب الذي نشأها عليه، فتبحثُ عن الوسيلة الأخرى تماماً، وقد قالت: «أعطيني رجلاً مُشْبِعاً من مبادئي، أو رجلاً أستطيعُ تعليمه إياها، حتى أتزوجه. ولكن لِمَ تؤنِّباني حتى ذلك الحين؟ ارحماني؛ فأنا شقية، لا حمقاء. وهل القلبُ تابعٌ للإرادة؟ ألم يقلُ والذي ذلك بنفسه؟ وهل يقع

الدُّنْبُ عَلِيٌّ إِذَا كُنْتُ أَحَبُّ مَنْ هُوَ غَيْرُ مَيْسُورٍ؟ وَلَسْتُ تَخِيلِيَّةٌ؛ فَلَا أُرِيدُ أَمِيرًا مُطْلَقًا، وَلَا أَبْحَثُ عَنْ تِلْمَاكَ مُطْلَقًا، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَّا وَهْمًا، وَإِنَّمَا أَنْشَدَ لَهُ شَبِيهًا. وَلِمَ يَتَعَدَّرُ هَذَا الرَّجُلُ مَا دَمْتُ مُوجُودَةً، أَنَا الَّتِي تَشْعُرُ بِقَلْبٍ يَشَابَهُ كَثِيرًا؟ كَلَّا، لَا يَبْغِي أَنْ نَشِينِ الْبَشَرِيَّةَ هَكَذَا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ نَذْهَبَ إِلَى أَنَّ الرَّجُلَ الْفَاضِلَ الْمَحْبُوبَ لَيْسَ إِلَّا وَهْمًا، إِنَّهُ مُوجُودٌ، إِنَّهُ حَيٌّ، وَقَدْ يَكُونُ بَاحِثًا عَنِّي؛ فَهُوَ يَبْحَثُ عَنْ نَفْسٍ تَعْرِفُ أَنَّ تُحِبَّهُ، وَلَكِنْ مَنْ هُوَ؟ وَأَيْنَ هُوَ؟ أَجْهَلُ ذَلِكَ. وَلَا غَرُوبٌ؛ فَهُوَ لَيْسَ مِمَّنْ رَأَيْتَ، وَلَيْسَ وَاحِدًا مِمَّنْ أَرَى. أَقَاهُ! لِمَ جَعَلْتَ الْفَضِيلَةَ مُحِبَّةً إِلَيَّ كَثِيرًا؟ إِذَا كُنْتُ عَاجِزَةً عَنْ حُبِّ غَيْرِهَا، فَالِدُّنْبُ يَقَعُ عَلَيْكَ أَكْثَرَ مِمَّا يَقَعُ عَلَيَّ.»

وَهَلْ أَسْتَوْقُ هَذِهِ الْقِصَّةَ الشَّجِيحَةَ حَتَّى آخِرِهَا؟ وَهَلْ أَذْكَرُ الْمُنَاقَشَاتِ الطَّوِيلَةَ الَّتِي سَبَقَتْهَا؟ وَهَلْ أَعْرِضُ أَمَّا هَلْوَعًا تُعَيِّرُ بِصِرَامَةِ الْطَافِهَا الْأُولَى؟ وَهَلْ أَذُلُّ عَلَيَّ أَبُ غَضُوبٍ نَسِيَّ عَهْوَهُ الْأُولَى مَعَامَلًا أَفْضَلَ الْبِنَاتِ مِثْلَ مَجْنُونَةٍ؟ ثُمَّ هَلْ أَصِفُ الشَّقِيَّةَ الَّتِي صَارَتْ أَكْثَرَ ارْتِبَاطًا فِي وَهْمِهَا بِفِعْلِ الْإِضْطِهَادِ الَّذِي آلَمَهَا مَا شِيَةً إِلَى الْمَوْتِ مَشِيًا وَثِيْدًا، وَنَازَلَتْهُ إِلَى الْقَبْرِ حِينَ يُظَنَّ أَنَّهَا تُجْرُ إِلَى الْهَيْكَلِ؟ كَلَّا، إِنِّي أَبْتَعِدُ عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ السَّيِّئَةِ؛ فَلَا أَحْتَاجُ إِلَى الْمَغَالَاةِ حَتَّى أُبَيِّنَ بِمِثَالٍ بَارِزٍ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ عَلَيَّ مَا يَلُوحُ لِي أَنَّ حَرَارَةَ الصَّلَاحِ وَالْجَمَالَ عَادَتْ لَا تَكُونُ أَكْثَرَ غَرَابَةً عَنِ النِّسَاءِ مِمَّا عَنِ الرِّجَالِ، وَأَنَّهُ لَا يُوجَدُ بِتَوْجِيهِ مِنَ الطَّبِيعَةِ مَا لَا يُسْتَطَاعُ نَيْلُهُ مِنَّا وَمِنْهَنَّا، وَذَلِكَ عَلَيَّ الرَّغْمِ مِنَ الْمُتَبَسَّرَاتِ الَّتِي تَنْشَأُ عَنِ طِبَاعِ الْعَصْرِ.

وَأَوْقَفُ هُنَا لِيَسْأَلَ مِنِّي عَنِ كَوْنِ الطَّبِيعَةِ هِيَ الَّتِي تَفْرِضُ عَلَيْنَا أَنْ نُعَانِيَ كَثِيرًا مِنَ الْمَتَاعِبِ لِزَجْرِ الرِّغَائِبِ الْجَامِحَةِ، فَأَجِيبُ بِالنَّفْيِ، وَلَكِنِّي أَقُولُ إِنَّ الطَّبِيعَةَ أَيْضًا لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي تُعْطِينَا كَثِيرًا مِنَ الرِّغَائِبِ الْجَامِحَةِ مُطْلَقًا، وَالْوَاقِعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَيْسَ مِنَ الطَّبِيعَةِ مُخَالَفٌ لَهَا، وَقَدْ أَثَبْتُ هَذَا أَلْفَ مَرَّةٍ.

وَلْتُرَدِّ صُوفِيَّةٌ إِلَى إِمِيلٍ، وَلْتَبْعَثْ هَذِهِ الْبِنَةَ الْمَحْبُوبَةَ لِتُوحِي إِلَيْهَا بِخِيَالٍ أَقْلًا شَدِيدَةً وَبِنَصِيْبٍ أَكْثَرَ سَعَادَةً، وَقَدْ أَرَدْتُ وَصَفَ امْرَأَةٍ مَأْلُوفَةٍ، وَقَدْ بَلَّيْتُ عَقْلَهَا مِنْ حَيْثُ رَفَعُ رُوحَهَا، فَضَلَّلْتُ، فَدَعْنَا نَعُوذُ إِلَى خَطَانَا؛ فَلَيْسَ لَدَى صُوفِيَّةٍ غَيْرِ طَبَعٍ صَالِحٍ فِي رُوحٍ مَعْرُوفٍ، وَكُلُّ مَا لَدَيْهَا أَكْثَرَ مِمَّا عِنْدَ النِّسَاءِ الْآخَرِ هُوَ أَثَرُ تَرْبِيَّتِهَا.

•••

لَقَدْ نَوَيْتُ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَنْ أَقُولَ كُلَّ مَا يُمَكِّنُ عَمَلَهُ، تَارِكًا لِكُلِّ وَاحِدٍ اخْتِيَارَ مَا هُوَ فِي مِتَابُولِهِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي اسْتَطَعْتُ أَنْ أَقُولَ عَنْهَا خَيْرًا. وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْذُ الْبُدَاءَةِ أَنَّ أَكْثَرَ قَرِينَةٍ

إميل وأن أنشئ كلاً منهما للآخر ومع الآخر، ولكنني حين فكّرتُ في ذلك وجدتُ أن جميع هذه التدابير التي تُتخذ قبل الأوان عادمة الفطنة، وأن مما يخالف الصواب إعداد ولدين للاقتران قبل أن يكون من الممكن معرفة ملاءمة هذا الزواج لنظام الطبيعة أو لا، وهل يكون بينهما من المصاحبات ما يناسب تكوين هذا الزواج أو لا، ولا يجوز أن يُخلط بين ما هو ملائم للحال الوحشية وما هو ملائم للحال المدنية؛ ففي الحال الأولى يلائم جميع النساء جميع الرجال، وذلك لما لا يزال يكون بين هذين الفريقين من طُور ابتدائي مشترك فقط. وفي الحال الثانية حيث ينمو كلُّ طبع بالنظم الاجتماعية، وحيث ينال كلُّ ذهن طوره الخاص المُعين بتعاون الطبيعي والتربية تعاوناً حسن الترتيب أو سئ التنظيم، لا من التربية وحدها، عاد لا يمكن جمع ما بينهما قبل تقديم كلِّ منهما إلى الآخر ليرى هل يتوافقان من كلِّ ناحية أو أنهما يلتزمان اختياراً يتضمنن معظم هذه الموافقات.

والسوء في أن الحياة الاجتماعية، إذ تُنمي الطباع، تميز بين الطبقات، وأن كلاً من الفريقين إذ لا يُشابه الآخر مُطلقاً يُخلط بين الطباع كلاً ما فرّق بين الطبقات، وهذا هو مصدرُ الزوجات غير المتجانسة ومصدرُ جميع ما ينشأ عنها من ارتباكات. ومن ثم يُرى كنتيجة جلية أنه كلما ابتعد عن المساواة فسدت المشاعر، وأنه كلما زادت المسافة بين الكبراء والصغار فترت العلاقة الزوجية، وأنه كلما وُجد أغنياء وفقراء قلَّ وجود الآباء والزوجات، وقد عاد لا يكون للسادة والعبيد أسرة، فلا يرى كلُّ منهما غير طبقته.

وإذا أردتم أن تحولوا دون سوء الاستعمال، وأن تنتهوا إلى زواج مؤقّعة، فاقضوا على المُبَسَّرات وانسوا النظم البشرية، وشارروا الطبيعة، ولا تجمّعوا بالزواج بين أناس لا يتوافقون إلا وفق شرط معلوم، فإذا تغير هذا الشرط عادوا لا يتوافقون، وإنما زاوجوا بين أناس يتوافقون في أيِّ وضع يكونون فيه وفي أي بلد يقيمون به ومن أية طبقة يُمكن أن يكونوا. ولا أقول بعدم الاكتراث للمصاحبات التقليدية في الزواج، وإنما أقول إن تأثير المصاحبات الملائمة للطبيعة هو من عظم الأهمية ما يُقرّر وحده مصير الحياة، وإنه يُوجد من توافق الأذواق والمشارب والمشاعر والطباع ما يجب أن يحفز الأب العاقل، ولو كان أميراً أو ملكاً، إلى تزويج ابنه من غير تردّد، بابتنة تجمعه بها جميع الموافقات، ولو كانت هذه البنت قد وُلدت في أسرة قبيحة، ولو كانت ابنة جلاّد. أجل، إنني أذهب إلى أن جميع ما لا يتصوّر من المصائب لو صبَّ على زوجين حسني الاقتران لوجدوا ببيكاهما معاً من السعادة ما لا يُخوّزانه بجميع أموال الأرض المُسمّمة باختلاف القلوب.

ولذا، فإنني انتظرتُ معرفةَ الزوجة التي تلائم إميلَ بدلاً من إعدادها له منذ الطفولة، والطبيعة، لا أنا، هي التي قامت بهذا الإعداد، ويقومُ عملي على لقاء هذا الاختيار الذي أتاه. وأقول عملي لا عمل الأب؛ وذلك لأنه بتفويضه إليّ أمرَ ولده يكون قد تنزّل لي عن مكانه، فأقام حقّي مقامَ حقّه؛ فأنا أبو إميل الحقيقي، وأنا الذي جعله رجلاً، وقد كُنْتُ أرفضُ تنشئته لو لم أَعُدُ مسيطراً على أمرِ تزويجه وفَقَّ خياره، أي خيارِي، ولا أجدُ غيرَ لَدّةِ صُنعي رجلاً سعيداً ما يمكن أن يُعَدَّ أجراً على عملي.

ولكن لا تظنّوا كذلك أنني قصدتُ كما أجدُ زوجةً لإميل أن أُلقي عليه واجبَ البحث عنها، وليس هذا البحثُ المصنوعُ غيرَ ذريعةٍ لجعله عارفاً بالنساء حتى يشعرَ بقيمة التي تلاثمه. أجل، إن صوفيةً وُجِدَتْ منذ زمن طويل، ومن المحتمل أن يكون إميلُ قد رآها، ولكنه لن يُعرِفها قبل الوقت المناسب.

ومع أن تساوي الأحوال غيرُ ضروري للزواج، فإن هذه المساواة إذا ما ضُمَّت إلى الموافقات الأخرى منحتها قيمةً جديدة، وهي وإن لم تدخُل في الميزان مع أية موافقةٍ أخرى تُمِيلُه عند تساوي الجميع.

والرجل، ما لم يكن مَلِكًا، لا يستطيع أن يبحث عن المرأة في جميع الطبقات؛ وذلك لأن ما ليس عنده من مُبتَسرات يجده عند الآخرين، ومن المحتمل أن يجد البنت التي تلاثمه، فلا ينالها لتلك العلة؛ ولذا يوجد للحذر مبادئ يجب أن تُحدّد بها مباحثُ الأب الحصيف. ولا ينبغي لهذا الأب أن يُريدَ منحَ تلميذه زواجًا فوقَ طبقته مُطلقًا؛ فهذا أمرٌ لا يدخل ضمن نطاق قدرته، وهو إذا ما استطاعه لا ينبغي له أن يريده أيضًا، وإلا فما أهمية الطبقة لدى الشاب، ولا سيّما شابّي؟ ومع ذلك، فإنه إذا ما صعد عَرَضَ نفسه لألفِ بلاءٍ حقيقيٍّ يشعرُ به مدى حياته، حتى إنني أقول إنه لا ينبغي له أن يُريدَ الموازنة بين أمورٍ مختلفةٍ طبيعياً كالشرف والثراء مثلاً؛ وذلك لأن كلاً منهما ينتقص قيمة الآخر بما لا يقبلُ تعديلاً، فضلاً عن أنه لا يُتَّفَقُ على تقديرٍ شامل، والخلاصة أن ما يَمُنحُ كلٌّ منهما رأسماله من تفضيلٍ يُعَدُّ شقاً بين الأُسرتين، وبين الزوجين غالباً.

ثم إن هنالك اختلافَ اعتبارٍ في نظام الزواج من حيث اقتران الرجل بمن فوقه أو بمن تحته؛ فأما الحال الأولى فمخالفةٌ للعقل تماماً، وأما الحال الثانية فأكثرُ ملاءمةً له. وبما أن الأسرة لا ترتبط في المجتمع إلا برئيسها، فإن مقام هذا الرئيس هو الناظم لمقامها بأُسره، فإذا ما

اقترن من مرتبة دون مرتبته فإنه لا يهبط مطلقاً، وإنما يرفع زوجه. وعلى العكس، إذا ما تزوج امرأة تعلقه مرتبة فإنه يخفضها من غير أن يرفعها، وهكذا فإنه يوجد في الحال الأولى خير بلا شر، ويوجد في الحال الثانية شر بلا خير. وفضلاً عن ذلك، فإن من نظام الطبيعة أن تطيع المرأة الرجل؛ ولذا فإنه إذا ما أخذها من طبقة دون طبقتها توافقت النظام الطبيعي والنظام المدني، وسار كل شيء على ما يُرام، وعكس هذا ما يقع إذا ما اقترن الرجل بمن هي من طبقة تعلقه، وذلك أنه يكون بين امرين: بين حق له مُتَقَلِّص أو سُكْرانٍ منه ناقص، وبين جُحُودٍ منه أو ازدراءٍ له، وهنالك تدعى المرأة السلطان فتعدو طاغية رئيسها، وهنالك يكون سيدها الذي صار عبداً ادعى الناس إلى السخرية وأكثرهم بؤساً، وهذا هو حال المُقْرَبِينَ التُّعَسَاء الذين يُكرِّمهم ملوك آسية ويؤذونهم في زواجهم، والذين لا يجرون عند النوم مع نساءهم أن يدخلوا السرير إلا من رجله.

وأتوقع أن يتهمني كثير من القراء بأنني أناقض نفسي هنا حين يذكرون أنني أحمو المرأة بموهبة طبيعية تُسيطر بها على الرجل، ومع ذلك فهم مخطئون؛ فيوجد فرق كبير بين الادعاء بحق الأمر والسيطرة على من يأمر، وذلك أن سلطان المرأة سلطان رفقٍ وهدوءٍ وملاطفة، وأن أوامر المرأة مُلامساتٌ وأن تهديداتها عِبَرَات، وعلى المرأة أن تحكم في المنزل كما يحكم الوزير في الدولة، وذلك أن تُحْمَل على صنْع ما تريد، ومن الثابت في هذه الناحية أن أحسن تدبير منزلي هو ما يكون للمرأة فيه أعظم سلطان، ولكنها إذا ما أنكرت صوت الرئيس وأرادت غضب حقوقه وانتحال القيادة لنفسها لم ينشأ عن هذا الاختلال غير الشقاء والعار والشنار.

وقد بقي أمر اختياره ممن هن مساويات له أو ممن هن ذواته، وأظن أنه لا يزال يوجد من القيود ما يجب أن يُؤتى حوله هؤلاء الأخيرات؛ وذلك لأن من الصعب أن تُوجد في الطبقة الدنيا زوجة قادرة على جعل الرجل الصالح سعيداً، وليس سبب هذا كون العيب في الطبقات الدنيا أكثر مما في الطبقات العليا، بل لأنه يُساور هذه الطبقة قليل فكرٍ حول ما هو صالح جميل، ولأن جور الطبقات الأخرى أدى إلى عدو الطبقة الدنيا ما هي عليه من عيوب عدلاً.

ومن الطبيعي ألا يفكر الرجل مطلقاً؛ فالتفكير فنٌ يتعلمه كجميع الفنون الأخرى، وهو فنٌ يتعلمه بأصعب مما يتعلم الفنون الأخرى، ولا أعرف للجنسين غير طبقتين مختلفتين: فأما إحداهما فمؤلفة من أناسٍ مفكرين، وأما الأخرى فمؤلفة من أناسٍ لا يفكرون مطلقاً، وينشأ هذا الاختلاف عن التربية حصراً تقريباً. ولا ينبغي للرجل من أولى هاتين الطبقتين أن يُصاهر في الأخرى مطلقاً؛ وذلك لأن أكبر فتون في المجتمع يُعوز مجتمعه إذا ما قُصر بزواجه على التفكير وحده، ولا يكون عند من

يَقْضُونَ الحَيَاةَ بِأَكْمَلِهَا فِضَاءً تَامًا فِي العَمَلِ مِنْ أَجْلِ المَعِيشَةِ فِكْرَةً أُخْرَى غَيْرَ فِكْرَةِ عَمَلِهِمْ أَوْ مَصْلَحَتِهِمْ، فَيَلُوحُ أَنَّ ذَهَنَهُمْ مُسْتَقَرٌّ بِطَرَفِ دُرْعَانِهِمْ. وَليْسَ هَذَا الجَهْلُ بِضَائِرِ صِلَاحِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، حَتَّى إِنَّهُ يَكُونُ نَافِعًا لِهَما غَالِبًا. وَمِمَّا يَقَعُ فِي الغَالِبِ أَنَّ نَكْتَفِي بِوَأجِبَاتِنَا عِنْدَ تَأْمُنِنَا فِيهَا، فَنَضَعُ مَوْضِعَ الأَشْيَاءِ رِطَانَةً فِي نَهَايَةِ الأَمْرِ. وَالشَّعُورُ أَكْثَرُ مَا أَلْقَى الفِلاسِفَةُ عَلَيْهِ نُورًا، وَلا نَحْتَاجُ إِلَى الإِطْلَاعِ عَلَى «وَأجِبَاتِ» شَيْشِرُونَ حَتَّى نَكُونَ أَهْلَ خَيْرٍ. وَقَدْ تَكُونُ أَصْلُحُ نِسَاءِ العَالِمِ أَقْلَ النَّاسِ عِلْمًا بِمَعْنَى الصِّلَاحِ، وَلَكِنْ لَيْسَ أَقْلًا مِنْ هَذَا حَقِيقَةً كَوْنُ الذَّهْنِ المُتَّصِفِ وَحْدَهُ يَجْعَلُ المَعاشِرَةَ أَمْرًا مُسْتَحَبًّا. وَمِنَ الأُمُورِ المُؤَسَّفَةِ أَنْ يُضْطَرَّ رَبُّ الأُسْرَةِ الَّذِي يُسَرُّ فِي مَنْزِلِهِ أَنْ يَنْطَوِي عَلَى نَفْسِهِ، فَلا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ مُدْرَكًا مِنْ قَبْلِ أَحَدٍ فِيهِ.

ثُمَّ كَيْفَ تُرَبِّي المَرَأَةَ الَّتِي لَمْ تَتَعَوَّدِ التَّفَكِيرَ قَطُّ أَوْلَادِهَا؟ وَكَيْفَ تَمَيِّزُ مَا يَلِائِمُهُمْ؟ وَكَيْفَ تُعَدِّمُ لِلضَّائِلِ الَّتِي لا تُعْرِفُهَا وَلِلْمَرَايَا الَّتِي لا يَسَاوِرُهَا أَيُّ فِكْرٍ عَنْهَا؟ لَنْ تُعْرِفَ غَيْرَ مَدَارَاتِهِمْ أَوْ تَهْدِيدِهِمْ، وَغَيْرَ جَعْلِهِمْ سُفْهَاءَ أَوْ جُبْنَاءَ، وَسَتَجْعَلُ مِنْهُمْ قِرْدَةً مُتَصَنَّعِينَ أَوْ فَجْرَةً طَائِشِينَ، لا أَوْلَادًا أَذْكَيَاءَ أَوْ مَحْبُوبِينَ.

وَلِذَا لا يَلِائِمُ الرِّجْلَ الَّذِي تَلَقَّى تَرْبِيَةً أَنْ يَخْتَارَ زَوْجَةً لَمْ تَنْلُهَا مُطْلَقًا، وَمِنْ ثَمَّ أَنْ يَأْخُذَهَا مِنْ طَبَقَةٍ لا يُمَكِّنُ تَلَقِّيَهَا فِيهَا، وَلَكِنِّي أَفْضَلُ مِائَةَ مَرَّةٍ فِتْنَةً بَسِيطَةً ذَاتَ تَنْشَعَةٍ خَشِنَةٍ عَلَى فِتْنَةِ عَالِمَةٍ أَرِيبَةٍ تَأْتِي لِتَقِيمَ فِي مَنْزِلِي مَحْكَمَةً آدَابٍ تَحْتَ رِئَاسَتِهَا؛ فَالْمَرَأَةُ الأَرِيبَةُ تَكُونُ أَفْءَ زَوْجِهَا وَأَوْلَادِهَا وَأَصْدِقَاتِهَا وَخَدَمِهَا وَجَمِيعِ النَّاسِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ مِنْ نَبُوغٍ رَفِيعٍ يُوْدِي إِلَى اسْتِهَانَتِهَا بِوَأجِبَاتِ المَرَأَةِ، فَتَحَاوِلُ أَنْ تَنْتَحِلَ دَائِمًا طُورَ الرِّجْلِ عَلَى غِرَارِ الأَنْسَةِ ذَوْلُكَلُوهَا، وَهِيَ فِي خَارِجِ مَنْزِلِهَا تَكُونُ مَثِيرَةً لِلسُّخْرِيَةِ دَائِمًا، غُرْضَةً لِلنَّقْدِ بِانصَافٍ، شَأْنُ الرِّجْلِ الَّذِي يَلَاقِي ذَلِكَ عِنْدَمَا يَهْجُرُ حَالَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ أَهْلًا لِلحَالِ الَّتِي يَرِيدُ اتِّخَاذَهَا، وَمَا كَانَ جَمِيعُ هؤُلاءِ النِّسَاءِ مِنْ ذَوَاتِ النِّبُوغِ الكَبِيرِ لِيُؤْمَوْنَ عَلَى غَيْرِ الأَغْيَاءِ، وَتَعْرِفُ دَائِمًا مَنْ هُوَ المَتَفَنِّنُ أَوْ الصَّدِيقُ الَّذِي يُمَسِّكُ القَلَمَ أَوْ الرِّيشَةَ حِينَما يَشْتَغِلُنَّ، وَتَعْرِفُ مَنْ هُوَ رِجْلُ الأَدَبِ الكَثُومِ الَّذِي يُمْلِي عَلَيْهِنَّ آيَاتِهِنَّ؛ فَجَمِيعُ هَذَا الخِدَاعِ غَيْرُ جَدِيدٍ بِالمَرَأَةِ الصَّالِحَةِ، وَمَتَى كَانَتِ المَرَأَةُ ذَاتَ نَبُوغٍ صَادِقٍ أَدَّى ادِّعَاؤَهَا إِلَى إِزْدَالِهَا، وَيَقُومُ شَرْفُهَا عَلَى كَوْنِهَا مَجْهُولَةً، وَيَقُومُ مَجْدُهَا عَلَى تَقْدِيرِ زَوْجِهَا، وَيَقُومُ سُرُورُهَا عَلَى سَعَادَةِ أُسْرَتِهَا. فِيا أَيُّهَا القَرَاءُ، إِنِّي أَحْتَكِمُ إِلَيْكُمْ، فَاجِيبُوا عَن سؤَالِي الآتِي بِإِخْلَاصٍ، وَهُوَ: أَيُّ الأَمْرَيْنِ يُوْحِي إِلَيْكُمْ بِأَحْسَنِ رَأْيٍ عَنِ المَرَأَةِ إِذَا ما دَخَلْتُمْ غُرْفَتِهَا، وَأَيُّ الأَمْرَيْنِ يَحْمِلُكُمْ عَلَى مَقَابَلَتِهَا بِأكْبَرِ احْتِرَامٍ: أَنْ تَرُوهَا قَائِمَةً بِأَعْمَالِ جِنْسِهَا وَبِتَدْبِيرِ أُمُورِ مَنْزِلِهَا

محاطةً بنشاب أولادها، أو أن تجدوها تكتب أشعارًا عن زينتها محاطةً بأنواع الكرايس وبرقاعٍ صغيرةٍ من جميع الألوان؟ إن كلَّ بنتٍ أديبةٍ تبقى بنتًا مدى حياتها إذا لم يوجد على الأرض غيرُ العقلاء من الرجال.

«تسألين، يا غُلا، عن السبب»

«في عدم زواجي بك؛ فأنت»

«مدققةٌ في اللغة كثيرًا..»

ويأتي باعثُ الوجهِ بعد تلك البواعث، وهو أوَّل ما يَقِفُ النظرُ، وهو آخرُ ما يجب أن يكون، ولكن مع عدم الذهاب إلى عدّه شيئًا غيرَ مذكور. ويلوح لي في الزواج أن اجتنابَ الجمالِ الباهرِ أفضلُ من نَشْدانِه؛ فالجمالُ يُتَذَلُّ سريعًا بالحيازة. فإذا ما مرّت سنةٌ أسابيعٍ عاد لا يُعَدُّ شيئًا عند الحائز، ولكنَّ أخطاره تدوم بدوامه، ويكون زوج الحسناء أشقى الرجال ما لم تكن هذه الحسناء من الملائكة، وهي إذا ما كانت من الملائكة فكيف تحوّل دون إحاطتها بالأعداء بلا انقطاع؟ وإذا لم يُورثَ أقصى البَشعِ نفورًا فإنني أفضّله على أقصى الجمال؛ وذلك لأن هذا وذاك إذ يكونان في حُكم العَدَمِ لدى الزوج بعد زمنٍ قليل، فإن الجمال يصير عُسرًا والبَشعُ يصير يُسرًا، ولكن البَشعُ الذي يُوَدِّي إلى النفور هو أعظم المصائب، ومن البعيد أن يزول هذا الحس، وهو يزيد بلا انقطاع، ويتحوّل إلى بغضاء، ويكون مثل هذا الزواج جحيمًا؛ فالموت خيرٌ من القران في مثل هذه الحال.

واطلبوا الاعتدالَ في كلِّ حال، ولا تَسْتَشْنُوا منه حتى الجمال، والوجهُ الوضيءُ المقبولُ الذي لا يوحى بالغرام، بل يوحى بحسن الالتفات، هو ما يجب أن يُفَضَّلَ، فلا خطرٌ منه على الزوج، ويتحوّل خيره إلى نفع الزوجين، ولا تَبْلَى الألفافُ كما يَبْلَى الجمال، وهي ذاتُ حياة، وهي تتجدّد بلا انقطاع، وإذا ما مضى عشرون عامًا على الزواج راقّت المرأةُ الصالحةُ زوجها بالطافها كما راقته في اليوم الأوّل من قرانهما.

وهذه هي التأمّلات التي جعلتني أعزِمُ على اختيار صوفية، وهي إذ كانت تلميذة الطبيعة كإميلٍ فقد كُوِّنت له أكثرُ من أية واحدةٍ أخرى، وهي ستكون امرأة الرجل، وهي مساويةٌ له مولدًا ومزينة، وهي أقلُّ منه نصيبًا، وهي لا تَفْتِنُ أوّل وهلة، وهي تقع موقع الرضا كلَّ يومٍ أكثرَ من قبل، ولا يُوَثِّرُ فُتُونُها الأكبرُ إلا بالتدرّج، ولا يَظْهَرُ هذا الفُتون إلا عند الاجتماع القائم على الصداقة،

وسيشعر زوجها بهذا أكثر من جميع الناس. وليست تربيئها ساطعة ولا مُهملة، ولها ذوق بلا درس، ومواهب بلا فن، وحكم بلا معارف، وذهنها خالٍ من العلم، ولكنه هُذَّب ليتعلم، وهذه هي أرضٌ أُعدت جيِّداً، فلا تنتظر غير الحب لِتُغَلَّ، وهي لم تقرأ غير كتاب بَرِّيم، وكتاب تيلماك الذي وقع في يدها مصادفة، ولكن هل يكون لدى البنت التي تُولع بتيلماك قلبٌ بلا إحساسٍ وذهنٌ بلا رِقَّة؟ فيا للجهل المحبوب! طوبى لمن قُدِّر له أن يُعلِّمها! لن تكون مُعلِّمة زوجها مطلقاً، بل تلميذه، وهي ستتحل أذواقه بدلاً من إخضاعه لأذواقها، وهي ستكون عنده أفضل مما لو كانت عالمة، وسيطيب له أن يُعلِّمها كلَّ شيء، وأخيراً حان وقتُ تعارفهما، فلنقرب بينهما.

ونغادرُ باريسَ جزَّاناً غارقين في الأوهام؛ فليس مكانُ الهذَرِ هذا مركزاً لنا، ويُلقني إميلُ نظرةً ازدراءً على هذه المدينة العظيمة، ويقول غاضباً: «يا للوقت الذي أضعناه في البحث على غير جدوى! ويا! ليست هنالك زوجةٌ فؤادي، أي صديقي، أنت كنت تعرفُ باريسَ، ولكن لا قيمةً لوقتي عندك مطلقاً، ولست بالذي يَألم لآلامي.» وأحدقُ إليه، وأقول له بصوت ثابت: «أتعني ما تقول يا إميل؟» وهنالك يعانقني من فوره حَجْلاً ويضمُّني إلى صدره بلا جواب، وهذا هو جوابه في كلِّ وقتٍ إذا كان مخطئاً.

والآن نجوبُ الحقولَ كالفرسان الحقيقيين التائهين، لا كالذين يَنشُدون المغامرات، وقد هربنا منها بمغادرتنا باريسَ، ولكننا في تجوِّابنا نسيرُ سيراً غيرَ متساوٍ على غرار الفرسان التائهين، فنُسرعُ تارةً ونُبطئُ تارةً أخرى. وإنه لما كان من أتباع عادتي اكتسبَ روحها أخيراً، فلا أتصوِّر قارئاً عارفاً يمثلها يفترض نومنا على كرسيٍّ فاخرٍ في عربةٍ بريدٍ مُحَكِّمة الإغلاق، فلا نرى شيئاً أو نلاحظ شيئاً، ولا نشعرُ بالفاصلة بين الذهابِ والوصولِ خاسرين في سرعةٍ سفرنا ما نقتصد من الوقت.

ويقول النَّاسُ إن الحياةَ قصيرة، وأراهم لا يألونُ جهداً في جعلها قصيرة، وذلك أنهم إذ كانوا لا يعرفون كيف يستعملونها فإنهم يتوجَّعون من سرعة الوقت، والوقت ما أرى مروره ببطء كما يريدون، وذلك بما أنهم مُشبعون دائماً من الغرض الذي يميلون إليه، فإنهم يُبصرون قسراً ما يفصلهم عنه من فترة، فيَنظُر أحدهم إلى الغد، ويَنظُر آخرُ إلى الشهر القادم، وينظر ثالثٌ إلى ما بعد عشر سنين، ولا يريد أحدٌ منهم أن يعيش اليوم، ولا يرضى أحدٌ منهم بالساعة الحاضرة، وكلُّ منهم يجدها تمضي بطيئةً جداً. وهم يكذبون حينما يقولون إن الوقت يُمرُّ مسرعاً جداً، وإنما هم يفضِّلون اتباعَ سلطةٍ تعجيله مختارين، وإنما هم يستخدمون ثراءهم مختارين إفناءً لحياتهم كلَّها،

ومن المحتمل أنك لا تجد واحدًا لا يودُّ أن يُحوَّل سِنِيه إلى ساعاتٍ قليلةٍ جدًّا لو كان قادرًا أن يتخلص بطَوَّعه من الساعات المرهقة له، ومن الساعات التي تُفصِّله عن الساعة المنشودة. ومن النَّاس مَنْ يقضي نصفَ حياته في الذهاب من باريس إلى فرَساي، ومن فرَساي إلى باريس، ومن مصر إلى الأرياف، ومن الأرياف إلى مصر، ومن حيِّ إلى آخر، فكان يضيقُ بساعاته دَرْعًا لو لم يكن عنده سِرٌّ إنفاقها على هذا الوجه، وذلك بابتعاده عن أعماله عَمْدًا، حتى يعود باحثًا عنها، وهو يظنُّ أنه يكسب الوقت الذي يُنفقُ في ذلك فلا يعرف ما يصنع لولا ذلك، أو إنه على العكس يطوف للطواف، ويأتي بعربة البريد لا لسببٍ غير الرجوع إلى حيث كان. فيا أيها النَّاس، ألا تكفون عن الافتراء على الطبيعة؟ ولم تألمون من كون الحياة قصيرةً لأنها ليست كما تريدون؟ إذا ما عَرَف أحدكم أن يلزم رعايته بالاعتدال، لكيلا يتمنى انقضاء الوقت مُطلقًا، فإنه لا يعدُّ الوقت قصيرًا مُطلقًا، فتكون الحياة والتمتع أمرًا واحدًا عنده، فلو مات شابًا لم يمت إلا بعد شيعٍ من الأيام.

ولو لم يكن لمنهجي غير تلك المنفعة لوجب تفضيله على كلِّ منهاجٍ آخر. ولم أنشئ إميلًا للرغبة ولا للانتظار قط، بل للتمتع، وهو إذا ما أُجِّلَ رعايته إلى ما بعد الساعة الحاضرة لم يكن هذا قطُّ مع وجود حرارة صائلة فيه كيما يُرْعَج ببطء الوقت؛ فهو لن يتمتع بملاذِّ الرغبة فقط، بل يتمتع أيضًا بلذة الذهاب إلى الغرض الذي يرغب فيه، وهو من اعتدال الأهواء ما يعيش معه في اليوم الذي يكون فيه أكثر من اليوم الذي سيكون فيه.

ولذا فإننا لا نسيخ مثل سعاة، بل مثل رُؤاد، ولا نُفكِّر في الحدين فقط، بل نُفكِّر في الفاصلة بينهما أيضًا، حتى إن الرُّحلة نفسها لذة عندنا، ونحن لا نقوم بالرحلة جالسين جلوس الحزين ومثل السجين في قفص صغيرٍ مُحكَّم الإغلاق، ولا نسيخ في مثل ترف النساء وراحتهن مُطلقًا، ونحن لا نحرم أنفسنا الهواء الطلق، ولا منظر الأشياء التي تحيط بنا، ولا فرصة تأملها كما يطيب لنا. وما كان إميلٌ ليدخلُ عربية، ولا أن يسافر بها ولو كان مُستعجلًا، ولكن أيُّ شيء يستعجل إميل؟ إنه يستعجل شيئًا واحدًا، وهو التمتع بالحياة، وهل أضيف إلى هذا صنُّع الخير ما استطاع إليه سبيلاً؟ كلاً؛ وذلك لأن هذا تمتع بالحياة أيضًا.

ولا أتصوّر غيرَ نَمَطٍ واحدٍ للسياحة أَلطف من ركوب الخيل، وهو السير على الأقدام، وذلك أننا نساfer متى نريد، وأنا نقفُ كما نشاء، وأنا نبذل من العناء ما هو قليلٌ أو كثيرٌ مثلما نهوى، وأنا نشاهدُ جميعَ البلد، ونلتفتُ يُمْنى ويُسرى، وأنا نفحص كلَّ شيءٍ يحلو لنا، وأنا

تَقِفُ عند جميع وجهات النظر، وإذا ما رأيتُ نهرًا سِرْتُ وإياه، وإذا ما رأيتُ غابةً كثيفةً مَشَيْتُ تحت ظلِّها، وإذا ما أبصرتُ مغارةً رُزَّتْها، وإذا ما أبصرتُ مَقْلَعًا بحثتُ عن الجمادات، وفي كلِّ مكانٍ أبقى حيث يَرُوقُني، ثُمَّ أنصرف حينما يعتريني سَأَمٌ، ولا أكون تابعًا لِحُصْنٍ ولا لِحُوذِي، ولا أضطرُّ إلى اختيار الطُّرُق المُعَبَّدة ولا السُّبُل السَّهلة، وأمرٌ من كلِّ مكانٍ يمكن الإنسان أن يَمُرَّ منه. وبما أنني لستُ تابعًا لأحدٍ غير نفسي فإنني أتمتَّع بكلِّ ما يمكن الإنسان أن يتمتَّع به من حرية، وإذا ما وقفتني رداءةُ الجو وسَمْتُ ركبث خيالًا، وإذا ما تَعَبْتُ ... ولكنَّ إميلَ لا يتعبُ مُطلقًا؛ فهو عُصْلِي. ولم يتعب؟ فهو لا يُضغَطُ مُطلقًا، وهو إذا ما وقف فكيف يَسَأَم؟ فهو يحمل في كلِّ مكانٍ ما يتلَّهُ به، وهو يقصد مُعلَّمًا ويشغَل، فيَمَرَّن ذراعيه ليرِيحَ رجليه.

والسَّفَرُ سِيرًا على الأقدام هو مثلُ سَفَرِ تاليسَ وأفلاطونَ وفيثاغورس، ومن الصعب عليَّ أن أدركَ أن الفيلسوف يُمكن أن يُرمَع السفرَ على وجهٍ آخر، فيسلُبُ نفسه درسَ ثرواتٍ يدُوسُها تحت قدميه وتُعْرِضُها الأرضَ على عينيه. ومَن ذا الذي لا يحب الزراعةَ بعضَ الحُبِّ فلا يريد الأطلاغَ على المنتجاتِ الخاصةِ بإقليمِ الأماكنِ التي يجاوزها وطريقةَ زراعتها؟ ومَن ذا الذي يكون على شيءٍ من الميلِ إلى التَّاريخِ الطبيعي، فيُمكن أن يَمُرَّ على أرضٍ من غير أن يدرُسَها، وعلى صخرةٍ من غير أن يَكسِرَ شيئًا من أطرافها، وعلى جبالٍ من غير أن يفحصَ نباتها، وعلى حصياءٍ من غير أن يبحثَ عن مُستَحاثاتٍ بينها؟ ويدرسُ فلاسفةُ الأرزقةِ عندكم التَّاريخَ الطبيعيَّ في عُرفٍ للمطالعة، ولديهم نماذجٌ صغيرة، وهم يعرفون الأسماء، وليس عندهم أيُّ فكرٍ عن الطبيعة، غير أن غرفةَ إميلَ للمطالعة أغنى من عُرفِ الملوك؛ فهي الأرضُ بأسرها، وكلُّ شيءٍ فيها في مكانه، وقد غني العالمُ الطبيعيُّ بترتيب جميع ذلك وَفَقَ نظامٍ متينٍ رائع، وما كان دويتون ليصنع خيرًا من ذلك.

وما أكثرَ ما يُجمَع من ملاءةٍ مُنوعةٍ بهذا التَّمطِ المستحبِّ من السياحة! فالَمِزاجُ يبتهج، دَعِ الصَّحَّةُ التي تتقوى. وممن شاهدتُ دائمةً أولئك الذين يسافرون في عرباتٍ جميلةٍ مُريحةٍ فيبُدون حالمين أو مُكتئبين أو مُهمهمين أو متوجِّعين. وممن شاهدتُ أولئك الذين يسافرون ماشين فيبُدون دائمةً نُشطاءً فرحين راضين بكلِّ شيءٍ، وما أكثرَ ما يَطْرَبُ القلبُ عند الاقترابِ من البيت! وما أكثرَ ما تَظْهَرُ الوجبةُ الغليظةُ لذيذة! ويا للذِّةِ التي تكونُ عند الاستقرارِ حَوْلَ المائدة! ويا للنومِ المستطابِ في سريرٍ رديءٍ! إذا لم يُرْعَبْ في غير الوصولِ أمكَنَ العُدُوَّ بعربةٍ بريد، وإذا ما أريدت الرحلةَ وجب السيرُ مشيًا.

وإذا لم تُنسَ صوفيَّة قَبْلَ قَطْعِنَا خمسين فرسخًا على الوجه الذي أتصوّر وَحَبَّ أن أكونَ فاقِدَ اللَّبَاقَةِ أو أن يكونَ إميلٌ قَليلَ الفُضولِ؛ وذلك لأن من الصعب مع تلك المعارفِ الابتدائيةِ الكثيرةِ ألاَّ يحاولَ نيلَ معارفٍ أكثرَ مما اكتسب، والإنسانُ لا يكونُ ذا فُضولٍ إلاَّ بنسبةٍ ما تَعَلَّم، ولدى إميلٍ من العرفانِ الكافي ما يريد معه أن يتعلَّم.

ومع ذلك، فإن الشيء يسوق إلى شيءٍ آخر، ونحن نتقدَّم دائمًا، وقد جعلتُ لجؤلنا الأولى حدًّا بعيدًا، والدريعةُ سهلة، فلما غادرنا باريسَ وجبَّ البحثُ عن امرأةٍ في مكانٍ قاصٍ.

وقد ضلنا طريقنا بعد بضعةِ أيامٍ قضيناها، زيادةً على العادة، بين الأوديةِ والجبال؛ حيث لا يُرى أيُّ طريقٍ كان، ولا ضيّر؛ فكلُّ طريقٍ صالحٌ بشرطِ الوصول، ولكن لا بُدَّ من بلوغِ مكانٍ ما عند وقوعِ الجوع. ومن حُسْنِ الحظ أن وجدنا فلاحًا أتى بنا إلى كُوخه، فأكلنا بشهوةٍ كبيرةٍ ما قدَّم من غداءٍ هزيل، وقد قال لنا إذ رأنا كثيري التعبِ والجوع: «لو ساقكم الرّبُّ الكريم إلى الناحيةِ الأخرى من التلِّ لقلبتمُ بأحسنٍ مما قُلبتمُ هنا، ولوجدتم منزلًا مُريحًا، وأناسًا كثيري الإحسان، كثيري اللطف! أجل، إنهم ليسوا أطيبَ مني جنانًا، ولكنهم أكثرُ مني غنى، وإن قيل إنهم كانوا في الماضي أفضلَ حالًا، وهم لم يفتقروا والحمد لله، وجميعُ البلدِ يَعْلَمُ ما بقي لهم.»

سمع إميلٌ هذه الكلمة التي تصدُر عن الصالحين فانشرح صدره، وقد قال وهو ينظر إليّ: «لنذهب يا صديقي إلى ذلك المنزل الذي يُبارك لأصحابه جميعِ الجوار، فيسرُّني كثيرًا أن نراهم، وقد يسرُّون بأن يرونا، وإنني لواتقُّ بأنهم يُحسنون قبولنا، وسيلاتمونا كما نلاتمهم.»

ونذهب بعد أن نُدلَّ على الطريقِ جيِّدًا، ونَضِلُّ في الغاب؛ فقد فاجأنا مطرٌ غزيرٌ ونحن سائرين، ويعوقنا المطرُ من غير أن يَقفنا، وأخيرًا نَجِدُ سبيلنا، ونَصِلُ مساءً إلى المنزلِ المُعِين لنا؛ ولهذا المنزلِ الوحيدِ مع البساطةِ بعضُ المنظرِ في الضيعةِ التي تحيط به، وتقدِّمُ أنفسنا، ونطلبُ الضيافة، وتكُلِّفُ بمكالمةِ صاحبِ المنزل، ويسألنا بأدب، ونُخبره بسببِ سلوكنا الطريقِ الأطولِ من غير أن نُبيِّنَ له غرضَ رحلتنا، وكان قد احتفظ من سابقِ يسره بسهولةِ معرفته لحالِ النَّاسِ من خلالِ أوضاعهم. ولا عَجَب؛ فإن من النادر أن يُخدَعَ بها من عاش معاشِرًا للناسِ في مجتمعاتهم، فكان لنا بجواز السفرِ ذاك ما أسفر عن قبولنا.

ونُدلُّ على غُرْفَةٍ صغيرةٍ جدًّا، ولكنها نظيفةٌ مُريحة، وتوقد النار، ونجد فيها بياضاتٍ وثيابًا وكلَّ ما نحتاج إليه، ويقول إميلٌ دهشًا: «ماذا! يظنُّ الإنسانُ أنهم كانوا ينتظروننا! حقًا كان الفلاحُ على حقٍّ! يا للاتباه! يا للصالح! يا للحدَر! حتى نحو الغرياء! أراني في زمنِ أوميرس.»

وأقول له: «يسرني شعورك بجميع هذا، ولكن لا تعجب منه؛ ففي كل مكان ينذر فيه الغرباء يُحسن قبولهم، ولا شيء يجعل الرجل أكثر قري من عدم الاحتياج إلى قراه غالبًا؛ فكثره الضيوف هي التي تقضي على القرى، فالتاس في زمن أوميرس كانوا لا يسافرون مُطلقًا، وهم إذا ما سافروا تُقبلوا قبولًا حسنًا في كل مكان، وقد نكون وحدنا كل من ربي هنا من المسافرين في العام كله.» ويقول إميل: «لا صير، إن من دواعي الفناء أن يُستغنى عن الضيوف وأن يُحسن قبولهم دائمًا.»

ونُجفُف أنفسنا ونقوم ثيابنا، ونذهب للقاء رب البيت، ويُقدّمنا إلى زوجته، وتستقبلنا بأدب ودعة، وتوجه نظراتها إلى إميل، ومن النادر أن ترى أم في مثل حالها دخول شاب بيتها من غير أن يعتربها هم أو فضول على الأقل.

ويُعجل تقديم العشاء إكرامًا لنا، وندخل غرفة الطعام، ونرى خمسة كراسي مُعدّة، ونجلس ويبقى أحد المقاعد خاليًا، وتدخل فتاة، وتحنو رأسها احترامًا، وتجلس جلوس خياء من غير أن تتكلم. ويكون إميل مُفكرًا في جوعه أو في أجوبته، فيسلم عليها ويتكلم ويأكل، ولا يزال غرض رحلته الرئيس بعيدًا من ذهنه يُعدّا يُعتقد معه أنه ناء عن المقصود. ويدور الحديث حول تيهان المسافرين، ويقول رب المنزل لإميل: «يلوح لي أيها السيد أنك فتى لطيف عاقل، ويُذكرني وصولك أنت ومعلمك إلى هنا تعين مُبلّين بتلماك والمرشد في جزيرة كليسو.» ويُجيب إميل بقوله: «حقًا أننا نجد هنا قري كليسو.» ويضيف مرشده إلى هذا القول: «وفتون أوكاريس.» بيد أن إميل يعرف الأوديسة، ولم يقرأ تلماك قط، فلا يعلم شيئًا عن أوكاريس. وأما الفتاة فقد احمر وجهها حتى العينين، وتغض طرفها على الطبق، ولا تكاد تتنفس، وتلاحظ أمها ارتباكها، وتوعز إلى الأب بإشارة فيغير الحديث. وهو إذ يتكلم عن عزلته يأخذ في الحديث من حيث لا يشعر حول الحوادث التي أدت إلى التزامه إياها، وحول ما كان من مصائب حياته، وما كان من ثبات زوجته، وما وجد من سلوان في قرانهما، وما يجدان من حياة خلوة هادئة في عزلتهما، وذلك من غير أن يقول كلمة عن الفتاة. وتتألف من جميع هذا قصة لطيفة مؤثرة لا تُسمع من غير اهتمام، ويهتز إميل ويرق وينقطع عن الطعام ليستمع، ثم لما تكلم ذلك الذي هو أصلح الرجال مُغضبًا عن حب أفضل النساء ساور الفتى المسافر وجد فأمسك يدي الزوج وصافحها وتناول بيده الأخرى يد الزوجة ومال إليها هانجًا مُبللًا إياها بدموعه، ويؤثر الشاب في الجميع بهياجه الساذج، وتكون البنث أكثر من تأثر بهذا الدليل على قلبه الطيب، فتظن أنها تُشاهد تلماك حزينا

على مصائب فيلوكتيت، وتَنْظُرُ إليه خُلْسَةً لنفحصَ وجهه جيِّداً فلا تَجِدُ شيئاً يُكَدِّبُ المقارنة، وتَبِينُ طلاقَهُ وجهه على الحرية بلا عُجْجِيَّة، وتَبِينُ أوضاعه على النشاط بلا طيش، وتجعل حساسيته نظراته أكثرَ عدوياً وتجعلُ سيماءه أكثرَ تأثيراً، وتكاد الفتاة تمزجُ دمعها بدمعه حينما رآته باكياً، ويُمسِكها حياءً خفيٍّ مع وجودِ عُذْرٍ رائعٍ لها إذا ما بَكَت، وقد لامت نفسها على سَكَبِ عِبْرَاتٍ كادت تُفَلِتُ من عينيها كما لو كان ذُرْفُها شَوْماً على آليها.

وتَبْصُرُ أمُّها التي ما فتئت تَرْقُبُها منذ البُداءة كَرْبِها، فَتُفْهِدُها منه بإرسالها للقيام بأمر، وتَمُرُّ دقيقةً فتعود الفتاة، ولكن مع سوءِ شفاءٍ ظهر معه اضطرابها لجميع الأعين، وتقول لها أمُّها برفقٍ: «أَيُّ صوفية، اضبطي نفسك، وكُفِّي عن البكاء على مصائبِ أبويك، ولا تكوني أكثرَ تأثراً منهما حَوْلَ بلايهما وأنت التي تُسْلِيهما عنها.»

ويا ليتكم رأيتم ارتعاشَ إميلٍ عند ذكر اسم صوفية؛ فقد قَرَعَ سَمْعُه هذا الاسمَ العزيزُ كثيراً، وانتبه مرتجفاً، وألقى نظرةً وَلَعٍ على تلك التي تجرؤ على حَمَلِه؛ صوفية! واهّا لصوفية! أنتِ التي ينشُدُها فؤادي؟ أنتِ التي يُحِبُّها قلبي؟ وينظر إليها ويتأملها مع شيء من الهلع والحدَر، ولا يرى الوجْهَ الذي رَسَمَه لنفسه تماماً، ولا يَدْرِي هل الذي يرى يشابهه كثيراً أو قليلاً، وهو يدرُسُ جميعَ ملامحها ويَرْقُبُ كلَّ حركةٍ وإشارةٍ منها، فيجدُ لكلَّ من هذه الأمور ألفَ تفسيرٍ غامض، ويؤدُّ أن يَهَبَ نصفَ حياته لو تنطق بكلمة، وهو يَنْظُرُ إلَيَّ جَزُوعاً مضطرباً، وتُلقي عيناه عليّ مائة سؤالٍ ومائة عتابٍ معاً، فكأنه يقول لي عند كلِّ نظرةٍ: «أرشدني، فلا يزال يوجد وقت، فإذا ما أذعن فؤادي وزَلَّ فلا شفاء لي منه مُطْلَقاً.»

واميلُ أقلُّ مَنْ في العالمِ قدرةً على التنكُّر، وكيف يتنكَّر وقد اعتراه أعظمُ اضطرابٍ في حياته بين أربعة نَظَارٍ يفحصونه، فيكون أكثرُهم تشاغلاً عنه أكثرهم انبهاها إليه بالحقيقة؟ وما كان ارتباكُه ليخفي على عيني صوفية النفاذتين مطلقاً، ومع ذلك فإن عينيهِ تُخبرانها بأنها هي المقصودة، وهي تبصرُ أن هذا الهلع ليس من الحب، ولكن ما أهمية ذلك؟ فهو يَشْغَلُ باله بها، وهذا يكفي. ومن شقائها الشديد أن يَصْرِفَ همَّه إليها بلا عقاب.

وللأمهات عيونٌ كنباتهن فضلاً عن التجربة، وتبتسم أم صوفية لنجاحِ خططنا، وهي تقرأ ما يدور في خَلْدِ الشائين، وهي تبصرُ أن الوقتَ حَلَّ لنبات فؤاد تِلْمَاكِ الجديد، فتحمل ابنتها على الكلام، وتُجِيبُ ابنتها، مع دَعْتِها الفطرية، بصوتٍ يَبِينُ على الحياء فيكون له أبلغ الأثر. ويستسلم إميلُ عند أولِ رَبَّةٍ لهذا الصوت؛ فهذه هي صوفية، ولا يشكُّ في هذا، ولو كان الأمرُ غيرَ هذا لجاء إنكاره متأخراً جداً.

وهنالِكَ يتدفَّقُ فُتُونُ هذه البنتِ الساحرةِ إلى فؤاده كالسَّيْلِ، وهنالِكَ يأخذُ في ابتلاعِ السُّمِّ الذي تُسَكِّرُهُ به على جَرَعاتٍ طويلة، وعاد لا يتكلَّم، وعاد لا يُجيب، وصار لا يرى غيرَ صوفية، وصار لا يسمع غيرَ صوفية، فإذا ما نطقت بكلمةٍ فتح فاه، وإذا ما كسرت من طَرْفِها غَضَّ من طَرْفِها، وإذا ما أبصرها تتأوَّه تأوَّه، فيظهر أن رُوحَ صوفية هو الذي يُحرِّكه. وبألتعيرِ رُوحِها في أويقات! والآن أتى دورُ إميلَ في الارتعاش، لا دورها، والآن وداعًا أيتها الحرية والسداجة وسلامة القلب، وقد عاد لا يُنظَرُ إلى مَنْ حوَّله عن اضطرابٍ وارتباكٍ وجَزَع، وخشية أن يَريَ أنه يُنظَرُ إليه، ويَسْتَحْيِي أن يُنفَذَ إلى سريره فيؤدُّ لو يَخْفَى على جميع النَّاسِ حتى يَشْبَع من تأمُّلِها بإحكامٍ بعيدًا من العيون، وعكسُ هذا حالُ صوفية التي اطمأنت إلى وَجَلِ إميلَ فأبصرتُ نصرَها وسرَّتْ به.

«هي لا تبديه، وإن كانت تُسرُّ به في فؤادها.»

أجل، إنها لم تُغيِّرَ سيمائها، بيَّد أن فؤادها مع هذا الوَضْعِ المتواضِعِ وخفضِ طَرْفِها، يَخْفَى فَرَحًا فيُخَيِّرُها بأن تِلْمَاكَ قد وُجِدَ.

وإذا ما تناولتُ هنا قصةَ هواهما العُدريِّ الساذجِ البسيطِ إلى الغايةِ عُدَّتْ هذه التفاصيلُ من التُّرَهاتِ على غيرِ حق، وذلك أنه لا يُنظَرُ بما فيه الكفاية إلى ما يجب أن يكون لأوَّلِ اتصالِ بين الرجلِ والمرأة من تأثيرٍ في مجرى حياةٍ كُلِّ منهما، ولا يُرى أنه يكون للانطباعِ الأوَّلِ القويِّ، كانطباعِ الحُبِّ أو الميلِ الذي يقوم مقامُ الحُبِّ، من التأثيرِ الطويلِ ما لا يُبصرُ معه تسلسله بمرورِ السنينِ مُطلقًا، ولكنه لا يَنقُطُ عن العملِ حتى الموت. ويُعرضُ علينا في كتبِ التربيةِ حَشْوٌ كبيرٌ غيرُ مُجدِّ، وقائمٌ على الحذَلقة، حوَّلَ واجباتِ الأولادِ الوهمية، فلا تُدَكِّرُ لنا كلمةً فيها عن أهمِّ أقسامِ التربيةِ وأصعبها، أي عن أزيمة الانتقالِ من دَوْرِ الوُلُوديةِ إلى دَوْرِ الرجولة. وإذا كنتُ قد استطعتُ أن أجعلَ موضوعاتي مفيدةً فذلك لتوسُّعي في هذا القسمِ الأساسيِّ الذي أهمله الآخرون، ولأنني لم أرتدَّ عن عملي بالدقائقِ الزائفةِ ولا بمصاعبِ التعبيرِ، وإذا كنتُ قد قلتُ ما يجبُ أن يُصنَعُ فإنني قلتُ ما وَجَبَ عليَّ أن أقول، ولا يُهْمُنِي أن أكتبَ روايةً إلا قليلاً، وتعدُّ روايةُ الطبيعةِ البشريةِ رائعة، وهل يقَعُ الذنبُ عليَّ إذا لم تُوجَدَ في غيرِ هذا الكتاب؟ ويجب أن تكونَ هذه قصةً نوعي، وأنتم إذ تُفسِدون هذا النوعَ تجعلون من كتابي رواية.

ويُوجدُ باعثٌ آخرٌ يؤيِّدُ الأوَّلَ، وذلك أن الأمرَ هنا لا يدورُ حوَّلَ فتى أُسْلِمَ منذ دَوْرِ الطفولةِ إلى الخوفِ والطمعِ والحسدِ والرَّهْوِ وجميعِ الأهواءِ التي تصلحُ أن تكونَ وسائلَ للتربياتِ الشائعة،

وإنما يدور حول فتى يساوره هنا أوّل حُبّ فضلاً عن أوّل هوى من كلّ نوع، ويتوقّف آخر طوّر
يكتسبه طبعه على هذا الهوى الوحيد الذي سيشعر به شعوراً قوياً ما دام حياً على ما يحتمل،
وستنال طررُ تفكيره ومشاعره وأذواقه، الراسخة بهوى دائم، ثباتاً لا يدع لها مجالاً تفسد فيه.

ويُدرك أن الليلة التي تعقب مثل تلك السهرة لا تُقضى كلها في النوم من قبلي وقيل
إميل، وهل يُوجب توافق الاسم وحده مثل ذلك التأثير في رجل عاقل؟ ألا يوجد غير صوفية
واحدة في العالم؟ وهل يتشابه جميعهن روحاً واسماً؟ وهل كل صوفية يراها هي صوفيته؟ وهل
بلغ من الجنون ما يولع معه بمجهولة لم يكلمها قط؟ انتظر أيها الرجل وافحص، ولاحظ، حتى
إنك لا تعرف من هو مُضيقك، ومن يسمعك يظن أنك في منزلك.

وليس هذا وقت الدروس، ولم توضع هذه الدروس لتسمع، وهي لا تصنع غير إثارته لدى
الفتى رغبة جديدة في صوفية تسويغاً لميله إليها، ولم يؤد هذا التوافق في الأسماء وهذا اللقاء
الذي يعتقد وقوعه اتفاقاً، حتى تحفظي، إلى غير تحريك حمياته، وقد بدت صوفية له من جدارتها
بالتقدير البالغ ما شعر معه باستطاعته أن يحببها إليّ.

وفي الصباح ساورني شك في محاولة إميل أن يجعل نفسه زاهياً بتياب رحلته الرديئة، ولم
يُعوزه الأمر، ولكنني صحتك من اكتفائه بتياب المنزل، وأنفد في أفكاره، وأقرأ فيها مسروراً
محاولته القيام بمبادلات حين إعداده وسائل للإعادة، وإقامته صرّاً من المراسلة يجعل له حقاً في
الردّ والعود إلى هنالك.

وقد انتظرت أن أجد صوفية أحسن لباساً من ناحيتها أيضاً، فكنت مخطئاً في ذلك،
وذلك أن الدلال المبتدل صالح لمن يُردن الوقوع موقع الرضا، وأما دلال الحب الحقيقي فأكثر
دقة، وهو ذو مزاعم كثيرة أخرى، وبدت صوفية أبسط ثياباً مما كانت عليه عشية، حتى إنها
ظهرت أكثر تهاوناً مع نظافة بالغة دائماً، ولا أرى دلالاً في هذا التهاون إلا لأنني أرى فيه تظاهراً.
أجل، إن صوفية تعرف جيداً أن الإفراط في الزينة ينطوي على تصريح، ولكنها لا تعرف أن
التهاون بالزينة ينطوي على تصريح آخر، وهي تدل على أنه لا يُكتفى في الرّوقان بحسن الثياب،
بل يُوقّع بالشخص موقع الرضا، والآن ما أرب العاشق بتيابها إذا ما رأى أنها تُفكر فيه؟ وتطمئن
صوفية إلى سلطانها على إميل فلا تقتصر على وقف عينيه بفتونها إذا لم يبحث فؤاده عن هذا
الفتون، وقد عادت لا تكتفي بأن يلحظ هذا الفتون، وإنما تريد أن يفترضه، أو لم يبصر منه ما فيه
الكفاية حتى يضطر إلى التنبؤ بالبقية؟

ويُظنُّ أن صُوفيةَ وأمَّها لم تَبْقيا صامتين في أثناء حديثنا في تلك الليلة؛ فهناك اعترافات قد نُزِعَتْ وأوامرُ قد صدرت، وفي الغد يُحسَنُ إعدادُ الاجتماع، ومنذ اثنتي عشرة ساعة لم يجتمع الفتيان، ولم يُكلِّم أحدهما الآخرَ بكلمةٍ حتى الآن، وكان قد رُئي توافقهما، وليس تقابلهما مألوفاً؛ فهو مشوبٌ بالحياء والارتباك، ولا ينطقان مطلقاً، ويظهر أن عينيَّ كلَّ منهما مُجانبين لعيني الآخر، حتى إن هذا دليلٌ على التفاهم. أجل، ذاك تجانبٌ، ولكن مع اتفاق. ويشعران بحاجةٍ إلى الكتمان قبل قولهما كلمة، ولما انصرفنا طلبنا أن يُؤدِّنا لنا في العود بأنفسنا لإعادة ما نأخذ معنا، ويطلبُ إميلُ هذا الإذن من الأب والأمِّ بقمه، على حين كانت عيناه الجزوعان موجهتين إلى الفتاة طالبتين منها بالتحاح، ولا تنطق صوفيةً بكلمة، ولا تأتي بإشارة، ولا تظهرُ أنها ترى شيئاً أو تسمع قولاً، ولكنها تحمُرُ خجلاً، وهذا الحياءُ جوابٌ أوضح من جواب الأبوبين.

ويُسمَحُ لنا بالرجوع من غير أن نُدعى إلى البقاء، وهذا سلوكٌ ملائم، فإذا أذن للمسافرين الذين دهمهم الظلام في المباتِ فإن من غير اللائق أن ينام عاشقٌ في بيت خليلته.

ولم نكدُ نغادرُ هذا المنزلَ العزيزَ حتى رأى إميلُ أن نقيمَ بالجوار، ويلوِّحُ له أن أقربَ منزلَ بعيداً، فودَّ لو ينامُ في خندقِ القصر، فأقولُ له عاطفاً: «أيها الفتى الطائش! ماذا! هل أعماك الهوى؟ أراك لا تُراعي اللياقةَ والعقل! يا لك من تعس! تعتقد أنك تُحبُّ ثم تُريدُ فضحَ خليلتك! ما يُقال عنها إذا عُلمَ أن فتىً خرَّجَ من منزلها ونام في جوارها؟ أنت تقول إنك تحبُّها! فهل تريد القضاء على سُمعتها إذن؟ أهدأ ثم القري الذي حباننا به والداها؟ أتلحقُ عاراً بتلك التي تنتظرُ سعادتك منها؟» ويجب بحرارةٍ قائلاً: «والآن! ما أهميةُ هذَرِ النَّاسِ وريبتهم الجائرة؟ ألم تُعلمني ألا أُقيمَ لذلك ورتناً؟ ومن يعرف أكثرَ مبيِّ مقدارَ ما أجلُّ صوفيةَ وما أريدُ لها من إكرام؟ لن يكونَ ولعي بها عاراً، بل يوجب لها افتخاراً، وسيكونُ جديراً بها. وإذا ما قام فؤادي وجهودي في كلِّ مكانٍ بما تستحقُّ من تبجيل، فبأي شيءٍ أكون قد أهنتُها؟» وأردُّ إلى إميلٍ معانقاً: «أي إميلَ العزيز، أنت تتعللُ بالأمر من حيث وجهة نظرك، فتعلمُ تقليبَ الأمرِ من أجلها، ولا تفرِّقُ شرفَ أحد الجنسين بشرف الجنس الآخر مُطلقاً؛ فلكلَّ منهما مبادئٌ تختلف عن مبادئ الآخرِ كلِّ الاختلاف، وهذه المبادئُ متينةٌ صائبةٌ على السواء لا اشتقاقها من الطبيعة على السواء، وما عندك من فضيلةٍ تحمِّلُك على ازدراءِ كلام النَّاسِ يُلزِمُك باحترام هذا الكلام من أجل خليلتك، فإذا كان شرفُك قائماً فيك وحدك فإن شرفها يتعلَّقُ بالآخرين؛ فإهمالُ هذا الشرفِ ينطوي على إهانةٍ لشرفك أيضاً، وليس سوى امتهانٍ منك لِمَا هو واجبٌ عليك ألا تصنع ما هي أهلٌ له من الاحترام.»

وهنالكَ فَصَلَّتْ لَهُ أسبابَ هذه الفروق؛ فأشعرتهُ بما يكون من بغيٍّ في عدم الاكتراث لها، ومَنْ قال له إنه سيكون زوجًا لصوفيةً، وهي التي يَجْهَلُ مشاعرَها، وهي التي قد يكون قلبُها وأبواها مرتبطينَ بعهودٍ سابقة، وهي التي قد لا يكون بينه وبينها من الموافقات ما يُمكن أن يجعل قرائنهما سعيدًا؟ وهل يجهل أن كلَّ عارٍ يُصيبُ البنتَ دَنَسٌ لا يُمَحى، وأنه لا يزول حتى بتزويجها الذي أوجبَ هذا العارَ لها؟ والآن! مَنْ هو الرجلُ الحساسُ الذي يريد أن يفقد مَنْ يُحب؟ وأيُّ رجلٍ صالحٍ يُريد أن يُوجبَ إلى الأبد بكاءَ شقيقةٍ تَعَسَ وقوعها موقعَ الرضا لديه؟

ويخشى الفتى ما أطلعتهُ عليه من النتائج، وبما أنه يلزم أقصى حدٍّ لأفكاره دائمًا، فإنه يُبصرُ أنه لا يزال غيرَ بعيدٍ من منزل صوفيةٍ بما فيه الكفاية، فيضاعف خَطُوهُ إمعانًا في الفرار، وينظرُ حولنا ليرى هل يسمعا أحد. ولا غرور؛ فهو يُضحى بسعادته ألفَ مرة في سبيلِ شرفٍ مَنْ يُحب، وهو يُفضِّلُ ألا يراها ثانيةً مدى حياته على أن يُكدرَ صفوها مرةً واحدة، وهذه هي النمرة الأولى للعناية التي حَوَّتهُ بها منذ صباه كيما أجعلُ له قلبًا يعرفُ أن يُحب.

ولذا فإن الأمرُ يدورُ حولَ وجودٍ ملجأً بعيدٍ على ألا يكون كثيرَ البعد، ونبحث ونستعلم، ونعلم وجودَ مدينةٍ بعيدةٍ فرسخينَ، ونحاول أن نجدَ لنا مسكنًا فيها، مُفضِّلين إياه على مسكنٍ في القرى الأكثرِ قُرْبًا حيث تكون إقامتنا محلًّا شبيهةً، وأخيرًا يصل إلى هناك عاشقٌ جديدٌ مملوءٌ حُبًّا وأملًا وسرورًا، ومشاعرٌ طيبةٌ على الخصوص؛ ومن ثم ترى كيف وَجَّهتُ بالتدريج هواه الناشئ نحو ما هو صالحٌ شريف، وكيف أعددتُ جميعَ مَبُولِهِ لسلوكِ ذاتِ القصد.

وأذنو من آخرِ عملي، وأبصرُ ذلك من بعيد، وقد دُلَّلتُ جميعَ المصاعبِ الكبيرة، وقد اقتحمتُ جميعَ العقباتِ العظيمة، ولم يبقَ لديَّ من المشاقِّ ما أسوِّي غيرَ عدمِ إفسادِ صنعي بإسراعي في إنجازهِ، ولننظرُ إلى ما تنطوي عليه حياةُ الإنسان من قلقلة، فنَجْتِيبُ على الخصوص ذاكَ الحَدَرَ الرائفَ القائلَ بأن يُضحى بالحاضر في سبيلِ المستقبل، وذلك لِمَا يعني هذا غالبًا من التضحية بما هو كائنٌ في سبيلِ ما لا يكون مُطلقًا، ولنجعلِ الإنسانَ سعيدًا في جميعِ أدوارِ عُمرِهِ، وذلك خشيةً أن يموتَ قَبْلَ أن ينالها مع كلِّ ما يُبدلُ من جهودٍ. والواقع أنه إذا وُجدَ وقتٌ يتمتُّعُ فيه بالحياة، فذاك لا ريب هو دَورُ الشباب حيث تكون قُوى الروح والبدن أعظمَ نشاطٍ فيها، وحيث يُبصرُ الإنسانُ في وَسَطِ سباقه من بعيدٍ ما يُشعرُهُ بِقصرِها من حدِّين، وإذا ما خُلِعَ الشبابُ الغافلُ لم ينشأ هذا عن كونه يُريدُ أن يتمتُّعَ بل عن كونه يبحثُ عن التمتعِ حيث لا يكون مطلقًا، وهو إذ يُعدُّ نفسه لمستقبلٍ بانسٍ لم يُعرفِ حتى الاستمتاعَ بالساعة الحاضرة.

واحسبوا إميل بعد إتمامه العشرين من عُمره، حَسَنَ التَّشْيئةَ، حَسَنَ التَّكْوِينِ رُوحًا وَبَدَنًا، قوِيًّا سَلِيمًا نَشِيطًا رَشِيقًا عُضَلِيًّا، مَمْلُوءًا إِحْسَاسًا وَعَقْلًا وَصَلَاحًا وَإِنْسَانِيَّةً، صَاحِبَ أَخْلَاقٍ وَذَوْقٍ، مُجِبًّا لِلْجَمَالِ، فَاعِلًا لِلخَيْرِ، خَالِيًّا مِنَ الْأَهْوَاءِ الْجَامِحَةِ، بَرِيًّا مِنَ نِيرِ الْمُبْتَسِرِ، وَلَكِن مَعَ خُضُوعٍ لِسُلْطَانِ الْعَقْلِ، مُجِيبًا لِدَاعِي الصَّدَاقَةِ، حَائِزًا لِجَمِيعِ الْمَوَاهِبِ النَّافِعَةِ، وَلَكثِيرٍ مِنَ الْمَوَاهِبِ الْمَسْتَحَبَّةِ، قَلِيلِ الْمِبَالَاةِ بِالثَّرَوَاتِ، مَعْتَمِدًا فِي عَيْشِهِ عَلَى ذِرَاعِيهِ، غَيْرِ خَائِفٍ أَنْ يُعَوِّزَهُ الْخَيْرُ مَهْمَا حَدَثَ، وَالآنَ تَرَاهُ نَشْوَانٌ بِهَوَى نَاشِئٍ، فَيَتَفَتَّحُ فُوَادُهُ لِأَوْلَى نِيرَانِ الْغَرَامِ، وَتَصْنَعُ لَهُ أَوْهَامَهُ الْخُلُوةَ عَالَمًا جَدِيدًا مِنَ النِّعَمِ وَالِاسْتِمْتَاعِ، وَيُحِبُّ بُغْيَةً مُبْتَغَاةً، وَهِيَ تُبْتَعَى بِأَخْلَاقِهَا أَكْثَرَ مِمَّا بِشَخْصِهَا، وَهُوَ يَأْمَلُ وَيَنْتَظِرُ مَا يُحَسُّ اسْتِحْقَاقَهُ لَهُ مِنَ ثَوَابِ.

وَمِنْ تَوَاصُلِ الْقُلُوبِ وَتَسَابِقِ الْمَشَاعِرِ الصَّالِحَةِ تَأَلَّفَ مِئْلَهُمَا الْأَوَّلُ، وَهَذَا الْمِئْلُ هُوَ مَا يَجِبُ أَنْ يَظَلَّ بَاقِيًّا، وَيَسْتَسَلِمَ هَذَا الْمِئْلُ مَطْمَئِنًّا، وَمُحَقَّقًا أَيْضًا إِلَى هَدْيَانِ الْبَالِغِ، وَذَلِكَ بِلَا وَجَلٍ وَأَسْفٍ وَنَدَمٍ، وَبِلَا هَلَعٍ آخَرَ غَيْرِ الَّذِي لَا يَتَفَصَّلُ حَسُّ السَّعَادَةِ عَنْهُ، وَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعَوِّزَهُ هُنَاكَ؟ انظُرُوا وَاسْتَعْلِمُوا وَتَصَوَّرُوا كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ بَعْدُ، وَكُلَّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُنَمَّحَ زِيَادَةً عَلَى مَا لَدَيْهِ، وَهُوَ يَجْمَعُ جَمِيعَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُنَالَ مَعًا، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهَا شَيْءٌ إِلَّا عَلَى حِسَابِ شَيْءٍ آخَرَ، وَهُوَ سَعِيدٌ بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ، وَهَلْ أَخْتَصِرُ الْآنَ نَصِييًّا بِالْغِ الْحَلَاوَةِ؟ وَهَلْ أَكْثَرُ صَفْوَ شَهْوَةٍ بِالْغَةِ النِّقَاءِ؟ آه! إِنْ كُلَّ قِيَمَةٍ لِلْحَيَاةِ قَائِمَةٌ ضِمَّنَ مَا يَذُوقُ مِنَ سَعَادَةِ، وَمَا اسْتَطِيعُ أَنْ أُعِيدَ إِلَيْهِ فِي مِقَابِلِ مَا أَكُونُ قَدْ نَزَعْتُ مِنْهُ؟ حَتَّى إِنِّي لَوْ أَطْفَخْتُهُ سَعَادَةً لَعُدِدْتُ بِذَلِكَ مُقَوِّضًا أَعْظَمَ فُتُونٍ عِنْدَهُ، وَهَذِهِ السَّعَادَةُ الْعَالِيَا هِيَ أَخْلَى مَائَةِ مَرَّةٍ بِأَنْ تُؤْمَلَ مِمَّا بَانَ تُنَالُ، وَهِيَ يُتَمَتَّعُ بِهَا عِنْدَمَا تُنْتَظَرُ بِأَفْضَلِ مِنْ أَنْ تُذَاقَ. وَيَا إِمِيلُ الصَّالِحِ، أَحَبُّ وَكُنْ مَحْبُوبًا، وَتَمَتَّعْ زَمَانًا طَوِيلًا قَبْلَ أَنْ تَخُوزَ، وَتَمَتَّعْ بِالْغَرَامِ وَالطُّهْرِ مَعًا، وَاجْعَلْ جَنَّاتِكَ فِي الْأَرْضِ مُنْتَظَرًا الْجَنَّةَ الْآخَرَى، وَلَنْ أَخْتَصِرَ هَذَا الدَّوْرَ السَّعِيدَ مِنْ حَيَاتِكَ مُطْلَقًا، وَسَأَغْرُلُ لَكَ مِنْهُ فُتُونًا، وَسَأَطِيلُ مَدَاهَا مَا أَمَكَّنِي ذَلِكَ. وَأَهَا! يَجِبُ أَنْ يَنْتَهِيَ، وَأَنْ يَنْتَهِيَ فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ، وَلَكِنِّي سَأَبْذُلُ مِنَ الْجَهْدِ مَا يَبْقَى مَعَهُ قَائِمًا فِي ذَاكَرَتِكَ عَلَى الْأَقْلِ، فَلَا تَنْدَمُ عَلَى ذَوْقِكَ إِيَّاهُ مُطْلَقًا.

وَلَمْ يَنْسَ إِمِيلُ أَنْ لَدِينَا مَا نُعِيدُ، فَإِذَا مَا أُعِدَّ تَنَاوَلْنَا خَيَالًا وَانْطَلَقْنَا عَدْوًا، وَإِمِيلُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ يُرِيدُ الْوَصُولَ، وَمَتَى فَتَحَ الْفُوَادُ لِلْهَوَى انْفَتَحَ لِسَامِ الْحَيَاةِ، وَإِذَا لَمْ أُضِغْ وَقْتِي لَمْ يَقْضِ حَيَاتَهُ هَكَذَا.

وَمِنَ الْمُؤَسَفِ أَنْ يَكُونَ الطَّرِيقُ مَشْتَبِكًا وَالْبَلَدُ صَعْبًا، فَتَضِلُّ، وَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُدْرِكُ ذَلِكَ،

ولا يَجْرَع ولا يَتَوَجَّع، وإنما يَصْرِف جميع انتباهه في لُقيان الطريق، وَيَجُول طويلاً قَبْلَ أن يَعْرِف أين هو، وذلك مع ضَبْطٍ لِلنَّفْسِ دائمٍ. أجل، إن هذا أمرٌ لا يستحقُّ الذِّكْرَ عندكم، ولكنه أمرٌ مهمٌّ عندي، أنا الذي يَعْرِفُ مقدارَ اهتمامه عن طَبْعٍ، وأبْصِرُ ثمرةَ الجهودِ التي بَدَلْتُ منذ صباه لِجَعْلِهِ يَحْتَمِلُ ضرباتِ الضرورة.

وأخيراً نَصَل، ويكون استقبالنا أكثرَ بساطةً ولطفًا مما في المرة الأولى؛ وذلك لأننا عُذِدْنَا من المعارف، وُئْسَلِمَ كُلُّ من إِمِيلٍ وصوفيةٍ على الآخر مع شيء من الارتباك، ومن غير أن يتحداثا، وما يتحداثان عنه أمانا؟ لا يحتاج الحديثُ الذي يَرْغَبان فيه إلى شهود. وبتنزهٍ في الحديقة، وقد أُفْرِز من هذه الحديقة قَسَمٌ لِلخَضِرِ حَسَنُ التنظيم. وتشتمل هذه الحديقة على روضةٍ مستورةٍ بأشجارٍ كبيرةٍ رائعةٍ مثمرةٍ من كلِّ نوع، وتقطعُ هذه الروضةَ جداولٌ جميلةٌ من جهاتٍ مختلفة، ولهذه الروضةِ حواشٍ زاخرةٌ بالزهور، ويقول صارخًا إِمِيلُ الذي استحوذ عليه أوميرسُ وكان هائجَ النَّفْسِ دائمًا: «يا لِحَسَنِ المكان! يُخَيِّلُ إليَّ أنني أرى جَنَّةَ أَلْسِينُوس». وتُريدُ البنت أن تَعْلَمَ مَنْ هو أَلْسِينُوس، وتَسألُ الأم، وأقول: «كان أَلْسِينُوسُ مَلِكُ كُورِسِيرِ الذي وصف أوميرسُ حديثه وانتقدها رجالُ الذوق لكثرةِ بساطتها وقلةِ زينتها.^{١٧} وكان لأَلْسِينُوسَ هذا ابنةً لطيفةً تَلْفَى غريبٌ قَرَى من أبيها، فرأت في منامها قِبَلَ ذلك بليلةٍ أنها ستتزوج عمًا قليل.» وتُبْهَتُ صوفية، ويَحْمَرُّ وَجْهها، وتَكْسِرُ من طَرَفها، وتَعْضُ بَنانها، ويبدو من اضطرابها ما لا يُتصَوَّر، ويروقُ الأبُّ أن يزيد ارتباكها، فيتناول الحديثَ ويقول إن الأميرة الفتاة كانت تذهب إلى

^{١٧} «إذا ما خرجتم من القصر أبصرتم حديقةً واسعةً مؤلفةً من أربعة أفدنة، مُسَيَّجةً من جهاتها الأربع، مغروسةً فيها أشجارٌ كبيرةٌ مزهرة، تنتج كُثْرَى وتفاحًا ورمانًا وفواكه أخرى من أطيب الأنواع، كما أنها تشتمل على أشجار تين ذات ثمر حلو، وعلى أشجار زيتون ناضرة، وما كانت هذه الأشجار الرائعة لتبقى بلا ثمرٍ في جميع السنة، وفي الشتاء والصيف يُوجب ما يأتي من الغرب من النسيم اللطيف ترنُّع الأشجار ونُضج الثمار معًا، ويُرى ذبول الكُثْرَى والتفاح والتين مع الجفاف على الأشجار. ويُرى ذبول العناقيد على الدوالي، ولا تفتأ الكزْمة التي لا تفد تحمل عبًا جديدًا، ويُترك بعضُ العنب على الجُرن لينضج ويتحوَّل إلى زبيبٍ تحت الشمس، على حين يُقتطف آخرُ منه ويُترك على الكزْمة ما لا يزال في دَوْرِ الازدهار أو ما لا يزال حَصْرَمًا، أو ما يأخذ في الاسوداد. ويُرى في أحد الطَّرْفَيْنِ مربيَّعان مزروعان جيِّدًا مستوران بأزهارٍ في جميع السنة، مزينان ببيركتين يُوزع ماءٌ إحداهما في جميع الحديقة، ويُساق ماءُ الأخرى بعد أن يقطع القصر إلى بناءٍ قائمٍ في المصر ليسيقي المواطنين.»
فذلك هو وصفُ حديقةِ أَلْسِينُوسِ الملكية في الجزء السابع من الأوديسة؛ حيث لا تُرى عرش ولا تماثيل ولا شلالات ولا خيام من أزهار، وإن كان هذا لا يروق ذلك الشائب الحالم بأوميرس وأمرء عصره.

النهر لتغسل البياضات بنفسها، ويداوم على الحديث بقوله: «أَوْتَضُّونَ أَنَّهَا كَانَتْ تُزْدِرِي مَسَّ
الْحَرَقِ الْقَدِيرَةَ قَائِلَةً إِنَّ رَائِحَةَ الصَّرَاصِيرِ تَنْتَشِرُ مِنْهَا؟» وتنسى صوفية، التي تُوجِّهُ إليها الطعنة،
حياءها الطبيعي، وتعذر بحماسة، ويُعرف أبوها جيِّدًا أنه لا يُوجد غيرها من يَغْسِلُ البياضات
الصغيرة إذا ما تُرِكَ لها القيامُ بذلك،^{١٨} وأنها تقوم بأعظم من هذا إذا ما أُمِرَتْ به، وكانت في أثناء
هذا الكلام تنظر إليَّ من طَرْفٍ خَفِيِّ مع قَلْبِي لم أستطع أن أمنع معه نفسي من الضحك، قارئًا في
فؤادها البسيط ضُروبَ الدُّعْرِ الذي يحملها على الكلام. وكان من القسوة ما يزيدُ معه هذا
الطيش بأن يسألها ساخرًا عن سبب حديثها عن نفسها، وعن وجود علاقة بينها وبين ابنة
السُّنُوس، ويعتريها حَجَلٌ وارتجافٌ فلا تجرؤ بعد ذلك على النطق بكلمة، ولا على النظر إلى
أحد. فيا أيتها الفتاة الفاتنة! ليس هذا وقتَ التَّنَكُّر؛ فقد أظهرتِ نفسك على الرغم منك.

ولم يلبث هذا المنظر الصغير أن نُسيَ أو ظهرَ أنه نُسيَ، ومن حُسْنِ حظِّ صوفية أن إميلَ
وحده هو الذي لم ينتبه إلى ما وقع. وتَدومُ النَّهْة، وقد شَقَّ على الفَتَيَيْنِ، اللذين كانا بجانبنا في
البُداءة، أن يُنظِّمَا نَفْسَهُمَا وَفَقَّ بَطْءَ سَيْرِنَا؛ فهما يسبقاننا من حيث لا يشعران، ويتدانيان
ويتقاربان في آخر الأمر، ونراهما على شيء من البُعدِ أمانًا، وتظهرُ صوفيةٌ منتهيةٌ رزينة، ويتكلم
إميلُ مع نشاطٍ في الحركات، ويلوح أن الحديث لا يُورثُهُما ملاً. ونعود بعد ساعة تامة،
وناديهما، وبأتيان، ولكن مع بطءٍ بدورهما. ويرى أنهما يقضيان وقتًا ممتعًا. وأخيرًا ينقطع
حديثهما بغتة قبل أن يكون سماعه في متناولنا، ويضاعفان الخطوَ ليلحقا بنا، ويدنو إميلُ منَّا
طليقَ الوجهِ لطيفَ المحيَّا، وتلمع عيناه سرورًا، ومع ذلك فإنه يديرهما نحوَ أمِّ صوفيةٍ مع شيءٍ
من الجَزَعِ ليرى كيف يكون قَبُولُهَا له. ولا تظهرُ صوفيةٌ في مثل تلك الطَّلَاقَةِ، وهي إذ تَدنو تَلُوحُ
مرتبكةٌ بظهورها مُخْتَلِيةٌ بفتى، وهي التي حَدَثَ كَثِيرًا أن وُجِدَتْ مع آخرين في مثل هذه الحالِ
من غير أن ترتبك، ومن غير أن تُرى في وَضْعٍ سيئٍ مطلقًا. وتَسِيرُ عَدُوًّا إلى أمِّها، وتقول، وهي
تَلْهَثُ قليلًا، بعضَ أَلْفَاظٍ لا تَدُلُّ على كبيرِ شيءٍ، وذلك كما لو كانت تَدُلُّ على وجودها هناك
منذ وقتٍ غيرِ قصير.

ويظهرُ من طلاقةٍ مُحَيَّا هذينِ الفَتَيَيْنِ اللطيفَيْنِ أن هذا الحديثَ ألقى حِمْلًا ثَقِيلًا عن
قَلْبَيْهِمَا الفَتَيَيْنِ، وليس أقلُّ من هذا تَحَفُّظُ كُلِّ مِنْهُمَا نحوَ الآخر، غيرَ أن تَحَفُّظَهُمَا أَقَلُّ ارْتِبَاكًا،

^{١٨} أَعْتَرَفَ بِالْجَمِيلِ لَأَمِّ صَوْفِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَصْنَعْ مَا تُفْسِدُ بِهِ فِي الصَّابُونِ يَدَا صَوْفِيَّةِ الْجَمِيلَتَانِ اللَّتَانِ سَيَقْبَلُهُمَا إِمِيلٌ
كَثِيرًا.

وقد عاد هذا التحفظ لا يصدر عن غير احترام إميل وحياء صوفية وعن صلاح الاثنين. أجل، إن إميل يجرؤ أن يوجه إليها بعض الكلمات، وإنها تجرؤ على الجواب أحياناً، بيد أنها لا تفتح فمها للجواب من غير أن تنظر إلى أمها. وأكثر ما يُشعر به من تغير فيها، كما يلوح، هو شعورها نحوي، وهي تُظهر لي أعظم احترام، وهي تنظر إليّ باهتمام، وهي تكلمني بمودة، وهي تبذل جُهداً للوقوف مني موقع الرضا، وأرى أنها تُكرمني عن تقدير منها، وأنها ليست ممن لا يبالي بنيل تقديري. وأدرك أن إميل حدّثها عني، فيمكن أن يقال إنهما تأمرا على الفوز بي، ومع ذلك فليس الأمر كذلك؛ فليست صوفية نفسها ممن يُنال بسرعة، ومن المحتمل أن يكون إميل محتاجاً إلى زُلفاي عندها أكثر من زُلفاها عندي، وبإلزام من اثنين فأتين! إنّي أتمنّع بجائزة عنائي حينما أبصر أنّ ما لدى صديقي الشاب من فؤاد حسّاس قد أدخلني كثيراً إلى أوّل حديث بينه وبين خليلته؛ فلي بصدافته كلُّ مكافأة.

وتكرّر زيارتنا، وبصير ما يدور بين الفتيتين من أحاديث أكثر وقوعاً، ويبلغ إميل من تمّل الحب ما يعتقد معه أنه يلمس سعادته، ومع ذلك فإنه لا يظفر باعتراف صريح من صوفية؛ فهي تُصغي إليه ولا تقول له شيئاً. ويُعرف إميل جميع حيائها؛ ولذلك فإنه لا يُدهش من صمتها إلا قليلاً، وهو يشعر بأنه ليس سيئ الوضع عندها، وهو يُعرف أن الآباء هم الذين يزوجون الأولاد، وهو يفترض أن صوفية تنتظر أمراً من والديها، فيطلب منها أن تسمح له بأن يلتمسها، فلا تُعارض في هذا. وبخاطبني إميل في الموضوع، وأتكلم باسمه، حتى حين حضوره، وبإلزامه إذ علم أن أمر صوفية بيدها، وأنه ليس عليها إلا أن تُريده حتى تجعله سعيداً! ويأخذ في عدم إدراك شيء من سلوكها، وتنقص ثقته ويُدعر، ويُبصر أنه أقل تقدماً مما كان ينتظر، وهنالك يستعمل الغرام الأرق لفته الأعظم تأثيراً حتى تليين صوفية.

ولم يُصنع إميل لئباً بما يضره، وهو إذا لم يُخبر به لم يعرفه في جميع أيامه. وصوفية فخورة كثيراً بأن تُبينه إياه، وما يُعوقها من مصاعب تُعدها غيرها عامل استعجال، وهي لم تنس دروس والديها، وهي تعلم أنها فقيرة وأن إميل غني، وما أكثر احتياجه إلى جعلها تُقدّره! وأية مزية لا بُدّ له منها حتى يمحو هذا التفاوت! ولكن كيف تحظر بياله هذه العوائق؟ وهل يعرف إميل أنه غني؟ وهل يتنازل فيستعلم عنها؟ حمدًا لله على أنه غير محتاج إلى الثراء مطلقاً؛ فهو يعرف أن يكون محسنًا بلا غنى، وهو يستخرج الخير الذي يصنع من قلبه لا من جيبه، وهو يبذل للبائسين وقته وجهوده وعواطفه ونفسه، وهو لا يكاد يجرؤ في تقدير حسنياته على حساب المال الذي أنفقه على الفقراء.

وبما أنه لا يَعْرِفُ وَجْهًا لِلْوَمِ على بَلَوَاهِ فَإِنَّهُ يَعْرِوْهَا إِلَى خَطَأٍ مِنْهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مَنْ يَجْرُوْ عَلَى اتِّهَامٍ مُّوَضَّعٍ عِبَادَتِهِ بِالشَّدُوْدِ؟ وَيَبِيدُ خَزْيِي حَبَّ الذَّاتِ حَسْرَاتِ الْغَرَامِ الْمَصْرُوفِ بِغِلْظَةِ، وَعَادَ لَا يَدْنُو مِنْ صُوفِيَّةٍ بِذَلِكَ الْاِعْتِمَادِ الْمُسْتَحَبِّ لِقَلْبٍ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ جَدِيْرٌ بِهِ، وَيَكُوْنُ جَزُوْعًا مَرْتَجِفًا أَمَامَهَا، وَعَادَ لَا يَأْمَلُ أَنْ يَلْمِسَهَا بِالرَّفَقَةِ، وَإِنَّمَا يَحَاوِلُ أَنْ يُلِينَهَا بِالاسْتِعْطَافِ. وَيَنْقُدُ صَبْرَهُ أحيانًا، فَيَكَادُ يُغَاضِبُ. وَيَلُوْحُ أَنْ صُوفِيَّةً تَشْعُرُ بِمَا يَسَاوِرُهُ مِنْ أَحَاسِيْسٍ، فَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَهَذِهِ النُّظْرَةُ وَحَدَّهَا هِيَ الَّتِي تُسَكِّنُ غَضَبَهُ وَتَلْقِي فِيهِ الرَّعْبَ، فَيَكُوْنُ خَاضِعًا أَكْثَرَ مِنْ قَبْلِ.

وَيُكَدِّرُ صَفْوُهُ بِهَذِهِ الْمَقَاوِمَةَ الْقَائِمَةَ عَلَى الْعِنَادِ، وَبِهَذَا السُّكُوْتِ الَّذِي لَا يَقْوَى عَلَيْهِ، فَيَفْتَحُ قَلْبَهُ لِصَدِيْقِهِ، وَيُوَدِّعُ صَدِيْقَهُ آلامَ فُوَادِهِ الْمَكْلُوْمِ كَرِيًّا، وَيَضْرَعُ إِلَيْهِ أَنْ يُعِينَهُ وَأَنْ يُنْصَحَهُ، وَيَا لَهُ مِنْ سِرِّ خَفِيٍّ! «هِيَ تَكْتَرُثُ لِنَصِيْبِي، وَلَا يَمَكْنِي الشُّكُّ فِي هَذَا، وَمَنْ الْبَعِيدُ أَنْ تَتَبَعِدَ عَنِّي، وَيَرُوْفُهَا أَنْ تَكُوْنُ مَعِي، وَتُبْدِي سُرُوْرَهَا عِنْدَ وَصُوْلِي، وَتُظْهِرُ أَسْفَهًا عِنْدَ انْصِرَافِي، وَتَتَلَقَّى عِنَايَتِي بِلَطْفٍ، وَيَلُوْحُ أَنْ خَدَمِي تَقَعُ مِنْهَا مَوْقِعَ الْقَبُوْلِ، وَتَتَفَضَّلُ فَتُحْبُونِي بَأْرَاءَ، حَتَّى إِنَّمَا تُصَدِّرُ إِلَيَّ أَوَامِرَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهَا تَرُدُّ التَّمَاْسِي وَرَجَائِي، وَإِذَا مَا جَرُوْتُ عَلَى الْكَلَامِ حَوْلَ الْقِرَانِ أَلْزَمْتَنِي بِالسُّكُوْتِ قَسْرًا، وَإِذَا مَا أَضْفَعْتُ كَلِمَةً تَرَكْتَنِي فُوْرًا. وَبِأَيِّ حَقٍّ عَجِيْبٍ تَرِيدُ أَنْ أَكُوْنَ لَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تُرِيدَ إِسْمَاعِي كَلِمَةً عَنْ كَوْنِهَا لِي؟ تَكَلِّمُ وَاحْمِلْهَا عَلَى الْكَلَامِ، أَنْتِ الَّذِي تُجِلُّهُ وَتُجِبُّهُ وَلَا تَجْرُوْ عَلَى إِسْكَانَتِهِ، وَاحْدِمِ صَدِيْقَكَ، وَأَكْمَلِ عَمَلَكَ، وَلَا تَجْعَلِ جُهُودَكَ شَوْْمًا عَلَى تَلْمِيْذِكَ. آه! إِنَّكَ إِذَا لَمْ تُبَيِّمِ سَعَادَتَهُ كَانَ مَا اِكْتَسَبَ مِنْكَ سَبَبَ شَقَاةِهِ.»

وَأَكَلِمُ صُوفِيَّةً، وَأَنْزِعُ مِنْهَا مَعَ قَلِيْلِ جُهْدٍ سِرًّا كُنْتُ أَعْرِفُهُ قَبْلَ أَنْ تَقُوْلَهُ لِي، وَأَصْعَبُ مِنْ هَذَا نَيْلِي مِنْهَا إِذْنًا فِي إِطْلَاعِ إِمِيْلِ عَلَيْهِ، وَأَفُوْزُ بِهِ أَحْيَرًا، وَأَعْمَلُ وَفُقَّ مَقْتَضَاهُ، وَيُلْقِيهِ هَذَا الْإِيْضَاحُ فِي دَهْشٍ لَا يَمَكْنُ أَنْ يُشْفَى مِنْهُ، وَهُوَ لَا يُدْرِكُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الدَّقَّةِ، وَهُوَ لَا يَتَصَوَّرُ مَا قَدْ يَكُوْنُ لِلدَّنَانِيْرِ - قَلِيْلَةً كَانَتْ أَوْ كَثِيْرَةً - مِنْ عَمَلٍ فِي الْخُلُقِ وَالْمَرْيَةِ. وَلَمَّا أَسْمَعْتَهُ بِمَا يَكُوْنُ لَهَا مِنْ فِعْلِ فِي مُبْتَسِرَاتِ النَّاسِ أَخَذَ يَضْحَكُ، وَقَدْ تَهَلَّلَ وَجْهَهُ سُرُوْرًا، فَأَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ مِنْ فُوْرِهِ لِيَمْرُقَ كُلَّ شَيْءٍ وَيَرْمِي كُلَّ شَيْءٍ وَيَعْدِلَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ نَيْلًا لِشَرَفِ الْفَقْرِ مِثْلَ صُوفِيَّةٍ، وَكَيْمَا يَعُوْدُ لِيَكُوْنَ زَوْجِهَا.

وَأَقْفُهُ، وَأَقُوْلُ لَهُ ضَاحِكًا بِدَوْرِي مِنْ اِنْدِفَاعِهِ: «مَاذَا! أَلَا يَنْصَحُ هَذَا الرَّأْسُ الْفَتِيَّ مَطْلَقًا؟ أَلَا تَتَعَلَّمُ التَّعَقُّلَ مَطْلَقًا بَعْدَ أَنْ تَفَلْسَفْتَ فِي جَمِيْعِ حَيَاتِكَ؟ وَكَيْفَ لَا تَرَى أَنَّكَ بِاتِّبَاعِكَ خَطَّتَكَ السُّخِيْفَةَ تَكُوْنُ قَدْ زِدَّتْ حَالَكَ سُوءًا وَجَعَلْتَ صُوفِيَّةً شُمُوْسًا؟ وَمَنْ الْمَفِيْدُ بَعْضَ الْفَائِدَةِ أَنْ يَكُوْنَ

عندك من المال أكثر مما عندها، ومن العظيم جداً أن تضحي بجميعه من أجلها، وإذا كانت من الزهو ما لا تطيق معه أن تكون مدينة لك بإحسانٍ قليلٍ فكيف تحتمل أن تكون مدينة لك بفضلٍ كبير؟ وإذا كانت لا تطيق إمكان تعبير الزوج إياها بأنه أغناها، فهل تحتمل إمكان تعبيره إياها بأنه افتقر في سبيلها؟ ويا أيها النعس! احترز من أن يلوح لها أنك تفكر في هذه الخطة، وعلى العكس كُن مقتصدًا يقظًا حُبًا لها، وذلك خشية أن تتهمك بأنك تريد نيلها بالحيلة، وبأنك تضحى طوعًا بما ستبذره إهمالًا.

وهل تعتقد أن الأموال الكبيرة تُخيفها حقيقةً، وأن معارضتها تنشأ عن الثروات ضيقًا؟ كلاً يا إميل العزيز، إن لمعارضتها سبباً أكثر قوةً وأعظم شدةً بالأثر الذي تُوجبه هذه الثروات في نفس صاحبها، وهي تعرف أن جميع منافع الشراء مفضلة على كل شيء عند من هم حائزون لها، وجميع الأغنياء يعدون الذهب قِبَل المزية، وإذا ما وُضع المال بجانب الخدم وجدوا دائماً أن الخدم لا تُوفي المال حقه مطلقاً، وظنوا أن من قضوا حياتهم في خدمتهم آكلين خبزهم مدينون لهم بالبقية. ولذا فما عليك أن تعمل يا إميل لتسكين مخاوفها؟ دَعها تعرفك جيداً، وليس هذا عمل يوم واحد، وأثبت لها أن في كنوز رُوحك الكريم ما يوازن ثراءً كان من سوء حظك نيلك إياه، وتغلب على مقاومتها بالثبات ومع الزمن، واجعلها تنسى ثراءك بمشاعرك الجليلة النبيلة، وأحسها، واخدمها، وقم بخدمة والديها المحترمين، وأقم لها الدليل على أن هذه العنايات ليست نتيجة هوى سَعيرٍ عابر، بل هي مبادئ لا تُطمس منقوشة في صميم فؤادك، وبجَل ما يهبه الشراء من مزية تجيلاً لائقاً؛ فهذه هي الوسيلة الوحيدة لمسألة المزية التي تُعزها.»

ويدرك مقدار الفرح الذي يوجبه هذا الكلام في الفتى، ومقدار ما يورثه إياه من ثقة وأمل، ومقدار ما يستبشر به فؤاده الشريف فيما يصنع ليقع موقع القبول عند صوفية، أو فيما يصنع من تلقاء نفسه عند عدم وجود صوفية، أو عندما لا يكون عاشقاً لها، ومهما يكن من قلة إدراكٍ لخلقه فمن ذا الذي لا يتصور سلوكه في مثل هذه الحال؟

وها أنا ذا، إذن، نجي فتى الصالحين وواسطة حُبهما! ويا له من صنعٍ رائعٍ يقوم به المرئي! وقد بلغ هذا العمل من الجمال ما لم أصنع معه في حياتي شيئاً رفعتني في عيني نفسي بهذا المقدار، وجعلني راضياً عن نفسي بهذا المقدار، ومع ذلك فإن لهذا العمل ملاءمة، وذلك أنني لم أقبل في المنزل قبولاً سيئاً، وأنه أركن إلي في إمساك العاشقين ضمن النظام، فلم يظهر إميل ذلواً ظهوره في هذه المرة مرتجعاً دائماً من إمكان عدم وقوعه موقع الرضا، وقد غمرتني

الفتاة بصدقة صادقة لا أتاول غير حصتي منها، وهكذا فإنها تُعوّض نفسها تعويضاً غير مباشرٍ من شِدَّةِ تُخيفُ بها إميل، وهي تقوم له في شخصي بألفٍ وُدِّ رقيقٍ مُفضَّلةً الموت على إبدائه له بنفسه. وهو يَعْرِفُ أنني لا أريد الإضرارَ بمصالحه، فيسُرُّه أن أكون على وِثامٍ معها، وله سُلوَانٌ عند رفضها ذراعَه في أثناء النزهة بأن يقوم هذا الرفضُ على ترجيحها ذراعي، وهو يبتعد من غير أن يتدمَّرَ مصافحاً إياي قائلاً لي مخافتاً بالصوت والعين: «تكلِّمُ من أجلي يا صديقي.» وهو يتبعنا بعينه مع الاهتمام، وهو يحاول أن يقرأ مشاعرنا على وجْهنا، وأن يُفسِّرَ كلامنا بحركاتنا، وهو يَعْرِفُ أنه لا شيءَ فيما يدور بيننا من حديثٍ خارجٍ عن نطاق الاكتراث له. ويا صوفية العزيزة، ما أكثرَ ما يكون فؤادك المخلصُ مرتاحاً عندما يمكنك أن تحادثي مرشدَ تِلْمَاك من غير أن يسمعك تِلْمَاك! ويا لسلامة الطوية التي تدعِينه يقرأ بها في هذا القلب الحنون جميعَ ما يدور فيه! ويا للذة التي تُطلعِينه بها على ما تحمِلين من إعزازٍ جامعٍ لتلميذه! ويا للإخلاص المؤثِّر الذي تدعِينه ينفُذُ به أحلى المشاعر؟ ويا لتكْلِيفِ الغضبِ في صرْفِ اللُّجُوجِ عندما يحبِّله عدمُ الصبر على قطع حديثك! ويا لتكْلِيفِ الأسفِ الفاتن الذي تلومِينه به على عدم الرِّصانة عندما يجيء لمنعك من قول الخير عنه وسماعه عنه مستخرجةً من أجوبتي دائماً سبباً جديداً لِحُبِّه!

وهكذا فإن إميلَ يبلِّغُ مرحلةً أُذُنٌ له فيها أن يتخذ وضعَ العاشق المعروف، فصار يتمنَّع بجميع حقوقه، فيتكلم ويلبِّح ويلتمس ويلحف. وصار لا يبالي أن يُخاطب بشدَّةٍ وأن يُعامل بسوءٍ على أن يسمع، وأخيراً يحظى، ولكن مع صعوبة، بأن تفضِّلَ صوفية من ناحيتها فتستحل سلطانَ الخطيبة جهراً، فتُملي عليه ما يجب أن يفعل، وتأمره بدلاً من أن ترجو منه، وتقبل بدلاً من الشُّكر، وتُنظِّم عددَ الزيارات وأوقاتها، وتمنعه من المجيء حتى اليوم القلاني، ومن البقاء بعد الساعة القلانية. ولم يُصنَع جميعُ هذا عن لهُو، بل عن جدِّ بالِغ. وهي إذا كانت قد قبلت هذه الحقوق بصعوبة، فإنها تُبدي من التدقيق في استعمالها ما يجعلُ إميلَ المسكين بأسفٍ في الغالب على منحها إياها، ولكنها مهما تأمرُ لا يتأخر عن الامتثال. ومما يحدث غالباً أنه إذا ما ذهب عن إطاعة نظرِ إليَّ بعينين طافحتين سروراً قائلتين لي: «إنها ملكتني كما ترى.» ومع ذلك فإن صوفية المُختالة تنظرُ إليه من طُرْفٍ خفي، وتبتسم سرّاً من زهوٍ عبديها.

أعيراني يا ألبانُ ويا رفائيلُ ريشةَ اللدَّة! وعَلِّم قلمي الغيظ، يا ملتون السَّماوي، ملائِدَ الحبِّ والعفاف! ولكن كلاً، أخفُوا فُنونكم الكاذبة أمام حقيقة الطبيعة المقدَّسة، وكونوا ذوي قلوبٍ حسَّاسَةٍ ونفوسٍ شريفة، ثُمَّ دَعُوا خيالكم يجول بلا قَسْرِ حول هيام العاشقين الشَّابِّين

اللذين يُسَلِّمان نفسهما على أعينِ والدَيْهما ومُرشدَيْهما، ومن غير كَدَرٍ، إلى الوهمِ العَدْبِ الذي يَفْتِنُهُما، وهما إذ يتقدَّمان في نشوة الرغائبِ إلى الغايةِ على مَهْلٍ يَشْبِكُان بالأزهارِ والأكاليلِ تلكِ الرابطةَ السعيدةَ التي يجب أن تَجْمَع بينهما حتى القبرِ. وهنالك صُوْرٌ ساحرةٌ تُسَكِّرُنِي، وأجمعها بلا ترتيب ولا نظام، وما تُوجِبُه من هذيانٍ فيَّ يحول دون ربط بعضهما ببعض. وَي! مَنْ الذي يكون ذا قَلْبٍ ولا يستطيع أن يصنع في نفسه لوحَةً لطيفةً لمختلف الأوضاع التي يتخذها الأبُّ والأمُّ والبنْت والمُرَيِّب والتلميذ، ولتعاوُن هؤلاء على قِرانِ أكثرِ الأزواجِ فُتُونًا، فيمكن الحُبَّ والفضيلةَ أن يُسْفِرا عن سعادتهما؟

والآن، حين صار إميلٌ يبادر إلى الوقوعِ موقعِ القبولِ في الحقيقة، أخذَ يشعرُ بقيمةِ المواهبِ اللطيفةِ التي حُيِّيَ بها، وتحبُّ صوفيةَ الغناء، فيُعَيِّي معها، ويُفعل أكثرَ من هذا، أي يُعلِّمها الموسيقى، وهي نشيطةٌ رشيقةٌ فتحب الوثوب، وهو يرقص معها، ويُحوّل وثباتها إلى خُطًا، ويسيرُ بها نحو الإِتقان. وهذه الدروس فاتنة، ويُعِشها المرح اللعوب الذي يُلطِّف حُرْمَةَ الحُبِّ القائمة على الحياء، ويُباح للعاشق أن يُعطي هذه الدروسَ مع اللذة، ومن المباح أن يكون العاشقُ أستاذَ خطيبته.

ويوجدُ بيانٌ قديمٌ مختلٌ تمامًا، ويُصلحه إميلٌ ويُهيئُه، وإميلُ صانعٌ ومصنِّحٌ للآلاتِ الموسيقيةِ كما أنه نجَّار، ويقوم مبدؤه الدائمُ على تعلُّم الاستغناء عن عوْن الآخرين في كلِّ ما يستطيع عمله بنفسه. ويقع المنزل في موضعٍ رائع، فيرسم له عدة صُوْر، فتضعُ صوفيةٌ يدها عليها أحيانًا وتُزَيِّن بها غرفةَ أبيها، وليست أطرُ هذه الصورِ مزخرفةً مُطلقًا، وهي غيرُ محتاجةِ إلى الزخرفة، وهي تتكامل إذ ترى إميلَ يرسم فتقلده، وهي تُثَقِّف جميعَ مواهبها على مثال إميل، ويُزيِّن فُتُونها جميعَ ما تصنع. ويذكر أبوها وأمها سابقَ يُسرهما حينما يشاهدان حولهما ثانيةً إشراقَ الفنونِ الجميلةِ التي تُنعم وحدها على النَّراءِ بقيمة، وقد جَمَل الحُبُّ جميعَ منزلهما. والحُبُّ وحده هو الذي أوجب بلا نفقةٍ ولا مشقَّة، تجلِّي ذاتِ المالاذ التي كانا لا يَجْمَعانها فيه سابقًا إلا بالمالِ والمالِ.

ويُحبُّ العاشقُ إحاطةَ الكمالِ بصاحبه، فيريدُ إضافةً زخارفَ جديدةٍ إليها بلا انقطاع، شأنُ الوثنيِّ الذي يُزَوِّق من الذخائرِ ما يُقدَّر أنه موضعُ عبادته، ويُجمَلُ فوق المذبحِ الإله الذي يَعْبُد. والصاحبة لا تحتاج إلى شيء من ذلك لتروقه، وإنما هو يحتاج إلى تزيينها، وهذا إكرامٌ جديدٌ يرى أنه يقوم به نحوها، وهذا اهتمامٌ جديدٌ يَنْفُحُ به لذةً مشاهدتها، وتلوح أنه لا شيء

جميل يكون في موضعه إذا لم يُزَيَّن الجمالَ الأسمى. ومن المناظر المؤثرة المضحكة معاً أن يرى إميل وهو يبادر إلى تعليم صوفية جميع ما يَعْلَم، وذلك من غير أن ينظر هل يلائم ذوقها ما يريد تعليمها إياه، أو هل هذا الأمر يناسبها، وهو يُحدثها عن كل شيء، وهو يوضح لها كل شيء بنشاط صيباني، وهو يظن أن عليه أن يتكلم، فتفقه ما يقول من فورها، وهو يتمثل مُقدماً ما يتفق له من لذة في البرهنة والتفلسف معها، وهو يُعدُّ من الأمور غير المُجدية كل شيء حصَّله، فلا يستطيع عرضَه على عينيها مطلقاً، ويحمرُّ وجهه خجلاً تقريباً من معرفته شيئاً لا تعرفه.

وما هو ذا إذن يُلقى عليها درساً في الفلسفة والفيزياء والرياضيات والتاريخ وكل شيءٍ آخر، وتراعيه صوفيةً في غيرته طيبة الخاطر، وتحاول الاستفادة منه. وما أكثر ما يطيب لإميل أن تسمح له بأن يُلقى دروسه عليها وهو جاثٍ أمامها! فهو يعتقد أن السموات قد فُتحت أبوابها، ومع ذلك فإن هذا الوضع الذي هو أكثر مضايقه للتلميذ مما للمعلم ليس أكثر ما يناسب التعليم؛ وذلك لأنه لا يُعرف حينئذٍ ما يصنع أحدهما بعينه اجتناباً للعينين الآخرين اللتين تتعقبانهما، فإذا ما تلاقت العيون لم يسرِ الدرس سيراً حسناً.

أجل، إن فنَّ التفكير ليس غريباً عن النساء، بيد أنه لا ينبغي لهن أن يصنعن غير لمس العلوم العقلية لمساً خفيفاً. وتفهم صوفية كل شيء، ولا تحفظ كبير شيء، وأعظم ما يكون تقدمها في علوم الأخلاق وأمور الذوق، وأما الفيزياء فلا تحفظ منها غير قليل من النواميس العامة ونظام الكون. ومما يحدث في أثناء نُزُهما أحياناً أن يتأثلاً عجائب الطبيعة، فيجرؤ فؤادهما البريء على الارتقاء إلى صانعها؛ فهما لا يخشيان حضوره، وهما يبوحان بأسرار قلبهما أمامه.

ماذا! عاشقان في زهرة العُمر يبحنان في الدين على انفراد، ويقضيان وقتهما في الكلام حول كتابهما في الدين! وما فائدة الحطّ مما هو عالٍ؟ أجل، لا ريب، إنهما يتكلمان حوله حين سبجهما في الخيال الذي يفتنهما، فيريان أنهما كاملان، ويتحابان، ويتحدثان بحماسة فيما يجعل للعفاف قيمة، وما يُبدلان في سبيله من تضحيات يجعله عزيزاً عليهما. وهما في أثناء الهياج الذي يجب أن يتغلبا عليه يسكبان في بعض الأحيان من الدموع ما هو أصفى من ندى السماء، فتكون هذه العبرات الخلوة فتنة حياتهما؛ وذلك أنهما يكونان في أعظم ما تُبتلى به نفس بشرية من هذيانٍ ساحر، ويزيد جرمانهما نفسه في سعادتهما ويُشرف تضحيتهما في أعينهما. أجل، إنهما سيرفان ملاذكم ذات يوم أيها الناس، أيتها الأبدان بلا روح، فياسفان مدى حياتهما على الأوقات المباركة التي امتنعا فيها عن التمتع بهذه الملاذ!

ومع ما هو واقعٌ بينهما من اتفاقٍ رائعٍ، فإنه يَحْدُثُ بينهما في الحينِ بعد الحينِ خلافٌ، ونزاعٌ أيضاً؛ فليستِ صاحبةُ بلا جماحٍ، وليس العاشقُ بلا حِدَّةٍ، غير أن هذه العواصفَ الصغيرةَ تَمُرُّ بسرعةٍ، ولا تؤدي إلى غيرِ تثبيتِ الاتحادِ، حتى إن التجربةَ علَّمتِ إميلَ ألا يخشاها؛ فالإصلاح في كلِّ وقتٍ أنفعُ له من شقاقٍ يَحْسُرُ به، وما كان للخلافِ الأوَّل من نتائجٍ جعله ينتظر نتيجةً مماثلةً من جميع الخلافات. أجل، إنه مخطئٌ في هذا، ولكنه حتى عند عدم نيَّله فائدةً ظاهرةً كذلك دائماً، يكون له كسبٌ دائمٌ بما يَرى من توكيدِ صوفيةٍ لاهتمامها بحبِّه، ويُرادُ أن تُعرَفَ هذه الفائدةُ، وهذا ما أقومُ به مُختاراً ما دام هذا المثالُ يُتيحُ لي فرصةَ عرضِ مبدأ مفيدٍ جداً وفرصةً مكافحةٍ مبدأ كثيرِ الشؤمِ.

وإميلُ يُحبُّ؛ ولذا فهو ليس مغامراً، وأحسنُ من هذا تمثُّلاً أن يُدركَ أن صوفيةَ الآمرةِ ليست بالفاتنة التي تَمُنُّ عليه باللقابِ، وبما أن للحكمةَ حدَّها في كلِّ شيءٍ، فإن صوفيةَ تُنسبُ إلى الشدةِ أكثرَ مما إلى المساهلةِ، حتى إن أباهَا يخشى في بعض الأحيان أن يتحوَّلَ زهوها المتناهي إلى كبرياء. وما كان إميلُ في أكثرِ الخَلُواتِ خفاءً ليلتمس من الألفاظِ حتى أخفَّها، ولا ليظهرَ بمظهرِ الراغب في ذلك أيضاً، وهي إذا ما تفضَّلت في أثناء النزهة بأن تجعلَ ذراعها تحت ذراعٍ لم يَنَمَّ هذا على تغييرٍ في الحقوق؛ فلا يكاد أحياناً يضغطُ بذراعها صدره تلَهُفاً، ومع ذلك فإنه يخاطرُ بعد حَضْرٍ طويلٍ فيقبَلُ ثوبها خفيةً، وما أكثرَ ما يكون سعيداً إذا ما منَّت عليه بعدم التفاتها إلى ذلك. وإذا حدث ذات مرةٍ أن أرادَ انتحالَ ذاتِ الحرِّيةِ بشيءٍ من العلانيةِ عنَّ لها أن تجده سَيِّئاً جداً، ويصبرُ، وتغضبُ، ويُملي الغضبُ عليها بعضَ الألفاظِ اللاذعةِ، ولا يحتملُها إميلُ بلا جوابٍ، فتَمُرُّ ببقيةِ النهارِ منغصَّةً، ثُمَّ يفترقان مستاءين.

وتعتلُّ صوفيةٌ على مهْلِها، وأمُّها نجيةٌ لها، وكيف تكتم عنها كزبها؟ وهذا أوَّلُ شقاقٍ وقعَ بينهما، وشقاقٌ ساعةٍ أمرٌ جَلَلٌ! وتندم على ما صدرَ عنها من خطأ، وتأذُنُ أمُّها لها في إصلاحه، ويأمرها أبوها بإصلاح ذاتِ البينِ.

وفي الغدِ يعودُ إميلُ هَلُوعاً قَبْلَ الساعةِ المعتادةِ، وتكون صوفيةٌ في مَخَدَعِ أمِّها، ويكون أبوها في هذه الغرفةِ أيضاً، ويدخلُ إميلُ محترماً، ولكن مكثباً. ولم يكد الأبُ والأُمُّ يُسلِّمان عليه حتى عادت صوفيةٌ وهي تُقدِّمُ إليه يدها وتساله عن صحته. ومن الجلي أن هذه اليدَ الجميلةَ لم تُمدَّ إلا لِنُقْبَلِ، ويتناولها ولا يُقبَّلُها، وتستردُّها صوفيةٌ التي كانت على شيءٍ من الخجلِ بأقصى ما يُمكنها من اللطف، وما كان إميلُ لينسى بسهولةٍ ولا ليهدأ بسرعةٍ. وإميلُ هو الذي لم يُنشأَ وفقَّ

أطوار النساء، وإميل هو الذي لا يَعْرِف وجه الحُسن في أتباع الإنسان هواه. ويراهما أبوها مرتبكتين فيئيم ارتباكها بسُخريات، لا تعرف الفتاة المسكينة المضطربة الخجلى ما تفعل، فتكاد تبكي، وهي كُلما صَبَطت نفسها انتفخ قلبها، وأخيرًا ثقلتُ منها دمعَةٌ على الرغم منها، ويُصِرُّ إميل هذه العبرة فيبادر إلى صوفية راکعًا ويتناول يدها ويُقبِّلها غير مرة تقيبلاً مؤثراً، ويقول الأب ضاحكًا: «حقًا أنك رجلٌ طيبٌ جدًّا، ولو كنتُ في مكانك لكنتُ أقلَّ تسامحًا تجاه جميع هذه الحماقات، ولعاقبتُ الفم الذي أهانني.» ويجترئ إميل بهذه الكلمة فيدير عينًا ضارعةً إلى الأم، ويظنُّ أنه يُصِرُّ إشارةً موافقةً منها، فيدنو مرتجعًا من وجه صوفية التي تُدير رأسها إنقادًا لغمها، فتعترض خدًا ورديًا، ولا يكتفي عادِمُ الفطنة بهذا؛ فالمقاومة ضعيفة، وأيُّه قُبلةٌ تكون لو لم تُؤخذ على مرأى من أمها! ويا صوفية الشديدة، احتريزي، فسيُطلبُ ثوبك ليُقبَّل غالبًا على أن ترفضي ذلك أحيانًا.

ويخرج الأب لبعض الشئون، وتُرسَلُ الأم صوفيةً لبعض المعاذير، ثم تُوجَّه الكلام إلى إميل وتقول له جادةً:

«أظنُّ أن شابًا حسنَ المولدِ حسنَ المنشأ مثلك أيها السيد، فيكون صاحبًا لمشاعر وأخلاق، لا يُقابل بهتك السُّرَّ أسرةً حَبَّتَه بصدقتها، ولستُ شريسةً مُفرطةً في الاحتراس، وأعرفُ جميع ما يُمكن أن يُمَرَّ على الشباب اللُّعوب، وما اصطُرْتُ عليه أمامي يُثبِتُ لك ذلك بما فيه الكفاية، وشاورُ صديقك في واجباتك؛ فهو سيُخبرُك بالفرق بين اللُّعب الذي يبيحه حضورُ الأب والأم، والحرية التي تُتخذ في غيابهما مع إساءة استعمالٍ لثقتيهما وتحويلٍ إلى حائلٍ ما ليس غير طهرٍ في حضرتيهما من الألفاظ عيها. وهو سيُخبرُك أيها السيد بأنه لا ذنبٌ لابنتي معك غير كونها لم تر منذ المرة الأولى ما لا ينبغي أن تُعانيه مطلقًا، وهو سيُخبرُك بأن كلَّ ما يُعدُّ من الألفاظ هو من الألفاظ، وبأنه لا يليق برجلٍ الشَّرَف أن يسيء استعمالَ بساطةِ فتاةٍ فيغتصب سرًّا عينَ الحرية التي يُمكنها أن تعانيتها أمام جميع النَّاس؛ وذلك لأنه يُعرف ما يُمكن أن تسمح به اللياقة جهراً، ولكنه يجهل أين يَقِفُ في ظلِّ الخفاء ذاك الذي يكون وحده قاضيًا في أهوائه.»

تركتنا هذا الأمُّ الحكيمة بعد قيامها بهذا اللوم الصائب الموجَّه إليَّ أكثرَ مما إلى تلميذي، وتدعني مُعجَبًا بِفطنتها النادرة التي تُعدُّ بها لثَمَ فم ابنتها أمامها أمرًا لا يُؤبه له، فتدعُر من الإقدام على تقبيل ثوب هذه البنت على انفراد. وإني حين أنعم النظر في سخافة مبادئنا التي تُضحي دائمًا بالصالح الحقيقي باسم الحشمة أدركُ السبب في أن اللسان يكون عفيفًا بنسبة ما تكون

الأفندة أكثر فسادًا، وفي أن الأوضاع تكون صحيحةً بنسبة ما يكون أصحابها أكثر عدم استقامة. واني حين أنفد في هذه التَهْزَة فَوَادَ إميلِ حَوْلِ الواجبات التي كان يجب أن أمليها عليه يَرِدُ خاطري فِكْرٌ جديدٌ يحتملُ أنه أكثرُ ما يكون تشريعًا لصوفية، فأحترزُ مع ذلك من إطلاعِ عاشقها عليه، وذلك أن من الواضح أن ذاك الزهو المزعوم الذي تلام عليه ليس غير احتياطي بالغ الحكمة لوقاية نفسها من نفسها؛ فهي إذ كانت من الشقاء ما تشعُرُ معه بجزاجها الملتهب دُعِرَت من الشرارة الأولى فصرفتها عنها بما أُوتيت من قوة، وهي ليست شديدةً عن زهو بل عن تواضع، وهي تتخذ من السلطان على إميلٍ عن خشيةٍ عدم اتخاذه نحو نفسها، وهي تنتفع بسلطانٍ لمقاومة الآخر، ولو كانت أكثر اعتمادًا على نفسها لظهرت أقلَّ زهواً، وأية فتاة في العالم تكون أكثر دماثةً وأعظم لطفًا إذا ما عدوت هذه الناحية؟ ومَن يكون أكثر احتمالاً للإهانة؟ ومَن يكون أكثر فزعًا من إهانة غيره؟ وإذا عدوت الفضيلة فمن يكون أقلَّ زعمًا؟ ثم إنها لا تزهو بفضيلتها، وهي إذا ما زهت لم يكن هذا إلا لحفظ فضيلتها، ولو كانت تستطيع أن تستسلم إلى ميئها بلا حَظَرٍ لَلألفَت حتى عاشقها، ولكن أمها الرزان لا تبوح بهذه الجزئيات حتى إلى أبيها؛ فلا ينبغي للرجال أن يعرفوا كلَّ شيء.

وقد صارت صوفيةً البعيدة حتى من الظهور بمظهر الفُحُور بنصره، أكثر أنسا وأقلَّ تطلبًا تجاه جميع العالم، وذلك مع استثناء ذلك الذي أوجب هذا التحول على ما يحتمل، وعاد حسن الاستقلال لا ينفخ فوادها النبيل؛ فهي تنال مع التواضع نصرًا يكلفها حرمتها، وأصبحت أقلَّ طلاقةً في الهيئة وأكثر حياءً في اللهجة منذ عادت لا تسمع كلمة «العاشق» من غير أن يحمرَّ وجهها خجلًا، بيد أن الرضا يظهر من خلال ضيقها، وليس هذا الخجل نفسه شعورًا مُكَدَّرًا، وأكثر ما يكون الفارق في سلوكها تجليًا هو عند اجتماعها بالطائرين من الشبان؛ فهي إذ عادت لا تخشاهم زال كثيرٌ من سابق تحفظها المتناهي نحوهم، وهي إذ قطعت في أمر اختيارها ظهرت مؤنسةً للأخلاء من غير تردد، وهي إذ غدت أقلَّ تشددًا حول مزيتهم منذ عادت لا تبالي بهم وجدتهم دائمًا على شيءٍ من اللطف لدى أناسٍ لا يُعدون عندها شيئًا غير مذكور مُطلقًا.

وإذا كان الحب الحقيقي يحتمل الدلال ظننت أنني أرى آثارًا له في الوجه الذي تصرف فيه صوفيةً مع أولئك في حضرة عاشقها، فيقال إنها لم تكتفِ بالهوى الحار الذي تلهيه فيه بمزيجٍ لذبيذٍ من الحشمة والملاطفة؛ فصار لا يؤسفها أن تزيد هذا الهوى سعيًا بقليلٍ من الهم، ويُقال إنها حين تسرُّ ضيوفها من الشبان عمدًا، تقصد أن تُعذب إميلَ بالطافِ دُعايةً لا تبيح

لنفسها أن تصنعها معه، بَيِّدَ أن صوفية هي من الانتباه والصلاح والحصافة ما لا تُعَدُّه معه حقيقة؛ فالحبُّ والشرف يقومان مقام الفطنة في تلطيف ذاك المُعْري الخطير، وهي تعرف أن تُدْعِرَهُ وتُسَكِّنَ رَوْعَهُ تمامًا عند الاقتضاء، وهي إذا ما أورثته غَمًّا أحياناً لم تُورثه حُزْنًا مطلقاً، ولنغفرُ لها ذلك الهمُّ الذي تلقيه في ذلك الذي تُحِبُّ مع خوفها ألا يكون مرتبطاً فيها ارتباطاً كافياً.

ولكن ما يكون تأثيرُ هذه الحيلة الصغيرة في إميل؟ ألا تأكله الغيرةُ أم لا؟ يجب دَرُسُ هذا؛ وذلك لأن مثل هذه الاستطرادات تدخل ضمن مادة كتابي أيضاً، وتُبعِدُنِي من موضوعي قليلاً.

لقد بَيَّنْتُ سابقاً كيف يَجِدُ هوى الغيرةُ إلى قلبِ الإنسان سبيلَهُ في الأمور التابعة للرأي العام، ولكنَّ الأمرَ غيرُ هذا في الغرام؛ فهناك تكون الغيرةُ من قُرْبها إلى الطبيعة ما يَصْغُبُ معه أن يُعْتَقَدَ عدمُ صدورها عنها، ويلوح أن مثالَ الحيوانات التي بلغت الغيرةُ في كثيرٍ منها درجة الجنون، يؤيِّدُ هذا الإحساسَ تأييداً لا يُرَدُّ، وهل رأيُ النَّاسِ هو الذي يُعَلِّمُ الديوكَ تمزيقَ بعضها بعضاً؟ وهل ذاك الرأي هو الذي يُعَلِّمُ الشَّيرانَ الاضطراعَ حتى الموت؟

ولا جدالَ في أن ما يساورنا من نفورٍ حولَ كلِّ ما يُكَدِّرُ مَلاذُنًا ويقاومها دافعٌ طبيعي، وقُلٌّ مثلُ هذا إلى حدِّ ما عن الرغبة في حيازتنا ما يَرُوفُنَا حياةً مطلقة، ولكن هذه الرغبة إذا ما أصبحت هوى، فتحولت إلى صولةٍ أو إلى خيالٍ جافٍ ذي اكتئابٍ اسمه «الغيرة» تَغَيِّرُ الأمر، فأمكن أن يكون ذلك الهوى طبيعياً أو لا يكون، فلا بُدَّ من التمييز.

وكنْتُ قد عالجتُ في رسالتي عن «التفاوت» مثالَ الحيوانات، والآن أنعم النظر في هذا المثال مُجدِّداً، فيُظْهِرُ لي أنه من المتانة ما أجزؤُ معه على ردِّ القراء إليه، وإنما أضيفُ إلى الإيضاحات التي قُمتُ بها في ذلك الكتاب كَوْنُ الغيرة التي تُصَدِّرُ عن الطبيعة كثيرةَ الاتِّباعِ لقوة الجنس، وأن هذه القوة إذا كانت، أو بدتْ، لا حَدَّ لها طَفَحَ كَيْلُها؛ وذلك لأن الذكْرَ إذ يَرُنُّ إذ ذاك حقوقَه بأوطاره فإنه لا يُطِيقُ مطلقاً أن يَرى ذكراً آخرَ منافساً مزعجاً له. وبما أن الإناث في هذه الأنواع تُطِيعُ أوَّلَ مُقْبِلٍ فإنها لا تكون تابعةً للذكور إلا بحقَّ الفتح، وتكون سبباً لِمَا لا ينتهي من صِراعٍ بينهم.

والأنثى على العكس، إذ كانت في الأنواع التي يقترن الواحدُ فيها بواحدة، وحيث السَّفَادُ يُسْفِرُ عن ضربٍ من الرابطة الأدبية، أي يُسْفِرُ عن ضربٍ من الزواج خاصةً بالذَّكْر الذي وَهَبَتْ

نفسها له عن اختيارٍ منها، فإنها تمنع نفسها من أيِّ ذكْرٍ آخَرَ على العموم. وإذ إن للدُّكْرَ ضمناً لوفائها بهذا الحُبِّ عن ترجيح، فإن هذا الدُّكْرَ يكون أقلَّ غمًّا بمنظر الذكور الآخرين، ويعيش معهم عيشاً أكثرَ سلاماً، والدُّكْرُ في هذه الأنواع يشترك في رعاية الصَّغار، ويلوح بسُنن الطبيعة التي لا تُلاحظ من غير تحسُّن أن الأنثى تُظهر للأب حُبًّا كالذي تُظهر لأولادها.

والواقع أننا إذا نظرنا إلى النوع البشري في بساطته الابتدائية سهَّلَ علينا أن نرى، بقدرة الدُّكْرَ المحدودة وباعتدال رغائبه، أنه أُعِدَّ من قِبَل الطبيعة للاكتفاء بأنثى واحدة، وهذا ما تؤيده المساواة العددية بين أفراد الجنسين في أقاليمنا على الأقل، هذه المساواة التي لا محلَّ لها غالباً في الأنواع التي تكون قوَّة الذكور فيها من القدرة العظيمة ما يجمع الواحد منهم معها بين إناثٍ كثيرٍ. ومع أن الرِّجل لا يَزُحُم كالحَمَام، وليست له تُدِيٌّ للإرضاع، فإنه يُعَدُّ من ذوات الأربع من هذه الناحية، ويظَلُّ الأولاد من الرِّحْف والضعف لزمنٍ طويلٍ ما يَصْغُب عليهم وعلى أمهم أن يستغنوا معه عن عطف الأب وعن رعايته التي هي نتيجة هذا العطف.

وتتسابق جميع المشاهدات إذن في إثباتها أن صَوْلَةَ الغيرة في ذكور بعض الحيوانات لا تُدَلُّ على شيء في الإنسان، حتى إن استثناء الأقاليم الجنوبية القائلة بتعدد الزوجات لا يُعَدُّ إلا مؤيِّداً للمبدأ ما دام احترازُ الأزواج الاستبدادي لا ينشأ عن غير كثرة النساء، وما دام شعورُ الرجل بضعفه الخاصَّ يحمله على الاستعانة بالقهر تخلصاً من سُنن الطبيعة.

وتجدُّ الغيرة بيننا - حيث تكون هذه السُنن نفسها أقلَّ تجنُّباً من هذه الناحية، ولكن مع كونها أكثرَ تجنُّباً من الناحية الأخرى، وذلك على وجهٍ أدعى إلى المَقْت - عوامِلها في أهواء المجتمع أكثرَ مما في الغريزة الابتدائية، ويكون العاشقُ في معظم روابط الدُّلال أكثرَ مقتناً لمنافسيه من حُبِّه لصاحبه، وهو إذا كان يخشى ألاَّ يُسْتَمَعَ إليه وحده فذاك لأنه نتيجة حُبِّ النفس الذي بيَّنْتُ أصله، ولأن الزهو أكثرُ من الحُبِّ إثارةً له، وذلك فضلاً عن كون نُظْمنا السخيفة قد جعلت النساء من المداجاة،^{١٩} وقد بلغت من إشعال شهواتهن ما لا يكاد الواحد يعتمد معه على أكثرِ مودَّاتهن ثبوتاً؛ فعُدُن لا يستطعن الإشارة إلى التفضيلات التي تُلقِي السكينة في القلب تجاه الخوف من المنافسين.

^{١٩} يخالف نوع المداجاة التي أقصد هنا ذلك النوع الذي يلائمهن، والذي يأتيهن من الطبيعة؛ فأحدهما يقوم على إخفاء ما عندهن من مشاعر، ويقوم الآخر على إظهار ما ليس عندهن منها، ويقضي جميع نساء المجتمع حياتهن في الافتخار المزعوم بإحساسهن، مع أنهن لا يحبين غير أنفسهن في الحقيقة.

وأما الحُبُّ الحقيقيُّ فأمرٌ آخرٌ، وقد بيَّنتُ في الكتاب المذكورَ أنّما أن هذا الإحساس ليس من الطبيعة بالمقدار الذي يظنُّ النَّاسُ؛ فيوجد فرقٌ كبيرٌ بين العادة المستحبَّة التي يُحِبُّ بها الرجلُ رفيقته، والحرارة الجامحة التي تُسكِرُه بجواذبٍ وهميةٍ حوَّلَ شيءٍ يعود لا يراه كما هو، ولا يختلف عن الرَّهْوِ هذا الهوى الذي لا يتنسَّم غيرَ استثناءاتٍ وتفضيلاتٍ إلا بكون الرَّهْوِ، الذي يطلَّبُ كلَّ شيءٍ ولا يحبو بشيءٍ، جائزًا دائمًا، وذلك بدلًا من الحبِّ الذي يُعطي بمقدارٍ ما يطلَّبُ فيكون بذاته إحساسًا مملوءًا إنصافًا، وذلك فضلًا عن أن الحبَّ كلُّما كان طُلُوبًا كان ميقانًا،*^{٢٠} ومن شأن الوهم الذي يُوجبه أن يجعل إقناعه سهلاً، وإذا كان الحبُّ هَلُوعًا فإن الاعتبار يكون مؤتمنًا، وما كان الحبُّ بلا اعتبارٍ ليوجد في قلبٍ شريفٍ؛ وذلك لأنه لا أحدٌ يُحِبُّ فيمن يُحِبُّ غيرَ الصفات التي يقيم لها وزنًا.

ويمكننا، بعد إيضاح جميع ما تقدَّم، أن نُبيِّنَ واثقين نوعَ الغيرة التي يقدر عليها إميل، وذلك بما أن جرثومة هذا الهوى تكاد تكون في قلب الإنسان، فإن التربية هي التي تُعين شكله حصراً. ولن يكون إميلُ العاشقُ الغيورُ غَضُوبًا جَفُولًا ظَنُونًا، ولكنه سيكون رقيقًا حساسًا هَيُوبًا، وهو سيكون جزوعًا أكثرَ منه مَغِيظًا، وهو سيعني نبيل خليلته أكثرَ مما يتهدد مُنَافسه، وهو سيفضيه إذا ما استطاع كما يُقضى المانع، وذلك من غير أن يُغضه كما يُغضُّ العدو، وهو إذا ما أبغضه فلن يكون هذا لأنه أبقى من الجرأة ما يُنازعه به فؤادًا يدَّعيه، بل لخطرٍ حقيقيٍّ يحمله عليه فيؤدي إلى ضياعه له، ولا يكون من الحماسة ما يتور به عُجْبُه العسوف من جرأةٍ على منافسته، وبما أنه يدرك أن حقَّ الأفضلية قائمٌ على المزيَّة وحدها وأن العزَّ في القوز فإنه سيضاعف جهوده ليكون محبوبًا، ومن المحتمل أن يُكتب له النجاح. وستعلم صوفية الكريمة حيث تُثيرُ دُعره أن تُسوي هذا الدُعرَ وأن تُعوضه منه. ولا يلبث المنافسون الذين لم يألموا إلا ليبتلوه أن يردُّوا.

ولكن إلى أين أساقُ من حيث لا أدري؟ وبي، إميل! ماذا أصبحت؟ وهل يمكنني أن أعرف فيك تلميذي؟ ما أكثرَ ما أراك قد سقطتَ من مرتبتك! وأين هذا الشابُّ الذي كُوِّنَ تكوينًا حَسِنًا جدًّا، والذي كان لا يُبالي بمكاره الفصول، والذي كان يُسلمُ بدنه لأشدِّ الأعمالِ ويُسلمُ روحه لقوانين الحكمة فقط، والذي كانت المُبتسرات والأهواء لا تجدُ إليه سبيلاً، والذي كان لا يحبُّ سوى الفضيلة ولا يدعُ لغير العقل، فلا يابته لِمَا لا يأتي منه؟ والآن قد أُتْرِفُ بالفراغ

*^{٢٠} الميقان: الذي لا يسمع شيئًا إلا أيقن به.

فَيَرْضَى أَنْ يُسَيِّطِرَ عَلَيْهِ النِّسَاءَ، وَتَقُومُ أَشَاعِيْلُهُ عَلَى لِهَوَاهُنَّ فَتَكُونُ عِزَائِمُهُنَّ دَسَاتِيْرَ لَهُ، وَتَظْهَرُ
فِتَاءَ حَكْمًا فِي مَصِيْرِهِ، وَيَزْحَفُ وَيَسْحَنِي أَمَامَهَا، وَيَبْدُو إِمِيْلُ الرِّزِيْنِ أَلْعُوبَةَ وَوَلِدًا!

وهكذا تتحوّل مناظرُ الحياة؛ فلكلِّ عُمرٍ نوابضُهُ التي تُحرِّكُهُ، ولكنَّ الرَّجُلَ هو هو دائماً،
والرَّجُلُ إذا كان في العاشرة من سِنِيهِ سِيْقُ بِالْحَلْوَى، وإذا كان في العشرين سِيْقُ بِخَلِيْلَةٍ، وإذا
كان في الثلاثين سِيْقُ بِاللَّدَاتِ، وإذا كان في الأربعين سِيْقُ بِالطُّمُوحِ، وإذا كان في الخمسين
سِيْقُ بِالطَّمَعِ، فمتى يسعى في طلب الحكمة خَصْرًا؟ طُوبَى لِمَنْ يُسَاقُ إِلَيْهَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْهَا!
ولكنَّ المرشِدُ من أيِّ قبيلٍ كان على أن يسوقه إلى الغاية، وقد أذى الأبطال والحكماء أنفسهم
هذه الجزية إلى الضَّعْفِ البشري، وليس من أدارت أصابعهم مَبَارِمَ أَقْلٍ من هؤلاء عظمة لهذا
السبب.

وإذا أردتم أن تَبْسُطُوا على الحياة كلَّها عمَلَ تربيةٍ مُوقَّعة، فأطيلوا في دور الشباب
عاداتِ دُورِ الصِّبَا الصَّالِحَةِ، ومتى كان تلميذكم ما يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فافعلوا ما يكون عَيْنُهُ فِي
جميع الأوقات، وهذا هو آخر ما يبقى عليكم أن تكملوا به صُنْعَكُمْ؛ ولهذا فإنه يكون من المهمِّ
على الخصوص تَرْكُ مُرَبِّ لِلشَّبَابِ؛ وذلك لأنه يُحْشَى بعض الشيء ألا يَعْرِفُوا الْقِيَامَ بِالْحَبِّ بغيره.
ويتطرَّق الخطأ إلى المُرَبِّينَ، ولا سيَّما الآباء، من ظنَّهم أن طرأًا للحياة يجعل طرأًا آخر لها أمرًا
متعذرًا؛ فمتى كَبِرَ الولدُ وَجِبَ أَنْ يُعَدَّلَ عَنْ كُلِّ مَا كَانَ يُصْنَعُ لَهُ فِي صِغَرِهِ، وإذا كان هذا
صحيحًا فما نَفَعُ العناية بدور الصِّبَا ما دام يَزُولُ بزواله ما يُصْنَعُ من صالحه وطالحه، وما دامت
تُنَحَّذُ طُرُزٌ للتفكيرِ أخرى باتخاذِ طُرُزٍ للحياة مختلفةٍ عن تلك كلِّ الاختلاف؟

وكما أنه لا يَحُلُّ الذَّاكِرَةَ غَيْرُ الأَمْرَاضِ الكَبِيْرَةِ، فإنه لا يوجد غيرُ الأهواء الكَبِيْرَةِ ما يَحُلُّ
الأخلاقَ، ومع أن أدواقنا وميولنا تتغيَّرُ فإن هذا التغيُّرَ الذي يكون مفاجئًا أحيانًا، يُلَطَّفُ بالعادات،
ويجب على المتفنن الماهر أن يجعل الانتقالات في تعاقب ميولنا أمرًا لا يُشْعِرُ بِهِ، كما يتدرَّج في
الألوان تدرُّجًا صالحًا، فيخلط بين الأصباغ ويُمزج بعضها ببعض، وأن يَسْطَطَ كثيرًا منها على أثره لكيلا
يَنفصل أيُّ منها، وقد أَيْدَتِ التجربة هذه القاعدة؛ فمن يُجاوِزون حَدَّ الاعتدالِ يُغيِّرون في كلِّ يوم
عواطفهم وأذواقهم ومشاعرهم، فلا شيء ثابتٌ عندهم غيرَ عادة التغيُّرِ، وأمَّا الرَّجُلُ المَتَرَنُ فيعودُ إلى
عاداته السابقة دائمًا ولا يَفْقِدُ حتى في مَشِيْبِهِ ذُوقَ المِلَادِ التي كان يُحِبُّهَا وهو صبي.

وإذا ما صنعتم عند الانتقالِ إلى دُورٍ جديدٍ من العُمُرِ ما لا يزدري الشُّبَّانُ معه دُورَ العُمُرِ
السابق مطلقًا، وما لا يتركون معه سابق العادات عند إيلافهم عاداتٍ جديدة، وما يُجْبُونُ معه فِعْلَ

الخير دائماً غير ناظرين إلى الوقت الذي بدءوا فيه؛ فهناك فقط تُنقذون عملكم وتطمئنون إليهم حتى آخر أيامهم؛ وذلك لأن أكثر ما يُخشى من ثورة هو ثورة العُمَر الذي ترقبونه الآن، وبما أنه يُوسف عليه دائماً فإن من الصعب أن يُقضى على الأذواق التي يُوتى بها إليه من دُور الصبا، ولكنها لا تعود إذا ما قُطعت.

وليس من العادات الحقيقية معظم العادات التي تظنون أنكم تُلَقِّنون الأولاد والشبان إياها؛ وذلك لأنهم إذ لم يتلقوها إلا كرهاً، ولأنهم إذ يتبعونها على الرغم منهم، لا ينتظرون غير فرصة التخلص منها، فلا يُعتنق ذوق البقاء في السجن عن فعل الإقامة به؛ فالعادة هنالك تريد النفور بدلاً من نقصه. وليس هذا حال إميل الذي لم يصنع شيئاً في صباه إلا طوعاً وبلدة، فلما صار رجلاً داوم على عين الفعل، ولم يعمل غير إضافة سلطان العادة إلى أُلطاف الحرية، وقد بلغ من احتياجه إلى الحياة الفعالة وإلى عمل الذراعين وإلى التمرين والحركة ما لا يتزك معه هذه الأمور من غير أن يألم، وينطوي إلزامه من فوره بحياة ناعمة حضرية على سجنه وتقييده وإلقائه في حالٍ من الشدة والقهر. ولا ريب عندي في فسادٍ يُصاب به، مزاجاً وصحةً على السواء. وهو إذا ما كاد يكون قادراً على التنفس هيناً في عُرفة مُقفلّة تماماً احتاج إلى الهواء الطلق وإلى الحركة والعناء، حتى إنه إذا ما كان راکعاً أمام صوفية لم يستطع أن يمنع نفسه من إلقاء نظرة إلى الحقول في الحين بعد الحين مع رغبة في أن يجوبها معها، ومع ذلك فإنه يبقى حينما يجب البقاء، ولكن مع غمٍ واضطراب، ويلوح أنه يتنفض بقصد التملص، وهو يبقى لأنه مُوثق بالقيود، وسوف تقولون: «إذن، هذه احتياجاتٌ قد أخضعته لها، وهذه عבודياتٌ قد جبوته بها.» وجميع هذا صحيح، وإنما جعلته خاضعاً لحال الرجولة.

أجل، إن إميل يُحب صوفية، ولكن ما المُثون الأوّل الذي ربطه بها؟ الخنو والفضيلة وحب الأمور الصالحة، وهو إذا أحب هذا الحب في صاحبه فهل يفقده في نفسه؟ وما الثمن الذي تصع صوفية لنفسها بدورها؟ إنها تضع جميع المشاعر التي تُساور قلب عاشقها من تقدير الأمور الصالحة والقناعة والبساطة والخلو من الغرض وازدراء البذخ والثراء، وكانت هذه الفضائل موجودة في إميل قبل أن يفرضه الحب عليه، وفيه يكون إميل قد تغير في الحقيقة؛ لديه أسبابٌ جديدةٌ يكون بها إياه، وهذه هي النقطة الوحيدة التي يختلف بها عما كان عليه.

ولا أتصور استطاعة أحدٍ حين يقرأ هذا الكتاب بشيءٍ من الدقة أن يعتقد أن جميع الأحوال التي تكتنف الوضع الذي يكون عليه قد تجمعت حوله مصادفةً على ذاك الوجه، وهل

من المصادفة أن توجد هذه الفتاة التي تروقه في صميم مكانٍ منعزلٍ ناءٍ مع تقديم المدن كثيرًا من البنات اللطيفات؟ وهل لقيها مصادفة؟ وهل توافقًا مصادفة؟ وهل من المصادفة ألا يستطيعا الإقامة بعين المكان؟ وهل من المصادفة ألا يجد ملجأً إلا في مكانٍ بعيدٍ منها؟ وهل من المصادفة ألا يراها إلا نادرًا، وأن يضطرَّ إلى اشتراء نعمة رؤيتها أحيانًا بمتاعبٍ كبيرة؟ أنتم تقولون إنه يتخنث، وهو على العكس يتخشن، ويجب كذلك أن يكون من الاشتداد كما نشأته حتى يقاوم المشاق التي تحمله صوفيةً على احتمالها.

هو يسكن منزلاً بعيداً فرسخين منها، وهذه المسافة هي كير الحداد، وبهذه المسافة أسقي سهام الحب، ولو كان كلُّ منهما جاراً للآخر، أو لو كان قادراً على الذهاب لرؤيتها، جالساً على فراشٍ وثيرٍ داخل عربةٍ فاخرةٍ لأحبها حباً مريحاً؛ أي لأحبها على الطريقة الباريسية. وهل كان ليأندُر يطُلب الموتَ من أجل هيرو لو لم يفصله البحرُ عنها؟ فيا أيها القارئ، أكفني متونة الكلام، فإذا كنتَ قد كُؤنتَ لإدراكي اتبعتَ بما فيه الكفاية مبادئ كما فصلتُ.

وكُنَّا في المرات الأولى التي ذهبنا فيها لرؤية صوفيةٍ قد ركبتنا خيلاً للسير بسرعة، ونجد هذه الوسيلة ملائمة، ونداوم على ركوب الخيل حتى المرة الخامسة، وكُنَّا ننتظر، ونشاهد أناساً في الطريق على مسافة نصف فرسخٍ من البيت. ويلاحظ إميل، ويخفق قلبه، ويدنو، ويعرف صوفية، وبترجلٍ بسرعة، وينطلق، ويطير، ويصل إلى الأسرة المحبوبة، ويحب إميل جيداً الخيل، ويكون جواذُه رشيقيًا، ويشعر بأنه طليق، ويهزُّب عدوًّا من خلال الحقول، وأتبعه وأتلَّغه بعناءٍ وأعيدته. ومن المؤسف أن صوفيةً تخاف الخيل، فلا أجرؤ على الاقتراب منها، ولا يُبصر إميل شيئاً، ولكن صوفيةً تُسرُّ إليه في أذنه بما ترك لصديقه من مشقة، ويُسرع إميل خجلاً ويتسلم الخيل، ويفترق عنَّا ويكون أوَّلَ من يذهب للخلاص من مطابانا، وهو إذ ترك صوفيةً وراءه على هذا الوجه عادًة لا يجد الحصانَ مركبًا مريحًا، ويعود لاهثًا، ويلاقينا في منتصف الطريق.

وفي الرحلة الآتية يعود إميل راغبًا عن الخيل، وأقول له: «لماذا؟ ليس علينا إلا أن نأخذ خادمًا للالتفات إليها.» ويقول: «آه! أوثرهق الأسرة الكريمة مصروفًا على هذا الوجه؟ وأنت ترى جيدًا أنها تريد إطعام الجميع من خيلٍ وآدميين.» وأردُّ عليه بقولي: «أجل، إن عندهم نبلٌ قري الفقراء. أجل، إن الأغنياء البخلاء في أبتهم لا يؤوون غير الأصدقاء، ولكن الفقراء يؤوون أيضًا خيل الأصدقاء.» ويقول: «لنسر على الأقدام، ألا تُقدِّم على هذا أنت الذي يقاسم مسارَّ ابنه المتعب طيب خاطر؟» وأقول معقبًا من فوري: «أذهب عن رضا، وكذلك الحب لا يُريد كما يلوح لي أن يقع مع كثيرٍ من الصوغاء.»

وندنو فنجدُ الأمَّ والبنْتَ أبعدَ مما كانتا عليه في المرة الأولى، وقد أتينا كالسهم، ويكون إميلُ غارقاً في عَرْقه، وتفضّل يدُ عزيزةٍ يامرارٍ مندبِلٍ على خَدَيْه، فستوجد خيالَ كثيرٍ في العالم قبل أن نُغوى بالانتفاع بها بعد الآن.

ومع ذلك، فإن من القسوة ألا نستطيع قضاء السهرة معاً؛ فقد أخذ الصيف ينتضي، وقد أخذت التُّهُرُ تنقُص، ومهما يمكننا من قولٍ فإنه لا يُسمَحُ لنا بالرجوع من هناك ليلاً مُطلقاً، وإذا لم نَفدْ منذ الصباح وجب العودُ حين وصولنا تقريباً. وأخيراً يَعْنُ للأم عن توجُّعٍ لنا وقلقٍ من أجلنا أنه وإن كان من غير اللاتق أن نقيم بالمنزل، يُمكن أن يُوجد لنا مَسكَنٌ في القرية كيما ننأَم فيه أحياناً، ويُصَفِّقُ إميلُ عند سماع هذه الكلمة، ويَطْرَب، وثَقْبِلُ صوفيةً أمَّها أكثرَ من المعتاد لهذه الوسيلة التي وجدتها.

ويقوم لطفُ الصداقة ودُلُّ الطُّهرِ وَيَتَّبِتان بيننا مقداراً فمقداراً، وأجِيءُ عادةً مع صديقي في الأيام التي تُعِينُ من قِبَلِ صوفيةٍ أو أمَّها، وأدعُه يذهب وحده أحياناً، والاعتماد يرفعُ الرُّوح، وعاد لا ينبغي أن يُعامل الرجلُ مثل ولد، وما أكون قد أنجزت حتى الآن إذا كان تلميذي لا يستحقُّ إكرامِي؟ ومما يحدثُ أن أذهب من غير أن يكون معي، وهناك يغمُ ولا يتدَمَّر، وما فائدته من التدنُّر؟ ثم إنه يَعْرِفُ جيداً أنني لا أصنعُ ما يؤذي مصالحه، وأعلم أنه لا جَوَّ يعوقنا، سواءً علينا أذهبا معاً أم على انفراد، وكلُّ مَنَّا فخورٌ بالوصول في حالٍ يُرثِي لها. ومن دواعي الأسف أن تحرمتنا صوفيةُ هذا الشرف؛ فهي تمنعنا من المجيء إذا كان الجوُّ رديئاً، وهذه هي الفرصة الوحيدة التي تتمرّد فيها على القواعد التي أمليها عليها سراً.

ومما وقع ذات يومٍ أن ذهب وحده وأنني لم أنتظر رجوعه إلا في الغد، فأراه يعود في ذات المساء، وأقول له معانقاً: «ماذا! أراك ترجعُ إلى صديقك!» ولكنه بدلاً من أن يجيب عن ملاطفتي قال لي مع قليلٍ مزاجٍ: «لا تظنُّ أنني أعود بهذه السرعة مختاراً، بل أعود على الرغم منِّي؛ فقد أرادت أن أجِيء، وإنني أجِيءُ من أجلها لا من أجلك.» وتأثَّر من هذه السداجة، وأعانقه ثانيةً قائلاً له: «أيتها النفسُ الصدوق، أيها الصديق المخلص، لا تكتم عني شيئاً يتعلَّق بي، إذا كنتَ قد أتيتَ من أجلها فإنك تقول هذا من أجلي. أجل، إن رجوعك من عملها، ولكنَّ صراحتك من عملي، فحافظْ على هذه السريرة الجديرة بالنفوس الطيبة إلى الأبد. أجل، يمكن أن يُترك للأخلاء أن يُفكِّروا كما يشاءون، ولكنَّ من الإجماع أن يُطاق جعلُ الصديق لنا مزيَّةً عن شيءٍ لم نصنعُه من أجله.»

وأحترزُ من تنزيل قيمة هذا الاعتراف في نظره بأن وَجَدْتُ فيه غرامًا أكثر من أن أجد كرمًا، وبأن أقول له إنه يريد أن يُجرّد نفسه من شرف هذه العودة أقلّ من أن يحوِّب به صوفية، ولكنه يَكشِف لي عن سريره من حيث لا يدري بيانه أنه إذا ما جاء على مَهْلٍ وبخطئٍ ضيقة حالمًا بحبه لم يكن غيرَ عاشقٍ لصوفية، ولكنه إذا ما وصل بخطئٍ واسعةٍ نَزَقًا مع همِّهمِ كان صديقًا لمرشده.

وتروُّن بهذه التدابير أن فتايَ بعيدٍ من قضاء حياته بجانب صوفية ومن رؤيتها بمقدار ما يُريد، وكلُّ ما يُسمَحُ له به هو أن يقومَ برحلةٍ أو رحلتين إليها في الأسبوع الواحد، وفي الغالب تدوم زيارته نصفَ نهار، ومن النادر أن تمتدَّ إلى الغد. ويقضي وقته في رجائه أن يراها أو في تهنئته نفسه بأنه رآها أكثرَ مما في رؤيتها فعلاً، حتى إنه في الوقت الذي يُخصِّصُ لرحلاته يقضي من الزَّمن في ذهابه وإيابه أكثرَ مما يقضي بجانبها. والواقع أن لهوَه الصحيحَ الطاهرَ اللذيذَ، ولكن مع كونه حقيقياً أقلَّ منه خيالياً، يُثير حبه أكثرَ من أن يُحنِّث قلبه.

ولا يكونُ في الأيام التي لا يراها فيها متعطِّلاً ولا مُتخصِّراً مُطلقاً، بل يكون إميل أيضاً؛ أي إنه لا يكون متحوِّلاً قطعاً؛ فهو يجوب الأرياف المجاورة غالباً، فيتبع التَّاريخ الطبيعي، فيلاحظ الأرضين ويفحصها، ويفحص محصولاتها وزراعتها، وهو يقارن بين الأعمال التي يرى والأعمال التي يُعرف، وهو يبحث عن أسباب الفروق، فمتى أبصرَ أساليبَ أخرى أفضلَ من التي في المكان أطلعَ الزُّراعَ عليها، وإذا اقترح شكلاً أصحَّ للمحراث حَمَلَ على صنْع ما يلائم رسمه، وإذا وجدَ مَقْلَعاً من سَجَّيلٍ*^{٢١} علَّمهم كيف يستعملونه في البلد. وما أكثرَ ما يباشر العملَ بنفسه، فيدهشون كلهم من استعماله آلاتهم بأسهل مما يفعلون بأنفسهم، ومن شقَّه أتلاماً أعمقَ من أتلامهم وأضيقَ وأكثرَ استقامةً، ومن إلقائه البَدْرَ إلقاءً أكثرَ تساوياً، ومن توجيهه التربة المنقولة بلصقٍ حائطٍ على شكلٍ مُنحدرٍ للزُّرع توجيهاً أكثرَ لقانَةً. وهم لا يسْخرون من كونه كثيرَ الحديث في أمرِ الزراعة؛ فهم يرون أنه يُعرفها حقيقة. والخلاصة أنه يُوسِّع مدى همِّته وجهوده في كلِّ ما تأتي فائدته في المرتبة الأولى وتكون عامَّة، حتى إنه لا يقتصر على ذلك؛ فهو يزور بيوت الفلاحين ويقفُ على أحوالهم وعلى شئون أسرهم وعدد أولادهم، وعلى مقدارِ أرضيهم وطبيعتهم محصولهم، وعلى أسواقهم وأرزاقهم، وعلى أعبائهم وديونهم ... إلخ. وهو يُعطي نقداً قليلاً عارفاً سوءَ استعماله عادة، ولكنه يُدير أمرَ استعماله بنفسه جامعاً إياه نافعاً لهم مع وجود نَفْدٍ

*^{٢١} السَّجَّيل: الطين اليابس المؤلَّف من كربونات الكلس والصلصال والرمل.

لديهم، وهو يزودهم بعمّال، وهو في الغالب يدفع إليهم أجورهم اليومية عن الأعمال التي يحتاجون إليها، فيحمل الواحد منهم على إقامة كوخه نصف الهابط أو على سقّفه، ويحمل آخر على إحياء أرضه المهجورة عن فقر، ويُقدّم إلى آخر بقرة أو فرساً أو ماشية بدلاً مما فقد، وإذا أوشك جاران أن يتقاضيا توجه إليهما وأصلح بينهما، وإذا مرض فلاح حمل على معالجته، أو داواه بنفسه،^{٢٢} وإذا ظلم جاز قويّ جازه الضعيف حماه وأوصى به، وإذا ما تحابّ شابان ساعدهما على الاقتران، وإذا ما فقدت أم ولدها العزيز زارها وعزّأها ولم يخرج من عندها بُعَيْدَ دخوله، وهو لا يزدرى المُعوزين مطلقاً، وهو لا يُسرّع في ترك البائسين مُطلقاً، وهو يتناول طعامه في الغالب عند من يساعد من الفلاحين، وهو يقبل كذلك دعوة من ليسوا محتاجين إليه، وهو إذ يصير مُحسناً إلى بعضهم وصديقاً لآخرين لا ينفك يكون مساوياً لهم، والخلاصة أنه يصنع الخير بشخصه كما يصنعه بماله.

ومما يَحْدُثُ أحياناً أن يُوجّه جولاته نحو البيت السعيد، فيمكنه أن يرجو مشاهدة صوفية خفية وأن يراها من غير أن تراه، بيد أن إميل لا ينحرف في سلوكه، وهو لا يعرف المواربة ولا يُريدها، وهو يتصف بتلك اللطافة السائغة التي تُداري حُبّ الذات وتُعذّيه بحسن الشعور. وهو يتقيّد بحدود الإقامة تقيّداً وثيقاً، وهو لا يدنو ذنواً كافياً ليظفر مصادفةً بما يرغب في نيله من صوفية نفسها، وهو عوّضاً من ذلك يجول في الجوار طيّب الخاطر باحثاً عن آثار خُطى صاحبه، راقياً لما تلاقي من مشاقق وللجولات التي تفضلت فقامت بها لمجاملته. وهو يذهب عشية الأيام التي يجب أن يراها فيها إلى مزرعة مجاورة ليوصي بوجبة خفيفة للغد، وتسير الزهدة إلى تلك الناحية من غير أن يُشعر بذلك، ويُدخل هنالك كما لو وَقَعَ هذا مصادفةً. وتوجد فواكه وحلوى وقشدة، وتُحبّ صوفية الأطعمة اللذيذة فلا تكون غير مكترثة لهذه الالنفاتات، فيتبهج بما كان من استعدادنا. وأنال نصيبي من المجاملة وإن لم أشارك في الجُهد الذي استوجبه، وهذا أسلوبٌ تتخذه فتاة صغيرة لكيلا تجد حرجاً في الشكر. ونأكل أنا والأب من الحلوى ونشرب من الخمر، ولكن إميل من حصّة النساء، فيترقب ليسترق طبّقاً من القشدة التي غُمِسَتْ فيها ملعقة صوفية.

^{٢٢} لا تعني مداواة الفلاح المريض إعطائه مسهلاً، أو تقديم عقاقير إليه، أو إرسال طبيب إليه، وليس هذا ما يحتاج إليه هؤلاء المساكين في أثناء مرضهم، وإنما يحتاجون إلى غذاءٍ أحسن مما عندهم وأوفر. والصوم خير ما تصنعون عندما تُصابون بالحمى، ولكن فلاحكم إذا ما أصيبوا بالحمى أعطوهم لحمًا وحمراً؛ فجميع أمراضهم تنشأ عن البؤس والظنى، ويكون خير شراب لهم في قُبُوكم، ويكون جزاركم صيدلّتهم الوحيد.

وتسوقي الحلوى إلى الكلام عن مباريات إميل السابقة، ويُراد أن يُعرف ما هذه المباريات، وأوضحها ويضحكون، ويُسأل عن كونه لا يزال قادرًا على العدو، ويجب بقوله: «أحسن مما في أي وقت كان، ومما يغيظني كثيرًا أن أنساه.» ويرغب أحد الأصحاب أن يراه، ولا يجروا على قول هذا، ويأخذ آخر على عاتقه أن يقترح هذا، ويُقبل، ويُجمع له اثنان أو ثلاثة من الجوار، وتُعرض جائزة، وتوضع قطعة من الحلوى على الهدف كما كُنَّا نضع في الألعاب السابقة، ويستعد كل واحد، ويُعطي أبو صوفية الإشارة بتصفيقه، ويُسابق إميل الرشيقي الرياح، ويبلغ الهدف قبل أن يأخذ الثلاثة الغلاظ في الانطلاق، ويتناول إميل الجائزة من يد صوفية، ولا تكون أقل كرمًا من إنياس، فتقدم هدايا إلى جميع المغلوبين.

وفي أثناء سناء هذا الفوز تجرؤ صوفية على تحدي الفائز، فتسبح بأنها تستطيع العدو جيدًا مثله، ولا يرفض خوض الوعى معها مطلقًا، وبينما هي تستعد للقيام بهذا الأمر الصعب فتشتم ثوبها من الناحيتين، وتكون أحرص على إظهار ساق دقيقة لإميل مما على فخره في هذه المباراة، فتسخر هل تُنورتها^{٢٣} * قصيرة بما فيه الكفاية. ويُسر إلى الأم بكلمة، فتبتسم وتبدي إشارة استحسان، وهناك يضع نفسه بجانب منافسته، ولم تكذ الإشارة تُعطي حتى يرى انطلاقها كالمصفور.

ولم يُخلق النساء للعدو، وهن إذا ما هربن فلكي يُدركن. وليس العدو هو الشيء الوحيد الذي لا يُتقنه، ولكنه الشيء الوحيد الذي يُقمن به مع عدم لباقة، وذلك أن مرافقهن، إذ تكون مُلصقة ببدنهن نحو الخلف، تمنحنهن وضعا موجبا للضحك، وأن كعوبهن العالية التي يُقمن عليها تُظهرهن كالجراد الذي يحاول العدو من غير أن ييب.

ولا يتصور إميل أن صوفية تعدو خيرًا من النساء، فلا يتنازل أن يخرج من مكانه، وهو يراها تنطلق مُتبسما ساخرًا، ولكن صوفية خفيفة وتلبس كعبين وطيين، وهي لا تحتاج إلى حيلة حتى تظهر ذات رجل صغيرة، وهي تلبغ من سرعة العدو ما لم يكن لديه غير ما يحتاج إليه من الوقت لإدراك أثلثتها الجديدة التي يُبصرها بعيدة كثيرًا منه، وينطلق بدوره إذن مشابهًا للنسر الذي ينقض على فريسته، ويتعقبها ويطاردها، وأخيرًا يُدرِكها ضيقة النفس، ويضع ذراعه اليسرى حولها برفق ويرفعها كرشية ويضم هذا الحمل اللطيف إلى فؤاده، ويُمُّ العدو هكذا، ويجعلها أول من يمس الهدف، ثم يهتف قائلاً: «الفوز لصوفية!» ويركع على ركبته واحدة أمامها ويعترف بأنه المغلوب.

وتُضاف إلى هذه الأشاغيل المختلفة أشغولُ الحِرْفَةِ التي تعلمناها، فإذا ما عَدَوْتَ يوماً واحداً في الأسبوع على الأقل مع جميع الأيام التي لا يَسْمَحُ لنا الجَوُّ الرديءُ بأن نسعى في الحقول، فإننا نذهب، أنا وإميل، للعمل عند مُعَلِّم، ونحن لا نشتغل شكلاً كما يشتغل مَنْ يعلُون هذه الحرفة، ولكننا نشتغل جِدًّا مثلَ عَمَالٍ حقيقيين. ويأتي أبو صوفية ليرانا فيجدنا جادِّين في العمل، فلا يُعوِّزُه أن يروي لزوجته وابنته ما رأى رواية المُعْجَب، وهو يقول لهما: «اذهبا وانظرا هذا الشاب في المصنع لتريا هل يزدري حال الفقير!» ومن الممكن أن يُتصوَّر ما تسمع به صوفية هذه الكلمة مع الارتياح! ويتكلمون في الموضوع ثانية، وتُراذُ مباحثته في أثناء عمله، وأسأل من غير وجودِ غرضٍ خاصٍّ ظاهراً، وتَشَبَّهتُ الأُمُّ والبنتُ في أمرٍ يومٍ من أيامنا، ويركبان عربة، ويأتيان إلى المِصْر في ذات النهار.

وتدخل صوفية المصنع فتشاهد في الطَّرْفِ الآخر شاباً لابساً سُترة، مُهيملاً تسريحَ شَعْرِهِ، بالغا من الجِدِّ في عمله ما لم يُبصرها معه قَط. وتقف، وتأتي بإشارةٍ لأمِّها، ويكون إميلُ حاملاً إزميلاً بيدٍ ومِطْرَقَةً باليد الأخرى، فَيُيَمُّ فرضَ خشبية، ثم يَنْشُرُ لوحاً ويضعُ قطعةً منه تحت المِلْزِمة لِيصْقِلها، ولا يُتَبَّرُ هذا المنظرُ صِحْكَ صوفية مطلقاً، بل يُؤثِّرُ فيها ويستوجب احترامها. فيا أيُّها المرأة، أكرمي زوجك؛ فهو يعمل من أجلك ويكسب خبزك ويُطعمك، وهذا هو الرجل.

وبينما كانتا تلاحظانه بدقةٍ أبصرهما، فأجُرُّ إميل من كُمِّه، ويلتفت ويراهما، ويَطْرَحُ الآلات جانباً، ويطير إليهما هاتفاً مسروراً، ويُقعدهما بعد أن أسلم نفسه إلى فرجه الأول، ويستأنفُ عمله، ولكن صوفية لا تُصْبِرُ على البقاء جالسة، فتنهضُ برشاقةٍ وتجوب المِعمَل وتفحص الآلات، وتَمَسُّ الألواح المصقولة، وتلمُّ نُشارةً من الأرض، وتنظرُ إلى أيدينا وتقول إنها تُحبُّ هذه الحرفة لأنها نظيفة، حتى إن هذه اللعوب تحاول تقليد إميل، فتدفع مُنْحَتاً على اللوح، ويَزْلِقُ المِنْحَتُ ولا يَقْرَضُ مُطْلَقاً، ويلوح لي أن الحُبَّ نفسه يُحلِّق فوقنا ويُصَقِّق بجناحيه، ويلوح لي أنني أسمعُه يهتِفُ ابتهاجاً قائلاً: «أُجِدُّ ثأرُ هِرْكَول.»

ومع ذلك، فإن الأُمُّ تسأل المُعَلِّم: «ما أجره هذين العاملين يا مُعَلِّم؟» «أدفعُ إلى كلِّ منهما عشرين دانقاً عن كلِّ يومٍ يا سيِّدتي، فضلاً عن طعامهما، ولكن هذا الشاب يكسب أكثر مما يأخذ بدرجاتٍ لو أراد؛ فهو أحسنُ عاملٍ في البلد.» وتقول الأُمُّ وهي تنظرُ إلينا بحنان: «عشرون دانقاً في اليوم وتُطعمُهما!» ويَزُدُّ المُعَلِّمُ عليها بقوله: «أجل، إن الأمر هكذا يا سيِّدتي.» وتُهرِّعُ إلى إميل عند سماع هذه الكلمة وتعانقه وتضمُّه إلى صدرها وهي تُفِيضُ عليه من

دُمعها، فلا تستطيع أن تقول له شيئاً آخرَ غيرَ تكرارِها كثيراً كلمة «ابني! ابني!»

وتقول الأمُّ لبتها بعد قضائهما بعضَ الوقت في الحديث معنا، ولكن من غير أن تَقْطعا عملنا: «لنصرف من هنا؛ فقد تأخرنا، ولا يجوز أن نَحْمِلَ الأبَ على انتظارنا.» ثمَّ تدنو من إميل وتضربه ضربةً خفيفةً على خَدِّه وهي تقول له: «حسنًا! أيها العامل الصالح، ألا ترغب في المحييء معنا؟» ويجيبها بلهجة الملهوف: «إني مُتَقَبِّلٌ لعمل، فاسألني المُعَلِّم.» ويسأل المُعَلِّم عن إمكانِ تَفْضُّله بالاستغناء عنَّا، فيجيب بأنه لا يستطيع ذلك، وقد قال: «يُوجد عملٌ مستَعَجَلٌ يجب أن أنجزه بعد يومين، وقد اعتمدت على هذين السيدين فرفضتُ عَمَّالاً عَرَضُوا أنفسهم، فإذا عُوْزني هذان العاملان لم أذُرِ أين أجد من يقوم مقامهما، ولم أستطع تسليم العمل في اليوم الموعد.» ولم تُجِب الأمُّ بشيء، وتنتظر قولاً من إميل، ويَحْفِضُ إميل رأسه ويسكت، وتقول له مع بعض الحيرة من هذا الصمت: «أليس عندك ما تقول لهذا؟» ويَنظُرُ إميلُ نظرَ حنانٍ إلى ابنتها، ولا يَنطِقُ بغير كلمة: «يجب أن أبقى كما تَرَيْن.» وهنالك تَنصَرِفُ السيدتان، ويُشَيِّعُهُما إميلُ حتى الباب، ويُشَيِّعُهُما بعينيه ما استطاع، ويتأوّه، ويعود إلى العمل من غير أن يَنبِسَ بكلمة.

وتألّم الأم، فَتُحَدِّثُ ابنتها في الطريق عن غرابة هذا الأسلوب، وتقول: «ماذا! أكان من الصعب كثيراً إقناع المُعَلِّم فلا يُضْطَرُّ إلى البقاء؟ أفلا يَجِدُ هذا الفتى المِتْلَافُ الذي يُنْفِقُ المَالَ بلا ضرورة، ما يستعمل منه في الأحوال المناسبة؟» وتحجب صوفية بقولها: «أماه! معاذ الله أن يعتمد إميل على المال وأن يتتفع به فينقض عهداً شخصياً ويُخِلِفَ قوله بلا عقابٍ ويَحْمِلَ آخرَ على نَقْضِهِ! أجل، إني أعرف أنه يَسْهَلُ عليه أن يُعَوِّضَ المُعَلِّمَ من ضررٍ طفيفٍ ينشأ عن غيابه، ولكنه يُعِدُّ نفسه بذلك للثراء، فيعوِّدُ وضعه في مكانٍ واجباته، ويعتقد أنه يُعْفَى من كلِّ شيءٍ إذا ما دفع مَالاً. يُوجَدُ لإميل أساليبٌ أخرى في التفكير، فأرجو ألا أكون سببَ تغييره لها. أوتظنين أن بقاءه لا يكلفه شيئاً؟ أمّاه، لا تركبي متن الخطأ؛ فهو قد بقي من أجلي، وقد أبصرت ذلك في نظريه.»

ولا يعني ذلك كونَ صوفية متساهلةً في دلائلِ الحبِّ الحقيقية؛ فعلى العكس تجدُ صوفيةً متجبرةً طلوباً، فَتُفَضِّلُ ألا تُحَبَّ على أن تُحَبَّ باعتدال، وهي تتصف بزهُو المَرِيَّةِ النبيلِ الشاعرِ بنفسه والمُقَدَّرِ لذاته والذي يُريد أن يُكْرَمَ كما يُكْرَمُ نفسه، وهي تزدري قلباً لا يَغْرِفُ قيمةَ قلبها ولا يُجِبُّها من أجل فضائلها حُبًّا يَعدِلُ فُتُونها أو يزيد، قلباً لا يُفَضِّلُ عليها واجبه الخاص، قلباً لا يُفَضِّلُها على كلِّ شيءٍ آخر، وهي لا ترغب مُطلَقاً في عاشقٍ لا يَعرِفُ سلطاناً غيرَ سلطانها، وهي تريد أن تهيمن على رجلٍ لم يُفسدُ بها قط؛ فعلى هذا الوجه ازدرتُ سِيرِسَه أصحابَ أوليس بعد

إذلالها لهم، فَوَهَبَتْ نَفْسَهَا لَهُ وَحَدَهُ لَعْدَمِ اسْتَطَاعَتِهَا أَنْ تُغَيِّرَهُ.

ولكنك إذا عدوتَ هذا الحقَّ المصونَ المُقدَّسَ وجدتَ صوفيةً غيورًا على جميع حقوقها؛ فهي ترفُّب، مع التدقيق، مقدارَ احترامِ إميل لهذه الحقوق، ومقدارَ ما يبدلُ من هممةٍ في تنفيذ رغائبها، ومقدارَ حدِّقه في خزيره لهذه الرغائب، ومقدارَ انتباهه إلى الوصول في الدقيقة المقررة؛ فهي لا تريد أن يتأخر أو يتقدم، وإنما تريد أن يكون مُدَقَّقًا. إهمالُ صوفية هذا لا يقع مرتين، وكلُّ شكٍّ جائزٍ يساورها يقضي على كلِّ شيء، ولكن صوفية مُنصِّفة، ولكن صوفية تعرف كيف تُصلح خطأها.

وَنُتَنَظَرُ ذَاتَ مَسَاءٍ؛ فَقَدْ تَلَقَّى إِمِيلُ الْأَمْرَ، وَبُوَّتَى لِاسْتِقْبَالِنَا، وَلَا نَصِلُ مُطْلَقًا، وَمَاذَا حَدَثَ لَنَا؟ وَأَيُّ بَلِيَّةٍ أَصَبْنَا بِهَا؟ لَا أَحَدَ مِنْ نَاحِيَتِنَا، وَيُقْضَى الْمَسَاءُ فِي انْتِظَارِنَا، وَتَظُنُّ صُوفِيَةَ الْمَسْكِينَةِ أَنَا مِثْنَا، وَيَعْتَرِبُهَا حَزْنٌ شَدِيدٌ، وَيَضِيقُ صَدْرُهَا، وَتُحْيِي لَيْلَتَهَا بِالْبَكَاءِ، وَيُرْسَلُ فِي الْمَسَاءِ رَسُولٌ لِلْبَحْثِ عَنَّا، وَلِيَأْتِيَ فِي صَبَاحِ الْغَدِ بِخَبْرٍ عَنَّا، وَيَعُودُ الرَّسُولُ مَعَ آخَرَ مِنْ قِبَلِنَا لِيُبَلِّغَ اعْتِدَارِنَا وَيَقُولَ إِنَّا فِي حَالٍ جَيِّدَةٍ، وَيَمْضِي وَقْتُ قَصِيرٍ فَنَظْهَرُ بِأَنْفُسِنَا، وَهَنَالِكَ يَتَغَيَّرُ الْمَنْظَرُ، فَتُكْفَكِفُ صُوفِيَةٌ دُمُوعَهَا، وَهِيَ إِذَا مَا سَكَبَتْ مِنْهَا كَانَ ذَلِكَ عَنْ غَضَبٍ؛ فَلَمْ يَكُنْ فَوَادُهَا الْمَخْتَالُ لِيَنَالَ شَيْئًا مِنْ اطمئنانه إلى حياتنا؛ فإميل حي، وقد أوجب انتظاره على غير جدوى.

وَنَصِلُ، فَتُرِيدُ أَنْ تُقْفَلَ عَلَيْهَا الْبَابُ، وَيُرَادُ أَنْ تَبْقَى، فَتَبْقَى، وَلَكِنَّهَا إِذْ تَقْدَامُ مِنْ فُورِهَا تُظْهِرُ مِنَ الْهُدُوءِ وَالرِّضَا مَا يُمَوِّهُ عَلَى الْآخِرِينَ. وَيَأْتِي الْأَبُ أَمَامَنَا، وَيَقُولُ لَنَا: «لَقَدْ أَفْلَقْتُمَا بَالُ أَصْدِقَائِكُمَا، وَيُوجَدُ هُنَا مَنْ لَا يَسْهَلُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْفُوا عَنْكُمَا.» وَتَقُولُ صُوفِيَةٌ بِأَعْذَبِ مَا يُمَكِّنُهَا مِنْ تَبَسُّمٍ: «مَنْ هُمُ إِذْنُ يَا أَبِي؟» وَيَجِيبُ الْأَبُ بِقَوْلِهِ: «وَمَا يُهْمُكَ عَلَى أَلَّا تَكُونِي مِنْهُمْ؟» فَلَا تَرُدُّ صُوفِيَةٌ عَلَى هَذَا، وَتَطْرُقُ عَلَى شُغْلِهَا، وَتَسْتَقْبِلُنَا الْأُمُّ بِرُودَةٍ وَتَكْلُفٍ، وَيَرْتَبِكُ إِمِيلٌ فَلَا يَجْرؤُ عَلَى الدُّنُوءِ مِنْ صُوفِيَةٍ، فَتَكُونُ أَوْلَهُمَا كَلَامًا، فَتَسْأَلُهُ عَنْ صَحَّتِهِ، وَتَدْعُوهُ إِلَى الْجُلُوسِ، وَتُظْهِرُ مِنَ التَّنَكُّرِ مَا يُخَدِّعُ مَعَهُ بِذَلِكَ الْفُتُورِ هَذَا الشَّابُّ الْمَسْكِينُ الَّذِي لَا يَزَالُ غَيْرَ مُدْرِكٍ لِلغَةِ الْأَهْوَاءِ الْعَنِيفَةِ، فَيُوشِكُ أَنْ يَغْضَبَ.

وَأُرِيدُ أَنْ أُزِيلَ الْعِشَاوَةَ عَنْهُ، فَأَبَادِرُ إِلَى يَدِ صُوفِيَةٍ وَأَوْدُ أَنْ أَرْفَعَهَا إِلَى شَفْتِي كَمَا أَفْعَلُ أحيانًا، فَتَسْحُبُهَا مِنْ فُورِهَا مَعَ كَلِمَةِ «سَيِّدِي» الَّتِي كَانَ نَطْقُهَا بِهَا مِنَ الْغَرَابَةِ مَا كَشَفَتْهَا مَعَهُ هَذِهِ الْحَرَكَةُ غَيْرُ الْإِرَادِيَّةِ لِعَيْنِي إِمِيلَ حَالًا.

وَتُصِرُّ صُوفِيَةٌ أَنَّهَا كَشَفَتْ سِرَّهَا، فَيَقِلُّ ضَبْطُهَا لِنَفْسِهَا، وَتَحْوَلُ رِبَاطَةُ جَاشِهَا الظَّاهِرَةَ

إلى ازدراءٍ تَهْكُومِيٍّ، وتُجِيبُ عن كلِّ ما يُقال لها بكلماتٍ ذاتِ مقطعٍ واحدٍ تنطِقُ بها بتؤدَّةٍ وتردُّدٍ كأنها تخاف أن يَنِمَّ كلامُها على غيظِها كثيرًا. ويظَهَرُ إميلٌ نصفَ مَيِّتٍ دُغْرًا وينظرُ إليها متألِّمًا، ويحاول أن يَحْمِلَها على إلقاءِ نظراتٍ عليه، فتلتقي أعينُهما، فيقرأ في عينيها مشاعرَها الحقيقية. وتكون صوفية أكثرَ غِيْظًا من اعتداده بنفسه، فتُلْقِي عليه نظرةً تنزَعُ منه كلَّ رغبةٍ في الفوزِ بنظرةٍ أخرى منها، ويُلَجِّمُ إميلٌ ويترجف، وعاد لا يَجْرُو لِحُسْنِ حَظِّه على مخاطبتها ولا على النظرِ إليها؛ وذلك لأنها ما كانت لتُصَفِّحَ عنه ولو لم يكن مذبذبًا، ولو استطاع أن يحتمل غضبها.

وأرى أن دَوْرِي قد أتى، وأن وقتَ الإيضاحِ قد حَلَّ، فأعودُ إلى صوفية، وأتناولُ يَدَها ثانية، ولا تخطئُها، وإن كانت مستعدةً للظهورِ سيئةَ الحال، وأقول لها بركةً: «نحن نتمسأ يا صوفية العزيزة، ولكنك عاقلةٌ عادلة، فسوف لا تحكِّمين في أمرنا من غير أن تسمعينا، فاستمعي إلينا.» ولا تُجيب بكلمة، وأقول ما يأتي:

«لقد انطلقنا أمس في الساعة الرابعة، وقد أُشِيرَ علينا بأن نصلَ في الساعة السابعة، ونحن نحناط لأنفسنا بوقتٍ أطول مما نحتاجُ إليه كيما نستريحُ عندما ندنو من هنا، ونقطعُ ثلاثةَ أرباعِ الطريقِ، فتقرُّغُ أَسْمَاعُنَا نياحاتٍ مؤلمةً صادرةً عن مضيقِ جانِبِ التَّلِّ بعيدِ بعضِ البعدِ مِنَّا، ونُهْرَعُ إلى مكانِ الصُّرَاخِ، فنجدُ فَلَاحًا تَعَسًا راجعًا من المِصْرِ مجترعًا بعضَ الخمرِ على حِصانه، فسقطَ منه سقوطًا شديدًا كُسِرَتْ منه ساقُه. ونصيحُ ونطلبُ العونَ، ولا نجدُ من يُجيب، ونحاول وضعَ الجريحِ على حِصانه فلا نستطيعُ صنْعَ ذلك؛ فهذا التَّعَسُ يعاني من الآلامِ أعظمها هَوَلاً عند أقلِّ حركة. ونُزْمَعُ على رِئطِ الحِصانِ في مكانٍ منحرفٍ من الغابة، ثُمَّ نجعلُ من أذرعنا مَحْمِلًا، ونضعُ الجريحَ عليه، ونَحْمِلُه بأعظم ما يُمكن من الرِّفقِ عاملين بإشارته في الطريقِ التي يجبُ السيرُ عليها لبلوغِ منزله، وتكون المسافةُ طويلة، ونلزمُ بالاستراحةَ مراتٍ كثيرة، وأخيرًا نصلُ منهوكين تَعَبًا. وكان من دَهْشِنَا المُرِّ أن كُنَّا نَعْرِفُ البيتَ، وأن كان هذا البائسُ الذي نقلناه بجُهدٍ عظيمٍ هو عينُ الرجلِ الذي تَقَبَّلْنَا بقبولٍ وداديٍّ يوم وصولنا الأوَّلِ إلى هنا، وما كان يساورنا من كَدَرٍ جميعًا حالَ دونِ تعارفنا حتى تلك الساعة.

ولم يكن عنده غيرُ طفلين، وكانت زوجته قريبةً من منحه طفلًا ثالثًا، وبلغ ما عانته من التأثُرِ حين رأت وصوله ما شعرتُ معه بأوجاعٍ حادَّةٍ ووضعتُ بعد ساعاتٍ قليلة. وما يُصنَعُ في هذه الحالِ في كُوخٍ بعيدٍ حيث لا يُرجى أيُّ عونٍ؟ عَزَمَ إميلٌ على أخذِ الحِصانِ الذي تركناه في الغابة فيركبه ويتعدو بأقصى ما يُمكن من السرعةِ لإحضارِ جِرَّاحٍ من المِصْرِ، ويُعطي الجِرَّاحَ

الحصان، وبما أنه لم يستطع أن يجد ممرضةً على عَجَلٍ فقد عاد سائراً على قدميه مع خادمٍ بعد أن أرسل إليكم ساعياً. وبينما كنتُ مرتبِّكاً، كما يمكن أن يُلوحَ لكم، بين رَجَلِ مكسورِ السَّاقِ وامرأةٍ في دُورِ الطَّلُقِ، كنتُ أُعدُّ في البيتِ كلَّ ما كان يمكنني أن أبصرَه ضرورياً لمساعدة الاثنين.

ولن أفصلَ البقيةَ مطلقاً؛ فهي ليست موضعَ بحثٍ، وقد حَلَّت الساعةُ الثانية بعد منتصف الليل قبل أن تُنَاحَ لكلِّ منَّا، نحن الاثنين، دقيقةً راحة. والخلاصةُ أننا عُدنا إلى ماوانا القريب من هنا قبل طلوعِ الشمسِ، فانتظرنا فيه ساعةً انتباهكم من النوم كيما نُخبركم بما حدث لنا.»

وأُسكُت من غير إضافةٍ شيءٍ، ولكنَّ إميلَ يدنو من صاحبه قبل أن يتكلَّم أحدًا، ويرفعُ صوته ويقول لها برصانةٍ لم أتوقَّعها: «أي صوفية، أنتِ حَكَمٌ في مصيري الذي تعرفين جيِّداً، أجل، إنك قادرةٌ أن تحكمني عليّ بالموت أَلَمًا، ولكنَّ لا تأملي أن تحمِليني على نسيانِ حقوقِ الإنسانية؛ فهذه الحقوقُ أقدسُ من حقوقك، ولن أتزلَّ عنها من أجلك.»

سَمِعَتْ صوفيةُ هذه الكلمات، فنهضتُ من غير أن تُجيب، ووضعتُ ذراعها حوْلَ عُنقه، وطبعتُ قُبْلَةً على خَدِّه، ثُمَّ مَدَّتْ إليه يَدَها بلطفٍ منقطعِ النظر، وقالت له: «أي إميل، تناول هذه اليدِ فهي لك، وكن متي شئتُ زوجي أو مُعلِّمي، فسأحاول أن أكون أهلاً لهذا الشرف.»

ولم تَكْذُ صوفيةُ تُقبِّلُه حتى صَفَّقَ أبوها المسرورُ هاتفاً: «مرةً أخرى، مرةً أخرى.» ولم تلبثُ صوفيةُ أن قبَّلتُ خَدَّه الآخرَ مرتين من غيرِ استعجال، ولكنها لم تُنْشَبْ أن اعترافها وجَلَّ في ذات اللحظة تقريباً، فالتجأتُ إلى ذراعِي أُمِّها وأخفَّتْ وَجْهها الملتهبَ حَجَلاً في صدرِ أُمِّها.

ولن أصفَ سرورنا الشاملَ مطلقاً؛ فجميعُ النَّاسِ يشعرون به. وتتناول الغداء، فنطلب صوفية أن يَزَارَ ذانك المريضان الفقيران، وتَرُغِبُ صوفيةُ في ذلك العملِ الصالح، ويُذهب إلى هناك، ويُشَاهِدان على فراشَيْنِ منفصلَيْن. وكان إميلُ قد جَلَبَ فراشاً لهما، ويُرى حولهما أناسٌ لتسليتهما، وإميل هو الذي قام لهما بهذا، ولكنهما مع ذلك يألمان به من سوءِ وضعهما أكثرَ من حالهما. وتتناول صوفيةُ وِزْرَةً من الزوجةِ الصالحة، وتُرتَّبها على فراشها، ثُمَّ تَصْنَعُ مثلَ ذلك للزوج، وتعرف أن تَحِثُ بيدها اللطيفة الخفيفة عن كلِّ ما يؤلمهما، وأن تجعلَ أعضاءهما المتألمة في وضعٍ أكثرَ إراحةً. وسَبَقَ أن شَعَرَ بسكونٍ في الوجعِ عند دُنُوها، فكأنها تنبأ بكلِّ ما يؤلمها. وما كانت هذه الفتاةُ البالغةُ الرِّقَّةَ ليرتدَّ أمامَ القُدارةِ ولا أمامَ الرائحةِ الكريهة، وهي تُعرفُ كيف تُزِيلُ هذه وتلك من غيرِ استعانةٍ بأحدٍ ومن غيرِ إزعاجٍ للمريضَيْن. وتعود هذه الفتاةُ التي تُرى ذاتَ حياءٍ

دائمًا، ومُزدريةً أحيانًا، والتي لم تَمَسَّ بَطَرْفٍ إصبعها فراشَ رجل، وتُغَيِّرُ بياضاتِ الجريح بلا تَرُدُّد، وتجعله في وضعٍ مريحٍ يستطيع أن يبقى عليه وقتًا طويلاً، وحميئةً الإحسان خيرٌ من الحياء. وما تفعلُ تصنعه بخفَّةٍ ومهارةٍ يُحسُّ بهما سكونٌ وجعه من غير أن يَعْرِفَ أنها مسَّتْهُ. ويتفق الزوج والزوجة على شكرهما للفتاة اللطيفة التي تخدمهما وتتوجَّع لهما وتُفَرِّجُ الغمَّ عنهما، وهي من ملائكة السماء الذين يُرسلهم الله، ولا عَجَب؛ فلها وجهٌ مَلَكٌ ولُطْفُهُ ورفقُهُ ودَعْتُهُ، ويكون لهذا أبلغ الأثر في نفسٍ إميلٍ فيتأملها صامتًا. فيا أيها الرجل أَحَبَّ قرينتك؛ فقد أعطاك الله إياها لتفريح كَرْبِكَ في الآلامك، وكشفِ هَمِّكَ في أوصابك، وهذه هي المرأة.

ويُعَمِّدُ المولودُ حديثًا، وبينما كانا العاشقان يقَدِّمانه إلى جُزْنِ العِمادِ كانا يُتَوَقَّان من صميمِ فؤادهما إلى الوقت الذي يُرْزَقان فيه ولدًا فيُعَمِّد، وكانا يُتَوَقَّان إلى اليوم المرغوب فيه، وكانا يشعران باقترابه، وقد زالت جميعُ وساوسِ صوفية، ولكن وساوسي أتت؛ فَهَما ليسا بعدُ حيث يُفَكَّران، ولا بُدَّ من أن يكون لكلِّ دَوْرُه.

مَرَّ - ذات مرَّةٍ - يومان من غير أن يرى أحدهما الآخر، فدخلتُ غرفةَ إميلٍ حاملاً كتابًا بيدي وسألته مُحدِّقًا إليه: «ما تصنع إذا ما أخبرك أحدُ النَّاسِ بأن صوفية ماتت؟» ويصيح ويضرب يدا بيد، وينظر إليَّ بعينين حائرتين من غير أن ينيس بكلمة، وأداوم على قولي هادئًا: «أجبتُ إذن.» ويُساوره غضبٌ ويتميِّز من الغيظ إذ يراني رابطاً الجأش هادئًا، ويتخذ من الوضع ما ينمُّ على الوعيد تقريبًا، ويقول: «ما أصنع؟ لا أدري، وإنما الذي أعرفُ هو أنني لن أُلقي نظرةً على الذي يَنْقُلُ إليَّ هذا الخبر ما دمتُ حيًّا.» وأقول له مُتَبَسِّمًا: «فَرَّ عينا؛ فصوفيةٌ حيةٌ وتمتع بصحة جيدة، وهي تفكَّرُ فيك، وهم ينتظروننا في المساء، ولكن لنقم بجولةٍ قصيرة، وستنكلم.»

وما يَشغَلُ باله من هَوَى عادٍ لا يَسْمَعُ له كما في الماضي بمحادثاتٍ قائمةٍ على العقل الخالص؛ فلا بُدَّ من استمالته بهذا الهوى نفسه إلى انتباهه لدروسي، وهذا ما فعلتُ بهذا المدخل الهائل؛ فأنا الآن مطمئنٌ إلى أنه سيستمع لي.

«لا بُدَّ من السعادة يا إميل العزيز؛ فالسعادة غايةٌ كلِّ موجودٍ حسَّاس، وهي الرغبة الأولى التي طبعتها الطبيعة فينا، والتي لا تفارقنا مُطلقًا، وكلُّ يطلبها، ولا أحدَ يجدها، وكلُّ يُفني حياته في البحث عنها فيموت من غير أن يَصِلَ إليها. ويا صديقي الشاب، هل كنتُ أعرفُ ما ألزمتُ نفسي به عندما تناولتُك بين ذراعيَّ عند ولادتك وأشهدتُ الربَّ العليَّ على العهد الذي أقدمتُ على عقْده، فوقفْتُ أيامي على سعادة أيامك؟ كلاً، وإنما كنتُ أعرفُ أنني إذا ما جعلتُك سعيدًا

اطمأننتُ إلى سعادةِ نفسي؛ فكنتُ إذا ما قمتُ بهذا البحثِ المفيدِ في سبيلك جعلتهُ مشتركًا بيني وبينك.

وتقومُ الحكمةُ على البطالةِ ما دُنا نَجْهَلُ ما يجب أن نَصنع، وهذا أكثرُ ما يحتاج إليه الإنسان من المبادئ، وهذا أقلُّ ما يَعْرِفُ اتِّباعه. وَيَعْنِي البحثُ عن السعادةِ من غير أن يُعْرِفَ أين هي تعريضَ الإنسانِ نفسه للفرار منها، يعني تعريضَ الإنسانِ نفسه لأخطارٍ كثيرةٍ مختلفةٍ بمقدارٍ ما يُوجد من طُرُقٍ يَضِلُّ عنها، ولكن ليس من شأن جميع النَّاس أن يُستطاعَ عدمُ السَّيرِ مُطلقًا؛ ففي غَمٍّ من سَوْرَةِ النعيمِ يُساورنا نُفْضَلُ أن نَخْذَعِ أنفسنا في نشدانِه على عدمِ عملِ شيءٍ للبحثِ عنه، ونحن إذا ما خرجنا مرَّةً من الموضوع الذي نستطيع أن نعرفه فيه عُدنا غيرَ قادرين على العودِ إليه.

وقد حاولتُ اجتنابَ عينِ الخطأ عن عينِ الجهلِ، وإنني إذ أخذتُ على عاتقي أن أُعْتِيَ بك، عزمْتُ ألا أقومَ بخطوةٍ غيرِ مُجديةٍ كما عَزَمْتُ أن أخولَ دونَ اتخاذِك مثلَ هذهِ الخطوةِ، فالتزمتُ سبيلَ الطبيعةِ التي لا تبديلَ لها، والتي كنتُ أتبعُها من غيرِ أن تَخْطُرَ بيالي.

وكنُ شاهدي وحاكمي، فلن أَرْفُضَكَ مُطلقًا؛ فلم يُصَحَّ بأعوامِك الأولى في سبيلِ جميعِ الأعوامِ التي يجب أن تعقُبَها، وقد تمتعتَ بجميعِ المواهبِ التي أنعمتَ بها الطبيعةُ عليك، وما أخضعتك له الطبيعةُ من شرورٍ، فقد استطعتُ أن أقَبِّكَ منه، ولم تشعُرْ بغيرِ الشرورِ التي تستطيع أن تُقَوِّبَكَ على سواها، ولم تُعانِ قَطُّ من الشرورِ ما عانيتَ إلا لاجتنابِ ما هو أعظمُ منها، وأنت لم تَعْرِفِ الحقدَ ولا العبوديةَ، وقد بَقِيتَ، وأنت الحرُّ القانع، عاديًا صالحًا؛ وذلك لأن الألمَ والعيبَ أمرانِ ملازمَ أحدهما للآخر، ولا يصيرُ الإنسانُ شَرِيرًا إلا إذا كان شَقِيًّا. ولتستطعِ ذكري صباك أن تطولَ حتى أواخرِ أيامك! ولا أخشى مُطلقًا أن يدُكرَ قلبك الطيبُ هذا الصِّبَا من غيرِ أن يباركَ للبيدِ التي رَبَّته.

ولما بلغتَ سنَّ الرُّشدِ صُنْتُكَ من مُبْتَسِرَاتِ النَّاسِ، ولما صارَ فؤادُكَ حَسَّاسًا حَفِظْتُكَ من سلطانِ الأهواءِ، ولو استطعتُ إطالةَ هذا السكونِ الباطنيِّ إلى آخرِ حياتك لوضعْتُ عملي في مَأْمَنٍ، ولخزتُ من السعادةِ الدائمةِ أقصى ما يستطيعُ إنسانٌ أن يحوزَه، ولكنني غمستُ زوحك في مياهِ سِتْيَكْسِ يا إميلُ العزيزِ، فلم أستطعِ أن أجعلها معصومةً من الجروحِ في كلِّ مكانٍ، وذلك أنه يَنْهَضُ عدوٌّ جديدٌ لم تتعلَّمِ أن تقهَرَه بعدُ، ولم أقدرُ أن أصونَكَ منه، وهذا العدوُّ هو نفسُك، وقد تركتكَ الطبيعةَ والنصيبَ، فيمكنُك أن تحتملَ البؤسَ وأن تَصْبِرَ على آلامِ البدنِ، وأمَّا آلامُ

النفس فقد كانت مجهولةً لديك، وأنت لم تكُ تابعاً لشيءٍ غيرِ الحالِ البشري، والآن تَتَّبِعُ جميعَ ما جعلتَ لنفسك من روابط؛ فأنت إذ تعلمتَ الرغبةَ جعلتَ نفسك عبداً لرغائبك، وأنت من غيرِ أن يتغيَّرَ فيك شيءٌ، ومن غيرِ أن يَمَسَّ وجودك شيءٌ، ما أكثرَ الآلامِ التي يُمكنُ أن تُغيَّرَ على نفسك، وما أكثرَ المضارِّ التي يُمكنُ أن تشعُرَ بها من غيرِ أن تكونَ مريضاً! وما أكثرَ المؤتاتِ التي يُمكنُ أن تُعانيها من غيرِ أن تموتَ! أجل، يُمكنُ أن يُوقِعَكَ في القنوطِ كَذِبٌ أو خطأً أو سَلَكٌ.

وقد رأيتَ في المسرحِ أبطالاً يُقاسونَ آلاماً متناهيةً؛ فثُدَّوِي دَارُ التمثيلِ بصَرَخاتهم الجافية، وَيَتَّجِبونَ كالنساءِ، وَيَكُونُ كالأولادِ، فَيَسْتَوْجِبونَ هُتافاتِ الخُضُورِ. واذكُرْ ما تورثه إياك من الفضائحِ هذه النباحاتِ والصَرَخاتِ والأثأثِ في رجالٍ لا يُنظَرُ منهم غيرُ الرِّصانةِ والجَلَدِ، وتقولُ ساخطاً: «إن هذه أمثلةٌ تُلقَى علينا لاتباعها، وهذه نماذجٌ تُعْرَضُ علينا للاقتداءِ بها، وهل يُخشى ألا يكونَ الرجلُ صغيراً شقيماً ضعيفاً بما فيه الكفاية إذا لم يُكْرَمْ ضعْفُه بمظهرٍ من الفضيلةِ زائفٍ؟» فيا صديقي الشاب، كن أكثرَ تسامحاً نحوَ المسرحِ بعد الآن؛ فقد أصبحتَ أحدَ أبطاله. وتَعْرِفُ أن تألمَ وأن تموتَ، وتَعْرِفُ أن تصيرَ على سُنَّةِ الوُجُوبِ في الأمراضِ البدنيةِ، ولكنك لم تفرضِ قوانينَ على شهواتِ قلبك بعد؛ فعن عواطفنا لا عن احتياجاتنا ينشأ اضطرابُ حياتنا، ومدى رغائبنا واسعٌ، ولا تُعَدُّ قُوَّتُنَا شيئاً مذكوراً تقريباً، ويُتَّبَعُ الرَّجُلُ برغائبه ألفَ شيءٍ، ولا يَتَّبَعُ شيئاً بنفسه، حتى حياته الخاصةُ. وكلِّما زادَ الرجلُ ارتباطاتِه زادَ آلامه. وكلُّ شيءٍ في الأرضِ عابرٌ، وكلُّ ما نُحِبُّ يُفْلِتُ مِنَّا عاجلاً أو آجلاً، ونحن نتصرَّفُ في الأمرِ كما لو وجب أن يدومَ إلى الأبدِ. ويا للدُّعْرِ الذي حدثَ عندَ الظنِّ بأن صوفيةً ماتت! أو تذهبُ إذن إلى أنها ستعيشُ أبداً؟ ألا يموتُ إنسانٌ في مثلِ سنِّها؟ لا بُدَّ من موتها يا ولدي، وقد تموتُ قبلك، ومَنْ يَعْرِفُ أنها حيَّةٌ الآن؟ إن الطبيعةَ لم تُخضِعْ لغيرِ موتةٍ واحدةٍ، وأنت تُخضِعُ نفسك لموتةٍ ثانيةٍ، وهكذا تُضَعُ نفسك في حالٍ تموتُ بها مرتين.

وهكذا أراك، إذ تُخضِعُ لأهوائك الجامحة، مُحَلِّلاً للتوجُّعِ! حرماناً دائماً، خُسْراناً دائماً، هَمٌّ دائماً، حتى إنك لا تتمتعُ بما يُتْرَكُ لك، وما يُساوِركَ من خَوْفِكَ أن تُخسِرَ كلَّ شيءٍ يمنعُك من حيازةِ أيِّ شيءٍ. ولن تستطيعَ قضاءَ أهوائك لرغبتك في عدمِ اتِّباعِ شيءٍ غيرِ أهوائك، وأنت تَطْلُبُ الرَّاحَةَ، والرَّاحَةُ ستَفِرُّ منك دائماً، وستكونُ بانساً، وستصيرُ شَرِيحاً، وكيفَ يمكنكُ ألا تكونَ هكذا وأهوائك الجامحةُ هي التي تسيطرُ عليك؟ وإذا كنتَ لا تستطيعُ احتمالَ الحرمانِ غيرِ

الإرادي، فكيف يُمكنك أن تُلزم نفسك بحرمانٍ إرادي؟ وكيف يُمكنك أن تُضحّي بالميل في سبيل الواجب فتقاوم فؤادك لتُصغي إلى عقلك؟ أنت تقول إنك لا تريد أن ترى من يُخبرك بموت صاحبك، فكيف ترى من يُريد نزعها منك حيّةً فيجرؤ على قوله لك: «هي ميتةٌ نظرًا إليك؛ فالفضيلةُ تُفصلُك عنها؟» وإذا كان لا بُدَّ من العيش مع صوفيةٍ مهما وقع، فلا أهميةً في كونها متزوجةً أو غيرَ متزوجة، وفي كونها طليقةً أو غيرَ طليقة، وفي كونها تُحبُّك أو تُكرهك، وفي إعطائك إياها أو رفض ذلك، فأنت تريدها، ولا بُدَّ من حيازتها بأيِّ ثمنٍ كان. فأخبرني إذن عن الجريمة التي تُقفُّ رجلًا لا سلطانَ لغير أمانِي قلبه عليه، فلا يستطيع أن يقاوم شيئًا يرغب فيه.

ويا بني، لا سعادةٌ بلا شجاعة، ولا فضيلةٌ بلا كفاح، وتأتي كلمة الفضيلة **vertu** من كلمة القوة **force**، والقوةُ أساسُ كلِّ فضيلة، ولا تُخصُّ الفضيلةُ غيرَ مخلوقٍ ضعيفٍ بطبيعته قويٌّ بإرادته، وعلى هذا وحده تقوم مَرِيَّةُ الرجل العادل. ومع أننا ندعو الربَّ صالحًا، فإننا لا ندعوه فاضلاً؛ وذلك لأنه لا يحتاج إلى جهودٍ لصنع الخير. وقد انتظرتُ بلوغك من الحال ما تفهمني معه حتى أفسر لك هذه الكلمة التي انتهكت حُرمتها كثيراً، ولا كبير احتياجٍ إلى معرفة الفضيلة إذا كانت ممارستها لا تُكلف شيئاً، ويأتي هذا الاحتياج عند تنبُّه الأهواء، وقد أتاك منذ حين.

واني حين نشأتك بكلِّ ما في الطبيعة من بساطةٍ وقيئك العيوب التي تجعل الواجبات شاقَّةً بدلاً من أن أوصيك بالواجبات الشاقة، وجعلتُ الكذبَ أقلَّ مَقْتًا لديك من أن يكون غير مفيد، وكنتُ أقلَّ تعلُّماً لك بأن تُردَّ لكلِّ ذي حقِّ حقُّه من عدم أكثرائك لحقِّك، وصنعتُ منك صالحًا أكثرَ من أن أجعل منك فاضلاً، ولكنَّ الذي ليس غيرَ صالحٍ لا يبقى صالحًا إلا ببقاء رغبته في أن يكون هكذا، ويتحطَّم الصلاح ويذول بصدمةٍ من الأهواء البشرية؛ فالرجل الذي لا يكون غيرَ صالحٍ ليس صالحًا إلا من أجل نفسه.

ومن الرِّجلِ الفاضلِ إذن؟ هو الرجلُ الذي يَعْرِفُ أن يَقْهَرُ عواطفه؛ وذلك لأنه يَسْتَعِ عقله وضميره إذ ذاك، فيقومُ بواجباته، ويلزم نظامًا لا يستطيع شيءٌ أن يُبعده منه. ولم تُكن حتى الآن حُرًّا إلا في الظاهر، ولم يكن عندك غيرُ حريةٍ مؤقتةٍ كحرية العبد الذي لم يُؤمر بشيء، والآن كُن حُرًّا حقيقياً، وتعلم أن تكونَ سيدَ نفسك ومُرَّ فؤادك، تُكن فاضلاً يا إميل.

واليك إذن تدرُّبًا آخرَ أمامك، وهذا التدرُّبُ أصعبُ من الأوَّل؛ وذلك لأن الطبيعة تُنقِدُنَا من الشرور التي تُفرضها علينا أو تُعلِّمُنَا احتمالها، ولكنها لا تقول لنا شيئاً عما يأتينا من أنفسنا؛

فهي تَكُننا إلى أنفسنا، وهي تتركنا ضحايا لأهوائنا، وهي تَدَعنا نَرْزَح تحت آلامنا الباطلة، فنباهي بدموعٍ يجب أن تحمَّر وجوهنا منها خجلاً.

وأعلمُ جيِّداً أن هذا الهوى ليس جُزْماً؛ فهو نَقْيٌ نَقَاءِ النفوس التي تُحسُّه، والشَّرْفُ يَكُونُه والطُّهُرُ يُغَدِّيه. ويا أيها العاشقان السعيدان! لا يُسْفِرُ فُتُونُ الفضيحة عن غير زيادةٍ في فُتُونِ الحُبِّ، وليس القِرانُ المُباركُ الذي ينتظركما أقلَّ مكافأةً لكمما على حِكْمَتكما مما على ارتباطكما. ولكن قُلْ لي أيها الرجل المخلص، هل أنت أقلُّ خضوعاً لسلطان هذا الهوى الخالص؟ وهل أنت أقلُّ مَنْ يكون عبداً له؟ وهل تخنُّفه منذ الغد إذا ما عاد في الغد لا يكون بريئاً؟ والآن هو وقتُ تجربةِ قُوك، فإذا ما وَجِب استعمالُها كان الوقتُ قد مضى، ويَجِب وقوعُ هذه التَّجاربِ الخَطِرةِ بعيدةً من الخطر؛ فما كان لِيَمْرِنَ على القتالِ أمامَ العدوِّ مُطلقاً، وإنما يُستَعَدُّ له قِبَلِ الحربِ، فتخاضُ المعركةُ بعد إعدادِ كلِّ شيءٍ.

ومن الخطأ أن يُفَرِّقَ بين الأهواءِ المُباحةِ والأهواءِ المحظورةِ تعاطياً للأولى وامتناعاً عن الأخرى؛ فجميعُ الأهواءِ حسنةٌ إذا ما بقينا مسيطرينَ عليها، وجميعُ الأهواءِ سيئةٌ إذا ما تركناها تسيطر علينا، ويقوم ما حَرَمته الطبيعةُ على توسيعِ مدى صلاتنا إلى ما هو أبعدُ من قُوانا. ويقوم ما حَرَمه العقلُ على الرغبةِ فيما لا نَقْدِرُ على نَيْلِه ويُقَوِّم ما حَرَمه الضميرُ على تَرْكِ أنفسنا تُعَلِّبُ بالأغواءِ لا على إغوائها، ولا يتوقَّفُ علينا أن نكون ذوي أهواءٍ أو لا نكون، وإنما يتوقَّفُ علينا أن نسيطر عليها، وجميعُ المشاعرِ التي نهيمن عليها شرعيةٌ، وجميعُ المشاعرِ التي تهيمن علينا إجرامية. ولا يكون الرجلُ الذي يُحِبُّ امرأةً غيرَ مذبناً إذا ما جعل هذا الهوى المُؤسِّفَ خاضعاً لقانونِ الواجب، وهو يكون مذبناً إذا ما أحبَّ امرأته الخاصةً فيصنِّحِي بكلِّ شيءٍ في سبيلِ حُبِّها.

ولا تَنْتَظِرْ مِنِّي مبادئَ طويلةً عن الأخلاقِ، وليس لديَّ غيرُ مبدأٍ واحدٍ ألقيه عليك شاملٍ لجميعِ المبادئِ الأخرى، وهو: كُن رجلاً ورُدَّ قَلْبَكَ إلى حدودِ رجولتك، فادرُسْ هذه الحدودَ واعرفْها، ومهمَّما تكن هذه الحدودُ ضيقةً فإننا لا نكونُ نُعساءً ما أخطنا أنفسنا بها، ونحن لا نشقى إلا إذا أردنا مجاوزتها، ونحن نجاوزها إذا ما وضعنا برغائبنا المخالفةَ للصوابِ غيرَ الممكنِ في مرتبةِ الممكناتِ، ونحن نجاوزها إذا ما نسينا رجولتنا، لنصنِّعَ رجولاتٍ وهميةً فنزَلَّ منَّا إلى رجولتنا دائمةً، ويكون المتاعُ الذي يُؤثِّرُ فينا ضياعُه وحده هو ما نعتقد أنه حقٌّ لنا، وما يَكُونُ من تعدُّرٍ نَيْلِه تعدُّراً جليلاً يَصْرِفُ الذهنَ عنه، وما كانت الرغائبُ بلا أملٍ لِنُؤَلِّمَ مُطلقاً، وما كان الصُّعْلوكُ لِيَأْلَمَ من رغبته في أن يكون مَلِكاً، ويُريدُ المَلِكُ أن يكون إلهاً عندما يعتقد أنه عاد لا يكون رجلاً.

وأوهام الرُّهُو هي مصدرُ أعظمِ شرونا، ولكنَّ إنعامَ النظرِ في بؤسِ النَّاسِ يجعلُ الحكيمَ معتدلاً دائماً، فيلزمُ مكانه ولا يحاول أن يخرج منه مُطلقاً، وهو لا يستعمل قُوَاه على غيرِ جدوى حتى يتمتّع بما لا يستطيع حفظه، وهو إذا ما استعملها كلّها ليتصرّف تصرُّفاً حسناً في كلّ ما يملكُ كان - في الحقيقة - بالغَ القوةِ بالغِ الغنى بنسبة ما يكون أقلَّ رغبةً مِنَّا، وهل أكُون لِنفسي، وأنا الموجود الهالكُ الفاني، سلاسلَ أبديةً فوق هذه الأرض حيث يتغيّر كلُّ شيء، وينقضي كلُّ شيء وسأزول غداً؟ وئى إميل! وئى بُني! ما يبقى لي من نفسي إذا ما خسرتك؟ ومع ذلك فإنه يجب أن أعرف افتقارك؛ وذلك لأنه من يعلم متى تُنزعُ مني؟

وإذا كنت تُريدُ أن تعيش سعيداً حكيماً إذن، فلا تُربط فؤادك بغيرِ الجمال الذي لا يزول أبداً، ولتحدّد رغائبك بوضعك، ولتسبق واجباتك ميولك، واجعلْ دستورَ الضرورة شاملاً للأمور الأدبية، وتعلّم افتقاراً ما يُمكن أن يُنزع منك، وتعلّم ترك كلِّ شيءٍ عندما تأمرك الفضيلةُ بذلك، وتعلّم وضع نفسك فوق الحوادث فتفصل عنها فؤادك قبل أن تمرّقه، وتعلّم أن تكون جسوراً في الضراء لكيلا تكون بائساً أبداً، وتعلّم أن تكون ثابتاً في واجبك لكيلا تكون مُجرماً أبداً، وهنالك تكون سعيداً على الرغم من الثراء وحكيماً على الرغم من الأهواء، وهنالك تجدُ حتى في حياة الأموال السريعة الزوال لذة لا يستطيع شيء أن يكدرها، فتصرف في هذه الأموال من غير أن تتصرف فيك، وتشعر بأن الرّجل الذي تفلت منه كلُّ شيء لا يتمتّع بغير ما يعرف أن يُضيع. أجل، لن يساورك وهمٌ في الملائد الخيالية مطلقاً، أجل لا تُصاب بالآم تنشأ عنها مطلقاً، وستريح كثيراً من هذه المبادلة؛ وذلك لأن هذه الآلام منتشرةٌ حقيقية، ولأن تلك الملائد نادرةٌ باطلة. وأنت إذ تقهر كثيراً من الآراء الخادعة تقهرُ الذي يُعطي الحياةَ قيمةً عظيمة، وستقضي حياتك بلا كدرٍ وستختتمها بلا دُعر، وستفارقها كما تفارق كلِّ شيء، وليستول الهولُ على الآخرين حين يفكّرون في انقطاعهم عن الوجود بتركهم الحياة، ولكنك إذ تعلم أن الحياةَ عَدَمٌ تعتقد أنك بادئ لها؛ فالموتُ خاتمةُ الحياةِ الخبيثةِ وفاتحةُ الحياةِ الطيبةِ.»

ويستمع إميلُ إليّ بانتباهٍ ممزوجٍ بخزع؛ فهو يخشى أن تكون لهذه الديباجة نتيجةٌ مشئومة، وهو تُحدّثه نفسه، حين بياني له ضرورةً ممارسةً قوّة الروح، بأنني أريد إخضاعه لهذا النظام القاسي، ومثله في هذا كمثّل الجريح الذي يرتجفُ عندما يُبصرُ اقترابَ الجراحِيّ فيسبقُ إلى ظنّه شعوره باليدِ المُوجعة على جرحه، ولكن مع السلامة، لأنها تحوّل دون فساده. ويبدو حائراً مضطرباً مستعجلاً معرفةً الموضوع الذي أريد أن آتي به إليه، فيسألني بدلاً من

الجواب، ولكن مع الخوف: «وما يجب أن أصنع؟» هذا ما يقوله مرتجعاً تقريباً، ومن غير أن يجرؤ على رفع عينيه، وأجيب بصوتٍ رصين: «إن الذي يجب أن تصنع هو أن تترك صوفية! أتتركها! أأخذها! أكون خائناً! أكون مُداجياً! أكون ناقصاً للعهد!...» وأتناول الكلام قاطعاً قوله: «ماذا! أمي يخاف إميل أن أعلمه استحقاقه لمثل هذه النعوت؟» ويداوم على كلامه بعين الصّولة: «كلاً، لا منك ولا من غيرك، ويمكنني أن أحفظ عملك على الرغم منك، ويمكنني ألا أستحق تلك النعوت.»

وكنْتُ منتظراً هذا الاندفاع الأول، وأدعُه يمُرُّ من غير أن أثور، ولو لم يكن عندي اعتدالٌ أوصيه به لكان عندي لطفٌ أعطه به! ويعرفني إميلٌ كثيراً فلا يعتقدُ إمكان مطالبته بشيء يكون سيئاً، وهو يعرف جيداً أنه يصنع سوءاً إذا ما ترك صوفية ضمنَ المعنى الذي يُطلقه على هذه الكلمة. والخلاصة أنه ينتظر مني إيضاحاً، وهناك أستاذٌ كلامي:

«أوتظنُّ يا إميلُ العزيزُ وجودَ رجلٍ من أيِّ حالٍ كان يستطيع أن يكون أكثرَ سعادةً منك منذ ثلاثة أشهر؟ إذا كنت تظنُّ هذا فأزلُ ضالك؛ فقد استنفدت سعادةَ الحياة قبل أن تذوق ملاذها، ولا يوجد شيءٌ يزيدُ على ما اختبرت، وسعادةُ الحواسِّ عابرة، وبها تخسرُ حال الفؤاد المعتادة دائماً، وقد تمتعت بالأملِ أكثرَ مما ستتمتع به في الحقيقة، وما يُزيئه الخيالُ من المرغوب فيه يتزكّه بالحياة، وإذا عدّوت الموجودَ بذاته وحده لم يوجد جميلٌ سوى غير الموجود، وإذا ما أمكن دوامُ هذه الحال في كلِّ وقتٍ وجدت السعادةَ العليا، ولكنَّ كلَّ ما يتعلّق بالإنسان يُشعّرُ بمصيره إلى الزوال، وكلُّ شيءٍ في حياة الإنسان عابرٌ له نهاية، ومتى دامت الحال التي تجعلنا سعداء دواماً متصلاً نزعَتْ عادةُ التمتع بها ذوقها، وإذا لم يتغيّر شيءٌ في الخارج تغيّر القلب؛ فالسعادةُ تتركنا أو نحن نتركها.

وفي أثناء هذيانك كان يمُرُّ الوقتُ الذي لم تلتفتِ إليه، وقد انتهى الصيف، والشتاء يدنو، حتى إننا إذا ما استطعنا أن نداومَ على جَوْلانا في فصلِ بالغِ القسوة كالشتاء لم نُطقَ على الإطلاق، ولا بُدَّ من تغيير طراز الحياة على الرغم منّا، فلا يُمكن دوام هذا الطراز، وأبصرُ في عينيك الجزوعين أن هذا المانع لا يعوقك مُطلقاً؛ فما كان من اعترافِ صوفيةٍ ومن رغائبك الخاصة يوحى إليك بوسيلةٍ سهلةٍ لاتقاء الثلج وللعُدول عن السّفَر في سبيل رؤيتها، ولا ريب في سهولة هذه الوسيلة، ولكن الربيع إذا جاء ذاب الثلج وبقي الزواج، ولا بُدَّ من التفكير في أمره من أجل جميع الفصول.

وَتُرِيدُ أَنْ تَتَزَوَّجَ صُوفِيَّةً، وَلَمَّا تَمَضَى خَمْسَةُ أَشْهُرٍ عَلَى مَعْرِفَتِكَ إِيَاهَا! وَتُرِيدُ أَنْ تَتَزَوَّجَهَا لِأَنَّهَا تُعْجِبُكَ، لَا لِأَنَّهَا تَلْتَمِسُكَ، كَأَنَّ الْحَبَّ لَا يُخْدَعُ حَوْلَ الْمَلَاءِمَاتِ مُطْلَقًا، فَلَا يَتَبَاغَضُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ مَنْ يَبْدَعُونَ بِالتَّحَابِ! أَجَلْ، إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهَا فَاضِلَةٌ، وَلَكِنْ أَيْكْفِي هَذَا؟ وَهَلْ يَكْفِي أَنْ يَكُونَ بَعْضُ النَّاسِ مِنَ الصَّالِحِينَ حَتَّى يَتَوَافَقُوا؟ وَطَبَعُهَا لَا فَضْلُهَا هُوَ الَّذِي أَضْعُهُ مَوْضِعَ الشُّكِّ، وَهَلْ تُظْهِرُ الْمَرْأَةُ طَبْعَهَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؟ وَهَلْ تَعْرِفُ مَقْدَارَ مَا يَجِبُ أَنْ تَبْدُو بِهِ مِنَ الْأَوْضَاعِ حَتَّى يُعْرِفَ مِرَاجِعُهَا مَعْرِفَةً أَسَاسِيَّةً؟ وَهَلْ حُبُّ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ضِمَانٌ كَافٍ لِبَقِيَّةِ الْحَيَاةِ؟ قَدْ يَجْعَلُكَ غِيَابُ شَهْرَيْنِ تَنْسَاهَا، وَقَدْ يَنْتَظِرُ غِيَابُكَ فِيمَحُوكِ مِنْ قَلْبِهَا، وَقَدْ تَجَدُّهَا عِنْدَ عَوْدَتِكَ حَلِيَّةً بِمَقْدَارِ مَا وَجَدْتَهَا حَنُونًا حَتَّى الْآنَ، وَلَا يَتَوَقَّفُ أَمْرُ الْمَشَاعِرِ عَلَى الْمَبَادِيءِ؛ فَقَدْ تَبَقِيَ صَالِحَةٌ جَدًّا مَعَ زَوَالِ حُبِّهَا إِيَّاكَ، وَأَمِيلُ إِلَى اعْتِقَادِ ثَبَاتِهَا وَوَفَائِهَا، وَلَكِنْ مَنْ يَكْفُلُكَ وَمَنْ يَكْفُلُهَا مَعَ عَدَمِ اخْتِبَارِكَ مُطْلَقًا؟ وَهَلْ تُؤَجِّلُ هَذَا الْاِخْتِبَارَ حَتَّى يَفُوتَ وَقْتُهُ؟ وَهَلْ تَنْتَظِرُ لِنَعَارِفِكَمَا تَعَارَفًا صَادِقًا حَتَّى الْحَيْنِ الَّذِي يَتَعَدَّرُ فِيهِ افْتِرَاقُكُمَا؟

لَمْ تَبْلُغِ صُوفِيَّةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ سِنِّيهَا، وَأَنْتِ لَمْ تَكُنْ تُجَاوِزِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِكَ، وَهَذِهِ السَّنُّ هِيَ سِنُّ الْغَرَامِ لَا سِنُّ الزَّوْجِ، وَيَا لِرَبِّ الْأُسْرَةِ، وَيَا لِأُمَّهَا! وَيْ! انْتَظِرَا مَجَاوِزَةَ دَوْرِ الْوُلُودِيَّةِ عَلَى الْأَقْلَى حَتَّى تَعْرِفَا تَرْبِيَةَ الْأَوْلَادِ، وَهَلْ تَعْرِفُ عِدَدَ الْفَتَيَاتِ اللَّاتِيَّ احْتَمَلْنَ مَتَاعِبَ الْحَبْلِ قَبْلَ الْأَوَانِ فَأَضْعَفَتْ هَذِهِ الْمَتَاعِبُ بِنَيْتِهِنَّ وَقَوَّضَتْ صِحَّتِهِنَّ وَقَصَّرَتْ حَيَاتِهِنَّ؟ وَهَلْ تَعْرِفُ عِدَدَ الْأَوْلَادِ الَّذِينَ بَقُوا ضَعْفَاءَ وَاهِينِ لِعَدَمِ تَغْدِيَتِهِمْ فِي جِسْمٍ مُكَوَّنٍ تَكْوِينًا كَافِيًا؟ وَمَتَى نَمَا الْوَلَدُ وَالْأُمُّ مَعًا، وَفُسِّمَتِ الْمَادَةُ الْلازِمَةُ لِنَمُوِّ كُلِّ مِنْهُمَا، فَلَمْ يَنْلِ هَذَا وَلَا ذَاكَ مَا قَدَّرْتَهُ لَهُ الطَّبِيعَةُ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ إِلَّا يَتَأَذَّى بِهَذَا؟ وَلَا يَعْدُو الْأَمْرُ حَدَّ كَوْنِي سَيِّئِ الْمَعْرِفَةِ بِأَمِيلٍ أَوْ حَدَّ كَوْنِهِ سَيِّئُضَلَّ حَيَاةَ امْرَأَةٍ وَأَوْلَادٍ أَقْوِيَاءَ بَعْدَ حَيْنٍ عَلَى إِشْبَاعِ هَلْعِهِ صَرًّا بِحَيَاتِهِ وَصَحْتِهِ.

وَلْتَكَلِّمْ عَنكَ، فَإِذَا كُنْتَ تَرْتَوِي إِلَى حَالِ الزَّوْجِ وَالْأَبِ، فَهَلْ أَنْعَمْتَ النَّظَرَ فِي وَاجِبَاتِهِ؟ مَتَى أَصْبَحْتَ رَبًّا لِأُسْرَةٍ صِرْتَ غُضُوًّا فِي الدَّوْلَةِ؟ وَمَا مَعْنَى عَضْوٍ فِي الدَّوْلَةِ؟ أَتَعْرِفُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ دَرَسْتَ وَاجِبَاتِكَ كَرَجَلٍ، وَلَكِنْ أَتَعْرِفُ وَاجِبَاتِ الْمَوَاطِنِ؟ وَهَلْ تَعْرِفُ مَا الْحُكُومَةُ وَالْقَوَانِينُ وَالْوَطَنُ؟ وَهَلْ تَعْرِفُ تَمَنُّ السَّمَّاحِ لَكَ بِالْحَيَاةِ، وَفِي سَبِيلِ مَنْ يَجِبُ أَنْ تَمُوتَ؟ أَنْتِ تَطُنُّ أَنَّكَ تَعَلَّمْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا تَزَالُ غَيْرَ عَارِفٍ شَيْئًا. وَتَعَلَّمْ مَعْرِفَةَ النِّظَامِ الْمَدَنِيِّ وَالْمَكَانِ الَّذِي يَلْتَمِسُكَ فِيهِ قَبْلَ اتِّخَاذِكَ هَذَا الْمَكَانِ. وَيَجِبُ أَنْ تَتْرَكَ صُوفِيَّةً يَا إِمِيلَ، وَلَا أَقُولُ أَنْ تَتَخَلَّى عَنْهَا، فَإِذَا كُنْتَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ كَانَتْ سَعِيدَةً جَدًّا بِعَدَمِ الزَّوْجِ بِكَ الْآنَ، وَيَجِبُ أَنْ تَتْرَكَهَا لِنَعُودِ جَدِيدًا بِهَا، وَلَا تَكُنْ مِنَ الْاِغْتِرَارِ

ما تَطُنُّ معه أنك تستحقُّها. وَيَا! ما أكثر ما بَقِيَ عليك أن تَصْنَع! فَتَعَالَ وَقُمْ بهذا العملِ النبيل، وَتَعَالَ واصْبِرْ على الغياب، وتَعَالَ واكْسِبْ ثَمَنَ الوفاء، فإذا ما رجعتْ أمكنك أن تُكْرِمَ نَفْسَكَ بشيءٍ لديها، وأن تَطْلُبَ يدها طلبَ مكافأةٍ لا لَطْفٍ.»

ولا يُدْعُنُ الفتى، وهو يقاوم ويناضل، وَلَمَّا يُمرَّنْ على مكافحة نفسه، وَلَمَّا يُعوِّذْ أن يَرِغَبَ في شيءٍ وأن يُريدَ شيئاً آخر، وَلَمَّ يَرِضْ سعادةً تنتظره؟ ألا يعني تأخيرُ قبولِ اليدِ التي قُدِّمَتْ إليه ازدراءً لهذه اليد؟ وما الضرورةُ إلى الابتعاد عنها ليتعلَّم ما يَجِبُ أن يَعْرِفَ؟ وإذا كان هذا ضرورياً، فليَمَّ لا يُتركْ له عهده المُوَكَّدُ لِعَوْدِهِ بالعُرَى الوثقى التي لا انفصامَ لها؟ وليَكُنْ زوجاً لها وهو يكون مستعداً لاتباعها وليقتربنا، وهو يتركها بلا وَجَلٍ، وأقولُ له: «يا للتناقضِ في تزوجها وتركها يا إميلُ العزيز! إن من الجميل أن يقدرَ العاشقُ على العيش من غير خليلته، وأما الزوجُ فلا يجوز له أن يترك زوجته بلا ضرورةٍ مطلقاً، وأرى لشفاءٍ وسواسك أن تكون مُهْلِكٌ غير إرادية، فتستطيع أن تقول لـصوفية إنك تتركها على الرغم منك. حسناً! كُن راضياً، واعرف لك مُعلِّماً آخر ما دمت لا تُطِيعُ العقل، وأنت لم تنسِ العهدَ الذي قطعته لي، ولا بُدَّ من تركِ صوفيةٍ يا إميل، وهذا ما أريد.»

سَمِعَ هذه الكلمة، فَخَفَضَ رأسه وسَكَتَ، وَسَحَّ في الخيالِ دقيقة، ثُمَّ قال لي وهو ينظر إليَّ مطمئناً: «ومتى يجب أن نرحل؟» وأقول: «في مدة أسبوع، ولا بدَّ من إعدادِ صوفيةٍ لهذا الرحيل؛ فالنساءُ أكثرُ ضَعْفًا، ولا بُدَّ من مداراتهن، وبما أن هذا الغياب ليس واجباً عليها كما هو علينا فإنه يُباح لها أن تحتمله بشجاعةٍ قليلة.»

ولم أبلُغ من الإغواء بالتطويل حتى فَصَلني عن فِثياني يوميةً معاشقهم، ولكنني ما فتئت منذ زمنٍ طويلٍ أُعَرِّ بمسامحةِ القراء، فألْتزِمُ جانبَ الاختصار حتى أنتهي من القصة مرة، وهل يجرؤُ إميلُ أن يُبدِيَ لصاحبه ما أبداه لصديقه من يقين؟ أما أنا، فأذهب إلى هذا؛ فمن حقيقةٍ حُبِّه نفسها ما يجب أن يستتبط هذا اليقين، وهو يكون أكثرَ ارتباكاً أمامها لو كان أقلَّ أكثراناً لتركها، وذلك أنه يتركها مذنباً ما رَبَكَ هذا الدَّورُ الفؤادِ الصالح دائماً. بَيِّدْ أن التضحية كلِّما كَلَّفَتْه كثيراً باهى بها أمام تلك التي جعلتها له أمراً شاقاً، وهو لا يخشى أن تُخطئ في فهمِ الباعث الحافظ له على عزمه، فيلوح أنه يقول لها عند كلِّ نظرة: «أي صوفية! اقربي في فؤادي، وكوني وفيَّةً لي؛ فليس عاشقك بلا فضيلة.»

وتحاول صوفيةُ الأنوفِ من ناحيتها أن تحتمل، مع الوقار، ما وَجَّهَ إليها من ضربةٍ غير منتظرة، وتبدل جُهدَها أن تبدوَ غير متأثرةٍ بها، ولكن بما أنه لم يَكُنْ لها، كما كان لإميل، شرفٌ

المبارزة والفوز، فإنها لم تُطق الصدمة، فتبكي وتتنُّ على الرغم منها، وما يُخامرها من خشية نسيانها يزيد ألم الفراق، وليس أمام عاشقها ما تبكي، وليس له ما تُبدي مخاوفها، وهي تُفضّل أن تُختنق على أن تدع أنَّهُ تُفَلتُ منها أمامه، وإنما أنا الذي يتلقّى شكواها ويرى دموعها، وإنما أنا الذي تُظهِرُ اتحاذَه نجياً لها، ومن خصائص النساء أن يَكُنَّ حاذقاتٍ فيَعْرِفن أن يتنكّرُن، فكلمًا كانت تتدَمَّر من استبدادي خفيةً كانت تُعنى بمداراتي. ولا عَجَب؛ فهي تشعر بأنني قابضٌ على مصيرها.

وأُسليها، وأُسكّن رُوعها، وأُجعل نفسي مسئولاً عن عاشقها، وإن شئتَ فقلْ عن زوجها، فلتحفظ له عين الوفاء الذي سيحمله لها، وسيكون لها في عامين، وسيكون زوجها لها في عامين كما أقسم، وهي تحمّل لي من التقدير ما يكفي لاعتقادها أنني لا أريد مخادعتها، وأنا ضامنٌ لكلّ منهما نحو الآخر، وما عندهما من فؤادٍ وفضيلة، وما عندي من نزاهة، وما عند والديها من ثقة، أمورٌ تُلقي الطمأنينةَ فيهما، ولكن ما نفعُ العقلِ أمام الضعف؟ فهما يفترقان كأنَّهُ قُدْر على كلّ منهما ألا يرى الآخر أبداً.

وهنالك تذكّر صوفيةً حَسراتٍ أوكاريس، وتظنُّ أنها في مكانها، ولا تُثرُ أمرَ هذه المعاشق الخيالية في أثناء الغياب مطلقاً، وأقول ذات يومٍ لصوفية: «أي صوفية، تبادلني الكتب أنت وإميل، فأعطيه كتاب «تلماك» كيما يتعلّم كيف يشابهه، وليُعطك كتاب «الناظر» الذي تُحسِّن قراءته، وادرسِي فيه واجبات النساء الصالحات، واذكري أن هذه الواجبات ستكون واجباتك في عامين.» ويروق هذا التبادل الاثنين ويُعم عليهما بالثقة، وأخيراً يحلُّ اليومُ الكتيب، فيجبُ الافتراق.

وحين الوداع يعانقني أبو صوفية الوقور الذي اتفقتُ معه على كل شيء، ثمَّ يختلي بي ويقول لي هذه الكلمات بصوتٍ رصينٍ مع لهجةٍ مؤكّدة: «لقد صنعتُ كلَّ شيءٍ يُرضيك، وقد عَرَفْتُ أنني أعاملُ رجلاً شريفاً، ولم يبقَ عندي غيرُ كلمةٍ أقولها لك، وهي: ذكّر تلميذك بأنه وقّع عقْد الزواج على فم ابنتي.»

ويا للفرق في هيئة العاشقين! فأما إميلُ الصائلُ المشتعلُ الهائجُ المضطربُ فيبكي بصوتٍ عالٍ ويسكّب سيولاً من الدموع على أيدي الأب والأم والبنات، ويعانق منتحباً جميعاً من في البيت، ويكرّرُ ذات الأمور ألفَ مرّةٍ بشيءٍ من الاختلال يوجب الضحك في كلّ مناسبةٍ أخرى. وأما صوفيةُ العبوسِ الممتعةُ الكايبةُ العينِ القاتمةُ الناظر، فتبقى ساكنةً ولا تنبس بكلمة، ولا تبكي مطلقاً، ولا ترى أحداً حتى إميل، ومن العبت أن يتناول يديها وأن يعانقها؛ فقد بقيت فاقدةً

الحركة غير متأثرة بدموعه وملامساته وكل ما يفعل، ولا غرو؛ فهو في نظرها قد ذهب، وما أكثر ما يكون هذا المنظر أعظم تأثيراً من عويل عاشقها المزعج وحسراته الصاخبة! وهو يراه، وهو يشعر به، وهو محزون منه، وأجره بمشقة، ولو تركته دقيقة أخرى ما رضي الانصراف، وقد سرني أن حمل معه هذه الصورة المحزنة، فإن سؤلت له نفسه أن ينسى ما يجب عليه نحو صوفية ذكرها كما شاهدها حين انصرافه، فوجب أن يكون أحياناً الفؤاد إذا لم أستطع رده إليها.

السيّاحات

يُسأل هل من الحسن أن يسيح الشبان، ويُجادل حول هذا كثيراً، ولو اقترح أن يكون السؤال غير هذا، فسئل هل من الحسن أن يسيح الرجال، لكان الجدل حول هذا أقل مما حول ذلك.

فسوء استعمال الكتب يقتل العلم، وذلك أن الناس إذ يعتقدون معرفة ما يقرءون يعتقدون أنهم في غنى عن تعلمه، ولا ينفع كثير من القراءة لغير صنع جاهلين مُعجّبين بأنفسهم، ولو نُظر إلى جميع عصور الأدب ما وُجد عصر يُطالع فيه بمقدار ما يُطالع في هذا العصر، وما وُجد عصر يُسفر فيه ذاك عن قليل علم كما في هذا العصر، ولا تجد في جميع أوروبا بلداً تُطبع فيه كتب في التاريخ والرحلات كما يُطبع في فرنسة، ولا تجد مع ذلك بلداً أقل من فرنسة معرفةً بعقوبة الأمم الأخرى وطبائعها، وكثير من الكتب ما يَحْمِلُنَا على إهمال كتاب العالم، أو إننا إذا ما قرأناه استمسك كل واحدٍ منا بصحيفته، ولو كانت كلمة «أيمكن الإنسان أن يكون فارسياً؟» مجهولة لديّ لانصرف ذهني عند سماعها إلى صدورها عن البلد الذي هو أكثر البلدان خضوعاً للمُبْتَسرات القومية وعن أكثر الجنسین نشرًا لها.

ويظنُّ الباريسيُّ أنه يَعْرِفُ النَّاسَ مع أنه لا يَعْرِفُ غير نفسه، وهو يَعُدُّ في مدينته الزاخرة بالأجانب دائماً كلَّ أجنبيٍّ حادثاً عجبياً لا مثيل له في العالم، ويجب أن يُنظر إلى بُرجوازية هذه المدينة الكبرى عن كَثَب، ولا بُدَّ من العيش معهم، ليرى كيف يُمكن الواحد أن يكون غيبياً بمقدار ما هو ذكيّ، ووجهُ الغرابة في الأمر هو أن كلَّ واحدٍ منهم قرأ عشرَ مراتٍ على ما يحتمل وصفاً للبلد الذي يُثير الواحدُ من سُكَّانه عَجَبَهُ.

ومن الأمور الشاقة كثيراً كشفُ مُبْتَسرات المؤلفين ومُبْتَسراتنا معاً للوصول إلى الحقيقة، وقد قضيتُ حياتي في مطالعة كتب السياحة فلم أجد اثنين منها قَطُّ قد أعطاني عينَ الفكرة عن

عين الشعب، وإني حين قابلتُ بين القليل الذي استطعتُ ملاحظته بما كنت قد قرأت، انتهيتُ إلى تركِ السُّيَّاحِ هنالك آسفًا على الوقت الذي أنفقتُ في التعلُّم من كتبهم، معتقدًا أنه يجب أن يُرى الشيء لا أن يُقرأ في الأمور القائمة على الملاحظة من كلِّ نوع، ويكون هذا صحيحًا في مثل هذه الحال حين يكون جميع السُّيَّاحِ مخلصين فلا يَرَوْنَ غيرَ ما يَرَوْنَ أو ما يعتقدون، ولا يُنكِّرون الحقيقة بما تتَّخذ في عيونهم من ألوان زائفة، وما يكون ذلك إذا ما وجب تمييزُ الحقيقة من خلال أكاذيبهم وسوء نيتهم!

ولنتركُ إذن وسيلةَ الكتبِ التي يُباهى بها عندكم لِمَن كُوتُوا للاكتفاء بها؛ فهي صالحةٌ صلاح فنِّ ريمون لُول، لتعلُّم الهذُر حوْل ما لا يُعرَف مطلقًا، وهي صالحةٌ لتعليم الأفلأطونيين البالغين من العُمُر خمسة عشر عامًا أن يتفلسفوا في الأندية ولإطلاع النَّاسِ على عادات مصرِ والهندِ وفق ما قرره بول لُوقا أو تافرنيه.

ومن المبادئ المُسلم بها عندي أن مَنْ لم يَرَ غيرَ أُمَّةٍ لا يُعرَف سوى مَنْ عاش معهم بدلًا من أن يُعرَف الرجال، وإليك إذن وجهًا آخرَ لوضع عين المسألة عن السياحات، وهي: أيكفي الرجلُ الحسنُ التشبُّهَ أَلَّا يُعرَف غيرَ مواطنيه، أم إن من المهمَّ أن يُعرَف النَّاسَ على العموم؟ عاد لا يكون هناك شكٌّ ولا جدال، وروًا مقدارًا ما يتوقَّف حلُّ المسألة الصَّعبة أحيانًا على الوجه الذي تُوضَعُ به.

ولكنَّ أيجب أن يُطاف في جميع الأرض لدراسة النَّاسِ؟ وهل يجبُ الذهاب إلى اليابان لملاحظة الأوروبيين؟ وهل من الواجب معرفة جميع الأفراد لمعرفة النوع؟ كلاً، وإنما يوجد من النَّاسِ مَنْ يتشابهون كثيرًا، فلا ضرورةً لدرستهم على انفراد، ومن رأى عشرة فرنسيين فكأنما رأى الفرنسيين جميعًا. ومع أنه لا يُمكن أن يُقال عن الإنكليز وبعض الأمم الأخرى ما يُقال عن أولئك، فإن من الثابت أن لكلِّ أُمَّةٍ سجيَّتها الخاصة بها المميزة لها، والتي تُستَبط بالاستقراء القائم على ملاحظة كثيرٍ من أفرادها، لا على فردٍ واحدٍ منها، ومَن يقارن بين عشرٍ أممٍ يُعرَف الرجال، كما أن الذي يَرى عشرة فرنسيين يُعرَف الفرنسيين.

ولا يكفي الطوافُ في البلدان للوقوف عليها، وإنما يجب أن يُعرَف كيف تكون السَّياحة، وتستلزم الملاحظة وجودَ عيونٍ وتوجيه هذه العيون نحو الموضوع الذي تُراد معرفته، ويوجد كثيرٌ من النَّاسِ مَنْ تُعلِّمهم الرحلاتُ أقلَّ ممن تُعلِّمهم الكتبُ؛ وذلك لأنَّهم يجهلون فنَّ التفكير، ولأنَّ ذهنهم يُوجِّه في المطالعة من قِبَل المؤلف على الأقل، ولأنَّهم لا يُعرفون أن يَرَوْا في الرحلات شيئًا

بأنفسهم. ويوجد آخرون لا يتعلمون شيئاً لأنهم لا يريدون أن يتعلموا، ويبلغ موضوعهم من الاختلاف عن ذلك ما لا يقف نظره معه مُطلقاً، ومن المصادفة العظيمة إذا ما رأوا تمامًا ما لا يبالون برؤيته مطلقاً، والفرنسي بين جميع أمم الأرض هو أكثر من يسبح، ولكن بما أنه طافح بعاداته، فإنه يخلط بين جميع ما لا يشابهها. ويوجد فرنسيون في جميع زوايا العالم، ولا يوجد بلد مشتتم على أناس قاموا بسياحات كمن تشتمل عليهم فرنسة، ومع ذلك فإنك لا ترى بين جميع أمم أوروبا كالفرنسيين من تقل معرفتهم للأمم على الرغم من كونهم أكثر الأمم مشاهدة لها.

والإنكليزي يسبح أيضاً، ولكن على طراز آخر، فوجب أن تكون هاتان الأمتان متناقضتين في كل شيء؛ فأشراف الإنكليز يسبحون، وأشراف الفرنسيين لا يسبحون مُطلقاً، وأهل فرنسة يسبحون وأهل إنكلترا لا يسبحون مُطلقاً، وللإنكليز فخر بهذا الاختلاف كما يظهر لي، والغم تقريباً هو ما يهدف إليه الفرنسيون في سياحاتهم دائماً، ولكن الإنكليز لا يتبعون الشراء لدى الأمم الأخرى مطلقاً، ما لم يكن هذا عن تجارة ومع امتلاء يد؛ فهم إذا ما ساحوا كان هذا لإنفاق مالهم، لا ليعيشوا بحيلة، وهم من الرهو ما لا يتمسكون معه خارج بلادهم، ومن شأن هذا أن يكون تعلمهم لدى الأجنبي أفضل مما يتفق للفرنسيين الذين يدور في رءوسهم غرض آخر، ومع ذلك فإن للإنكليز ميسراتهم القومية، حتى إن لديهم منها أكثر مما لدى أي إنسان كان، غير أن هذه الميسرات قائمة على الهوى أكثر مما على الجهل، وللإنكليزي ميسرات الكبرياء وللفرنسي ميسرات الخيلاء.

وبما أن أقل الأمم ثقافة أكثرها حكمة على العموم، فإن أقلها سياحة أفضلها سياحة، وذلك بما أنها أقل منّا تقدماً في المباحث التافهة وأقل اشتغلاً بأمور فضولنا الفارغ، فإنها توجه جميع انتباهها إلى ما هو مفيد حقاً، ولا أعرف غير الإسبان من يسبحون على هذا الطراز؛ وبينما يُهرغ الفرنسي إلى متفني البلد، وبينما يحصل الإنكليزي على نسخ عن العاديّات، وبينما يحمل الألماني ألومه^{٢٤} * لدى جميع العلماء، يدرس الإسباني صامتاً الحكومة والطبائع والضابطة، والإسباني هو الوحيد بين الأربعة من إذا عاد نقل مما شاهد بعض الملاحظات المفيدة لبلده.

وكان القدماء قليلي السياحة قليلي المطالعة قليلي التأليف، ومع ذلك فإنه يرى فيما بقي لنا منهم أنهم كانوا يلاحظون بعضهم بعضاً ملاحظة أفضل من ملاحظتنا معاصرينا. وإننا من غير

رجوع إلى تأليف أميرس، هذا الشاعر الوحيد الذي ينقلنا إلى البلاد التي يصفها، لا نستطيع أن نحس عن هيرودتس شرف تصويره الطباع في تاريخه، ومع أن هذا كان بطريق الخبر أكثر مما ينعاه النظر، فإنه أفضل مما يصنع مؤرخونا الذين يشحنون كتبهم بالرسوم والحروف. وقد وصف تاسيتس جرمان زمنه بما لم يصف به كاتب ألماني الوقت الحاضر. ولا وراء في أن الذين يكتبون على التاريخ القديم يعرفون الأغرقة والقرطاجيين والرومان والغوليين والفرس معرفة أحسن من معرفة أية أمة في الوقت الحاضر لجاراتها.

ومما يجب أن يُعترف به أيضًا أن أخلاق الأمم الأصلية تزول يومًا بعد يوم، فيصير إدراكها أكثر صعوبة، وكلما امتزجت العروق واختلطت الأمم زئي بالتدريج زوال هذه الفروق القومية التي كانت تقف النظر أول وهلة فيما مضى. وكانت كل أمة في الماضي أكثر اقتصارًا على نفسها؛ فقد كانت الأمم أقل اتصالًا وأسفارًا ومصالح مشتركة أو متباينة، وأقل صلات سياسية وعلائق مدنية، وقد كانت أقل علمًا بهذه الفرقات الملكية التي تسمى مفاوضات، وكان لا يوجد سفراء عاديون أو مقيمون دائمون، وكان كبار الملاحين نادرين، وكانت التجارة القاصية قليلة، وما كان من هذه التجارة القليلة يقوم به الأمير نفسه، فيستحدم فيها أناسًا من الأجانب أو أناسًا أذلة لا تأثير لهم في الآخرين ولا يكونون للأمم جامعين، وما بين أوروبا وآسية من صلات في الوقت الحاضر أكثر مائة مرة مما كان بين إسبانية وبلاد الغول، وكانت أوروبا وحدها أكثر تفرقًا من جميع الأرض في أيامنا.

وإلى ذلك أضيفوا أن الأمم القديمة، إذ كانت تغد نفسها في الغالب سكانًا أصليين لبلادها الخاصة، كانت تشغل هذه البلاد منذ زمن طويل محوًا لذكرى القرون البعيدة التي فيها استقر أجدادها بها، وتركا للإقليم من الوقت ما يجعل فيها انطباعات دائمة، وذلك بدلًا من كون مهاجرات البرابرة الحديثة قد مزجت كل شيء وخلطت كل شيء بيننا بعد غزوات الرومان، وعاد فرنسيو اليوم لا يكونون ذوي أجسام طويلة شقر بيض كما في الماضي، وعاد الأغرقة لا يكونون أولئك الآدميين الحسان الذين صنعوا ليصلحوا نماذج للفن، وقد غيرت وجوه الرومان أنفسهم طابعها كما غيروا طابعهم، ويفقد الفرس الذين يرجع أصلهم إلى بلاد التتر، كل يوم شيئًا من شناعتهم الأولى باختلاط الدم الشركسي، وعاد الأوروبيون لا يكونون غوليين ولا جرمانًا ولا إيريين ولا من الألونورج، وإنما هم من الشيت الذين اختلّفوا تحوّلًا من حيث الوجوه والأخلاق. وهذا هو السبب في كونه الفروق القديمة بين العروق، وفي كون خصائص الهواء والأرض

كانت تمييز أقوى تمييز بين أمة وأمة في الأمزجة والوجوه والطباع والأخلاق؛ فلا يمكن أن يظهر هذا في أيامنا التي لا يدع فيها تقلب الأمور في أوروبا لأي داعٍ طبيعي من الوقت ما يطع فيه طابعه، والتي عادت فيها الغابات المخبطة والمستنقعات المحففة والأرض المزروعة على نمط واحد، مع سوء فِلاحة، لا تدع حتى في المظهر الطبيعي عين الفرق بين أرض وأرض وبين بلد وبلد.

ومن المحتمل أنه، إذا ما نُظر إلى مثل هذه التأملات، يُتوَعَّع بعض الشيء عن تحويل هيرودوتس وكتيزياس وبليني إلى مَهْرَأةٍ لأنهم عَرَضُوا سُكَّانَ مختلفِ البلدان بأوصافٍ أصليةٍ وفروقٍ بارزةٍ غُدْنَا لا نَجدها فيهم، ولا بُدَّ من العثور على عين الآدميين لتعرف فيهم عين الوجوه، ولا بُدَّ من عدم تغيير شيءٍ لهم حتى يكونوا قد بقوا عين النَّاسِ، وإذا ما استطعنا أن ننظر في وقتٍ واحدٍ إلى جميع النَّاسِ الذين كانوا، فهل من الممكن أن نشكَّ في أننا نجدُ فروقاً بين قرنٍ وقرنٍ أعظمٍ مما نجدُ اليوم بين أمةٍ وأخرى؟

وفي الوقت الذي تغدو فيه هذه الملاحظات أكثر صعوبةً يتمُّ أمرها تماماً أكثر إهمالاً وأعظم سوءاً، وهذا سببٌ آخر لقلّة نجاح مباحثنا في التاريخ الطبيعي للجنس البشري. وتتوقّف المعارف التي تكتسب من السياحات على الغرض الذي أوجب هذه السياحات، فإذا كان هذا الغرض نظاماً فلسفياً لم ير السائح غير ما يريد أن يرى، وإذا كان هذا الغرض مصلحةً استغرقت جميع انتباهه من يكتسب عليها، ومن شأن التجارة والفنون التي تمزج الأمم وتخلط بينها أن تحوّل دون دراسة بعضها لبعض؛ فإذا عرفت هذه الأمم كيف ينتفع بعضها من بعض فما زيادة المعرفة التي تحتاج إليها؟

ومما ينفَع الإنسان أن يعرف جميع الأماكن التي يمكن أن يعيش فيها حتى يختار، فيما بعد، أيها يستطيع أن يعيش فيه بأكثر ما يكون سهولة، وإذا كان كل واحدٍ يكفي نفسه بكده لم يهتمه غير معرفة اتساع البلد الذي يمكن أن يغدّيه. وأمّا الهمجي الذي لا يحتاج إلى أحد ولا يتشوّف إلى شيءٍ في الدنيا، فإنه لا يعرف ولا يحاول أن يعرف بلاداً أخرى غير بلده، وهو إذا ما اضطرَّ إلى التوسّع ليعيش تجنّب الأماكن العامرة بالنَّاسِ وتعبّب البهائم ولم يحتج إلى غيرها ليغتذي. وأمّا نحن الذين يحتاجون إلى الحياة المدنية، والذين عادوا لا يستغنون عن افتراس النَّاسِ، فإن من مصلحة كل واحدٍ منا أن نتردّد إلى البلاد التي يوجد فيها من الآدميين أكثر مما يُفترَس؛ ولذا فإن الجميع يتقاطر إلى رومة وباريس ولندن، وفي العواصم دائماً يُباع الدّم البشري بأبخس ما يكون ثمناً، وهكذا فإنه لا يعرف غير الأمم الكبرى، والأمم الكبرى تشابه كلها.

ويقال إن عندنا من العلماء من يسيحون ليتتقوا، وهذا خطأ؛ فالعلماء يسيحون عن منفعة كالآخرين، وعاد الأفلاطونون والفيثاغورون لا يوجدون، أو إنهم إذا وجدوا كانوا منا بعيدين. ولا يسيح علماؤنا إلا بأمر من البلاط، وهم يُرسلون على عجل وتُدفع إليهم نفقات سفرهم، ويؤدى إليهم مال حتى يروا هذا الشيء أو ذاك الشيء الذي ليس موضوعاً خُلقيّاً، وهم يقضون جميع وقتهم في هذا الأمر الوحيد، وهم من الصلاح البالغ ما لا يسرقون معه ما يُعطونه، وإذا حَدَثَ في بلد ما أن ساح أناس من مُجبيّ الأطلاع على نفقتهم الخاصة كان هذا لتعليم الناس لا لدراساتهم مطلقاً. وليس العلم هو ما يحتاجون إليه، بل الافتخار، وكيف يتعلمون في سياحاتهم أن يُلقوا نير المُبتسر عنهم؟ والمُبتسر هو الذي يقومون بسياحاتهم من أجله.

ويوجد فرق بين السياحة من أجل مشاهدة البلد الأجنبي ومشاهدة الأمم الأجنبية؛ فالأمر الأوّل هو ما يقوم به ذوو الفضول دائماً، ولا يكون الأمر الثاني عندهم إلا ثانويّاً. وعكس هذا ما يجب أن يكون لمن يُريد أن يتفلسف، والولد يُلاحظ الأشياء منتظراً وقت قدرته على ملاحظة الناس، ويجب أن يبدأ الرجل بملاحظة أمثاله، ثم يلاحظ الأشياء إذا ما سمح له الوقت بذلك.

ومن سوء البرهنة، إذن، أن يُستنتج كونّ السياحات غير مفيدة لأننا نسيء السياحة، ولكنه إذا سلّم بفائدة السياحات، فهل يعني هذا ملاءمتها لجميع الناس؟ كلاً، وإنما تلام عددًا قليلاً جداً من الناس، وإنما تلام الرجال الذين يكونون من قوّة النفس ما لا يُعوّزون معه إذا سمعوا دروس الخطأ، وما لا يُجذبون معه لمثال العيب إذا ما رأوه. والسياحات تدفع الجبليّ إلى مثله وتكبل جعل الرجل صالحاً أو طالحاً. ومن يرجع من الطواف في العالم يكن عند عودته ما يكونه مدى حياته؛ أي إنه يرجع من الطواف أشراراً أكثر من الصالحين؛ وذلك لأن من يقومون بالسياحة يكونون عند انطلاقهم أكثر ميلاً إلى الشرّ مما إلى الخير. ومن يكن من الشبان سيئ التشبّه سيئ السلوك فإنه يقتبس في سياحاته جميع عيوب الأمم التي يعاشرها، ولا يقتبس واحدة من الفضائل التي تمازج هذه العيوب، ولكن من هم سُعداء مؤلداً، ومن أحسن التربية تعهّد جيلتهم الصالحة، فيسيحون بقصد الشفّق حقاً، يعودون كلّهم أكثر صلاحاً وأعظم مما كانوا عليه عند بدء سفرهم؛ فهكذا سيسيح إميل، وهكذا كان قد ساح ذلك الشابّ الجديراً بأفضل القرون، فأعجبت أوروبية الدهشة بمرّيته، ذلك الشابّ الذي مات في ميعة شبابه من أجل بلده، ولكن مع استحقاقه أن يعيش، ذلك الشابّ الذي كان قبره المُزَيّن بفضائله وحدها، ينتظر يداً أجنبية تُكرمه بتشرّ أرهاق عليه.

ويجب أن يكون لكلّ ما يُفعل بالعقل قواعدُه، وإذا ما عدتّ الرحلات قسماً من التربية وجب أن تكون لها قواعدُها. والسياحة للسياحة تعني تسكّعاً وتشرداً، وكذلك السياحة للتعلّم

تنطوي على أمرٍ غامضٍ جدًّا، ولا تُعدُّ السياحة الخالية من الغاية شيئًا مذكورًا، وكنت أودُّ مَنْحَ الفتى غَرْصًا خاصًّا في التعلُّم، وهذا الغرض إذا ما أحسنَ اختياره قرَّرَ طبيعة التعلُّم أيضًا، وهذه تكملةً للمنهج الذي حاولتُ مزاولته دائمًا.

والواقع أنه بقيَ له أن ينظرَ إلى أمره من حيث علاقته بمواطنيه بعد أن نظرَ إليه من حيث علاقته المادية بالموجودات الأخرى، ومن حيث علاقته الأدبية بالناس الآخرين؛ ولذا فإنه يجب أن يبدأ بدراسة طبيعة الحكومة على العموم، وبدراسة مختلف أشكال الحكومة، ثمَّ بدراسة الحكومة الخاصة التي وُلِدَ في كنفها، وذلك ليُعرف هل يلائمه العيش تحت ظلِّها؛ وذلك لأن كلَّ إنسانٍ إذا ما بلغ سنَّ الرشد وصار سيدَ نفسه أصبحَ وفقَّ حقًّا لا يستطيع شيءٌ أن يُلغيه، سيِّدًا أيضًا في العدول عن العَقْد الذي يرتبط به في المجتمع بتركه البلدَ المستقرَّ به، وليس بغير إقامة بلده بعد سنِّ رشده ما يُعدُّ مؤيِّدًا تأييدًا ضمنيًّا للعهد الذي اتخذهُ أجدادُه، وهو يكتسب حقَّ التنزُّل عن وطنه كما يتنزَّل عن ميراث أبيه، ثمَّ بما أن مكانَ المَوْلَدِ هيَّةٌ من الطبيعة، فإنه إذا ما تخلَّى عنه يكون قد تخلَّى عن أمرٍ خاصٍّ به، وإذا ما نظرَ إلى الأمر من حيث الحقِّ الوثيقِ وُجِدَ أن كلَّ إنسانٍ يظلُّ حرًّا على مسئوليته في أيِّ مكانٍ وُلِدَ فيه، وذلك ما لم يخضع مختارًا للقوانين نيلاً لحقِّ حمايتها إياه.

ولذا فإنني أقول له مثلاً: «لقد عشتَ تحت إدارتي حتى الآن، وقد كنتَ عاجزًا عن تدبير أمرِك بنفسك، بيدَ أنك تدنو من العُمُر الذي تركُ لك القوانينُ فيه حقَّ التصرُّف في مالك فتجعلك وليَّ أمرِك، وتُوشِك أن تجدَ نفسك وحيدًا في المجتمع تابعًا لكلِّ شيءٍ حتى لنفسك، وترغب في الزواج، وهذه الرغبة جديرةٌ بالثناء، وهي من واجبات الرجل، ولكن لا بُدَّ لك قبل أن تتزوج من أن تعرف أيَّ رجلٍ تريد أن تكون، وكيف تقضي حياتك، وما التدابير التي تريد اتخاذها لضمان عيشك وعيش أسرتك؛ وذلك لأنه وإن كان لا ينبغي لنا أن نجعل من هذا الأمرِ همًّا الرئيس، يجب أن نُفكِّر فيه مرَّةً واحدة، وهل تُريد أن تكون تابعًا لأناسٍ ترددهم؟ وهل تُريدُ توطيدَ ثروتك وتثبيتَ وضعك بصِلاتٍ مدنيةٍ تجعلك تحت تصرُّف الآخرين بلا انقطاع، فيحملوك على أن تكون مكرًّا اجتنابًا للماكرين؟»

وفوق ذلك فإنني سأبيِّن لك جميعَ الوسائل الممكنة لاستغلال ماله سواء أفي التجارة أم في التكاليفِ أم في المالية، كما أنني سأبيِّن له أنه لا يوجد في هذه الأمور ما لا ينطوي على خطَرٍ يئاله، وما لا يصنعه في حالٍ تابعٍ غير ثابت، وما لا يُنظَّم به طباعه ومشاعره وسلوكه على غرار الآخرين ومُبتسراتهم.

وسأقول له: «توجدُ وسيلةٌ أخرى لاستعمال وقته وشخصه، وهي أن يلتحق بالجيش؛ أي

أن يُوجر نفسه بأجرٍ زهيدٍ ليذهب فيقتل أناسًا لم يصيبونا بأذى قط. ولهذه الحرفة اعتبارٌ كبيرٌ بين الناس، والناس يُقيمون وزنًا عجيبًا لمن لا يَصْلُحون لغير هذا، وفضلاً عن ذلك فإن هذه الحرفة تجعلك مُضطراً كلَّ الاضطرار إلى الوسائل الأخرى بدلاً من إعفائك منها؛ وذلك لأنه يدخل ضمن شرف هذه الحرفة بَوَازٍ مَنْ يَحْسِبون أنفسهم عليها. أجل، إن البَوَاز لا يُصِيههم فيها جميعاً؛ فمن الموضحة أن يُغتنى فيها على وجهٍ غير محسوسٍ كما في الجِرف الأخرى، ولكنني أشكُّ في أنني، إذا ما أوضحت لك السُّبيل التي يتخذها مَنْ يَنْجَحون فيها، أجعلك مُولعاً بتقليدهم.

وستعلم كذلك أنَّ الأمر في هذه الحرفة نفسها عاد لا يقوم على الشجاعة ولا على القيمة، ما لم يكن هذا لدى النساء على ما يحتمل، وعلى العكس يُرى أن الأندل والأسفل والأذل هو أكثر مَنْ يُكْرَم دائماً، فإذا ما عَنَّ لك أن تسلك سبيل الصلاح والجِدِّ في جِرفتك ازْدُرَيْتَ ومُقْتَّ وطُرِدْتَ على ما يُحتمل، أو ذهبت ضحية المحاباة فاغضب زملاؤك مكانك وحملت على القيام بخدمتك في الخنادق على حين يقومون بخدمهم في تزيين أنفسهم.

ومن المشكوك فيه أن تكون جميع هذه الخدم ملائمةً لذوق إميل، وسيقول لي: «ماذا! أنسيئت ألعاب صباي؟ وهل فقدت ذراعي؟ وهل نفذت قوتي؟ وهل عُدت لا أعرف العمل؟ وما يُهمُّني من جميع خدمك الجميلة وجميع مُتَسَرَّات الناس؟ لا أعرف مجدداً غير كوني مُحسناً مُنصفاً، ولا أعرف سعادةً غير العيش مستقلاً مع مَنْ أَحْبُّ كاسياً كلَّ يوم صحةً وشهوةً طعامٍ من عملي، وما كانت جميع الهموم التي تُكَلِّمُني عنها لتؤثِّر في مُطلقاً، ولا أرغب من الخير في غير مزرعةٍ صغيرةٍ في زاويةٍ من الدنيا، وسأبدل جهدي كله في استغلالها، وسأعيش بلا هم، وأعطي صوفية وحقلي أكَ غنياً.»

«أجل يا صديقي، يكفي لسعادة الرجل الحكيم أن تكون له امرأةٌ وحقل، بيد أن هذه الكنوز غير مألوفةٍ كما تظن، مع أنها معتدلة، وأندرُ الكنوز هو ما وجدت، فلنتكلم عن الآخر.

حقل لك يا إميل العزيز! ففي أيِّ مكان ستختاره؟ وهل تستطيع أن تقول في أية زاويةٍ من الأرض «إني هنا سيد نفسي وسيد هذه الأرض الخاصة بي»؟ إننا نعرف الأماكن التي يسهل على الرجل أن يصير غنياً فيها، ولكن مَنْ يَعْرِف المكان الذي يُستغنى فيه عن الغنى؟ ومن يَعْرِف المكان الذي يُمكن أن تُقضى فيه حياةٌ مستقلةٌ طليقةً من غير احتياجٍ إلى إيداءٍ أحدٍ ومن غير أن يُخشى تلقى أذى من أحد؟ وهل تظنُّ أن من السهل كشف البلد الذي يُسمح للرجل فيه دائماً أن يكون صالحاً؟ وإذا وُجدت وسيلةً شرعيةً مضمونةً للعيش بلا مكرٍ ولا خصامٍ ولا خضوع، فإن

هذا يعني، كما أرى، عيشًا بكّد اليد، وذلك بزراعة الإنسان أرضه الخاصة. ولكن أين الدولة التي يُمكن أن يُقال فيها «إن الأرض التي أطأها خاصة بي»؟ وتنبّث قبل اختيار هذه الأرض المباركة في أنك تجدّ فيها السلام الذي تنشُد، واحترز من وجود حكومة جافية ودين جائر وأخلاق فاسدة تُنغصُ عليك عيشك في مكانك، واجعل نفسك في جزر لها تستفيد رأس مالك، واصنع حين تقضي حياةً صالحةً ما لا تتزلّف معه إلى المُدراء ومساعدتهم وإلى القضاة والقساوسة والجيران الأقوياء، وإلى أصناف الخبيثاء الذين يستعدّون دائمًا لإيدانك إذا ما أهملتهم، وضع نفسك على الخصوص في مأمّن من جنف الكبراء والأغنياء. ولا يغب عن بالك إمكان مجاورة أرضهم في كلّ مكانٍ لكرم نابوت، وإذا قضى سوء حظك بأن يشتري أو ييني رجل في الحوزة بيتًا بالقرب من كوخك، فهلّ تجيب بأنه لن يجد وسيلةً يتذرّع بها للاستيلاء على ثرائك ليثري، أو أنك لن تراه يبلّغ جميع مواردك توسيعًا لطريق عامة؟ وإذا كان لك من الاعتبار ما تحترز به من جميع هذه المحاذير أمكنك أن تحفظ أرزاقك لِمَا عاد حفظها لا يُكلّفك شيئًا؛ فكلّ من الشراء والاعتبار يعتمد على الآخر تبادلاً، ويكون تماسك كلّ منهما من غير الآخر سيّئًا.

وأنا أكثرُ منك تجربةً يا إميل العزيز، وأنا أحسنُ منك بصراً بصعوبة مشروعك، ومع ذلك فإن مشروعك رائع، ومع ذلك فإن مشروعك صالح، وهو يجعلك سعيدًا بالحقيقة، فلنبذلّ جهدنا في تنفيذه، وإنما يوجد لديّ اقتراح أذكره لك، وهو أن نُخصّصَ العامين اللذين انتحلناهما حتى رجوعك لاختيار ملجأ في أوروبا تستطيع أن تعيش فيه سعيدًا مع أسرّتك أمينًا من جميع الأخطار التي حدّثتُك عنها، وإذا ما وُفقنا وَجَدتُ السعادة الحقيقية التي ينشدها أناسٌ كثيرون في الحقيقة، ولم تأسفْ على الوقت الذي بدّلت في هذا السبيل، وإذا لم نُوفقْ شُفيت من وَهم، وأسليت نفسك عن مصيبةٍ لا مناصَ منها، وخضعت لسلطان الضرورة.»

ولا أدري هل يرى جميعُ قُرّائي أين يسوقنا هذا البحث المُقترح هكذا، وإنّما الذي أُعرف جيّدًا هو أن إميل إذا كان لا يعود من رحلاته، التي بُدئت وأديمت لهذا الغرض، مُطّلعًا على جميع أمور الحكومة والطبائع العامة وعلى جميع أنواع مبادئ الدولة، وجب أن يكون مُجرّدًا من الذكاء، وأن أكون مُجرّدًا من قوى التمييز.

ولمّا يُولّد الفقه السياسي، وقد يُفترض أنه لن يُولّد مُطلقًا، وليس غروسْيوس - الذي هو أستاذ جميع علمائنا في هذا الفرع - غير ولد، والأفطع من هذا أن يكون ولدًا سيّئ النية، وعندما أسمع رفع غروسْيوس إلى الأوج الأعلى وغمر هُوَيزر باللغات أبصر مقدار قراءة ذوي الألباب

لهما وإدراكهم إياهما. والواقع أن مبادئهما متشابهة تمامًا، وهما لا يختلفان في غير التعابير، وهما يختلفان في المنهاج أيضًا؛ فهُوَيْرُ يعتمد على المغالطات، وغروسْيوس يعتمد على الشعراء، وإذا عدوت هذا وجدت هذين المؤلفين متفقين في كل شيء.

ومؤنْتَسْكِيُو العصريُّ الشهيرُ وحده هو الذي استطاع وضع هذا العلم العظيم غير النافع، ولكنه لم يُراعِ مبادئ الفقه السياسي، وإنما اكتفى بمعالجة الفقه الوضعي للحكومات القائمة، ولا شيء في العالم أشدَّ اختلافًا من هاتين الدراستين.

ومع ذلك، فإنَّ الَّذِي يريد أن يُصدر حُكْمًا صحيحًا في الحكومات القائمة مُلْزَمٌ بجمع ما بين الدراستين؛ إذ لا بُدَّ من معرفة ما يجب أن يكون للحكم فيما هو كائن، وكلُّ الصعوبة في إلقاء نُورٍ في هذه الموضوعات المهمة هو في جعل الفرد يناقش فيها فيجيب عن هذين السؤالين، وهما: ما يهمني؟ وما أستطيع أن أصنع؟ وقد وضعنا إميل في حالٍ يُجيب معه عن السؤالين.

وتأتي الصعوبةُ الثانية من مُبْتَسِرَاتِ الوُلُودِيَّة، ومن المبادئ التي غُدِّينا بها، ولا سيَّما محاباة المؤلفين الذين، إذ يُحدِّثون دائمًا عن الحقيقة التي لا يُبالون بها مطلقًا، لا يُفكِّرون في غير مصلحتهم التي لا يتكلمون عنها مُطلقًا. والواقع أن الشعب لا يمنح كراسي ولا وظائف ولا أماكن في الأكاديمية، فليحكّم في الوجه الذي يجب أن تقوم عليه حقوقه من قِبَل أولئك النَّاسِ! وأما أنا فقد صنعت ما تكون به هذه الصعوبة أمرًا لا يُعتدُّ به لدى إميل. وإميل لم يكذب يعرف ما الحكومة، والشيء الوحيد الذي يهمله هو أن يجد أفضل الحكومات، وليس هدفه أن يضع كتابًا، وهو إذا ما وضع منها فلن يكون هذا ليتزلف إلى السلطات، بل ليوطد حقوق الإنسانية.

وبقيت صعوبةُ ثالثة؛ فهذه الصعوبةُ مُموَّهةٌ أكثرُ منها متينة، ولا أرغب في حلِّها، ولا في تقديمها، وإنما أكتفي بالألَّا تُرهب عَيرَتِي واثقًا في المباحث التي هي من هذا النوع، بأن المواهب الكبيرة أقلُّ لزومًا من حُبِّ للعدلِ صادقٍ ومن إجلالٍ للحقيقة؛ ولذا فإنَّ أمورَ الحكومة إذا ما أمكن أن تُعالج الآن أو لم يُمكن فذاك حطُّنا.

ولا بُدَّ من وضع قواعدٍ للملاحظة قبل أن نلاحظ، ولا بُدَّ من وضع مقياسٍ يُرجع إليه فيما يُتَّخَذُ من قياسات، ومبادئنا في الفقه السياسي هي هذا المقياس، وقياساتنا هي القوانين السياسيَّة لكلِّ بلد.

وستكون أصولنا واضحةً بسيطةً مقتبسةً من طبيعة الأشياء مباشرة، وستتخذ شكل

المسائل المُجادَل فيها بيننا، فلا نُحوّلها إلى مبادئٍ إلا بعد حلّها حلًّا كافيًّا.

ومن ذلك أننا إذ نرّجِع في بدء الأمر إلى الحال الطبيعيّة نبحث في هل يُؤلّد النَّاسُ عبيدًا أو أحرارًا، مُشتركين أو مستقلين، وهل يتّحدون طوعًا أو كَرْهًا، وهل تستطيع القوة الأصلية التي تجمعهم تكوين حقّ دائمٍ تُلزمهم به، حتى عند غلبها من قِبَل قوةٍ أخرى كالتّي أخضع لها الملكُ نموذّ الأمم الأخرى على ما يُروى، فقوّضت تلك، فغدتْ جائرةً أو غاصبة، وصار لا يُوجد ملوكٌ شرعيون غيرُ أبناءِ نموذّ أو من انتقلتْ إليهم حقوقه، أو هل تُلزمُ القوةُ التي عَقبتْ القوةَ الأصليّةَ بعد انقطاع هذه والقضاء على إلزامها، فلا يُجبرُ على إطاعتها إلا كَرْهًا، ويُحلُّ منها عند إمكان مقاومتها؛ أي إن هذا الحقّ لا يُضيف شيئًا إلى القوة كما يلوح، ولا يكون غير تلاعبٍ في الألفاظ.

وسنبحث في هل يأتي كلُّ مَرَضٍ من الرب، فيكون من الإجماع دعوة الطبيب.

وكذلك سنبحث في هل من مُقتضى الضمير تسليمُ كَيْسِنَا إلى قاطع طريقٍ يطلبه مِنّا حتى عند استطاعتنا أن نخفيه عنه؛ وذلك لأن الفرد^{٢٥} * الذي يَحْمِلُ ينطوي على سلطانٍ أيضًا.

وهل كلمة السُّلطان هذه تعني في هذه المناسبة شيئًا آخرَ غيرَ السلطان الشرعي، فيكون هذا السلطان خاضعًا للقوانين التي يَسْتَمِدُّ منها وجوده؟

ولنفترضُ نَبَدَ حقّ القوة هذا جانبًا وانتحالَ حقّ الطبيعة أو السلطان الأبويّ كمبدأ للمجتمعات، فحينئذٍ نبحثُ عن مقياس هذا السلطان وعن كيفية قيامه في الطبيعة، وعن وجود سببٍ له غير فائدة الولدِ وضعفه وما يَحْمِلُ الأبُ من حُبِّ طبيعيٍّ له، فإذا ما زال ضعفُ الولدِ ونَضجَ عقله أفلا يكون وحده قاضيًا طبيعيًّا فيما يلازم بقاءه؛ ومن ثمّ ألا يكون سيّد نفسه مستقلًّا عن أيِّ إنسانٍ آخر، حتى عن أبيه؟ وذلك لأنّ من الثابت أن الابن يُحِبُّ نفسه أكثرَ من حُبِّ الأبِ لابنه.

وإذا مات الأب، أفيلزمُ الأولادُ بإطاعة كبيرهم أو بإطاعةٍ آخرَ لا يَحْمِلُ لهم حُبَّ الأبِ الطبيعي؟ وإذا ما كان الأمرُ بين سُلالةٍ وأخرى، أفيجدُ رئيسٌ واحدٌ دائمًا؟ وهل يُبحث في مثل هذه الحال عن الوجه الذي يُمكن أن يُقسَم به السلطان، وعن الوجه الذي يكون به في العالم أكثرُ من رئيسٍ للسيطرة على النوع البشري؟

ولنفترضُ أن الأقوامَ تَكُونُوا باختيارهم، فهناك نَمِيذٌ بين الحقِّ والواقع، فنسألُ قائلين إنهم إذا كانوا قد خضعوا على هذا الوجه لإخوتهم أو أعمامهم أو أقربائهم طوعًا لا كَرْهًا، أفلا

.Le pistolet *^{٢٥}

يَدْخُلُ هَذَا النُّوعُ مِنَ الْمَجْتَمَعِ نِطاقَ الْجَمَاعَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْحَرِيَّةِ وَالِاخْتِيَارِ.

ثُمَّ نَنْتَقِلُ إِلَى حَقِّ الرَّقِّ، فَنَبْحَثُ فِي هَلْ يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَبِيعَ نَفْسَهُ مِنْ آخَرَ بِلا قَيْدٍ وَلَا تَحْفَظٍ وَلَا أَيْ نَوْعٍ مِنَ الشُّرُوطِ؛ أَيْ هَلْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْزِلَ عَنْ شَخْصِهِ وَحَيَاتِهِ وَعَقْلِهِ وَذَاتِيَّتِهِ وَكُلِّ خُلُقِيَّةٍ فِي أَعْمَالِهِ، وَالْخِلَاصَةَ أَنْ يَنْقَطِعَ عَنِ الْوُجُودِ قَبْلَ مَوْتِهِ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تَفْرِضُ عَلَيْهِ أَمْرَ حِفْظِ نَفْسِهِ حَالًا، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ضَمِيرِهِ وَعَقْلِهِ الَّذِينَ يُلْزِمَانَهُ بِمَا يَجِبُ أَنْ يَصْنَعَ وَبِمَا يَجِبُ أَنْ يَمْتَنِعَ عَنْهُ.

وَإِذَا مَا وُجِدَ تَحْفَظٌ أَوْ قَيْدٌ فِي سَنَدِ الرَّقِّ، فَإِنَّا نناقِشُ فِي هَلْ هَذَا السَّنَدُ لَا يُصِحُّ إِذْ ذَاكَ عَقْدًا حَقِيقِيًّا لَا يَكُونُ فِيهِ لِكُلِّ مِنَ الْمُتَعَاقِدِينَ مَوْلَى مُشْتَرِكٍ،^{٢٦} بِهِدَى الصَّفَةِ فَيَقِيَانِ قَاضِيَّيْهِ نَفْسَهُمَا الْخَاصِّينَ مِنْ حَيْثُ شُرُوطِ الْعَقْدِ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ كُلُّ مِنْهُمَا خُرًّا فِي هَذَا الْإِتِّفَاقِ قَادِرًا عَلَى نَقْضِ الْعَهْدِ عِنْدَمَا يُقَدَّرُ أَنَّهُ ضَارٌّ بِهِ.

وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبِيعَ نَفْسَهُ مِنْ مَوْلَاهُ بِلا تَحْفَظٍ، فَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ الْأُمَّةُ أَنْ تَبِيعَ نَفْسَهَا مِنْ رَئِيسِهَا بِلا تَحْفَظٍ؟ وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ يَبْقَى قَاضِيًّا فِي أَمْرِ مَرَاعَاةِ مَوْلَاهُ لِلْعَقْدِ، فَكَيْفَ لَا يَبْقَى الشَّعْبُ قَاضِيًّا فِي أَمْرِ مَرَاعَاةِ رَئِيسِهِ لِلْعَقْدِ؟

وَنَحْنُ، إِذْ نَجِدُ أَنْفُسَنَا مُلْزَمِينَ بِالْعُودِ إِلَى الْوَرَاءِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ نَاطِرِينَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى الْجَمَاعِيِّ لِكَلِمَةِ الْأُمَّةِ، نَبْحَثُ لِإِقَامَةِ الْأُمَّةِ فِي هَلْ يَجِبُ وَجُودُ عَقْدٍ ضَمِنِيٍّ عَلَى الْأَقْلِّ سَابِقٍ لِلَّذِي نَفْتَرِضُهُ.

وَمَا دَامَتِ الْأُمَّةُ أُمَّةً قَبْلَ أَنْ تَنْتَخِبَ لَهَا مَلِكًا، فَمَا الَّذِي جَعَلَهَا أُمَّةً إِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَقْدُ الْاجْتِمَاعِي؛ وَلِذَا فَإِنَّ الْعَقْدَ الْاجْتِمَاعِيَّ أَسَاسُ كُلِّ مَجْتَمَعٍ مَدَنِيٍّ؛ فَفِي طَبِيعَةِ هَذَا الْعَقْدِ يَجِبُ أَنْ يُبْحَثَ عَنِ طَبِيعَةِ الْمَجْتَمَعِ الَّذِي يُؤَلِّفُهُ.

وَسَنَبْحَثُ فِي فَحْوَى هَذَا الْعَقْدِ، وَنَرَى هَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ بِالصِّيغَةِ الْآتِيَةِ، وَهِيَ: «إِنْ كَلَّ وَاحِدٌ مِّنَّا يَضَعُ بِالِاشْتِرَاكِ أَمْوَالَهُ وَشَخْصَهُ وَحَيَاتِهِ وَجَمِيعَ قُوَّتِهِ تَحْتَ الْإِدَارَةِ الْعَالِيَا لِلْإِرَادَةِ الْعَامَةِ، فَتَقْبَلُ كَهَيْئَةٍ، كُلُّ عَضْوٍ جِزْءًا مِنَ الْمَجْمُوعِ لَا يَتَجَرَّأُ.»

وَإِنَّا بَعْدَ افْتِرَاضِ هَذَا سِنَاحِظٍ لَتَعْيِينِ الْعِبَارَاتِ الَّتِي نَحْتَاجُ إِلَيْهَا أَنْ عَقْدَ الْاجْتِمَاعِ هَذَا

^{٢٦} إِذَا مَا كَانَ لِهَمَا مِثْلُ هَذَا الْمَوْلَى الْمُشْتَرِكِ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْمَوْلَى غَيْرَ السَّيِّدِ، وَهَنَالِكَ لَا يَكُونُ حَقُّ الرَّقِّ الْقَائِمَ عَلَى حَقِّ السِّيَادَةِ أَصْلًا لَهُ.

يُوجِبُ هيئةً أدبيةً جماعيةً مؤلّفةً من أعضاء بمقدار ما في المجلس من أصوات، وذلك بدلاً من ملاحظة الشخصية الخاصة لكلّ متعاقد، وعلى العموم يتّخذ هذا الشخص العام اسم «الهيئة السياسية» التي يُطلق أعضاؤها عليها اسم «الدولة» إذا كانت منفعة، واسم «السيد» إذا كانت فاعلة، واسم «السلطان» إذا ما قُورنت بنظيراتها، وأمّا الأعضاء أنفسهم فإنهم يتخذون اسم «الأمة» جمعاً، واسم «مواطنين» أفراداً، كأعضاء «الوطن» أو شركاء في السلطان ذي السيادة، واسم «رعايا» كخاضعين للسلطان عيّنه.

وسنلاحظ أن عقْد الاجتماع هذا ينطوي على عهدٍ متقابل بين الجمهور والأفراد، فيكون كلُّ فردٍ متعاقدٍ مع نفسه على هذا الوجه مُلزماً بصِلَةٍ مضاعفة؛ أي كعضوٍ للسيد نحو الأفراد، وكعضوٍ للدولة نحو السيد.

وسنلاحظ أيضاً أن كلَّ واحدٍ إذ لا يكون مُلزماً بغير التعهدات التي هو طرفٌ فيها، فإن التشاور العام الذي يلزم جميع الرعايا نحو السيد، بسبب الصلتين المختلفتين اللتين يُنظر بهما إلى كلِّ واحدٍ منهم، لا يُمكن أن يلزم الدولة نحو نفسها؛ ومن ثمَّ يرى أنه لا يوجد، ولا يُمكن أن يوجد، قانونٌ أساسيٌّ آخر غير الميثاق الاجتماعي وحده، وهذا لا يعني أن الهيئة السياسية لا تستطيع من بعض الوجوه أن تلزم نفسها نحو غيرها؛ فهي تصيرُ نحو الأجنبيِّ كأنثاً بسيطاً، تصيرُ فرداً.

وبما أنه لا يوجد للطرفين المتعاقدين، أي للجمهور وكلِّ فرد، أي رئيسٍ مشتركٍ قادرٍ على الحكم في خصوماتهما؛ فإننا سنبحث في هل يبقى كلُّ من الفريقين حرّاً في نقض العقد متى شاء؛ أي أن يعدل عنه من ناحيته إذا ما عدّه ضارّاً به.

وتنويراً لهذه المسألة نلاحظ وفق الميثاق الاجتماعي أن السيّد إذ لا يستطيع أن يسير إلا بعزائمٍ مشتركةٍ عامة، فإنه لا ينبغي أن يكون لأفعاله غير أغراضٍ عامّةٍ مشتركة، فينشأ عن هذا كون الفرد لا يُمكن أن يُضَرَّ مباشرةً من قِبَل السيد ما لم يُضَرَّ الجميع، ولا يُمكن هذا أن يكون ما دام هذا يعني إصابة الواحد نفسه بأذى، وهكذا فإن العقد الاجتماعي لا يحتاج إلى ضامنٍ آخر غير السلطة العامة؛ وذلك لأنَّ الضرر لا يُمكن أن يصدر عن غير الأفراد، وهنالك لا يكون الأفراد مُعقّون من عهدهم، بل يُعاقبون على نقضه.

وسنجهد لتقرير جميع المسائل المشابهة في ذكرنا دائماً أن الميثاق الاجتماعي ذو طبيعةٍ خاصةٍ قاصرةٍ عليه وحده، وذلك من حيث كون الأمة لا تُعاقد غير نفسها؛ أي إنَّ الأمة كهيئةٍ صاحبةٍ للسيادة تعاقد الأفراد كرها، وعلى هذه الشروط يقوم كيان الجهاز السياسي

وسيره، وهذا الشرط وحده يجعل التعهدات شرعيةً معقولةً خاليةً من الخطر، ولولا هذه لكانت التعهدات خُرْفًا جائرةً عُرضةً لأعظم ما يكون من سوء الاستعمال.

وبما أن الأفراد لا يخضعون لغير السيد، وبما أن السلطان صاحب السيادة ليس سوى الإرادة العامة، فإننا سنرى كيف أن كل إنسان إذ يخضع للسيد لا يخضع لغير نفسه، وكيف نكون في الميثاق الاجتماعي أكثر حريةً منّا في الحال الطبيعية.

وإنّا بعد أن قابلنا بين الحرية الطبيعية والحرية المدنية من حيث الأفراد، سنقابل من حيث الأموال بين حق التملك وحق السيادة؛ أي بين المملك الخاص والمملك العام. وإذا كان السلطان ذو السيادة قائمًا على حق التملك، فإن هذا الحق يجب أن يكون أعظم ما يحترم من قبل ذلك السلطان، وهو يبقى موصوفًا مقدسًا ما بقي حق فرديّ خاص، وهو إذا ما عُدّ من فوره مشتركًا بين جميع المواطنين خضع للإرادة العامة. وهذه الإرادة هي التي تستطيع أن تُبطله. وهكذا فإنه لا يوجد للسيد أي حق في مس مال الفرد ولا مال كثير من الأفراد، ولكنه يستطيع أن يستولي على مال الجميع استيلاءً شرعيًا، وذلك كما وقع بإسبارة في زمن ليكُونغ، مع أن إلغاء الديون من قبل سولون عُدّ عملاً غير شرعي.

وبما أنه لا شيء يكره الرعايا غير الإرادة العامة فإننا سنبحث عن كيفية تجلّي هذه الإرادة، وعن العلامات التي يُطمأن إلى معرفتها بها، وعن معنى القانون، وعن صفاته الحقيقية، وهذا الموضوع تامّ الجِدّة، ولا يزال القانون يتطلب تعريفًا.

وإذا ما اعتبرت الأمة واحدًا أو أكثر من أعضائها على انفراد انقسمت من فورها، وتكوّنت بين الكلّ وجزئه صلة تُجْعَلُ منهما موجودين منفصلين، فيكون الجزء أحد الموجودين، ويكون الكلّ بعد طرح هذا الجزء منه ثاني الموجودين، ولكن الكلّ بعد طرح جزء منه لا يكون كلاً، ويُعود لا يوجد كلّ إذن، ما بقيت هذه النسبة، بل يوجد قسمان متفاوتان.

وعلى العكس، إذا ما وضعت الأمة كلها قانونًا لجميع الأمة، فإنها لا تعتبر غير نفسها، وإذا ما تكوّنت علاقة كانت علاقة الموضوع كلاً من وجهة نظر الموضوع كلاً من وجهة نظر أخرى، وذلك من غير تقسيم للكلّ قطعًا، وهناك يكون الموضوع الذي يُوضَع له قانونًا عامًا، وتكون الإرادة التي تُضَع القانون عامًا أيضًا، وسنرى هل يوجد نوع قرار آخر يُمكن أن يحيل اسم القانون.

وإذا كان السيد لا يستطيع أن يتكلّم إلا بالقوانين، وإذا كان القانون لا يُمكن أن يكون

له غير موضوع عام شامل لجميع أعضاء الدولة على السواء، فإن هذا يعني عدم وجود سلطةٍ للسيد يضع بها قانوناً حول موضوعٍ خاص، وبما أن من المهم لبقاء الدولة مع ذلك تقرير أمورٍ خاصة، فإننا سنرى كيف يُمكن صنع هذا.

ولا يُمكن أن تكون أعمال السيد غير أعمال الإرادة العامة، غير قوانين، ولا بُدَّ بعد ذلك من أعمال البتِّ أو أعمال القوة أو الحكومة تنفيذاً لهذه القوانين نفسها، وعلى العكس لا يُمكن أن يكون لهذه الأعمال غير موضوعاتٍ خاصة، وهكذا فإن المرسوم الذي يصنُر عن السيد لانتخاب رئيس يكون قانوناً، وإن المرسوم الذي يُنتخبُ به هذا الرئيس تنفيذاً للقانون ليس سوى مرسوم حكومة.

وهذه إذن صلةٌ ثالثةٌ تُعدُّ بها الأمة المجتمعمة حاكمةً أو مُنفذةً للقانون الذي وضعته صاحبةٌ للسيادة.^{٢٧}

وسنبحث في إمكان تجرُّد الأمة من حقِّها في السيادة مُؤلياً به رجلاً أو أكثر، وذلك بما أن عمل الانتخاب ليس قانوناً، وبما أن الأمة بهذا العمل ليست سيِّداً بعينه، فإنه لا يرى مطلقاً كيف تستطيع الأمة إذ ذاك أن تنقل حقاً ليس لها.

وبما أن كُنه السيادة يقوم على الإرادة العامة فإنه لا يرى كيف يُمكن أن يُوقنَ بأن الإرادة الخاصة تكون على اتفاقٍ مع الإرادة العامة دائماً، ومن الجدير وجوب افتراض كون الأمر على العكس غالباً؛ وذلك لأن المصلحة الخاصة تميلُ إلى الامتيازات دائماً، وأن المصلحة العامة تميلُ إلى المساواة، ومتى كان هذا الاتفاق ممكناً كفى ألا يكون ضرورياً ممتنع الزوال لكيلا ينشأ عنه الحقُّ ذو السيادة.

وسنبحث في هل رؤساء الأمة الذين يُختارون تحت أيِّ اسمٍ كان، يُمكنهم من غير نقضٍ للميثاق الاجتماعي أن يكونوا شيئاً آخر غير ضباطٍ لدى الأمة التي تأمرهم بتنفيذ القوانين، وفي هل هؤلاء الرؤساء غير مُلزَمين بتقديم حسابٍ إليها عن إدارتهم وغير خاضعين للقوانين المُفوض إليهم أن يحافظوا عليها.

^{٢٧} استخلصتُ هذه المسائل والقضايا من كتاب «العقد الاجتماعي» الذي استخلص بدوره من كتاب أضخم منه كنتُ قد أقدمتُ عليه من غير تقديرٍ لمقدرتي فتركته منذ زمن طويل، وسيُنشر على حدة ذلك الكتاب المستخلص من هذا فليخصه هنا.

وإذا كانت الأمة لا تستطيع أن تبيع حَقَّها الأعلى، فهل تستطيع أن تُودِعَه لوقتٍ معيّن؟
وإذا كانت الأمة لا تستطيع أن تجعل لنفسها مؤلّي، فهل تستطيع أن تجعل لنفسها ممثلين؟ فهذه
المسألة مهمةٌ وتستحقُّ النقاش.

وإذا كانت الأمة لا تستطيع أن تكون ذاتَ سيّدٍ ولا ممثلين، فإننا سنبحث عن كيفية
قيامها بقوانينها، وعن وجوبِ وجودِ قوانينٍ كثيرةٍ لها أو لا، وعن وجوبِ تغييرِ هذه القوانين غالبًا
أو لا، وعن أنه يسهلُ على الأمة الكبيرة أن تكون مشرعةً لنفسها بنفسها أو لا.
وسنبحث في هل الرُّومان أمةٌ كبيرة.

وسنبحث في هل من الصالحِ وجودُ أممٍ عظيمة.

ويظهر من الاعتبارات السابقة أنه يُوجد في الدولة هيئةٌ متوسطةٌ بين الرعايا والسيد، وأن
هذه الهيئة المتوسطة المؤلفة من عضوٍ واحدٍ أو أكثرٍ مُفَوَّضٌ إليها أمرُ القيام بالإدارة العامة،
وتنفيذ القوانين، والمحافظة على الحرية المدنية والسياسية.

ويُسمّى أعضاء هذه الهيئة وُلاةً أو ملوكًا، أي حُكَّامًا، وتُسمّى الهيئة بأسرها أميرًا عند
النظر إلى الذين تتألّف منهم، وتُسمّى حكومةً عند النظر إلى عملها.

وإذا نظرنا إلى عمل الهيئة بأسرها، وهي تعمل في نفسها؛ أي إلى نسبة الكلِّ إلى الكل، أو
السيد إلى الدولة، أمكننا أن نقارن هذه النسبة بطرفي النسبة المتصلة التي تكون الحكومة وسطها
الجامع. ويتلقّى الحاكم من السيد ما يُلقِي على الأمة من الأوامر، وهو إذ يُعَوِّض تمامًا، يكون حاصله
أو سلطانه على ذات المستوى لحاصل المواطنين أو سلطانهم، هؤلاء المواطنين الذين هم رعايا من
ناحيةٍ وسادةً من ناحيةٍ أخرى، وما كان ليُمكِنَ إفسادُ أيِّ طرفٍ من الأطراف الثلاثة من غير أن يقضى
على النسبة حالًا، وإذا أراد السيد أن يحكّم، وإذا أراد الأمير أن يضع قوانين، وإذا رفض التابع أن
يُطيع، عَقَبَ الاختلالُ النظامَ وسقطتِ الدولة المنحلّة في الاستبداد أو وقعت في الفوضى.

ولنفرض أن الدولة مؤلّفة من عشرة آلاف مواطن، فلا يُمكنُ اعتبارُ السيد إلا جماعيًا أو
هيئةً، ولكنّ لكلِّ واحدٍ كتابعٍ وجودًا فرديًا مستقلًا، وهكذا فإن نسبة السيد إلى التابع كنسبة
الآلاف العشرة إلى الواحد؛ أي إنه لا يكون لكلِّ عضوٍ في الدولة من النصب غير جزءٍ من عشرة
آلافٍ من السلطان ذي السيادة، وإن كان خاضعًا للكل، وإذا كانت الأمة مؤلّفة من مائة ألف
إنسان لم يتغيّر وضعُ الرعايا، واستمرَّ كلُّ واحدٍ على حَمْلِ عِبءِ القوانين، مع أن صوته الذي

نُزِّلَ إلى واحدٍ من مائة ألفٍ صار له من النفوذ عند وضع القوانين أقل مما كان له عشر مرات، وهكذا فإن التابع إذ يبقى واحدًا دائمًا تزيد نسبة السيد بنسبة زيادة عدد المواطنين، وينشأ عن هذا أن الدولة كلما كَبُرَتْ قَلَّتْ الحرية.

والواقع أنه كلما قلَّ تعلقُ الإرادات الخاصة بالإرادة العامة؛ أي تعلقُ الطبائع بالقوانين، زادت قوَّة الردع، وتَرَى من ناحيةٍ أخرى أن اتساع الدولة، إذ يوجب في أمناء السلطة العامة زيادةً مَبِيلًا إلى الشهوات وزيادةً في وسائل سوء الاستعمال، فإنه كلما كان لدى الحكومة من القوة ما تردع به الأمة وجب أن يكون لدى السيد بدوِّره من القوة ما يردعُ به الحكومة.

ويُرى من هذه الصلة المضاعفة أن النسبة الدائمة بين السيد والأمير والأمة ليست فكرةً مُراديةً مُطلقًا، بل نتيجةً لطبيعة الدولة، ويُرى أيضًا أن الأمة التي هي أحد الأطراف إذ كانت ثابتة، فإن النسبة المضاعفة كلما زادت أو نَقَصَتْ زادت النسبة البسيطة أو نقصت بدورها، وهذا لا يُمكن أن يَقَع من غير أن يتغيَّر الطَّرْفُ المتوسطُ في كلِّ مرة، ومن ثمَّ يمكننا أن نستخرج النتيجة القائلة إنه لا يُوجد نظامٌ للحكومة وحيدٌ مُطلق، وإنما يجب أن يكون موجودًا من الحكومات المختلفة طبيعةً بمقدار ما يُوجد من الدول المختلفة اتساعًا.

وإذا كانت الأمة كلما كَثُرَ عددها قلَّ تعلقُ الطبائع بالقوانين، فإنَّ ممَّا نبحت فيه هو هل يُمكننا، بقياسٍ على شيءٍ من الوضوح، أن نقول: إنَّ الحُكَّام كلما كَثُرَ عددهم زادت الحكومة ضَعْفًا.

ولإلقاء نورٍ على هذا المبدأ نَمَيِّزُ في شخصٍ كلِّ حاكمٍ ثلاثَ إراداتٍ مختلفةٍ اختلافًا جوهريًا، وذلك أوَّلًا: إرادة الفرد الخاصة التي لا تُهَدَف إلى غيرِ مصلحته الخاصة. ثانيًا: إرادة الحكام المشتركة التي تهتدِف إلى مصلحة الأمير، هذه الإرادة التي يُمكن أن تُدعى إرادة الهيئة، فتكون عامةً نظرًا إلى الحكومة، وخاصةً نظرًا إلى الدولة التي تُعَدُّ الحكومة جزءًا منها. ثالثًا: إرادة الأمة أو الإرادة ذات السيادة؛ فهذه الإرادة تكون عامةً بالنسبة إلى الدولة التي تُعَدُّ الكلَّ، وبالنسبة إلى الحكومة التي تُعَدُّ جزءًا من الكل. وفي الاشتراع الكامل يجب أن تكون الإرادة الخاصة صِفْرًا تقريبًا، وأن تكون إرادة الهيئة الخاصة بالحكومة تابعةً جدًّا، وأن تكون الإرادة العامة ذات السيادة قاعدةً كلِّ إرادةٍ من حيث النتيجة، وعلى العكس تكون هذه الإرادات مختلفةً وَفَّقَ النظام الطبيعي أكثرَ فِعْلاً كلما تَرَكَّزَتْ، فتكون الإرادة العامة أكثرَ ضَعْفًا دائمًا، وتكون المرتبة الثانية لإرادة الهيئة، وتكون الإرادة الخاصة مفضَّلةً على الجميع، وبذلك يكون

الفردُ أوَّل من يأتي، ثمَّ يأتي الحاكم، ثمَّ يأتي المواطن؛ أي يرى تدرُّج معاكسٍ تَوًا لِمَا يقتضيه النظام الاجتماعي.

ولنفترض بعد وضع ذلك أن الحكومة عَدَّت قبضة رجلٍ واحد؛ فهذا تكون الإرادة الخاصة وإرادة الهيئة قد اتحدتا اتِّحادًا تامًّا، وبذا تكون هذه الإرادة في أقصى ما يُمكن شدَّةً، والواقع أن استعمال القوة إذ يتوقَّف على هذه الدرجة من الشدَّة، وأن قوة الحكومة المطلقة إذ تكون قوة الأمة دائمًا فلا تتغيَّر مُطلقًا، فإنه يَنجُم عن هذا كونُ أكثر الحكومات فعَّاليةً هي حكومة الفرد.

وعلى العكس، إذا ما وُحِّدنا بين الحكومة والسلطة العليا، فجعلنا السيد أميرًا، وجعلنا المواطنين حُكَّامًا، فهناك لا يكون لإرادة الهيئة الممزوجة بالإرادة العامة مزجًا تامًّا، فعَّاليةً أكثر مما لهذه، وتَدعُ الإرادة الخاصة في كمال قوتها، وهكذا فإن الحكومة الصاحبة لذات القوة المطلقة دائمًا تكون في الحدِّ الأدنى من فعَّاليتها.

ولا جدال في هذه القواعد، ويوجد من الاعتبارات الأخرى ما يؤيدها، ومن ذلك أن الحكام يكونون أكثر فعَّاليةً في هيئتهم من المواطن في هيئته، فيكون للإرادة الخاصة من النفوذ أكثره في ذلك؛ وذلك لأن كلَّ حاكمٍ يكون مُفَوَّضًا إليه دائمًا تقريبًا ببعض الوظائف الخاصة في الحكومة، وذلك بدلًا من كلِّ مواطنٍ يخلو من أية وظيفة من وظائف السيادة إذا ما أُحْدِ على انفراد، ثمَّ إن الدولة كلما اتسعت زادت قوتها الحقيقية، وإن كانت هذه القوة لا تزيد تبعًا لتوسعها، ولكن الدولة إذا ما بقيت على ما هي عليه وزاد عددُ الحكام على غير طائلٍ لم تتلَّ الحكومة من وراء ذلك قوةً حقيقيةً أعظم من تلك؛ وذلك لأنها مُستودعةٌ لقوة الدولة التي نفترض تساويها دائمًا، وهكذا فإن فعَّاليةً الحكومة تنقُص من غير أن تُمكن زيادةً قوتها.

وإنَّ بعد أن وجدنا أن الحكومة ترتخي بنسبة زيادة الحكام، وأن الأمة كلما زادت عددًا وَجِبَ أن تزيد قوة الحكومة الزاجرة، ننتهي إلى أن علاقة الحكَّام بالحكومة يجب أن تكون على عكس علاقة الرعايا بالسيد؛ أي إن الدولة كلما اتسعت وجب أن تضيق الحكومة، فينقُص عددُ الرؤساء تبعًا لزيادة الأمة.

وإنَّ، لكي نُعيِّن فيما بعدُ هذا التنوُّع في الأشكال بأسماءٍ أكثر ضبطًا، سنلاحظ في أوَّل الأمر أن السيد يستطيع أن يُفَوَّض وديعة الحكومة إلى الأمة أو إلى أعظم قسمٍ من الأمة، فيكون من المواطنين الحكام من هم أكثر من المواطنين الخاصِّين؛ فعلى شكل الحكومة هذا يُطلق اسم الديمقراطية.

أو إن السيد يستطيع أن يُضيق نطاقَ الحكومة، فيجعله قبضةً عددٍ أقلّ من ذلك، فيكون من المواطنين الخاصين مَنْ هم أكثرُ من الحكام، فعلى شكلِ الحكومةِ هذا يُطلق اسمُ الأريستوقراطية.

وأخيراً يستطيع السيدُ أن يجمعَ جميعَ الحكومةِ في يدِ حاكمٍ واحد، وهذا الشكلُ الثالث هو الأكثرُ شيوعاً، وهو يُسمى المملَكِيَّة أو الحكومة المملَكِيَّة.

وسنلاحظ أن جميعَ هذه الأشكال، أو الشكلين الأولين على الأقل، تُحتمل الزيادة والنقصان، وأن لها من اتساع المدى ما هو كافٍ أيضاً؛ وذلك لأن من الممكن أن تشتمل الديمقراطيةُ على جميعِ الأمةِ أو أن تقتضِ حتى النصفِ، ولأن من الممكن أن تقتضِ الأريستوقراطية بدورها من نصفِ الأمةِ حتى أصغرِ الأعدادِ انقباضاً غيرَ مُحدّد، حتى إن المملَكِيَّة تقبل التقسيم أحياناً، سواءً أبين الأب والابن أم بين الأخوين أم على وجهٍ آخر، وكان يوجد مَلِكاً في إسبارطة دائماً، وقد شوهد في الإمبراطورية الرومانية من الأباطرة مَنْ بَلَغَ عددهم حتى الثمانية معاً، وذلك من غير أن يُقال إن الإمبراطورية قُسمت، وتوجد نقطةٌ يختلط فيها كلُّ شكلٍ للحكومة بالشكل الذي يليه، فتقبل الدولة تحت الأشكال الثلاثة النوعية، من الأشكال بمقدار ما في الدولة من مواطنين بالحقيقة.

وليس ذلك كلُّ ما في الأمر؛ فيما أن كلَّ واحدةٍ من هذه الحكومات تستطيع من بعض الوجوه أن تنقسم إلى أقسامٍ مختلفةٍ يُدارُ قسمٌ منها على وجهٍ ويُدارُ قسمٌ آخرٌ منها على وجهٍ آخر، فإنه يُمكن أن ينشأ عن هذه الأشكال الثلاثة المختلطة عددٌ وافٍ من الأشكال المُركبة التي يُمكن كلَّ واحدٍ منها أن يُكثَّرَ بجميعِ الأشكال البسيطة.

وقد وقع في كلِّ وقتٍ جدالٌ كثيرٌ حولَ أفضل شكل للحكومة، وذلك من غيرِ نظرٍ إلى أنّ كلَّ شكلٍ هو أفضلُ الأشكال في بعض الأحوال، وأن أسوأها يكون في أحوالٍ أخرى. وأمّا نحن فنرى على العموم أن عدد الحكام^{٢٨} في مختلف الدول إذا ما وُجِبَ أن يكون على العكس من عدد المواطنين، فإن الحكومة الديمقراطية تلائم الدولَ الصغيرة، وإن الحكومة الأريستوقراطية تلائم الدولَ المتوسطة، وإن الحكومة المملَكِيَّة تلائم الدولَ الكبيرة.

فيسياق هذه المباحثِ تنتهي إلى معرفة واجبات المواطنين وحقوقهم، ومعرفة إمكانِ فصلِ هذه

^{٢٨} اذكروا أنني أقصد الكلامَ هنا عن الحكام الأعلين أو رؤساء الأمة، ما دام الحكام الآخرون نائين عنهم في هذا القسم أو ذلك.

عن تلك، ومعرفة الوطن وما يقوم عليه ضَبْطًا، وكيف يُمكن كلاً واحدٍ أن يُعرف هل له وطنٌ أو لا.

وإنَّ بعد النظرِ على هذا الوجه إلى كلِّ نوعٍ من المجتمع المدني بنفسه، سنقابل بينها لملاحظة ما بينها من صلوات، فترى بعضها كبيرًا والأخرى صغيرة، وترى بعضها قويًا والأخرى ضعيفة، فتتَّهجم وتتَّهاتم وتتَّهادم، موجبةً بهذا الفعل وزدّه الدائمين من بؤس كثيرٍ من النَّاسِ والقضاء على حياتهم ما هو أعظم مما لو حافظوا على حريتهم، وسنبحث في هل صنَّع شيءٌ كثيرٌ أو قليلٌ في النظام الاجتماعي، وفي هل يبقى الأفراد الخاضعون للقوانين والآدميين، على حين تحتفظ المجتمعاتُ فيما بينها بالاستقلال الطبيعي، عُرضةً لشرور الدولتين من غير أن يفوزوا بمنافعهما، وفي هل يكون عدمٌ وجود أيِّ مجتمعٍ مدنيٍّ في العالم مطلقًا أفضلٌ من عدم وجود مجتمعات كثيرة فيها، أوليست هذه الدولة المركَّبة تشترك في الاثنتين ولا تضمَّن هذه وتلك «لا تدع مجالًا لإعداد العُدَّة لزمان الحرب ولا لأمن زمن السَّلْم»؟ أوليست هذه الجمعية الجزئية الناقصة هي التي تؤدي إلى الطغيان والحرب؟ أوليس الطغيان والحرب أعظم آفات الإنسانية؟

وأخيرًا سندرس نوع الأذوية التي بُحِث عنها لمعالجة تلك الأضرار، وذلك بالتعاهد والاتحاد، فتدعُ كلَّ دولةٍ سيِّدةً داخلًا وتسلِّحها خارجًا دفعًا لكلِّ مُعتدِّ ظالم، وسنبحث عن الوجه الذي يُمكن أن تُقام به جمعية اتحادية صالحة، والذي يُمكن أن تدوم به، وعن المدى الذي يُمكن أن يُوسَّع به حقُّ الاتحاد من غير أن يُؤذَى حقُّ السيادة.

وكان رئيسُ دير القديسِ بطرس قد اقترح تأليفَ جمعيةٍ شاملةٍ لجميع دول أوروبا كيما تحفظ بينها سلمًا دائمًا، وهل هذه الجمعيةُ عملية؟ وإذا ما افترض قيامُ هذه الجمعية، فهل يُقدَّر لها البقاء؟^{٢٩} إنَّ هذه المباحث تسوقنا تروًا إلى جميع مسائل الفقه العام التي يُمكن أن تُثير مسائلَ الفقه السياسي.

وأخيرًا سنضع المبادئ الصحيحة لفقه الحرب، وسندرس السبب في كونِ عُروسيوس وغيره لم يُقدِّموا سوى مبادئ فاسدةٍ عنها.

ولن يُدهشني، في وَسَط جميع براهيننا، أن يقول لي مقاطعًا فتاي ذو الذوق السليم: «يُخيلُ إلى الإنسان أننا نقيم بناءنا من الخشب، لا من النَّاسِ، ما دما نَصُفُّ قِطْعنا على خطِّ

^{٢٩} تمَّ، بعد كتابتي هذا، عرضُ الأسبابِ الموافقة في خلاصة هذا المشروع، وتجد الأسبابِ المخالفة أو الأسباب التي بدت لي متينةً في مجموعة كتيبي، وذلك عقب هذه الخلاصة.

مستقيمٍ وَفَقَّ القاعدة!» وأقول له: «هذا صحيحٌ يا صديقي، ولكن اذكر أن الفِقه لا ينحني أمام أهواء النَّاسِ، وعلينا تتوقَّف إقامة مبادئ الفقه السياسيِّ الحقيقية. والآن، وقد وُضِعَت أُسُسُنَا، تعالَ لِنُبْحَثْ فيما أقام النَّاسُ فوقها، وهناك ترى أمورًا غُرًّا!»

وهناك حملته على قراءة «تِلْمَاك»، وعلى سلوك طريقه، ونبحث عن سألته السعيدة وإيدومينه الصالح الذي جعلته المصائبُ حكيماً. وبيننا نحن سائرين لا قينا كثيراً من طراز برؤيتيلاس، ولم نلاق أحداً من نوع فيلوكليس، وكذلك لم تُمكن ملاقاته ملك الدونيان: أذْراست. ولكن لِنَشْرِكِ القراء يتمثلون رحلاتنا أو يقومون بها في مكاننا، و«تِلْمَاك» في يدهم، ولا نُوحِ إليهم مطلقاً بتطبيقات مُخزنة يتجنّبها المؤلّف نفسه أو يأتيها على الرغم منه.

ثمّ بما أن إميل ليس ملكاً، وبما أنني لست إلهاً، فإننا لن نُقلِقَ بالنا مُطلقاً في تقليد تِلْمَاك، والمرشد، في الخبر الذي كانا يقومان به نحو النَّاسِ، ولا أحد أحسن منّا علماً في البقاء حيث هو، ولا أحد أقلُّ منّا رغبةً في الخروج من مكانه، ومما نعرف أن عين العمل قد عيّن للجميع؛ فمن يُحبُّ خيرَ الجميع من صميم فؤاده، ويصنعه بما أوتي من قوة يكون قد قام بذلك العمل. ومما نعرف أن تِلْمَاك والمرشد هما من الأوهام، ولا يسيح إميل مثل رجل بَطال، وهو يفعل من الخير أكثر مما لو كان أميراً، ولو كُنّا مَلِكَيْنِ ما كُنّا أكثر حُبّاً للإحسان، ولو كُنّا مَلِكَيْنِ ومحسّنين لأتينا من حيث لا ندري ألفَ شرٍّ حقيقيٍّ في مقابل خيرٍ ظاهرٍ نَظُنُّ أننا نفعله، ولو كُنّا مَلِكَيْنِ وحكيّمين لكان أولُ خيرٍ نرغب في صنعه نحو أنفسنا ونحو الآخرين هو أن ننزّل عن المَلِكِيَّةِ وأن نعود إلى ما نحن عليه الآن.

وقد قلتُ كلُّ ما يجعلُ السّياحاتِ غيرَ مُجديةٍ لجميع النَّاسِ، والذي يجعلها أقلَّ جدوى للشباب هو الوجه الذي يُحمَلُ به على القيام بها؛ فالمرُّبُونون يكونون أكثر حُبّاً لأنفسهم مما لتثيف الشباب، فيجلبونه من مدينة إلى أخرى، ومن قصرٍ إلى آخر، ومن نطاقٍ إلى آخر، وهم إذا ما كانوا علماءً أو أدباءً جعلوه يقضي وقته في الطواف بين المكتبات وفي زيارة الخبراء بالعدايات، وفي فحص قديم الآثار واستساخ قديم الكتابات، وهم في كلِّ بلدٍ يُعْتَنون بعصرٍ آخر، وذلك كما لو كانوا يُعْتَنون ببلدٍ آخر، فإذا ما جابوا أوروبا بنفقاتٍ عظيمةٍ وتجرّدوا للتّرهات أو أسلموا أنفسهم إلى السّأم، عادوا من غير أن يكونوا قد رأوا شيئاً يمكن أن ينفعهم، أو من غير أن يكونوا قد تعلّموا شيئاً يُمكن أن يفيدهم.

وتشابه جميع العواصم، وفيها تختلط جميع الأمم، وفيها تَمْتزج جميع الطّبائع، وليس

إليها ما يجب أن يُذهب لدراسة الأمم، وليست باريس وُلندن غير عَيْنِ المدينة في نظري، أجل، إن لسكانهما مُبْتَسِرَاتٍ مختلفة، ولكن لا يُوجد عند إحداهما من المُبْتَسِرَاتِ ما هو أقلُّ مما عند الأخرى، وجميعُ مبادئها العملية هي هي، ويُعرف أيُّ نوعٍ من الآدميين يجتمع في البلاطات، ويُعرف أيُّ نوعٍ من الطَّبَاعِ يُسْفِرُ في كلِّ مكانٍ عن ازدحامِ الأمةِ وتفاوتِ الثَّرَوَاتِ، وإذا ما حُدِّثْتُ عن مدينةٍ مؤلَّفةٍ من مائتي ألفِ نفسٍ عَرَفْتُ مُقَدِّمًا كيف يعيش النَّاسُ فيها، وما لا أعْرِفُ فيها من أمورٍ لا يستحقُّ أن أذهب لأتعلَّمه هناك.

والى الأقاليم القاصية؛ حيث يُوجد قليلٌ حركةٍ وتجارة، وحيث تَقَلُّ سياحةُ الأجانب، وحيث يَقِلُّ انتقالُ الأهلين، وحيث يَقِلُّ تبدُّلُ السُّكَّانِ لثروتهم ووضعهم، يجب أن يُذهب لدراسة عبقرية الأمة وأخلاقها. وألقوا نظرةً إلى العاصمة حين تُمرُّون، ولكن اذهبوا للبحث عن البلد في مكانٍ بعيد؛ فالفرنسيون هم في نُورِينِ لا في باريس، ويكون الإنكليز في مِرْسِي أكثرَ مما في لندن، ويكون الإسبان في جَلِيْقِيَّةٍ أكثرَ مما في مدريد، وفي هذه الأماكن النائية تُمارُ الأمةُ وتَبْدُو خالصةً كما هي، وفيها خيرٌ ما يُشْعِرُ بأثرِ الحكومة السيِّئِ أو الرديءِ، وذلك كما تستطيع أن تقيسَ القوسَ قياساً أكثرَ دقَّةً بنصفِ قطرٍ أكثرَ طولاً.

وقد عُرضتْ علائقُ الطَّبَاعِ بالحكومة في كتاب «روح الشرائع» عرضاً بَلَغَ من الإجادة ما لا يُمكنني أن أرى معه أفضلَ من الالتجاءِ إلى هذا السُّفَرِ لدراسة تلك العلاقات، ولكن يُوجدُ على العموم قاعدتان سَهْلَتَانِ بسيطتان للحُكْمِ في صلاح الحكومات النسي، والأهلون هم إحدى هاتين القاعدتين؛ فالدولة تميلُ إلى خرابها في كلِّ بلدٍ يُقْفِر. ولا وراء في أن البلد الذي يزيد سكانه أكثرَ من غيره يكون أفضلَ البلادِ حكومة،^{٣٠} ولو كان أفقرها.

ولكن يجب لهذا أن يكون هؤلاء الأهلون نتيجةً طبيعيةً للحكومة والطَّبَاعِ؛ وذلك لأن هذا إذا ما تمَّ بمستعمراتٍ أو بسببِ أخرى عارضةٍ أو عابرةٍ ذلَّ الدواءُ على الداء. ولَمَّا جاء أَعْطَسُ بقوانينٍ لمكافحة العزوبة، نَمَّتْ هذه القوانينُ على أن الإمبراطورية الرومانية كانت قد أخذت في الزوال. ويجب أن يكون صلاح الحكومة حافزاً للمواطنين إلى الزواج، لا أن يكون القانونُ مُكْرِهاً إياهم عليه، ولا نُكَلِّفُ أنفسنا بالبحث فيما يُصنَعُ بالقوة؛ وذلك لأن القانون الذي يُكافح النظامَ يتملِّصُ منه ويفعدو فارغاً، وإنما نبحث فيما يتمُّ بفعلِ الأخلاق وميلِ الحكومة الطبيعي؛ فهذه

^{٣٠} لا أعْرِفُ غيرَ الصين بلداً يشدُّ عن هذه القاعدة.

الوسائل وحدها هي ذات الأثر المستمر. وتقوم سياسة الرئيس الصالح لدير القديس بطرس على البحث الدائم عن دواءٍ قليلٍ لكلِّ داءٍ خاص، وذلك بدلاً من الرجوع إلى المنبع الجامع ليرى أنه لا يمكن الشفاء من هذه الأدوية إلا دفعةً واحدة، ولا يقوم الأمر على معالجة كلِّ قرحةٍ تظهر على جسم المريض على انفراد، بل على تصفية مجموع الدم الذي يحدث الفُرحات جميعاً. ويُقال إنَّه يُوجدُ جوائزٌ للزراعة في إنكلترة، فلا أطلبُ دليلاً أعظمَ من هذا ليثبتَ عندي أنَّ الزراعة لن تدهرَ في إنكلترة زمنًا طويلاً.

وفي الأهلين أيضاً تتجلى العلامة الثانية لصلاح الحكومة والقوانين النسبي، ولكن على وجهٍ آخر؛ أي إن هذه الأمانة تُستخرج من توزيعهم لا من عددهم، وقد تتساوى الدولتان اتساعاً وسكناً، ولكن مع تفاوتهما قوة، وتكون أقوى هاتين الدولتين دائماً هي التي يكون أهلها منتشرين انتشاراً متساوياً على أرضيها، والدولة التي لا تشمل منهما على مُدُنٍ كبيرةٍ كثيرة؛ ومن ثمَّ تكون أقلهما ازدهاراً، تُفهر الأخرى دائماً. والمدن الكبيرة هي التي تستنزف الدولة وتوجبُ ضعفها، وما تنتج من ثراءٍ فهو ثراءٌ ظاهرٌ خادع، وهو كثيرٌ نقدٍ وقليلٌ خير، ويُقال إنَّ مدينة باريس تُعدّل ولايةً قيمةً لدى ملك فرنسا، ولكنني أعتقد أنها تُكلفه عدة ولايات، وذلك أن الولايات تُعدي باريس من وجوهٍ كثيرة، وأن معظم دخلها يصبُّ في هذه المدينة ويبقى فيها من غير أن يعود على الأمة أو على الشعب مُطلقاً، ومما لا جدال فيه في عصر الحاسبين هذا أنه لا يوجد واحدٌ يبصر أن فرنسا تكون أكثر قوةً إذا ما دُمّرت باريس تدميراً. ولا يقتصر الأمر على كون الأمة السيئة التوزيع غير نافعةٍ للدولة، بل هو أدعى إلى الخراب من الإفقار، وذلك من حيث إن الإفقار لا يُسفر عن غير إنتاج صفر، وإن الاستهلاك غير المرتب يُسفر عن إنتاج سلبي، ومتى سمعتُ فرنسيًا وإنكليزيًا فخورين بعظمة عاصمتيهما، فيتجادلان حول أيتهما أكثرُ سكناً، كان هذا في نظري مساوياً لتجادلهما حول أي الشعبين له شرفٌ كونه أكثرهما سوءَ حكومة.

وادرُسوا الأمة خارجَ مُدُنِها، فلن تعرفوها بغير هذا الوجه، ولا يدُلُّ على شيءٍ أن يرى شكلُ الحكومة الظاهرُ المُزوَّقُ بجهاز الإدارة وبرطانة المديرين إذا لم تُدرَس طبيعته بالأثر الذي يُحدثه في الأمة وفي جميع درجات الإدارة، وفي الأساس إذ يُوجدُ فرقُ الشكل مقسوماً بين جميع هذه الدرجات، فإن هذا الفرق لا يُعرفُ إلا باكتنافها جميعاً. وفي بلدٍ ما يُؤخذُ في الشعور بروج الوزارة بدسائس وكلائها، وفي بلدٍ آخر يجب أن تطلِّعوا على انتخاب أعضاء البرلمان للحكم في هل من الصحيح كؤُن الأمة حرة، وفي بلدٍ ثالث - أيًا كان - يتعدُّ على من لم يرَ

غير مُدُنْها أن يَطَّلِعَ على الحكومة لِمَا لا يكون الروح واحداً في المدن والأرياف مُطلقاً. والحقُّ أن الأرياف هي تُوجَدُ البلد، وأن أهل الأرياف هم الذين يُوجَدون الأُمَّة.

ومن شأن هذه الدراسة للأمم في أقاليمها القاصية وفي بساطة مواهبها الأصلية مَنَحُ ملاحظة عامة كثيرة الملاءمة لِمَا أكتُبُ، كثيرة السُّلوان لقلب الإنسان؛ وذلك أن جميع الأمم إذا ما لُوَحِظَتْ على هذا الوجه ظهرت أجدر بالملاحظة. وكلما دنت الأمم من الطبيعة ساد الصلاح أخلاقها، وليس بغير الاحتباس في المدن، وليس بغير التغيُّر بفعل الثقافة ما تفسد الأمم، وما تُحوَّلُ بعض النقا، التي هي أكثر غلظة منها ضرراً، إلى معايب مستعديّة مؤذية.

وينشأ عن هذه الملاحظة نفع جديد في طراز السياحة التي أُفترِح، وذلك من حيث إنَّ الشُّبَّان الذين هم قليلو الإقامة في المدن الكبيرة، حيث يسود فساد هائل، أقلُّ إصابَةً بهذا الفساد، فيحفظون بين الرجال الذين هم أكثر بساطة، وفي المجتمعات الأقل عدداً، حُكْمًا أعظم صواباً، ودوقاً أرفع سداً، وأخلاقاً أشدَّ صلاحاً، ومع ذلك فإنه لا يُوجَدُ في هذه العُدوى ما يُخشى منه على إميل الذي لديه كلُّ ما يلزم لوقايته منها، واعتمد، بين جميع الاحتياطات التي اتخذتها في هذا السبيل، اعتماداً بالغاً على الحُبِّ الذي يَحْمِلُ في فؤاده.

ولا يُعرَفُ ما يُمكن أن يكون للحبِّ من فعلٍ في ميول الشباب؛ وذلك لأنَّ القائمين بتربيتهم، إذ لا يُعرفونه خيراً منهم، يُحوِّلونهم عنه، ومع ذلك فإنه لا بُدَّ للشابِّ من أن يُحبَّ أو أن يكون داعراً، ومن السهل أن يُخدَعَ بالطواهر. أجل، قد يُذكر لي ألف شابِّ يُقال إنهم يَفْضُلُون حياة طهرٍ كبيرٍ بلا غرام، ولكن لِيُذكر رجلٌ نام، لِيُذكر لي رجلٌ صادق، يقول إنه قضى شبابه على هذا الوجه حقيقَةً. والواقع أنه لا يُطلَبُ غيرُ الظاهر في جميع الفضائل وجميع الواجبات، وأنا أنا فلا أطلبُ غيرَ الحقيقة، وأكون قد خُدِعْتُ إذا كان يُوجَدُ من الوسائل غير التي أقدم لبلوغ ذلك. ولستُ صاحباً لفكرة جعل إميل عاشقاً قبل حمله على السياحة، وإليك الحادث الذي أوحى إليَّ بها:

كنتُ أقوم في البندقية بزيارة مُرَبِّ لفتى إنكليزي، وكان هذا في فصل الشتاء، وكُنَّا حوَّل النار، ويتناول المرَبِّي رسائله من البريد، ويُلقِي نظرةً عليها، ثُمَّ يَتَلو إحداها على تلميذه بصوتٍ عالٍ، وقد كانت باللغة الإنكليزية التي لا أفهم منها شيئاً، ولكنني رأيت في أثناء التلاوة أن الفتى يُمرِّق كُتْمِيه الجميلين من أطرافهما ويُلقِي في النار قطعةً بعد الأخرى بأقصى ما يستطيع من تُؤدَّة لكيلا يَشْعُر أحدٌ بذلك، ويَعْتَرِبِي دَهْشٌ من هذا الهُوس، وأنظرُ إلى وجهه، وأظنُّ أنني أرى اضطرابه، يَبْدُ أن العلامات الخارجة للأهواء،

وإن كانت متشابهة لدى جميع الناس، ذات فروق قومية يسهل أن يُخدع بها، وللأمم على الوجه من مختلف اللغات ما يعدل التي في الأفواه، وأنظر ختام التلاوة، فأطلع المرئي على معصمي تلميذه العارفين اللذين كان يُخفيهما بأقصى ما يُمكنه، وأقول له: «أيمكنني أن أعرف ما يعني هذا؟»

ويُصِرُّ المرئي ما وقع فيأخذ في الضحك، ويعانق تلميذه عناق رصًا، ويوضح لي ما أرغب فيه بعد نيل موافقته.

ويقول لي: «إن الكمين اللذين مرَّ قههما مستر جُون هما هديتان قدَّمتهما إليه سيده من هذه المدينة منذ زمن طويل، والواقع أن مستر جُون خاطب في بلده لفتاة يُحبُّها حبًّا جمًّا، وهي جديرة بهذا الحبِّ كثيرًا، وهذا الكتاب من أمِّ صاحبه، وسأترجم إليك العبارة التي أوجبت ما شاهدت من تمزيق:

لا تترك لوسي كمي لورد جُون مُطلقًا، وأمس أنت مسن بيتي زولدام لقضاء ما بعد الظهر عندها، فأرادت، مع الإصرار، أن تقوم بشغلها، وإني إذ علمت أن لوسي نهضت اليوم مُبكرةً زيادةً على العادة، أردت أن أرى ما تصنع، فوجدتها جادةً في نقض جميع ما عملته مس بيتي أمس؛ فهي لا تريد أن ترى في هديتها أية نقطة من صنْع غيرها.

وقد خرج جُون بعد دقيقة ليتناول كمين آخزين، فقلت لمرئي: «لديك تلميذ ذو طبع رائع. ولكن قل لي: أليس كتاب أم مسن لوسي عمل ترتيبٍ مطلقًا؟ أليست هذه وسيلة اتخذتها ضدَّ صاحبة الكمين؟» ويقول لي: «كلاً؛ فالأمر حقيقي، ولا أسلك سبيل الجبل في أعمالي، وتقوم جهودي على البساطة والهمة، وقد بارك الله لي في عملي.»

ولم أنس حادث هذا الفتى قط، وليس من شأنه ألا يترك أثرًا في رأس حالمٍ مثلي.

وقد حان وقت الختام، فلنأت بلورد جُون إلى مسن لوسي، أي يأميل إلى صوفية، وهو يأتيها بقلب ليس أقل رقةً مما كان عليه قبل سفره، وهو يأتيها بذهنٍ أكثر وضوحًا، وهو يأتي بلده مُزوَّدًا بفائدة معرفته الحكومات من ناحية معانيها، والأمم من ناحية جميع فضائلها، حتى إنني عُنيت في كلِّ أمة بأن يرتبط في رجال من أصحاب المزايا بعهد من القرى على طريقة القدماء، ولن يعيطني أن يتعهد هذه المعارف بتبادل الرسائل. وإذا عدوت ما يُمكن أن يكون من فائدة ومن مُتعة دائمة في المراسلات بالبلدان البعيدة، ووجدت هذا من الاحتياط الجميل تجاه سلطان المُبتسرات القومية التي تسيطر علينا عاجلاً أو آجلاً بهجومها علينا مدى الحياة، ولا شيء أصلح لنزع هذا السلطان منها

من معاشره ذوي الرشاد الخالين من الغرض والذين هم موضع إجلالنا، والذين هم، إذ عطلوا من مُبْتَسِرَاتِنَا، يكافحون هذه بمُبْتَسِرَاتِهِمْ فَيُعْطُونَا مِنَ الْوَسَائِلِ مَا نَعَارِضُ مَعَهُ هَذِهِ بِتِلْكَ بِلَا انْقِطَاعٍ وَاقِينَ أَنْفُسِنَا مِنْهَا كُلَّهَا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ. وَلَا يُعَدُّ أَمْرًا وَاحِدًا مطلقًا أَنْ يَعَاشَرَ الْأَجَانِبَ فِي بِلَدِنَا أَوْ فِي بِلَدِهِمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي الْحَالِ الْأَوَّلِيِّ يَقُومُونَ فِي الْبِلَدِ الَّذِي يَقِيمُونَ بِهِ بِضَرْبٍ مِنَ الْمَجَامِلَةِ يُخْفُونَ مَعَهُ رَأْيَهُمْ عَنْهُ، أَوْ أَنَّهُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى إِبْدَائِهِمْ نَحْوَهُ مِنَ الرَّأْيِ مَا يَكُونُ مِلَاتِمًا لَهُ مَا دَامُوا فِيهِ، فَإِذَا مَا عَادُوا إِلَى بِلَدِهِمْ رَجَعُوا عَنْهُ وَلَمْ يَبْدُوا غَيْرَ عَادِلِينَ. وَمِمَّا يَسْرُتُنِي كَثِيرًا أَنْ يَكُونَ الْأَجْنِبِيُّ الَّذِي أَسْتَشِيرُ قَدْ زَارَ بِلَدِي، وَلَكِنِّي لَنْ أَسْأَلَهُ رَأْيَهُ عَنْهُ إِلَّا فِي بِلَدِهِ.

وقد فَرَعْتُ صَبْرُ إِمْلٍ بَعْدَ قِضَاءِ نَحْوِ عَامَيْنِ فِي جَوْبِ بَعْضِ الدُّوَلِ الْكَبِيرَةِ بِأُورُوبَةِ، وَكَثِيرٍ مِنْ دَوْلِهَا الصَّغِيرَةِ، وَبَعْدَ تَعَلُّمِ اثْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ مِنْ لُغَاتِهَا الْمَهْمَةِ، وَبَعْدَ مَشَاهِدَةٍ مَا يَسْتَوْفِقُ النَّظْرُ فِيهَا حَقًّا، سِوَاؤُهُ أَفِي التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ أَمْ فِي الْحُكُومَةِ أَمْ فِي الْفَنُونِ أَمْ فِي الرَّجَالِ، فَأَخْبَرْتَنِي بِأَنَّ الْأَجَلَ قَدْ حَانَ، وَهَذَا أَقُولُ لَهُ: «حَسَنًا يَا صَدِيقِي، إِنَّكَ تَذَكُرُ الْعَايَةَ الرَّئِيسَةَ مِنْ رِحَالِنَا؛ فَقَدْ رَأَيْتَ، وَقَدْ لَاحِظْتَ، فَمَا نَتِيحُهُ مَلاحِظَاتِكَ؟ وَمَا الَّذِي أَنْتَ عَازِمٌ عَلَيْهِ؟» إِمَّا أَنْ أَكُونَ قَدْ خُدِعْتُ بِمِنْهَاجِي، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ جَوَابُهُ كَمَا يَأْتِي تَقْرِيًّا:

«وَعَلَامَ أَعَزِمُ؟ لَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَظَلَّ كَمَا كَوَّنْتَنِي، وَعَلَى عَدَمِ إِضَافَتِي، بِطُوعِي، أَيَّ قَيْدٍ آخَرَ غَيْرِ الَّذِي تُحْمَلُنِي إِيَّاهُ الطَّبِيعَةُ وَالْقَوَانِينُ، وَكَلَّمَا دَرَسْتُ عَمَلِ النَّاسِ فِي نُظْمِهِمْ أَبْصَرْتُ أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ أَنْفُسَهُمْ عَيْدًا مِنْ حَيْثُ يَزْغَبُونَ أَنْ يَكُونُوا مُسْتَقْلِلِينَ، وَأَنَّهُمْ يَسْتَعْمَلُونَ حَرِيَّتَهُمْ نَفْسَهَا فِي جُهُودِهِمُ الْفَارِغَةَ تَوْطِيدًا لَهَا، وَهُمْ يَقُومُونَ بِأَلْفِ كَلْفٍ لِكَيْلَا يُدْعَنُوا لِسَبْلِ الْأُمُورِ، وَهُمْ إِذَا مَا أَرَادُوا أَنْ يَتَقَدَّمُوا خُطْوَةً بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يَسْتَطِيعُوا، وَاعْتَرَاهُمْ دَهْشٌ مِنْ تَعَلُّقِهِمْ بِكُلِّ شَيْءٍ. وَيَلُوحُ لِي أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نَصْنَعَ شَيْئًا لِنَكُونَ أَحْرَارًا، وَإِنَّمَا يَكْفِي أَلَّا نُرِيدَ الْانْقِطَاعَ عَنْ أَنْ نَكُونَ أَحْرَارًا، وَأَنْتَ الَّذِي جَعَلْتَنِي، يَا مُعَلِّمِي، حُرًّا بِتَعْلِيمِي الْخُضُوعَ لِلضَّرُورَةِ، وَدَعَّهَا تَأْتِي مَتَى تَرِيدُ، وَسَأَتَّبِعُهَا بِلَا إِكْرَاهٍ، وَبِمَا أَنْبِي لَا أَرِيدُ مَنَاهِضَتَهَا فَإِنِّي لَا أَتَشَبَّهُ بِشَيْءٍ يُمَسِّكُنِي، وَقَدْ حَاولْتُ فِي سِيَاحَاتِنَا أَنْ أَجِدَ فِي الْأَرْضِ زَاوِيَةً أَكُونُ فِيهَا مَالِكًا لِنَفْسِي عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَلَكِنْ مَا الْمَكَانَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ اتِّخَاذَهُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ؟ وَقَدْ بَحِثْتُ كَثِيرًا فَوَجَدْتُ أَنْ يُعَيِّنِي نَفْسَهَا مُتَنَاقِضَةً، وَذَلِكَ أَنَّنِي إِذَا مَا قَصَيْتُ بِأَلَّا أَتَعَلَّقُ بِأَيِّ شَيْءٍ آخَرَ تَعَلَّقْتُ عَلَى الْأَقْلِ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَسْتَقَرُّ بِهَا، وَاسْتَعَلَّقْتُ حَيَاتِي بِهَذِهِ الْأَرْضِ كَتَعَلَّقُ الْحُورِيَّاتُ بِأَشْجَارِهِنَّ. وَإِنِّي، إِذْ وَجَدْتُ أَنَّ السُّلْطَةَ وَالْحَرِيَّةَ كَلِمَتَانِ مُتَنَاقِضَتَانِ، لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَكُونَ صَاحِبَ كُوخٍ إِلَّا بَعْدُوَلِي عَنْ كَوْنِي مَالِكٌ نَفْسِي.

أمانِي؟ هذه هي: أرض متوسطة الاتساع.

وأذكر أن أموالِي كانت سبب استقصائنا، وقد أقيمت دليلاً بالغ القوة على أنني لا أستطيع الاحتفاظ بثروتِي وحريتي معاً، ولكنك عندما أردت أن أكون حُرّاً خالياً من الاحتياجاتِ معاً أردت أمرين متباينين؛ وذلك لأنني ما كنتُ لأستطيعُ الخلاصَ من أتباعِ النَّاسِ إلا باتباعي الطبيعة. وما أضغُ إذنٌ بالثروة التي تركها لي والدي؟ سأبدأ بعدم اتباعي لها مطلقاً، وسأزخي جميع الروابط التي تربطني بها، وهي إذا تركتُ لي بقيتُ لي، وهي إذا ما حرمتها لم أجز نفسي وراءها، ولن أقلقُ بالي في إمساكها مطلقاً، ولكنني سأبقى ثابتاً حيث أنا، وسأكون حُرّاً سواءً أكنتُ غنياً أم فقيراً؛ ولن أكون ذلك في هذا البلد أو تلك البقعة فقط، بل أكونه في جميع الأرض، وترى جميع قيود المُبتسِر قد كُسرت بالنسبة إليّ، ولا أعرف غير قيود الضرورة، وقد تعلمتُ حملها منذ ولادتي، وسأحملها حتى مماتي؛ وذلك لأنني رجل. ولم لا أحمل هذه القيود كرجل حُرٍّ ما دمتُ أحملها وأنا عبدٌ مضافاً إلى قيود العبودية؟

وما أهمية مُقامي في الأرض في نظري؟ وما أهمية المكان الذي أكون فيه؟ أكون في منزل إخوتي حيث يوجد آدميون، وأكون في منزلي حيث لا يوجد آدميون، ولديّ مالٌ للعيش، وسأعيش ما استطعتُ أن أبقى مستقلاً مُوسراً، فإذا كان مالي يُعبدني فإنني أتُركه بلا عناء، فلديّ ذراعان للعمل، وسأعيش، وإذا ما أعوزتني الذراعان عشتُ ما عُديت، وسأموت إذا ما هُجرت، وسأموت أيضاً وإن لم تُهجر؛ وذلك لأن الموت ليس عقاباً على الفقر، بل هو قانونٌ للطبيعة، وأتحدى الموت في أي وقت يأتي، وهو لن يُباغتي وأنا أعدُّ عُداً للحياة، وهو لن يحول دون ما كان من حياتي.

ذاك ما أنا عازمٌ عليه يا أبت، ولو كنتُ خالياً من الأهواء لكنتُ في رُجولتي مستقلاً مثل الإله نفسه، وذلك من حيث إنني لا أريدُ أن أكون غير ما أنا عليه؛ فلا أكافحُ المصيرَ مطلقاً، وليس لديّ غيرُ قيدٍ واحدٍ على الأقل، وهو الوحيدُ الذي سأحمله دائماً، وهو الذي أستطيعُ أن أباهي به، فتعالُ إذن وأعطني صوفية؛ فأنا حُرٌّ.»

«أي إميل العزيز، حقاً أنه يسُرُّني سماعي من فمك كلامَ رَجُل، وأن أُبصرَ مشاعرَ في فؤادك، وليس هذا التجرُّدُ من الهوى المتناهي مما لا يروفتني صدوره عنن هو في عُمرِكَ، وهو سيقَلُّ متى صرتَ ذا ولد، وهنالك تكون، ضبطاً، ما يكونه ربُّ الأسرة الصالح والرجل الحكيم. وكنتُ أعرف ما تكون النتيجة قبل رحلتك، وكنتُ أعرف عند النظر إلى نُظمتنا عن كُفِّ أنك تكون بعيداً من أن تُعيرها اعتماداً لا تستحقُّها. ومن العيبِ أن نُطمح إلى الحرية تحت ظلِّ

القوانين. ألقوانين؟ أين هي؟ وأين تكون مُحترمة؟ لم ترَ تحت هذا الاسم في أيِّ مكانٍ كان غير سيادة المصلحة الشخصية وأهواء النَّاس، ولكن قوانين الطبيعة والنظام الأبدية موجودة، وهي تقوم مقام القانون الوضعي لدى الحكيم، وهي مكتوبة في صميم فؤاده بالعقل والضمير، وعليه أن يُعبد نفسه لها كيما يكون حُرًّا ولا يُوجدُ عبدٌ غير الذي يصنع الشر؛ وذلك لأنه يُفعله على الرغم منه دائمًا. وليست الحرية في أيِّ شكلٍ من أشكال الحكومة، وإنما هي في فؤاد الرجل الحر، وهو يحملها معه في كلِّ مكان، والرجل النذل يحمل العبودية في كلِّ مكان، وأحدهما يكون عبدًا في جنيف، ويكون الآخر حُرًّا بباريس.

وإذا ما حدَّثتكَ عن واجبات المواطن سألتني، على ما يحتمل، عن مكان الوطن، وطلنت أنك تُرئيني، ومع ذلك فإنك تخذع نفسك يا إميل العزيز؛ وذلك لأنه يُوجد بلدٌ على الأقل لمن ليس له وطن، وفي كلِّ وقتٍ توجد حكومة مع أشباح للقوانين عاش تحت ظلها بهدوء. وهل من المهمُّ ألا يكون العقد الاجتماعي قد روعي إذا ما حمته المصلحة الخاصة كما كان على الإرادة العامة أن تصنع، وإذا ما صانته الصولة العامة من الصولات الخاصة، وإذا كان الشر الذي أبصر وقوعه قد حَبَّ إليه ما كان حسنًا، وإذا كانت نُظْمنا نفسها قد أطلعت على أوزارها الخاصة فجعلته يُغض هذه الأوزار؟ أي إميل! أين رجل الخير غير المدين لبلده بشيء؟ ومهما يكن من أمر هذا البلد فإنه مدينٌ له بأتمن شيءٍ للإنسان، مدينٌ له بمكارم أعماله وبحبِّ الفضيلة. أجل، إنه إذا ما وُلِد في وَسَط غايبة عاش أكثر سعادةً وأعظم حرية، ولكنه إذ لا يكون لديه شيءٌ يكافحه تبعًا لميوله فإنه يكون صالحًا بلا فضيلة، وإنه لا يكون فاضلاً مطلقًا، وأما الآن فإنه يُعرف أن يكون فاضلاً على الرغم من أهوائه، وما يكون من ظاهر النظام وحده يحمله على معرفة ذلك وحبه. ويكون الخير العام، الذي لا يصلح أن يكون غير ذريعة لدى الآخرين، باعًا حقيقياً عنده؛ فهو يتعلم مقاومة نفسه وقهرها والتضحية بمصلحته الخاصة في سبيل المصلحة العامة، وليس من الصحيح أنه لا يستفيد شيئاً من القوانين؛ فالقوانين تُنعم عليه بشجاعةٍ يكون بها عادلاً حتى بين الأشرار، وليس من الصحيح أنها لم تجعله حُرًّا؛ فهي قد علمته أن يسيطر على نفسه.

ولذا لا تُقل: ما أهمية المكان الذي أكون فيه؟ فمما يُهْمك أن تكون حيث تستطيع القيام بجميع واجباتك، ومن هذه الواجبات أن تُحبَّ مسقط رأسك، وقد حماك مواطنوك صغيرًا، فيجب أن تُحبَّهم كبيرًا، ويجب عليك أن تعيش بينهم، أو على الأقل في المكان الذي تستطيع أن تكون نافعًا لهم فيه ما أمكنك، وفي المكان الذي يُعرفون أن يجدوك فيه إذا ما احتاجوا

إليك. وتوجد أحوال كثيرة يستطيع الرجل أن يكون فيها أكثر نفعاً لمواطنيه خارج وطنه مما لو كان يعيش في سوائه، وهنالك يجب عليه ألا يُلبّي غير داعي غيْرته، وأن يصير على غرْبته بلا تذمُر؛ فهذا الاغتراب من جملة واجباته. وأنت يا إميل الصالح، الذي لا شيء يفرض عليه هذه التضحيات الأليمة، وأنت الذي لم يتنجل وظيفة قول الحقيقة للناس، اذهب وعش بينهم، وتعهّد صداقتهم بصحبة ليّنة، وكُن مُحسِنًا إليهم وقُدوةً لهم؛ فمثالك يكون نافعاً لهم أكثر من جميع كتبنا، وسيكون المعروف الذي يرونك صانعاً إياه أعظم تأثيراً فيهم من جميع كلامنا الفارغ.

ولا أحرّضك على الذهاب للعيش في المدن الكبيرة، وعلى العكس فإن من الأمثلة التي يجب على الصالحين أن يُلقّوها على الآخرين هو مثال الحياة الأبوية الحقلية؛ أي حياة الإنسان الأولى التي هي أهدأ ما يكون لدى صاحب القلب غير الفاسد وأقرب إلى الطبيعة وأحلى. وطوبى يا صديقي الفتى للبلد الذي لا يُحتاج فيه إلى الذهاب للبحث عن السّلم في الصحراء! ولكن أين هذا البلد؟ بلى، لا يُرضي الرجل المحسن مَيْلَه بين المدن حيث لا يجد تقريباً ما يمارس من أجله همته إلا الأراجين والماكرين، وما يجد الكسالى الذين يأتونها للبحث عن الثراء من حُسن قبول لا يُسْفِر عن غير اجتياح البلد الذي يجب إعمارُه ثانيةً على حساب المُدن كما يَقضي الحق. ويُعدُّ جميع من ينزؤون من المجتمع الأكبر نافعين لأنهم يعتزلونه تماماً، وما دامت جميع عيوبه تأتيه من كثرة عدده، ومما يجعلهم نافعين أيضاً استطاعتهم أن يجلبوا إلى الأماكن المُقفرة ما هو خاصٌ بحالهم الأولى من الحياة والحزب والحُب، وأجنُّ حين يعنُّ لي مقدار ما يستطيع إميلٌ وصوفية أن ينشأ من الحسنات حولهما في أثناء عزلتهما، ومقدار ما يقدران على إنعاشه من الرِّيف ويُحييان من همّة القرويِّ الشقي الخاملة. ويُحيلُ إليّ أنني أرى الشعب يتكاثر، وأن الحقول تُعمر، وأن الأرض تلبس حليةً جديدة، وأن الجمهور والوفور يُحوّلان الأشغال إلى أعياد، وأن البركات وهتافات الفرح تتصاعد بين الألعاب الحقلية وحول الزوجين المحبوبين اللذين أعادا إليها الحياة. ويُعدُّ العصر الذهبي من الأوهام، وهذا يكون دائماً عند من هو ذو قلب وذوق فاسدين، حتى إنه ليس من الصحيح أن يُؤسّف عليه ما دامت هذه الحسرات لا طائل فيها دائماً، وما يجب أن يُصنَع لبعث هذا العصر إذن؟ أمرٌ واحدٌ متعذرٌ، وهو أن يُحب.

وكان قد لاح لي بعثه حول منزل صوفية، وليس عليك إلا أن تُكْمِلَ معاً ما بدأ أبواها الوقوران، ولكن يا إميل العزيز لا تدع الحياة البالغة الدعة تحملك على كراهية الواجبات الشاقة إذا ما فُرِضت عليك، وادكُر أن الرومان كانوا ينتقلون من المِحراث إلى القنصلية. وإذا ما دعاك الأمير

أو الدولة إلى خدمة الوطن فاترك كل شيء واذهب لتقوم بوظيفة الوطني المجيدة في المركز الذي يُعين لك، وإذا كانت هذه الوظيفة ثقيلة عليك فإنه يوجد وسيلة شريفةً وأمينةً للتخلص منها، وذلك أن تقوم بها بإخلاصٍ كافٍ حتى لا تُترك على عاتقك زمانًا طويلًا، ثم لا تُفزع من عُسرٍ مثل هذا العبء، فلست بالذي يُطلب لخدمة الدولة ما وُجدَ رجالٌ من أهل هذا العصر.»

ولم لا أبيعُ لنفسي وصفَ رجوعٍ إميلٍ إلى صوفيةٍ وخاتمةٍ معاشقهما، وإن شئت فقلْ بدءَ غرامهما الزَّواجي الذي يجمع بينهما! هذا الغرام القائم على الإكرام الذي يدوم مدى الحياة، وعلى الفضائل التي لا تُنحى مع الجمال، وعلى توافق الأخلاق الذي يجعلُ الصحةَ مُحِبَّةً والذي يُطيل في المشيب فُتُون الوصالِ الأوَّل، ولكن جميع هذه التفاصيل قد تُروِّقُ من غير أن تكون نافعة، وقد أبحثُ لنفسي حتى الآن أمرَ القيام بتفاصيلٍ مُستحبةٍ كالتى اعتقدتُ فائدتها، وهل أترك هذه القاعدة عند ختام عملي؟ كلاً، وإنني أشعر بمَلالٍ اعترى قلبي، وإنني وأنا البالغُ من الضَّعف ما لا أقوم معه بأعمالٍ تقتضي نفسًا طويلًا، كنتُ أترك هذا العمل لو كان أقلَّ تقدُّمًا، وإذا كان من غيرِ الجائز ترك هذا العمل ناقصًا فإن وقت الفراغ منه قد أتى.

وأخيرًا أبصُرُ أكثرَ أيام إميلٍ سحرًا، وأكثرَ أيامي سعادةً، وأبصُرُ تمامَ جهودي، وأبدأُ بذواقِ ثمرتها، ويتَّحدُ الزوجان الكريمان بقيدٍ لا انفصامَ له، ويلْفِظُ فمُهما، ويؤيدُ فؤادهما، وعودًا لن تكون باطلَّةً مطلقًا؛ فهما عروسان، ويعودان من المَعبد، ويُسيَّران، ولا يَعْرِفان أين هما وأين يذهبان، ولا ما يُصنَعُ حولهما، وهما لا يتبهران مُطلقًا، وهما لا يُجيبان بغيرِ كلماتٍ غامضة، وعادت أعينُهما الحائرة لا ترى شيئًا. ويا للهدبان! ويا للضعف البشري! إن حسَّ السعادة يسحق الإنسان، وليس الإنسانُ من القوة ما يحتمله معه.

وقليلٌ من النَّاسِ مَنْ يَعْرِفُونَ اتِّخَاذَ لهجةٍ ملائمةٍ مع الزوجين يومَ قرانهما، ويلوح لي أن من غير المناسب على السواء ما يكون عليه بعضهم من احتشامٍ عابسٍ وما يصدر عن الآخرين من لغو الكلام. وأفضَّلُ أن يُترك الفؤادان الفَتِيَّانِ عاكفين على نفسيهما، وأن يستسلما إلى اضطرابٍ لا يخلو من فُتُون، على أن يُمعنَ في شغلها عنه بأن يُربكا باحتشامٍ زائفٍ مُغمِّمٍ لهما، أو بأن يُلبكا بدعاباتٍ لاذعةٍ تُزعجهما في مثل ذلك اليوم، وإن كانت تروقهما في وقتٍ آخر.

وأبصِرُ الفَتِيَّينِ في دُبولهما العَدْب الذي يضطربان به، فلا يسمعان ما يُوجِّهُ إليهما من كلام. وأما أنا، الذي يُريد أن يُتمتَّع بالحياة كلَّ يوم، فهل أدعُ يومًا عزيزًا كذاك يضيع عليهما؟ كلاً، وإنما أريد أن يدوقاه، وأن يتنعَّما فيه، وأن يتمتَّعا بملاذَّه، وأنزِعُهما من الجَمْعِ غيرِ الرِّصينِ

المُتَعَبِ لهما، وآتي بهما للنزهة في مكانٍ منحرف، وأردُّهما إلى نفسيهما بالحديث عنهما، وليست أذناهما ما أريد أن أخطب، بل فؤادهما، ولا أجهل الموضوع الوحيد الذي يُمكن أن يَشْغَلَ بالهما في ذلك اليوم.

وأُمسِكُ بيدَ كُلِّ منهما وأقول: «أيّ ولديّ، لقد رأيتُ منذ ثلاثِ سنينَ ظهورَ هذه الشُّعْلةِ المضطربة الطاهرة التي تنطوي على سرِّ سعادتكما اليوم، وهي ما فتئتْ تزيد بلا انقطاع، وأبصرُ في أعينكما أنها في آخرِ درجاتِ حدِّتها، وعاد لا يُمكنُ غيرُ وَهْنِها.» أولاً ترون أيها القراء هيجانَ إميل وهيامه وإيمانه، ومظهرِ الازدراء الذي استخلصتْ صوفيةُ به يَدُها من يدي، والتصريحاتِ الناعمة التي كانا يتبادلانها بأعينهما دلالةً على عبادةٍ كلِّ منهما للآخر حتى التَّقَسُّ الأخير؟ وأنغاضى عنهما، ثمَّ أرجع إلى الكلام فأقول: «ما أكثرَ ما أبصرتُ أنه إذا ما أمكنتُ إطالةَ سعادةِ الحُبِّ في الزواجِ مُلِكتُ الحنَّةَ فوق الأرض، وهذا هو الذي لم يُرَ حتى الآن، ولكنَّ الأمرَ إذا لم يتعدَّ تمامًا كتما جدريين بأن تكونا قُدوةً لم تتلقَّياها من أحدٍ ولم يستطع غيرُ أزواجٍ قليلين أن يُقلِّدوها، وهل تريدان يا ولديّ أن أُحدِّثكما عن وسيلةٍ أتمثلُها في هذا السبيلِ معتقداً أنها ممكنةٌ وحدَّها؟»

ويتبادلان النظراتِ مُتَبَسِّمينَ وَيَسْخَرانِ من بساطتي، وَيَشْكُرُ لي إميلُ إرشادي بجلاءٍ قائلاً إنه يعتقد أن صوفيةً تُكُنُّ لي أكثرَ من هذا، مكتفياً بما قاله عن نفسه، وتوافق صوفيةً على هذا وتبدو مطمئنة، ومع ذلك فإني أُميزُ من خلال وضعها الساخرِ شيئاً من الفُضول، وأنعمُ النظرَ في إميلٍ فأجدُه يَلتَمُّهُمُ فُتُونُ زوجته بعينيهِ الملتهيئتين، وهذا هو الأمرُ الوحيدُ الذي يَظْهَرُ به فُضولُه، وما كانت أقوالِي ليشيرُ انتباهه، وأتَبَسَّمُ بدووري قائلاً في نفسي: «سأعلم من فوري كيف أجعلك مُنتيهاً لي.»

وما بين هذه الحركات الخفية من فَرَقٍ غيرِ محسوسٍ تقريباً يَنمُّ على الفارق بين الجنسين المخالفِ لما هو سائدٌ من مُبْتَسِّرات، وذلك أن الرجالَ أقلُّ ثباتاً من النساءِ على العموم؛ فتنفُثُ همَّتهم بأسرعٍ منهن في حقلِ الحُبِّ المبارك، وتُبصِرُ المرأةَ عدمَ ثباتِ الرجلِ من بعيدٍ فتجزعُ³¹ من هذا، وهذا ما يجعلها أشدَّ غيرةً أيضاً، وهو إذا ما أخذ يفثرُ واضطُرَّت لحفظه إلى بذلِ جميعِ الجهود التي كانت تقوم بها للوقوفِ عنده موقعَ الرِّضا، بَكَتْ وتدلَّت بدورها، ولكن مع نُدرَةِ

³¹ يكون النساء في فرنسا أوّلَ مَنْ ينفصل؛ وذلك لأنهن إذ كن أقلَّ مِراجاً ولم يرغبن في غير التكريم فإنهن لا يبدن غيرَ قليلٍ مبالاة بالزوج الذي يَعْدِلُ عن إكرامهن. وأمّا في البلدان الأخرى، فيكون الزوج أوّلَ مَنْ ينفصل؛ وذلك لأن النساء الوفيات، ولكن مع عدم رصانة، يزعجنهم برغائهن، فيورثهم نفوراً منهن. أجل إن من الممكن أن يكون لهذه الحقائق العامة كثيرٌ من الاستثناءات، ولكنني أعتقد الآن أنها من الحقائق العامة.

النجاح. أجل، إن الأفتدة تُكسب بالمودة والجهود، ولكنها لا تُستردُّ بهما مطلقًا، وأعود إلى إرشادي حول فتور الغرام في القرآن.

وأعود إلى الكلام، فأقول: «والأمرُ بسيطٌ سهل، وذلك أن يستمرَّ الزوجان على كونهما عاشقين.»

ويقول إميلٌ ضاحكًا سرًّا: «إننا لن نجد في ذلك عُسرًا.»

«قد يكون أعسرٌ مما تتصور أنت الذي يتكلم، فأرجو أن تترك لي من الوقت ما أوضح فيه ما أرى.»

إنَّ العزى التي يُراد شدُّها كثيرًا تنفصم، وهذا ما يحدث لعقدَةِ النكاح التي يُراد منحنها من القوة أكثر مما ينبغي. والوفاء الذي يفرضه النكاح على الزوجين هو أقدمٌ من جميع الواجبات، ولكنه يمنح كلاً منهما سلطانًا كبيرًا، ولا يتساوق القسر والغرام، ولا يُوصى باللذة. ولا تخجلي يا صوفية، ولا تُفكرِي في الفرار، ومعاذَ الله أن أريد الإساءة إلى حيائك! ولكنَّ الأمر خاصٌ بمصيرك؛ ففي موضوعٍ بالغ الأهمية احتملي حديثًا بين الأب والزوج لا تختملينه في موضعٍ آخر.

وليست الحياةُ كإخضاعٍ يُزوي الغليل، ويُحفظ للفتاة التي تُحظي من الحب ما هو أطول من الذي تُحبي به الزوجة. وكيف يُمكن أن يُجعل واجبٌ من أنعم الألفاظ وحقٌّ من أحلى آيات الغرام؟ إن تبادلَ الرغبة هو الذي يصنع الحق، ولا تُعرف الطبيعة حقًا آخرَ مطلقًا، أجل يستطيع القانون تضيق هذا الحق، ولكنه لا يقدر أن يُوسع مداه. ويا لخلوة الشهوة بنفسها! وهل تنال بالصنك الكتيب من القوة ما لا تستطيع نيَّله بجواذبه الخاصة؟ كلاً يا ولدي، إن القلوب تتحد بالزوج، ولكن الأبدان لا تُعبد مطلقًا، وكلٌّ منكما مُلزَم بالوفاء نحو الآخر، لا بالمسايرة، ولا يُمكن كلاً من الاثنين إلا أن يكون للآخر، ولكن لا ينبغي أن يكون أيٌّ من الاثنين للآخر إلا إذا راقه.

وإذا كنتَ يا إميلَ العزيزُ تريد أن تكون عاشقًا لزوجتك حقًا، وحبَّ أن تكون خليلًا لك ولنفسها دائماً، وكن عاشقًا سعيدًا، ولكن مُكرِّمًا، وفزَّ بالگرام كلُّه من غير أن تطلب شيئًا من الواجب، ولا تجعل من أقلَّ الخطوات حقوقًا لك مطلقًا، وإنما دعها تكون أطفافًا. وأُعرفُ أن الحياةَ يحترزُ من الاعترافات الصريحة، ويقضي بأن يُفهر، ولكن هل العاشقُ مع الرقة والغرام الحقيقي يُحدع حول البُغية الخفية؟ وهل يجهلُ عند موافقة القلب والعينين ما يُظهرُ الغم من

رفض؟ ودُعِ كلَّ واحدٍ من الاثنين مالِكًا لشخصه وملامساته، فيحقُّ له ألاَّ يَمُنَّ بهما على الآخرِ إلا حين يُريد. واذكُرْ في الزواج دائماً أن اللدَّة لا تكونُ شرعيةً إلا عند تبادلِ الرغبة، ولا تحافا يا وَلَدَيَّ أن تُفصِّل هذه السُنَّة أحدكما عن الآخر، بل هي على العكس تجعلُ كُلاً منكما أكثرَ انتباهًا كيما يروُق الآخر، وتحوّل دون الكِطَّة، وليقتصرِ كلُّ منكما على الآخر؛ فالطبيعة والحُبُّ يُقرِّبان بينكما بما فيه الكفاية.»

تُثير هذه الكلماتُ وما مائلها غضبَ إميل، فيصيحُ معترضًا، ويعتري صوفيةً حياةً فتضعُ مِرْوحتها على عينيها ولا تَنبس بكلمة، وقد لا يكون أكثرُ الاثنين سخطًا أكثرهما شكاية، وأصْرُ بلا رحمة، وأجعلُ إميلَ يَحْمَرُّ خجلًا من قَلَّة لطفته، وأضْمُن أن تُقبَل صوفية البحث من ناحيتها، وأحْضنها على الكلام، ومما يُشكُّ فيه أن تجرؤ على تكذبي. ويُشاوِر إميلُ المشغولُ البال عيني زوجته الفتاة، ويراهما من خلال ارتباكهما مملوءتين كدَّرًا شهوانيًا مُطمئنًا إياه حوْل خَطَرِ اعتماده عليها، ويلقي نفسه على رجليها ويُقبَل اليد التي تُمدُّها إليه هائجًا مُقسِمًا أنه يتنزَّل عن كلِّ حقٍّ عليها خلا الوفاء الموعود، ويقول لها: «أي زوجتي العزيزة، كوني حَكَمًا في ملاذِّي كما أنك حَكَمٌ في أيامي ومصيري، ولو قَصَصْتُ قسوتك بتكليفي الحياة لسَلَّمْتُ إليك أعزَّ حقوقي، ولا أريد أن أكون مَدِينًا لملاطفتك، وإنما أريد نَيْلَ كلِّ شيءٍ من فؤادك.»

وبا إميلُ الصالح، قرَّ عَيْنًا؛ فصوفية من الكرمِ البالغ ما لا تدْعكُ تموتُ معه ضحيةً كرمك.

وفي المساء، عندما أوشكتُ أن أتزكهما، قلتُ لهما بأقصى ما يُمكنني من لهجةٍ رصينة: «ليدُكُرْ كلُّ منكما أنه طليقٌ وأنه لا محلُّ للبحث في واجبات الأزواج الآن، وصدَّقاني أنه لا إكرامَ كاذبٍ. فيا إميل، أتريد المعجى معي؟ فصوفية تأذن في هذا.» ويكاد إميلُ يَضْرِبني غضبًا. «وأنت يا صوفية، ما تقولين؟ هل آخذة؟» وتقول الكاذبة وقد احمرَّ وجهها خجلًا: «نعم.» فهذا الكذبُ العذبُ الفاتنُ أفضلُ من الحقيقة!

وفي اليوم التالي تُعودُ صورةُ السعادة لا تُجاملُ الرجال؛ فما كان فسادُ العيبِ أقلَّ إفسادًا لدورهم ممَّا لقلوبهم، وهم يُعودون لا يشْعرون بما هو مؤثّر، ولا يَزون ما هو سارٌّ. وأنتم أيُّها الذين لا يتمثلون لتصويرِ الشهوةِ غيرَ عاشقين سعيدين غارقين في سواء المِلاذ؛ تكونُ ألواحكم ناقصة! فلا يكون لديكم منها غيرُ أغلظِ النَّصْفين، وأمَّا أعذبُ جواذبِ اللدَّة فلا تشتملُ عليها

مطلقاً. ومن منكم لم يرَ قطُّ زوجين شابين جمَعَ بينهما أسعدُ طالع، فخرجا من الحَجَلَة^{٣٢} حاملين في نظراتهما الدَّابِلَة الطاهرة نشوة الملائد العذبة التي تمتعا بها وضمان الغفاف واليقين الفاتن بأن يقضيا بقية أيامهما معاً؟ فما هو ذا أسحر ما يمكن أن يُقدّم إلى قلب الرجل، وما هو ذا لوح الشهوة الحقيقي، ولقد رأيتموه مائة مرّة من غير أن تعرفوه، وقد عادت قلوبكم القاسية لا تكون قد صُنِعَتْ لُتْجِه. وتقضي صوفية السعيدة الوديعه نهارها بين ذراعي أمها الحنون، وهذه استراحة خلوة تناولها بعد أن قضت الليلة بين ذراعي زوجها.

وفي اليوم الثالث، أُبْصِرُ تَغْيِراً في المنظر، وذلك أن إميل يُريد إظهار شيءٍ من الاستياء، ولكنني ألاحظ من خلال هذا التظاهر نشاطاً رقيقاً، حتى إذعاناً كثيراً، لا أتوقّع منه ما يُعْم. وأمّا صوفية، فهي أعظم مرّحاً مما كانت عليه عشية، وأرى في عينيها التمتع ظاهر مُرضٍ، وهي تبدو مع إميل فاتنة، وهي تُبدي له من الدلال تقريباً ما يعود منه غير غاضب.

ولا تكاد هذه التحولات تكون ظاهرة، ولكنها لا تفوتني، وهي تشغل بالي. وأسأل إميل على انفراد، فأعلم أنه على ما أبدى من لهف كبير، ومع كل ما أظهر من إحافٍ كثير، لم يُسَمَح له بأن يشاطر صوفية فراشها في الليلة الماضية؛ فقد بادرت هذه المتكبرة إلى استعمال حقها. ويُصار إلى التفسير، وبألم إميل ألماً مرّاً، وتضحك صوفية، ولكنها إذ تُبصر على أثر ذلك أن إميل يُوشك أن يحرد، تُلقني عليه نظرة مملوءة لطافةً وغراماً، ولا تنطق، وهي تصافحي، ولكن بلهجة تنفذ في الفؤاد بغير كلمة: «كثودا!» ويكون إميل من الغباوة ما لا يُدركها معه، وأمّا أنا فأدرك، وأبعد إميل، وأتناول صوفية بدورها على انفراد.

وأقول لها: «أبصرُ سبب هذه النزوة، ولا أحد يكون أكثر لطافة، ولا أحد يستعمل هذه اللطافة بما هو أكثر سوءاً. فيا صوفية العزيزة قري عيناً؛ فهذا رجل أعطيتك إياه، ولا تخافي أن تعامله هكذا، وقد اقتطفت بواكير شبابه، وهو لم يجد بشبابه على أحد، وهو سيحتفظ به من أجلك زمناً طويلاً.

ويجب يا بنتي العزيزة أن أوضح لك ما أبيتُ من آراء في أثناء الحديث الذي دار بيننا منذ ثلاثة أيام، ومن المحتمل ألا تكوني قد أبصرت فيه غير وسيلة داريت بها ملاذكما إدامه لها. أي صوفية! كان لذلك الحديث من الأغراض ما هو أكثر جدارةً بجهودي؛ فإميل إذ صار زوجاً لك أصبح قوَّاماً عليك،

^{٣٢} * الحَجَلَة: ستر العروس في جوف البيت.

فعليك أن تطيعه، وهذه هي مشيئة الطبيعة، ومتى شابهت المرأة صُوفيةً كان من الصالح مع ذلك أن يُقاد بها، وهذه هي سُنَّة الطبيعة أيضًا، وقد جعلتكَ حَكَمًا في أمرٍ مَلَأَهُ كيما يكون لك من السلطان على فؤاده ما يَعْدِلُ السلطانَ الذي منحه جنسه إياه على شخصك. أجل، سِيكَلْفَكَ هذا جِرْمَانَاتٍ شاقّة، ولكنك ستسيطرين عليه إذا عَرَفْتِ أن تسيطرين على نفسك، وما وَقَعَ يدُلُّني على أن هذا الجِدْقُ البالغُ الصعوبة ليس فوقَ قُوَّةِ جَنَانِكَ، وستسيطرين بالحبِّ زمنًا طويلًا إذا ما جعلتِ أَلطَافَكَ نادرَةً ثمينةً وإذا ما عَرَفْتِ حُسْنَ استثمارها. وإذا أردتِ أن تَرَيَ زوجك عند قدميك بلا انقطاع، فاجعلي بينه وبين شخصك بعضَ المسافة دائمًا، ولكن لِنَكُنْ شِدَّتُكَ نتيجةَ اعتدالٍ لا نتيجةَ نزوة، ولِيَجِدْكَ قَطُونًا لا جُمُوحًا، واحترزي حينَ مُداراته لِحَبِّهِ أن يرتابَ مِن حَبِّكَ، وغالي بنفسك في أَلطَافِكَ، وأَكْرَمِي نفسك عندَ منْعِكَ خَطُواتِكَ، ولِيَجَلَّ عَفَافَ زَوْجِهِ غيرَ متوجِّعٍ من فُتُورها.

وهكذا يَمْنَحُكَ ثِقَتَهُ يا بُنَيَّ، ويُضْعِي إلى آرائك، ويستشيرُكَ في شئونه، ولا يَقْطَعُ أمرًا قَبْلَ أن يُدَاكَرَكَ فيه. وهكذا يُمَكِّنُكَ أن تَدْعِيه إلى سبيلِ الحكمةِ إذا ما ضَلَّ، وأن تُرَدِّدِيه إلى هذه السبيلِ بالإقناع اللين، وأن تُحَبِّي نفسك لتكوني نافعة، وأن تُلَوِّذِي بالدلالِ من أجلِ الفضيلة، وأن تُعَوِّذِي بالغرامِ من أجلِ العقلِ.

ولا تَطْلِي، مع جميع هذا، أن هذا الجِدْقُ يستطيع أن يكون خادِمًا لمقاصدك دائمًا؛ فمهما يُمكن اتخاذه من احتياطٍ فإن التمتع يُوهِنُ المَلادَ، والحُبُّ قَبْلَ غيره، ولكنَّ الحُبَّ إذا ما دام زمنًا طويلًا ملأت فراغه عادةً حُلوة، وعَقِبَتْ جاذبيةُ الثقةِ فائزِ الهوى. ويتألَّفُ من الأولاد، بين مَنْ أَنْعَمُوا عليهم بالوجود، رابطةٌ لا تَقَلُّ حلاوةً عن الحُبِّ نفسه، وهي تكون أقوى منه غالبًا، ومتى عُدتِ غيرَ خَلِيلَةٍ لِإِمِيلِ غدوتِ امرأته وصديقته وكتبتِ أمًا لأولاده، وهنالك أقيمي بينكما أعظمَ ما يكون من أُلْفَةٍ بدلًا من الاحترازِ الأوَّلِ؛ فلا سريرَ منفصلٍ، ولا امتناعٍ ولا نزوات، وابُلُغِي من كونك نَصْعًا له ما لا يستطيع معه أن يستغني عنك مطلقًا، فإذا ما تركك شَعَرَ بأنه بعيدٌ من نفسه. واجعلي سرَّ الحياة المنزلية يُهيمن على بيتكما بعد أن جَعَلْتَهُ يهيمن على بيت أبيك؛ فكلُّ رجلٍ يطيب له أن يُقيم بمنزله يُحِبُّ امرأته، واذكري أن زوجك إذا ما عاش سعيدًا في بيته كنتِ زوجةً سعيدة.

وأما الآن، فلا تكوني كثيرةَ القسوةِ على عاشقك؛ فقد يستحقُّ أعظمَ ملاطفة، ومما يُسيء إليه ما يكون من مخاوفك، ولا تبالغي في مداراة صحته على حساب سعادته، وتمتعي بسعادتك، ولا ينبغي لك انتظارُ نُفورٍ ولا رفضِ رغبة، بل مغالاةٌ بخَطُواتِكَ.»

ثمَّ أجمعهما وأقول لزوجها الشابَّ أمامها: «لا بُدَّ من احتمالِ النَّيرِ الذي يُفرض، واصنع

ما تستحقُّ معه أن يكونَ خفيفَ الوطأةِ عليك، وضَحَّ في سبيلِ الألفاظِ على الخصوص، ولا يَبْدُ لك أنك تكونُ أكثرَ حُطوةً إذا ما أبديتِ استياءك. « ولا يَصْغُبُ إقرارُ السلام، وكلُّ يَسْهَلُ عليه أن يرتاب من الأحوال، وتُمضَى المعاهدةُ بِقُبْلَةٍ. ثُمَّ أَقولُ لتلميذي: «أيُّ إميل العزيز، يحتاج كلُّ إنسانٍ في حياته إلى مستشارٍ ودليل، ولم آلُ جُهْدًا حتى الآن في القيام بهذا الواجب نحوك، وهنا ينتهي عملي الطويل ويبدأ عملٌ غيري، واليوم أتخلَّى عن السلطان الذي عهدتَ به إليّ، وها هي ذي مُرَبِّيتُك من الآن فصاعدًا.»

ويسكنُ الهذيانَ الأوَّلَ مقدارًا فمقدارًا، ويدعُهما يدوقان فُتُونَ حالهما الجديدة بسلام، ويا للعاشقين السعيدين! ويا للزوجين الفاضلين! تقضي الإشادة بفضائلهما، ويقضي وصفُ سعادتهما وضع تاريخٍ عن حياتهما، وما أكثرَ ما خَفَقَ قلبي عندما أُبْصِرُ تويجَ أثرَي بهما! وما أكثرَ ما جمعتُ يديهما في يدي شاكِرًا للربِّ مُتَنَفِّسًا الصُّعْدَاءَ بحرارة! وما أكثرَ ما طبعْتُ من قُبَلاتٍ على تينك اليدين المتصافحتين! وما أكثرَ ما بلَّلتُ دموعَ فرحهما يدي! وِيرِقَانِ بدورهما حينما يُقاسمانني هَيْمَانِي، دَعُ والديهما الجليلين اللذين يتمتَّعان بشبابهما مرةً أخرى في صورة ولديهما؛ ومنْ ثُمَّ يَسْتَأْنِفان الحياةَ فيهما، وإن شئتَ فقلَّ إنهما يَعْرِفان قيمةَ الحياةِ للمرةِ الأولى، فيلْعنان ثراءهما الأوَّلَ الذي حال دون تمتعهما، وهما في مثل ذلك الدَّور من العُمُر، بنصيبٍ بالغِ ذاك المقدارَ من الفُتُون، وإذا ما وُجِدَتْ في الأرضِ سعادةٌ وجبَ البحثُ عنها في المأوى الذي نعيش فيه.

وتمضي بضعة أشهر، فيدخلُ إميلُ غرفتي ذات صباحٍ ويقول لي وهو يعانقني: «هنيئًا ولدك يا مُعلِّمي؛ فهو يأملُ أن ينالَ شرفَ كونه أباَ عما قليل. آه! يا للجهود التي تُفْرَضُ على نشاطنا! ويا لكثرة ما نحتاج إليك! ومعادَ الله أن أتركَ لك تربيةَ الابن بعد أن قُمتَ بتربية الأب، ومعادَ الله أن يقوم غيري بواجبِ مُقدِّسٍ عَدْبٍ كذاك، ولو قُضِيَ بأن اختارَ له مثلما اختير لي! ولكنْ دُمُ مُعلِّمًا لشُبَّان المُعلِّمين، وانصحنًا وسيطر علينا تجدننا طائعين، وسأحتاج إليك ما دمْتُ حيًّا. والآن، حين تبدأ واجباتي مثل رجلٍ أحتاج إليك أكثرَ مما في أيِّ زمنٍ كان. أجل، لقد قُمتَ بواجباتك، فوجَّهني حتى أسيرَ على غراركَ، واسترح؛ فقد حلَّ الوقت.»

الفهرس

٦	مقدمة المترجم.....
١٠	مقدمة المؤلف.....
١٣	الجزء الأول.....
٥٧	الجزء الثاني.....
١٥٨	الجزء الثالث.....
٢١٠	الجزء الرابع.....
٣٧٤	الجزء الخامس.....